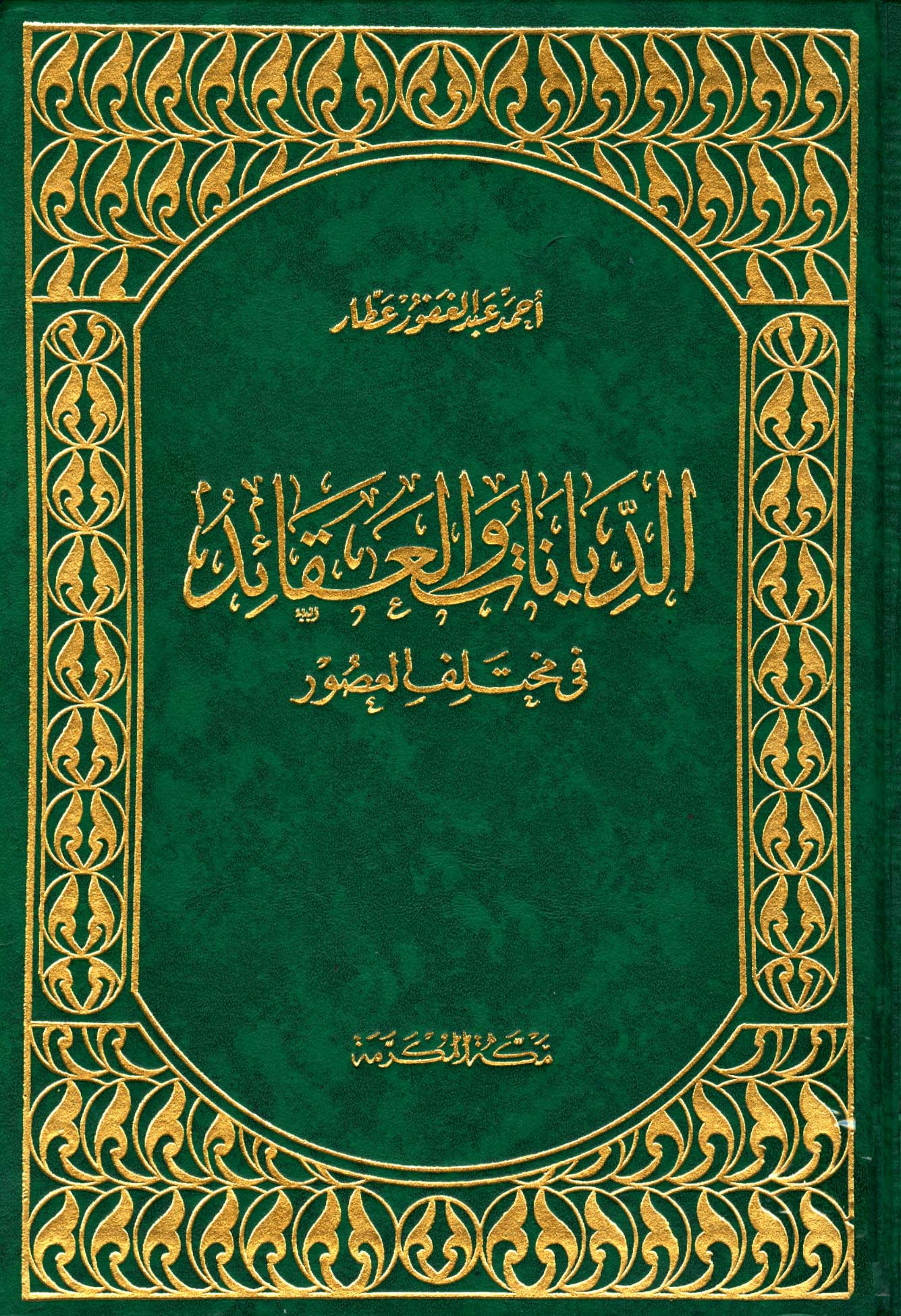

أحمد عبد الغفور عطار
الديانات والعقائد
في مختلف العصور
مكة المكرمة

أحمد عبد الغفور عطّار

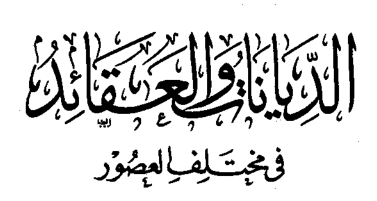




الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

مكة المكرمة


الديانات والعقائد
في مختلف العصور



المقدّمات
والدّيانات الوثنيّة



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد وإهداء

الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض يلتقي في شخصيته أكرم خلائق الإنسان الفاضل، وخير صفات المسلم الصالح، وأفضل محامد المؤمن الحق، ومن هذه الصفات والخلائق والمحامد: العدل.

فهو يحكم الرياض تتبعها مدن وقرى كثيرة منذ سبع وعشرين سنة، ولم يؤخذ عليه أي خطأ خلال هذا الزمن الطويل، مع أن آلاف القضايا تمر به.

وفي الحديث الشريف: «ساعة عدل خير من ألف شهر عبادة» وهنيئا للحاكم العادل الذي لا يضطرب في يده ميزان العدل.

ويجتمع في شخصية الأمير سلمان: العدل، والشجاعة، والكرم، والعلم، والخلق الفاضل، وبعد النظر، وحسن الإدراك، والفصاحة، والقدرة على الارتجال.

وليس بغريب على الأمير العظيم سلمان أن يكون النموذج الرائع للحاكم العادل الصالح، فقد اجتمع على تربيته وإعداده للحياة خير ملوك الأرض: أبوه الملك عبد العزيز وأخواه الملك الطيب سعود والملك الشهيد فيصل رحمهم الله، ثم أخوه الملك خالد وأخوه الأمير فهد نائب الملك وولي العهد وناهيك بمن يكون خريج هؤلاء الأعلام.

وأنا أعرف الأمير سلمان بن عبد العزيز منذ زمن بعيد، واجتمعت به كثيراً، وذات مرة منذ ثلاثين سنة دار الحديث عن الديانات والعقائد في مختلف العصور، وأوجزت الحديث فيها فقال سموه: أرجو أن تؤلف لنا كتاباً في الديانات، فأجبته: وأنا أرجو ذلك إن شاء الله.

وشغلتني الحياة والعمل بالصحافة، فقد كنت صاحب جريدة «عكاظ» ورئيس تحريرها، حتى إذا انتقلت ملكية الصحف في بلادنا من الأفراد إلى مؤسسات حمدت الله، وعدت إلى الاشتغال بالعلم والبحث، وتذكرت اقتراح الأمير سلمان بن عبد العزيز، فتفرغت لتحقيقه حتى انتهيت من تأليف الكتاب وبقي حبيس مكتبتي، وأنا أمني النفس بالعودة إليه، فقد وقفني الاطلاع على علم كثير في هذه الديانات التي بحثتها، وجدَّ لدي علم كثير وقررت أن أضيف إلى ما كتبت ما جدَّ لدي، ولكن اشتغالي، بتأليف كتب جديدة، وبتحقيق بعض كتب التراث صرفني عن العودة إلى كتاب «الديانات».

وبينما كنت أهيء نفسي للعودة إليه أصبت «بجلطة» حادة في المخ، وشفاني الله منها، وإن بقي من الداء بعض آثاره، ونجم عنه بعض العلل والأوجاع، وفقدت البصر، وما زلت تحت العلاج وفي «دور» النَّقَهِ حتى الآن.

وتعذرت علي العودة إلى الكتاب لأكمل ما فيه من نقص وأضيف إليه ما جدَّ، وخفت أن يضيع كما ضاعت مؤلفات لي، فدفعت به إلى المطبعة حفظاً لجهد علمي بذلته وقد يجد فيه القارىء ما ينفع.

لقد ضاعت من مؤلفاتي مؤلفات جليلة منها:

أولاً ـ بحوث في اللغة
ثانياً ـ الجوهري مبتكر منهج الصحاح
ثالثاً ـ الأزهري وتهذيب اللغة
رابعاً ـ (نسيت اسمه).
خامساً ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية، وهو مطبوع طبعتين الأولى في مصر، والثانية في بيروت، وحققت طبعة مصر تحقيقاً آية في الدقة والتمام، وصححتها، وأضفت إليها.

وأسلمت كل هذه المؤلفات إلى أحد الناشرين ببيروت، ودفعت له ضعف نفقات الطبع، ولكنها فقدت، وما أحتفظُ بصور مما أضاعه، ويعلم الله أن حزني كان ـ وما يزال ـ شديداً وأليماً، ولو فقدت ـ لا قدّر الله ـ ملايين الريالات لما حزنتُ ذلك الحزن.

وضاعت مني مؤلفات أخر، ولئلا يتبعها في الضياع كتاب «الديانات» بادرت بطبعه كما هو، وتدويناً للحق أقول: إن الفضل في تأليفي إياه يعود إلى الله جلَّ جلاله ثم إلى اقتراح الأمير سلمان ابن عبد العزيز، وجدير بأن أهدي إليه هذا الكتاب لأنه صاحب الفضل في تأليفه وظهوره.

وما أكثر أيادي الأمير المثقف العظيم على العلم والأدب والثقافة، فقد طُبِعَتْ على نفقته كتب كثيرة، وبره بأهل العلم في الداخل والخارج موصول لا ينقطع.

فجزى الله الأمير سلمان بن عبد العزيز خيراً، ومد في عمره ونفع به، وجعله ذخراً، وزاده مجداً وفخراً.

أحمد عبد الغفور عطار

مكة المكرمة

الأحد: ٦ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ

٢٣مارس(آذار) ١٩٨٠م

التوحيد قبل الشرك

إما أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وإلا فإن أي شك في أحد هذه الأركان ينفي الايمان كله، لأنه قوام هذه الأركان جميعها، فإما إيمان شامل وإما لا إيمان.

فإن كنا مؤمنين حقاً فإن واقع هذا الإيمان يحتم علينا أن نقول: إن الوحدانية كانت أصل العقيدة، فهبوط آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض كان منشأ الإنسانية، وآدم مؤمن حق الإيمان، بل نبي كريم.

ثم يمكن أن يقال: إن الإيمان بوحدانية الله مر بأطوار مختلفة حتى تأخرت البشرية فتأخر معها الإيمان فأشرك الناس بالله، وبعضهم نسي وجوده، وبعضهم جهله، ثم تساوت البشرية في الجهالة.

وإذا كان الباحثون في الأديان والأساطير والخرافات انتهوا إلى أن نشأة العقيدة وهْمٌ أو أسطورة أو خرافة فإننا نوافقهم على ما

ذهبوا إليه، ولكننا نخالفهم في أن الأصل في نشأة العقيدة وهْمٌ أو أن الأسطورة أصل الدين، لأن الحس الديني موجود في الإنسان، ووجدانه يحمله عليه حملاً، ففي الشعوب البدائية نجد أديانا وإن كان للوهم والأساطير مكان بارز فيها، ولكن الأصل هو التوحيد، فالكتب السماوية ومنها القرآن الكريم تتحدث أن آدم هبط إلى الأرض وقد تاب الله عليه وعلى زوجه، والتوبة لا تقبل إلا من مؤمن موحد.

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ [1]

(١) البقرة ٣٥ ـ ٣٧.

و « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) [١] » .

(١) ١١٦ - ١٢٣.

وفي كتاب العهد القديم بسفر التكوين في الاصحاح الثالث:

«[٩] فنادى الرب الإلّه آدم وقال له أين أنت [١٠] فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت [١١] فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها [١٢] فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت [١٣] فقال الرب الإلّه للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية أغرتني فأكلت [١٤] فقال الرب الإلّـه للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك [١٥] وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها وهو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه [١٦] وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حياتك بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك [١٧] وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك [١٨] وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل [١٩] بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود».

فآدم مؤمن ونبي، ولا شك في ذلك، وما دام الانسان مؤمناً فعليه التصديق بما جاء في كتاب الله، وحينئذ لا سبيل لنا إلا

أن نقرر أن آدم عليه السلام هبط إلى الأرض مؤمنا.

فالإيمان بالله وبوحدانيته وقدرته هو أساس العقيدة على وجه الأرض، ولا يعرف متى كان هبوط آدم، لأن التاريخ في ذلك صفحة بيضاء ليس فيها أي سطر يدل على زمنه، فهو قابل أن يكون آلافا وعشرات آلاف وملايين من السنين، فإذا أثبت العلم إثباتاً قاطعاً أن الإنسان كان على وجه الأرض منذ آلاف أو ملايين السنين فما فيه ما ينقض ما ذهبنا إليه.

وإذا أثبت أن هذا الانسان في مبدإ أمره على وجه الأرض كان أشبه بالحيوان ثم أخذ يتطور فما في الأمر نقض لرأينا، إذ يجوز أن البشرية تدهورت حتى عادت إلى الحيوانية ثم أخذت تتطور من جديد.

ويثبت رأينا أن أساس العقيدة هو التوحيد القائم على الايمان الحق أن أناسا يعيشون على الطبيعة في عصرنا وكأنهم من العصور السالفة لا يتميزون على الحيوان الا يسيرا لم يتجردوا من الايمان ـ النابع من الغريزة البشرية، ويبدو في خرافات همجية بدائية تشير الى وجود ايمان هابط المستوى لأنه لم يعرج في مدارج الرقي والتطور.

وهذا الايمان الساذج من رواسب الايمان الحق بعد تباعد العهد بينهما مما يجوز تقديره بآلاف السنين، ثم دعت الضرورة

والحاجة إلى الترقي من طور الحيوانية الهمجية إلى أطوار أخرى فتطور معه الايمان الساذج.

وعلى هذا يمكن تفسير نظرية داروين والحلقة المفقودة اذا صحتا علميا ثبوت الحقائق التي لا شك فيها، إذ يجوز أن الفترة التي تحد بين طور الانسان المؤمن المدرك العاقل منذ هبوط آدم وما بعده وهو طور العودة الى الحيوانية هي الفترة التي انقلب فيها الانسان تدريجا الى حيوان انتسل منه على مدى الدهور أوادم أميز من الحيوان ذكاء وقدرة على الحياة، دون أن يكون بينهم وبين الحيوان فوارق كبيرة ما داموا جميعاً يحيون على الغريزة وقبل يقظة العقل الذي يميز ويدرك ويعرف العلل والأسباب في دورها البدائي الساذج.

وما ذكره الباحثون في نشأة العقيدة في الانسان لا ينقض ما جاء في القرآن الكريم، لأن القرآن ذكر الانسانية الأولى المتمثلة في الانسان الأول آدم أبي البشر، ثم ذكر الباحثون الأطوار التي أعقبت آدم عندما انحدر بنوه إلى الحيوانية وفقدوا صفات الانسان حيث عاشوا كالحيوان آخذين في التطور البطيء الذي تطيقه قدرة حيوان فيه بقايا من الغريزة الانسانية أشبه بالطلل الدارس عفا رسمه.

ولا غرابة في نكسة العقيدة، فنحن نشهد موحدين يشركون، والاشراك من أطوار العقيدة في خطواتها الأولى، ويعودون إلى الوراء مئات السنين وآلافها عندما كان الشرك شائعا

بين الناس قبل تطورهم العقائدي ورقيهم الفكري، فمن المسلمين من يعبدون الشجر أو يعتقدون فيها القدرة الالهية، وقد كانوا إلى عهد قريب: عهد الامام محمد بن عبد الوهاب.

ومع أن البشرية تقدمت في العلم وانكشفت أمامها ضلالات وأوهام تتصل بالعقيدة فان فيها شعوبا وقبائل ما تزال مشركة ومنحطة في عباداتها، تعبد البقر ولا تشمئز من قذره بل تقدسه لأنه جزء من إلهم المقدس في وهمهم السقيم، وهناك من يعبد ما يدل على الخصب والعطاء، بل ما يزال على الأرض أناس يعيشون في طور البشرية الأول.

ونخلص من كل ما سلف إلى أن أساس العقيدة والانسانية هو التوحيد، لأن التعدد في الآلهة منشؤه ايمان بوجود إله مقدس سواء أكان وثنا أم صنما أم أي معبود من هذه المعبودات الباطلة، ثم وجود آلهة أخرى.

ومع التعدد نجد كبير الآلهة أو الأرباب يصفونه بقدرة تفوق قدرات ما دونه في مقام الألوهية والربوبية .

كان إله واحد ثم تعددت الآلهة التي لها شيخ أو كبير، ينتهون إليه مع أربابهم.

فالأصل الوحدانية، ثم مع وجود الإشراك كانوا يجعلون إلهاً واحداً هو مرد الناس والآلهة.

بل وصل الكفرة والمشركون إلى الوحدانية فنادوا بإله واحد

فرد صمد لا شريك له تخيلوه في شيء من الأشياء ثم عبدوه حتى جعلوه الآله الواحد الأحد الفرد الصمد، ولكنه لم يكن الآله الحق، لم يكن هو الله عز وجل.

وأيا ما كان الأمر فالتوحيد أصل العقيدة التي وجدت على الأرض.

نقول هذا لأننا نؤمن بوجود الله عقلاً ونقلاً ومنطقًا وفلسفةً وعلمًا وتجربة ومشاهدة، وما دمنا نؤمن بوجوده إيمانا مطلقا فان من طبيعة هذا الايمان وضروراته أن نؤمن بما جاء في الكتب السماوية وما جاء عن الرسل.

وما دمنا مؤمنين حقا بوجود الله، ومصدقين بما جاءنا عنه فان مما لا شك فيه عندنا أن التوحيد كان هو الأصل ثم وجد الإشراك، وما دمنا مؤمنين ومصدقين فاننا نرى أن من يزعمون سبق الشرك للتوحيد غير موفقين وصادقين، وإن كان منهم من زعم أن الشرك كان بدء العقيدة الدينية ثم كان التوحيد، لأن التعدد انتهى إليه عندما أدرك الناس أن التوحيد غاية الشرك.

ولكننا نخالفهم، فكما أن «الواحد» أسبق من الإثنين والثلاثة فالأربعة إلى ما لا حد له فكذلك التوحيد أسبق لما ذكرنا من البراهين.

العقيدة والأساطير

لما تأخرت البشرية عقائدياً وانتقلت من عهد التوحيد إلى الشرك على مر السنين، وبعد أن اتسعت الهوة اتساعاً يقدر بآلاف السنين التي أنست الإنسان التوحيد عاد من جديد بالتدريج إلى العقيدة .

واختلف الباحثون اختلافاً كبيراً، فمنهم من زعم أن أصل العقيدة الأسطورة ومنهم من زعم النقيض، كما اختلفوا في العودة إلى العقيدة بعد أن مرت في أطوار تاريخية، ولكن الشيء الذي نراه أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن طور الهمجية البشرية لم يخل من عقيدة يجوز أن تكون أساسها الأسطورة، وما نشك أن العقيدة في هذا الطور لم تكن خالية منها، لأن العقيدة قد تقوم على الأسطورة، ولكن لا ضرورة لأن تكون كل أسطورة مشتملة على عقيدة .

وعندما واجه محمد عليه الصلاة والسلام مشركي مكة قالوا له : «أساطير الأولين» كأنهم فهموا أن العقيدة التي جاء بها إن هي

إلاّ أساطير ازدراء منهم لها، وظنوا أنه أساطير ملفقة لأنهم وجدوا في دعوته توحيداً وإيماناً ظنوهما من نمط الأساطير التي سمعوها.

ومن العلماء من ذهبوا إلى أن الأساطير بقايا أديان انحرفت عن أصولها ودخلتها خرافات، وهذا ما نميل إليه لأنه يتفق مع رأينا في أن أصل العقيدة التوحيد، وابتعاد العهد عنه وانحدار البشرية وعزلة الآدميين خرجت بالتوحيد عن سبيله السوي إلى الجهل والانحطاط ثم إلى التطور الساذج الذي تدرج بالإنسان إلى العودة من جديد إلى العقيدة.

ومن هنا كانت العلاقة وثيقة بين الدين والأسطورة في الماضي البعيد والأمس القريب وفي الحاضر المشهود، ومع أن أصول الأديان الثلاث صحيحة منزهة عن الوهم والخرافة والأسطورة إلا أن أساطير وخرافات دخلتها جميعاً دون استثناء، فاختلط الصحيح بالزائف حتى رجح الزيف.

ولكن هذا لا يقتضينا أن نجعلهما شيئاً واحداً، لأن الصحة والمرض لا يكونان شيئاً واحداً مهما غلب أحدهما الآخر.

ومنشأ الأسطورة لا يتفق مع نشأة الدين، لأن أساس الأسطورة من ناحية النشأة تحمّلُ الألفاظ من المعاني الجديدة ما لا تحتمل في حقيقتها، فكما أن الطفل يتوهم الحياة في الجماد والاحساس فيضرُّ به إن ـ هو ـ اصطدم وأصيب انتقاماً منه وعقوبة له فإن الآدمي الهمجي الذي يعيش في طفولة البشرية يتوهم القدرة في كثير من مظاهر الطبيعة والموجودات، فإذا ارتقى

في سلم الحضارة درجات تخيل في الألفاظ معاني غير موجودة بها، كما أن عجز العقل البشري في ذلك الطور من الحياة عن فهم معاني الألفاظ على حقيقتها وإساءة استعمال الكلمات مما يساعد على نشأة الأسطورة حتى تستحيل حقيقة يجسِّمها الوهم ويثبتها التخيل.

ويساعد على ثبوت الأسطورة واستحالتها إلى عقيدة أن الإنسان مزود بالبصيرة أو غريزة التدين، فهي تستقبل ما يتصل بالعقيدة ـ سواء أكان حقاً أم باطلاً ـ بالترحاب لأنه يصادف منها هوى محبوباً ومقبولاً يوجد الطمأنينة في نفسه.

وهذه الغريزة هي «الباعث» لالتماس ما يملأ فراغ النفس رغبة في تزويدها بالأمن والطمأنينة والثقة، وليس هذا بوقف على الإنسان البدائي بل يتفق معه فيه الإنسان المتحضر المتدين أيضاً، لأن النفس الإنسانية تسعى إليه سعياً، وإن كان صاحبها ملحداً كفوراً عن يقين واهم بأن كفره صواب كالدهريين والشيوعيين الذين يتحولون عن العقيدة الدينية إلى عقائد أخرى تحل محلها رغبة في الأمن النفسي، لأن خلو النفس من الإيمان الصحيح أو الخاطىء الباطل لا يتفق مع غريزة الإنسان أو بصيرته التي زوده بها الخالق.

واختلاف المؤمنين في عقائدهم دليل على أن الحياة بدون عقيدة ـ أياً كان نوعها ـ أدنى مرتبة من الحيوانية لأن الحيوان «يعقل» بغريزته و «يتدين» تديناً لم نكتشفه بعقولنا حتى اليوم.

يقول الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ والتسبيح يقتضي إدراكاً وفهمًا، والآية تشير إلى عموم الخلق الذي منه الحيوان، فهو يسبح، إذن هو يعقل ويدرك، بل أثبت العلامة الهندي «بوز» أن الجماد يحس، وهذا مصداق قول الله الذي ذكر أن كل شيء يسبح بحمده، ولا تسبيح بدون حس وإدراك.

فبصيرة الآدمي تدفعه دفعاً إلى التماس ملء الفراغ النفسي بأي عقيدة حتى يشعر بالأمن والطمأنينة والثقة.

ففي افريقيا قوم ما يزالون على التأخر التام في حياتهم، وأشبه بالحيوان، ويأكلون لحوم البشر، ويعيشون في مجتمعات حيوانية صرف، ومع هذا ألهمتهم البصيرة الإيمان بالغيب ناجماً عن الأحلام، إذ يرى المرء في منامه قوى تغدق عليه الخير أو قوى تصارعه بالشر، فتتكون في نفسه «عقيدة» مردها إلى وجود هذه القوى التي يخفيها صحوه وتثبتها حافظته ولا ينساها، فيتقرب إلى قوى الخير بما يسرها، وإلى قوى الشر بما يقف عنه عدوانها.

فالأحلام من أسس الإيمان بالغيب عند الإنسان البدائي أو لعله أساسه، وما زالت كذلك عند الإنسان المتحضر أيضاً، لأنه جزء من التنبؤ نشأ مع الإنسان وما زال.

ولما ارتقى الإنسان عقلياً وشعورياً كان مؤمنون حقاً عرفوا الله حق المعرفة، واتخذ الكفرة الملحدون سبيل الجحود مقنعين أنفسهم بأوهام حسبوها براهين تنفي وجود الإله، مع أنهم لم يستطيعوا بهذا النفي التجرد من العقيدة لأنهم استبدلوا بها عقائد

مادية شغلت فراغ نفوسهم وحلت محل العقيدة الدينية، ولكنها لا تعدو في نظرنا الأساطير، لأن من آمنوا بها على أساس أنها حقائق ليسوا بأفضل من أولئك البدائيين السذّج.

هؤلاء آمنوا إيماناً خرافياً لا يتفق مع حقيقة الإيمان الصحيح، وأولئك الملحدون الماديون آمنوا بالمادة وقالوا: «لا إله غير المادة».

الإله موجود لدى البدائيين صوروه بما لديهم من قوة البصيرة التي تجللها الغشاوة، والماديون تصوروه هذه المادة التي يسيطرون عليها وهم خاضعون لها، وفي كلا الأمرين وثنية، ولكن لأولئك عذراً هو الجهل المطبق، ولا عذر للماديين إلا المادية التي استعبدتهم وجعلتهم عبيداً لها.

وبين هؤلاء يبرز الموحدون حقاً، لأنهم نفوا عن الله الشريك وأفردوه بالعبادة وآمنوا بالتوحيد إيماناً صحيحاً، وأبعدوا عن العقيدة الخرافة والوهم والأسطورة لأن العقيدة الصحيحة لا تتفق مع الضلالات والأباطيل.

وعقيدة الإسلام هي العقيدة الصحيحة لأنها عقيدة التوحيد والتنزيه، ولأنها العقيدة السليمة القويمة حيث يلتقي في رحابها المقدسة رسل الله جميعاً وفيهم رسل اليهودية والمسيحية وأنبياؤهم مع رسول الله لأنهم إخوته، ولا يصح إسلام مسلم إذا لم يكن مؤمناً بعصمتهم ورسالتهم ونبوتهم إيماناً حقاً.

وكل عقيدة غير الإسلام تكفر بغيرها، واليهود والنصارى لا يؤمن بعضهم برسالة بعض، ولا يؤمنون برسالة محمد في حين أن من الإيمان برسالته من قبل أتباعه الإيمان برسالة موسى وعيسى عليهما صلوات الله وسلامه.

وهذا يبرهن على أن الإسلام دين حق إنساني جاء للإنسانية ولم يجيء من أجل قبيلة أو شعب، وعقيدته: الفطرة السليمة التي هي الإنسانية في أرقى نماذجها ومراتبها فهي العقيدة الصالحة السليمة المثلى.

السحر والعقيدة

يذهب بعض الباحثين في نشأة العقيدة الإلهية إلى أن السحر كان أساس هذه النشأة، وهذا يحتم أن السحر سابق للعقيدة الدينية، ونحن لا نرى هذا الرأي، لأن السحر عمل خارق سواء أكان حقاً أم وهماً. ولكن على أي حال لا يخرج عن أنه خارقة من الخوارق، والخارقة تقتضي علماً وفهماً وعقيدة، فهو - إذن - ليس أسبق من العقيدة.

وكيف يؤثر في قوم لا يؤمنون بعقيدة؟ وكيف يسيغونه ويفهمونه؟.

ومن الذين كانوا يقومون بالسحر؟ أهم عامة الناس؟ أهم خاصتهم؟.

كلا، إن الذين كانوا يقومون به فوق الخاصة لأنهم صفوتها، وهم رجال الدين والكهنة، هؤلاء هم السحرة في مبدأ أمر السحر.

ولا شك أنهم لم يتخذوا السحر إلا بعد العقيدة، فهي أسبق منه قطعاً، ومن هنا لا يمكن أن يكون أساسها.

والسحر - بعد - لا يتفق مع العقيدة في العمل، فالعقيدة يراد منها إيجاد الأمن في النفس وبث الطمأنينة في أرجائها عن طريق الخير، فهي عمل للخير المحض، والعقيدة أساس الفرائض والعبادات، وهذه سبيل الخير وأمل في رضا المعبود وفضله، وطمع في مثوبته ورجاء المغفرة منه.

وليس وظيفة السحر مثل وظيفة العقيدة، والعقيدة لا تتخذ وسيلة لأذى أحد، بل هي سبيل الخير، أما السحر فما كان إلا للأذى، والعقيدة لا ترضى بالأذى والخبث، والسحر نقيضها، لأنه يقوم على الخبث والمنكر، ويتخذ من الوسائل ما يتفق مع خبث السحر.

والذين اشتغلوا بالسحر من الكهان وقفوه لدفع الشر أو أذى الخصم، والوثنيون الذين اتخذوا أرباباً من دون الله وقفوا العبادة على الأرباب الخيرة التي تقدم لهم الخير، وجعلوا السحر لأرباب الشر.

«وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذي بعضها بعضاً[1]» ولم تفضل البشر الذين استخدموه فيما استخدمته تلك الآلهة.

---

(١) «قصة الحضارة» تأليف ول ديورانت ٢: ١٦٦.

وتطور السحر ولكن لم يبعد عن طبيعته وهي الإيذاء، وإن كان استخدم فيما يبدو فيه الخير، بالنسبة إلى ظروف وأفراد.

* *

وكان السحر شائعاً في الأمم المتأخرة، وهو لا يروج إلا حيث يعم الجهل، بل نشهد في عصر التقدم أناساً يتعلقون به ويؤمنون بمفعوله ويقرِّبون مَن يزاولونه، ولكن ليس معنى هذا أن التقدم العقلي يقضي على السحر قضاء تاماً، إلا أن ما نراه من السحر بين الأمم المتقدمة إنما هو من رواسب التعلق بالخرافات.

ولكن أساس السحر هو الإيذاء وإلحاق الضرر بالآخرين، ففي مصر - مثلاً - كان السحر معروفاً ومعترفاً به من الحاكم الأعلى في عصر يعد عصراً حضارياً متقدماً، والقرآن الكريم أشار إلى السحر والسحرة في مصر في سورة الأعراف: **وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾**

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا
هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْۖ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ
أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ
فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو
بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ
عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

وورد السحر وأُشير اليه في القرآن الكريم في أكثر من خمسين موضعاً، وجاء في الحديث الشريف وأشير إليه كثيراً، وكل ذلك يقطع بأن السحر مقصود منه الأذى، ولهذا حرّمه الإسلام تحريماً، وحكم بكفر الساحر وقضى بقتله.

وتذكر النصوص المصرية القديمة أن الناس كانوا يلجأون إلى الساحر ليضر الآخرين، وكان الساحر يعذب من يطلب إليه إيذاؤه، وورد في النصوص المصرية القديمة أن سحرة أرادوا إيذاء الملك رمسيس فصنعوا له تماثيل على هيئته من الشمع ليؤذوه بأن

يطعنوا التماثيل ويخزوها بالابر إلى غير ذلك من أنواع الأذى فاكتشف أمرهم وقبض عليهم[1].

وفي القرآن الكريم: « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ »[2].

فالسحر إضرار لا نفع فيه، وأذى ليس وراءه خير.

فالعبادة والسحر نقيضان، لأن العبادة قائمة على الخير والعمل الصالح، والسحر أساسه الشر والأذى، واشتغال رجال

---

(١) راجع ورقة هاريس البردية وورقة تورين البردية القضائية (آثار حضارة الفراعنة) تأليف محرم كمال ص ١٤ و١٥.

(٢) البقرة آية ١٠٢.

الدين من كهنة وغيرهم - وفي وقتنا الحاضر نشهد من يشتغلون به يتظاهرون بالدين وهم به كافرون - جعل الناس يعتقدون أنه من العبادات ذوات الأسرار التي يختص بها أناس مخصوصون وهبوا القدرة على السحر والخوارق.

ومن هنا كان السحر من الطفيليات التي دخلت في الدين وهو منها براء، ولأن رجالاً ينتسبون إلى الدين اتخذوا السحر من أعمالهم فظن الناس أنه من الدين.

والشيء الذي نود أن نشير إليه هو أن السحر ليس منشأ العقيدة الدينية بحال من الأحوال، لأنه جاء متأخراً عن العقيدة، ولا أستبعد أن بعض الخوارق التي تتم على أيدي بعض الناس حملتهم على الاعتقاد بوجود قوة غير منظورة لدى من تمت الخارقة على يده، ثم تطور الأمر إلى الإيمان بالسحر.

ومما يثبت رأينا في اختلاف العقيدة الدينية عن السحر في أن العقيدة للخير والسحر للشر أن الناس عندما أدركوا أن هناك شراً لا بد من دفعه اتخذوا وسائل للنجاة منه، فاتخذوا آلهة شر بجانب آلهة الخير، هؤلاء يجلبون له الخير، وأولئك مؤذون فهم مضطرون إلى استرضائهم حتى يكفوا عنهم أذاهم، فأشركوا في العبادة آلهة الشر مع آلهة الخير.

وأنا رأيت أحجية بها صور حيوانات مختلفة، رأيتها في مكة

المكرمة ـ حرسها الله ـ قليلاً، وفي مصر وغيرها كثيراً، وعند بعض زنوج أمريكا الهمج سحر من هذا القبيل، فهم يصورون النمر ويخافونه في الصورة، أما النمر الحقيقي فلا يهابونه، بل يقاتلونه، ويقتلونه ويأكلون لحمه.

ومنذ قرنين كان قسيس يدعى دوليريز هفر (كما يذكر الدكتور ريد في كتابه الفن والمجتمع) ورأى هؤلاء الزنوج، وسألهم عن سبب خوفهم من الصورة وأمنهم من النمر الحقيقي، فأجابوه: أنهم يرون النمر فلا يخشونه ويقتلونه، أما نمر الصورة فيخيفهم لأنه لا يظهر لهم، ولو ظهر لما أخافهم، فهو مختف يجوز أن يغدر بهم.

وفي هذه المعتقدات السحرية تختفي الأسباب، فلا منطق ولا عقل، ولا يمكن ربط الأشياء ربطاً عقلياً منطقياً.

وإذا كان الدين عاماً والسحر خاصاً ويأتي بمعنى من معاني العموم أن يكون الدين اجتماعياً فإن وجود قبائل بأسرها تتعلق بالسحر وتستخدمه اعتماداً على الطقوس السحرية في جلب المنافع كإخصاب الأرض يعطي السحر صفة الاجتماع، كما ينفي عنه التعلق بأذيال الشيطان والأرواح الشريرة المؤذية لأنه يستخدم في الخير العام، فخصب الأرض لا يقف نفعه على الساحر وحده بل النفع عام.

ولكن ليس في هذا الاحتجاج رفع السحر إلى الدين، لأن

خصْب الأرض دفع لشر الجدب وأذاه، ثم إن اشتراك كل أفراد القبيلة في طقس سحري، دون أن يستطيع كل فرد في القبيلة أن يعمل ما عمله الساحر، ولهذا امتاز عليهم بتفرده وتفرد بامتيازه.

ويجوز أن تتفق نتائج الدين والسحر وتتحد وظيفتهما في أمر من أمور الحياة إلا أن الدين يبقى قائمًا على أسس الروحية والأصول العقائدية، ويجلب المنفعة عن طريق الإيجاب والسلب، فهو يعطي الخير الذي يقوم عليه كما يعطي الخير بسلب الشر الذي حل محله قوته لتعود الحال كما كانت، أما السحر فسلبي، لأنه يبعد الشر الذي حل محل الخير ليعود الخير إلى مكانه دون أن يعطي الخير، إذ لا قدرة للسحر على عطاء الخير.

فالإنسان الذي أوذي بالمرض، والأرض التي أصابها الشر فأجدبت مثلان للسحر وللدين، فالمرض طارىء وهو شر محل الصحة التي هي خير، والجدب شر حل محل الخصب الذي هو خير، فالخير هنا هو الأصل، والشر هو الطارىء، فجاء السحر ليطرد الشر الذي غطى الخير أو أبعده ليظهر أو يعود، أما الدين فخير محض ولا خير في السحر، فإذا توهم البدائي أنه خير فمرد ذلك إلى جهله، لأن السحر يجد السلطة حيث يكون الجهل، وينقشع بانقشاعه، ولا يقوم السحر على الروحية ولا الأصول العقائدية ولا الرجاء بل من قواعده الخوف.

وتصوُّرُ البدائيين الشر واتخاذهم له آلهة يسترضونها مبدأ نشأة السحر ودخوله في العبادات بوساطة من كان بيدهم أمر

العبادة والعقيدة والسحر والقدرة على جلب المغانم ودفع المغارم، والخرافة أم السحر، لأن ذلك التصور الواهم خرافة ولا شك.

ومع أن العلم تقدم تقدماً كثيراً فإن إيمان الناس بالخرافة والسحر ما يزال باقياً، ويستوي في هذا المتحضرون والهمج مع فارق بين التحضر والهمجية.

وللسحر أنواع ومظاهر، فإذا أريد من الأذى صنع الساحر تمثالاً لمن يراد إيذاؤه وإيقاعه في الضر وصب عليه سوط عذابه كما نشهد حتى الآن في قرى مصر وفي بلدانها أيضاً، وإذا أريد إبعاد الأذى عن إنسان كالحامل تتعسر ولادتها فإن الساحر يمثل دورها رجاء أن تخف آلامها ويخرج المولود من بطن أمه كما تصنع قبيلة «دياك» في جزيرة بورنيو.

وعند الهمج الإفريقيين ومن هم في درجتهم لا يعرفون المرض إلا أنه ناشىء عن قوة سحرية أدخلت شيئاً غريباً في الجسم أو أخرجت شيئاً منه، فيمضون إلى الساحر طلباً للشفاء، وكان العرب يتطببون بالسحر حتى سمي الطب عندهم سحراً كما تذكر معجمات اللغة العربية.

ومن أنواعه ومظاهره أن الأرض لا تنبت في الشتاء وأن بين الرجال والنساء مصابين بالعقم، والجدب والعقم أذى وشر، فلا بد من سحر يدفع الأذى، فكما وجدنا ساحر دياك في بورنيو يمثل دور الحامل طمعاً في تخفيف آلام الطلق وتسهيل خروج الولد نجد في الكنغو وبعض القبائل الافريقية إباحية مطلقة، حيث يجتمع

الرجال والنساء، ويقومون بالاتصال الجنسي على مشهد من الأرض المجدبة في الشتاء وأمام بعضهم بعضاً، ويباح لكل رجل مضاجعة أي امرأة ، ولكل امرأة مضاجعة أي رجل، فتخصب النساء ويلدن ويأتي الربيع فتخضر الأرض وتنبت، فيعزون زوال شر الجدب والعقم إلى السحر الذي كان من مظاهره تلك الإباحية المطلقة التي انتقلت إلى رحاب العبادة فصارت من ألوانها المختلفة .

واسترضاء قوى الشر وآلهته من قبل الوثنيين البدائيين حملهم على القربان والتضحية وأول الضحايا كان ابن آدم نفسه، فقد كانت القبيلة أو الأسرة تذبح أحد أفرادها تقرباً واسترضاء، يخضبون بدمه الأرض حتى تخصب وتنبت، وعروس النيل من هذا القبيل، ثم استبدلوا بالإنسان الحيوان، وأحسب أن الذين يأكلون لحوم البشر حتى اليوم من بقايا العبادات الوثنية القديمة .

واستغل رجال الدين السحر في تخويف الناس من كوارث الطبيعة والأمراض والمصائب وزعمهم أنهم بوساطته يبعدون الشر ويسترضون بما يأمرون به آلهة الشر، يأمرونهم بالفسق العلني والاباحة حتى يسهل عليهم المتاع الجسدي، ويأمرونهم بالذبح حتى يجدوا الطعام الشهي، وهكذا استخدموا الناس لمصالحهم .

والتمائم والرقى والعزائم والأحجبة من السحر لأن المقصود منها دفع الأذى والشر، ومع تقدم البشرية ما تزال لها سوق

رائجة، بل مع تحريم الإسلام إياها وتهديد من يتخذها فسوقها رائجة بين العامة والخاصة.

وفي الغرب حيث التقدم الحضاري ما يزال الإيمان بسحر التمائم قائمًا مشهوراً، يستجلبون بها الخير والعون ويدفعون بها الضر، بل في الشيوعية المادية من رأى أفراداً يعلقون تمائم يتقون بها الظلم والقهر والبلاء والشرور العامة.

ونجم عن السحر علوم مختلفة كالتنجيم والطب والصيدلة، وما يزال حتى يومنا هذا منجمون وأطباء وصيادلة يتخذون السحر مهنة لهم، وتقبل عليهم العامة إقبالاً عظيمًا؛ ويقصدهم من الخاصة ومن حملة الشهادات العلمية العالية.

والخوف غريزي في الإنسان، وكان من أكبر البواعث النفسية على الإيمان بالسحر وبقدرة السحرة، كما كان من البواعث القوية على إعطاء رجال الدين الضالين الفرصة لاستخدام الدين والسحر معاً لتحقيق أطماعهم الدنيئة والدنيوية باسم العبادة وبحجج دفع الشر وجلب المغانم.

ولم يقم في الأرض دين أو مذهب يحارب الخرافة والبدع والسحر وعلومه مثل الإسلام، بل هو الدين الوحيد الذي واجه السحر بحقائق العقل والإدراك والإيمان الصحيح وحاربه وأبان ضرر الإيمان به وعواقبه الوخيمة وشروره، فقضى الإسلام على الساحر بالموت وقال: «حد الساحر ضربة بالسيف».

وموجز القول: أن السحر لا يعزى إليه منشأ العقيدة لأنه تأخر عنها كثيراً، والعبادة سابقة، فليس أساسها، فالعقيدة إيمان، وما كان الناس ليؤمنوا بالسحر إلّا بعد أن كانت لديهم عقيدة سواءأكانت قائمة على الحق أم على الباطل ولأن العقيدة خير، والسحر شر وضرر وأذى.

وقامت على العقيدة فنون جميلة وآداب، فالموسيقى والنقش والرسم والتصوير والشعر ألقى عليها السحر ظلاله، وكان له فضل في تقدمها أو في إعطائنا ألواناً رائعة منه.

فالقبائل التي كان أفرادها يصورون الحيوان خشية بأسه ورجاء صيده وأكله إنما يتصل عملهم بالفن، لأنهم رسموا بذلك لوحات هي - ولا شك - مبدأ نشوء الفن عند الإنسان، وأقصد به التعبير بإحدى وسائطه، فالانسان البدائي الهمجي كان «ينهنه» في ساعة سروره، ويتأوه في ألمه ومرضه، ويرسل أصواتاً تدل على فرحه عند الانتصار أو المباشرة الجنسية أو الابتهاج وكل هذا يتصل بفن الصوت، وإن كان كل ذلك بدائياً ساذجاً حيوانياً.

فللعقيدة الدينية الفضل الأول في نشأة الفنون ونشأة الآداب والحضارة والمدنية، وليس للسحر هذه المزايا، والفارق الأكبر بين العقيدة والسحر أن العقيدة عامة تنتظم القبيلة أو الشعب أو الأمة، أما السحر فلأفراد برعوا في الخداع والتضليل، فهو خاص، والعقيدة خير، والسحر شر، والعقيدة

إيمان، والسحر كفر، ولهذا حاربت الأديان السحر، وحكمت على السحرة بالقتل، وكل إنسان متدين، وليس بساحر، فالدين عام، والسحر خاص ولو أدى شعائره وطقوسه الجماعة لأنهم يؤدونه حسب أمر الساحر وإرشاده دون أن يدركوا أسراره، أما الدين فهم فيه سواء.

الخوفُ والعقيدة

من الآراء في نشأة العقيدة من يردها إلى الخوف، فالإنسان البدائي الهمجي الذي كان يجهل كوارث الطبيعة وأسبابها ويجهل حقيقة مظاهرها والموجودات التي يقع عليها نظره أو تدركها حواسه كان يشعر بالخوف من كل ذلك لأنها كانت أعظم منه قدرة وأشد سلطاناً.

واقترن بخوفه ضعفه أو كان ضعفه سبب وجود الخوف، لأنه يرى قوى ظاهرة وخفية أقوى منه، ويشعر بضعفه أمامها فيخاف سطوتها.

وكانت مخاوفه لا حد لها ولا حصر، والأخطار المحدقة به لا تعد ولا تحصى وأشد ما كان يواجه الإنسان البدائي «الموت» فيقف بين يدي هذه القوة الخفية ذاهلاً دهشاً، يرى زوجه أو أخاه أو ابنه قوياً شديداً، ثم لا يلبث أن يفقد الروح ويصير جثة هامدة لا حراك بها، فيشعر أن القوة الخفية قد سلبته الحياة.

والحياة عنده ليست معقدة، ومفهومها الحركة الحيوانية،

ويجهل سبب الموت، فهو يعزوه إلى قوى أكبر من قوة الإنسان، فيصاب بالخوف.

وأعداؤه كثيرون يتمثلهم في النهر والريح والشجر والشمس والمطر والجبل والرعد وأنواع الحيوان وفي الناس وفي قوى كثيرة لا يجد لها تفسيراً فتمتلىء نفسه بالخوف فيلجأ إلى قوى خفية، وهو مجبر الى اللجوء يعتصم بها حتى تكون له سنداً وعوناً، تمنحه الخير والنعماء، وتمنع عنه الأذى والضراء، وتحميه من جميع الأعداء.

فالخوف من موجبات وجود العقيدة وكذلك ضعف الإنسان أمام هذه القوى الظاهرة التي يراها والخفية التي يشهد آثارها، ورجاء الخير من القوى النافعة، والجهل بأسباب الحوادث التي لا يعرف لها تفسيراً لأن عقله البدائي الساذج ما يزال على ختم الله عاجزاً عن إدراك علل الحوادث.

ولكن الأستاذ عباس محمود العقاد يرى رأياً غير ما يراه أولئك العلماء فيقول[1]:

«والأكثرون من ناقدي الأديان يعللون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعة والأحياء، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعاً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات في شدته وبلواه.

---

(١) كتاب العقاد عن «الله» ص ١٠-١٢.

«على أن القول بضعف الإنسان تحصيل حاصل إن أريد به بطلان العقيدة الدينية وإثبات التعطيل، لأن الإنسان ضعيف على كلا الفرضين فليس من شأن ضعفه أن يرجح أحد الفرضين على الآخر.

«فإذا ثبت أنه من خلق إلّه فعال قدير فهو ضعيف بالنسبة إلى خالقه، وإذا لم يثبت ذلك فهو ضعيف بالنسبة إلى الكون ومظاهره وقواه، فماذا لو كان قوياً مستغنياً عن قوى العالم؟ أيكون ذلك أدعى إلى إثبات العقيدة الدينية والإيمان بالله؟.

«إننا إذا حكمنا ببطلان العقيدة الدينية لضعف الإنسان فقد حكمنا ببطلانها على كل حال، ثبت وجود الله أو لم يثبت بالحس والبرهان! لأنه لن يكون إلا ضعيفاًبالنسبة إلى الخالق الذي يبدعه ويرعاه.

«لكن الواقع أن الضعف لا يعلل العقيدة الدينية كل التعليل، لأنها تصدر من غير الضعفاء بين الناس، وليس أوفر الناس نصيباً من الحاسة الدينية أوفرهم نصيباً من الضعف الإنساني سواء أردنا به ضعف الرأي أم ضعف العزيمة، فقد كان الأنبياء والدعاة الى الأديان أقوياء من ذوي البأس والخلق المتين والهمة العالية والرأي السديد، ومهما يكن من الصلة بين ضعف الإنسان واعتقاده فهو لا يزداد اعتقاداً كلما ازداد ضعفاً ، ولا يضعف إلا على حسب نصيبه من الاعتقاد، وما زال ضعفاء

النفوس ضعفاء العقيدة، وذوو الصفوة في الخلق ذوي قوة في العقيدة كذاك.

«فليس معدن الإيمان من معدن الضعف في الإنسان، وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهي الهزيل، ولا إمام الناس في الاعتقاد إمامهم في الوهن والهزال.

«وربما كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق أن العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون وعظمة أسراره وخفاياه لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه.

«فمبلغ الإحساس بالعظمة هو مبلغ الإحساس بالعقيدة الدينية ، وصغر الكون في نظر الإنسان نقص في الشعور بظاهره وخافيه، ونقص من أجل ذلك في طبيعة الاعتقاد وطبيعة الإيمان.

«ومن هنا تكون الحاسة الدينية مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذي يحيط بالإنسان، سرمدياً بعيد الأغوار عميق القرار.

«فليس الكيان الصحيح هو الذي يمر بهذا الوجود السرمدي كأنه لا يراه ولا يهتز له ولا يستجاش من أعماقه إذا سبر غوره فقصر عن مداه.

«وإنما الكيان الصحيح هو الذي يجيش بتلك الحاسة القوية فيستهول الكون ويستقبله بالحيرة والتقديس، لأنه في الواقع هائل محير جامع لمعاني القداسة من حيث نجمت في لغة اللسان أو لغة الضمير.

«وعلى هذا تكون العقيدة من مصدر الصحة لأنها تجاوب الوجود المحيط بالنفس الإنسانية، ولا تكون من مصدر النقص والغفلة عن حقائق الأمور.

وإذا رجح القول بأن العقيدة «ظاهرة اجتماعية» يتلقاها الفرد من الجماعة فليس الضعف إذن بالعامل الملح في تكوين الاعتقاد، لأن الجماعة تحارب الجماعة بالسلاح المصنوع وقوة الجنان مع القوة العددية، وتقيس النصر والهزيمة بهذا المقياس المعلوم، فلا تلجأ إلى مقياس العقيدة المجهول إلا إذا آمنت به لباعث غير باعث التسلح والاستقواء».

والأستاذ العقاد يعارض ولكن لا يقف على الطرف الآخر، فهو لا ينزه العقيدة كل التنزيه من أن بين عوامل نشأتها الضعف لأنه يقول: «ليس الضعف إذن بالعامل الملح في تكوين الاعتقاد» ولكنه من العوامل على أي حال.

وإذا كان «الضعف لا يعلل العقيدة الدينية كل التعليل، لأنها تصدر من غير الضعفاء بين الناس» فإنه لا ينفي أنه من علل العقيدة الدينية سواء أكانت في بدء نشأتها أم في آخر مرحلة من مراحل تطورها، فالضعف يقف الإنسان تجاه القوى الغيبية موقف المستسلم الذي يبعث على الاعتقاد.

وصدر العقيدة الدينية من غير الضعفاء بين الناس لا ينفي أن الضعف من أسباب العقيدة، فالإسلام الذي يعد آخر مرحلة

لتطور العقيدة الدينية وبلوغها الكمال لا ينكر أن للضعف دخلاً في الإيمان الذي هو أدق في التسليم من العقيدة.

ومن المشاهد أن الطفل كلما زاد خوفه وضعفه ازداد لصوقاً بأبيه وأمه، وكذلك الإنسان في كل أطواره منذ كان حيواناً سارحاً كالحيوان حتى ارتقى الى مرتبة العلم والحضارة والعرفان، كلما شعر بالضعف في موقف من المواقف ازداد اعتصامه بمن يعتقده.

والأستاذ العقاد مثلنا في الإيمان بمحمد عليه صلوات الله وسلامه، ويعتقد أنه أقوى الناس في القوة البدنية وأقواهم في العقيدة وأبعد الناس طراً عن الضعف والخوف، وقد قال في دعائه عندما آذاه ثقيف بالطائف:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري! إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك».

فالضعف يدفع بالإنسان دفعاً إلى سند من القوة الخفية التي يعتصم بها.

وإذا لم يكن الضعف من دواعي الإيمان بقوى الغيب ومن

أسباب العقيدة فلماذا نجد الضعف دائمًا يدفع إلى التماس العون من القوي .

إننا نوافق الأستاذ العقاد على أن الضعف ليس علة العقيدة الدينية ولكنه من عللها .

وما ساقه الأستاذ مساق الترجيح في قوله : «وربما كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق أن العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون وعظمة أسراره وخفاياه ، لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه» نؤكده ونسوقه المساق الذي لا حاجة به إلى «ربما» لأنه هو الأصح ، فكلما عظم إدراكنا للكون وعظم إحساسنا بعظمة الكون عظم إدراكنا لخالق الكون .

وكلما عظم الإدراك والإحساس ازداد شعورنا بصغر أنفسنا وهوان شأننا وزادت خشيتنا وزاد خوفنا .

فالضعف والخوف من أسباب وجود العقيدة عند الإنسان البدائي الهمجي ، وهما عند المتحضر المتدين من أسباب زيادة الإيمان ، ففي الحروب التي شهدناها وكان بها أعظم حرب شهدتها البشرية وجدنا أن خوف الحلفاء في الحرب الكبرى الثانية حملهم إلى الاعتصام برحاب الله يبتهلون إليه ويطلبون النصر والعون والحماية ، حتى الزعماء الذين بعدوا عن منطقة الدين وضعفت لديهم العقيدة أجبرهم الخوف والضعف على الإيمان والعودة الى الدين وطلب النصر من الله .

فالخوف من بواعث الاعتقاد في الإنسان أيا كانت درجته في سلم الحضارة، بل هو من أسباب نشأة العقيدة عند الإنسان البدائي الهمجي الذي أفزعته مشاهد الطبيعة كالجبل والبحر والعواصف والبراكين وما لا قدرة له على دفعه أو الاحتماء عنه فمضى بغريزته الدينية أو بصيرة الإنسان إلى ما يؤمن أنه قادر على دفع البلاء عنه وحمايته .

فالخوف من عوامل تكوين العقيدة، بل من تعميق جذورها في نفس الإنسان، وهو - بعد - من أسباب دفع الأخطار عنه، ويستوي في ذلك البدائي والهمجي والمتدين والملحد والكبير والصغير والقوي والضعيف.

وإذا كان في الخوف مضار فإن فيه لمنافع كبرى تجري من الناس مجرى البديهيات التي لا تحتاج إلى شرح وبيان وبرهان.

ولكننا ننفي ما ادعاه بعض العلماء الباحثين في نشأة الأديان من أن الخوف منشأ العقيدة، ويجعلونه سبب النشأة الأول، وإذا كان في هذا الادعاء شيء من الصحة والصواب بالنسبة للسحر فإنه لا يصح بالنسبة للعقيدة، لأن العقيدة رجاء وثقة ورغبة تتجه الى القوة غير المنظورة أملاً في العطاء ودفعاً للبلاء، فالخوف وحده لا يكون سبب نشوء الدين بل يمكن أن يكون سبباً من الأسباب التي يأتي في طليعتها الرجاء.

الأحلام

أصل نشأة العقيدة عند الإنسان البدائي

لماذا عبد الإنسان إلهاً اخترعه لنفسه عندما كان ممعناً في الهمجية ، ثم لما فارق طورها لم يفارق العقيدة الدينية التي رسخت في نفسه؟

جواب ذلك عندنا التماس الأمن ورجاء الخير ودفع الشر.

ولكن أيملك الجماد والشجر - مثلاً - دفع الشر عنه؟ الواقع أنهما لا يملكان ، وهل يملكان منح الأمن وهبة الخير؟ كذلك لا يستطيعان!

فلماذا عبد الإنسان من يعد هو بالنسبة إليه قادراً يملك الأسباب التي تأتيه بما يطمع فيه من الأمن والخير؟

لو كان يعتقد أن الجماد أو النبات عاجز لما اتخذه إلهاً يعبده ويتوسل إليه ، ولكنه اعتقد فيه الإرادة والقدرة والقوة فعبده، وسبب الاعتقاد أو اتخاذه إلهاً إدراكه «الروح» وأنه غير المادة أو غير الجسم ، لأنه فرق بين النوم القصير والنوم الذي لا يصحو منه،

وعندما عرف الحياة والموت وفرق بين الروح والجسد منح ما يعتقد فيه أنه إلّه ولو كان جماداً أو نباتاً روحاً.

والروح عنده قوة عظيمة، فهو واثق أن ما يعبده تجسدت فيه الروح.

واهتداء الإنسان إلى الروح مرده إلى الرؤى والأحلام، وهذا عندما كان في ظلمات الجهالة العمياء، واهتداؤه إلى الإيمان بوجود الروح على أي معنى من المعاني التي فهمها فتح أمام عقله نافذة على ما وراء المحسوس.

إنه يرى في منامه رؤى سعيدة وأحلاماً شريرة، فيستيقظ بعد الرؤيا يبحث عما أسعده فلا يجد شيئاً، ويصحو فزعاً بعد حلم شرير فلا يرى ما رآه في حلمه، ويفكر فيما وراء الحس، أين ذلك الذي جعله يبتهج؟ وأين ذلك الذي أفزعه؟.

إنه رأى من يضربه ويجرحه، ولكنه لا يجده ولا يجد آثار الجراحة والضرب، ورأى من وهب له ما أبهجه، ولكن صحوه وضع حداً لما سره ولما ساءه وأفزعه.

إذن، هناك شيء مجهول وراء الحس.

ويفقد زوجه أو زميله، فيراه في منامه يزوره ويقضي معه وقتاً سعيداً ، فهو ـ إذن ـ حي وراء عالم الحس المشهود.

ويراه سعيداً أو شقياً، مسروراً أو كئيباً، فيدرك أن هناك عالماً مجهولاً وراء الحس لا يعرفه يحيا فيه من فقده.

ويستيقظ فيوقظ زوجه أو من معه فيصحو، وذات مرة يوقظه من نومه فلا يستيقظ ويحركه برفق ثم بعنف ويقلبه ولكن لا حركة ولا صحو، فيدعه نائمًا، فتتعفن الجثة وتأخذ في التجيف وترسل رائحة لا يطيقها، فيخرجها بعيداً، ولكن الرائحة العفنة الكريهة تملأ الجو فيواريه التراب تخلصاً من الرائحة فيرتاح.

لماذا وقع كل هذا؟ إنه لا يدرك السر، وكل ما يفهمه أن ما وراء الحس من المجهول حقيقة يدركها بحواسه، فهو لا يرى حركة الجسم ولا يسمع صوته، فما وراء الجسم من الحركة والصوت قد انتقل إلى ما وراء الحس.

واجهته مشكلة الموت ولم يجد لها تفسيراً صحيحاً، وكل ما أدرك من الأحلام ومن الموت أن هناك عالماً مجهولاً وراء الحس والمشاهدة، وأدرك بعد محاولات وإعمال للفكر والتأمل بقدر ما يتاح لإنسان بدائي همجي يحيا في ظلمة الفكر أن ما وراء الحس «روحاً» أو شيئاً غير هذا الجسد.

أحس بوجود الروح وتخيل أن لكل كائن يشهده روحاً، وأنه حي، وكان يعامله معاملة الأحياء، ونحن نشهد الطفل يضرب الحجر الذي تعثر به انتقاماً منه لأنه يحس أنه حي، وكذلك كان الإنسان البدائي في طفولة الحياة البشرية، والطفل يضم «عروسته» ويلبسها ملابس كأنها على قيد الحياة ويحبوها مودته وحنانه، وكذلك كان يعمل البدائي في طفولة البشرية بما يحب من الجماد أو النبات لأنه يعتقد أن لها روحاً وحياة مثله دون أن يوجد

اسمًا على المسميات.

ولكن اهتداءه إلى الروح وأنه غير الجسد كان أول انطلاقة للفكر من غيابة محبسه المظلم، ثم قضت ضرورة الاجتماع وتكرار حوادث الموت بصوره المختلفة والمرض والضعف والنسل أن ينشط العقل وتبدأ اللغة في الحدود التي يتسع لها أفق شديد الضيق، وفهموا «الروح» فهمًا أدق قليلاً من وهمه الأول.

فهم الروح، ولهذا عبد أرواح أسلافه، وهداه هذا الفهم إلى الخوف منها أو العطف عليها.

الخوف من الروح الشريرة أن تعود للإيذاء، فكان من الهمج بعد تطور البشرية أن يخرجوا الميت من غير الباب حتى تضل الروح فلا تعود، ويضعون الطعام للروح الطيبة حتى إذا عادت وجدت ما تطعمه، ونجد بقايا من هذه العقيدة في أيام الفراعنة وفي كثير من القبائل الهمجية حتى الآن في افريقيا وغيرها.

بل كانوا يجيبون موتاهم على أسئلتهم ويبعثون إليهم برسائل، فإذا عنَّ لأحد من أولئك البدائيين أن يبعث رسالة إلى عزيز عليه فقده أتى بمن يلقنه الرسالة ثم يذبحه لتنقلها روحه إلى روح الفقيد.

ولعل نشأة القرابين كانت من فعل البدائيين واختفت مع تطور الإنسان ورقيه، حتى أن من الناس من كان يذبح بكر أبنائه تقرباً إلى الآلهة لتحمل روحه إليها عبوديته وإجلاله واحترامه.

وما كانوا يفعلون ذلك لولا الخوف من بطش الآلهة يسترضونها بالضحية الآدمية يفدون بها أنفسهم مما يخشون من أذاها، لأنهم تصوروا لها القدرة القادرة والقوة البالغة .

ولم يكن ذلك وحده سبب التضحية بل كانت أسباب أخرى منها: إطعام تلك الآلهة لحوم الضحايا، أو إطعام الأرواح الجائعة .

ومنها: أن تقوم أرواح الضحايا بالدفاع ضد الأرواح المعادية .

ومنها: استرضاء الآلهة والأرواح حتى تمنحهم الخصب والماء والزرع.

وبلغت العقيدة الدينية في تأثير الضحايا في الآلهة والأرواح أن صاحب الأرض كان يذبح عبيده في زواياها وأطرافها ويضعون في كل مكان ذبح به عبد حجراً يعتقدون أن روحه تقف فوقه تدافع عن الأرض من غارات الأرواح الشريرة حتى لا تصيب الزرع بما يفسده أو يقلل من ثماره.

بل كانوا يذبحون الأبطال ويدفنون جثثهم على أبواب المدن والقلاع والحصون لتصد أرواحهم القوية المحاربة هجوم الأرواح العادية وتمنعها من التخريب.

ولقد بقيت الضحية في الأديان بعد أن استبدل بالآدميين الحيوان، والفارق أن الأديان ارتفعت بالضحية من معناها الذميم

إلى مرتبة الخير والإحسان والطاعة.

وفي قصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول الله تعالى في محكم كتابه: . . . . . « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ »[1].

---

(١) سورة الصافات ١٠٢ـ١١١.

وهو ارتفاع بمعنى التضحية من التلف والبوار إلى مراتب القربان الذي ينال به صاحبه ثواب الله وشكر الآدميين، لأنه تكليف فيه امتحان النفس وحملها على بذل النفيس وإشاعة الإحسان بين الناس وإتاحة الفرصة للفقراء والجياع حتى يشبعوا.

وسن الإسلام الضحية حتى أن بعض الفقهاء جعلها واجباً، و «لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾».

فالأحلام كانت سبباً لإدراك الإنسان القديم أن هناك عالماً غير عالمه المشهود هو عالم ما وراء المحسوس، وهو سبب إدراكه أن الروح غير الجسد.

وهذا الإدراك أو الاهتداء الى فكرة الروح كانت أولى الخطوات لانطلاق العقل البشري وراء التفكير في المجهول وما وراء الحس والطبيعة ثم البحث فيه.

ولا يمكن أن نرد إلى الأحلام وحدها نشأة العقيدة أو الإيمان بالغيب الذي هو أس العقيدة الدينية لأن هناك عوامل أخرى مما أشرنا إليها في الفصول السابقة تسندها، ولكن هذا لم يقع إلا بعد انحدار الإنسان إلى حياة الغاب وبعده عن العقيدة الصحيحة عندما هبط آدم إلى الأرض.

وللرؤى أثر أو مكان في الديانات السماوية، فرؤيا الأنبياء والرسل وحي مقدس، وليست خيالاً واهماً، وقصة إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عليهما وعلى رسولنا الصلاة والسلام قائمة على الرؤيا، فهو رأى في منامه أنه يذبحه، ولما كان الابن البار المؤمن مدركاً أن رؤية أبيه حق فقد رضي بالذبح، واستسلم حتى فداه الله بذبح عظيم.

العقيدة الدينية

ما العقيدة الدينية؟

لقد مر فيما سلف من الفصول ذكر العقيدة الدينية في مواضع كثيرة، وأعتقد أنه من الضروري أن نسأل : ما هذه العقيدة الدينية؟ ونجيب لنكون على علم بمعناها.

أولاً : ما الدين نفسه؟ يجيب ول ديورانت مؤلف كتاب «قصة الحضارة»[1] بقوله : «الدين عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة».

والدين إيمان وعقيدة أو عمل وقول، لأن العبادة تقوم على هذه الأركان، فالدين أعم لأنه يدخل فيه شعور الإنسان وفكره وقوله وعمله، وينبثق من كل ذلك صلاته بخالقه أو بمن يعبده وعلاقته مع نفسه وأهله ومع الناس والأرض والنبات والحيوان.

والدين يطلق في العربية على معان كثيرة أولها : إسم لكل ما

---

(١) الجزء الأول ترجمة زكي نجيب محمود ص٩٨.

يعبد به الله ، ومن معانيه : الجزاء، المكافأة، والحساب، والطاعة، والقهر والغلبة والاستعلاء، والملك والحكم، والعادة، والشأن والحال، والورع، والتدبير، والقضاء، والمذهب، والملة.

وإذا أردنا تعريف الدين بحيث يصلح لكل دين سواء أكان ديناً حقاً أم باطلاً ففي وسعنا أن نقول: أن الدين اسم لكل ما يعبد به المعبود سواء أكان هذا المعبود هو الله الحق أم أي معبود من المعبودات سواه.

والعقيدة: ما استقر في القلب من الإيمان مما يتدين به الإنسان.

وإذا قلنا: العقيدة الدينية فإن هذه الصفة تبعد العقائد الأخرى غير الدينية كالعقيدة السياسية والعقيدة الأدبية والعقيدة التجارية.

وهذه ليست عقيدة إلّا مجازاً، ومن حقها أن تكون آراء ومذاهب أو مدارس، فالرأي يقبل أن يكون خطأ ويقبل أن يكون صواباً، ولكن العقيدة صواب كله ولو كانت خطأ وكفراً وباطلاً، لأن القلب لا ينعقد الا على ما يكون صواباً ، عنده، ولهذا لا يكون العلم عقيدة، لأنه آراء ونظريات ومدركات يجوز عليها الخطأ والصواب.

وقد تكون العقيدة والإيمان بمعنى، ولكننا نرى بينهما فروقاً، فالإيمان تسليم مطلق لا شك فيه، والعقيدة معرفة تستحيل إيماناً

عندما يرضى عنها العقل والشعور، ولا يمتنع في العقيدة أن تبحث الأسباب والبواعث.

والبرهان على التفرقة بينهما أن الإسلام ذكر الإيمان في الكتاب والسنة ولم يذكر العقيدة بلفظها، مما يدل على أن اختيار الإسلام لكلمة الإيمان تعبيراً عن العقيدة كان اختياراً مقصوداً ملحوظاً فيه ضرورة التسليم المطلق سواء أدرك العقل سره أم لم يدركه، أما العقيدة فمعرفة، وفي المعرفة رأي، ولكن الرأي عندما يستقر في القلب يستحيل عقيدة.

وتستعمل العقيدة بمعنى الإيمان كما يؤدي الإيمان معنى العقيدة، والدين أعم منهما لأنه يشمل الإسلام والإيمان والإحسان بمعناه الذي أشار إليه الرسول ﷺ إذ قال في تعريفه: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو أعلى مراتب الإيمان طرا.

فالعقيدة الدينية على أساس ما قدمنا تسليم مطلق بالغيبيات سواء أدركناها أم لم ندركها، وتصديق بصحة معارفنا التي اهتدينا اليها من أنفسنا أو انتهت الينا من طرق غيرنا، وبهذا يدخل في العقيدة الدينية ما كان صحيحاً في الاعتقاد وما كان غير صحيح.

فالبدائيون لديهم عقيدة دينية قائمة على أساس الأوهام والأساطير والخرافة والسحر، وقد تجد فيها تشابهاً مع العقيدة الصحيحة أو نقاط لقاء أساسية مثل الإيمان بما غاب عن عالم

الشهود، فهي ضرورة إنسانية وحاجة نفسية، تصبو إليها النفس لتشغل فراغها بما يبعث الطمأنينة ويوجد الأمن.

والعقيدة الدينية لا بد لصاحبها أن يعتقد قداستها وإلا انتفت أن تكون عقيدة دينية، فمثل السحر لا يكون عقيدة لأنه مفقود القداسة، فهو قائم على الضرر والأذى والشر، ولكنه قد يساعد على تكوين العقيدة عند من يؤمنون به كقوة غيبية خارقة.

ولم تتم للعقيدة الدينية أسباب الحق والنقاء والصدق والصفات وكل ما يحقق الإيمان إلا في الأديان السماوية، وقبلها ومع وجودها كانت العقيدة الدينية موجودة في الحياة البشرية دون أن تكون عقيدة دينية صحيحة سليمة من الأوشاب.

ويدعي «ول ديورانت» وغيره ممن كتبوا في العقيدة الدينية، أن بعض الشعوب لم تكن لديهم ديانة على الإطلاق كما يبدو، وذكروا دليلاً هو أن بعض قبائل الأقزام في افريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون، ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة.

ولكننا لا نستطيع أن نجرد هذه القبائل من الإيمان أو العقيدة ما داموا بشراً وإن كانوا ما يزالون أشبه بالحيوان، لأن البصيرة الإنسانية غريزة في نفس الإنسان، ولأن الأحلام تراود البدائي كما تطيف بالمتحضر، وهما يوجدان العقيدة التي تنشأ من تصورهم عالماً مجهولاً وقوى خفية.

فإذا كان الحيوان نفسه يشعر بالخوف فإن الآدمي يشعر به، فإذا رأى عاصفة هوجاء تقذف به من حالق فإنه يحس أن قوة أعظم منه غلبته، ويفقد قريبه حياً كأن يغرق أو يموت بعيداً عن عينيه فيراه في منامه سعيداً ثم يصحو فيفتقده فيحس أن هناك مكاناً مجهولاً منه يعيش فيه.

والعقيدة الدينية إحساس، فهو يحس أنه وسط قوى عاتية، وأن هناك مجهولاً، فتتكون في منطقة الإيمان بنفسه غراس صغيرة من بذور إحساسه البدائي المبهم وإدراكه الساذج.

وما دام هناك خوف ورجاء بالنسبة للإنسان البدائي فهناك إيمان ساذج أو عقيدة غامضة تشترك في إنشائها غرائزه المختلفة وما يشهد من قوى غلابة وتغير في نفسه وخوف وألم وقلق ورجاء.

إن هذه الغرائز والمشاعر موجودة وإن لم توضع لها أسماء، فهي تحمله حملاً على الإيمان لأنه يريح نفسه ويبعث إليها الأمن.

وأخذت العقيدة الدينية تتطور مع الإنسان، فبعد أن عرف القربان كان يقرب بذبح آدمي مثله، ثم بعد أن مر في مسالك التطور استبدل به الحيوان.

ولكنه لم يهتد الى القربان مصادفة، بل اقتضى ذلك أزماناً وأجيالاً حتى أدرك معنى القربان إدراكاً يتفق مع تأخره وسذاجته، وأدرك أن هناك إلّها أو آلهة لا بد أن يتقرب إليها رغبة في المزيد من الرضا والنعم.

فإذا جاء الشتاء ولم تنبت الأرض اعتقد أن الآلهة غاضبة، وفي حاجة الى استرضاء فيتقرب إليها بذبح إنسان يتقدم راضياً للقتل.

ولم يكن القربان لوناً واحداً، فهناك التقرب بأعمال أخرى كالإباحية في الاتصـــال الجنسي العـام، لأنهم أدركوا أن الإخصاب البشري يتم بوساطة صلة الذكر بالأنثى، دون أن يدركوا أسباب الحمل ويعرفوا عن الجرثومة المنوية شيئاً، فيقومون بالمباشرة علنا، أي رجل مع أي امرأة، ثم أدركوا أن عضو التناسل للذكر سبب إخصاب المرأة، فربطوا بين الـزراعة والجنس، حتى انتهوا إلى قطع عضو تناسل الرجل الميت وحرقه ثم ذر رماده على الأرض فتخصب وتنبت.

وهم يعزون ذلك إلى ما فعلوا لأنهم لم يفهموا الفصول.

وقد أبصروا عضو التناسل يؤدي إلى «خلق جديد» فاعتقدوا أن فيه قوة غيبية خارقة، فعبده كثير من القبائل لأنه خالق كما فهموا.

ولكن لم تكن الآلهة في العصور الهمجية ذكورا بل كانت اناثاً، لأن السلطة كانت في يد الأنثى، وما تغير الأمر بحيث أصبح الذكور أرباباً الا بعد أن تمت للرجل السيادة على المرأة وتكونت الأسرة فعبد الأب.

ونحن في هذا الفصل لا نتحدث عن الآلهة الأرباب،

ولكن عن العقيدة الدينية التي تطورت من إيمان بالقوى الغلابة القهارة لم يكن الا وهماً انقلب حقيقة مجهولة الكنه لأن إدراك الهمجي الساذج لا يسعه غير ذلك الوهم الغامض.

وأخذت العقيدة تتقلب مع الإنسان في عصوره المختلفة وكلها عقيدة شرك ووثنية، لأن العبادة مصروفة على غير وجهها الصحيح، ومرفوعها إلى غير من يستحقها، وما زالت العقيدة تسير مع الإنسان حتى قامت عقائد دينية على أساس من الإيمان والعلم والحكمة بنسبة تلك العصور.

وكانت بين العقائد الشركية عقيدة توحيد، فقد ذهب «طاليس» الذي مات سنة ٥٤٨ قبل الميلاد إلى أن الله واحد، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، الى صفات أخرى، ولكن لم تكن عقيدة التوحيد التي اعتنقها تبعده عن الوثنية لأن «الله» الذي تصوره طاليس لم يكن الله الذي نوحد ونعبد، بل استعمله على غير معرف.

والرواقيون قالوا بتوحيد الله ولكنهم زعموا أن «الآلهة العديدة التي يقول بها الدين الشعبي أسماء مختلفة تطلق على الله بحسب الوجوه المختلفة لقدرته[1]» وقالوا بوحدة الوجود، وبذلك جعلوا الله مادياً.

وأرسطو قال بالتوحيد، ولكنه يختلف مع المسلمين

---

(١) الفلسفة الرواقية لعثمان أمين ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

والمسيحيين واليهود مثل اختلاف فلاسفة اليونان في العقيدة الدينية مع الأديان وإن كانوا يلتقونها في بعض النقاط.

وإذا كانت العقيدة الدينية تقوم على أساس التسليم بوحدانية الله، وإثبات الأسماء والصفات التي أثبتها لنفسه، وتنزيهه من الشرك ومن كل ما ينقص من مقام الألوهية وقدر الربوبية، وصرف العبادة له وحده، وإبعاد الوسيط بين الإنسان وربه، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى فإن الإسلام وحده هو الذي يخرج بالعقيدة الدينية من بين جميع العقائد من كل ما لا يتفق مع جلال الإيمان بالله.

وخلاصة القول: أن العقيدة الدينية الإسلامية هي العقيدة النظيفة الصحيحة السليمة الكاملة المنزهة دون العقائد كلها لأنها عقيدة التوحيد الحق.

والعقيدة الدينية الإسلامية التي نريدها هنا هي التي يؤمن بها أهل السنة والجماعة دون عقائد الفرق الأخرى.

الأرباب والآلهة

في الفصل الأول من هذا الكتاب ذهبنا إلى أن « التوحيد قبل الشرك » ثم كان تعدد الآلهة بسبب البعد البعيد الشاسع بين التوحيد الحق و الذين انسلخوا من ثوب الإنسانية ولبسوا ثوب الحيوان حتى كانوا أقرب اليه، ونسوا التوحيد والإله والعبادة وانتهوا الى الهمجية فلم يكن بينهم وبين الحيوان فرق كبير.

ولا يعرف العصر الذي بدأ فيه الشرك، وإن كان من المعروف أن الإنسان البدائي لم يعدم الإيمان الساذج بقوى مجهولة اتخذها إلهاً دون أن يضع لها لفظاً لأن اللغة لم تكن إلا أصواتاً حيوانية.

ويذهب الباحثون إلى أن العقيدة الدينية مرت بمراحل ثلاث جعلوا أولاها مرحلة التعدد الذي تتعدد فيه الآلهة والأرباب، ثم أعقبتها مرحلة التفكير والموازنة وإعمال الفكر في نسبة الأرباب بعضها من بعض لاختيار ما يعتقد أنه الرئيس أو الزعيم أو الإله الذي يكبر غيره، وهي مرحلة تعدد أيضاً.

ثم يقولون : إن المرحلة الأخيرة هي مرحلة الوحدانية.

ونحن نخالفهم في شيء ونوافقهم في شيء، نخالفهم في جعلهم المرحلة الأولى مرحلة التعدد، لأننا نرى أن المرحلة الأولى هي التوحيد، لأن أبا البشر آدم هبط إلى الأرض بعقيدة التوحيد، ثم حدث افتراق أبنائه المعدودين على الأرض وهيام كثير على وجهها، وأخذوا يبتعدون عن عقيدة التوحيد شيئاً فشيئاً حتى فقدوا إنسانيتهم، وعاشوا كالحيوان، ونخالفهم ـ أيضاً ـ في مرحلة الوحدانية لأنها لم تكن وحدانية بالمفهوم الصحيح، لأنها لم تخل من تعدد الآلهة والأرباب.

ولا يعرف عدد السنين الذي اقتضى أن ينقلبوا إلى ما يقربهم من حياة الحيوان، ولكن مئات من السنين وآلاف لا يعلم عددها إلا الله.

ونحسب أن أول ما عبد من الأرباب ما هو وثيق الصلة بهم، ويجوز أنهم عبدوا مظاهر الطبيعة والأجرام السماوية أو قوى خفية لجأوا إليها بأفكارهم رجاء الخير منها، ويجوز أن الأب كان من أوائل من عبدوا، لأنه القوة المحسوسة التي كانت ترد عن الصغير الأخطاء، وتحميه منها، فلما كبر شعر بغريزته أنه الحامي، فلما تقدم الإنسان التقدم البطيء اتجه الى تذكر مزايا الأب فكان من أول من عبد.

ويقول بعض الباحثين في العقائد والديانات والعبادات أن «الطواطم» أول من عبد من الإنسان البدائي، ولكن الطواطم متأخرة في الوجود ـ كما نعتقد ـ عن العبادة التي كانت توجه الى

مظاهر الطبيعة، وليس فرضاً لازماً أن تمر كل جماعة في المرحلة التي يمر بها غيرها في العبادة، فيجوز أن جماعة عبدت الطوطم أول ما عبدت، ويجوز أن تكون جماعة ثانية عبدت الأسلاف، وأخرى عبدت مظاهر الطبيعة.

وقبل أن نمضي في بحث الآلهة والأرباب التي عبدت من دون الله يجب أن نذكر أن الاجتماع البشري ضرورة، والدين ظاهرة اجتماعية لا مفر منها، ونقول الدين ونقصد هنا به ظاهرة الاعتقاد، لأن الإنسان مفطور على التصور والتذكر، ومزود بغريزة التطلع إلى المجهول، وببصيرة تدفعه إلى التأمل وإعمال الفكر.

وليس كل هؤلاء من صفات الإنسان المتحضر، بل هي صفات البدائي الهمجي، فكما أن الجرثومة المنوية تحمل خصائص النوع فكذلك الإنسان « مؤهل » بكل المواهب والملكات، ولكنها في حاجة إلى زمن وتطور وصقل ويقظة.

ونتحدث عن الزمن الذي كانت فيه البشرية أشبه بالبيئة الحيوانية، طعامه طعام الحيوان، وطريقته في طلب الرزق طريقته.

ولنتصور صورة الإنسان في ذلك الزمن وقد رأى السحب تتلبد بعد أن كانت السماء صحوة، وتقلب الجو وتغيرت الطبيعة، وهطلت الأمطار، وهبت العواصف واقتلعت الأشجار وجرتها السيول، واستمرت الأمطار، وجاء الليل،والإنسان المسكين لائذ

بكهف ينتفض برداً وجوعاً وهلعاً، ويرى الظلام الدامس تمزقه سيوف البرق فيرى غضب « الطبيعة » وجبروتها على ضوء، ويصم أذنيه دوي الرعود، وفي الصباح يجد السماء صحوة والطبيعة هادئة فيغادر كهفه ليرى أخاديد وحفراً لم يرها.

ولكنه يشعر بشيء من الدفء والأمن والطمأنينة فيبحث عن طعام فيجده، ويشعر بالراحة، ويأخذ في التفكير فيما مر به، ويلتقي في نفسه الخوف والرجاء، ولا نعدم بين هؤلاء البدائيين من يكون أكثر بصيرة وأبعد نظراً وأصحى فكراً وقلباً ووجداناً، فيدرك بما زود به من طبائع الإنسانية وغرائزها فيعجب بالشمس التي تبدد كل يوم ما يجيء به الليل من مخاوف تجبره على الانزواء في كهفه والنوم.

ولم يكن يدرك حقيقة اليقظة والنوم وأسبابهما ودوافعهما، ويربط ذلك بالشمس، إن هي غابت عنه جاء الخوف مع الليل، فاذا أشرقت تبدد الخوف والليل.

فالشمس مبعث الأمن فهي رجاؤه، والليل مبعث الخوف وجالبه فهو عدوه، فلا بد أن يتقرب الى الشمس بالعبادة رداً للجميل.

ولا يستبعد أن تكون الشمس من أوائل المعبودات، فاذا كان الإنسان بعد تقدمه الباهر وإدراكه لكثير من الأسرار ووقوفه

على حقائق صحيحة اجتذبته الشمس بعظمها فلا بدّ أن يكون الإنسان الممعن في القدم أن تبهره.

وفي قصة إبراهيم بسورة الأنعام :

« وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »

فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان في عصر تقدمت فيه البشرية تقدماً عظيماً، ومع هذا اتخذ من بزوغ الشمس ووهج

ضوئها وسطوعه دليلا على العظم فقال : « هذا ربي هذا أكبر » أكبر من النجم ومن القمر، ولكنه « لا يحب الآفلين ».

وإبراهيم لم يكن قط عابداً غير الله ولكنه أراد أن يفهم قومه بالدليل الواقعي المنطقي أن هذه الأشياء لا تستحق أن تكون أرباباً كما استعمل هذا اللون من العمل والمنطق في المحاجة وإقامة البرهان.

« فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ »[1]

و « وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ

(١) الصافات ٩١ ـ ٩٦.

فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ »(٢)

واستطردنا إلى ذكر هذه الآيات وما قبلها لئلا يعلق بذهن قارىء أن إبراهيم عبد الشمس، ولكنه اتخذ ذلك سبيلاً لهدم فكرة الربوبية في أذهان قومه بالبرهان العملي.

وهذا في زمن التقدم، فلا بدع إذا ذهبنا إلى أن الإنسان القديم الهمجي البدائي رأى الشمس وما تحبوه من أمن وطمأنينة ورزق وصحو فعبدها.

منحته الرزق لأنها بددت الليل ومخاوفه فخرج يبحث عنه فوجده، فهو يدين لها بالفضل كله، إذن، هي جديرة بأن تجتذب اهتمامه وإعجابه وحبه وتكون مناط رجائه، وهي ـ بعد ـ جديرة بالعبادة والتقديس.

وهكذا عبدت النجوم والقمر والأرض والجبال والمطر والنبات والحيوان، لأنه استطاع أن يدرك بتجاربه وفطرته ما تحبوه من منافع كالشمس فهي جديرة أيضاً بالعبادة والتقديس.

وأحسب أن في هذا الطور من أطوار البشرية عُبِد الإنسان، فهو يرى أن أباه يربيه ويحميه ويدافع عنه ويضمن له الأمن ويبعد

---

(٢) الأنبياء ٥٧ ـ ٦٣.

عنه الأخطار والمخاوف، ويأتيه بالرزق، فهو جدير بالحب والتقديس والعبادة، ثم اتجه بها إلى رئيس القبيلة القوي بعد تكوينها.

ويمكن حصر جنس المعبودات في هذا النطاق :

١ ـ ما في السماء.
٢ ـ ما في الأرض.

وتنقسم الآلهة التي في الأرض أقساماً ثلاثة :

أولاً ـ الإنسان نفسه وما يتصل به.
ثانياً ـ الحيوان وما يتصل به.
ثالثاً ـ الأرض وما عليها مما ليس حيواناً أو إنساناً.

ولم يصل إدراك الإنسان إلى عبادة هذه الكائنات إلا بعد أن فهم الجسد والروح، وأدرك أنهما متغايران، وأن الروح أقوى، ولا بيد أنه أدرك الفارق بينهما قبل أن يتجه إلى تلك الكائنات بالعبادة.

فهو ينام ويرى في نومه أحلاماً مزعجة وسارة، ويصحو فلا يجد شيئاً، ويرى في نومه أن إنساناً يضاربه ويضربه أو وحشاً يثخنه جراحاً فيستيقظ ويفحص جسده فلا أثر للضرب والجراح، وهكذا حتى يهتدي إلى أن له شخصين أحدهما هو نفسه، أما الآخر فلا علم به إلا أنه هو الذي ضرب وجرح، أو سُرَّ وابتهج.

هذا الشخص الآخر ما كنهه وما حقيقته ؟ لا جواب عنده أو

لا يجد له جواباً، ولكنه مطمئن إلى أنه يدافع عنه ويدخل عليه السرور.

وعلى مر الزمن فهم النوم ثم اصطدم بنوم لا صحو وراءه، فدهش، إنه يصحو من نومه فيوقظ زوجه وولده فيصحوان من نومهما، ولكن ما لهذا لا يصحو، إنه يهزه بعنف ولكنه لا يصحو فيتركه، فاذا الجثة تبدأ في التعفن والتجييف، ولا يطيق الرائحة الكريهة فيبعدها عن سكنه، ولكن الرائحة تملأ الجو وتؤذيه، فيواريها في التراب، وتنقطع الرائحة.

وهنا أدرك الفرق بين الجسد وما كان فيه من باعث الحركة، فما دام هذا الباعث قد انفصل عن الجسد فهو والجسد متغايران.

واهتدى من هذا الفصل إلى مسألة أخرى هي أن الموت حدث مخيف، ولا يدرك سببه إلا أنه من فعل كائنات أخرى يجهلها.

وعندما وسع الإنسان البدائي إلى التفريق بين الجسد والروح أدرك قوة الروح، ثم تخيل أن في قوى الطبيعة ومظاهرها وشاهدها روحاً، ثم اعتقد ذلك، فاذا كان له روح وهو كائن ضعيف فان لتلك القوى والمشاهد أرواحاً غاية في القوة والعظم والقدرة والإرادة.

ولا يعرف بالدقة ترتيب طبقات المعبودات وإن كان من

الجائز أن مشاهد الطبيعة كالشمس والقمر عبدت قبل غيرها من الكائنات.

ولعل الشمس كانت أسبق من القمر في العبادة لأنها كانت تظهر دائمًا، وكانوا يعزون إليها قدرات ومنافع كبيرة، وما تزال للشمس بقية من التقديس والعبادة حتى هذا العصر وعند أمة بلغت أرقى مراتب التمدن والحضارة، فاليابانيون يعتقدون أن « الميكادو » تجسيد لإله الشمس.

وإذا عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فلا غرابة أن نجد من عبدوا السماء على اعتقاد أنها واهبة الخير والبركة، فالمطر فيها، والشمس والقمر والنجوم فيها، حتى أن لفظ الجلالة (الله) يرادف عند بعض القبائل : السماء والمطر، وفي الصين « السماء » الإله الأكبر.

وعبدت الأرض لأنها هي التي تعطيهم الطعام والتراب وتحملهم ويمشون عليها ويجدون فيها الظل والثمر والسكن.

وكل ما عبدوه اعتقدوا أن فيه روحاً عظيمة وقوى كبيرة، حتى ما يكون صغيراً أمام أعينهم يعتقدون فيه الروح والقوة.

ومن المعبودات : الشجر والثمر، حتى أن عبادها كانوا يعتقدون فيها الحياة والروح والإحساس، فبعض القبائل ما كانوا يسمحون بقطع الشجر، وبعضهم يحرص على الاحتفاظ بالسكينة

عند الأشجار المثمرة لأنهن حوامل، فالصخب قد يزعجهم، والإزعاج قد يحمل على الإجهاض مثل المرأة الحامل سواء بسواء.

عبدوا الأرض وما عليها من جبل وشجر وبحر ونهر وثمر وغير ذلك.

أما الإنسان فقد عبد، ولعل أول من عبد من بني الإنسان هو الأب لأنه كان رمز النعمة والقدرة بالنسبة للولد، ثم لما تكونت القبيلة عبد الرئيس لأنه أكبر قوة وأكثر قدرة من الأب أو رب الأسرة، وامتدت عبادة الإنسان على مدى العصور فعبد فراعنة مصر حتى قال أحدهم كما يذكر القرآن الكريم : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾. بل ما يزال إلى يومنا هذا أناس يُعْبَدُون، منهم : ملك اليابان الذي يعبده كثير من أبناء شعبه.

ومن آثار عبادة الإنسان الباقية عند المتمدنين تقديس البطولة والعظمة، فهو مظهر يتفق مع التقدم الحضاري، ومن آثارها عبادة « المعشوقة » التي نجد في آثار الشعراء في عصرنا من يقول لها في أشعاره أو كتابه أو خطابه : أنا أعبدك ! معبودتي . أصلي لك إلى أمثال هذه التعبيرات.

ومن أعضاء الإنسان التي عبدت : عضوه التناسلي، فهم عبدوا الأرض لأنها خصبة تمنحهم ما هم في حاجة إليه، وهذا العضو يمنحهم إنساناً، لأنه سبب إخصاب المرأة فهو جدير بالتقديس والعبادة كما يعتقدون، بل امتدت العبادة إلى عضو المرأة

التناسلي، فمن هذين العضوين واتصالهما يخلق إنسان[1].

وعبدت البقرة والعجل والفيل والثعبان والجمل والسمك والخنزير وغيرها من الحيوان، وما يزال الحيوان معبوداً حتى هذا اليوم في بلدان متحضرة، ففي الهند من يعبدون البقر ويحرمون ذبحها لأنها آلهة، مع أن قبائل من عبدة الحيوان كانوا يأكلون الحيوان المعبود، ويجعلون أكلها من العبادة، وفي الحبشة قبيلة « القالا » تعبد السمك ثم تأكله[2].

وأكل الآلهة كان معروفاً منذ القدم، فالشجرة تعبد، ويأكلون ثمرها، وكان بعض مشركي العرب يأكلون آلهتهم، ففي « المعارف » لابن قتيبة : « وكان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا

---

(١) وقد وجدت عند الشعوب المنقرضة في عصر ما قبل التاريخ صور تدل على عبادة عضو المرأة التناسلي فقد ذكر الأستاذ «بركيت» في كتابه «العصر الحجري» طبعة كمبردج سنة ١٩٣٣م في الفصل الثاني عشر: أن الباحثين عثروا على صور تمثل آلهة كان أقوام ما قبل التاريخ يعبدونها.

ففي ناحية «لوسيل» بفرنسا عثروا على إلاهة محفورة على حجر جيري تمثل امرأة مكتملة النمو والأعضاء تشبه تمثال فينوس إلهة الجمال عند الإغريق.

والغريب في صورة تلك الإلهة التي في صورة امرأة يبرز فيها أعضاؤها التناسلية بروزاً شديداً يعبر عن قوة المرأة التناسلية، وتمسك بيمناها قرن ثور بري.

(٢) وفي عصرنا هذا يعبد الكانجارو في استراليا، والخرتيت ذو القرن الواحد وعجل البحر والثعابين عند أقوام البوشمن بصحراء كلهاري وقبائل في تسمانيا وعند كثير من الأسكيمو.

من حيس فعبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من بني تميم :

أكلت ربها حنيفة من جو ع قديم بها ومن إعواز »

والطوطمية في أساسها عبادة الحيوان ، وهي كلمة من لغات هنود أميركا، ومعناها : البطون التي تتألف منها القبيلة، وأطلقت على حيوانها المعبود طوطما، وقد يطلق على شجر أو حجر معبود، ثم أصبحت الطوطمية مطلقة على كل عبادة مبهمة لمادة معينة دون فرق بين أن يكون حيواناً أو نباتاً أو جماداً.

وما تزال الطوطمية موجودة حتى عصرنا هذا في قبائل متفرقة في آسيا وأفريقيا و أمريكا وفي كثير من الجزر في المحيط الهادي وفي استراليا، وقد كشف الدكتور هوايت خمسمائة طوطم عند قبائل في الجنوب الشرقي من استراليا، منها أربعمائة وستون طوطمًا حيوانياً ونباتياً، وأربعون تمثل طواطم لأشياء مختلفة منها : الشمس والقمر والجبال والسحاب والنجوم والنار والنهر وغيرها.

وذهب بعض الباحثين في الأديان والعبادات إلى أن الطوطمية في مقدمة الديانات عند البدائيين الهمج من بني الإنسان، ولا نستبعد هذا، وإن كنّا لا نوافق على أنها مبدأ الديانات.

ولم يكتفوا بإطلاق كلمة الطوطم على الحيوان المعبود أو الشجر أو الجماد بل أطلقوه على القبيلة وشيخها، وحرموا أكل

الطوطم أو قتله إلا في حالات، بل حرّموا لمسه، وحرموا زواج الطوطم سواء كان ذكراً أم أنثى، وحرموا زواج من ينتمون إليه بين بعضهم بعضاً.

وإذا كانت الطوطمية عبادة حيوان معين فإن أساسها - كما نخمن - عبادة الأب، وما عبدوا الحيوان الذي اختاروه إلّا لاعتقادهم أن روح الأب حلت فيه، سواء كان هذا الأب مباشراً أم أباً أعلى.

ويرى «دوركايم» أن الطوطم رمز العشيرة، ولكنه ذهب إلى أنه مرهوب لشدة بأسه وتسلطه وظلمه، فهو رمز النجاسة والقداسة في وقت واحد، وأما فرويد العالم النفسي المعروف فقد زعم أن الطوطم منشأ الديانات؛ وهو رمز على الأب الذي يخافه أولاده ويمقتونه لأنه شديد القسوة عليهم، ثم يقتلونه تخلُّصاً منه ثم قدسوه لأنهم ندموا على القتل.

وما أسباب الخوف والقسوة ثم الندم والتقديس والعبادة؟.

يقول فرويد في كتابه «الطوطم والتابو[1]» (Totem and Taboo) ص ١٤٥:

«كل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة نفسها، وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت

---

(١) التابو: كلمة بولينيزية ومعناها «محظور» وتطلق عند الشعوب البدائية على كل ممنوع لاعتبارات سحرية ودينية.

فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد؛ وهو رد فعل للحدث العظيم نفسه الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية لحظة واحدة للراحة».

ويقصد من قوله «الحدث العظيم» هو ما أشار اليه في كثير من كتبه، إذ ذهب إلى أن نشأة الأديان كانت بسبب الغريزة الجنسية، وذلك أن الابناء في العصور الإنسانية الأولى استبدت بهم الغريزة الجنسية واشتاقوا إلى الاتصال الجنسي بأمهم، ولكن الأب حال دون ذلك فاجتمعوا وقتلوه، لأن وجوده كان مانعاً، وسطوته كانت تخيفهم، ولما قتلوه أحسوا ببشاعة ما فعلوا فندموا، وأخذوا يقدسون ذكرى أبيهم القتيل، وبذلك بدأت عبادة الأب.

أما الأم التي ولدتهم فلم يقربوها، لأن الأبناء خافوا أن يقتتلا فتركوها «محرمة» لا يدنون منها للفعل الجنسي، ومن هنا بدأ تحريم إتيان الأم.

وعزا نشأة الطوطمية إلى قتل الأب من قبل الأبناء ثم تقديس ذكراه بعد ندمهم ثم عبادته.

ولم يكن «فرويد» مبتكراً في نظريته هذه، بل سطا على رأي داروين الذي زعم أنه في عالم البقر تنطلق الثيران الشابة الفتية إلى أمها لتنزو عليها فتمنعها سيطرة الأب المسيطر على القطيع، فتنشب معركة حامية بين الأب وأبنائه، وتنتهي بقتل الأب لتبدأ معركة بين الثيران الشابة حتى تنتهي بسيادة أحدها على القطيع فينزو على أمه بحكم السيادة على القطيع.

هذا هو رأي داروين سطا عليه ونقله من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان، وهو وهم وضلال من فرويد، لأنه أثبت لأولئك الأبناء في عهد الحيوانية الندم والتقديس، مع أن فهمهم للندم سابق على أوانه، ففي ذلك العهد البدائي للبشرية لم يكن يفهم الإنسان الندم.

ولماذا ينزو الإنسان على أمه؟ أفقدت النساء من عالمه؟ ألم تكن له أخوات؟ ألم تكن نسوة غير أمه؟.

ثم إن ذلك العهد الحيواني لم يكن مقيداً بقيود أخلاقية، ففي الكنغو وبعض القبائل الأفريقية يجتمع الرجال والنساء على الأرض المجدبة ويتصل أي رجل بأي امرأة دون تمييز بين من يتصل بها أو تتصل به، ويجوز أن ينزو الابن على أمه والأب على ابنته ولم يكن شعور الغيرة موجوداً حتى يكون فيما زعمه فرويد قدر يسير من الصواب، وهذه المشاعر كالغيرة والندم وتحريم الأم لم تكن معروفة عند البدائيين كما هي معروفة عند المتحضرين والمتدينين، ولم تكن الأبوة معروفة لديهم كما هي معروفة في عصور التقدم الحضاري والفكري.

وحتى عصرنا هذا نجد قبائل وأفراداً لا يحسون بالغيرة، فقبائل الأسكيمو نساء ورجالاً لا يعرفون الغيرة، بل يقدم الأسكيمي زوجه لضيفه، والإخوة في قبائل « توداس » في جنوب الهند يشتركون في زوجة واحدة، وفي قبائل بإفريقيا يشترك الرجال

والنساء في حفل طلب الخصب ويتصل بعضهم ببعض اتصالاً جنسياً لا يحسون فيه بالغيرة.

وكثير من الأفراد يقترفون حتى اليوم الإثم مع محارمهم وبخاصة في دور البلوغ والمراهقة والشباب.

وليس هذا في عهد الإنسان البدائي بل في عصرنا هذا، فلا ندم ولا توبة ولا استغفار.

والأب القديم ما كان يلازم امرأة كظلها، بل يتركها ويمضي ثم يعود، وهذه فرصة تتاح للإبن إذا أراد أن ينزو على أمه، وما المانع من ذلك في عصر الحيوانية؟.

ولماذا وقف الأبناء بعد قتلهم الأب؟ ولماذا لم يصنعوا ما صنع الثيران؟.

إن الإنسان كان حقيقة حيواناً، ولكن له غرائز إنسانية، ففرويد نفسه الذي يريد أن يساوي بين الإنسان والحيوان ذكر أن الأبناء ندموا ولم يقربوا أمهم وجعلوها محرمة عليهم ثم قدسوا ذكراه وعبدوه.

وكل هذا الذي أعقب القتل إنما هو عمل إنساني، عمل فوق الحيوانية بكثير، لأن الثيران التي قتلت أباها انطلقت على حيوانيتها فتقاتلت حتى تفرد أحدها بالسيطرة والسيادة فنزا على أمه دون أن يشعر أبناء الثور القتيل بالندم وتحرم على نفسها أمها.

ولم تكن الطوطمية نشأة الأديان، لأن ما ذهب إليه وهم لا ظل له من الحق والواقع، فما زعم أنه وقع في مسألة « الأب » تخريف أراد منه تمريغ « الإنسان » في وحل الحيوانية ونفي الإنسانية عنه رغبة منه في « تبويظ » المثل وإفساد العلاقات الإنسانية النبيلة والمشاعر الكريمة التي تتجلى في علاقة الأسرة أباً وأماً وأولاداً، وتمزيق أستار القداسة في هذه العلاقات الكريمة.

ونحن لا نرى رأي فرويد في الطوطمية، ونستنكر رأيه الواهم في قتل الأب رغبة من أبنائه في النزو على أمهم التي ولدتهم، وما عبدوا الأب لأنهم شعروا بالندم ثم التقديس، بل الدافع إلى عبادتهم لأبيهم ليس الخوف أو الندم، بل شعورهم الطيب نحو أبيهم الذي يدفع عنهم الأذى، ويحيطهم برعايته، ويدافع عنهم من يريد بهم شراً، ورحمة الأب غريزة فيه، فنحن نرى في بيئة الحيوان الحنو الأبوي، بل كانت عبادة الأب اعترافاً بجميله، فهو مربيه ومغذيه وحاميه.

ولعل فرويد اطلع على أن القبيلة كانت تقتل أباها أو شيخها فظن أن الأبناء يقتلون أباهم لمقتهم إياه، وإذا وقع القتل في بعض القبائل فإن مرده إلى الرحمة به لشيخوخته أو لمرضه، فهو مظهر رحمة لا دليل نقمة.

وإذا كان قتل الطوطم محرماً ولمسه غير جائز، فإنه في بعض الحالات يجب ـ أو يجوز ـ أكله أداء لبعض فرائض العبادة والتقديس كما تفعل قبيلة « القالا » في الحبشة، فهي تعبد سمكة

معينة، ثم تأكلها أداء لشعائرهم الدينية، فغير بعيد أن يفسر قتل الأب هذا التفسير.

والخنزير كان طوطمًا لأسلاف اليهود.

ومن الناحية الاجتماعية يعتبر الطوطم سبباً لجمع القبيلة وشعورها المشترك حتى استحال شعاراً لها.

ولما تقدم الإنسان في العصر الحاضر لم تزل الطوطمية زوالاً تاماً من بيئة الإنسان المتقدم المتحرر، بل بقيت في « الشعارات » التي نراها في بعض دور النشر والجماعات والجمعيات والدول حيث يتخذ الحيوان شعاراً لها، فهذه تتخذ دباً وتلك نسراً وهكذا.

ولم تكن الطواطم معبودة عند كل من اتخذوها، فبعضهم اتخذها شعاراً مقدساً دون أن تعبد.

وللصيد أثر في محو القداسة عن الطواطم المتخذة من الحيوان، ولعبادة الآلهة المختلفة يد كبرى في إنزال الطواطم من سماواتها العلى وانتزاع العبادة منها.

وهذا الدور الذي مرّ بالبشرية حيث كانت الأرباب لا تحصى هو دور أوجده الانفصال التام بين الوحدانية الأولى والشرك، ثم جاء الدور الثالث الذي بدأ فيه الناس يفهمون، ولكن هذا الفهم لم يحملهم على التوحيد، بل دفعهم إلى التمييز بين الآلهة وتطبيق مبدأ القبيلة أو المجتمع عليها، فكما أن للقبيلة شيخاً أو زعيمًا وللمجتمع رئيساً فلا بد أن يكون للآلهة رئيس أو

زعيم، فبقيت الارباب وأقيم عليها شيخ هو كبيرها والمعبود الأكبر لعباده.

ثم جاء دور التوحيد، ولا يقصد منه عبادة إلّه واحد، بل اتحاد الأمة في عبادة واحدة مع تعدد الآلهة، فهو ليس توحيداً لله ولا وحدانية صحيحة.

إلا أن البشرية ظفرت بأديان ورسالات دعت إلى الوحدانية الصحيحة، إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي اختار من عباده رسلاً وأنبياء أوحى إليهم بالحق، واختار منهم من بعثهم إلى الناس يدعون إلى عبادة الله وحده ويبشرون وينذرون.

وتتمثل الوحدانية في دعوة الرسل جميعاً، والأديان السماوية المعروفة لدينا، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام، وكلها في صميمها ذات أصول واحدة لا خلاف بينها في هذه الأصول، ولكن أدركها الوهن ودخلها من الخرافات والباطل والشرك، فرأينا بعد اليهودية والمسيحية عن حقيقتها، أما الإسلام فقد افترقت أمته ثلاثاً وسبعين فرقة كلها ضالة إلّا واحدة هي الفرقة المتمسكة به حق التمسك، تلك هي أهل السنة والجماعة ونجمت من تلك الفرق الإسلامية فرق كثيرة، وسواء أكانت هذه أم تلك فإن كثيراً منها مرقت من الإسلام مروقاً، وأشركت وكفرت وألحدت وعبدت غير الله، وبعضها أنكر وجود الله وكذب الرسل واتهمهم شرّ اتهام.

وفي عصرنا هذا لا نرى ديناً يعتبر دين توحيد غير الإسلام،

فدين اليهود كما تصوره توراتهم المحرفة إشارة واضحة إلى « أرباب » بجانب ربهم المعبود، هذا لهم وحدهم، وأولئك لغيرهم من الأمم، ونهى رب إسرائيل بني إسرائيل ألا يقدموا قرابين لأولئك الأرباب لأن رب إسرائيل « ربّ غيور ».

والمسيحية تزعم أن الله ثالث ثلاثة، فهي قد ابتعدت عن التوحيد.

أما الإسلام فهو الذي دعا إلى التوحيد الحق وثبت عليه، وليس « الله » رب المسلمين وحدهم كرب إسرائيل في توراتهم المحرفة، بل هو رب كل إنسان، رب العالمين،

وبلغ تطور[1] العقيدة الدينية حتى بلغ آخر مداه الذي ينتهي إلى أعلى مرتبة في سمو الفكر العقائدي والوجدان الديني في الإسلام وحده.

وهذا طبيعي، فمحمد ﷺ خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ودين الإسلام آخر الأديان ولا ديـن بعده أو مثله، ولهذا كان محمد « واحد » الرسل لأنه آخرهم رسالة وأولهم فضلاً، وكان الإسلام الدين الوحيد الذي جاء للبشر أجمع، وكان « الله » الأحد الفرد الصمد، لا إلّه غيره.

وعندما جاء الإسلام كانت البشرية قد تطورت وأمضت

---

(١) نقول: «التطور» مجرد تعبير يقصد به أن جميع الديانات التي بقيت إلى ظهور الإسلام ناقصة، والإسلام وحده الكامل، ولكنه في الحق ليس ديناً انتهى إليه التطور الذي هو الانتقال من حال إلى أحسن، والإسلام ليس تطوراً لأنه منحة الله لعباده، فهو عمل إلّهي، أما التطور فعمل إنساني.

عشرات الآلاف من السنين في التطور، إلا أنه كان عصر أرباب وآلهة وطواطم وشرك ووثنية وإلحاد وكفر، وكان في الأرض من المذاهب والديانات الباطلة كما كان عند الهمج، ولم يزُلْ ما كان معروفاً عندهم من أنواع العقائد والعبادات التي أشار إليها القرآن الكريم وأيده واقع البشرية وتاريخها الصحيح.

كانت عبادة الشمس والقمر والنجوم معروفة: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وعبدوا الجن: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ وعبدوا الملائكة والأنبياء والبشر ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وكان الدهريون، وكان كثير من تلك العقائد قائماً، بل ما يزال حتى اليوم ملل ونحل ومذاهب تدعو إلى الكفر والإشراك وإلى آلهة باطلة، كأن هذا التطور الحضاري المدهش لم يصل إلى العقائد والنفوس.

والواقع أن العقائد أبطأ الأشياء في التغير، ولا يدركها التطور إلا بعد مراحل وجهود ودعاة مهرة، فإذا رأينا على ظهر هذه الأرض معبودات مختلفة فذلك دليل على أن الضمائر لم تتقدم بعد، وأن النفوس ما تزال عامرة بالخرافات والأساطير والمعتقدات الباطلة، وأن العلم الحديث لم يساعد كثيراً على إصلاح العقائد، وأن الحضارة الحديثة بعدت عن مناطق العقيدة والإيمان.

ووجود آلاف الأرباب والآلهة منذ الإنسان البدائي الهمجي حتى اليوم دليل على أن حاجة الإنسان الى الدين والعقيدة ضرورة

مثل ضرورة الطعام والشراب، ولا يمكن للنفس البشرية أن تحيا بدونها، وهو دليل على أن هذه النفس مزودة بالغريزة الدينية والبصيرة الملهمة اللتين تسعيان إلى ملء فراغ النفس بأي عقيدة كانت، لأن الحياة من غيرها تصبح حيوانية غير مدركة.

ولا شك أن للعقيدة أثراً بارزاً عميقاً في التقدم الإنساني، فبعد أن كان التنازع على البقاء وقفاً على القوة الجائرة أصبح قائمًا بوساطة العقيدة الدينية على الأعمال الصالحة وما يقدم الإنسان لإخوانه من النفع والخير، وفتحت أمام العقل الإنساني آفاقاً جديدة ليتأمل ويفكر ويعمل ويفيد مما سخره الله له.

وليس بين الدين الصحيح والعلم والعقل خصومة، لأن الدين يدفع بهما إلى التحليق والتطلع إلى المستقبل والعمل الصالح للحاضر، وما اعتقد المشتغلون بالعلوم وجود هذه الخصومة إلّا لأنهم لم يفرقوا بين الدين ومعتنقيه، ولما أبصروا عداء هؤلاء للعلم ونظرياته حسبوا أن هذا هو موقف الدين من العلم، وما ذلك بحق، لأن الدين قائم على أسس وجدانية وعقلية، والإسلام يضع التكاليف عن الذي لا عقل له، لأنه دين يعرف قيمة العقل، وحسبه فخراً أن القرآن زاخر بتمجيد العقل والعلم إلى حد لم يعرفه العلماء.

ديانات الهند

لا يعرف حتى اليوم ديانات الهند التي سبقت الديانة الفيدية، وكل ما في ذلك تخمين لا يرقى إلى العلم والثبوت، والشيء الذي يمكن أن يقال: إن ديانة الهند لم تكن تخرج عن الديانات المعروفة عند الإنسان البدائي، كعبادة مظاهر الطبيعة والأسلاف والآباء والطواطم المختلفة، وتذكر الأساطير أن أغلب آلهة الهند كانت إناثاً ذوات قدرة على العطاء والحرمان.

ولم تكن البوذية الديانة المعروفة هي الديانة التي كانت في الطليعة، بل سبقتها ديانات مختلفة، ولا يعرف منها إلا ما كان في عصر الڤيدا أو العصر الڤيدي الذي قامت ديانته على الكتب الڤيدية، وهي الديانة البرهمية.

وكلمة «ڤيدا» من اللغة السنسكريتية، ومعناها فيها: القانون أو العلم، أو المعرفة.

وللڤيدا كتب أربعة هي أناجيل البراهمة، والرأي في حقيقتها مختلف، من وضعها؟ متى وجدت؟.

والأجوبة غير واحدة، فمن قائل إنها كانت موجودة قبل مائة قرن من ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام قبل أن تنتهي إلى صيغتها النهائية في القرن الثلاثين قبل الميلاد أو القرن الخامس عشر قبل الميلاد على قول آخر.

وإن الذين يزعمون أن الڤيدا موجودة قبل عشرة آلاف سنة قبل المسيح إنما يبنون زعمهم على الظن لا اليقين، ومؤرخون هنود يزعمون أنها وجدت قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح ويذهب الباحثون الأوربيون إلى أنها ألفت قبل المسيح بحوالي أربعة عشر قرنا.

وكانت الڤيدا غير مدونة على الورق أو غيره، بل محفوظة في الذواكر يتلقاها بعضهم عن بعض، ولم تُرْوَ إلا قبل المسيح بقرون معدودة.

أما واضعها الأصلي فغير معروف معرفة صحيحة دقيقة، وإن كان مذكورا في بعض الأساطير الهندية القديمة أن واضعها يسمى ڤيازا Vyasa إلا أن المشهور أن «الريشيين» هم واضعوها، وهؤلاء هم حكماء الهند القدامى عارفو الأسرار والحكمة، ويصفهم رابندرانات طاغور في مقال له بعنوان «علاقة الإنسان بالكون» بقوله: «من هم الريشي؟ هم أولئك الذين بعد أن تحققوا من الاندماج في الروح الأعلى بالمعرفة قد ملئوا حكمة، ولما أن وجدوه في وحدة مع الروح البشري أصبحوا في ألفة تامة مع النفس الكامنة».

والشيء الذي لا شك فيه أن الڤيدا أقدم كتب الهند، ويزعمون أن ما فيها إنما هو فيض رباني، والهنود لا يعدونها مؤلفات أو أقوال أنبياء، بل يعتقدون أن الڤيدا ذخيرة الحكمة المقدسة القديمة التي لا نهاية لها، إنها أزلية سرمدية، ولا يحكم عليها بزمن ظهورها لأنها موجودة قبله، وكشف للريشيين وفاض عليهم نورها الساطع فاطلعوا على الأسرار الخفية الأزلية، وهم أظهروها للناس.

والڤيدا أربعة كتب:

الأول: الرجڤيدا، وهو أشهرها، وأشدها سحرا للهنود وتأثيراً فيهم، وتحوي ١٠٢٨ أنشودة مكونة من ١٠٤١٧ بيتاً، موزعة على عشرة أبواب، الأول خاص بأناشيد الكهنة عند تقديم القرابين، والثاني حتى السابع أناشيد الأسر المقدسة، والثامن أناشيد متنوعة، والتاسع يحوي أناشيد عندما يتناول الهندي شراب «سوما» المقدس، والعاشر خاص بأساطير وحكايات خرافية.

والهندوس الحكماء ينسبون كتابة الڤيدا إلى الإلّه الأعظم «براهما» كتبها بيده على أوراق من الذهب.

وقد اطلعت على بعض أناشيد الرجڤيدا فإذا بعضها ساذجة إلى حد بعيد، مثل التعجب المدهش من البحر لا تملؤه الأنهار، ولكن من الأناشيد ما فيه جلاء بصير وحكمة وعمق، وفي بعضها جنس، وهو في الباب العاشر مثل قصة أخ وأخته تراوده أن يضاجعها فيمتنع ويأبى ويرد عليها بمنطق الفضيلة والخلق، ولكنها

تتفلسف، وتعلن أنها إنما تريد مضاجعته حرصاً على بقاء البشرية، لأن في إبائه فناءها، إلا أنها تخفق في إقناعه.

غير أن الحوار في هذه القصة الخرافية بين أبي البشر الأول وأم البشر الأولى، وتجعلهما القصة أخوين، وإذا لم تكمل القصة فإن الخاتمة واضحة، لأن الأخت تريد بقاء البشرية، والبشرية باقية، إذن، تم الإتصال.

والرجڤيدا يدل على عبادة الهنود في تلك الأيام، ففيها ذكر آلهة كثيرات، منهم الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والشجر والمطر والريح والنور والحيوان على اختلاف الأنواع إلى غير ما ذكرنا.

وهؤلاء الآلهة في السماء حتى المعبـودات التي يرونها ويعاشرونها كانوا يعتقدون أنها هي أيضاً في السماء وإن كانت كأجسام على الأرض، وكل هذه الآلهة التي لا تحصى لكثرتها إنما هي في حقيقتها إلَه واحد، تعددت مظاهره فسمى كل مظهر إلَهًا.

وفي الرجڤيدا: إن هذه الآلهة التي يسمونها أندرا، أو مترا، أو ڤارونا ليست إلا أسماء مختلفة للالَه الواحد الذي لا إلَه غيره في الوجود.

وفي أنشودة الخلق أبيات تدل على ذلك ومنها:

لم يكن هناك غير الواحد الأحد
الآلهة أنفسها جاءت متأخرة في مراحل الوجود
إنه هو ربنا الأعلى في السماوات العلى

وليس ترتيب الأبيات الثلاثة وردت هكذا في الأنشودة، ولكنها مختارة منها فهم يعترفون بالتعدد والشرك، ولكنهم يعتقدون أن الآله الأعظم واحد أحد، وهؤلاء الآلهة مظاهره وصفاته، فإذا عبد قوم منهم إلهاً فليس مرد العبادة وتخصيصه بها وجوده الذاتي المستقل، أو تفرده في الألوهية، أو سمو مكانته على غيره، بل لأنه صورة صفات من صفات الآله الواحد ظهر بها فسمي إلهاً.

واعتقادهم بمبدأ هذه الوحدانية مع الشرك والتعدد جعلهم يعتقدون أن العالم خاضع لقانون ثابت هو قانون السبب والمسبب أو العلة والمعلول، فلا يمكن أن يوجد مسبّب إلا بسبب ولا معلول إلا بعلة، وكل الحوادث واقعة بأسباب، ومحال وقوع حادث بدون سبب.

وكل هذا يثبت أن للوجود خالقاً بارادته أو صدر عنه، وهو وحده المسيطر عليه، ولا إسم له لأنه أكبر من كل اسم، ولأن الكلمة لا تدل على حقيقته، وهو وحده خالق العالم بكل ما فيه ومن فيه، ولا تدركه الأفهام، ولا تدرك سره العقول إلا إذا فنيت فيه.

وهذا الذي أشرنا إليه هو مقتبس من أناشيد الرجڤيدا نفسه، وبخاصة في أنشودة الخلق وهي:

لا عدم ولا موجود في هذا الوجود حينذاك
فهذه السماء المشهودة لم يكن لها وجود
ولا قبتها الزرقاء مطوية على الأرض

ما الحجاب الذي يواري ما لا يرى؟ ما الموئل؟
أهي هاوية الماء التي لا قرار لها؟
لم يكن موت كما لم يكن خلود
لم يكن ليل ولا نهار
لم يكن هناك غير الواحد الأحد
لم يكن موجودا سواه منذ القدم حتى الآن
كان هناك ظلام، وكان في البداية كل شيء محجوبا
وكان البدء في ظلام: بحر بلا ضياء
والروح الكامنة في البذرة
لم تطق الحر فخرجت إلى الوجود
فانضم إلى الطبيعة الحب: ذخر الحياة الدائم
والشعراء يدركون بتأملهم وصفائهم حقيقة الوجود والعدم
يدركون ما وجد وما لم يوجد
ليت شعري! أجاء الحب من الأرض أم من السماء
إنه يتسع لكل شيء ويتخلله ويسري فيه
ووريت البذور في الأرض فأطلت إلى السماء
فالطبيعة في الأرض، والقوة والإرادة في السماء
من الذي يعلم السرّ وأخفى؟ ومن أعلنه ها هنا؟
من أين جاءت هذه الكائنات المختلفة؟
الآلهة أنفسها جاءت متأخرة في مراحل الوجود
من يعلم كيف وجد هذا الكون؟
إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم

سواء خلقه بإرادته أو صدر عنه عفوا
إنه هو ربنا الأعلى في السماوات العلى
الذي يعلم سرّ الوجود، بل لعله لا يعلم!

وهذه الأنشودة تذكر آلهة متعددة ولكنها تعترف بألوهية واحد أحد هو ربهم الأعلى، أثبتوا له القدرة والإرادة والعلم والخلق، ثم شكت الأنشودة في علمه عندما تقول: «بل لعله لا يعلم».

وهذا الإلّه الأعظم هو خالق الآلهة وغيرها، ولكن بعضها تطور على أيدي عباده حتى أصبح ذا شأن خطير، مثل «ڤارونا» الذي اتسعت ألوهيته حتى صار أعظم آلهة الڤيدا علواً وقدرة وسمواً، فهو رمز المثل الرفيعة في الخلق في العالم، والرقيب عليه بوساطة عينه النفاذة التي هي الشمس، فيثيب على الخير، ويعاقب على الشر، ومن صفاته: العفو، بل انتهى بڤارونا الأمر إلى أن أصبح حارسا للقانون الأزلي الذي يشمل العالم المادي كله، ويشرف عليه قائد عظيم في روحانيته وذو طبيعة إلّهية هو «ريتا».

ولكن ڤارونا ليس الوحيد في هذه الدرجة التي نالها، فهناك آلهة نالوا ما ناله.

فأندرا ـ كما تصفه الرجڤيدا ـ راعي الآلهة الآخرين وحاميهم بقوته وسلطانه وبأسه، ومن يخشاه العالم السفلي والعالم العلوي لأنه ذو القوة والجبروت، وهو قاتل الأفعى، ويشقق

الصخور فتجري منها الماء، ومنقذ البشرية، وهو أقوى مظاهر الألوهية، واندرا يمثل صفة «الانقاذ» من صفات الآله الواحد.

و«فشنو» خالق الخلق الذي يعقب الخلق الأول (البدء) وحافظ الخلائق، ومعطيها البقاء، و «سيفا» المفني المبيد!.

ولم يذكر «سيفا» في الرجڤيدا باسمه هذا بل ذكر باسم «روذْرا».

وليس «أندرا» هو الآله الأول الذي بدأ الخلق، وليس فشنو ولا سيفا، لأن هناك طورين للبرهمية التي تعد الديانة المعروفة في الهند قبل البوذية وغيرها، فالطور الأول مزدحم بآلهة أشهرها أجني وڤايو وسوريا.

وأجني هي إلهَة النار، وڤايو إلهَة الريح، وسوريا إلهَة الشمس، ثم جاء الطور الثاني حيث صارت السيادة للإله ذي مظاهر ثلاثة: الأصل براهما، والثاني فشنو والثالث سيفا.

وهذا تثليث يشبه التثليث في الديانة المسيحية، ولعله فيها منظور إلى التثليث في البرهمية، وقد ذكر «دوان» في كتابه «خرافات التوراة وما يماثلها في الأديان الأخرى» ص ٣٦٦ أن أعظم عبادة الهند اللاهوتية هو التثليث، ويسمون هذا التعليم بلغتهم «ترى مورتي» وهي عبارة مركبة من كلمتين بلغتهم السنسكريتية، فكلمة «ترى» معناها: ثلاثة، و«مورتي» ومعناها: هيئات أو أقانيم، وهي «براهما وفشنو وسيفا»، ثلاثة أقانيم متحدة لا تنفك

عن الوحدة، فهي إلّه واحد بزعمهم[١].

«وشرح المؤلف معنى هذه الأصول أو الأقانيم عندهم، وذكر أنهم يرمزون إليها بثلاثة أحرف وهي «أ . و . م» ويصفون هذا الثالوث المقدس بأنه لا ينقسم في الجوهر ولا في الفعل ولا في الإتحاد بقولهم: «برهما الممثل لمبادىء التكوين والخلق ولا يزال خلاقاً إلهياً وهو «الأب» وفشنو يمثل حفظ الأشياء المكونة (أي من الزوال والفساد) وهو «الابن» المنبثق والمتحول عن اللاهوتية، وسيفا هو المهلك والمبيد والمبدىء والمعيد (أي الذي له التصرف والتحويل في الكون) وهو «روح القدس» ويدعونه «كرشنا» الرب المخلص والروح العظيم الذي ولد منه «فشنو» الإلّه الذي ظهر بالناسوت ليخلص الناس، فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإلّه الواحد» و«إنهم يرمزون للأقنوم الثالث بصورة حمامة»[٢].

وفي تعليق الإمام محمد عبده على قول دوان: أن هذا «عين عقيدة النصارى في التثليث من كل وجه، فهي عقيدة برهمية وثنية أخذها النصارى عن البراهمة وصاروا يدعونهم ـ أخيراً ـ إليها»[٣].

وفي الفيدا ذكر آلهة أخرى مثل: الآله «سوما» وهو نبات مقدس، له عصير مسكر مقدس، يسكر منه الناس والآلهة، والنشوة التي تمنح لشاربيه إنما هي الفرصة التي يحسها الانسان من فعل الخير والعمل الصالح.

وبراهما رأس الثالوث المقدس هو خالق العالم إبتداءاً،

(١ و٢ و٣) تفسير المنار ج٦ ص٨٨ و٨٩.

وبدأت منه الآلهة واليه تعود لأنه منشؤها، والروح الإنسانية شعلة من نيرانه المقدسة، ولعل هذا ما دعا بعض الهنود أن يذهبوا إلى أن «براهما» هو أجنى إلهة النار في العصر الأول.

ويذهبون إلى أن براهما كان بدء الخليقة، وجد من بيضة ذهبية كانت طافية على الماء في العماء منذ البدء، فهو وجد قبل الخلق، وحددوا له عمراً، وزعموا أنه مائة سنة من سنيه، وكل نهار من أيام تلك السنين يقدر بـ٤,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة من سنواتنا الشمسية المعروفة، وفي نهاية كل نهار ينتهي عالم من العالمين فيستريح الآله ليلة لينشىء عالماً آخر جديداً.

وهم بهذا حددوا له بداية ونهاية، ونفوا عنه صفة القدم لأن هناك ما هو أقدم، وهو البيضة الذهبية التي خرج منها، كما نفوا صفة «الآخر» بلا نهاية، لأنه سينتهي بعد عمره الطويل.

وهذا الثالوث مكون من براهما وفشنو وسيفا، وقد زاحمه فشنو فانتزع منه لقب الخالق عندما سقطت هيبته، فقد فقدها بانتهاء عملية بدء الخلق الذي تم على يده، ويملك فشنو البقاء، فهو يتسلم «عملية» الخلق الثاني والثالث وهكذا، وسيفا نفسه انتهى إلى أن لقب بالآله العظيم.

حقيقة، إن مملكة الآلهة كما تصور كتب الڤيدا عجيبة، فيها طفولة الإنسانية ولكن بها صفاء النفس والحكمة والأمثال وآداب السلوك والأخلاق، وفيها طقوس عجيبة وعادات غريبة ما تزال باقية حتى اليوم، يدين بها كثير من فلاسفة الهند وشعرائها الكبار.

وكل ما مر ذكره موجود في «الرجڤيدا» وقد قلنا في أول هذا الفصل: إن كتب الڤيدا أربعة سبق ذكر أحدها وهو الرجڤيدا وهو أهمها.

أما الثاني فهو «الساما ڤيدا» أو سفر الساما Sama Veda ويحوي أناشيد الصلوات والأدعية، وتبدأ بأناشيد في تمجيد أجني Agni إلآهة النار التي تفترش العشب المقدس، وقد تطور حتى صار «براهما» الإله الأعظم، وبعدها أناشيد في تقديس أندرا إله المطر، ويترنم بها في الصباح عند تقديم القرابين تبركاً ودعاء وابتهالاً.

والكتاب الثالث هو «الياجور ڤيدا» Yajur Veda أو سفر الياجور، وفيه أناشيد الكهنة يرتلونها عند إعداد النار وتقديم القرابين، وبها صلوات استقبال الهلال والبدر عندما يتقربون إليهما بالذبائح، ثم أناشيد في مجلس شرب عصير السوما المقدس، فأناشيد تنشد عند إشعال النار المقدسة.

والرابع هو «الأثارڤا ڤيدا» Atharva Veda أو سفر آثارڤا، ويقال: إن ما بها من رؤى «أثارڤان» ابن براهما الفكري، ويحوي هذا السفر تعاويذ ورقى وعزائم لطرد الأرواح الشريرة من المنازل وهزيمة الأعداء وقهر الشياطين وطرد النحس والأمراض، وفيه أناشيد الزواج واستمناح البركة، وأدعية ترسل عند غسل الطفل بعد ولادته أول مرة، وتوسلات للآلهة أن تمكنه من الربح في الميسر وتجنبه الوقوع في أي شرك وبخاصة في شرك المرض، وأن تمنح العزب زوجاً.

ويلي الأسفار الأربعة ذيل غير الفروع، مكون من أربعة كتب، وهي:

١ ـ مانترا، وهو أناشيد وصلوات.

٢ ـ برهمانا، وهو نصوص فقهية وأصول عبادات.

٣ ـ أرنياكا، وهو مطالعات الغابة لمن صمموا على الانقطاع والعزلة في الغابات ابتعادا عن الناس وتخلصا من شرور المجتمع لتفهم الروح بصفاء وأمن وطمأنينة حتى تفنى في الآله الأعظم، ويجب أن يستظهرها الإنسان ليتسنى له تلاوتها والترنم بها.

ويقال: إن عدد المطالعات يزيد عن المئة قليلا، وبعضهم يصل بها إلى ما فوق المائتين، ولا يعرف زمن كتابتها، وإن كان يقدر أقدمها بستمائة سنة قبل المسيح.

٤ ـ اليونانيشاد، أو التوحيد، ويحوي بحوثاً حول براهما (روح العالم) وفيه بحث عن نشأة العالم بعد أن لم يكن هناك غير الماء والعماء، إلى أشياء لا تصلح إلا للمفكرين والحكماء والفلاسفة لأنها مما يتصل بالتوحيد والفكر والعقل.

وإذا أردنا أن نستخلص من كل ما مر عقيدة الهنود في عصر الڤيدا فإن ملخص هذه العقيدة: أنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة وطواطم مختلفة، بل تخلف إلى عصر الڤيدا عقائد من سبقوه ممن عبدوا مظاهر الطبيعة والطواطم والأشجار، فكان لديهم الإلّه الأفعوان «ناجا» والثور المقدس «ناندس» والإلّه الفرد «هانومان» إلى غير ذلك من الآلهة.

إلا أن عصر الڤيدا لا يختلف كثيراً عما سبقه إلا في فلسفة هذه الآلهة وإدراك ما يقصد بها ويطلب منها مع العلم والمعرفة والحكمة وإدراك العلة والمعلول.

عرفوا أن هناك خليقة وأن هناك بدءا وأن هناك خالقاً أعظم وواحداً أحداً، وكان عدم ولا وجود ثم كان البدء بوجود ماء وعماء وطفا على سطح الماء بيضة ذهبية احتوت سر الوجود، فخرج منها «براهما» الإلّه الأعظم الذي خلق الكون وعمره ١٥٥,٥٢٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة، أي عمر براهما لا الكون.

وكان من عقيدتهم التناسخ الذي نجده في ديانات الهند، وتعدد الآلهة والأرباب مع الذهاب إلى وجود إلّه أعظم مسيطر على الآلهة والأرباب جميعاً، ولكنه إلّه يتفق مع شركهم ووثنيتهم، ويلائم تفكيرهم وحياتهم.

ولم يكن من ديانتهم حصر الكهانة والتقديس ومعرفة الأسرار على طبقة معينة من الناس، بل يمكن أن يكون من «الواصلين» الرجال والنساء على السواء، كما كان الباب مفتوحاً أمام كل إنسان مزود بالمعرفة والحكمة وخلوص النية وصفاء الروح أن يصعد إلى مرتبة الريشيين وهم الحكماء العارفون.

* * *

وكان لكتب الڤيدا الأربعة وذيولها أثر في ميلاد ديانة جديدة تختلف عن الأولى في المنحى الفكري والعقائدي، لأن الذيول

جاءت متأخرة عنها بقرون قد تزيد وقد تنقص، فالشك الذي كان يتصف به الإلّه الأكبر (يعلم السر ولعله لا يعلمه) قد حل محله يقين فيما كان الشك منه أو فيه.

فالديانة الڤيدية تقوم على النصوص وظاهر مفهومها دون تعمق أو بحث أو تأويل أو تمحيص أو استنباط، أما الديانة التي أعقبته فقد اعتمدت النصوص الڤيدية مع البحث والتمحيص وإعمال الرأي والفكر والاستنباط.

وكان لليوبانيشاد أثر واضح كبير في الديانة الجديدة التي تسمى «البراهمية» نسبة إلى «براهما» التي جاءت في الرجڤيدا بمعانٍ منها الانقطاع عن الدنيا إلى العبادة والفناء فيها، والأغنية الدينية، والشعار الديني، والصلاة.

ولكلمة «براهما» معنى آخر غير ما تقدم، وهو أحد الثالوث الإلّهي (براهما وفشنو وسيفا) وبراهمان: روح العالم غير المُحَسِّ به، ولكنه أطلق على الكاهن في عصور متأخرة، والبرهمي: العضو في طبقة الكهنة.

إلا أن الديانة البراهمية عندما دخلها البحث الفلسفي فهمت «البراهمان» على أنه الوجود المطلق، وجوهر العالم الواحد الشامل.

والديانة البراهمية يعود تاريخ ظهورها فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد، وهي صفحة أخرى من الديانة

القيدية، فيها المنطق والعقل والفلسفة وحل معضلات وقفت أمامها الديانة القيدية خاشعة دون بحث أو تفكير.

ومن هنا نشأت طبقة الفقهاء أو رجال الدين واحتلت المرتبة العليا من بين طبقات الشعب، وكان إليها ختام الشرف والعلوم، فهي صاحبة الحق في تفسير النصوص والإمامة ورئاسة الحفلات الدينية وفرض أنواع جديدة من الطقوس والعبادات، ولا يباح لأحد الدخول في هذه الطبقة من غيرها، بخلاف الديانة القيدية، بل قصر هذا الشرف العظيم عليها وعلى ذرياتها التي ترثه، ويكون للخلف حقوق السلف نفسها.

واليو بانيشاد مكونة من كلمتين: يوبا بمعنى «قريبا» وشاد بمعنى يجلس، وأطلق في الأصل على من «يجلس قريبا» من المعلم أو الحكيم يتلقى منه ما يعطيه.

وكلما كان التلميذ قريبا من معلمه كان في مكانة الحظوة منه، لأنه لا يجلس قريبا منه إلا من كان قريبا من نفسه، فهو وعاء علم معلمه الذي يفيض عليه، وخليفته من بعده.

ثم كان اليوبانيشاد إسمًا على مذهب فلسفي في كتاب ما يزال موضع الاحترام والاعجاب منذ ألفه مؤلفوه من الحكماء والكهان، ما يزال اليوبانيشاد موضع الإعجاب حتى عصرنا هذا في الشرق والغرب حتى بالغ بعضهم مثل شوبنهاور حتى رفع قدره على كل كتاب في الأرض، مع أن أسفاره الكثيرة «مليئة بالسخافات والمتناقضات».

ولكن فيها مسائل فلسفية عميقة، ولكن الفلسفة والدين كانا شيئاً واحداً، لأنهم لم يفرقوا بينهما، وأصبحت العقيدة أو التفكير الديني قائمًا على أساس المعرفة والبصيرة والفهم والإدراك والمنطق، وبنيت العقيدة المنبثقة من اليوبانيشاد على قواعد راسخة من الإيمان العميق.

وأولى هذه القواعد: التوحيد، ففي إحدى المحاورات بين المعلم وتلميذه نجد المعلم يقول لتلميذه: إن عدد الآلهة ثلاثمئة وثلاثة، وهم ثلاثة آلاف وثلاثة، وما يزال التلميذ يسأل معلمه عن عددها ويريد منه جوابا ثابتا يقيناً حتى ينزل المعلم بالعدد شيئا فشيئاً إلى أن عدد الآلهة هو «إله ونصف» ثم لما يعيد التلميذ السؤال ينتهي المعلم إلى الجواب الذي هو فصل الخطاب: «إنه إلّه واحد».

ويتكرر في أسفار اليوبانيشاد ذكر التوحيد كثيراً حتى يثبت في الذهن.

ولكن هذا التوحيد (الإلّه واحد أحد) لا ينفي الشرك لأن كل شيء يصبح إلهاً، كل فرد من بني الإنسان جزء من الالّه وإن كان منفصلا عنه، إنه يرى كذلك، ومع ذلك سينتهي به الأمر إلى الاندماج فيه من جديد.

وهذه الوحدة التي تجمع الأجزاء في كل واحد هي وحدة الوجود، إنه «براهمان» الكلمة، إنه البدء الذي يستمد منه كل

كائن وجوده، براهمان وحده هو الذي يستمد وجوده من ذاته، بل هذا الإنسان في جوهره المتجرد من الذاتية إنما هو الآله جوهر الكائنات كلها.

وهذا الآله - كما يذكر اليوبانيشاد - أعظم من السماء والأرض ومن الأجرام السماوية ومن العالمين لأنه الكل الأكبر المحيط بالوجود كله، والاتصال به أو عودة الجزء المنفصل من الكل إلى الكل أمنية الهندي، ويسمي هذه العودة حقيقة ونوراً وخلوداً كما جاء على لسان هندي في اليوبانيشاد يبتهل ويتضرع ويدعو ويتوسل قائلاً:

«أخرجني من دنيا الوهم إلى عالم الحقيقة، ومن الظلمات إلى النور، ومن الفناء إلى الخلود».

ووحدة الوجود تزداد ثبوتاً من كثرة العبارات التي ترددت في اليوبانيشاد في مواضع كثيرة.

وعرفت الديانة البرهمية مبدأ التناسخ وصار من عقيدتها، ففي سفر «ساتاپاتا» من أسفار اليوبانيشاد توضيح لهذه العقيدة حيث يذكر تكرار الولادة والوفاة عقاباً لمن لم يستطيعوا أن يندمجوا في الكل الذي هو الآله، وليس التناسخ والحلول وقفاً على الإنسان الذي عمل شراً فمات، فليس حتمًا أن تنتقل روحه إلى إنسان، بل يجوز أن تحل في كلب أو شجرة، وما يزال تكرار الوفاة فالولادة إلى أبد الآبدين إذا لم تستطع أن تتجرد من الشهوات تجرداً تاماً يصعد

بها إلى حيث يمكنها الاتحاد في الكل، فإذا استطاعت الروح التخلص من إسار الشر فإنها ستندمج في الكل لتنعم بالاتحاد معه، وبهذا الاتحاد ينجو من العذاب الذي يتجلى في الولادة الجديدة المتكررة.

وبين الاتحاد مع الكل الذي هو براهمان والإنسان قوة براهمانية مطلقة، هي روح الأرواح ونفس النفوس جميعاً تسمى أتمان Atman الذي ليس بمادة ولا صورة، لأنه روح الأرواح كلها المسيطرة على العالم، فإذا صفت روح الإنسان التي هي أتمان الذي أكسبه حقيقة الإنسانية فإن هناك الاتحاد في براهما، وأتمان وبراهما ليسا إلا الإلّه الواحد الأحد نفسه.

فلا فناء للنفس الجزئية أو الروح الجزئية لأنها إما أن تتجدد بالتناسخ والحلول وإما أن تندمج في الكل الذي لا يفنى عندما تسمو، لأن هناك عقاباً وثواباً، العقاب في الحالة الأولى، والثواب في الحالة الأخرى.

والقانون البرهمي يحدد ذلك تحديداً، لأنه قانون لا تبديل له، إنه القانون المسمى كارما Karma قانون العلة والمعلول أو السبب والمسبب عنه، فالاندماج في الكل إنما هو سبب عن العمل الصالح الذي هو سبب ذلك الاندماج، فكارما لا يظلم، وقانونه لا يرحم الإنسان بعمله، إن شراً فشر، وإن خيراً فخير، هو نفسه يكتب بيده شقاءه أو سعادته، والكارما هو «القدر» كما يدل

عليه معنى الكارما، والكارما ليس إلهاً، ولكنه يتحكم في الآلهة وفي الناس وفي غيرهم.

وعقيدة البرهمية ليست توحيداً بالمعنى المعروف في الأديان الصحيحة لأنها تجعل عن سبيل وحدة الوجود والتناسخ والحلول تعدداً لا يحصى في الآلهة، كما أنها تعترف بوجود آلهة أخرى.

والديانة الڤيدية والديانة البرهمية كلتاهما عزوف عن الدنيا وانصراف عنها ودفع للتشاؤم واليأس.

ولعل ما فيها من تشاؤم حمل شوبنهاور إلى أن يلتقيها ويفتتن بها فيقول في «اليوبانيشاد»: «ليس في الدنيا دراسة تمتعك وتسمو بك مثلما تمتعك أسفار اليوبانيشاد وتسمو بك إلى أعلى كثيراً، إنها متعتي في الحياة، وستكون كذلك بعد الموت».

وقد أشاد بها غير شوبنهاور، وكثير من الأوربيين حتى غالوا في تمجيدها كل المغالاة فانخدع بمغالاتهم كثير من العرب والمسلمين، وظنوها أكبر انطلاق للعقل البشري من سجنه لمجابهة مشكلة الوجود ـ كما زعم الأوربيون المولعون بتقديس ما ينسب إلى من كانوا أسلافهم من الآريين ـ مع أنه انطلاق حسي في صحراء الوهم والظنون.

ولا شك أن في آداب الديانتين أصولاً إنسانية تتجلى في الحض على فعل الخير والبعد عن الشر والإحسان الدائم، ولكن هذا لا يعطيها المزية التي ترجحها المذاهب والأديان الأخرى.

ومع أن شوبنهاور رفع اليوبانيشاد إلى أعلى مراتب الأسفار الخالدة وآثرها عليها وشاركه غيره في هذا التقديس والحب والإعجاب إلا أن في اليوبانيشاد نفسه وفي أسفارها ما يدل على ما وجه إلى الديانة التي يمثلها اليوبانيشاد من النقد والهزء والسخرية والهدم.

ففي سفر (شاندوجيا» من أسفار اليوبانيشاد، ما يفصح عن وجود سخرية من الحكماء بالكهنة البرهميين حتى أنهم شبهوا هؤلاء بكلاب يعض كل كلب ذيل سابقه في موكب طويل وهو يقول في زهد وتقى: لنأكل ولنشرب.

وفي سفر (سواسانقد» إنكار للإله ولكل ما في ديانة البرهمية، واتهام لمؤلفي اليوبانيشاد وأسفاره الكثيرة بأنهم حمقى ومرضى ومهووسون.

وكان هناك فلاسفة ملحدون بالنسبة للديانة الڤيدية والبرهمية يجاهرون بكفرهم وإلحادهم ويهاجمونهما ويسخرون بما فيهما أشد السخرية.

وكان هناك فلاسفة متنقلون من بلد الى بلد، ومن غابة الى غابة وهم يعلنون الحرب على الديانتين ضروساً عنيفة، ولقوا معجبين ومريدين وتلامذة، وقفوا على نقيض التزهيد والتشاؤم، ودعوا الى اللذة وانتهابها وانتهاز كل فرصة إليها لأن ما مضى لن يعود، وليس هناك وحدة وجود ولا براهما، بل بلغ ببعضهم الحنق

إلى حد أنه قال: لا فرق في الحقيقة بين الآله فشنو وأي كلب من الكلاب.

وكثر الزنادقة والملحدون بالنسبة للديانتين حتى امتلأت الهند بأتباعهم وكثر الجدل بينهم وبين المتدينين بها، ولكنهم حطموا آلهتها تحطيمًا، حتى زلزلوا قواعد العقيدة الدفينة في ملايين النفوس مما جعل فراغاً في ملايين أخرى، وشكاً عند آخرين، وتململاً عند كثيرين.

بل انتصر الزنادقة والملحدون ـ هؤلاء ـ انتصاراً كبيراً في مجال الفكر والمنطق والمادية حتى أن الديانتين اللتين جاءتا بعد الديانتين السابقتين وهما الجينية والبوذية خلتا من فكرة الآله ومن الطقوس التي ابتدعها الكهنة.

بل كانت الجينية والبوذية أثرين من آثار حرب الالحاد التي شنها الزنادقة والملحدون على الديانتين الڤيدية والبرهمية.

وليس في هذا غرابة، فالجينية والبوذية ديانتان تشتملان على عبادة، ولكنهما تعتبران ملحدتين، لأنهما خلتا من فكرة الإله كما نرى، وإن اتباع الڤيدية والبرهمية من الكهنة اتهموا الجينية والبوذية بالإلحاد لأنهما تخالفان الأصول والنصوص الڤيدية التي كان لها السلطان المطلق على الشعب الهندي.

فالديانة الجينية ترجع إلى مؤسسها ڤارذامانا Vardhamana المعروف بلقب ماهاڤيرا Mahavira الذي أطلقه عليه أتباعه تمجيداً

له، ومعناه «البطل العظيم» وعرفت بالجينية نسبة إلى «جينا» التي هي صفة لا علم، ومعناها القاهر أو الغالب، لأنه مؤسسها الأول وحواريوه قهروا شهوات أنفسهم وغلبوا إرادتهم النازعة إلى المادية.

وڤارذامانا ـ مؤسس المذهب ـ ابن ثري من أشراف قبيلة «لشافي» التي كانت تنزل باحدى ضواحي مدينة «ڤايشالي» من مقاطعة تعرف في أيامنا بمقاطعة «بيهار».

وعاش ماهاڤيرا ما بين سنة **٥٩٩ ـ ٥٢٧** قبل الميلاد على قول، وعلى قول آخر ما بين سنة **٥٤٩ ـ ٤٧٧** قبل الميلاد، ونعم في حياته وعاش في بحبوحة ورخاء يحبر في ثراء أبيه وشرفه ومجده حتى بلغ الحادية والثلاثين من عمره حيث فجع في أبويه فجيعة لم يطقها، بل آده حملها الثقيل.

لقد انتحرا بطوعهما واختيارهما انتحاراً غريباً، أجاعا نفسيهما حتى فاضت روحاهما لأنهما كانا يعتقدان عقيدة تحبب الانتحار وتؤثره على الحياة، والانتحار فيها نعمة لا تساويها الحياة لأن العودة إليها لعنة من اللعنات، وكانت الحادثة أكبر من احتمال ماهاڤيرا، واستبد به الحزن حتى حقد على الحياة والنعيم والمسرة والثروة والمجد والشرف لأنه رأى نهاية والديه المحزنة الأليمة، وعجز ما كانا فيه من النعيم أن يثنيهما عن عزمهما أو يشجعهما على الاستمرار في الحياة.

تنكر ماهاڤيرا للحياة بكل ما فيها من لذائذ ومسرات

وأمجاد، وأظلمت نفسه فلا يوصوص فيها نور أي لذة ، فجحد الحياة التي كان يحياها وكفر بها كفراً، وحقد عليها حقداً لا تنطفىء ناره، فغادرها إلى حياة القشف، وأخذ يتجول في الاقليم الغربي من البنغال، ينشد تطهير النفس وصفاء الروح ـ كما يقولون ـ حتى أمضى في هذه الحياة الجرداء ثلاثة عشر عاماً قهر فيها نوازع نفسه وغرائزه وشهواته حتى أعجب به بعض الناس وتبعوه وعجبوا من قدرته على قهر شهواته وتغلبه على نوازعها حتى تطهرت روحه.

إنه «جينا» ولا شك عندهم، وإلا فما تفسير هذه القدرة القادرة على قهر النفس وهواها اذا لم يكن «جينا» أي القهار.

وإن الزمن لا يسمح ولا يجود بجينا إلا نادراً، وها هو ذا يجود به لينقذ الهند مما غرقت فيه من الآثام والملذات حتى أوحلوا فيها إيحالاً.

حقاً، إن من يقهر نفسه هذا القهر ويغلب سلطانها بطل عظيم ، إنه الماهافيرا المنتظر لينقذ الغرقى ويهدي الضالين، وها هو ذا قد بعث، فما أسعدهم به.

والتفوا به وجعلوه زعيماً لهم وسموه ماهافيرا (البطل العظيم) واشتقوا لعقيدتهم اسماً من القهر (جينا) فسموا أنفسهم الجينيين ليكونوا مثل زعيمهم قاهري شهواتهم.

واستعد ماهافيرا لتسلم أعباء القيادة فأوجد جماعة من أتباعه واشترط أن يكون أفرادها عزاباً، وجعلهم رهباناً، ومن

النساء راهبات، وأثر في أتباعه تأثيراً قوياً، فرضوا بمذهبه الذي لم يوجد في الأرض مذهب مثله في التقشف إلى حد الهوس، والقسوة على النفس، إلى حد لا يطاق.

فاللحم حرام عند الجيني، وقتل كل ذي روح حرام، بل يحرم عليه إيذاء أي شيء سواء أكان انساناً أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً فضلا عن إزهاق روحه أو إتلافه.

والراهب الجيني يأخذ نفسه بمنتهى القسوة، بل كل جيني، فيضع على مصباحه ستاراً لئلا يقتحم لهبه فراش فيحترق، ويجب ألا يدخل في فمه أو أنفه أي حشرة، فهو يجبر على حمل مروحة يذودها عنه، بل عليه ألا يطأ على الأرض حشرة لا يعلم بها، فهو مضطر لحمل مكنسة يكنس بها ما بين قدميه حين يسير لئلا يدعس حشرة بريئة فيقتلها.

بل على الجيني محرمات وممنوعات كلها إسراف ومبالغة وامعان في قهر شهوات النفس ومطالب الجسم ونداء الغرائز، فيجب عليه أن يكون أكبر من الألم وألا يشعر بالضيق أو الاعجاب بجمال المرأة، فلا يشعر بألم الجوع والعطش أو الحرارة والبرد، وألا يتضايق من لذع حشرة أيا كانت، وألا يشعر بالخزي أو العار أو الخجل من العري، ولا يأسف لنومه على الأرض دون فراش، لأن من المحرمات على الجيني النوم على فراش، وألا يشكو من الألم إذا مشى على شوك، بل يجب ألا يشكو ألماً أو ضيقاً، وألا يشعر

بضيق الصدر من أي حادث أو منظر، وألا يتأذى بما يناله من أذى.

ومن آداب الجيني المفروضة عليه فرضاً: الإيمان الصادق بواضعي المذهب الألي هم هداته وينبوع معارفه، والمعرفة الصحيحة لمذهبه، والتخلق بأحسن الأخلاق، وهي التنزه التام عن السرقة والكذب والقتل والتملك مع الاعتصام التام بالعفة.

والجيني يعطي العهد من نفسه بهذا التنزه، وكلهم سواء فيه إلا التنزه التام عن التملك والتمسك بالعفة فلا يلزمان غير الرهبان والراهبات.

ولا إله عند الجينيين، ولكن لديهم قديسين ارتفعوا الى منزلةٍ تشبه منازل الآلهة عند سواهم، ومن هؤلاء أربعة وعشرون حكيماً الذين يعود إليهم فضل تأسيس المذهب ولديهم أرواح ومخلوقات عظمى ودنيا طيبة وشريرة يعتقدون فيها.

وإذا استطاع الجيني أن يترهب ويقضي اثنتي عشرة سنة في قهر النفس وترويضها، وأن يحرم على نفسه ما حرمته عليه ديانته، وأن يلتزم بكل ما تعهد به فإنه سيصل إلى الدرجة الرفيعة التي يباح له عند ذلك أن يقتل نفسه، بل يباح له أن ينعم بقتل نفسه جوعاً كما قتل والدا الماهافيرا نفسيهما.

وفلسفة قتل النفس أو التنعيم به الرغبة في قطع صلته بالحياة لئلا يكون مظنة لإيذاء أي أحد دون أن يشعر به كأن يدعس نملة وهو لا يعلم.

وعندما يبلغ الراهب هذه الدرجة الرفيعة فقد استطاع أن يحرر روحه وينقذها من التناسخ والحلول، والصعود إلى حيث النعيم الأبدي في جنة أشبه بالجزيرة حيث الخلود.

ولقد فارق الحياة كثير من زعماء الجينية على هذا النحو، وما زالوا حتى أيامنا هذه.

والتناقض واضح، فالجيني حرام عليه أن يؤذي غيره أو يقتل أي روح ولو روح حشرة، ويبالغ إلى حد الهوس في اجتناب هذا الحرام والوقوع فيه على رغمه وحذره واحتياطه، ولكنه ينسى أنه يؤذي نفسه، ولا شيء في إزهاق روحه.

ولكن لي رأياً في أساس الجينية، فمؤسسها ماهاڤيرا حاقد على الحياة والمجتمع والناس؛ لأن والديه فارقا الحياة بوساطة الانتحار جوعاً حتى الموت، فامتلأت نفسه المفجوعة ألماً وحقداً وكراهية وبغضاء للحياة، فانعكس ما في نفسه على مذهبه انتقاماً من الحياة بتسخير أفرادها ليلقوا مصير والديه، ومن لا يلقاه يفقد التلذذ بالحياة، وهو موت الدوافع إلى الحياة المليئة بالأطايب والملذات الحلال.

إنه دين انبعث من مريض مضطرب النفس، ولكن لا غرابة في أن يجد أتباعاً، لأن الهند تتسع لأي دين مهما كان مناقضاً لقوانين الأخلاق وآداب السلوك والمجتمع وللحياة والوجود نفسيهما.

فلا إله، ولا دنيا، ولا حياة، إنها إلحاد وسلبية مسرفة، ومناقضات عجيبة، إغراق في الحس، وتنكر له في آن واحد، فالمعرفة عندهم حسية أو طريقها الحس، وهي نظرية موجودة في الفلسفة اليونانية، ولكنها عند الجينية لا يقصد منها احترام المعرفة بل قتل الإيمان جوعاً كما يقتل الجيني نفسه جوعاً، فالحق ليس حقاً دائماً، ولكنه نسبي، ما تراه أنت حقاً يراه غيرك باطلاً، إذن، لا حق.

والمعرفة نسبية، فما يعتبر عندك معرفة يعد عند غيرك جهالة.

ولعلهم أول من ضربوا المثل بالعمي الذين لم يشهدوا الفيل ولم يعرفوه، فصوره كل منهم بما صوره له لمسه إياه، فأحدهم أمسك بأذنه وقال: إنه مروحة كبيرة لذر قشور الأرز، ولمست يد أعمى منهم ساقه فقال: كلا، إنك خاطىء! الفيل عمود مستدير ضخم! وجاءت يد الثالث على خرطومه فقال: كلاكما خاطىء، ما الفيل إلّا حبل غليظ لربط السفن، وهكذا.

وزعموا أن معارف الإنسان وعقائده مثل هؤلاء العمي الذين لم يدركوا حقيقة الفيل فحكم كل منهم بحسب تصوره، وكانوا خاطئين، والوحيد الذي يستطيع مشاهدة الحقيقة وفهمها وتتكشف له عن نفسها هو الماهاڤيرا وأمثاله الذين يظهرون في الوجود لخلاص البشر مما هم فيه من الغلظ والجهالة والضلال، أو أتباع الماهاڤيرا لأنهم أدركوا الحقيقة الصحيحة المجردة.

ولا أحد غير الجيني، ولا معرفة ولا حقيقة ولا علم إلّا ما كان منه، فأسفار الڤيدا خاوية، ليست بصحف منزلة من إلّه، فهي مجردة من النفع.

بل أيوجد إلّه حقاً؟ أيلزم أن نفرض وجوده؟ ما حاجتنا به؟.

إن أي طفل يستطيع أن يجيب: إن افتراض وجود خالق لم يخلق ومعلول بلا علة مثله مثل افتراض وجود من غير موجد، والشيء الذي يتفق مع العقل والمنطق أن نعتقد أن الوجود قديم أزلي، وما يعتوره من تغير وتطور ليس مرده إلى عمل الآلهة بل إلى الطبيعة نفسها.

وأخلت الجينية السماء من الخالق ومن كل إلّه، أخلتها لتملأ فراغها بمن رفعتهم إلى منزلة الآلهة عند غيرهم.

والوجود يتكون من عنصرين؛ الروح (جيفا)، والمادة (آجيفا)، الشعور واللاشعور، والروح متصفة بالإيمان والذكاء والهدوء.

وعندما تحل الروح جسد إنسان تتشكل على قدر حجمه وقوته، فيصغر في الجسم الصغير ويكبر في الجسم الكبير، والمادة ذوات أشكال كثيرة بحسب الزمان والمكان، وعلى هذا أصل الكون المادة والروح، ثم تتصل بالأصل فروع منها الزمان والمادة، والمادة تتحرك وتسكن، فالحركة والسكون تكملة للفروع.

وكما يحدث خلاف بين أبناء كل ديانة فقد حدث خلاف بين أتباع الجينية، وانقسموا فريقين: فريقاً يرى بقاء الجسم عارياً كما خلق، لأنه أكمل للنزاهة، وفريق يرى ألَّا مانع من وجود ما يستر الجسم. فالذين يبيحون يلبسون ثياباً بيضاً، والذين يحرمون لبسها يمشون عراة، ولكن الزمن أجبرهم على اللباس، إلا الكاهن فإنه يجبر على أن يكون عارياً، وما يزال كذلك إلى يومنا هذا، فالجينيون يبلغون حوالي المليون ونصف المليون، ويجوب كهانهم الطرقات عراة، أما هم فيلبسون ثياباً خضوعاً منهم لأدب اللياقة الحديث.

وأحد الفريقين يسمى «شويتمبارا» والآخر «ديجمبارا» والأول ذو أربعة فروع، والآخر ذو أربعة وثمانين فرعاً.

والديجمبارا هم الذين يتخذون السماء رداء، أي يبقون عراة، وأما الشويتمبارا فلابسو الثياب وهم المعيرون من أولئك لأنهم يشعرون بالخزي من العري وفي هذا خروج على أوامر المذهب.

وغاندي نفسه كان من الجينية ومن معتنقي عقيدتها أو ممن تأثروا بها إلى بلوغه «أهمسا» وأهمسا: الامتناع عن أذى أي كائن، وتتفق حياته مع حياتهم في أشياء كثيرة.

وإذا كان غاندي من المتأثرين بالجينية حتى ليصح أن يكون من أتباعها فإن شاعر الهند رابندرانات طاغور من الفيديين والبرهميين معاً، فهو يقول في بحث له بعنوان «علاقة الإنسان بالكون».

«إن سفر الجاياتري Gayatri هو سفر التأمل اليومي، وهو مقطوعات شعرية تتضمن خلاصة كل ما في كتب الڤيدا Vida وهي إنما تتخذ وسيلة لتحقيق الوحدة الأساسية بين العالم وضمير الإنسان، فإنها تعلمنا كيف ندرك تلك الوحدة التي تربط «الروح الخالد» بين أجزائها، فمات ذلك الروح الذي خلق الأرض والسماء والنجوم».

و«يصف اليوبانيشاد كل الذين وصلوا إلى الغرض الأخير الذي ترمي إليه الحياة الإنسانية بأنهم في سلام وأنهم مع «الله» ويعنون بذلك أنهم في ألفة تامة مع الإنسان والطبيعة، وبذلك يصبحون في حلقة غير مفصومة من الاتحاد بالله».

و«المفروض علينا أن نوقن بأن كل ما في الدنيا من موجودات مندمج في الله، إني إنما أسجد لله مرة تلو أخرى لأني أراه في النار وفي الماء، وهو الذي يحل في كل نواحي العالم وفي المحصولات التي تحبونا بها الأرض كل عام، كما هو في الأعشاب الدورية الحياة».

و«أن هذا المذهب (ويقصد البرهمية) لا يزودنا بأن نرى الله في كل الأشياء لا غير، بل يلزمنا أن نحييه ونمجده في كل الموجودات التي يتضمنها العالم، فإن موقف الشاعر بالله في اليوبانيشاد إزاء الكون لموقف يتجلى فيه شعور التقديس العميق والعبادة الحقة، فإن موضوع عبادته موجود أمامه في كل شيء وحيثما كان».

وعلى أي حال لم يكن طاغور من المؤمنين حقاً من الناحية الفكرية والفلسفية لأنه كان ملحداً مع كثرة ما أشار في شعره وقصصه الى الآله، ففي مقابلة له مع أينشتاين ظهر إلحاده بارزاً كما ظهر إيمان أينشتاين بالله الأحد الفرد الصمد قوياً.

* * *

والديانة الهندية الأخرى التي قاومت الڤيدية والبرهمية هي «البوذية» **نسبة إلى بوذا**، وأصبحت من أكثر الأديان اتباعاً في العالم.

وبوذا الذي تنسب إليه هذه الديانة ابن حاكم، وقد ولد في حديقة لومبيني Lombini بالقرب من مدينة «كابيلاڤاستو» في شمال الهند من إقليم نيبال، وذلك سنة **٥٦٨** قبل الميلاد، وتختلف تواريخ ميلاده ولكن ما ذكرناه أرجح الأقوال في تاريخ مولده.

وتزحم الأساطير مولده وما قبله وأيام حمله، فتذكر أنه ولد نظيفاً لا كما يولد الأطفال، بل نزل من بطن أمه وهي واقفة ممسكة بغصن، ولم تشعر بألم، وكان جسمه نظيفاً كالمرآة، وذكروا له معجزات وكرامات وبشائر.

وأبوه «شدذوذانا» من عشيرة «جواتاما» التي تنتسب إلى قبيلة «شاكياس» وكان يحكم مدينة «كابيلاڤاستو».

وأمه «مايا» وتوفيت بعد ولادته بسبعة أيام لئلا تعيش فيحمل رحمها غيره، فأرضعته شقيقتها وزوجة أبيه الثانية.

وسمي «سدذارثا» ومعناه: الذي حقق أمله، ومن ألقابه الكثيرة: «شاكياموني» أي حكيم قبيلة شاكياس، و«تاذاجاتا» ومعناها: الرجل الفائز بالحق، وأما «بوذا»فمعناه: المستنير.

ونشأ بوذا في قصور أبيه الذي يعد من طبقة المحاربين النبلاء، وعاش عيشة ترف ورخاء ونعيم، وتعلم الفروسية والرمي، وبالغ مؤرخوه في كل صغيرة وكبيرة من حياته حتى زعموا أن أربعة آلاف راقصة خصصن لإدخال السرور على قلبه، وأن زوجه منقاة من خمسمائة حسناء.

وتزوج في السادسة عشرة من عمره بزوجه «ياسوذارا» بنت أحد زعماء قبيلة «كولي» وعاش معها سعيداً هانئاً، وأنجبت له ابنه «راهولا».

إلا أن حياته كانت هدفاً لسهام الآلام، آلام الإنسان، فقد خرج من القصر ذات يوم فرأى شيخاً فانياً، وعاد إلى منزله يفكر فيما يفعل الزمن بالمرء من تغيير، حيث يسلبه القوة والنضارة والحيوية والعافية، وفي اليوم الثاني رأى مريضاً أتلفه السقم والداء، فرجع حزيناً يفكر: لماذا يمرض هذا المسكين؟ من الذي يغير حاله؟ ولماذا تستحيل حياته عذاباً، وفي اليوم الثالث رأى جنازة ميت، فعاد والحزن والألم يعصران قلبه.

ويل للإنسان في هذه الحياة، شباب يذوي، وصحة تفنى، وعمر يمضي، إنها مشكلات غامضة لا بد لها من حل.

وازدادت الحياة في نظره سوءاً وظلمة، وامتلأ قلبه حزناً مبرحاً وألماً طاحناً، وقرر أن يغادر القصر والنعيم وكل لذائذ الحياة التي كان ينعم بها، لأن الدنيا كما يقول: «ألم، وما بها غير الشقاء والتعب، فإذا كان هناك سبيل للخلاص والنجاة فأين يكون؟ إني في سجن رهيب من اليأس القاتل».

لقد غير ما رأى مجرى حياته وتفكيره وغايته من الحياة وفيها، وصمم العزم على أن يبحث عن الحقيقة مهما كلفه الأمر، وكان في التاسعة والعشرين من عمره.

وذات ليلة عزم عزماً لا يثنيه عنه شيء على مغادرة القصر طلباً للحقيقة، ودلف إلى غرفة زوجه وابنه ليودعهما، ولكن آثر ألا يوقظهما، فودعهما بعينيه، وهبط إلى الاصطبل واختار جواده الأبيض وخادمه الخاص «شنا» ويزعمون أن من معجزاته وهو يتهيأ لفراق القصر أن أبوابه فتحت من تلقاء نفسها، ولم يسمع صوت خطوات جواده، حتى إذا انتهى إلى نهر أنوما Anoma نزل عن جواده، ونزع ما كان يتزين به من الجواهر وجز لمته بسيفه، وأعطى كل ذلك خادمه وأمره أن يعود إلى قصر أبيه ويخبره بخبره.

ومر به سائل فتبادل معه الملابس، وأقام سبعة أيام على شاطىء أنوما، ثم غادره إلى مدينة «راچاجريها Rajagriha» عاصمة الملك بمبيسارا ملك مملكة ماجاذا Magadha حيث يقيم في كهوف تلال «ونديا» نساك وقفوا حياتهم للتأمل والتفكير ودراسة فلسفات الهند القديمة رجاء أن يوفقوا لحل مشكلة الحياة، ويفكوا ألغازها

المغلقة، وقصد الغار الذي فيه الناسكان Alara Kalama ألاراكالاما وUddaka أداكا، وكانت شهرة ألارا البرهمي واسعة.

وعندما دخل غار ألارا وجده مستغرقاً في تأمله وتفكيره، فوقف في إجلال وصمت بين يديه خاشعاً، وهجست في نفسه خاطرة: أترى أجد لديه مفتاح السر؟.

وأخذ منهما ما لديهما، ودرس عليهما أسفار الڤيدا واليوبانيشاد، واتخذ له كهفاً، وكان موضع إعجاب النساك جميعاً، وطابت له حياة الزهادة والتنسك وعشقها، وانصرف عن الدنيا انصرافاً، حتى أن أباه بعث إليه بعض حاشيته ليعودوا به، ولكنه اعتذر، ولم يعد معهم.

ووصل إلى درجة عالية حتى صار مرشد النساك، وذات يوم هبط مدينة الملك بمبيسارا حاملاً سلة يسأل المحسنين زاداً، فرآه الملك في ثياب النسك فأعجب به، وعرف قصته، فعرض عليه أن يترك حياة الزهد والقشف، وأن يشاطره ملكه، فاعتذر، فودعه الملك وحاشيته ومشوا معه تكريماً له.

وبعد سنين أدرك أن البرهمية عاجزة عن حل لغز الوجود ومشكلة الحياة، فانصرف إلى غابة بالبنغال قرب «أوريفيلا» وقسا على نفسه، وتقلب في أشد ضروب الزهد والتقشف والحرمان وإذلال الجسد مما لا تحتمله النفس، وتبعه خمسة من الزهاد الناسكين جعلوه إمامهم، وقضى ست سنوات في هذه الحياة التي اختارها لنفسه حتى أشرف على التلف والهلاك، وذاع صيته في الآفاق.

ولكن تعذيب الجسد والسكون التام حتى كانت الطيور تقع عليه آمنة، وتتحرك الوحوش خلفه مطمئنة لم يصلا به إلى غايته، بل عاقه الضعف وفقدان القوة عن الحركة وأدرك أن ما فعله بنفسه أعجزه عن الحركة و«عطل» فيه قوى الفكر، وأن الاسراف في تعذيب الجسد لا ينتهي به إلى ما كان يرجو، بل نجم نقيضه، فضعف الجسد أفقده مساندة قوى الفكر.

ولكن هذه التجربة خلال ست سنوات مهدت له الانتقال إلى طريق يفضي به إلى ما يصبو إليه، وصمم أن يترك تلك الحياة التي حييها، مما حمل أتباعه النساك الخمسة أن يثنوه عن عزمه فلم يفلحوا، واعتبروا ذلك منه ردة، واتهموه بأنه حاد عن الطريق، وتركوه ومضوا إلى مرج الغزال في مدينة بنارس.

واستعاد سدذارثا نشاطه وقوته ومضى إلى شجرة جلس تحتها، ورأى رجلاً لديه حشائش فسأله قبضة منها فأعطاه، وجلس متربعاً ضاماً يديه وقدميه وعزم ألا يبارح مكانه وألا يرسل ما ضم حتى يتنزل عليه نور الحكمة والمعرفة، وآلى على نفسه أن يبقى كما هو ولو نخرت عظامه، وجف جلده، وتلف جسده.

وتقول الأساطير: إن نوازع نفسه وعقله قامت تغريه، ثم أخذت تصارعه ولكنه انتصر على الاغراء وهزمها في الصراع، وما كاد ينتهي الليل ويغشى الأرض سنا الفجر حتى أشرقت معه في قلبه وعقله الحقيقة السامية والمعرفة الصحيحة، وأدرك ما كان يرجو، الماضي والحاضر والمستقبل كل لا يتجزأ، وعرف سر الحياة والموت، والعلة والمعلول، ورحلة الروح في مختلف الأجسام حتى

تصعد إلى «النرڤانا» حيث العدم العام وفناء النفس، وهما السكينة والفناء، ولكنه فناء ليس الفناء المعروف، وإنما هو وجود يفنى في وجود، مثل فناْء ألوان الطيف في الشمس في البياض الناصع الذي لا لون له ـ كما يزعم بعض فلاسفةالبوذيين العصريين ـ ولا يتم الوصول إلى النرڤانا إلا بعد صفاء النفس والفضائل في عالم الحس والواقع، ولا يمكن الوصول بتعذيب النفس والعبادة الظاهرة.

ومر به النهار ثم الليل، ولم يشعر بهما لأنه كان غارقاً في سبحاته، ثم صحا صحوة المنتصر والفرح يملأ قلبه، لأنه انتهى إلى ما كان يرجو، وتحقق له ما كان يأمل، وهبطت عليه «الاستنارة» فكان «بوذا».

واستفاضت شهرته، وقصده الناس رجالاً ونساء، وفيمن جاءه حسناء رائعة الحسن خلوب مومس رجاء أن تغريه فإذا هيبته تؤثر فيها وتؤمن به وتفيض دموعها وحسراتها وتصبح من خواصه ومريديه.

ومضى بوذا إلى بنارس وقصد مرج الغزال إلى النساك الخمسة الذين هزأوا به واتهموه وتركوه، فما كادوا يبصرونه حتى اتفقوا فيما بينهم على الضن عليه باحترامهم لأنه آثر الطعام الشهي والعيش المترف، وأن يفسحوا له مكاناً كما يفسحونه لكل قادم إليهم.

وما دنا منهم بوذا حتى هزمتهم هيبته وراعهم منظره فهبوا لاستقباله، وتسابقوا إلى تحيته وتناول ما معه، وحاروا في استقباله،

وجاءوه بماء غسل قدميه، فألقى عليهم أول درس من دروسه فإذا الفرح يملأ قلوبهم ويفيض على وجوههم بشرا.

وطوت شهرته آفاق الهند، واجتذبت شريعته الجديدة شباب الأسر العريقة، والتفت به الجموع وكثر مريدوه، فبعث ستين مرشداً منهم إلى مختلف نواحي الهند يبشرون بمذهبه، ووصلت أنباؤه إلى والده واستعد هو وأسرته وشعبه لاستقباله، وخرج في موكب عظيم فإذا هم يرون ناسكاً يحمل «مزودة» يستجدي المنازل، وعرف الملك أنه ابنه، وشعر بالخجل والخزي والعار، وصارح ابنه بشعوره وسخطه ولامه على تشويه سمعته بالتسول الذي حط من كرامة عشيرته.

وأجابه ابنه في تؤدةٍ وسكينة: أيها المهراجا، إنك وعشيرتك منحدرون من سلالة الملوك، ولكني أنا أنتسب إلى المستنيرين وأسير على هديهم وأفعل مثل ما فعلوا.

ولما رأى حزن أبيه قال له: تخلص من قيود الحب الأرضي، ولعل والدي يتلقى مني الحب الصادق والغذاء الروحي.

ودخل بوذا القصر ورأى زوجه «ياشودارا» محلوقة الرأس مرتدية ثياباً خشنة صفراء وجثت بين يديه ثم سجدت على قدميه وبللتهما بدموعها.

وعلم من والده اعتزالها الحياة والملذات وعذابها وما لقيت بعده فقال: إن ياشودارا من أفضل النساء كما عرفت في حياتي

معها، وما نسيت ذكرها بل كان مبعث سرور وسعادة لي. يا أم ولدي، إن الطريق قد مهدته أمامك فاسلكيه.

وودع والده وولده وزوجه الذين أخذوا بمذهبه وتركهم إلى «شرافستي» على نهر «رابتي» ثم أخذ يتنقل في القرى والمدن ينشر تعاليمه حتى بلغ الثمانين من العمر، وانتهى به المطاف إلى مدينة «كاسبنارا» واشتدت به العلة فقال لتابعه الأمين وتلميذه البار «أناندا» الذي انزوى بعيداً عن أستاذه لا يحبس دمعه حابس على أستاذه ومرشده الذي يوشك أن يفارق الحياة، فاستدعاه وقال له في حنان: يا أناندا، لا تبك، ألم تسمع مني أن طبيعة الحياة أن يفارق بعضنا بعضاً، كل جمع إلى فراق، إن كل ما هو مركب مصيره إلى الفناء، وإن أجسامنا التي تحتوي على الطاقة التي تمدها بالنشاط والقوة تحمل أسباب تلفها وفنائها، إنك أنت نفسك ستحرر من عالم الحس الذي يعمل فيه قانون التحول عمله حتى تنتهي إلى الفناء».

وبشر بوذا تابعه وتلميذه أناندا بأنه سيلحق به في النرفانا، وأخذت العلة تشتد به فاتجه إلى مريديه وعلى رأسهم أناندا وقال لهم: «لا يظن بعضكم أنكم بموتي تفقدون المرشد، إن ما تركته فيكم من كلماتي وسنني هو المرشد حيثما أعيش، ومن كان في شك أو لديه سؤال فليسأل قبل أن أموت» فصمت الجميع، وقال أناندا: ليس بيننا شاك.

وهنا رأى أناندا أن نهاية معلمه قد دنت فركع بين يديه وساد

صمت مهيب قطعه بوذا بقوله: «أذكروا أيها الاخوة أن الفساد والانحلال نهاية محتومة لكل ما هو مركب، فكافحوا لتحرير أنفسكم» وبعدها أغمض بوذا عينيه، لقد انتهى! مات بوذا الأكبر في الثمانين من عمره سنة ٤٨٨ قبل الميلاد.

وكما صحبت ولادته وحمله والأيام التي سبقت الولادة أساطير فقد صحبت وفاته أيضاً.

ومما لا شك فيه أن بوذا أثر في حياة الهند والصين واليابان وفي أفراد من غير هذه الأقطار، وما يزال أثره باقياً حتى اليوم في أتباعه.

والبوذية: نسبة إلى بوذا، وهي فلسفة وآداب سلوك أكثر منها دين، فبوذا لم يقل في الآلهة شيئا، ولم يتعرض للألوهية بإثبات أو نفي، فصل بين الآلهة والإنسان، وما دخلها في حياته؟ إن خلاصه وتحرره وقف على عمله لا على الآلهة، وهو الذي يصنع مصيره.

والبوذية قامت على البرهمية في أصول عقائدها، وكانت تعترف بالآلهة المعترف بها في البرهمية على بعض الأقوال، وسواء صح اعترافها أم لم يصح فإن البوذية تقرر أن براهما نفسه الإِلّه الأعظم) يعتوره التغيير والفناء مثل أي كائن، ومن هنا كان إنكارها أن وجود براهما مستمد من ذاته كما تدعي البرهمية، كما تنفي البوذية أنه كائن روحاني منزه من شوائب المادة، وتجحد أنه مصدر المعرفة والإلهام.

وبوذا نفسه يقول: «كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بذاتها، وكونوا لأنفسكم موئلاً ومعتصمًا، ولا تعتصموا بملاذ خارجي، ولا تحتموا إلا بأنفسكم» ويقول: «من الحمق أن تعتقد أن سواك يستطيع أن يكون سبب سعادتك أو شقائك، إن السعادة أو الشقاء نتيج سلوكنا نحن وشهواتنا نحن» ويقول متهكمًا عندما سئل عن رأيه في الله والكون وفيما يشغل به الفلاسفة والمتدينون من الجدل والحوار في قدم العالم وحدوثه وفي الروح وخلودها وفي الوحدانية والشرك وما أشبه هذه المسائل: «إن الآلهة أنفسها لو كان لها وجود لما كان في وسعها أن تجيب على هذه الأسئلة».

وما دام رأي بوذا هكذا فلا ضرورة عنده للآلهة، بل قال صراحة: إن براهما الذي انتهى إليه مطاف ذلك كان يسأل الآلهة واحداً واحداً، وكل واحد يحيله إلى غيره حتى ختم مطافه ببراهما الذي لا إلّه أعظم منه ـ هو نفسه لا يعلم أين تمضي العناصر الأربعة لأنه اعترف براهما بذلك.

وهذا كفر من بوذا ببراهما وألوهيته وبكل الآلهة، بل استبعدها من ديانته وعني بالإنسان وحده دون أن يهتم بتلك الآلهة.

إن البوذية ـ كما وصفها بعض الباحثين(١) ـ ديانة معطلة، وأنا أؤيدهم فيما ذهبوا إليه، لأن في تهكم بوذا بالآلهة وتجهيلها

---

(١) راجع كتاب «البدء والتاريخ» للمقدسي، طبع باريس.

إنكاراً لوجودها وبخاصة عندما يقول: «لو كان للآلهة وجود لما وسعها الجواب».

وهذه الآلهة باطلة عندنا لأننا مؤمنون بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله كما أنزل الله على رسله الصادقين الامناء المعصومين، ولكن خُلُوَّ ديانة بوذا من الآلهة يفقدها عنصر الدين الأساسي.

وإذا كان الدين ما يتعبد به الله الحق أو الآلهة الباطلة، فإن البوذية تكون منسلخة من الدين، وهذا ما دعا كثيراً من الباحثين إلى أن يذهبوا إلى أن البوذية ليست ديانة، بل تعاليم فلسفية وأخلاقية وآداب سلوك.

وأيا كان الأمر فإن بوذا نفسه جدَّف كثيراً، ونطق بعبارات يفهم منها استصغاره للآلهة التي كانت تعبد عند غيره، بل يفهم منها الجحود لأنه جردها من صفات القدرة والارادة والعلم التي آمن بها من عبدوها، وحسبه أنه جرد براهما الذي يعتقد في البرهمية أنه الواحد الأحد إلى آخر الصفات التي زعموها له ومنها العلم الذي نفاه عنه بوذا.

وتتجاذب بوذا اللاأدرية والالحاد، ولكن لا يحارب من يعتقد في الآلهة، وإنما يسخر بمن يوجهون صلواتهم وأدعيتهم للمجهول، إذ لا حاجة لهم به لأن الإنسان هو وحده يصنع مصيره كما مرَّ في أقوال بوذا نفسه.

إن في فلسفة بوذا وأقواله وتعليماته لاهوتا بدون إله، بل عقائد بغير دين، وخلقاً بدون خالق، وديناً بغير ديان.

وخلاصة فلسفته أو ديانته مبنية على الحقائق الأربع أو الحقيقة القائمة على أركان أربعة هي:

١ ـ الاعتراف بوجود الألم والشقاء.

٢ - التسليم بوجود سبب للألم والشقاء.

٣ ـ التصميم بإمكان إزالة هذا السبب.

٤ ـ وجود السبيل لتحقيق إمكان هذه الإزالة.

فالوجود كله ألم وشقاء وهذا لا شك فيه لأننا نحس به، وسبب وجودهما أننا نجهل الحقيقة فتستعبدنا الشهوة، ونتعلق بخيوط الأوهام ونبتعد عن اللباب أو الجوهر، وهذا سبب وجود الألم والشقاء، وإزالته تقوم على التغلب على الشهوة، والتغلب ممكن بقطع صلتنا بالحياة المادية، بقتل الشهوة التي تربطنا بملذات الجسد وتدفعنا لطلبه، مع أن ما نطلبه يزول ويتغير، وكل ما يزول ويتغير ألم وشقاء، ولا نجاة ولا خلاص إلا بأن ننبذ ما تريده الشهوة، وفي ذلك قتلها، وفي قتل الشهوة النجاة والخلاص.

ولكن لا اندفاع في إرضاء الشهوة التي يمثلها الحس، ولا استغراق في تعذيب الجسد بحرمانه، بل يجب التوسط بين هذين ليكون الحد القوام.

وليصل الإنسان إلى تحقيق إمكان إزالة أسباب الألم والشقاء يجب عليه أن يسير في الطريق المستقيم ذي الشُّعب الثمان:

١ ـ الفهم القويم.

٢ ـ السلوك الذي يحدد الاتجاه الحق إلى الخير دون أن يكون فيه إيلام الجسد وتعذيبه، والابتعاد عن الشر.

٣ ـ القول الطيب، فلا يكذب ولا ينم ولا يسب ولا يهزأ ولا يؤذي مخلوقاً بلسانه.

٤ ـ العمل الصالح، عمل كل ما فيه نفع الناس، والكف عن الأذى والعدوان.

٥ ـ العيش الحلال، الذي يتم بتخير الرزق الحلال والزهد عما في أيدي الآخرين، والامتناع عن الغش والكسب الحرام بأي وسيلة.

٦ ـ الجهد الصادق المثمر الذي يتجلى في إرادة الحكمة بفهمها فهما صحيحا.

٧ ـ التأمل بالانقطاع إلى الخير وترويض النفس على العمل الصالح رغبة في الوصول إلى النرڤانا.

٨ ـ الفرح بتحقق الأمل في الحياة الذي هو المعراج إلى النرڤانا.

ومتى تحقق للإنسان هذه المبادىء الثمانية فإنه يتخلص من الدوران في محيط الولادة والموت، لأنه يصل إلى النرڤانا حيث لا ولادة ولا موت.

والنرڤانا في أصح معانيه هو الحال الذي ينعدم فيه التناسخ الذي هو من ضرورات النفس الشقية، إنها تولد فتموت ثم تولد في حياة جديدة لتنتهي إلى الموت من جديد وهكذا حتى تتخلص من الألم والشقاء فتصعد إلى النرڤانا.

والنرڤانا عدم، لأنه عدم تجدد الولادة وعدم تجدد الموت، وعدم الشهوة والرغبة والارادة وعدم الحياة في العالم الأرضي، وهو وجود، لأن النفس عندما تصل إلى النرڤانا تنتهي صلتها بالوجود الأرضي، فهو وجود يفنى في وجود أشبه ما يكون بالعدم أو الوهم، لأنه لا حس فيه ولا شهود.

والنرڤانا في البوذية ليس عالماً مادياً، ولكن ميتافيزيقي، إنه وراء الحس، إذن، انتهت البوذية إلى إثبات ما أنكره بوذا، وهو المجهول، فإذا كانت «النرڤانا» حالة شعورية تقوم على الوهم فأين موقع النرڤانا في الوجود؟ إنه الوجود تفنى فيه الموجودات عندما يتحقق له الصفاء والخلوص من الألم والعذاب. ولكن أين يقع هذا الوجود؟ إن النرڤانا حالة وهم تنتهي إليها الأرواح بعد التطهر من العناء الذي فرضه عليها الوجود في حال الحياة، وعندئذ تتساوى أرواح الناس بالآلهة، وتعود للمجهول الذي أنكره بوذا.

والنفس التي ذهب بوذا إلى أنها عرضة للإصابة بالعطب والانحلال والفساد ليست موجودة وإن كان هناك تناسخ وتقمص وحلول، لا شيء اسمه النفس، ولكنها رغبة تنتقل من شخص إلى شخص على مبدأ «الكارما» ولا شيء اسمه «ذات».

فكيف تثبت وجود «شيء» يتنقل من شخص إلى شخص على مذهب التناسخ الذي تدعيه ثم تنكر النفس والذات؟.

إنه يذهب إلى أن الفرد من بني الإنسان مكون من خمس مجموعات: الصفات الجسدية، الاحساس، الادراك، ثالوث

الفكر والقول والعمل، الحالات الشعورية الأخرى، ووجود الفرد قائم على هذه المجموعات التي يجب أن تتحد جميعها، وانفصام بعضها عن بعض هو الموت.

ومعنى هذا أن الفرد يفنى لأن النفس يدركها العطب والفساد والفناء، ومع هذا التناقض نجد إيغالا في الإبهام عندما يكون «الكارما» سبب تناسخه بالولادة في مخلوق جديد يجهل كل شيء عن المخلوق السابق، والمخلوق الجديد امتداد لمن سبقه لأن نفسه حلت فيه.

وليس هذا بحل للمشكلة التي ظن بوذا أنه حلها.

ولماذا كان «الكارما» سبب التناسخ أو هو نفسه يسمى التناسخ؟ الجواب لا يعلمه إلا بوذا الذي نقول عنه ما قال هو نفسه عن براهما: «إنه هو نفسه لا يعلم».

وهذا التناسخ الذي قال به بوذا قد سبقته إليه ديانات الهند وفلسفاتها، ومنها انتقل إلى البوذية، وسبب زعم وجود التناسخ - كما نرى - هو جهل البعث والنشور، أو الكفر بهما، فالأديان السماوية أوجبت على معتنقيها الإيمان بهما حتى يطمئن المؤمن إلى أن هناك يوماً للحساب على أعماله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إن هناك قصاصاً، النفس الشريرة تلقى العقوبة، والنفس المطمئنة ترجع إلى ربها راضية مرضية.

ولكن لا وجود ليوم الحساب في الديانات المخترعة،

فاخترع من أرادوا قيادة الناس بكف بعضهم عن بعض الأذى النرڤانا والتناسخ.

إن التناسخ قصاص، لأن النفس الشريرة لا يمكن أن تصعد إلى النرڤانا وعقوبتها أن تعود للولادة من جديد لتعاقب بالألم والشقاء حتى تتخلص من الشر وتنجو من العقوبة فتمضي إلى النرڤانا لتفنى في وجود وهمي.

ودليل حذاق البوذيين على وجود التناسخ وجود صفات إنسانية في الحيوان ووجود صفات حيوانية في الإنسان، فيزعمون أن النفس الإنسانية حينما تحل في كلب فنجد فيه صفات كريمة، فسبب ذلك أن الصفات الإنسانية حلت مع النفس الإنسانية في الكلب فنشاهد منه الوفاء.

ورد هذا الزعم أن جنس الكلاب مزود بصفة الوفاء، ولا يمكن أن نجد كلباً غير وفيّ بغريزته، ولو كان بعضها وفياً وبعضها خائناً لكان في دليلهم نظر، أما والجنس كله وفيّ فإنه نقض لدليلهم الواهن.

بل البوذية تنكر «النفس» وتقع في تناقضٍ واضح، إنها تزعم عطب النفس وانحلالها، وكيف يوجد الفاني من جديد في التناسخ الذي تزعمه، والتناسخ يقتضي وجود «النفس»؟. وبقاؤ ها في شخص من تنتقل إليه ينفي العطب والإنحلال والفناء.

ومع عدم اعتراف البوذية بالذات تقرر مبدأ التناسخ، ومع تغاضيها عن فكرة الآله عند غيرها تؤمن بالكل أو الوحدة، وتنفي

«الذات» وكيف يتفق نفي الذات مع التسليم بوجود الكل؟.

إذا لم يكن الكل ذاتاً فمم يتكون؟ إذا كان من أجزاء فقد صنعته «الكلية» وإذا لم تَثْبُت صفة الكلية وجب أن تثبت الذاتية، والذات والكل لا يتفقان بل محالان في البوذية لأنها تنفي الذات وتؤمن بالكل.

ويستدل فلاسفة البوذية المعاصرون أو يقولون ـ لأن ما يقولونه ليس دليلاً ولكنه مجرد تسويغ أشبه بالاعتذار ـ أن الكل ليس ذاتاً لأن الذات وهم فرضه الإنسان بالقياس على نفسه، وتخيل من أنَّ الكل على مثاله، وهو قول مردود على قائليه بما أسلفنا من القول فلا ضرورة لتكراره.

وفي البوذية آداب عامة صالحة، ففي وصاياها العشر تلخيص الأخلاق الإنسانية في الفلسفة البوذية، وقد جاءت هذه الوصايا في كتاب من كتب البوذية المقدسة هو كتاب «سوتابيتاكا» ضم مجموعة من خطب بوذا مكونة من خمسة فصول في بحث مسائل أخلاقية وفلسفية مختلفة، ومع أن ما فيه ينسب إلى بوذا أشياء مذكورة كانت بعد وفاته، ولكن في خطبه أيضاً.

وهذه الوصايا العشر التي تمثل أرقى الأخلاق الإنسانية في البوذية موجهة خمس منها إلى العامة والخمس الأخرى خاصة بكهانها، والخمس الأولى:

١ ـ لا تزهق روح أحد.
٢ ـ لا تأخذ مالاً حراماً (رشوة أو سرقة).
٣ ـ لا تكذب، ولا تقل غير الحق.
٤ ـ لا تتناول مسكراً.
٥ ـ لاتقم أي صلة جنسية محرمة، أي لا تزن.

أما الخمس التي اختص بها الكهان فهي:

١ ـ لا تأكل في الليل طعاماً غير ناضج.
٢ ـ لا تشهد حفلة رقص أو غناء أو تمثيل.
٣ ـ لا تتزين بأي نوع من الزينة، ولا تستعمل أي عطر أو طيب.
٤ ـ لا تتخذ أي فراش وثير.
٥ ـ لا تقبل من أحد ذهباً أو فضة.

أما الخطايا التي يجب أن يتجنبها الإنسان أو الأغلال التي يجب أن يحطمها لأنها تمنعه من الوصول إلى النرقانا، ولأنها من المهلكات فهي عشرة:

١ ـ الشهوة
٢ ـ الجهل
٣ ـ سوء النية
٤ ـ الغرور
٥ ـ الشك
٦ ـ الوهم

٧ ـ دنس القلب
٨ ـ الكبرياء
٩ ـ الأنانية
١٠ ـ الشر

وعندما يستطيع الإنسان تحطيم هذه الأغلال تخلصت نفسه من وثاقها، فإذا أضاف إلى ذلك التزام الوصايا العشر وأضاف إليها عشر خصال أخرى كان من السعداء.

وهذه الخصال العشر هي:

١ ـ السخاء والجود
٢ ـ العفو والحلم
٣ ـ العفة المطلقة
٤ ـ التخلص من العودة إلى الحياة
٥ ـ الخلق الفاضل مع التفكير في العواقب
٦ ـ القوة في دفع النفس إلى التسامي
٧ ـ حسن القول ولينه
٨ ـ حسن معاشرة الاخوان وإيثارهم على نفسه
٩ ـ الاعراض عن الناس والتوجه التام إلى الحق
١٠ ـ بذل النفس في سبيل الحق مع الشوق إلى البذل

ومع أن بوذا وصى ونصح وطلب إلى أتباعه الزهد والتقشف إلا أنه لم يحرم عليهم في ديانته الطيبات، فقد جاءه غنيٌّ

من أكبر الأغنياء ممن عرفوا بالإحسان الدائم غير المنقطع يستفتيه: أنزوله عن ثروته وجاهه وسلطانه أفضل أم عيشة الزاهدين الناسكين الذين تجردوا من كل شيء في الدنيا وأخذوا يسيحون فيها ويتسولون وفراشهم الغبراء وغطاؤهم السماء؟.

فأجابه بوذا: «في وسع كل إنسان أن يتقلب في نعيم الحياة الفاضلة القويمة إذا عف قلبه ولسانه ويده، وإذا استطاع أن ينبذ الشهوة التي تضطرم في نفسه ويقهرها، وأن من لم يستعبده الشغف بالثروة والحرص والكنز إذا ملكها، وأنفقها في وجوه البر والخير والاصلاح فإنه يكون نعمة وخيراً وبركة على مواطنيه».

ومن أقواله ووصاته: «حافظوا على جاهكم في الحياة، وجدوا في تحقيق آرابكم فيها، فالجاه والسلطة والثروة ليست عيباً ونقيصة، إنها لا تستعبد الإنسان، ولكن شغفه بالجاه والسلطة والثروة هو الذي يجعله عبد شهواته».

ومما لا شك فيه أن بوذا من الناحية الإنسانية كان إنساناً، ومن وجهة النظر الاجتماعية كان مصلحاً إجتماعياً، ولكنه كان من الملاحدة الكبار في تاريخ البشرية إذا صح ما ينسب إليه، فقد هاجم الآلهة التي تعبد من أتباعها، وهاجم البراهمة؛ وآمن بالحس والواقع وأنكر «المجهول» وعني بالإنسان كفرد دون أن ينظر إلى «الله» أو يعبأ به.

أقول: من الملاحدة الكبار لأنه كفر بالديانات التي عاصرها وإن كانت ديانات باطلة. ولكنه لم يعبأ بالإله وأخلى دعوته أو

مذهبه منه وشغل الإنسان بنفسه وجعله في حرب طاحنة معها، ولا شك أنه رجا صلاح الإنسان في دنياه وحياته ومجتمعه.

وأثر بشخصيته وخلائقه الشخصية ودعوته ومذهبه في كثير من الأمم والشعوب والأفراد من كبار رجال العلم والأخلاق والفلسفة والأدب في العالم وفي العصر الحديث أيضاً.

فهو في « الهندوكية » من الأخيار، والهندوكية هي الديانة البرهمية بل رفعته إلى الأشخاص المعدودين الألي حلت فيهم روح فشنو الآله المنقذ، وعده بعض القديسين قديساً عظيًا، ويقول الفيلسوف الألماني المشهور شوبنهاور في كتابه « العالم إرادة وفكرة »: « إن للبوذية المكانة السامية بين الأديان » ويقول الأستاذ حامد عبد القادر في كتابه « بوذا الأكبر » ص٩٣: « إني أرجح أن القرآن الكريم يشير إلى بوذا هذا بقوله تعالى « والتين » ويقول في ص ٥٦: « إن تقديم التين على الزيتون إشارة إلى أن ظهور بوذا كان قبل ظهور عيسى، وهذا هو الواقع فقد ظهر بوذا قبل عيسى بنحو خمسة قرون ونصف، وان تقديم « طور سينين » على « هذا البلد الأمين » إشارة إلى أن موسى عليه السلام ظهر قبل الرسول عليه الصلاة والسلام بنحو خمسة قرون ونصف أيضاً كما هو معروف ».

وما ذهب إليه الأستاذ حامد عبد القادر لغو، فهل هناك من يشك أن بوذا سابق لعيسىﷺ، وموسى عليه الصلاة والسلام

سابق لمحمد عليه صلوات الله وسلامه حتى يأتي القرآن بآيات بينات من لدن حكيم خبير ليرتب ظهورهم؟

ولكن الافتتان ببوذا حمل الاستاذ عبد القادر على أن يذهب هذا المذهب في الاستنباط والرأي والترجيح، والرأي ليس رأيه فقد سبقه إليه الدكتور محمد توفيق صدقي إذ يقول: « ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أما التين فهو شجرة بوذا مؤسس الديانة البوذية التي حرفت كثيراً عن أصلها الحقيقي لأن تعاليم بوذا لم تكتب في زمنه وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها، والراجح عندنا بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية أنه كان نبياً صادقاً ويسمى سكياموني أو (جوتاما) وكان في أول أمره يأوي إلى شجرة تين عظيمة، وتحتها نزل عليه الوحي وأرسله الله رسولاً إلخ[1].

ويقول الدكتور صدقي: « . . . ولايزال أهل الأديان الأربعة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاهم، والترتيب في ذكرها في الآية هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى، فبدأ تعالى بالقسم بالبوذية لأنها أقل درجة في الصحة وأشد الأديان تحريفاً عن أصلها كما يبدأ الإنسان بالقسم بالشيء الصغير ثم يرتقي للتأكيد إلى ما هو أعلى، ثم النصرانية وهي أقل من البوذية تحريفاً، ثم اليهودية وهي أصح من النصرانية ثم الإسلامية وهي أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل[1].

---

(١) كتاب «الصلب والفداء» الصفحات ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠.

ويقول: «ومحاسن هذه الآية الشريفة غير ذلك ذكر ديني الفضل (البوذية والمسيحية) أولاً، ثم ديني العدل (اليهودية والإسلام) ثانياً، للإشارة إلى الحكمة بتربية الفضل والمسامحة مع الناس أولاً ثم تربية الشدة والعدل، وكذلك بدأ الإسلام باللين والعفو ثم بالشدة والعقاب، ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينيهما، وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينيهما، فلذا جمع الأولان معاً والآخران كذلك، وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى كما قدم الموسوية على المحمدية لهذا السبب بعينه»[١].

ونحن لا نوافق الدكتور صدقي فيما ذهب إليه، فليس لدينا أي دليل يثبت نبوة بوذا ورسالته، وما بين يدينا من سيرته يجعله بعيداً عن عيسى، ولا لقاء بين ديانتيهما، لأن ملكوت بوذا خال من إله، وعيسى جاء بديانة التوحيد الحق، وملكوته لدى المسيحيين مشغول بثلاثة آلهة أو أقانيم: الآب والإبن والروح القدس.

وإذا كان فيما أثر عن بوذا وأثر عن عيسى لقاء في الأمثولات والأخلاقيات ففي كل الديانات الوثنية والموحِّدة والمشركة مثل هذا اللقاء، لأن الإنسانية حصة مشتركة بين الجميع، فلا غرابة أن تتقارب في كثير من الأدوار والنواهي: إعمل الخير، وعامل الناس بخير، ولا تسرق، ولا تزن إلخ.

(١) كتاب «الصلب والفداء» الصفحات ١٥٨ و١٥٩ و١٦٠.

وليس دين بوذا ودين عيسى بديني فضل والإسلام دين عدل وحسب، فالاسلام دين فضل ودين عدل ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ... و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾.

وتعالى الله أن يسلك بوذا في سمط رسله الكرام أولي العزم إذا صح ما عرفناه من تاريخه وسيرته وفلسفته.

وما أعظم الاستاذ العقاد الذي يقول في كتابه « الله » ص ٧٧: « وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوروبيين بهذه الفلسفة البوذية، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوروبيين الأقدمين والمعاصرين.

« فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء، وزعموا أنها « جرأة العقل الكبرى » في مواجهة المشكلة الكونية، وأنها الخطوة المتقحمة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام.

لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف، فما هي إلا جرأة حسية في أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين، وما البوذية كلها إلا تململاً من وطأة الحس والجسد، ولا سعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس وهرباً منه إلى الفناء أو « اللاوعي » على أحسن تقدير ».

ويقول العقاد: « ليست بالفتح الجريء في معراج الوصول إلى الكمال: كمال الإلّه ».

ولكن لم نحترس من المغالاة التي حذر منها العقاد العظيم، ووجدنا كثيراً من المفكرين والكتاب والباحثين من العرب والمسلمين غالوا في بوذا والبوذية أكثر من الشراح الأوروبيين، وبلغ منهم الإسراف في المغالاة إلى أبعد من حدود أولئك المغالين، ولعل سبب إطراء الأوروبيين اتفاقهم مع البوذية في التثليث الذي بها. فقد ذكر الأستاذ فابر في كتابه « أصل الوثنية » قائلاً: كما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من برهما وفشنا وسيفا نجد عند البوذيين ثالوثاً فإنهم يقولون: إن « بوذا » إلّه له ثلاثة أقانيم.

وعندما انتقلت البوذية إلى الصين انتقلت بفكرة الثالوث فقد قال فابر: إن الصينيين يعبدون « بوذه » ويسمونه « فو » ويقولون: إنه ثلاثة أقانيم كما تقول الهند، وذكر رمزهم: « أ. و. م ».

* * *

وموجز القول في ديانات الهند: أن في الهند ديانات أخرى صغيرة، وفيها من الآلهة والأرباب ما يعد بالملايين، وفيها كل ديانات العالم ومذاهبه الصحيحة والباطلة، وكل من تسول له اختراع مذهب أو دين يجد في الهند أتباعاً وعباداً، ولكن الديانة

الغالبة هي الهندوكية[1]، وهي البرهمية، أما البوذية فقد قل عددها وصار أتباعها من الأقليات الدينية في موطنها الأصلي، وندر بينهم من أهل الهند.

وهذا إحصاء الهند بنسبة الديانات سنة ١٩٢١م

الهندوكيون ٢١٦,٢٦١,٠٠٠

المسلمون ٨٦,٠٠٠,٠٠٠

البوذيون ١١,٠٠٠,٠٠٠ (كلهم من أهل بورما وسيلان تقريباً)

المسيحيون ٤,٠٠٠,٠٠٠ وأغلبهم أوروبيون

السيك ٣,١٣٩,٠٠٠

الجينيون ١,١٧٨,٠٠٠

الزرادشتيون ١٠٢,٠٠٠

اليهود ٢٢,٠٠٠

---

(١) من أكاذيب الهندوكية ما ذكره السير رتشارد برتون في كتابه «الحج إلى المدينة ومكة» ٢ : ٣٠١ و٣٩٢: أن ولفورد يذكر «أن الهندوس يقولون إن الحجر الأسود في مكة (ذكرت Mokshesha و Mokshasthana) كان صنمًا لشيوه Shiwa الذي زار الحجاز مع زوجته، ولما بنيت الكعبة وضع هذا الأثر في الحائط الخارجي احتقاراً له ولكن الناس بقوا يحترمونه، وفي كتاب دبستان يقال إن الحجر الأسود صنم كيوان Kaywan أو زحل».

(الحضارة الإسلامية لفون كريمر، تعليقات المترجم ص ١٥٥) وفيها أن مكة والكعبة والحجر الأسود تعتبر أمكنة مقدسة عند الهندوس وعند الصابئة والمجوس.

ديانة الصين والتبت

في كتاب «سلسلة التواريخ» لأبي زيد الحسن السيرافي التاجر المسلم الذي رحل إلى الصين إشارة إلى عقائد الصينيين، فقد قال في ج ١ ص ٥٧: «أهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون» و «أصل ديانة الصين من الهند».

ويريد السيرافي أن البوذية انتقلت من الهند إلى الصين.

وفي «الفهرست» لابن النديم ص ٤٩٠ ـ ٤٩١: تحت عنوان «مذاهب أهل الصين وشيء من أخبارهم»:

«أكثرهم ثنوية وسمنية. وقال: وعامتهم يعبدون الملك ويعظمون صورته، ولها بيت عظيم في مدينة بغران يكون نحو عشرة آلاف ذراع في مثله، مبني بأنواع الصخر والآجر والذهب والفضة، وقبل الوصول إلى هذه يشاهد القاصد إليها أنواعا من الأصنام والتماثيل والصور والتخيلات التي تبهر عقل من لا يعرف كيف هي، وأي شيء موضوعها».

وفي «مروج الذهب» للمسعودي ج ١ ص ١٣١ ـ ١٣٧ ما نوجزه بألفاظه:

«. . . فملك ولد له يقال له «عوون» فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعاً عليه، وتعظيمًا له، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مرصع بالجواهر، وجعل مجلسه دونه، وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف تلك الصورة، هو وأبناء مملكته في طرفي النهار إجلالا له. . . وهلك، فملك ولد له يقال له: «عيثدون» (في بعض النسخ عبرور) فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر وكان يسجد له، ويبدأ بجده الأول ثم بأبيه، وأهل مملكته يسجدون له».

و «كان اسم هذا الملك توتال فاستقامت له الأمور، وأحدث من السنن المحمودية ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل، وحصَّن وشرف وتوج ورتب الناس في رتبهم ووقفهم على طرائقهم، وخرج يرتاد موضعاً يبنى فيه هيكلا، فوافى موضعا عامراً بالنبات حسن الاعتمام بالزهر، تخترقه المياه، فخط على علوه قبة، وجعل لها مخارج للهواء متساوية، ونصب فيها بيوتا لمن أراد التفرد بالعبادة، فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، فأمر بتعظيمها، وجمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى

ديانته يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوي النظام».

و «رتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية . . . فمنها لوازم موجبة يحرجون من تركها، ومنها نوافل ينفلون بها، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً لمعبودهم، منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة».

و «وأمرهم بقرابين للهياكل، ودخن وأبخرة للكواكب».

و «يعبدون الصور ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة، والجاهل منهم ومن لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدهما جميعا، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، وأن منزلتهم من العبادة تنقص من عبادة الباريء لجلالته وعظمته وسلطانه، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه، وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم».

و «لهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر، فتغيرت أحوالهم، وبحثوا وتناظروا؛ إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع المقدمة . . . صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذهب المانية والقول بالنور والظلمة، وقد كانوا جاهلية سبيلهم في الاعتقاد سبيل الشرك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانية فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تضاد ما في

هذا العالم وتباينه من موت وحياة، وصحة وسقم، وضياء وظلام، وغنى وفقر، واجتماع وافتراق، واتصال وانفصال، وشروق وغروب، ووجود وعدم، وليل ونهار».

هذا ما كتبه مؤرخو العرب القدماء عن ديانة الصين، وموجزها: أنهم عباد أوثان وأصنام، وإذا كانت معلوماتهم ناقصة إلا أنهم كانوا منصفين، فقد ذكروا أصحاب الفضل منهم ذكرا حسنا.

ولم يشيروا إلى كنفوشيوس حكيم الصين الأكبر فيما كتبوا، وهذا مثار دهشة، فأبو زيد الحسن السيرافي تغلغل في الصين تاجراً، وكان على جانب غير يسير من الثقافة، ومع هذا لم يشر إلى هذا الحكيم فيما كتب، ومعلومات مؤرخي العرب عن الصين ناقصة، مع أن الإسلام دخل الصين وانتشر في كثير من أقاليمه انتشاراً واسعاً.

وديانة الصين القديمة لا تخرج عن ديانات البدائيين وغيرهم، فقد عبدوا مظاهر الطبيعة، والأسلاف عبادة خالصة ما تزال قائمة حتى اليوم في جميع صورها، فالشمس والقمر والنجوم والمطر والرياح والأرض والسماء آلهة أخلصوا لها العبادة، هي آلهة، أو لكل كائن كالشمس والقمر والمطر والسحاب والنجوم إله أو ملك أو روح يلي أمره ويتصرف فيه، والصيني يعبده.

وأكبر الآلهة طراً عند الصين السماء (شانج - تي)

(SHANG-TI) فهي مصدر الخير الذي ينالهم، فالسماء (الإله الأعظم) مدبر الأكوان مصرف الأمور وواهب الحياة ومقدر الأرزاق، والسماء جوهر حي عليم قادر فعال لما يريد، ولا رادّ لإرادته.

ولكن عبادة الأسلاف كانت تسير جنباً إلى جنب مع عبادة السماء، والصيني عميق التدين مثل الهندي، ولكن الفرق بينهما أن الصيني إيجابي والهندي سلبي، الصيني لا يزهد في الحياة ولكنه يزهد في الشر، ولا يحرم على نفسه طيبات الحياة ولا يحب العزلة، بل يربط بين نفسه وماضيه وحاضره ومستقبله، فيقرب كل يوم أي قربان لأسلافه، وهذا القربان صدقة تعطى الفقراء والمحتاجين، وفيه ذكر لأسلافه وإحسان في حاضره على أبناء مجتمعه، وعمل صالح مدخر لأبنائه من بعده، أما الهندي فيزهد في الدنيا وفي الشر.

وقد أدرك المسعودي حقيقة من حقائق ديانة الصين عندما ذكر أن لهم آراء ونحلاً حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر، فهم ـ حقاً ـ كانوا ثنوية، لأنهم داولوا بين السكون والحركة، وأرادوا بالسكون السعادة وبالحركة الشقاء، فكانوا من أصحاب المذاهب الثنوية الذين قالوا بالشيء ونقيضه مثل المانوية في تأليه النور والظلام.

وإذا كان الصيني متديناً فليس معنى هذا أنه يؤمن بالإله غير السماء إيماناً في كل حال من أحواله، فهو شديد الايمان ما دامت حياته الدنيوية تسير وفق هواه، ورغباته تتحقق، فإذا خاب أمله أو أخفق مسعاه فإنه يعرف أن هذا التمثال المعبود من أي مادة صنع،

ومع هذا فهو يداهن الأديان كلها، إذ من يدري أن هناك إلهاً حقاً، وأن هناك ما يبشر به الكهنة ويدعون. فليرض رجال كل دين وممثّليه بقليل مما عنده.

إنه يهمه أمر معاشه فليشغل نفسه به، أما الآلهة فليدعها للكهنة فهم أولى بها منه وأعرف، وحسبه أن يجعل صلته بهم حسنة، ولكن لا مانع من الايمان والتعبد ما دامت أوقاته متسعة لهما، وحسبه عبادة الأسلاف.

ولم يقم من الصينيين من يدعون النبوة والرسالة، ولكن قام فيها مصلحون وهداة ودعاة، فحكيمهم الأكبر كونفوشيوس لم يكن إلا معلمًا ومرشداً وحكيمًا، وما ادعى أنه مبعوث أو مرسل أو نبيّ، بل قام بفكرة الاصلاح، وساعدته الأيام لتطبيق منهجه الاصلاحي فنجح نجاحاً كبيراً.

وكونفوشيوس هو الصيني الوحيد الفاذ الذي يذكر على لسان كل صيني حتى الآن، فالمؤمنون بأديان أخرى يقدرونه على أنه حكيم ومصلح، وإن كان هو نفسه ليس من الكهنة واللاهوتيين، بل لم يكن من رجال الدين، بل كان أديباً وداعية مصلحاً.

وعرفت الصين حكماء وفلاسفة ومصلحين ومربين قبل كونفوشيوس، ولكنه هو وحده الذي رجح بهم جميعاً لأنه أراد الخير للشعب وكان «جماهيرياً» وابتعد عما وراء الطبيعة. وقد ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر في مدينة «شوفو» من مقاطعة «لو» المعروفة الآن بشانتونج، وهو من

قبيلة «كونج» ويتكون اسمه من مقاطع ثلاثة: كونج ـ فو ـ تسي، وتسي معناه المعلم أو الحكيم، وهو سليل فرع ملكي، وعند ولادته كان أبوه في السبعين من عمره، ومات عندما كان ابنه في الثالثة من عمره، ونسجت أساطير حول مولده.

وعاش كونج فقيراً وتزوج في التاسعة عشرة من عمره واضطر إلى التقلب في عديد من الأعمال ليكسب قوته وقوت أسرته، فعمل راعياً وبستانياً وخازن بضاعة.

وفي الثانية والعشرين اشتغل بالتعليم تلقاء أجر يدفعه الطالب حسب قدرته، والعاجز غير ممنوع عليه أن يتلقى منه الدروس بدون أجر، وكانت الموسيقى والأدب والتاريخ، وقال: «الأدب يهذب خلق الإنسان، والتاريخ يزوده بالعظة والاعتبار، والموسيقى تعطر حياته».

وانضم إلى طلبته أميران ثم اصطحباه معهما إلى العاصمة، فوجد الفرصة للتزود من المعرفة من مكتباتها، والاستمتاع بموسيقى القصر.

ولقي في العاصمة «لاو تسي» أي المعلم أو الحكيم لاو الذي كان في عصره أكبر حكماء الصين، ولكنه لم يرحب به، وإن كان كونج غادره وهو سعيد، لأن ما سمع منه كان نصحاً ثميناً أفاد منه.

وكان يلقي دروسه من ذاكرته، ولا يدون شيئاً، وكذلك

كان حتى آخر يوم من حياته، وكان يفيد من الأحداث والحوادث في إلقاء عظاته ودروسه، فقد رأى ذات مرة امرأة تبكي على قبر فسألها فأجابته: إن هذا القبر يضم زوجي وأباه وابني. إن هذا المكان كثير النمور، وقد افترستهم، وسألها: لماذا ـ إذن ـ تتمسكين به ولا تمضين إلى مكان آخر لا نمور فيه؟ فأجابته: إن حاكمه عادل.

فنظر إلى تلامذته وكانوا كثيرين وقال لهم: اعلموا أن الحاكم الظالم أشد فتكاً من النمور، والانسان يستطيع صبراً على الحياة في غابة الوحوش ولا يستطيع الصبر على الحكومة الظالمة.

وأخذ يطلع على آداب الصين ومعارفها وحكمها حتى تزود منها بما زاد في صقل مواهبه وإثرائها، وبلغ من تقدير حاكم مدينة «شونج تو» له أن عينه قاضيها، ورأى الفرصة سانحة له لتطبيق فلسفته، فإذا المدينة تصبح كأسرة سعيدة لا خصومة بين أفرادها، وسادها الأمن والطمأنينة، لأن العدل الذي نشره في ربوعها غيَّر النفوس ودفع بها إلى المودة والوئام.

ثم أسندت إليه وزارة الأشغال فجعل من إقليم «لاو» إقليمًا نموذجياً في التحضر والعمران، وسعد الناس بولايته، فقد كان نظيف اليد والقلب واللسان، لا رشوة ولا غش ولا كذب ولا نفاق، بل مثابرة على العمل الصالح في سبيل الوطن والشعب والحاكم والحكومة.

ثم رأى حاكم «لاو» أن يجعله وزير العدل ـ وكانت الوزارة تسمى وزارة الجرائم ـ ووضع اثنين من تلامذته في منصبين رفيعين، وما كاد كونفوشيوس يتسلم زمام وزارته حتى اختفت الجرائم وصلح المجرمون، لأن الحاكم الصالح بحق سبب صلاح شعبه، وهو منه بمنزلة القلب من الجسد، إن صلح صلح الجسد كله.

وتقول الوثائق الصينية: إن الجرائم اختفت في عهد كونفوشيوس، وعم الأمن ربوع الاقليم كلها، فلا شر ولا خصومة ولا إجرام ولا فسق ولا خيانة. الحب والخير والأمانة والاخلاص صفات الرجال. والعفة والنبل والفضيلة شيمة الناس، وصار الاقليم مقصد النساء فنعموا بما وجدوا من الرخاء والأمن والعمران والسلام.

وصار إقليم لاو كالمدينة الفاضلة أو طوبى من الطوبيات التي يحلم بها الفلاسفة والمصلحون، ولئن كان ذلك مصدر غبطة وسرور لشعب لاو ولكل مخلص فان ذلك قد أثار بعض الحكام الفاسدين لأن النعيم الذي يتمتع به شعب لاو الذي لا يحلم به غيره قد يثير الشعوب ضد حكامها، وفي عظمة «لاو» خطر على الأقاليم الأخرى.

وفكر حاكم مقاطعة «تسي» في طريقة تخلصه من كونفوشيوس لأنه هو وحده الخطر، فإذا زال زال، وأعمل الحيلة

التي تكره الحكيم على ترك الحكم، وكانت حيلة سهلة، فقد أهدى حاكم «تسي» إلى حاكم «لاو» الشاب طاقة تضم أجمل النساء، طاقة تحوي عشرات منهن، فما كاد حاكم لاو يتسلم هذه الهدية الرائعة حتى فتنه الجمال وملأ أقطار نفسه، وشغله الحسان عن الحكم والعدل، وانصرف إليهن، وأخذ مجد «لاو» يضعف.

ولم يستطع الحكيم أن يثني الحاكم الذي وهب نفسه للفتنة وغرق فيها، ورأى أن بقاءه في منصبه تحت حكم حاكم نسي واجبه فاستقال رجاء أن يثوب إلى رشده ويتوب ويرجع إلى الصواب، ولكن الأمير الشاب كان مشغولاً بالحسان عن كل ذلك حتى يئس الحكيم من إصلاحه فغادر «لاو» وطوف بالمدن والقرى والأقاليم ينشر الحكمة ويبشر بالخير ومعه مريدوه وتلامذته يتنقلون معه.

وأمضى في هذا التطواف ثلاثة عشر عاماً حتى بلغ التاسعة والستين، وأرهقه التعب ونال من جسده، فعاد إلى «لاو» بعد أن مات حاكمها وتولى ابنه، وكان قائد جيشه أحد تلامذة كونفوشيوس.

ودخل لاو مع تلامذته وكانوا معه كقبة عالية يمثل معلمهم قمتها، فاستبشر الحاكم به، ولكن كان قد وصل السبعين، وأبى أن يتولى أي منصب، وتفرغ لكتب الصين الخمسة التي تعد خزانة التراث الصيني ليخرجها إخراجاً جديداً.

وهذه الكتب هي :

١ ـ كتاب المستندات التاريخية، وفيه تاريخ الملوك وسجل أعمالهم ونصح الحكماء لهم.

٢ ـ كتاب الأناشيد، وفيه أناشيد الصين التي كان الناس يترنمون بها في العهود السابقة.

٣ ـ كتاب الطقوس، وفيه تاريخ تطور الآراء الدينية في الصين وطريقة تقديم القرابين وأداء فرائض العبادات.

٤ ـ كتاب التغييرات، في علم ما وراء الطبيعة، ودلالة الرموز الثلاثية والسداسية.

٥ ـ كتاب الربيع والخريف، وينسبه بعضهم إلى كونفوشيوس نفسه، وفيه تاريخ «لاو» في الفترة التي تأتي ما بين سنة ٧٢٢ـ٤٨١ قبل الميلاد.

ومع أن هذه الفترة من حياة الحكيم كانت كالزبد أو المحصول الناضج إلا أن نكبات حطمت نفسه حتى فقد في بعض ساعاتها وقاره واتزانه.

فجع في السبعين بوفاة ابنه فبكاه ولم يتمالك من إعلان سخطه على السماء، ثم في الواحدة والسبعين فقد مريداً عزيزاً إليه فتزعزع لموته وفارقه جلده وصبره، ثم مات تلميذ آخر بين يديه وكان من أحب الناس إليه ـ وكان كونفوشيوس في الثانية والسبعين

فكانت الفجيعة فوق طاقته وصرخ من أعماقه: انظروا كيف تحاربني السماء.

وذات يوم قال لتلامذته: ليت شعري، أما من حاكم يسترشد بي فأرشده فيبني مملكة صالحة!

وشعر الرجل بأن شمس حياته تؤذن بالمغيب، وأنذر طلبته ومريديه وقد رأوه وهو في آخر خطواته إلى القبر، ومات كونفوشيوس وهو في الخامسة والسبعين أو السادسة والسبعين[1] بعد أن ترك للصين التراث الذي تجتمع حوله.

وإذا لم يكن لكونفوشيوس أثر كبير في حياته فان هتاف مئات الملايين باسمه بعد وفاته حتى اليوم أعظم عوض عما فقد.

وليس له فلسفة مبنية على أساس واضح أو مذهب من مذاهب التفكير الفلسفي، كفلاسفة اليونان والمسلمين وغيرهم، بل فلسفة مواعظ وآداب عامة تخاطب الضمير والروح قبل العقل، لأن الجانب الأدبي والفني غلب على تعاليمه وتفكيره.

والحكماء الذين ظهروا في الصين بعد زمن الأوهام والخرافات مثل «لاو تسي» وكونفوشيوس و«مائي تسي» ومنشيوس لم يكونوا غير معلمين ومربين ومصلحين، ويتفقون في أساس ما ذهبوا إليه من دعواتهم، ولم يكن أحدهم نبياً أو رسولاً.

(١) كانت وفاته سنة ٤٧٩ قبل الميلاد.

وما ثم خلاف بينهم في الدعوة، فكلهم دعاة محبة وسلام وخير وإصلاح، ولكن أحداً منهم لم يأت بدين، والفارق بينهم لا يعدو خلاف الألوان، أما الأصل فواحد، هم متفقون في العقيدة والإيمان.

وأشهر الأربعة كونفوشيوس ثم لاو، ولكن هذا اختفى اسمه وبقي زميله مذكورا حتى أنه أصبح معبوداً، إلهاً يعبده الصينيون من غير أصحاب الأديان السماوية من الصينيين على منهجهم وعقيدتهم في عبادة الأسلاف، وأقاموا له المعابد والهياكل، وصنعوا له تماثيل ونصباً قدسوها وعبدوها، لقد اتخذوه إلهاً وصلّوا له وعبدوه.

فالحكيم لاو يعتقد فيما وراء الحس والمشاهدة؛ في ذات ليست بصورة ولا مادة، ولا صوت لهذه الذات الخالدة، ووجودها سابق وجود الموجودات، وهو أصلها، وروحها تجري فيها.

والسماء في فلسفة كونفوشيوس تلتقي مع «ذات» لاو مع افتراق في القدم والحدوث، فالسماء هي السلطة العليا، وليس لمن يغضبها خلاص من العذاب.

وإذا درسنا ديانات الصين المختلفة فإن ملكوتها خال من الايمان بالبعث، ولم تهتم إلا بحاضر الانسان، وعنيت به تطلب إليه أن يصلح قلبه ويحسن معاملته مع الناس، ولم تفكر في نشور أو حساب.

والكنفوشية أوكونفوشيوس يعترف بوجود أرواح أرقى من البشر، ولكنه أصحب اعترافه بإنكار معرفة شيء عنها مع أنها تشغل كل الأماكن، ومع ذلك تستحيل مشاهدتها أو الاتصال بها أو سماعها.

وترك البحث في الأرواح مع تقديمه قرابين لها، إنه كان يحس ببصيرته أنها موجودة، ولكنه أخلى ذهنه وعقله من التفكير فيها كما أخلى دروسه وتعاليمه من البحث فيها لأن لدى الانسان ما يشغل به كل وقته، ولأن واجبات الانسان نحو أخيه الانسان أعظم من واجباته نحو الإله.

والنفسية الصينية بقيت فيه كما هي على بساطتها وسذاجتها مع عبقريته وعلمه ومعرفته فكان هزيم الرعد يخيفه ويتغير لونه كلما سمعه ويرتجف، ويعمل ما يعمله الصيني العادي لطرد الأرواح الشريرة من بيته واتقاء أذاها.

وتعاليمه أخلاقية واقعية، فقد حث على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة وصدق القول وإصلاح العمل والترفع عن المطامع، وحضَّ على العفو.

وكان يقول: «خير للانسان أن يكون قدوة صالحة من الاشتغال بالوعظ» ولكنه كان يجمع بين المزيتين: القدوة الصالحة والوعظ، ولهذا كان شديد الحرص والمراعاة لآداب اللياقة والسلوك ولقواعد المجاملة، بعيداً عن العناد والأنانية وفرض آرائه

فرضاً، متواضعاً عفيفاً، لم يشغل وقته بالجدل وهدم براهين الآخرين لأنه كان يرى فيهما ضياعاً للوقت وشغلاً للنفس بما لا يجدي.

وكان بأخلاقه وصفاته قدوة صالحة لتلامذته وأتباعه ومريديه، وكان يريد منصباً حكومياً رفيعاً بعد أن خرج من الوزارة وطوّف في الآفاق، وما كان ذلك طمعاً في جاه المنصب وما فيه من مغانم ذاتية، بل أراده ليطبق فلسفته فيسعد الناس، أراد خدمتهم حتى قال: «لو وليت عملاً لقمت في سنة بأعمال عظيمة، ولوصلت البلاد في ثلاث سنين إلى درجة الكمال».

وما قال هذا القول أو تمنى هذه الأمنية لمغنم يجده لنفسه أو غروراً منه بل ثقة بقدرته وحسن سمعته ورغبته في الخير العام، إنه يجد ملايين يموتون من الظمأ وبين أيديهم الماء العذب، ولكنه لا يستطيع أن يدلهم عليه مع أنه يعرف مكانه، وسبب عدم الاستطاعة أن الحكومة لا تريد ذلك.

وقد برهن على القدرة الخارقة عندما تولى القضاء فالأشغال فوزارة العدل حيث بدل المجتمع الفاسد الغريق في الخصومة والفساد وجعله مجتمعاً فاضلاً سعيداً، وكان بوسعه أن يزيد كثيراً في رقعة المجتمع بحيث تضم أقاليم كثيرة، ولكن الحاكم أجبره بفساده على التنحي والبعد فعاد المجتمع كما كان فاسداً لئيماً قبيحاً.

ولم يكن كونفوشيوس متشائمًا مثل بوذا ولا متسامحاً إلى حيث ينحدر التسامح فيكون ضعفاً وعجزاً والتواضع ضعة، فإذا قال الحكيم لاو الذي كان يكبره في السن والمقام والشهرة: «أنا طيب مع المحسن والمسيء، وأجزي على السيئة بالحسنة، ولا أعمل إلا الطيب في كل حال» قال كونفوشيوس: «أنا أقابل الحسنة بمثلها، والسيئة بالعدل».

والحكيم لاو فيلسوف يحلم، وكونفوشيوس مصلح يحكم، والعدل خير من الرحمة، لأن الرحمة في جميع أحوالها لا تقتضي العدل، ولكن العدل في جميع أحواله رحمة، حتى القسوة التي تناقض في ظاهرها الرحمة هي رحمة أكبر إذا مشى المرء بفكره خطوات إلى الأمام.

وكونفوشيوس عندما فضل القدوة الصالحة على الوعظ كان هو نفسه المثل الرفيع، فقد أعطاه حاكم «تسي» خراج مدينة «لن شيو» فأبى، وعرضت عليه مناصب رفيعة فاجتواها لأنها في حكومات ظالمة، وأدرك أن قبوله إياها تأييد للباطل وتغرير بالأبرياء، وقال لمريديه الكثيرين: «لا يهمني إذا لم أشغل منصباً كبيراً، والذي يهمني أن أكون جديراً به».

وعرض عليه ملك «وي» رئاسة حكومته فلم يقبل، لأن مبادئه تختلف عن مبادئه ولا تلتقيان.

فالرجل كان آية في النزاهة والنبل، وكانت حياته وأفكاره

وفلسفته وحكمه تقوم على البساطة التي لا تخلو من عمق، ولهذا تجنب قوانين المنطق والفلسفة، ولم يجهد نفسه بالقياس المنطقي وقواعد الفلسفة لأنه أراد البعد عن السفسطة والجدل العقيم مؤثراً على ذلك كله المنطق الوجداني، فهو أجدى بالمصلحين الذين يريدون نشر الخير والفضيلة بين الناس ويتوخى إصلاح الجماهير الذين لا يفهمون ولا يهمهم أن يعرفوا: البذرة أصل الشجرة أم الشجرة أصل البذرة، بل يهم المصلح أن يريهم البذرة الصالحة للتربة الصالحة لتنبت الشجرة الصالحة، ولتكن ـ بعد ذلك ـ إحداهما أصل الأخرى.

وأنا أرى كونفوشيوس بعيداً عن الجو الفلسفي المعتم لأنه معلم ومصلح، ولهذا تجنب كل التجنب البحث الميتافيزيقي واكتفى بإظهار قيمة الواجب الانساني والأخلاق الفاضلة وحاجة الانسان والمجتمع إلى الفضائل التي تطهر الروح والجوارح وتهذب النفس.

فإذا سمي عمل كونفوشيوس ديانة، لا مكان فيها للاهوت بحيث يحجب جانباً من العقل، بل كان كثيراً لا يجيب على الأسئلة التي تتصل بالغيب، فقد سئل: الأموات يعلمون أو لا يعلمون؟ متى تكون الشمس أقرب إلى الأرض؟ في الصباح أم الظهر؟

وكان يجيب أحياناً ليسكت السائل، فقد سأله أحدهم: أتسمح أن أسألك عن الموت؟ فأجابه: إذا كنت لا تعرف الحياة فكيف تفهم الموت؟ وسئل عن خدمة الأرواح فقال: إذا عجزت

عن خدمة الناس فكيف تخدم الأرواح؟ وسئل عن «ماهية الحكمة» فأجاب: إذا أديت واجبك نحو الناس على خير وجه وانصرفت عن الأرواح مع إجلالك لها فإن ذلك يمكن أن يسمى حكمة».

وهذا تهرب منه حقاً، ولكنه هو نفسه قال لأحد تلامذته بصراحته المعهودة: «أتظن أني ممن يحفظون أشياء كثيرة يستبقونها في ذاكرتهم؟ فلما قال له: أعتقد ذلك؟ قال: لا، لا تعتقد ذلك».

أما ما يتصل بالانسان والمجتمع والأخلاق وحياة الناس والسياسة والحكم فكان يجيب، ودروسه قائمة عليها.

وارتفع كونفوشيوس بعد موته إلى أعلى درجة عند الصينيين، لقد جعلوه إلهاً مثل السماء لأنه ندها وكفؤها، فعبد، أما الذين خرجوا من وثنية الصين إلى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية فلم يؤلهوه، بل يعجبون به إعجابهم بإنسان كبير ومرب قدير ومصلح اجتماعي عظيم.

والصينيون المعاصرون من الأعلياء في الثقافة والعلوم والآداب والفنون لا يؤلهونه بل يرونه إنساناً حكيماً مصلحاً آية في النبل والكرامة الخلق، وقد قابلت بعض كبار مفكري الصين في فرموزا سنة ١٣٨٢ (١٩٦٢م) وتحدثنا عن كونفوشيوس فإذا هم يرونه رجلاً عظيماً مصلحاً، ويعجبون به إلى حد بعيد، ولا يؤلهونه ولا يعبدونه.

وكونفوشيوس لم يدّع أنه إلّه، بل لم يدّع أنه نبي أو رسول، ومن أقواله: يوجد مثلي في النبل والكرامة في بلدتي، ولكن لا يوجد مثلي في عشق العلم» إنه عاشق العلم، وفي كتاب «الحوار» الذي ألفه بعض تلامذته نقلوا عنه قوله: «أما الأنبياء فلا أجترىء على ادعاء رتبتهم، وغاية ما يجوز القول عني هو أنني أعمل جاهداً بلا ملل، وأعلم غيري دون أن أشكو تعباً» فهو نفسه يعترف أنه ليس نبياً، واعترف بأنه معلم، وتمنى أن يوليه أحد الحكام منصباً رفيعاً ليتخذه وسيلة للنهضة والاصلاح، فلو كان إلهاً أو رسولاً أو نبياً ما تمنى هذه الأمنية لأنه كان هو نفسه يولى ويعزل، بل كان يشعر أنه فرد من الرعية، وكان يؤيد حاكم «لاو» ويوطد سلطانه عندما كان عادلاً.

وكان يقول: أنا ناقد غير مبتكر، وكان يمزح ويرسل الفكاهة ويتقبلها، ويطرب للموسيقى، كان رجلاً مراحاً دون أن يفقده المرح وقاره.

عندما فرقت الحوادث بينه وبين تلامذته في أثناء تطوافه عرفوا مكانه من حكاية مسافر قال: إنه رأى رجلاً بشع الخلقة دميًا ذا منظـر كئيب يشبه منظر الكلب الضال، وأدرك تلامذته أنه يصف معلمهم، فلما أعيد القول على مسامع كونفوشيوس ضحك ضحكاً شديداً وقال: عظيم! عظيم.

وسئل تلميذ له عنه من قبل كبير فلم يجبه؛ فقال له

كونفوشيوس: لم لم تقل له: إنه رجل ينسيه طلب العلم طعامه وشرابه، وتنسيه لذة طلب العلم أحزانه؟!.

فالرجل لا يد له في تأليه الصين إياه وعبادته اللذين كانا بعد موته على طريقة الصين في تأليه الأسلاف وعبادتهم، بل بالغوا معه حتى جعلوه إلهاً كالسماء مع أنه كان «لاأدرياً» وكان من الأصول المقررة في الكنفوشية الإيمان بـ«الشانج تي» وهو السماء التي تمثل إرادة الله أو القوة المسيطرة على العالم، وليست السماء مكاناً، ولكنها هذه الارادة أو القوة.

وأصبح كونفوشيوس نداً للسماء، إلهاً معبوداً.

والديانة الكنفوشية سهلة واضحة ليس فيها جوانب الغيب والوعود والسحر، ولم يسيطر عليها تعقيد الفلسفة أو غيبيات اللاهوت، فلم تملأ فراغ الصين وصبوة الصيني إلى المجهول والغيب، ولم يجد في الكنفوشية ما وجده في سواه من الخرافات والأوهام التي كانت تملأ جو الصين، فالأرواح الطيبة والخبيثة تملأ كل فراغ، وكانوا يعتقدون في السحر والرّقي وشغلتهم الكنفوشية بالواقع وإصلاحه وليس غير.

وبقي سلطان العقيدة «الطّاوية» التي تسبق الحكيم «لاو» أو «لاوتسي» بزمن طويل، ومنسوبة إلى تاو ته چنچ ومعناه كتاب الطريقة والفضيلة ويقال: إن «لاوتسي» هو الذي أسسها حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وتاريخه غامض غير واضح، الطّاوية حلولية، وتؤله مظاهر الطبيعة وتعبدها مع أرواح الأسلاف،

والطريقة هنا إله، وهذه صفاته: ليس بصوت ولا صورة، أبدي لا يفنى، ووجوده سابق وجود غيره وهو أصل جميع الموجودات وروحه تجري فيها.

ومما مر نفهم الكنفوشية ديناً إيجابياً ينفعل مع المجتمع خاصته وعامته، وعاصرت «التاوية» أو ولدتا في عهدين قريبين، أو سبقت التاوية، فليس هناك تاريخ دقيق يشير إلى الترتيب الزمني بحيث يكون مقطع القول فيه.

ويقال: إن التاوية سبقت الحكيم «لاوتسي» بزمن طويل ومنسوبة إلى «تاوتي گنج» ومعناه: كتاب الطريقة والفضيلة.

ويقال: إن لاوتسي هو الذي أسس التاوية حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، فقد ذكروا أنه ولد في سنة ٦٠٤ أو سنة ٥٧٠ ق. م، والمعروف من سيرته وتاريخه يسير ويغشاهما الغموض كما يغشى التاوية نفسها.

وكل ما عرف عن «لاو» أنه كان موظفاً في قصر أحد أباطرة تشو في منصب ناظر ديوان السجلات، وكل ما عرف من مؤلفاته كتاب «تاو تي» ويذهب المؤرخون إلى أن كتابه هذا لم يسلم من التحريف، فقد أقحم تلامذته أقوالهم فيه.

وعلى أي حال فإن هذا الكتاب يحوي بما كتب لاو وربما أقحم تلامذته ديانة التاوية وأصولها، وإن كان ما فيه من آراء في مسائل ما وراء الطبيعة يغشاه ضباب كثيف من الغموض

والابهام، بل نجد هذا الضباب نفسه كثيفاً في الآراء التي تدور في آداب السلوك والاجتماع.

وأضيفت إلى هذا الكتاب شروح وتفصيلات حاسمة لا يخلو كثير منها من الغموض، وأكثرها يقوم على الشعوذة والدجل والكهانة المرتزقة.

وإن «تاو» هو المطلق الكائن، وهو مراد الكون وليس الأرض، لأن الأرض جزء من الكون وليست كله، وهو ليس منفصلاً عن الكون، بل داخل فيه دخولاً جوهرياً، وهو فاعل كل شيء، فعال لما يريد، وهو الموجود الذي انبثقت منه جميع الموجودات؛ ومع ذلك فليس المطلق الكائن كائناً، ومن انتفاء الكينونة عنه يستمد صفة كونه، لأن «تاو» هو المبدأ، وهو قانون نفسه.

والطبيعة هي مجال الانسان لأنها موضع تأمله، فهو يتخذ من الأرض منهاجه، والأرض تتلقاه من السماء، والسماء من تاو، و«تاو» هو مبدأ نفسه، وموجود في كل مكان، وثابت لا يتغير، ويسمو ويبعد، ولكنه يعود، وإذا كان وراء الحواس: اللمس والسمع والبصر فليس معنى ذلك أن الانسان لا يحس بوجوده، لأنه متجلٍ تجلياً صحيحاً في عالم الواقع لا تجلي الوهم والخيال وحسب، فهو متجل تدركه الحواس ويدركه خيال الانسان.

وتجلي «تاو» نشعر به في ذلك الفيض المتناسق الذي تعرب

عنه الطبيعة في منهجها الذي أصبح مدلول «تاو» الشائع في مفهوم أتباعه.

وهذا التجلي هو قوام الانسان، ومنه كان الاسم «تاو» أعظم دليل على ذلك الذي هو فوق كل قانون طبيعي، ومع هذه «الفوقية» فإن «تاو» هو المصدر الخفي والمبدأ الأول التي تستند إليه الطبيعة.

واستخلص لاو تسي من عقيدته في المطلق نتائجه الخاصة بواجب الانسان، ومن العجيب أن هذه النتائج كانت تتعارض مع الآداب المحلية المعروفة في عصره، ولا تتفق مع قواعد الأخلاق والاجتماع السائدة، وليست كل النتائج تتعارض مع الآداب والأخلاق، بل فيها ما يقوم عليها.

فهو يهاجم الشرائع والقوانين، ويقول: إن كثرتها كانت سبباً في كثرة المجرمين، والعلم سبباً في كثرة السفلة، فلو لم يكن الأمر كذلك لبقي الناس أطهاراً مثلما خلقوا، فالعلم والشرائع مفسدة، والصلاح البقاء على الفطرة، والعدل هو الاندماج في الطبيعة، وما عدا الطبيعة هراء، فما دام الانسان يولد خيِّراً فلا ضرورة للعلم الذي يفسده، فالحمامة البيضاء ليست في حاجة إلى اغتسال لتبيضّ.

ومن مذهب لاو تسي أن الطبيعة هي الأمن والخير والسلام، وفي العصور الماضية كان الناس طبيعيين فعاشوا آمنين،

لأن الطبيعة جعلت حياتهم سهلة آمنة، فلما حصلوا على العلم آعوجّ بهم الطريق، فالمخترعات عقدت الحياة التي كانت سهلة، وكانت هذه المخترعات سبب فجيعتهم في نقاء الضمير وحسن الخلق، ونجم من تأليف الكتب ما أصاب الناس من شر وقلق وشقاء.

ولو أقاموا حيث وضعتهم الطبيعة لعاشوا سعداء آمنين، والخير للانسان أن يعيش بعيداً عن المدن والحكام والمصلحين والعلماء والمخترعين والكتب والموظفين والمرتشين الأُلي أفسدوا الحياة، ولن يعود الصفاء إلى الحياة إلا بالعودة إلى الطبيعة والخضوع التام لقوانينها، فأوامرها الصادرة من الغرائز يجب أن تسمع وتطاع، وأما ضلال العلم وخداع العقل فيجب نبذهما لأنهما سبب نكبة الانسان.

ومن الحمق والسفه مقاومة حياة الكون في جريانها ببذل الجهد من أجل تحصيل المعرفة وتشجيع الاصلاح، بل على الانسان أن يتقبل حياة المطلق في سريانها حتى لكأنها حياته، ويدع نفسه للطبيعة يحمله نهرها إلى حيث تريد، ويخضع لها، ويترك مقاومة القانون الطبيعي.

ومن تعليمات لاو تسي أن يفنى الناس في حياة المطلق، فهي وحدها التي تسير دون تعثر وفي غير تعب، والسماء والأرض لا يسيرهما في وجودهما فكرة الخير، لأن الشر والخير سواء لديهما.

وإذا صح أن ما في كتاب «تاو تي كنج» هو من تأليف

لاو تسي أو من غيره فان ما يحويه ليس من الوضوح بحيث يكون مفهوماً إلا في بعضه، وبعضه غامض كأنه أسرار لا تفصح عن كنائنها

و«تاو تي كنج» هو كتاب التاوية المقدس، ولعله أقصر كتاب مقدس عرف في الديانات، وإلى جانب الغموض الكثيف الذي يغشى كثيراً من نصوصه نجد تناقضاً بين بعض النصوص، وبعض النصوص واضح مفهوم.

وفي خاتمة كتاب التاوية المقدس إنذار موجه إلى من يريد إزالة الغموض كله أو بعضه أو يحاول أن يجعل ما يكتنفه الضباب واضحاً الوضوح كله أو بعضه، فيقول: «إن الذين يعلمون لا يقولون، والذين لا يعلمون هم الذين يتشدقون بالقول، والذين يعلمون يغلقون أفواههم».

ونهض تلامذة لاو تسي وأتباعه من بعده على مر السنين بتأليف شروح وتفسيرات لكتابهم المقدس، فلم تفسر أو تشرح غامضاً، بل زادت الشروح الغموض غموضاً.

وعندما كنت في الصين قرىء علي بعض نصوص كتاب الطاوية المقدس، ولم يكن في وسع المترجم من الصينية إلى العربية أن يجلي الغامض ويزيل الإبهام، ولكن وسعه أن يترجم منه ما هو سهل ترجمة أعجبتني صغتها بلغتي، ومما ترجم المترجم وصغته هذه الفقرات:

«الطيب لا يغلي قيمة ما صعب الحصول عليه».

«إذا كان جسد الحكيم يغطيه ثوب خشن فإن صدره يحوي جوهرة».

«عظمة الحكيم أن لا يقيم معرضاً لعظمته».

«الفاضل من لا يستعرض فضيلته».

«قاهر الناس قوي، وقاهر نفسه عظيم».

«ميراث الثروة والقوة والكبرياء هو الهلاك».

«الذي يمشي على رؤوس أصابعه لن يمشي طويلاً».

«الفضاء العظيم خال من الزوايا».

«هدف الرجل الصالح حفظ السلام».

«الجدير بالسلطة من يحب الناس جميعاً، ولا يكره أحداً».

«كثرة الشرائع والقوانين تزيد عدد اللصوص».

«الذين يعجبون بأسلحة الحرب هم القتلة».

«حيث تتجمع الجيوش تنتشر المجاعة بين الآمنين».

هذا ما يذهب إليه لاو تسي في تلخيص عقيدة التاوية التي زاد تلميذه جوانج تسي الذي كان حياً في القرن الرابع قبل الميلاد عليها شروحاً وتفصيلات، وأضاف إليها من فلسفته، ورأى أن المطلق ليس مجرد الواحد الذي يفني في وحدته كل ما غايره، بل

يتجاوز هذا المفهوم إلى تصور الاتحاد الشامل بحيث تتحد النفس بالمطلق الكائن.

وليس الله مبدأ في الديانة التاوية، بل سبقه مبدأ أعلى منه، فجوانج تسي يرى أن الإنسان جاء إلى الوجود مع الكون، وهو يحب الله، ولكنه يحب المصدر الذي جاء منه الله أكثر من حبه الله.

وهذا التصور ينتهي أو يفصح عن وجود مبدأ قبل الله حسب ما يفهمه.

وينتقل جوانج تسي إلى شرح فلسفته، ولكنه شرح غامض أيضاً، فهو يرى أن الذين يعقلون من القدماء كانوا يعرفون مصدر أنفسهم كما يعرفون مصيرهم، كانوا يعرفون من أين جاءوا وإلى أين ينتهون، وأدركوا أن الباقي موجود فيهم وبهم، ولهذا لم يتعجلوا إنهاء حياتهم، بل تركوها على فطرتها حتى تنتهي هي نفسها، لأنهم مدركون أن اليوم الذي سيفنون فيه في هذا الباقي آت لا محالة، وما دام آتياً فهو معلوم.

ويستطيع الانسان معاناة شعوره بالاتحاد في ذلك الباقي متى ارتقى إلى المعرفة الحق، وعندئذ يستطيع أن يصل إلى حالة «الأثيرية» التي تفضي إليها المعرفة الحق كاملة.

والانتقال إلى حالة الأثيرية انتقال صاعد إلى حيث تنعدم فيه معرفة الماضي والحاضر، و«إلى حيث» هذه موضع غير مادي ولا محسوس، وغير معروف أيضاً، لأن لاوتسي لم يحدده ولم يحدد

تلميذه، ولكنه موضع ينتهي إليه الانسان بعد اجتياز مرحلة الترقي إلى المعرفة الحق ومعاناة الشعور بالاتحاد في الباقي.

وبعد ذلك يصل إلى حالة الأثيرية عن طريق المعرفة الكاملة حيث ينتقل إلى حيث لا يوجد موت ولا حياة، ولا تزول الحياة بالموت، ولا يفني طول الوجود شيئاً من عمر الحياة، والحالة الأثيرية هذه تسمى نيبان Nibban وهو «النرڤانا» الصيني، الذي يعد مرحلة الراحة الأبدية.

وهذا التعقيد الغامض المبهم عزَّ على العامة فهمه، ولم تستطع العامة فهم غوامض لاوتسي، فجنح أتباعه إلى مسايرة العامة فنزلوا إلى مستواهم، فحوروا المذهب وبسطوه، وتناوله الطاويون الذين تولوا الوصاية على المذهب بالشرح والتفسير والتعديل، ووجهوا اهتمامهم البالغ إلى «الحياة» التي يتساوى الخاصة والعامة في الحرص عليها، ألا وهي التي تتجلى في العمر، فزعموا أن في الوسع إطالته متى عني الانسان بصحته ونفسه.

وهذه أمنية كل إنسان، فما من أحد إلا وهو يتمنى أن يطول عمره، ومن هنا دخل المذهب إلى حياة الناس جميعاً بدون فرق بين عظيم وحقير، وتساوى الأمبراطور مع الكناس في هذه الأمنية التي لا تتحقق إلا بالقدرة التي يملكها الإنسان.

وطبيعي أن الأمبراطور أقدر من غيره، وغيره يتمنى، ولكن لا تتحقق الأماني بالنسبة لكل الناس كما يتمنون.

وليست المصادر وافية في هذا الموضوع، والإشارة إلى نتائج هذا الاهتمام بإكسير الحياة يسيرة، ولكننا نخمن أنه أدى إلى تقدم الطب والعناية بالنفس والمحافظة عليها مما يعرضها لخطر القلق ومختلف أنواع الكدر والهدم، وإن كان القلق أصبح وقفاً على أكسير الحياة وإطالة العمر.

إن الديانة الوحيدة التي زعمت أن في الوسع إطالة عمر الإنسان إلى مئات السنين هي التاوية.

وتفتحت أبواب جديدة للخرافات والدجل والشعوذة والسحر فدخلت التاوية دخول الفاتح القهار، وصحب ذلك فتح أبواب أمام الكهنة والدجاجلة منهم ومن غيرهم.

واهتم السدنة بالسحر فاتخذوه علاجاً للمرضى، وأوهموا الناس حتى حملوهم على الاعتقاد بأن حق الايمان بالطاوية هو الذي يكون من نصيب الشفاء، فإذا شفي مريض فذلك دليل إيمانه الحق، ومن استعصى داؤه على الدواء وعز الشفاء فذلك برهان على ضعف إيمانه ونقصه.

واستتبع السحر والرغبة في الشفاء دخولُ خرافات جديدة على الطاوية، وحدوث طقوس خرافية جديدة، فالمريض مفروض عليه أن يكتب من اعترافه نسخاً ثلاثاً، لأن أمامه قوى ثلاثاً هن: السماء، وجوف الأرض، والماء، فترسل النسخة الأولى من

الاعتراف إلى السماء بأن توضع الرسالة على قمة جبل، والثانية تدفن في جوف الأرض، والثالثة تلقى في الماء.

وصاحب الإيمان القوي يجد الجواب شفاء، أما من كان قليل الايمان فلا جواب له بدليل بقاء الداء.

واقتضى الطقس الديني الجديد إعداد حجرات هادئة من قبل السدنة يقضي فيها المريض أوقاته مشغولاً بالتأمل في خطيئاته وذنوبه، فالمرض ناجم عن خطيئته، والذنب داء، ولا بد من التطهر بالاعتراف ثم الانتقال إلى التأمل، فمن كان إيمانه قوياً واعتقاده صحيحاً نال الشفاء وإلا بقي رهن الداء، والمريض هو المسئول، وعليه وحده التبعة لا على السدنة الوسطاء.

ولم يفرغ أتباع لاو تسي على مر الأيام من تناول أقواله بالشرح والتفسير كما هي الحال في أمثاله من مبتدعي النحل والملل والمذاهب جميعاً، وما أكثر ما يحوي الشرح والتفسير ما لم يقصده صاحب المذهب أو يخطر بذهنه، وما أكثر ما يضيف الشراح والمفسرون آراءهم ومعتقداتهم إلى المذهب ما يشاء لهم.

ومن تناول الشراح والمفسرين أقوال لاو تسي تطويراً للمذهب زعمهم أنه في الإمكان إطالة العمر إلى مئات السنين وإلى ما لا نهاية له بوساطة تدريبات ورياضات خاصة جسدية وروحية تحقيقاً لما ذهب إليه لاو تسي من أن في الوسع أن يطيل المرء عمره إلى ما لا نهاية له.

وفهموا من قول لاو تسي في إمكان إطالة العمر فهمًا مادياً، ووقع في هذا الفهم أعلى الناس علمًا وثقافة، فخضعوا للدجل والشعوذة وألاعيب السدنة والسحرة.

وإذا كان الأمبراطور شي هوانج Shih Hwang الذي يعد من أكبر المثقفين فهم موضوع إطالة العمر من الجانب المادي فما بالك بغير المثقفين أمثاله؟.

إن هذا الأمبراطور فهم إطالة العمر إلى غير نهاية فهمًا حسياً، فوقع تحت سلطان كهنة التاوية وزعماتهم الخرافية ودعاواهم أن لديهم القدرة على التحكم في قوى الطبيعة، وأقنعوا الأمبراطور أن في وسعه أن يحيا إلى الأبد إذا حصل على ثمرة الخلود التي تختزن إكسير الحياة، وهي في جزر «المباركين».

وزعموا أن المرء عندما يتناول هذه الثمرة يكون خالداً، ويكون في قدرته السيطرة على جسده المادي والتخلص من وثاق المادة الفانية والتحرر من قيودها، والانطلاق إلى حيث يريد من السماء، لأن جسده الروحاني يمكنه من العروج إلى السماء إذا أراد، أو يبقى في الأرض مئات السنين حياً ليقدم البرهان لغيره على إمكان ضمان الخلود، لينتشر بين البشر برهان إمكان البقاء، وينشر بينهم سر الخلود.

وصدق الناس وفي طليعتهم الأباطرة والأغنياء والمثقفون مزاعم الدجالين والمشعوذين والكهنة السحرة من التاويين أن

أناساً أتيح لهم الخلود والصعود إلى السماء هانئين بعيش سعيد وحياة ماتعة، وصدقوا زعماتهم في عالم الروح، فحث الكهنةُ الناسَ على استرضاء الأرواح بالقرابين، والاستعانة بالسحر للتحايل على عالم الروح.

وسنحت الفرص الذهبية: فرص الكسب الرابي والغنى الفاحش أمام كهنة الطاوية فأثروا وسادوا، مثلهم مثل كل الكهنة في سائر الأديان، إذ أوقعوا العامة ـ وكل من عداهم عامة مهما أوتوا من يقظة العقل والشعور إلا النادر ـ في حبائلهم، وسيطرة دعاواهم وشعبذاتهم، واستغنوا على حساب العقيدة الدينية.

وكل الديانات تقوم على الكهنة، فهم وحدهم الذين يملكون مفاتح الغيب، وخزائن أسرار العقيدة، وبأيديهم أعنتها، ولا يمكن الاتصال بالغيب إلا عن طريقهم وبوساطتهم، والناس في هذه الديانات مضطرون إلى اتخاذ الكهنة وسطاء بينهم وبين الغيب المجهول إلا في دين واحد قضى على الكهنوت وسلطان الكهنة، فلا سر في هذا الدين يحتفظ به الكهنة وحدهم، ولا تفرد لأحد في الوساطة بين الغيب والانسان، والخالق والمخلوق، لأن كل معتنق لهذا الدين هو رجل دين، ويتصل اتصالاً مباشراً بالغيب، ذلك الدين هو الإسلام.

وآراء لاوتسي أو التاوية لم تكن ديانة إيجابية وحسب، بل شملت شيئاً من السلبية، ففيها ما لا يتفق مع ضرورات قيام

المجتمع وبقائه، وفيها ما يصرف الناس عن الفضائل الإيجابية إلى شغل فرد من أتباعها بالتأمل والاستغراق فيه، ومن هنا كان التناقض بين الطاوية والكنفوشية.

وفي التاوية تثليث، فقد ذكر العلامة «دوان» Doane في كتابه المعروف باسم «خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى» (Bible Myths and Their Parallels in other Religions) ص ١٧٢:

«إن التاويين يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم، وأساس الفلسفة الطاوية أن «تاو» هو العقل الأول الأزلي، انبثق من واحد، ومن هذا انبثق ثالث كان مصدر كل شيء».

ولم تستطع التاوية أن تملأ فراغ النفوس، ولم تطفىء ظمأها إلى المجهول، وبقيت ديانة ضيقة مغلقة، فلم تنتشر في الصين كلها أو أكثر بقاعها، بل بقيت محدودة الذيوع، ولكن ما تزال باقية حتى اليوم، فقد رأيت سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) حين زيارتي للصين الوطنية بدعوة من حكومتها في جزيرة فرموزا (تايوان) معابد للتاوية، وأشهرها معبد «شهنان» قرب «تايبيه» عاصمة الصين الوطنية، ويضم تمثال «لو-تونغ-ين» حيث تقمصته روح إله التاو كما يزعمون.

نعم، لم تملأ التاوية الفراغ، ولم تتسع للشعب الصيني الكبير، فجاءت البوذية، ويقال: إن الملك «منج-تي» في أواخر

القرن الأول للميلاد (٥٨ ـ ٨٦ م) رأى رؤيا فسرها له شقيقه على أنه «بوذا ساكيامـوني» الذي انتشرت ديانته في البلاد الواقعة غرب الصين فبعث في سنة ٦٥ بعثة إلى خوتان بالهند للاطلاع على البوذية. وعادت بعد سنتين تصحب كاهناً هندياً بوذياً وكتبا بوذية.

وبدأت البوذية في الصين تثبت أقدامها، ولقيت مقاومة، إلا أنها كانت شديدة من أهل الديانة «التاوية». وفي القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت البوذية في أمن من كل معارض، وأخذت تنتشر حتى وسعت الصين كلها.

والبوذية ـ كما مر في الفصل السابق ـ ديانة هندية، وعندما انتقلت إلى الصين لم تستطع أن تبقى كما كانت، بل اصطبغت بالصبغة الصينية وأضيف إليها وحذف منها ما رأوا حـذفـه.

والبوذية نفسها قد انقسمت في موطنها الأصلي (الهند) الى فريقين: الماهايانا، والهينايانا الذي احتفظ بالبوذية على صورتها الحقيقية، أما الماهايانا فقد ابتعد عن أصل البوذية دون أن يغير في حقيقتها، بل كان التغيير في بعض جوانب الحقيقة وفي كثير من الملامح والمبادىء، حيث اعتبر بوذا كاهناً لاهوتياً هبط إلى العالم رجاء إنقـاذه من الشرور، وأضاف فريق الماهايانا إلى بوذا بوذوات جدداً، وذهبوا إلى أن هناك أشخاصاً في سبيل التهيؤ لمرتبة البوذية سيظهرون في عوالم جديدة وأوقات محددة.

ومذهب الماهايانا هو الذي انتشر في الصين وتبت واليابان، وهو معقد كل التعقيد، بحيث لا يفهم الأتباع منه إلا ما كان واضحاً كالعبادة دون أن يدرك ما وراءها، والسجود للآلهة وإيقاد الشموع وإطلاق البخور وسكب العطر وسماع مواعظ.

والكهان أنفسهم يجهلون من حقائق البوذية الكثير، ولا يفهم القليل منها إلا الراسخون في العلم.

ورأيت معابد بوذا وتماثيله في الصين الوطنية وقابلت بعض أتباعه من الرهبان، والراهبات، وتشتهر في فرموزا إلهة الرحمة «أفالكتسارا بوذيستانا».

ودخلت المانوية إلى الصين في القرن السابع للميلاد عن طريق تركستان التي اعتنقتها قبل الإسلام، وانتشرت في شمال الصين، وفي القرن الثامن شيدت هياكل في المدن الشهيرة، ومعابد كثيرة في مقاطعات هانا، وشاتسي، ولكن الأمبراطور وو-جونغ (٨٤١-٨٤٦م) ثار على المانوية لأنه كان من المخلصين لطريقة «لاوتسي» وشديد التعصب لها وقضى عليها قضاء تاماً وقتل رهبانها، وقتل في عاصمتها وحدها اثنتين وسبعين راهبة مانوية.

وعرفت الصين المجوسية، وقد دخلتها بعد دخول المسلمين فارس وفرار حكامها إلى الصين بدياناتهم المجوسية، وبنوا معبداً لهم في عاصمة الصين، ونشر علماء المجوس دينهم في شمال

الصين، ولم تجد المجوسية في الصين ترحيباً، وكان دخولها قبل الإسلام بقرن، ومحيت آثارها سنة ٨٤٦م ولم يدخلها من الصينيين إلا عدد يسير.

ودخلت النسطورية الصين، وهي طائفة من المسيحيين ينتسبون إلى نسطور بطريرك القسطنطينية الذي كان في منصبه هذا سنة ٤٢٨م ومنهم انتشرت النصرانية في الهند وفارس والصين.

وأول دخولها سنة ٦٣٥م فقد وجدت كتابة أثرية في مدينة «جانغ آن» تثبت أن أول من دخلها رجل اسمه «أولوبن» وبنى بها معبداً أوى إليه واحد وعشرون راهباً كان هو رئيسهم، ثم انتشرت النسطورية في بعض المدن الصينية وبنوا بها المعابد، ونقشوا على الأحجار أعمالهم ونصبوها في أمكنة مختلفة أبقت ذكرهم، ولولا أن الصينيين أخرجوا المبشرين وهدموا المعابد النسطورية في أواخر القرن التاسع الميلادي لاستطاعت أن تكون ديانة ثابتة ذات أتباع كثيرين من أهل الصين.

ومن الخطأ التاريخي أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى أن الإسلام دخل الصين في عهد كائي ـ وانغ من أسرة صوي Sui فيما بين سنة ٥٨٩ و٦٠٥م وهو خطأ واضح لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نبىء بـ«إقرأ» في عام ٦٠٩م.

ويذكر المؤرخ الصيني المسلم بدر الدين حي الصيني أن سبب الخطأ هو توهم أولئك المؤرخين أن المجوس الذين دخلوا

الصين في أوائل القرن السادس هم المسلمون، وكلامه صواب، لأن الرسول ﷺ أوحي إليه بعد دخول المجوس للصين، فيستحيل دخول الإسلام في ذلك العهد.

ودخل الإسلام الصين بحراً ما بين سنة ٦١٨-٦٢٦م ومن البر بعد هذا التاريخ بقليل، وانتشر في مقاطعات كثيرة حتى أصبحت مقاطعات أغلب سكانها مسلمون، ورحب الصينيون بدين الإسلام أجمل ترحيب، ورأوا ديناً جديداً عظيمًا يجمع الدنيا والآخرة، ويدعو إلى الايمان بالله خالق السموات والأرض ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى انتشر ودخل فيه عشرات الملايين، ولكن كثيراً منهم قتلوا في العهد الشيوعي الأخير، وبلغني من بعض الصينيين الفارين من جحيم الشيوعية الصينية في «هونج كونج» أن قتلى المسلمين في سنة ١٩٥٦م بلغ بضعة ملايين.

أما المسلمون في الصين الوطنية فيبلغون أربعين ألف مسلم، هم في المكانة الرفيعة في الدولة، ومنهم قواد وأساتذة جامعات، وعميد الجامعة العسكرية هو الجنرال الحاج أحمد يونج، وقد زرته فيها يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣٨٢هـ (٢٣ نوفمبر ١٩٦٢م) وتقع الجامعة في معسكر كبير قرب مدينة كاو شنج.

والديانة الغالبة في الصين هي البوذية التي ولدت في الهند ثم انتقلت إلى الصين، حيث لا ترى في الهند إلا عدداً ضئيلاً من

البوذيين الهنود، لأن كل البوذيين في الهند من سكان بورما وسيام وسيلان إلا النادر.

وفي هذه الأيام، بل منذ اغتصاب الشيوعيين الحكم في الصين خفتت أصوات جميع الأديان حتى البوذية التي يدين بها الشعب الصيني بنسبة تزيد على سبعين في المئة من مجموع السكان، ففي فرموزا ـ مثلاً ـ يبلغ مجموع المتدينين بالبوذية إلى سبعة ملايين من أحد عشر مليوناً من السكان.

ومع أن البوذية دين زهد وتقشف وعزلة وتسول إلا أنه عندما انتقل إلى الصين واعتنقته أفرغ عليه الشعب الصيني من روحه المتفائلة ما قضى على ما لايتفق مع مزاجه المعتدل.

* * *

أما بلاد «التبت» فتقع في أواسط آسيا، تشغل هضبة جرداء، ومساحتها ٤٧٠٠٠٠ ميل مربع، وسكانها حوالى أربعة ملايين، وكلهم يدينون بالبوذية، ومنعزلة عن العالم، ويندر أن يسمحوا لغريب بدخول بلادهم وبخاصة عاصمتها «لاسا».

ودخلتها البوذية في صورة مشوهة غارقة في خرافات وأساطير في عهد الملك سُرُنْج سان جمبو. ومن غرائب المصادفات أن تكون سنة دخول البوذية إلى التبت هي سنة هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وذلك سنة ٦٢٢ م.

وكان «سرنج» عميق التدين بالبوذية، ولعل مرد ذلك إلى

زوجيه الاثنتين، وكانت إحداهما هندية، والأخرى صينية، وكانتا بوذيتين، ويقال: كل واحدة منهما حملت كتباً بوذية معها، بل بعث سرنج كاهناً خاصاً إلى الهند يبحث له عن الكتب البوذية، وعاد إليه بها وترجمها إلى لغة التبت بعد اختراع حروف هجائية تبتية.

وارتفع سرنج حتى صار إلهاً معبوداً من قبل شعبه، كما عبدت زوجتاه، وصاروا آلهة.

ويظهر أن شعب التبت لم يدخل قلبه الايمان العميق بالبوذية كالملك وزوجتيه، فما كادوا يموتون حتى اضطهدت البوذية وعذب دعاتها وأتباعها وشردوا، ثم عاد إليها مجدها على يد الملك «كير سونج سان» في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد فتولى ابنه «لانج دارما» الذي كان عدواً شديد الحقد على البوذية فطاردها وقضى على أتباعها، وكان ذلك سبب عطف شعب تبت على البوذية، واغتيل «لانج» سنة ٨٥٠م ولم تستقر الأوضاع، بل سادت البلاد فتن وحروب دامت أكثر من مائة وعشرين سنة، ولم تستقر إلا على يد الملك «بلام كور» الذي جلس على العرش سنة ٩٧١م فأعاد للبوذية مجدها وسلطانها، وأعاد إلى كهنتها نفوذهم وعزهم، وأحاط الملك زعيم البوذية «اللاما» بتقديس واحترام، وصار الزعيم الديني للتبت.

ورأت البوذية العز الأكبر على يد «قبلاي خان» أمبراطور المغول وحفيد جنكيزخان، فقد تولى قبلاي خان الملك في سنة

١٢٥٩ م واعتنق البوذية على يد «اللاما» وجعله حاكم التبت ولقبه حاكم البلاد، وجعله الزعيم الديني للصين كلها، وصار بيده السلطة الدينية المطلقة، بل جعله صاحب الكلمة النافذة على كل أمراء المقاطعات الصينية ورجال الدين.

ومن إيمان قبلاي باللاما طلب إليه أن ينصِّبه أمبراطوراً على الصين فنصبه، وصار اللاما حاكم التبت السياسي والزعيم الروحي للصين كلها.

وزاد عز اللاما في كنف قبلاي ومن جاء بعده، ولما كان حاكماً سياسياً إلى جانب سلطانه الديني فقد أباح أن يستثني نفسه من قيد الصرارة وهو البعد عن الزواج كما تقضي البوذية على الكهنة وبخاصة رؤسائهم، فتزوج لينجب من يرث العرش.

إلا أن زعيماً دينياً يدعى «سونج كابا» المولود سنة ١٣٥٧ م ثار على تصرف «اللاما» حينما أباح لنفسه الزواج متخطياً حداً من حدود البوذية ومبيحاً ما منعته بالنسبة للكهنة ورجال الدين، وطالب التقيد بالبوذية والاخلاص في اعتناقها.

ووجد سونج كابا أتباعاً يسمعون، وانتشر نفوذه حتى ضعف سلطان اللاما، وصار للتبت زعيمان دينيان هما اللاما وسونج كابا كما عينا حاكمين سياسيين من قبل أمبراطور الصين الذي كان يعد مسئولاً عن التبت لأنها تابعة له.

ولكن بقي للاما سلطان عظيم، وعلى مر الزمان تفرد بالهيمنة في التبت، وصارت اللامية علمًا على فرع من البوذية، وتنسب إلى «اللاما» الذي ارتفع عند أهل التبت وعند بعض الصينيين إلى مقام الآلهة فعبد وهو حي، لأنهم اعتقدوا أن روح بوذا حلت فيه.

و«اللاما» اثنان: دالاي لاما وهو الأكبر الذي بيده السلطة الزمنية والروحية، و«تاشي لاما» وهو يأتي بعد سابقه في عظم الشأن، لأنه حلت فيه روح بوذا الذي يأتي بعد بوذا الأكبر، إذ هناك «بوذوات» متعددون.

وفي «لاسا» معبد بوذي فيه تمثال بوذا من الذهب الخالص، والمعبد محلى بأغلى الجواهر، ويُعبَد هذا الصنم ويُحَجُّ إليه من قبل من يعبدونه.

وعندما يموت الدالاي لاما أو التاشي لاما يبحثون عن طفل تحل روحه فيه فيقيمونه مكان اللاما المتوفى.

ومن المناظر المألوفة في التبت كثرة الرهبان البوذيين، ففي كل ثلاثة من سكانها راهب، ثلث السكان رهبان، والأديرة كثيرة، والمعابد لا تحصى، وقابلت أحدهم في بعض رحلاتي فإذا هو ساذج، وكل ما يعرف أنه بوذي، ولا إله غير بوذا، ولا يعلم أن في الأرض أدياناً ومذاهب.

وكان الدالاي لاما سيد التبت عن عقيدة وإخلاص، ولكن الشيوعية الصينية قلمت أظفاره، وأخيراً هرب الدالاي لاما من «لاسا» ولجأ إلى الهند، تاركاً عباده بين مخالب الشيوعية. هرب الدالاي لاما سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م).

ديانة اليابان وكوريا

الديانات القديمة تتشابه في أوجه كثيرة، وإن كانت لا تخلو من اختلاف في الطقوس وأشكال الفرائض والعبادات، وما قيل في ديانة الصين الأساسية أو التي كانت شائعة فيها يقال عن ديانة اليابان، وكما أن الصين خلت من الرسل والأنبياء المعروفين تاريخيا فقد خلت منهم اليابان أيضاً.

فقد أله اليابانيون مظاهر الطبيعة كما كان الصينيون وغيرهم من شعوب آسيا في فارس وغيرها، وكما كان كل شعب في تلك الأيام.

عبد اليابانيون مظاهر الطبيعة والأسلاف، وكان للطوطمية شأن عظيم بينهم، وعبدوا أعضاء التناسل والعلاقات الجنسية، وعبدوا الأرواح لاعتقادهم أن الروح تسري في كل شيء يرونه، في الحقل والطريق، في الشجرة والزهرة والثمرة، في الهواء والماء، وفي الحشرات والزواحف، والحيوان والنبات والجماد عامة، وفي النجوم والكواكب، وكل هذه الأرواح آلهة، بل اعتقدوا أن عدد

الآلهة لا تحصى، فهي تحلق في جو السماء وفوق المنازل والناس، ويعبدون الموتى، والدافع إلى عبادتهم الخوف منها، لأنهم توهموا فيها قدوة خارقة إذا غضبوا فيكون في وسعهم قذف العالم بالأمراض والكوارث والشرور والأذى والأضرار.

وتقربوا إليهم باعتبارهم آلهة بالصلاة واسترضوهم بتقديم أفخر أنواع الطعام.

ويظهر أنهم كانوا يؤمنون بالآخرة إيمانا غامضا، ويدل عليه دفنهم مع الميت الذكر سيفا، ومع الأنثى مرآة، وكانوا يدفنون مع الميت خدمه أو أتباعه ـ أحياناً ـ زاعمين أنهم يدافعون عنهم إذا بدأوا خطواتهم إلى الحياة الآخرة.

وحملتهم عبادة الأرواح ومظاهر الطبيعة والأسلاف إلى الاستقرار على ديانتهم المسماة بلغتهم «كامى ـ نو ـ ميشى» والمعروفة بديانة «شنتو» وهو الاسم الذي أطلقه عليها الصينيون، واشتهرت به، ومعنى «كامى ـ نو ـ ميشى» طريق الآلهة.

والشنتوية مزيج من عبادة الشمس ومظاهر الطبيعة وعبادة الأسلاف وعبادة الامبراطور المسمى «ابن السماء» لأنه سليل الآلهة كما يرون أو سليل الآلهة (الشمس) وتعرف لديهم بـ «اميتراسوا ـ أو ميكامى» المعبودة حتى يومنا هذا، وهي أعظم الآلهة والأرباب اليابانية.

وكان الامبراطور يتمتع بامتيازات كثيرة لأنه نجل «الشمس» وكان من ألقابه: شمس السماء (تنشى) والحاكم

السمـاوي (تنو) والبـاب المجيد (ميكـادو) وضمانـا للنسل الامبراطوري أبيح له أن يتزوج ما شاء من النساء.

وتذكر تواريخ اليابان شذوذا عن بعض هؤلاء الأباطرة، فذكرت أن امبراطورا من هؤلاء كان غريب الأطوار شاذا شذوذا غريبا، فكان يمسك بالعذارى ويوثقهن بالأوتار ثم يتلهى برميهن في البرك، كما كان يأمر الناس بصعود الأشجار العالية ويقذفهم بالسهام، حتى برم به شعبه الذي يعبده فثاروا عليه وخلعوه.

وتفترق اليابان عن غيرهـا في اختيار ربـة أنثى هي «أميتراسوا ـ أو ميكامى» جعلوها ربة الأرباب طرا، وهيكلها الأعظم الأقدس في «إيزى» وبه مرآة يزعمون أن الشمس (الالَهة) أهدتها للامبراطور «جمو» أول امبراطور لليابان في القرن السابع قبل الميلاد.

ولكن الشمس لم تكن الربة الأولى التي عبدوها، بل سبقتها ربة تسمى بلغتهم «سوسا ـ نو ـ وو» ربة الريح والمطر، ولكنها غلبت في حرب أعلنتها عليها وعلى عبادها «أميتراسوا ـ أو ميكامي» التي كانت ربة أناس أغاروا على جزيرة «كيوشو» وهزموا أهلها، فتخلت «سوسا ـ نو ـ وو» عن عرشها للربة الجديدة، ولم تستعد مكانتها إلا بعد صلح بين المتحاربين أصبحوا بعده إخوة، وتبع ذلك أن تآخت «سوسا ـ نو ـ وو» و «أميتراسوا ـ أو ميكامى» وصارت الربة المنتصرة الربة الكبرى.

ويعتقد اليابانيون أن ربتهم الكبرى هذه قد سبقتها أرباب

كثيرة تقدر بعشرات الألوف، وتتكون من المخلوقات العلوية والسفلية، من الأرواح والملائكة، ومن الشياطين والجن، ومن مظاهر الطبيعة، وتمت للربة الكبرى مظاهر السيادة بعد انتصارها على هذه الأرباب في حرب ضروس.

ويعتقد اليابانيون ـ مع اعتقادهم في ربَّتهم الكبرى ـ أن خالق الخلق غيرها وهو إله السماء المسمى عندهم «أساناجى ـ نوميكوتو» وهذا الإله هو الذي خلق الخلق بمعونة أخته «أسانامي نوميكوتو» التي تزوجها فكانت أخته وزوجه في وقت واحد.

وزعموا أن ثمرة اتصالهما كانت ولادة الجزائر اليابانية، أما سكانها فهم نتيجة لقاح من بذور الآلهة، فهم من نسلها.

وأخته التي تزوجها هي من مخلوقاته، فقد عطس عطسة كانت ولادتها منها، وخلق القمر من عينه اليمنى والشمس من عينه اليسرى، وكانت الشمس آثر مخلوقاته لديه وأحبها إليه فجعلها الإله الأعظم المعبود دون القمر ودون أخته.

واعتراف اليابان بوحدانية «اميتراسوا ـ أو ميكامى» يشير إلى إيثارهم التوحيد وهو صرف العبادة للإله الأكبر الذي أقروا له بخلق العالم، مع إشراك أرباب أخرى دون أن يجرح وحدانيته، ثم جمع ذلك الإيمان والتعبد وتوجيهه إلى الربة الكبرى التي دان لها الإله الأكبر لأنه هو نفسه اختارها وآثرها على نفسه فكانت أعظم الأرباب طرا بدون استثناء.

وتزعم الأساطير اليابانية أن اتصال أساناجى بأخته أسانامى جنسيا أثمر الشعب الياباني، وبذلك كان كل فرد فيه مخلوقا إلهيا لأنه من سلالة الآلهة وليس الامبراطور وحده ابن السماء أو الآلهة بل كل أبناء شعبه نسلها، وإن كان الامبراطور أقدس.

أما جزر اليابان فتروي الأساطير أن أساناجى وأسانامى ضربا المحيط برمح مرصّع بالجوهر ثم أشهراه فتساقطت منه قطرات الماء فتكونت جزر اليابان.

ولكن «أميتراسوا» ربة اليابان الكبرى لم تتفرد بالألوهية في اليابان فقد وفدت إليها البوذية في حدود سنة ٥٢٢ م منقولة إليها من الصين بعد اجتيازها كوريا، ولكن لم تكن بوذية بوذا في أصولها الصحيحة، بل بوذية الصين وكوريا التي ابتعدت عن التسول والزهد والتبتل والقشف.

ولم يرحب اليابانيون في أول الأمر بالبوذية، لأنها جاءت بما لا عهد لهم به، جاءت بأصنام مترفة، تكتسي حلى غالية وزينات نفيسة رائعة، وأبهة ومظهراً، ولم يسبق لهم في ديانتهم شيء كهذا الذي يشهدونه فلم يقبلوا عليها، كما حملهم على النفور منها المعابد الفخمة المخصصة لبوذا.

غير أن البوذية لم تيأس، وأخذت تظهر لهم ما فيها من دعوات كريمة حتى تأثروا وآمنوا بها، وسحرتهم بما فيها من آداب وأخلاق، ودخلت في صراع دموي مع «الشنتو» حتى فازت في آخر المعركة وصارت الديانة السائدة.

ومن أسباب فوز البوذية على الشنتوية أن هذه الديانة اليابانية كانت خلواً من الطقوس والفرائض وآداب السلوك والتشريع والسمات المذهبية وهيبة الديانات وغموض جوانب منها، بل كانت الشنتوية سهلة، ليس فيها شيء من ذلك، وليس بها كهنة ولا رجال دين، ولا نعيم ولا خلود، ولا عزاء للنفس ولا وعود تتحقق في عالم الغيب، بل كل ما تقوم عليه الشنتوية هو التوجه إلى أسلافهم وإلى الامبراطور والماضي بالعبادة والتقديس.

وأعظم سبب لفلاح البوذية في اليابان وانتصارها على شنتويتها أن الأمير «شوتوكو» اعتنق البوذية عن إخلاص وأعجب بها فشيد المعابد البوذية وأمر بتعميمها في بلاده كلها، وكان ذلك في أوائل القرن السابع الميلادي.

وكان «شوتوكو» أميرا امبراطوريا ووصياً على العرش، فقد أجلس عليه الامبراطورة «سويكو» واستبد دونها بالحكم، وحكم ثمانيا وعشرين سنة (٥٩٣ ـ ٦٢١) وقيل تسعا وعشرين سنة، كان خلالها حامي البوذية وخادمها ومؤيدها وناشرها في كل أرجاء اليابان، وأغدق الأموال التي لا تحصى على البوذية وقسسها ورجالها وأيدهم بكل ما كان في وسعه.

وصار لهم مجد مرموق وسؤدد ومكانة، بل قسمت اليابان إلى مقاطعات دينية، يتولى كل مقاطعة زعيم بوذي مطلق الحرية والتصرف، لا يعارضه أحد، لأن شوتوكو يؤيده ويعترف به ويبجّله.

ولم يقتصر عمل هؤلاء القسس على الوعظ والارشاد وتلقين الناس أمور البوذية ونشرها بين مختلف الطبقات، بل طلب إليهم الأمير الامبراطوري أن يضيفوا إلى دروسهم الدينية تعليم مريديهم وتلاميذهم علوم الهندسة لأن القسس كانوا ملمين بها، وأعجب الأمير بهندسة المعابد وتصميم الهياكل.

وكان الأمير مخلصا في تدينه بالبوذية فقام بإرسال بعوث إلى الصين تتلقى البوذية على أصولها منها، وبالغ في تأييدها ورسوخها ونشرها.

ولم يكن القسس والزعماء البوذيون من اليابانيين، بل كانوا من أبناء كوريا والصين، حتى إذا أهل القرن الثامن نبغ من اليابانيين من ارتفعوا إلى درجة القسس، ويظهر أن أولئك القسس لم يكونوا على جانب كبير من العلم، فلما صار من اليابانيين قسس كانوا حاذقين لأنهم أخذوا البوذية من منابعها الأصيلة في الصين، فلما عادوا إلى بلادهم جددوا في الدعوة والمذهب، وتعددت فرق البوذية في ربوع اليابان، فكانت بها فرقة السكينة الربانية (التنديا) التي أسسها القسيس دينْجيو سنة ٨٠٠ م وفرقة كلمة الحق (شنجون) أسسها القسيس كوبودايشى في القرن التاسع الميلادي - في منتصفه، وفرقة البلد الطيب (جودو) التي أسسها القسيس سنكو المعروف بين أتباعه باسم «هونين شونين» سنة ١١٥٣ م.

ولكل فرقة من هذه الفرق آراء خاصة بها، وتفرعت منها

فروع، إلا أن فرقة «جودو» جددها أحد تلامذة كوبو المقربين وهو شنران وسماها جودو شنشو ومعناها جودو الصحيحة، وصارت أقوى الفرق، لأن أصولها ابتعدت عن البوذية الأصيلة أو الوافدة إلى اليابان، فلم يعد فيها الانقطاع إلى العبادة والعزلة عن الدنيا والانصراف عن الملذات والأعمال الدنيوية، بل تركت هذه الأصول البوذية، ودفعت «الجودو الصحيحة» أتباعها إلى العمل والتلذذ بالحياة والاقبال عليها وعلى العمل.

وأبعدت الجودو الجديدة أو الصحيحة كل المباحث البوذية التي تقوم على الميتافيزيقيا، كما أبعدت عن نفسها المباحث الدينية وأبعدت أتباعها عنها، وكل ما رضيت عنه من الدين ومن ما وراء الطبيعة مقصور على الإيمان العميق بالمنقذ، ولم يكن الإيمان بالمنقذ يتطلب غير الاعتقاد، أما قول اللسان وعمل الجوارح فلا دخل للإيمان فيهما أو لا دخل لهما فيه.

ويعزى إلى الجودو - هذه - نهضة اليابان العلمية والتكنولوجية، فهي تدفع بأتباعها إلى العلم والبحث والدراسة والعمل، وتتجاوب مع الآراء والنظريات الحديثة، فكان رجال الجودو يبعثون بالطلاب إلى أوروبا وأمريكا للتزود من العلم.

ولولا هذه الفرقة لعاشت اليابان متأخرة، لأن البوذية تبارك العازفين عن الدنيا، بل ظهرت فرقة بوذية تسمى «زين» دعت إلى الانقطاع عن الدنيا والاهتمام بالتبتل، فجاءت بعدها «الجودو» وصدمتها بتحررها وانطلاقها.

والبوذية كما ذكرناها في ديانات الهند خالية من «الآله» حتى أخذ بوذا نفسه مكان الآله وصار معبودا، ولكن ظهرت في اليابان فرقة بوذية في القرن الثالث أسسها «نيشيرين» المولود سنة ١٢٢٢ م والمتوفى سنة ١٢٨٢ م ذهبت إلى أن بوذا الأكبر هو الآله الواحد ولا إله غيره، وأما البوذات الآخرون فليسوا إلا كالشعاع من القمر، والقمر ، هو بوذا الأكبر، وشعاع القمر يعتوره التحول والتغير، أما القمر فثابت، وبوذا الأكبر هو أصل كل مظاهر الكون المدركة بالحواس، ومنه تستمد هذه المظاهر وجودها لأنه هو الأصل والمصدر.

وبهذا القول تتفق هذه الفرقة مع أسلافها الذين اعترفوا بوحدانية الشمس ووحدانية بوذا الأكبر الذي عزت إليه الخلق والقدرة والإرادة.

وكل هذا لا ينفي أن الامبراطور إله عندهم، لأنهم يعتقدون أنه من نسل الآلهة وابن السماء والشمس.

والملحوظ في بوذية اليابان أنها تغاير بوذية الهند الأصيلة التي عاشت، وسط غيوم سود مليئة بالتشاؤم والانقباض والحزن، فلما انتقلت إلى الصين تركت أصولها في الهند، فلما انتقلت من الصين وكوريا إلى اليابان كانت البوذية ديانة مرحة ضاحكة متفائلة، فيها بشر وغبطة وفرح، وحفلات واجتماعات ومعابد وإلهيات وبهجة وأعياد، وفيها وعد للصالحين بالجنة وللأشرار بالجحيم.

وكان الكهنة البوذيون في أول أمرهم دعاة إلى التهذيب والصلاح، ثم على مرور الأيام غرقوا في حمآت الرذائل البشعة، فأثروا بالتدجيل والشعوذة، وأباحوا لأنفسهم شر المنكرات وأبشع السفالات، كانوا يسرفون في شرب الخمر حتى يفقدوا الوعي وتتقاذفهم العربدة، ويعيشون بين الغواني والمحرمات عيشة الفسق والفجور علانية، ويزنون، بل ذهب بهم الشر إلى غاية مداه، فكانوا يلوطون بالغلمان.

وفي سنة ١٤٥٤م وما بعدها كان الكهنة يشترون الغلمان ذوي الحسن والخلابة والجمال، ويلبسونهم أفخر الملابس النسائية، ويزيدون في جمالهم بالتطرية، ويلوطون فيهم حتى امتلأت المعابد والأديرة بالكهنة والغلمان المخنثين ثم فاضت الموبقة البشعة منها إلى خارجها، وانتشر اللواط بسبب هؤلاء الكهنة الذين أصبحوا أغنى الناس وأعظمهم أيداً وسلطانا وجاها وفسقا وفجورا، وتحجرت نفوسهم فكانوا يلهون ويشربون ويلوطون والشعب الياباني يتضور جوعا، والوباء يفتك بعشرات الألوف، وأولئك الكهنة سعداء محبورون مستمرون في أخذ الأموال ومنغمسون في المنكرات والموبقات.

ودخلت المسيحية اليابان سنة ١٥٤٩ م على يد الراهب «فرنسيس كسفارلوس» أحد معاوني أغناطيوس دي ليولا في إنشاء الرهبانية اليسوعية التي تعرف بالجزويت، وحط رحاله في «نجاساكي» واستطاع في مدة قصيرة أن ينشر المسيحية على نطاق

واسع، حتى صار هذا الميناء التجاري الهام مدينة مسيحية، مما أفزع «هيديوشي» الحاكم الفعلي لليابان، فأنذر رئيس اليسوعية وهدده وأمهل المسيحيين عشرين يوما لمغادرة اليابان.

وازداد حنق هيديوشي على المسيحية عندما رأى المبشرين المسيحيين يستخدمون الدين للسياسة، وأنذر اليابانيين الذين دخلوا في هذا الدين الغريب عنهم أن يغادروا اليابان أو يعودوا إلى ديانتهم، واختفى كثير من القسس اليابانيين، وبعد موت هيديوشي وأيياسو اشتعل الحقد على المسيحية، فقابلها حكام اليابان بوحشية ضارية، وفي سنة ١٦٣٨ م بلغت الوحشية عنفوانها، فقد اعتصم أربعون ألفا من المسيحيين ـ تقريباً ـ في شبه جزيرة «شيمابارا» وحصنوا مواقعهم وجعلوها قلعة للذود عن دينهم.

ولكن «أيمتسو» وهو حفيد الحاكم العسكري أيياسو أعد قوة كبيرة لقهر هؤلاء المسيحيين واحتلال قلعتهم، وبعد حصار ثلاثة أشهر سقطت في أيدي القوات اليابانية فأسروا كل من بها وذبحوهم في الشوارع ذبحا، فعفت آثار المسيحية من أرض اليابان، حتى قامت المسيحية من جديد بعد أكثر من قرن لتعيش في أمن، حتى إذا انهزمت اليابان في الحرب الثانية الكبرى على أيدي الحلفاء وبخاصة أمريكا صار للمسيحية سلطان كبير.

وفي الوقت الذي دخلت فيه المسيحية اليابان في سنة ١٥٤٩م كانت الكنفوشية قد وصلت اليها، وفي أواخر القرن السادس

عشر الميلادي كان للكنفوشية فيها ظل قائم ومحدود، وأول أقطابها من اليابانيين هو «فيوجيوارا سيجوا» فقد كان عظيم الشوق إلى دراسة الكنفوشية في أصولها الصينية فوفق لكتبها ودرسها دراسة واسعة، ودعا إليها، فوجد أتباعا مخلصين، وتوفي بغتة في سنة ١٦١٩ م تاركاً تلامذة ومريدين.

وكان من تلامذته «هاياشي رازان» وكان قد بعثه أستاذه قبل وفاته بمدة إلى حاكم اليابان (أيياسو) بطلب منه، وصار رازان أعظم كنفوشي في اليابان، حتى صار مستشار أسرة «توكوجاوا» العسكرية ذات النفوذ القوي، وتتلمذ عليه «أيمتسو».

وفاق رازان أستاذه في العلم والشهرة، وهاجم المسيحية والبوذية في عنف، فاتهم المسيحية بأنها أوهام من نسج الخيال ينقضها العقل. والبوذية محو لقوى الفرد والمجتمع، إذ تبعث فيهما الضعف والخمول.

وظهر على صعيد اليابان كنفوشيون ذوو شخصية قوية مثل «موروكيوسو» و «كيبارا إكـن» فأثروا بدعواتهم التي تدعو إلى الأخذ بأسباب الحياة والعمل والمجتمع.

ولكن الروح الوطنية اليابانية انبثقت في روح ياباني اسمه «موتو أوري» وهو طبيب ترك مهنة الطب إلى الأدب والبحث والتاريخ، فألف أكثر من أربعين مجلدا باسم «مدونات العصور القديمة» عاد فيها إلى ديانة الشنتو والأساطير اليابانية ودعا إليها،

وتعصب لها حتى قال: «إن اليابان هي التي ولدت «أميتراسوا» إلهة الشمس وهذا برهان على أن اليابان سيدة الدنيا».

وحمل تلامذته بعد وفـاته دعوته، وقام «هيراتا» تلميذه بتجديد دعوة أستاذه ودعا إلى نبذ كل ما هو صيني، وزعم أن اليابان أفضل الأقطار طرا لأنها مخلوقة من الآلهة، والشعب الياباني سليلها، ولا يصح أن تنقل عن الصين أي شيء.

وسبق أن قال «مايوشي» أستاذ «موتو أوري» إن أهل الصين أشرار بطبيعتهم، فظلوا شرورهم بأن تظاهروا بالاستقامة، أما اليابانيون فخيرون دائما لأنهم مستقيمون بفطرتهم.

وعلى مرور الزمن نجحت هذه الدعوة حتى بلغت القرن التاسع عشر فعاد لليابان سلطانها، فكان «البيت الإلهي» هو الحاكم الفعلي بعد أن سلبت منه السلطات، وانتهى بسيادة الوطنية اليابانية.

أما الإسلام فدخل إلى اليابان أخيراً، في أوائل القرن العشرين الميلادي، ولكنه ما يزال غير منتشر فيها، وسبب دخوله أفراد من «البنغال» ومن الأراضي التي تسمى الآن «باكستان».

وتحدث إليَّ بعض اليابانيين المثقفين أن الإسلام بما حوى من آداب رائعة وأخلاق كريمة وإنسانية عالية ومعاملات هي خير ما عرف البشر يجد في اليابان أرضاً خصبة، ولكن لا وجود لدعاة إسلاميين، وقالوا لي: إن الدول المعنية بالإسلام مسؤولة عن

ذلك، وأن الياباني المثقف يرحب بدين الإسلام لأنه دين الحق والإنسانية والعدل، ولكنه في حاجة إلى من يقابله ويثير اهتمامه بهذا الدين العظيم.

وإذا كانت البوذية ديانة الكثيرين في اليابان فإن الديانة المسيحية زحفت إليها ولكن لم تنتشر، وكذلك الإسلام دخل اليابان في هذا القرن الهجري، إلا أنه يعيش في حدود جد ضيقة، لأن لم يجد من ينشره ولم تعن به الدول الإسلامية.

ففي اليابان مجال رحيب للديانات، وبخاصة للمسيحية والإسلام.

أما كوريا ففيها البوذية وغيرها من الأديان التي تشبهها أو تتفرع عنها، وقد انتقلت منها البوذية والكنفوشية إلى اليابان، ومع أن خصومتها في القرنين الأخيرين لكل ما هو غريب عنها كعدائها للبوذية التي ولدت في الهند والكنفوشية التي نشأت في الصين فإن اليابان تذكر كوريا، فقد ذكرها هيراتا الداعية الديني المتعصب يقول: «إن اليابان بلد الآلهة، وأهلها سلالة الآلهة، فبين الشعب الياباني والصينيين والهنود والروس والهولنديين والسياميين والكمبوديين وسائر أمم العالم خلاف في النوع، والأمر ليس بقاصر على اختلاف الدرجة، ولم يكن الغرور هو الذي جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة، فالآلهة التي خلقت كل بلاد الدنيا تنتمي جميعا بغير استثناء إلى العصر الإلهي، وجميعها ولدت في اليابان، فهي موطنها الأول، والعالم كله يعترف بصدق هذا الأمر،

والكوريون هم أول من أتيح لهم أن يعرفوا هذه الحقيقة، ثم انتشرت منهم تدريجا حتى عمت البسيطة كلها، وآمن بها الناس طراً».

. . . وهذه دعوى عريضة، أما الشرف الذي كان من حظ كوريا فليس كما ذهب إليه هيراتا، بل هو في أنها كانت طريق وصول ديانة الصين وثقافتها وآلهتها إلى اليابان.

وعندما انقسمت كوريا قسمين: قسما شماليا يسيطر عليه الشيوعيون، وقسما يسيطر عليه الغرب، تضاءلت البوذية في القسم الشمالي أمام قوى الهدم الماركسية، وبقي القسم الجنوبي حرا، فدخلته المسيحية، ثم دخله الإسلام منذ عشر سنوات، وحتى كتابة هذه السطور بلغ عدد المسلمين فيها حوالى خمسمائة مسلم، والفضل في دخول الإسلام إلى كوريا الجنوبية يعود إلى جندي تركي من جنود هيئة الأمم، فهذا الجندي التركي مسلم، وهو أول داعية إسلامي فيها، وقد استجاب له كوريون من الطبقة المثقفة، وزارني رئيسهم المسلم ومعه نائبه في موسم حج سنة **١٣٧٩** هـ (١٩٦٠ م).

ديانة السومريين

لعل حضارة السومريين أقدم ما دون من حضارات، بل هي أهم ركن في حضارات آسيا التي تعتبر أم الحضارات، ويقال: إنها ترجع إلى أربعة آلاف سنة ق. م. وهم ليسوا ساميين ومواطنهم أرض العراق، ولا تعرف حتى الآن أصولهم، ولا البلد الذي ينتمون إليه، واختلفت الاقوال في ذلك، فمنهم من يزعم أنهم قدموا من القسم الشمالي من غرب الهند، ومن يزعم أنهم جاءوا من آسيا الوسطى، أو هم من المغول.

وأما الديانة فهي وثنية، إذ كانوا يعبدون الأوثان ويعددون الآلهة والأرباب، وقد أظهرت الكشوف الأثرية سجلات من ألواح الطين يرجع تاريخها إلى ما بعد الألف الثالث قبل الميلاد وجدت في خرائب مدينة «أور» وفي هذه السجلات «أوامر ملكية»:

«ألا يأخذ الكاهن بعد هذا اليوم من حديقة الأم الفقيرة الخشب أو ضريبة الفاكهة، وألا يقتسم الكهنة وكبار الموظفين فيما

بينهم ما يقدمه الناس قرباناً للآلهة من أموال وماشية».

وهذا النص يثبت تطور العقيدة الدينية والحضارة الإنسانية والعقل البشري، ويثبت أن الكهنة كانوا يدخلون الحدائق ويأخذون الخشب للوقود، ويستولون على الفاكهة، فحرم الملك عليهم ذلك لأنه ظلم، ويثبت هذا النص وجود آلهة، ووجود قربان، وكهنة.

وفي مسلة أورنانشهْ بالمتحف العراقي المكتشفة في سنة ١٩٥٨م في تلول الهباء المعروفة في العصر السومري القديم بـ «أوروكو» ما يشير إلى آلهة، بل وجدت مسلات أخرى تكشف عن حقائق هامة.

وفي مسلة أورنانشهْ نقوش بارزة تمثل إحدى ربات السومريين القديمة، وهي ربة النبات والحقول والمزارع، ومنظر الأورنانشهْ حاكم مدينة لجش ومعه زوجه وابنته وأولاده، وقد كتب اسم كل منهم، وهو اورنانشهْ بن كويندو وألقابه وأعماله وتقديسه لربة النبات.

وفي إحدى المسلات الأخرى صورة أورنانشهْ وعلى رأسه سلة تراب يحملها في حفل وضع الحجر الأساسي لمعبد الآله «ننجرسو» في لجش.

وإن مما لا شك فيه أن ديانة السومريين الأولى كانت ديانة

الشمس السلفية، وبعد مرور قرون لم تتغير الآلهة الكبرى، بل بقيت الشمس الإله الأعظم، حتى أن القوانين كانت تصدر باسمه، ففي شرائع الملك «أور أنجور» نجده يصدرها باسم الآله الأعظم «شمش» أو «شمس» لأن الحكام أدركوا أن الدين معوان للسياسة والحكم اذا استغلوه وسخروه لمصالحهم.

ولم ينتهوا إلى هذه الآلهة مصادفة ، بل انتهوا إليها بعد تطور طويل، فآلهتهم الأولى كانت مبهمة وصفاتها غامضة، وكانت تبعث الخوف والهلع، وعلى مرور الزمن تفتحت عيونهم إلى صفات رائعة للآلهة، وفصلوا بين الخير والشر، وصار لكل شيء إله.

والشعوذة والسحر والتنجيم كانت في نشأتها الأولى على ضفاف الفرات منذ أقدم الأزمنة لأنها وسائل الكهان وحماة الدين وخدم الآلهة، وهي نفسها أخذت تتطور مع تطور الفكر الإنساني والاجتماعي، وصار لها معنى يتفق مع هذا التطور فالتقت مع الآلهة والديانات لأنها منها.

وفي العهد السومري الذي يبدأ قبل المسيح بأربعة آلاف سنة عرفت الآلهة وأخذت مكانتها في عقيدة السومريين، وكثرت كثرة لا تحصى، فلكل لون من ألوان النشاط الإنساني إلـه، ولكل قرية ومدينة وولاية إله، وآمنوا بأن لهؤلاء الآلهة إرادة وقدرة وقوة، وعبدوها وقدموا لها القرابين، إلا أن عبادة الشمس مع قدم العهد

بها بقيت سيدة العبادات، وكانت الشمس (الآله) تسمى لدى السومريين «آنو» إله السماء وإله النور عندهم.

وكانت لدى السومريين آلهة كثيرة لا تحصى، وأشهرها إله الحرب مردوخ أو مردك، ويعزى إليه خلق السماء والأرض، وتقول الأساطير: إن تيمات إلهة العماء والأغوار والظلمات والفوضى و«أبسو» الإله المحيط اتفقا فجمعا ما لديهما وبدأت الأشياء توجد ثم تنمو في بطء وتأخذ أشكالها قبل أن يكون هناك سماء وأرض.

وتزعم الأساطير: أن تيمات لا يمكن إلا أن تعمل ما يتفق مع صفاتها الإلهية فأخذت تحارب الآلهة وتمحوهم من الوجود، لتكون لها السيادة، وأثارت الفوضى والاضطراب، وانهزم أمامها «آنو» إله النور والسماء، فنهض «مردوخ» إله الحرب واشتبك مع تيمات في قتال رهيب، وكان مستعداً، فما كادت تيمات تفتح فمها لابتلاع خصمها حتى دفع بالعاصفة فيه فانتفخ بطنها، وأرسل مردوخ رمحه إليها فطعنها فماتت، ثم شقّ جسمها نصفين بادئاً من الرأس كما تشق السمكة حين تجفيفها؛ وكانت تيمات مزيجاً من الإنسان والسمكة، نصفها إنسان ونصفها سمكة. وبسط أحدهما فكان الأرض، ورفع النصف الآخر إلى أعلى فكان السماء.

وأسر مردوخ زوج تيمات وهو الإله أبسو وخلائفها الأحد عشر وقيدهم في السماء فكانوا المنازل الاثني عشر.

وتزعم الأسطورة: أن مردوخ أخذ يفكر في خلق الإنسان،

وذكر لآله الخير والماء العذب (إيا) ما عزم عليه، وطلب إليه أن يطعنه في عنقه فطعنه، وسال من الطعنة دمه، وخلق أبو البشر من هذا الدم المنبثق من عنقه، واحتفل مردوخ بهذا الخلق في ا لسماء حيث اجتمعت الآلهة.

وتتفق هذه الأسطورة مع الأساطير اليابانية في أن الإنسان سليل الآلهة، مع فارق الأنانية في اليابان، لأنهم زعموا أنهم هم وحدهم نسل الآلهة، أما في الأسطورة السومرية فأبو البشر من نسل الآلهة لأنه من دم مردوخ.

وتوحي الأسطورة بأن عهد الفوضى انتهى بموت إلهة الفوضى، ليحل محله عهد النظام والاستقرار الذي يتبع زوال ذلك العهد المشئوم.

وقصة الطوفان مروية في الأساطير البابلية بما يتفق مع روح الأسطورة، فقد زعموا أن الآلهة غضبت على بني الإنسان، وقررت إبادتهم من الوجود ، وخاف آله الحكمة (إيا) من خلو الوجود من البشرية، وتمت كلمة الآلهة على الابادة فأرسلت طوفاناً محى البشرية محواً، لكن «إيا» أنجى زوجين هما «شمش نيشتين» وزوجه، حيث صنعا فلكاً ونجوا به وسلما من عرام الطوفان الماحق، ولاذا بجبل رسا عليه فلكهما.

وساد الوجود كآبة وحزن من محو بني الإنسان، وشعرت

الآلهة بغلطتها فحزنت وندمت، ولكن السعادة جاءتها عندما قرب نيشتين قرباناً للآلهة وشمت رائحته فتهافتت عليه تهافت الذباب، وهكذا سلمت البشرية في شخص نيشتين وزوجه بفضل حكمة إله الحكمة.

ولإله الحكمة مكان بارز في ديانة السومريين والبابليين والأشوريين وغيرهم، فقد روت الأساطير السومرية أن ابنه المسمى «تموز» وقع في حبائل «إشتار» إلهة الحب وتزوجته، وطعنه خنزير بري فقضى عليه، وفي الديانة السومرية أن الموتى جميعاً يدخلون الجحيم المسمى «أورال» الذي وكل أمره إلى إرشكجال[1] اخت إشتار، وكان بينهما تباغض وتحاسد، ولكن حب تموز أنساها كل شيء، فمضت إليها وأخذت تبكي وتتوسل، حتى أذنت لإشتار بدخول الجحيم بعد أن تتعرى من كل ما على جسدها كما تقضي حياة الجحيم.

وهبطت إشتار إلى الجحيم وقابلت فيه تموز وعاشت معه، إلا أن غياب إشتار إلهة الحب عن الأرض أورثها فقدان البهجة والدوافع إلى الحياة، فلم يعد الذكر والأنثى - كل ذكر وأنثى من كل نوع - لا يصبو أحدهما للآخر، حتى الشجر والزهور أخذت تذبل، لأن كل شيء لا يحيا إلا بالحب، وهال الآلهة ما ترى، فلا عشق ولا حب ولا عبادة ولا قربان، وكل هذا نذير بالفناء، فأمرت الآلهة أرشكجال إلاهة العالم السفلي أن تأذن لإشتار بالعودة

(١) أو إيرشكيكال أو إيركلا.

إلى الأرض، وأبت إلا ومعها زوجها وحبيبها تموز، فأذنت لهما وعادا إلى الأرض فاهتزت وربت من جديد.

وفيما عثر عليه في «نفر» بالعراق تفصيل لأسطورة نزول إشتار إلى العالم السفلي، ورويت بروايات مختلفة أحدثها في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وهذه هي الرواية السومرية تقول: إن إشتار هجرت السماء والأرض لأسباب غير معروفة، وهبطت إلى العالم السفلي: عالم الأرواح الذي تسيطر عليه أختها الكبرى «إيرشكيكال» التي كانت تعادي إشتار عداء لا حدَّ له، ولم يأذن لها الحارس بالدخول ولم يفتح الباب إلا بعد استئذان سيدته إيرشكيكال، وأذنت على أن تدخلها ذليلة صاغرة.

وما كادت إشتار تقف أمام أختها وبجانبها قضاة الموت السبعة حتى سلطوا عليها نظرات الموت فإذا هي جثة هامدة.

وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليال دبت الحياة فيها وقامت فغادرت عالم الموتى إلى العالم العلوي، وتروي الأسطورة أن إشتار أوصت وزيرها ورسولها «نينشوبور» أن تراجع آلهة ذكرتها له إذا بلغت مدة غيابها ثلاثة أيام وثلاث ليال، فراجع الآلهة واعتذرن إلا الإله «أنكي» والدها كما يفهم من الأسطورة أنقذها وأعاد إليها الحياة.

وهناك روايات أخرى لا تخرج عن هذه الأسطورة السومرية.

وبنى السومريون معابد لآلهتهم حتى تسكنها، وقدموا لها الفرائض والقرابين، واعتقدوا أن الفضاء كله مملوء بالأرواح الخيرة والشريرة، فالخيرة هي الملائكة التي يحرس كل منها سومرياً من الأرواح الشريرة والشياطين، وهناك صراع بين هذه الأرواح، فالشريرة تريد أن تطرد الروح الخيرة لتحل محلها، وهذه تدفعها.

ويظهر أن القرابين في سومر كانت من الآدميين حتى أبدلت بغيرهم، وفي لوحة عثر بها في خرائب سومر هذا النص: «الضأن فداء لحم الآدمي، به افتدى الإنسان نفسه».

وما كانت القرابين مقصورة على الحيوان، بل كانت أطعمة وأموالاً إلى كل ما يمكن أن يقدم للكهنة الذين كانوا يتسلمون القرابين من الناس حتى أصبحوا أغنى من في سومر، وكانوا يتقاسمون القرابين مع كبار الموظفين، ولم ينقذ الناس من شرور أولئك الكهنة والموظفين إلا الملك أوركاجينا، حيث حرّم ابتزاز الأموال، وعاقب المرتشين، وحمى الضعفاء والمساكين، ووقف في وجه ظلم الكهنة.

وديانة السومريين لا تعترف بالخلود والجنة والنار والثواب والعقاب والحياة الآخرة وإن كانت تقر بوجود الآلهة والأرواح والملائكة والشياطين، ولم تكن العبادة إلا رغبة في جلب المنفعة ودفع الضر في حياتهم التي يحيونها، ولا يطمعون في حياة أخرى، والحساب يتم في العاجلة، فمن آذى أو قصر في حق الآلهة وتقاعس عن تقديم القرابين فالعقاب حالٌّ به في حياته في صور

كثيرة: منها مرضه أو مرض أي أحد من ذوي قرباه، أو خسارة في النفس أو المال أو الولد، وإذا كثرت ذنوب الناس فإن ذلك إيذان بهلاك لا يصيب المذنبين وحدهم بل يصيب معهم الأبرياء في شكل طوفان مبيد، أو وباء ماحق.

وهذا الاعتقاد كان في منفعة الكهنة حيث كثرت النذور وتراكمت القرابين، ونعموا بما لا ينعم به سواهم.

ومن الطقوس الدينية السومرية أن المعابد كانت مزدحمة بالخادمات، فيهن خادمات الآلهة أو ممثليها من الكهنة، وطبيعي أن تلك الآلهة ما كانت لتضطجع مع الحسان اللاتي جئن لخدمتها، فاستأثر بهن الكهنة واستمتعوا بهن أيما استمتاع.

وما كان السومري يشعر بالخزي من تقديم ابنته للمعبد هدية إلى الآلهة أو لمن يمثلونها من الكهنة، بل كان يشعر بفخر وسرور لأنه يقدم ابنته الحسناء الجميلة للكهنة حتى تبدد وحشتهم وتدخل إلى قلوبهم البهجة، فيحتفل السومري بتقديم ابنته لهذه المهنة المقدسة احتفالاً رائعاً عظيمًا، وأي قداسة أعظم من مضاجعة الكهنة ممثلي الآلهة ابنته؟.

ومما لا شك فيه أن السومريين أوجدوا حضارة رائعة، وأروع ما قدموا للإنسانية الكتابة، وقد دلت النقوش الأثرية المكشوفة في خرائب السومريين على وجود الكتابة ووجود نظم وقوانين وتشريعات فيها الحسن وفيها الرديء، وأقدم ما عثر عليه

حتى الآن يرجع إلى ما سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد، وفي سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد كانت بلاد السومريين تحوي مكتبات كبيرة ممتازة.

ومن آيات حضارة السومريين وتقدمهم تشريعاتهم التي تعتبر في ذلك الزمن من أعظم التشريعات، فالمرأة المتزوجة اذا زنت عوقبت بانزال مرتبتها لدى زوجها، والسماح له بأن يتزوج بأخرى، ونظمت العلاقات التجارية وأعمال البيع والشراء، وصلات الأزواج والأسرة، ومسائل الوصية والديون والقروض، والتبني والارث، وغير ذلك مما له صلة بقيام الحضارة والمجتمع.

وعني السومريون بالهندسة والفنون، والزراعة، والطب، والفلك، والصناعات الحربية والمدنية، ونظام الفائدة في القروض، والائتمان، ووفقوا في تقسيم الزمن إلى اثني عشر شهراً، يضاف كل أربع سنين شهر واحد حتى لا يختلف تقويمهم مع الفصول.

ولم يكشف ـ بعد ـ أكانوا مبتكرين للتقويم أم أخذوه من غيرهم، وأغلب الظن أنهم من المبتكرين، لأن الفصول يحتاج الى معرفتها من يعنون بالزراعة، وكان السومريون ممن يُعْنَوْن بها.

وموجز القول في ديانتهم: إنها ديانة وثنية شركية، وتعد آلهتهم بالآلاف وكانت أصل ديانة من جاءوا بعدهم من الوثنيين والمشركين.

ديانة بابل (الكلدان)

ديانة بابل لا تختلف عن ديانة السومريين، فآلهتها هي آلهتهم، والأساطير هي الأساطير مع تغيير تقتضيه ظروف الحكام والكهنة والتطور، وهذا التغيير لا يتناول الحقائق الأصلية ، فالآلهة والأساطير باقية على أصولها، بل إن أثر ديانات سومر وبابل وأشور واضح في ديانات الأوربيين حتى أن غوستاف لوبون يقول: «الشعوب المتمدنة الأوربية تعيش روحياً على المعتقدات الكلدانية والديانات التي أنجبتها».

وثابت أن حضارة أوروبا ودياناتها وآلهتها من الشرق منذ عهد اليونان حتى هذه الأيام وقبل عهد اليونان.

وأهل بابل مزيج من السومريين والأكديين الساميين؛ وغلبت السلالة السامية عندما قهر الأكديون السومريين واستولوا على بلدانهم عنوة واقتداراً، وكان المقهورون أعظم حضارة من الغالبين المنتصرين فتأثر هؤلاء بحضارة المغلوبين وأضافوا إليها علوماً وفنوناً وآداباً زادوا بها التراث الإنساني.

وبدء الخليقة في الديانة البابلية هو نفسه الذي أشرنا إليه في ديانة السومريين، والطقوس متقاربة.

ومع أن دولة بابل اشتهرت بالتجارة إلا أن الدين كان له السلطان المطلق الذي تخضع له الدولة ونظمها وقوانينها وآداب سلوكها واجتماعها وكل ما فيها من معاملات وأعمال، بل كانت تصدر الأنظمة والقوانين من الملك الذي يتلقاها من «شمش» إلّه الشمس.

فشريعة حمورابي الذي حكم بابل قبل ألفي سنة من الميلاد المنقوشة على أسطوانة حجرية (موجودة الآن بمتحف اللوفر في باريس) تذكر مقدمتها أن «أنو» الأعلى و«بل» رب السماء والأرض اللذين عهدا بحكم بني الإنسان إلى «مردوخ» نادياه لينشرا العدالة في العالم، وعلى أحد أوجه الاسطوانة صورة حمورابي وهو يتلقى الشريعة من «شمش» إلّه الشمس.

فالبابليون أضفوا على قوانينهم وحكومتهم صبغة الدين حتى يسيطروا على العامة باسم الدين، وكان الملك ممثلاً للآلهة، وباسمها يتم كل شيء في الدولة التي لم يكن الملك يقيد نفسه إلا بما يثبت أركان حكمه وبما يرضي نزواته ورغباته، فالشريعة التي تصدر ـ على زعمه ـ من الآلهة ليس بها ما يدل على وجود دين لأنها قائمة على أساس الدنيا وحدها.

وكان ا لحكم في بابل حكمًا دينياً صرفاً، والخروج عليه إنما هو خروج على الآلهة التي يمثلها الحاكم، وبلغ من فطنة الحكام أن

أضفوا على أنفسهم كل ما يريدون من تأكيد هذا التمثيل، وسخروا الآلهة لخدمتهم هم أنفسهم، وما ينالها إلا ما يريدون هم أن يتفضلوا به عليها، ونفعه عائد عليهم وحدهم لأن لا وجود لهذه الآلهة إلا في أوهامهم وظنونهم.

ومن ألوان هذه الفطنة أن حمورابي المشهور عني بالمعابد وتشييدها حتى يميل الكهنة في صفه ومعه وتحت أمره ويكون معهم على وفاق، وشيد هيكلاً ضخماً في بابل لمردوخ وزوجه، وبنى مخزناً للحبوب الخاصة بهما ولكهنتهما.

وفي الحفلات الملكية كحفلات التتويج يخرج الملك لشعبه ويطوف بالشوارع في صورة دينية مهيبة ، يمسك بصورة مردوخ و«بل» حتى يؤمن الشعب أن الآلهة اختارت الملك ورضيت به وأيدته.

وكثرت الأرباب والآلهة كثرة تجاوزت الآلاف إلى عشراتها إلى ما لا يحصى من الأرواح الخيرة والشريرة والحفظة منها والباغية، وانتهى البابليون إلى أن يفردوا مردوخ بتلقيبه بالآله الأعظم وإشتار فكانا الإلهين الأعليين المختصين بالتقديس والإجلال، وصارا الالهين القوميين للبابليين، وأحسب أن تمييز مردوخ بالافراد بين الآلهة الكثيرة حتى على إشتار كان أساساً للتوحيد بعد التعدد والإشراك، وصارت سمة العقيدة في الشعوب السامية التوحيد الذي يبدو في إفراد إله بين الآلهة وتمييزه بحيث يكون رب الأرباب كما جاء تمييز الملك على سائر الأفراد.

وإشتار إلهة غريبة تجتمع فيها المتناقضات ، فهي ـ عندهم ـ ربة الحب، وربة الحرب، وربة العهر، وكان البابليون يصفونها في صلواتهم وأدعيتهم بأنها الربة الرحيمة القادرة القوية التي أشرق العالم بنورها، ورفعتها قدرتها فوق مقام الآلهة طراً.

وإشتار هذه هي الربة التي أمتعت عبادها بفجورها وفسقها، ومع هذا احتفظت بصفات الربوبة لأنها لم تتدنس بقداسة الطهر، بل كان من القربان المقبول لها والمفضل عندها تمزيق العفة والدعارة المقدسة.

ويصف هيرودوت هذه الدعارة المقدسة فيما كتب لأنه رآها بعينيه، ويقول: إن على كل امرأة بابلية أن تذهب إلى هيكل ميلتا التي هي صورة إشتار وتزني مع أجنبي، ولا يعفى من ذلك أي امرأة لأنه عمل مقدس يرضي ربة الحب والعهر، ويجب على المرأة التي تمضي إلى الهيكل ألا ترد يد أي راغب فيها مهما كان شأنه من الحقارة.

وكانت سيدات الطبقة الراقية يمضين إلى الهيكل في موكب حافل بين الخدم والحشم، ويترفعن عن نساء الطبقات التي دون طبقتهن، فإذا قصد إحداهن قاصد قامت معه وحصلت منه على قطعة من «العملة» تحتفظ بها لأنها تصبح قطعة مقدسة.

إن كل امرأة تقرب بتضحية عفتها.

وكان لمعبد ميلتا عاهرات خاصات به، يتمتع بهن الكهنة الذين هم نواب الآلهة ومن يقصد الهيكل للعبادة.

ولكن كان للكلدانيين (البابليين) رب الأرباب وأصل

الآلهة، وأبعدوه عن التجسيم فلا تمثال ولا صورة له في معابدهم، ويذهب الشيخ محمد رشيد رضا[1] إلى أنهم كانوا يعتقدون مما ورثوا من دين نوح عليه السلام أنه منزه عن صفات الخلق وتخيلاتهم.

ونرى أن إبعاد رب الأرباب الذي يسمى لدى الكلدانيين «إلاها» أو «إيل» أو «إل» عن التمثيل والتجسيم والتصوير ليس مرده إلى التنزيه الموروث عن ديانة نوح، لأن إبراهيم عليه السلام أقرب إليهم من نوح، إلا إذا ثبت أن فكرتهم عن الإل سابقة على ديانة إبراهيم، ومع هذا لا يقتضى تنزيه الإل عن نحت تمثال له أو رسم صورته أنهم نزهوه عن المثل والشريك والصورة اعتقاداً منهم بالوحدانية.

وكان للآلهة والكهنة تأثير في بابل، وإليهم مرد كل شيء، ومع كثرة الآلهة لم يكن البابليون يعرفون عن الخلود بعد الموت شيئاً إلا ما عرفوه عن إشتار عندما هبطت إلى الجحيم وراء تموز عشيقها حتى عادت به، والجحيم هو منتهى الأرواح جميعاً، أرواح البشر سواء أكانت خيرة أم شريرة.

وإذا صح أن هذا الجحيم هو الخلود المنتظر الذي لا تعرف نهايته فإن أي بابلي لا يرتاح إليه، بل يشقيه تذكره، فهو في عباداته وفرائضه لا يصبو إلا إلى مزيد من الهناءة والسعد في الدنيا، أما

---

(١) تفسير المنار ٧: ٥٦٦

الآخرة التي تبدأ بانفصال الروح عن الجسد فهي آخرة ممقوتة لأنه ليس بها إلا العذاب للروح مهما كانت خيرة.

فديانة البابليين خالية من الجنة والثواب والعقاب، وهذا من النقص المزري بها، لأن ذلك لا يدفع إلى الأمل، وآلهتهم متعطشة إلى الدماء، فكانوا يقتلون أسراهم ويعذبونهم عذاباً نكراً، يقطعون أطرافهم، ويشوونهم في أفران، بل كانوا يشوون الأولاد ، فقد كانوا وثنيين مشركين، ووصفهم للإله يؤيد وثنيتهم، فهو عندهم رب الأرباب وأصل الآلهة، وفي هذا الوصف اعتراف بأن هناك أرباباً هو ربهم، وأن هناك آلهة هو أصلهم، واعتقادهم هذا ينفي التنزيه.

وإل ـ معبود الكلدانيين القديم ـ أولد أنا Anaوبيلوس Belusأو بيل Belفهما ابناه وهو والدهما. و«إل» أو «أل» معناه بالكلدانية: الكائن الأسمى.

و«أنا» هو الأقنوم الأول في الثالوث الكلداني المقدس، ويصفونه بأنه أبو الآلهة ورب الأرواح، القديم، والرأس الأصلي، ورأس الموت، وسلطان الظلام، وملك العالم الأسفل.

وقد عثر في الكشوف الأثرية على معبد له ولابنه كما عثر على آثار عبادته في مدينة «أرك» المعروفة الآن بالوركاء ، وتاريخ بناء المعبد هو سنة ١٨٣٠ ق. م.

وأما الأقنوم الثاني من الثالوث فهو «بيلوس أو بيل» والأقنوم

الثالث حيا Heaوهو إلّه نصفه سمك ونصفه إنسان، ويزعمون أنه انبثق من أمواج الخليج حاملاً أول عناصر الحضارة، ومعلمًا سكان ضفاف النهرين الفلك والتنجيم والأدب، وأنه ابتكر حروف الهجاء.

ولعل «حيا» هو المعروف أيضاً بالإلّه «أوانس» Oannesالإلّه السمكي لأن وصفهما واحد في الأساطير الكلدانية.

وهناك ثالوث آخر معروف عند الكلدانيين مكون من «سيني» إلّه القمر، ومن صفاته: كبير الأرباب في الأرض والسماء، وتتبعوا القمر في منازله وصوروه منذ إهلاله على أنه «سيني» وله هياكل كثيرة أشهرها بمدينة «أور» وسيني مشتق من «سين» السريانية أو «سين» السنسكريتية، وهو اسم القمر فيهما.

والثاني: الشمس ، وإسم هذا الأقنوم «سانسي» رب النار، وهو من السامية، وفي العربية: السنا، وكانت هياكله منتشرة في المدينة الكبيرة.

والثالث: فول، ويقال له: إيفا، ومعناه: الهواء وهو رب الجو والأعاصير والعواصف، ويشبه «جوبيتر» رب الإغريق الرهيب وإلّه الصواعق والأعاصير.

وعرف الكلدانيون «الكلمة» ويسمونها «ممرار» ويصفونه

بأنه خالق العالم وحاكمه، وليس أعظم منه غير الله[1].

وعرف «فول» رب الجو بالكلمة، وكان الكلدان يعظمونه كل التعظيم ويصفونه بأعظم الصفات التي منها: فولو الكائن قبل كل شيء، وابن الله البكر، والخبز السماوي الأبدي، وينبوع الحكمة، والدال على الله، ونائب الله، وصورة الله، والكاهن، وخالق العالمين، والإآله الثاني، والمعبر عن الله، وسفير الله، وقوة الله، والملك، والملاك، والإنسان، والوسيط، والنور الابتدائي، والشرق، واسم الله، والفادي[2].

ودراسة آلهة الكلدانيين البابليين تظهر لنا أن لديها غير إآله يوصف بأنه «الإآله الأعظم» مثل مردوخ و«إل» و «أنا» وهو دليل على تغير الزمن أو الأحوال الذي يصعد بالإآله إلى أعلى الدرجات، فتارة يكون إل وتارة أنا وتارة أخرى مردوخ.

وإذا كانت آلهة الكلدانيين أصول آلهة الأوربيين وبخاصة الإغريق فإن المسيحية التي عرفت من الأناجيل وبولس تشبه في عقيدة التثليث عقيدة الكلدانيين وغيرهم في الكلمة والثالوث وصفات المسيح التي يصفه بها المسيحيون.

---

(١) كتاب «خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها في الديانات الأخرى» تأليف دوان Doane: Bible Myths and their Parllels in other Religions

(٢) كتاب «مهد المسيح» لفروتنجهام، صفحة ١١٢: Frotingham: The Cradle of Christ

والبابليون يـدفنون مـوتاهم، ويضعـون معهم بعض حاجاتهم، فالذكر يغسل ويلبس خير ملابسه، وتحلى أصابعه بالخواتم، أما المرأة فكذلك وتدفن معها أدوات زينتها وعطرها، وإذا قصر أهل الميت معه فلم يغسلوه ويلبسوه ملابسه الفاخرة ويحلون أصبعه بخاتمه ويضعون معه بعض الطعام فإن شراً مستطيراً سيصيبهم، لأن روح الميت الغاضبة تنقلب روحاً شريرة مؤذية، وإذا عنوا به وبدفنه فإن روحه لا تعود إلى الأرض، وإذا عادت فللإحسان والخير لذوي القربى.

وأما الميت الذي لا يدفن فإن روحه تهيم مضطربة قلقة في أجواز الفضاء بين الأرض والسماء، وإذا كان عدم الدفن من عمل أهله فيا ويلهم من لعنة هذه الروح.

ويشير دفن الميت بملابسه ومعه بعض حاجاته من طعام وشراب إلى فكرة الخلود والبعث، ولكن خلود الروح في جحيم مهما كانت صالحة طيبة، ولا فرق بين الأرواح في هذا المصير، أما البعث فلا رأي للبابليين فيه، وليس في آثارهم التي تم اكتشافها ما يدل على إيمانهم به.

ودفعتهم طقوسهم الدينية إلى العناية بالسحر والشعوذة والتنجيم ، ومما لا شك فيه ان البابليين حملوا لواء الكشف عن الفلك في العصر القديم، فعلى أيديهم تم تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، وتقسيم كل من النهار والليل إلى اثنتي عشرة، وسموا الأيام، وتقسيم السنة إلى ٣٦٥ يوماً وربع يوم بالنسبة للسنة الشمسية ، والسنة القمرية إلى أربعة أسابيع مع إكمال

النقص باضافة شهر كل بضع سنين حتى يتفق ذلك مع الفصول الأربعة.

وتقسيم الزمن وتسمية الأيام وضبط الفصول وصناعة تقويم للعبادة وأيام الأعياد الدينية، وتقويم للفصول وطلوع الكواكب وغروبها، وتقويم لمعرفة أحوال الجو والزراعة مما يدل على تحضرهم العظيم.

وربطوا بين الأرض والسماء، وتكهنوا بالغيب، وقرأوا المستقبل، وعملوا التمائم والرقى والتعاويذ والحجب، وما تزال آثار أعمالهم باقية حتى الآن وعند الشعوب المتمدنة.

وما نزال نستعمل في لغتنا العربية كما يستعمل في اللغات الأخرى بعض ما ذهب إليه كهنة بابل وعلماؤ ها المنجمون فنقول مثلاً: سوء الحظ؛ سوء الطالع، سعد نجمه، حسن طالعه، وفي ساعة من ساعات نحسه. وهي تعبيرات مشتقة من أعمال التنجيم.

وفي مجال الصناعات والعلوم والفنون والأساطير كان للبابليين فضل بارز مشهود في مختلف ميادينها وأدانوا بها سواهم من الأمم والشعوب التي نقلت عنهم الكثير من حضارتهم، ولكن ديانتهم وأساطيرهم لم تخرج عن ديانة السومريين وأساطيرهم، إلا أنهم عرفوا التثليث ودانوا به.

وبابل التي تحدثنا فيها إن هي إلا كلدة، والكلدان هم بابليون، ودانوا بالتثليث.

ديانة آشور وغيرها

آشور هو الإله القومي للآشوريين إذ يزعمون أن آشور هو مؤسس دولتهم، وهو اسم أقدم مدنهم، ومملكة آشور كانت شرق الهلال الخصيب في منطقة على جانبي نهر دجلة، وابتدأ قيامها في سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد وعاشت حتى سنة ٦١٢ قبل الميلاد، وخلفت دولة بابل، وبلغت أوج مجدها في حكم ملوك تولوا أمرها، ودانت لهم أقطار كثيرة مثل عيلام والجزيرة وسوريا ولبنان وفلسطين حتى وصل سلطانهم إلى مصر.

وقد ازدهرت في أيامهم الفنون الحربية والعسكرية، لأن الآشوريين كانوا محاربين شجعانا، فعنوا بالحرب والسلاح، ولكنهم إلى جانب ذلك عنوا بفنون وعلوم مختلفة، وشيدوا مدناً عظيمة منها: «نينوى» نسبة إلى إلههم «نينا» الذي هو إشتار عند السومريين والبابليين.

ومن مبتكراتهم في فنون الحرب والقتال أن جيوشهم كانت تشمل قوات مختلفة، فيها سلاح المركبات، والمهندسين،

والفرسان، والمشاة، وبرعوا في «الحركة» والتنظيم، فقد فاقوا من سبقوهم وعاصروهم في فن حركة المحاربين، وأعطوا كل فرقة أو سلاح العمل الذي اختصوا به، فسلاح المهندسين ـ مثلاً ـ يعمل على إصلاح الطريق وهدم الحصون وإقامة الجسور.

وكانوا متوحشين قساة جبارين لا يعرفون الرحمة، فكانوا يعذبون أسراهم من العلية عذابا غاية في القسوة والنكر، يصلمون الآذان، ويسملون العيون، ويقذفون بهم من حالق، ويشوون أجسادهم وهم أحياء على نار هادئة بعد أن يوثقوهم، ويتسلون بمنظرهم ويلهون بتعذيبهم، ويتلذذون بأنينهم وصياحهم، ويسلخون جلودهم وهم على قيد الحياة ويعملون منها قطائل ـ وهي أغطية للرأس ـ ويقعدونهم على خوازيق في ميدان عام يصفون فيه على تلك الخوازيق، وسل ألسنة الجنود المعادية إلى مثل هذه الأعمال الوحشية الفظيعة البشعة.

وأشور بانيبال الذي حكم في القرن السابع قبل الميلاد كان مع زوجه في قصره الملكي في حفل وجيء له برأس ملك انتصر عليه فزاد ابتهاجه وأمر به أن يوضع على عصا، ثم طيف به، ثم أقيم في ميدان عام، ويفتخر أشور بانيبال بأنه أحرق ثلاثة آلاف أسير، وذكرت النقوش التي كشفت في مكتبته الضخمة على لسانه قوله: «لقد انتزعت ألسنتهم وأهلكتهم، ومن بقي حيا قتلته وأطعمت بلحمه الكلاب والذئاب والخنازير، وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة».

وملك آشوري آخر أراد أن يدون للأجيال التي تأتي بعض أعماله البطولية كما صنع ملوك آشور فنقشت أقواله وبقيت حتى اليوم ومنها: «الآثار التي أبنيها إنما هي من الجثث الآدمية التي قطعت رءوسها وأطرافها، وقطعت أيدي كل الأسرى».

وكان ملك آشوري يتلهى بفقأ عيون أسراه، إذ يصفون بين يديه وتثبت رءوسهم لئلا تتحرك من مواضعها بعد ربطها بحبال من بين شفاههم، ويمسك الملك برمح طويل يخز به أعينهم فتتفقأ وهو سعيد مبتهج.

وكانت هذه الوحشية من ديانتهم، لأن إلههم (آشور) الشمسي كان في وهمهم إلهًا عنيفا حربيا، وكانوا يعتقدون أنه يسر من أعمالهم الوحشية فكانوا يسرفون فيها إلى الحد الذي أشرنا إليه.

وديانة آشور في أصولها هي ديانة البابليين والسومريين مع اختلاف يتفق مع روح آشور الحربية والعسكرية، وآلهتهم كثيرة، ولكن أكبر الآلهة طرا عندهم وأعظمها شأنا هو «آشور» الذي اعترفوا له بخلق العالم، فهو سيد الآلهة أجمعين، وزوجه «إشتار» ربة الحرب تأتي بعده في المكانة في مجتمع الآلهة أمثال: بل، وحداد، وسن، وشمش، ونابو.

فديانتهم تقوم على إعداد الآشورى على الجندية التي تقتضي الطاعة العمياء، والتقرب للآلهة رغبة في مودتها ورضاها،

والخضوع للكهنة حتى يقربوهم من الآلهة، ويبعدوا عنهم أذى الأرواح الشريرة وشر الشياطين.

والكهنة ثلاثة صنوف: كهنة اختصوا بالتطهير، تطهير الناس ومسح الملوك بالزيت، وكهنة لخدمة المعابد والهياكل، وآخرون للانشاد والترتيل.

ويتم تطهير الناس بالرقي والتمائم والسحر حتى برعوا في هذه الشعوذات، وأدى بهم اشتغالهم بالسحر إلى التكهن بالغيب والمستقبل، وكانوا يمثلون الآلهة، فكان الناس يتصلون بها ويستشيرونها بوساطتهم، بل كان الملوك يفعلون ذلك.

ولا وجود لفكرة الحياة بعد الموت أو الجزاء في ديانة آشور، مثلها مثل الديانة البابلية، فلا يطمع الآشوري في مثوبة الآخرة، وكل ما يرجوه من الآلهة أن تمنح السعادة في دنياه لأن لا وجود لسعادة أبدية أو نعيم ينتظر الصالحين في الآخرة، بل كل شيء سواء بعد الموت، لا أخيار يجنون ثمار ما عملوا من الصالحات، ولا أشرار يعاقبون على شرورهم، كل الأرواح إلى عذاب أو حياة قلقة مضطربة لا استقرار فيها ولا أمن، بل ألم لا نهاية له.

* * *

وظهرت في الشرق الأدنى شعوب مثل الحثيين والقليقيين والكوكرانيين والعموريين والكنعانيين والأدوميين والمؤابيين والعموريين وغيرهم كثير، ولكل شعب ديانته التي لا تخرج عن

الوثنية والشرك، وصرف العبادة إلى غير الله عز وجل، وديانات هذه الشعوب لا تخرج عن الديانات التي سبق ذكرها، فلا ضرورة لتفصيل القول أو افراد ديانة كل من هؤلاء بالذكر، لأنها تجتمع في الشرك والوثنية، ويشارك بعضها بعضاً في مراسيم العبادة وطقوسها وشعائرها، ويكفي أن نشير إلى ديانة الآراميين والفينيقيين وهي لا تخرج عن ديانات الآخرين في الجوهر والصميم، وفي الظواهر والأشكال أيضاً.

ديانة الآراميّين والفينيقيّين

الآراميون من الجنس السامي الذي يقطن الجزيرة العربية، وتركوا مواطنهم فيها إلى نواحي سوريا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، كما نزحوا إلى العراق، وكانوا قبائل قوية شديدة البأس.

وأشير إلى الآراميين في كتابات مسمارية ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وثبت منها أن جماهير من قبائل «سوتى» الآرامية استقرت في نواحي دمشق، وقبائل «أخْلامو» استقرت في منطقة الجزيرة في منحنى نهر دجلة ونهر الفرات، ومنها انحدرت بطون من أخلامو إلى بابل في الجنوب.

كما أن الوثائق الآشورية ذكرت الآرامية لأول مرة في عهد ملك آشور المسمى «تغلاث بـلناصر» سنة ١١٠٠ قبل الميلاد.

وثبت الآراميون أقدامهم في البلدان التي نزلوها، وقامت لهم إمارات أو ممالك معدودة: إمارة الجزيرة في العراق، ومملكة آرام دمشق في منطقة دمشق، وآرام صويا في أراضي حوران، وآرام بيت رحوب على ضفاف نهر اليرموك، واستطاع الآراميون

أن ينشئوا ممالك قوية، وتركوا البداوة وأخذوا بالحضارة وتأثروا بحضارة الأشوريين وحضارة الحثيين، وتشبهوا بملوكهم واقتبسوا مظاهرهم.

وأظهرت الأحافير في سوريا عن وجود تمثال لآله الآراميين المسمى «حداد» وارتفاعه تسع أقدام ونصف قدم، وظهر وعلى رأسه تاج ذو قرنين، وبسط ذراعيه يمنح عبادة البركة، وأقام هذا التمثال الملك الآرامي «بنمو» الأول في القرن الثامن قبل الميلاد، كما عثر على تمثال آخر للإله حداد أقامه «بنمو» الثاني (سنة **٧٣٢** قبل الميلاد) ويظهر في كلا التمثالين أثر الحثيين.

وديانة الآراميين وثنية، فقد عبدوا مظاهر الطبيعة، وأعظم آلهتهم «حداد» أو «أدو» وهو إله المطر والرعد والبرق، وإذا رضي عنهم منحهم الخير والبركة والنماء إذ يرسل السحاب ويعطيهم المطر وإذا غضب أرسل عليهم العذاب الممثل في الرياح والبروق والرعود العاصفة والفيضان.

وهناك إله آخر كبير هو «رمون».

ولحداد معابد منتشرة في مدن سوريا ولبنان، والمعبد الرئيسي في مدينة هيروبوليس (وهي المعروفة في العربية بمنبج) والآراميون الذين نزلوا حران عبدوا القمر أيضا، وكلهم عبدوا مع حداد زوجه المعروفة باسم «أتارجاتيس» وصوروا حداد رأساً تحيط به هالة، وأتارجاتيس هلالا مقروناً بقرص الشمس.

وللآراميين آلهة كثيرة أعظمها من ذكرنا، وليست وحدانية «حداد» وحدانية إيمان وفكر،بل وحدانية تغليب، وحدانية وثنية.

* * *

أما الفينيقيون فهم من جزيرة العرب أيضا، غادروا وطنهم في عصر ما قبل التاريخ إلى سومر وإلى مصر وهم يحملون معهم موروثاتهم السامية مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أن هناك تشابها بين الحضارة السومرية والحضارة المصرية.

وهجرتهم إلى سوريا وفلسطين كانت في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد كما يذكر هيرودوت عن أهل صور، ولكن الأحافير دلت على وجود آثار في لبنان قبل هذا التاريخ، وقد ثبت أن أسماء هذه المدن (أريحا وبيسان ومجدو) هي كنعانية، وهي موجودة قبل ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام.

ولم يعرف سبب تسميتهم الفينيقيين، وعرفوا بهذا الاسم كما عرفوا بالكنعانيين في الكتب والمدونات القديمة وفي كتاب العهد القديم، وبلادهم الجديدة عرفت بكنعان ولغتهم باللغة الكنعانية، واليونانيون الإغريق هم الذين أطلقوا عليهم كلمة «فينيقي» ولم يعرف قصدهم منها، وكانوا يطلقون «فينيقي» على كل من يقوم بأعمال القرصنة واللصوصية والحيل، ولا يعرفون إلا بالكنعانيين لدى جميع الأمم السامية.

وقد سكنوا سوريا، وبلادهم مقسمة إلى أربع مقاطعات، مقاطعة «أرواد» شمال سوريا ناحية الإسكندرونة، وأرواد أكبر مدينة فيها، وكانت في جزيرة على مقربة من الشاطىء، ومقاطعة جُبال (بضم الجيم) وموقعها شمال بيروت، وجبال اسم مدينة مشهورة وسميت المقاطعة بها، وكان فيها صنمهم المشهور «بَعَلَتْ جُبال» ومقاطعة صيدا، وهي أشهر المقاطعات الكنعانية وأعظمها قوة وثراء ومجدا، وكانت مقر الحكومة التي يخضع لها أكثر البلاد الكنعانية.

وفي صيدا أشهر المعابد الكنعانية والهياكل المقدسة، وفيها عديد من الآلهة ومعابدها الفخمة مثل عشتروت وأشمون ومِلْكَمْ.

وإلى جانب هذا الصيت الديني الذائع كانت صيدا أعظم بلد تجاري في ذلك الزمن، لأن المستعمرات الفينيقية كانت تتبع صيدا، ونمت التجارة فيها نموا عظيما.

والمقاطعة الرابعة هي مقاطعة «صور» وكان لها شأن عظيم في مملكة الكنعانيين، ومنافسة صيدا، وأكبر آلهتها «ملكارت».

ولم تكن هذه المقاطعات تستظل بلواء واحد، بل كانت كل مقاطعة مستقلة عن الأخرى، وازدهرت مدنهم أيما ازدهار، ومن أشهرها: طرابلس وبتريس وبيروت وببلوس وصيدا وصور وسميرة وجزر ولكيش ومجدو وششم وأورشليم وأرادوس.

وصار الفينيقيون أغنى أمم الأرض وأعظمها في ميدان التجارة والاقتصاد، واتخمت بالذهب والفضة، ونمت الحياة الاقتصادية والتجارية نموا مدهشاً، وربطوا بين القارات والأقطار، ربطوا آسيا وإفريقيا وأوروبا، واكتشفوا طريق الرجاء الصالح قبل فاسكو دي جاما بألفي عام، ووصلوا إلى الجزر البريطانية.

ومخرت سفنهم عباب البحر على شاطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى انتهوا إلى أعمدة هرقول التي تعرف الآن بجبل طارق، ثم عادوا من ساحله الجنوبي مارين بشمال إفريقيا حتى وصلوا مصر، وعرفوا البحر الأبيض المتوسط معرفة دقيقة، وعلى مرور الأيام احتلوا الجزر الهامة فيه، وبنوا في شمال إفريقيا مدنا هامة، واستعمروا بلدانا كثيرة، ووضعوا فيها حاميات تحمي مستعمراتهم وتجارتهم، وسيطروا على قبرص وميلوس ورودس ومالطة وصقلية وكورسيكا، ومرسيليا وقرطاجة (في تونس) وغيرها، بل وصلوا إلى إنجلترا.

وطافوا بإفريقيا من ساحلها الشرقي حتى انحدروا إلى الجنوب ثم صعدوا بعد انعطافهم من الرجاء الصالح حتى وصلوا إلى جبل طارق، وحققوا معلومات جغرافية وفلكية، ودعي النجم القطبي بالنجم الفينيقي عند الإغريق.

وصارت الأمة الفينيقية أعظم أمة بحرية في العالم، وصحبوا معهم علوم الشرق الأدنى ومصر وكريت إلى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنجلترا، وأمدوا أوروبا بثقافة وعلوم جديدة كان لها أثر

عظيم في قيام حضارة أوروبا، وبفضل الفينيقيين اتصلت القارات بعضها ببعض، وانتشرت في أقطارها العلوم والثقافة.

وأدار التجار الفينيقيون الحكم إدارة حسنة، لأنهم توخوا الاستقرار والأمن حتى تزدهر تجارتهم، واستطاعوا بمهارتهم الاقتصادية وعبقريتهم في فنون التجارة أن يمهروا في السياسة الخارجية، ولو كان الفينيقيون متجهين إلى السيادة والاستعمار واستعدوا لهما لحكموا العالم، ولكنهم لم يتحدوا هم أنفسهم، فبقيت بلادهم مقسمة إلى مقاطعات مستقلة ومدن لا يربط بعضها ببعض إلا روابط تجارية.

ومع هذا فقد كانوا أبطالاً في ميدان الحرب والقتال، ويكفي أنهم أسسوا قرت جدش (قرطاجة) وجعلوها أقوى مدن إفريقيا، بل كانت مرجع كل المستعمرات الفينيقية، و «هانيبال» القائد الفينيقي الشهير هدد روما. ونقل الجيوش الفينيقية بحراً حتى حارب في أرض إيطاليا نفسها.

وآثار كنعان في العالم القديم في مصر وشمال إفريقيا وجزر البحر الأبيض وجنوب فرنسا وإسبانيا وغيرها تدل على إفادته من نشاط الكنعانيين في ميدان العلوم والثقافة والتجارة والاقتصاد والصناعات.

ومن أعظم ما أدانوا العالم اختراع السفن التي استطاعت جوب المحيطات والبحار، وربط القارات، واختراع الزجاج،

ووضع نظام الحساب، وصناعة النسيج، والفخار والمعادن، واختراع الصبغة الأرجوانية.

ولعل أكبر فتح إنساني للفينيقيين الأبجدية الكنعانية المختصرة التي كانت أساسا لجميع الخطوط في العالم المتحضر في الشرق والغرب، فهي تتألف من اثنين وعشرين حرفا، وكانت سهلة التعلم والكتابة، وتتيح للأمي العلم، وللعامي القراءة بتعلم الحروف السهلة.

واعترف الاغريق في آثارهم بفضل الأبجدية الفينيقية عليهم، وأخذوها ثم نقحوها، وعنهم أخذها الرومان، ومن هؤلاء انتشرت في الغرب.

والأبجدية الفينيقية أتاحت للعلم والثقافة والآداب أن تنتشر، ويسرت القراءة والكتابة، وزودت العالم بحضارة العقل والروح.

ومن المفارقات أن الفينيقيين الذين يعود إليهم اختراع الأبجدية التي سهلت الكتابة والتدوين لأمم العالم المتمدن لم يدونوا هم أنفسهم أمجادهم وتاريخهم وعلومهم وآدابهم وثقافاتهم، ولم يؤلفوا كغيرهم كتبا، ولولا أن الإغريق والرومان وبخاصة اليهود اهتموا بتدوين أخبار الفينيقيين وتواريخهم لما دلت آثارهم الباقية على أمجادهم الكبيرة.

وكذلك كان أمر ديانتهم غير واضح حتى أظهرت أحافير

«أوغاريت» في رأس شمر قرب اللاذقية بسوريا سنة **١٩٣٢** م على يد الأثري الفرنسي كلود شيفر تاريخا مكتوبا يرجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبذلك أخذت معالم ديانة الفينيقيين تتضح وسماتها تبين.

وديانتهم تختلف عن ديانة البابليين، فهؤلاء برعوا في الفلك والتنجيم والسحر فكانت ديانتهم تتصل بالسماء حسب مفهومهم الوثني، أما الفينيقيون فقد اتجهوا بديانتهم إلى الأرض، ففيها معاشهم وعليها اعتمادهم، فاعتقدوا أن آلهتهم تسكن الأرض وترقى إلى ذرى الأشجار وقمم الجبال وأعماق الآبار، وقدسوا عناصر الخصب، واهتمت آلهتهم بالزراعة والفلاحة.

ولم يفسروا نبات الزرع في أوانه التفسير الصحيح ووهموا أن الخصب والنماء بفعل الآلهة، فعشتروت أو عشترون أو عشتار ـ وهذا الاختلاف في نطقه مرده إلى اختلاف المقاطعات الفينيقية ومدنها ـ إلهة الأرض، وإلهة الخصب والنماء، وإلهة الطهر، وإلهة العهر والشهوة، وقد تزوجته «أدوني» وأحبته، وثمرة اتصالهما هذه الخضرة التي تكسو وجه الأرض في زمن الربيع، ويتجدد هذا الزواج بتجدد الخضرة.

وعزوا الجدب إلى موت إله النبات، وسيطرة إله الجدب والموت، فإذا أدوا عبادتهم وقاموا بطقوسهم الخاصة في مثل هذا الموقف عاد إله الخصب إلى الحياة فيتجدد زواج عشتروت وأدوني لتكتسي الأرض من جديد بالخضرة الزاهية.

ويعتقدون أن «البعل» وهو بمعنى السيد أو الإله هو واهب الخصب والنماء، ولكل بعل مقاطعة أو مدينة اسم، فبعل مقاطعة جُبال إسمه «بَعلَتْ جُبال» وبعل صور هو «ملكارت» وبعل صيدا «عشتروت».

وهناك آلهة أخرى مثل: أشمون وملكم وآدوني ومولوخ وإل، وهؤلاء آلهة فينيقية، كما أن هناك آلهة كثيرة أخرى.

فإله سوريا الفينيقية «إل» وهو إله السماء، وإله الأرض عشتروت، والسماء الأب، والأرض الأم، و «إل» بيده مقاليد السماء والمطر والريح والبرق والرعد، وهو الذي ينضج الزرع.

والسوريون يحتفلون بعشتروت كل عام، وعيدها أكبر الأعياد، وتقترن به الدعارة المقدسة التي تباح فيها الأعراض وتنتهك الحرمات باسم عشتروت، فخصب التربة ونبات الزرع مرموز لهما بالأم أو بإلهة يوحي اتصالها الجنسي بعشيقها إلى الأرض أن تخصب، وإلى الزرع أن ينبت كما تخصب الأرحام.

وهذه الدعارة المقدسة التي تضحي فيها العذراء ببكارتها أو المرأة بعفتها قرباناً إلى عشتروت، ومشاركة لها في تهتكها الذي يسري إلى الأرض فيكثر الإخصاب في الحيوان والإنسان والنبات.

ولا تقتصر هذه الدعارة المقدسة على سوريا الفينيقية، بل هي شائعة لدى عباد «البعول» الفينيقية، فتقام المهرجانات

المتهتكة في كل مكان.

ووصل الأمر في حفلات الدعارة المقدسة إلى هياج جنسي وغير جنسي، تزيده الموسيقى صخبا وعراماً، وكانوا يعتقدون أن «أدوني» عشيق عشتروت قد مات، فهم يحتفلون ليعود إلى الحياة ويرجع إلى حضن عشيقته، ويرقص الجميع على أنغام الموسيقى وبخاصة الكهنة الخصيان.

وفي هذه الحفلة تدفع الحماسة والهياج بعض الرجال إلى إخصاء أنفسهم قربانا للآلهة وهبة منهم أنفسهم لها ليبقوا فيما يستقبلون من أعمارهم في خدمة الآلهة.

وعندما يجن الليل يمضي الكهنة إلى قبر أدوني ويفتحونه ثم يعودون إلى الناس ليبشروهم أن أدوني بعث من جديد، فيبلغ الهياج ذروته ابتهاجاً بعودته وفرحا بحياته الجديدة، وأدوني يموت كل مرة ليحيا من جديد.

وعشتروت هذه هي «أشتار» البابلية، فكما كانت «ميلتا» التي هي صورة أشتار آلهة العهر والشهوة وتتقبل تضحية العذارى ببكارتهن والنساء بعفتهن في معبدها ببابل فكذلك تفعل عشتروت حيث تتقبل قربان العذارى ببكارتهن والنساء بشرفهن في معبدها بمدينة ببلوس[1] الفينيقية، وكما أحبت أشتار تموز فإن عشتروت قد

---

(١) هي جبيل، وتقع شمال بيروت على بعد عشرين ميلاً من مدينة بيروت، وهي مدينة فينيقية قديمة، وكانت تسمى قديماً عند اليونان ببلوس.

أحبت أدوني .

ولم تكن الالهة الأخرى في غنى عن الدماء، بل كانت تصبو إليها على صور مختلفة، فكانوا يضحون بأبنائهم قربانا لها إذا نابهم خطب جسيم، ومن هذه الآلهة «مولوك» أي الملك، وهو إلههم المخيف الراعب، يتقربون إليه بأطفالهم يلقونهم في النار وهم أحياء، وكلما علا صراخهم من حرارتها ابتهجوا، وظنوا أن ربهم تقبـل قربانهم .

وعندما حاصر الرومان قرطاجة سنة ٣٠٧ قبل الميلاد، ورأى الفينيقيون أن الكرب قد داهمهم فلم يجدوا إلا أن يلجأوا لإلههم مولوك وذبحوا له مئتي غلام من أبناء عليتهم حتى يفرج عنهم هذا الكرب .

وليس من الوحدانية أن يميل السوريون الفينيقيون إلى إلههم «إل» أو «إلو» ويجمعوا في شخصه الآلهة جميعاً، بل هو وحدانية شرك وتغليب .

وليس في الديانة الفينيقية بعث وخلود، ولا شيء وراء هذه الحياة إلا الكلمات التي يرددها الكهنة عندما يفتحون قبر أدوني عشيق عشتروت ليعود إلى الحياة بعد موته، تلك الكلمات يهمسون بها في آذان الناس وهي : إنكم ستقومون من قبوركم ذات يوم .

وهي كلمات لا معنى لها إلا وعد يؤكد قيام أدوني ولا شيء سواه.

والآلهة التي نشأت في سومر هي التي انتقلت بأسمائها أو تحريف يسير اقتضته لغات الأمم التي استقبلتها وجعلتها آلهتها حتى انتهت إلى الإغريق وإلى غيرهم من أمم الأرض المتحضرة، فكانوا شركاء بعضهم لبعض في عبادتها، ولا عجب فهم شركاء في الشرك والوثنية.

ديانات الفرس

فارس أو إيران التي نعرفها في أيامنا هذه بحدودها الجغرافية الحالية كانت موطناً لأمم مختلفة وقبائل شتى، وسميت فارس نسبة إلى قبيلة فارس التي نزحت من مواطنها التي لا تبعد كثيراً عن إقليم فارس، وإيران أقدم في التسمية من فارس، فقد ورد هذا الإسم في الكتاب المقدس الفارسي الذي أُلِّف في القرن السابع قبل الميلاد بهذه الصيغة «إيريانا فيجا» ومعناها وطن الآريين أو الإيرانيين الذين هم آريون، ثم سمي الإقليم «إيران».

وسكان إيران من السلالة الآرية التي تنتمي إلى السلالة الهندية الجرمانية، ومواطن الآريين غير متفق عليها بين المؤرخين، ولكن لا اختلاف في سكنهم في البلاد المجاورة لإيران أو المحيطة بها أو القريبة منها مثل القوقاز وروسيا البيضاء وشمال الهند، وبعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد من ذلك فيذكرون سيبيريا وشمال أوربا ووسطها بين مواطن الآريين، كما يذكرون بينها المناطق الواقعة بين نهر جيحون وبحيرة أورال.

وليست «الآرية» في أوربا جنساً، ولكنها تعبير لغوي، فالآريون في أوربا مجموعة من الشعوب، ومواطنها السهوب الواقعة بين جبال الكربات وجبال هندكوش، ولكل هذه الشعوب لغة واحدة هي اللغة الهندية الأوربية التي تعرف باللغة الآرية، فأطلق على المتكلمين بها الآريون فحسبوا جنساً.

ولما كان المتكلمون بهذه اللغة يتشابهون في كثير من الخصائص والصفات العرقية المشتركة، والوحدة اللغوية ربطت بينهم رباطاً وثيقاً، وقربت فيما بينهم، فإن ذلك أكسبهم وحدة أشبه بوحدة الدم، ولكن انتشارهم شرقاً وغرباً واندماجهم في الأجناس التي نزلوا بين ظهرانيها أذابت عناصرهم الجنسية فيها، وبقيت السيادة اللغوية الآرية دون أن يكون هناك ما يصح أن يطلق عليه الجنس الآري في أوربا إلا من قبيل تعريفهم باللغة الآرية التي كانوا يتحدثون بها.

ويذهب علماء اللغات إلى أن موطن اللغة الآرية آسيا الوسطى في منطقة تركستان وما جاورها وأحاط بها من المواطن. ويذهب بعضهم إلى أنها نشأت بمناطق بحر البلطيق، وبعضهم يقول: إنها نشأت في أوربا الشرقية بالمناطق الروسية.

وليس هناك تاريخ محدود لمقدم الآريين إلى إيران وإن كان بعض المؤرخين يذهبون إلى أنهم دخلوا إيران في الألف الرابع قبل الميلاد حيث كانت هجرة الآريين من مواطنهم في وسط آسيا إلى

هضبة إيران، ويغلب الترجيح في انتشارهم بإيران أنه كان منذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد.

وأهم القبائل الآرية التي انتشرت في مناطق إيران هي: قبائل ميديا، وقبائل فارس، وقبائل بارس، وسميت كل منطقة باسم القبائل التي شغلتها، كما تدفقت قبائل كثيرة أخرى انتشرت في إيران، فالميديون شغلوا الجانب الغربي من الهضبة الإيرانية والمقاطعتين المعروفتين بالعراق العجمي وكردستان، ونزلت قبائل بارس في شرق إيران، وقبائل فارس في المناطق الجنوبية الغربية التي عرفت بهم، ثم أطلق على إيران كلها.

وأشار الكتاب الفارسي المقدس المسمى «أوستا» إلى الإيرانيين وذهب إلى أنهم أول من سكنوا إيران، وهؤلاء هم أساس حضارة فارس، وقد اعتنقوا دينها القديم الذي يتجلى في عبادة مظاهر الطبيعة وتعديد الآلهة، وكان أهم مظهرين منها النور والظلام.

وموقع فارس يجعلها نقطة تتلاقى فيها المذاهب والنحل المختلفة، وقاعدة تنطلق منها بعد أن تصطبغ بالصبغة الفارسية، ولئن كان بين ديانة فارس وديانات الأمم المجاورة اختلاف فإن بينها وبينها قرابةً وشبهاً.

وديانتها القديمة لا تختلف عن ديانات غيرها من الأمم أول نشوء عقائدها الدينية التي يتفق فيها من كانوا أكفاء في التطور أو

متقاربين في المعيشة وسبل الحياة على اختلاف يسير في الفروض والعبادات والطقوس.

فلما ملك الميديون لم تخرج ديانة فارس عن ديانات جيرانهم، بل كانت ديانتهم مزيجاً من ديانة الهند وسومر وآشور، ولكن لها طابعها الخاص، وأصبحت تعرف بالمجوسية نسبة إلى قبيلة المجوس التي عرفت بها، وكانت القبائل المختلفة التي نزلت إيران أو التي تعد من سكانها الأصليين يتعبدون على أساس المجوسية وغيرها مثل البرهمية.

وسبق زرادشت عبادة الشمس والقمر والحيوان والأرض والنار، ومن تلاقي المذاهب لقاء الفرس مع البرهمية وديانة البابليين في عبادة «مترا» إله الشمس، فقد كان الفرس الأقدمون يعبدونه ويعبدون «أناهيتا» إلهة الأرض والخصب والنماء، و«هوما» النور المقدس الذي يعتقدون في بعثه بعد أن مات، ويعتقدون أن «هوما» منح دمه الآدميين شراباً طهوراً لهم ليكون بوساطته الخلود من نصيبهم.

وعبادة «هوما» تقترن بشرب عصير مسكر يعصرونه من عشب ينمو على سفوح جبالهم سمي باسم هوما، كأنما هم يتمثلون فيه دمه.

ولا يبعد أن يكون الفرس آخذين عبادة «مترا» من الهند أو البابليين، وأحسب أنهم أخذوه من البابليين الذين رفعوا مترا إلى أعلى مراتب آلهتهم في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واعتقدوا في

«مترا» أنه الإآله الأوحد الذي يحارب قوى الظلام لأنه في طبيعته الخير، أما الهند فقد اعتقدوا أن «مترا» إآله شر وإفساد.

والحياة والكائنات ومظاهر الطبيعة يختلف بعضها عن بعض فمنها ما هو شر ومنها ما هو خير، فالخير يصدر عن آلهة الخير مثل: النور والخصب والنماء والصحة والجمال والعفة والصلاح ومكارم الأخلاق والفضائل كلها، والشر يصدر من أرباب الشر والفساد، كالظلام والجدب والجفاف والمرض والفساد والزنا والكذب والرذائل والمنكرات.

وبين الخير والشر صراع، وآلهة كل منهما تتربص بالأخرى، ومنها تعددت إلى إلهين هما «أورمزدا» أو «أهورامزدا» إآله الخير والنور، و«أهرمان» إآله الظلم والشر، ومنهما تفرعت آلهة خير وآلهة شر تمثل قوى الخير والشر وعناصرهما.

وعقيدة المجوس كانت تعتقد بما مر، وتعتقد أن هناك إلهاً يسمى «زروان» هو أبو إآله النور (أهورامزدا) وإآله الظلام (اهرمان)، ثم اختلطت بالزرادشتية وغيرها من مذاهب الفرس والهند وبابل ، وصارت المجوسية علمًا على الزرادشتية، وعرفت بأسماء مختلفة.

وعقيدة المجوس كانت تقوم على أساس الثنوية التي تنتهي إلى التوحيد، وهو تمييز أهورامزدا، وتعتقد المجوسية أن هناك إلهاً

يسمى «زروان» هو أبو إله النور (أهورامزدا) وإله الظلام (أهرمان).

والزروانية عقيدة أسبق من المجوسية، وهو أصل مبدأ الخير ومبدأ الشر المتكافئين المتساويين في القيمة والقدرة، المختلفين في العمل، المشتبكين في خصام دائم، وهذه الثنوية ـ كما يظهر ـ تعود إلى إله واحد ليتم الازدواج والافتراق في وقت واحد.

الافتراق لأن النور والظلمة في صراع وخصام، والازدواج يتجلى في انتجالهما من أب واحد، فهما توأمان اختلفت طبيعة كل منهما عن الآخر فكان أحدهما إله الخير والآخر إله الشر.

والزروانية محاولة إيجابية جادة لتوحيد العنصرين أو الأصلين في أصل واحد، وكأنها إله واحد ذو جانبين ومظهرين، فهي عقيدة توحيد ثنوي؛ أو ثنوية ترمي إلى التوحيد.

ولم تقتصر المجوسية على الزروانية وتبقى بين معتقديها محصورة في نطاقها الذي انتهى إلى زرادشت، بل اختلطت بالزرادشتية وغيرها من مذاهب الفرس والهند وبابل، ولهذا عنيت بالأرض والسماء، بالعالم العلوي والعالم السفلي، وبرعت في السحر والتنجيم والعرافة والطب، ولهذا عرفت ديانة فارس المجوسية والزرادشتية بأسماء مختلفة، بل صارت المجوسية علمًا على الزرادشتية، وعرفت بأسماء مختلفة مثل المجوسية نسبة الى قبيلة المجوس التي عرفت باسمها. والزرادشتية نسبة إلى زرادشت، والثنائية لأن الفرس قالوا بوجود إلهين هما: إله النور والخير وإله

الظلام والشر، و «المزدية» نسبة إلى «أهورامزدا» و « عبادة النار» لأن النار مظهر هذه الديانة الخاص، فالنار لا تنطفىء ، ويجب أن تؤدى العبادة في المعبد الخاص بالنار بعد أن عبدت عندما تغير دين زرادشت.

ويجوز إطلاق هذه الأسماء على ديانة المجوسية، وليس المسلمون وحدهم الذين عرفوها بهذه الأسماء فغيرهم من المؤرخين والباحثين والدارسين أطلقوا عليها بعض هذه الأسماء، وعرّفوها بمجموع ما تدل عليه تلك الأسماء، والمجوسية الأولى أساس كل ديانات فارس الثنوية.

وقبيل مولد زرادشت وفي أول نشأته حتى قام بدعوته كانت المجوسية تخالف الديانات التي عاصرتها وجاورتها في أصول المعتقد وفي الشريعة والمعاملات والجزاء عقوبة ومثوبة، فالديانات المعاصرة والمجاورة كانت تنكر العالم الآخر، وبعضها ينكر البعث والنشوء، وبعضهم يجهل القيامة والحساب، وكان بعضها يبيح المنكرات ويجعلها من العقيدة كالدعارة المقدسة التي تتم وكأنها فريضة دينية تؤدى في إجلال دون أن تكون مثار سخط واستنكار.

أما المجوسية فهي تعرف التوحيد الذي يقوم على أساس الشرك، ويقال: إنها فرع من الصابئة، فإذا كان في المجوسية إلهان: أحدهما للخير، والآخر للشر، فإنها تعتقد أنهما من أب واحد هو «زروان» كما تذكر بعض الأساطير المجوسية، ثم إن هذين الإلهين لن يدوم تعددهما، إذ سيأتي اليوم الذي يندحر فيه

إلّه الشر ويُقْضَى عليه فتكون السيادة المطلقة لإلّه الخير وحده دون شريك.

وآمن المجوس باليوم الآخر، والثواب والعقاب، ونهاية العالم، وبالقيامة حيث يبعث الموتى وتنشر الأرواح.

وكانت الآلهة مجسدة؛ ثم تطورت إلى فكرة، وصار الإيمان بالغيب وبما وراء الحس والعيان معروفاً، فبعد أن كانت العبادة موجهة لصنم مشهود أو وثن منظور اتجهت إلى قوى خفية يؤمنون بوجودها دون أن يجهدوا أنفسهم لإقامة براهين تثبت ما يذهبون إليه من وجود الإلّه الذي يعبدون، وإن كان الصراع بين قوى الخير والشر مشهوداً في الدمار الذي تسببه الرياح وغيرها، وفي الخير الذي يشهدونه كنبات الزرع وجريان الماء وأعمال الخير.

وديانة المجوس سمت بالفكرة الدينية عن الديانات التي سبقتها أو عاصرتها، فلم يكن ملكوتها خالياً من الآلّه كالبوذية والجينية في الهند، ولم تنكر القيامة والبعث والنشور، بل آمنت بها إلى غير ذلك من أمور العقيدة التي سمت بها عن سواها من الديانات، فهي تجمع بين التوحيد والشرك، التوحيد الذي يقصد منه إفراد كإفراد الأبوة مع إثبات الشرك من الزوجة ومن ذريتهما واعتبار الآلهة كالآدميين في التناسل، فالمجوسية لا تخلو من الوحدانية الوثنية المشركة.

وللحجر الأسود تقديس عند المجوس لأنهم «يؤكدون أنه بين الأوثان والآثار التي خلفها مهبد Mahbadوخلفاؤه في الكعبة

بصفة شعار لزحل، ويسمون المدينة مهجة Mahgahومعناها مكان القمر» ويزعمون أن العرب أخذوا منه إسم مكة[1].

وفي هذه الأثناء ولد زرادشت، وهو من قبيلة ميديا، ولكن المراجع اليونانية تذكر أنه ولد قبل ستة آلاف سنة من ميلاد المسيح عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام، وهناك من المؤرخين من يجعله بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد، والمراجع العربية تذكر أنه ولد قبل الإسكندر بنحو ثلاثة قرون إلا بضعة عقود من السنين، ولعل أرجح الروايات رواية العرب التي أيدها مؤرخون محدثون، فذكروا أن مولده سنة **٦٦٠** قبل الميلاد وتوفى سنة **٥٨٣** ق. م وولد في أذربيجان في الشمال الغربي من إيران، وأول نجاح صادف دينه كان في مدينة «بلخ» ثم انتشر في فارس كلها عندما دخل فيه الملك «جشتاسب».

وأبوه من رجال الدين، وأمه من النبيلات من أسرة ذات نسب رفيع، ويذهب الشهرستاني أن أباه من أذربيجان وأمه من الري، وفي مولده ـ كما في مولد أمثاله ـ أساطير ومعجزات، فيزعمون أنه ولد ضاحكاً، وتزعم الأساطير أنه عندما خرج الى الدنيا قهقه قهقهةً عاليةً أفزعت الأرواح الخبيثة وطردتها وفرت في هلع وارتياع، فهذه الأرواح تجتمع عند كل أم على وشك الولادة، لتصيب المولود أو تصرفه إلى الشر والخبث، فلما أرسل القهقهة

---

(١) الحضارة الإسلامية لفون كريمر. تعليقات المترجم ص ١٥٥ .

ارتاعت تلك الأرواح الشريرة وولت هاربة، فنشأ نشأة صالحة.

وبعد الثلاثين من عمره أخذ يبشر بدينه الجديد ويحارب المجوسية التي عاش بين أتباعها وقضى عمره بين ظهراني قبائل المجوس فوقف على ما في ديانتهم من باطل.

ولم يرض زرادشت بما وجد عليه أقوام أمته من عقائد فاسدة ووثنية وإلحاد فنهض بدينه يدعو إليه، وقوي ساعده بالحاكم الذي تأثر به وبدعوته، وبأحد رجاله الذي تزوج ابنة زرادشت، وصار له جيش وأتباع حارب بهم أعداء دينه وهم الطورانيين، وقتله أحدهم، فارتفع زرادشت عند أتباعه إلى السماء وتمكن مذهبه منهم.

ويدعي الفرس أن زرادشت نبي، وكتابه المقدس وحي أنزل عليه من «أهورامزدا» وتزعم الأساطير أنه رأى ربه هذا إذ تجلى له وظهر، وأسلمه كتاب «أوِسْتَا» أو «أوفِسْتا» أو «أوبِسْتَا» أو «الايستاب»؟ على اختلاف النطق به في اللهجات، وصار عند الفرس كالقرآن عند المسلمين والإنجيل عند المسيحيين والتوراة عند اليهود، ويزعمون أنه تكلم مع ربه وكلمه ربه تكليمًا.

ولا تعرف حقيقة «أوستا» واشتقاقها، وإن كان يظن أنها من الأصل الآري «فيد» وإذا صح هذا فيكون معناها «المعرفة».

وجاء في «تاج العروس» ٤ : ٢٤٦ : «مجوس، كصبور: رجل صغير الأذنين. كان في سابق العصور أول من وضع ديناً

للمجوس ودعا إليه. قال الأزهري: وليس هو زرادشت الفارسي كما قاله بعض، لأنه كان بعد إبراهيم عليه السلام، والمجوسية دين قديم، وإنما زرادشت جدده وأظهره وزاد فيه».

فمهمة زرادشت تجديد المجوسية ونفي ما يراه غير صالح، وزاد فيه من آرائه ونظرياته ما نقض به كثيراً أركان عقيدة المجوسية، وإليه يعزى نشرها وفضل التغير والتمحيص وإضافة ما جعل المجوسية تلتقي بالأديان السماوية في بعض ما تذهب إليه من العقائد والمعاملات والأحكام.

وأول أصول الزرادشتية إثبات الوحدانية والألوهية لأهورامزدا، فهو في شريعة زرادشت ودينه إلّه واحد لا شريك له، خلق العالم بكل ما فيه ومن فيه، وهو وحده خالق الخير والشر، وموصوف بأعظم صفات الكمال والتنزيه.

ولا شك أن دعوة زرادشت تعتبر ثورة على الوثنية، وإنه لعجيب منه أن يفهم الوحدانية ويدعو إليها ويبشر بها بحيث تتفق في بعض الوجوه مع الأديان السماوية، عجيب منه ذلك وهو الذي كانت نشأته في ظل المجوسية وتدينه بها، والمجوسية دين الثنائية التي تقول إن للخير إلّهاً وللشر إلّهاً. وتقول إن الخير والشر قديمان وأزليان.

فزرادشت يقول: إن الخير والشر مخلوقان وليسا قديمين،

بل القديم الأزلي في مذهبه هو الله الذي يصوره حسب مفهومه وإدراكه.

ويقول الشهرستاني في «الملل والنحل»: «وكان دينه (أي زرادشت) عبادة الله وحده، والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الخبائث».

ويقول: «وهو واحد لا شريك له ، ولا ضد، ولا ند».

والخير والشر ـ عند زرادشت ـ مشتبكان ممتزجان، ولا استقلال لأحدهما عن الآخر، فالحرب بينهما أزلية وقائمة، يتصارعان في العالم، وفي القطر الواحد، والمدينة الواحدة، والقرية الواحدة، والمنزل الواحد، والنفس الواحدة، وعلى من يدين بالزرادشتية أن يحارب الشر ابتداء من داخل نفسه حتى ينتهي إلى حربه في العالم.

وسينتهي هذا الصراع بهزيمة الشر الذي هو الظلمة وبانتصار الخير الذي هو النور، وقد هبط «أهرمان» إله الشر والظلمة من عرش ألوهيته إلى مرتبة المخلوق العاصي الذي ينازع الخالق سلطانه، ويفسد الخلق ويغويهم حتى ينتهي الأمر به إلى الهزيمة والانكسار، ويجب على المؤمن أن يطيع الله ويعصي الشيطان، وأن يؤمن بالدين الصحيح ويكفر بعبادة الأوثان.

ورمز الشر و**الظلمة** «أهرمان» ليس نداً لأهورامزدا، بل هو شيطان مريد طريد من رحمة الله، وبعثة زرادشت لا تضع حداً

للحرب الناشبة بينهما وإن كان إيذاناً بأن المعركة الفاصلة في جانب أهورامزدا، هذه المعركة التي ستنتهي بعد اثني عشر ألف سنة تقضى في حرب ضروس، وسيبعث على رأس كل ألف سنة مبشر من بيت زرادشت يجدد الدين وينصر كتائب أهورامزدا، وهكذا حتى تنتهي الاثنا عشر ألف سنة، ويقترن بانتهائها هزيمة أهرمان النكراء التي تمحقه وتمحق أتباعه حيث يقذف إلى أعمق أعماق الجحيم يستوفي عقابه الذي لا نهاية له جزاء وفاقاً على شره وأفعاله النكر.

ولا بد من هذا الصراع، لأن المؤمنين يؤدون فريضة الجهاد بمقاومة الشر ورمزه وأتباعه، لأن الأرواح العلوية تشترك في أداء هذه الفريضة بعد تجسيدها، فالله خيرها بين العزلة تبقى في علويتها والاشتراك في الجهاد، فآثرت الجهاد الذي يستوجب أن تتجسد الروح العلوية لأنه لا يمكنها من الاشتراك في الصراع إلا بوساطة التجسيد، وبذلك تم لها أن تظفر بالمزيتين: مزية «العلوية» ، ومزية القيام بفريضة الجهاد المقدس الذي لا مفر فيه من النصر للمؤمنين.

ويقول زرادشت: إن الإنسان مخير، فالله الواحد الفرد الصمد الذي يسميه أهورامزدا أو أورمزدا أو يزدان[1] أو هرمز

---

(١) يقول أبو العلاء المعري في لزومياته:

قال أناس باطل زعمهم ... فراقبوا الله ولا تزعمن
فكر يزدان على غرة ... فصيغ من تفكيره أهرمن

خلق الإنسان وبين له طريق الخير وطريق الشر، وعرفه بهما، وأمره باتباع طريق الخير لأنه يفضي إلى الجنة ونهاه عن طريق الشر وأمره باجتنابه ومقاومة الشر، وزوده بالعقل يميز به بين الخير والشر، وجعل قلمه بيده يكتب به في صحائفه ما يريد، فهو حر مخير، يملك إرادته، فليتدبر أمره، فهو الذي يشقي نفسه أو يسعدها.

والإنسان معد للجهاد في معركة الخير والشر، النور والظلم، الطيب والخبيث، فإذا كان سعيداً بصيراً على نفسه أيد الخير وحارب الشر، وليس بكامل الإيمان من يعمل الخير ويترك الشر، لأن كمال الإيمان موقوف على فعل الخير وترك الشر ومحاربته، وترك الشر دون محاربته «سلبية» لا تتفق مع الدين، بل لا بد من مقاومة الشر، وتبعة من يسكت عن الشر ولا يقاومه والاكتفاء بأنه هو نفسه خيِّر ويعمل الخير هي نفسها تبعة فاعل الشر، لأنه ترك الجهاد وابتعد عن المعركة الأزلية القائمة بين الأصلين، فالزرادشتية إيمان بالخير واتباع له وكفر بالشر ومحاربته.

والإيمان بالخير يقوم على ثلاثة أركان: طيب الفكر، وطيب القول، وطيب العمل، ولا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا كان طيب الفكر والقول والعمل.

وإن لأهورامزدا ملائكة هم أعوان لتثبت المثل العليا وحمايتها، ومنهم: «وَهو منه» الملاك الموكل بحماية الفكر الطيب، و«اشتاد» ملاك الصدق، و«آشا» ملاك الاستقامة، وغيرهم، وكلهم يجلسون تحت عرش أهورامزدا، وهم يقظون.

ولكل معنى من المعاني الإنسانية ملاك، وهو مسؤول عن الحماية التي قامت لمصلحة البشر، فملاك الفكر الطيب «وَهو منه» ـ مثلاً ـ يحمي الحيوان النافع لأن حياته نفع لبني البشر وعون له على الحياة والعمل، وملاك الشجاعة يحمي الوطن، وملاك الصحة يحمي الصحة ويحمي الماء من التلويث حتى لا يضار شاربه، وملاك يحمي الزرع ولا يرضى من أحد أن يفسد زرعه أو زرع غيره لأن نفعه عام.

وإذا كان للخير أعوان من الملائكة فإن للشر جنوداً يقفون في وجه الخير ويحاربونه، ويجب أن يتحد أعوان الخير لقهر الشر وأعوانه.

والديانة الزرادشتية تؤمن بخلود الروح فهي لا تفنى، فالروح الخيرة تنتقل من دنياها إلى الآخرة لتستوفي نصيبها من النعيم جزاء وفاقاً على صلاحها، والروح الشريرة تنال العقاب على ما اقترفت من إثم وفعلت من شر.

فإذا مات الإنسان بقيت روحه ثلاثة أيام، فإن كانت خيرة تمتعت خلال هذه الأيام الثلاثة بالنعيم، وإذا كانت شقية عذبت بالشقاء خلالها، ثم تحمل الرياح الروح إلى الصراط حيث تنتظرها عليه محكمة قوامها ثلاثة قضاة عدول يحاسبونها، ثم تؤمر الروح بأن تمضي إلى حيث يُقضى بها فترة أعمالها، فمن ثقلت موازينه تجد روحه الصراط متسعاً فتمر عليه آمنة مطمئنة، ومن خفت

موازينه وجدت روحه الصراط دقيقاً كالشعرة فلا تستطيع المرور فتسقط منه إلى الجحيم التي تكون تحت الصراط.

أما من تساوت كفتا ميزانه فيبقى في الأعراف لا إلى الجنة ولا إلى النار، وتبقى الأرواح كل فيما يسوقها إليه عملها حتى يوم القيامة إذا قامت القيامة على من يبقى على الأرض من الأحياء تطهر الأرض بوساطة سيل المعادن المذابة، ويتبع هذا التطهير أو تقترن به المعركة الفاصلة بين عنصر النور وعنصر الظلمة وأصل الخير وأصل الشر، وتنتهي المعركة بانتصار الخير واحتراق عنصر الظلمة والشر، ليمضي من فعلوا الخير إلى الجنة ومن فعلوا الشر إلى النار لينعم أولئك بما فعلوا في حياتهم الدنيا من خير، ويشقى الأشرار بما عصوا وظلموا، وما ظلموا إلا أنفسهم فهم خالدون في نار جهنم خلود المؤمنين الأبرار في جنات النعيم.

فالزرادشتية تتفق مع الأديان السماوية في بعض أصولها وإن كانت تختلف في كثير من الطقوس ذات الصلة بالعقيدة نفسها، وتلتقي معها في آدابها ونظم معاملاتها في نقاط كثيرة، فهي تحرم الربا والزنا واللواط والسرقة والرشوة، وتنهى عن المنكر، وتأمر بالخير والعمل الصالح والوفاء وبناء الفرد والأسرة على أساس الأخلاق الكريمة، ونشر العلم بين جميع الطبقات حتى في دنيا المجرمين، وعمل كل شيء يرفع شأن المجتمع من عناية بالطب والزراعة والتجارة والاقتصاد والعمران وكل وسائل الحضارة والتمدين.

ومما يذكر لزرادشت أنه حرم عبادة الأصنام والأوثان، وجعل رأس الخطايا وأبشع الآثام: الكفر، وعقوبة الكافر القتل في الدنيا دون إمهال، وسوء الدار في الآخرة، وليست النار في شريعته إلهاً معبوداً، بل مخلوق مقدس لأنه أنقى العناصر المخلوقة وأطهرها وأصفاها، ولهذا كانوا يجعلونها موقدة في المعابد لا تنطفىء أبداً ثم عبدوها عندما ابتعدوا عن شريعة زرادشت.

وإذا رجعنا إلى كتاب «الأوستا» نجد نصوصاً تثبت الوحدانية التي لا شك فيها، وبجانبها نصوصاً تفيد أن في الوجود إلهين: إله الخير (أهورامزدا) وإله الشر (أهرمان) ومن هنا كان التناقض في وصف الزرادشتية، ولكن التوفيق بين الأقوال المتناقضة ليس عسيراً، فالوحدانية أصل الاعتقاد في الزرادشتية، أما الثنائية أو الاثنينية فتبدو في وجود قوى الشر تلقاء أهورمزدا، وقوى الشر التي يمثلها أهرمان ليس إلهاً، لأن زرادشت أقصى أهرمان من ملكوت الألوهية إذ عده شيطاناً.

والشهرستاني في «الملل والنحل» كما ذكرنا في هذا الفصل يعدّ زرادشت موحداً، كما يعده الكثير، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عدَّ الزرادشتيين أهل كتاب وعاملهم على هذا الأساس.

إلا أن آخرين عدوه اثنينياً، أي من القائلين بوجود إلهين، إله للخير والنور، وإله للشر والظلمة، ولعلهم في هذا القول خلطوا بين المجوسية في آخر أدوارها التي أدركها زرادشت، أو لعل

ما في الأوستا يقصد منه وجود قوة خيرة وقوة شريرة في صراع دائم حتى ينتهي بفوز الخير.

ومن الممكن أن نقول: إن الوحدانية تتمثل في الديانة الزرادشتية من الناحية اللاهوتية، والاثنينية تتمثل من الناحية الفلسفية كما قال الأستاذ «هوج» Houg وشرح قوله هذا أن زرادشت كان من ناحية عقيدته الدينية يقول: إن الله واحد، ومن ناحية فلسفته في «الكون والفساد» : إن في العالم قوتين تتصارعان، ومن هنا قيل: إنه اثنيني أو ثنوي.

ومن فلسفة الزرادشتية ما في أصولها من بحوث فلسفية ليست كبحوث اليونانيين في الفلسفة، ولكنها تتصل بها، وميزتها أن بحوثهم فيما وراء المادة ليست مجردة بل تقوم على أساس الدين فتوفق بينه وبين الفلسفة كالفلسفة الإسلامية، وليس للزرادشتية فلسفة مجردة بل هي تصدر من الدين وتصحبه ولا تنفصل عنه.

من ذلك بحوثهم في التوحيد والإله والخير والشر والجنة والنار والحساب والعقاب والقيامة والغيبيات التي أشرنا إليها، كما بحثوا في «النفس» ورأوا أنها مخلوقة من العدم، وهي خالدة ولا تفنى بانفصالها عن الجسد الذي يبلى، والنفس مخيرة، وليس الشقاء أو السعادة ضربة لازمة لأن الإنسان هو الذي يشقي نفسه أو يسعدها وسعادتها في يده إذا فعل الخير وحارب الشر، وشقاؤها تكتبه هي نفسها لأن مزدا منحه حرية الإرادة والعمل.

ولهذه النفس قوى خيرة مثل قوى الضمير والروح والحياة

والعقل والتقوى والصلاح وقوى شريرة نقيض الخيرة وفي صراع معها.

وقد عنيت الزرادشتية بمسألة الخليقة، وذكرت أن هرمز أو أهورامزدا هو الخالق الواحد، وخلق الدنيا في ستة أيام، وبدأها بخلق السماء ثم الماء ثم الأرض ثم النبات ثم الحيوان، وأخيراً الإنسان، ولها في كل ذلك آراء.

ولكن الزرادشتية لم تبق على حالها ككل دين، بل دخل فيها كثير مما نفاه عنها زرادشت نفسه في دينه وشريعته من تعدد الآلهة وتحريم شراب عصير «الهوما» المسكر المقدس، وكل مسكر، ومن عبادة الأصنام والنار والشمس.

والشمس في شريعة زرادشت معظمة، فقد جاء في الأوستا وجوب تعظيمها، والنار مقدسة، إلا أن الكهنة أفسدوا الزرادشتية بما أضافوا إليها من الوثنيات، وأقاموا الهياكل والمعابد التي منعها زرادشت، وبعد قرون من وفاته عبدت الآلهة المختلفة رسمياً.

فالإله المسمى «مترا» إله الشمس و«أناهيتا» إله الأرض والخصب والنماء اللذان كانا يعبدان في المجوسية قبل زرادشت عادا إلى ملكوت اللاهوتية فعبدا مع أهورامزدا، بل أخذ مترا مكانة عليا، وانتشرت تماثيله وتماثيل أناهيتا في كل بلدان الأمبراطورية الفارسية.

وخفي لباب ديانة زرادشت فيما أضافه إليها الكهنة من

قشور تواري خلفها اللباب، وجاءوا بنقيضها، الوحدانية صارت شركاً، ودعوا إلى الزهد والتقشف والانصراف عن الدنيا، واستعانوا بالسحر والشعوذة والطلاسم وأدخلوها في صميم العقيدة، وتعددت الآلهة.

ولكن الزرادشتية كانت دين فارس الرسمي، لأن ملوكها تدينوا بها، ولم تضعف إلا عندما حارب الاسكندر أهل فارس سنة ٣٣١ق. م وأحرق الكتاب المقدس إلا القسم الخاص بالعلوم، وقتل رجال الدين والأكابر، وشتت الشمل وفرق الجموع، إلا أن الزرادشتية استعادت سلطانها إبان حكم الأسرة الساسانية في حدود الربع الأول من القرن الثالث الميلادي، ثم لما دخلها الإسلام فقدت الزرادشتية تأثيرها، وتخلت عنها فارس إلى الإسلام.

وللزرادشتية في عصرنا هذا أتباع قليلون في فارس، وبين البارسيين في الهند، ولكنها الزرادشتية التي تغيرت عن أصولها وشرائعها.

وفي تاريخ المسيحيين: أن المجوس علموا بقرب ولادة عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ولما تأكدت ولادته لديهم - كما يروي إنجيل متىّ في الإصحاح الثاني - بوساطة نجم أشرق عليهم فاستدلوا به على المولد، وقدموا إلى « أورشليم » أيام حكم « هيرودوس ».

وكان قدومهم من المشرق، واضطرب هيرودس واتصل

بالمجوس القادمين سراً وتظاهر لهم بأنه يريد أن يعمل ما يعملون من السجود والتقديس للمولود الجديد، وعلم منهم أنه ولد في بيت لحم، وطلب إليهم أن يعودوا إليه إذا عرفوه ليكرمه مثلهم، فمضى المجوس ودلّهم النجم عليه، فلما رأوه مع مريم العذراء عرفوه، وخروا له سجداً، ثم فتحوا له كنوزه وأعطوه ذهباً ولباناً ومرا.

وأدركوا ما يبيته هيرودس للمولود المقدس فلم يعودوا إليه، وسلكوا طريقاً آخر ونجوا بأنفسهم منه[1].

وانتشرت المجوسية وعرفت في كثير من البلدان، حتى العرب عرفوها، وكانت تميم تعتنقها، وذكر ابن الأثير أن لقيطاً بن زرارة تزوج ابنته على سنّة المجوسية، بل اختار لها اسماً فارسياً « دختنوس » وقال فيها وهو يحتضر:

يا ليت شعري عنك دختنوس
إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون أو تميس
لا بل تميس إنها عروس

وإذا صح أن الزندقة هي المانوية ـ كما يقول الدكتور أحمد أمين ـ فتكون المجوسية معروفة في مكة حرسها الله.

* * *

(١) إنجيل متى، ونحن نشك في هذه الرواية، فهيرودس توفي قبل ميلاد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بنحو أربع سنوات.

ومن ديانات الفرس ـ وكلها تنتسب إلى المجوسية ـ ديانة مترا المولود من صخرة، وحدث بينه وبين الشمس نزاع انتهى بغلبته عليها فتعاهدا على المحبة والائتلاف، وديانته تقتصر على الذكور دون الإناث، وصار إله الشمس والقمر، وخالق الأرض والإنسان، وزعموا أنه مسبوق بالزمان الذي هو أصل كل موجود، وأبو كل مخلوق.

ونشأة مترا تشبه الآدميين في بعض الوجوه، فهو مولود، ولكن ولادته كانت من صخرة، واتخذ ورق التوت ستاراً لعورته، وثمره طعامه حتى انتهت فترة الرضاع، ثم بقي في عزلة بعيداً مجهولاً حتى فطن له رعاة قدسوه وقدموا له القرابين، وهي أول عبادة تقدم له.

ومن أوائل أعمال مترا أنه أمسك بقرني الثور الذي كان أول ما خلقه «أهورامزدا» وحمله على كتفيه ومضى به إلى الكهف الذي ينزله، ولكن الثور هرب، فجرى خلفه حتى أمسك به وقتله، ونشأ من دمه الحنطة والحيوان.

ودون عُبّاد مترا قتله الثور في معابدهم بأن جعلوا ذلك زينة لها وحلية، ووضعوا فيها تماثيل مترا محاطة بأنواع من الحيوان رمزية، وعلى جانبي التماثيل شابان يحملان مشاعل.

ثم رأى تطهير الأرض فأرسل عليها طوفاناً أباد ما على ظهرها غير رجل واحد وأسرته، حيث أنجاهم من الغرق لينشئوا إنسانية جديدة، وبعد أن تم له التطهير اجتمع بملائكة الرحمة

والخير، واحتفلوا، وتناول معهم آخر طعام له على وجه الأرض، ثم ودعهم وصعد إلى السماء.

وخبر الطوفان موجود في الزرادشتية، إذ يذكر «تاريخ سورية»[1] ما نصه:

«ومن تقليدات الإيرانيين القديمة المودعة في كتبهم المقدسة الحاوية تعليم زورواستر (يسميه العرب زرادشت) إن هرمزدا إله الخير أنذر «إيما» أول البشر أن طوفانا سيخرب الأرض ويبيد ما عليها. وأن يشيد ملجأ منه جنة مربعة يحيطها بأسوار ويدخل إليها أصول البشر والحيوانات والنبات وقاية لها من الهلكة، فنزل الطوفان فلم ينج منه إلا جنة إيما وكل ما كان في داخلها، وأرسل هرمزدا طائراً يبشره بالنجاة».

ولكن مترا لم يترك خلقه بعد صعوده إلى السماء، بل يحمي من عليائها عباده الأبرار الطيبين من عدوهم الشيطان، ويعنى بشؤونهم.

ومثلوا مترا شاباً وسيمًا بوجهه هالة من نور تغشى محياه، وقد آمن به كثير، وشاعت عبادة مترا في أوربا، واعتنق ملوك الديانة

---

(١) كتاب «تاريخ سورية» سبعة أجزاء، تأليف المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت الماروني، طبع المطبعة العمومية الكاثوليكية سنة ١٨٩٣ ببيروت، والنص منقول من الجزء الأول صفحة ٨٩.

المترية لأنهم رأوها متفقة مع هواهم، فيرفع الملوك إلى السماء، لأن عروشهم الأرضية رمز على عرش السماء.

ونشأة المترية وشيوع عبادة مترا مردهما إلى القرن الثاني للميلاد، ولكنها لم تعش طويلاً في فارس، إلا أنها كانت ذات أثر قوي خارج فارس التي ظهر فيها، فقد انتشرت في أوربا ودخلت انجلترا.

ورأى دقلديانوس امبراطور الدولة الرومانية أن مترا يرفع من شأن الملكية فاتخذه إلهاً وأمر بعبادته وفرضه على امبراطوريته، وكان ذلك في الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي، ولكنه لم ينجح في قهر المسيحية.

وفي أواخر القرن الثالث للميلاد وقفت الديانة المترية والديانة المسيحية وجهاً لوجه، ولكن المسيحية انتصرت، لأن ديانة مترا تختص الذكور دون الإناث وتخرجهن من رحابها، ولو أنها أدخلتهن في حظيرتها لما استطاعت المسيحية أن تطردها أخيراً، ولكن بعد أن تعرضت المسيحية لاضطهاد رهيب على يد يوليان المتحمس للمترية والمخلص لمترا، وقد حقّر المسيح ودينه، وهزأ بقسطنطين لأنه اعتنق المسيحية.

ويقول و. ر. إنج أسقف كتدرائية القديس بولس بلندن في الفصل الذي كتبه في كتاب « تاريخ العالم » ٤ : ٧٣ :

« وقد حيرّ المسيحيين وأقلق بالهم ذلك التشابه بين دينهم

وبين المترائية، وذلك أن مترا لم يكن له فحسب حبره الأكبر وكهنته الذين نذروا أنفسهم للرهبانية، وعذراواته اللائي انقطعن للعبادة، بل إن شريعته كانت تقول أيضاً برجعته إلى الحياة، وأن هذه الرجعة يسبقها وقوع أرزاء ومحن شداد، ويقوم الموتى من قبورهم للقائه، ويذبح الثور المقدس مرة أخرى، ويشرب الصالحون من دمه فيهبهم الخلود، ثم يقضي على الشر آخر الأمر بنار تنزل من السماء، وينتهي الأمر بالكنيسة إلى مجاملة مترا مجاملة عظمى باحتضان عيده الأكبر الذي يقع في ٢٥ ديسمبر، وهو يوم ميلاد « الشمس التي لا تقهر » وتتخذ منه **عيداً** لمولد يسوع المسيح، وهكذا يدين المسيحيون بعيد مولد المسيح أو تاريخه على الأقل لدين الفرس ».

ومن طقوس عبادة مترا: تقديم القربان كفارة، والإيمان بالبعث، وتناول الخبز والنبيذ والماء باعتبار ذلك من الشعائر الدينية، والاحتفال بيوم ٢٥ ديسمبر واتخاذه عيداً لأنه يوم ميلاد مترا، ويعتقدون أن النفس هبطت من مكان علوي، وهي خالدة، وهبطت إلى الدنيا لتمر بفترات التجربة والامتحان حتى تتطهر، وبعد التكفير والتطهر تعود إلى الملأ الأعلى.

* * *

والمانوية من ديانات الفرس ذات الأثر الكبير، وهي تنسب إلى ماني بن فاتك، كما يقال في النسبة « المنانية » وبكلتيهما عرفت

في الكتب العربية والشعر العربي، واستعمل المتنبي الأولى فقال:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

وولد ماني سنة ٢١٥ أو ٢١٦ م كما يقول البيروني في كتابه « الآثار الباقية » وتوفي سنة ٢٧٦م وكان مولده في العراق.

ويزعمون أن أباه من همدان وانتقل إلى بابل، ونزل في المدائن بموضع يقال له « طيسفون » وكان به بيت للأصنام يتردد عليه فاتك (والد ماني) كغيره، وذات يوم سمع منه صوت البشير يهتف به: يافاتك، لاتأكل اللحم، ولا تشرب الخمر، ولا تقرب النساء، وتكرر الهتاف ثلاثة أيام دراكاً.

وتروي الأساطير المانوية: أن أمه بشرت به وهي تحمله، فقد كان ملك يأتي إليها ويأخذ ماني من بطنها ثم يرده الى موضعه، وقد يغيبه يوماً أو يومين، ويأخذه الملك إلى السماء.

وتزعم أنه تكلم بالحكمة وهو صغير، فلما بلغ الثانية عشرة من عمره جاءه ملك اسمه « التوم » بوحي من الله المسمى عندهم ملك جنان النور وبلغه الوحي، وأول ما أوحي إليه هذا القول:

« اعتزل هذه الملة فلست من أهلها، وعليك بالنزاهة وترك الشهوات، ولم يأن لك أن تظهر لحداثة سنك ».

وانقطع عنه الوحي حتى بلغ الرابعة والعشرين فجاءه

« التوم » وقال له: لقد آن لك أن تخرج وتدعو الناس، ورسالته تبدأ بما نقل إليه توم في قوله:

« عليك السلام ماني، مني ومن الرب الذي أرسلني إليك، واختارك لرسالته، وقد أمرك أن تدعو بحقك، وتبشر ببشرى الحجة من قبله، وتحتمل في ذلك كل جهد ».

وهكذا تمت له النبوة ثم الرسالة، فخرج بدينه يدعو إليه، وزعم أنه « الفارقليط » الذي بشر به المسيح ووعد بظهوره، وأنه هو، فهو « المسيح الثاني » وجاء بدين الخلاص من الشر بواسطة **التطهر عن طريق المعرفة، والفارقليط ورد في إنجيل يوحنا آخر الإصحاح الخامس عشر وفي السادس عشر)** ورد الفارقليط باسم « المعزي » وهي كلمة يونانية معناها « محمد أو أحمد » وترجمت في إنجيل برنابا بـ « محمد » فكان ذلك موضع استغراب عند كثير ظنوا أن برنابا نقل عن المسيح أنه نطق بكلمة « محمد » العربية، والظاهر أنه نطق بترجمتها[1]. وعلم به الملك سابور بن أردشير فعزم على قتله، ولكنّ ماني اتصل بشقيق سابور وأدخله عليه فرأى نوراً فهابه واحتفى به وأجابه إلى مطالبه وأهمها أنه يؤيده ويؤيد أصحابه ».

وانتشر مذهب ماني، وقام برحلات تبشيرية في الهند

(١) تفسير المنار: ٨٥/٦

والصين وفي بلدان فارس واتبعه كثير من الناس، وبقيت المانوية أكثر من ألف سنة ثم قضي عليها.

ومذهب ماني مزيج من الزرادشتية والنصرانية أو هي زرادشتية صبغتها النصرانية، وتشير المصادر العربية إلى أن المانوية دين بين المجوسية والنصرانية، والزرادشتية معروفة عند العرب بأنها المجوسية، ويعترف ماني بالنصرانية، ومذهبه مزيج منهما ومن العلوم والديانة الكلدانية والأشورية.

ومذهبه ثنوي، وعنده أن العالم ناشيء من عنصرين هما: النور والظلمة، وإلى النور مرد نشوء الخير، وإلى الظلمة مرجع وجود الشر، وطبيعة النور ألا يقدر على الشر، وطبيعة الظلمة العجز عن الخير، وأفعال الإنسان الخيرة من عمل إله الخير، والشريرة من إله الشر.

وللمانوية في امتزاج الخير والشر أساطير غاية في الخرافة، ولماني أقوال في هذا الامتزاج بعد تفصيل القول في صفات إله الخير، فقد زعم أن مبدأ العالم كونان، هما: النور والظلمة، فالنور هو العظيم الأول، وليس الأول بالعدد، وهو الآله ملك جنان النور، وله ـ على تعبير ابن النديم في الفهرست ـ خمسة أعضاء: الحلم، والعمل، والعقل، والغيب، والفطنة، وخمسة أُخر روحانية هي: الحب، والإيمان، والوفاء، والمروءة، والحكمة، وهو أزلي بصفاته هذه، ومعه كائنان أزليان هما: الجو والأرض.

ويقول ماني في ذلك الامتزاج[1]: « لما شابك إبليس القديم بالإنسان القديم بالمحاربة اختلط من أجزاء النور الخمسة بأجزاء الظلمة الخمسة، فخالط الدخان النسيم، فمنها هذا النسيم الممزوج، فما فيه من اللذة والترويح عن الأنفس وحياة الحيوان فمن النسيم، وما فيه من الهلاك والأذاء فمن الدخان، وخالط الحريق بالنار، فمنها هذه النار، فما فيها من الإحراق والهلاك والفساد فمن الحريق، ومافيها من الإضاءة والإنارة فمن النار، وخالط النور والظلمة، فمنها هذه الأجسام الكثيفة مثل الذهب والفضة وأشباه ذلك، فما فيها من الصفاء والحسن والنظافة والمنفعة فمن النور، وما فيها من الدرك والكدر والغلظ فمن الظلمة إلخ.. ».

وماني يمشي في طريق زرادشت، غير أنه يفترق معه في الأصل، فزرادشت يرى أن الأصل هو الخير، وأن هذا العالم عالم خيّر لما نجد فيه من الانتصار للخير ومقاومة الشر، وماني يرى أن هذا الامتزاج نفسه شر يجب الخلاص منه، ويختلف زرادشت عن ماني في الحياة والمعيشة فيرى أن على الإنسان أن يكون طبيعياً في معيشته، لا يعتزل الأحياء ولا يعزف عن الحياة ونعيمها الدنيوي، بل يجب عليه أن يكدح ويسعى ويتزوج وينسل ويربي الأولاد ويعمر المجتمع، ويزرع ويصنع، ويربي الماشية، ويعطي بدنه حقه من الاستمتاع والرعاية وضمان الصحة له وعلاج ما يصيبه

---

(١) الفهرست لابن النّديم.

من سقم ومرض، فيأكل الطيبات ويشرب الماء الصافي النظيف، لأنه في هذه الحياة التي أوضح معالمها ودروبها ونظمها إنما هي محاربة لآله الشر أو لقواه المدمرة، ونصر لأهورا مزدا، ولا يتم النصر ولا تتحقق هزيمة أهرمان إلا بالعمل الصالح وعمران المجتمع بالروح وإبادة ومحاربة هذا الشيطان الأثيم.

أما ماني فنقيض زرادشت في ذلك كله، فهو يرى أن الزهد والانصراف عن الملذات خير، ونزع منزع البرهميين والبوذيين في الرهبنة، وأخطر رأي رآه ماني هو تحريم الزواج أو الاتصال الجنسي عامة، لأنه رأى في عزلة الذكر عن الأنثى وابتعاد كل منهما عن الآخر ابتعاداً جنسياً عملاً إيجابياً في فصل الامتزاج بين النور والظلمة، فإذا وقف النسل أسرع الفناء الذي يفصل بين النور والظلمة ويقضي على امتزاجهما.

وهذا القضاء يتم على هذا النحو الذي ذكره ماني في قوله الذي نوجزه وهو: أن ملك عالم النور أمر بعض ملائكته بخلق هذا العالم وبنائه من الأجزاء الممتزجة، لتخلص أجزاء النور من أجزاء الظلمة، فبنى عشر سماوات وثماني أرضين، ووكل ملكاً برفع السماوات وآخر برفع الأرضين، ووصل بينهما، وجعل حول العالم خندقاً يطرح فيه الظلام التي يستصفى من النور، وبعد ذلك يترك حامل الأرضين ما يحمله ويتخلى حامل السماوات عن حمله فيختلط الأعلى مع الأسفل، وتفور نار ثم تضطرم في تلك الأشياء ألفاً وأربعمائة وثمانياً وستين سنة، ثم تقذف الظلمة إلى قبر أعد

لها، ثم يسد بصخرة على قدر الدنيا فيردمها ويتخلص النور من الظلمة وأذاها.

ودعا ماني إلى الزهد والرهبنة وفرض الصيام دائمًا، فيصوم المانوي سبعة أيام من الشهر ما دام على قيد الحياة، وشرع أربع صلوات، يقوم المانوي بها بعد التطهر الذي يتم باتخاذ الماء للمسح، ويستقبل الشمس قائمًا ثم يسجد اثنتي عشرة سجدة، ويقرأ في كل سجدة دعاء خاصاً، وفرض الزكاة بقدر العشر من كل مال.

وحرم السرقة والزنا والكذب والسحر وعبادة الأوثان، ودعا إلى ترك البخل وما يكره من الأفعال والأقوال التي يكره أن توجه إليه.

ويعتقد ماني في صحة الشرائع وصدق الأنبياء، وأن أول من بعثه الله بالعلم والحكمة آدم أبو البشر، ثم بعث شيتاً ثم نوحاً ثم إبراهيم، ثم بوذا، ثم زرادشت ثم المسيح، ثم يأتي خاتم النبيين إلى أرض العرب.

واعتنق هرمز ملك الفرس المانوية فعزَّت وعزَّ ماني، وأيده، ودخل فيها كثير تبعاً لهرمز، وبعد موته تولى ابنه بهرام ولم تعجبه المانوية، وأحضر ماني إلى مجلسه وطلب إلى قاضي قضاته (موبذ موبذان) أن يناظره.

ومما جرى بحضرة بهرام قول موبذ موبذان لماني: أنت الذي

تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم؟ فقال ماني: واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل، فقال الموبذ: فمن الحق الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه وتعان على إبطال هذا الامتزاج المذموم.

فبهت ماني، وأمر بهرام به فقتل، وذكر البيروني في « الآثار الباقية » أن بهرام قال: إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده.

وتتبع بهرام المانويين وقتلهم وشرد بهم، ولكن المانوية لم تمت، بل أخذت تنتشر، وحمل أصحابه من بعده رسالته وأخذوا يؤدونها، وتخطوا العصور حتى أدركوا الإسلام، فمنهم من أسلم، ومنهم من بقي على دينه، وكانوا يظهرون دين غيرهم ويبطنون دينهم إذا خافوا.

وذكر المؤرخون العرب أسماء أناس كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم مانوية مثل الجعد بن إبراهيم وصالح بن عبد القدوس وبشار بن برد وسلم الخاسر، فقد ذكر ابن النديم في باب « أسماء وذكر رؤساء المنانية في دولة بني العباس وقبل ذلك » وذكر الجعد بن درهم إلخ.

ويذهب الدكتور أحمد أمين إلى أن المقصود بالزندقة المانوية، ويستدل بما يجعل لرأيه قيمة علمية جديرة بالاعتبار، وهو مسبوق إليه.

فهو يذكر أن الزندقة ليست صفة عامة تطلق على كل كافرٍ وملحدٍ لأن بعض الباحثين استعملها علمًا على مخصوص كاليهود والنصارى والدهريين والمجوس، واستدل بما جاء في كتاب « الإنتصار » للخياط المعتزلي يقول: « قال ابن الراوندي: وزعم ثمامة أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهريين يصيرون في القيامة تراباً إلخ. وكررت كلمة « الزنادقة » في مثل هذا التعبير في كتابه خمس مرات.

وفي « المعارف » لابن قتيبة: « كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة، وحاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة ».

ويقول الدكتور أحمد أمين: « وظاهر من تعبيره (أي ابن قتيبة) أن الزندقة التي يعنيها دين خاص من أديان الفرس، بدليل قوله إنهم أخذوها من الحيرة، والحيرة كانت تحت حكم الفرس ».

ويضيف أحمد أمين قول الجوهري في «الصحاح»[1]: «الزنديق من الثنوية وهو معرب، والجمع الزنادقة. وقد تزندق، والاسم الزندقة» ثم يعلق عليه بقوله: فظاهر من هذا أن الزندقة مذهب خاص كاليهودية والنصرانية، وأن استعماله في معنى

(١) الصحاح ج ١ ص ١٤٣ الطبعة التي حققها مؤلف هذا الكتاب.

الإلحاد على العموم إنما هو معنى حدث بعد، جاء في لسان العرب: «الزنديق: القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب «زندكر» أي يقول ببقاء الدهر، وقال أحمد بن يحيى: ليس في كلام العرب زنديق، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا: ملحد ودهري».

ويقول أحمد أمين[٢]: «ولكن هل هو يطلق على كل الثنْوية أو على مذهب خاص من الثنوية كالمانوية فقط؟ الظاهر من كلام ابن قتيبة أنه يطلق على مذهب خاص بدليل أنه قابلها في كلامه بالمجوس، فذكر أن تميمًا تمجست، وقريشاً تزندقت، ولو كان يريد من الزندقة الثنوية على العموم لما كان هناك معنى للمقابلة، ويؤيده ما في الصحاح: «الزنديق من الثنوية» ولم يقل: «الزنادقة: الثنوية» ولكن هل يطلق على المانوية فقط؟؟.

«حكى الألوسي عن ابن الكمال أنه يطلق على المزدكية، وأن مزدك ألف كتاباً باسمه «زند» وأن المزدكية غير المانوية وهذا خطأ، فإن مزدك لم يضع «زند» وإنما هو شرح كتاب أفستا لزردشت.

«ويقول بعضهم: إن زنديق في الأصل معناها بالفارسية الذي يتبع زند، ثم أطلق على المانوية لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل.

---

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين، وكل ما نسب إليه من فجر الإسلام.

« ويقول الأستاذ « بيفان »: إنا نرى من كلام الفهرست والبيروني أن المانوية يطلقون كلمة « السَّمّاعين » على من لم يرقوا إلى الدرجة العليا من المانوية، ولم يلتزموا أن يؤدوا كل الواجبات التي تفرضها الديانة من رهبانية وزهد... إلخ. ويقابلهم « الصّدّيقيون » وهم الراقون الملتزمون بأداء تلك الواجبات، يفضلون الفقر على الغنى، ويزهدون في العالم وشؤونه، وكلمة صديق عربية، ولها أصل آرامي وهو صديقي Saddiqui وقد أخذها الفرس فحوروها إلى زنديق فوضعوا ند nd موضع dd كما قالوا شَنْباذ Shanbath في سبّاذ Sabbath وعلى قوله تكون الكلمة وضعت لطائفة خاصة من المانوية ثم استعملت في المانوية جميعاً، ثم استعملت في الإلحاد على العموم ».

ونضيف إلى ما ذكره أحمد أمين ما جاء في« مروج الذهب » للمسعودي[1]: « وفي أيام ماني ظهر اسم الزندقة الذي إليه أضيف الزنادقة، وذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بن أسبيمان ـ على حسب ما قدمنا من نسبه فيما سلف من هذا الكتاب بكتابهم المعروف بالبستاه باللغة الأولى من الفارسية، وعمل له التفسير، وهو الزند، وعمل لهذا التفسير شرحاً سماه البازند على حسب ما قدمنا، وكان الزند بياناً لتأويل المتقدم المنزل، ومن أورد في شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذي هو البستاه وعدل إلى التأويل الذي هو الزند قالوا: هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل

(١) ج ا ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ طبعة مصطفى محمد ١٣٦٧ (١٩٤٨م).

وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل بخلاف التنزيل، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا: زنديق، وعربوه، والثنوية هم الزنادقة، ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم».

وفي قول المسعودي ما لا يتفق مع واقع التاريخ، فليس الثنوية هم الزنادقة لأن منهم غير زنادقة.

وقد سبق كثير من مؤرخي العرب وباحثيهم ومؤلفي المعجمات العربية الدكتور أحمد أمين في الزندقة والزنادقة، وجعلوا الزندقة مذهباً خاصاً غير الدهرية والنفاق والتعطيل والمذاهب الأخرى، ففي المعجمات وكتب اللغة اختلاف بين مؤلفيها في أصله.[1]

ومن آراء العلماء في أصل الكلمة ما جاء في «دستور العلماء[2]»:

«الزندقة: ألا يؤمن بالآخرة ووحدانية الله. والزنديق... عن ثعلب أن الزنديق معناه الملحد والدهري إلخ».

وفي رسالة إبن كمال باشا[3] دراسة لكلمة زنديق وأصلها،

(١) راجع الصحاح والجمهرة ٢: ٥٠٤ والمعرَّب ١٦٦ ـ ١٦٧ والمصباح المنير ١: ٣٤٩ والمخصص ١٤: ٤٣ واللسان ١٢: ١٢ والقاموس ٣: ٢٤٢.
(٢) ج ٢ ص ١٥٧ وهو من تأليف عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكَري.
(٣) إسمها «رسالة في تحقيق لفظ الزنديق» عني بنشرها وتحقيقها صديقنا الدكتور حسين علي محفوظ بجامعة بغداد.

ولكن لم يخرج عما ذكر بصدده، وما رآه أحمد أمين أكاد أوافقه عليه.

والمزدكية من ديانات الفرس، وتنسب إلى مزدك من أهل نيسابور، وكان في زمن قباذ ملك فارس؛ وقيل: إن قباذ ولد سنة ٤٤٨م وهلك سنة ٥٣١م.

والمزدكية مذهب ثنوي ككل المذاهب الناشئة في فارس، فهي تتفق مع المجوسية والزرادشتية والمانوية والديصانية وغيرها في أصول العقيدة، وتختلف عنها في بعض النظريات وأمور الفلسفة والاجتماع.

فالمزدكية تذهب إلى أن النور يفعل بالقصد والاختيار، ومراد المزدكية أن إله النور حر مخير فيما يؤدي من الفعل، أما إله الظلمة فهو مجبر يخبط خبط عشواء ويفعل كما يتفق له دون بصر أو اختيار، لأن النور يحس ويعلم، والظلمة جاهلة عمياء، وما حدث بينهما من مزاج إنما كان على غير قصد، بل كان خبطاً واتفاقاً، ويقع خلاص النور من الظلمة قصداً واختياراً.

ويقوم الكون على ثلاثة عناصر: الماء والنار والأرض، ومن اختلاط هذه العناصر بعضها ببعض انبثق مدبر الخير من صفوها، وظهر مدبر الشر من كدرها.

وزعم مزدك أن الله يجلس على كرسي في الملكوت الأعلى، وبين يديه أربع قوى هن: التمييز، والفهم، والحفظ، والسرور،

وشبه معبوده وكرسيه وما معه من القوى بخسرو وقعوده ومعه أركانه الأربعة وهم: موبذ الموبذان (قاضي القضاة) والهربذ الأكبر (رئيس سدنة بيت النار) والأصبهبذ (قائد الجيوش) والرامشكر (الرئيس الديني).

ومذهب ماني الاجتماعي بالغ الخطر، فقد نهى عن البغض والخلاف والعداوة والقتال، وزعم أن ذلك ينجم من الأثرة والطمع اللذين يبدوان في كنز الأموال وتعديد النساء، وبسببها يحدث في العالم ما يقلقه ويؤذي بني البشر، وإن في ذلك لظلمًا لا يرضى به الله الذي جعل الناس سواسية، وجعل بعضهم أكفاء بعض فيما أنعم عليهم من المال والنساء والثمرات.

وهذه الأرْزاق والنعم التي أكرم الله بها البشر ليتولوا اقتسامها فيما بينهم بالعدل والقسطاس لم توزع كما أراد الله، بل استأثر بها الأقوياء الأثرياء والحكام والأعلياء، فصار للواحد منهم من الأموال ما لا يحصى، ومن النساء أزواجاً وسراري وجواري يقتنونهن، وتلقاء ذلك نجد الآلاف من بني البشر محرومين من الضرورات، ولا يتفق هذا مع العدل المنشود.

والعدل أن يكون الناس جميعاً بعضهم لبعض في المال والمرأة شركاء، حتى يقهروا نوازع النفس وأطماعها، ويسموا على أسباب الخصومة والقتال والعداوة ودوافعها.

ويجب على الناس أن يقضوا على الظلم بشيوعية المال والمرأة

حتى يعيشوا في مودة وراحة ووئام وسلام، بدل الفرقة والتنافر والتباغض والخصام.

ولقي مزدك أتباعاً انضموا إليه، وسفلة أيدوه وكانوا له جنداً وأنصاراً، فما أكثر السفلة والمحرومين الحاقدين! وما أكثر من تمتلىء نفوسهم بالكراهية والبغضاء لذوي الامتياز!

واستطاع مزدك أن يخدع قباذ ملك فارس ويضمه إلى مذهبه الشيوعي، ويصبح للمزدكية قوة وظهيراً، وزاد أتباعها من السفلة والمنحطين والحاقدين، فكانوا يقتحمون على الإنسان الميسور داره ويقاسمونه ماله وما فيها من نسوة سواء كنّ أزواجاً وبنات وأخوات، بل غلبوا الموسرين على أموالهم ونسائهم، فأصاب المجتمع والناس ـ وبخاصة النبلاء والأشراف ـ بلاء عظّيم عجزوا عن دفعه، لأن مع المزدكيين قوى الشر والسلطان.

وادعى مزدك أن في ذلك من البر ما يرضي الله ويجزي عليه الجزاء الأوفى، فإذا لم يكن ذلك ديناً وحسب لكان من مكارم الأخلاق ومحامد الشيم، حيث يتاح للأغلبية أن يستمتعوا بالحياة ويستوفوا نصيبهم منها.

بل بلغ من سلطان مزدك أنه كان بقصر قباذ ورأى زوجه أم ابنه أنوشروان فرغب فيها وسأل قباذ أن يمنحه إياها ليستمتع بها فأطلق له يده فيها ليعمل ما يريد، فنهض إليها على مرأى من الزوج المزدكي ومن ابنها الذي هاله الأمر، فأخذ يتوسل إلى مزدك

أن يهب له أمه ، ولكنه أبى، فانكب أنوشروان على قدمي مزدك يقبلهما حتى كفّ عن أمه وتركها.

وعقد أنوشروان في نفسه عقدة لا تحل إلا بروح مزدك؛ وصبر على مضض وألم يحطمانه ويفتكان به، ولا قدرة له على أبيه والمزدكيين.

وزاد بلاء الناس، ودخل عليهم من العار والمصائب ما لا قبل للنفس باحتمال أيسرها فكيف بأشدها بشاعة وعذاباً وألماً؟! وجهل الناس أولادهم، وانتهكت الحرائم ومزقت الأعراض شر تمزيق.

وهلك قباذ وتولى ابنه أنو شروان الحكم وأذن للناس وفتح بابه أمامهم وأباح لهم أن يدخلوا عليه، فخطبهم ووعدهم بزوال البلاء وضمان الأمن والعصمة، ودخل عليه مزدك، فقال أنوشروان: كنت أتمنى على الله أمنية انتظرت تحقيقها، والآن تتحقق، فسأله مزدك عنها، فأجابه: أن أملك فأطهر البلاد منك ومن أتباعك. فقال له: أوأنت مستطيع قتل الناس جميعاً، فثار فيه أنو شروان وقال: والله، ما ذهب نتن ريح جوربك من أنفي منذ قبلت رجلك إلى يومنا هذا.

وأمر أنوشروان بقتل مزدك، فقتل وصلب، وأمر بقتل المزدكيين أين كانوا ومهما بلغ عددهم، وبلغ - على رواية الكامل في التاريخ لابن الأثير - مائة ألف في ضحوة واحدة بين جازر والنهروان والمدائن، وأمر أنوشروان بقتل جماعته ممن دخل على

الناس في أموالهم، وردت الأموال إلى أصحابها، وكذلك النساء، وأمر بكل مولود اختلفوا فيه أن يلحق بمن هو منهم إذا لم يعرف أبوه، وأن يعطى أموال من ينسب إليه، وإعطاء كل امرأة مغلوبة على نفسها مهرها من غالبها وتخييرها في البقاء معه أو اللحاق بأهلها، إلا أن تكون زوجاً لرجل آخر من قبل فترد إليه، وأمر بأولاد ذوي الأحساب الميت قائمهم أن يكرموا، فزوج بناتهم من الأكفاء، ونساءهم من الأشراف، واستعان بأبنائهم في عمله، وأعطاهم من مال الدولة ما يقوم بشؤونهم[1].

* * *

ونشأت في فارس ديانات أخرى ولكنها ثنوية كالديانات التي ذكرناها، ومنها: الديصانية التي تذهب إلى أن الأصل: النور والظلام، وتزعم أن النور يفعل الخير قصداً واختياراً، والظلمة تفعل الشر طبعاً واضطراراً.

ومنها: المرقيونية، وقالوا كغيرهم من الثنويين بالأصلين، وزادوا عليهما أصلاً ثالثاً هو «الجامع» بينهما الذي وقع بسببه الامتزاج بين الأصلين.

والديصانية والمرقيونية سبقتا المانوية.

(١) من الكامل لابن الأثير.

وديانات فارس أثرت في العالم الغربي وفي المسلمين أيضا، فقد تأثرت فرق إسلامية بما فيها ونشأت فرق إسلامية على أنقاضها، وبدأت ديانات الفرس تلقى رواجاً في أواخر أيام الدولة الأموية والدولة العباسية وتجد أتباعا وبخاصة بين الموالي، وثار الجدل بين هؤلاء والمسلمين.

ومع أن الإسلام قضى على ديانات فارس وحل محلها بعقيدته الصحيحة وشريعته السمحة النظيفة إلا أن من مسلمي الفرس من لم يستطع أن يتخلى عن ديانته ويتجرد عن آثارها، فصبغها بلون الإسلام، فنجد تقديس الأسلاف في نظريات الشيعة، والثنوية في الرافضة والمانوية في مقولات الجعد بن درهم وعقيدته، وظهرت ديانة زرادشت وماني ومزدك بين المسلمين في صور مختلفة.

ونجد أثر الفرس في العقلية العربية وفي آداب العرب وفنونهم وعلومهم وحضارتهم واضحاً كما نجد أثر عقائدهم في كثير من الفرق الإسلامية، وفي الحديث: «القدرية مجوس هذه الأمة» لمضاهاتها مذهبهم في القول بالأصلين.

وقد عامل الإسلام المجوس والزرادشتية منهم على أساس أنهم أهل كتاب، فقد جاء في الحديث الشريف في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» والمعنى أن يعاملوا معاملة أهل الكتاب وقبول الجزية منهم، لا الاعتراف بأنهم أهل كتاب مقدس، يعاملون على أساسه كما يعامل اليهود النصارى.

وعرف الإسلام أن اليهود والنصارى غيروا كتبهم وحرفوا وبدلوا، وثبت أن ما بين أيدينا ليس المنزل من الله على رسله، بل الأناجيل كلام بشر، وكذلك التوراة ليس إلا نصوصا محرفة؛ وفيه من كلام البشر كثير، وما نسب إلى الله مدخول فيه.

فكتب اليهود والنصارى الموجودة قريبة من كتاب الفرس المقدس على زعمهم، وأولئك بعد أن بعدوا عن الكتابين المقدسين الصحيحين وعن ديانة السماء والحق أخذوا من الزرادشتية، فما في «الأوفستا» من الوحدانية يرجح على ما في الأناجيل التي زعمت أن الله ثالث ثلاثة.

فاعتبار الإسلام المجوس كأهل الكتاب منظور فيه إلى ما ذهبنا إليه لا الاعتراف بأن الأوفستا كتاب مقدس نزل من السماء، وإن كانت للمسلمين أقوال في اعتبارهم أهل كتاب.

في «الأم» لأمير المؤمنين الإمام الشافعي ج ٤ : ١٧٣ و١٧٤ :«كان أهل الكتاب المشهور عند العامة أهل التوراة من اليهود والإنجيل من النصارى، وكانوا من بني إسرائيل وأحطنا بأن الله عز وجل أنزل كتبا غير التوراة والإنجيل والفرقان. قال الله عز وجل: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسَىٰ * وإبراهيم الذي وفى﴾ فأخبر أن لإبراهيم صحفاً، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ويقول الإمام الشافعي: «كانت المجوس يدينون غير دين

أهل الأوثان ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى في بعض دينهم، وكان أهل الكتاب اليهود والنصارى يختلفون في بعض دينهم، وكان المجوس بطرف من الأرض لا يعرف السلف من أهل الحجاز من دينهم ما يعرفون من دين النصارى واليهود حتى عرفوه، وكانوا ـ والله تعالى أعلم ـ أهل كتاب يجمعهم اسم أنهم أهل كتاب مع اليهود والنصارى».

ويقول: «أخبرنا ابن عيينة عن أبي سعد سعيد بن المرزبان عن نصر بن عاصم قال: فروة بن نوفل الأشجعي: على م تؤخذ الجزية من المجوس وليسوا بأهل كتاب؟ فقام إليه المستورد فأخذ بلببه وقال: يا عدو الله، تطعن على أبي بكر وعلى أمير المؤمنين ـ يعني علياً ـ وقد أخذوا منهم الجزية. فذهب به إلى القصر فخرج عليٌّ عليهما فقال: ألبدا، فجلسا في ظل القصر، فقال علي رضي الله تعالى عنه: أنا أعلم الناس بالمجوس، كان لهم علم يعلمونه؛ وكتاب يدرسونه، وإنما ملكهم سكر فوقع على ابنته وأخته، فاطلع عليه بعض أهل مملكته، فلما صحا خاف أن يقيموا عليه الحد؛ فامتنع منهم، فدعا أهل مملكته، فلما أتوه قال: تعلمون دينا خيرا من دين آدم؟ وقد كان آدم ينكح بنيه بناته، وأنا على دين آدم. ما يرغب بكم عن دينه؟ فتابعوه وقاتلوا الذين خالفوه حتى قتلوهم، فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم، وذهب العلم الذي في صدورهم، فهم أهل كتاب، وقد أخذ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر منهم الجزية».

وقال الإمام الشافعي: «وما روي عن علي من هذا دليل على ما وصفت: أن المجوس أهل كتاب، ودليل أن علياً كرم الله وجهه ما خبر أن رسول الله ﷺ يأخذ الجزية منهم إلا وهم أهل كتاب».

وقال: «فلو كان يجوز أخذ الجزية من غير أهل الكتاب لقال علي: تؤخذ منهم كانوا أهل كتاب أم لم يكونوا أهله، ولم أعلم ممن سلف من المسلمين أحدا أجاز أن تؤخذ الجزية من غير أهل الكتاب».

وقال: «أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو أنه سمع بجالة يقول: ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس أهل هجر».

وقال الشافعي: «وحديث بجالة متصل ثابت لأنه أدرك عمر، وكان رجلاً في زمانه كاتباً لعماله، وحديث نصر بن عاصم عن علي متصل، وبه نأخذ، وقد روي من حديث الحجاز حديثان منقطعان بأخذ الجزية من المجوس. أخبرنا مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر له المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: أشهد، لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

قال الشافعي: «إن كان ثابتاً فنفتي في أخذ الجزية لأنهم أهل كتاب، لا أنه يقال إذا قال سنوا بهم سنة أهل الكتاب ـ والله تعالى

أعلم ـ في أن تنكح نساؤهم وتؤكل ذبائحهم قال: ولو أراد جميع المشتركين غير أهل الكتاب لقال ـ والله تعالى أعلم ـ : سنوا بجميع المشركين سنة أهل الكتاب، ولكن لما قال: «سنوا بهم» فقد خصهم، وإذا خصهم فغيرهم مخالف، ولا يخالفهم إلا غير أهل الكتاب، أخبرنا مالك عن ابن شهاب إذ بلغه أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس البحرين، وأن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أخذها من البربر».

وقال الشافعي: «ولا يجوز أن يسأل عمر عن المجوس ويقول: ما أدري كيف أصنع بهم وهو يجوز عنده أن تؤخذ من جميع المشركين لا يسأل عما يعلم أنه جائز له، ولكنه سأل عن المجوس إذ لم يعرف من كتابهم ما عرف من كتاب اليهود والنصارى حتى أخبر عن النبي ﷺ بأخذه الجزية وأمره بأخذ الجزية منهم فيتبعه، وفي كل ما حكيت ما يدل على أنه لا يسعه أخذ الجزية من غير أهل الكتاب».

وفي كتاب «الأموال» لأبي عبيد ص ٣١ ـ ٣٤: أن رسول الله ﷺ كتب إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام أو دفع الجزية، وعن الزهري قال: «قبل رسول الله ﷺ الجزية من مجوس البحرين».

وقال أبو عبيد: «فهذا خالد بن الوليد ـ عامل أبي بكر رضي الله عنه ـ يدعو أهل فارس إلى أداء الجزية وهم مجوس ـ بعد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وقد قبلها منهم عمر بعد ذلك، وقبلها عثمان من البربر.

وعن أبي موسى الأشعري قال: «لولا أني رأيت أصحابي يأخذون منهم الجزية ما أخذتها» يعني المجوس، وقال أبو عبيد: «ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب وعلى المجوس بالسنة».

وحكى ابن عبد البر ـ كما جاء في «نيل الأوطار ٨: ٥٧» الاتفاق على قبولها من المجوس، وحكوا الاتفاق على تحريم نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم. ولكن حكى آخرون عن أبي ثور صاحب الإمام الشافعي حل ذلك، وحكى ابن عبد البر عن سعيد بن المسيب أنه لم يكن يرى بذبيحة المجوسية بأسا إذا أمره مسلم بذبحها، وروى ابن أبي شيبة عنه وعن عطاء وطاووس وعمرو بن دينار أنهم لم يكونوا يرون بأسا في التسرّي بالمجوسية.

وما ثم، اختلاف في قبول الجزية من المجوس بحجة أنهم أهل كتاب، وروي أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الجزية من المجوس في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث، ومن مجوس هجر رواية الإمام أحمد والإمام البخاري والإمام أبو داود والإمام الترمذي وغيرهم.

وأفتى الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار ٦: ١٨٧ بجواز أكل ذبائحهم وزواج نسائهم، وذكر أنهم أهل كتاب وليسوا مشركين.

وهؤلاء الذين يقال: إنهم مجوس، هم مجوس وزرادشتية، فهؤلاء من أولئك وكلهم سواء، وإن كان الزرادشتيون أقرب.

* * *

ويظهر لنا من دراستنا للديانات التي أشرنا إليها أن ديانات فارس تعتبر قمة التطور الديني بالنسبة لتلك الديانات التي كانت تجاورها فهي ـ مع ما فيها من الشرك والخرافات ـ ديانات متكاملة فيها حقيقة الدين، ففيها الإيمان بالغيب والقضاء والقدر والقيامة والبعث والثواب والعقاب والجنة والنار، وقبلة الإيمان بالخالق حسب مفهومها، وتكاد تجمع مزايا الديانات التي سبقته أو عاصرته وتزيد عليها بما أكملت به الفراغ الكبير المتعددة جوانبه والبعيدة آفاقه، والاهتمام بالمجتمع والمعاملات والنظم التي هي من الدين، إذ لا فصل بينه وبين الزمن أو الدولة لأن الدين عقيدة وعبادة ومعاملات.

والمعروف عن الديانات الفارسية أنها من الثنوية، ولكن بعض الباحثين رأوا أنها من ديانات التثليث، فقد جاء في كتاب «الأنجلو سكسون» ص ١٦٢ لمؤلفه «هيجين» أن الفرس يدعون «متروسا» الكلمة والوسيط ومخلص الفرس، وفي كتاب «خرافات التوراة» لدوان: أن الفرس كانوا يعبدون إلَهًا مثلث الأقانيم مثل الهنود ويسمونها أوزمرد ومتراث وأهرمن، فأوزمرد الخلاق،

ومترات ابن الله المخلص والوسيط، وأهرمن الملك.

واحسب أن الفرس هم مبتكروا علم اللاهوت والإلهيات وفلسفة العقائد، وهم أول من وضعوا للوحدانية أصولاً أصح من الأصول في الديانات الأخرى، بل تكاد تكون ديانات فارس ـ وبخاصة الزرادشتية ـ هي التي ذهبت إلى «الوحدانية» المبنية على أساس متين، وليست الوحدانية التي اعتقدتها ودعت إليها هي واحدانية «التوحيد» التي عرفتها رسالات السماء بل هي وحدانية الشرك التي تتجلى في اتخاذ إله أكبر من الآلهة الأخرى، إله واحد هو الملاذ الأخير، وإليه مرد القوى.

وقد أثرت الديانات الفارسية في ديانات الأرض، حتى الديانات السماوية دخلت إليها طقوس وآراء فارسية، دخلت في اليهودية والمسيحية، ثم دخلت في الإسلام كما نرى في الفرق والمذاهب الإسلامية إلا الفرقة الإسلامية الناجية، وهي فرقة أهل السنة والجماعة التي لم تتأثر بغيرها من الديانات ولم تأخذ منها لأنها مدركة أن دينها الحنيف كامل لا نقص فيه، كامل في العقيدة والعبادات والمعاملات، وصالح لكل زمان ومكان، فما به حاجة إلى أن يتضيف أي دين.

وإن القوة الديناميكية التي يمتاز بها الإسلام وما فيه من الإيمان الحق والقدرة على ملء كل فراغ في النفس والذات والمجتمع والإلهام والشعور جعلت الإسلام يمحو ديانات فارس في

مواطنها ويحل محلها عن إدراك وفهم من أصحابها الذين تخلوا عنها طواعية واختياراً، وآمنوا أن الإسلام هو الدين الحق الذي يصلح دون غيره أن يكون بديلاً صالحاً عن دياناتهم.

وكان الإسلام كما اعتقدوا.

ديانة الصابئة

اختلفت الأقوال في أصل الصابئة، ولكن الرأي الراجح أن اسمها الأول مأخوذ من «سبح» لا من «سبأ» التي ينتمي إليها بعض قبائل اليمن، ولا من «صبأ» بمعنى ارتد من دين إلى آخر[1]، سبب الترجيح أن «سبأ» لا دخل لها في نشأة الصابئة، وكذلك «صبأ» لأنها لم تصبأ، وبقي «السبح» الذي يصلح أن تكون الصابئة مأخوذة منه، لأن ديانتها تشترط القرب من الماء وتجعله المطهر الأول، فلا زواج ولا صلاة ولا صيام ولا حياة إلا به.

فهو أصلح ما يكون لإعادة كلمة الصابئة إليه، لأن اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم الأخرى التي تصدر ـ أكثرها ـ من تلك الفريضة.

ولا يعرف تاريخ نشأة الصابئة، وإن كانت عبادتهم الكواكب والنجوم تشير إلى أنها ديانة قديمة، فعبادة هذه المظاهر

(١) العبقريات الإسلامية للعقاد ص ٥١.

قديمة، ولما تطورت لم يخلص عبادهم منها بل طوروها تطويراً يتفق مع الحضارة والتقدم، ويقال: إن الصابئة لم يعبدوا الكواكب وإن كانوا يتوجهون إليها وبخاصة إلى القطب الشمالي على اعتقاد أن الكواكب مظاهر الروحانيات.

وتلتقي ديانة الصابئة بكثير من الديانات التي بقي فيها عبادة الأجرام السماوية تسير معها حتى استقر بها الأمر في عقيدة ذات نظام واضح كالمجوسية والزرادشتية وغيرهما من الديانات التي نجد فيها آثاراً للكواكب والنجوم، بل نجد في الصابئة ما في الديانات والمذاهب وبعض الفلسفات، وتشبه في كثير من فرائضها وعباداتها الأديان السماوية.

ويذكر المسعودي في «مروج الذهب» ١ : ٢٢٢ ـ ٢٢٣ عن منشىء الصابئة الأول فيقول: «ثم ملك بعد طهمورث بن نوبجهان بن أرفخشذ بن أوشهنج، وكان ينزل سابور وظهر في سنة من ملكه رجل يقال له «بوداسف» أحدث مذاهب الصابئة».

وينسب المسعودي إلى بوداسف أنه قال: «الكواكب هي المدبرات، والواردات والصادرات، وهي التي بمرورها في أفلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار، من امتداد الأعمار وقصرها، وتركيب البسائط، وانبساط المركبات، وتتميم الصور، وظهور المياه وفيضها، وفي النجوم السيارة وفي أفلاكها التدبير الأكبر وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والإيجاز، واحتذى جماعة من

ذوي الضعف والآراء، فيقال: إن هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين، وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرانيين في نحلتهم، وديارهم بين واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام».

ويقول المسعودي: إن بوداسف من أصل هندي وظهر بها، وتنقل في البلدان، وادعى النبوة وزعم أنه رسول الله و «واسطة بينه وبين خلقه، وجاء إلى فارس، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة، وأمر الناس بالزهد والاشتغال بما علا من العوالم إذ كان من هنالك بدء النفوس، وإليها يقع صدر هذا العالم.

وجدد بوداسف عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها لشبه ذكرها، وقرب إلى عقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخداع.

ويقول المسعودي: أقام الصابئة على عبادة الأجرام زمانا حتى نبههم حكيم منهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وهي حية ناطقة، وكل ما يحدث في العالم على قدر ما تجري به الكواكب على أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم، فمكثوا على ذلك دهراً طويلاً، فلما رأوا الكواكب تختفي نهاراً وفي بعض أوقات الليل أمرهم بعض حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوها بعدد الكواكب المشهورة، وصار كل فريق يعظم كوكبا، ثم بنوا لكل كوكب من الكواكب السبعة بيتا وهيكلا خاصا بصنمه وتمثاله، وسموه باسم الكوكب الذي يمثله.

ورمزوا بالنار والماء والهواء إلى تلك الكواكب لأنها صادرة منها، وإلى ذلك تعزى عبادتهم النار، وما يزال الصابئة حتى عصرنا هذا يقدسون النار والماء والشهب والرعد والبرق وكل مظاهر الطبيعة والظواهر الجوية.

ونحتوا للكواكب والنجوم تماثيل وضعوها على مرتفعات، وراقبوا سحبها ومسيرها وطلوعها وأفولها، حتى إذا تقدم بهم الزمن والعلم والحضارة أخذوا يربطون بين الحوادث والأسباب والكواكب والنجوم، ويعللونها بما أتيح لهم من علم وفلسفة، وأخذوا يفلسفون الدين بما يتفق مع تقدمهم العلمي في التنجيم، وأدخلوا النظريات الفلسفية في الدين، وعللوا طقوسه وفرائضه ومعتقداته.

وفي كتاب «البدء والتاريخ» للمطهر بن طاهر المقدسي ٤ : ٢٤ : «ذكر أديان الثنوية وهم أصناف، فمنهم المنانية والديصانية والماهانية والسمنية والمرقونية والكبانئون والصابئون وكثير من البراهمة والمجوس وكل من قال باثنين أو بأكثر بشيء قديم مع الباريء فإن هذا الإسم يتناوله ويلحقه وكذلك القائلون بالجثة والجوهر والفضاء، يزعم بعضهم أن الأصل هو النور والظلمة، ثم يختلفون فيقول قائل، إنهما جميعا حيان مميزان، ويقول آخر: بل النور حي عالم والظلمة جاهلة معميَّة، وهذا رأي الصابئين».

وفي مذهبهم أن الإنسان من العالم السفلي وملوث بالرذائل، والله أجل من يتجه إليه هذا الإنسان، بل لا بد من

«وسائط» هي آلهة وأرباب يتقربون بها إلى الله عز وجل، والوسائط هي الأرواح التي تتخذ الكواكب هياكل، ولا بد للوسائط من وسائط، وهي هياكلها على الأرض، فهي ـ إذن ـ الآلهة والأرباب المعبودة، والله رب هذه الأرباب.

وهذه الهياكل موصوفة بالحياة والنطق، وهيكل الشمس رب الهياكل المدبرة لكل ما في العالم.

وبرعوا في التنجيم فأخذوا يعرِّفون الكواكب السبعة السيارة المعبودة وأحوالها وطبائعها ومنازلها ومسيرها ومطالعها ومغاربها ونسبتها إلى الأماكن والأزمان والليالي والأيام والساعات.

وكل كوكب له عمله؛ فهيكله في الأرض يغاير هيكل غيره، ولكل هيكل طقوس خاصة وفرائض خاصة.

وفي رأي الصابئة أن الله منزه عن خلق الشرور والمكروهات والأشياء الخسيسة كالحشرات، وخلقت هذه الأشياء من ضرورة اتصال نحس الكواكب بسعودها وكدرها بصفوها.

وفكرتهم عن الله أنه الخالق الواحد الأزلي الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، وهو سبب وجود الكائنات لأنه هو خالقها، وأول مخلوقاته مخلوق روحاني مقدس يوصف بأنه الحي القديم، ثم خلق الحي الثاني فالحي الثالث، وخلق مع هؤلاء عوالم كثيرة مقدسة، ثم خلق عوالم الظلام السبعة، منها الأرض، وتستمد نورها من الشمس، وقد هبطت الملائكة إليها من عوالم النور ومعها

بذور الأشجار، وشقت طريقاً للهواء وللماء الذي كان من كل شيء حي، وقامت الملائكة بفتح طريق للنور لكي تستمد منه الشمس أشعتها لتنير سائر الكواكب.

والسماء والأرض وجميع الكائنات الحية مركبة من النار والماء، ولكل كائن وجودان، سري وعلني، وللكون نفسه وجودان؛ سري وعلني، والعلني محدود، أما السري فواسع، ولا يمكن لبشر أن يراه وهو في وجوده العلني، وهو منه بمنزلة اليمين من الشمال، والكون العلني معرض للفناء، ولذاك آدمه وحواؤه، وللعلني آدم وحواؤه. والإنسان كذلك.

ولم ينسبوا إلى آدم نكاح بناته، بل زعموا أن له ولحواء في الكون العلني ابنة وابناً تولى جبريل زواج كل الذكرين بأخت الآخر فكان من ذلك هذا البشر.

وزعموا أن لجبريل إبناً تولى خلق آدم على صورته، ثم خلق من ضلعه الأيسر زوجه حواء، ووضع في جسديهما الروح المقدسة.

وسجد ملائكة النار لآدم ما عدا إبليس الذي يسمونه «هاد بيشه» إذ استكبر وعصى ربه فغوى وقال: أأسجد لمن خلقت طيناً، وأنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أصفى من الطين، فطرده الله من رحمته، وتولى الملائكة تعليم آدم الأسماء وكل ما في الكون العلني من مخلوقات وأعمال وإحساس، والزمن وتقسيمه.

وتذكر أساطير الصابئة أن تاريخ الكون يرجع إلى أكثر من خمسمئة ألف سنة.

وفي شريعة الصابئة صلاة وصيام، ولا بد أن تسبق الطهارة الصلاة، فيتوضأ الصابئي، ووضوءه من النهر، لأن الماء قسمان: حي وغيرحي، فالحي هو الماء المتصل بالنهر، الماء الجاري غير المقطوع من مجراه، فالماء الذي تنقله من النهر أو أي ماء إلى منزلك لا يعد ماء حياً لأنه فصل عن الماء الجاري.

والوضوء له أركانه وهي: النية، وغسل اليدين إلى المرفقين، فالوجه فالعورة ثم الركبتين، فمسح الجبين والأذن والأنف، ثم تغطيس الرجل اليمنى ثم اليسرى في الماء، ويقرأ فيما بين ذلك دعاء خاصاً يسلم فيه على الماء الجاري المنبثق من تحت العرش.

وللجنابة غسل وهو فرض، ولا تجوز صلاة لجنب أو غير متوضىء، ويجب أن يكون في الماء الحي بالانغماس فيه ثم الوضوء به، وللوضوء مفسدات كخروج دم أو ريح، وصلاتهم قيام وركوع وجلوس بلا سجود، تتخللها أدعية وابتهالات، وصلاتهم طويلة، ومفروض عليهم ثلاث صلوات تبدأ بأذان بين المصلين وهو قراءة أدعية خاصة وليس كأذان المسلمين، ويجعلون القطب الشمالي قبلتهم في صلاتهم ويصومون، إلا أن الصابئة الحرانية لا تصوم بحجة أنه في الصوم تحريماً لما أحل الله، ويذكر ابن النديم أن الصابئة تصوم ثلاثين يوماً.

وللماء شأن كبير عندهم فالزواج لا يتم إلا بارتماس الزوجين مع كهنة من درجة عالية واثنين يساعدانه من درجة أقل من درجته، ينغمس الزوجان في الماء الجاري ومعهم هؤلاء الكهنة يغطسون معهم في الماء، وبعد ثلاث غطسات ينهض الزوجان فتحمل المرأة مصباحاً إشارة إلى أنها عروس لا يجوز لمسها، لأن لمسها في هذا الوقت ينجسها، ويتكرر هذا «التعميد» ثلاث مرات، ثم يتولى الكاهن الإملاك بقراءة أدعية خاصة، ويتم الزواج بمهر حسب الاتفاق في دفعه، عاجلاً أو آجلاً أو هما معاً.

والصابئي يؤمن بوجود الله وأنه مصدر الخير والشر وخالقهما، وللانسان إرادة مخيرة، فالله ـ حقاً ـ أوجد كل شيء، ولكن للانسان الحرية والقدرة والارادة والاختيار، فهو يشقي نفسه أو يسعدها بعمله، فإذا عمل صالحاً كان سعيداً، وإلا فعليه ما كسب، وهداه النجدين: نجد الخير، ونجد الشر، وهو حر في سلوك ما يشاء منهما.

والصابئة تؤمن بالغيب وبالحساب والبعث والقيامة، فالروح لا تفنى، وتنتقل من صاحبها إلى عالم آخر، فالروح الصالحة تمضي إلى عالم الأنهار لتنعم فيه، أما غير الصالحة فإلى العذاب، ويجوز أن يكون العذاب بحلولها جسداً لا يصلح لها فيكون حلولها فيه عذاباً حتى تطهر، فالصابئة ـ على هذا ـ تقول بالتناسخ.

وعندما تخرج الروح يستقبلها ملكان هما بمثابة منكر ونكير

عند المسلمين، يقومان بمحاسبته على أعماله في الدنيا، فإن كانت صالحة مضت إلى عالم النور الذي يفصله عن الروح سبعة عوالم، تقطعها الروح الصالحة في خمسة وأربعين يوماً حيث تنتهي إلى الميزان الذي ترى أنجمه في السماء فتوزن أعمال الروح ثم يؤذن لها بدخول عالم الأنوار، أما الروح غير الصالحة فإن قطع العوالم السبعة يطول ويقصر بحسب ذنوبها، ويجوز أن يطول كثيراً، فتقضي الزمن الطويل في عذاب حتى تتطهر ثم يتبع معها ما اتبع مع الروح الصالحة.

ويفهم من كلام الشهرستاني صاحب «الملل والنحل» أن الصابئة قديمة، وسبقت سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فلما بعث كانت موجودة، ويقول الشهرستاني: «كانت الفرق في زمان إبراهيم الخليل عليه السلام راجعة إلى صنفين اثنين، أحدهما: الصابئة، والثاني: الحنفاء».

ويذكر الشهرستاني أن صابئة النبط والفرس والروم فزعت للسيارات السبع، وصابئة الهند فزعت إلى الثوابت، فأولئك عبدة الكواكب، وهؤلاء عبدة الأصنام، وكان الخليل مكلفاً بكسر المذهبين، وكسرهما بحجته الدامغة: (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ) و(فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ).

يقول الشهرستاني: أن الخليل « ابتدأ بإبطال مذاهب عبدة الكواكب على صيغة الموافقة كما قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ

إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أي كما آتيناه الحجة كذلك نريه المحجة فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ، والمخالفة في النهاية؛ ليكون الإلزام أبلغ والإفحام أقوى ».

ولا يعرف تاريخ الصابئة وتاريخ منشأ عقيدتها، فقد مر في هذا الفصل ما زعمه المسعودي وهو أن « بوداسف » هو منشىء المذهب، وذهب إبن خلدون إلى أن الصابئة من ولد صابىء بن لامك أخو نوح، وقيل: إن صابىء متو شالح جده، وأن نمروذ بن كنعان دان بالصابئة وخالفه الكلدانيون منهم في التوحيد وفكروا في عبادة الهياكل، ويقال: إن منهم من تبعوا كاظم بن تارح أخو سيدنا إبراهيم.

ولما عاد إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلى أرض كنعان فنزل بمكان بيت المقدس وكانت تعظمه الصابئة وتزعم أنه هيكل المشتري والزهرة، وكان « زان » ملك بابل يدين بالصابئة، ويقال: إن يونس بن متى بعث إليه فآمن به، وجاء كنعان بن فالغ فأظهر بدعة وهي الصابئة وانتحلها، وهو الذي لقب بالنمروذ، وهو نمروذ إبراهيم وكان من النبط من أهل بابل فمن يدين بدين الصابئة وهو عبادة الكواكب.

ومن الصائبة من فراعنة مصر « فدراس » وكان حكيماً وبنى هيكل الزهرة الذي هدمه بختنصر مع ما هدمه من هياكل

الصابئة، ثم جا بعده ابنه «تاليق» على ملك مصر وكفر بالصابئة، مما حمل الصابئين على مغادرة مصر لأنها تحولت عن الدين القويم في نظرهم، ويذكر بعض المؤرخين أن الصابئين كانوا بمصر على عهد الفراعنة الأول. ثم صبأ المصريون، ثم لما ملك الروم بعد قسطنطين حملوا المصريين على النصرانية[1].

والصابئة المعروفة بالحرنانية من الكلدان، وعقيدتهم أن الصانع موجود، وهو الخالق المعبود، وهو واحد في ذاته وأوليته وأزليته، وهو الأصل، ولكنه متعدد كثير في مظاهره المرئية التي تبدو في المدبرات السبع والأشخاص الأرضية الموصوفة بالخير والحكمة والعلم، فهو يبدو فيها، وهو خالق كل شيء، ورب الأرباب، إلا أن هناك أرواحاً اتخذت لها الكواكب هياكل، وبخاصة المدبرات السبع: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهـرة وعطارد والقمر، وهي أرباب يتخذها البشر وسطاء بينهم وبين الله رب الأرباب، والتوسط بهؤلاء أفضل من التوسط ببشر سواء أكانوا أنبياء أم غير أنبياء، وعظموا الكواكب وقدسوا الهياكل.

وفي الفهرست أن المأمون اجتاز في طريقه لغزو الروم بديار الحرنانيين فاستقبلوه مع الناس، واجتذب نظره زيهم فسألهم: من يكونون من أهل الذمة؟ فأجابوه: إنهم الحرنانيون. فقال لهم:

---

(١) إبن خلدون، ومجمع البيان، والقرطبي. ويقول ابن تيمية: «وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار» (راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المجلد الثاني، صفحة ٩).

أيهود؟ قالوا: لا. قال لهم: أنصارى؟ قالوا: لا. قال لهم: أمجوس؟ قالوا: لا. فقال لهم: ألكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في الرد فقال المأمون: إذن أنتم الزنادقة، عبدة الأوثان، أنتم حلال الدم ولاذمة لكم، فذكروا أنهم يؤدون الجزية، فقال: الجزية على أهل الكتاب، وتوعدهم، وخيرهم بين القتل والدخول في الإسلام أو في غيره من الأديان، وأمهلهم حتى عودته.

فدخل منهم في الإسلام من دخل، وبقي على مذهبه من بقي، وجاء لهم فقيه بالحل، وهو أن يدعوا أنهم صابئة، فالله ذكر الصابئين في القرآن وهم أهل كتاب.

وعلى هذا فهؤلاء ليسوا صابئة حقيقة، لأن ما فعلوه دعوى ادعوها، ويجوز أن يكون فيها من المذهب ما جعل فقيههم يدعيه دون أن يدعي ملة أخرى، وديانتهم مزيج من وثنية الكلدان والأفلاطونية المستحدثة.

وذكر «الصابئون» في القرآن في ثلاث آيات هن:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

البقرة: ٦٢.

و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾. المائدة: ٦٩.

و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الحج: ١٧

وهذه الآيات الشريفة الكريمة تذهب أن الصابئة دين صحيح، لأن الصابئين المؤمنين بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يحزنون، فهم ذوو عقيدة مؤمنة صالحة، كما كانت لغيرهم من اليهود والنصارى قبل أن يبدلوا كتبهم ويحرفوا الكلم عن مواضعه ويدخلوا الوثنية إلى عقيدة التوحيد.

ولا شك أن «الصابئة» في حقيقتها دين صحيح، وعقيدتها عقيدة التوحيد، والصابئون أهل كتاب غير معروف الآن، ودل على وجوده القرآن الكريم نفسه لأنه عدهم مع أهل الكتاب.

ويقول ابن تيميه[1] : « إن الذين أثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين لم يبدلوا ما أنزل الله ولا كفروا بشيء مما أنزل الله » و« فكذلك الصابئة »[2].

ثم أشار ابن تيميه إلى تبديل الصابئة ما أنزل الله، وبذلك انتقلوا إلى الكفر وصاروا مثل غيرهم ممن صنعوا صنيعهم فنافقوا وكفروا وأشركوا.

والآيات القرآنية تدل على أن الصابئة الأولى كانت مؤمنة حق الإيمان، ثم بدلت وغيرت ما أنزل الله، ودخل في عقيدتهم الصحيحة ما جعلها وثنية بعيدة عن التوحيد.

ولا يعرف تحديد زمن وجود الصابئين المؤمنين، لأن التاريخ لم يذكر شيئاً من ذلك، ولم يظهر ما يدل عليه، وكل ما هو معروف أن الصابئة عقيدة توحيد غيرها معتنقوها كما غير أهل الكتاب من اليهود والنصارى. لأن جملة « والذين أشركوا » تدل على أنهم غير هؤلاء.

وأحسب أن الصابئة فرق؛ ولعل الفرقة التي سبقت الخليل إبراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم وعاصرته كانت لها شريعة وديانة وثنية، والفرقة الأخيرة هي الحرانية، وبين الفترتين صابئة وسطى بنسبة الزمن يجوز أنها هي التي ذكرها القرآن، وهي فرقة

---

(١)و(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، المجلد الثاني صفحة ١٩.

يهودية مسيحية تتبع سيدنا يحيي بن زكريا[1] المعروف عند المسيحيين وغيرهم بيوحنا المعمدان، وكانت بين النهرين، ويجوز أن تكون الصابئة المؤمنة غيرها، ويجوز أنها كانت قبل الخليل إبراهيم وقبل أن يدخل إليها ما يسلكها في ديانات الشرك.

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا[2]: «هذا العطف في مقام تعداد أهل الملك يقتضي أن يكون كل من الصابئين والمجوس طائفتين مستقلتين ليستا من الصنف الذي يعبر عنه الكتاب بالمشركين وبالذين أشركوا، وذلك أن كلاً من الصابئين والمجوس عندهم كتب يعتقدون أنها إلٰهية، ولكن بعد العهد وطول الزمان جعل أصلها مجهولاً، ولا يبعد أن يكون من جاءوا بها من المرسلين».

ويقول: «والظاهر أن القرآن ظهر من أهل الملل القديمة الصابئين والمجوس ولم يذكر البراهمة والبوذيين وأتباع كونفوشيوس لأن الصابئين والمجوس كانوا معروفين عند العرب الذين خوطبوا بالقرآن أولاً لمجاورتهم لهم في العراق والبحرين».

وذهب الشيخ رشيد رضا إلى جواز التزوج منهم.

وقال مجاهد والحسن: الصابئون بين اليهود والمجوس لا دين لهم، وقال السدي: هم طائفة من أهل الكتاب يقرأون

---

(١) أصول الفلسفة العربية ليوحنا قمير ص ٢٠.

(٢) تفسير المنار: ١٨٧ ـ ١٨٨.

الزبور، وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: هم قوم دينهم شبيه بدين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب حيال منتصف النهار يزعمون أنهم على دين نوح.

والفقهاء يجيزون أخذ الجزية منهم، والإمامية تمنع.

ولم يؤثر عن العرب أن منهم من تدينوا بالصابئة[1] كما وجد فيهم اليهود والنصارى والمجوس والمانوية والدهرية وغيرهم، ولعل مرد ذلك إلى قيود الصابئة وطقوسها الصعبة وشروطها وكتمانها عن غيرهم، وعزلتهم عن الآخرين.

وما تزال منهم بقية في العراق وإيران، ولكنهم ينقصون حتى أن عددهم لا يزيد عن ستة آلاف، ولا يزوجون أو يتزوجون إلا من بعضهم بعضاً، ويتشددون كثيراً، وهذا يعجل بزوال ملتهم وانقراضهم.

وعجب الباحثون من ذكر القرآن للصابئة[2] في الوقت

---

(١) في كتاب «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» المجلد الثاني صفحة ٢٠ يقول: «وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن: ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ فإن «الوحيد» الذي هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم، كان من المشركين الذين هم صابئون أيضاً» ويستدل من هذا أن من العرب صابئة، ولكن الحقائق التاريخية لا تثبت ذلك، إذ لا يكفي أن يقال عن امرىء: إنه متدين بكذا، لرأي رآه يتفق معه، فما أكثر من يتفقون مع الإسلام في العقيدة وفي كثير من شريعته ومع ذلك ليسوا بمسلمين.

(٢) أبو الأنبياء للعقاد ص ١١١.

الذي كان عددهم ضئيلاً، وكشف التاريخ الحديث ما يجعل للصابئة شأناً عظيماً في تاريخ الأديان والفلسفة اللاهوتية وتاريخ الأديان وعلاقة الصابئة بها مما يدل على عظمة القرآن.

ولمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ شأن عظيم عند الصابئة لأنهم يقدسون الكعبة المشرفة، وأنها بيت «زحل» أعلى الكواكب السيارة، وأن هرمس (إدريس عليه السلام) هو الذي بنى الكعبة، ويقول عارفوهم أنهم قرأوا صفات الرسول ﷺ في كتبهم[1].

---

(١) أبو الأنبياء ص ١١١ وتعليقات خدابخش على كتاب «الحضارة الإسلامية» تأليف فون كريمر وترجمة الدكتور مصطفى طه بدر.

الديانة في مصر

الشعور الديني أساس قيام المجتمعات الإنسانية، فحيثما يكون هذا الشعور نجد مجتمعات يتفاوت بعضها عن بعض رقياً وانحطاطاً بقدر سمو ذلك الشعور، ولهذا لا نشهد في بيئات الحيوان مجتمعات، وقيام المجتمعات يصحبه تقدم فكري وحضارية ووجداني.

وكلما اتسعت المجتمعات وتضخمت سعت إلى وحدة الشعور الديني التي تهدف إلى توحيد الإله أو وحدة الآلهة في إله أكبر يكون مرجع الآلهة جميعاً في المجتمعات التي تعترف بالشرك والتعدد.

ومصر في مبدأ أمرها كانت موطن جماعات، لكل جماعة إله أو آلهة، وعبدت ـ كغيرها ـ آلهة مختلفة اخترعتها بحسب مواهبها من الفهم والإدراك والشعور، فعرفت فيها عبادة الأسلاف والطواطم التي ما زالت معبودة ومقدسة حتى بعد التطور الكبير.

وكان لكل جماعة ملك يجمع سلطة الزمن والضمير، هو

الحاكم وهو الكاهن بل ينقلب معبوداً بعد وفاته لأنه يصبح من الأسلاف.

واجتمعت على ثرى مصر عبادات مختلفة في عبادة واحدة، فالجماعات التي سكنت مصر عنيت بالفلاحة والزراعة، فهي معنية بالأرض لأنها هي التي تمنحهم الغذاء، وهي معنية بالسماء لأنهم ربطوا بينها وبين الأرض في الهبة المشهودة المحسوسة، وأدركوا أن للشمس دخلاً في نبات الزرع فعنوا بالسماء، وقبل الشمس عرفوا القمر لاتصال المد والجزر به، وأثره في الحيض، وفي نبات الزرع.

وديانة القمر سابقة على الديانة الشمسية، لأن ديانة الشمس لا تتأتى إلا بعد رقي العقل والإدراك، حتى يستطاع السبيل إلى معرفة علاقة الشمس بالأرض، وأثرها في إنبات الزروع وسير الرياح والسحب.

والمقصود بديانة الشمس هي الديانة التي تقتضي عقلاً وعلماً، أما عبادة الشمس كمظهر من مظاهر الطبيعة كأي نجم أو كوكب أو كائن فقديمة عرفها الهمجي، لأنه استطاع أن يربط بين الأمن والشمس وبين الشمس وراحة الجسم.

يأتي الظلام بمخاوفه فيهرع الهمجي إلى كهفه يلوذ به، والظلام عنده مخيف، ولا يقدر فيه أن يرى ويميز، ويمنعه من الحركة والتجوال، ويجبره على السكون والانزواء، وتقف حركة

من كان يراهم متحركين من الناس والحيوان والنبات، وفي الظلام يهدأ كل شيء ويسكن، فهو شر وإن لم يستطع لهمجيته اختراع اسم الشر على هذه الحال التي تكربه، ولكنه يحس به إحساساً قوياً.

وإذا طلعت الشمس تبدد الظلام، فهو يدرك أن هذا الجرم الذي يشهده أزاح الظلام المخيف، وأعاد إلى عينه النور فهو يبصر الأشياء واضحة، يبصر عدوه فيتقيه، وصديقه فيدنيه، ورزقه فيلتمسه، فالشمس هي التي تمنحه الأمن، وقد يكون الزمن برداً، فإذا طلعت شعر بالدفء وفي الدفء راحة الجسم، فالشمس عند الهمجي أمن وراحة، فهي ذات أثر عميق في نفسه، يحبها وإذا غابت عنه انتظرها في شوق، وينمو الحب وتنتقل خطى الهمجي في مراقي التطور فيعبد الشمس مع ما يعبد حتى تصل عبادة الشمس إلى المرتقى الذي انتهت إليه الحضارة الإنسانية في مصر.

وإن مصر عبدت الأسلاف والأرواح ومظاهر الطبيعة والطواطم، ويشير تقديس المصريين للكلب والصقر وابن آوى والنسناس والقط والتمساح والجعل والنسر والوعل والعجل والبقرة إلى أنها كانت طواطم معبودة، ثم لما ارتقى المصريون في العقيدة بقيت هذه الدواب مقدسة.

فالعجل آبيس كان إلهاً معبوداً في ممفيس، والبقرة «حاثور» إله حنوم، والقطة معبودة فيما يعرف اليوم بالزقازيق، والرخمة شمال إدفو، وكانت الدواب الأخرى تعبد حتى عندما ارتقت

العقيدة بالنسبة للمفكرين والعظماء لأن الملوك والكهنة استطاعوا أن يطوروا الطماطم ويستحدثوا آلهة جديدة، ومزجوا في الخلقة بين الطواطم والآدمي في آلهتهم المعبودة، فجعلوا رأس الإله «حورس» رأس صقر، ورأس إله الشمس رأس صقر أيضاً، ورأس «أنوبيس» رأس ابن آوى، ورأس الإله «سبك» رأس تمساح، ورأس «خنوم» رأس كبش.

وهذا من بقايا الطوطمية بعد أن بلغ الرقي بالمعبودات مراتب عالية، فاستحالت إلى شعارات خفيت مدلولاتها الأولى فتجلت في آلهة أرقى من الآلهة السابقة في معاني مختلفة وصور جديدة وأشكال مستحدثة تتفق مع تطور العقيدة والدين والآلهة.

وتختلف عبادة الأسلاف والأرواح في مصر عنها عند غيرها من الشعوب كالصين واليابان، فعبادتها في مصر بقيت حتى أزالها دين التوحيد الخالص وهو الإسلام كما زاحمتها المسيحية واليهودية في إبان صفائهما، فالمصري كان شديد الايمان بالأسلاف والموتى، فحنط الجثث وأقام المقابر، ولم يقطع صلته بها، بل أحياها بكل وسيلة تبعث على العبادة والذكر.

واستغرق الدين كل حياة المصري، ووهب له نفسه حتى كأن روحه وجسده صيغا منه وجرى في دمه وخفق به قلبه، وأحاط به من كل جانب، فعبد الأرض والسماء وما فيهما، وعبد ما أحس به أو شاهده أو تخيل فيه روحاً أو معنى.

ولم تخل الديانة المصرية من الثنوية على معنى من معانيها، فالصراع الرهيب بين أوزيريس إلّه النيل المبارك والخصب و«ست» إلّه الجفاف من الثنوية، فأوزيريس يمثل الخير لأنه يحبو الناس بما يمسك بحياتهم ويضمنها لهم، وست يقضي على الحيوان والنبات والانسان بالجفاف فهو يمثل الشر.

والمصري متدين بطبيعته، لا يعيش إلا على الدين، فكثر عنده السحر والخرافات والآلهة، وعبد كل شيء سواء أكان مما يخيفه أم مما يبهجه ويرضيه، ومن هنا كانت طاعته العمياء لكل شيء، وقبوله كل شيء دون أن يسأل أو يفكر إلا فيما يسوغ به عمله، فآمن بالطواطم وعبدها، وعبد الأسلاف وأرواح الموتى، وعبد القمر والنجوم والكواكب والشمس، واعتقد أن حاكمه إلّه وابن إلّه، له الأمر من قبل ومن بعد.

وديانة المصريين مادية، فآلهتهم أناس وحيوان ونبات، وأعمالهم وتقريراتهم وكل تصرفاتهم تصرفات بشرية مع إضفاء الخرافة عليها، فالسماء بقرة تقوم على أعمدة أربعة كقيام البقرة على قوائم أربع، أو امرأة راكعة، يداها على جانب من الأرض ورجلاها على جانبها الآخر، رأسها في الشرق وقدماها في الغرب، ويقف تحت بطنها إلّه الفضاء «شو» يرفعها، والخلائق التي تضطرب على أديم الأرض يظلهم بطن المرأة أو البقرة، والأرض نفسها إلّه يسمى «جب».

وتصوروا الشمس وليد البقرة أو المرأة، تلدها كل صباح ثم

تبتلعها كل مساء وهكذا يتجدد ميلادها وابتلاعها، تصوروا الشمس هذه الصورة مع أنها أعظم المخلوقات التي استحالت لديهم إلى أعظم الآلهة طراً بدون استثناء، وتصوروا السماء كما أمدهم وهمهم وخيالهم بقرة، لأن البقرة تمنح البركة والخير، أو امرأة، والمرأة خصبة تجدد الحياة على الأرض، فصوروها راكعة تحنو على عبادها.

وليلائموا بين خرافاتهم تصوروا السماء بحراً تمخر الشمس عبابه في سفينة يجلس فيها إله الشمس في صورة إنسان ملك تحيط به حاشيته حتى ينتهي من رحلته النهارية ليستقل سفينة الليل، فإذا بدأ النهار استقل زورق النهار وهكذا دون انقطاع.

وتصوروا الشمس مما تصوروا جعلاً يدحرج كرة الشمس كما يدحرج الجعل الحقيقي كرة أمامه حتى ينتهي من الشروق إلى الغروب وهكذا دواليك، وتصوروها قرصاً ذا جناحين مبسوطين، أو طفلاً أو جعلاً طائراً منشوراً جناحاه، وتصوروا شمس المغيب شيخاً هرماً، وتصوروا لإله الشمس قصراً في السماء يأوي إليه ويستقبل الآلهة حيث يأكل معها ويشرب، ويصدر أوامره لينطلق كل إلى عمله في الصباح، شأنها شأن البشر.

وآلهة المصريين من حيوان ونبات وجماد ذات قوى، وتخيلوها آلهة أفاضوا عليها صفات البشر من الحرية والقدرة والارادة، ولكنهم رأوا أن هذه الصفات شركة بينهم وبينها، ولا يصح أن تكون مثل صفاتهم، فارتقوا بمفهومها لديهم، فأضفوا عليها

صفات الحكام والملوك لأنهم أقوى وأقدر وأكثر حرية في العمل والقدرة، واقتضاهم هذا الاعتقاد أن يجعلوا لهم بيوتاً فبنوا لها المعابد، ولا بد لها ما للملوك من حاجات، فقدموا لها الأطعمة والأشربة، والأكسية والأثواب، والأبخرة والعطور.

ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد، بل ساروا مع عقيدتهم المادية إلى آخر الشوط، فما دامت أحياء في طبقة الملوك فلا بد أن تتكون من الآلهة أسرة، ولا بد للإله أن يكون له زوج وولد، فأوجدوا له بنين وبنات وأزواجاً.

أليست الآلهة كالآدميين عندهم؟ والآدمي لا يكون آدمياً إلا بالأسرة والطعام والشراب والكساء والسكن، فكان للآلهة ما للآدمي مع الامتياز الذي يتفرد به المعبود على العباد.

ومنذ عرفت مصر الآلهة تخيلتها ذلك التخيل الآدمي، فقد زعموا أنها حكمت مصر منذ القدم حكمًا كحكم الآدميين، لأن الحكام الآدميين آلهة أيضاً، وتصوروا الآلهة تأكل وتشرب، وتحيط نفسها بحاشية وخدم وحشم، ويجوز عليها الضعف والسقم والشيخوخة، ويؤثر فيها السحر، ويفعل برؤوسها الخمر ما يفعله بالآدمي، وتشتبك في خصام وعراك يؤديان إلى الجرح والقتل والموت، ويفنى منها ما يفنى ويبعث ما يقدر له البعث.

إن الآلهة كالآدميين، ميلادها من الاتصال الجنسي أو من أسباب أخرى، فأسرة عين شمس من الآلهة تتكون تكوناً أشبه

بتكون الآدميين وتسمى «تاسوع عين شمس» فالعالم كان عماء مظلمًا، انبثق من إلّه الشمس «أتوم» بقدرته الخاصة التي لا يعرف كنهها، وبعد أن وجد نفسه وحيداً في هذا الكون خلق ابنه «شو» من بصقة بصقها وجعله إلّه الهواء، وتفل فكانت ابنته أو ابنه الآخر «تفنوت» إلّه الرطوبة والندى، وشو وتفنوت ولدا إلّه الأرض المسمى «جب» وإلّه السماء «نوت» ومن هذين ولد ابنان هما «أوزيريس» و«ست» وابنتان هما: «إزيس» و«نفتس» وصار ست إلّه الجفاف، وتزوج أوزيريس أخته إزيس.

وهؤلاء هم تاسوع عين شمس المكون من تسعة آلهة.

وفي الأساطير المصرية: أن الشمس ولدت من الاتحاد الجنسي بين السماء والأرض، ويتجدد ميلادها كل صباح من بين فخذي أمها إلهة السماء كما يتجدد موتها كل مساء بين أحضانها لتولد صباح كل يوم من جديد.

وهكذا تصوروا الكائنات العظيمة أشياء مألوفة في أساسها، فمن جملة تصورهم أن الشمس زهرة لوتس تتضام ليلاً لتتفتح في الصباح، وتطورت هذه العقيدة إلى أن أصبح إلّه زهرة اللوتس المسمى «نفراتم» ابن الشمس، وكان هذا إلّه الشذا العطري، ثم صار الإلّه الفتى لهذا العالم الوليد من العماء أو المحيط الأزلي أو اللجنة الطخياء المسماة «نون» حيث لم يكن شيء سواها وسوى إلّه الشمس «رع» في القديم.

ولبدء الخلق صور أخريات غير التي مرت، فإذا كان إلّه الشمس منبثقاً من العماء المظلم بقدرته نفسه فإن هناك صيغة أخرى وأخرى للبدء، فقد زعموا أن بيضة طائر مائي كانت بقرب أكمة على المحيط الأزلي «نون» سكنتها الأفاعي والضفادع، وبينا الأمر كذلك خرجت من البيضة أوزة منيرة أشرق بنورها الكون لأنها كانت الشمس، وخرج منها صوت فكان أول صوت يبدد السكون كما أن نورها أول نور يبدد الظلام.

كان العالم لجة طخياء، شديدة السكون شديدة الظلام، وكان خروج الأوزة إيذاناً بعمران الكون أرضاً وسماء، لأن الاوزة أخذت تصعد حتى انتهت إلى السماء.

ومن أساطير بدء الخليقة أن «رع» إلّه الشمس نفسه كان أول كائن، وكان فيه قدرة مزدوجة على الولادة فنشأ منه هذا الخلق، فهو له أم وأب في وقت واحد، وهو وحده علة الكون ومعلوله.

فإذا عبدوا الشمس فمرد ذلك إلى أنها الخالق، ثم تعددت أسباب عبادته، وكلما ارتقى العقل المصري زادت الأسباب الموجبة لعبادته.

بل لم تعبد الشمس أول ما عبدت لأنها الخالق، ففكرة الخلق لا تتأتى إلا بعد تدرج في سلم الحضارة والإنسانية، عبدت في الأول بوصف كونها مظهراً من مظاهر الطبيعة كما عبد القمر وغيره من الكواكب والنجوم، ثم أوثرت الشمس لأنها أكبر، ثم

أخذ التطور يتدرج بعبادة الشمس حتى انتهت إلى أنها الخالق الأكبر أو الإله الأكبر الذي تدين له الآلهة الأخرى بالسيادة والولاء، فإذا جاء «اخناتون» جعل الشمس رب الأرباب، بل لا رب سواه، وما دونه باطل.

إن آلهة المصريين أرضية ومادية في نشأتها، ومع أنهم أوجدوها وعرفوا حقيقتها إلا أنهم تخيلوا فيها قوى خارقة، وكانت نفوسهم كأرضهم خصبة، فعبدوا ما ظنوه مصدر الحياة وكل مظاهرها، عبدوا الشمس التي درجت فيما بينهم ثم ارتفعت إلى السماء، وعبدوا الأرض وما عليها من حيوان ونبات وجماد، وما أكثر الكائنات التي عبدوها، إلا أن الحيوان كان مميزاً في العبادة، وامتلأت المعابد بتماثيله امتلاء لا حد له.

وكل أنحاء مصر تشترك في هذه العبادة، وتختص كل ناحية بحيوان أو عديد منه، وصارت أنواع من الحيوان المقدس حرة في التجوال في الأسواق وغيرها، وبلغ من تقديس الحيوان المعبود الرعاية التي لا يظفر بها آدمي إلا إذا كان من علية الناس، ويدفن إذا مات في احتفال مهيب.

وعرفت في ديانات مصر الدعارة المقدسة، فقد كان النساء ـ أجملهن ـ يضاجعه التيس المقدس ويشعرن بالشرف من هذه الدعارة، كما كن يعرضن أنفسهن أزواجاً للآلهة، وكان لأوزيريس صور وتماثيل يعنى فيها بإبراز أعضائه التناسلية بروزاً مشهوراً إشارة إلى قوته الجنسية الخارقة التي تتفق مع ألوهيته،

وكان النساء يحملن تماثيل لأوزيريس بهذه الصفة، ويحركن عضوه التناسلي بخيط يربطونه به.

وعبدت أعضاء التناسل لأنها رمز الخصب والتوالد كما عبدت الأرض التي تمنحهم ما هم بحاجة إليه للعيش والبقاء.

ولا بد للمرء من إله يكون معه، فصنعوا تماثيل وصوراً للآلهة حتى يستطيع كل امرىء أن يحتفظ بإله أو أكثر يصحبه معه أنى شاء، ولعل مرد تعليق الأحجبة على حلوقهم أنهم كانوا يعلقون تماثيل صغيرة لآلهتهم.

وقبل أن تصبح في مصر حكومة كبيرة كان لكل قبيلة آلهتها، ثم لكل مدينة آلهتها، ولها طقوسها وفرائضها الخاصة، ولهن أعيادهن وأسماؤ هن، وكل مدينة تعتبر إلهها خالق الكون وأعظم من آلهة المدن الأخرى، وحارس المدينة وسكانها، وواهبهم النعم، ومانحهم الحياة، وهو رمزهم المقدس، ويحرصون على أن ينسب إلى مدينتهم.

ومن ذلك أن اسم إلهة مدينة «نخب» أقدم المدن المصرية في الصعيد الأعلى وكانت قاعدة مملكة الوجه القبلي قبل عهد الملك مينا كان «نخبيت» فاسمها اسم المدينة، ومدينة «باستت» أو «بيرباستت» باسم الإلهة «باستت» التي هي القطة، وموقعها الحالي - كما ذكر القاموس الجغرافي لمحمد رمزي ١ : ١٦٠ - بمركز الزقازيق، ومدينة «دمنهور» هي مدينة الإله هور أو حور أو حورس.

حتى الشهور بعضها معروف باسم آلهة كانت تعبد من قبلهم، فهاتور وتوت وأمشير أسماء آلهة لديهم.

ولما تطور الحكم واتسعت رقعته اختفت آلهة تاركة محلها لأخرى، وصار لإله المدينة الحاكمة السيادة على آلهة المدينة أو المدن المغلوبة، أو يتألف من الآلهة المعدودات أسرة كأسرة آلهة منف وطيبة، ففي طيبة ثلاث آلهة هي: أمون وموت وخنسو وهي أسرة من أبوين وابن.

ولما انضمت الأقاليم بعضها إلى بعض وشملتها وحدة الحكم تبع ذلك سيادة إله يكون رمز هذه الوحدة التي يخفى في قمتها المشهورة آلهة كثيرة قد تجد أمكنة في المنتصف والسفح، وتبقى القمة عرشاً لإله كبير.

بل جاء في تاريخ مصر القديم أن «رع» كان وحده حاكم مصر كلها، وكان إلهاً، وقبل وجود البشر كان ملك العالم، إلا أن غضبة من غضباته جعلته يطلق قوى «حتحور» ربة القسوة والنقمة لتعمل عملها في المغضوبين، وشعر رع بالألم والحزن فترك الأرض وامتطى ظهر بقرة صعدت به إلى السماء حيث اختارها سكناً، معتزلاً السلطة زمناً، حتى اندمج فيه الإله أوزيريس الذي يعتبر حفيده لأنه ابن جب ونوت ابني رع، وتم هذا الاندماج ليعود إليه سلطانه الذي اعتزله طواعية واختياراً تنزها بنفسه عن الباطل الذي وقع على الأرض من خلقه.

و«رع» هو أصل آلهة مصر، واستطاع أن يغالب العصور ويحتفظ لنفسه بالسيادة خلالها، حتى أن إخناتون عندما كفر بالآلهة المصرية جميعها ونادى بوحدانية «أتون» وأفرده بالألوهية والربوبية، وأخلص له في التوحيد والعبادة لم يستطع أن يخلع رع لأنه ذو أثر في نفوس المصريين، بل يجري الاعتقاد به في دمائهم.

وشخصيات بعض الآلهة تنقلب بين الذكر والأنثى، فتارة يشار إليها كذلك، وتارة أخرى يشار إليها كأنثى، مثل «تفنوت» جاء ذكره في الوثائق المصرية على أنه ابن رع كما جاء ذكره على أنه أنثى كما يجيء فيما يأتي من القول، وهذا غير ذي خطر لأن المهم شخصية تفنوت.

كانت تفنوت إلهة الفضاء أو الهواء، وهي إبنة رع، ويذكر الدكتور محمد أنور شكري[1] أن لتفنوت أسماء مختلفة، ومرد الاختلاف إلى الأمكنة التي عبدت فيها، ومن هذه الأسماء «حاتحور» و«محيت» و«أبس» و«ربيت» و«نسرت» و«موت» واستدل على أنها لشخصية واحدة وحدة صفاتها وورود تفنوت في شكل حاتحور.

وقطنت تفنوت مكاناً يسمى «بوجم» وورد أنها كانت تنزل «كنسنت» وذكر «هـ. يونكر» أنها الصحراء الشرقية لبلاد النوبة، وكانت تجوب البيد والأودية في صورة لبوءة ضارية غضوب، تشهد في وجهها وادي اللظى، وتقذف عيناها شرراً، ويضطرم الحقد في

(١) مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول العدد ٨ المجلد الثاني، ديسمبر ١٣٤٦.

قلبها، وأنفاسها لهب لا ينقطع، وحياتها بطش وافتراس، وتشرب دماء أعدائها، ولا تطيب لها الحياة إلا بالتوحش وشرب الدماء.

ويظهر أن أباها رع شعر بالضعف واستخفاف أعدائه به فرجا أن تكون ابنته المشهورة بالقوة والشجاعة والجبروت بجانبه لينعم بها ويحتمي بظلها ويسلطها على أعدائه، وزاد حنينه إليها، فاختار إلهين أحدهما «شو» إله الهواء وتحوت إله الحكمة وإله القمر الذي أعاد إلى رع عينه بعد أن فقدها على يد عدو من أعدائه، ويقال: إن شو أحد أبنائه، وتحوت صديقه وكان عين إله الشمس نفسه، وبعثهما إلى تفنوت ليعودا بها إليه.

ومضى الرسولان في حذر، وكان شو في هيئة أسد، وتحوت في صورة قرد، ولكن شو تحول إلى شكل قرد حتى يكون مثل تحوت، لأن تفنوت ألفت منظر القرد في البراري التي تعيش فيها، وسبب اختيار رع إياهما أن شو أخ لتفنوت، وتحوت معروف عنه جمال القول والحكمة والمنطق الخالب، وقابلاهما في «بوجم» وكانا حريصين على إرضائها وإسكات غضبها الثائر الذي لا يهدأ، واستطاع تحوت بسحر حديثه أن يخفف من غلوائها وشرتها، وقدم لها مائدة حافلة بالنبيذ ولحوم الوعول والغزلان، فلما شربت وطعمت أغراها بالعودة إلى أبيها الذي ينتظر مقدمها السعيد في شوق لا مزيد عليه، وإن في مملكة أبيها الحياة التي زخرت بكل ألوان السعادة وضروب النعيم، وهي أولى بهذه النعم التي يتمتع بها سواها.

وقنعت تفنوت، فضمها شو وعانقها، واستعد الرسولان للاحتفاء بعودتها وأن يصحبها في طريقها كل ما يبهج ويمتع، فرق المغنين والمطربين والعازفين، حتى أن شو نفسه اتخذ آلة موسيقية ليطرب أخته، ويرقص أمامها ليدخل على قلبها البهجة، ولازمها تحوت يداهنها ويسلب عقلها بسحر كلامه حتى لا تستيقظ فيها غرائز التوحش فتعود إلى مملكتها الصحراوية.

وعندما وصل الموكب إلى حدود مصر الجنوبية بدت تفنوت غزالاً وديعاً، وخف لاستقبالها والترحيب بها المغنيات، وضمخنها بالعطور، وكللن شعرها بالزهور، وفي ماء الجزيرة المقدسة (أبانون) تطهرت، طهرها أخوها شو فاستحالت امرأة آية في الفتنة والجمال والخلابة؛ ورآها رع فضمها وقبلها وسعد بمقدمها.

وسار موكبها إلى «كوم امبو» حيث رأت مملكة أخيها شو وأعماله البطولية المجيدة التي منها إنقاذه أباه رع مرتين من أعدائه، ثم استمر موكبها العظيم في المسير حتى انتهى إلى دندره حيث استقبلت من الآلهة والناس على مختلف طبقاتهم استقبالاً رائعاً، وكان تحوت يلازمها كظلها، وأوحى لها أنها ستجد هنا كل ما تتمنى وتشتهي، سيقدم لها النبيذ قبل جميع الآلهة، وتزوجها أخوها شو فكانت توصف بأنها الزوج المثلى ويوصف بأنه الزوج العظيم المخلص، وأنجبا ولداً أصيلاً هو «بانب ناوي» ومعناه سيد القطرين.

وهذه القصة التي ذكرها الدكتور هـ. يونكر[1] تظهر لنا أن حياة الآلهة كانت مثل حياة البشر، يعتورها ما يعتور حياة الناس دون فرق بين الحياتين، وهي ـ بعد ـ حياة حسية مادية لم تستحل إلى معان علوية إلا بعد تطور العقيدة الدينية.

غير أن عباد هذه الآلهة منحوها امتيازات لا حد لها كما تمنح للحكام، وبخاصة حكام تلك الأزمان التي استحال فيها الملوك إلى آلهة تقدم لها كل فرائض العبادات وشعائر الدين كما هو مشهور في ملوك مصر من الفراعنة الذين عاشوا ببشريتهم مع الناس وارتقوا إلى عروش الآلهة من ناحية عبودية الناس الألى اعتقدوا أنهم آلهة حقاً.

والحسية التي استغرقت هذه الآلهة امتدت منذ بدأت الديانات المصرية حتى عهد التوحيد الأخناتوني، ففي عصور ما قبل التاريخ وبعدها كانت الآلهة موجودات حيوانية ونباتية، وبعد التطور من عهد الطوطمية كان أكثر الآلهة في أشكال تجمع بين الانسان والحيوان، جسم إنسان ورأس حيوان أو جسم حيوان ورأس إنسان، وقد تكون في صورة إنسان.

وسبب صياغة الآلهة من الإنسان والحيوان أن المصريين كانوا يعتقدون في آلهتهم الحيوانية صفات إنسانية، فمزجوا بينهما في الشكل دليلاً على الجمع بين صفاتهما بإبرازها في صورة تجمع بينهما،

---

(١) H. Junker, Der Auszug der Hathor-Gefnut aus Nubien - Berlin 1911

وكأنهم بذلك ينفون الصفات الحيوانية ليثبتوا الصفات الإنسانية وأعمال الإنسان، وكانوا يضخمون صفات الإله الإنسان كالقوة مثلاً.

ومع التطور والتقدم لم يتخلص المصري من الحسية والحيوانية، وقد جعله التقدم العقلي والحضاري يضفي على آلهته الحيوانية صفات عقلية ومزايا خلقية، حتى إذا بلغ في تقدمه مرتقى عالياً لم يستطع التخلص فكان ـ مثلاً ـ العجل أبيس إلهاً حيوانياً محضاً في خلقته مزيداً عليها ما اختُرِع من صفات القداسة والتبجيل.

ولم تفارقه الحسية والحيوانية عندما تصور خلق السماء، فجعلها بقرة أو امرأة، وتصدر عالم العلوي كالعالم السفلي أو كأنه صورته العليا، وفيها طبيعة العالم السفلي وخصائصه، حتى عالم الخلود والبقاء عالم حسي حيواني لا يفقد فيه الإنسان شهوته إلى الطعام والشراب ويستعد له بهما وببعض ما يحتاج إليه من الآنية والمتاع واللباس، والجسد نفسه يحتفظ به من البلى اعتقاده بأن الروح ستدب فيه فينهض ويعيش بجسده ونفسه المعروفين قبل هجعة الجسم وهمود الحس إلى أجل ينتهي بانتهاء الهمود والهجوع.

وأكبر الآلهة طراً وهو «الشمس» لم يكن إلا إنساناً أو حيواناً أو مزيجاً منهما، فجمعوا له صفات الانسان والحيوان والطير، ومن جملة أشكال إله الشمس جُعل ذو جناحين، ويختلف عليه ما يختلف على الكائنات الأرضية ويصيبه ما يصيبها.

ولم يتفرد المصريون بجعل آلهتهم حسية وبجعلها من البشر والحيوان والنبات، بل تتفق معهم كل الديانات الوثنية، ولكن المصريين جعلوا للعبادة مظهراً لا يخلو من الروح أو ما وراء المادة والحس، ووجد في دياناتهم الشوق إلى المجهول؛ والشوق إلى العبادة.

وإذا اتفقوا مع غيرهم في الديانة الشمسية فإنهم تميزوا عنهم بنظريات جديدة أوجدها التطور والتقدم الحضاري، واعتبرت ديانة مصر الوثنية ديانة أقرب إلى التكامل لإعطاء صورة الدين مما نجد له مشابه في ديانات السماء.

وليس هذا التشابه إلا الحصة المشتركة بين الأديان صحيحها وزائفها في بعض الفرائض وفي بعض العقائد والعبادات من صيام وصلاة.

وعندما التمس المصريون ـ بعد التقدم والحضارة ـ آلهتهم في السماء وأرباباً كونية أوجد الكهنة نظريات جديدة في الدين على صور يحترمها العقل والمنطق في ذلك الزمان.

فإذا كان «رع» متصفاً بصفات البشر إلا أنه ارتفع إلى السماء وصار من الآلهة الكونية، وأخذ مكانه في السماء وإن لم يتخل عن عباده في الأرض.

حتى الآلهة المحلية أضفى عليها أهل كل بلد مصري من الصفات الكونية ما يرتفع بها إلى صفوف الآلهة الكبار، حتى ليصبح إلّه كل بلد عند أهله هو الإله الأكبر المتصرف في الكون،

وأعظم من نجحوا في رفع مستوى آلهتهم إلى أرقى الذرى كهنة عين شمس الألى ابتكروا نظريات لاهوتية رفعوها إلى السماء.

وقد مر بالقارىء «تاسوع» عين شمس المكون من تسعة آلهة، خمسة منها آلهة كونية، والأربعة الأخرى تتألف من «أوزيريس» التي شاعت عبادتها بين طبقات الشعب، واضطر الكهنة إلى ألا ينفصلوا عن الشعب، فذكروا أن تاسوع عين شمس حكم مصر منذ أقدم الأزمنة، وهو مجموعة الآلهة المعبودة من قديم، وكلما رأوا إلهاً يستأثر بالسلطة ويبسطها على الشعب زعموا أنه صورة لإله الشمس.

فحورس نجح وساد، فبادروا إلى أن يزعموا أن الشمس كانت الإله حورس مصوراً في هيئة صقر يحلق في السماوات العلى في جلال يتفق مع عظمته الإلهية، وسموا رع حورس الشرق (حراختي) ثم زادوا في أوله «رع» فصار «رع حراختي» ليجعلوا حورس قوي الصلة برع، بل انتهى إلى أن يكون إلهاً واحداً، فارتفع حورس إلى أن أصبح إلهاً كونياً في السماء بعد أن كان حيواناً يدرج على الأرض.

بل صار اسم «رع» داخلاً في أسماء الفراعنة أنفسهم وجزءاً منها، ففي الأسرة الثانية التي حكمت مصر ـ وذلك منذ ستة آلاف سنة ـ سمي أحد ملوكها «رع نب» وسمي «زوسر» نفسه «رع الذهبي» وهو أعظم ملوك الأسرة الثالثة. وفي الأسرة الرابعة التي عاش ملوكها قبل الميلاد بنحو ٤٢٠٠ سنة تسمى أكثرهم بأسماء

دخلها «رع» مثل «درف رع» و«خفرع» و«منقرع» ثم صار «ابن الشمس» من الألقاب الملكية.

وفي عهد الأسرة الخامسة صارت عبادة الشمس هي الديانة الرسمية لمصر، حتى انتهى العهد الوثني فيها، ومع أن «اخناتون» نادى بالتوحيد لم يستطع أن يتخلى عن رع لأن «أتون» لم يتجرد من الديانة الشمسية كل التجرد.

ولما أصبحت ديانة الشمس هي الديانة الرسمية منذ عهد الأسرة الخامسة شيدت المعابد وكثرت في أنحاء مصر، وصارت لها «أوقات» لا تحصى، وصار اسم كل فرعون أو لقبه لا يخلو من «رع» أو ما يدل على ديانة الشمس.

ولم تقتصر سيادة «رع» عند هذه الحدود بل تجاوزتها إلى أبعد من ذلك كثيراً، فصارت المعبودات المحلية الأخرى وكأنها صورة من إله الشمس، لأن كهنة تلك الآلهة لم يحبوا الشذوذ أو التفرد والبعد عن ديانة الشمس فزعموا أن آلهتهم إن هي إلا صور من «رع» ومتحدة معه، وقداستها من قداسته، وصارت «مراسيم» العبادة وطقوس الدين هي مراسيم رع وطقوسه، وظهرت هذه الطقوس في كل مدن مصر واحدة، أو بعضها يشبه بعضاً شبهاً يكاد يكون هو ما في الديانة الشمسية، وتوجت أسماء الآلهة المحلية بكلمة «رع» فصار اسم «سباك» رع سباك، واسم «أمون» رع أمون، واسم «حنوم» رع حنوم.

وساد كهنة عين شمس بسيادة رع لأنهم هم سبب هذه

السيادة التي انتشرت في مصر، وصار لهم شأن خطير في الدولة كلها، ولكن لم يتجرد إلهم من الحسية المادية التي تدل فكرة خلق العالم عندهم.

ويقف دارس ديانة مصر على تناقض فيها، فليست عقائد المصريين واحدة، بل تجد التناقض في العقيدة الواحدة نفسها، لأن الديانة المصرية لم تكن ذات عقيدة واحدة لا خلاف في جملتها وتفصيلها، بل كان فيها هذا الخلاف الذي يعزى إلى اختلاف العقائد والعبادات والفرائض وآراء رجال الدين ومقاصدهم وأفهامهم، واختلاف الآلهة المحلية بعضها عن بعض في المهام والصفات والأعمال، واختلاف الأساطير التي نسج خيوطها الكهنة والشعراء والعباد.

وآلهة المصريين الكثيرة تتصف بصفات البشر، فهي تفرح وتألم، وتضعف وتقوى، وتولد وتلد، وتعيش وتموت، وتحيا في قبضة الشهوات والغرائز، ولا تتنزه عن نقائص البشر وإن كانوا يصفونها بصفات مثلى كاملة، كالجلالة والعظمة والرحمة والعدل والقوة والقدرة التي تتفق مع مكانة الآلهة.

ولم يكتف المصريون بإضفاء الصفات البشرية على الآلهة الكونية بل اعتقدوا أن ملوكهم آلهة تعبد، لأنهم مواليد الآلهة، فهم يحكمون بوصف كونهم آلهة من نسل آلهة، قدر عليهم أن يدرجوا على الأرض ويحيوا فيها إلى حين، ثم يرتفعون إلى السماء إذا جاء أجلهم المحتوم، وبذلك تم لهم مزج الآدمية بالألوهية.

ولتتم للمصري عقيدة تأليه الملك المتوفى زعموا أنه بموته يصبح جسماً نورانياً ذا وجود روحاني، يمضي الأول إلى الأرض، ويعرج الآخر إلى السماء حيث يأخذ مكانه بين الآلهة.

واعتقد المصري في الروح وآمن بأن له قوة خارقة، فالمصري القديم كان شديد الإيمان بأن الإله نفسه روح في وسعها أن تظهر في أشكال مختلفة، بل اعتقد أن لكل موجود من الآلهة والإنسان والحيوان والنبات والجماد قوى روحية، فالشمس التي لا يعرف كنهها إله مقره السماء، وما يراه على الأرض إنما هو صورته التي يبدو فيها، وتتعدد روح الإله، فللإله «رع» سبعة أرواح، وليس لغيره هذا العدد المقدس من الأرواح.

وليس في تشكُّل الروح أشكالاً مختلفة فكرة «التناسخ» لأنه لا حاجة إليه في الديانات المصرية التي لا تؤمن بالرجعة إلى الحياة الدنيا حتى يحتاج الأمر إلى حلول أو تناسخ.

وبصدد اعتقاد المصريين «التناسخ» يقول الأستاذ خليل مطران[1] : «وفي الكتابات الباقية ما يدل على أنهم كانوا يقولون بالتناسخ على طريقة الهنود» ولكن الأستاذ عباس محمود العقاد يقول في كتابه عن «الله»[2] : «وقالوا بأن الروح تتشكل بجميع الأشكال ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح».

---

(١) كتاب «مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام» ص ٤٣.
(٢) صفحة ٥٩.

ولم يكن رأي الأستاذ خليل مطران مبتكراً، فقد نقله عن هيرودتس الذي استنتج أن المصريين كانوا يعتقدون بتناسخ الأرواح، وهيرودتس حسب ذلك عندما فهم من قدرة تشكل الروح بأشكال مختلفة معنى التناسخ الذي لم يثبت من الديانات المصرية في مختلف عصورها.

والحقيقة أن المصريين لم يقولوا بالتناسخ، وإنما زعموا أن في وسع الروح أن تتخذ أي شكل تريده، وأن لها قريناً يسمى «كا» في شكل طائر أو زهرة، وهو المظهر الآخر للروح أو الشخص، ومهمته حراسة روح الشخص الذي تمثله، وتأمين ما يحتاج إليه في العالم الآخر، وصيانة جسده الآدمي بعد الموت، والقيام بالوساطة لدى «رع» أو أي إله آخر، دون أن يكون هناك تناسخ للأرواح.

والـ«كا» يختلف عن الجسد والروح، فالروح تسمى «با» وكلها تولد معاً، فبمجرد مولد الانسان تدب فيه «با» وهو الروح، ويولد «كا» الذي يشبه أن يكون القرين، وتمثلوا الروح على هيئة طائر، و«كا» لا يختلف عن صورة صاحبه إلا أن على رأس الـ«كا» ذراعان تمتدان إلى أعلى.

وليس في هذا ما يدل على التناسخ الذي ذهب إليه الأستاذ خليل مطران.

وإذا رجعنا إلى فكرة البعث عند المصريين فإننا لا نجد أثراً للتناسخ، لأنه لا وجود للبعث في الديانة الشمسية المصرية، فالمتوفى يدفن ومعه بعض أثاثه وطعامه وشرابه لأنهم يعتقدون أنه

سيحيا في قبره في عالم سفلي مظلم نهاراً ومضيء ليلاً، لأن الشمس عندما تحتجب ليلاً إنما تظهر في العالم السفلي لتضيئه.

وأرواح البررة الأطهار تستحيل نجوماً تأخذ مكانها في السماء لأنها تضيق بالعالم السفلي وتسأم أن تتخذه مقراً دائماً فتمضي إلى السماء متحولة إلى نجوم زاهرة.

ومن كل هذا نخلص إلى أن فكرة التناسخ في الديانة المصرية غير موجودة، وكذلك لا بعث ولا نشور، ولكنها كانت تقرر فكرة الخلود بعد الموت، فالروح الخيرة تحيا في الفردوس، والروح الشريرة تقذف إلى النار حيث العذاب المقيم.

وليست فكرة الآخرة جديدة في الديانة المصرية، بل هي قديمة طافت بأذهان بناة الأهرام، ولكنها كانت فكرة أقرب إلى السذاجة منها إلى العمق والفهم الدقيق، أوحاها الشعور بالتبعة الأخلاقية في العالم الآخر، ولم تكن تعدو أن يمثل الميت بين يدي «رع» إله الشمس ليحاسب من قبله على اثم اقترفه كأن يؤذي غيره، وهو حساب ساذج يسير.

ثم أخذ الشعور بالتبعة يعمق نتيجة للتطور الذي قطع آلاف السنين حتى أصبح الحساب في العالم الآخر حساباً عاماً وعسيراً.

وفي القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد إلى القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد في عهد الأسرة التاسعة والعاشرة بلغت فكرة الثواب والعقاب في العالم الآخر مرحلة انتهى إليها الفكر الإنساني

الذي ربط بين الحياة في العالمين: عالم الدنيا وعالم الآخرة رغبة منه في دفع الإنسان إلى طريق الخير وتشجيعه على العمل الصالح نجاة من العذاب وفوزاً بالثواب، فما يعمله في دنياه يجده أمامه في الآخرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يفوت محكمة القضاء والحساب في العالم الآخر أي عمل من أعمال الميت التي تجمع بين يديه، والعدل يأخذ سبيله، فلا ظلم ولا محاباة، ولا تسامح ولا غفران، بل الجزاء الحق الأوفى، والسيد من استعد لهذا اليوم بالعمل الصالح، ويا ويل الشقي من العذاب الأليم.

إن السعيد من يدخل محكمة الآخرة وميزانه ثقيل بالحسنات ولا إثم في كفة السيئات، وعندئذ يستحيل إلهاً فيحيا كأمثاله البررة الأخيار.

وخلف «رع» في محكمة الآخرة الإلّه «أوزير» الذي حوكم بين يدي «رع» وبرئت ساحته وصار يعرف بأوزير المبرأ، ثم صار هذا اللقب من نصيب كل فرعون لا يشركه فيه أحد من الشعب إلا بعد زمن، حيث صارت الروح الخيرة توصف به.

وفي «كتاب الموتى» الذي يعتبر في بعض أقوال الباحثين أول كتاب ـ ذكر للعالم الآخر والحساب، وهو كتاب فرعوني يقدسه المصريون على عهد الفراعنة معتقدين أنه من الكتب المنزلة، ويتدارسونه ويوصي السلف الخلف بقراءته، والعمل بما فيه، وقد يضعون مع الميت نسخة منه طمعاً في أن يكون له شقيقاً، ورغبة في الأنس به في ظلام القبر ووحشته.

ومحكمة أوزيريس التي يصورها كتاب الموتى، والتي يمثل فيها الميت لمحاكمته بعد انتقال روحه إلى العالم الآخر هي محكمة الآخرة يقضي فيها أوزيريس، وبها ميزان منصوب لوزن الأعمال حيث توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة أخرى، والميت واقف على باب المحكمة يترقب الحكم في خوف ووجل، وفي صدرها يجلس أوزيريس وبين يديه اثنان وأربعون إلهاً قاضياً هم شياطين مخيفة ذات أسماء بشعة راعبة، وعلى جانب من القاعة وبين يدي أوزيريس بجانب الميزان يجثم وحش يسمى «أم أم» ومعناه المفترس، وهو حيوان رهيب له رأس التمساح وصدر الأسد ومؤخر فرس البحر، متحفز لالتهام روح الميت الآثمة إذا خفت موازينه.

ولا يقف الميت مكتوف اليدين موثق اللسان، بل يدافع عن نفسه ويزكي أعماله ويشهد لنفسه بالصلاح والتقوى فيقول:

سلام عليك أيها الإله العظيم

لقد جئت إليك يا رب الحق خاشعاً رجاء أن أشهد نور وجهك

«إنني أعرف اسمك، وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلهاً الجالسين معك، يقضون على الخاطئين

«إن غذاءهم لحوم العصاة، وشرابهم من دمائهم

«جئتك يا رب وحليتي الحق

«لم أظلم، ولم أمض في طريق الشر

«ولم أرتكب خطيئة ولم أرم بها بريئاً

«وما حنثت في يمين

«ولم أشته زوجة قريب أو صديق

«ولم أعص للآلهة أمراً

«وما ألحقت أذى أو ضرراً بمخلوق

«وما أجعت أحداً من الخلق

«وما طمعت في مال غيري

«ولم أكن سبباً في بكاء إنسان

«ولم أكذب، ولم أقتل، ولم أسرق

«ولم أتخذ الغدر للحصول على المال

«ولم أنتهك حرمات الموتى

«ولم آت بفاحشة

«ولم يصدر مني ما يدنس شيئاً مقدساً

«ولم أبع قمحي بثمن فاحش

«ولم أطفف الكيل أو أخسر الميزان

«ولم أنتزع اللبن من فم رضيع

«ولم أمنع الماشية مرعاها

«ولم أتلف زراعة أحد

«ولم أخالف نظام الري

«ولم أبطل شعائر الدين

«ولم أفعل شراً، ولم أخدع

«ولم أكلف عاملاً فوق طاقته

«وما كنت نماماً، وما رفعت صوتي على أحد

«جئت طاهراً مبرأ من العيوب والخطايا

وأرجو أن أكون لديك من الفائزين».

وبعد أن يدافع الميت عن نفسه وينفي عنها السلوك المعيب، ويدعي الآداب الحسنة والأخلاق الفاضلة، يأخذه أنوبليس الإله الجنائزي الممثل برأس ابن آوى الذي يقف خلفه «تحوت» كاتب الآلهة، وبين يديه القرطاس وفي يمينه القلم يدون الحكم، ووراء تحوت يربض «أم أم» مستعداً، ويخاطب الميت كل قاض من الاثنين والأربعين بعد تلك الخطبة الرائعة التي ينفي عن نفسه بها الشر ويثبت لها الخير، متوسلاً إليهم في ذلة وخضوع ويقول لهم:

«سلام عليكم أيها القضاة العادلون

«لا تأخذكم في الحق لومة لائم

««جئت إليكم مبرأ من العيوب والدنس والخطايا
«فما لأحد علي مظلمة
«بل عشت للعدل وبالعدل عشت
«وعملت للخير والإصلاح
«والناس يحمدون سيرتي
«فقد كنت أطعم الجياع
«وأسقي الظامئين
«وأكسو العراة
«وأبذل العون للأقطع والأشل
«وأساعد الأعمى والأعرج والشيخ
«وكنت ملجأ البائسين
«وأعطيت طوفاً لمن لا قارب له
«وقدمت للإله المقدس القرابين
«وتقربت بالأطعمة من أجل الموتى
«فكونوا معي، واحموني
«فقلبي نقي، ويداي طاهرتان
فلا تقدموا للإله العظيم شكوى تسيء إلي».

وبهذه الكلمات القوية يؤكد الميت أنه بار صالح، وكان في حياته مثلاً رائعاً للانسان الفاضل الورع التقي.

فإذا كان من الفائزين قال له أوزيريس:

«أخرج أيها الميت فائزاً، واذهب حيث شئت، ولتفتح لك أبواب الجنة، ولا يمنعك حرس السماء، وليرد قلبك إليك، ولتهب لك الحياة الهانئة الجديدة، ولتكن عن يميني في الفردوس الأبدي».

أما إذا كان من الخاسرين فيقول له أوزيريس:

«أيها الشرير، إلى جهنم وبئس المصير، مزقوه أيها القضاة بسيوفكم وكلوا لحمه، واشربوا دمه، أيتها الأرواح الشريرة، إضربنه بالحديد، واحرقنه بالنار، وأنت يا «أم أم» قطعه إرباً إرباً، تغذ بأحشائه. كن أيها الشرير غنيمة للأفاعي، وفريسة للوحوش، وأنتم يا زبانية جهنم، جروه على وجهه إلى الجحيم، ومزقوا جسده ثم ألقوه في عذاب السعير».

وفي بعض هذه «الإجراءات» مشابه مما جاءت به الأديان السماوية مع اختلاف كبير بين الايمان الحق والشعوذة، والحق والباطل، والوحدانية والشرك.

ولكن الحياة في العالم الآخر لم تكن خاضعة للإله العظيم والآلهة الأخرى وحسب، بل كان أمر هذه الحياة الأخرى بين الكهنة الذين يستطيعون أن يرضوا عن المذنب الغريق في الآثام فيجد الجنة أمامه يمضي إليها هانئاً سعيداً.

ولو اقتصر الأمر على الحساب لدل على تطور إنساني كبير في الشعور بالتبعة فلا يعمل الانسان في حياته إلا الطيبات التي يجدها أمامه في العالم الآخر فتعينه على اجتياز أهواله إلى الجنة حيث ينعم في الفردوس الأبدي على يمين الإآله أوزيريس.

وإذا دلت فكرة الحساب والثواب والعقاب في العالم الآخر على تقدم إنساني رائع في العقيدة إلا أن عمل الكهنة أحال ذلك التقدم انحطاطاً، لأنه جعل الآثم الكفور يمضي إلى الجنة بسلام متى دفع إلى الكهنة ثمن ما يضمن له الفردوس المنشود.

ويقول الأستاذ سليم حسن في كتابه «مصر القديمة[1]» :

«على أن الكهنة لو تركوا الأمر على تلك الحال لكان حسناً مقبولاً، ولكن ـ لسوء الحظ ـ كان انتشار الاعتقاد في نفع قوة السحر وتأثيرها في الحياة الأخروية لا يزال مستمراً، إذ كان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها ـ من غير نزاع ـ باستعمال الرقية الملائمة للحصول على ذلك الأمر المرغوب فيه، كما كان في الإمكان كذلك أن يعاد إلى الانسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شيء حتى العتاد العقلي ألا وهو «القلب» الذي معناه ـ في اللغة المصرية القديمة ـ «الفهم» أو «العقل».

و«قد سوغت للكهنة أبواب الكسب والارتزاق ـ التي كانت لا تقف حيلتهم فيها عند حد ـ أن يتخذوا لهم في ذلك

---

(١) ج ٥ ص ٢٤٠ و ٢٤١.

الزمن خطة خطيرة للاحتيال على الكسب، ألا وهي السماح لمثل تلك العوامل المنحطة أن تتدخل بتلك الكيفية في القيم الخلقية، إذا كان في مقدور السحر أن يصير عاملاً للوصول إلى الغايات الخلقية».

ويقول في صفحة ٢٤٢ : «وكانت كلمات الحكم التي تعلن أن المتوفى قد فاز في المحاكمة، وبرىء من كل شر نسب إليه تدون في صحيفة من تلك الصحف، وعلى ذلك كان في إمكان كل إنسان ـ مهما كانت أخلاقه ذميمة في الحياة الدنيا ـ أن يستولي من «كتاب الموتى» على شهادة يعلن فيها أن صاحب هذا الاسم ـ الذي ترك مكانه أبيض ـ كان رجلاً عادلاً». (يعني أن هذا كان يفعل من قبل أن يعرف من سيكون صاحب هذا «البياض»).

ويقول : «وقد كان في مقدور ذلك الميت أن يحصل على صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل «إله الشمس» الذي يعتبر القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة يسقط من سماواته في «النيل» إذا لم يخرج ذلك الميت بريء الساحة ـ تماماً ـ من محاكمته.

«وبتلك الكيفية نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة كان يمكننا تتبعه في حياة الإنسان القديم، قد توقف فجأة أو على الأقل قد صدم صدمة عنيفة بتلك الحيل الممقوتة التي كان يستعملها أولئك الكهنة الفاسقون جرياً وراء الكسب، ولسنا في حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر في ذلك الشأن الخطير من

الاعتقادات الدينية وما آلت إليه الحال من الارتباك في الفوارق التي انطوت على ذلك التطبيق الأخير للسحر، وذلك الارتباك كان ناتجاً من خيبة الانسان قديماً في فهم الفرق بين «ما يدخل في نفس الانسان» وبين «ما يخرج منها».

فتلك البراءة التي تطبق على الانسان تطبيقاً آلياً بالعوامل الخارجية لتنجيه من العقوبات التي مصدرها من الخارج، لا يمكن ـ بطبيعة الحال ـ أن تزيل الأضرار التي حدثت في باطن الانسان، فالإيحاء الباطني الذي كان يحسه المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى في الشرق القديم، وهو الإيحاء الذي كانت ترتكز عليه أيضاً كل فكرة عن الحساب الخلقي العسير في عالم الآخرة ـ لا يمكن أبداً أن يكتفي بمثل تلك الطرق الخارجية التي ابتدعها لهم السحر، ولا بد أن الاعتقاد العام الذي جرت به العادة في الاعتماد على مثل تلك الحيل الدنيئة للفرار من المسئولية الخلقية عن حياة مرذولة ـ كان قد سمم حياة الشعب الفطرية».

ويقول في صفحة ٢٤٧ : «ولا غرابة إذن إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتزاز أموال الناس بالباطل حباً في الكسب الذي كان يأتي إليهم بتلك الطريقة السهلة، ولذلك تضاعفت أخطار الآخرة وأهوالها إذ ذاك تضاعفاً عظيماً، إلا أن الكهنة كان في مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعاويذ الفعالة التي تنجيه من الخطر حتماً، هذا بخلاف تعاويذ عديدة تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم

الآخرة، كما كانت توجد أيضاً تعاويذ تمنع فقدان الميت فمه ورأسه وقلبه، وأخرى لتساعده على استذكار اسمه، وكما كان منها ما يساعد على التنفس والأكل والشرب، ومنها ما يمنعه أكله لبرازه، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يتحول إلى لهيب، ومنها ما يحول الظلام نوراً، كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية» الخ.

لقد كانت فكرة الحساب من أجل أن يقلع المرء في حياته عن الشر ويمعن في عمل الخير ما وسعه حتى يسعد به مجتمعه ويسعد هو نفسه، لأنه يخشى العالم الآخر فلا يستعد له بسوء يجزى عنه عذاباً شديداً فينصرف عنه إلى الخير رغبة في النعيم المقيم.

وكان المصري عميق التدين شديد الايمان بالعالم الآخر، ويستعد له، ويحرص على لقائه بالصالحات قاهراً شهواته مستكبراً على غرائزه، حتى إذا قابله الكهنة وضمنوا له الفوز بالجنة والنجاة من النار مهما أطلق لشهواته وغرائزه العنان تلقاء دريهمات يقدمها لهم يحصل بها على «صك» أعظم من صك الغفران عند المسيحية، فما عليه ـ بعد ذلك ـ أن يعمل بما تسول له نفسه ما دامت الجنة ملكاً للكهنة يدخلون فيها من يشاءون إذا دفع الثمن.

وصنيع الكهنة قضى على الشعور بالتبعة الأخلاقية عند المصري وبعث إلى نفسه الأمن والطمأنينة لأنه مبشر بالجنة مهما فعل من الشر والموبقات، وبذلك انتفى القصد من يوم الحساب الذي لا خوف منه على المذنب الأثيم ما دام في وسعه إرضاء الكهنة

الذين أعطوا أنفسهم سلطة يجبرون بها الإلّه الأعظم (إلّه الشمس) على الرضوان لا الغفران، لأن الغفران عن ذنب، والرضوان عن خير محض، فإذا لم يرض الإلّه الأعظم عن الميت ويخرجه من المحاكمة بريئاً فقد كتب على نفسه أن يسقط من سماواته العلى.

فالكهنة هم الذين يسيطرون في الحياة الدنيا على الأحياء، وهم أنفسهم يسيطرون على إلّه الشمس والآلهة في العالم الآخر ويجبرونهم على الرضوان عن العاصي إذا رضي عنه الكهنة وليس غير الكهنة.

ومناط الأمر كله بيد الكهنة، والجنة والنار في أيديهم، ولا سلطان إلا لهم، الآلهة لا تستطيع أن تعاقب مذنباً فاز برضا الكهنة، بل الآلهة مجبرون على أن يرضوا عمن رضي عنه الكهنة، بل بلغ بهم الاستئثار بالسلطة على الآلهة أن إلّه الشمس القوي مهدد بالسقوط من سماواته إذا لم يرض عمن رضي عنه الكهنة.

ونجد في فترات مصر وعهودها الدينية إلّه الشمس ذا سلطان قوي، فهو مصدر الآلهة والخلق، بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن «رع» إلّه الشمس ملك الدنيا قبل وجود البشر، ثم خلقهم، فلما أسخط منهم ما أسخط أغرى بهم إلّه النقمة (حاتحور) ثم ندم «رع» وصعد إلى السماء تاركاً الدنيا لأوزيريس الذي استحال في أذهان عباده أوزيريس الشمس.

ولم تخل الديانة المصرية في عهودها من العقيدة الشمسية

التي أخذت تنتقل على تعاقب العصور في صور مختلفة تنتهي كلها إلى الشمس.

فالإله «رع» إله الشمس منذ الأزمة القديمة في مصر، وبقي في مكانه مع تعدد الأسماء والصفات حتى «جمعت بينها كلها عبادة أمون ثم عبادة أتون[1]» ودارس الديانة في مصر في مختلف العصور حتى عهد إخناتون يجد بين يديه تلالاً من العقائد والعبادات والشعائر لا تخلو من تناقض فيما بينها، ولكن عبادة «رع» توحدها، حيث تتحد به الآلهة الكبيرة المعبودة في أقاليم مصر.

«وعبادة «أتون» هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

«فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون، ولكن الشمس نفسها كانت رمزاً محسوساً للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء.

«وإنما جاء هذا الطور بعد تمهيدات دينية سياسية تهيأت لمصر ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى في تلك الفترة.

«فكانت في أقاليم القطر ـ قبل ظهور عبادة أتون ـ ثلاث عبادات «شمسية» تتنافس في المبادىء الروحية ووسائل النفوذ التي تتغلب على النظراء.

«فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح.

(١) كتاب «الله» للعقاد صفحة ٦١.

«وكانت عين شمس أو «هليوبوليس» تدين له باسم رع وأحياناً باسم «أتوم».

«وكانت طيبة تدين له باسم أمون»[1].

ولكن هذه الآلهة لم تنفصل عن الشمس ولم يكن في قدرتها إخمال اسم «رع» فاقترن اسمه بآمون وصار اسمه «آمون رع» وأخناتون عندما قضى على الآلهة جميعها والتي كان المصريون يعبدونها زعم أن إلّه «أتون» هو «رع» وكل الآلهة صادرة من إلّه الشمس، وما لم يصدر منه أخذ من الفرائض والطقوس والعبادات.

وكل مدينة ـ كما قلنا ـ ترى إلهها هو الإلّه الأعظم، ولكن الزمن قضى على كثير من الآلهة المحلية حتى لم يبق إلا بضعة آلهة كبيرة تجمعت في «أمون» ثم في «أتون».

ولكن سيطرة «أمون» بقيت طويلاً، حتى أن قوة «أتون» التي محت أمون من المعابد وزوته في نفوس عباده دون أن يكون له نفوذ ظاهر لم تستطع القضاء على أمون، فقد عاد أمون قوياً ومحى أتون بموت أخناتون كما سيأتي.

وزاد في قوة أمون وعظم مكانته أن كهنة طيبة التي كان بها أمون جعلوه الإلّه الأعظم وضاعف مكانته أن طيبة تولت طرد «الهكسوس». وتزعم الأساطير المصرية أن أمون هو نفسه الذي

---

(١) كتاب «الله» للعقاد ص ٦٢.

قاد الجيوش المصرية ونصرها نصراً مبيناً على الهكسوس، وله الفضل كل الفضل في كل الانتصارات التي أحرزتها جيوش مصر.

وبسبب ذلك أصبح أمون منقذ مصر وحاميها وحامي فرعونها وملكه وشعبه و«أمبراطور» الآلهة وسيدهم، وهو رب الأرباب.

والمكانة التي نالها «أمون» وهبت «طيبة» وكهنتها مكانة عظيمة لم تكن لأي إلّه وكهنته، بل ارتقى رؤساء كهنة طيبة إلى أعلى المناصب حتى صعدوا إلى مرتبة فرعون وتجاوزوه، لأنهم جمعوا في أميرهم السلطة الدينية والسلطة الزمنية، وكانوا يتحكمون في العرش نفسه.

وأمون لم يكن إلهاً ذا شأن كبير بين الآلهة الكبيرة عندما دخل طيبة، ولم تكن له ديانة خاصة وعقيدة خاصة وعبادات وشعائر خاصة، بل نقل كهنة طيبة كل ما كان لرع ومنحوه لأمون، وأخذوا يضخمونه حتى زاحموا به غيره وكاد يكون متفرداً بين الآلهة، بل إن كهنة رع وبتاح كانوا ينظرون إلى أمون نظرة احترام ورضا، ولم يؤذهم انتشار سلطان كهنة طيبة وسيادتهم وامتيازهم بالثراء العريض والنفوذ الديني العظيم، لأن إلّه الشمس كان في عقائد مصر إلهاً ذا سيادة منذ عصور ممعنة في القدم، وكان الإلّه الرسمي في عهد من أزهر عهود مصر، حتى شبهوا به الآلهة الأخرى، واستعاروا لها اسمه، وذهبوا إلى أنها صورة من صوره،

وصار «أمون» أعظم الآلهة في عهد المملكة الوسطى، وانتهت كهانة طيبة إلى أرقى الذرى في عهد تحوتمس الثالث أعظم ملوك الأسرة الثانية عشرة وذلك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بل يعده بعض المؤرخين أعظم من حكموا مصر في تاريخها القديم، لأن في عهده اتسعت أمبراطوريته فشملت مدن آسيا الغربية وبحر إيجة وجزر إيجة ومدن مجدو وقادش، ونينوى، وما وراء بلاد النهرين وبابل والصومال وبلاد النوبة.

ولكن «آمون» وحياة كهنته الذين غرقوا في الترف، والحيل التي تذرعوا بها لخداع الشعب وابتزاز أمواله، والسلطة التي منحوها لأنفسهم على الآلهة وبخاصة على إلّه الشمس، والوثنية التي تمرغوا في أوصالها دعت أمنحوتب الرابع (الذي صار اسمه فيما بعد أخناتون) إلى الثورة على أمون ومحوه من الوجود ليضع مكانه «أتون».

وقبل أن يثور أخناتون بدأت مقدمات ثورته من عهد أبيه، بل لأبيه أثر فضل في زرع بذور الثورة الدينية التي كانت أعظم ثورة دينية في العصور القديمة حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ولا بد من أن نمهد للكتابة عن هذه الثورة بالوقوف عند امنحوتب الثالث والد أخناتون ليرى القراء العصر الغريب الذي عاشته مصر، عصر المتناقضات في القصر الملكي، فقد اجتمع لصاحب العرش فيه شتى الأعمال المختلفة، فساد في الحكم، وغرق في الملذات؛ وانهماك في الجنس، مع اهتمام بالدين.

فأمنحوتب الثالث الذي ولي الحكم في مصر حوالى سنة ١٤٠٥ قبل الميلاد، لم يكن كأسلافه جندياً محارباً يعمل من أجل التوسع والاستعمار، بل ترك العنف والحرب إلى اللهو واللعب والرقص، فوهب نفسه للذة، شغل نهاره بالصيد، وليله بالغواني.

وقد ذكرت الكشوف الأثرية أن امنحوتب الثالث لم يكتف بالمصريات يشبع نهمه منهن، بل تزوج «جلوخيبا» أخت ملك «متنى» في شمال سوريا، واستقدم معها ثلاثمئة وسبع عشرة ناهداً من أجمل نساء «نهرينا».

وبلغ من نهم امنحوتب الثالث أن جوعه الجنسي كان يزداد كلما عب من الحسان، فلم تشبع نهمه «جلوخيبا» والثلاثمئة والسبع عشرة حسناء، بل زدن في ولعه وجوعه فطلب من ملك «جيزر» أربعين عذراء على أن يكن من أجمل العذارى، ثم طلب من حاكم من حكام سوريا ويسمى «شوباندو» أن يبعث إليه عشرين بكراً، ومن حاكم «أورشليم» وإسمه «عبدى خيبا» إحدى وعشرين عذراء.

وكان يشترط ان تكون كل عذراء نموذج الحسن والجمال والخلابة، وألا يكون فيها ما ينقص من جمالها.

وازدخر قصره بأجمل حسان مصر وعذارى البلدان والممالك التي تدين له بالسمع والطاعة، وشغل نفسه بهن، والمحبوب الأثير عنده من يقدم له حسناء يستمتع بها.

ومع كل هذا الغرق في اللذة كان يعنى بالديانة من ناحية

العقيدة والإيمان بالعقل والشعور دون الأخذ بالشعائر والفروض والأوامر والنواهي من الناحية الأخلاقية.

وقد ثبت أن مقدمات ثورة أخناتون بدأت في عهد جده تحتمس الرابع، فقد عثر على لوحة بجوار معبد «أبواهول» يبدو فيها تحتمس (١٤٠٦ ـ ١٣٩٨ ق.م) وهو يعبد «أتون» الذي هو قرص الشمس المنبعث من شعاع يهب الخيرات، كما عثر على جعران تذكاري ضخم نقش فيه أن فرعون كان يحارب «وآتون أمامه» ليحمل غير المصريين على عبادة آتون كالمصريين. وأما أمنحوتب الثالث (والداخناتون) فقد عزز نصر أتون وضايق كهنة طيبة عابدي أمون، إذ انتزع رئاسة كهنة القطرين منهم وولى فيها أحد قواده، ثم سمى سفينته التي كان يتنزه فيها اسمًا يحوي اسم «آتون» وهو «تحن آتون» ومعناها الشمس تضيء [1].

وكان في عهد أمنحوتب الثالث ما يدل على وجود معبد لآتون، فقد ورد في بعض النصوص: أن «بن ـ بوى» كاتب خزانة معبد أتون، وأن أحد كهنته واسمه «رعموسى» كان «مديراً للبيت في معبد آتون». [2]

وفي هذه البيئة نشأ أخناتون نشأة ملكية مدللة، وشهد افتتان أبيه بالنساء وولعه بهن وغرقه في الملذات، فشاركه في إدارة

---

(١) مصر القديمة لسليم حسن.

(٢) الحضارة المصرية لجون ولسون ترجمة الدكتور أحمد فخري ص ٣٤٢.

المملكة والحكم اثنتي عشرة سنة حتى توفي امنحوتب الثالث في الخمسين من عمره، وعجل بموته انغماسه في الملذات وتلبية صراخ الشهوة في نفسه الجائعة العطشى.

وكان والده أول من خرج على تقاليد أسلافه الفراعنة فلم يختر زوجته من الأسرة المالكة أو من الأعلياء، بل تزوج - كما يقول المؤرخون وكما يروي الأستاذ عبد الحميد يونس في البحث الذي كتبه بعنوان «أخناتون»[1] حيث يقول عن والده أنه «تزوج من امرأة مجهولة الأصل والنسب تدعى «تي» وكان لها سلطان قوي على زوجها أمنحوتب الثالث وعلى ابنها من بعده أخناتون».

والصحيح أن «تي» لم تكن مجهولة الأصل والنسب، ولكن مما لا شك فيه أنها من أسرة من الشعب، ومعروفة الأصل والنسب، فأبوها يسمى «يويا» وأمها «تويا» وكانا يحملان ألقاباً عالية، فمن ألقاب يويا (كما تذكر الآثار التي عثر عليها في قبره المقام بوادي الملوك (رقم ٤٦): «الأمير الوراثي والسمير الوحيد الحب وحامل خاتم الوجه البحري والسمير الأول بين السماء وفم ملك الوجه القبلي وأذنا ملك الوجه البحري ووالد الإلّه والمشرف على ثيران «آمون» والممدوح من الإلّه الطيب والممدوح كثيراً في بيت الفرعون وعين رب الأرضين» [2] ومن ألقاب تويا[3]: «الوصيفة الملكية ومغنية آمون والأم الملكية لزوج الملك

(١) هداة الإنسانية في الشرق صفحة ٣٥.
(٢ و٣) مصر القديمة ص ١٣٧.

العظيم والكاهنة المغنية للإله أمون والكاهنة المغنية العظيمة للإله آمون».

ولعل لهذه الأسباب مضافاً إليها غش كهنة أمون واستئثارهم بخيرات الشعب وابتزازهم أمواله بشتى الطرق من كذب وخداع وغش آثاراً في تكوين شخصيته الدينية ونقمته على أمون وثورته على الآلهة جميعها والدعوة إلى عبادة إله واحد فرد صمد هو ـ في نظره ـ أتون.

وبموت أمنحوتب الثالث وجد ابنه أمنحوتب الرابع الفرصة سانحة ليعلن ثورته الدينية الكبرى على الأصنام والآلهة الباطلة وكفره بها ومحاربته أتباعها وكهنتها بعد التمهيد لها من عهد أبيه، ودعا إلى عبادة إلهة: إله الشمس «آتون» وحده دون شريك، فلا إله غيره في هذا الوجود.

ولكنه لم يعلن الحرب على أمون وكهنته أول الأمر، بل اكتفى بالدعوة وبناء معبد لآتون في طيبة عاصمة المملكة، ولم يغضب ذلك كهنة طيبة الذين يعبدون أمون لأن إلههم هو إله الشمس مثل أتون، فإذا كان «رع» إله الشمس المعبود الذي سبق آمون، فاسم أمون هو «آمون رع».

إلا أن أمنحوتب الرابع لم يقنع بالدعوة وحدها، بل قرن الدعوة بالعمل الجدي الذي لا هوادة فيه، فالعقيدة والإيمان لا يقفان على القول وحده، بل أعظم ركن فيهما العمل بجد وإخلاص، ولهذا بدأ باسمه وهو «آمون حوتب» ومعناها « آمون

الطيب» وغيَّره إلى أخناتون (أخْنْ آتون) ومعناها «مجد آتون» إنكاراً منه لآمون وإيماناً بإلّه آتون المرموز له بقرص الشمس.

وليس آتون بجديد في الديانة المصرية بل ذهب الأثريون إلى أنه اسم قديم لم يشتهر لدى الناس، إلا أن قدمه ثابت، وعرف في البلاط الفرعوني فسمى أمنحوتب الثالث السفينة التي بناها لزوجه «تي» اسماً ذكر آتون فيه وهو «تحن أتون» ومعناها: أتون يضيء، وكان بعض أفراد حاشيته يسمون أسماء ذات صفات مأخوذة من قرص الشمس (آتون) الآله المعبود المتفرد بالوحدانية والعبادة دون أن يكون له شريك، كما أن أمنحوتب الثالث سمح لابنه أن يبني في الكرنك معبداً لآتون.

ولم يقصد أخناتون إلى عبادة جرم الشمس المادي، فهو شيء غير الإلّه الذي آمن به، ولكنه كان يرى ـ كأمه الملكة تي ـ أن المعبود حرارة الشمس، ولم يكن في حياة والده يتخذ القوة ليجعل إلّهه متفرداً بالوحدانية احتراماً لعقيدة والده الذي كان شديد الإيمان بالإلّه (آمون رع) حتى رد إلى كهنته ما كان قد سلبهم إياه تحتمس الرابع، وهو انتزاع منصب رئاسة كهنة آمون وإسناده إلى أحد قواده كما ذكرنا.

وعندما تفرد أخناتون بالسلطة والملك والحكم لم يكتف بتغيير اسمه وحده، بل محا من اسم والده اسم «آمون» ثم انثنى إلى الآلهة جميعها ودمرها ومحاها كما دمر آمون ومحاه من الوجود، وإمعاناً منه في محو الشرك محا كلمة الآلهه من جميع المعابد لأنها جمع

«إلّه» وليس في الوجود إلا إلّه واحد أحد، فوجود الجمع يشعر بوجود آلهة متعددة، فلا بد من محوها إثباتاً للوحدانية.

وتتبع «آمون» في كل مكان وفي كل بلد من بلدان مصر وسلط عليه سوط نقمته وحقده فدمر معابده ومحا اسمه، وبعث رجاله وجنوده حتى يقضوا على آمون قضاء تاماً، واتجه إلى كهنته فاستصفى أموالهم الطائلة التي ابتزوها بوسائل الحيلة والكذب والخداع.

وحرم أخناتون تحريماً شديداً عبادة آمون وكل إلّه كاذب وصنم جامد لا يضر ولا ينفع، وحرم إقامة شعائر الآلهة الباطلة أشد تحريم، ووجه كل أنواع العبادة لآتون وحده كما أمر الشعب بذلك فأطاعوا، لأن الفرعون عندهم إلّه وابن إلّه، وقوله منزه عن الباطل لأنه لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

ولم تكن طاعته من قبل الشعب عامةً، بل كان فيهم من يضمر العداء له ولإلّهه ويبطن الولاء لآمون وكهنته، ولكن ذلك لم يهمه، لأن القوة التي صحبت دعوته الجديدة قضت على صوت المعارضة في الظاهر، وأمعنت الثورة العارمة في التحطيم والتخريب، تحطيم أمون والآلهة الأخرى في حقد شاعل لا ينطفىء.

وأصحب أخناتون ذلك كله بإقامة المعابد لإلّهه في كل مكان بمملكته واختص «الأشمونين» و«منف» و«عين شمس» وزحمها بمعابد أتون، ولم يكتف بمصر وحدها يعمم فيها هذه المعابد، بل

أقامها في آسيا وبلاد النوبة ، لأنه مؤمن أن إلّه ليس إلهاً خاصاً ببلد أو إقليم ، بل هو إلّه العالم كله ، فيجب أن تنتشر معابده وعبادته في كل أرجائه .

وليكمل أخناتون «مخططه» ليجعل آتون الإلّه الواحد الأحد بنى مدينة جديدة خاصة به ليبعد عن طيبة وكهنتها وأهلها الذين يضمرون الإيمان، وسمى مدينته الجديدة «أختاتون» ومعناها : سماء آتون .

واشترك أخناتون وزوجته «نفرتيتي» في اختيار موقع المدينة المقدسة وانتقلا مع أسرتهما ورجال الحاشية والبلاط، واحتفلوا بالانتقال إليها احتفالاً عظيمًا، وامتلأ كيانه بالسعادة لأنه ابتعد بدينه الجديد وإلّه الجديد عن الكهنة المارقين ، ولتسعه تبرئة عقيدة التوحيد من الشرك والوثنية اللذين كانا عقيدة المصريين .

وذهب أخناتون إلى أن هذه الآلهة باطلة والأصنام كاذبة ، وأنه لا إلّه إلا أتون، ليس في الوجود إلا إلّه واحد أحد فرد صمد خلق الخلق جميعاً، وتنزه عن صفات البشر لأن له صفات تليق بجلاله الإلّهي ، وله ذات تغاير ذات مخلوقاته ، فله ذات لا تحس بمدركات الحس ، وهو الحي الذي لا يموت ، الملك الحق الذي تنزه عن الشريك، بعيد بكماله، قريب بنعمائه، تسبح بحمده السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، وفي أدعية أخناتون وصلواته ما يثبت الوحدانية لإلّه الذي نادى بعبادته وتوحيده بعد أن كفر بما سواه من الآلهة وأبطل عبادته .

وهذه صفات «أتون» التي أثبتها أخناتون له عن إيمان ويقين:

«ياآتون، ياحي، يامبدىء الحياة، أنت خالق الجنين في بطن أمه، أنت باري النطفة، وواهب الحياة للجنين في الرحم، أنت الذي تهب الحياة لكل خلقك، أنت الذي شق للطفل فمه وهداه إلى ثدي أمه. أنت الذي تمنح الحياة للفرخة في البيضة فيقوقىء، فإذا أتممت خلقه أخرجته إلى الحياة.

«ما أكثر خلقك الذي لا يحيط به عالمنا. أنت الآله الخالق الواحد الأحد، لا شريك لك، خلقت الأرض بإرادتك. أنت الرزاق الذي تكفلت بأرزاق من خلقت وما خلقت، رفعت السماوات ووحدت الأرضين.

أنت في قلبي، والعالم كله في قبضتك إلخ».

وهذه الابتهالات وغيرها من دعواته وصلواته تثبت صفات إلهه الذي أفرده بالوحدانية والعبادة، ولا شك أن أخناتون أول من نادى بالتوحيد والوحدانية بين أمثاله من الفراعنة والملوك الذين غرقوا في الوثنية والشرك، وقد بالغ المؤرخون في مديحه حتى زعم الاستاذ عبد الحميد يونس قائلاً: «إن هذا التوحيد الأول في العالم[1] و« أصبح أول من دعا إلى توحيد الآلهة في التاريخ كله»[2]. ويقول محمد يونس الحسيني: «لقد تتبعنا تاريخ تقدم

(١ و ٢) هداة الإنسانية ص ٤٤ وص ٥٨.

البشر مدة ألوف السنين ولم نسمع أن أحداً منهم رأى في الله العظيم باري البرايا مارآه هذا الشاب، واعتقاد كهذا هو التوحيد أي الإيمان بإله واحد[1]» و «وقد دعى أخناتون (أول فرد في التاريخ) وهو ولا شك أول فرد قاوم عبادة ما كان يعبده الناس من الآلهة الباطلة جرياً وراء آبائهم[2]».

وتقول السيدة فاطمة محجوب في مادة «أخناتون»: «أول حاكم في التاريخ عمل على توحيد الآلهة في إله واحد[3]».

ويقول العالم الأثري الكبير سليم حسن: «ولسنا مبالغين إذا عددنا «أخناتون» أول شخصية في التاريخ أبرز فكرة التوحيد في معناها الحقيقي كما نفهمه، فقد كان يسير على أسس قوامها أن الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي برأ ما في السموات والأرض لا شريك له، وتدل كل الشواهد على أن هذه العقيدة قد انتقلت إلى آسيا وضربت بأعراقها فيها، وبخاصة أن «موسى» عليه السلام قد تعلم في مصر فكان من الأنبياء المتعلمين الذين جاءوا بعد «أخناتون» وورثوا عنه فكرة التوحيد المنزلة[4]».

ونحن نوافق هؤلاء وغيرهم من المؤرخين والباحثين من العرب وغير العرب من الغربيين على أن أخناتون يعد من الأبطال الثائرين على الشرك والوثنية على معنى من معانيها الشائعة، ولكننا

(١ و٢) الفكر الاجتماعي ص ٧٥.

(٣) دائرة معارف الشباب ص ٣٠-٣١.

(٤) مصر القديمة ج ٥ ص ح.

لا نوافقهم أنه أول من نادى بفكرة التوحيد في العالم حتى عصره.

وخير ما يقال في ثورة أخناتون الدينية: إنه انتهى في عبادة التوحيد إلى أرقى ما وصل إليه البشر - باستثناء الأنبياء والمرسلين - من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فهو قد ثار على الأصنام والأوثان والآلهة المختلفة وعدها جميعاً من الكفر والباطل، ونادى بإله واحد أحد، ودعا بصدق وإخلاص إلى إفراده بالعبادة وصرفها له وحده دون شريك أو شبيه أو مثيل.

ولا شك أن بعض الصفات التي أثبتها أخناتون لإلهه هي أسمى الصفات الإلهية التي وصل إليها فكر البشر في كل عهود الشرك والوثنية في إدراك كمال الإله المعبود.

وهذا يسلك أخناتون في سمط الموحدين الذين اهتدوا إلى التوحيد بفطرتهم المستقيمة وثاروا على الأوثان والأوهام والأصنام والأنصاب والآلهة التي اخترعها البشر، وأخلصوا لعقيدتهم إلى أبعد مدى، فقاوموا الشرك بكل ما وسعهم من قوة ومصابرة وقدرة.

ولكن، أهذا الإله الذي آمن به أخناتون ووحّده وأثبت له من صفات القدرة والكمال المطلقينْ ما أثبت هو «الله» الذي عرفناه عن طريق الأديان السماوية وبخاصة دين الإسلام؟.

لاشك عندنا أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، ولا يتشابهان إلا في بعض الأسماء والصفات، فإله أخناتون واحد أحد فرد صمد،

ودعوته القائمة على الوحدانية صحوة يقظة بددت الشرك والوثنية إلى أجل مسمى، ثم أعقبتها نكسة قضت عليها حتى انتهى أمر الوثنية الفرعونية بالفناء على يد الإسلام.

ويصور عبد الحميد يونس في بحثه الذي كتبه بعنوان «أخناتون» في كتاب «هداة الإنسانية في الشرق[1]» إلّه أخناتون بقوله: «فالإلّه عند هذا الملك الفيلسوف شيء والكوكب الشمسي شيء آخر، وتدل النصوص الأثرية على أنه ـ كأمه ـ يرى أن المعبود هو حرارة الشمس «آتون» وأنه سيد آتون أي سيد الشمس، ويتضح من ذلك أنه يعبد الشمس ذات الأشعة المنبعثة نحو الأرض وهي التي تخيلها منتهية بأيد قابضة على رمز الحياة».

ويصوره سليم حسن بقوله[2]: «رأى أمنحوتب في بادىء أمره أن يميز إلهه على الآلهة الأخرى، فرمز له بصورة قرص الشمس الذي تتدلى منه أشعة بأيد بشرية مانحة الخيرات، وجعله قوة خفية تظهر عظمتها ومقدار نفوذها في هذا القرص المادي المجسم» و« إلهه الخفي الذي كان يرمز بقرص الشمس» و «إلهه الجديد الذي كان يرمز له بقرص الشمس وجعل مبادئه «العدالة» و«الحق» و«الصدق» كما حرم تصوير إلهه في أي صورة كانت[3]».

ولم يخرج مؤلفو كتاب «حضارة مصر والشرق القديم» ـ

(١) ص ٤١.

(٢ و ٣) مصر القديمة صفحة ز وصفحة ح من المقدمة.

وهم خمسة[1] ـ في تصوير إلّه أخناتون عما ذكره عبد الحميد يونس وسليم حسن إذ قالوا: «لم يلبث أن اهتدى إلى رمز جديد لإلّهه، فغدا يمثله على هيئته الحقيقية أي على شكل قرص يرسل بأشعته إلى الأرض، وتنتهي الأشعة بأيد تقبض على رمز الحياة[2]».

وكل هؤلاء من قادري أخناتون حق القدر ومن المفتونين به، وتصويرهم لإلّه أخناتون يتفق مع غيرهم ممن كتبوا عنه من شرقيين وغربيين، وهذه الصورة لآتون إلّه أخناتون تختلف عما فهمته الأديان السماوية ـ وبخاصة الإسلام ـ عن «الله» لأن الله عز وجل لا صورة له، ولا يمكن تصويره وتجسيمه ولو في الذهن بالصورة التي بدا فيها أتون.

إن هناك فوارق كبيرة بين أتون والله عز وجل في الوحدانية نفسها، وإن كان هناك تشابه في كثير من الصفات التي نفتقدها في بعض ديانات الشرك والوثنية، ووجود تشابه في أسماء الصفات وفي الصفات نفسها لا يقتضي أن الموصوف واحد.

ونحن لا نرى رأي من يذهبون إلى أن أخناتون أول من دعا إلى التوحيد، لأن الإيمان بهذا القول يحمل صاحبه على إنكار الرسل والأنبياء الذين كانوا قبل أخناتون، وهم دعوا إلى

---

(١) هم الدكاترة: إبراهيم أحمد زرقانه ومحمد أنور شكري وحسن محمود وعبد المنعم أبو بكر وعبد المنعم حسنين.

(٢) صفحة ٢٠٧

الوحدانية الصحيحة من غير تشبيه وتمثيل وتجسيم، ووصفوا الله الحق بما وصف به نفسه.

وإني لأعجب من الأستاذ سليم حسن في زعمه «أن هذه العقيدة (يقصد عقيدة أخناتون) قد انتقلت إلى آسيا وضربت بأعراقها فيها، وبخاصة أن «موسى» عليه السلام قد تعلم في مصر فكان من الأنبياء المتعلمين الذين جاءوا بعد «أخناتون» وورثوا عنه فكرة التوحيد المنزلة» لأن فيه إنكاراً لنبوة موسى عليه الصلاة والسلام ودعوى ـ غير صحيحة ـ بأنه ورث فكرة التوحيد عن أخناتون .

بل تمتد دعوى سليم حسن إلى سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام وتجعلهما من الأنبياء الذين جاءوا بعد أخناتون وورثوا عنه فكرة التوحيد المنزلة وهي دعوى باطلة، لأن الفوارق بين الله عز وجل وأتون كبيرة، لأن توحيد أخناتون لا يخلو من وثنية ومن نقص لصفات الكمال المطلق، فمن تسبيحات أخناتون قوله[1]:

«ويسود الظلام الكون وتسكن الأرض، وما ذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح في أفقه».

و«أنت لمن ذرأتهم الأب والأم، وإذا أنت غربت في الأفق

---

(١) هذه التسبيحات منقولة نصاً من بحث عبد الحميد يونس بعنوان «أخناتون» من كتاب «هداة الإنسانية في الشرق».

الغربي من السماء انطرحوا أرضاً، وأسلموا جنوبهم إلى مراقدهم كالموتى الهامدين، رؤوسهم ملفوفة وخياشيمهم خافتة الأنفاس مسدودة، حتى تبزغ في اليوم التالي من المشرق فترتفع أكفهم إليك يسبحون لوجهك».

فأتون هو الشمس، لأن غيابه تابع لغياب الشمس، فإذا غاب ناموا، وإذا عاد للبزوغ في اليوم التالي بعثوا إلى الحياة (بنو الإنسان أجمعون، والماشية، وكل ما طار وخفق بجناحيه، وكل مادب على وجه الأرض من أنواع الزواحف، هؤلاء جميعاً يبعثون إلى الحياة حين يبصرونك، ويرقدون حين تغيب).

والله عز وجل لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا تأخذه سنة ولا نوم، وليس في حاجة إلى أن يذهب ليستريح.

ودعوة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ليست موروثة من أخناتون، ولا صلة لها بدعوته وفكرة الوحدانية التي نادى بها كما يزعم الأستاذ سليم حسن، فهؤلاء الرسل الكرام معصومون، وليس في تاريخهم وحياتهم وسيرتهم ما يشين، على نقيض حياة أخناتون المليئة بالمخازي.

فسليم حسن الذي جعل «الأنبياء المتعلمين الذين جاءوا بعد أخناتون يرثون عنه فكرة التوحيد » وجعل «موسى» عليه الصلاة والسلام من هؤلاء الأنبياء «هو نفسه يصف أخناتون بما ننقل نصه من الجزء الخامس من كتابه «مصر القديمة».

يقول سليم حسن:

«من الغريب أن صاحب هذه المثل العليا في الإصلاح كان شاذاً في خلقه، وكما يقال شاذاً في عقله، منحدراً إلى الحضيض في بعض تصرفاته».

و«أما شذوذه الخلقي فهذا موضع الغرابة وقد وصل فيه إلى مرتبة يتنزه عنها الحيوان الأعجم إذا صح ما قيل، فإننا لفي شك مريب من تلك العلاقة بينه وبين أخيه «سمنكارع» إذ كان حبه له وتعلقه به خارجاً عن نطاق العقل والمألوف».

و«إن انحطاطه الخلقي ليتجلى كذلك في زواجه من ابنته الثالثة «عنخس ان باآتون» التي أصبحت زوجة «لتوت عنخ آمون» فيما بعد، كما تلمس خشونته في تحوله عن حبه لزوجته الجميلة «نفرتيتي» وسوء معاملته لها على حسب ما توحي به الآثار المكشوفة مما سنفصل فيه القول».

و«مع هذا الإخلاص العظيم للدين الجديد لم يتورع «أخناتون» عن الاستجابة لداعي الشهوة إذا دعاه، فها هوذا لا يزال متورطاً مع أخيه «سمنكارع» في أقبح عادة عرفها الناس، ثم هو لا يخجل من أن يطلق على أخيه لقباً منسوباً من ألقاب الملكة «نفرتيتي» وهو «الجمال الفائق لآتون» (نفر نفرو آتون) ولا يخجل من أن يطلق عليه لقب «محبوبة» ولا يخجل من أن يمثل على لوحة محفوظة الآن في متحف «برلين» تدل على منتهى الاستهتار بالأخلاق والآداب يبدو فيها «أخناتون» ملاصقاً لأخيه «سمنكارع» مطوقاً خصره بإحدى يديه، ويداعب بالأخرى ذقنه

في حب وتدليل، وكل منهما يلبس تاج الملك، ولاشك في أن هذه الصورة تبعث في نفس من يراها معاني كثيرة عن العلاقة الجنسية بين الأخوين، وتعيد إلى الأذهان تلك العلاقات الجنسية الشاذة التي كانت تربط الامبراطور «هدريان» بغلامه «أنطونيوس».

و«لم تطق» نفرتيتي زوجه الجميلة صبراً على ذلك، فقام نزاع بينها وبين الفرعون فهجرت قصرها طوعاً أو كرهاً إلى حي آخر في المدينة يسمى «ظل رع» وانتحت مع «توت عنخ آمون» هذا المكان الجديد، وتركت قصرها الأول «لأخناتون» وأخيه المحبوب «سمنكارع» وزوجته، وهي الإبنة الثانية له المسماة «مريت آتون» ومن هنا وجدنا الملك قد أمر بمحو اسم «نفرتيتي» من كل مكان يتحلى به في القصر، ونقش بدله اسم «مريت آتون» على قصر والدتها «نفرتيتي» مع ذكر نسبتها إليه دون أمها مخالفاً بذلك التقاليد الملكية التي كانت متبعة، على أن هناك أمراً ذا بال ربما كان سبباً في ازدياد النفور بين «نفرتيتي» و«أخناتون» لم يقتصر في ضلالته على الحد الذي ذكرناه، بل إنه تمادى وتزوج من ابنته الثالثة «عنخس إن با آتون» ووضعت منه أنثى سميت بهذا الإسم، فأي صلاح يرجى منه بعد، ولم يكن زواج الملوك من بناتهم شائعاً حتى ذلك الوقت ولا عرف منه إلا ثلاث حوادث من هذا النوع في تاريخ الفراعنة، منها واحدة مشكوك فيها».

و«هذه الحوادث الشاذة هي زواج «أمنحوتب الثالث» من ابنته «ست آمون» ويقول بعض المؤرخين إنها أخته بنت «تحتمس

الرابع» وليست ابنته، والحادثة الثانية هي التي نحن بصددها الآن، أما الثالثة فإنا نعرف أن «رعمسيس الثاني» قد تزوج باثنتين من بناته على أقل تقدير».

وإذا كان أنصار أخناتون ورافعوا لواء الإعجاب به يعترفون بقذارته من الناحية الأخلاقية التي لا تتفق مع أوامر الدين ونواهيه فإن دعوى توريثه الوحدانية من جاءوا بعده من الأنبياء باطلة، ويزيد في بطلانها وفسادها أن الدين الذي دعا إليه موسى وإخوته من الرسل ليس دين أخناتون، وإن كان الشبه قوياً في بعض الأسماء والصفات بين إلهه وإله موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم.

يقول العقاد: «كان عرب الجاهلية مثلاً يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم، ولكن الله الذي وصفوه والله الذي وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف، وبينهما من الفارق كما بين أبعد الأرباب[1]».

وهذا القول نفسه ينطبق على إله الرسل الكرام، ولا يقتضي الاشتراك في الاسم وحدة المسمى، فأخناتون ثار على الشرك حقاً، وثار على الآلهة جميعها، ومحى أسماءها، وقضى على الوثنية والطقوس الشركية، وأعلن في عزم وإصرار وشجاعة الحرب على كل ما يخالف عقيدة التوحيد التي فهمها بنسبة العصر الذي كان يعيش فيه، ولكن هذا كله لا يحملنا على التسليم بما

---

(١) كتاب «الله» ص ٦٧.

زعمه الاستاذ سليم حسن أو غيره ممن بالغوا في تقديس وحدانية أخناتون حتى عدوها أساس فكرة التوحيد التي نادى بها الرسل، لأن الفارق بين توحيد أخناتون والتوحيد الذي دعا إليه الرسل حقاً فارق كبير يجعل كلاً من التوحيدين يغاير الآخر.

فأخناتون يعترف في بعض أدعيته وابتهالاته بأن إلهه أتون يولد كل يوم في السماء إذ يقول: «ياأتون الحي المولود كل يوم في السماء[1]» وعقيدة الرسل الكرام موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه هي «أن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد» وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

ودعوة أخناتون تفترق عن دعوة الرسل ـ سواء الذين سبقوا عصره أم جاءوا بعده ـ أن دعوته «مرسوم ملكي» صدر بقصره الملكي دون أن يكون له طابع الدعوة النبوية، فانتهت دعوته بموته بما يشبه «مرسوماً ملكياً» ألغى سابقه ليموت في المكان الذي صدر منه.

ويكفي هذا لبيان الفارق الكبير بين عقيدة التوحيد لدى أخناتون وعقيدة التوحيد عند الرسل إذا تركنا الفوارق الأخرى بين العقيدتين.

وعلى أي حال لا يمكن تجاهل ثورة أخناتون في تلك العهود

---

(١) مصر القديمة لسليم حسن صفحة ٣١٢.

الممعنة في الشرك والوثنية، وحسبه أنه نهض من بين المشركين يحمل راية التوحيد حسب فهمه الذي يدل على فطنته وعبقريته، ودافع عن عقيدة التوحيد دفاعاً مجيداً وقف نفسه عليه، وتاركاً ما سوى عقيدته من أمور السياسة والحكم.

وأخناتون حقيق بالإعجاب مع سفالته من ناحية الأخلاق وآداب السلوك وعادات المجتمع، حقيق بالإعجاب لأنه اهتدى إلى ما ضل عنه غيره من الفراعنة والمفكرين والكهنة الذين كانوا يؤمنون بعقيدة الشرك.

وليس ذلك بالشيء اليسير في عصر خلا من عقيدة التوحيد، في عصر كان الشرك طابعه حتى أصبح تلالاً من العقائد والعبادات الوثنية بعضها فوق بعض.

وكما كان انبعاثه «فلتة» من فلتات التاريخ بالنسبة للعقائد فإن هذه الفلتة الرائعة لم يكتب لها أن تعيش طويلاً، لأن عقيدة التوحيد التي أعلنها أخناتون لم تسيطر إلا على السطوح، ولم تنفذ إلى الأعماق في غير نفسه وحدها، حتى الذين أخلصوا لها في حياته وناصروه في ثورته وشاركوه دعوته اضطرتهم قوى الشرك أن ينهزموا ويرتدوا، ولأن دعوة أخناتون لم يكتب لها أن تمضي إلى نفوس الشعب، لأن العقائد التي تأصلت فيها كانت تملأ كل أرجائها فلم يكن بها مكان صغير للعقيدة الجديدة، ولأن كهنة أمون لم يقفوا جامدين مكتوفين بين يدي دعوة أخناتون بل اتخذوا لحربها كل ما لديهم من قوى.

وأضعف موقف أخناتون ما كان بينه وبين زوجته الجميلة (نفرتيتي) من جفوة وقطيعة حتى هجرت قصره إلى «ظل رع» أحد أحياء المدينة وعاشت في كنف توت عنخ آمون، وحقد عليها زوجها حتى محا اسم نفرتيتي من القصر.

ودعوة أخناتون ومبادئه الدينية العالية كانت أرقى من عصره وفوق مستوى الشعب الذي لم يكن يفهمها، ووجد فيها كفراً بما ورث من أسلافه من عقائد وما آمن به من ديانته أشربت بها نفسه فقاوم الكفر بما وسعه، وغذى سخطه وأشعل حقده كهنة أمون.

وانتهى السخط إلى الائتمار عليه والعزم على التخلص منه بقتله، ولولا أن حرسه كانوا يقظين لتم لأعدائه اغتياله.

والذين تقبلوا دعوته من أفراد الشعب لم يكن قبولهم إياها عن رضا وطواعية، بل كان خوفاً من البطش، فأظهروا الإيمان بالدين الجديد وأبطنوا عداءه واستمروا فيما بينهم وبين أنفسهم على إيمانهم بآمون وسائر الآلهة التي آمنوا بها، ولم يكن المخلصون لديانة أخناتون غير من انتقلوا إلى أختاتون مدينته المقدسة.

وشعر أخناتون بشيء من خيبة الأمل في حياته عندما واجهته المتاعب فرادى وقرانى وجماعات، وانحل عزمه بعض الانحلال، فتساهل في آخر أيام حياته فترك التمسك بإضافة اسم إلهه آتون إلى أسماء بناته، كما كان يتمسك من قبل، وعاد إلى «رع» الذي ألفه المصريون منذ القديم، ولكنه لم يترك آتون أو يتخلى عن ثورته وعقيدته ومبادئه.

ومما زاد في هزيمته أن المنية عاجلته بعد حكم دام ثمانية عشر عاماً، ومات في الثلاثين من عمره حيث توفي سنة ١٣٦٢ قبل الميلاد حزيناً على ما آلت إليه إمبراطوريته من الانحلال السياسي ومن هزيمة عقيدته التي لم يقدر لها النجاح الذي كان ينشده لها، فاضطر خلفه أخوه «سمخنكارع» أن يغادر أخناتون المدينة المقدسة التي بناها أخناتون لآتون إلى «طيبة» مداهنة لكهنتها ورغبة في استرضائهم والتقرب منهم وتهدئة الفتن التي أثاروها، وبلغ به الأمر إلى أن يمدح «رع» بقصيدة.

وأقبل أعداء أخناتون إلى آثاره فأزالوها من الوجود، ومحوا إسمه من كل مكان، وبتولي «توت عنخ آمون» عاد إلى «طيبة» واتخذها عاصمة ملكه ـ وذلك بعد عامين من موت أخناتون ـ وأعاد إلى كهنة آمون سلطانهم، ونادى في مملكته بعودة سيادة آمون والآلهة القديمة، وبإحياء الأعياد التي حرمها أخناتون، وأزيل اسم أخناتون وإلهه آتون من كل مكان في البلاد، وحرم الكهنة نطق اسمه، بل سموه «الملك المارق» و«المجرم الأكبر» وعادت إلى مصر آلهتها وعباداتها.

وبذلك قضى على ثورة أخناتون وفكرة التوحيد التي نادى بها قضاء تاماً، وأصبحت فكرته في ذمة التاريخ سطراً تضيء حروفه المشرقة من بين ظلمات الشرك والوثنية التي غشيت مصر منذ القدم حتى بددتها شمس محمد عليه صلوات الله وسلامه عندما أشرقت على الكنانة ليهتف صوت الإسلام بكلمة التوحيد الحق.

اليُونَانُ

عرفت اليونان العقيدة كما عرفها كل شعب على تفاوت فيما بينها، ومرت بمراحل العقيدة البدائية، فعرفت عبادة الأشخاص والطواطم ومظاهر الطبيعة وعبادة الأسلاف حتى ارتقت إلى الوثنية المؤمنة بتعدد الآلهة والأرباب.

ولم تبتكر اليونان آلهتها، بل أخذتها من أمم الشرق ومن جزيرة «كريت» وأغرقت آلهتها في الدنس والشهوانية والسفاح والحروب، حتى الآلهة التي ابتكرها خيال الشعراء كان منظوراً في ابتكارها إلى الآلهة الموجودة من قبل، فقد ابتكروا لبعض المعاني آلهة كالأمل والسعادة والقوة والخوف.

ولم يكن هذا الابتكار خصيصة يونانية، فقد سبقهم الشرق إلى اختراع آلهة لكثير من المعاني.

وتصورت اليونان آلهتها حسب أمنياتها وشهواتها، فصوروها صوراً تمتاز بالضراوة والتوحش؛ فالشاب أو الرجل يود أن يخطف فتاة جميلة أو ينتزع زوج غيره، وقد يوفق وقد لا يوفق، فتصوروا آلهتهم على هذا النحو من المنكر.

وبعد أن تدرجت اليونان في مرحلة العقيدة انتهت إلى آلهة الألمب التي هي في حقيقتها وأصولها من آلهة أمم الشرق كالهند والفرس ومصر.

فزيوس كبير الآلهة وبوسيدون وأبولو وريون وهستيا وآرس وديونيزوس وديميتير وأرتميس وأفروديت هي آلهة شرقية تغيرت أسماؤها في انتقالها إلى اليونان مع تغير في صفاتها يقتضيه تغير البيئة والعقلية.

بل إن الفترات التي سبقت فترة آلهة الألمب كانت مدينة للشرق في عقائدها، فكما كانت الآلهة في ديانة بابل وغيرها مظهراً وطنيا كذلك كانت الآلهة في اليونان، فآلهة كل مدينة أو قرية يونانية هي بانية المدينة أو القرية وحاميتها والمدافعة عنها، وواجب على أهلها تبجيل الآلهة وإجلالها، والتجديف في حقها خيانة بشعة يعاقب مقترفها لأنها خيانة للوطن.

فالآلهة بمثابة الملوك تجب طاعتهم واحترامهم، والخروج عليهم إثم وكبيرة في حق الوطن.

وكان كل إله مقصوراً على بلده أو قريته، إلا أن دفقات الفكر الإنساني التي وفدت على اليونان من الشرق حملت معها ألواناً من التفكير الديني الأكثر عمقا واتساعا، وفتحت أمام المفكرين اليونانيين آفاقا جديدة، فقد رأوا أن الإله في نعيم مقيم، والإنسان في شقاء دائم، وهو أمر غاية في التعارض لا يتفق مع العلاقة القائمة بين الإله والإنسان، فلا بد من نقاط لقاء بينهما،

يستطيع لديها الإنسان أن يغير علاقة العبودية بعلاقة الاندماج والألفة فينال من سعادة إلهه ما كان مقصورا عليه.

وفيما وفد إلى اليونان من ثقافة الشرق الدينية ما يتيح لها هذا النوع من العلاقة بين العابد والمعبود، فنشأت ديانة «الأسرار» التي تفتح آفاقا جديدة جميلة أمام الإنسان، وتعد أصحاب هذه النحل بحياة سعيدة في الدنيا وبالنجاة من العذاب أو ينتقلون إلى حيث مقام الآلهة، حيث السعادة والراحة.

ومن هذه النحل وأشهرها: المذهب الأرفي نسبة إلى أرفيوس الشاعر الخرافي الذي ولد من نهر هِبْروس في تراقيا، وقوام مذهبه الإيمان بإله لا شبيه له بين آلهة اليونان، والإيمان بالعدل الإلهي وطهارة الروح وبما وراء المادة من عالم روحي.

ويقال: إن الأرفية هي التي أثرت في الفلسفة اليونانية فيما بعد ووجهتها الوجهة الروحية القائمة على شيء من أساس العقل والمنطق على أيدي فلاسفة يمثلون مدارس الفلسفة في اليونان مثل فيثاغورس وسقراط وأفلاطون.

والأرفية تتفق مع بعض عقائد الشرق الوثنية كالمجوسية والبرهمية لأنها وفدت مع أرفيوس المولود في الشرق حسب ما تفصح الأساطير.

وبحسبنا أن زيوس الذي سلمت له بأنه صاحب العزة

الإلهية كلها هو «ديوس» الإله المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة[1].

وكانت آلهة الألمب موصوفة بأشنع الموبقات وأحط الشهوات فهذا «زيوس» رب الأرباب وكبير الآلهة بل أكبرها طرا فاسق فاجر أثيم، وسفاح زنيم، فقد قتل أباه «كُرُنوس» على بعض الأقوال، وعلى بعضها خلعه من العرش وحبسه، وتزوج أخته الربة «هيرا» وكانت حياته معها خصومة عارمة، ونزا على «ليتو» سفاحا فأنجبت له «أبولو» وخطف صبياً جميلا اسمه «جانوميديس» من أهله وجعله ساقيا له في الألمب، وسطا على عرض «أمفيتروون» حيث تنكر في هيئته وضاجع زوجه «ألكمينا» وولدت له «هرقل» كما تنكر في زي بجعة بيضاء واتصل بـ «ليدا» زوج توندريوس ملك إسبرطة فولدت له «هيلينا».

وكثير من الآلهة مواليد سفاح، وفي الربات زانيات، فباخوس إله الخمر مولود من سفاح، فزيوس كبير الآلهة نزا على أمه «سيميلي» وهي آدمية وابنة كدموس ملك طيبة.

وأبولون - كما مر - إبن زيوس من السفاح، وأمه ابنة عم كبير الآلهة.

وأرتيميس (ديانا عند الرومان) أخت توأمة لأبولون، وهي ابنة زيوس سفاحا.

---

(١) كتاب «الله» للعقاد.

وأثينا (منرفا عند الرومان) بنت زيوس من السفاح، فقد سطا على عرض الحكيمة «ميتيس» وحملت منه بها.

وهيرميس (مركوري عند الرومان) ابن زيوس سفاحاً، وأمه «ميا» بنت أطلس.

وربات الفن التسع المعروفات باسم «موساي» بنات «نيموسوني» ابنة أورانوس مرجيا، زنازيوس بنيمو سوني فولدت له هؤلاء التسع اللاتي أصبحن ربات الفن.

وكانت أفروديت زوجا لهيفايستوس إله النار، ولكنها كانت على صلة أثيمة بأرليس (إله الحرب) وفي إحدى خلواتهما ضبطهما الزوج وهما ملتصقان وأحاطهما بشبكة منعتهما عن الحركة وأبقتهما في وضعهما الآثم، ونادى الآلهة ورأوهما كذلك فأخذوا يسخرون منهما ويضحكون.

هكذا كان آلهة اليونان، وما أكثر قصص مغامرات زيوس نفسه، وما أفظع حقده على بعض أولاده، وعلى البشر أجمعين، حيث عزم على محو العنصر البشري من وجه الأرض فأرسل طوفاناً أغرقها ما عدا قمة جبل «پارناسُّـوس» التي أصعد إليها اثنين من البشر هما: ديكاليون وزوجه پورًا، ولم ينج غيرهما من نقمة زيوس، وإليهما يعزى بقاء الجنس البشري بعد حادث طوفان زيوس.

وأخذ اليونان يتطورون في عقيدتهم الدينية وينتقلون من مرحلة إلى مرحلة مع المحافظة على آلهتهم التي عرفوها.

فبعد أن كانوا يتصورون آلهتهم صورة ملطخة بالدنس والنقائص أصبحوا في عصر «هزيود» الشاعر اليوناني المشهور يتصورون «زيوس» أقرب إلى التنزيه والكمال مما كانوا يتصورونه في سالف العهود.

ولكنه لم يجعل زيوس خالق الكون، بل نصت الأساطير على أن هناك آلهة أقدم منه، ينسب إليها خلق الكون، فجيا (ربة الأرض) تزوجت «كاوس» (رب الفضاء) على يد «إروس» (إله الحب والتناسل) ونشأت من زواجهما الموجودات السماوية والأرضية بما فيها زيوس نفسه.

و «جيا» والدة جميع الموجودات، وزيوس نفسه حفيدها إذ هو ابن كرونوس ابن جيا التي أنقذت زيوس من أبيه حتى لا يلقى المصير الذي لقيه أورانوس من ابنه كرونوس عندما جدعه بمنجله وأسال دماءه وقضى عليه.

وتقول الأساطير اليونانية: إن جيا وإروس نشآ من «خاوُس» المزيج الذي لا يمكن تمييزه، والمكون من الفراغ والمادة قبل وجود العالم.

وآلهة اليونان كثيرة، وتعود إلى طبقتين، طبقة «كرونوس» ثم طبقة «زيوس».

وطبقة «كرونوس» هي الأولى، وتعرف بالتيتانيين، وهذه الطبقة هي الآلهة القديمة التي كان إليها حكم العالم قبل زيوس

وآلهة الألمب، وكانت آلهة هذه الطبقة تعد مراكز لقوى الطبيعة كالسماء والأرض والبحر والفضاء.

وتعود هذه الطبقة في نسبتها إلى «أورانوس» (السماء) وجيا (الأرض) حيث نشأ أفرادها من اتصالهما.

وأورانوس هو السماء أو ملكوت السماوات، ولد من جيا (الأرض) بدون أب، ويقال: إنه ابن الليل المعروف بـ «نوكس» وقيل غير ذلك.

وتزوج أرانوس جيا التي هي أمه على بعض الروايات، وحكم العالم قبل أن يغلبه عليه ابنه كرونوس، وحقد على نسله فقذف بهم في الهوة السحيقة التي تسميها الأساطير «ترتاروس» فغضبت «جيا» غضباً شديدا على أورانوس، وحرضت أولادها على الثورة على أبيهم، فلم يستجب لها غير كرونوس الذي هاجم أباه بمنجل وقتله.

وتذكر الأساطير أنه سبق لكرونوس أن أسخطته كثرة نسل أبيه، فتربص به وهو يختلي بأمه «جيا» واستأصل عضوه التناسلي وقذف به في البحر فنشأ من زبده ومن ذلك العضو «أفروديت» ربة الإخصاب للبشر وسائر الحيوان، وربة الحب والجمال والزواج.

وأما كرونوس فهو أصغر أبناء أورانوس، وتزوج أخته «ريا» فأنجبت له عديداً من الآلهة وفيهم «زيوس» الذي صار فيما بعد أكبر الآلهة اليونانية طُراً.

وكانت نبوءة من النبوءات تقول: إن مصيره كمصير أبيه،

فخاف على نفسه؛ فكاد يبتلع أولاده بمجرد الولادة، ولم ينج منهم غير زيوس الذي بعثت به إلى جزيرة كريت وخبأته فيها ووكلت أمره إلى الحوريات، وقدمت بدله لأبيه حجراً ملفوفا في قماط فابتلعه، حتى إذا كبر زيوس أجبره والده على إخراج إخوته وأخواته من جوفه، ثم قامت الحرب بين طبقة الآلهة المعروفة بالتيتانيين والطبقةالأخرى التي انتهى إلى زيوس سيادتها، وانهزم كرونوس ومن معه، وخلع من عرشه وحبس مع رفاقه في الهوة السحيقة (ترتاروس) وانتهى عهد ألوهية هذه الطبقة ليحل محلها عهد زيوس.

وتقول أسطورة أخرى: إن صلحاً تم بين زيوس وكرونوس انتهى بهذا إلى حكم بعض الجزر.

إلا أن أسطورة تقول: إن كرونوس بعد هزيمته واستلاب عرشه منه طرد من السماء وهبط إلى الأرض، واستقر به المقام في لاتيوم بإيطاليا حيث أكرمه عاهلها جانوس إكراماً عظيًما منحه تلقاء صنيعه شريعة وعلوما ساعدت على حضارة مملكته.

لقد قدم كرونوس لعاهل إيطاليا شريعة تضمن العدل، وحضارة ومدنية، وقدم له علم الفلاحة وغيره وشارك جانوس في العرش وتصريف الأمور، مما ضمن لإيطاليا حياة ناعمة ورخاء عظيًما وتقدماً وازدهاراً، وصار عهد كرونوس عهداً ذهبياً.

ولكن عند استقرار كرونوس في لاتيوم كان يعرف باسم «ساترنوس» وذات يوم اختفى من الأرض فحزن عليه الشعب،

وشيد جانوس مذبحاً وأقام عيداً سمي «العيد الساتور نالي» يبتدىء من يوم ١٧ ديسمبر إلى ٢٤ ديسمبر تخليداً لذكراه وتكريماً له، كما أقيم في العصور التاريخية معبد لساتور نوس في سفح التل المشهور المعروف بتل الكابتولين.

وبسقوط كرونوس انتهى عهد سيادة طبقة التيتاليين ليبدأ عهد زيوس (وهو جو بيترغر الرومان) الذي ارتقى إلى العرش فصار حاكم العالم ورئيس جميع الآلهة والبشر، وإليه انتهت رئاسة زملائه من الآلهة والأرباب.

وعهود وثنية اليونان مظلمة من الناحية الفكرية والعقلية ومن ناحية العقيدة، فلم يبلغ بهم تصور الإِلّه أكثر من أن يضفوا صفات خارقة إليه مع الاحتفاظ له بخلائق البشر وأعمالهم، إلا أنهم أعفوا الآلهة من اللوم على ما يقترفون من آثام ومنكرات لو ارتكبها أحدهم لكان موضع العقوبة والملامة، ووصفوا الآلهة بالخلود.

ومع أن الألوهية اليونانية في عهد التيتاليين وعهد زيوس وزمرته كانت موصوفة بما لا يتفق مع قواعد الأخلاق ومظاهر التهذيب إلا أن هناك مثلاً أخلاقية حرص الشعب عليها برغم غرقه في الوثنية التي تبيح المنكرات، وبرغم ممارسته كثيراً من القبائح والمرذولات. وبرغم إيمانه بآلهته الحادثة في الزمان، هؤلاء الآلهة الألى كانوا يحابون الأصدقاء دون أن تكون المحاباة لفضل فيهم، وينقمون على الأعداء لا لأعمالهم القبيحة بل مجرد عداء لا دخل للخير والشر في ذلك كله.

كان كثير من هؤلاء الوثنيين عـلى جانب من القيم الأخلاقية، فالأوذيسا التي ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد تشيد بالفضيلة، وترفع من قيمة الزوج البار، والزوج الوفية، والحكمة والسداد، والبر والوفاء والأمانة.

ولم تعط اليونان العالم أي جديد في حقل العقيدة والإيمان، بل كانت عالة على غيرها، ولم تضف إلى تراث العقيدة أي شيء إلا بعد أن تناولها علم اليونان وفلسفتها بالبحث والدراسة فأضافا إلى تراث العقيدة ما لا يوصف بالجدة والابتكار لأن ما قدمته الفلسفة اليونانية قائم على أسس الديانات الشرقية التي أخذت منها اليونان وثنيتها، كما دانت في تجديدها الديني للنظريات الشرقية في العقيدة والإيمان.

ومع هذا نقرر أن أثر الوثنية اليونانية في التيتاليين وعهد زيوس وفي عهود مدارس الفلسفة اليونانية قد أثرت في أصحاب الديانات السماوية حتى المسلمين أصحاب عقيدة التـوحيد الخالص أثرت فيهم في أواخر القرن التاسع عشر وفي هذا القرن العشرين.

بل انتهى تأثيرها الوثني السيء في أفراد شواذّ ينتسبون إلى ثغر البلد الذي ظهر منه الإسلام وولد فيه محمد عليه الصلاة والسلام، حتى أن أحد هؤلاء الأفراد الشواذ سمى نفسه «أبولون» إله الشعر المولود من السفاح.

مدرسة ملطية الإيونية

وأما العقيدة الإلهية في عهود الفلسفة اليونانية فهي قد تدرجت حسب المراحل التي سارت فيها حتى انتهت إلى الإيمان بالإله الواحد كما يرى بعض هؤلاء الفلاسفة.

وساعد على نجاح الفلسفة في بحث اللاهوت خلو اللاهوت الوثني اليوناني من كهنة ومن كتاب مقدس، فما ثم كهنة يقفون في وجه حرية الفكر والبحث إذا أرادوا كشف حقائق الأوثان والأصنام، ولا يصطدم الفكر مع نصوص كتاب مقدس.

وهذا ما مهد للفلسفة اليونانية أن تسير مطمئنة في بحث اللاهوت، وإن كان تاريخ الفلسفة لم يخل من بعض الضحايا مثل أرسطو، إلا أن البواعث والأسباب لم تكن في حقيقتها العقيدة الدينية، بل الأحقاد الشخصية أو السياسة أو الكبرياء على السلطة، تلك هي كبرياء العلم والحق والحرية.

لم تخضع الفلسفة اليونانية وأصحابها لسلطة دينية يمثلها كهنة يسيطرون على الفكر ويكبتون حريته، ويحكمون أهواءهم

باسم الدين في قضايا العقل والمنطق والفكر، كما نجت من الخنوع لكتاب مقدس ألقي زمامه لكهنة يفسرون نصوصه حسب ما تمليه عقولهم وأهواؤهم وظروفهم.

ومن هنا استطاعت الفلسفة أن تنطلق في حرية، وتبحث ما تريد بحثه من قضايا اللاهوت ومشكلاته في أمن. وتبدي ما تريد إبداءه من الرأي في جو لا يخنقه أو يكبته خوف سلطان الدين كما كان الحال في فارس ومصر.

ولم يدع الكهنة أن ما بين أيديهم من الطقوس والأناشيد من وحي الله، وكذلك لم يدع الذين ينشدون الأناشيد الدينية أنها من وحي السماء، بل هي أناشيد نظمها أفراد من البشر، ويرددونها وهم يعرفون أنها كلام بشر وليس كلام إله، فلم تكن لها قداسة الكتب المقدسة وحرمتها.

ولم يكن للكهنة سلطان وقدسية بحيث يكون من حقهم أن يطيعهم الناس طاعة عمياء، ولم يكن ما يقولون قضايا مسلمًا بها يفرض الاستسلام المحض والسمع والطاعة.

وكثرة الآلهة والأرباب أدت إلى كثرة الأساطير مما عسَّر على المفكرين من أبناء الوثنية اليونانية أن يحددوا معالم الديانة والعقيدة والإيمان، ويؤلفوا من ذلك الركام الكثير نظرية دينية موحدة قائمة على أسس من النظام، فبقيت العقيدة مبعثرة لا يمكن جمع شتاتها المختلف المضطرب.

وكما كانت الفلسفة في البلدان الخاضعة للديانات المنظمة فإن فلسفة اليونان مسبوقة بالعقيدة الدينية سواء أكانت منبثقة عن كتاب مقدس أم صادرة من أساطير وأوهام.

وإذا بحثنا زمن الفلسفة اليونانية وجدنا أن مبدأه في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وهو زمن تكاملت فيه أديان الشرق في تصور فكرة الألوهية والعقيدة والإيمان بالغيب، وبخاصة الديانة اليهودية التي يحويها كتاب مقدس، وجاء بها رسول من السماء، وقام على حراستها رجال دين هم الأوصياء على الدين والناس ومختلف الأقوال والأعمال البشرية.

وأول الفلاسفة نشأوا في آسيا الصغرى التي وصلت إليها الديانات الشرقية، وكانوا على علم وصلة بها، ومن المقطوع به أنهم تأثروا بثقافاتها وألموا إلماماً حسناً بحقائقها، ووقفوا على كثير من أسرار ديانات فارس والهند وبابل ومصر، دون أن يصطدموا بكهانات وكهان يقيمون أنفسهم أوصياء على الدين والعقيدة والشريعة.

ورأس هؤلاء الفلاسفة الذين يكونون مدرسة ملطية الأيونية «طاليس» المولود سنة ٦٢٤ والمتوفى سنة ٥٤٦ قبل الميلاد، وهو موصوف بأنه أحد الحكماء السبعة، ويصفونه بأبي الحكماء، وبأنه كان متعمقاً في العلوم، عليماً بالهندسة والفلك، حتى أنه أنبأ بوقوع الكسوف الكلي للشمس الذي وقع في ٢٨ مايو ٥٨٥ ق. م.

ويرى طاليس أن الماء أصل الأشياء، فالأرض نشأت منه،

والعالم وأجزاءه من الماء، والأشياء كلها مملوءة بالآلهة التي هي أرواح أو حركة ، حتى حجر المغناطيس الذي يبدو في ظاهره جامداً حي ذو روح لأنه يسبب الحركة عندما يجتذب الحديد إليه، والحديد المجذوب كذلك لأنه تحرك بفعل جذب المغناطيس إياه، فلو لم يكن كلاهما ذا روح لما تجاذبا.

ورأيه في أن الماء هو أصل الأشياء لم يكن رأياً مبتكراً ينسب إلى طاليس فضله، بل سبقته إليه ديانات الشرق في الهند وفارس وبابل ومصر، ولكنه جاء بدليل علمي إذ برهن على أن النبات والحيوان يغتذيان بالرطوبة وهي من الماء، ويولدان من الرطوبة، فالجرثومة رطبة، وأصل الإنسان من سائل.

وبهذه الآراء كانت النقلة من الخرافة إلى العلم، فلم تعد الأسطورة صاحبة السلطان المطلق وإن كان لها شأنها، إنما السلطان للبحث والعقل والعلم والبرهان، وطاليس هو الذي خطا بالفكر الإنساني خطوة واسعة في اليونان، وليس هذا بالشيء اليسير الذي تم على يد طاليس المعدود بحق أول الفلاسفة اليونانيين لأنه كان أسبقهم إلى العلم والفلسفة في موضوع نشأة الكون.

وخالفه في رد الأشياء إلى الماء زميله وصاحبه «انكْسيماندر» (٦١٠ ـ ٥٤٧ ق.م) إذ ذهب إلى أن الماء لا يصلح لأن يكون أصل الأشياء، ونفى أن يكون أحد عناصر الكون الأربعة: الماء والتراب والنار والهواء هو الأصل، بدليل أن أحدها لا يغلب

الآخر ، فلو كان الماء هو الأصل لغلب على غيره والأمر كذلك بالنسبة لسواه، فالماء يحولّ الجامد أي البارد إلى سائل بفعل الحرارة، فالحار والبارد سابقان على الماء، ومعرفة الحرارة لا تتأتى إلا بمعرفة ضدها وهو البرودة، والحقيقة أن هذه العناصر تتساوى في الانتساب إلى أصل أسبق منها في القدم والوجود، لأن هناك «اللامتناهي» الذي تخرج منه الأشياء لتنحل وتفنى فيه في عملية متكررة لا انتهاء لها .

واللامتناهي في إدراك أنكْسيمندر هو المادة الأولى للأشياء الكائنة، وهذه المادة هي الأصل الذي تستخدمه الموجودات في وجودها وتعود إليه عند فنائها، وهذا اللامتناهي يحوي عوالم تند عن الإحاطة والحصر، وكل عالم نشأ من هذا اللامتناهي ، ومصيره المحتوم هو الفناء فيه من جديد في دورات متكررة لعملية الوجود والفناء فالوجود فالفناء دون انقطاع وبلا نهاية، فالحرارة تفني الماء الذي تمتصه ثم تنشىء ماءً من جديد بوساطة البخار المتحول إلى مطر يهبط إلى الأرض ماء وهكذا دواليك، كأن قانوناً صارماً من العدل الصارم يقوم على نشأة العوالم وفنائها، ظهورها واختفائها .

وهذا الجور الذي تتخذه الأشياء في إفناء بعضها بعضاً لتظفر بالوجود هو القانون الذي يصبح قانوناً عادلاً لأنه يعطي قمة الجور ويعوضه لينفذ قانون الحياة، بدوام الحركة وتغير الموجودات مع بقاء المادة «اللامتناهية» الأصلية التي هي غير حادثة ولا فانية .

والمادة الأولى ـ هذه ـ مزيج الأضداد كالحار والبارد

والرطب واليابس وغيرها، ولهذا لا يمكن أن يكون أصل الأشياء أحد العناصر المعروفة الحادثة، فهي متناقضة في جوهـرها وصفاتها، وما دام كذلك ينتفي أن يكون الأصل واحداً ذا صفة خاصة معينة محدودة، إنما الأصل مادة معدومة الشكل والحد والنهاية.

ونشأة الحياة عنده أن الأرض كانت سائلًا، ثم أخذ هذا السائل يتجمد تدريجاً، وفي خلال هذا التدرج تسلطت على الأرض حرارة شديدة أحالت السائل إلى بخار تكونت منه طبقات الهواء، وعندما اجتمعت الحرارة والبرودة، حرارة الجو وبرودة الأرض أخذت الكائنات الحية في النشوء والتدرج والتطور من كائنات منحطة إلى كائنات أرقى بدافع الغرائز إلى التوفيق بين نفسها وبيئتها.

والإنسان لم يكن في حقيقته موجوداً كما نرى فجأةً، بل هو وليد أنواع من الحيوان المائي تختلف عنه في الجنس، حملته ثم بعد زمن طويل خرج منها بمقدرة تمكنه من العيش على اليابسة معتمداً على نفسه.

ونظرية أنكْسمندر في الخلق تتفق مع آراء الهند فيه، فمن آراء بعض فلاسفتها الذين سبقوه نظرية الدورات المتتابعة للأشياء حيث تولد فتموت لتحيا من جديد في خلق جديد آخر وهكذا دواليك.

ونظريته في أصول الحياة انبثاقة سبقت نظرية التطور وأصل

الإنسان التي قال بها دارون، كما أنها لا تختلف عن نظرية الهند أيضاً.

وثالث فلاسفة مدرسة ملطية: الفيلسوف أنكْسيمان (٥٨٨ - ٥٢٤) تلميذ أنكْسيمندر، ولم يضف إلى آراء أستاذه جديداً، وإن كان خالف «طاليس» في المبدأ الأول، وذهب إلى أنه «الهواء» وليس الماء كما يرى طاليس، وخالف أستاذه أنكْسيمندر في بعض ما رآه في «اللامتناهي» فوافقه على أن المادة الأولى واحدة وغير متناهية وغير معينة، وخالفه في أنها غير معينة، وقال: إنها معينة، ورأى أن اللامتناهي هو «الهواء» وخالفه في نظريته في الحركة الدائمة التي تحدث التزاوج والافتراق اللذين يختلفان على الموجودات بصفتين للهواء، وهما: الكثافة والخلخلة اللتان تحدثان الأشياء.

وأيد أنكْسيمان طاليس في المادة الأولى على أنها شيء حسي متجانس، ولكنه ليس الماء بل هو الهواء.

وأسس مدرسة ملطية قائمة على أن العالم محسوس، وعلى محاولة استخدام الملاحظة وإقامة البرهان، وعلى أن كل شيء حادث، يتحول من شيء إلى شيء، وليس موجوداً من العدم، وأن المبدأ الأول مصدر الموجودات بما فيها الآلهة والأرباب.

ولا شك أن مدرسة ملطية فتحت للعقل طريق البحث والدراسة والاستقراء بعد أن كان العقل نفسه مقود الخطى للوثنية الضيقة، وكان الكون ضيقاً محدوداً، فإذا هذه المدرسة تضع حداً

للأساطير وما نجم عنها من نظريات وآراء لا يرضى عنها العقل والمنطق، فكان ما رآه أقطابها نقلة للفكر الإنساني من الظلمة إلى النور، ومن الجمود والضيق إلى السعة والتحرر، ومكنوا الفكر الإنساني من معالجة القضايا في جو البحث الحر الطليق، بعيداً عن الخضوع لعقيدة تقوم بالوصاية على الفكر، ومحاسبته بعسر إذا شط.

ويعود إلى مدرسة ملطية فضل إنجاب فلاسفة خلفوا أقطابها فكانوا أبعد أثراً في تمكين الفكر الإنساني من السير في طريق التطور والتحرر في بحث اللاهوت الذي كان قبل مدرسة ملطية غير موجود، وإن كانت الآلهة موجودة.

لقد كانت ديانة من غير لاهوت بعكس الديانة البوذية فهي لاهوت بغير إله أو آلهة.

لقد أعقب مدرسة ملطية فلاسفة كانوا أبعد نظراً وأعمق أثراً في الإلهيات، لعل أولهم هرقليطس، وليس أولهم إلا لأنه يتفق مع من سبقوا في المبدأ الأول للكون اتفاقاً معاكساً.

فطاليس يرى أن الأصل هو الماء، وأنكسيمان يرى أن الأصل الهواء، وهرقليطس يرى أن الأصل هو النار، وله حجته كما أن لسابقيه حجتهما.

والكون الذي يعود في أصله إلى النار موجود منذ القدم نشأ من نفسه دون أن يخلقه إله أو يوجده بشر، إنه كائن أزلياً ولا يزال وسيظل كائناً دائماً ناراً، ولكنها ليست هذه النار التي ندركها

بحواسنا، بل هي نار إلهية حية خالدة آية في اللطف، أزلية عاقلة، تلتهب بحساب وتنطفىء بحساب، والكون نفسه نشأ من تحول النار الأولي إلى هواء حار تحول إلى هواء بارد وسحاب، وتحولا إلى يابس هو الأرض.

ولما كانت النار المبدأ الأول بدليل غلبته على كل شيء، والتهامه كلَّ شيء، دون أن تكون نهاية الشيء بالتهامه لأن النار قائمة على النقيضين، فهي تميت وتحيي في وقتٍ آنٍ في دورة دائبة الحركة دون وقوف أو انقطاع اقتضت هذه الكينونة أن يحمل كل شيء نقيضه فلا يبدو ثابتاً على حاله، بل يتغير دون انقطاع أيضاً.

فإذا كان تحول النار إلى هواء والهواء إلى سحاب، والسحاب إلى يابس طريقاً أسفل فإن مبدأ النقائض والأضداد يقضي بأن يقابله الطريق إلى أعلى، وهو أن يتحول اليابس إلى ماء والماء إلى هواء، والهواء إلى نار.

وبهذا التغير الدائب الدائم الذي لا نهاية له تستقيم الحياة، والتغير قانون لا يمكن الخروج منه، فكل شيء متغير، والشيء نفسه لا تراه مرتين، فالنظرة الثانية تختلف عن الأولى، وكل شيء هو شيء ولا شيء، موجود وغير موجود، شيء لأننا نراه شيئاً، ولا شيء لأنه يحمل في طبيعته وتكوينه أسباب فنائه الذي يظهر في تحوله، موجود لأنه غير عدم حقيقة، وغير موجود لأن الفناء كامن فيه، ومنتهٍ إليه حتماً إلا النار، فهي المبدأ والمنتهى، وما عداها خاضع لقانون النقائض والأضداد.

وهكذا لا تنتهي الدورة الدائبة الدائمة التي تنشأ من الشيء ونقيضه، ليتم من التقابل والائتلاف قيام النظام الدقيق القائم هو نفسه على أساس العدل الذي يسوي الأمر بين الشيء ونقيضه دون أي نقص أو زيادة.

وإن التغير الدائم من حال إلى أخرى إنما هو تطهير يتفق مع طبيعة النار.

والدليل على أن النار هو المبدأ الأول للكائنات، أن الكون نفسه نشأ منها، والإنسان الذي هو أشرف هذه الكائنات البرهان القاطع، فما روحه إلا شرارة لطيفة منفصلة من النار، ونشاط العقل قبس منها، وكلما كان النشاط أشد اشتعالاً كان العقل أكثر إشراقاً وأشد حيوية، والصراع ملتهب دائماً، فأيّ كائن في أيّ زمان وفي أي مكان منبثق من مجهودين متناقضين، ولكنهما متعادلان أتم التعادل.

ومذهب الشيء ونقيضه الذي ذهب إليه هرقليطس يصلح أن يكون أساس ما قام في الفلسفة الحديثة في موضوع الثنائية، كما أنه يعد بين فلاسفة اليونان أول ذاهب إلى «الكلمة» بمعنى أنها القوة العاقلة المنبثقة في جميع أرجاء هذا الكون، والارادة الإلهية التي يخضع لها كل موجود فيه، والروح العلوية التي يبدو أثرها في كل ما في الوجود الخارجي من حياة وكون، وهذه الكلمة لا تصنع إلا الجميل والخير، لأنها «الله».

ويقول: الله هو الليل والنهار، والصيف والشتاء، والحرب والسلام، والوفرة والقلة، والشبع والجوع، ولكنه يتخذ أشكالاً

مختلفة كالنار التي امتزجت بالتوابل سماها كل ذائق حسب طعمها لديه.

وقد عُدَّ هرقليطس من المدرسة الأيونية التي خلفتها مدارس أخرى؛ ولعل طليعتها بحسب الزمن مدرسة فيثاجوراس (٥٧٢ـ٤٩٧ ق.م) التي أخذت من الديانة الهندية بعض نظرياتها اللاهوتية، فالفيثاجوريون قالوا ـ كالهند ـ بوحدة الوجود، وبالحلول، وبتناسخ الأرواح، وبخلود الروح.

وذهبوا في أصل الكون مذهباً يخالف المدرسة الأيونية، ونفوا أن يكون أحد عناصر الكون الأربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار هو الأصل، بل قرروا أن الأصل هو العدد، فالموجودات أعداد، و«العالم عدد ونغم» و«الأعداد نماذج وأصول، نماذج تحاكيها الموجودات وتتفق مع صور النماذج، باعتبار أن العدد هو الأصل لأنه يلازم الوجود ولا ينفصل عنه، مثل دور الشمس يلازمها ولا ينفصل عنها.

ولم يكونوا يرمزون إلى العدد بالرقم. بل اتخذوا له شكلاً هندسياً، فالواحد نقطة، والاثنان مسطح، والثلاثة مسطّح، والأربعة مربع أو صلب جامد .

وقامت نظريتهم على الحساب المزيج بالهندسة، حتى أن بعض المنتسبين إلى المدرسة ذهبوا إلى أن النفس نوع من النغم، فالحي مزيج العناصر المتناقضة وخليط كيفياتها المتضادة، والنغم توافق النقائض والأضداد في نسب عددية متعادلة.

ومن مذهبهم القول بخلود النفس، والنفس والروح لديهم بمعنى واحد والفصل بين النفس والجسم الذي يؤويها، ولكنها هي التي تحرك الجسم وتعطيه النشاط حتى ينحل بالموت لتنتقل الروح إلى جسم آخر، فالروح خالدة لا تموت، ولديها القدرة على الانتقال بعد أن تمر قبل أن تحل جسمًا جديداً بالجحيم حتى تتطهر ثم تنتقل لتحل في جسم، وليس حتمًا أن تتقمص جسم آدمي، إذ يجوز أن تتقمص جسم حيوان أو تحل في نبات.

ومع قول الفيثاغوريين بفصل الجسم عن الروح فإنهم لم يخرجوا عن المادة وهيولها، بل بقوا محصورين فيها إذ كانوا يتصورون الروح مادة، ولكنها مادة لطيفة كل اللطف، خالدة لا تفنى بفناء الجسم.

وقد تأثرت الفيثاغورية بديانات الشرق في الهند وبابل ومصر التي عرفها الفلاسفة الفيثاغوريين، كما عرفوا اليونانية الوثنية، فجمعوا من كل ذلك فلسفتهم. خليطاً من العقائد، فقالوا بتناسخ الأرواح، ويروى أن فيثاغوراس رأى إنساناً يضرب كلباً فوقفه عن ضربه قائلاً للضارب: إنه تبينّ في عوائه صوت أحد أصدقائه، بل زعم أنه هو نفسه كان في غيره ممن سبقوه، وأن روحه كانت في هرمس إلّه الحكمة، ثم انتقلت منه إلى غيره حتى انتهت إليه.

وأثر فيثاغوراس في زملائه وفي عصره وفي الفلسفة اليونانية وفي الفلسفة عامة، حتى أن في آراء إخوان الصفا ما يدل على تأثير

فيثاغوراس ومدرسته إلى عصرنا حتى أشاد بهذا الأثر فلاسفة محدثون من أكابر فلاسفة العصر الحديث.

* * *

وننتقل إلى مدارس الفلسفة في اليونان موجزين ما ذهبت إليه في موضوع الدين والعقيدة لتكمل صورة البحث لدى القارىء، ونبدأ بالإيليين وهم أربعة:

أكسانوفان ٥٧٠ ـ ٤٧٥ أو ٤٨٠ ق. م.

وبارمنيدس ٥٤٠ ـ ؟

وزينون الإيلي ٤٩٠ ـ ٤٣٠.

ومليسوس ٤٤٠ ـ ؟.

ونلحق بهم أمبدوقليس ٤٩٠ ـ ٤٣٠.

وليس أكسانوفان من الإيليين حقا، وإن كان قد طوَّف بمدن كثيرة في جنوب إيطاليا وسكن إيليا مدة من الزمن، وهي مستعمرة إغريقية بجنوب إيطاليا.

وإذا كان القدماء من الباحثين عدُّوه من الإيليين إذ ربطوا بينه باعتباره ـ على رأيهم ـ مؤسس المدرسة الإيلية وبين بارمنيدس فإن الدراسات الحديثة كشفت الحقيقة وأظهرت أنه يختلف منحاه عن منحى بارمنيدس اختلافاً تاماً لم يلحظ ذلك الذين عدّوه إمام المدرسة الإيلية.

وسبب عدِّه إمامها أن العصور القديمة وهمت من ذهاب

أكسانوفان إلى نظريته في الإلّه الواحد ونظرية بارمنيدس في الوجود الواحد أنهما مدرسة واحدة مع أن فلسفة أحدهما تختلف عن الآخر كل الاختلاف كما سيأتي.

وعلى أي حال فإن أكسانوفان يعد أول ثائر على آلهة اليونان وأساطير هوميروس وهزيود اللذين ابتدعا آلهة كما اختلقا لها صفات.

وهاجم أكسانوفان ديانة اليونان ووثنيتها القائمة على آلهة اتصفت بشر الصفات البشرية وبالرذائل والموبقات البشعة، فهي آلهة تكذب وتسرق وتخطف وتعتدي على الأعراض والحرمات.

وسخر من عباد هذه الآلهة سخريات مرة شديدة، وركبها بالتهكم كما ركبهم بالسخرية، وندد بهوميروس وهزيود اللذين صورا في شعرهما آلهة اليونان صوراً مليئة بالقذارة والبشاعة والشين، وأنحى باللائمة على الذين يشبهون ويمثلون الآلهة تشبيهاً وتمثيلاً لا يتفقان مع جلال الإلّه.

ومن سخرياته اللاذعة بهؤلاء الذين يصورون آلهتهم صوراً شائنة قبيحة تتفق مع حقيقتهم وأخلاقهم أن الخيل والبقر والأسود إذا كانت تحسن الرسم لصورت الخيل آلهتها خيلاً على صورتها، وكذلك البقر والأسود، والاثيوبي يصور إلهه على حسب خلقته أسود وأفطس، وأهل تراقيا ذا عين زرقاء وشعر أحمر.

وبعد هذا الهجوم الشديد على شاعري الوثنية اليونانية وعلى الآلهة وعبادها أعلن أن رب الكون واخد، وهو إلّه كامل، وصبغة

الكمال تحتم أن ينتفي التعدد، وما دام واحد فهو منقطع الشبيه والنظير، فهو لا يشبه البشر في الهيئة والصورة، ويصفه بأنه سمع كله وعقل كله وبصر كله، موجود في كل مكان، ولكنه منزه عن الحركة، إذ لا يليق بجلال صفاته أن يتحرك ويغير مكانه، والله يحرك الموجودات بقوة عقله دون عناء، ولا يجد أي مشقة في التفكير، فهو يصدر منه كما يصدر الضوء من الشمس، وإنه بلا بداية، ولا يمكن أن تكون له نهاية، وهو مشتمل على الموجودات جميعها.

ويعد أكسانوفان أول فيلسوف يوناني ذهب إلى التوحيد والتنزيه، وهنا يخطر على بالنا سؤال لا بد منه، وهو: أكان أكسانوفان يقول بالتوحيد الحق أم بوحدة الوجود والحلول؟.

الواقع أنه لم يفهم التوحيد الحق كما نفهم، فهو إذ آمن بالتوحيد لم ينف وجود آلهة أخرى، فقد ذهب إلى أن الله مشتمل على الكائنات جميعها بما فيها الآلهة المرءوسون له.

وصورة الله في ذهنه كرة لا شيء خارجها، وكل شيء داخلها، وهو بهذا يشير إلى وحدة الوجود وإلى الحلول أيضاً، فالله والوجود شيء واحد، والله حالٌّ في كل موجود لأن كل موجود داخل هذه الكرة.

وقد ناقض أكسانوفان نفسه، فهو يزعم أن الله على شكل كرة تامة التكوير بداخلها كل شيء خلقه، ومع زعمه هذا يقول: لا يستطيع أي فرد من البشر أن يعرف الله، لأن معرفتنا تقف عند

حد الظن، ولن يستطيع العقل البشري أن يدرك حقيقة الله أو يقترب في الإدراك من معرفة هذه الحقيقة.

فهو إذ ينفي قدرة الإنسان على إدراك حقيقة الله كما ينفي معرفته إياه يدعي أن الله على شكل كرة تامة التكوين بداخلها كل موجود.

أليست هذه معرفة وإدراكاً؟.

* * *

ويقال: إن أكسانوفان أستاذ بارمنيدس، إلا أن هذه الأستاذية غير قطعية ولا ثابتة، فبارمنيدس يذهب في فلسفته إلى «الواحد» حسب مفهومه هو لهذا اللفظ، إذ لا وجود لغير الواحد الذي هو الوجود، وتعدد الوجود وتغيره وهم يخدع، ولا يمكن أن يكون حقاً، لأن الوجود موجود، ولا يمكن للوجود إلا أن يكون موجوداً، أما غير الوجود فغير موجود، لأنه لا يمكن إدراكه، إذ هو مستحيل.

وما دام الأمر كذلك فليس لدينا إلا أمر واحد هو الوجود وحده، ونقول: إنه موجود، ولما كان الوجود موجودا فالضرورة تقضي بأن يكون قديماً لأنه مستحيل وغير متحقق بل ممتنع أن يكون الوجود حادثاً، لأن الحادث يقتضي أن الوجود حادث من غير الموجود (اللاوجود) ولما كان اللاوجود غير موجود امتنع أن يكون الوجود من اللاوجود.

وليس للوجود ماض ولا مستقبل، لأن الكينونية التي هي الوجود لا تتغير ولا تفنى ولا تحدث ولا تنتهي وهذا يستلزم ألا يكون خاضعا للزمن ماضياً ولا مستقبلاً، بل الوجود ممتد لأن الديمومة التي تحوي الأبد والأزل دون أن يكون هناك زمن، فالزمن نقلة قوامها التحول والتغير، والوجود لا يتحول ولا يتغير، ويمتنع عليه الكون والفساد، ولا تطرأ عليه الحركة لأنه ثابت ساكن في حدوده ومقيم في نفسه، فلا شيء خارج الوجود ولا شيء يسير إليه، لأن كل شيء خلاه وهم وخداع توجده الظواهر دون أن يكون لها وجود حقيقي.

والوجود ممتنعة عليه الصفات إلا صفة واحدة وليس غيرها وهي صفة الوجود، فهوليس ناقصاً بل كامل لا يختلف عليه الكون والفساد، لا بداية له ولا نهاية، ولا يجوز عليه الانقسام أو التجزئة، بل هو «كل» متماسك، وهو كرة تامة التكوير، لا تختلف الأبعاد عن مركزها بل هي واحدة ومتساوية.

فجميع الصفات بالنسبة للوجود سلبية: لا نقص، ولا كون ولا فساد ولا بداية ولا نهاية ولا انقسام ولا أضداد ولا حركة ولا تغير ولا تبدل إلا صفة واحدة وهي صفة الوجود الثابتة.

وليس وصف بارمنيدس الوجود بأنه موجود من قبيل اللغو أو إثبات المستحيل، لأن الوجود موجود فعلاً وإلا لما سمي وجوداً، إلا أن لبارمنيدس حجته في ذلك إذا أراد إقامتها، فوصف الوجود بالموجود يزيده رسوخاً في الذهن، ويكسبه صفة محسوسة مادية

تساعد الذهن على تصوره، وإن كان بارمنيدس لم يقصد المادية ولا الصورة بقدر ما أراد المثال.

ولكن كل ذلك لم يحمل بارمنيدس على الإيمان بوجود الخالق للكون، بل فالواحد عنده ليس «الله» وليس إلهاً من الآلهة وليس خالق الكون، وإنما الواحد ـ كما تصوره ـ هو الوجود الذي يفهم منه أنه حقيقة الكون إذ تصوره كرة تامة التكوير، وتصوره كذلك لأن الكرة لا بداية لها ولا نهاية.

وأدرك بارمنيدس أن ما يدعيه قد يند عن فهم الكثير فعمد إلى التقريب والتوضيح فذهب إلى أنه في الإمكان تعليل العالم الظاهر بزوج من الأضداد الحسية الظاهرة وقال «إن الأشياء«واحد» في العقل «كثير» في الحس».

فهو ينفي الأضداد وإن كان أباح للتوضيح، فليس هناك برودة لأن ضدها موجود وهو الحرارة، بل الحرارة «واحد» ولا شيء غيرها، أما البرودة فنقص في درجة الحرارة.

وما يظن أضداد ليس إلا مسميات تواضع عليها البشر، أما الحقيقة فلا أضداد، بل «واحد» هو الوجود وليس غير هذا الواحد موجودا.

ولئن كان فيما ذهب إليه بارمنيدس شيء من الغموض فإن تلميذه زينون الإيلي تولى شرحه والرد على نقاده ومخالفيه في الرأي وتصدى للدفاع عن أستاذه الذي لا ينكر فضله في الفلسفة

اليونانية ولا يُجْهَل أثره حتى فيما بعده من العصور وحتى هذا العصر.

ولم يخرج زينون عن فلسفة أستاذه، ولم يضف أي جديد غير إقامة البراهين على صحة نظريات فلسفته، ولا ضرورة لأن نذكر هذه البراهين، فنحن لسنا في مجال التخطئة أو التصويب.

ومليسوس وقف فلسفته للدفاع عن بارمنيدس، وصار من تلامذته، ويفرق عن زينون في المنهج، فزينون اتخذ سبيل الجدل في إثبات ما ذهب إليه أستاذه وهدم ما ذهب إليه خصومه، أما مليسوس فاتخذ سبيل الرد المباشر وتناول الشق الثاني من فلسفة بارمنيدس وهو «غير الموجود» أما الوجود فقد أيده ولكنه أقام البراهين على تأييد أستاذه في غير الموجود وإن كان في كلامه في هذه المسألة تناول الوجود الواحد أيضا.

ومليسوس لم يأت بجديد في مسألة «الواحد» أو الوجود إذا استثنينا الأدلة رآها من وجهة نظره.

وأما أمبدوقليس فيقال: إنه تلميذ بارمنيدس واكسانوفان، وأنه أخذ بعض آرائه من المدرسة الإيلية.

وهو أول قائل بالعناصر الأربعة أو المبادىء أو الأصول أو «الاستقصات» الأربعة: الماء والهواء، والنار، والتراب، وجعلها عناصر الكون دون أن يكون أحدها المبدأ الأول كما ذهب طاليس وغيره، وهو أول من جعل التراب أحد المبادىء الأولى بعد أن كان غير منظور إليه على أنه عنصر ثابت من العناصر.

وليس أحد هذه العناصر بأسبق من غيره، وكل منها مستقل بذاته، ولا يعود إلا إلى نفسه، وكلها على حد سواء في الوجود، ليس فيها أول ولا ثان لأنها متساوية، ولا تكون، ولا تفسر، ولكل منها كيفية خاصة، فالحار للنار، والبارد للهواء، والرطب للماء، واليابس للتراب، ومن اجتماع العناصر بمقدار تكون الأشياء أو من اختلالها نشأ الوجود الذي تخيله كرة.

واجتماع العناصر وافتراقها خاضعا لقوتين متناقضتين هما الحب والكره، والحب هو إله هذا الوجود، ومناقضه البغض، وكان الحب في داخل الكرة التي هي الوجود، والبغض خارجها، وكان البشر يعبدون إله الحب (أفروديت) ويقدمون قرابينهم لها دون أن يسفكوا دما أو يزهقوا روحا حتى اقتحم البغض داخل الكرة وزاحم الحب حتى خرج من داخلها، وما يزال الصراع بينهما حتى ينتهي الوجود لتنتهي معه دورة من دورات الأبد ليبدأ وجود جديد.

ويحسب عمر كل دورة بمقدار عشرة آلاف سنة، وإن الدورات تتعاقب إلى ما لا نهاية.

وذهب إلى أن العناصر الأربعة آلهة، واختار لكل عنصر إسم إله من آلهة الألمب، فالأرض إيدونوس، والنار زيوس، والهواء هيرا، والماء نِسْتِسْ.

وأطلق أسماء هذه الآلهة على العناصر ليزيد ثقة الناس به، فقد كان يصنع الخوارق، ويأتي ببعض الأعاجيب ليخلب

الألباب، وتسمية العناصر بأسماء الآلهة تتفق مع الهالة الدينية التي أحاط بها نفسه.

وكان أمبدوقليس يؤمن بالحلول، ويدعي أن روح إلّه حلت فيه، ويقول: «إني أمشي بينكم إلّها مخلداً وليس بشراً فانيا» وآمن بالتناسخ وادعى أنه كان صبياً وبنتاً وشجرة وطيراً وسمكة بكماء في البحر، ولهذا حرم ذبح الحيوان وأكل لحمه، فقد يذبح الإنسان أباه، وقد يأكل أمه.

* * *

وانكساجوراس (٥٠٠ـ٤٢٨ق. م.) جدير بالذكر في تاريخ الفلسفة اليونانية لأن له ميراث يتفرد بها أو يسبق من جاءوا بعده لأنه أول من ذهب إليها.

وأول ميزاته: إدخاله الفلسفة إلى أثينا، فهو مولود في أقلازومين بالقرب من أزمير من ولاية أيونية، وبعد أن ناهز الأربعين سافر إلى أثينا ناقلاً معه الفلسفة إليها، ولبث بها ثلاثين سنة يدرس الفلسفة ويجهر بآرائه في حماية صديقه بركليس أحد الرؤساء في اليونان.

ومع أن أثينا كانت تدين لآلهة الألمب فإن أنكساجوراس لم يكن يؤمن بها، بل خرج عليها إذ قال: إن الشمس ليست إلآهة بل هي جرم سماوي ملتهب، وكذلك القمر، فهو ليس إلّها، بل جرم يحوي أودية وجبالاً، واتهمه الأثينيون بالإلحاد والخروج على قانون أثينا الذي ينزل أشد العقوبة بمن يعترض آلهة الألمب ويخرج

على عبادتها، ولكنه نجا من العقاب بمسعى بركليس فهجر أثينا.

ومن غير شك أنّ أنكساجوراس عندما نفى أن تكون الشمس والقمر إلهَين وأثبت أنهما جرمان كان ما ذهب إليه ثورة عظيمة في الفكر الإنساني، ويعد أول ثائر أقام ثورته على التجربة والبرهان في هذا الجزء من العالم.

وبنى فلسفته على «البذور» التي قد تكون مقومات لها طبيعة الكل، وهي أصل الأشياء التي تظهر عنها الموجودات ولا تعود إلى عناصر معينة.

وتحتوي «البذرة» على كل خصائص النوع، ولما كانت هي العناصر الأولى فقد حوت كل البذور جزءاً من كل شيء حتى الأضرار، و «أن كل شيء يحوي جزءاً من كل شيء» وهذا يفسر أن الوجود مكون من مبادىء لا متناهية عدداً بقدر الموجودات مهما كثرت ومهما صغرت، وهذه المبادىء مكيفة في أنفسها.

وكانت العناصر الطبيعية جميعها في البدء ممتزجة، ولكن العقل الذي يمتاز بأنه أزلي خالد، وأنقى الأشياء جميعها، ومتفرد بذاته، وغير ممتزج، وواحد لا يتعدد، وغير متناقض أثار حركة دائرية دفعت بفعل هذه الحركة القوية أثقل الأجزاء إلى مركز الوجود لتنشأ منها الأرض، ودفعت أخف الأشياء إلى أعلى أي إلى المحيط الخارجي.

وصفات المادة تمتزج وينفصل بعضها عن بعض، وفيها

النقائض والأضداد، حتى أنّ الجُزَيْء الذي لا يرى يحوي الأضداد لأنه مادة وليس عقلا.

وبهذا يفصل أنكساجوراس بين العقل والمادة، وهذا الرأي يسلكه في سمط الثنائيين الذين يقولون بمبدأين متناقضين.

وإيمانه بهذا الرأي جعله يؤكد حقيقة «الكلمة» (اللوجوس) التي بشّر بها هرقليطس، ولكنّ أنكساجوراس يخالفه ويجعل الكلمة هي العقل (نوس)؛ ويستعمل العقل بدل الكلمة، ويفسره بأنه العقل الإلّهي والكون، أو القوة المدبرة للكون.

والعقل ـ عنده ـ ليس مادة مطلقاً، لأنه لو كان مادة لتحتم عليه أن يخضع للإنفصال والفناء، ولكنه ليس كذلك، ولهذا فهو جوهر نقي كل النقاء، ووصفه بأنه نقي لأنه خلص من المادة، وهو خالد لا يفنى، وينتهي إلى أن يجعل العقل هو الله لأنه علة غائية.

وإذا كان العقل هكذا فإنه مغاير للنفس، فالعقل علّة الحركة في «الكل» والنفس علة الحركة في الجزء الذي هو الكائن الحي سواء أكان حيواناً أم نباتا، والعقل الذي هو العلة الغائية لا نهاية لها لأنها موصوفة بالخلود، أما النفس فإنها تنتهي بانتهاء الحياة ويشترك الكائن الحي سواء الحيوان والنبات والإنسان في العقل ـ الذي هو الصلة بين الله والكون ـ بتفاوت ما كان ليكون لولا تفاوت فيما بينها في اتخاذ الأداة التي تستخدم من قبلها.

ومن نظريات أنكساجوراس التي يعود إليه فضل البدء فيها بين فلاسفة اليونان قوله بعدم فناء المادة ـ حسب الاصطلاح

الحديث ـ وجملته التي جهر فيها بهذا الرأي قوله : لا شيء يظهر إلى الوجود أو يختفي عنه ، بل هناك انفصال أو امتزاج لما هو موجود ، وعلى أي حال : يبدو أنكْساجوراس علمًا ظاهراً بين أسلافه ومعاصريه ومن جاءوا بعده لأنه أتى بنظريات أصول في الفلسفة ما تزال حية قائمة مع التطور الإنساني في ا لفكر والفلسفة والعلم ، وحسبنا أن أرسطو يقول في كتابه «ما بعد الطبيعة» يصف أنكْساجوراس : «بدا كأنه الوحيد الذي احتفظ برشده تجاه هذيان أسلافه» .

* * *

وللمذهب الذري ثقل في ميزان الفلسفة اليونانية ، فهو جدير بالإشارة إليه ، والمقصود بالذرة هو الجزء المتناهي في الصغر بحيث يستحيل انقسامه ، وعبروا عنه بالجوهر الفرد لأنه لا يفنى ولا يتغير، وذهب إمام المذهب الذري «لوسيب» أن سبب عدم فناء الذرة وعدم تغيرها يرجعان إلى تناهيها في الصغر بحيث يستحيل انقسامها ، ولديمقراطيس تلميذ لوسيب رأي في سبب عدم الفناء والتغير يعزوه إلى صلابة الذرة صلابة شديدة تحميها من سلطان الفناء بجميع وسائله ، وللذرة ثلاث صفات أساسية وهي : الشكل والوضع والترتيب ، وهي متشابهة من حيث مادتها .

ولوسيب وديمقراطيس هما قطبا هذا المذهب وصاحباه ، وإن كانت ذرة القرن الخامس قبل الميلاد غير ذرة القرن العشرين بعد الميلاد .

ويقال: إن لوسيب ولد سنة ٥٠٠ ق.م. وخالف بعض الفلاسفة الذين سبقوه، ولم ينكر ما يسمى «اللاموجود» ولم يقف كمن سبقوه إلى الموجود وحده وجعلوه الأصل، بل ذهب لوسيب إلى أن الموجود واللاموجود حقيقتان، واللاموجود مثل الموجود في حقيقته، وهما علتان متكافئتان لوجود الموجود، فالذرات «موجود» تتحرك في اللاوجود، فهما ـ إذن ـ حقيقتان متكافئتان.

وعبر عن الموجود بكلمة «الملاء» وعن اللاموجود بكلمة «الخلاء» فبرز لأول مرة في تاريخ فلسفة اليونان اصطلاحان فلسفيان جديدان أعقبا آثاراً كبيرة فيها.

ويذهب لوسيب إلى أن تكوين العالم من هذه الذرات التي كانت في البدء كتلة واحدة غير متناهية يقابلها الخلاء، فانتشرت الذرات في مختلف الاتجاهات حيث تكونت العوالم التي لا تحصى عدداً، ولكن ديمقراطيس يرى أن الذرات كانت منتشرة في الأصل في الخلاء.

وإذا كانت الذرات تطايرت في مختلف الاتجاهات وأخذت تتصادم في حركة دائبة فإن قانوناً جديداً هو قانون اجتذاب الشبيه للشبيه بدأ يعمل عمله في تلك الذرات التي بقيت بعد نشوء العوالم الكثيرة حيث أخذ الشبيه يميل إلى الشبيه، فتتقارب الذرات ذات الطبيعة الواحدة مبعدة عنها ما يخالفها في الطبيعة.

والنفس الإنسانية تتكون من ذرات، بل النفس عامة ـ وهي مصدر الحياة ـ متكونة من الذرات حتى في الجماد وإن كانت ترى

جامدة في الظاهر، وما موت النفس إلا بزيادة الذرات عن الحد القوام دون أن يحل محلها ما ينفذ إلى الجسم.

ويتسلم المذهبَ الذريَّ ديمقراطيس تلميذ لوسيب فيشرحه ويؤكده ويقيم لإثباته البراهين. ولئن كان تاريخ لوسيب مجهولاً فإن حياة ديمقراطيس معروفة ومشهورة، ومن المؤكد أنه ولد سنة ٤٧٠ وتوفي سنة ٣٦١ قبل الميلاد، وتثقف ثقافةً عاليةً، وأخذ من ثقافة الهند وفارس بأوفى نصيب.

ويبرز بمذهب الذرة بحيث يمكن أن يعد صاحبه لأنه أخذ على يديه صورة المذهب بجميع شروطه. فهو يرى أن كل ذرة لا تشبه الأخرى في الشكل، وكما أن الذرة لا تقبل الانقسام ولا تقبل الانفعال أيضاً، فلا تكون حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة، ولا لون لها.

ولم تكن الذرات بمعزل عن الخلاء كما يرى لوسيب، بل كانت تشغل الخلاء منذ وجودها، وحركتها دائبة، بل الحركة صفة ذاتية من صفاتها، وهي أزلية بدون علة.

ونشأة العالم والحياة عنده مردها إلى الذرات، فالذرات الأصغر حجمًا مضطرة إلى الانتشار في الخلاء الذي يفصل بين الذرات الأكبر منها وليتكون منها العالم، والذرات الأكبر تتقارب وتتماسك فيما بينها ليتكون من ذلك غشاء جامد كثيف على شكل الكرة لا يقف عن الحركة، وبالتدريج تأخذ الذرات الكبيرة بعد

هذا التماسك والتكاثف ليتكون من مجموعها الأرض، في حين أن الغشاء الذي يغطيها يرق حتى يتحول إلى سماء.

وتكونت في الخلاء العظيم عوالم لا يحصيها العد، وفي كل عالم منها مجموعة من الأحياء من جميع الأجناس، ومن اختلاط ذرات النقش المشابهة لذرات النار بالذرات الأخرى تنشأ الحياة في كل مكان.

أما الإنسان فقد نشأ ـ عند ـ ديمقراطيس ـ من الطين بغير خلق أو غاية مثل الديدان، وكذلك نشأ غيره من الكائنات الحية، ثم حل التناسل الذي فرضته القوانين الطبيعية محل التولد الذاتي العضوي.

والنفس مادية لأنها مركبة من ذرات، ونفوس الآلهة تتكون من ذرات ألطف تضمن لها بقاء أطول، دون أن يكون للآلهة أي قدرة تتحكم في مصائر البشر أو غيرهم من الحيوان والنبات والجماد، بل الحكم لقانون الضرورة.

وليس معنى هذا أن ديمقراطيس يعترف بوجود الآلهة بل ينكره ويعزو الوجود إلى الخوف من الظواهر الطبيعية في الأرض والسماء من زلازل وبراكين أو رجوم ومذنبات، وتبعاً لإنكاره أعلن أن لا خوف من الآلهة ولا خطر ولا نفع ولا ضر.

ووجود الآلهة وهم، فالأشياء الخارجية تنبعث عنها ـ تلقائياً ـ صور مادية يشهدها الإنسان مطبوعة فيما بين عينيه والمرئيات،

فيخال وجودها حقيقياً، وكذلك الأمر بالنسبة للآلهة التي يتخيلها في حين أنها لا وجود لها.

* * *

ولمدرسة أثينا في اللاهوت مكانة مرموقة في فلسفة اليونان، وأقطابها ثلاثة: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وهم يمثلون كل جوانب الفلسفة في عصرهم، بل هم مشعلها المضيء الذي لم ينطفىء حتى اليوم.

وإمام هذه المدرسة سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ق.م) وكان صاحب خلق وضمير، ومدلول الحكم عنده هو كمال العلم لكمال العمل، فكان هو نفسه صورة لهذا الكمال الذي يبرهن عليه خلقه ونبله وضميره واستقامته حتى حكم عليه بالإعدام بتهم ملفقة من قبل خصوم سياسيين.

وأولى سقراط الضمير كل اهتمامه، ونادى بأن يكون مردَّ التدين والعقيدة ومصدر الأعمال، وكانت أقواله وأعماله تفصح عن إيمانه بالضمير فلم يتخل عنه حتى وهو مهدد بالموت، وكان في وسعه أن يفر من السجن ولكنه أبى، لأن ضميره يفرض عليه احترام قانون بلاده.

وهذا الضمير حمله على أن يعرف نفسه حق المعرفة، المعرفة التي جعلها في أسمى مقام، فهي سبيلنا إلى الخير والصلاح، وهي التي دفعته إلى التواضع الذي لا زيف فيه ولا رياء إذ قال: الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني لا أعرف شيئاً.

ومع هذا التواضع كان يثق في نفسه وقوله وعمله لأن كل ذلك مبني على أساس المعرفة التي تفهم الخير وتوفقه لاتباع طريقه وتدفعه إلى استماع صوت ضميره.

ولو كان من حاكموه ذوي ضمائر لطأطأوا رؤوسهم إكباراً لسقراط وحياء من ضمائرهم، ولما قبلوا تهمة من التهم الموجهة إليه إذ كان بينها تهمة ادعاء سقراط أنه يسمع هاتفاً لا يكاد يُفارقه، ويُواسيه بروح منه ويلهمه الرشد والصواب، ويهديه إلى طريق المحبة والخير، وينهاه عن الشر والباطل.

وليس متعذراً أن يكون بين بني البشر حِدِّيثون أو أصحاب هواتف كهاتف سقراط.

وحسب سقراط أنه أعاد إلى الناس الطمأنينة بعالم الغيب ـ أيًّا كان هذا العالم المجهول ـ بعد أن هدمه السوفسطائيون، ورجع إلى الناس إيمانهم بالمثل والقيم.

وكان سقراط مؤمناً بوجود الآلهة، فقد سأل أحد تلامذته كاهنة معبد دلف التي تنطق بوحي أبولون (إله الحكمة اليوناني): أهناك من هو أحكم من سقراط، فلما أجابته بالنفي، وعلم سقراط من تلميذه بذلك، بعد إمعان في الفكر وقيامه بسلسلة من الامتحانات قال لتلاميذه وللناس: إن مقصد الإله هو أن حكمته تتجلى في أنه يعرف أنه جاهل، في حين أن هناك كثيرين يحسبون من جهلهم أنهم أصحاب المعرفة والعلم.

فهو لم ينكر وجود أبولون بل آمن بوحيه المنزل على الكاهنة، وكان يعتقد أنه يحمل رسالة سماوية، وأن الله أقامه مؤدباً يعلم الناس احتساباً لا يقبض عن قيامه برسالة التعليم والتربية أجراً، وان القوانين العادلة من وحي الآلهة، واحترام القوانين احترام للنظام الالّهي.

وكان ينزه الآلهة من الصفات الشائنة والقبائح المنكرة والشهوات السافلة والنزاع المحتدم فيما بينها، وما كان يصدق ما تروي الأساطير عن الآلهة، إذ لو صح ما تذكر لتقوض الدين كله، وما يروى عن الآلهة يوقع الشر والبلبلة في القيم الأخلاقية والمثل الرفيعة، فما يعد منكراً وقبيحاً عند إلّه يعد معروفاً وجميلاً عند آخر، والإنسان لا يدري أي الأعمال هي الأعمال الخيرة ولا أيها الشريرة، لأنه ما نسب إلى الآلهة خليط من الخيرة والشريرة، وهي راضية بذلك غير منكرة له.

وكل هذا باطل وقبح لا يتفقان مع جلال الآلهة، فهي منزهة عن هذه النقائص والموبقات.

بل ذهب في أمر الدين مذهباً كريماً، فقال: إن الدين ليس إلا تكريماً للضمير النقي ونفخ روح العدالة الإلّهية فيه.

وما ينفع المؤمن إيمان إذا كان آثماً شريراً، وما تجدي القرابين أصحابها وهم يعملون الشر، وإن الصلاة التي لا تنهي عن المنكر ليست بصلاة.

وكان سقراط يعتقد أن الآلهة ترعى البشر، وأن الروح خالدة ولا تفنى بفناء الجسد، والموت خلاص الروح من سجنها وإطلاق لسراحها حتى تعود إلى طبيعتها الصافية وفطرتها السليمة.

وكل هذا يثبت أن سقراط مؤمن حق الإيمان، ويقظ الضمير الديني، وإن كان إيمانه قائمًا على التصديق بتعدد الآلهة وبما لا يتفق مع التوحيد الحق. ولكنه على أي حال كان بالنسبة لعصره ولبلاده مؤمناً ونبيلاً.

وجاء أفلاطون بعد سقراط، ويقال: إنه وُلِد في سنة ٤٢٧ وتوفي سنة ٣٤٧ ق.م.

وكملت جوانب الفلسفة اليونانية على يديه، وحفلت كتبه بآراء آية في السداد والعبقرية في مختلف المجالات التي ارتادها بفكره القوي الثاقب.

وبلغ في آرائه اللاهوتية مبلغ التوفيق بالنسبة لمن سبقوه من الفلاسفة لولا سلطان البيئة الوثنية التي أثرت فيه ولم يستطع التحرر من ربقتها فآمن بالواحد المنزه والوحدانية كما آمن بالتعدد وبالتناسخ.

ولنظرية المثل التي بنى عليها كل فلسفته دخل في كل ما اعتقد أو رأى، فبين أيدينا مثال وصورة، المثال كامل تام، والصورة ناقصة، والفرق كبير بين المثال والصورة، وخصائص كل منهما تميز الواحد عن الآخر.

فالمثال وجود ذاتي، أي وجد من نفسه، ولم يكن سواه سبب وجوده، وهو الواحد الأول الذي يتعدد ولا يعود إلى سابقه، ولما كان واحداً وأول اقتضى ذلك خلوده وكماله وخروجه عن نطاق الزمان والمكان.

أما الصورة أو الهيولى أو المادة فليس لها وجود ذاتي، لأن غيرها سبب وجودها، ولها بداية ونهاية، ويختلف عليها الكون والفساد، ومقيدة بزمن ، ومحدودة بمكان.

فالجمال المثال غير كل ما اتصف به من حيوان أو نبات أو جماد، لأن له صورة في الذهن أو العقل كاملة، أما الأشياء الموصوفة بالجمال فليست كذلك.

فالإنسان المثال هو الصورة الكاملة الخالدة التي تجمع صفات الإنسان الكاملة الخالدة، أما الإنسان الشخص المحس المرئي فصورة وليس مثالاً، لأنه أي أحد من بني الإنسان ليس كاملاً في صورته وخلقه وعلمه ومعيشته وجميع أموره، بل لا بد أن يكون ناقصاً، في شيء، وأهم نقص فيه أنه يفنى.

والإنسان الصورة يتعدد، فمنه ملايين وعشرات الملايين، أما المثال فواحد وليس غير الواحد.

والمثل وجود مطلق له صورة أزلية في عقل الله، فالإنسان المثل هو الكامل الذي له صورة في عقل الله، أما الإنسان الصورة أو الشخص فهذا الكائن المادي المتعدد الذي لا يحصى لكثرته،

وهذا الإنسان المشخّص محاكاة للإنسان المثل، ولا يمكن أن يكون التقليد مثل الأصل.

ونظرية المثل تصعد بنا إلى الله الواحد، لأنه هو وحده المثل الأعلى دون المثل جميعها، فهو العقل المطلق الكامل، ثابت لا يتغير، بسيط لا تنوع فيه، ولا يجوز عليه التشكل بأشكال مختلفة، ولا يصدر عنه إلا الخير والحق والفضيلة، لا يحده مكان، ولا يغيره زمان، لأن الله في حاضر مستمر، ولم يخلق الزمان إلا للمادة. والجهل بصفات الله هو الذي يجعلنا نضيف إليه الماضي والمستقبل، وما قولنا: كان وسيكون إلا أثر من آثار ذلك الجهل، وهو قديم أزلي لا بداية له ولا نهاية.

ومع هذا التنزيه لله عزّ وجل القائم على التوحيد نجده يقول بتعدد الآلهة دون أن يرتفع بها إلى مقام الواحد الأحد، فهناك آلهة الكواكب وآلهة الألمب والجن، وسبب وجود هؤلاء أن يكونوا أعواناً في الخلق حتى يتم الوجود.

ولما كان الله خيراً كله، ولا يعمل إلا الخير، وكاملاً ولا يعمل إلا الكمال، وجب أن يكون هناك أعوان له يعزى إليهم خلق الشر والنقص بخلق أعمالها في الإنسان والحيوان لئلا ينسب إلى الله فعل الشر والنقص.

ولعل أفلاطون أول فلاسفة اليونان في الاعتقاد بأن الزمان ليس قديماً بل هو حادث لأنه وجد مع السماء، وما وجد الزمان إلا للموجودات لأن لها بداية ولها نهاية ، وليكون صورةً متحركةً

للأبدية الثابتة، لأن الأبدية الثابتة «المثل» تقتضي وجود أبدية غير ثابتة فخلق الشمس والليل والنهار والشهور والفصول ليكون الزمان مقياساً لوجود الموجودات.

والنفس الإنسانية خالدة، وموجودة قبل حلولها في البدن خالدة لأنها إلٓهية وصورة للنفس المثل، وليس خلودها بسببها بل بسبب «خيرية» الصانع الذي لم يرد أن يكتب الفناء على أحسن ما صنع.

ومن عقيدة أفلاطون: تناسخ الأرواح، فالروح موجودة قبل خلق البدن، وبعد خلقه تحل فيه الروح، فإذا كان صاحب البدن الذي تحل فيه الروح صالحاً خيِّراً صعدت إلى الكوكب الذي هبطت منه ليحيا به حياة سعيدة هانئة مثل إلٓه الكوكب، أما إذا غلبت عليه الشقوة بأن تغلبت عليه المادة وعجزت عن مجاهدتها فإن عقوبته أن تحل روحه في جسد أحقر من جسده الإنساني كأن تحل في جسد امرأة وهكذا تتنقل كلما فسد الجسد من جسد حقير إلى أحقر تعاني الآلام، ولا ترجع إلى سيرتها الأولى إلا بعد أن ينتصر العقل على الشهوة فتعود إلى رجل صالح لتصعد إلى الكوكب، ومراحل انتقال الروح في الأجساد هي: جسد المرأة، فالطير، فالزواحف، فالديدان، فالموجودات المائية.

والتناسخ في رأي أفلاطون عقوبة جزاء ما اقترف صاحبها من آثام وإلا لصعدت إلى الملأ الأعلى.

* * *

وخاتمة المدرسة الاثينية أرسطو الذي شغل عالم الفكر والفلسفة في العالم، وأثر في مختلف الثقافات الإنسانية، حتى الديانات السماوية أثر في مفكريها وفلاسفتها، وما يزال يشغل الفكر الإنساني بعبقريته وآرائه.

وقد ولد سنة **٣٨٤** وتوفي سنة **٣٢٢** قبل الميلاد، وهو من تلامذة أفلاطون وحضر أكاديميته حتى عشرين سنة، ولم يغادرها إلا بعد موت أستاذه.

وإليه يعزى وضع «علم المنطق» فقد كان من قبل جدلاً أفسده السوفسطائيون فوضع له أرسطو قوانين وحدوداً حتى أصبح ما وضعه موضع الثقة من جميع الأمم التي أخذت بالمعارف الإنسانية، وإن كان المنطق عند بعض المسلمين زندقة وكفراً، ولعل هؤلاء فهموه جدل السوفسطائيين فأنكروا المنطق، مع أنه قانون يساعد الفكر على تجنب الخطأ لا الجدل السوفسطائي الهدام.

واتخذ أرسطو المنطق كما فهمه قانوناً يعصم الفكر من الوقوع في الخطأ في جميع مباحثه، وأقام البراهين على ما ذهب إليه من آراء.

وجعل أساس فلسفته الطبيعية الصورة والهيولى، وهما المبدآن اللذان هما قوام العالم ، بل هما الهاديان إلى حقيقة الله.

ولا يريد أرسطو من الصورة الشكل، بل مجموعة صفات

الشيء من حقيقة وماهية يقوم عليها وجوده كاللون والوزن إلى ما أشبه ذلك، والعلاقة بين أجزاء هذا الشيء بعضها ببعض، وعلاقة كل جزء بالكل، أو بتعبير آخر، هي: كمال أول أو فعل أول للهيولى من حيث هي قوة صرفة، أي أنها ما يعطي الهيولى الوجود بالفعل في ماهية معينة.

ولما كانت الهيولى موضوعاً غير معين في نفسه فهي ليست ماهية ولا كمية ولا كيفية ولاشيئاً داخلاً في المعقولات التي هي أقسام الوجود، وهي بتعبير آخر معروف في الفلسفة: ما بالقوة وما بالفعل، أيْ أنها أيُّ شيء بالقوة، إلا أنها ـ بالفعل ـ شيء معين، والذي منحها هذا التعّيين هو الصورة وإلا فالهيولى في ذاتها لا تحد ولا توصف. ولا صورة لها ولا مظهر إلا بالصورة.

وما ثمَّ موجود إلا وهو يحوي من المبدأين (الصورة والهيولي) بنسبة تختلف نسبة أحدهما عن نسبة الآخر.

ولما كان العالم متدرجاً في سلم الرقي كان نصيب الموجودات الراقية من الصورة أعظم من الهيولى التي هي المادة، ونصيب الموجودات الخسيسة من المادة أكثر من الصورة.

وكلما غلبت الصورة على المادة كان الرقي، وكلما غلبت المادة على الصورة كان الانحطاط والسفول.

وما ثمَّ شيء يخلد في تكوينه الوجودي من المادة إلا الروح

الإنسانية قبل اتصالها بالبدن وبعد انفصالها عنه بالموت، وإلا العقول محركة الكواكب وإلا الله.

والذروة العليا للموجودات هي الصورة المجردة الخالصة من المادة، وليس كمثله موجود ولو كان روحاً إنسانياً أو عقولاً محركة للكواكب، لأن الله وحده أرقى الموجودات طراً بلا استثناء.

و «الله» هو الموجود حقاً لأنه أكمل صورة، ولكن أرسطو ينفي عن الله صفة الوجود مبالغة منه في التنزيه، فالله لا يوصف بالوجود لأن نقيضه العدم، ولأن صفة الوجود يشترك فيها المخلوقات، وتعالى الله أن يشترك معه خلقه في صفة.

وينفي أرسطو عن الله العمل، فكما أن الله أحد غير واحد، ولا أول له، ولا آخر، فإنه لا إرادة له ولا عمل، وهو إذ يثبت لله صفة الأحدية ينفي الواحدية، لأن الأحدية تنفي التعدد، أما الواحدية فتثبته، فالواحد يتكرر، فالاثنان مكرر الواحد، أما الأحد فلا يتكرر. ولذلك كان العلة الصورية والعلة الغائية والعلة المحركة للوجود كله، ولما كان الله هو العلة الصورية كان ـ بطبيعة هذه العلية ـ المثل الأعلى والعقل المطلق، ولما كان الله «العلية الغائية» اقتضت هذه العلية أن يكون غاية الغايات، ولما كان الله «العلة المحركة» فهو المحرك الأول الذي ليس قبله شيء، إنه المحرك الأزلي الذي يحرك ولا يتحرك.

وطبيعي أن كل المتحركات تتحرك من محرك، وكل محرك مسبوق بمحرك حتى ينتهي الأمر إلى المتحرك الواحد الذي ليس

كمثله شيء وليس قبله شيء، لأنه قديم أزلي، ولا يتحرك المحرك الأول لأن الحركة تناقض الثبات والكمال، ولأنها تتنافى مع كمال المحرك الأول، ولأن في تحركه إنكاراً لأزلية الحركة.

ومن صفات المحرك الأول الذي هو الله الكمال المطلق، والعلم المطلق، والتنزه عن النقص والعيب والتعدد والتركيب، ولهذا كان الله منزهاً عن الارادة ، لأن الارادة - أولاً - تغير يطرأ على إرادة الله، ولما كان الله منزهاً من الحدوث فهو منزه عن الارادة، وكذلك يتنزه الله عن الإرادة لأنها - في رأي أرسطو - طلب، والطلب محال على الله إلا بالنسبة لذاته، فلا يطلب أحد غير ذاته، وهي اختيار بين أمرين، والله منزه عن الاختيار.

ومن تنزيه أرسطو لله أنه ينفي عنه العلم بالكليات والجزئيات لأنه علم يخص العقل البشري، والله منزه أن يتصف بصفات خلقه، والتعدد والتركيب.

ولما كان الله كذلك فهو لا يفكر إلا في نفسه، فهو المُفَكِّرُ والمفكَّرُ فيه، وهو لهذا لا يعقل إلا ذاته، أما ذات غيره فلا يعقلها، لأنه لا يفكر إلا في الكمال، وذات غيره غير كاملة، فهو لا يفكر فيها. فهو مستغن بوجوده عن كل موجود، والوجود العام أزلي لا أول له في الزمن، ولكن الله سبقه سبق علة لا سبق زمان كما تسبق المعرفة النتيجة في العقل، ومن هنا كانت صلة الله بالوجود صلة منطقية، صلة المقدمة بالنتيجة، وهذه «الزمنية» التي تظهر من قبل وبعد بالنسبة للخالق والمخلوق ليست حقيقة واقعة بل هي مسألة

ظاهرية يوضحها أن النتيجة تسبق المقدمة في الفكر لا في الزمن، فالله أول في الفكر لا في الزمن، لأن الزمن ليس شيئاً حقيقياً ولكنه مظهر ، هو مقياس الحركة.

والوجود أزلي قديم في رأي أرسطو، وليس حادثاً، لأن حدوثه معناه أن الله أحدثه، وهذا الإحداث يقضي تغيراً في إرادة الله، وجل جلاله من أن يحدث تغيير في إرادته.

والعالم واحد، وبرهان أرسطو على وحدانيته أنه لو كان هناك عوالم متعددة للزم تبعاً لهذا التعدد أن تكون هنالك مبادىء محرِّكة متعددة تتفق نوعاً وتختلف نوعاً.

ولما كان الموجود الأول خالصاً من المادة وجب أن يسلم من التكثير أي التعدد، لأن المادة هي التي تكثر الصور، وخلوص الموجود الأول من المادة جعله واحداً مثل المحرك الأول الواحد.

والعقل الفاعل أزلي أبدي لا أول له ولا آخر، هبط إلى الجسم من الخارج ويفارقه عند الموت.

وكذلك الكواكب بما فيها الشمس والقمر أجسام إلهية - كما يرى أرسطو - ويصدق ما جاء في العقيدة القديمة التي تذهب إلى أن الكواكب آلهة بشرط تجريدها من الأساطير والتصاوير البشرية والحيوانية التي كانت للتضليل والخداع والفسق، وتعد هذه الكواكب محركات أزلية.

وما ندري، كيف يتفق توحيد أرسطو مع هذا الشرك الذي

وقع فيه، إذ قال بالوحدانية وقال بالتعدد، مع أن أفلاطون ـ الذي حمل أرسطو عليه في نظرية المثل وفي الآله وفي آرائه الأخرى ـ قال بالتعدد ولكنه قال: إن الآلهة الأخرى مصنوعة، ومع أن العامة في اليونان في عهد الظلام ذهبوا إلى القول بوجود إله أكبر تدين له الآلهة الأخرى.

ولعل أرسطو ذهب إلى الحلول، ففي بعض آرائه ما يشير إليه، فهو يذهب إلى أن الله حالٌّ في كل شيء، وكل شيء مظهر له.

* * *

ومدرسة أبيقور (٣٤٢ ـ ٢٧٠ق.م) ذات شأن مرموق في الفلسفة اليونانية، وكانت تنافس المدرسة الرواقية، وبلغ أبيقور في تلامذته مكانة لم يبلغها إمام مدرسة يونانية، وانتهى بهم حب أستاذهم إلى الإجلال والتقديس حياً وميتاً.

واشتهرت حديقة أبيقور شهرة عالمية حتى أن أناتول فرانس الفرنسي ذائع الصيت ألف كتاباً سماه «حديقة أبيقور» وأسس بعض المفكرين حدائق على غرار حديقته وإن لم يكونوا قد أطلقوا عليها إسم حديقة.

ووضع أبيقور أسس مذهبه وشيد عليها بناءه، ولم يزد تلامذته مدى ستة قرون أي جديد يذكر على مذهبه، ولا يعدو ما زادوا على الشرح والتبسيط.

وبنى أبيقور مذهبه وهو يقصد إزالة الخوف من المجهول

ومن الآلهة أيضاً، ويحل محله الراحة النفسية القائمة على اللذة السهلة التي فهمها العامة وكثير من المتعلمين فيما بعد على أنه مذهب اللذة الخليعة المستهترة، ولم يكن أبيقور يقصد إليها.

ولم يعن أبيقور بالطبيعة مثلما عني بها أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان، بل وقف عنايته بها في مجال ضيق أراد منه أن يقضي على المخاوف التي أوجدتها الأساطير وملأت بها قلوب البشر.

ولما كان أبيقور مادياً في مذهبه فقد وقف في وجه تلك المخاوف التي ملأت القلوب وجعلتها تهتز جزعاً وهلعاً من الغيب المجهول الذي لا وجود له في عالم الواقع، فلا حقيقة لغضب الآلهة وانتقامها وجبروتها، ولا صحة للمزاعم القائلة: إن هناك عقوبة مفروضة لا مفر منها في الحياة وما بعد الممات، ولا صحة ـ أيضاً ـ لما يقال في العقاب الأخروي لأنه لا وجود لعالم آخر.

وليس حقاً ما يسببه الخوف من الظواهر الجوية، بل يجب ان يتخلص البشر منه ومن كل أنواع الخوف وأسبابه وبواعثه حتى يعيشوا سعداء آمنين هانئين في هذه الحياة.

لماذا يخافون من الكسوف؟ إنه شيء طبيعي، فسببه توسط القمر، أو توسط جسم غير منظور، ولا شيء غير علة ينجم عنها هذا الذي ينتفض له الناس خوفاً وعندما يتخلص البشر من المخاوف التي تسببها الخرافات والأساطير والأوهام يحيون حياة سعيدة ولا يكدر صفوها ما يكدره مما لا وجود له.

وفي رأي أبيقور أن الأحياء جميعاً نشأوا مصادفة ثم بقى الأصلح، وكل شيء مادي، والأرواح نفسها مادية، فالروح جسم حار لطيف كل اللطف، ويتألف منه ومن الجسم كيان واحد، وتنحل الروح بانحلال الجسم، لأنهما من مادة واحدة هي الذرات التي يتكون منها كل كائن.

ومادام الأمر كذلك فلا لزوم للخوف في الحياة والخوف مما بعد الموت لأن الإنسان لا شيء بعد الموت، وكل ما نعرفه عن العالم الآخر وهم أوجده خداع الحواس وما يتلقاه المرء في المنام من أحلام شريرة مخيفة يظنها نذراً من الآلهة.

كل شيء غير المادة باطل ووهم وخداع، وعلم الطبيعة يعيننا على التخلص من الأوهام وما تسبب لنا من آلام وأحزان وأكدار، والذين يعلمون من حقائق هذا العلم سعداء، لأنهم يدركون أن الطبيعة قائمة على قوانين ثابتة، فالكسوف ليس غضب الطبيعة أو الآلهة أو القدر، بل هو حالة ناشئة من توسط القمر بين الأرض والشمس أو أي تفسير لا يخرج عن خلل طرأ على النظام الثابت فحدث ما يزول بزوال الطارىء المستجد.

والموت لا يخيف من يدرك حقيقة الطبيعة، فهو يعلم أن الموت نهاية الروح والجسم، والعامة يتخيلون أن الجسم الميت يحس فتفزعهم ظلمة القبر وتآكل الجسم وتعفنه وما في عالم القبر من أهوال.

ولكن الذي يدرك ويعلم لا تخيفه تلك الأوهام، لأنه يدرك

أنه حين تكون الحياة لا يوجد الموت، وعندما يكون الموت تنعدم الحياة، وما دام الموت فناء تاماً للجسد والروح فلا مخافة.

والخلود بعد الموت وهم باطل، والذين يعلمون لا يفكرون في خرافة الخلود ولا يأملون فيه لاستحالة وجوده، ولا يشغلون أنفسهم بالأسف عليه لأنه وهم وخداع.

وما دام الأمر كله كذلك فالخير أن ننتهز فرصة الحياة فنسعد بها ونستزيد من اللذة.

والآلهة - في رأي أبيقور - موجودة وأشكالها كالبشر، إلا أن صورها على أجمل ما نتصور، وأجسامها آية في اللطف لأنها تتكون من النور، وتتحرك حركة دائمة فيما بين العوالم دون أن تندمج فيها، لأنها بمعزل عنها، وهي مشغولة بالسعادة الوافرة والنعيم المقيم، مشغولة بذلك عن البشر، ولا تتعب أنفسها بأحوالهم والتفكير في أمورهم، أو التدخل في شؤونهم، أو محاسبتهم ومعاقبتهم، ولا تريد منهم ولاء ولا قرابين، لأن لا وقت لديها للتفكير فيما يعملون من حسنات أو سيئات، ومن العبث استرضاء الآلهة بالقرابين لأنها لا تفكر فيهم ولا تهتم بهم، فعلى بني الإنسان أن يطمئنوا ولا يشغلوا أنفسهم بالتفكير في الآلهة أو الخوف منها، وأن يتخلصوا من هذا الخوف، وأن يقبلوا على الحياة ينهلون من لذائذها ويغترفون من السعادة قدر ما يستطيعون.

إن أبيقور أنكر الخلود والبعث والثواب والعقاب، وأراد أن يقضي بمذهبه على ما كان سائداً في اليونان من عقائد تقوم على

القدر العابث بالمصائر، والعذاب الأليم فيما بعد الموت حيث تتجمع الكواسر والوحوش لتذيق الناس صنوف العذاب الشديد.

وبهذا الإنكار أراد أن يجعل الحياة هي المدة التي يعيشها الإنسان ولا شيء غيرها، فحري به أن ينعم فيها باللذة والسعادة.

ومن المفارقات أن أبيقور الذي يرى هذه الآراء في الآلهة كان يختلف إلى معابدها يشارك الناس في أداء الشعائر والفروض، وتزول المفارقة حينما نعلم أنه آثر اللذة التي تفيض عند راحة النفس إرضاء للعامة واجتناباً عن المنغصات لتتوفر اللذة والسعادة بهذا الثمن الرخيص.

* * *

وللمدرسة الرواقية لاهوت أشبه بلاهوت بعض الديانات الكتابية على اختلاف في الأصول والشعائر، وأثرت الرواقية ببعض نظرياتها في آراء بعض المفكرين من معتنقي ديانات السماء (اليهودية والمسيحية والإسلام) وبخاصة في مسألة «الكلمة» (اللوجوس).

ولاهوت الرواقية لا يعود إلى فيلسوف واحد من فلاسفتها، بل يعود إلى غير واحد منهم، وواضع أصولها هو «زينون الأكتيومي (٣٣٦ ـ ٢٦٤ ق. م) وخلفه كليانتس (٣٣١ ـ ٢٣٢ ق. م) وكريسبس (٢٨٢ ـ ٢٠٩).

هؤلاء أقطاب الرواقية الذين يعود إليهم تأسيس المذهب بجزئياته وتفصيلاته، فما نذكره مما يختص بالطبيعة واللاهوت إنما هو لهم أو لأحدهم أو لبعضهم.

والرواقيون ماديون، والمعرفة عندهم حسية، وأساس مذهبهم أن الوجود كله مادة وليس فيه غير المادة، بل الله نفسه مادة، والوجود واحد، ونشأ من مبدأ واحد، فالجسم والروح ـ تبعاً لذلك ـ من عنصر واحد، الجسم يعين الروح على الفكر، والروح يعين الجسم بالحركة.

والمادة التي صيغ منها الوجود تعود إلى مبدإ واحد هو «النار» كما ذهب هرقليطس، ولكن الرواقيين عندما وافقوه على المبدأ خالفوه فيما عدا ذلك، فذهبوا إلى الحلول فزعموا أن الله حالٌّ في العالم كله، فهو ـ جل جلاله ـ نفس العالم، والعالم جسم الله.

والله ـ في رأيهم ـ هو النار الأولى والمبدأ، ونفس الإنسان نار، والعالم كله نشأ من النار وإلى النار يعود، ولكنها ليست هذه النار التي ندركها بحواسنا، ولكنها النار المبدأ، وهي لا تفنى.

والعالم الرواقي مكون من الأرض والسماء بما فيهما ومن فيهما، يحيط به خلاء دون أن يكون في داخله خلاء، لأن كل خلاء بداخله مشغول بأجسام وأشياء فلا يسمى ـ والحال كذلك ـ خلاء.

ولما كان العالم كائناً حياً مفكراً عاقلاً فهو ذو نفس منبثة في

كل مكان مثل انبثاث الله في كل شيء، ومع ذلك فالله يتخذ مكانا خارج العالم، يقع في المحيط الخارجي - على قول - أو يقع في قلب العالم على قول آخر.

ونفس الإنسان منبثة في كل أجزاء جسمه، ولكن للروح مكاناً منه مع هذا الانبثاث.

وطبيعي أنه لم يكن في الوجود غير الله الذي هو النار المبدأ التي تحركت فتحول جزء من الله هواء ثم تحول جزء منه ماء، ورسب من الماء ما ثقل فكانت هذه الأرض وما لطف من الهواء أثيراً وناراً إلهية، ومن مزيج العناصر الأربعة: النار والماء والهواء والتراب كان هذا العالم.

وكما أن العالم نشأ أصلاً من النار فإنه سيعود بعد ١٨٠٠٠ سنة إليها ليتجدد خلق العالم مرة ثانية وهكذا إلى ما لا نهاية، وفناء العالم محتوم بأن يحترق، وذلك عندما يجف الماء من الأرض يقوم الله الذي هو الإله زيوس النار المبدأ فيرسل اللهب الذي يلتهم العالم كله بموجوداته جميعا حتى لا يكون في الوجود غير زيوس في صورة واحدة، ثم لا يلبث الوجود أن ينشأ من جديد مثل العالم السابق في كل شيء دون أن ينقص منه شيء، فالناس الجدد هم أولئك الذين كانوا من قبل، وتتكرر الأعمال والأحداث والحوادث وكل ما كان.

وقال الرواقيون بالكلمة مثل هرقليطس، ولكنها عندهم هي العقل الفعال المدبر للكون أو العقل الكلي الذي يمد العقول

الجزئية بكل ما فيها من نطق وعلم، وخالفوا هرقليطس وأنكساجوراس في حقيقة هذا العقل، فذهبوا إلى أن هناك العقل بالقوة الذي هو العقل الكامن، وهناك العقل بالفعل، وهو العقل الذي تتمتع به المخلوقات[1].

وهذا العقل هو الذي أبدع الموجودات كلها، وهو الله خالق كل شيء، والله جوهر العالم وحقيقته، لأن الكلمة (اللوجوس) التي هي العقل مصدر الموجودات، وفي الوقت نفسه الجوهر الماثل في كل مكان، والذي تكونت منه الموجودات جميعا، وإذا كان الله جوهر العالم فالعالم هو أيضا جوهر الله.

ولما كانت الكلمة (اللوجوس أو العقل الكلي الذي هو الله) مصدر الوجود فهو قانون وقع بموجبه كل أحداث الماضي كما تقع بموجبه أحداث الحاضر والمستقبل. وهو القضاء والقدر حيث لا فكاك لأحد منه، وليس معنى القضاء والقدر أن الإنسان مسلوب الحرية والإرادة كما يقول كريسبس ـ أحد كبار الرواقيين ـ بل قال كريسبس: إذا كان مقدراً علي الشفاء من المرض فإنه من المقدر أيضا دعوة الطبيب، ويجب أن نفهم الأشياء على أن بعضها مرتبط ببعض.

وعلى ما تقدم يثبت أن الرواقيين آمنوا بوحدة الوجود إيماناً

---

(١) انتفع بهذا التقسيم مفكرو اليهودية والمسيحية وكذلك مفكرو المسلمين في بحوثهم في الكلمة. راجع مجلة «كلية الآداب» بالجامعة المصرية. المجلد الثاني، الجزء الأول مايو ١٩٣٤.

عميقا، فتصوروا الله والكون بجميع أجزائه وحدة متماسكة، والقول بوحدة الوجود جعل الرواقيين يقولون: «إن الله مادة» وهو علة الأشياء مثله مثل غيره من العلل، فالله كان في الإنسان ومنبث في كل شيء.

وقالوا: إن الله خالق كل شيء، وموجود أزلي باق كامل حي دائم عاقل سعيد مبرأ من كل نقص وعيب، واتحاد الموجد والموجود يحتم أن الله واحد، وما الآلهة الشعبية بمناقضة هذه الوحدانية، فهم يؤمنون بها ويذكرونها بأسمائها الأسطورية ويوافقون العامة عليها، إلا أن هذه الموافقة ظاهرية، أما الحقيقة ـ فكما يرى الرواقيون ـ فهي أن هذه الأسماء إن هي إلا أسماء الله بحسب صفاته أو رموز تدل على حقائق.

يؤمنون بوجود الله لأن إجماع الناس على الإيمان به دليل وجوده، إذ من غير المعقول الإيمان بغير موجود.

* * *

ولم نكتب عن السوفسطائيين والشكوكيين لأن السوفسطائيين كانوا ينكرون وجود الله، فبروتاغوراس (٤٨٠ ـ ٤١٠ ق. م) يقول في كتابه «الحقيقة»: «لست على يقين إن كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة، فإن أموراً كثيرة تحول بيني وبين العلم بوجودها».

والشكوكيون لم يبحثوا في العقيدة فهم بعيدون عن مبحثنا.

وهذه المدارس الفلسفية اليونانية كلها استطاعت أن تحدث آثاراً قوية في العقل البشري، وبخاصة في العقل الأوربي والعقلية الغربية.

أما ما يتصل بالعقيدة فما جاء في العقائد اليونانية المختلفة أثَّر في ديانة أوربا تأثيراً بالغاً عميقاً، وديانة أوربا هي المسيحية، وهي الغالبة عليها، وقد تأثرت بعقائد اليونان كما تأثرت بها اليهودية.

ولم يقتصر التأثير في مسيحيي أوربا ويهودها، بل أثرت العقائد اليونانية بطقوسها وتعاليمها وخرافاتها وأساطيرها في المسيحية واليهودية.

أما تأثر المسيحية فمتسع كل الاتساع مع العمق الذي تنتهي إليه العقيدة.

يقول الدكتور هـ. ا. ل. فيشر عضو الجمعية الملكية بلندن وعميد الكلية الجديدة باكسفورد في الفصل الذي كتبه في الموسوعة المعروفة بتاريخ العالم:[1]

«إلى أي حد بعيد كانت المسيحية ذاتها مدينة للإغريق؟ لقد بيّـن الدكتور شارلس أن «عهد البطارقة الإثني عشر» الذي يشتمل على موعظة أخلاقية عظيمة الشبه «بموعظة الجيل» هو أثر سابق للمسيحية، وعقيدة خلود الروح إغريقية وليست يهودية، وكذلك

(١) تاريخ العالم. الترجمة المصرية، والفصل الذي كتبه فيشر مترجم بقلم محمد عبد الحافظ، راجع الفصل في ص ١٧٣ - ١٩٣.

عقيدة الكلمة Logos التي أوحت بإنجيل يوحنا، ومن المسلم به اليوم أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين المسيحية في عهدها الأول وبين الديانات الإغريقية ذات الطقوس الخفية، وفكرة الطقوس الدينية المقدسة التي تتطهر بها الروح من الخطيئة ترجع إلى العقائد الموروثة عن أورفيوس وإليها كذلك يمكن أن ترجع التصورات المسيحية في القرون الوسطى، والشائعة اليوم بين الجماهير عن أوصاف الجحيم والمطر والجنة.

«وبعض النقاد يصفون المسيحية بأنها صورة مهلهلة من الحضارة الهيلانية، وآخرون يصفونها بأنها آخر صورة للعبقرية الإغريقية وأعظمها، وحاول غير هؤلاء تغليب الأثر العبري على الأثر الإغريقي في عقائد الغربيين المحدثين، وأن يجدوا في الأفكار اليهودية المرجع الذي قام عليه القداس الكاثوليكي.

ولكنهم جميعا قد يتفقون على أن أثر الفكر الإغريقي في اللاهوت المسيحي كان أثراً حاسمًا، وأشد ما قيل في هذا الصدد تطرفاً هو ما يقدره عميد الأساقفة أنج من أن: «ديانة الكنيسة المسيحية وفلسفتها السياسية وأسلوب المسيحية في التصوف ترجع إلى أفلاطون».

وتأثرت الآداب العالمية وبخاصة الآداب الغربية والفنون الغربية بالحضارة اليونانية الوثنية، بل إن نصيب هذا التأثر من الوثنية الشعبية القائمة على تأليه الآلهة في عهد الألمب وما قبله كان ـ وما يزال ـ نصيباً موفوراً، بل هو الأغلب والأعم.

وعن طريق الحضارة الغربية المتأثرة بالوثنية اليونانية وأربابها تأثرت آداب الشرق في آسيا وفي إفريقيا، بل وصل هذا التأثير إلى مركز البلاد الإسلامية بل إلى منطلق نور الإسلام، فرأينا شاعرا ملحداً يتغنى بآلهة الألمب وبتمجيدها الدائم تقليداً ومحاكاة، بل بلغ بهذا الناظم - فهو ليس بشاعر - إلحاده وجهله أنه سمى نفسه «أبولون» الإله اليوناني المولود من سفاح.

وتأثر فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا وابن رشد وغيرهما ببعض فلاسفة اليونان، وبخاصة أرسطو الذي احتفت به الفلسفة العربية الإسلامية أيما احتفاء.

والتأثر العالمي بوثنية اليونان وجاهليتها هو الذي قضى على الأخلاق الفاضلة وأضعف العقيدة الدينية في النفوس.

ومع عبقرية اليونان في الفكر ونبوغهم المتفوق في الفلسفة والعلم فإن هذه العبقرية لم تستطع أن تملأ مكان العقيدة الدينية في السواد، ومع عظم هذه العبقرية فإنها عجزت عن ابتكار عقيدة دينية تسع اليونانيين جميعا، بل كانت عالة على ديانات الشرق، مثلها مثل أوربا التي دانت بديانات الشرق وملأت بها فراغ نفوسها.

الفهرس

تمهيد وإهداء ٧

التوحيد قبل الشرك ١١

العقيدة والأساطير ١٩

السحر والعقيدة ٢٥

الخوف والعقيدة ٣٩

الأحلام أصل نشأة العقيدة عند الإنسان البدائي ٤٧

العقيدة الدينية ٥٥

الأرباب والآلهة ٦٣

ديانات الهند ٨٦

ديانة الصين والتبت ١٤٢

ديانة اليابان وكوريا ١٨٤

ديانة السومريين ١٩٩

ديانة بابل (الكلدان) ٢٠٩

ديانة آشور وغيرها ٢١٩

ديانة الآراميين والفينيقيين ٢٢٤

ديانات الفرس ٢٣٦

ديانة الصابئة ٢٨٦

الديانة في مصر ٣٠٣

اليونان ٣٦٣

مدرسة ملطية الإيونية ٣٧٣

أحمد عبد الغفور عطار



الجزء الثاني

مكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

مكة المكرمة

الديانات والعقائد

في مختلف العصور

دِيَانَاتُ التَّوْحِيدْ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ليس للتوحيد الحق إلا ديانة واحدة، وقلنا في العنوان «ديانات» بالجمع نسبة إلى تعدد الرسل الذين جاء كل منهم بدين هو دين الآخر في حقيقته وأصله وجوهره، وديانات التوحيد الكبرى ثلاث، هن: اليهودية، والمسيحية، والإسلام، ولكل منهن بحث موقوف عليها، وفي هذا الفصل بحث ديانات التوحيد عند الرسل الذين سبقوا رسل الديانات الكبرى الثلاث: موسى وعيسى ومحمد على أولئك وهؤلاء صلوات الله وسلامه.

وتذكر المصادر التاريخية الثابتة وعلى قمتها القرآن الكريم أنبياء ورسلاً، ونكتفي بالقرآن الكريم لأنه أصدق الكتب وأوثقها طراً، إنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهناك خلاف بين العلماء والباحثين في أول الرسل، أهو آدم أم نوح عليهما السلام، وذهب جماعة منهم إلى أن آدم نبي ورسول، وحجتهم أنه عليه السلام نبي، وكان على شريعة

صحيحة من العقيدة السليمة والعبادة النقية، وأولاده تلقوها عنه، فهو رسول إليهم، وبذلك يكون أول رسول[1]، وذهبوا في التوفيق بين «أولية» رسالة آدم وأولية رسالة نوح، إلى أن الأولى خاصة، والأخرى عامة، ففي زمن آدم لم يكن للأرض أهل غير بنيه المجموعين في مكان واحد، أما رسالة نوح فإلى أبناء آدم المنتشرين في الأرض التي لم تكن رقعة سكانها إلا محدودة.

والقول الراجح أن سيدنا آدم عليه السلام كان نبياً ولم يكن رسولاً، وكان على شريعة صحيحة علمها أولاده ورباهم عليها، فهو ليس برسول، وأول رسول ثابت هو نوح عليه الصلاة والسلام، ومن الرسل الخمسة أولي العزم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه.

ومن ذهبوا إلى أن إدريس رسول، وذكروا في تواريخهم أنه من أجداد نوح لم يكن التوفيق معهم، فهو متأخر عن نوح سواء أكان رسولاً نبياً أم صديقاً نبياً.

وذكروا في نسب نوح أنه ابن لامك بن متوشالح بن أخنوخ، وأخنوخ هو إدريس بن يارد[2] إلخ، والراجح عند الإمام البخاري أن إدريس ليس من أجداد نوح، فلهذا ذكره بعده[3].

---

(١) تفسير المنار ٧: ٦٠٤

(٢) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٤٥

(٣) تفسير المنار ٧: ٦٠٤

ونوح أول رسول لله على القول الراجح، ويستدل على ذلك بما ورد في القرآن والسنة، ففي القرآن الكريم:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (١)

و ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢).

أما في السنة النبوية فقد صح في حديث الشفاعة عندما

---

(١) سورة النساء: ١٦٣

(٢) سورة الحديد: ٢٦ - ٢٧

يتجه الناس يوم الحشر إلى آدم ثم إلى نوح ويقولون له: «أنت أول رسول إلى أهل الأرض».

وهناك أقوال في عموم رسالة نوح عليه الصلاة والسلام، ولكن إلى جانبها أقوالاً أصح منها وهي أن رسالة نوح ليست عامة، بدليل ما جاء في صحيح البخاري[1] في باب التيمم في حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر؛ وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل؛ وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة؛ وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

وما ورد من الأقوال في الاستدلال على عموم رسالة نوح أنها كانت إلى أهل الأرض حين بعثته لقلة سكانها وضآلة عددهم، ولأن قوم كل نبي يقال لهم: أهل الأرض، ولأن حديث جابر رضي الله عنه صريح الدلالة في أن «النبي يبعث إلى قومه خاصة» وكلمة «خاصة» تمنع عموم رسالة نوح، كما يمنعه ما اختص الله محمداً صلى الله عليه وسلم من عموم الرسالة لأنه مبعوث إلى الناس عامة، ولأن الآيات القرآنية ناطقة بأن نوحاً مبعوث إلى قومه.

---

(١) ج ١ ص ٧٠ طبعة بولاق

والذي لا خلاف فيه أن سيدنا نوحاً رسول، بعثه الله إلى قومه الذين ضلوا سبيل الله بكفرهم:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[1].

و﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ

(١) سورة هود: ٢٥ ـ ٢٧

﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1].

وذكر نوح في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن، وفصلت قصته في ست سورٍ هن: الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح.

ولكن قوم نوح كذبوه وتحدوه واستهزأوا به، وصور القرآن كل ذلك في هذه الآيات: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

(١) سورة القمر: ٩ ـ ١٥

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا
مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ
زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا
بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ

فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ
وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ
عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ
ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ
يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن
مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ (١)

وديانة نوح ديانة توحيد، فلا إلّه إلا الله وحده لا شريك له

---

(١) سورة هود: ٣٢ ـ ٤٨

القوي القادر الغفور الرحيم الخالق الرازق المحيي المميت خالق السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، وتؤمن بالبعث والنشور:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ (١).

وكل ما قدمه نوح إلى قومه من نصح وإرشاد وبراهين على

---

(١) سورة نوح: ١٠ ـ ٢٠

وجود الله وبشرهم وأنذرهم لم يفدهم فكفروا به وبربه وتمادوا في كفرهم وشركهم.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا [١] ﴾

واستجاب الله دعاء نوح فطهر الأرض من الضالين الظالمين الذين كفروا بربهم وعصوا رسوله، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

والطوفان مذكور في التوراة في قصة نوح، ولكن التوراة الأصلية التي كتبها موسى عليه الصلاة والسلام قد فقدت في حريق الهيكل، والعهد القديم الموجود بين أيدينا ليس التوراة الصحيحة، وعلى أي حال ذكرت قصة نوح في سفر التكوين.

والخلاف بين العلماء من مسلمين وغيرهم أهو خاص أم عام، ولكن هناك ما يدل على العموم لقوله تعالى: ﴿ وَجَعلنَا ذُريتَهُ هُم البَاقِين ﴾ ولأن الكشوف العلمية أثبتت وجود أنواع من

---

(١) سورة نوح: ٢١ - ٢٤

الحيوان المائي على الجبال وقممها، والتوفيق بين الرأيين أن الناس في عهد نوح كانوا قلة وكانوا مجتمعين على أرض محدودة، فأغرقهم الطوفان ونجا هو ومن معه من المؤمنين.

وما نشك أن هناك طوفانات غير طوفان نوح وقعت على الأرض، ويجوز أن بعضها منقول عن طوفان نوح، فالأساطير والقصص الهندية تروي وقوع الطوفان مرات معدودات، قيل: إنها سبع، ومنها رواية «مانو» الذي تتحدث عنه القصص فتذكره بالتجلة والتبجيل.

ومانو في الأساطير الوثنية الهندية موصوف بأنه «ابن الله» وأبو البشر لأنه مصدرهم جميعاً، وقصة طوفانه أنه كان يغتسل فوجد في الماء سمكة صغيرة توسلت إليه أن يتركها ووعدته أن تنجيه من هلاك ينتظره، فعجب منها وتركها فأخبرته أن طوفاناً سيغرق الأرض، وستخبره بموعده وتقود سفينته إلى النجاة، وتحققت نبوءة السمكة ولكن بعد أن كبرت وعظمت، وصنع مانو سفينته، ونجا بها من الهلاك، وكانت السمكة تقودها.

وتذكر الأسطورة الهندية ما يفهم منه أن مانو كان وحيداً، لأن أحداً لم يكن معه، وبعد أن رست سفينته على الجبال في الحدود الشمالية بقي وحده مستغرقاً في العبادة والتأمل، ولما قدم قربانه جاءته امرأة ذكرت له أنها من هذا القربان، فاتخذها امرأته وجاء البشر منها.

وأكثر الأمم تذكر في تواريخها أخبار طوفان خاص بها،

فالإغريق القدماء يزعمون أن الإله «زيوس» عزم على إرسال طوفان سخطاً منه على البشر و مضباً حتى يمحوهم من الوجود، فعلم «برجيوس» بما نواه زيوس فأخبر ابنه «دوكاليون» فصنع سفينة استعد بها، فلما جاء الطوفان نجا عليها ومعه زوجه «بيرا».

وأورد أفلاطون خبراً أن كهان مصر أخبروا «صولون» الحكيم أن طوفاناً غير وجه الأرض وأغرق الأحياء.

وفي أخبار الكلدان أن «زيزستروس» الملك رأى في منامه أن طوفاناً سيغرق البشر فأمر ببناء سفينة نجا عليها هو وأهله وخاصته.

وفي الكشوف الأثرية في «نينوى» عثر على «ألواح» تذكر قصة طوفان، كتبت في القرن السابع قبل الميلاد، نقلاً عن كتابة يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد.

وتروى أخبار طوفانات وقعت في المكسيك وأمريكا الجنوبية وآسيا الصغرى ولتوانيا والصين واليابان.

وموجز القول أن ديانة نوح هي ديانة توحيد محض، وكذلك كل ديانات الرسل الذين بعثوا إلى قومهم، ولا خلاف إلا في الفروع، أما الأصول فواحدة في جميع الديانات التي دعا إليها الرسل من نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام.

وذكر القرآن الكريم قصصاً لرسل وأقوام في إيجاز يغني عن التفصيل، وما جاء به هؤلاء الرسل الكرام هو التوحيد الخالص

والإيمان الحق بالله وبرسله وكتبه وباليوم الآخر وبالقضاء خيره وشره.

وخلف من بعد نوح رسول كريم هو هود عليه السلام بعثه الله إلى عاد، وما بين أيدينا من الكتب لا تذكر عاداً ولا تاريخهم، ويتفرد القرآن بالذكر وما بعده من الكتب التي اعتمدت إليه.

وصور القرآن الكريم عاداً وحضارتهم وقوتهم وشخصياتهم وذكر رسولهم هوداً بسبعة مواضع في سور مختلفة. كالأعراف وهود والشعراء والمؤمنون.

ويظهر من الآيات البينات في كتاب الله أن عاداً كانت مشركة لا تؤمن باليوم الآخر ولا بالله.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ

أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1]

ويقول تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٦ ـ ٧٠

إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا

بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ

قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۙ ﴿٥٤﴾

مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى

تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ

بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن

تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ

رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ

شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ

أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ [1] ﴾

وقال تعالى:

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ [2] ﴾

فعادُ قوم نوح أهل حضارة وغنى وترف، وكفروا بالله

(١) سورة هود الآيات ٥٠ ـ ٦٠

(٢) سورة المؤمنون ٣٢ ـ ٣٧

وبالبعث، وقصروا إيمانهم على آلهتهم واعتقدوا فيها القدرة حتى زعموا أن دعوة هود إلى عبادة الله وحده إن هي إلا أثر من غضب هذه الآلهة عليه مسته بسوء انتقاماً منه، فدعوته ليست إلا خبلاً ومساً.

أنكروا وجود الله الذي دعاهم هود إلى توحيده، وأنكروا عليه دعوته إياهم أن يؤمنوا بالبعث والنشور، وظنوا أنهم إنما يقدمون البرهان على صحة إنكارهم إذ زعموا أن من يموت ويستحيل تراباً لا يمكن أن يعاد خلقه من جديد ثم يخرج، لأنه لا خروج ولا بعث، كل ما في الأمر أن الإنسان يعيش هذه الحياة الدنيا، فإذا انتهت أيامه منها فني فناء أبدياً.

ونصح هود وبشّر وأنذر، ولكن الكافرين عموا وصموا وأمعنوا في الكفر والضلال حتى نزل بهم عقاب الله العاجل ونجا هود ومن معه من المؤمنين.

وديار عاد بالأحقاف في جنوب جزيرة العرب، ولكن الكشوف الأثرية لم تصل إليها، ولا يبعد أن توجد آثار حضارة عاد تحت رمال الأحقاف.

وخلفت ثمود عاداً بعد أن مرت بينهما فترة لا يعلم مداها على التحقيق، وعرف موطن ثمود ومساكنهم في «الحجر» ويعرف ـ اليوم ـ بمدائن صالح في وادي القرى بين الشام والحجاز، والحجر من الحجاز.

وكانت ثمود وثنية مشركة، وذات حضارة تدل عليها الآثار الموجودة حتى يومنا هذا، وقد زارها بعض المستشرقين ووقفوا على بعض أسرارها، والقرآن الكريم ذكر قصة ثمود في مواضع وسور، فقد جاء في سورة الأعراف[1]:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟

(١) الآيات ٧٣ ـ ٧٨

﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

ومفهوم الآيات أن لثمود حضارة عظيمة، وأنها ضلت سواء السبيل، فأرسل الله إليهم صالحاً يدعوهم إلى الله على بصيرة، وقدم لهم البينة «ناقة الله» لهم آية رجاء أن يؤمنوا إذا رأوا المعجزة الباهرة، ولكن المعجزة زادتهم كفراً وطغياناً، فعقروا الناقة، وتحدوا صالحاً عليه السلام أن يأتيهم بما أوعدهم به من العذاب إن كان رسولاً حقاً، وصادقاً حقاً كما جاء في آية أخرى «فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» وأخذ الله الكافرين بظلمهم.

وصالح ومن قبله هود هما أول الأنبياء العرب المرسلين عليهم الصلاة والسلام، ويرجعان في نسبهما إلى نوح.

فعقيدة نوح وهود وصالح هي عقيدة التوحيد التي هي عقيدة كل رسول جاء بعدهم.

وإن الباحثين الذين زعموا أن «أخناتون» أول من دعا إلى عقيدة التوحيد الخالص فاتهم الإيمان والعلم برسالة نوح وهود وصالح وعقيدتهم فزعموا ما زعموا، لأن هؤلاء الرسل سابقون،

وبخاصة نوح أول رسول إلى الكافرين، بل سبقت دعوة إبراهيم الخليل دعوة أخناتون بقرون، فليس هذا بأول من نادى في البشرية بعقيدة التوحيد التي كانت ـ كما قلنا في الفصل الذي كتبناه عن ديانات مصر ـ «مرسوماً ملكياً» صادراً من أخناتون ألغاه مرسوم ملكي بعده صدر من توت عنخ آمون الذي جاء بعد شقيق أخناتون إلى عرش مصر، وبإلغاء مرسومه ماتت دعوته في المكان الذي صدرت منه، وبقيت دعوة الرسل لأنها الدعوة الخالصة التي جاءت لخلاص الإنسان ـ أي إنسان وكل إنسان ـ دون نظر إلى مصلحة القائم بالدعوة.

إنها الدعوة الصحيحة التي تعيش في سرائر النفس لتصدر منها أفعال الخير، وبذلك عاشت دعوة الرسل وفنيت دعوة أخناتون بفنائه، وكذلك كل دعوة من الدعوات الشخصية تفنى بفناء الأشخاص لأنها ظلهم على الأرض، ويزول الظل مع المظلول، أما دعوات الرسل فباقية لأنها فوق الأشخاص وفوق الماديات.

ديانة إبراهيم

إبراهيم عليه الصلاة والسلام أعظم الأنبياء والرسل وأفضلهم إطلاقاً بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه، فهو أبو الأنبياء الثلاثة أصحاب أكبر الديانات في العالم: موسى وعيسى ومحمد، وإلى دينه تعود، لأنها منه، وهم منه.

وقد اختلفت آراء الباحثين منذ القرن التاسع عشر حتى الآن في وجوده، أهو حقاً إنسان عاش في هذا الوجود أم هو شخصية نسج كيانها الخيال، وما قدمه منكرو وجوده من أدلة لا ترقى إلى مرتبة الدليل الذي يمكن الاهتمام به، والإنكار سهل، ولكن الصعب هو الإثبات، وما دام تاريخ إبراهيم قائماً، وآثاره واضحة فلا ضرورة للإنكار من أجل الهوى أو في سبيل الوصول إلى الحقيقة ما دامت الحقيقة مشهودة ليست في حاجة إلى براهين تثبتها.

وتجمع المصادر الإسرائيلية والمسيحية التي سبقت الإسلام

والمراجع الإسلامية على أن إبراهيم إنسان عاش في هذا الوجود، وذكرت له تاريخاً حافلاً عظيمًا.

وأعظم هذه المراجع نزاهة وصدقاً المراجع الإسلامية التي لم تذهب إلى غير الحق من أجل الحق، وأثبتت لإبراهيم ما فيه فخر اليهودية والمسيحية لأنه واقع وحق، وفي كل كلمة من كلمات الإسلام العظيمة إيمان باليهودية والمسيحية في أصولهما الصحيحة، وإيمان بموسى وعيسى واعتراف بنبوتهما ورسالتهما، فلن يكون المسلم مسلمًا إلا إذا آمن بموسى وعيسى وكل الرسل والأنبياء المنصوص على أسمائهم في الكتاب والسنة.

وشخصية إبراهيم حقيقة، وهو ـ كما تجمع المصادر ـ ابن تارح أو تارخ ـ بالحاء المهملة أو الخاء المعجمة ـ وفي القرآن الكريم: «آزر» وذكرت كتب التفسير واللغة والتاريخ في نسبة إبراهيم لآزر كلاماً كثيراً، منه: أنه عمه لا أبوه، ويقال عن العم: أب، ومنه: قراءات مختلفة تخرج بآزر عن أبوته لإبراهيم، وبعضها يثبت أنه أبوه.

واتخذ بعض المستشرقين والقسس وذوي الهوى تسمية أبي إبراهيم «آزر» مطعناً في القرآن نفسه الذي تفرد بذكره دون سائر الكتب التي ذكرت اسمه، وانبرى بعض المفسرين من المسلمين إلى رد هذا المطعن بتأويلات وتخريجات بعيدة عن الحجة التي يطمئن إليها الباحث، وأبعد هذه الآراء والتأويلات عن الضعف

والتهافت قول البيضاوي في تفسيره أن تارح اسم العلم وآزر وصف له.

وأياً ما كان قول غير القرآن فما جاء به القرآن هو الحق لأنه الكتاب الذي لم يدخله أي تغيير أو تبديل أو تحريف أو حذف، فهو الوثيقة التاريخية المنزهة.

وللعقاد رأي وجيه في «آزر» جدير بالقدر والاهتمام بين جميع الآراء فيه، يقول[1]: «تروى الأسماء والأعلام أحياناً على روايات متعددة، ومن ذلك أنهم يذكرون سارة باسم إسكاح Iscah ويقولون إنها من النظر، ويوحدون بين اسم إبراهيم واسم إيثان الإزراحي في المزمور التاسع والثمانين، ويقولون إن داود كتبه بمشاركة الخليل.

«وللتوحيد بين الاسمين هنا دلالة خاصة، فإن إيثان الإزراحي منسوب إلى زارح وينطق بهمزة في أوله على العادة في النطق بالساكن، وقد تكون الحاء والياء للنسبة كما يقولون في «مزراحي» بمعنى مصري، ويكون إيثان منسوباً إلى آزر، وهو الاسم الذي ذكر في القرآن الكريم كما سيأتي بيانه في المصادر الإسلامية».

«ومن الواجب أن يلتفت هنا إلى المقارنة بين زارح وزارع وتارح، وقد تقدم أن لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التي تلتقط قبل تمكنها من التربة.

(١) أبو الأنبياء للعقاد ص٥١ ـ ٥٢

فلا محل إذن لنقد الاسم كما جاء في القرآن الكريم اعتماداً على ذلك الاختلاف اليسير في اللفظ القديم، وقد ذكر يوسبيوس Eusobius المؤرخ المسيحي اليوناني أن أبا إبراهيم الخليل يدعى آثر، وزعم بعضهم -ومنهم سنكلر تسديل صاحب كتاب مصادر الإسلام، وهو من أشد المتعصبين قدحاً في الإسلام- أن للاسم أصلاً في الفارسية القديمة بمعنى النار».

ويقول العقاد:[1] «وجاء في القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ فاتخذ المهاجمون للإسلام من ذلك دليلاً على الخطأ في تسمية أبي الخليل، وقالوا: إن اسمه «تارح» كما ورد في العهد القديم».

«وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلاً أن يجعلوا لكلمة آزر موضعاً من الإعراب أو مدلولاً يبطل الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجمين».

«والواقع أن هذه التخطئة لا محل لها عند النظر في أصول الأسماء، فإن إبراهيم قد انحدر إلى أرض كنعان من أرض آشور، واعتقد شراح الكتب الإسرائيلية في غير موضع أن الآباء الأولين كانوا ينسبون إلى بلادهم وأممهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأبناء الشرق وأبناء الغرب وأبناء النيل».

«فإذا نسب إبراهيم إلى أشور فمن الجائز جداً أن يكون

---

(١) أبو الأنبياء ص١٦٥ - ١٦٦

تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد، سواء كان هذا الاسم علماً على رجل أم على الجد القديم الذي تنسب إليه أمة أشور، وكثيراً ما انتسب القوم إلى اسم جد قديم كما يقال في النسبة إلى عدنان وقحطان».

«ونظرة واحدة في كتابة اسم أشور ونطقها إلى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة».

«فقد كتبت أشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أتور بالتاء وتارة أسور بالسين».

«ولا يخفى أن اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة إلى زمن قريب، وأن الإغريق الذين أطلقوا اسم «أسورية» على وطن إبراهيم من نهر الفرات إلى فلسطين ينطقون الياء الإغريقية بين الواو والياء، ولهذا تكتب لوبيا بالواو كما تكتب بالياء، وتنطق سيريه بالياء في اللغات الأوروبية وتنطق سوريا بالواو في اللغات الشرقية».

«ولا يخفى كذلك أن كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية، وتنطق تيرا وتيرة عند الذي لا يستطيعون النطق بالحاء».

«فإذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور وأتير إلى تيره وتيرح، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء، وقد ورد

في التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره».

«ومؤدى هذا أن «آزر» هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم أسور القديم، وإن تيره وتيرح هي نطق الذين يكتبونها أتيره وأتيرح، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء».

«وروى صاحب «المزهر» عن الأصمعي أن رجلين «اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه، فقال: «لا أقول كما قلتما، إنما هو الزقر، وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخل في قلى يقلى وسلى يسلى».

«وإذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم بالتخطئة حين تختلف السين والزاي أو التاء والثاء في لغات تباعدت بينها الآماد».

«وأياً كان القول في نسبة إبراهيم إلى آزر بمعنى أسور فهو أقرب من القول بأن أباه سمي تارحاً من الحزن أو من الكسل، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق.

وتفيد هذه الملاحظة فائدة جليّ في معرض آخر من معارض سيرة الخليل، فلم يكن تاريخ إبراهيم في الإسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الإسلامية، وإلا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحاً أو تيرحاً أو

تيره وما شابه هذه التصحيفات، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بآزر على أي توجيه».

ويزيد ثقتنا بأن آزر هو اسم أبي الخليل أن القرآن نزل على محمد عليه الصلاة والسلام وبين قومه يهود ونصارى وعرب كان فيهم من يعلم شيئاً من المسيحية واليهودية، والآية التي ورد فيها اسم آزر أبي إبراهيم مكية، ولم يؤثر أن أحداً رد على الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لو لم يكن ذلك معروفاً لديهم ومسموعاً لردوا عليه، لأنهم ردوا عليه أشياء كثيرة منها ما يتصل بذات الله وأسمائه وصفاته.

ويوحنا الدمشقي المسيحي المتعصب الحقود على الإسلام الذي كان في عصر معاوية بن أبي سفيان ويسكن معه بدمشق ويعمل له ألف كتباً في الرد على الإسلام والقرآن، ولم يرد عليه في مسألة «آزر» مما يجعل الأمر معروفاً.

والمسيحيون واليهود الذي كانوا بمكة والمدينة كانوا يتتبعون ما ينزل من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فيعارضون بعض أحكامه ويردون عليه، ولكنهم لم يعلقوا على مسألة «آزر» بشيء.

وأياً ما كان الأمر فإن «آزر» اسم أبي الخليل لا اسم عمه، وكتاب الله أصدق، لأن القرآن هو الكتاب الذي لبث أكثر من ثلاثة عشر قرناً دون أن يغير منه حرف، لم يغير منه حرف أو حركة في حين تغيرت نصوص الكتب التي مر عليها بضعة قرون.

ولم يكن «تارح» أو «تارخ» مجهولاً من الرسول أو صحابته لأنهم كانوا على صلة باليهود والنصارى، ولو جاء في القرآن ما ينكرونه أو يجهلونه لسألوا الرسول كما سألوه عن أمور كثيرة، وكان اليهود يجادلون الرسول جدالاً، وفي كتب العهد القديم ذكر «تارح» ومع هذا لم يجادلوا في «آزر» مما يدل على أنه اسمه أو اسم آخر له أو وصف عرف به.

وصفات إبراهيم الخِلْقية والخُلُقية تشبه صفات محمد عليهما الصلاة والسلام، وهو أشبه الأنبياء به في خلقته وخلقه، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به» وكذلك الشبه في الصفات.

فمحمد لم يدع على قومه حينما آذوه، بل دعا لهم واعتذر عنهم حينما ابتهل إلى الله قائلاً: ﴿ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وخليقة الرحمة الأصلية في محمد هي نفسها في أبيه إبراهيم، فقد مر به ملائكة العذاب الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط وبشروه بميلاد إسحاق ثم ذكروا له ما أرسلوا من أجله فأخذ يناقشهم رجاء أن يرحم الله قوم لوط.

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك كله إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ

فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ [1]

ويفترق الإسلام عن اليهودية والمسيحية في تصوير شخصية إبراهيم افتراقاً شديداً، فكتاب العهد القديم يصوره صورة غاية

(١) سورة هود الآيات ٦٩ ـ ٧٦

في البشاعة والاشمئزاز لا تتفق مع كرامة الإنسان العادي فضلاً عن الشرفاء بله الأنبياء والمرسلين.

جاء في العهد القديم في سفر التكوين الإصحاح الثاني عشر ما نصه:

«وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون إنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونك ويستبقونك، قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام، فدعا فرعون أبرام وقال له: ما هذا الذي صَنَعْتَ بي، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك، لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي، والآن هوذا امرأتك، خذها واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له».

وفي الاصحاح العشرين من سفر التكوين:

«وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي

أختي، فأرسل «أبيمالك» ملك جرار وأخذ سارة، فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها، فقال: يا سيد، أأمة بارة تقتل؟ ألم يقل هو لي: إنها أختي، وهي أيضاً نفسها قالت: هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا، فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضاً أمسكتك على أن تخطىء إلي، لذلك لم أدعك تمسها، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك».

«فكر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جداً، ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأتُ إليك حتى جلبتَ علي وعلى مملكتي خطية عظيمة، أعمالاً لا تعمل عملتَ في، وقال أبيمالك لإبراهيم: ماذا رأيت حتى عملتَ هذا الشيء؟ فقال إبراهيم: إني قلتُ ليس في هذا الموضع خوف الله البتة، فيقتلونني لأجل امرأتي، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إلي، في كل مكان تأتي إليه قولي عني: هو أخي.

فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لإبراهيم،

ورد إليه سارة امرأته، وقال أبيمالك هوذا أرضي قدامك، اسكن في ماَ حسن في عينيك، وقال لسارة: إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة، ها هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندكِ وعند كل واحد فأُنْصِفْتِ، فصلى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن، لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم»

هذا ما يقوله كتاب العهد القديم وهو الذي يعرف باسم التوراة، وليس التوراة كتاب الله، بل هو الكتاب الملفق.

وما ذكره كتاب العهد القديم في سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لا يتفق مع حقيقته، فمعاذ الله أن يكون إبراهيم كما صوروه، ولا يصح أن يكون بتلك الصورة البشعة، رجل يتخذ امرأته الجميلة وسيلة للكسب والغنى، فيمضي إلى فرعون ملك مصر وهو عارف أنه يغتصب المرأة الجميلة ويتفق معها على الخطة، يدعي هو أنها أخته، وتدعي هي أنه أخوها، لينالـه بسببها خير، ويسمع بجمالها فرعون فيأخذها منه.

وما في الأمر لوم في مسألة سارة على فرعون، لأنه أخذ امرأة غير متزوجة، لأن من كانت معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ زعم أنها أخته، وأيدت هي نفسها قوله، فأخذها فرعون واتخذها زوجة.

ويزعم كتاب العهد القديم أن الرب ضرب فرعون وبيته ضربات عظيمة، وما ذنب فرعون حتى ينتقم الله منه بسبب سارة

وإبراهيم؟ إنهما هما المدينان المذنبان لا فرعون، لأنه لم يأخذ سارة ذات البعل، بل أخذ سارة العزب (غير المتزوجة) باعترافهما، واتخذها زوجة شرعية له، وما في هذا ما يؤاخذ به فرعون، بل نجد موقف فرعون طبيعياً، فهو لم يغتصب سارة، بل أخذها برضاها ورضا إبراهيم، واتخذها زوجة له، ولما علم أنها متزوجة ردها إلى زوجها مكرمة معززة، وماذا بعد ذلك على فرعون من تثريب؟.

بل لام فرعون إبراهيم إذ قال له ـ كما ذكر العهد القديم ـ: «ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون لي زوجتي»

وهذه الصورة البشعة التي صورها كتاب العهد القديم لإبراهيم باطلة في اعتقاد المسلمين الذين ينزهونه من هذه الخطايا الموبقات، لأنها لا تتفق مع جلال النبوة، بل لا تتفق مع أخلاق الرجل الشريف، ومن أشرف من إبراهيم وسارة؟

بل يذهب كتاب العهد القديم إلى أبعد من هذا فيذكر حادثة أخرى كهذه عندما وفد إبراهيم على أبيمالك ملك جرار ليقدم له زوجه الجميلة سارة، كأن ديدن إبراهيم تقديمها إلى الملوك حتى يقبض الأجر أموالاً وعبيداً وإماء.

تعالى الله عن الظلم، وتنزه إبراهيم عن الموبقات، فما كان خليل الله إلا آية في الفضيلة والخلق، وما أكذب من اخترعوا

الأكاذيب عليه! والقاصمة في الأمر أن الكاذبين يعترفون أنه رسول الله وأبو رسل كرام، ومع هذا يضعون عليه قصة كاذبة يجعلون فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ساقط المروءة يتاجر بعرض زوجه.

والمسيحية تصور إبراهيم الصورة نفسها لأنها تؤمن بكتاب العهد القديم كما تؤمن بأناجيلها الأربعة.

أما الإسلام فيصور إبراهيم على حقيقته وصورته الصحيحة ويصور سارة كذلك، يقول القرآن الكريم:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾

و﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾

و﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ و﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

و﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

و﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ و﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾

و﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وهذه الصفات الكريمة والمزايا العظيمة والخلائق الإنسانية الفاضلة لا يرود صعبها لمن كان في مثل ما يصوره كتاب العهد القديم، فإبراهيم نموذج أعلى للإنسان النبيل والرجل العظيم، صدوق لا يكذب، بل دائم الصدق كثيره، وحباه الله أكرم الصفات وأنبل الشيم.

وشهادة الله عز وجل لإبراهيم بأنه «جاء ربه بقلب سليم» تبرهن على أنه منزه من النقائص والعيوب، ففي القرآن:

﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

فسلامة القلب في يوم الحساب هي التي تكسب صاحبه رضا الله حيث لا ينفع جاه الدنيا: مال وبنون.

ولن يكون الإنسان سليم القلب إلا إذا كان منزهاً عن كل ما ينقص القدر أو يخدش الكرامة أو المروءة أو الشرف.

وما ثم تمريغ للكرامة والمروءة والشرف في الوحل والقذر مثل ما وصف به إبراهيم في كتاب العهد القديم؟ وتنزه إبراهيم كل التنزه عنه لأن شخصيته ملتقى لأكرم الخلائق وأنبل الصفات، ولا يتفق ما وصف به بما عرف منه من سمو الخلق وكرم الصفات ونبل الشيم.

وكل من كتب اسمه في ديوان الأنبياء ـ دون استثناء أحد منهم ـ معصوم منزه عن النقائص والعيوب منذ ولادته حتى الممات، لأن النبي يصنع على عين الله وحمايته.

هذا ما يراه الإسلام في حق جميع الأنبياء، يقدرهم حق القدر، وينفي عنهم كل ما لا يليق قوله أو فعله.

وولد إبراهيم في القرن العشرين قبل الميلاد، وقيل: ولد قبل ألفي سنة من الميلاد، ويقول بعض الباحثين أن ميلاده فيما بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عُشر قبل الميلاد، وإذا صح هذا فيكون مولده في عصر حكم الرعاة في مصر والعموريين في العراق.

ويقول يوشر في الموسوعة المسماة «وستمينستر» إن مولد

إبراهيم كان في سنة ١٩٩٦ قبل الميلاد، وفي دائرة معارف القرن التاسع عشر: «في سنة ١٩٦٩ق. م غادر مدينة «خالدة» في جزيرة بن عمرو ونزل بكنعان [١].

وولد في «أور» الكلدانيين في عصر مليء بالاضطراب والظلم والوثنية، ويقول صديقنا العقاد عن أسرة إبراهيم[٢]: «وأصح التقديرات أنه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق، وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من «أرض البحر» كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس، وقد وردت أسماء العرب التي لا شك فيها بين الأسر المالكة في جنوب بابل، خلال عهد طويل يحيط بعصر إبراهيم على أقدم تقديراته، فلم يمض على أسرته بمدينة «أور» زمن يفصله عن عشيرته البادية، وينسيها معيشة البداوة التي تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب في العراق إلى أقصى الشمال.

«ومن جملة أخباره يتبين أنه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود.

«مفترق طريق بين عهد الكهانة وعهد النبوة».
و«مفترق طريق بين إباحة القرابين البشرية وتحريمها».
و«مفترق طريق بين التعديد والتوحيد».

(١) نقلاً عن دائرة معارف وجدي ١: ٢٨٠
(٢) في كتابه «أبو الأنبياء» ص٢٢٧

و«مفترق طريق بين الإيمان بالهاوية والإيمان بالحياة الأخرى».

و«مفترق طريق في عبادة الأسرة الواحدة إلخ».

ومن الثابت أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا إسرائيلياً ولا عبرانياً لأن إسرائيل (هو يعقوب) حفيد إبراهيم، وإبراهيم أشهر وأعظم، فلا يعرف الجد العظيم بالحفيد الذي لا يدانيه سموقاً، ولأن يهودا رابع أبناء يعقوب، والرقعة التي سميت باسم يهودا كان بعد تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب، ولم يكن عبرانياً لأن المقصود بالعبرانية اللغة التي تنسب إلى السامية، وكانت العبرية لغة طائفة من الساميين، و«إبراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان في بقاع النهرين وكنعان، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية في تلك الأيام».

وإذا قيل عن إبراهيم: إنه سامي، فمرد هذه النسبة إلى جده سام بن نوح وليس إلى قوم.

ويذهب الأستاذ العقاد إلى أن ابراهيم عربي إذ يقول: «فإذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب» وهو رأي قمين بالقدر والاهتمام، لأن نسبة إبراهيم إلى اليهودية أو الإسرائيلية يؤيدها الواقع، ولأن النسبة إلى العبرانية هي نسبة لغوية وليست نسبة إلى جنس أو قوم، فلا يبقى إلا أن نذهب مع

العقاد في عروبة إبراهيم، ولكنها عروبة ذلك الزمان الذي عاش فيه.

ونشأ في بيئته وثنية مشتركة، بل كان أبوه نفسه من المشركين، وحرفته نحت الأصنام وصناعتها والمتاجرة فيها، وكان إبراهيم يرى مختلف العقائد وفي طليعتها الصابئة، ووقف على ثقافة عصره وما يضطرب فيه من أحداث ووعاها، ودخل في صراع مع العقائد المختلفة بدأه من بيته فبدأ بأبيه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

ثم اتسع نطاق صراعه فدخل قومه مع أبيه:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ

ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

ولم يكن هذا الصراع صراعاً بمعناه المفهوم منه بل كان دعوة ونقاشاً، وتطوراً فيما بين الابن وأبيه، وبينه وبين قومه.

ويظهر أن إبراهيم كان بين عديد من أصحاب العقائد والنحل، وكان للصابئة شأن، والصابئة يعنون بالكواكب والنجوم، ولم يكن إبراهيم يجهل ما يعتقدون فيها، فاتخذ أساليب في الإقناع تتفق مع عقائدهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

(١) سورة الأنعام: ٧٥ ـ ٨٣

ولم يكن إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه مثل المشركين في قومه، فإبراهيم موحد مؤمن حقاً، وقد أراه ملكوت السماوات والأرض حتى يزداد إيمانه وتقوى حجته في الدعوة، وأدرك إبراهيم أن ما يُعْبَد من دون الله باطل، لا الكواكب ولا الشمس ولا الأرباب الكثيرة.

فيقين إبراهيم بوحدانية الله أمر ثابت لأن الرسل يحيون على الفطرة السليمة، وما دمنا مؤمنين برسالته وجب علينا تنزيهه من النقائص، فكيف بالشرك؟! إنه منزه عنه.

أما أنه رأى الكوكب بعد أن جن عليه الليل وقال: هذا ربي فهو محمول على الحكاية، يحكي عقيدة قومه وديانتهم، فهم يعبدون الكواكب ضمن ما يعبدون، واتخذ أسلوباً رائعاً حكيًا في دحض دعاواهم، ولما رأى الكوكب آفلاً أعلن أنه لا يحبه، والفارق كبير بين الحب والعبادة، وآثر هذا التعبير المهذب لئلا يحملهم على العناد واللدد في الخصومة فقال: «لا أحب الآفلين».

ثم خطا الخطوة الثانية، فحكى عبادة القمر إذ نظر إليه فرآه بازغاً فقال: هذا ربي! فلما أفل اتخذ الأسلوب السابق نفسه، فكما انتقل من الأصغر إلى الأكبر انتقل في التعبير عن عدم رضاه بكلمة «لا أحب» إلى «لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين».

لم يؤذهم ولم يتجن عليهم ولم يهاجمهم، بل أقام نفسه مقامهم وعبر عن الواقع الذي يعيشونه وكأنه هو الذي يعيشه

دونهم، وأراد أن يصرفهم عن آلهتهم إلى الإله الحق الواحد الأحد ويوجه نظرهم إلى الحقيقة فقال: إن الهداية بيد الله، فإن لم يوفقه للهداية فهو - إذن - من الضالين، وكأنه يقول لهم على لسان حاله قولاً وفعلاً: إن هذه الكواكب التي تعبدونها ليست أهلاً للعبادة لأنها تظهر وتختفي، وما يتصف بذلك يثبت أنه مخلوق لا خالق، ومسيَّر لإرادة فوق إرادته، فهو ليس أهلاً للعبادة، والضال من يترك الحق ويتجه إلى غيره.

ثم يخطو الخطوة الثالثة التي ينهي بها حكاية حال قومه ليقذف قذيفته، وما خطاها إلا بعد أن رآهم لا يعلقون بشيء على ما صنع، وأراد أن يشتد رجاء أن تنبههم الصرخة المدوِّية:

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

جاء إلى الشمس وهي أكبر من الكوكب والقمر، فهتف: هذا الكوكب العظيم هو ربي. هذا أكبر من سابقه، وما دام هو «الأكبر» فهو الأجدر بالعبادة.

ولكنها أفَلَتْ، ولا يصح أن يقول: «لا أحب الآفلين» ﴿ لئِن لَمَّ يَهْدِنِي رَبّي لأكُونَنَّ مِنَ القَوم الضَّالّينَ ﴾ لأن الشمس أعظم

وأكبر، فلا بد أن ينتقل التعبير من الهدوء الذي حمل القوم على الصمت والمتابعة إلى الصرخة التي تدفعهم إلى المدافعة إيماناً أو إنكاراً، والصرخة التي قرر أن يطلقها لا تتناسب مع عدم الحب وعدم الهداية، بل لا بد لها من قوة تدفعها ليسمع القوم ويعوا: «يا قوم، إني بريء مما تشركون»!.

لم يفد المثال الأول ولا المثل الثاني، لأن نفوسهم من الضيق بحيث لا يبدد ما فيها من ظلمة. كوكبٌ يرسل اللمح مضيئاً في الظلام ثم يغيب ليبقى ظلام النفوس كما هو دون أن يبدده نوره وإن ظهر أنه يبدو شيئاً من الظلام، وقمر يسطع أكثر من الكوكب، ولكنه قريب من قريب، ولا يغني من نور الحق شيئاً.

وجاءت الشمس بضيائها القوي الوهاج، وقدم لهم البرهان فإذا هم ثابتون على مبدئهم، فلا بد من عنف يناسب المقام، وأطلق صرخة في وجوههم «إني بريء مما تشركون» إنكم تشركون بالله، وما دمتم أحببتم الآفل، وأصررتم على الباطل، فما أجد إلا أن أعلن أنني بريء من هذا الشرك الذي تحيون عليه، بريء من الكواكب والأصنام وكل ما تعبدون:

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

إنه عزم على الصراع، فقد تبرأ مما يشركون، وأعلن أنه

منصرف إلى ربه، أعلن عقيدته في بيان وصراحة، فقد وجه وجهه لمن خلق السماوات لا السماء التي يشهدونها، خلقها وخلق سماوات أخرى، وخلق الأرض، وأما ما يعبدونه من دونه فمن خلْق «فاطر السماوات والأرض» لا يستكبرون عن أمره وعبادته وهم له داخرون أذلاء صاغرون، إنه مؤمن بالله الذي خلق الخلق ابتداء دون عون أو شريك.

وختم ثورته عليهم وعلى أربابهم بأنه مؤمن موحد ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

وهنا اضطر القوم إلى البروز لإبراهيم ورد أقواله وحججه بأقوال وحجج ذكرها القرآن في سورة الشعراء :

﴿ قَالُوْا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

كل حجتهم عبادة الأسلاف، وأسرفوا في المحاجة ·

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

إنهم يريدون منه أن يسلك طريقهم ويترك دعوته، فجبههم بأن الدليل المادي قائم بين يديه فكيف يتبعهم بعد أن هداه الله إلى الرشد، إن هداية الدليل على وجود الإلّه الواحد

الأحد الذي يدعو إليه لأنه هداه إلى طريقه المستقيم، فأنذروه وخوفوه آلهتهم، فقابل تخويفهم بقوة إيمانه بربه وتحداهم بأنه لا يخاف آلهتهم الباطلة.

ولئلا يظن هؤلاء المحاجون أن آلهتهم قادرة على الضر والنفع فيفسرون ما يصيب إبراهيم من سوء أنه من عمل آلهتهم سبقهم إلى إفهامهم أن كل ما يصيبه من خير أو شر ليس إلا من الله، ويدل على عمق إيمان إبراهيم وإصراره على موقفه من الدعوة تكراره كلمة ربي: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

إن آلهتهم لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وليس لها حول أو طول، فهو لا يخافها، ولا يخاف إلا ربه الذي أحاط الوجود علمًا، ما كان وما سيكون.

ولم تقف المعركة بين إبراهيم وقومه على الجدل بل تجاوزته إلى العمل، ولكن إبراهيم كان يتخذ الأسلوب الذي يفهم الخاطىء خطأه لو كان يعقل، ولم ينجح ما قدم من براهين مادية، ويجوز أنهم لم يفهموها لأنها تتعلق بما هو فوق مداركهم، في السماء حيث لم يدركوا حقيقة الكواكب، وصمم على اتخاذ أمر لعل فيه الحجة والإقناع.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ (١)

كانوا يعتقدون في آلهتهم القدرة حتى أنهم زعموا أن آلهتهم أصابت إبراهيم بسوء لأنه لم يؤمن بها وذلك لأنه شذ عن القوم وتطاول على ما يعبدون، وهم ـ اليوم ـ أمام مشهد يبعث على الرثاء والإشفاق عليهم؛ فقد وجدوا آلهتهم عاجزة.

إنه اختلف إلى المعبد فحطم الآلهة جميعها «فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم» ليريهم عجزها، وأدركوا أن من صنع ذلك بآلهتهم

(١) سورة الأنبياء ٥٧ ـ ٦٥

هو إبراهيم وليس غير، لأنه الوحيد الذي يكفر بها ولا يذكرها إلا بما يسيء إلى عبَّادها، ومن غيره يجرؤ.

وعقدوا مؤتمراً عاماً أحضروه إليه، ولعل إبراهيم كان يرغب في عقده، وسألوه، وهنا قذف قذيفته الماحقة.

قال لهم: مَنْ؟ أنا؟ لا، إن كبير الآلهة هو الذي فعل بسواه ما ترون!!.

ولكن كبير الآلهة لا ينطق، لأنه جماد، ولم يدافع عن نفسه وما معه لأنه لا يتحرك.

وذهل الجميع من جواب إبراهيم ورجعوا إلى أنفسهم واعترفوا أنهم ظالمون كما اتهمهم، ثم أطرقوا برءوسهم، ولكنهم أجابوا: إن هؤلاء لا ينطقون.

وإذا كانت القذيفة ـ هذه ـ تمحق عملهم المادي فقد جاء «دور» القذيفة التي تنطلق إلى العقل والضمير فأطلقها إبراهيم في براعة:

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

إذا كنتم تعترفون وتعرفون أن آلهتكم لا تنطق، فلماذا

تتخذونها آلهة؟ ولماذا تتركون عبادة الله الحق وتعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم؟ إنها عاجزة عن نفع أنفسها ودفع الضر عنها فهي أشد عجزاً عن نفع غيرها أو الإضرار به.

وبلغت بإبراهيم نشوة النصر في المعركة الناشبة بين التوحيد والشرك، والإيمان والكفر فحقرهم هم وآلهتهم، وما كان ليجبههم بالتحقير والازدراء لآلهتهم لو لقي منهم الإيمان سبيلاً إلى نفوسهم.

وثار الشعب ثورته على إبراهيم محطم آلهته، ورأى الحاكم أن الفرصة سنحت له ليتخلص من إبراهيم الذي يهدد ملكه وعرشه، لأن في التوحيد والإيمان زوال ملكه القائم على الكذب والبهتان والظلم باسم الآلهة، وفي بقاء الآلهة بقاءه، فليسرع فأمنية التخلص من إبراهيم لن تتحقق كل يوم إذا فاتت فرصة اليوم.

وصدر القرار الخطير من الدولة ـ حكومة وشعباً ـ: إحراق إبراهيم حياً، والتقرب به إلى آلهتهم التي اعتدى عليها، والقربان البشري كان معروفاً في عصر إبراهيم، فليكن داعية الله قرباناً للشيطان على أيدي أتباعه المشركين، أو لِيُحْرَقْ كما كان يحرق الأعداء المعتدون.

﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾

و﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ

فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

وأعدت الدولة سعيراً متضرماً، وحضر حفل إلقاء إبراهيم في النار الملك وعلية القوم والشعب، وقذفوا به، فكانت النار عليه برداً وسلاماً.

وينكر الماديون وكثير من الناس حتى في بلد الإسلام في أيامنا معجزة إبراهيم؛ وفيهم من ينكر المعجزة من أساسها، مع أنهم يعترفون للعلم بمعجزات باهرة، وليس هنا موضع الحديث في المعجزة فله موضع من هذا الكتاب.

وإن الذين ينكرون معجزة إبراهيم وتحول النار برداً وسلاماً عليه يغفلون عما يقع على مقربة منهم بحيث اشتهر في الدنيا، ففي الهند أناس يمشون على النار في بطء وهدوء دون أن يكون في أقدامهم أثر للإحراق مما حيرّ الباحثين الغربيين وأدهشهم.

فإذا كان هذا واقعاً في عالمنا الحاضر على أيدي أناس ليسوا في مرتبة الأنبياء فإن من المسلم به أن يجري على أيدي المرسلين المؤيدين من السماء.

وخرج إبراهيم ظافراً منتصراً في المعركة القائمة بين التوحيد والشرك كما انتصر فيما سبق من المعارك، واضطر أعداؤه لصرفه عن دعوته بطريق الحجة فأحضره الملك (قيل: اسمه النمرود بن كنعان) ودار بينهما جدل.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ ﴾

وكان الملك ممن يدعون الربوبية كما يظهر من القرآن الكريم، فأراد إبراهيم أن يكشف حقيقته أمام الناس ويبين عجزه وأنّ مثله مثل أي أحد من الناس وإن كان هو ممتازاً بالملك والسلطة، ويكذب في ادعاء الربوبية.

قال له إبراهيم: إن ربي الذي أدعو إليه يحيي ويميت، فإن كنت كما تدعي الربوبية فأوجد من العدم.

فدفع الملك غروره بالسلطة أن يقول: أنا أحيي وأميت. إنني أعفو عن محكوم عليه بالموت فأنا أحييته، ومن أحكم عليه بالموت فأنا أميته.

وأدرك إبراهيم ما في جواب الملك من المغالطة وصرف سؤال إبراهيم إلى وجهة غير وجهته فأجاب بجوابه الذي يقدر عليه كل أحد، إن أي إنسان ينقذ سواه من أسد كاد يفترسه يعتبر - على زعم الملك - محيياً، وكل قاتل مميتاً، مع أن مقصد إبراهيم لم يكن كما فهم الملك، بل أراد الإنشاء والتكوين ابتداء لا استخدام ما أوجده الله في الإحياء أو الإماتة.

ولا شك أن هذه المغالطة لم تمكن إبراهيم من النصر المبين فأراد أن يقذف قذيفته التي تمحق، فالملك يدعي الألوهية والربوبية، فليطلب إليه ما يستحيل عليه أن يعمله، ويكشف عجزه ومغالطته في الجواب السابق فقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، أثبت قدرتك القادرة على الخلق والإنشاء، والتصرف في الكون.

وبهت الملك، فما كان يخطر بذهنه أن إبراهيم سيتحداه ويقذفه بقذيفة لا تدع له سبيلاً إلى المراوغة والفرار، وظهر عجزه.

وانهزم الملك وأدرك إبراهيم ما يحيط به من خطر.

وينفي بعض المؤرخين حادثة إحراق إبراهيم، مع أن الإحراق في عصر إبراهيم كان شائعاً، فقد كانوا يحرقون الأعداء بالجملة، بل كان في البلاد التي سكنها معروفاً.

أما الحديث الشريف في «كذبة» إبراهيم مشيراً إلى قوله بعد

كسره الأصنام: إن كبيرها هو الذي فعل بها ما يرون فليس الكذب الملعون.

ويسمى هذا الإخبار كذباً لأنه لم يطابق الواقع، فالكبير لم يفعل بل الذي فعل هو إبراهيم، والكذب لا يتفق مع جلال الرسالة وشرف النبوة، والأنبياء والمرسلون لا يكذبون، ولم يؤخذ على أي أحد منهم هذا النقص المعيب.

وفي حادثة سيدنا إبراهيم الخليل ليس كذباً بمعنى الكذب، لأنه أراد من قوله الذي لم يطابق الواقع أن يلزم خصومه الحجة فأسند الفعل إلى من لا قدرة له عليه ليسمع منهم ذلك فيوثقهم بكلامهم، وقد أدانهم به.

وإذا كنا نقول: أنبت الربيع البقل لأنه سبب دون أن يُكَذَّب قائله، فإن كبير الأصنام كان سبب حمل إبراهيم على ما فعل، وأعفاه عن التحطيم ليقوم الدليل الحسي عند عباده أن كبير آلهتهم عاجز كل العجز إذ لم يستطع حماية الآلهة والدفاع عنهم وعن نفسه عندما اتهم بفعل ما فعله غيره.

ولم يطب لإبراهيم المقام بين قومه، ووجد الخطر محدقاً به، ولم يجد من القوم ما يبعث على الرجاء في هدايتهم إلى ما يدعو إليه، بل وجد من أبيه الإصرار على الكفر؛ ولم يؤمن به غير زوجه سارة وابن أخيه لوط وزوجه، فسار بهم إلى فلسطين، ثم رحل هو وزوجه سارة إلى مصر، ونظن أن ذلك كان في حكم فرعونها

سنوسرت الأول، وعاد منها ومعها جارية مهداة إليها اسمها «هاجر».

وكانت سارة غير منجبة، فدفعت بهاجر[1] إلى زوجها رجاء أن يكون له نسل، وبارك الله له فيها فجاءت بولده «إسماعيل» ودبت الغيرة إلى سارة، وشعرت هاجر بالامتياز والزهو لأنها أصبحت أم ولد، وحدث بينهما نزاع أدى بإبراهيم إلى أن يبعد هاجر وابنها إلى أرض غير ذي زرع بمكة.

وكانت هاجر مؤمنة بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولهذا لما سألته عن إقامتها بهذا المكان الموحش الأجرد وعلمت أن ذلك أمر الله استسلمت، فإن إبراهيم لم يتركهما إلا لمن هو خير منه، لله عز وجل.

وتنفي المصادر الأجنبية مجيء إبراهيم إلى مكة، وتسكت المصادر الإسرائيلية عن الإشارة إليه سكوتاً لا يوحي بنفي المجيء بقدر ما يوحي بسوء النية والهوى، لأن في اختيار إبراهيم لمكة ونقل هاجر وإسماعيل إليها فخراً للعرب لا يريده أعداؤهم، فصمتت المصادر الإسرائيلية ونفت مصادر أخرى حينما ذكر العرب مجيء إبراهيم.

---

(١) في قصة الحضارة تأليف مرل ديورانت ج ٢ ص ٣٧٩ يزعم المؤلف أن «سارو أشارت على زوجها أن يتخذ له خليلة» وديورانت حقود على العرب والإسلام في كتابه، وهذا الاتهام باطل، فإبراهيم لم يتخذ خليلة، ولكنه اتخذ هاجر زوجة له كما تنص المصادر الإسرائيلية والمسيحية والإسلامية.

ولا شك في قدوم إبراهيم إلى مكة غير مرة أولاها قدومه بهاجر وإسماعيل، وما بعدها لزيارتها.

وتثبت جميع المصادر أن إبراهيم كان رحالة، خرج من العراق إلى الشام ثم إلى مصر ثم عاد منها وإليها وتنقل في البلدان فوفد إلى «جرار» وقابل ملكها «أبيمالك» فماذا يمنعه من القدوم إلى الحجاز وهو آمن لابنه الوحيد وأمه.

ويتبع نفي مجيء إبراهيم إلى مكة نفي بناء الكعبة، ولكن المصادر العربية والإسلامية تثبته إثباتاً قاطعاً، فالقرآن الكريم يقول:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ

مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

و﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة البقرة ١٢٥ ـ ١٢٩

(٢) سورة آل عمران ٩٥ ـ ٩٧

و ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا
وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى
فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ
غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ
مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى
ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ (١) ﴾

---

(١) سورة إبراهيم ٣٥ ـ ٤٠

والقرآن أوثق مصدر لم يدخله أي حرف أو حركة تخرجه عن النص الأصيل، والذين ينفون مجيء إبراهيم لا حجة لهم، ويقصدون إلى نفي العرب عن النسبة إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، واستبد ببعض الباحثين الهوى حتى نفوا وجود إبراهيم وإسماعيل، وزعموا أن اليهود الذين كانوا في المدينة اخترعوا وجودهما بعد هجرة محمد صلى الله عليه وسلم تقرباً من العرب المسلمين حتى يتخذوا من هؤلاء أبناء عمومة لهم.

وهي حجة داحضة، لأن إبراهيم وإسماعيل مذكوران في سفر التكوين من أسفار التوراة، ففي الإصحاح السادس عشر منه ما نصه:

«وأما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر، فقالت ساراي لأبرام هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة، ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين، فسمع أبرام لقول ساراي، فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له، فدخل على هاجر فحبلت، ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها، فقالت ساراي لأبرام ظلمي عليك، أنا دفعت جاريتي إلى حضنك، فلما رأت أنها حبلت صغرتُ في عينيها، يقضي الرب بيني وبينك، فقال أبرام لساراي هوذا جاريتك في يدك، إفعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي،

فهربت من وجهها».

«فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، على العين التي في طريق شور، وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي، فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها، وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة، وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابناً، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك، وإنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن، فدعت اسم الرب الذي تكلم معها أنت إيل رئي، لأنها قالت ههنا أيضاً رأيت بعد رؤية، لذلك دعيت البئر بئر لحى رئي، ها هي بين قادش وبارد.

فولدت هاجر لأبرام ابناً، ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام».

والتوراة التي منها سفر التكوين المنقول منه الإصحاح السادس عشر ترجمت من العبرية الى اليونانية في نحو سنة ٢٨٠ قبل الميلاد في عهد بطليموس فيلادلف الثاني أحد ملوك مصر، وولد بطليموس ـ هذا ـ سنة ٢٨٥ ق م وتوفي سنة ٢٤٦ ق م، وفي عهده كانت ترجمة التوراة السبعينية، وقيلت السبعينية لأن سبعين حبراً من أحبار اليهود ترجموها.

وهذه الترجمة معروفة قبل هجرة محمد صلى الله عليه وسلم بحوالى تسعمئة سنة، وهذا ينفي اختراع اليهود وجود إبراهيم وإسماعيل بعد الهجرة لأنهما مذكوران في توراتهم منذ تسعة قرون قبل الهجرة.

ويدل على الهوى المشبوب أن من ينفون وجود إبراهيم وإسماعيل لا دليل لديهم، وينفون بناءهما للبيت في مكة لأنهما لم يكونا في هذا الوجود، ومنهم من يكتفي بنفي بنائهما للبيت لئلا يكون للعرب فخر، مع أن إبراهيم نفسه عربي وعاش في بيئة عربية.

ولا تقتضي عروبتهم أن تكون عربيتهم عربيتنا، لأن عربية حمير ليست كعربيتنا كما قال أبو عمرو بن العلاء.

إبراهيم عربي كما ذهب العقاد في بحثه العظيم «أبي الأنبياء» ويقول جورجي زيدان المؤرخ المسيحي العربي المشهور:

« أتيح للساميين أن يستبدوا بالسلطة، وأول ملوكهم اسمه « ساموابي » أي « سام أبي » أو « ابن سام » وهو رأس دولة حمورابي أو الدولة البابلية الأولى ».

و «استولى ساموابي على شمالي بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق م وكان جنوبيها يومئذ في حوزة ملك عيلامي، وخلف سموابي ابنه «ساموليلا» وانتقل إلى بابل واتخذها كرسياً لمملكته وهو أول من فعل ذلك، وتوالى بعده خلفاؤه من أسرته كما سيأتي حتى أفضى

الملك إلى حمورابي وهو سادسهم، فناهض العيلاميين في الجنوب وعليهم ملك اسمه في آثار بابل «كدرلا قمر» وهو «كدرلا عومر» التوراة، والظاهر أن كدرلا عومر فتح بابل أولاً ثم غلبه حمورابي في السنة الثلاثين من عمره وذهب بدولة العيلاميين ثم مشى حمورابي بفتوحه غرباً إلى البحر المتوسط ودخلت أشور في حوزته»[1].

ويقول: [2] «فالآراميون الذين نزلوا بادية العراق والشام تسرب بعضهم إلى العراق على جاري العادة في تغذية المدن من نتاج البادية وتحضروا وتولى بعضهم الملك في الألف الرابع قبل الميلاد وظل سائرهم في البادية غربي الفرات تستعين بهم الدولة عند الحاجة وامتازوا عن إخوانهم المتحضرين باسم أهل الغرب (عموروثم عربي) كما تقدم، واختلفت لغة المتحضرين منهم عن لغة البدو كما اختلفت لغة العرب الذين نزلوا الشام ومصر بعد الإسلام عن لغة الذين ظلوا في البادية».

ويقول: [3] «في أثناء هذه الدولة ظهر إبراهيم الخليل وهاجر من أور الكلدانيين، وقد بلغت قمة مجدها في أيام حمورابي فإنه كان فاتحاً عظيًما ومصلحاً كبيراً، ومن جملة البلاد التي فتحها «سومر» أو «شومر» أي بلاد السومريين فصار من جملة ألقابه «ملك بابل وشومر» فذهب بعضهم لذلك أن حمورابي هذا هو «أمرافيل»

---

(١) العرب قبل الإسلام ١: ٣٩
(٢) العرب قبل الإسلام ١: ٤٠
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ٤١

ملك شنعار الوارد ذكره في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخليقة لتقارب اللفظ والمعنى لأن حمورابي تكتب أيضاً «أمورابي» و«أموراني» وشومر تقلب إلى «شينار» أو «شنعار» بسهولة، والزمن متقارب بين الملكين».

ويقول:[1] «فإذا صح أن هذه الدولة عربية كما سنبينه في الفصل الآتي كان العرب أسبق أمم الأرض إلى سن الشرائع وتنشيط العلم وأنهم بلغوا في نظام الاجتماع ما لم يبلغ إليه معاصروهم وأدركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الأمم المتمدنة في هذا العصر بعيدين عنه.

«وما زالت الدولة البابلية الأولى (الحمورابية) قائمة حتى غلبت على أمرها كما تقدم فخرج بعض أهل الدولة فراراً من ذلك الغالب إلى إخوانهم في جزيرة العرب وأنشأوا في اليمن دولة عربية عرفت بدولة المعينيين كان لها شأن كبير في تاريخ اليمن قبل دولة سبأ وحمير كما سيأتي كلامنا عن الطبقة الثانية أو العرب القحطانية أو دول الجنوب، ويوافق ذلك قول العرب أن العمالقة وغيرهم من العرب البائدة جاءوا جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام.

«إن قولنا «دولة حمورابي عربية» لا يتبادر منه إلى ذهن القارىء أنه مثل قولنا «دولة الإسلام عربية» وإذا صحت عربية تلك فلا يستلزم أن تكون لغتها مثل لغة القرآن ولا أن عادتها

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ٤٦ ـ ٥٠

وديانتها مثل ما لعرب قريش، فإن بين الدولتين ٢٧ قرناً، والأمم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الأقليم وتوالي العصور.

«لا خلاف في أن دولة حمورابي سامية الأصل ولكنهم اختلفوا في نسبتها إلى فرقة من الفرق السامية وعندنا أنها من بدو الآراميين وهم عرب ذلك العصر أو العمالقة والأدلة على ذلك هي:

«١: إن بروسوس مؤرخ الكلدان ذكر بين الدول التي حكمت بابل دولة سماها «عربية» وذكر عدد ملوكها وسني حكمها كما تقدم، ودولة حمورابي أقرب دول بابل عهداً من الزمن الذي عينه بروسوس للدولة العربية، وعدد ملوكها وسنو حكمها يقربان مما لتلك، فقد ذكر لتلك الدولة تسعة ملوك حكموا ٢٤٥ سنة وظهر من الآثار أن ملوك دولة حمورابي ١١ ملكاً حكموا ٣٣٤ سنة والفرق بين الحالين أقل من الفرق بين قول العرب عن دولة حمير وبين ما ظهر من أحوالها بعد قراءة الآثار الحجرية في اليمن».

«٢: إن سكان بادية العراق كانوا يعرفون عند أهل بابل باسم «عمورو» أي أبناء المغرب، وهذا الاسم يشمل كل من سكن غربي الفرات من الأمم السامية وفيهم الآراميون في الشام وبدوهم في باديتها، وفي التاريخ القديم أن الكنعانيين اكتسحوا فلسطين في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وأخرجوا أهلها الأصليين، ويوافق ذلك نزول بدو الآراميين وإنشاء تلك الدولة فيها واسمهم عمورو كما تقدم ثم سموهم «عريبي» ومعناها أهل

المغرب أيضاً، والطبري يسمي جد العمالقة «عريب».

«٣: إن بين لغة بابل التي خلفتها دولة حمورابي في ما بين النهرين واللغة العربية مشابهة لا توجد بينها وبين سائر اللغات السامية. منها أولاً حركات الإعراب (الرفع والنصب والجر) فإنها في لغة بابل كما هي في العربية تماماً ولا وجود لها في سائر اللغات السامية قديماً وحديثاً إلا آثاراً منها في لغة بطرا وتدمر لأن أهلهما من بقايا العمالقة، وسيأتي بيان ذلك. ثانياً التنوين فإنه في البابلية م وفي العربية ن وهما تتبادلان. ثالثاً علامة الجمع في البابلية «ون» كما في العربية، وهي «ين» في السريانية، و«يم» في العبرانية. رابعاً صيغ الأفعال في البابلية أقرب إلى الصيغ العربية مما إلى سائر اللغات السامية. خامساً أن بعض الأسماء التي سقط بعض حروفها بالاستعمال في السريانية والعبرانية لا تزال محفوظة في البابلية كما في العربية مثل «أنف» فإنها كذلك فيهما، وقد سقطت نونها في العبرانية والسريانية. ومما يستحق الالتفات أن معظم هذه الخصائص تشترك فيها العربية والبابلية (الآشورية) دون اللغة السريانية أو الكلدانية مع أن هذه مختلفة عن البابلية، ولكن يظهر أن الكلدانية فقدت هذه الخصائص بتوالي الأجيال بالحضارة وحفظها العرب لبداوتهم، لأن اللغة مع خضوعها لناموس الارتقاء في التنوع والتغير فهي أحفظ لنفسها في البادية مما في المدن، بل هي تتغير بالانتقال من البداوة إلى الحضارة وليس بتوالي الأزمان عليها.

«٤ : إن أسماء ملوك هذه العائلة عربية التركيب والمعنى مثل «ساموابي» أي «أبي سام» و«شمسوإيلونا» أي الشمس إلهنا، وقد عثروا في آثار هذه الدولة ببابل على أعلام كثيرة تشبه الأعلام العربية مشابهة كلية لفظاً ومعنى، ولا يخفى ما لهذا الدليل من قوة الحجة لأن كل أمة تمتاز بتسميات خصوصية وتعرف جنس الرجل من معرفة اسمه، فإن كان اسمه نقولاوس أو قسطنطيندس مثلاً عرفنا أنه يوناني، وإذا كان اسمه فرحيان أو لكيجيان أو كركور عرفنا أنه أرمني، وبمثل ذلك نعلم أن وطسن وجكسن وروبرتسن من أسماء الإنجليز واستنفيلد ونيوفيلد وشيلر من أسماء الجرمان وبانيه وهاشت وفلاماريون من أسماء الفرنساويين، حتى أنك تعرف مسقط رأس الرجل من اسمه، وعلى هذا القياس نحكم على عربية دولة حمورابي إذا كانت أسماء رجالها عربية، وهذا جدول من أسمائهم وما يقابلها من الأسماء العربية في اليمن وغيرها.

الأسماء البابلية	يقابلها في العربية	أي الأمم العربية
أبي يشوع	أبيشع	سبأ
عمى زادوقا	عم صدق	سبأ
يدح إيلو	يدع إيل	سبأ
شمسو	شمس	سبأ والصفا
عبد إيل	عبدإيل	سبأ والصفا
عبدو	عبد	سبأ والصفا
خليلو	خليل	سبأ والصفا

يديح	يدع	سبأ والصفا
يديحت	يدعت	سبأ والصفا
أخي ودايل	ودايل	سبأ والصفا
عزيرو	عزرائيل	سبأ والصفا
يملك إيلو	ملك إيل	سبأ والصفا
نفسان	نفس	سبأ والصفا
بلال	بلال	عدنان
دريك	مدركة	عدنان
نكارو	نكور	عدنان
قرانو	قرين	عدنان
صعصعة	صعصعة	عدنان

«٥ : إن معبودات البابليين كثيرة الشبه في أسمائها وأسماء الذين ينتسبون إليها بأقدم آلهة العرب في اليمن وغيرها مثل: إيل وبل وشمس واشتار وسين وسمدان ونسر ويثع كما سنفصله في كلامنا عن أديان العرب قبل الإسلام.

«٦ : إن الحمورابيين اتخذوا بابل قصبة لمملكتهم على حدود البادية قرب المكان الذي اختاره اللخميون كرسياً لدولتهم «الحيرة» بعد ذلك بنحو ثلاثين قرناً، والمكان الذي اختاره العرب المسلمون في أيام بداوتهم «الكوفة» عملاً برأي عمر حتى «لا يكون بينه وبين المسلمين ماء فإذا أحب أن يركب راحلته إليهم ركبها».

فوجود إبراهيم وإسماعيل حقيقة لا دخل للمسلمين بعد

الهجرة ولا للعرب في أي زمان من الأزمان في اختراعها، ولم يخترع وجودهما اليهود بعد الهجرة تقرباً من المسلمين، لأن اليهود لم يصادقوا الإسلام والمسلمين ومحمداً عليه الصلاة والسلام قط، بل أعلنوا العداوة والبغضاء وأضمروا الكيد.

والتاريخ يثبت أن ذكر إبراهيم وإسماعيل وارد في التوراة السبعينية، وقصة إبراهيم مذكورة فيها بتوسع وإطناب أكثر من القرآن الكريم نفسه.

ولا يد للعرب والمسلمين في التوراة السبعينية المترجمة من اليونان إلى العبرية، ولا يد للمسلمين فيها لأنها ترجمت قبل الهجرة بتسعة قرون.

وإذا كان ذوو الهوى ينفون نسبة العرب إلى إبراهيم وإسماعيل بدون حجة فإن أدلة كثيرة تثبت أن إبراهيم عربي، وإسماعيل عربي ابن عربي، وكلاهما كان يتكلم العربية.

وليس هذا القول ملقى على عواهنه، بل هو حقيقة تاريخية ثابتة، لأن العربية التي نريدها هي لغة سكان شبه جزيرة العرب، وكانت لغة واحدة يتكلمونها في كل أقطارها من اليمن إلى العراق والشام وفلسطين وسيناء.

وغلبت عليها التسمية اليونانية وهي «اللغة السريانية» وهي تسمية خاطئة، لأن اليونان غلطوا وسموا الشام الشمالية أشورية

أو أسورية، وبها سميت العربية على لسان اليونان فعرفت حينئذ باللغة السريانية نسبة إلى أسورية.

واللغة التي كان يتكلم بها سكان أرام وكنعان وأدوم وموآب ومديان وما جاورها في الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء هي العربية المعروفة بالسريانية مع خلاف بين هؤلاء السكان لا يعدو الخلاف الموجود بين الشعوب العربية المعاصرة في النطق بالعربية.

وليست اللغة العربية التي كان يتكلمها سكان شبه الجزيرة العربية هي العربية التي نعرفها منذ العصر الجاهلي حتى اليوم، لأن هذه العربية لم تكن في عصـــر إبراهيم الخليل ولا في عصر إسماعيل إلى قرون بعده.

وكان إبراهيم يتفاهم مع كل البلدان التي زارها في جزيرة العرب، ولم يكن إبراهيم يتكلم لغات كثيرة، مما يدل على أن اللغة كانت واحدة في أور الكلدانيين وفي حوض الفرات وفلسطين والحجاز.

وإذا زعم زاعم أن إبراهيم كان يعرف عديداً من اللغات. وافترضنا صحة هذا الزعم فإنّ مما يثبت أن لغة شمال الجزيرة حيث ولد إسماعيل كانت هي نفسها لغة الحجاز، لأن هاجر كانت تتفاهم مع الجرهميين سكان ما حول مكة بلغة مفهومة لها ولهم.

وكان إسماعيل رضيعاً عندما تركه أبوه مع أمه بجوار مكان

البيت قرب زمزم، وتعلم العربية من الجرهميين ولم تكن له لغة سواها، وعندما تزوج جرهمية وجاء أبوه إلى ولده يزوره ولم يجده وخرجت إليه زوجه تحدثا بالعربية.

فلغة شبه جزيرة العرب واحدة، واختلاف اللهجات لا يمنع من التفاهم بها بين أبناء مختلف أقطار الجزيرة العربية.

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام عربي ولد من عرب في بيئة عربية وبلاد عربية.

ومجيئه إلى الجنوب حقيقة تاريخية ذكرت قبل أن تكون للعرب اللغة العربية المعروفة منذ الجاهلية، فقد ذكرتها التوراة المترجمة في عهد بطليموس فيلادلف قبل الإسلام بتسعة قرون في سفر التكوين في الإصحاح الحادي والعشرين إذ قالت:

«وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران».

وفاران - كما جاء في معجم البلدان[1]: «كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة. قيل: هو اسم لجبال مكة. قال ابن ماكولا: أبو بكر نصر بن القاسم بن قضاعة القضاعي الفاراني الإسكندراني: سمعت أن ذلك نسبته إلى جبال فاران، وهي جبال الحجاز، وفي التوراة: «جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من فاران» مجيئه من سيناء تكليمه

---

(١) ج٦ ص ٣٢٣.

لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير وهي جبال فلسطين، هو إنزاله الإنجيل على عيسى عليه السلام، واستعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. قالوا: وفاران جبال مكة. وفاران أيضاً: قرية من نواحي صُغد من أعمال سمرقند؛ نسب إليها أبو منصور محمد بن بكر بن إسماعيل السمرقندي الفاراني روى عن محمد بن الفضل الكرماني ونصر بن أحمد الكندي الحافظ روى عنه أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد الكاغدي السمرقندي. وقال أبو عبد الله القضاعي: فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية».

وفي الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين: «وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء إلى نحو أشور أمام جميع إخوته نزل».

وحويلة ـ كما يرى الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء ـ هي خولان، وخولان قبيلة يمنية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز.

ومجيء إبراهيم إلى الحجاز أمر يتفق مع رسالته العظمى إلى البشرية، فهو ضرورة، لأن كل البلدان الشمالية مملوكة لوثنيين ومشركين، ولم يكن لإبراهيم أرض يملكها يبني عليها بيت الله، وغاية ما ملكه أرض اشتراها تحت قمة صهيون اتخذها مقراً لنفسه كما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين في العهد القديم، وقد أوحى الله إليه أن ينقل ابنه مع أمه إلى مكة.

ولو لم يكن هناك وحي لما تركها في «الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء» كما جاء في البخاري، لأن إبراهيم لم يكن يكره ابنه وأمه، بل الطبيعي أن يحبه حباً جماً لأن الله وهب له على الكبر إسماعيل، فهو وحيده، وطبيعي أن يتدفق حبه كله إليه، وغير الطبيعي أن يقذف به إلى الهلاك إذ لو أراده لما أجهد نفسه بالسفر الشاق من فلسطين إلى الحجاز ولقنع بإلقائه في «برية» قريبة منه، ولكنه مطمئن إلى أمر الله وواثق أنه يحفظه، ولهذا تركه مع أمه وهو آمن.

وخافت هاجر وتبعت إبراهيم بعد منطلقه تناديه وهو لا يجيب حتى سألته: آلله أمرك بهذا؟ فلما قال لها: نعم، عادت واطمأنت.

ولو لم يكن أمر الله لما عاد إلى ابنه يزوره، وما عاد إلا لأنه واثق أنه حي لأن الله أمره بأن ينقله إلى الوادي المبارك.

وهناك مسألة بناء البيت الحرام، فكثير من الباحثين ذوي الهوى ينكرون ذلك حتى لا تكون بركة وتقديساً لبلد الإسلام الأول.

ولكن واقع الحياة في عصر إبراهيم وحياته نفسها يؤكدان بناء البيت، فحياة إبراهيم الدينية في فلسطين لم تكن الحياة التي يريدها، فمن حوله الآلهة الباطلة، وبين يديه ما لا يرضى عنه من الشرك، وكانت السلطات الدينية بين الأحبار والكهان والهياكل مقامة لآلهة متعددة، وكان إبراهيم يدفع العشر إلى أحبار «إيل

عليون» مما يدل على أن السيادة كانت بيد غيره، بل لم يكن يملك أرضاً يدفن فيها زوجه سارة بعد وفاتها فاشترى مدفناً من بعض الحثيين كما تذكر الروايات المتواترة في التوراة.

ورسالة إبراهيم لا تتم إلا ببناء بيت لله يقام فيه التوحيد الحق، فأين يبنيه؟ في مصر وهي بيد فراعنة أقوياء يدعون الألوهية وشعوبهم تعبدهم بإخلاص، ولا يرضون ببديل عن عقائدهم؟.

في فلسطين؟ إنها ملك الأحبار والكهان ولن يتركوه يبني بيت الله.

في العراق؟ إنه خرج من العراق بعد أن لقي فيها كل ضروب المقاومة والتكذيب والعذاب حتى ألقي في النار.

لم يبق إلا الجنوب الآمن، مكة، فعاد إليها وذكر لابنه إسماعيل بعد أن أصبح شاباً قوياً قادراً مؤمناً أدرك من معجزات أبيه ما جعله يستسلم له حتى رضي بأن يذبحه كما سنذكر.

وبنى إبراهيم وإسماعيل بيت الله بأمر من الله، ولما انتهى من بنائه عرفهما ربهما المناسك وأمرهما بالدعوة.

وإن من أدلة صدق نبوة محمد عليه صلوات الله وسلامه أن يقول الله عز وجل في محكم كتابه.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

ففي هذه الآية الكريمة ذكر ماضي الإنسانية من ناحية العقيدة وذكر مستقبلها، وقد صح ما ذكره عن الماضي الذي كان مجهولاً إلى عهد قريب، فكشفت عنه الأحافير والبحوث بعد تقدم العلم.

ولم يكن في عهد محمد صلى الله عليه وسلم - وإلى عهد قريب من يعلم تاريخ العقائد الماضية والأمم الغابرة، لم يكن أحد يعلم أن الشرك والوثنية لم يمكنا لقيام بيت الله مُطهَّراً منهما ولا يُدْعى فيها غيره، حتى جاءت الكشوف العلمية وخرجت الدفائن من تحت الأرض بعد مرور مئات السنين وآلافها لتصدق محمداً فيما نزل عليه من القرآن الكريم.

كان في العالم المعروف كله في عصر إبراهيم ديانات وعقائد لا تتفق مع الوحدانية الصحيحة، فكشفت أحافير مصر عن آلهة لا عداد لها احتوتها أرضها وسماؤ ها، حتى عقيدة أخناتون ليست وحدانية خالصة كما نفهمها وإن كانت ديانته توحيداً لأنه محا الآلهة جميعها وكفر بها إلا «آتون» الذي آمن به وحده إلهاً معبوداً.

وكل الديانات التي سبقت الإسلام قد قام البرهان العلمي على أنها وثنية، وأنها كانت عقائد تعطيل وكفر وشرك، وما كانت بينها عقيدة توحيد خالصة إلا عقائد الرسل الذين انتهوا بالموت فتبعتهم دياناتهم بعد أجل، بعضه قصير، وبعضه طويل ولكنه محدود، وليس في الأرض بيت لله الواحد الأحد تقام فيه شعائر الدين الحق.

ما الذي أعلم محمداً بما كان يجهله أكبر العلماء والباحثين والعباقرة المفكرين من كبار المؤرخين قبله وبعده حتى عهد قريب؟ إذا كان ما جاء في القرآن من عنده ليس من عند الله فهو أعظم بني الإنسان طراً، لأنه عرف الماضي على حقيقته عندما جهله كل من على وجه الأرض، فإذا كان القرآن كلام الله ـ وهو الحق الذي نؤمن به ـ فإن محمداً يصبح ـ كما هو الحق ـ خير الخلق طراً لأن الله آثره عليهم جميعاً.

فعلى الحالين يتفرد محمد بالامتياز على البشرية كلها، صلى الله عليه وسلم.

أما المستقبل فقد بدأ يتحقق، فنحن نرى المهتدين بهذا البيت في أيامنا في كل مكان، في أقصى المشرق وأقصى المغرب، في كل قارات الأرض التي هي بعض العالمين، والناس لا يعرفون في مسألة العقل والدين إلا في أنفسهم، وما خرج عن نطاقهم يعلمه الله.

ولم يواجه الإسلام والمسلمون والعرب نكراناً وجحوداً فيما ذكرنا من الأمور التي تتعلق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، بل نجد الإسراف في الإنكار، فقد زعموا أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، مع أن التوراة التي تذكر قصة ذبح إسحاق هي نفسها تنقض نفسها كما سنوضحه في موضعه.

في سفر التكوين الإصحاح الثاني والعشرين:

«وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم، فقال: هأنذا، فخذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أُمريًا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك، فبكَر إبراهيم صباحاً وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وشقق حطباً لمحرقته وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله، وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد، فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما ههنا مع الحمار، وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما، فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه وأخذ بيده النار والسكين، فذهبا كلاهما معاً، وكلم إسحاق إبراهيم أباه وقال: يا أبي فقال: هأنذا يا ابني، فقال: هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة، فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني. فذهبا كلاهما معاً.

«فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى إبراهيم هناك المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم، فقال: هأنذا، فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني، فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغاب بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقته عوضاً عن ابنه، فدعا إبراهيم اسم

ذلك الموضع يهوا يرأه حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يرى.

ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء، وقال: بذاتي أقسمت بقول الرب إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر، ويرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولي، ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه، فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع، وسكن إبراهيم في بئر سبع».

فقصة الذبح ثابتة لم يخترعها المسلمون لفخر يطلبونه، فقد ذكرها كتاب العهد القديم المعروف بالتوراة ـ وهي غير توراة السماء ـ ولم يذكرها القرآن بالتفصيل المذكور في العهد القديم، ونقطة الخلاف بين اليهود والمسلمين في الذبيح، هم يقولون: إنه إسحاق عليه السلام، والمسلمون يقولون: إسماعيل.

والحق مع المسلمين، فالتوراة التي بين أيديهم تذكر «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه» و«لم تمسك ابنك وحيدك عني» و«فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك».

وما كان إسحاق عليه السلام وحيد إبراهيم، لأن التوراة التي بأيدي اليهود تثبت أن إسماعيل بكر أبنائه، وإسحاق ابنه الثاني، ولا يقال له «وحيد» ولا يوصف بالوحيد بين أبنائه إلا إسماعيل وحده وليس غير، لأنه كان وحيده حقاً، وامتحنه الله فيه.

ونسمع قصة الذبح من القرآن الكريم:

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا

مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ [1].

ورواية القرآن مجملة، والفارق بينها وبين رواية التوراة كبير، فهو أشار إلى أن إبراهيم أخبر ابنه بأنه يرى في المنام أنه يذبحه، ويستشيره في الأمر، ولم يأخذه على غرة وجهل منه كما تصور التوراة، ويقول ابنه المؤمن: افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

فإذا كان في قصة الذبح اختبـار لإبراهيم وحده كما تصور التوراة فإن قصته في القرآن الكريم امتحان لإبراهيم وامتحان لابنه إسماعيل أيضاً، وكما كان الأب الرحيم المؤمن مطيعاً لأمر الله حيث أخذ ابنه لذبحه كان الابن البار المؤمن مطيعاً لأمر الله ثم رغبة أبيه التي هي طاعة لله.

والقرآن الكريم لم ينص صراحة اسم إسماعيل في قصة الذبح لأنه مفهوم من السياق، أما التوراة فلم تذكره صراحة ولكن ذكرته بصفة فاذة لا تتجاوزه إلى أي أحد من أبناء إبراهيم، فالوحيد بينهم الذي يوصف هذا الوصف هو إسماعيل، وذكر إسحاق مقحم إقحاماً يفصح عنه السياق.

ومما يدل على أمانة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن ليس منه بل من الله وكلام الله أنزل عليه أنه كان بوسعه أن يقحم

---

(١) سورة الصافات ٩٩ ـ ١١٣

اسم إسماعيل دون أن يكون هناك أثر ينم عليه، فلو قيل: «قال إسماعيل يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» لما أخل بسياق الآيات، ولكنه قرآن وليس كلام محمد، وليس في القرآن إلا كلام الله.

بل السياق يفيد أن الذبيح إسماعيل، لأنه ذكر «الغلام الحليم» الذي بلغ مع إبراهيم السعي وأخبر برؤياه واستسلم الغلام ابن إبراهيم لأمر الله مصدقاً به وسامعاً ومطيعاً وراضياً، ثم ذكر القرآن بعد انتهاء قصة الذبح إسماعيل.

يقول القرآن: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ ثم بعد عشر آيات يقول: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ فالغلام الحليم الذي أمر أبوه بذبحه هو إسماعيل، وبعد ذلك ذكر إسحاق؛ وسياق الآيات يقتضي أن الغلام الحليم غير إسحاق.

ومقصد الزاعمين من اليهود وغيرهم نفي الذبح عن إسماعيل وإثباته لإسحاق يعود إلى غير سبب واحد، فهم أرادوا انتزاع الفخر من أولاد إسماعيل ـ وهم العرب ـ وادعاءه لأنفسهم، لأن الذين زعموا نفي الذبح عن إسماعيل هم اليهود، ومن شاركوهم الزعم من غيرهم تابعوهم عليه حقداً على العرب أن يكون لهم هذا الفخر العظيم.

والعرب المسلمون لا يريدون أي فخر ادعاء بدون حق، والإسلام الذي حمله صفوة العرب إلى العالم دين حق صحيح

صادق، ولو لم يكن من عند الله، ولو لم يكن العرب المسلمون مؤمنين حقاً لادعوا مفاخر كثيرة يجدون لها مصادق يختلقونها كما فعل اليهود وغيرهم، ولكنهم مؤمنون حقاً، وبعيد عنهم تهمة اختلاق المفاخر، وثابت لهم العدل والتزام الحق.

فهم لم يزعموا أنهم ينتسبون لحرة من سلائل العظماء، بل قرروا الحق حينما نسبوا أنفسهم إلى جارية مملوكة هي هاجر، ونسبوا أعداءهم إلى الأميرة الحسناء ذات النسب الصريح السامق وهي سارة، نسبوا أنفسهم إلى جارية تمتلكها الأم الأولى العظيمة التي ينسبون إليها أعداءهم.

ولو أراد العرب التلفيق والاختراع لكان ذلك يسيراً، فعلى وجه الأرض حتى اليوم ملايين يزعمون أنهم سليل الآلهة، ولو كانوا ملفقين مخترعين لما اخترعوا الانتماء إلى جارية ونسبوا خصومهم إلى السيدة النبيلة التي تملك أمهم العبدة الذليلة.

ولكنه الحق الذي أدانوا أنفسهم به، ولكنه التاريخ الصحيح الثابت يحملانهم على ذكر الحقيقة غير ناظرين إلى مفخرة يتصيدونها ادعاء.

ومقصد اليهود وغيرهم غير خفي في هذا الأمر، فهم يريدون نفي إسماعيل نفسه من الوعد الإلهي لإبراهيم إذ جعل في ذريته النبوة والحكمة، فهم يريدون أن يكون الوحيد خاصاً بإسحاق وحده دون إسماعيل حتى يكذبوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

وخلاصة القول في عقيدة إبراهيم أنها عقيدة التوحيد الخالصة النقية الصافية، وديانته التي جاء بها هي ديانة التوحيد الخالص المنزه عن الشرك.

والفرق بين إبراهيم والرسل الذين سبقوه ـ مع أن دياناتهم جميعاً هي التوحيد الخالص ـ أن دعوة إبراهيم اقترنت بنتائج خطيرة في تاريخ الإنسان لم تكن لدعوات من تقدموه.

فأولئك جاءوا والإنسان ما يزال في حضارته وفكره وعلومه وتقدمه أقل من الإنسان في عصر إبراهيم الذي بلغ في الثقافة والعلوم والآداب ما أتاحه التطور الإنساني، فاقتضى هذا التطور أن تظهر الدعوة في ثوب جديد، وترتاد آفاقاً أبعد من الآفاق التي ارتادها نوح وهود وصالح، لأن دعوة هؤلاء كانت دعوة مقصورة على أقوامهم، أما دعوة إبراهيم فكانت إقامة صرح للدعوة لمن بعده من الرسل، وأصلاً تخرج عنه فروع كثيرة تعود إليه في الجوهر.

فمحمد عليه وعلى إخوانه الرسل صلوات الله وسلامه يعترف بأن إبراهيم كان حنيفاً مسلمًا، وأنه هو سمى المسلمين مسلمين، وأنه «بعث بالحنيفية السمحة».

ومحمد أفضل الرسل وخاتم النبيين، ومع هذا يعترف بالأصل الذي يدعو إليه ويرده إلى إبراهيم، وأنه لم يجىء ليتم العقيدة ولكن جاء ليتمم مكارم الأخلاق.

فعقيدة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم هو تصحيح لشعور الإنسان نحو الكون كله بما فيه ومن فيه، وتقويم لسلوكه، وتهذيب لنظرته نحو كل ما يحس ويشعر ويفكر فيه، فهي عقيدة قوية حية تضيىء كهوف النفس المظلمة وسرائرها الكثيرة، لينطلق الإنسان حراً من أوهاق العبودية لغير الخالق الحق، وتتناول الضمير قبل الجوارح الظاهرة بالتهذيب ليرقى به إلى السماء.

ولم يكن في عصره من يجهلون التوحيد من الأحبار والكهان، ولكنه كان وقفاً عليهم لا يتجاوزهم إلى الناس جميعاً، حتى تكون لهم السيادة المطلقة عليهم، فدعوهم في شركهم يعمهون، وزينوا لهم الآلهة التي يسيطرون عليها ليكون لهم وحدهم السلطان المطلق.

أما رب إبراهيم فليس كمثله شيء، لأن إبراهيم نفسه عبده وأمره بيده يصرفه كيف يشاء عز وجل، فعقيدة التوحيد ليست وقفاً عليه، بل يجب أن تكون عقيدة الناس جميعاً، لا سلطان لمخلوق على رب إبراهيم، وليس إبراهيم كاهناً ولا حبراً يملك مفاتيح العقيدة دون سواه، بل يجب أن يكون كل فرد من بني الإنسان مثله في العقيدة حتى يكون مؤمناً.

ومن هنا تفترق دعوته عليه الصلاة والسلام وتفترق عقيدته وحياته عن أولئك الكهان والأحبار الذين «احتكروا» العقيدة والدين وجعلوهما أداة سلطة ونفوذ وحكم للعامة.

وإذا كانوا يعترفون بينهم وبين أنفسهم أو فيهم من يعترفون

هذا الاعتراف بأن الله وحده خالق الكون، ووجوده ضرورة حتى لا يجهد العقل نفسه في مَتِيهَة فيبقى حائراً وحتى يطمئن إلى معرفة حل لمسألة الكون متى اعترف له بخالق واحد لا شريك له فإن إبراهيم قد تجاوزهم في التوحيد إلى أعلى الآفاق والمراتب وإلى أبعد آماد التصور العقلي للألوهية.

فالله واحد أحد، وخالق الوجود بكل ما فيه ومن فيه، وهو وحده صاحب الأمر والمشيئة والتصرف لا شريك له. ويعلم ما في الأرحام وخائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومنه البدء وإليه المنتهى، لا قدرة لأحد على الخروج على ملكوته وسلطانه.

وبدعوة إبراهيم تقشع عن العقل الإنساني الضباب الكثيف الذي أخفاه دخان الأبخرة التي يطلقها الكهان والأحبار في معابدهم، وطلب إلى العقل أن يعتمد على نفسه في التأمل والبحث في ملكوت الله، ويقطع صلاته بالوسطاء أو الآلهة المختلفة ويعقدها مع الله دون أن يفصل بينهما أحد حتى الرسل، لأن الرسل ليسوا وسطاء بين الإنسان وخالقه، بل دعاة ومبلغون ومرشدون، يدعون إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وليس الله في دعوة إبراهيم سراً محجوباً لا يباح إلا لمخصوصين من بني البشر هم الأحبار والكهان ورجال الدين، أو لغزاً لا يحله إلا هؤلاء المسيطرون على الآلهة والخلق والأرواح أجمعين، بل الله في دعوة إبراهيم للخلق، وواجب على كل فرد أن يعرفه ويدين له بالطاعة، ولا قدرة لمخلوق أن يجعل الله في المعبد

سراً خفياً لا يعرفه إلا هو، ولغزاً مبهماً لا يحله سواه، كأن الله قنية يملكها كاهن أو حبر أو أي أحد من هؤلاء المدعين.

فرب إبراهيم لا ينزوي في معبد ولا في بيت، وليس تحت أمر أحد، بل هو المبدىء والمعيد، وهو الآمر الناهي، ولا حاجة له بأحد من خلقه ولا إليهم جميعاً، بل هم المحتاجون إليه، وسواء علموا أم لا يعلموا لا رازق لهم سواه، وسواء آمنوا به وعبدوه ووحدوه أم كفروا به أو أشركوا معه أو أنكروا وجوده فالله منح لهم الحياة وقدر لهم أرزاقهم حتى يأتي يوم الحساب.

فعقيدة إبراهيم تحرير للعقل من كل قيود الوثنية والشرك والتعطيل، وإحياء للفكر حتى يفهم، وتهذيب للضمير حتى يخلص من كل كدر، فإذا وفق الإنسان للاعتقاد بعقيدة إبراهيم فقد كمل له قدره في الوجود، لأن هذه القوى المدركة المبدعة تعينه على فهم جلال الله وعظمته وتفرده بالعبادة.

والباحث المنصف يدرك أن دعوة إبراهيم كانت أعظم فتح وأوله للإنسانية حتى تتخلص من الأوهام والضلالات والأباطيل التي غرقت فيها، إنها فتحت أمامها أبواب العقل والضمير، ورفعتها إلى مراقي العالم الأفضل في التفكير والسلوك والذوق والوجدان وفي العلم والاجتماع والأخلاق.

لأن الإنسان من غير الوحدانية كان عبداً ذليلاً لقوى غامضة وآلهة مصنوعة وسلطات غاشمة ونقائص، فلما عرف الوحدانية تحرر من العبودية لقوى هو يسيطر عليها بما وهب الله له

من عقل وعلم وإدراك، وآلهة هو صانعها بيديه، وسلطات يعجز عن مقاومتها بالحجة والعقيدة لأنها سلطات قائمة على الاستعباد والسيطرة، ونقائص ورطه فيها الكفر والشرك.

فالحقائق الكونية والكشوف العلمية لم تظهر إلا بعد تحرر العقل على يد الدين الذي أطلقه من غيابة المحبس الضيق حيث قذفه فيه ما كان يعبد من آلهة باطلة تقبع تحت سلطة الكهان والأحبار، ليرتاد الكون الرحيب يكشف عن أسراره.

فالعقائد الباطلة جعلت الإنسان لاصقاً بالأرض، أما عقيدة إبراهيم فقد خلصته من وثاق الأرض والمادة لأنها رفعت العبادة فوق المادة والعالم المنظور وفوق هذه الطبيعة، فإذا كانت المادة قوية فالله خالقها أقوى، وإذا كان العالم المنظور كبيراً فالله أكبر، وإذا كانت الطبيعة واسعة فالله واسع عليم.

وتقترن بدعوة إبراهيم فتوح كثيرة في عالم الإنسان وفي هذا العالم الذي يعيش فيه، لأنها جاءت من العقل ومن الضمير، وما أعقبها من فتوح العلم في هذا العصر لم يكن ليتم شيء منه لولا تحرر العقل، ولكن فتوح العقيدة ترجح على فتوح العلم أن الأولى فتوح تصل الأرض بالسماء، وتربط الإنسان بالخالق العالي، وفتوح العلم تخضع الإنسان لما يملك أو يخضع الإنسان ما يملك لسلطان عقله وقدرته.

«هذه فتوح فيها يملكه الإنسان، أما تلك الفتوح ففيها ملاك

الإنسان كله، فيما يعلمه وفيما لا يعلمه، وفيما يبديه وفيما يخفيه، تلك فتوح غيرت عالم الإنسان الظاهر وعالمه الباطن، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها، وإن كانت العبادة الفضلى غنمًا يغليه من يقتنيه، ويفديه بكل ما يعيه وما لا يعيه، كلا، بل هي عبادة فضلى وفكر فاضل ونظر جديد إلى الكون وإلى الإنسان وبني نوعه في وحدته وفي اجتماعه، هي فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الإنسان بنفسه وبدنياه، وتحسب من أجل ذلك في سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع.

إن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب، يتسلط عليها هذا بإرادة، ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضي بها إلى وجهة غير وجهتها، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى، بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية وإن لم تبلغه دعوات الأنبياء»[1].

وأقام إبراهيم بدعوته صرحاً جديداً ثابتاً للدين وعقيدة التوحيد على وجه الأرض، وكان له فضل السبق والتفوق والبروز على من سبقه وعلى من جاء بعده في «الأولية» التي ذهب بها على من

(١) أبو الأنبياء للعقاد ٦ ـ ٧

سبقوه، وكانت مصدر من جاءوا بعده، وهي عقيدة كاملة في جوهرها وأصولها، منزهة كل التنزيه.

فإذا كان الأنبياء الذين جاءوا بعده وبخاصة أعظمهم وهم موسى وعيسى ومحمد ينتمون إلى إبراهيم في النسب فإن مرد دياناتهم وعقيدتهم إلى ديانة إبراهيم وعقيدته أيضاً، وهذه المزية التي امتاز بها على من سبقوه مضافة إلى المزايا الأخرى التي رجحته على من سواه من الأنبياء غير محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وعقيدة إبراهيم ـ كما قلنا ـ هي عقيدة التوحيد، وديانته هي الديانة التي يُعْتَبَرُ الإسلام صورتها الصحيحة، فإذا أراد قارىء أن يقف على حقيقتها فليقرأ الإسلام حتى يعرف أنه هو نفسه دين إبراهيم.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ
فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ
مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]

---

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٣٥

و﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (١).

و﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢).

و﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣).

و﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤).

و﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا

---

(١) النساء: ١٢٥
(٢) آل عمران: ٩٥
(٣) الأنعام: ١٦١
(٤) النحل: ١٢٣

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [1].

فالقرآن الكريم يذكر «ملة إبراهيم» كثيراً، ويرسل على هذه الكلمة الضوء قوياً، ويأمر أفضل رسله محمداً باتباع ملة إبراهيم لندرك أن ملة محمد هي نفسها ملة إبراهيم، وأن محمداً مجددها.

وملة إبراهيم التي أُمِرَ محمد باتباعها هي الصراط المستقيم والدين القيم.

فالإسلام في جوهره ملة إبراهيم القائمة على التوحيد الخالص.

وحسبها عظمة أن أعظم الأنبياء طراً مأمور باتباعها لأنها دين الحق، ولأنها دين كل الرسل سواء السابقوه والذين جاءوا بعده.

* * *

ودعوة لوط وإسماعيل وإسحاق هي امتداد لدعوة الخليل

---

(١) الحج: ٧٨

إبراهيم، ولوط هو ابن أخي الخليل وآمن به ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ وبعث إلى أهل «سدوم» الذين كانوا فجرة فسقة، وأبوا أن يسمعوا للوط فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ونجى لوطاً ومن معه من المؤمنين.

فدعوة هؤلاء الرسل هي دعوة الخليل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، وتوالت بعدهم عصور أسرفت في الشرك وتسلم تراث إبراهيم نبي عظيم هو موسى عليه الصلاة والسلام.



ديانة موسى

موسى بن عمران بن فاهث بن لاوي بن يعقوب من الأنبياء الكرام أولي العزم، ولد في مصر في وقت كان فيه الإسرائيليون مضطهدين تحت سيطرة المصريين، يذيقونهم العذاب الأليم، حتى بلغ من تجبرهم أن فرعون أمر بقتل كل وليد عبراني ذكر حتى لا يزداد عددهم، لأنه خاف من تكاثرهم ونموهم، ويقال: إن قراء الطوالع والنجوم والمستقبل من الكهنة والمنجمين والسحرة أنبأوا فرعون أن طفلاً عبرانياً سيولد، ويهدد ملكه وحياته، فصار يفتك بالمواليد الذكور.

ولد موسى في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وقيل في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وفي دائرة معارف القرن التاسع عشر: أن الإسرائيليين اتجهوا تحت قيادة موسى إلى أرض كنعان سنة ١٦٤٥ ق. م. وأن موسى مات سنة ١٦٠٥ ق. م[1].

(١) دائرة معارف وجدي ١: ٢٨٠

ولد موسى في الفترة التي كان المصريون فيها يتتبعون مواليد العبرانيين يفتكون بهم، ولكن أم موسى ولدته، واستطاعت أن تجعل أمر مولده سراً، وأخفت وليدها عن أعين الناس حتى بلغ من العمر ثلاثة شهور، وكانت مخاوفها تزداد، فهي تخشى أن تكتشف سلطة فرعون سرها الخفي فتكون الكارثة التي تحل بهما وبالأسرة ماحقة، وبينا هي كذلك أوحى الله لها بما أوحى مما فرج عنها الكرب.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ

قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

و﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ .

(١) سورة القصص ٧ ـ ١٣

ورواية التوراة في سفر الخروج بالإصحاح الثاني: «وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابناً، ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سَفَطاً من البردى وطلته بالحمر والزفت، ووضعت الولد فيه، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به، فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي، فرقت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي، فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي، وأنا أعطي أجرتك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته، ولما كبر جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى، وقالت: إني انتشلته من الماء».

وبين رواية التوراة ورواية القرآن خلاف في جزئيات قصة قذفه في اليم وانتشاله، وكل من الروايتين تتفق مع الكتاب الذي وردت فيه، وأبرز هذا الخلاف في التي انتشلته، فالقرآن الكريم يذكر أنها امرأة فرعون، والتوراة تذهب إلى أنها ابنته، ولكنه خلاف ينتهي إلى وفاق إذا عرفنا أن بعض الفراعنة كانوا يتزوجون بناتهم وأخواتهم، فغير بعيد أن فرعون موسى كان متزوجاً ابنته،

فذكرتها التوراة، وذكر القرآن أنها زوجه لأنه تزوج ابنته، فهي زوجه حقاً.

وسواء صح أن فرعون كان متزوجاً ابنته أم لم يتزوج فإن ما ذكره القرآن هو الحق، لأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما التوراة هذه التي بين أيدينا فمليئة بالأكاذيب والبهتان.

وأعيد موسى إلى أمه حسب الروايتين لترضعه، ولما كملت أيام رضاعه ربي في بيت فرعون تحت إشراف زوجه التي وصفها الله في محكم كتابه بقوله:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ التحريم، آية ١١.

وقد حفظ الله موسى من القتل والغرق وهو رضيع، وحماه من الشرك والكفر إذ ربي في بيت فرعون على يد المرأة الصالحة التي أنقذته، فنشأ سليم العقيدة، مبرأ من التأثُّر بالشرك الذي كان سائداً في بيت فرعون وشعبه.

وجود موسى واشتقاق اسمه وأصله

المصادر التاريخية واليهودية والمسيحية والإسلامية تثبت وجود موسى عليه الصلاة والسلام، وتاريخه معروف، وسيرته مشهورة، واسمه علم مبين.

ومع كل ذلك فإن بعض الباحثين أنكروا وجوده، وبعضهم شككوا فيه، وكثير من الباحثين نفوا عنه النبوة والرسالة، وعدُّوه زعيمًا يهودياً قاد اليهود في حركة الهجرة التي أوحى بها إليهم، فتبعوه وخرجوا من مصر تحت قيادته فراراً من اضطهاد المصريين إياهم.

وذهبوا في تاريخه مذاهب شتى، وأصح المصادر في تاريخه وسيرته ورسالته هي المصادر الإسلامية دون غيرها، فهي التي احتفظت له بمكانته التي تليق به رسولاً نبيـاً دون المصادر الإسرائيلية نفسها.

وكل المفكرين والمؤرخين والباحثين من المسلمين يثبتون وجوده، ويعطونه حقه من التجلة والتكريم. ويعدونه من كبار المرسلين، وأحد أولي العزم الخمسة.

فمولد موسى ووجوده عندنا حقيقة لا شك فيها، لأن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أثبتا وجوده بما لا يدع مجالاً للشك في حقيقته.

ولكن بين المؤرخين والباحثين من غير المسلمين من أنكروا وجود موسى، وذهب بعضهم إلى أنه شخصية خرافية.

ومنهم من شك فيه مثل العالم اليهودي «سلمون ريناك» في كتابه «أرفيوس» Orpheus المطبوع سنة **١٩٣٣** م الذي يقول فيه:

«إن وجود موسى ـ ولعل موسى مأخوذ من الكلمة المصرية ميزو بمعنى طفل ـ لا تؤيده أسفار التوراة التي عزيت إليه خطأ، وليس من حقنا أن نذهب إلى إنكاره.

إنه موجود، ولكن وجوده سيظل موضع الشك فقط، ليس الدين من وضع الإنسان، ولكنا لا نستطيع أن نتصور انتشار دين من غير نفوذ إرادة قوية لرجل من رجال العبقرية أمثال موسى وبولس ومحمد»[١].

وأسفار موسى تثبت وجوده، وبحسبنا القرآن الكريم الوثيقة التاريخية التي لا شك فيها.

وأنكر وجوده بعض العرب أيضاً تقليداً لمنكريه من الغربيين.

---

(١) ترجمة محمد إسعاف النشاشيبي في الرسالة

اشتقاق اسم موسى

وأنكر سيجموند فرويد أن يكون موسى عبرانياً، بل ذهب إلى أنه مصري صميم، بل أمير مصري من أمراء البيت المالك على أيام الملك أخناتون، وزعم في استدلاله على مصريته اسمه، فموسى كلمة مصرية عريقة معناها الطفل أو الابن أو العبد، وأصلها البسيط «موسى» باللغة المصرية، ولم يتغير معناها في عصر من العصور، وكان المصريون يسمون أبناءهم «تحوت موس»، وتحوت إله معروف عند المصريين، ومعناه: طفل تحوت، ويسمون «بتاحموس» أو «أحموس» ومعناها طفل بتاح، ويسمون «رعموس» أي طفل رع، وهو الاسم رعمسيس ورمسيس، ثم كانت هذه الأسماء تختصر للسرعة والترخيم والتدليل فاكتُفِيَ منها بالمقطع الأخير وهو «موس» أو موسى، فموسى ـعلى هذاـ اختصار من هذه الأسماء، وهو لفظ عريق في لغة المصريين.

وذكر غيره أن موسى مؤلف من مقطعين هما: «مو» بمعنى «ماء» و«شا» بمعنى «شجر» في القبطية، والتأويل أنه وجد بين الماء والشجر.

وليس ذلك بحق، لأن القبطية ليست المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة التي خلت من «موشى» بمعنى الماء والشجر[1].

وقيل: إن كلمة «موسى» اسم مفعول من الفعل «مشاْ» بمعنى انتشل بالعبرية، والتوراة تنص على ذلك، ففي سفر الخروج

---

(١) محمد صابر في مجلة الرسالة

الإصحاح الثاني: «ودعت اسمه «موشى» وقالت: إني انتشلته من الماء» فموشى هو المنتشل من الماء.

ولكن «فرويد» يرد على هذا القول بأن ابنة فرعون التي انتشلت موسى تبرهن على معرفة ثاقبة بالعبرية واشتقاقها، ويقصد منه نفي معرفتها، مع أن امرأة في مكانتها المرموقة لا يستغرب منها أن تكون مثقفة وعلى علم بالعبرية التي يعيش على مقربة منها آلاف المتحدثين بها.

وذهب فرويد إلى أبعد من هذا في كتابه الذي ألفه عن «موسى» فنفى عنه أنه عبري، وادعى أنه أمير مصري صميم من أمراء البيت المالك على أيام «أخناتون» داعية التوحيد، وكان من حاشيته وأشياعه، فلما قضى على أخناتون واستبد خلفاؤه من بعده بأصحاب الأديان الأخرى المخالفة لهم لم يجد موسى سبيلاً للبقاء، فهو يخالفهم في العقيدة لأنه موحد على مذهب أخناتون، وحنق على بني وطنه المصريين وبخاصة الكهنة الوثنيين، وهجر ديارهم وانضم إلى أبناء إسرائيل المضطهدين الغرباء وفرَّ بهم، وفرض عليهم دين مصر الذي جاء به أخناتون، فاحتملوه وأطاعوه حباً واضطراراً ومجاملة، وعندما شعروا بالحرية في وادي التيه استكبروا على موسى، وخرجوا على عقيدته إذ مزجوها بعقائد البادية فيما بين سيناء وفلسطين.

ولعل براعة فرويد وذكاءه حملاه على أن يزعم أن كلمة موسى مصرية وليست عبرية، وأنه هو نفسه مصري صميم من

أمراء البيت المالك لئلا يدع أحداً يرد عليه بأن «تحوت مس» اسم فرعون من الفراعنة، وأنهم كانوا يدعون الألوهية، وأنهم من نسل الآلهة، فإذا نسب إلى الإله «تحوت» فذلك يتفق مع الدعوى، لأن معنى «تحوت مس» ابن تحوت، وتحوت إله العلم والحكمة عند قدماء المصريين.

فهو ـ على هذا ـ اسم خاص بفرعون، يثبت أنه الوارث الشرعي للعرش، لأنه من نسل الآلهة، ولا يدخل فيه الأمراء المولون من قبل الفراعنة حتى يتولوا العرش، ولم يقل أحد: إن موسى تولى عرش مصر.

وفرويد الذي ذهب إلى أن موسى مصري الجنسية لم يذهب مذهب الجزم والتأكيد، بل ساق ما زعمه مساق الحدس والتخمين.

ويذهب يوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول المسيحي نقلاً عن مانيثون المؤرخ المصري الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد إلى أن موسى كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود.

وهذا قول غير ثابت، فليس في تاريخ مصر أن موسى كان يتعبد على طريقة المصريين من حيث اعتناق ديانتهم التي تعترف بألوهية الفراعنة، ولو كان كاهناً مصرياً لبشر بديانة المصريين، ولكن لم يؤثر في تاريخ مصر أن موسى بشر بديانة المصريين.

والمحققون يذكرون أن موسى من أصل عبراني، ونحن نرى رأيهم، فموسى عبراني، وإن كان مولده بمصر، فهو عبراني من عبرانيين من نسل داود كما تذكر المصادر التاريخية والدينية، فالتوراة تؤكد ذلك في «سفر الخروج» كما جاء فيه بالإصحاح الثاني:

«ذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابناً».

و «لما فتحته رأت الولد، وإذا هو صبي يبكي، فرقت له، وقالت: هذا من أولاد العبرانيين».

و «فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته».

موسى يقتل ويهرب

لم تكن حياة موسى عليه صلوات الله وسلامه في قصر فرعون لترضيه لولا امرأته المؤمنة الصالحة، ولا شك عندنا أنه كان متبرماً بهذه الحياة في قصر يدعي فيه فرعون أنه إلّه، وموسى يؤمن بأن لا إلّه إلا الله، ولكنه صابر حتى يحكم الله.

وانتساب موسى إلى بيت فرعون بحكم تربيته ونشأته فيه جعل منه إنساناً مرموقاً في المجتمع، وإن كان غير مرغوب فيه لولا حماية زوج فرعون التي كانت تحيطه بالرعاية والحماية والتكريم.

وكان موسى يشعر بالفوارق القائمة بينه وبين فرعون وقصره ومجتمعه وشعبه،ويرى جماعته الإسرائيليين مذلولين محكوماً عليهم بالهوان والاضطهاد، ولكن لا سلطان له فيحميهم، ومع هذا كان له أثر في كف الأذى عنهم، فقد حماهم بقدر ما وسعه من جور المصريين، فاتخذوه زعيمًا لهم، فهو الإسرائيلي الوحيد الذي يعيش في قصر فرعون أو يتردد عليه، ويدخل إلى «حريم» فرعون.

ولعل الإسرائيليين التفوا حوله، واتخذوه زعيمًا لهم، وصاروا شيعته وأنصاره، ورجوا أن يجدوا في ظله الحماية وكف الأذى، وكان موسى نفسه يشعر أن عليه حماية العبرانيين بقدر ما يطيق.

واليهودي ينصر زعيمه إذا كان في نصره إياه كسباً له، فإذا لم يكن هناك كسب تنكر له، اليهودي مطبوع على أن يأخذ ولا يعطي، وكذلك كانوا مع موسى في أدوار حياته قبل الرسالة وبعدها.

وذات يوم رأى مصرياً يضرب إسرائيلياً، فاستنصر موسى الذي أقبل على المصري وضربه بجمع يده فسقط المصري جثة هامدة، وأدرك موسى أنه أخطأ، واستغفر ربه وأناب إليه، وفي يوم آخر رأى موسى صاحبه الإسرائيلي نفسه في معركة مع مصري آخر فلما جاء ينصره ظن أنه قاض عليه ففر هارباً، وأعلم المصري السلطة فخشي موسى على نفسه، وأخبره شريف من ملأ فرعون أن الملأ يأتمرون به ونصح له أن يخرج من مصر.

وقد صور القرآن الكريم هذه الحوادث في سورة القصص فقال:

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ

عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ
بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ
إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ
قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ .

وأثار بعض المستشرقين شبهات في حادث قتل موسى المصريَّ، والشبهة التي أثاروها ليست ضد موسى، ولكنها ضد الإسلام، فالإسلام يقرر العصمة للرسل والأنبياء، وموسى من خيرهم ومن أولي العزم الخمسة بينهم، والقتل من أكبر الكبائر، وارتكابها يناقض العصمة المقررة لهم، فأثاروا الشبهة ضد الإسلام لا ضد موسى.

والحق أن موسى عليه صلوات الله وسلامه لم يرد قتل المصري، بل أراد أن يحمي الذي من شيعته من المصري المعتدي، فوكزه، فقتله خطأ، والدليل ندم موسى وإنابته إلى الله واستغفاره إياه بعد الاعتراف بذنبه.

وأعظم من ذلك كله أن موسى لم يكن نبياً ولا رسولاً حينما كان في وكزه موت المصري، ولا مناقضة للعصمة المقررة للرسل في عمله.

والمسلمون يقررون العصمة لموسى أكثر من أتباعه اليهود، ولم يكن القتل مقصوداً، بل نجم عن خطأ ثابت لا مجال للاختلاف فيه.

وعندما علم موسى أن سلطة فرعون تبحث عنه اضطر إلى الاختفاء والهرب، واتجه صوب مدين، ففيها ذرية يعقوب، وسيجد بينهم ما ينشد من الأمن، ووصل بعد أيام مجهدة إلى أرض مدين.

قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (١).

ولم يستطع موسى عند فراره أن يصطحب معه مالاً وزاداً، وهذا ما يدل عليه سياق الآيات وقصته مع المرأة وقدومه إلى مورد الماء وجلوسه في الظل يدعو ربه وينتظر منه تفريج الكرب.

وبينا هو كذلك أقبلت عليه إحدى المرأتين اللتين سقى لهما وذكرت له أن أباها يدعوه فمضى معها، وإذا شيخ كبير يستقبله ويرحب به، وقص موسى عليه قصته فطمأنه بأنه في أمن من عدوه.

---

(١) القصص: ٢٢ ـ ٢٤

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

وشعر موسى بالطمأنينة في جوار الشيخ، ورضي بما عرضنا، وتزوج إحدى ابنتيه، ولا يعرف اسم صهر موسى على التحقيق، وتدل الآيات أن موسى أمن في جوار الشيخ الذي ملأ قلبَهُ الوجِلَ بالطمأنينة إذ قال له: نجوت من القوم الظالمين.

عودة موسى ورسالته

لبث موسى في أرض مدين المدة التي اتفق عليها مع صهره، وعلى رأي رسول الله محمد صلى الله عليه وعلى موسى والرسل وسلم أنه قضى أبر الأجلين وأوفاهما.

والزمن الذي قضاه موسى بأرض مدين كان كافياً لأن ينسي المصريين حادث القتل الذي ارتكبه خطأ، ويقف عنه الطلب.

وإن التوصل إلى معرفة قاتل المصري وقف أخذ الإسرائيليين بدم القتيل، وفرار موسى أثبت أنه هو الذي قتل، ولو لم يكن ذلك لنال الإسرائيليين شر واضطهاد لا قبل لهم باحتمالهما.

وبعد موسى عن مصر أتاح له أن يأمن على نفسه وعبادته بجوار صهره الصالح، واشتد عوده، وتكاملت شخصيته، وشعر أنه سيجد الأمن في مصر إذا عاد إليها، فاستأذن صهره، فأذن له أن يعود ومعه زوجه.

وطبيعي أن صلته بأسرته في مصر لم تنقطع، وتفكيره في بني جنسه كان موصولاً، وحنينه إلى مصر كان دائمًا، فلما أتم ما اتفق عليه كانت نفسه مطمئنة إلى أرض مصر التي تركها مجبراً، خوفاً على نفسه.

وخرج موسى ومعه زوجه من أرض مدين، ووجهته أرض مصر، والطريق الذي سلكه براً هو طريق سيناء.

وبينا موسى في طريق عودته كان قد وصل إلى سيناء، وفي أرضها المباركة جدّ في حياته ما غيرّ مجراها ومجرى التاريخ البشري كله، فقد ضل الطريق واحتاج إلى نار وآنسها، وطلب إلى أهله أن يمكثوا ومضى إليها رجاء أن يجد لديها من يدله أو يأتي بقبس منها، وقد صور القرآن الكريم أبلغ تصوير هذه الحادثة التي غيرت مجرى التاريخ ومجرى حياة موسى نفسه ومنحته قوة وعزا بعد أن كان خائفاً:

و﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا
تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ
عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا
هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ
بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ
ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾
وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾

وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[1].

وأكرم بهذا الضلال ينتهي بموسى إلى هدى أكبر وأعظم من الهدى الذي نشده، كان ينشد لدى النار هدى إلى سبيله الذي ضله، فإذا هو يجد الهدى الذي يشرف به خير خلق الله حين يكرمهم بالرسالة العظمى والنبوة المثلى، فقد أوحى الله إليه أنه رسوله إلى فرعون، ووهب له معجزتين: العصا، واليد تخرج بيضاء من غير سوء.

واختلف المفسرون في «عقدة» لسانه التي أكدها غيرها من الآيات (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً) و(لا ينطلق لساني) و﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ والذي نراه ـ والله أعلم ورسوله ـ أنه غياب موسى عن مصر سنوات طويلة أنساه بعض لغة مصر ولهجة أهلها مما لا يتيح له الطلاقة التي يمتاز بها أخوه هارون لأنه لم يبارح مصر، فهو أكثر طلاقة وبياناً في لغة فرعون.

---

(١) سورة طه ٩ ـ ٣٦

وبعثت الرسالة في نفس موسى قوة لأنه وجد من الله العون والضمان، فلا حادثة النفس التي قتلها خطأ توثقه ولا قوة فرعون تؤذيه، فمضى في طريقه إلى مصر آمناً مطمئناً قوي الجنان حتى انتهى إلى أمه وأخيه وأخبرهما، وأعلم بني إسرائيل برسالته.

بين يدي فرعون

دخل موسى أرض مصر وهو قوي بربه، وبشر أخاه هارون بأنه رسول معه إلى فرعون، وقص عليه ما كان من أمر الرسالة العظيمة التي حمله الله إياها في سيناء.

ومضيا إلى فرعون، وأبلغاه ما أرسلا به إليه، وقالا له قولاً ليناً، واتخذا معه أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، فناقشهما فرعون بحضرة علية المصريين، ولم يثر، بل اتخذ هو نفسه في أول الأمر أسلوب اللين رجاء أن يرجع موسى عما حمله إليه.

وذكر فرعون موسى بحق تربيته، ثم ذكره بحادث القتل، ويظهر أنه عنف وهو يذكره بهذا الحادث الجلل، فاعتذر موسى بأن ما وقع منه كان خطأ، وعاد إلى أمر الرسالة، فثار بينهما جدل عنيف، وحوار شديد.

دعاه موسى إلى توحيد الله رب العالمين، إذ لا إله إلا هو وحده، وسأله فرعون سؤال المستنكر: وما رب العالمين؟ فرد عليه موسى في شجاعة: رب السماوات والأرض وما بينهما.

وخشي فرعون أن يتأثر من بحضرته من قومه بكلام موسى فاتجه إليهم وقال لهم: ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟ فلم يتركه موسى فاتجه هو نفسه إليهم بقوله: إن من أدعو إليه هو ربكم ورب آبائكم الأولين.

واستمر فرعون في توجيه كلامه إلى قومه وقال لهم: إن رسولكم هذا لمجنون، يريد أن ينتقص موسى الذي وجه كلامه إلى الحاضرين: إن من أدعو إليه هو رب المشرق والمغرب، وإن تعقلتم فستهتدون إليه.

ولم يطق فرعون صبراً، واشتد غضبه على موسى وقذفه بهذا الإنذار العنيف: لئن اتخذت إلهاً غيري لأقذفن بك في السجن.

ولكن موسى لم ينهزم، ولم يترك أسلوب الموعظة والحكمة واللين، بل أراد أن يقدم له البرهان على صدق ما يدعو إليه، وعرض عليه برهانه، فتظاهر فرعون بالحلم وطلب إليه ما لديه.

وهنا ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، حتى إذا تأكد فرعون ومن معه من هذا المشهد الرائع أردف موسى الآية الأولى بآية أخرى، فأدخل يده في جيبه ثم أظهرها فإذا هي بيضاء.

وغالب فرعون هزيمته واتجه إلى قومه يريد أن يملأ قلوبهم حقداً على موسى وقال لهم: إن موسى هذا ليس إلا ساحراً بارعاً، وإنه يريد أن يخرجكم من وطنكم بسحره هذا، فما ترون؟.

وقد صور القرآن الكريم في غير سورة من سوره هذه المشاهد صورة بليغة تغني بإيجازها عن الإطناب.

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا

عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ

مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ
بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ
أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١)

(١) سورة الشعراء: ١٠ ـ ٦٨

وفي سورة طه رويت قصة موسى وفرعون بشيء من التفصيل، وفيه مزيد من الإشارة إلى الحوار بين موسى وفرعون، ومزيد من البيان، والفارق الأكبر بين السورتين في رواية القصة أن لكل من الموضعين سمات خاصة، وصوراً تختلف في كلياتها وجزئياتها، وإن كانت في حقيقتها صوراً لحادثة واحدة، وذلك هو أسلوب القرآن في القصة التي يرد ذكرها في غير موضع.

وها هي ذي الحادثة كما تصورها سورة طه:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ

خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ
عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن
نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ
ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ
أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ
ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم
بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ
يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا
وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟
فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ

أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ
ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن
نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ
مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾
إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ
مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ
مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾
وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾
وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ
طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾
فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[1] .

ولم تكن رسالة موسى خاصة بإنقاذ بني إسرائيل، بل كانت من أجل دعوة فرعون إلى الإيمان ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾[2] .

ولكن فرعون لم يسمع لدعوة موسى واستكبر عليه وأخذته عزة الملك والباطل فكذب وعصى، فأغرقه الله ثم نجاه ببدنه

---

(١) سورة طه: ٤٢ - ٧٩

(٢) سورة النازعات ١٥ - ٢٦

ليكون لمن خلفه آية : ﴿ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[1].

(١) سورة يونس ٩٠ ـ ٩٢.

غرق فرعون ونجاة بدنه

تجمع المصادر الدينية سواء أكانت إسلامية أم يهودية على غرق فرعون ومن معه، وإذا نظرنا إلى أقوال بعض من أنكروا شخصية موسى وجحدوا وجودها فإن قصة موسى وفرعون كلها تصبح وهماً غير واقع، وهذا ما قصد إليه المنكرون، فالمستشرقون الذين أنكروا وجود موسى لم يريدوا إلا الطعن في القرآن الكريم، لا الطعن في التوراة، لأن التوراة مطعونة، والرأي الثابت فيها أنها ليست كتاباً منزلاً من الله، فإنكار وجود موسى عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه لا يؤثر في التوراة وإن كانت ذكرت قصته مع فرعون.

والتوراة التي بين أيدينا كتاب تاريخ وقصص، جمعت ما هو حق وباطل، والكفر والإيمان، وما ينقض التوحيد وكمال الله المطلق وعصمة الرسل والأنبياء.

أما القرآن فهو كتاب الله الحق الذي سلم من التغيير

والتبديل والتحريف، فإنكار وجود موسى طعن في القرآن الكريم الذي اثبت وجوده وقصته مع فرعون.

والقرآن وثيقة تاريخية، كل ما جاء فيه من القصص والأخبار حق، وإن كان بعضه لم تثبته الكشوف العلمية والأثرية بعد، لأن الكشوف لم تنته، وما يزال أمامها مجال واسع، فقصة موسى وفرعون حقيقة أثبتها الواقع التاريخي والبحث العلمي.

وغرق فرعون حقيقة تاريخية ثابتة، ولا يضيرها الخلاف في شخصية فرعون موسى، لأن الغرق واقع حقيقة.

ولم يقع في القديم خلاف في غرق فرعون، كما لم يقع بين المسلمين أي خلاف في نجاة فرعون ببدنه، وكانت النجاة مفهومة على أن جثته هي التي نجت من الغرق حتى يعرف من عبدوا فرعون من المصريين أن إلههم قد أغرقه إله موسى.

يقول الله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾

فالنجاة واقعة لا شك فيها، والأسباب واضحة، ليكون لمن وراءه من الناس علامة تذكر الناسي، وتنبه الغافل، وتثبت المؤمن وتزيده إيماناً.

ويذهب بعض المفسرين إلى أن من أسباب نجاة البدن أن من بني إسرائيل من شكوا في غرق فرعون وموته به، فأنجى الله جثته ليروها فيثبتوا على إيمانهم.

ونجاة البدن تضع حداً لغرور فرعون ودعاواه، فإذا رآها الناس أو علموا بها يتبين لهم أن ربوبية فرعون أكذوبة، فلو كان رباً لسيطر على البحر، وقهر موسى وقومه، ولكنه عبد من عبيد الله الحق، أذاقه كفره وغروره ودعواه الربوبية الذل على يد من ادعى فرعون أنه مهين.

وفي هذه النهاية المؤلمة تبصرة لمن كان له بصر، ورجاء في أن يقلع بنو إسرائيل عن عنتهم ووثنية بعضهم عندما يرون أن من كان يسومهم سوء العذاب ويذلهم الإذلال كله يصير لقىً على سيف البحر مفقود الحول والطول.

وكما أن هناك من أنكروا حقيقة وجود موسى وشخصيته، فإن هناك من أنكروا غرق فرعون، لأن التوراة ذكرت غرقه، ولم تذكر نجاته ببدنه، فلما كشف عن آثار الفراعنة لم يجدوا جثة أحدهم مختفية فأنكروا حادث الغرق، ولو رجعوا إلى القرآن لأدركوا حقيقة الغرق وسر النجاة بالبدن.

ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» ٢٤٠ ـ ٢٤١ نقلاً عن كتاب «فرعون موسى» للأستاذ أحمد يوسف أحمد ما ننقله بنصه:

«عثر العلامة فلندرس بترى على حجر من الجرانيت. . . منقوش من الوجهين أحدهما للملك أمنحتب الثالث من الأسرة ١٨ يذكر فيه كل ما عمله لمعبد أمون.

«أما الوجه الآخر فقد استعمل في شأن منفتاح بن رعمسيس الثاني من الأسرة ١٩ وذكر فيه عبارات بأسلوب شعري يفتخر فيه بانتصاره على اللوبيين ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعيم في فلسطين ـ وجاء من ضمنها عبارة تشير إلى بني إسرائيل ونصها الحرفي ـ (لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر) وهذا أول نص رسمي في الآثار ذكر فيه بنو إسرائيل، وقد عثر على هذا الحجر في كوم الحيتان بطيبة الأقصر.

«وهذا الحجر يبدو منه للمدقق أن منفتاح لم يكتبه في عهده، وإلا لكانت لهذه الحوادث الهامة التي يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدون في أثر خاص، لا أن يستعمل له حجر كان لغيره من قبل».

«ويظهر أن الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودونوا ما به ليشيدوا بذكره، فيقوموا بذلك بواجب التخليد حيث لم يكن منتظراً أن يموت الملك بتلك الصورة المعجلة التي مات بها، وقد أرادوا أن يوهموا الناس أن فرعون قد سحق بني إسرائيل تمويهاً وقلباً للحقائق حتى يستروا أمام الشعب المصري الذي كان يحترم ديانتهم خذلانهم وخذلان إلههم أمام موسى حين كان فرعون يتعقب بني إسرائيل.

ويكون العثور على جثة منفتاح ووجودها الآن بالمتحف المصري مصداقاً لقول القرآن الكريم :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث في قبر أمنحتب الثاني بالأقصر، وظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله، لأن موته لم يكن منتظراً فلم يكن له قبر خاص».

والعظيم في الآية القرآنية أن القرآن سبق الكشوف الأثرية المصرية إلى تقرير نجاة فرعون موسى ببدنه، وقد صح وجوده سواء أكان منفتاح أو غيره، لأن أبدان الفراعنة لم تفتقد، بل وجدت في مقابرها المكشوفة حديثاً، وإن كانت الكشوف الأثرية لم تصل بعد إلى كثير من جثث الفراعنة مع أن العهد القديم (التوراة) لم يشر إلى حادثة النجاة التي قررها القرآن، وأحرج أصحاب العهد القديم عندما اكتشفت أبدان الفراعنة في مقابرها.

وفي وجود جثث الفراعنة نفي صريح أن القرآن الكريم كلام محمد عليه صلوات الله وسلامه، لأنه لا يعلم الغيب، وإثبات أن القرآن كلام الله علام الغيوب، وإلا لصار محمد أعلم الناس طراً بما سينقشع عنه حجاب المستقبل الذي يزيحه علماء الآثار والكشوف.

وهناك رأي طريف أشار إليه الأستاذ مالك بن نبي الباحث الإسلامي الجزائري في كتابه «الظاهرة القرآنية» في تفسير قول الله

تعالى: ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ وهو جدير بأن يأخذ مكانه من هذا الفصل.

قال الأستاذ مالك بن نبي[1]: «والحق أنه حتى في تاريخ الوحدانية حيث تتوثق القرابة بين القرآن والكتاب المقدس، يؤكد القرآن غالباً استقلاله بعلائم مميزة كتلك التي جمعناها في الجدول المقارن لقصة يوسف، وأيضاً فيما نراه في مشهد عبور بني إسرائيل البحر الأحمر حيث غرق فرعون وجنوده كما روى «سفر الهجرة» ولكن رواية القرآن تكمل هذا العرض بتفصيل غير متوقع، وهو أيضاً غير عادي! أعني «النجاة البدنية» لفرعون الذي أفلت بأعجوبة من الغرق، لكن علماء الدراسات المصرية - بخاصة - يهاجمون الرواية الكتابية، مدعين أن تاريخ ملوك مصر لم يسجل اختفاء فرعون المعاصر لموسى في البحر الأحمر، ولنتأمل الآن ما ذكرته الرواية القرآنية: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾.

«لقد فتش التفسير الكتابي - بصفة خاصة - عن التأييد التاريخي لاختفاء فرعون موسى، في الوثائق التي تحدثت عن حياة

(١) كتاب «الظاهرة القرآنية ص ٢٥٨ - ٢٦١.

أمنحتب الرابع، وهو اسم السلالة الملكية للشخصية المصرية، ويعتمد الأستاذ هيلير دي بارانتون Hiliar de Parenton في هذا على مذكرات مورسيل Les Memoires de Moursil وهو أمير حثّي، كتب في مذكراته أن «ملكة مصر التي كانت عابدة كبيرة للإله آمون أرسلت رسولاً إلى أبي، وكتبت له قائلة: مات زوجي وليس لي ولد...» ولكن الملك الحثي ارتاب في موت فرعون، إلى أن كتبت له الملكة ـ تبعاً لنفس النص ـ «إنهم يريدون أن يخدعوني... إن الناس جميعاً ينسبون إليك كثيراً من الأبناء، فاعطني ـ إذن ـ واحداً منهم ليصبح زوجي ويحكم مصر» ويستمر الأستاذ بارانتون في قوله: «فاقتنع الملك الحثي وأرسل أحد أبنائه الذي مات في الطريق ميتة طبيعية ـ كما يقول المصريون ـ ومقتولاً ـ كما يدعي الحثيون»[1].

«ولقد تعمدنا ذكر النصوص الجوهرية للوثيقة الحثية التي يستخدمها المؤلف أساساً للبرهنة على موت فرعون، على أن هذا الاستنتاج الذي يوحي به التوفيق بين فكرة الكتاب المقدس وما يثبته التاريخ معارض برأي علماء الدراسات المصرية، فإنهم لا يقدرون اختفاء «امنحتب الرابع» وإنما تغييراً مفاجئاً في اسمه الذي أصبح «أخناتون» وتبدلا خلقياً وسياسياً عقب الهجرة، فكأنما حدثت في حياة الشخصية المصرية ثورة مفاجئة، وهاك ما كتبه في هذا الموضوع ماسبيرو Maspéro «وبضربة واحدة في الواقع

(١) موجز تاريخ العالم القديم Petite Histoire illustrée du monde ancien ص ٣٦ للأستاذ هيلير دي بارانتون.

تبدل هذا الفرعون شخصية أخرى، واحتفظت العملة الملكية بنفس الاسم «سوتن باتي نفرخ برا وانرا ـ Suten Bati Neferkheperra ouanra» ولكن الاسم سا ـ رع Sa—Râ يصبح رع ـ آتن ـ حوتي Râ-Aten-Houti «

«وفضلاً عن ذلك فإن دينه قد تغير، فقد كان كاهن الإله آمون، فأصبح كاهن الإله آتون ـ رع Aton-Râ وبالتالي ترك طيبة بلدة آمون، وذهب إلى «أخناتون» المدينة الجديدة التى بناها، وكرسها معبداً «لآتون الشمس إلهه الجديد»[٢] بيد أن هذا التبدل لا يكون مفهوماً إلا إذا وقع حدث خطير وغريب أيضاً ليغير حياة الشخصية الفرعونية تغييراً عميقاً، كأن يرى مثلاً غرق جيشه، ويرى نفسه أيضاً غريقاً في البحر الأحمر، ثم إذا به يجد نفسه بطريقة أو بأخرى منجى كما حدثنا القرآن، والمسألة على كل حال تتعلق بنجاة بدنية بما أن فرعون لم يتحول إلى إله موسى، بل اختار تحولاً روحياً وثنياً حدثنا عنه علماء التاريخ المصري القديم.

فإلام يمكن أن تصير ـ على هذا ـ الشهادة الحثية. . ؟ وماذا يعني مسلك الملكة على وجه الخصوص.

«إن من الطبيعي أن يكون لتبدل حال فرعون نتائج بالغة، وخاصة في الحياة الروحية، وذلك لأن الزوجة ظلت تعبد الإله آمون، بينما صار الزوج كاهناً لإله الشمس، فنتج عن هذا انشقاق ديني وسياسي وزوجي، وإذا بأخناتون يقتل الأمير الحثي الذي

---

(٢) فقرة ذكرها هيلير دي بارانتون في كتابه المذكور ص٤٢.

جاء يطلب يد الملكة المتمردة، مسطراً بذلك مأساة زوجية وسياسية.

ولكم نتمنى أن نعرف إذا ما كانت الملكة قد بقيت في عاصمتها «طيبة» الأمر الذي يضفي مزيداً من الوضوح على الوجه السياسي والزوجي للمأساة، وأياً كان الأمر فإن القرآن لا يناقض مطلقاً الكتاب المقدس في هذه النقطة، ولكنه يضيف إليها ـ على كل حال ـ تفصيلاً توضيحياً يتفق مع الأخبار الدينية ومع الحقائق العلمية».

وهذا رأي جديد وطريف في نجاة فرعون ببدنه، ولئن كانت اللغة تحتمل هذا التفسير الذي ذهب إليه الأستاذ مالك بن نبي إلا أن الواقع التاريخي الذي يذهب إليه القرآن لا يرضى بما رآه: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ [1].

فالآية الكريمة تثبت غرق فرعون، والآية الأخرى تثبت نجاته ببدنه بعد الغرق.

وليس اتجاه أخناتون إلى التوحيد الوثني بسبب نجاته بعد أن رأى ما رأى من معجزات موسى، لأنه مهد لديانته منذ حياة والده[2]، ولم يؤثر عن أخناتون ما نسب إليه الأستاذ مالك بن

(١) سورة الإسراء ١٠٣

(٢) راجع في الفصل الذي كتبناه في «ديانات مصر» الصفحات ٢٤٩ ـ ٢٦٤.

نبي، فقد قيل في موته: إنه مات حتف أنفه، وقيل: إنه ذهب ضحية مؤامرة على حياته[٣].

وذكر الدكتور عبد المنعم أبو بكر في كتابه «أخناتون» بهامش ص ٧١ أنه لم يعثر على جثته حتى الآن، ويعتقد أنه لم يدفن في المقبرة التي نقرها لأفراد أسرته في التلال الحجرية إلى الشرق من مدينة تل العمارنة.

وأياً ما كان الأمر في فرعون موسى فإن نجاته ببدنه حقيقة تاريخية، سواء أكان منفتاح أم كان غيره من الفراعنه.

وكانت هزيمة المصريين ومن جعلوه رباً معبوداً وغرقهم نصراً مؤزراً لديانة التوحيد الحق التي دعا إليها موسى، وفوزاً مبيناً لموسى جعل له مكانة عظيمة عند بني إسرائيل، الألى رأوا ما تم على يد رسولهم من معجزات، وما كان له من نصر عظيم.

أفترى بني إسرائيل يقدرون ما صنع موسى ومواقفه من أجلهم، ويثبتون على الإيمان بوحدانية الله، ويقلعون عما عرفوا به من التقلب والشرك والعنت والطمع؟.

---

(٣) مصر القديمة لسليم حسن ج ٥ ص ٢٦٤ و«أخناتون» للدكتور عبد المنعم أبي بكر ص ٧٢ ومراجع أخرى.

فرعون موسى

اختلف الباحثون في فرعون موسى، وتعددت أقوالهم في شخصيته، ولا اتفاق بين الباحثين فيها.

فالعالم اليهودي فرويد يذهب إلى أن فرعون موسى هو أخناتون، ويرى الكاتب الجزائري الأستاذ مالك بن نبي ما يراه فرويد، وبسط رأيه في كتابه العظيم «الظاهرة القرانية» الذي ذكرناه سابقاً.

وفي «الموسوعة العربية الميسرة» ص١٧٦٢ في مادة «منفتاح»: «يرجح أكثر المؤرخين أنه فرعون موسى».

ويرى الأستاذ أحمد يوسف في كتابه «فرعون موسى» أنه منفتاح، وأخذ الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» برأي الأستاذ أحمد يوسف.

وفي «دائرة المعارف الحديثة» ص ٦٥٨ مادة منفتاح: «قيل: إنه فرعون موسى، جاء ذكره في القرآن، توفي منفتاح عام ١٢١٥ ق. م».

وذكر الأستاذ طه محمد الساكت في العدد ٣٨ من مجلة «الإسلام» التي كانت تصدر بالقاهرة: أنه رمسيس الثاني، معتمداً على آراء بعض الباحثين.

ومنفتاح أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، تولى عرش مصر بعد أبيه رمسيس الثاني في سن متقدمة، وكان توليه العرش سنة ١٢١٤ (أو سنة ١٢١٥)ق.م.

والذي دفع من زعموا أن منفتاح هو نفسه فرعون موسى أدلة منها: أن حجراً من الجرانيت[1] نقش في أحد وجهيه: «لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لها بذر».

وجاء في الكتابة المنقوشة في حجر الجرانيت ـ هذا ـ:
«الملوك ملقون على الأرض يصيحون: الرحمة
«ولا يرفع أحد من أهالي الأقواس التسعة رأسه
«وخربت تحينو، وبلاد خيتا قد أسكنت
«ونهبت كنعان وأصابها كل شر
«وخربت إسرائيل وزالت بذرتها
«وصارت فلسطين أرملة لمصر
«وخضعت كل البلاد وهدأت
وكل من كان ثائراً قيده منفتاح».

(١) كتاب «الحضارة المصرية» ترجمة الدكتور أحمد فخري، الصفحات ٤٠٦ ـ ٦٠٨.

ويذهب الدكتور جون ولسون إلى أن هذا المديح لا ينطبق على الواقع، فعلاقة منفتاح بمملكة خيتا طيبة، و«لم تقم مصر بأية حملة حربية في آسيا، ولكن ذلك هو التمجيد المعتاد الذي يتحدث عن الإله ـ الملك بأنه المنتصر على كل من يعارضه، سواء حاربهم في ميدان القتال أو لم يحاربهم»[1].

ويقول جون ولسون[1]:

«ظهور كلمة «إسرائيل» في سياق نص يتحدث عن آسيا أمر له أهميته، ولكن لا قيمة له كحقيقة تنبىء عن نزاع حربي ضد مصر، ولا تدل على شيء أكثر من أن أحد الكتبة المصريين كان يعلم بوجود شعب يسمى إسرائيل في مكان ما في فلسطين أو شرق الأردن، وهذا يعطينا تاريخاً يجب أن يكون خروج بني إسرائيل من مصر قد حدث قبله».

ويقول جون ولسون[1] ما ملخصه:

«والأفراد الذين تكونت منهم فيما بعد الأمة العبرية أتوا من عناصر مختلفة، تجمع بينهم أواصر خاصة، ففي القرون الغابرة خرج بعضهم مطروداً من مصر مع الهكسوس، وكان أكثرهم خاضعين للحكم المصري في فلسطين، أثناء الإمبراطورية المصرية، كما كان الكثيرون من بينهم أتوا إلى مصر كأسرى للعمل فيها، وكان بعضهم مثل «الخبيرو» قد ذاقوا لذة انتصارهم على

---

(١) المصدر السابق.

مصر عندما تمكنوا من عبور الأردن واستولوا على أرض كنعان في أيام العمارنه، وعند بناء الإمبراطورية في أيام سيتي الأول ورمسيس الثاني عاد أكثرهم لغير الحكم المصري، وجيء ببعضهم إلى مصر ليعملوا في تشييد المباني التي كان يشيدها فرعون، وأخيراً نجح فريق منهم في «الخروج»من مصر، وذلك بأن خادعوا فرعوناً من الفراعنة، وهربوا إلى صحراء سيناء وكان أسماء بعضهم أسماء مصرية مثل موسى، تلك هي قبيلة اللاويين الذين وصلوا إلى كنعان فيما بعد، جاءوهم يحملون ديانة جديدة لإله واحد».

ويقول جون ولسون[1]: «والنتيجة التي نريد الوصول إليها هي أنه كان هنالك استعباد، وحدث دون شك خروج من مصر».

ويفيد ما ذكره ولسون أن الخروج حقيقة، ولكنه لم يذكر أنه تم في عهد منفتاح.

ورد بعض الباحثين على هذه الأقوال وأمثالها بأنها ضرب من التخمين والحدس والاستنتاج لا يرقى إلى درجة اليقين، وأن الآثار المكتشفة حتى اليوم لم تؤكد أحد هذه الأقوال، وكل ما ذكر نص على لوح من الجرانيت موجود بالمتحف المصري من عهد الملك منفتاح ـ وهو الذي ذكرناه ـ ولكنه لا يدل على أن خروجهم كان في

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٩

عهد منفتاح، إذ المفروض أنهم خرجوا من مصر قبل ذلك بكثير[1].

وجاء في كتاب «مصر وإسرائيل» تأليف بيتري[2] أن دخول بني إسرائيل مصر كان سنة ١٦٥٠ ق. م وتاريخ خروجهم منها سنة ١٢٢٠ ق. م وهو يعتمد في ذلك على التوراة التي تذكر أن اليهود أقاموا في أرض مصر ٤٣٠ سنة، وفيما ذهب إليه بيتري اتفاق مع من زعموا أن الخروج كان في عهد منفتاح.

ويقول الأستاذ جارستانج عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة ليفربول: إنه كشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته (في عام ١٥٢٧ ق. م بالتحقيق) الأميرة حتشبسوت (الملكة حتشبسوت فيما بعد) وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها، وإنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث.

ويعتقد جارستانج أن المخلفات التي وجدت في هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا[3]، ويرجع سقوطها إلى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد كما يرجع الخروج إلى سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد.

والملكة حتشبسوت وتحتمس الثالث حكما فيما بين سنة ١٥٢٥ وسنة ١٤٦٨ قبل الميلاد، وتتضارب الأقوال في عهد

---

(١) مجلة الرسالة، السنة الثامنة، العدد ٣٨٧ كلمة للأستاذ محمد صابر.
(٢) Egypt and Israel طبعة لندن سنة ١٩٢٥ م.
(٣) انظر سفر يشوع، الإصحاح السادس.

الخروج كما رأينا، ويجوز أن حتشبسوت أنجت موسى من القتل حينما كان طفلاً، ولكنه جواز لا يرقى إلى اليقين، وحتشبسوت كانت أختاً وزوجاً لتحتمس الثاني، فهي على رواية القرآن امرأة فرعون، وعلى رواية التوراة أخته، إلا أن حتشبسوت عنيت ببناء معابد وثنية مما لا يتفق مع التوحيد الذي أشار القرآن إليه في إيمانها الصادق، ويجوز أن عملها من قبيل التقية إذا صح أنها هي التي أنجت موسى من القتل.

شرك بني إسرائيل

كانت هزيمة فرعون وجنوده وغرقهم نصراً مؤزراً لموسى جعل له مكانة عند بني إسرائيل، ولكن داء هؤلاء العناد والإعنات والجشع والطمع إلى حد عماء البصيرة والكفر والشك، فقد غفلوا في كثير من المواقف مع موسى عن عقيدة التوحيد التي أوحي إليه بها، وطلبوا إليه هو نفسه أن يجعل لهم إلهاً حينما مروا في طريقهم إلى الأرض المقدسة بقوم رأوهم عاكفين على أصنامهم.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

---

(١) سورة الأعراف ١٣٨ ـ ١٤٠

إنهم طلبوا إلى موسى أن ينقض هو نفسه عرى الإيمان ويقوض أساس عقيدته ولم يمر على شهودهم المعجزات التي تثبت الإيمان في القلوب تثبيتاً إلا أيام معدودة.

ومن صفاتهم العنت مضافاً إلى الجشع والطمع، فقد أكثروا في السؤال وكان موسى يجيبهم، ويظهر أن كثيراً من بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى من مصر كانوا وثنيين، والوثنية تجري في دمائهم فخرجت معهم فسألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً غير الله الواحد الأحد، فوبخهم ولامهم وجهلهم تجهيلاً، وانتهزوا فرصة غياب موسى عنهم حين ذهابه إلى ربه فاتخذوا عجلاً يعبدونه من دون الله، ولم يستطع هارون أن يثنيهم عن عزمهم ولم يثمر نصحه لهم وتذكيره إياهم، بل كادوا يقتلونه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ

وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾(١).

وما اتخاذهم العجل دليل على أن الوثنية المصرية لم تمح من نفوسهم، فقد كان المصريون يعبدون العجل «أبيس» فهم قد عبدوا العجل مثل هؤلاء.

(١) سورة الأعراف ١٤٨ ـ ١٥٤

وتوالى عنت بني إسرائيل وتوالت عليهم رحمة الله، وأكرمهم الله وأنعم عليهم ما لا يحصى من النعم ثناء عليه عز وجل، وأعظم ما أكرمهم به «التوراة» فيها هدى ونور.

والتوراة التي أنزلت على موسى كتاب من كتب الله، وقد جاء وصف التوراة في غير موضع من القرآن الكريم، وهي غير التوراة التي تمثلها أسفار العهد القديم، فهذه ليست منزلة من الله ولكنها تأليف بشر كما سنذكر فيما يأتي من صفحات هذا الكتاب.

ومما جاء من وصف التوراة في القرآن قول الله تبارك وتعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾

و﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ

(١) سورة آل عمران ١ ـ ٤

ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[1].

والعقيدة التي دعا إليها موسى وهارون هي عقيدة التوحيد الخالص، إيمان بالله وحده، وأنه رب العالمين لا رب فئة أو شعب، وإيمان برسل الله وباليوم الآخر، وبالجنة والنار، والحساب والعقاب والقيامة، ودعوة إلى الخير، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر.

وهذه العقيدة عقيدة كل رسل الله لا فرق بينهم فيها، فهي عقيدة نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه.

واضطلع موسى وهارون برسالة الله وأدياها على وجهها الصحيح، وكانا من المعصومين، ولم تصدق التوراة عندما أشارت أن هارون صنع لهم العجل الذهبي ليعبدوه، لأن هذا مناقض للعصمة المكتوبة للرسل.

وانتقل هارون وموسى إلى ربهما بعد أداء الرسالة حق الأداء، والاضطلاع بالأمانة حق الاضطلاع، وبعد أن وضعا بين يدي بني إسرائيل التوراة التي فيها الهدى والنور، وأوضحا لهم

---

(١) سورة المائدة ٤٣ ـ ٤٤

الطريق المستقيم، وبذلك أعلنا ديانة التوحيد في عالم غريق في الوثنية وفي الشرك، فجددا بها ديانة إبراهيم.

وإن ديانة التوحيد التي جاء بها موسى كان لها شأن عظيم في تاريخ الإنسانية، لأنها أقامت من جديد معالم التوحيد الحق.

ولكن بني إسرائيل المطبوعين على المخالفة والعنت حادوا عن الطريق، وغيروا، وبدلوا، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وابتعدوا على مر الأيام عن عقيدة التوحيد، وأشركوا بالله، فبعدوا عن الهدى والحق.

بنو إسرائيل

مر فيما مضى من الصفحات اسم «بني إسرائيل» و«العبرانيين» و«اليهود» فما حقيقة كل اسم من هذه الأسماء؟.

أما بنو إسرائيل فنسبة إلى إسرائيل الذي هو يعقوب عليه الصلاة والسلام، ولكن «بني إسرائيل» لا يطلقون إلا على الأسباط الإثني عشر الذين خرجوا من مصر مع موسى، وأما اليهود فنسبة إلى يهوذا رابع أبناء يعقوب، ونطق القرآن بهذين الاسمين.

وسموا يهودا تمييزاً لهم عن الأسباط العشرة المسمين إسرائيل، ولما انقسمت مملكة العبرانيين إلى قسمين: مملكة تنسب ليهوذا، وأخرى تنسب لإسرائيل، ضمت الأولى سبط بنيامين ويهوذا، ولكن الأغلب من يهوذا، فسميت المملكة باسمهم، إلى أن ذهب ريحهم وصاروا ـ كلهم ـ بأورشليم تحت حكم ملوك يهوذا حتى أيام بختنصّر الذي أجلاهم إلى بابل، فعرفوا ببني يهودا.

وكلمة «يهود» أعم من إسرائيل وعبراني، لأنها تطلق على

كل متدين باليهودية من العبرانيين أو غيرهم ممن دخلوا في دينهم من مختلف الأجناس واللغات.

وأما سبب تسميتهم «عبرانيين» فالأراء فيه مختلفة، فيقال: إن «عبري» لا تطلق إلا على ذرية إبراهيم العبري[1]، وهذا غير صحيح، فالعرب من ذرية إبراهيم، وليسوا عبريين، وإن كانت أرومة العربي والعبري واحدة، والمادة اللغوية واحدة أو متقاربة.

ويختلف العلماء الباحثون في سبب وصف إبراهيم بالعبري «فبعض المستشرقين يرى ـ اعتماداً على نظرية أحبار اليهود القدماء ـ أن إبراهيم إنما عرف بالعبري لأنه عبر النهر، ولا يعلم أي نهر المقصود؟ أهو الفرات أم نهر الأردن؟.

وقال بعضهم: إن إبراهيم وصف بالعبري؛ لأنه منسوب إلى أحد آبائه الأقدمين الذي كان يعرف باسم عبر»[1].

إلا أن الدكتور إسرائيل ولفنسون لا يرتضي هذين الرأيين «لأن كلمة عبري في الواقع لا ترجع إلى شخص بعينه؛ أو حادثة معينة، وإنما هي ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل إلى آخر. إلخ»[1].

ويقول ولفنسون: «وكلمة عبري في الأصل مشتق من الفعل الثلاثي عبر بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادي

---

(١) تاريخ اللغات السامية، لإسرائيل ولفنسون، ص٧٧ ـ ٧٨.

أو النهر من عبره إلى عبره، أو عبر السبيل شقها، وكل هذه المعاني نجدها في هذا الفعل سواء في العربية والعبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل الذي هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة عبري مثل كلمة بدوي، أي ساكن الصحراء والبادية، وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بني إسرائيل عبرانيين لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدنية والحضارة صاروا ينفرون من كلمة «عبري» التي تذكرهم بحياتهم الأولى: حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا باسم بني إسرائيل فقط»[1].

وقيل: عرفوا بالعبرانيين نسبة إلى اللغة العبرانية، ثم تمسك بها الذين حافظوا على اللغة العبرية وثقافتها تمييزاً لأنفسهم عن الذين اتخذوا اليونانية لغة وأدباً وثقافة وعلماً.

ولكن الدكتور إسرائيل ولفنسون يقول[1]: «ليس في صحف العهد القديم ما يدل على أنهم كانوا يسمون لغة بني إسرائيل باللغة العبرية، بل كانت تعرف باسم اللغة اليهودية، وطوراً باسم لغة كنعان، ولم تعرف باسم العبرية أو اللغة المقدسة إلا بعد السبي البابلي في كتاب ابن سيرا، وفي مصنفات المؤرخ اليهودي يوسفوس، وفي المشنا والتلمود»[1].

وموقع مدينة «أور» التي ولد فيها سيدنا إبراهيم موضع

(١) تاريخ اللغات السامية، لإسرائيل ولفنسون، ص٧٧ ـ ٧٨.

خلاف، فمن الباحثين من يرون أنها تقع في وسط البلاد السورية، ومنهم من يرى أن موقعها في بابل، ولعل الأرجح أنه في الجزيرة بين دجلة والفرات بإقليم العراق الأعلى.

وفي تاريخ سورية ليوسف الدبس ٢ :٧-٨ أن القديس أفرام السرياني يرى أن مولد إبراهيم في «أرفه» وهي «الرها» وتابعه كثير على هذا الرأي، ومن أدلتهم أن اسمها في السريانية «اورهُي» ودافع ستانلاي عن صحة هذا الرأي واعتمده.

وذهب بوخرت إلى أن موقع أور بين نصيبين ودجلة، ووافقه كثير من العلماء.

ويذكر مؤلف «تاريخ سورية» أن العالم أوبَر قد وفّق لتعيين موقع أور التي ولد فيها إبراهيم، وحدده بأنه في الموضع المعروف بالمقائر، وسماه بعض الجغرافيين أم قير، وهو في وسط الطريق بين بابل ومصب الفرات.

وذكر أن قطعاً معدودة من الآجر اكتشفت، وفيها اسم هذه المدينة وبعض ملوكها، وكانوا يسمون ملوك أور، وهي من أقدم مدن بلاد الكلدان، وإن بعض الآثار التي وجدت فيها تعسرت قراءتها وفهمها، ومنها فلذة آجر كتب عليها «إن ليك باغاس ملك أور بنى هذا الهيكل تجلة للإآله سين» وكتب على فلذة أخرى: «أقام ليك باغاس ملك أور هيكلاً تكرمة لسيده الإآله سين وبنى أسوار مدينة أور».

وليك باغاس كان قبل مولد سيدنا إبراهيم، وإن الإلّه سين هو القمر الذي كان أعظم معبودات أور، وإن إبراهيم ولد بها.

وحسب بعض المؤرخين أن الإسرائيليين جاءوا من بابل، استناداً على أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولد في «أور» وشعب إبراهيم كان فيها، وذكروا أنه كان شعباً متحضراً لا متبدياً.

وتزعم مصادر يهودية أن منشأ بني إسرائيل في بلاد الكلدان، لأن سيدنا إبراهيم ولد في أور الكلدان.

وهذا الزعم ناجم مما جاء في سفر التكوين.

وتذهب روايات إسرائيلية أنهم يرجعون إلى أصل آرامي، وإن العالم الفرنسي المعاصر أدولف لودس يشك كثيراً في نسبة اليهود إلى السامية، ويرى أنهم ينتمون إلى الآرامية، «ويدعم نظريته هذه بدلالة ما بين اليهود والآراميين من تقاليد مشتركة، كتطبيق كل من الشعبين نظام الضريبة العشرية التي تقدم للآلهة، أو على ما في التراتيل اليهودية القديمة من الإشارة إلى قرابة اليهود من الآراميين، ويستشهد لذلك بالترتيل اليهودي الشهير القائل: «كان أبي آراميا تائهاً» ويضيف إلى ما سبق دليلاً آخر هو التقارب الوثيق الكائن ما بين اللغتين، ويستخلص من كل هذا فكرة نفي السامية عن اليهود»[١].

---

(١) المفسدون في الأرض، تأليف س. ناجي، مطبعة الإنشاء بدمشق سنة ١٩٦٥ الطبعة الأولى.

والعالم الفرنسي ا. موره يرى أن منشأ السامية في البلاد الواقعة شمال شرقي أرمينيا.

وعلماء آخرون معاصرون مثل كلاي ودرومنت ويلاي يرون أن منشأ السامية كان في سورية نفسها.

وبعض هذه الآراء غير سديدة، مثل قول من قالوا: إن منشأ السّامية كان في سورية، إذ لا دليل لديهم على هذا الإدّعاء.

ومنشأ السامية وشعوبها ولغاتها من الجزيرة العربيـة، وسورية جزء منها، ولكن هذا الجزء لم يكن أصل السامية.

واليهود عرفوا سورية، ونزلوا بها، مثل غيرهم من البدو الرحل، ولم يكن لليهود وطن خاص بهم منذ القديم، فسكنهم سورية لا يعطي فكرة منشأ السامية اليهودية في سورية أي إثبات، فبنـو إسرائيل عرفوا مصر وسكنوها، وقضوا بها أكثر من قرنين، وليس معنى ذلك أنهم نشأوا في مصر.

وسيدنا إبراهيم جد العبرانيين وجد العرب قبلهم، لأن إسماعيل أكبر من إسحاق عرف سوريا وفلسطين ومصر والحجاز، وزعم يوسيفوس مؤرخ اليهود منذ عشرين قرناً أن سيدنا إبراهيم صار ملكاً على دمشق، وهو زعم لم تدعمه أسفار العهد القديم، وليس صحيحاً ما زعمه يوسيفوس.

وإذا كان بعض المصادر الإسـرائيلية يـذهب إلى أن الإسرائيليين يرجعون إلى أصل آرامي، ويحبذ هذا الرأي العالم

الفرنسي أدولف لودس ـ كما مر ـ فإن هذه الرواية إن صحت أو لم تصح لا تبعد عن الواقع، لأن الآراميين والإسرائيليين يرجعون إلى الجنس السامي الذي كان موطنه الجزيرة العربية، وإبراهيم جد العبرانيين من أسرة هاجرت من شمال اليمن على أصح التقديرات.

وبنو إسرائيل كانوا قبائل رحلاً، تدفقوا إلى الشام ونزلوا باديته، ثم أقاموا في فلسطين عنوة، وهم من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وتاريخهم القبلي مجهول، وما عرف منه من قبيل الأساطير، فأصلهم من شعب إبراهيم الذين هاجروا من أور الكلدانيين بعد هجرة أسرة إبراهيم من شمال اليمن إلى إقليم العراق الأعلى، وهذا معترف به تاريخياً لأنه مما لا شك فيه عندنا انتقال إبراهيم من أور إلى فلسطين، وولد له إسماعيل ونقله مع أمه هاجر إلى مكة، وبقي إسحاق مع أمه سارة في فلسطين، وولد لإسحاق يعقوب الذي اتخذ فدان آدام، وصار اسمه إسرائيل، وإليه ينسب الإسرائيليون ومنه جاءهم هذا التعريف.

وتتفق المصادر الدينية وكثير من المؤرخين على هجرة العبرانيين، ولهم غير هجرة، لأن هجراتهم تعددت، وأولها هجرة إبراهيم من أور إلى فلسطين، ومنها هجرة إسرائيل (يعقوب) نفسه مع بنيه وأهله إلى مصر حيث كثر نسلهم وصار الإسرائيليون فيها

أقلية مرموقة ثم صاروا عبيداً، ثم الهجرة التي تمت على يد موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وتواريخ هذه الهجرات ليس مقطوعاً بها، وإن كانت هجرة إبراهيم حدثت في القرن العشرين قبل الميلاد أو ما حوله وقرب منه، فهو مبدأ تاريخ العبرانيين الذي لم يصبح تاريخاً إسرائيلياً إلا من يعقوب وبعده.

ولكن التاريخ الذي جعل لبني إسرائيل ذكراً باقياً هو تاريخ دخولهم مصر بعد يوسف حيث وفد إليها يعقوب وأولاده وإنقاذهم وخروجهم على يد موسى.

وفترة بقاء الإسرائيليين في مصر بضعة قرون.

ومن المؤرخين من ينفون هذه الحوادث بحجة صمت المراجع غير الإسرائيلية عنها، كما نفى بعضهم وجود موسى، مع أن المصادر الإسرائيلية والمسيحية والإسلامية وكثيراً من الباحثين أثبتوا صحتها، وما ذكرته المصادر الإسرائيلية القديمة عن هذه الحوادث موثوق به فيما اتفق فيه مع المصادر الأخرى.

وما ذكرته المصادر الإسرائيلية القديمة عن هذه الحوادث صحيح في جملته، ولا شك عندنا أن منهم الصالحين الذين قادوا الإنسانية إلى الخير، ومنهم الأبطال المغاوير الذين جاهدوا في سبيل الله حق الجهاد مع موسى ومع داود عليهما الصلاة والسلام.

وحسبنا أن القرآن الكريم أشاد بصالحي بني إسرائيل

فوصفهم أجمل وصف، وكرمهم بالمجد والثناء إذ قال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ البقرة ٤٧ ـ ٤٨

ولكن، ليس مفهوم التفضيل على العالمين أنه أبد الدهر، بل فضلوا في زمانهم لأن فيهم الأنبياء والنبوة زمناً طويلاً، ولأنهم دانوا بالتوحيد وغيرهم بالشرك، والموحد مفضل على المشرك، غير أنهم جعلوا نعمة التفضيل التي أكرمهم بها الله سبباً للغرور والمعصية، وتنكروا لهذه النعم فانتقم الله منهم بما انتهوا إليه من الذل والتشريد.

وليس هؤلاء اليهود هم بني إسرائيل قطعاً كما يذهب العلامة الجليل السيد أمين مدني في بحوثه العظيمة التي كتبها في بني إسرائيل واليهود، ونحن نوافقه على ما ذهب إليه ورأى.

يقول السيد أمين مدني: «إن اليهودية دين لا جنس، وإن يهود اليوم لا ينتمون إلى بني إسرائيل تلك الأسرة الكريمة، على أن كثرة من المؤرخين اليهود قديماً وحديثاً حاولوا أن يرجعوا اليهود إلى أرومة عريقة من أرومات الشرق العربي، فمثل ما يحاول المؤرخ اليهودي الحديث أن يربط نسب اليهود بنسب أسرة إسرائيل

ليكونوا شعب الله المختار كذلك حاول يوسف المؤرخ اليهودي القديم أن يربط يهود مصر القدامى بعمالقها (الشاسو) ولكن هذه المحاولات على ما يظهر لم تأت بما يقنع المؤرخين القدامى، فهم لم يذكروا اليهود بعد زوال دولة آل إسرائيل باسم بني إسرائيل، فلقد تحدثوا عن يهود الحجاز قبل الإسلام وعن يهود العراق وسورية ومصر قبل الإسلام وبعده ولم يتحدثوا عن بني إسرائيل في الحجاز وغيره من أرض الجزيرة التي هاجر إليها اليهود»[١].

---

(١) مجلة «كلمة الحق» لصاحبها ورئيس تحريرها مؤلف هذا الكتاب، العدد الأول، محرم ١٣٨٧ (أبريل ١٩٦٧م).

مدّة بقاء الإسرائيليّين في مصر

في كتاب «تاريخ سورية»[(1)] ١ : ٢٤٠-٢٤٣ :

«جاء في سفر التكوين (فصل ١٥ عن ١٣) أن الله ناجى إبراهيم قائلاً: «إن نسلك سيكونون غرباء في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم أربعمئة سنة» ثم جاء في سفر الخروج (فصل ١٢ عن ٤٠): «وكان مقام بني إسرائيل الذي أقاموه في مصر أربعمئة وثلاثين سنة».

«كذا ورد في النص العبراني، وفي نسختنا السريانية وفي اللاتينية العامية وغيرها من النسخ على أنه يظهر من الترجمتين السبعينية والسامرية: أن مدة الأربعمئة وثلاثين سنة يراد بها مدة إقامة إبراهيم ونسله في فلسطين ومصر، أي من خروجه من أور الكلدانيين إلى خروجهم من مصر.

«ولذلك قال يوسيفوس (ك ٢ من تاريخ اليهود فصل ٦):

---

(١) تأليف المطران يوسف الدبس، رئيس أساقفة بيروت الماروني، طبع بيروت سنة ١٨٩٣م.

«إن العبرانيين خرجوا من مصر لسنة ٤٣٠ من بلوغ أبينا إبراهيم إلى أرض كنعان، ولسنة ٢١٥ من انحدار يعقوب إلى مصر».

«وقد حذا حذوه في هذا القول كثير من القدماء والحدثاء، على أن الأكثيرين اعتمدوا نص الأصل العبراني الصريح في الآيتين الآنف ذكرهما، وقد أيدته سائر الترجمات القديمة غير السبعينية والسامرية فأثبتوا أن مقام بني إسرائيل في مصر من انحدار يعقوب بولده إليها حين خروجهم منها إنما هو أربعمئة وثلاثون سنة، لا مئتان وخمس عشرة سنة فقط، وقد أقاموا على ذلك أدلة وحججاً عديدة لا محل الآن لاستقرائها، ومنها: أن مئتين وخمس عشرة سنة لا تكفي لتكاثر عدد بني إسرائيل بالمقدار الذي ذكره الكتاب، أي ليكون منهم ستمئة ألف مقاتل.

«على أن الاكتشافات الحديثة زادت في بيان هذا المبحث، فإن العلامة أرمان السالف ذكره اهتدى إلى طريقه للتوفيق بين ما عينه الكتاب من سنى العبودية وبين الآثار المصرية، وخلاصة ما قال: أجمع من ذكروا فقرات مانيتون على أن يوسف كان في عهد أبابي آخر ملوك دولة الرعاة الأولى، وصرح شنسلّوس أنه استوزره للسنة ١٧ من ملكه، آخذاً ذلك بلا بد عن رواية الإفريقي، ومن المجمع عليه في ذلك العصر أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد أموسيس المسمى منفتاح بن رعمسيس الثاني، فيلزم أن تكون سنو العبودية من عهد أبابي إلى عهد منفتاح.

«على أن الدولتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة حكمتا

مصر على رواية الإفريقي ٥١٨ سنة، أي الدولة الخامسة عشرة ٢٨٤ سنة، والسادسة عشرة ٢٣٤ سنة، وأعقبتها الدولة السابعة عشرة واستمرت ١٥١ سنة في الحرب مع الدولة الثامنة عشرة الوطنية، فكان في مصر دولتان معاً، وعليه فيمكن حساب سني العبودية على هذه الصورة:

« ٤٥ سنة بقي من مدة أبابي بعد أن استوزر يوسف، لأنه ملك ٦١ سنة وبعض أشهر، واستوزره في ١٧ سنة لملكه.

«٢٣٤ سنة مدة الدولة السادسة عشرة.

«١٥١ سنة مدة الدولة السابعة عشرة مع الثامنة عشرة الوطنية وإلى عهد منفتاح.

« فالمجموع (٤٣٠ سنة» أربعمئة وثلاثون سنة طبق ما في الكتاب عن سني العبودية.

«هذا ملخص ما رواه دي كارا (في صفحة ١١٢ وما يليها من كتابه في الملوك الرعاة) عن أرمان.

«ويتراءى إلي أن فيه نظراً من قبيل أن الدولة الثامنة عشرة كان منها عدة ملوك بعد طرد الرعاة، وكذا كان بعض فراعنة الدولة التاسعة عشرة قبل منفتاح، ولم يخرج بنو إسرائيل من مصر على أثر طرد الرعاة منها، بل بعد مدة.

«وأرى أننا لو اعتمدنا رواية يوسيفوس لفقر مانيتون في أن مدة ملك الرعاة كانت ٥١١ سنة، ولبثوا سنين عديدة محاربين

لكان البرهان أقوى وأسلم من النقد، إذ تكون ١٥١ سنة أو القسم الأكبر منها عبارة عن مدة ملوك الدولة التاسعة عشرة إلى منفتاح فرعون الخروج.

«على أننا لا نستند إلى هذا البرهان وحده في بيان سني العبودية بآثار مصر، بل لنا غيره، فقد مر أنه يتبين من صفيحة رعمسيس الثاني أن بين ملك أبابي ورعمسيس هذا أربعمئة سنة، وقد انقضت عبودية بني إسرائيل في عهد ابنه منفتاح، وعليه فتكون مدة الثلاثين سنة انقضت بين حين كتابة الصفيحة وحين خروج بني إسرائيل من مصر.

«قد أجاد بروغش العلامة في الآثار المصرية بملاحظات مهمة في هذا العرض، فنلخصها هنا: قال في كتابه (تاريخ مصر، صفحة ١٧٤ طبعة ٢) إذا جعلنا ملك رعمسيس الثاني سنة ١٣٥٠ ق م اعتماداً على أصح الأقوال في هذه المباحث كان ملك أبابي سنة ١٧٥٠ (لجعل صفيحة رعمسيس بينهما أربعمئة سنة) ويزيد هذا الأمر بياناً وأهمية مطابقته لنص الأسفار المقدسة في عداد السنين التي أقام فيها بنو إسرائيل في مصر (وذكر الآيات التي ذكرناها آنفاً) ولما كان خروج بني إسرائيل من مصر بعد وفاة رعمسيس الثاني الذي جلس على منصة الملك نحواً من خمسين سنة فيكون منفتاح الأول فرعون الخروج ارتقى إلى عرش الملك سنة ١٣٠٠ فإذا أضفنا إليها ٤٣٠ سنة مدة إقامة بني إسرائيل في مصر كان المجموع ١٧٣٠ سنة، وانطبق ذلك ضرورة على عهد وزارة يوسف في

مصر، إذ أتى إليه أبوه وإخوته من فلسطين، وابتدأت سنو العبودية» وانطبق أيضاً على عهد ولاية الملوك الرعاة في مصر، وخاصة على عهد أحدهم أبابي المسمى نوب أيضاً، وسماه اليونان أبوفيس.

«واختتم بروغش كلامه قائلاً: إن هذا الطباق بين نص الكتاب والآثار المصرية لهو ذو أهمية كبرى واعتبار مزيد، ويؤيده التقليد المسيحي القديم الذي حفظه لنا سينشلّوس، ولم يعبه أحد، وهو أن يوسف دبر شؤون مصر في أيام الملك أبابي الذي تسميه الآثار أبوبي.

وزادت ذلك بياناً وثبوتاً صفيحة اكتشفت في مصر من أمد قريب اتضح منها حصول مجاعة في مصر دامت سنين عديدة، ودلت قرائن الحال على أن وقوعها كان في مدة تدبير يوسف شؤون مصر».

هذا الذي ذكره مؤلف تاريخ سورية المطران يوسف الدبس مصدره تأييد «التوراة» أكثر من حقائق العلم والتاريخ في المدة التي أقامها بنو إسرائيل في مصر، ولا يمكن الجزم في تحديد هذه المدة، لأن ثقات المؤرخين اختلفوا في ذلك اختلافاً كبيراً.

ومدة الأربعمئة والثلاثين سنة التي أقامها بنو إسرائيل في مصر حسب رواية التوراة إنما هي مروية في النسخة العبرانية، أما

النسخة السامرية التي يحتفظ بها السامريون في نابلس[1] والنسخة اليونانية فتذكـران في سفر الخروج هذا النص: «فكان جميع ما سكن بنو إسرائيل وآباؤ هم وأجدادهم في أرض كنعان وأرض مصر أربعمئة وثلاثين سنة».

وفي النسخة العبرانية سقطت هذه الجملة: «وآباؤ هم وأجدادهم في أرض كنعان».

وسقوط هذه الجملة من النسخة العبرانية التي يعتمدها اليهود والنصارى يجعل التاريخ الذي حددته غير صحيح.

وفي رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٦-١٧: «وأما المواعيد فقبلت في إبراهيم وفي نسله، لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين، بل كأنه عن واحد، وفي نسلك الذي هو المسيح، وإنما أقول هذا إن الناموس الذي صار بعد أربعمائة وثلاثين سنة لا ينسخ عهداً قد سبق فتمكن من الله نحو المسيح».

ويفهم من رسالة بولس أن ابتداء المدة من العهد الذي سبق مولد إسحاق عليه السلام بسنة واحدة كما يذكر سفر التكوين ١٧ : ٢١: «عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الثانية».

وفي تواريخ ذكرها كتاب «مرشد الطالبين إلى الكتاب

---

(١) في يوم الأحد ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧م زرت السامريين في نابلس بصحبة مرافقي الأستاذ محمود العابدي مدير الثقافة والفنون بالمملكة الأردنية الهاشمية، واطلعت على التوراة التي لديهم.

الثمين» ص ٣٤٥ : أن عهد الله لابراهيم كان سنة ١٨٩٧ ق. م . ومنح الشريعة سنة ١٤٩٠ فتكون المدة بينهما ٤٠٧ سنوات.

وحينما ولد إسحاق لإبراهيم على محمد وعليهما الصلاة والسلام كان قد مضى على دخول سيدنا إبراهيم أرض كنعان خمساً وعشرين سنة، وكان عمر إسحاق لما ولد له يعقوب ستين سنة، وعندما دخل يعقوب مصر كان عمره مئة وثلاثين سنة، ومجموع هذه السنوات مئتان وخمس عشرة سنة، فإذا طرحناها من ٤٣٠ سنة التي وردت في سفر غلاطية والنسخة السامرية واليونانية كان ما يتبقّى هو ٢١٥ سنة هي التي قضاها بنو إسرائيل في مصر.

وإذا أخذنا المدة التي بين عهد الله لإبراهيم ومنح الشريعة وهي ٤٠٧ سنة وطرحنا منها ٢١٥ سنة كان ما يتبقى هو ١٩٢ سنة هي المدة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر.

وليس هناك رأي قاطع في المدة التي قضاها بنو إسرائيل في مصر، والخلاف واقع بين المؤرخين في الشرق والغرب.

ويجوز أن مدة إقامة بني إسرائيل في مصر لا تتجاوز القرنين، باعتبار أن القرن مئة سنة.

وإذا تناولنا الروايات المختلفة في هذه المدة بالنقد والتأمل فإن الخلاف في فرعون موسى سيجعل هذه المدة موضع بحث.

وما دام المؤرخون والباحثون مختلفين في فرعون موسى فإن من المتعذر إبداء رأي قاطع في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر.

دولة إسرائيل

عندما أنقذ موسى بفضل الله بني إسرائيل من المصريين ووصل سيناء كانوا قليلي الشكر لله ثم لموسى، وصدرت منهم أقوال وأفعال يدهش لها العقل، لأنهم نسوا ما كانوا فيه من الذل والعبودية والقهر، وغفلوا عما آتاهم الله من الحرية والعزة، وذكرهم موسى بنعم الله عليهم، إذ جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوك أنفسهم بعد أن كانوا مملوكين للمصريين مسخرين لخدمتهم، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين في عصرهم، فقد هداهم الله إلى التوحيد الحق، وأنعم عليهم بكتاب مقدس، وشريعة ضامنة للخير والسعادة والحق والعدل، ووهب لهم الحرية فلم يصبحوا عبيد ملوك، بل كلهم بما فيهم موسى رسول الله وكليمه عبيد الله وحده.

وأراد موسى لقومه الخير في دينهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم، والخير في دنياهم بأن يعتاضوا عن زمن الذل وعن الفاقة

(١) راجع في مقدمة هذا الفصل ما نقلناه عن الدكتور ولسون.

والبداوة بالأرض المقدسة المباركة ينقذونها من الجبارين ويتخذونها موطناً.

ولكن اليهود كعادتهم من العنت والجبن الذي سرى في دمائهم من استعباد المصريين إياهم لم تكن فيهم نخوة الكفاح والجهاد، فصرفوا أنفسهم عن رسولهم العظيم، ولما ذكرهم بربهم وما أنعم عليهم جبهوه بقول بشع، إذ أمروه أن يذهب هو وربه ويقاتلا الجبارين، فإن انتصر دخلوا الأرض المقدسة التي تدر لبناً وعسلاً.

وجوابهم لموسى يدل على أن الوثنية لم تفارقهم، فقد كانوا يرون الملوك والفراعنة يصحبون آلهتهم في القتال، فظنوا إله موسى مثل أولئك الآلهة وطلبوا إلى موسى أن يذهب هو وربه للقتال وهم قاعدون منتظرون ما تنتهي إليه المعركة بينهما وبين الجبارين، فانتقم الله منهم بتحريم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، وحدد لهم هذا الزمن حتى يفنى المسئولون عن العصيان والتمرد ثم يدخلها أبناؤ هم الذين لم يذنبوا ولم يَزروا وزر آبائهم الفاسقين.

وقد ذكر القرآن الكريم كل ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

وخلف يوشع بن نون موسى الذي مات بعد أخيه هارون، ونفذ الشريعة وحافظ على التوراة ولكنه لقي من اليهود العنت،

ولبثوا في التيـه أربعين سنة، تَمَّ خِلالها تجمُّعُ قبائل أخرى من اليهود، وصاروا قوة مكنتهم فيها بعد من القضاء على مملكة الأموريين وقهر مليكها سيحون، واحتلوا بعد معارك دامية مدنهم الرئيسية مثل: جريخو وآن ولشيش، وحاربوا الملك عوج بن عنق ملك باشان واحتلوا مملكته.

وصادفتهم عقبات ومتاعب في التغلب على الكنعانيين الذين كانوا أهل حضارة وعلم، وكان الإسرائيليون بدواً، فلم يستطيعوا التغلب على أولئك المتحضرين الذين صهروا الحديد واستخدموه وبنوا القلاع والحصون.

ولكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم، فقد استطاع كثير منهم أن يتدسسوا إلى المدن السهلة ويختلطوا بأهلها من الكنعانيين حتى انتصروا عليهم.

وبذلك تم لهم السيطرة على أرض اللبن والعسل، وتحقق حلمهم بدخولها ولكن تأخر ذلك كثيراً عن زمن موسى عندما أمرهم أن يدخولها فأبوا، ولم يكن النصر عسكرياً فحسب، بل انتصروا في ميدان العقيدة كما استخدموا السلم أحسن استخدام، فقد وجدوا في الممالك والأراضي والمدن والقرى التي احتلوا بقايا من الإسرائيليين المتخلفين عن يعقوب عند رحيله إلى مصر انضموا إلى إخوتهم الغزاة ووحدوا صفوفهم، وامتزجت دماؤهم بدماء الشعوب المغلوبة حتى ذابت في بني إسرائيل، كما أقاموا

صلات ودية وحسن جوار مع الدول التي رأوا قواها فوجدوها منيعة فتعاهدوا معها متربصين بها الدوائر.

وصار تحت يد الإسرائيليين رقعة من الأرض لم تقتصر على فلسطين فهي مبعثرة في الأردن وجزء يسير من سوريا، ودانت لهم بلدانٌ كثيرة، فتوزعتها قبائلهم الاثنتا عشرة، ونزلت قبيلة يهوذا وبنيامين في النجود والأراضي التلية حول أورشليم، واستقرت عشر القبائل الأخرى في السهول الخصبة الواقعة في الشمال، أما القبيلة، قبيلة اللاويين فقد تفرقت بين القبائل الاثنتي عشرة، لأنها كانت تقوم بالمهام الدينية للقبائل الأخرى، وهؤلاء القبائل هم الاثنا عشر سبطاً، عشرة من أولاد يعقوب، واثنان من ولد يوسف، وأما سلالة «لاوي» الابن الثالث ليعقوب فلم تعد سبطاً مستقلاً.

وهذا التجمع الإسرائيلي الكبير أوجد لهم مجتمعاً قوياً، وقامت الوحدة الإسرائيلية، وبدأوا يتحضرون، ويأخذون من الأمم المغلوبة حضارتهم ومدنيتهم، واستقر بهم المقام بعد الهجرات والتشريد والعذاب ليشاركوا في بناء صرح الإنسانية.

واقتضى قيام مجتمعهم وجود حكام يدينون لهم بالطاعة ويأتمرون بأمرهم، فقد رأوا الممالك التي قهروها والممالك المجاورة تحكم بملوك، فرضوا بحكام منهم يعرفون بالقضاة، كانوا من الأبطال تولوا الرئاسة وقادوهم إلى النصر، ووجودهم يقع في الربع الأخير من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى أكثر القرن الحادي

عشر على بعض الأقوال، كما يجعل بعض المؤرخين عهد القضاة في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وأضاف الخيال الإسرائيلي إلى هذا العهد أساطير تتجلى فيما نقل عن شمشون الجبار أحد القضاة الحاكمين الذين قهروا الفلسطينيين.

الحرب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل

والفلسطينيون أشد أعداء الإسرائيليين، ويقال إنهم من الشعوب الخمسة الوافدة من منطقة بحر إيجة[1]، ووجدوا مراسهم صعباً، وسيطروا على الساحل من يافا إلى غزة، واستولوا على أهم المدن السامية مثل: أشدود وعفرون وغزة وعسقلان وجت، وكانت جتْ أبعد مدينة عن البحر، وكانوا حريصين أن تكون ممالكهم على شواطئه.

ونشب قتال عنيف بين الفلسطينيين والإسرائيليين حوالي سنة ١٠٥٠ ق. م وانتصروا على الإسرائيليين وغنموا منهم تابوت العهد وحملوه إلى أشدود، وهذا في زمن القضاة، فانكسرت نفوسهم، فقد كان التابوت يقوي أرواحهم، وسلب الفلسطينيين إياه منهم أضعفها فطلبوا إلي نبيهم شمويل (معرب صمويل أو صموئيل) أن يولي عليهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله رجاء أن

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتي ١: ١٩٦

يستردوا التابوت المسلوب، ويتحدوا تحت لوائه، لأن حكامهم القضاة كانوا متعددين، فهم أحوج ما يكونون إلى ملك كما حسبوا.

ولم يكن شمويل عليه السلام راضياً عنهم فقد أشركوا بالله وعبدوا آلهة من دونه فضعفت كلمتهم حتى أُخِذَ منهم التابوت عنوة وحرباً، وعجزوا عن استرداده من أعدائهم الفلسطينيين، وحذرهم من الملوك كما يذكر العهد القديم، وأنذرهم ظلمهم وعسفهم، ولكن شيوخ بني إسرائيل ألحوا في تحقيق ما يأملون فاختار لهم طالوت ملكاً، وورد اسمه عندهم «شاول»[1].

ملك اسرائيل

وبرزت طبيعة اليهود وهي العنت، فلما اختار لهم شمويل شاول ملكاً وذلك سنة ١٠٢٠ق. م أعلنوا السخط وقالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق به منه، ولم يؤت سعة من المال، فرد عليهم، أن الله اختاره وزاده بسطة في العلم والجسم، وهو وحده الذي يؤتي الملك من يشاء، وآية ملكه أن يأتيهم التابوت، فرضوا على مضض.

وجمع طالوت جيوشه الإسرائيليين لقتال الفلسطينيين الذين كانوا تحت إمرة قائدهم البطل المعلم جالوت المعروف عندهم

(١) سفر صموئيل من الإصحاح الثامن إلى الحادي عشر.

باسم «جليات» وكان من شجاعته يتحامى الأبطال لقاءه، فلما التقى الجيشان برز جالوت وتحدى الإسرائيليين فلم يجرؤ أحد منهم على الخروج له، وكان معهم داود، وكان صغيراً لا علم له بالحرب، فلما رأى تحدي جالوت وجبن الإسرائيليين برز بدون أداة الحرب، وأراد شاول أن يثنيه ولكنه أصر وتقدم الصفوف وقتل داود جالوت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ

أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ

بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ

مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ

بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ

قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ

وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

وهُزم الفلسطينيون بشجاعة داود، ولكن شاول نفسه قتل كما قتل بعض أولاده على يد الفلسطينيين؛ وبايع رجال يهوذا داود ملكاً عليهم ولكن سائر الإسرائيليين بايعوا «إيشبوشت بن شاول»، وبعد حرب دامت سنتين بينه وبين داود انتهت بهلاك ابن شاول، وبويع داود ملكاً على بني إسرائيل نحو سنة ١٠٠٤ ق. م.

ويعد داود باني مملكة إسرائيل بحق، فقد وحد صفوفهم وكلمتهم، وبنى مجتمعهم على قواعد دينية وأخلاقية، وساد الرخاء والأمن أرجاء المملكة، واتسعت رقعتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

وأكرم الله داود فآتاه الزبور، وهو من الكتب السماوية، إلا أنها تسابيح وابتهالات وقصائد في تمجيد الله عز وجل، وقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وعلى داود وكل إخوته الرسل وسلم، ففي حديث أبي موسى سمعه النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فقال: «لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود» شبه حسن صوته

(١) سورة البقرة ٢٤٦ ـ ٢٥١

وحلاوة نغمته بصوت المزمار، وإلى داود المنتهى في حسن الصوت بالقراءة.

ولقد ذكر القرآن الكريم داود عليه السلام أحسن الذكر فقال: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾[1]

و﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[2]

و﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا داوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[3]

و﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[4]

و﴿ يَا دَاوُودَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[5]

و ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾[6]

والمسلمون جميعاً ينزهون داود مما وصم به في كتب أتباعه من الموبقات التي تشمئز منها النفس، ففي «التوراة» التي يؤمن بها اليهود والنصارى أن داود عليه الصلاة والسلام رأى من سطح قصره امرأة أوريا الحثي تغتسل، وكانت رائعة الحسن، فأعجب

(١) سورة الإسراء الآية ٥٥
(٢) سورة ص الآية ٣٠
(٣) سورة سبأ الآية ١٠
(٤) سورة ص الآية ١٧
(٥) سورة ص الآية ٢٦
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥١

بها داود وأحضرها من منزلها وزنا بها على طهر فحبلت منه، ولما أخبرته وذكرت له خوفها من الفضيحة لأنها حملت وزوجها غائب عنها يجاهد في سبيل الله مخلصاً، وطلبت إلى داود أن يستدرك الأمر قبل فوات الأوان، فبعث إلى زوجها أوريا وأحضره من ميدان الجهاد وأمره أن يمضي إلى داره ويضطجع مع امرأته فأبى محتجاً بأنه لا يجوز له أن يستمتع باللذات وجنود الله يجاهدون في سبيله ومعرضون للبلاء.

وأمضى أوريا ليلة دون أن يذهب إلى زوجه، فاستبقاه داود يوماً آخر، ودعاه إلى مائدته وأطعمه وأسكره حتى يثير شهوته فيمضي إلى زوجه وينام معها، ولكن أوريا أبى، فما كان من داود إلا أن بعث معه رسالة إلى قائد جيشه يأمره فيها أن يقدم أوريا للقتال في «وجه الحرب» حتى يموت، ومات وخلصت زوجه لداود فأخذها لنفسه وجعلها من نسائه، وولدت له ولداً ذكراً كان ثمرة الاتصال المجرم، فأحبه حباً شديداً، فانتقم الله منه فأمات ابنه هذا، وزاد انتقام الله منه فجعل ابنه أبشالوم يضطجع مع نساء أبيه.

هذا ما تذكره «التوراة» في حق داود، وتصوره أبشع صورة، وتنسب إلى الله عز وجل ما لا تصح نسبته إليه حيث تذكر أن الله يعاقبه بأن يسلط عليه من يزني بنسائه أمام الناس، مع أن حد الزاني في التوراة التي يعمل بها داود نفسه هو القتل، ففي سفر اللاويين بالإصحاح الثامن عشر: «ولا تجعل مع امرأة صاحبك

مضجعك لزرع فتنجس بها» وفي سفر التثنية في الإصحاح الثاني والعشرين: «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة: زوجة بعل يقتل الاثنان: الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة».

ولا يصح في العقل أن يجازى على الفاحشة المخففة بفاحشة مفظعة، إن داود ـ على زعم التوراة ـ زنى بامرأة غير محرم عليه فإذاً عقوبته أن يزني ابنه بنساء أبيه وهن محارمه. مع أن حد الزنا بالمحارم في التوراة نفسها التي يؤمن بها داود وينفذها هو القتل، ففي زنا ابنه بمحارمه تقول التوراة في سفر اللاويين الإصحاح الثامن عشر: «عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف... عورة امرأة أبيك لا تكشف إنها عورة أبيك، عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها». وفي سفر التثنية الإصحاح السابع والعشرين: «ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه لأنه يكشف ذيل أبيه» وفي سفر اللاويين الإصحاح العشرين: «وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه إنهما يقتلان كلاهما دمهما عليهما».

وتصوير التوراة لداود وأسرته يهبط به من المرتبة العليا التي أنزله الله بها إلى درك أحط السفلة الأقذار، مما حدا بكثير من المفكرين المسيحيين الكبار إلى احتقار داود عليه السلام، حتى أن المفكر الكبير ب. بايل P. Bayle قال في بعض كتبه: «إن حبيب الله هذا (يقصد داود) رجل تستنكف أن تمد إليه يدك لمصافحته». وها هي ذي نقولٌ منها تظهر الفارق الكبير بين التوراة المحرفة والقرآن

الكريم في النظر إلى الأنبياء والمرسلين، وتبين سمو الإسلام ونزاهته.

وما أقول هذا تعصباً للإسلام، بل أقوله إيماناً بالحق والخلق والسمو والفضيلة التي يقررها الإسلام بصدد داود وإخوته من النبيين.

في التوراة سفر صموئيل الثاني الإصحاح الحادي عشر: «في وقت المساء إن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى، فأرسل داود إلى يواب يقول: أرسل إلي أوريا الحثي. فأرسل يواب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه فسأل داود عن سلامة يواب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: إنزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يواب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى

بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر! فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضاً، وغداً أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل.

«وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يواب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يواب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يواب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً، فأرسل يواب وأخبر داود».

وفي ختام الإصحاح: «فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها داود إلى بيته وصارت له امرأة ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب».

وتذكر التوراة في الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني أن الله أرسل ناثـان النبي إلى داود وقال له: «لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه، قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة وإياه قتلت بسيف بني عمون، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة، هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر

من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس، لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس إلخ».

وفي الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثاني: «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل على سراري أبيه أمام جميع إسرائيل».

وأبشالوم هو ابن داود، وقتل أخاه أمنون من أبيه لأنه زنا بأخته ثامار في قصر أبيه داود كما تروي التوراة.

وأنا أدهش من هذه التوراة التي تفتري على الله ورسله هذا الافتراء، وما أعظم القرآن الذي يقرر الحق ويعطيه صاحبه ويقول عن داود: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

وتوفي داود سنة ٩٢٣ ق. م حيث خلفه ابنه سليمان عليه السلام، وزادت مملكة إسرائيل قوة وعمراناً، وبلغت أوج المجد السياسي والحضاري والحربي والعمراني، واستخدمت المعادن في الصناعات والحلية والزينة، واتحد بنو إسرائيل الذين هم شعب إسرائيل ويهوذا، ولم يكن الاتحاد بينهما في زمن سليمان بل في عهد أبيه وزاد اتحادهما توثقاً في عهد سليمان، وبقيت أورشليم عاصمة كما اتخذها أبوه لم يغيرها، بل وجه إليها اهتمامه حتى جعلها مدينة عظيمة، وبنى الهيكل الذي يعد أكبر معبد ديني لليهود ومثابتهم الأولى ومحجتهم، وبسببه قتل ألوف اليهود، وهدم غير مرة على

أيدي أعدائهم، وتكرر بناؤه حتى لم يبق منه شيء إلا الحائط الذي بسمى - الآن - حائط المبكى على زعمهم أنه أحد حيطانه.

وإذا كان داود موصوماً مطعوناً من قبل أسفار اليهود المقدسة فإن سليمان أيضاً متهم وطعين، فسفر الملوك الأول يتحدث عن سليمان في الإصحاح الحادي عشر قائلاً:

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك

ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً، وأعطيها لعبدك، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها».

هذه سيرة سليمان عليه الصلاة والسلام كما يذكر أحد أسفار اليهود المقدسة، وهي سيرة بشعة كريهة، لأن رسول الله يعصيه علانية بعد أن تجلى له مرتين.

كيف تتفق النبوة والرسالة والصلاح مع غضب الله، لأن سليمان لم يحفظ ما أوصاه به؟

أيستحق الرسول أن يكون رسولاً أو نبياً إذا استطاعت نسوة أن يملن قلبه وراء آلهة أخرى؟ أيستحق أن يكون صالحاً من يشرك بربه فيبني معبداً لصنم من الأصنام؟ كيف يعترف الرسول بآلهة وثنية يعترف السفر المقدس بأنها رجس؟.

أين عدل الله في الجزاء؟.

إن سليمان هو الذي أذنب ـ على رأي السفر المقدس ـ ولكنه ينجو من عقاب الله ليحل العذاب بابنه البريء.

على أي حال، إن سير كل بني إسرائيل وأنبيائهم تطعنهم أسفارهم المقدسة، بل تطعن أبا الأنبياء إبراهيم صلى الله عليه وسلم، بل إن الأسفار المقدسة تشرك بالله، وتصفه بالنقص والعيب وبما لا يتفق مع وحدانيته وكماله المطلق.

وبموت سليمان حوالى سنة ٩٢٣ ق. م بدأ الضعف في

المملكة حتى انقسمت شطرين: شطراً مع ابنه رحبعام يتكون من قبيلة يهوذا وبنيامين باسم مملكة يهوذا، وعاصمتها أورشليم، وآخر مع يربعام من قبيلة أفرايم باسم مملكة إسرائيل ضمت القبائل العشر الأخرى، واتخذت «شكيم» أو «شمرون» - وهي نابلس - عاصمة لها، ثم ترزة، ثم السامرة.

وكانت الفتن والحروب بين المملكتين مشتعلة، مما أضعف بني إسرائيل، حتى انتهوا إلى انهيار الحكم فيهما، فسقطت مملكة إسرائيل في يد سرجون الثاني، حيث استسلمت له عاصمتها «السامرة» فيما بين سنة ٧٢٢ و٧٢١ق. م، ولم تقم لها قائمة بعد، واختار سرجون أمهر الإسرائيليين وأحسن رجالها وسباهم إلى ميديا، ويقال: إن السامريين من هؤلاء المسبيين، ومن نسلهم بقايا حتى الآن في بعض البلدان العربية مثل غزة ودمشق، ولكن نابلس (التي كان اسمها في الماضي شكيم) تضم منهم أكبر عدد موجود في مدينة وهو خمسون وثلاثمئة كما يذكر آخر إحصاء صحيح أجري في هذه الأيام (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م).

وأما مملكة يهوذا فقد طال عمرها أكثر من أختها مملكة إسرائيل، وإن كانت قد تعرضت لغزوات بعد موت سيدنا سليمان عليه السلام، أهمها غزو أحد فراعنة مصر - واسمه شيشنق وتذكره التوراة باسم شيشق - للمملكة في عهد رحبعام (سنة ٩٢٠ق. م) حيث نهب أورشليم وسلب قصر سليمان والهيكل الذي بناه وما كان فيهما من كنوز وتحف، وخرب مدن مملكة يهوذا.

وتعرضت في عهد سنحريب ملك آشور سنة ٧١١ ق . م لغزوه، ولكن أورشليم لم تستسلم له، وبقي حزقيا ملكاً على يهوذا يدفع الجزية له كما خضع لدفع الجزية عن السنوات الماضية.

وآخر نكبة أصيبت بها مملكة يهوذا كانت على يد الملك البابلي بختنصر (نبوخذ نصر) (٦٠٤ ـ ٥٦٢ ق . م) بل تعددت على يديه النكبات، ففي سنة ٥٩٧ دخل جيش بختنصر أورشليم وقيد ملكها يهوياقيم (٦٠٨ ـ ٥٩٧) لأنه تحدى بختنصر وتمرد عليه بإيعاز من فرعون مصر، قيده بالسلاسل ثم مات أو قتل في قيوده وألقيت جثته خارج أبواب عاصمة ملكه.

وتولى عرش أورشليم أو مملكة يهوذا يهوياقين بن يهوياقيم، وبعد ثلاثة أشهر من حكمه جاء بختنصر نفسه إلى أورشليم وحاصرها فاستسلمت بعد أيام من الحصار، وأخذ يهوياقين وأمه ونساءه وسبعة آلاف من جنده وألف من مهرة الصناع الإسرائيليين إلى بابل، وولى صدقيا عم الملك الأسير على مملكة يهوذا[١].

ولكن صدقيا تنكر لبختنصر، وكان وراء تنكره فرعون مصر ورغبات زعماء المملكة فاضطر بختنصر إلى إرسال جيش لمحاربته فهرب صدقيا، ولكنه قبض عليه في سهول أريحا وجيء به إلى المعسكر البابلي وقتل أبناؤه على مرأى منه ثم سملت عيناه، وأخذ أسيراً إلى بابل، وهدمت أورشليم والمعبد الكبير الذي بناه

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين لفيليب حتي.

سليمان عليه السلام وكان مهوى أفئدة الإسرائيليين، وسبى جيش بختنصر كل عظماء إسرائيل وأغنيائها وأسرهم ولم يبق إلا الفقراء والبائسين وأخذهم إلى بابل، وقدر عددهم بخمسين ألفاً، وهذا ما عرف في التاريخ بنفي بابل، وكان ذلك سنة ٥٨٦ ق. م.

العودة بعد السبي

ولبثوا في الأسر خمسين سنة حتى أنقذهم منه كورش ملك فارس الذي هزم البابليين سنة ٥٣٨ ق. م ورعا اليهود وأفرج عنهم ورد لهم ما غنمه البابليون منهم، وأعاد من رغب العودة إلى فلسطين، حيث استعادوا بعض ما فقدوا، ولكنهم لم يستطيعوا استعادة استقلالهم السليب.

إلا أن فترات من تاريخهم نعموا فيها بالاستقلال ولكنها كانت فترات قصيرة، فكانوا تحت حكم الفرس حوالي قرنين ثم استولى عليهم المقدونيون خلفاء الاسكندر الأكبر، ثم وقعوا تحت سيطرة الرومان.

ثورة اليهود تقضي عليهم

وفي عهد الامبراطور هادريان الروماني قام اليهود بثورة امتدت خمس سنوات من سنة ١٣٠ إلى سنة ١٣٥ بعد الميلاد، ولكن الرومان أخمدوها واتخذوا أفتك ما يتخذ لإخماد الثورات من بطش وقتل وإرهاب، فنهبوا أموالهم وأملاكهم، وخربوا دورهم

ومزارعهم، وشتتوا شملهم، فهاموا على وجوههم في البلدان، وما زالوا منذ ذلك التاريخ هائمين حتى الآن برغم قيام دولة إسرائيل بأرض فلسطين سنة ١٩٤٨ م.

لقد زال ريح اليهود بعد هدم الهيكل على يد المسيحيين الرومانيين، ولكن أقامت لهم حكومات مسيحية في الغرب في هذا العصر دولة جديدة اغْتُصِبَتْ من أهلها الشرعيين، فكانت المفارقة التي أدهشت كثيراً من المسيحيين وبعض اليهود على السواء.

عقيدة الديانة الموسوية

أما عقيدة بني إسرائيل الأساسية فالتوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام ثم أبناؤه من بعده: إسحاق ويعقوب ويوسف، ثم بعث الله موسى لينقذ اليهود ويدعوهم إلى عقيدة التوحيد من جديد، فآمنوا به، ولكن منهم من خالفوه وعبدوا غير الله.

وتاريخ عبادات بني إسرائيل يثبت أنهم عبدوا الأسلاف والأوثان وعبدوا الشمس والقمر والكواكب ومظاهر الطبيعة، وعبدوا الطواطم من حيوان ونبات وجماد، وفي عهود الأنبياء والرسل وبعدها كان فيهم الشرك حتى بلغ بهم الأمر أن طلبوا إلى موسى بعد نجاتهم بفضل الله على يديه أن يجعل لهم إلهاً غير الله كما لغيرهم ممن رأوهم آلهة فجبههم.

ثم عبدوا العجل الذهبي على مشهد ومقاومة من هارون، وبعد وفاتها كان يوشع بن نون يدعو إلى ما دعا إليه موسى وهارون، ولقي مثلهما العنت منهم وكذلك كان كل الأنبياء الذين

ظهروا فيهم، وشر ما لقي منهم المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

وديانة موسى ديانة توحيد خالصة مثلها مثل المسيحية الحق ومثل الإسلام الصحيح كما يصورها القرآن الكريم والحديث الشريف، ديانة سمحة كريمة تصف الله عز وجل بالكمال المطلق والصفات المثلى وتبني العقيدة على أساس الإيمان بأن الله واحد أحد فرد صمد لا شريك له، ولا إلّه غيره، وأن الله عز وجل متفرد في كماله وأسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله، تنزه عن الشريك والولد والصاحبة والبنات وعن كل نقص أو عيب، وذاته تخالف الحوادث.

ومما لا شك فيه أن أركان الإيمان في ديانة موسى عليه وعلى نبينا وإخوته أفضل الصلاة وأتم التسليم هي الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره وباليوم الآخر.

وفسدت فكرة «الإلّه» عند الإسرائيليين عندما وصفوه وصفاً لا يليق بجلال الإلّه الحق، وصفوه بصفات الآدميين، فذكروا في سفر التكوين أن الله خلق الكون في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، ونسبوا إلى الله تبارك وتعالى الكذب والتضليل كما يذكرهما سفر التكوين في قصة آدم وحواء، إذ يزعم أن الله منع آدم عن الأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» لئلا يموت، مع أن الله أخفى السبب الحقيقي وهو أن يكون مثله «وقال الرب الإلّه هوذا

الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر»[1].

وفي هذه الجملة اعتراف من «الرب الإله» بوجود آلهة أخرى غيره (كواحد منا) وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والفرق بين التوراة التي بين يدي اليهود والقرآن أن القرآن يثبت لله في هذه القصص والحوادث ما يتفق مع جلال الله وكماله:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾. و﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

وتذكر التوراة أن الرب الإله كان ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته، بل تجسد الإسرائيلية «الله» تجسيداً، وتذكر في قصة قوم لوط أن الله وملكين جاءوا إلى إبراهيم، وهذه عبارة سفر التكوين في الاصحاح الثامن عشر: «وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه» إلخ.

وتذكر التوراة التي بين أيدي اليهود أن الله والملكين الذين جاءوا في صورة رجال ثلاثة أكلوا مما قدمه لهم إبراهيم.

وهذه بشاعة غاية في البشاعة أن يُصوَّر الله وملائكته هذه

(١) الإصحاح الثالث من سفر التكوين.

الصورة التي لا تتفق مع ذات الله ولا مع الملائكة، ولندرك الفارق بين التوراة ـ هذه ـ والقرآن نذكر ما جاء في كتاب الله :

﴿ ولَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ● فَلَمَّارأى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ هود ٦٨ ـ ٧٠.

و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ● إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ● فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ● فَقَرَّبَهُ إلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ● فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ● فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ● قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ● * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ● قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ● لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ ﴾ الذاريات ٢٤ ـ ٣٣.

وآيات القرآن الكريم تثبت للملائكة مغايرتهم للطبيعة

البشرية، وأنهم لا يأكلون كما يأكل البشر، ولا تذكر ما ذكر سفر التكوين من مجيىء الله في هيئة رجل مع الملكين، بل يذكر القرآن ما يتفق مع جلال الله وكماله وقدرته وعظمته وتفرده في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فالذين جاءوا هم الملائكة، ولم يطعموا مما قدم إبراهيم لهم.

وزعم سفر التكوين أن الله نفسه المتمثل بهيئة رجل قد أكل هو والملكان زعم يناقض ألوهية الله ـ أولاً ـ ويخالف ما فطر عليه ملائكته ـ ثانياً ـ ويجعل الله مثل خلقه في الذات والصفات والأفعال والأقوال.

وهوالذي يزعمه سفر التكوين فتطور فيه إلى ما يعمله الوثنيون المتأخرون الهمج الذين يقدمون لآلهتهم طعاماً يعدونه من القرابين، وما يقدمون للحيوان الذي يعبدونه، فجعلوا الله مثل الأرباب الباطلة.

وما في ديانة إسرائيل مما تصوره أسفارهم المقدسة جميعها ليس من ديانة موسى، لأن ديانة موسى الصحيحة كما ينبىء عنها القرآن الكريم، ديانة توحيد حق، وكان من الإسرائيليين على مر الأيام مؤمنون موحدون في عصر موسى وفيما بعده من العصور، وإن كان فيها تلاه من القرون قليل من هؤلاء الموحدين.

واسم الله عند بني إسرائيل «يهوه» وهي كلمة لم يهتد الباحثون إلى حقيقة اشتقاقها، وقيل: إن يهوه هو الرمز الذي يشير

إلى الله عز وجل، وليس هو اسمًا حقيقياً له، لأنهم كانوا يتحاشون ذكر اسمه إجلالاً وتقديساً، فاتخذوا الرمز تنزيهاً وتوقيراً.

ويقول الأستاذ العقاد[1]: «وقيل: إنه[2] عليه السلام أول من سمى الإآله «يهوه» وروى غير العقاد ما ذكره.

والذي نراه أن موسى لم يكن أول من سمى الإآله «يهوه» فقد سبقه إبراهيم إلى ذلك، ففي سفر التكوين أول أسفار التوراة ٢٢: ١٣ ـ ١٤: «وإذا كبش وراءه مُمْسَكاً في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش، وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه، فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَهْ يِرْأَهْ».

ومعنى يهوه يرأه: الرب يرى.

وإذا كان أحد نطق بهذا الرمز قبل غيره فسيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا والأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه.

وعلى هذا يكون إبراهيم أول من سمى الله «يهوه» قبل موسى، إلا إذا كان موسى نسب إلى إبراهيم ما نطق به قبله بالاسم الذي رمز به إلى الله عندما ذكر سيرة إبراهيم.

وعرف اليهود الله باسم آخر هو إلوهيم «الاسم الذي نراه قد أطلق على الألوهية في أقدم أسفار اليهود.

---

(١) كتاب «الله» ص ١٠٩

(٢) أي موسى.

«ولا يمكن أن يقال إن إلوهيم هو إآله واحد، لجمعية اسمه، ولأن جميع الكلمات التي ترجع إليه قد وردت بصيغة الجمع.

فبنو إسرائيل كانوا يعبدون ـ إذن ـ إلوهيمات في أثناء حياتهم البدوية التي قضتها أجيالهم الأولى»[1].

«والحق أن إلوهيم الأجيال القديمة السديميَّ العاطل من الجنس والاسم، والواحدَ والمتعدد في آن واحد يقرب من إآله الأديان الكبرى الحديثة العام أكثر من قربه من يهوه الجائر الذي يفطر من دم الشعوب المذبوحة، ومن لحم القرابين، والحامي الوثيق لشعب صغير هزيل، والأخ لمولك وبعل»[1].

و«كلمة إلوهيم هي جمع لكلمة إيل التي تجيء في كلدة بمعنى الإآله الأعلى، وكلمة بابل فيما بين النهرين تجيء بمعنى باب إيل، كما أن بيت إيل تجيء في اليهوديه بمعنى منزل إيل».

وقصة الألوهية في بني إسرائيل لم تقم على الوحدانية الشاملة إذا رجعنا إلى توراتهم التي بين أيدينا، وإلى أسفارهم المقدسة قبل أسر بابل، وتوحيد بني إسرائيل ـ حسبما تصوره التوراة ليس توحيداً صحيحاً، وقام هذا التوحيد على الشرك، ولم يفارقه في كل عهود الرسل والأنبياء، وابتعدوا عن التوحيد إلا من عصم الله، وبخاصة بعد موت موسى، حيث تعددت الآلهة

(١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص٥٩ و٦١ و٦٢.

المعبودة من قبلهم، أو الآلهة المعترف بها منهم، بل كان بين المؤمنين الموحدين في عصور الانتكاس من يؤمنون بالله على أنه الواحد الأحد ويؤمنون ـ إلى جانب ذلك ـ بآلهة الوثنيين على أنها آلهة غيرهم، وليس من حقهم عبادتها، لأنها وجدت لغيرهم، وبذلك قضوا على فكرة التوحيد الخالص، وجعلوا إلهم خاصاً بهم، حتى أنهم لم يسمحوا لغيرهم بدخول دينهم، لأن إله إسرائيل وقف عليهم دون سواهم، وخاص بهم دون غيرهم.

وإذا رجعنا إلى التوراة والأسفار المقدسة لدى اليهود لنعرف فكرة الألوهية لديهم وجدنا «الله» الذي عرفوه هو غير الله الحق الواحد الكبير المتعال.

إن الله عندهم مثل البشر، فيه نقصهم ومعايبهم، وتعالى الله عن ذلك كله.

وفي سفر التكوين أول أسفار التوراة بالإصحاح الثالث:

«وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله: لا تأكلا من كل شجر الجنة، فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر،

فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر.

«وسمعا صوت الرب الإلّه ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإلّه في وسط شجر الجنة، فنادى الرب إلّه آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟.

فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت، فقال الرب الإلّه للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت» إلخ.

هذه فكرة الله عند اليهود، فهو عندهم كالبشر في الصفات والميول والنزعات، والتجسيم عندهم حقيقة، والله لديهم أشبه بالملك المتسلط الجبار، وأحياناً مصارع، ويخفي الحق، ويقول غيره، و... إلخ.

وفي سفر التكوين بالإصحاح الثامن عشر ما يثبت هذا التجسيم المادي لله عز وجل، وها هي ذي فقرات منه:

«وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض

وقال: يا سيد، إن كنتُ قد وجدتُ نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم، واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم، فقالوا: هكذا تفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً، اعجني واصنعي خبز ملة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً، وأعطاه للغلام، فأسرع ليعمله، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم، وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا».

فالله عند إبراهيم نفسه يظهر في صورة رجل، ويأكل ويشرب، ويجلس تحت الشجرة، ثم تذكر القصة أنه تحدث إلى إبراهيم ومضى لشأنه، كما مضى الرجلان الآخران اللذان كانا معه إلى سدوم ونزلا في بيت لوط.. إلخ

إن الله في التوراة مثل خلقه، بل هو عند اليهود يتخلق بصفات كريهة تشمئز منها النفس الإنسانية الكريمة، تعالى الله عما يقولون ويفعلون ويشركون ويكفرون.

بل تذكر هذه التوراة أن الله تصارع مع يعقوب، وها هي ذي روايتها في سفر التكوين بالإصحاح الثاني والعشرين، بالفقرات ٢٢ ـ ٣٢.

«ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريته وأولاده الأحد

عشر، وعبر مخاضة يَبُّوق، أخذهم وأجازهم الوادي وأجاز ما كان له، فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، وسأله يعقوب وقال: أخبرني باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه، ونُجِّيَتْ نفسي، وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذيه، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا».

والإنسان الذي صارعه يعقوب طول ليله حتى الفجر هو رب إسرائيل، وكان يعقوب هو المنتصر في الصراع، لأن الفجر طلع وعجز ربه أن يصرعه، وطلب إليه أن يطلقه، فلم يرض يعقوب، ولم يقدر رب إسرائيل على يعقوب، فضربه على حق فخذه فخلعه، ولم يطلق سراح ربه حتى باركه.

فرب إسرائيل هنا عاجز، ويصارع أحد خلقه، وينهزم، ويتوسل أن يطلقه، فأيُّ رب الموصوف بصفات خلقه؟ أي رب هذا العاجز الذي لم يقدر على إنسان ضعيف خوَّاف؟.

وإله العبرانيين مثله مثل سائر خلقه، فهذا عبده موسى يوبخ ربه إذ يقول له: «لماذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب، وأنت لم تخلص شعبك»[1].

وإله العبرانيين رجل حرب، فهذا رسوله موسى يصفه بقوله: «الرب رجل الحرب»[2].

بل يجسد اليهود ربهم كما يحلو لهم، فهو رجل تارة، وتارة عمود سحاب، وتارة ثالثة عمود نار، وها هوذا سفر الخروج ١٣: ٢٢ يقول:

«وارتحلوا من سُكّوت، ونزلوا في إيثام في طرف البرية، وكان الرب يسير أمامهم، نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهاراً وليلاً، لم يبرح عمود السحاب نهاراً، وعمود النار ليلاً من أمام الشعب».

وفي سفر الخروج ٢٤: ٩ - ١١:

«ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا وشربوا».

---

(١) سفر الخروج ٥: ٢٢ - ٢٣.
(٢) سفر الخروج ١٥: ٣.

وربّ إسرائيل ـ كما يصفونه في توراتهم ـ يرتكب الخطأ مثل خلقه، ويشعر بشعور الخاطئين، ويندم، وهذا سفر الخروج ـ ثاني أسفار التوراة الخمسة ـ يقول[1]: «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي، ولم يُقِمْ كلامي» و«الرب ندم، لأنه ملَّك شاول على إسرائيل».

وهذا حوار بين موسى وربّ إسرائيل في سفر الخروج ٣٢: ٧ ـ ١٤:

«قال الرب لموسى: اذهب، انزل، لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له، وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.

«وقال الرب لموسى: رأيتُ هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقاب، فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فأصيرك شعباً عظيمًا.

«فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال: لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم على وجه الأرض، ارجع عن حموِّ غضبك،

(١) الإصحاح الخامس عشر، الفقرة ١٠ و٣٥.

واندم على الشر بشعبك، اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمتُ عنها فيملكونها إلى الأبد!.

فندم الرب على الشر الذي قال: إنه يفعله بشعبه».

هنا ـ والعياذ بالله ـ وصف لله بالخبث، وأمر من عبد لسيده الخالق بالرجوع عن غضبه، والندم على الشر، وندم من رب إسرائيل.

ويهوه رب إسرائيل لا يعرف بيوت أبناء شعبه كأنه غريب، فيطلب إليهم أن يضعوا علامة على أبواب بيوتهم ليجتازها حين يمر لإهلاك المصريين، وها هوذا سفر الخروج يقول[1]:

«إني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة، وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين، أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربه للهلاك حين أضرب أرض مصر».

ويحدد يهوه لهم الموضع الذي يلطخونه بدم الشياه التي يذبحونها في اليوم الرابع عشر من الشهر، ويقول لهم: «ويأخذون

(١) الإصحاح ١٢ الفقرتان ١٢ و١٣ وراجع إصحاح ١٢ الفقرات ٢١ ـ ٢٣.

من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها»[1].

ويهوه يحرضهم ويأمرهم بالسرقة والاحتيال، فيقول لهم[2]: «وأعطي نقمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين».

وسلب الشعب اليهودي المصريين، فقد جاء في سفر الخروج ١٢ : ٢٥ ـ ٢٦ : «طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين».

أهكذا يكون الله؟ تعالى عما يصفون ويكذبون.

ويهوه متوحش ظامىء للدماء، ويكفي أن موسى يصفه بأنه رجل الحرب، ويأمر اتباعه بألا يرحموا المغلوبين، بل يأمر باستئصالهم «لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم»[3] و«اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً»[4].

---

(١) الإصحاح ١٢ الفقرة ٧.
(٢) الإصحاح ٣ الفقرة ٢١ و٢٢.
(٣) سفر التثنية ٧:٢.
(٤) صموئيل الأول ١٥:٣.

وفي سفر أشعياء ٦: ٨ ـ ١٣.

«ثم سمعت صوت السيد قائلاً: من أرسل ومن يذهب من أجلنا؟ فقلت: هأنذا، أرسلني، فقال: اذهب، وقل لهذا الشعب: اسمعوا سمعاً ولا تفهموا، وابصروا إبصاراً ولا تعرفوا، غلِّظ قلب هذا الشعب، وثقِّل أذنيه، واطمس عينيه، لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه، ويرجع فيُشْفَى، فقلت: إلى متى أيها السيد؟ فقال: إلى أن تصير المدن خربة بلا ساكن، والبيوت بلا إنسان، وتخرب الأرض وتقفر، ويبعد الرب الإنسان ويكثر الخراب في وسط الأرض، وإن بقي فيها عشر بعدُ فيعود ويصير للخراب».

و«يقطع الرب من إسرائيل الرأس والذنب، والنخل والأسل في يوم واحد، الشيخ والمعتبر هو الرأس، والنبي الذي يعلم بالكذب هو الذنَب، وصار مرشِدو هذا الشعب مضلين، ومرشَدوه مبتلَعين، لأجل ذلك لا يفرح السيد بفتيانه، ولا يرحم يتاماه وأرامله، لأن كل واحد منهم منافق وفاعل شر، وكل فم متكلم بالحماقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه، بل يده ممدودة بعدُ»[1].

ووحشية يهوه ليست مقصورة على أعداء شعبه المختار، بل

---

(١) أشعياء ٩: ١٣ ـ ١٧.

تنصب وحشية يهوه على ما أبشع ما تكون على شعبه، فيقول يهوه[1]:

«إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتدركك.

«ملعوناً تكون في المدينة، وملعوناً تكون في الحقل.

«ملعونة تكون سلتك ومعجنك.

«ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك نتاج بقرك وإناث غنمك.

«ملعوناً تكون في دخولك، وملعوناً تكون في خروجك.

«يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك إذ تركتني.

«يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها.

«يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك.

«وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً، والأرض التي تحتك حديداً.

(١) ٢٨ : ١٥ وما بعد.

«ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك.

«يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك، في طريق واحدة تخرج عليهم، وفي سبع طرق تهرب أمامهم، وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض، وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض، وليس من يزعجها.

«يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء.

«يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب، فتتلمس في الظهر كما يتلمس الأعمى في الظلام، ولا تنجح في طرقك، بل تكون منصوباً كل الأيام وليس مخلِّص.

«تخطب امرأة، ورجل آخر يضطجع معها.

«تبني بيتاً ولا تسكن فيه.

«تغرس كرماً ولا تستغله.

يذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه.

«يغتصب حمارك من أمام وجهك ولا يرجع إليك.

«تدفع غنمك إلى أعدائك وليس لك مخلص.

«يسلم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار فتكلّان وليس في يدك طائلة.

«تمر أرضك وكل تعبك يأكله شعب لا تعرفه، فلا تكون إلا مظلوماً ومسحوقاً كل الأيام.

«وتكون مجنوناً من منظر عينيك الذي تنظر.

«يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين حتى لا تستطيع الشفاء من أسفل قدمك إلى قمة رأسك.

«يذهب بك الرب وبملِكِك الذي تقيمه عليك إلى أمة لم تعرفها أنت ولا آباؤ ك، وتعبد هناك آلهة أخرى من خشب وحجر.

«وتكون دهَشاً ومثلاً وهزأة في جميع الشعوب الذين يسوقك الرب إليهم.

«بذاراً كثيراً تُخرِج إلى الحقل، وقليلاً تجمع، لأن الجراد يأكله.

«كروماً تغرس وتشتغل، وخمراً لا تشرب، ولا تجني، لأن الدود يأكلها.

«يكون لك زيتون في جميع تخومك، وبزيت لا تدَّهن، لأن زيتونك ينتثر.

«بنين وبنات تلد، ولا يكونون لك، لأنهم إلى السبي يذهبون.

«جميع أشجارك وأثمار أرضك يتولاه الصرصر.

«الغريب الذي في وسطك يستعلي عليك متصاعداً، وأنت تنحط متنازلاً، هو يقرضك وأنت لا تقرضه، هو يكون رأساً وأنت تكون ذنباً.

«وتأتي عليك جميع هذه اللعنات، وتتبعك، وتدركك حتى تهلك، لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه التي أوصاك بها، فتكون فيك آية وأعجوبة، وفي نسلك إلى الأبد.

«من أجل إناث لم تعبد الرب إلهك بفرح وبطيبة قلب لكثرة كل شيء تُستَعبد لأعدائك الذين يرسلهم الرب عليك في جوع وعطش وعري وعوز كل شيء، فيجعل نير حديد على عنقك حتى يهلكك.

«يجلب الرب عليك أمة من بعيد، من أقصاء الأرض، كما يطير النسر، أمة لا تفهم لسانها، أمة جافية الوجه لا تهاب الشيخ، ولا تحن على الولد، فتأكل ثمرة بهائمك وثمرة أرضك حتى تهلك، ولا تبقي لك قمحاً ولا خمراً ولا زيتاً ولا نتاج بقرك ولا إناث غنمك حتى تفنيك، وتحاصرك في جميع أبوابك، في كل أرضك التي يعطيك الرب إلهك، فتأكل ثمرة بطنك: لحم بنيك وبناتك الذين أعطاك الرب إلهك في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك.

«الرجل المتنعم فيك والمترفه جداً تبخل عينه على أخيه وامرأة حصنه وبقية أولاده الذين يبقيهم بأن يعطي أحدهم من لحم بنيه الذي يأكله، لأنه لم يبق له شيء في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك في جميع أبوابك.

«والمرأة المتنعمة فيك والمترفهة التي لم تجرب أن تضع أسفل قدمها على الأرض للتنعم والترفه تبخل عينها على رجل حضنها وعلى ابنها وبنتها بمشيمتها الخارجة من بين رجليها وبأولادها الذين تلدهم، لأنها تأكلهم سراً في عوز كل شيء، في الحصار والضيقة التي يضايقك بها عدوك في أبوابك.

«إن لم تحرص لتعمل بجميع كلمات هذا الناموس المكتوبة في هذا السفر لتهاب هذا الاسم الجليل المرهوب الرب إلهك؛ يجعل الرب ضرباتك وضربات نسلك عجيبة، ضربات عظيمة راسخة، وأمراضاً ردية ثابتة، ويرد عليك جميع أدواء مصر التي فزعتَ منها، فتلتصق بك.

«أيضاً كل مرض، وكل ضربة لم تكتب في سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك، فتبقون نفراً قليلاً عوض ما كنتم كنجوم السماء في الكثرة، لأنك لم تسمع لصوت الرب إلهك.

«وكما فرح الرب لكم ليحسن إليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم، فتستأصلون من الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها، ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها، وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر.

«وفي تلك الأمم لا تطمئن، ولا يكون قرار لقدمك، بل يعطيك الرب هناك قلباً مرتجفاً، وكلال العين، وذبول النفس، وتكون حياتك معلقة قدامك، وترتعب ليلاً ونهاراً، ولا تأمن على حياتك.

وفي الصباح تقول: يا ليته المساء! وفي المساء تقول: يا ليته الصباح من ارتعاب قلبك الذي ترتعب، ومن نظر عينيك الذي

تنظره، ويردك الرب إلى مصر في سفن في الطريق التي قلت لك: لا تعد تراها، فتباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماء، وليس من يشتري».

ليس كل هذا مجرد تهديد من يهوه رب إسرائيل، فما أكثر ما لعن شعبه وضربه ضربات مبيدة بوحشية غير معهودة، وأسفار اليهود المقدسة مليئة بذكر هذه الضربات الماحقه.

في سفر أشعياء ٥: ٢٤ ـ ٢٥:

«كما يأكل لهيب النار القش ويّهبط الحشيش الملتهب يكون أصلهم كالعفونة، ويصعد زهرهم كالغبار، لأنهم رذلوا شريعة رب الجنود واستهانوا بكلام قدوس إسرائيل، من أجل ذلك حمي غضب الرب على شعبه، ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال، وصارت جثثهم كالزبل في الأزقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه، بل يده ممدودة بعدُ».

هذا موجز صفات يهوه وبعض أعماله وأقواله من أسفار شعبه المقدسة، وتلك علاقة يهوه بشعبه وبغيره، وشر ما يوصف به إلّه أن يكون ظالماً، وها هوذا نفسه يقول عن نفسه: «أنا الرب إلهك إلّه غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيَّ».

وأما من ناحية الأخلاق الكريمة فيهوه مجرد منها، فرسله وأنبياؤه يكذبون ويسرقون ويزنون، وإذا أراد أن يعاقب على الزنا

فبشرٍ من الزنا، فكتابهم المقدس يتهم ـ أولاً ـ سيدنا داود عليه الصلاة والسلام بالزنا، فيغضب يهوه، ويعاقبه، ولكن ما العقاب؟ إن كتابهم المقدس يجيب: إن العقاب أن يزني أبشالوم ابن داود نفسه بنساء أبيه،وإذا كان داود ـ على زعمهم ـ زنا بامرأة أحد كبار المجاهدين سراً، فإن العقوبة التي عوقب بها داود من قبل يهوه كانت علناً وتحت الشمس.

قال الرب إله إسرائيل (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثاني عشر): «ولماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه، قد قتلت أوريا الحثي بالسيف، وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني عمون، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة، هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك يضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس، لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس».

وفي الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثاني بالفقرة الثانية والعشرين: «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل».

وإن الإنسان ليذوب من الحياء وهو يقرأ في أسفار اليهود المقدسة سيرة أنبيائهم المليئة بالفواجع الأخلاقية وحوادث هتك العرض من قبل المحارم وحماته، وإن القارىء ليدهش من هذه الأسفار المقدسة وهي تصف إله إسرائيل بما يتنزه عنه الصالحون

من البشر، بل بما يستحي منه المنحطون من الناس أن يُنسب إليهم.

وعلى أي حال، إن ما ذكرناه هو بعض صفات يهوه رب إسرائيل وأقواله وأفعاله، وما في طبيعة اليهود وخلائقهم وصفوا به إلههم الذي هو انعكاس لأنفسهم.

وكل الرسل ـ ابتداء من أبي الأنبياء إبراهيم إلى عيسى عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ موصوفون في الأسفار اليهودية المقدسة بصفات تشمئز منها النفس الإنسانية الكريمة.

ولا غرابة، فإذا كان ربهم بتلك الصفات التي وصفوا فإن من المعقول لديهم أن يكون أنبياؤه ورسله بتلك القذارة التي يعيش اليهود فيها إلا الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات.

وأصاب الإسرائيليون عندما جعلوا يهوه رب إسرائيل خاصاً بهم، ودينهم مغلقاً عليهم وحدهم لا يدخل فيه غيرهم، لأن غيرهم من الناس يشمئزون من العبودية ليهوه الذي وصفوه في كتبهم بما ينفر عنه كل التنفير.

وإذا رجعنا إلى المصادر اليهودية وفي طليعتها أسفارهم المقدسة فإننا نجد التوحيد الذي أعلنوه إنما هو توحيد مستقل مثل وحدة القبيلة المستقلة أو القطر المستقل سياسياً، فيهوه رب خاص بهم وليس رب العالمين، وموسى الذي تنسب إليه الديانة اليهودية

يصرح بما لا مجال للاختلاف فيه أن يهوه إلّه العبرانيين وليس إلّه المصريين.

ففي سفر الخروج ٥: ١ ـ ٣:

«دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إلّه إسرائيل: أطلق شعبي ليعيِّدوا لي في البرية، فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل؟ لا أعرف الرب، وإسرائيل لا أطلقه، فقالا: إلّه العبرانيين قد التقانا».

وفي سفر الخروج ٧: ١٦: «تقول له: الرب إلّه العبرانيين أرسلني إليك قائلاً: أطلق شعبي ليعبدوني في البرية» وفي الإصحاح التاسع بالفقرة الأولى: «قال الرب لموسى: ادخل إلى فرعون، وقل له هكذا يقول الرب إلّه العبرانيين: أطلق شعبي ليعبدوني».

فيهوه إلّه خاص بالعبرانيين كما يحدد رسول الديانة اليهودية، بل نجد الشرك والتعدد في كلام يهوه لموسى، إذ يقول له: «قال الرب لموسى: انظر، أنا جعلتك إلّهاً لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك»[1].

وتكملة لفكرة ألوهية يهوه إلّه العبرانيين يجب أن نرى ما يقول التلمود اليهودي، فهو أقدس كتب اليهود طراً، فهو عندهم أعظم مكانة وقدسية من التوراة نفسها، ويزعمون أن التلمود أقدم

---

(١) سفرالخروج ٧: ١.

من الخليقة، لأنه وجد قبلها وفي سفر بشليم ٥٤ و٥٨ من التلمود الأصيل ما نص ترجمته: «التلمود وجد قبل الخليقة، ولولا التلمود لزال الكون» مع أنه شروح وأقوال متأخرة عن التوراة وموسى.

ومن قدسية التلمود التي تفوق قدسية التوراة أن في التوراة أحكاماً لا يعاقب تاركها بالموت، أما التلمود فإن من يخالف منه حرفاً فجزاؤه القتل، بل بلغ عقاب من يهزأ بكلمة من التلمود مالا يخطر بعقل بشر غير من ابتكروه، وهو أن «يُغْمَس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت».

وانحدر يهوه في التلمود إلى هوة سحيقة من الذل، وصار تابعاً ذليلاً للحاخام، ولا أمر له ولا طاعة، بل زعم التلمود أن كلام الحاخام شرع، لأنه يصبح «يهوه» مع الاحتفاظ للحاخام بتفوقه على الله، فهو أعظم من يهوه، فإذا اختلف يهوه والحاخام فالحق مع الحاخام لا مع يهوه، بل إن يهوه خاضع للحاخام، لأن يهوه مجبر على إجراء ما يريده الحاخام، فهو مؤتمر بأمره، منته بنهيه.

بل بلغ من عظم التلمود «أن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه» كما ينص سفر مجيلا، بالفقرة ٢١ منه، وأنه «لا عمل لله في الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة».

وكل حاخام يصبح إلهاً، ففي سفر باباتبرا ٧٥ حرف أ ما نص ترجمته: «والحاخامون يصبحون جميعاً آلهة، ويدعون يهوه أي

الله» وفي سفر مويدقنان ١ حرف أ: «للحاخامين السيادة على الله، وعليه إجراء ما يرغبون فيه».

ونخرج من التلمود والتوراة وجميع الأسفار التي يقدسها اليهود بالكفر المقيت والإلحاد البشع والشرك البغيض والتعدد الحقير، بحيث يستحق اليهود ما جاء في سفر التثنية بالإصحاح الثامن والعشرين مما سلف ذكره في هذا الفصل من لعنات الله جزاء بعض الجزاء على عقيدتهم الباطلة في الله.

* * *

ولا يمكن لباحث منصف في العقائد والديانات أن يغفل أن الديانة الموسوية الصحيحة أكبر الديانات السماوية إلى عصر المسيح، ومن أكبر الديانات في العالم، وأنها كانت أعظم حركة دينية صحيحة قامت في العالم في ذلك العصر لتظهر عقيدة التوحيد بين ديانات الشرك والوثنية.

وكان لشتات شمل اليهود أثر في إظهار عقيدة التوحيد التي أثرت في العالم القديم، إذ كان بين اليهود المقيمين والمسبيين موحدون على دين موسى الحق، وهؤلاء هم الذين حملوا عقيدة التوحيد إلى الأقطار التي رحلوا إليها.

وعصر موسى كان عصراً وثنياً، عمت الأرضَ الوثنيةُ ودياناتُ الشرك، فلما بعث الله موسى بديانة التوحيد كان بعثه إيذاناً بشروق فجر جديد للعقيدة الصحيحة السليمة، حيث دعا

إلى الله وحده، ونبْذ عبادة الأوثان والأصنام، وأعطى العالم مثالاً للعقيدة الصحيحة، مما كان له أثر عظيم امتد حتى عصر محمد عليه صلوات الله وسلامه.

والشيء العظيم الذي يذكر في مزايا الديانة الموسوية الصحيحة لا الديانة اليهودية هو تفوق المثل الأعلى على الواقع، وامتياز النموذج على العمل المؤدَّى، ولكنه مثل لا يبقى خيالاً جميلاً، بل العظيم حقاً في الأمر أن هذا المثل صار واقعاً جميلاً، ولكنه لم يدم طويلاً، ولم يصبح إيماناً صحيحاً في قلوب معتنقيه، لأنه كان لليهود الموصوفين من ثوراتهم بغلظ الرقاب، ولو كان لغير اليهود لتغير تاريخ العالم كثيراً في تلك العصور.

إن أكثر اليهود لم يؤمنوا بهذا المثل الأعلى الذي جاءهم به موسى، فارتدوا عنه سريعاً، وقليل منهم الذين آمنوا به حقاً، والكثير من الناس يؤمنون بوجود المثل الأعلى، ويدركون رفعة سموه وعظمته، إلا أنهم لا يتخذون الوسائل التي تفضي بهم إليه، ولو اتخذوها لأدانوا العالم كثيراً.

وقيام هذه الديانة التوحيدية العظيمة زاحم الوثنيات المختلفة، وأظهر نقائصها وعيوبها إذ أعطت ديانة موسى صورة صحيحة للتوحيد الحق، ولكن اليهود لم يحافظوا عليها في كثير من عهودهم بل بدأت خيانتهم إياه وموسى معهم.

وحسب الموسوية فخراً وذكراً أن المسيح عليه الصلاة

والسلام جاء يجددها ويحفظ توازنها، ولسوء حظهم تنكروا لمن انتظروه دهوراً كما تنكروا لمحمد صلى الله عليه وسلم بعد ارتقاب وانتظار.

ومع ما اعتور الديانة الموسوية من عقائد وخرافات ليست منها فإن من الثابت فضل اليهود الموحدين، إذ هم الذين حافظوا على فكرة التوحيد خلال العصور المختلفة التي كانت بين موسى وعيسى وبين موسى ومحمد، وبمحافظتهم هذه شجعوا سواهم على اعتناق فكرة التوحيد.

فيهود المدينة المنورة كانوا يستفتحون على الذين أشركوا من جيرانهم من العرب، ويقولون لهم مهددين متوعدين: إن نبياً أظل زمانه، وينصر كتابه التوحيد الذي هم عليه ويخذل الوثنية التي عليها خصومهم.

وهذا القول من اليهود شجع أهل يثرب (المدينة المنورة) أن يؤمنوا بمحمد عليه صلوات الله وسلامه، ولكن اليهود خذلوا أنفسهم﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[1]وقد ثبت في تاريخ المدينة أن الأوس والخزرج قال بعضهم لبعض عندما عُرض عليهم الإسلام: هذا الذي كانت تستفتح به يهود عليكم فلا يسبقونكم إليه.

والديانة اليهودية قبل أن يمسحها اليهود كانت ديانة صالحة

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٩

للحياة، لأنها جاءت بقواعد وأسس يقوم عليها المجتمع الإنساني، وبنظم تكفل حياة أهله.

وكتب العهد القديم لا تخلو من آداب سلوك، ونظريات أخلاقية إذا أبعدنا منها «العنصرية والتمييز العنصري والوثنية» وفيها تنظيم لبناء المجتمع، وتنظيم علاقة أهله بعضهم ببعض، ففيها ما يبني صلة الإنسان بربه، وصلته بمجتمعه وبمن فيه وما فيه، وبيان للحلال والحرام، وشروط البيع وصحته، والمعاملات على اختلاف ضروبها، وشؤون السياسة والتجارة والاقتصاد والتعليم والعمل والعمال، والعدل والقضاء، والتعليم والتربية، وآداب السلوك والأخلاق، ونظام الأسرة، والعلاقات الدولية، وقوانين الحرب والأسرى والمغانم.

ونجد في الديانة الموسوية من التشريعات التي يحتاج إليها مجتمع متكامل بحيث لا يفتقد ما يضمن سلامته وقوته وفضله ما لا نجده في غيرها من المذاهب والأديان التي سبقتها وعاصرتها.

ويؤخذ على شرائع اليهود ما فيها من وحشية ضارية توجبها على الشعوب الأخرى، وتجعل الامتياز المطلق من نصيب اليهود، وتحضهم على الإثخان في قتل أعدائهم واستئصال شأفتهم وأخذ كل ما يملكون غنيمة لأنفسهم.

ومن هذه المآخذ التي تهدم المجتمع مهما كان قوي الأساس وثيق التركيب أن شرائع اليهود تأمرهم بأخذ الربا من غيرهم، ومعاداة كل الشعوب، والحقد على غيرهم مهما كانوا صالحين

وإنسانيين. . وفي هذا ما يعزل اليهود عن سواهم من الشعوب ويجعلهم مبغضين يتربصون بهم الدوائر، لأنهم يعاملون غيرهم معاملة العدو الذي يجب قتله أو استنزاف دمه أو احتقاره أو سلب أمواله وحقوقه.

ومثل هذا لا يستقيم مع منطق العدل والحق ولا يكفل سلامة المجتمع.

ويجد دارس شرائعهم أن فيها تناقضاً في بعض ما جاء بها في الأصول والفروع، وإباحة للمنكر، وضعفاً في بعض النظريات والنظم، ومرد ذلك إلى أن مؤلفي هذه الكتب لم يكونوا جميعاً على درجة عالية من الثقافة، وإلى أن بعض ما جاء فيها من تشريعات هو في أساسه من التوراة الصحيحة السماوية وأصابه التحريف لسبب من الأسباب.

فالقسامة ـ لدى اليهود ـ تبين أن التشريع اليهودي كان حاذقاً، ولكنه أضاع الحذق والحق معاً، فإذا وجد قتيل لم يعرف قاتله، سئل عنه أهل أقرب بلد أو قرية إليه، فإن أقسم خمسون منهم يختارهم أولياء القتيل أنهم لم يقتلوه ولا يعرفون من قتله ذهب دمه جباراً، وتتخذ أشياء كثيرة قبيل حلف اليمين.

أما في الإسلام فالصورة فيه وفي الشريعة اليهودية واحدة دون الإجراءات التي لم تذكرها، ويفترق عنها أن الدم لا يذهب هدراً، بل يدفع الحالفون ومن معهم من أهل بلدهم الدية،

ويعفى عن القصاص، لأن القاتل مجهول، يترك حسابه على الله عالم الغيب والشهادة.

ومن الشرع الذي ورد في التوراة الصحيحة التي بقي من آثارها في التوراة المحرفة وأقره الإسلام: تحريم اليمين الكاذبة، وتحريم شهادة الزور، ونكاح الآباء والأبناء والأمهات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، والجمع بين الأختين، والزنا، واللواط، والسرقة، والقتل، والخيانة، ووجوب بر الوالدين، والحث على إكرام الضيف ، والحض على الصالحات.

ومثل هذه التشريعات التي نجدها في التوراة التي بين أيدينا تجعلني أحسب أنها مأخوذة من التوراة الصحيحة، ودليلي اتفاقها مع الإسلام الذي جاء ليبين ما في التوراة والإنجيل، وما أوحى به إلى الرسل، ويؤكده، ويضيف إليه ما يقتضيه التطور الزمني والعقلي والحضاري، لأن الإسلام خاتمة الأديان كلها، فكان حقاً عليه أن يكون الدين الكامل الجامع لكل ما تستقيم به الحياة الإنسانية.

الوثنيّة في اليهوديّة

اليهودية التي تصورها المصادر الاسرائيلية من التوراة والتلمود وبقية الأسفار المقدسة اليهودية ليست الديانة الموسوية الصحيحة، بل هي وثنية، واليهود لم يكونوا موحدين قط حق التوحيد إذا اعتمدنا مصادرهم الدينية، ولكن الإسلام يؤكد أن ديانة موسى ديانة توحيد حق، وأن الله فيها رب العالمين، رب الخلق جميعاً، ولكن اليهود غيروا وبدلوا في كلام الله، وحرفوا التوراة.

وتأثرت اليهودية بما جاورها من الديانات الوثنية، كما أخذت من ديانة بابل، وقد تأثرت بمصر في عبادة العجل، ونقلت عن الكنعانيين مراسيم وطقوساً، حتى قال بعض الباحثين إن إلههم «يهوه» إنما هو إله كنعاني، أخذه اليهود وزادوا في صفاته ما يتفق مع حياتهم، ومن بين الآثار التي وجدت في كنعان سنة ١٩٣١م قطع من الخزف ترجع إلى عصر البرونز الذي يسبق الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وفيها كلمة «ياه» أو «ياهو» وهو إله كنعاني.

وإذا صح هذا ـ وهو صحيح ـ فإن كلمة «يهوه» تكون معروفة قبل ميلاد سيدنا إبراهيم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ الذي عرف «يهوه» بلفظه ومعناه.

ونقلوا عن بابل قصة الخليقة، فما لدى اليهودية من فكرة عنها يشبه ما لدى بابل، وكذلك قصة الطوفان.

وأخذوا من الديانة الفارسية فكرة «المخلص» وتمسكوا بها.

ونظروا في صفات «يهوه» إلى الديانات الوثنية، ففكرة «خصوصية» الإلّه منقولة عن الوثنيات التي سبقت ديانتهم أو عاصرتها.

والمخالفات التي تزدحم بها التوراة والتلمود وكتب اليهود المقدسة لحقيقة التوحيد تثبت أن التوراة الأصلية الصحيحة التي فيها الهدى والنور قد تغيرت وحرفت على أيدي اليهود، ودخلت فيها الوثنيات من الشرك والتعدد والكفر والإلحاد، وما تذكر من التجسيد وصفات «يهوه» من الحمق والرعونة والطيش والندم والتوحش والمحاباة لعباده إنما هو مذكور في صفات آلهة بابل وآشور وغيرها.

وفي الفترات التي كانت دعوة التوحيد الموسوية تعلو على غيرها لم تخل اليهودية من اعتقاد التعدد، فقد كانوا يؤمنون بإلههم مع الاعتراف بآلهة الشعوب الأخرى.

وأخذوا بأَخَرَةَ فكرة النبوة لله من المسيحية ومن كرشنا

وبوذا، فزعم اليهود أن عزيرا (عزرا) هو ابن الله، وهذا القول معروف عن يهود المدينة، ولم يرد عن غيرهم، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك ابن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله».

وعندما نجى الله بني اسرائيل على يد سيدنا موسى، ورأوا معجزاته، وما تم على يديه، وكانوا في سيناء حيث الأمن والحرية طلبوا إلى رسول الله موسى أن يجعل لهم إلهاً مثلما لدى الوثنيين، فزجرهم.

بل ترك اليهود عبادة الله وعادوا إلى وثنيتهم من عبادة غير الله وهم حديثو عهد بالهداية وبالنجاة وانقلبوا مشركين بنص التوراة.

وفي سفر الخروج ٣٢/١ ـ ١٣:

«ولما رأى الشعب موسى أيضاً في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم، اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه!.

«فقال لهم هارون: «انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها».

««فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.

«فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه، ونادى هارون وقال: غداً عيد للرب!.

«فبكروا في الغد، وأصعدوا محرقات، وقدموا ذبائح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للعب.

«فقال الرب لموسى: اذهب، إنزل، لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً، وسجدوا له، وذبحوا له، وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.

«وقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب، وإذا هو شعب صُلب الرقبة، فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم، فأصيرك شعباً عظيمًا.

فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال: لماذا يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض، إرجع عن حموِّ غضبك، واندم على الشر بشعبك».

وفيه: «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه».

وعاد موسى سريعاً إلى قومه: «وكان عندما اقترب إلى المحلة أن أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسَّرهما في أسفل الجبل، ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعمًا وذرّاه على وجه الماء وسقى بني اسرائيل»[1].

حدث هذا والديانة اليهودية في مبدأ أمرها، وعبدوا العجل الذهبي وموسى على مقربة منهم، ولكنهم مع ذلك عادوا إلى عبادة غير الله، وجحدوا فضل الله عليهم، إذ رأوه عياناً وجهاراً، وطعموا منه وشربوا، ووجدوا أمن نفوسهم وأموالهم وأبدانهم، ولكن بني اسرائيل صلب الرقاب كما وصفهم الله في التوراة.

وفي جميع مراحلهم أشركوا مع الله غيره، بل كفروا بيهوه وأخلصوا لغيره، وعلى سبيل المثال نذكر بعض الحوادث التي تثبت كفر بني اسرائيل من كتبهم المقدسة.

وليس الكفر والشرك مقصورين على أفراد الشعب، بل نراهما في أنبيائهم ومؤسسي دولتهم المقدسة، فهذا سليمان الذي يعد من أكبر أنبيائهم وملوكهم، وعبد غير الله، وهذا نص ما جاء في سفر الملوك الأول بالإصحاح الحادي عشر:

«وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء

(١) الخروج ٣٢: ١٩ - ٢٠.

آلهة أخرى. . . فذهب وراء إلهة الصيدونيين، وملكـوم رجس العمونيين. . . بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن».

وفي سفر الملوك الأول ١٢ : ١٥و ٢٨ ـ ٣٢:

«بنى يربعام شكيم في جبل أفرايم وسكن بها» و « عمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً في بيت إيل، وجعل الآخر في دان، وكان هذا الأمرخطيـة، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان، وبنى مرتفعات، وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي . . . الخ».

وفي سفر الملوك الثاني ١٨ : ١و ٤ :

«ملك حزقيا بن آحاز ملك يهوذا. . . عمل المستقيم في عين الرب. . . سحق حية الناس التي عملها موسى، لأن بني اسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها».

وفي سفر الملوك، الاصحاح الثالث والعشرين:

«أمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد السماء وأحرقها».

و «ولاشى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم، والذين يوقدون للشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون وأحرقها .

«والمرتفعات التي قبالة أورشليم التي عن يمين جبل الهلال التي بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتورت رجاسة الصيدونيين ولكموش رجاسة المؤابيين ولملكوم كراهة بني عمّون، نجسها الملك، وكسّر التماثيل، وقطع السواري، وملأ مكانها عظام الناس، وكذلك المذبح في بيت إيل في المرتفعة التي عملها يربعام ابن نباط الذي جعل اسرائيل يخطىء، فذانك المذبح والمرتفعة هدمهما وأحرق المرتفعة وسحقها حتى صارت غباراً».

و «جميع المرتفعات التي في مدن السامرة التي عملها ملوك اسرائيل أزالها يوشيا. . . وذبح جميع كهنة المرتفعات».

وفي سفر الملوك الأول ٢٢ : ٥١ ـ ٥٢:

«أخزيا بن آخاب ملك على اسرائيل. . . وعمل الشر في عيني الرب، وسار في طريق أبيه وأمه وطريق يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطىء، وعبد البعل وسجد له وأغاظ الرب إلّه إسرائيل».

وفي سفر أرميا:

«كما تركتموني وعبدتم آلهة غريبة في أرضكم؛ هكذا

تعبدون الغرباء في أرض ليست لكم» الاصحاح ٥ الفقرة ١٩.

و «أما ترى ماذا يعملون في مدن يهوذا وفي شوارع أورشليم، الأبناء يلتقطون حطباً، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات[١]، ولسكب سكائب لآلهة أخرى لكي يغيظوني» أرمياء ١٧/٧ ـ ١٨.

ولم يكن الكفر وقفاً على مملكة يهوذا أو مملكة إسرائيل، بل كانتا غارقتين في الآثام، كلتاهما كانت مقذوفة من يهوه بأبشع التهم، وها هوذا سفر أرمياء يقول:

«قال الرب لي في أيام يوشيا الملك: هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل، انطلقت إلى كل جبل عال، وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك، فقلتُ بعدما فعلتْ كل هذه: ارجعي إلي، فلم ترجع، فرأت أختها الخائنة يهوذا، فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذ زنت العاصية إسرائيل فطلقتها، وأعطيتها كتاب طلاقها، لم تخف الخائنة يهوذا أختها، بل مضت وزنت هي أيضاً، وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض، وزنت مع الحجر ومع الشجر، وفي كل هذا أيضاً لم ترجع إلي أختُها الخائنة يهوذا بكل قلبها بل بالكذب أيضاً»[٢].

---

(١) هي عشتروت أو عشيرا الإلهة الشهوانية التي كان العبريون يعبدونها في الأماكن العليا بين الغياض، والتي كانوا يأتون بالدعارات تكريماً لها. (غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى).

(٢) الإصحاح ٣: ٦ ـ ١٠.

و «هكـذا خـزي بيت إسـرائيـل، هم، وملوكهم، ورؤساؤهم، وكهنتهم، وأنبياؤهم، قائلين للعُود: أنت أبي، وللحجر: أنت ولدتني، لأنهم حولوا نحوي القفا لا الوجه، وفي وقت بليتهم يقولون: قم، وخلصنا، فأين آلهتك التي صنعت لنفسك، فليقوموا إن كانوا يخلصونك في وقت بليتك، لأن على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا، لماذا تخاصموني؟ كلكم عصيتموني يقول الرب»[1].

و «إن آباءكم قد تركوني ـ يقول الرب ـ وذهبوا وراء آلهة أخرى، وعبدوها، وسجدوا لها، وإياي تركوا، وشريعتي لم يحفظوها، وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم، وها أنتم ذاهبون؛ كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى لا تسمعوا لي، فأطردكم من هذه الأرض إلى أرض أخرى لم تعرفوها أنتم ولا آباؤكم، فتعبدون هناك آلهة أخرى نهاراً وليلاً حيث أعطيكم نعمة»[2].

و «قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا جالب على هذا الموضع شراً، كل من سمع به تطن أذناه، من أجل أنهم تركوني وأنكروا هذا الموضع، بخروا فيه لآلهة أخرى لم يعرفوها هم ولا آباؤهم ولا ملوك يهوذا، وملأوا هذا الموضع من دم الأزكياء،

(١) أرميا٢: ٢٦ ـ ٢٩.
(٢) أرمياء ١٦: ١١ ـ ١٣.

وبنوا مرتفعات للبعل ليحرقوا أولادهم بالنار مُحْرَقات للبعل الذي لم أوص ولا تكلمت به»[1].

هذه شواهد من أسفار اليهود المقدسة، ولو أردت الاستشهاد بأكثر مما ذكرت لوسعني أن أشغل عشرات الصفحات، فأسفارهم مزدحمة بمروقهم عن التوحيد، بل عن عبادة يهوا إلى عبادة آلهة الوثنيين.

بل إن أنبياء بني إسرائيل كانوا معترفين بالبعل - إلّه الكنعانيين - فكانوا يسمون أبناءهم أسماء منسوبة إلى بعل، فيوناثان يسمي ابنه «مريب بعل»[2] وداود نفسه يسمي أحد أبنائه «بعليا داع»[2].

وللأسْر البابلي أثر بليغ في اليهودية، فقد انتقلت من اتجاه الاقليمية في عقيدة الإلّه الخاص إلى عقيدة أوسع، ولكن دخلت في اليهودية عقائد ومراسم وطقوس غير منصوص عليها في أسفار اليهود المقدسة، بل هي من وثنيات بابل ومعتقدات فارس.

ومع هذا الانقلاب الذي كان من نتائج الأسر البابلي فإن اليهود حافظوا على قوميتهم وعقيدتهم القومية، فلم يسمحوا لأحد بالدخول في ديانتهم، وهم لم يعتنقوا دين الغالبين كما كان متبعاً، ولم يؤثر عن شعب من الشعوب أنه حافظ على عقيدته الدينية مع جبروت الغالبين كاليهود.

(١) أرمياء ١٩ : ٣ - ٥

(٢) أحبار الأيام الأول ٨ : ٣٤ و٩ : ٤٠ و١٤ : ٧.

اليومُ الآخِر

الإسلام يقدر أن العقيدة في جميع الديانات السماوية واحدة، وديانة موسى ديانة توحيد حق، وديانة كاملة، والقرآن الكريم وصف ديانة موسى وصفاً صحيحاً، فإذا هو دين حجة، وأشار إلى أن فيه اليوم الآخر، مثله مثل الإسلام.

فاليوم الآخر كان موجوداً في ديانة موسى، ولا يتم فيها الإيمان إلا إذا كان هناك إيمان حق باليوم الآخر، وفي الحوار الذي دار بين موسى وفرعون لم يغفل أحد أركان الإيمان في دعوته، بل جبه فرعون به، وحكى الله عز وجل في كتابه العزيز في قصتهما فقال في وصف الأرض: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ طه: ٥٥.

فالبعث حق لأنه خروج للحساب ثواباً أو عقاباً.

بل نجد سحرة فرعون يجبهونه عندما هزمهم موسى، وظهر لهم أن ما جاءهم به هو الحق، ويعلنون الإيمان بكل ما كان يطلب

إليهم موسى أن يؤمنوا به، والقرآن الكريم يصور مشهد سحرة فرعون أبلغ تصوير فيقول: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ طه: ٧٠ - ٧٥.

وفي دعاء موسى الذي يحكيه القرآن الكريم: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ الأعراف ١٥٦ و﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الأنبياء: ٤٨ ـ ٤٩.

فهذه الآيات تثبت أن ديانة موسى قائمة على أركان أدركها سحرة فرعون، ومنها الإيمان باليوم الآخر والثواب والعقاب، والجنة والنار.

فاليوم الآخر موجود في كل الديانات السماوية، لأن الدين السماوي لا يتم عقيدة إلا بالايمان الحق باليوم الآخر، والقرآن الكريم أثبت هذا في غير موضع منه، ونحن على ثقة من أن التوراة الحقيقية لم تخل من ذكر هذا اليوم، ففي القرآن ما يثبت ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾

و﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾

ولكن التوراة التي بين أيدي اليهود خالية من ذكر البعث واليوم الآخر، لأن «يهوه» رب اليهود إلّه سريع الحساب والانتقام، وجزاؤه عاجل، المثوبة للمحسن في حياته، والعقوبة للمسيء في دنياه.

وكل ما ورد من ذكر العالم الآخر لا اليوم الآخر هو وجود هاوية تسمى «شيول» تقع تحت الأرض، يتردى فيها الموتى الأخيار والأشرار على السواء إلا الذين ارتقوا إلى مرتبة القرب من الله مثل موسى، والأنبياء ـ حسب زعم الكتاب المقدس ـ كانوا عارفين أن العالم الآخر: عالم ما بعد الموت هو «شيول» الهاوية.

ولعل خلو التوراة التي بين أيدي اليهود من الاشارة إلى اليوم الآخر يظهر أن ديانة موسى بعد تحريفها وقلبها من الوحدانية إلى الوثنية؛ وبعد تحريف التوراة انقلبت ديانة مادية غير روحية، فهي قائمة على الأعمال لا الايمان والعقيدة، فاليهودي مجزى على عمله في حياته ودنياه هذه، إن أحسن عمله فمثوبته النصر على الأعداء، وإن أساء فعله فأعداؤه ينتصرون عليه، وما تسليط آشور على اليهود إلا عقوبة مستوفاة على سوء أعمالهم.

فالعقيدة والإيمان لا وجود لهما في هذه التوراة، فقد استبدلوا بهما الأعمال، ويا ليتها كانت الأعمال الصالحة.

نعم، ليس في التوراة إشارة إلى اليوم الآخر، وليس في أسفارهم المقدسة التي يؤمنون بها أي ذكر له، إلا في نبوءة إشعياء، وهي إشارة إلى يوم دنيوي كما تفصح الإصحاحات والفقر التي ورد ذكره فيها.

فقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر إشعياء:
«هو ذا الرب يخلي الأرض ويفرغها، ويقلب وجهها، ويبدد سكانها».

و «الأرض تدنست تحت سكانها، لأنهم تعدوا الشرائع، غيَّروا الفريضة، نكثوا العهد الأبديَّ، لذلك لعنة أكلت الأرض، وعوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض، وبقي أناس قلائل».

و «أسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقاً، تشققت الأرض تشققاً، وثقل عليها ذنبها، ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلدلت كالعرزال، وثقل عليها ذنبها، فسقطت ولا تعود تقوم، ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء، وملوك الأرض على الأرض، ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس، ثم بعد أيام كثيرة يتعدون، ويخجل القمر، وتخزى الشمس، لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم».

وإشعياء كان في القرن الثامن قبل الميلاد، وجاء بعد موسى

بخمسة قرون تقريباً، ومع أن نبوءة إشعياء ليست واضحة ولا صريحة فإنها لا تحدد اليوم الآخر، وفكرته ـ إذا كان يقصد اليوم الآخر ـ غامضة، ومع هذا ليس المقصود من نبوءاته اليوم الآخر، بل المقصود يوم من أيام الدنيا، ففي الإصحاح الخامس والعشرين وما بعده يدل على أن هذا اليوم في الدنيا لا الآخرة.

في الاصحاح الخامس والعشرين: «يقال في ذلك اليوم: هوذا إلهنا انتظرناه فخلصنا، هذا هو الرب انتظرناه، نبتهج، نفرح بخلاصه، لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل، ويداس موآب في مكانه كما يداس التبن في ماء المزبلة، فيبسط يديه كما يبسط السابح يديه ليسبح، فيضع كبرياءه مع مكايد يديه، وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه، يصنعه، يلصقه بالأرض كالتراب».

وفي الإصحاح السادس والعشرين:

«في ذلك اليوم يُغَنَّى بهذه الأغنية في أرض يهوذا: لنا مدينة قوية، يجعل الخلاص أسواراً ومترسةً، افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة، والحافظة الأمانة، ذو الرأي الممكن تحفظ سالماً سالماً، لأنه عليك متوكل، إلخ».

وفي الإصحاح السابع والعشرين:

«وفي ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لَوِيَاثَان الحية» إلى أن يختم هذا الإصحاح بقوله: «ويكون في ذلك اليوم أن الرب يجني من مجرى النهر إلى وادي مصر وأنتم

تلقطون واحداً واحداً يا بني إسرائيل، ويكون في ذلك اليوم أنه يضرب ببوق عظيم فيأتي التائهون في أرض أشور، والمنفيون في أرض مصر، ويسجدون للرب في الجب المقدس في أورشليم».

فاليوم الذي تثبته هذه الشواهد الكثيرة مما جاء في نبوءات إشعياء ليس اليوم الآخر الذي يعقب الدنيا، بل هو يوم دنيوي من أيام الدنيا، إن يوم النصر، تحتفل فيه إسرائيل بنصرها على موآب، ويجتمع شمل التائهين والمنفيين في الجبل المقدس بأورشليم، وهذا ـ ولا شك ـ ليس اليوم الآخر أو يوماً يقع فيه كما تفصح هذه النبوءات.

ولعل ما جاء في سفر دانيال بالإصحاح الثاني عشر أصرح مما جاء في سفر إشعياء، إذ يقول دانيال: «كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبديِّ، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد[1]، والذين ردّوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور».

ولئن كانت كلمة دانيال أو نبوءته تذكر اليقظة التي هي العودة إلى الحياة فليست البعث الذي يتم في اليوم الآخر، بدليل أن الذين يستيقظون ليسوا الراقدين جميعاً، بل كثيرون منهم هم الذين يستيقظون، وإذا كانت اليقظة غير عامة شاملة فليست بعثاً لليوم الآخر.

(١) الجلَد: السماء.

وفي نبوءات أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم إشارة إلى قيام الموتى في الدنيا، وآخر من أشير إليه قيام السيد المسيح كما يقول النصارى في أناجيلهم.

وفي أول الإصحاح الثاني عشر نفسه من سفر دانيال بالفقرة الأولى منه قوله: «وفي ذلك اليوم يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمه إلى ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت يُنَجَّى شعبك: كل من يوجد مكتوباً في السفر، وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون».

فاليقظة ليست بعثاً في اليوم الآخر، ولكنها عودة إلى الحياة الدنيا كما يقوم ميخائيل وغيره ممن يرد ذكرهم أنهم يقومون بعد موتهم يستأنفون الحياة الدنيا.

ودانيال من أبناء القرن الثاني قبل الميلاد، وإذا صح أن دانيال وإشعياء من الأنبياء فإيمانهما باليوم الآخر حق، لأن كل نبي حق مؤمن بالبعث والقيامة، غير أن ما نسب إليهما مما استشهدنا به لا يدل على اليوم الآخر الذي يعقب يوم الحياة الدنيا.

ولم تظهر فكرة البعث في الديانة الاسرائيلية بعد ابتعادها عن ديانة موسى الصحيحة، وفقدان التوراة الحق إلا بعد أن فقد اليهود الأمل في قيام مملكة لهم، وليست فكرة البعث هي الفكرة المعروفة في ديانات السماء وبخاصة الإسلام، ولكنها فكرة بعث

دنيوي محض، ونجد هذا التحول أو العودة إلى فكرة البعث الغامضة بعد عهد نفي بابل، حيث وقفوا على شيء من عقائد فارس، ويجوز أخذهم إياها من ديانة المصريين، ولكن بصورة تتفق مع ديانة الأعمال الاسرائيلية لا ديانة الإيمان الموسوية.

وأصرح من كل ما سلف ذكره وأبين ما جاء في «التلمود» من ذكر الجنة والنار، وأن الجنة مأوى الأرواح الطيبة الخيرة ، وأن النار للأشرار، ولكن الأنانية اليهودية تبرز ببشاعة عندما يجعلون الجنة وقفاً على اليهود وحدهم دون غيرهم، ونزلاً لهم لا يشاركهم فيه سواهم مهما بلغ من الطيبة والخير، وأما النار فلا يدخلها يهودي، بل هي لغيرهم.

وهذا يتفق مع فكرتهم عن «يهوه» فهو إلّه خاص بهم، وجنته لهم وحدهم، أما ناره فمُعدَّة لغيرهم، حتى المسيح عيسى ابن مريم لن يدخل جنتهم، بل قرر التلمود أنه في النار، وهذا نص ما قال التلمود مترجماً إلى العربية: «إن يسوع الناصري موجود في لجج الجحيم بين القار والنار».

وفي تلمود اليهود أن الذين يدخلون الجنة يطعمون من لحم أُنثى الحوت الكبير التي أماتها الله وملَّحها وادخر لحمها للذين يدخلون الجنة.

وما ذكره التلمود عن الجنة والنار يقوم على الأسطورة لا العقيدة، وفكرة البعث الذي يفضي إلى الجنة أو النار بعد الحساب

لا تحسب من خصائص العقيدة الدينية، لأنها خرجت عنها إلى الأساطير والأوهام الوثنية.

وذكرت الأناجيل إنكار فريق من اليهود البعث، وذهاب بعضهم إلى الايمان به، ففي إنجيل متى ٢٢ : ٢٤ ـ ٣٠:

«في ذلك اليوم جاء إليه صدّوقيون الذين يقولون: ليس قيامة، فسألوه قائلين: يا معلم، قال موسى: إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلاً لأخيه، فكان عندنا سبعة إخوة، وتزوج الأول ومات، وإذا لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه، وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة، آخر الكل ماتت المرأة، ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة؟ فإنها كانت للجميع. فأجاب يسوع وقال لهم: تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله، لأنهم في القيامة لا يُزَوَّجون ولا يتزوجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء، وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء».

فإنكار القيامة التي هي اليوم الآخر طابع اليهودية بعد فقدان توراة موسى أو تحريفها، وإذا كان بعض اليهود يعتقدون في اليوم الآخر فذلك مرده إلى ديانة موسى الصحيحة، إذا كان اعتقادهم فيه اعتقاداً صحيحاً غير أسطوري، وهذا أمر لم يذكره الكتاب المقدس في أسفار العهد القديم.

وإذا جاء في تلمود اليهود ذِكر الجنة والنار فمن الجائز أنهم أخذوا من أساطير فارس وبابل أو مصر ما يتصل بفكرة البعث المشوهة، أو أن رواسب من فكرة البعث في توراة موسى الصحيحة انتهت إليهم فنقلوها من جو العقيدة إلى وهم الأساطير الوثنية التي ازدحمت بها أسفارهم المقدسة بما فيها خمسة الأسفار الأولى المعروفة بالتوراة.

وما ينسب إلى بعض فرقة الفريسيين من الاعتقاد في اليوم الآخر والبعث ليس البعث المعروف القائم على الحساب الحق العادل الذي يسع الناس جميعاً على اختلاف دياناتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم، ومع ذلك فقد عارضته كل الفرق اليهودية الأخر التي لا وجود في معتقدها لفكرة البعث واليوم الآخر.

يَهْوَه إلـٰه عام

يهوه إلّه قبلي خاص باليهود، وليس لغيرهم، هو لهم وحدهم، وهم له وحده، وهذا ما تثبته التوراة وأسفارهم المقدسة إلا أن بعض أنبيائهم المتأخرين عن موسى بقرون خرجوا بيهوه من الضيق إلى السعة، ومن الخاص إلى العام.

ولكن الإسلام يرى غير ما يراه اليهود في يهوه ونحن نعتقد ما يراه الإسلام، وهو الحق عندنا.

فموسى عليه الصلاة والسلام دعا إلى عبادة الله وحده، ونفي الشريك عنه، ووصفه بأنه رب العالمين، وخالق الكون كله، ولا إلّه غيره.

وإذا كان موسى رسولاً خاصاً لقومه مثل سائر الرسل إلا محمد عليهم صلوات الله وسلامه فإن «خصوصية» رسالته لا تحمل معنى الاعتراف بالآلهة الأخرى التي تعبدها شعوب أخرى، فتوحيد موسى إيمان حق بأن الله رب العالمين، وكفر بجميع الآلهة الأخرى لأنها باطلة.

وظن الباحثون وعلماء مقارنة الأديان أن فكرة التوحيد ظهرت من الموسوية، إذ لم يكن قبلها توحيد، وهذا ظن يرده الإسلام، لأن موسى لم يكن مبتكر هذا التوحيد ، بل سبقه رسل دعوا إلى الدعوة التي جاء موسى بعدهم ودعا إليها.

فالتوحيد الحق دعوة الرسل جميعاً، الذين سبقوه أو أتوا بعده، لا فرق بينهم في الأصول، وإن اختلفوا في الشريعة التي تأتي لتنظيم علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض.

ولا شك أن وجود موسى ورسالته غيّرا مجرى التاريخ الإنساني، فقد أعطى الوثنيين اليهود ـ أولاً ـ رسالة التوحيد وشريعة السماء، وأعطى غيرهم نموذجاً لما يجب أن يكون عليه المعتقد الديني في الإله الواحد.

والفترات التي يظهرون فيها الرسل فترات وثنية، وظهورهم لهداية البشر والعودة بهم إلى الوحدانية.

وكل رسول مثل موسى تكون دعوته فيصلاً بين الشرك والوثنية وبين التوحيد، ثم إذ مات الرسول وبعد العهد بينه وبين الأتباع تتعرض الديانة لما يخرجها من التوحيد إلى الشرك والوثنية.

وكانت ديانة موسى ـ ولا شك عندنا ـ ديانة توحيد محض، إيمان بالله وحده، وكفر بجميع الآلهة غير الله، ولكن اليهود لم يتعمق الدين الحق أو التوحيد المحض قلوبهم، فطلبوا إلى موسى

نفسه أن يجعل لهم إلهاً كما للوثنيين آلهة ، وهذا على رواية القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأعراف/١٣٨ ـ ١٤٠.

وهذه الآية الكريمة تثبت أن إيمان بني إسرائيل لم يكن برب العالمين، رب موسى وهارون، بل كان اتباعهم اياه لأنه خلصهم من نير فرعون والمصريين، فهو اتباع مصلحة دنيوية، ولم يكن من أجل الإيمان الذي لم يدخل قلوبهم.

وتثبت التوراة أن بني إسرائيل عبدوا العجل الذهبي بعد الخروج من مصر إلى سيناء، وزعمت التوراة أن بني إسرائيل طلبوا إلى هارون أن يصنع لهم العجل فصنعه لهم، والقرآن يذكر ـ وهو الحق ـ أن الذي صنع العجل هو السامري، لأن الإسلام يثبت العصمة لجميع الرسل من الكبائر، فهو يثبت لهم العصمة من الشرك، وينفي عنهم كل ما لا يليق بالإنسان الشريف

والرسول الكريم.

ولم يكن إيمان بني إسرائيل مثل إيمان سحرة فرعون من المصريين، فهؤلاء آمنوا بعقيدة موسى، ولم يتبعوه من أجل الدنيا.

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

إلى أن يقول القرآن الكريم:

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾،

ولم ينل التهديد من سحرة فرعون فوقفوا في وجهه لا يبالونه ويجبهونه بالحقيقة.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.

وفي القرآن آيات أخرى في قصة موسى وفرعون مثل آيات سورة طه تثبت أن إيمان سحرة فرعون كان إيماناً صحيحاً، فقد فهموا أن دعوة موسى قائمة على التوحيد الخالص فاعتقدوه، وآمنوا برسالة موسى، وبالبعث، والقيامة، وبالحساب، وبالجنة والنار، وأدركوا حقيقة التوحيد والخلق والمعاد، ولم يتحولوا عن معتقدهم الجديد، ولم يبالوا تهديد فرعون إياهم بقتلهم وتصليبهم في جذوع النخل بعد قطعهم من خلاف.

ولكن بني إسرائيل لم يكن إيمانهم كإيمان هؤلاء، ولهذا كانوا يخالفون موسى دائمًا، خالفوه في الوحدانية، ودعوا إلى الشرك، وعبدوا غير الله، عبدوا العجل الذهبي.

فالقرآن يثبت أن ديانة موسى توحيد محض غير التوحيد الاسرائيلي الذي تصوره التوراة، والفارق بين التوحيدين هو الفارق بين التوحيد الحق والشرك الباطل.

فتوحيد إسرائيل ليهوه قائم على الشرك، فيهوه الإله الواحد

لبني اسرائيل، لا إله غيره لهم، مع اعترافهم بوجود آلهة غيره لغيرهم، هو أشبه بشيخ قبيلة، لا ينفي وجوده غيره من الشيوخ كما لا يتنافى وجود القبيلة مع وجود قبائل أخرى.

فيهوه على هذا أحد آلهة كثيرين في الوجود ، وكان غيوراً شديداً مثل غيرة شيخ القبيلة، لا يرضى بأن يتوجه أحد أفرادها لشيخ سواه، وكذلك يهوه بالنسبة لبني إسرائيل، ألزم شعبه ألا يؤمنوا بغيره، ولا يعبدوا سواه.

وهذه الفكرة لازمت بني اسرائيل منذ عهد موسى كما تذكر توراتهم إلى عهد الأسر البابلي، حيث تغيرت الفكرة قليلاً ومالت إلى الاتساع بعض الاتساع، فاليهود المسبيون إلى بابل لم يتركوا يهوه يعيش مع من بقي من اليهود في فلسطين، ويصبحوا مؤلِّهين بدون إله، كذلك لم يرضوا أن يصحبوه معهم في الأسر ويتركوا إخوانهم أبناء دينهم في فلسطين أو في غيرها ممن ذهبوا شمالاً وجنوباً بدون يهوه.

وهذا التفكير فقط تحول لدى اليهود في عقيدتهم الإلهية، فقد ارتقى تفكيرهم إلى حد أن «معية» إلههم أصبحت مقررة، وهذه «المعية» خاصة بهم دون غيرهم من عباد الآلهة الأخرى، فيهوه مع الذين مضوا في الأسر، ومع الذين بقوا في فلسطين، ومع الذين ذهبوا شمالاً وجنوباً.

وهذا ـ ولا شك ـ توسع ورقي في فكرة الألوهية لدى

اليهود، لم يكونوا يعرفونه على عهد موسى وما بعده من عهود إذا التزمنا أسفارهم المقدسة.

ونحن نقول هذا حسب نصوص هذه الأسفار دون أن نعتقده لأننا نؤمن بنقيضه، نؤمن بأن موسى لم يدع إلى إلّه خاص بالعبرانيين كما جاء في سفر الخروج، بل دعا إلى الله خالق الكون كله، واحد أحد لا شريك له، لا إلّه إلا هو، وما عداه ليس إلا معبوداً باطلاً يجب الكفر به ليكمل الإيمان بالواحد الذي هو الله.

إن الله الذي دعا إليه موسى هو رب العالمين، رب الكون كله، ولا إلّه غيره، أما إذا اعتقد إنسان أن هناك إلهاً أو آلهة غيره فقد بطل الإيمان بالله خالق الكون، لأن التوحيد انتفى باثبات وجود آلهة سواه.

وهذا ما جاء به القرآن والإسلام، ونحن نؤمن به لأنه الحق، فإذا كان بنو إسرائيل في زمن موسى عليه وعلى نبينا صلاة الله وسلامه لم يدخل الإيمان قلوبهم فطلبوا إليه أن يجعل لهم إلهاً - غير الله - كما لغيرهم آلهة من هذه الآلهة المجسمة، أو عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري فذلك من رواسب الوثنية التي اعتقدوها قبل أن يرسل إليهم موسى.

وإذا كان الأسر البابلي ذا أثر في تحول العقيدة اليهودية في يهوه فإننا نرى أن من بقي من اليهود على دين موسى الحق ممن كانوا مؤمنين بالله خالق الكون كله ورب العالمين هم الذين نبهوا العقلية اليهودية والضمير اليهودي إلى سوء معتقدهم وإلى ضرورة

الاعتقاد في رب العالمين، ومن هنا كان اعتقادهم بأن يهوه لم يتركهم يمضون في الأسر إلى بابل، بل هو معهم ومع اليهود في فلسطين ومصر والشام وأنى كانوا.

وما أكثر الأنبياء الاسرائيليين الذين دعوا إلى الاصلاح، ولكنهم لم ينجحوا مع بني اسرائيل إلا نادراً، فهم كما وصفوا في التوراة «صلب الرقاب».

ومرد كثرة الأنبياء، والمصلحين والدعاة والهداة والمعلمين في بني إسرائيل إلى كثرة تقلبهم، وسرعة تحولهم من الإيمان إلى الشرك، ومن البر إلى الخطيئة، حتى أخفق منهم الرسل والأنبياء وتعبوا، لأن العودة إلى رحاب العقيدة كانت عسيرة بالنسبة لليهود، وإذا عادوا فالعودة قصيرة العمر.

وقد رأينا حادثتهم مع موسى وهارون في سيناء، وما أسرع ما تحولوا من التوحيد إلى الشرك.

فإذا كانوا يتحولون بهذه السرعة بعد أن أقام بهم موسى البراهين على ما أنعم الله به عليهم من النجاة فهذه الخليقة الأصيلة لم تفارقهم في جميع أدوار حياتهم.

وها هي ذي أسفارهم المقدسة تثبت ما تعرضت له الديانة الموسوية من التغيير والتبديل، وتحول بني اسرائيل الدائم، فاستحالت ديانة التوحيد إلى وثنية وشرك وطعن في الأنبياء والرسل لا يتفق مع صفاتهم الكريمة، بل ذهبت بهم الوثنية إلى أبعد

مراحلها عندما جعلوا الله في صورة الرجل، يأكل ويشرب، ويعتريه ما يعتري البشر من التعب فيلتمس الراحة يوم السبت.

بل ذهب التلمود إلى أبعد من هذا، فوصفوا فيه الله بأن يلعب ويذاكر الدروس ومراجعة الشريعة.

وليس التغيير وقفاً على حياة اليهود وحدهم، بل نقلوه إلى الله، فذكروا تغييراً شاملاً طرأ على حياة الله بعد أن قدر هدم الهيكل وتشتيت شمل بني إسرائيل، وذلك التغيير ينجلي في إقرار الله بخطئه، وندمه على تسرعه وتقديره، حتى زعموا أنه يقضي أكثر الليل في البكاء والندم وهو يقول: تباً لي! أمرت بخراب بيتي وإحراق الهيكل.

غير أن التقلب الذي عرف به اليهود لم يبعدهم عن عقائدهم الوثنية التي يؤمنون بها، فهم أشد الناس تمسكاً بها وذوداً عن حماها، وليس ثباتهم على هذه العقائد مردوداً إلى إيمانهم بالوحدانية أو بيهوه، بل مرده إلى اعتدادهم بالقومية اليهودية.

يقول برتراند رسل الفيلسوف البريطاني[1]: «كان اليهود يتميزون من سائر أمم العالم القديم باعتدادهم القومي الذي ذهبوا فيه إلى حد العناد، فكل من عداهم كانوا إذا أصابهم الغزو يستسلمون باطناً وظاهراً، أما اليهود فهم الشعب الوحيد الذي احتفظ لنفسه بعقيدة في امتيازه على سواه، وبإيمان بأن ما أصابهم

---

(١) في كتابه «تاريخ الحضارة الغربية» ٢ : ١٨ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، طبع مصر.

من الكوارث إنما جاء نتيجة لغضب الله لأنهم قصروا في صيانة ما لعقيدتهم الدينية ولطقوسهم من صفاء».

وإذا اعتمدنا ما يسمى التوراة وأسفار اليهود المقدسة ما عدا سفر أشعيا وبضعة أسفار أخرى فإن فكرة اليهود عن الألوهية فكرة مادية، ويهوه إله قبلي خاص باليهود لا يشاركون غيرهم فيه ولا يشاركون غيرهم في آلهتهم، وجعلوا له من الصفات البشرية ما يعكس صفات اليهود أنفسهم.

ولكن تطوراً خطيراً طرأ على الديانة اليهودية، ويعزو الباحثون هذا التطور إلى ما لا نوافقهم عليه، ولكننا نذكره ثم نعقب عليه برأينا.

فبرتراند رسل يميل إلى وجهة نظر هؤلاء الباحثين، ورأيه كما جاء في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» ٢ : ١٦ هو:

«لقد طرأ على الديانة اليهودية تطور غاية في الأهمية إبان فترة الأسر وقبلها إلى حين وبعدها إلى حين، فمن الوجهة الدينية يظهر أنه لم يكن في أول الأمر اختلاف كبير بين الإسرائيليين وبين القبائل المحيطة بهم، فلم يكن «يهوا» بادىء ذي بدء سوى إله قبلي يقرب إليه أبناء إسرائيل، لكن أحداً لم ينكر أن قد كان ثمة آلهة أخرى، وأن عبادة الناس لهذه الآلهة كانت قائمة، فإذا ما جاءت «الوصية» الأولى تقول: «لا ينبغي لك أن تعبد آلهة دوني» فإنما كانت بذلك تعبر عن حقيقة جديدة بالنسبة للعصر الذي سبق الأسر مباشرة،

وإنك لتجد في أقوال الأنبياء السابقين نصوصاً كثيرةً تؤيد هذه الحقيقة، فالأنبياء في هذا العصر هم أول من راح يعلم الناس بأن عبادة الآلهة الوثنية خطيئة، وأذاعوا في الناس بأن النصر في حروب ذلك الزمان التي لم تنقطع مرهون برضا «يهوا» ولا يتردد «يهوا» في منع رضاه عن الناس إذا هم كرموا آلهة أخرى سواه، والظاهر أن «إرمياء» و«حزقيال» خاصة هما اللذان ابتكرا الفكرة القائلة بأن كل العقائد الدينية باطلة إلا واحدة، وأن «الله» يعاقب على الوثنية».

ويقول برتراند رسل (ص ١٧):

«الظاهر أن هؤلاء الأنبياء هم الذين ابتكروا فكرة أن الديانات كلها شر إلا واحدة، وأن الله يعاقب على الوثنية، وقد كان الأنبياء ـ على وجه الجملة ـ مشتعلين بالروح الوطنية، وتمنوا اليوم الذي ينزل الله فيه الدمار التام على الكافرين باليهودية».

ويقول: (ص ١٩)

«والسفر الذي نسميه اليوم بسفر أشعيا هو من عمل نبيين، أحدهما قبل النفي، والآخر بعده، وثاني هذين النبيين ـ الذي يسميه الباحثون في الإنجيل تثنية أشعيا ـ هو ألمع الأنبياء جميعاً، فهو أول من يروي عن الله أنه قال: «لا إله إلا الله» وهو يؤمن بنشر الجسد يوم القيامة، ولعله آمن بذلك متأثراً بالفرس».

ويقول فيليب حتي[1]:

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١: ٢٣٤ الطبعة العربية.

«فكر النبي أشعيا الذي بدأ نبوته نحو ٧٣٨ كما فعل عاموس على أساس التوحيد النظري، وكان يعتبر الآلهة المتنافسة لا قيمة لها ومن صنع الإنسان، وقد أحدث تقدماً في تفكير عصره بالإصرار على قدسية الله، وإبراز كماله المختلف عن نقص الإنسان حيث يقول: «قدوس قدوس قدوس رب الجنود، مجده ملء كل الأرض».

«عاش أشعيا في عهد مضطرب حصل فيه خراب السامرة عن يد سرجون (٧٢٢ ق.م) وهجوم سنحاريب على أورشليم (٧٠١ ق. م) ولكنه كان يقف فوق معاصريه ويقدم مثلاً رائعاً عن الوطنية التي لا تتراجع أمام أية تضحية نظراً لوحي إيمان لا يتزعزع بآله قدوس».

و «كان أشعيا الثاني وهو مؤلف الإصحاح ٤٠ إلى ٥٥ موحداً أيضاً».

وفي «تاريخ سوريا» للمطران يوسف الدبس ٣: ٩ في ترجمته لأشعيا:

«وأولى رؤاه كانت في سنة موت عوزيا وهي سنة ٧٥٨ كما في نبوته (ف ٦ عد ١) وآخر نبوة نعرف تاريخها من نبواته كانت في السنة الرابعة عشرة لملك حزقيا وهي سنة ٧١٢ ويظن أنه بقي في الحياة إلى زمان منسي الملك الذي أماته منشوراً. . . وأما في مدة

(١) طبع المطبعة البوليسية بحريصا ـ لبنان.

احاز الملك أي من سنة ٧٤٢ إلى سنة ٧٢٧ فقد أبدى هذا النبي أموراً مهمة لما كان رصين ملك سورية وفاقح ملك إسرائيل يتهددان أورشليم فإنه ساعد كثيراً على إحباط مساعيهما كما جاء في نبوته (ف ٧) وأهم ما صرف إليه عنايته النبوية إنما كان في أيام حزقيا من سنة ٧٢٧ إلى ٦٩٨ ».

ويقول (ص ١٠)

«يظن أن أشعيا فر إلى باسان خوفاً من اضطهاد منسي الملك له، على أن ابتعاده عنه لم يبعد عنه جور هذا الملك، إذا أرسل فقتله هناك، ولا يعلم تاريخ موته فقال بعض المفسرين إنه كان سنة ٦٩٠ . . . إن لأشعيا في الأسفار المقدسة المقام الأول لا من قبل تقدمه زماناً ، لأن يوثيل ويونان وعاموس وهوشع كانوا قبله، بل بحق استيهاله أن يكون أعظم من جميع الأنبياء لكثرة الأوحية التي كانت إليه، وأهميتها وسمو كلامه مع زيادة وضوحه وفصاحته، فهو النبي العظيم».

وفي «السنكسار» للمطران ميخائيل عساف رئيس أساقفة تبرا وفيلدلفيا وسائر شرق الأرض ٢ : ٣١.

«أشعيا ٧٦٠ - ٦٩٤»

«إن أشعيا هو الأول بين الأنبياء الأربعة الكبار، وسفر نبوءته من أجلّ الأسفار، وأبدعها لغة، وأروعها شعراً ووصفاً وتعبيراً، وهو أفصح نبي بين الأنبياء، وأبدع شاعر بين الشعراء،

ولا يجاريه في البدائع الشعرية سوى داود النبي في مزاميره. . . لغة أشعيا هي أنقى ما كتبه اليهود بالعبرانية.

«والقديس إيروغس يقول: «إنك لتجد في سفر نبوءاته الكتب المقدسة كلها، وخلاصة ما وصل إليه العقل البشري من فلسفة طبيعية وأدبية ولاهوتية معاً».

ويلقب الآباء القديسون أشعيا بالانجيلي الخامس، لأن ما في سفره يعد معجزة، فالحوادث التي تنبأ بها وقعت بعد وفاته بثمانية قرون، فكان كأنما يرى بعينيه ويسمع بأذنيه لا رؤى يراها في منامه[1].

وترجمنا لشخصية النبي أشعيا دون غيره لأنه مجمع على قدره وإجلاله من اليهود والنصارى، بل قدره النصارى أكثر من اليهود لأنه تنبأ بالمسيح، وببعض الحوادث، وجعلوا له يوم ٩ أيار (مايو) عيداً في الكنيسة المارونية، ويوم ٦ تموز (يونيو) عيداً في السنكسار الروماني، بل بلغ بأهل الكتاب أن قالوا: «بشر أشعيا بنظام جديد لم تستطع أن تحققه ٢٦٠٠ سنة من التقدم»[2].

ويعزون إليه الأثر الأكبر في تحويل الديانة الموسوية من يهوه الإله القبلي الخاص إلى الله رب العالمين، بل عدوه أعظم من موسى وداود عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) السنكسار ٢: ٣٢.

(٢) تاريخ سورية لفيليب حتي ١: ٢٣٤.

يقول فيليب حتي[٣]:

«التوحيد هو نظام عقائدي ناشط مكافح لا يقتصر على إنكار سيطرة الآلهة في نواح محدودة وإنما ينكر وجود الآلهة الأخرى ذاتها، وإله التوحيد لا يمكن أن يكون قبلياً أو قومياً، بل يجب أن يكون أممياً عاماً، والاعتقاد بوجود إله أعلى دون أن يمنع الاعتقاد بآلهة أخرى (henotheisn) هو مرحلة متوسطة من الاعتقاد بتعدد الآلهة وبين التوحيد.

«ومن الواضح أن موسى وكذلك داود كانا من أتباع هذه المرحلة المتوسطة من التوحيد، فقد كان يهوه بالنسبة لهما إله العبرانيين وحدهم، وسيطرته كانت على أرض إسرائيل، وهذا الاتصال الوثيق بين الإله والبلاد لم يكن عند العبرانيين وحدهم، فقد كان يعترف به معاصروهم، ويهوه الإله العبراني الذي بدأ كإله قبلي يسره إنزال العقوبات القاسية بالمصريين الذين اضطهدوا شعبه، ثم أصبح إلهاً قومياً يسمح باستئصال الأموريين والكنعانيين، ويأمر بقتل المئات من كهنة منافسه، إن هذا الإله (يهوه) لم يرفع إلى تلك المكانة الفريدة كإله وحيد في العالم، وكإله يتصف بالمحبة والعدالة والرحمة والغفران إلا في مستهل فترة النبوة».

فأشعيا ـ إذن ـ أعظم نبي على الإطلاق ظهر في الديانة

(٣) تاريخ سورية ١: ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

الموسوية، لأنه خرج بألوهية يهوه من القبلية الضيقة ومن القومية المحصورة إلى الوحدانية الشاملة أو الأممية العامة.

وأشعيا أعظم من سيدنا موسى الذي هو صاحب هذه الديانة ورسولها الأوحد، لأن موسى جاء بألوهية يهوه على أنه إلّه العبرانيين، فهو إلّه قبلي أو إلّه قومي، أما أشعيا فهو الذي ارتفع بالتوحيد القائم على الشرك إلى قمة التوحيد بالله الواحد الأحد المنفرد بالألوهية لأنه الإلّه الحق، أما غيره فباطل.

فالتحول الذي حدث في الموسوية مردود الفضل إلى أشعيا لأنه هو صاحبه، فهو أعظم من موسى وداود.

هذا ما يراه غير المسلمين، ونقول: «غير المسلمين» لأن الإسلام لا يقر كل تلك المدعيات، بل يردها، ويعلن نقيض ذلك، فموسى رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً، ودعوته هي التوحيد المطلق: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وكل ما يدعي أنه إلّه فباطل، لأن وجوده ينفي الشريك، والإيمان بهذه الوحدانية لن يكون إلا بالكفر بما عداه.

والله الذي دعا إليه موسى ليس إلّهاً خاصاً بالعبرانيين، بل هو رب العالمين، وهو كامل، والكامل واحد، والواحد كامل، وموصوف بصفات تغاير صفات خلقه وإن اتفقت أسماء هذه الصفات، فمن صفات الله الذي دعا إليه موسى: الرحمة والجود والكرم والمغفرة والعدل والعلم واللطف والاحسان.

وها هي ذي آيات من القرآن الكريم:

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

و﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ

و﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾

و﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

و﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

و﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

و﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

فالقرآن يثبت لموسى دون غيره من أنبياء بني اسرائيل «أولية» الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، ودعوته إلى الإيمان باليوم الآخر.

فإذا جاء النبي أشعيا بعد موسى بحوالي ستة قرون أو سبعة بأن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وندد بالأصنام والأوثان فليس أشعيا هو صاحب هذه الدعوة إلى التوحيد الحق، التي لم يسبق لها، بل سبقه موسى، وفضل النبي أشعيا أنه جدد الدعوة الموسوية التي دخلت فيها الوثنية، وكذلك غيره من الأنبياء.

فالنبي أشعيا مجدد، وليس كما وصفه واصفوه من أنه هو الذي حول ألوهية يهوه إلى ألوهية الله رب العالمين، إنه مجدد، وهذا فضل محسوب له، ولكنه تابع أمين لموسى عليه الصلاة والسلام.

أنبياء بني إسرائيل

الأنبياء والرسل يجب أن يكونوا أرقى البشر طراً في جميع الخلائق والصفات، ومعصومين من الكبائر، أما الكفر والشرك فلا يمكن أن يرضوا بهما، لأنهما نقيض الرسالة والنبوة، فلا تجتمع الرسالة مع الكفر، والنبوة مع الشرك.

ولكن أنبياء بني إسرائيل ورسلهم ليسوا بأهل لأن يكونوا كذلك إذا اعتمدنا توراتهم وأسفارهم المقدسة، لأن في أعمالهم ما ينقض الرسالة والنبوة، وإن بعضهم بلغ من الانحطاط الماحق ما لا يرضى به فاسدو الخلق ملوثو الضمير من البشر إلا من انحدروا إلى البهيمية السافلة.

ونمسك بأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم وببعض الرسل الكرام عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لنرى رأي اليهود في رسلهم، بل لنرى ما تصفهم به أسفارهم المقدسة التي يؤمن بها اليهود والنصارى على السواء.

وسيظهر الفارق الكبير بين الإسلام واليهودية والنصرانية

عندما نذكر شواهد من القرآن الكريم من أسفار أهل الكتاب ابتداء من إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

تقول التوراة في «سفر التكوين» أول أسفارها الخمسة المقدسة المجمع على قداستها من مختلف طوائف اليهود والنصارى ومن السامرة:

«وحدث جوع في الأرض، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك.

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسناء جداً، ورآها فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبنيه ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام.

فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت: هي أختي؛ حتى أخذتُها لي لتكون

زوجتي؟ والآن، هوذا امرأتك، خذها واذهب، وأوصى فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له»[1].

هذه صورة إبراهيم كما تعرضها التوراة، وهي تهمة قذرة ملصقة به، فهو يعرض امرأته الجميلة الفاتنة، ويجعلها وسيلة كسب وثراء، ولا تقف عند هذه الحادثة الكريهة. بل تصوره التوراة مستمرئاً تجربته مع فرعون، فيكررها مع «أبيمالك» ملك جرار، ويخرج منها رابحاً ربحاً موفوراً، ولا تهمه كرامة العرض ما دام المال يصله.

يقول سفر التكوين في الإصحاح العشرين:

«وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار، وقال إبراهيم عن سارة امرأته: هي أختي، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة، وجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها، فقال: يا سيد أأمة بارة تقتل؟ ألم يقل هولي: إنها أختي؟ وهي أيضاً قالت: هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا.

«فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تُخطىء إلي، لذلك لم أدعك تمسها، فالآن، رُدَّ امرأة الرجل، فإنه نبي، فيصلي لأجلك

(١) سفر التكوين ١٢: ١٠ - ٢٠.

فتحيا، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك.

«فبكر أبيمالك في الغد ودعا عبيده وتكلم كـل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جداً، ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليَّ وعلى مملكتي خطية عظيمة؟ أعمالاً لا تعمل عملت بي! وقال أبيمالك لإبراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟

«فقال إبراهيم: إني قلت: ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلونني لأجل امرأتي. وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير انها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليّ، في كل مكان نأتي إليه قولي عني: هو أخي.

«وأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه امرأته.

«وقال أبيمالك: هوذا أرضي قدامك، أسكن فيما حسن في عينيك.

«وقال لسارة: إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة، ها هو لك غطاء عين من جهة كل من عندك وعند كل واحد، فأنصفْتِ».

هذه صورة من صور أبي الأنبياء إبراهيم، تعرضها التوراة،

ويؤمن بها اليهود والنصارى إيماناً، ويعتقدون أن ما نسب إليه واقع، ويعرفون أن ما عمله منكر، وأشد الناس من هؤلاء المسيحيين المؤمنين بإبراهيم لم يستطيعوا أن يغضوا البصر عن فعلته.

فالأستاذ وليم نكلسون يقول في موسوعته الموجزة في مادة أبرام ما ترجمته(١):

«إن مسلك أبرام هنا هو أحد المواقف التي نميل إلى إسدال الستار عليها في سيرة هذا الرجل الجليل، لقد كان عملاً لا يوائم مقام تلك الشخصية العظيمة، ولا جرم ففي وجه الشمس سفعات، ومثل هذا دليل على صدق تاريخ الكتاب، وإن مؤرخيه لم يشعروا قط نقصاً في أحسن الناس».

والإجماع من أهل الكتاب على استنكار الفعل دون الفاعل، واتخذوا له ما يسوغه، فمن علمائهم المتعصبين لدينهم والمؤمنين بإبراهيم من ذهبوا إلى أن إبراهيم أسلم نفسه لربه ومشيئته، ولأنه مؤمن أن الله حافظه ولن يجري عليه ما يعيبه.

وإذا صح ما صدر من إبراهيم فهو ملوم، ولا حق للانتقام من فرعون وأبيمالك، فهما لم يأتيا مع سارة أمراً نكيراً، فقد أراد كل منهما أن يتخذها زوجاً حلالاً له حسب شريعته المتبعة، فقد

---

(١) انظر كتاب «أبو الأنبياء» للعقاد، ص٦٧.

علم أنها خالية من موانع الزوجية، لأن ابراهيم ذكر انها أخته، ولم يذكر انها متزوجة.

وأي قاض على وجه الأرض تعرض عليه قضية سارة ودفاع فرعون يجد الحق مع فرعون، ودفاعه حق، وعتابه لإبراهيم يظهر موقفه السليم: «ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني إنها امرأتك؟ لماذا قلت: هي أختي، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي».

لم يغتصبها فرعون، ولم يعتد على شرفها، بل أرادها زوجاً.

وكذلك أبيمالك، وكان موقفه أكثر نبلاً من فرعون، ودفاعه حق، ويكفي أن الله أيده في قوله. «بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا» إذ أجابه الله في الحلم: «أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا» ولومه لإبراهيم حق.

ألم يلم أبيمالك إبراهيم بقوله: «ماذا فعلت بنا؟ بماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة. أعمالاً لا تعمل عملت بي! ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء».

التبعة تقع على فرعون وأبيمالك اللذين أقدما على عمل تقره شرائعهما، لماذا؟ لأن اليهود دائمًا هكذا، المعتدي ينجو بل يجد التكريم مع النجاة، والمعتدى عليه أو البريء هو الذي يؤاخذ، بل يؤاخذ البريء، دائمًا إلى الجيل الرابع وإلى الجيل العاشر.

لم يقع على إبراهيم أي لوم من الله الذي جعله نبياً، ولا عذر له في كل شرائع الأخلاق.

لماذا يصحب معه زوجه الجميلة الرائعة إلى أرض مخوفة لا أمان فيها على العرض؟.

أما كان بوسعه أن يدع زوجه مع أولاده في مأمن ويمضي هو وحده يلتمس أسباب الرزق كما صنع إخوة يوسف حينما بعثهم أبوهم يعقوب؟.

لماذا يغامر إبراهيم بعرض امرأته وهو واثق كل الثقة أن المصريين ينتهكون الأعراض؟.

ولماذا يعيد التجربة نفسها مع أبيمالك ملك جرار بعد فرعون؟.

لا جواب إلا أنه استمرأ فعلته، وإلا لضن بامرأته على ملك جرار، ولكن إعادة التجربة نفسها تزيد في إظهار جشع إبراهيم وعدم مبالاته بالعرض، بل تزيد التوراة البشاعة بشاعة عندما تشير إلى اتفاق الزوجين على أن يكذبا ويزعما أنهما أخوان، لينجو هو بروحه، ويناله بسببها خيرا!.

إن الطبيعة اليهودية تكذب على إبراهيم، فما كان ـ والله ـ كما وصفوا، ولكن طبيعة اليهود تعكس سفالتها على أبي الأنبياء المعصوم المنزه عن مثل هذه القبائح، بل عما هو أقل منها.

بل الذي يجذب النظر في أسفار اليهود أن يصفوا فيها رسلهم وأنبياءهم بجرائم العرض، بالزنا، بل بأفحش من الزنا العادي، ألا وهو الزنا بالمحارم.

إنهم بهذا القذف المشين يسوغون ما يحدث منهم من جرائم العرض، إذ لا لوم عليهم ما دام أنبياءهم الكبار يقترفون هذه الخطيئة الكبرى.

وإذا كانت اليهودية تتهم إبراهيم بما اتهمت، وتظهره في هذا المسلك الشائن زوراً وبهتاناً وكذباً فإن الإسلام يصور إبراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا على حقيقته، فإذا هي صورة الرجل الشريف العظيم، والإنسان النبيل، والرسول الكريم، وليس في كل صفاته ما يؤاخذ عليه، لأن الإنسان لا يؤاخذ على الكمال.

إذا كان كتاب اليهود الذي يدين به النصارى أيضاً يكذب على إبراهيم فيذكر عنه ذلك المسلك الشائن فان كتاب المسلمين غير ذلك ، وهذا أعظم دليل على أن كتاب المسلمين هو الحق، لأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه كلام الله الحق المبين.

يقول القرآن الكريم:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾(1)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾(2)

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(١) سورة مريم ٤١

(٢) سورة الأنبياء ٥١

و﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ (١)

و﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢)

و﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

و﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ

---

(١) سورة الأنبياء ٧١ ـ ٧٣

(٢) سورة الصافات ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) سورة الصافات ١٠٩ ـ ١١١

فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ النحل(١)

و﴿ * وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

و﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(١) سورة النحل ١٢٠ ـ ١٢٢
(٢) سورة البقرة ١٢٤ ـ ١٢٥
(٣) سورة البقرة ١٣٠ ـ ١٣١

و﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

و﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

و﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾

وغير ذلك من الآيات البينات التي تصف إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بما يليق به، ويكفي أن الله جعله إماماً للناس، وكل هذه المحامد والصفات الكريمة تنفي فرية سفر التكوين التي نسجها كاتبه الساقط البذيء.

وإذا كان أبو الأنبياء بهذا السقوط الخلقي الذي يدعيه سفر التكوين فما يلام أحد من الناس على أي انحدار خلقي، وحجته

---

(٤) سورة آل عمران ٦٧
(٥) سورة النساء ١٢٥
(٦) سورة التوبة ١١٤
(٧) سورة هود ٧٥

أن أكرم الناس، المجعول خليفة، الأسوة للبشر قد سقط وانحدر وسلك مسلكاً شائناً، فما عليه لوم بعد!.

إن الإسلام ينزه إبراهيم كل التنزيه من هذه الفرية، بل ينزهه مما هو أقل من ذلك، فهو نبي معصوم، ورسول كريم، يمتاز بأكرم صفات الفضلاء من الناس، وهو أعلى نموذج في الخلائق والصفات الكريمة والمحامد العظيمة بعد محمد عليهما الصلاة والسلام.

والإسلام يرد فرية سفر التكوين ويحاربها، فما كان إبراهيم إلا نموذجاً أعلى للصلاح والتقوى والكمال الإنساني.

ولا يكفي ناسج فرية سفر التكوين اتهام سيدنا إبراهيم بما قذفه به من المسلك الشائن حتى يردفها بفرية مماثلة يلصقها بسيدنا إسحاق بن إبراهيم: «فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار».

و «أقام إسحاق في جرار، وسأله أهل المكان عن امرأته، فقال: هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي، لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر، وصرت إذا طالت الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحاق يلاعب رفقة امرأته، فدعا أبيمالك إسحاق وقال: إنما هي امرأتك، فكيف قلت: هي أختي؟ فقال له إسحاق: لأني قلت لعلي أموت بسببها، فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا

ذنباً! فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمس هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت».

التجربة نفسها باختلاف في الجزئيات، وما كان هناك ضرورة للكذب، فأبيمالك لا يجهل إسحاق، لأن بينه وبين أبيه من الود والإعجاب ما يحمله على البر به وحمايته، ولكن سفر التكوين ينسج الأكذوبة ليتسنى له تشويه سمعة إبراهيم وذريته.

ولا يكتفي بهذا، بل نجد سفر التكوين يتتبع أولاد إبراهيم وأحفاده بالتهم البشعة ويصمهم بها، ويظهرهم في مظهر يأنف منه أوساط الناس.

فإسحاق الذي أعاد تجربة أبيه إبراهيم تخدعه زوجه، وتحول البركة التي كان إسحاق يريد أن يهبها لابنه عيسى الذي يحبه إلى ابنه يعقوب الذي تحبه أمه، بل تجعل الخدعة التي جازت على إسحاق جائزة على الله نفسه.

وها هوذا نص ما جاء في سفر التكوين بالإصحاح السابع والعشرين:

«لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يا بني، فقال له: هأنذا. فقال: إنني قد شخت، ولست أعرف يوم وفاتي، فالآن خذ عدتك: جعبتك وقوسك، واخرج إلى البرية، وتصيد لي صيداً، واصنع لي أطعمة كما أحب، وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت.

«وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به.

«وأما رفقة فكلمت ابنها يعقوب قائلة: إني قد سمعت أباك يكلم أخاك عيسو قائلاً: ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي. فالآن يا بني اسمع لقولي فيما انا آمرك به، اذهب إلى الغنم، وخذ لي من هناك جديين من المعزى، فاصنعهما لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته.

«فقال يعقوب لرفقة أمه: هوذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسي لعنة لا بركة.

«فقالت له أمه: لعنتك علي يا ابني، اسمع لقولي فقط، واذهب خذ لي، فذهب وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت، وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديي المعزى، وأعطت الأطعمة والخبز الذي صنعت في يد يعقوب ابنها.

«فدخل إلى أبيه وقال: يا أبي، فقال: هأنذا، من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتني، قم، اجلس، وكل من صيدي لكي تباركني نفسك.

«فقال إسحاق لابنه: ما هذا الذي أسرعت لتجد يا ابني؟ فقال. إن الرب إلهك يسر لي، فقال إسحاق ليعقوب: تقدم لأجسك يا ابني، أأنت هو ابني عيسو أم لا؟.

«فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه، فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه، وقال: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو، فقال: قدم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي، فقدم له فأكل، وأحضر له خمراً فشرب، فقال له إسحاق أبوه: تقدم وقبلني يا ابني، فتقدم، وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب، فليعطيك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، لِيُستَعبدْ لك شعوب، وتسجل لك قبائل، كن سيداً لاخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين.

«وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده، فصنع هو أيضاً أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه: ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك، فقال له إسحاق أبوه: من أنت؟ فقال، أنا ابنك بكرك عيسو.

«فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جداً، وقال: فمن هو الذي

اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته، نعم، ويكون مباركاً.

«فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً، وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك، فقال: ألا إن اسمه دُعِيَ يعقوب، فقد تعقبني الآن مرتين: أخذ بكوريتي، وهوذا الآن قد أخذ بركتي ثم قال: أما أبقيت لي بركة؟!.

«فأجاب إسحاق وقال لعيسو: إني قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً، وعضدته بحنطة وخمر، فماذا أصنع إليك يا ابني؟ فقال عيسو لأبيه: ألك بركة واحدة فقط يا أبي، باركني أنا أيضاً يا أبي، ورفع عيسو صوته وبكى.

«فأجاب إسحاق ابنه وقال له: هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمح تكسر نيره عن عنقك.

«فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التي باركه بها أبوه، وقال عيسو في قلبه: قربت أيام مناحة أبي، وأقتل يعقوب أخي.

فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر، وقالت له: هوذا عيسو أخوك متسلٍّ من جهتك بأنه يقتلك، فالآن يا ابني، اسمع لقولي، وقم اهرب إلى

أخي لابان إلى حاران، وأقم عنده أياماً قليلة حتى يرتد سخط أخيك، حتى يرتد غضب أخيك عنك، وينسى ما صنعت به، ثم أرسل فآخذك من هناك».

ويمضي سفر التكوين في إصحاحاته الأخرى سارداً قصة يعقوب الذي يمضي إلى حاران، وينزل لدى خاله لابان، ويتفق معه على خدمة سبع سنين على أن يعطيه ابنته الصغرى الجميلة راحيل، وانتهت المدة، وأقيم حفل الزفاف، ودخل يعقوب على زوجه، وفي الصباح اكتشف أنها ليست راحيل وإنما هي ليئة ابنته الكبرى، فعاتب يعقوب خاله، وهذا نص سفر التكوين[1]: «لماذا خدعتني؟ فقال لابان: لا يفعل هكذا في مكاننا أن نعطي الصغيرة قبل البكر».

واتفق يعقوب مع خاله أن يعطيه راحيل بعد أسبوع على أن يخدم لديه سبع سنين أخرى، وأخذ راحيل، ولكن ليئة هي التي ولدت له، ولم تلد له راحيل إلا بآخرة.

وقصة إسحاق مع ابنيه كما تذكرها التوراة غريبة من الغرائب، هذه التوراة التي يعتقد اليهود والنصارى أنها وحي من الله.

وفي القصة مجال لأسئلة كثيرة ليست هي وأجوبتها في صالح اليهود والنصارى وكتابهم المقدس بعهديه القديم والجديد.

---

(١) الإصحاح ٢٩ : ٢٦.

أولاً ـ إن يعقوب ـ وهو نبي ـ خدع أباه وخانه، بل خدع إلَهه وانتزع البركة والنبوة انتزاعاً من أبيه بدون رضا منه.

وهنا يبدو سؤال لا بد منه: أترى يعقوب النبي يكون أميناً على الوحي إذا لم يكن على هواه بعد خيانته أباه وخداعه ربه؟.

ثانياً ـ إن هذه الجريمة التي تقوم على خيانة الأب وخداع الرب تجعل يعقوب غير أهل للاضطلاع بعبء النبوة والرسالة، لأن من لا يؤمن في أمور الوحي والرسالة والنبوة لا يمكن أن يكون أهلاً للنبوة.

إن مجرد الخيانة والكذب والخديعة لا يسمح لمن يتصف بها أن يكون نبياً، فإذا كان الكذب والخداع والخيانة متصلة بالنبوة نفسها فإن من يتصف بها لن يكون أهلاً للنبوة بتة، ومع فقدان الأهلية يكون مستوجباً لنقمة الله وغضبه، وموضع سخطه ولعنه.

ثالثاً ـ أيملك المخلوق ـ ولو كان رسولاً نبياً ـ أن يهب النبوة والرسالة أحداً من الناس؟ إن النبوة والرسالة لا يملكها غير الله الخالق وحده، لا يملكها إسحاق ولا أعظم من إسحاق.

رابعاً ـ يمكن للرسول أن يدعو الله بأن يجعل رسالته في أحد من خلقه كما صنع سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه إذ دعى الله فاستجاب له:

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

وقياساً على هذا نفرض أن سيدنا إسحاق خص ابنه عيسو بحبه ورضاه، وأراد له الخير، وعزم أن يدعو الله أن يهب النبوة له، فيتنكر يعقوب في زي عيسو ويأتيه، فيدعو الله أن يهب له النبوة وهو يدعو من ضميره لعيسو لا ليعقوب.

وإذا جازت خديعة رفقة وابنها يعقوب على إسحاق لشيخوخته وكلال بصره فلم يميز بين عيسو الذي يريد أن يخصه بدعوته وبين يعقوب الذي تظاهر بين يديه بأنه عيسو أفتجوز الحيلة والخديعة والمكر على الله؟.

إن إسحاق شعر أن وراء الأمر ما وراءه، وساروه شبح من الشك فسأله: «هل أنت هو ابني عيسو» فأجابه يعقوب: «أنا هو» فكان الدعاء لعيسو لا ليعقوب، ولكن إله إسحاق يتبعه في الاختداع فتنصرف النبوة من عيسو إلى يعقوب.

وكيف يرضى إسحاق بمكر يعقوب؟ وإذا رضي إسحاق أو تغاضى عن مكر يعقوب أفيكون الله في يد الخادعين الكاذبين، يجعل رضاه تبعاً لرضا الكاذبين والمخدوعين؟.

---

(١) البقرة ١٢٩.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومعاذ الله أن يختار لأشرف رسالة من يطلبها كذباً وميناً وخيانة وخدعاً. وتعالى الله علواً كبيراً أن تجوز عليه حيل المبطلين الفاسقين وهو العليم بخائنة الأنفس وما تخفي الصدور، فضلاً عن ظواهر الأعمال والأقوال.

وإن يعقوب عليه السلام معصوم ومنزه عن مثل هذه الأعمال الكافرة الباطلة، ولن يكون كما وصفته التوراة من القبائح والمنكرات لأنه نبي صادق ورسول حق.

والاسلام يبرىء يعقوب وإسحاق من كل ما قذفا به، وهذا القرآن الكريم يصفهما بقوله:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

مريم: ٤٩ ـ ٥٠.

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾

ص: ٤٥ ـ ٤٧.

و﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾

الأنبياء ٧٢ ـ ٧٣.

وبيئة الرسل والأنبياء بيئة غش وكذب وفجور وسرقة، فخال يعقوب غشاش، وعده براحيل ثم أدخل عليه ليئة، وابنة يعقوب تزني، وراحيل تسرق أصنام أبيها.

وها هو سفر التكوين يقول:

«وخرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها من يعقوب لتنظر بنات الأرض، فرآها شكيم بن حمور الحِوِّيِّ رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها» ٣٤: ١ ـ ٢.

و«فسرقت راحيل أصنام أبيها، وخدع يعقوب قلب لابان» ٣١: ١٩ ـ ٢٠.

نعم، بيئة الرسل والأنبياء بيئة غش وسرقة وكذب وخداع وفجور وزنا وكفر، فهذا إبراهيم يسلك مسلكاً شائناً، وإسحاق يصنع صنيعه، ويعقوب يخدع ويكذب ويخون، وابنة يعقوب تزني، وداود يزني، وابن داود يزني باخته، وابن له آخر يزني بنساء

أبيه، وسليمان يشرك، والأنبياء يكذبون، بل ابنتا لوط تزنيان، ومع من؟ مع أبيهما النبي؟.

وها نحن أولاء نعود إلى سفر التكوين أحد أسفار التوراة الخمسة، ففيه المناكر التي نكتفي بذكر بعضها.

فسيدنا لوط عليه الصلاة والسلام مقذوف من التوراة بقذيفة ماحقة، تمحقه هو وأسرته، ولا ترحمه، ولا تكتفي بنكبته في امرأته وقومه حتى تنكبه في نفسه، وفي ابنتيه، فتزعم التوراة أنه زنا بابنتيه، وهذه رواية سفر التكوين بالاصحاح التاسع عشر.

«وصعد لوط من صوعر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوعر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إنني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه الليلة أيضاً، فادخلي أنت واضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعهما ولا بقيامهما، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بَنْ عَمِّي، وهو أبو بني عمون إلى اليوم».

هذه الجريمة البشعة من الجرائم المنكرة التي لا تقع في تاريخ الإنسان إلا في حالة الشذوذ النادر، وإذا كانت بنات الأنبياء المؤمنات يزنين هذا الضرب الفاحش المقيت من الزنا الشاذ العفن فإن وقوع غيرهن في الخطيئة العادية أمر لا غبار عليه، لهن لهو اسوة ببنات الأنبياء اللاتي هن قدوة النساء.

وإذا أخطأت امرأة من بنات الشعب فعذرها قائم، ولا عقوبة عليها، لأن بنتي لوط لم تُعاقبا من الله ولا من الناس، بل أكرمهما الله بذرية كان منها أنبياء، بل وصل التكريم إلى حد أن يكون من سلالتهما من أصبح إلهاً، وهذا الإكرام مناقض نفسه، لأن الله ـ كما يزعمون ـ حرم وجود أهله من الموآبيين والعمونيين، فكيف يجتمع هذان النقيضان في وقت واحد؟.

وما في الدنيا اجتراء على الحق والفضيلة مثل اجتراء بنتي لوط، فقد رأتا ما حل بقومهما بسبب جريمة خلقية منتشرة في سدوم بلدهما، فقد أباد الله سدوم وأهلها، ومع ذلك تقترفان أبشع جرم وأقذره، إذ تزنيان مع أبيهما.

أي شيطان أو شيطانة في الدنيا ترى انتقام الله شديداً ثم ترتكب ما هو أبشع مما جلب انتقام الله، ولكن ابنتي لوط تريان عذاب الله يحل بأمهما وقومهما ووطنهما ثم ترتكبان شراً من جريمة أهل سدوم، ومع مَن؟ مع نبي بار كريم، وأب بر رحيم!.

ومع جريمة ابنتي لوط التي ندر وقوعها في العالم نجد الله باراً

ببني موآب وبني عمون، ونجد هؤلاء قريبين من الله الذي أمر موسى كما يذكر سفر التثنية ٢ : ٩ و١٩ بقوله:

«لا تعاد موآب، ولا تثر عليهم حرباً، لأني لا أعطيك من أرضهم ميراثاً، لأني لبني لوط قد أعطيت عادَ ميراثاً».

و«أنت اليوم مار بتخم موآب بعادَ، فمتى قربت إلى اتجاه بني عمون لا تعادهم، ولا تهجموا عليهم، لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثاً، لأني لبني لوط قد أعطيتها ميراثاً».

وهذا الأمر الإلهي الصادر إلى موسى عجيب يثير الدهشة، فبنو موآب وبنو عمون أي بنو لوط لا يصابون بأي أذى، بل لا يصاب موآب وعمون (بَنْ عمِّي) بأي سوء، مع أنهما ولدا زنا من محرم في أعلى طبقة وأجلّ مرتبة بين المحارم طراً، في حين أن التوراة تروي عن زنا داود بامرأة المجاهد المخلص العظيم الصالح البار أوريا الحثي أن الله عاقب داود بموت ولده من الزنا كما يذكر سفر صموئيل الثاني ١٢ : ١٣ ـ ١٥.

أيرى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى زنا المحارم لا غبار عليه، وزنا الأباعد قاصماً؟.

هذا ما يراه الكتاب المقدس، لأنه لم يعاقب ابني بنتي لوط من أبيهما، وعاقب ولد داود من زوج أوريا الحثي التي زنا بها.

وإذا تركنا هذا وجدنا بشاعات تتناسل مع البشاعة الأولى، بشاعة زنا لوط بابنتيه، فموآب المولدين من بنتي لوط من أبيهما

بالزنا ينسلان ذرية نبوية، منها رسل من أكرم رسل الله وأنبيائه، ففي عمود نسب المسيح نجد «عوبي» جد داود مولوداً من «راعوث» الموآبية، ونجد رحبعام بن سليمان مولوداً من «نعمة» العمونية، ووالدا سليمان من الخاطئين، لأن داود أباه زنا بأمه المسماة «بَتْشَبَعْ»، وكلهم في عمود نسب المسيح كما يروي انجيل متى في أول إصحاحه الأول.

وراعوث جدة داود وسليمان وعيسى، وداود ابن الله البكر، وسليمان ابن الله، وعيسى ابن الله الوحيد، بل الله الابن على زعمهم، وإن «نعمة» العمونية من أولاد عمون، والدة رحبعام بن سليمان الذي هو من أجداد عيسى.

وإن هذا الشرف العظيم الأسمى الذي كان من نصيب موآب وعمون ابني الزنا ـ أقذر زنا وأبشعه على الإطلاق في وجه الأرض ـ شرف دونه كل شرف في العالم، فبعض بنات موآب صارت جدة أبناء الله وبخاصة الله الذي هو يسوع، وبعض بنات عمون جدة ابن الله الوحيد، بل جدة «الله» الابن.

فعيسى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ منسوب ـ على روايات الكتاب المقدس ـ بوساطة هاتين الجدتين إلى موآب وعمون معاً ـ وعلى هذه النسبة يكون موآبياً عمونياً، وإذا كان موآبياً وعمونياً فقد حقت عليه لعنة الله على زعم توراتهم التي بين أيديهم، لأنها تقول في سفر التثنية بالإصحاح الثالث والعشرين في فاتحته ما نصه:

«لا يدخل مخصيٌّ أو مجبوب في جماعة الرب، لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب، لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل أحد منهم في جماعة الرب إلى الأبد».

وإذا ذهب المسيحيون إلى أن النسب يجب أن يكون بالآباء لا الأمهات رغبة في أن ينفوا الموآبية والعمونية عن المسيح فإن هذا النفي يدينهم، إذ ينفي عن المسيح أن يكون داودياً سليمانياً، وعلى ذلك لا يكون المسيح الموعود مسيحياً.

وفي أي النهجين سلك ينتهي إلى موآب وعمون، لأن سليمان وداود ينتهيان إلى راعوث جدتهما دون جدال ولا خلاف.

ولكن، ما رأي المسلمين فيما اتهمت التوراة به لوطاً وبنتيه؟.

إن الله يقول في محكم كتابه:

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

الصافات ١٣٣ ـ ١٣٥

والرسول في الإسلام معصوم منزه عن كل ما يعيب ويشين خلقه وخلائقه، وأما ابنتاه اللتان نجتا معه فلإيمانهما كانت نجاتهما، ومحال منهما ما نسب إليهما، ومحال أن ترتكبا الفاحشة مع أبيهما رسول الله الأمين، وكل الرسل معصومون منزهون، ومن المستحيل أن يرتكب رسول الزنا.

هذا رأي الإسلام، بل هذا هو عقيدة الإسلام، وهذا هو الفارق بين الإسلام وسائر الأديان، رسل الله يمتازون بالنظافة والطهر والنبل، إذ هم في أعلى مراتب العصمة وتمام الخلق.

والعقل نفسه يرد قذيفة الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى، فلوط كان قادراً جنسياً كما تثبت رواية التوراة، بدليل أنه سكر سكراً لم يدر معه ما يصدر فيه من الإثم والقبح والمنكر،

فإذا كان قادراً جنسياً مع فقد الوعي فهو قادر أكثر على المباشرة الجنسية مع الوعي وحوله النساء لا عدد يحصيهن.

وإذا كانت بنتاه حريصتين على أبناء يرثون حياته، فكان في وسعهما نصح أبيهما؟.

وإذا كانتا أرادتا منه نسلاً فما أدراهما أنهما تحملان بنسل ذكر؟ وإذا كان لمجرد الشهوة فلم تكونان بمعزل عن الناس في المغارة التي سكنوها، لأن من غير الجائز عقلاً ألّا يأتيهم أحد بما يحتاجون إليه من الطعام، أو تنزل إحداهما أو كلتاهما إلى السوق تمتارا.

والعقل يرد هذه الفرية رداً عنيفاً، ولا يقبلها.

وآل يعقوب تصورهم التوراة صورة بشعة قذرة، فقد مر أن ابنة يعقوب المسماة دينة من زوجته ليئة بنت لابان خاله زنت مع شكيم بن حمور الحوي.

وابن يعقوب المسمى رأوبين من زوجته ليئة، وهو أكبر أبنائه زنى بسرية أبيه المسماة بلْهَة، وهذه رواية سفر التكوين ٣٥ : ٢١ ـ ٢٢ :

«ثم رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدد، وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوبين ذهب، واضطجع مع بلهة سرية أبيه، وسمع إسرائيل».

ويهوذا بن يعقوب الذي سماه الله إسرائيل زان أثيم، يهوذا ـ هذا ـ يزني بزوجة ابنه، واسم هذه الزوجة «ثامار» وها هي ذي

قصة الزانيين كما يرويها سفر التكوين بالاصحاح الثامن والثلاثين:

«أُخْبِرَتْ ثامار، وقيل لها: هوذا حموك صاعد إلى تِمْنَة ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترملها، وتغطت ببرقع، وتلففت، وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة.. فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها قد غطت وجهها، فمال إليها على الطريق، وقال: هاتي أدخل عليك، لأنه لم يعلم أنها كنته، فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟! فقال: إني أرسل جدي معزى من الغنم، فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ فقال: ما الرهن الذي أعطيك؟ فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك، فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه، ثم قامت ومضت، وخلعت عنها برقعها، ولبست ثياب ترملها.

«فأرسل يهوذا جدي المعزى بيد صاحبه العُدلّامي ليأخذ الرهن من يد المرأة، فلم يجدها، فسأل أهل مكانها قائلاً: أين الزانية التي كانت في عينايم على الطريق؟ فقالوا: لم تكن ههنا زانية، فرجع إلى يهوذا وقال: لم أجدها، وأهل المكان أيضاً قالوا: لم تكن ههنا زانية. فقال يهوذا: لتأخذ لنفسها لئلا نصير إهانة، إني قد أرسلت هذا الجدي وأنت لم تجدها.

«ولما كان ثلاثة أشهر أخبر يهوذا، وقيل له: قد زنت ثامار كنتك، وها هي من الزنا! فقال يهوذا: أخرجوها لتحرق!.

«وأما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة: مِنَ الرجل

الذي هذه له أنا حبلى، وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه!؟.

«فتحققها يهوذا وقال: هي أبر مني، لأني لم أعطها لشيلة ابني، فلم يعد يعرفها أيضاً.

«وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان، وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج يداً فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزاً قائلة: هذا خرج أولاً.

ولكن، حين رد يده إذا أخوه قد خرج، فقالت: لماذا اقتحمت عليك اقتحاماً، فدُعيَ اسمه فارص، وبعد ذلك خرج الذي على يده القرمز، فدُعيَ اسمه زارَح».

ولم يعمل يعقوب شيئاً، لا لرأوبين الذي زنا ببلهة، ولا ليهوذا الذي زنا بثامار،بل أطرى يهوذا عند موته.

ويهوذا الزاني يطري ثامار الزانية ويقول: إنها أبر مني، كأنه هو نفسه بار حتى تكون أبر منه، والعجيب أن يكون الزناة بررة!.

وقد سبق أن أشرنا أن في عمود نسب المسيح وداوود وسليمان من يسمى عوبيد، وعوبيد هذا ابن «راعوت» الموآبية، وموآب ابن بنت لوط من أبيها بالزنا، وفي عمود نسب المسيح فارص بن يهوذا، وفارص ابن زنا، وفارص من أجداد سليمان وداوود.

وشمشون الجبار نبي ورسول، ووالده نبي أيضاً، وهو

زان أثيم على رواية الكتاب المقدس في سفر القضاة الذي يقول:

«وكان رجل من صُرْعَةَ من عشيرة الدانيين اسمه منوح، وامرأته عاقر لم تلد، فتراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها: ها أنت عاقر لم تلدي ولكنك تحبلين وتلدين إبناً».

«وان الصبي يكون نذيراً لله من البطن، وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين».

و«صلى منوح إلى الرب وقال: أسألك يا سيدي أن يأتي أيضاًإلينا رجل الله الذي أرسلته، ويعلمنا ماذا نعمل للصبي الذي يولد، فسمع الله لصوت منوح فجاء ملاك الله أيضاًإلى المرأة وركضت وأخبرت رجلها وقالت له: هو ذا قد تراءى لي الرجل الذي جاء إليّ ذلك اليوم، فقام منوح وسار وراء امرأته وجاء إلى الرجل وقال له: أأنت الرجل الذي تكلم مع المرأة؟ فقال: أنا هو، فقال منوح: عند مجيء كلامك ماذا يكون حكم الصبي ومعاملته؟ فقال ملاك الرب لمنوح: من كل ما قلت للمرأة فلتحتفظ، إلخ».

و«ملاك الرب في لهيب المذبح ومنوح وامرأته ينظران، حينئذ عرف منوح أنه ملاك الرب».

و «ولدت المرأة ابناً ودعت اسمه شمشون، فكبر الصبي، وباركه الرب، وابتدأ روح الرب يحركه»[1].

---

(١) هذه الفقرات من الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة.

و «ذهب شمشون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها. . . فاضطجع شمشون إلى نصف الليل».

و «وكان بعد ذلك أن أحب امرأة في وادي سودق اسمها دليلة»[1].

وأسلمته دليلة إلى أعدائه، فقلعوا عينيه وصار يطحن في السجن.

فشمشون رسول، ومع هذا يزني.

وموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لم يسلم من طعنات الكتاب المقدس، مع أنه موصوف منه بأنه أعظم أنبياء بني إسرائيل، فسفر التثنية ـ أحد أسفار التوراة ـ يقول في وصفه (الاصحاح ٣٤ الفقرة١٠): «ولم يقم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه».

موسى عليه الصلاة والسلام لم يسلم من اليهود فقد طعنوه في إيمانه. وجعلوه خائناً، وها هوذا سفر التثنية ـ أحد أسفار التوراة ـ في الاصحاح الثاني والثلاثين ما نصه:

«وكلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم. . ومُتْ في الجبل الذي تصعد إليه وانضم إلى قومك كما مات أخوك هارون في جبل هور وضُمَّ إلى قومه، لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل. . . إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل».

(١) سفر الخروج، الإصحاح الثاني.

بل إن موسى طلب من ربه ألا يكلفه بالرسالة، ففي سفر الخروج ٤ : ١٣ ـ ١٤ : «استمع أيها السيد، أرسل بيد من تريد، فحمي غضب الرب على موسى».

وفي سفر العدد بالاصحاح العشرين بالفقرة ١٢ :

«قال الرب لموسى وهارون: من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل الخ».

وسبق أن ذكرنا ما ذكرته التوراة من أن هارون صنع لبني إسرائيل العجل الذهبي الذي عبدوه من دون الله حين ذهب موسى لميقات ربه.

فموسى وهارون خائنان، لا يقدسان ربهما، وما ثم جريمة في العقيدة الدينية أكبر ولا أفظع من خيانة الرسول لله الذي أرسله، وعدم تقديس ربه، بل ان التوراة تتهم هارون نبي الله ورسوله بأنه ارتد عن دينه الحق، وأحيا الوثنية، وصنع صنمًا، وأحل عبادة غير الله،وهذا كفر صريح.

هذا ما يقوله اليهود في كتابهم المقدس ويوافقهم عليهم النصارى، وكلهم يؤمنون به جدّ الإيمان، مع أن كل هذه التهم باطلة كاذبة.

أما ما يقول الاسلام في موسى وهارون فنقيض ما تقول اليهودية والنصرانية، وها هوذا القرآن الكريم يقول في سورة طه :

و﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

و﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾

فلا شيء مما اتهم كتاب اليهود النصارى موسى وهارون،

بل هو الكذب الصراح، فموسى لم يطلب إلى ربه أن يعفيه من الرسالة، ولم يخن موسى وهارون ربهما، وليس حقاً أنهما لم يقدسا الله، وإن هارون لم يرتد، بل ثبت على إيمانه، وثبت على دعوته وقام في وجه بني إسرائيل، وجبههم بعد النصح والعظة، وذكرهم بالله تذكيراً، وأعلن التوحيد الصحيح، وهاجم الوثنية،وحاربها.

وداود عليه السلام الذي يقدسه اليهود قد مرغوا سمعته في الوحل، واتهموه بأنه ارتكب جريمة الزنا، وقذفوا داود وبنيه ووصفوهم بأحط الصفات وأقذرها.

ولو حدث ما نسب إلى داود وبنيه من عامة الناس لاستبشع الناس، فكيف وما يحدث يقع ممن يحملون الرسالة ومن أولادهم؟.

يزعم الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى أن داود كان على سطح قصره فرأى امرأة جميلة رائعة الحسن تغتسل، وكانت زوجاً لأحد المؤمنين الصالحين المخلصين المجاهدين في سبيل الله حق الجهاد، فسأل عنها، فأخبروه، فبعث إليها، وأحضرها إلى قصره وكانت قد طهرت من حيضها، فزنا بها داود، وحملت منه سفاحاً، ولما ظهر حملها خافت الفضيحة، فأعلمت داود ليتلافاها.

ولم تعي داود الحيلة، فبعث إلى زوجها المجاهد الذي كان يجاهد في الميدان، وأحضره، وبعد سؤال وجواب، صرفه ليمضي إلى زوجه ويبيت لديها، ويحضر إليه في الصباح، ولكن الزوج

المجاهد لم يمض، بل قضى ليلة مع خدم داود، فلما علم داود بما صنع الزوج احتال حيلة أخرى فدعاه إلى طعام، وأسكره حتى المساء، ثم صرفه رجاء أن يمضي إلى منزله ويبيت مع زوجه، حتى ينسب إليه الحمل وتستر الفضيحة.

ولكن الزوج المجاهد أصر على موقفه، ولم يمض إلى زوجه، لأنه أبى أن يستمتع ويلذ والمجاهدون مشغولون بالقتال في سبيل الله.

ولم يعدم داود الحيلة فبعث رسالة إلى قائد قواته المحاربة، وأمره فيها أن يجعل الزوج المجاهد ـ واسمه أوريا الحثي في وجه الحرب، حتى إذا تقدم رجع عنه الجيش ليضرب ويموت، وحدث ما أمر به داود، فقد قتل أوريا شهيداً، وخلا له الجو، واستولى على امرأته، وضمها إلى نسائه، وولدت له من ذلك السفاح ولداً أحبه حباً عظيمًا، ولكن الله انتقم من داود بموت ثمرة زناه، وأوعده بأنه يجعل أحد أبنائه يزني بنسائه على مرأى من بني اسرائيل ونفذ الله وعيده، فزنا أبشالوم بن داود بنساء أبيه واحدة واحدة أمام عيون الشعب.

هذا ما يضفيه الكتاب المقدس على داود وأهله، وليكون القارىء على مزيد من العلم بما في الكتاب المقدس ننقل منه بأسلوبه ونصه حادثة داود وأسرته.

في سفر صموئيل الثاني أحد الأسفار المقدسة بكتابهم المقدس في الاصحاح الحادي عشر:

«كان في وقت المساء أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك ورأى من على السطح امرأة تستحم، كانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود، وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي؟.

«وأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها.

«وحبلت المرأة، فأرسلت، وأخبرت داود، وقالت: إني حبلى!.

«فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إليّ أوريا الحثى، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب، ونجاح الحرب.

«وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك، واغسل رجليك.

«فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟.

فقال أوريا لدواد: إن التابوب وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي لآكل وأشرب، وأضطجع مع امرأتي. وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر.

«فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضاً، وغداً أطلقك.

«فأقام أوريا في اورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود، وأكل أمامه وشرب، وأسكره، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل!.

«وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت.

«وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، وسقط بعض الشعب من عبيد داود،ومات أوريا الحثي أيضاً.

«فأرسل يوآب، وأخبر داود بجميع أمور الحرب، وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك: لماذا دنوتم من المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون من علا السور؟ من قتل أبيمالك ابن يَرُ بُّوشُتْ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من علا السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل: قد مات عبدك أوريا الحثي أيضاً!.

«فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب. وقال الرسول لداود : قد تجبر علينا القوم، وخرجوا إلينا

إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب، فرمى الرماة عبيدك من علا السور فمات البعض من عبيد الملك، ومات عبدك أوريا الحثي أيضاً!.

«فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب، لا يسؤ في عينيك هذا الأمر، لأن السيف يأكل هذا وذاك، شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده.

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة، وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عين الرب».

وتكملة هذه القصة بالاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني، وها نحن أولاء نورد منه الحوار الذي جرى بين ناثان النبي وداود:

«قال ناثان لداود: أنت هو الرجل؟ هكذا قال الرب إلّه إسرائيل: أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل، وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا، وإن كان ذلك قليلاً كنت أزيد لك كذا وكذا، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه؟ وقد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني عمون، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة هكذا قال الرب:

هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس، لأنك أنت فعلت بالسر، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس!.

«فقال داود لناثان: قد أخطأت إلى الرب!.

«فقال ناثان لداود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك، لا تموت، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت.

«وذهب ناثان إلى بيته.

«وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فثقِل، فسأل داود الله من أجل الصبي، وصام داود صوماً، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه فلم يشأ، ولم يأكل معهم خبزاً، وكان في اليوم السابع أن الولد مات، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات، لأنهم قالوا: هوذا لما كان الولد حياً كلمناه فلم يسمع لصوتنا، فكيف نقول له: قد مات الولد، يعمل أشر؟.

«ورأى داود عبيد يتناجون، ففطن داود أن الولد قد مات، فقال داود لعبيده، هل مات الولد؟ فقالوا: مات:

«فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه، ودخل بيت الرب وسجد، ثم جاء إلى بيته، وطلب فوضعوا له خبزاً

فأكل، فقال له عبيده: ما هذا الأمر الذي فعلت؟ لما كان الولد حياً صمت وبكيت، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزاً، فقال: لما كان الولد حياً صمت وبكيت، لأني قلت: من يعلم؟ ربما يرحمني الرب ويحيا الولد، والآن قد مات، فلماذا أصوم؟ هل أقدر أن أرده بعد؟ أنا ذاهب إليه، وأما هو فلا يرجع إلي!.

وعزى داود بتشبع امرأته، ودخل إليها، واضطجع معها، فولدت ابناً، فدعا اسمه سليمان، والرب أحبه».

وفي أسرة داود، في أولاده ما تثير منكراتهم البشعة الاشمئزاز، فهذا أمنون بن داود يزني بأخته من أبيه داود، واسمها «ثامار» بنت داود، وكان قد احتال على الخلوة بها بعد أن برح به الشوق إلى مضاجعة أخته.

وها هوذا سفر صموئيل الثاني يتحدث في الإصحاح الثالث عشر بما نصه:

«كان لأبشالوم بن داود اخت جميلة اسمها ثامار، فأحبها أمنون بن داود، وأحصر أمنون للسقم من أجل أخته ثامار لأنها كانت عذراء، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً، وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعي أخي داود، وكان يوناداب رجلاً حكيمًا جداً، فقال له: لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح؟ أما تخبرني؟.

«فقال له أمنون: «إني أحب ثامار اخت أبشالوم أخي.

«فقال يوناداب: اضطجع على سريرك وتمارض، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له: دع ثامار اختي فتأتي وتطعمني خبزاً، وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها.

«فاضطجع أمنون وتمارض، فجاء الملك ليراه، فقال أمنون للملك: دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين، فآكل من يدها.

«فأرسل داود ثامار إلى البيت قائلاً: اذهبي إلى بيت أمنون أخيك، واعملي له طعاماً.

«فذهبت إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع، وأخذت العجين وعجنت، وعملت كعكاً أمامه، وخبزت الكعك، وأخذت المقلاة، وسكبت أمامه، فأبى أن يأكل، وقال أمنون: اخرجوا كل إنسان عني، فخرج كل أنسان عنه، ثم قال أمنون لثامار: إيتي بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك.

«فأخذت ثامار الكعك الذي عملته، وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع، وقدمت له ليأكل، فأمسكها وقال لها: تعالي اضطجعي معي يا أختي، فقالت له: لا، يا أخي لا تذلني، لا يفعل هكذا في إسرائيل، لا تعمل هذه القباحة، أما أنا فأين أذهب بعاري، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل، والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك.

فلم يشأ أن يسمع لصوتها، بل تمكن منها، وقهرها،

واضطجع معها، ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة».

وأما داود فكل ما عمل هو ما يقول سفر صموئيل في آخر الاصحاح الثالث عشر نفسه: «ولما سمع الملك داود بجميع هذه الأمور اغتاظ جداً».

الاغتياظ وحده، ولا شيء مما حمل أبشالوم أن يقتل أمنون، ولكن بعد سنتين، وأبشالوم هذا هو الذي حدث بينه وبين أبيه داود خلاف أدى به إلى ادعاء الملك، حتى هرب داود من وجهه خوفاً، وترك قصره وفيه عشر من سراريه لحفظه.

وفي آخر الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين هذه الفقرة:

«نصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل».

ولكن أبشالوم قتل بعد ذلك في الحرب بينه وبين أبيه، فكان أبوه داود يقول سائلاً: «أسلام للفتى أبشالوم؟[1]» فلما علم أنه قتل أخذ يصيح: «ابني أبشالوم! يا ابني! يا ابني أبشالوم! يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم! ابني. يا ابني».

الحق، ان كل ما نسب إلى داود وبعض اولاده يثير مع الغضب الاشمئزاز، ولم يكن داود وحده موضع السخط والاشمئزاز من الناس في جميع الأزمان ممن اطلعوا على هذه المفاسد

(١) سفر صموئيل الثاني١٨ : ٢٣ و١٩ : ٤.

التي صدرت منه، بل الله جل جلاله وعلاه وعز ذكره عرضه الكتاب المقدس لاستنكار حكمه، فداود زنا، وقتل زوج المرأة التي زنا بها، وحبلها سفاحاً، وزنا داود استوجب غضب الله، لأنه ارتكب ما حرم الله، فيعاقبه الله بفعلة من جنس فعله، بل على أبشع وأقذر.

فداود زنا ،فحكم الله عليه أن يزني ابنه بنسائه، وزنا المحارم أشد وأبغض إلى الله.

وداود زنا سراً، وحكم الله عليه أن يزني ابنه بنسائه جهراً ونهاراً وأمام عيون الشعب في الخيمة المنصوبة على السطح.

هذا ما يقرره الكتاب المقدس، وسؤال الناس: إذا كان مثل هذه المنكرات البشعة القذرة العفنة تحدث عن الأنبياء والمرسلين وأولادهم فما تكون عامة الناس؟ كيف ينفذ شريعة التوراة المنوط به حفظها وتنفيذها على الناس وهو ملوث بالموبقة النكراء؟ وكيف يعبد الناس رباً يعاقب على الزنا العادي بزنا غاية في البشاعة والنكر؟.

وتعالى الله علواً كبيراً من أن يعاقب على الزنا بزنا أشد وأوبق وأبغض، مع أن التوراة نفسها نصت على حد الزنا العادي والزنا بالمحارم نصاً، فيكف يغفل الله هذه العقوبة عن داود بعد أن بعث إليه النبي ناثان؟ لماذا لم يأمر ناثان بإقامة الحد على داود؟ .

ولماذا لم ينفذ داود حد الزنا بابنه أمنون؟ .

إن عقوبة داود كما تنص التوراة القتل، وها هوذا سفر التثنية ٢٢ : ٢٢ يقول: «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان: الرجل المضطجع مع المرأة، والمرأةُ، فتنزع الشر من إسرائيل».

وفي سفر اللاويين ٢٠ : ١٠ - ١٢ : «وإذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزاني والزانية، وإذا اضطجع مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه، إنهما يقتلان كلاهما، دمهما عليهما، وإذا اضطجع رجل مع كنته فإنهما يقتلان كلاهما، قد فعلا فاحشة، دمهما عليهما».

وفي سفر اللاويين ٢٠ : ١٧ - ١٨ : «إذا أخذ رجل أخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت هي عورته فذلك عار، يقطعان أمام أعين بني شعبيهما، قد كشف أخته يحمل ذنبه».

وفي سفر اللاويين ١٨ : ٦ - ١٢ :

«لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة.
«عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف.
«إنها أمك لا تكشف عورتها.
«عورة امرأة أبيك لا تكشف، إنها عورة أبيك.
«عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها.
«عورة ابنة ابنك أو ابنة بنتك لا تكشف عورتها، إنها عورتك.

«عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها، إنها أختك.

«عورة أخت أبيك لا تكشف، إنها قريبة أبيك» إلخ.

وفي سفر التثنية ٢٧ : ٢٠ و٢٢ :

«ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه لأنه يكشف ذيل أبيه».

«وملعون من يضطجع مع أخته أو بنت أمه».

هذه الحدود واضحة، ومع هذا لا يقيمها الأنبياء والرسل، وكيف تكون العقيدة الدينية عقيدة وشرعها لا ينفذه من جاء إليه وأمر بحفظه وتنفيذه؟.

إن هؤلاء إما أن يكونوا غير أنبياء ولا مرسلين، لأن رؤية النبوة والرسالة معصومة عن أيسر من هذه الآثام الحاطمة، فهم غير أنبياء ولا رسل لأنهم زناة أو فجرة فسقة، ومعاذ الله أن يكون أنبياؤه ورسله فسقة، وأما أن يكونوا أنبياء حقاً، ورسلاً صدقاً، فيرد كل ما نسب إليهم إلى من نسجوا هذه الأكاذيب.

وداود نبي الله حقاً، ورسوله صدقاً، فهو معصوم كل العصمة عما قذف به من الزنا بامرأة اوريا الحثي، والاسلام يبرئه من هذه التهمة، ويثبت له العصمة، ويشهد له بالنزاهة والتمام في خلائقه وصفاته.

يقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ

أوَّابٌ ﴾ ص : ١٧

و ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لله الذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النمل: ١٥

و ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص: ٣٠

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ سبأ: ١١

ولم يكف الكتاب المقدس طعن داود وبعض أولاده ابنته ثامار وابنيه أمنون وأبشالوم ونسائه حتى أضاف هذا الكتاب طعن سليمان بن داود طعنات نجلاء في الصميم ، فقد طعن أم سليمان إذ جعلها زانية وجعلها تحمل سفاحاً وطعن أباه في اقتراف الزنا مع أمه .

وبعد هذا كله تجعله مرتداً، وهذا سفر الملوك الأول في الاصحاح الحادي عشر يقول:

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمئة من النساء السيدات، وثلاثمئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه.

«وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين.

«وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتي كنَّ يوقدن ويذبحن لآلهتهن

فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان: من أجل ذلك عندك ولم تحفظ لعبدك، وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً، وأعطيها لعبدك، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل أبيك، بل من يد ابنك أمزقها».

وسليمان نبي، ولا يكون النبي نبياً إلا إذا كان موحداً مؤمناً بالله وحده، كافراً بكل ما عداه من الآلهة المتخذة من عبادها الكافرين، ومع ذلك يمحقه الكتاب المقدس محقاً، فيتهمه بعصيان الله جهراً من أجل شهواته، من أجل نسائه، فيبني المرتفعات للأصنام، ويتبع آلهة أخرى إرضاء لأزواجه، ويتهمه بالكفر.

وليس أبشع ولا أشر من اتهام النبي بمعصية الله ورده أمره وإعلان الكفر، ولا يقبل عقلاً ولا ديناً أن يكون الأنبياء والمرسلون كما تصف التوراة وأسفارهم المقدسة، لأن ما يصفهم به الكتاب المقدس يناقض ما اختارهم الله له من الرسالة والنبوة، وهؤلاء

المختارون إنما اختيروا لأنهم المثل الأعلى للبشر في الخلائق والصفات والأعمال الصالحة.

ومن الغريب أن أسفار اليهود تنسب إلى الله عز وجل ما لو نسب إلى مخلوق لحط من كرامته وشأنه، ولاشمأز منه الناس.

فالنبي هوشع يأمره الله بأن يتخذ زانية ويصاحب حبيبة صاحب، وها هوذا سفر هوشع ـ أحد الأسفار المقدسة ـ يقول في الإصحاح الأول في الفقرة الثانية وما بعدها:

«أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب، خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت، تاركة الرب، فذهب وأخذ جومر بنت دبْلاَيمَ، فحبلت، وولدت له ابناً، فقال له الرب: ادع اسمه يَزْرَعيلَ...

«ثم حبلت أيضاً وولدت له بنتاً، فقال له الرب: ادع اسمها لورحامة..

ثم فطمت لورحامة، وحبلت فولدت ابناً، فقال: ادع اسمه لوعَمِّي».

وفي الإصحاح الثالث، يقول هوشع:

«قال الرب لي: اذهب أيضاً، احبب امرأة حبيبة صاحب، وزانية، كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى».

وماذا يبقى من شرائع الأخلاق وآداب السلوك وفضائل المجتمع وذخر الفرد والجماعة إذا كان الله يأمر باتخاذ ما ينقض الأخلاق والآداب ويحطم الفضائل. وإذا كان من وكل إليهم

هداية البشر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر يقارفون أشدَّ الموبقات والعهر والفجور نتناً؟

إذا كان الله يأمر أحد أنبيائه ـ وهو هوشع ـ بأن يأخذ زانية، ويعاقب داود على زناه بأجنبية بزنا ابنه بنسائه، فماذا يبقى للفاجرين والزناة من عامة الناس؟!.

تعالى الله عما يصف كتاب اليهود الله علواً كبيراً.

ومحال على الأنبياء والمرسلين ما يصفهم به الكتاب المقدس، ولا يمكن أن يختار الله أحداً من خلقه للنبوة أو الرسالة إلا وهو في أعلى مراتب الكمال الإنساني.

وكل ما جاء في الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى من وصف الأنبياء والمرسلين بما لا يليق من الصفات إنما هو كذب محض.

والشيء الذي يجدر بالوقوف عنده ولوع هذا الكتاب المقدس بالزنا والخمر والحيل والخداع والكذب وهتك الأعراض وزنا المحارم في بيئة الرسل والأنبياء وأسرهم.

ولا شك أن ما يوجه اليهود إلى أنبيائهم ورسلهم من تهمة هتك الأعراض والزنا والقتل إنما هو انعكاس صحيح صادق لما يعيش فيه اليهود من السفالة، فهم مولعون بزنا الأباعد والأقارب والمحارم، وليجعلوا منكراتهم وموبقاتهم سائغة غير مستنكرة اتهموا أفضل الخلق وهم الرسل بما اتهموهم به من الفسق والفجور، حتى يكون لهم العذر في سفالاتهم.

فإذا كان أفضل الخلق طراً وهم الأنبياء والرسل زناة وقتلة

وكذابين فلا لوم على الناس إذا سلكـوا مسلكهم وتخلقوا بأخلاقهم.

والإسلام ينزه الرسل والأنبياء من كل عيب ونقص، ويثبت لهم العصمة، وكل من طعنهم الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى نزههم القرآن الكريم منه، وهذا هو الفارق بين الإسلام واليهودية والنصرانية، فالاسلام دين سمح نظيف، الله عنده كامل كمالاً مطلقاً، والرسل والأنبياء معصومون وفي أعلى مراتب الكمال الإنساني.

والإسلام - أدباً وسلوكاً وشريعة وعقيدة - الدين الوحيد الذي تنزه عن كل ما يعيب، وغيره من الأديان لا يرقى إلى مرتبة الدين الحق، لأن الدين الحق، قائم على الإيمان بوحدانية الله وكماله المطلق، والإيمان برسله وكمالهم الإنساني، وبالكتب السماوية، وبالقدر خيره وشره، وبالبعث، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وميزة الإسلام على جميع الأديان التي تصورها مصادرها تنزيه الله، ووصفه بالكمال المطلق في ذاته وأقواله وأفعاله، وتوحيده، وإثبات الألوهية له وحده دون سواه، والكفر بالآلهة المخترعة، والأصنام المصنوعة.

فالله عز وجل في الإسلام ليس الله في اليهودية والنصرانية وفي سائر الأديان غير السماوية، لأن ذات الله وصفاته وأقواله وأفعاله في الإسلام تتفق مع كماله المطلق.

ولهذا يرد الإسلام كل صفة لا تتفق مع كمال الله وجلاله،

ولا يقبل ما نسب إلى الله عز وجل في قصة داود وسليمان وهوشع وغيرهم مما ازدحم بأساطيرهم وحكاياتهم الكتاب المقدس، لأنه مناقض لكمال الله وجلاله.

والنبوة في الإسلام هداية وكمال إنساني وتهذيب وطهر وفضيلة وقداسة وخير وعصمة من الكبائر والخطل والزلل.

ولهذا يكفر الإسلام كل من اتهم رسولاً أو نبياً بالزنا كما في حادثة داود أو الردة كما في قصة سليمان، لأن الإسلام نفسه دين تهذيب وفضيلة وخير وجمال.

ولم يؤثر عن الإسلام قط أنه اتهم رسولاً أو نبياً، أو نسب إلى الله ما يخل بكماله مثل الأمر الذي أصدره على هوشع، والذي أثر عنه في كل أموره متفق مع كمال الله وجلاله، ومع الخير والحق والفضيلة والكمال.

الفلسفة في اليهودية

التشريد الذي حل باليهود في فترات مختلفة أدى إلى تأثر المشردين والمنفيين بما لدى الأمم والشعوب التي عاشوا فيها، ولقد انتقلوا من المرحلة الطويلة التي قضوها في الزراعة إلى التجارة ابان الأسر البابلي، إذ تعلموها من البابليين.

وكان للتشريد الذي أصاب اليهود فضل في رقيهم العقلي والحضاري بعد البداوة والهمجية، وكانت المصائب من أسباب وحدتهم القومية، وتقدمهم الفكري، بل إن بعض التطور الذي مس عقائدهم كان وافراً من الأمم التي عاشوا فيها.

ولعل أكبر تطور ملحوظ في اليهودية من ناحية الثقافة والفكر والعقيدة واستقرار عدد كبير من اليهود في الاسكندرية، اضطبغوا بصبغتها اليونانية، في حين أن اليهود الذين بقوا في فلسطين كانوا محافظين على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

ونسي اليهود الذين استوطنوا الاسكندرية لغتهم العبرية، وتعذر عليهم قراءة كتبهم المقدسة، واضطروا إلى ترجمتها فكان ما يسمى «الترجمة السبعينية» وهي ترجمة الأسفار المقدسة إلى اللغة

اليونانية حتى يستطيع يهود الاسكندرية الذين يجهلون العبرية أن يقرأوا أسفارهم باللغة التي يعرفونها، وهي اليونانية.

ونُسِجَتْ أساطير حول الترجمة السبعينية، وقيل: إن النسبة إلى السبعين كانت بسبب قيام سبعين مترجماً بترجمة الكتاب المقدس، وكان كل منهم يترجم على انفراد، فلما انتهى كل من السبعين من ترجمته، وعرض على الجميع ما ترجموا كانت جميعها ترجمة واحدة، إذ كان نص الترجمة لدى السبعين واحداً، لا خلاف في حرف بينها وبينهم، ويعزى سبب وحدة الترجمة إلى الوحي الالهي.

وهذا ـ ولا شك ـ أسطورة، ومع أنهم ادعوا لهذه الترجمة ما ادعوا من كمال فإن الباحثين قرروا أن عيوب الترجمة هذه كانت كبيرة لذلك لم تبق مرجعاً لليهود بالإسكندرية إلا زمناً يسيراً، ثم عادوا إلى النص العبري، لأنهم وجدوه أسلم.

والذي يهم في هذه الترجمة أن يهود الاسكندرية اتخذوا اليونانية، اتخذوا لغتها وفلسفتها وأفكارها وطرقها في البحث مما كان له فضل التطور في الفكر اليهودي.

وإذا كان هذا الذي حدث في أواخر القرن الذي سبق ميلاد المسيح وبعده بعقود من السنين فإنّ ترجمة الاسفار الخمسة المعروفة بالتوراة إلى اليونانية كانت أسبق من الترجمة السبعينية، إذ ترجمت في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وخلال فترة الترجمة السبعينية كان الفكر اليهودي

بالاسكندرية مستعداً لقبول ما في الفلسفة اليونانية التي كانت شائعة في ربوعها، وكان عشاقها معنيين بها كل العناية، لأنهم وجدوا في إنتاج فلاسفة اليونان ما يطفيء ظمأهم إلى المعرفة، ويجيبهم على الأسئلة الكثيرة التي تصدر من الفكر الواعي الطليق.

فأثر الفلسفة اليونانية في يهود الاسكندرية واضح شديد الوضوح، حتى كانوا في هذا العصر أبرز اليهود في ميدان العلم والفلسفة والبحث هم يهود الاسكندرية دون سائر اليهود في غيرها.

وليهود الاسكندرية وحدهم فضل السبق في تحويل الفكر اليهودي إلى وجهةجديدة لم يكن يعرفها من قبل، فقد وقف يهود الاسكندرية على الفلسفة اليونانية وثقافة اليونان وآراء الفلاسفة ونظرياتهم في الشريعة والمعجزة والله والوجود وفي الموجودات وفي الحياة وفي كل ما له صلة بالعقيدة الدينية.

وبلغ من قدرهم الفلسفة اليونانية أنهم كانوا يتلون التوراة في ترجمتها اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية التي رفعوها في التجلة والقداسة إلى مرتبة الأصل.

وتأثير الفلسفة اليونانية في الفكر اليهودي كان ذا حدين، حد خرج بأصحابه عن الدين إلى الكفر والإلحاد، فكفروا بالشريعة، وأعرضوا عن الله، وسبب ذلك السفسطة اليونانية التي أضلتهم، وقد اتفق مع الدين لأنّ أصحاب هذا الاتجاه كانوا فاهمين ما في الفلسفة اليونانية من ضلال ووثنية لا يتفقان مع عقيدة التوحيد في كل أركانها أو لا يتفقان مع ما يعتقدون، وكانوا فاهمين أن فيها ما يعين على الكشف عن أسرار الشريعة وعظمة العقيدة،

فسلموا من الضلال وأخذوا بالهدى، فكان لهم أثر عظيم في تثبيت قواعد اليهودية ودفعها لمسايرة الزمن.

والفرقة التي وقعت بين اليهود دفعت المخلصين للعقيدة أن يحموها ويشرحوها بحيث لا تناقضها الفلسفة بل تقربها إلى العقل، فألفوا كتبا ذات قيمة كبيرة في مجال هذه العقيدة، ومن الخسارة ضياع أكثرها، وما بقي كافٍ للدليل على نشاط اليهود في هذا العصر.

وأبرز فلاسفتهم الألى نهضوا للتوفيق بين الدين والعلم أوبين العقيدة والفلسفة فيلون الإسكندري الذي ولد في سنة **٢٠** أو **٣٠ق**.م وتوفي حوالي السنة الخمسين بعد الميلاد، وكان ككثير غيره من مفكري اليهود الإسكندريين لا يعرف العبرية، فكان يكتب ويدرس باللغة اليونانية الشائعة بين يهود الإسكندرية الذين حملوا مشعل الثقافة اليهودية في العالم في ذلك الزمن فكانوا رسلها الواقفين على أسرار الفلسفة اليونانية.

ومع بروز يهود الإسكندرية في العلم والثقافة والفلسفة والغنى كانوا غير راضين عن الحاكم الروماني لسوء معاملته ليهود مصر عامة ويهود الإسكندرية بخاصة، مما اضطر وفداً يهودياًعلى رأسه فيلون الفيلسوف الحكيم للسفر إلى روما رجاء تغيير الحاكم أو تعديل سياسته.

ويظهر أن فيلون كان إنساناً مهيباً مقدور المكانة لما امتاز به من عفة وتدين وعلم واسع في الدين والفلسفة، وكان واقفا على العهد القديم وشرحه باليونانية.

وكان فيلون مخلصاً لعقيدته وديانته ويراهما خيراً من الفلسفة

اليونانية، بل يرجحان عليها، وأخذ يبين لليونانيين أن في التوراة فلسفة أعظم من فلسفتهم وأسبق منها، مع اعترافه لفلاسفة اليونانية بالعبقرية والابتكار.

وكان لآرائه وآراء أمثاله من مفكري اليهود أثر عظيم لدى اليونانيين الذين اتجهوا لدراسة التوراة والأخذ منها، ولما قامت المسيحية على أساس الموسوية كان مفكروها ـ بعد عصر فيلون ـ يأخذون من التوراة مع وجود العداء بين اليهود والمسيحيين.

ولا يرى فيلون فاصلاً بين الدين والفلسفة، بل يفرض الاستعانة بها لشرح مقاصد الدين لأنه الأصل، فهو يتخذ الفلسفة وسيلة لشرح الدين والعقيدة والشريعة وتقريبها إلى الأذهان، مقيماً بعمله الدليل على وجود الألفة بين الدين والفلسفة.

والشيء الذي امتاز به مثقفو يهود الإسكندرية وعلى رأسهم فيلون أنهم نقلوا الواقع إلى منطقة الوهم أو الخيال، فقد تولوا شرح التوراة شرحاً رمزياً، وأولوا المعاني تأويلاً لا تحتمله الألفاظ، وفسروا النصوص بوساطة الرمز تفسيراً يبعد بها عن مدلولات الكلمات.

وأول ما صنع فيلون أن تناول التوراة على أساس الرمز، فهي في جملتها ـ في نظره ـ قصة اليهود وتاريخ حياتهم وترجمة عقيدتهم، وهي أمينة في سرد ذلك، تذكر ما كانوا فيه من خير ونعمة بسط الله ظلهما عليهم مثوبة لهم على الطاعة والرضا والعمل الصالح، وما مرَّ عليهم من المصائب والمحن والخطوب نجمت عن ابتعادهم عن الله فكان ما أصيبوا به عقوبة عادلة.

وهذه القصة التي تدل عليها كلمات التوراة وعباراتها إن

هي الا قصة النفس مع خالقها، فهي تنعم في رضاه كلما عملت ما يقتضيه من البر والخير فتقرب منه، وما يكونان إلّا حيث يكون التنزه من الشر الذي ينجم من الاستجابة للشهوة، وتنقلب النجمة نقمة عندما يلبون نداء الشهوة فيبعدهم الله عن نفسه لأن الأشرار لا يمكن أن يكونوا قريبين منه.

وتناول فيلون بالتأويل ما رآه أداة توفيق وجوازاً له إلى العقل، ففسر سفر التكوين الذي هو فاتحة كتب العهد القديم (التوراة) تفسيراً أشبه بتفسير من يعبرون الرؤى والأحلام لأنه يقوم على الرمز والتأويل وتحميل اللفظ من المعنى ما لا يحتمله.

وأول ما يصادف القارىء في سفر التكوين قوله: «في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الله ظلمة، وروح الله يرف على المياه، وقال الله: ليكن نور، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة».

فهنا الكلمة التي خلقت بأمر الله، وقد وقف عندها فيلون طويلاً، فالكلمة في الفلسفة اليهودية القديمة معناها «كلمة الله» التي كان من آثارها الخلق، وهذا يتفق مع الإسلام إذ جاء في القرآن الكريم: ﴿ وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ولم يكتف فيلون بما جاء في تفسير «الكلمة» بالفلسفة اليهودية القديمة لأنه اطلع على مفهومها في الفلسفة اليونانية وبخاصة الرواقيين.

فالكلمة التي يعبر عنها باللوجوس عند الرواقيين هي «العقل الكلي» والنفس الإنسانية وكل شيء جزء من الكلمة التي هي في حقيقتها الله والطبيعة، وما ذهب الرواقيون هذا المذهب إلا ليحكموا مذهب «وحدة الوجود» إحكاماً لأنهم يقولون به ويعتقدونه.

وبعد أن عرف فلاسفة اليهود الفلسفة اليونانية تغير مفهوم «الكلمة» عندهم، فلم تعد «كلمة الله» التي كان من آثارها الخلق وحسب، بل أخذت تؤدي معنى جديداً هو «العقل الإلٓهي» ووصفوها «بأنها تحفظ الكون وتدبره وتصرف أموره»، وهي مصدر الوحي والنبوة والشرائع.

وهناك وجه شبه بين الفلسفة اليهودية والفلسفة اليونانية في فهم «الكلمة» ففلاسفة اليهود لا يفرقون بين الحكمة بمعنى العقل والعلم وبين الكلمة بمعنى اللفظ[1].

وفيلون يحاول التوفيق بين معنى «الكلمة» في اليهودية ومعناها عند الرواقيين ويدخل إليهما عنصراً ثالثاً استمده من الفلسفة الأفلاطونية، فيسمي الكلمة «البرزخ» بين الله والعالم، ويسميها ابن الله الأول، والصورة الإلٓهية، وحقيقة الحقائق إلخ[1].

---

(١) راجع مجلة كلية الآداب بالقاهرة، المجلد الثاني، الجزء الأول مايو ١٩٣٤ مقال الدكتور أبي العلاء عفيفي وعنوانه «نظريات الإسلاميين في الكلمة».

ولكن فيلون يختلف مع الرواقية في مذهبهم وحدة الوجود ولا يوافقهم عليه بل ينقضها لأن الله عز وجل غير خلقه، ولا صلة بينهما إلا بوساطة الكلمة أو بوسيلة العقل.

والوساطات عند فيلون ليست وقفاً على الكلمة وإن كانت الأولى، فالكلمة ابن الله من غير أن يكون مولوداً منه، وابن الله نموذج العالم، وبعده الحكمة، ثم آدم الأول، فالملائكة، فنفَس الله، ثم تأتي بعد كل هؤلاء الوساطات القوى المنفذة للأوامر الإلّهية، وذكر من هذه القوى ـ وهي كثيرة ـ بعض صنوفها كالملائكة والجن، والجن قسمان: قسم هوائي وآخر ناري.

وكما أن الله خلق بالكلمة، فإن الله يجيب دعوة الداعي بها، وموسى نفسه كلمة من كلمات الله، وقد استجاب الله دعاءه الذي كان كلمة، وهي أداة معرفة الخلق للخالق، وهي ـ أحياناً ـ ملاك الله الذي ظهر للآباء وأعلن لهم أوامره كما تذكر التوراة.

ولا شك عند فيلون أن الله واحد أحد، وهو بقدرته خيِّر وحاكم، فبالخير أبدع العالم، واتخذ الحكم لتدبير هذا العالم، وهناك ملتقى لهاتين القدرتين ألا وهو الكلمة، لأن الله بوساطة الكلمة يعطي ويدبر، والكلمة كانت في عقل الله ابتداء قبل جميع الأشياء، وهي متجلية في جميع الأشياء، وصارت أداة الخلق، فهي الوسيط بين الله والعالم.

وهو إذ يدعي أن الكلمة ابن الله يزعم أن الصلة بينهما مثل

صلة العقل بأفكاره، وكما أن العقل يلد أفكاره فإن الله ولد الكلمة، ولكن لا تعتبر الكلمة غير مولودة مثل الله الذي لم يولد، ولا تعتبر مولودة مثل البشر الذين يولدون.

وفي بعض آرائه تناقض، فبعضها ينقض بعضاً، ولكن ينزه الله حق التنزيه من صفات التشبيه والتجسيم التي تصفه بها التوراة، بل ذهب في التنزيه إلى حد أن ذكر أن العقل البشري لن يقدر على التحقق والتثبت من صفات الله، وكل ما يقدر عليه هو الإيمان بأنها صفات حقة موجودة، ووجودها الكامل المطلق بعد الإيمان به أعظم من أن ترقى العقول لإدراك كنهه وأكبر من أن تحده صنعة تخضع لإدراك العقول ومعرفتها على حقيقتها، لأن معرفة الإنسان قائمة على تصور يتفق مع مألوفه.

ويذهب فيلون إلى أن معرفة الله ليست متساوية بين البشر، بل هي درجات أربع، الأولى: معرفة جد ناقصة ومحدودة، والأغلب أصحاب هذه المعرفة ولا يتجاوزون حدودها. لأنها معرفة مكتسبة عن طريق الحس والنظر في خلق الله.

الثانية: معرفة ترقى درجات الوسطاء، وعندما تطهر النفس تبدأ في ترقي هذه الدرجات، ويبدأ التطهير والصعود عندما يعلم الانسان أن ما يحسه هو باطل يزول.

والثالثة: إدراك الكلمة وهي الوسيط الأعظم.

والرابعة: إدراك الله نفسه، وهي خصيصة لذوي المرتبة العليا من الكمال من أمثال موسى.

وغاية النفس الوصول إلى الله وإدراكه، وما دامت النفوس ليست سواء فالإدراك مختلف فيما بينها.

وكما أن لمعرفة الله أربع درجات فإن هناك تفاوتا في معرفة ما جاء في كتب الأنبياء التي وجد فيها صوراً حسية للصلة بين الله وخلقه، ولا يمكن قيام هذه الصلة على أساس الصور الحسية، كما وجد فيها صفات الله وحوادث وأخبار عنه تقوم على التشبيه والتجسيم، ولا يسعه تكذيب الأنبياء لأنهم صادقون، ولا رد ما يروونه عن الله لأنه وحي أوحى إليهم به، ـ والحالة هذه ـ يقبل ما جاء في تلك الكتب على سبيل المجاز، ويتخذ الرمز والتأويل، لأن النصوص ليست حبيسة الحروف والكلمات، والنصوص في حقيقتها المتجلية في اتخاذ المجاز والرمز والتأويل وسيلة للفهم والتفسير أبعد عمقاً من الوقوف أمام ظواهر الكلمات والاكتفاء بمعانيها في المعجمات.

فتحريم الحيوان النجس يرمز إلى وجوب قهر الشهوة الممقوتة، وقابيل الذي قتل هابيل رمز للكبرياء.

ومن هذا القبيل تفسير ما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين على طريقة فيلون حيث اتخذها يهود الاسكندرية، فزعموا أن الله خلق عقلاً خالصاً في عالم المثل هو الإنسان المعقول، ثم أوجد على مثاله عقلاً أقرب إلى الأرض هو «آدم» أبو البشر، ومنحه الحس وهو «حواء» حتى يلتئم العقل والحس، وتولد من اجتماعهما الرغبة فانقاد العقل لإغراء الحس ونشدا اللذة المشتركة التي تتمثل

في «الحية» المرسومة لحواء، فولدت النفس الكبرياء والآثام والشرور التي يرمز إليها «قابيل» وامحى منها الخير وهو «هابيل».

ومن أمثال هذه التأويلات: أن اقتران إبراهيم بسارة إنما هو رمز لاتحاد الإنسان الصالح بالفضيلة، ومجاوزة بني إسرائيل البحر رمز لخروج النفس من الحياة الحسية.

وهو تأويل يشبهه تأويل الباطنية في الإسلام وإن كانت في الحقيقة من غيره.

إلا أن فيلون لا يتخذ سبيل المجاز والرمز والتأويل بدون ضابط، بل يقف فيه عند حد، ويقيد نفسه بنصوص الكتاب المقدس ونصوص الشريعة ويقبل المعنى الحرفي، ويحمله على هذا إيمانه الوثيق بالله وبملائكته وكتبه ورسله، ويستعين بالفلسفة بقدر في شرح النصوص الدينية.

واستعان الفلسفة اليونانية في فهمه لله عز وجل، ولكن اختلف معها فيما هدته إليه بصيرته الدينية، فهو قد تضيَّف الرواقية والرواقيين ولكنه أنكر مذهبهم في وحدة الوجود، ولكن تصوره للوجود ظاهر في رأي الفلسفة اليهودية ورأى الفلسفة اليونانية التي أخذ منها بقدر ما يحتاج إليه المؤمن.

ففيلون ناقض أرسطو في زعمه قدم العالم وقدم الحركة[1]، وزعمه أن كمال الله يفرض علينا تجريده من العمل للخلق، ورد

(١) راجع كتاب «السماع الطبيعي» لأرسطو.

عليه بأن بعضهم يذهب إلى قدم العالم بغير بداية، وأنه ليعجب من هؤلاء الذين يجد إعجابهم بالعالم يفوق إعجابهم بصانع العالم، ويتخذ في رده على أرسطو منطقا يصدر من العقيدة الدينية كأن يقول: «إن من يزعمون أن العالم بلا بداية لا يعلمون أنهم بهذا الزعم يهدمون أهم ركن من أركان الدين وهو الإيمان بعناية الله، والعقل نفسه ينبئنا أن الأب الخالق يعنى بخلقه».

وهو على نقيض القديس يوسف المسيحي توما الإكويني الذي اتخذ الفلسفة في الرد على الفلاسفة فيما اختلف فيه معهم مما يتعلق بالنظريات التي اشترك الدين والفلسفة فيها.

ويعد فيلون أكبر فلاسفة اليهود في العصر القديم، ونقصد الفلاسفة الذين عنوا بالدين وبالكتاب والعقيدة والشريعة، وإلا فمن اليهود فلاسفة كثر في القديم والحديث.

وفي كثير مما كتب فيلون يبدو الاضطراب والتناقض، ويصفه «ألبير ديفو» أستاذ الفلسفة بجامعة باريس في كتابه «الفلسفة اليونانية، أصولها وتطوراتها[1]» بقوله: «إن هذا اللاهوت الغامض لا ينجلي إلا رويداً رويداً، وإنه لمن المحال أن تكون أقوال «فيلون» هذه مذهبا منسجمًا، ذلك أنها زئبقية لا ثبات لها ولا استقرار، على ما فيها من جفاء وجدب، وعلى الخصوص مسألة اللوغوس التي تظهر في مجموعة من المناظر المختلفة التي

(١) ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود وأبو بكر زكرى، ص ٢٦٠

تتعارض مع عقلنا، فتارة تبدو وكأنها شخصية متمايزة وكـ«ابن الله» وتارة تبدو كأنها مجموعة من العقول الخاصة، وتارة تنطبق على الحكمة الإلهية التي تفيض عنه، وأيضاً مسألة الله عند «فيلون» فهو مرة يصوره لنا مساوياً للمبدأ الخالد الذي لا يدنو منه شيء ولا يحاكيه في علمه شيء، ومرة يصوره لنا مساوياً للرحمة السامية، وأخرى مساوياً للخالق اللامتناهي القدرة، إنها أقوال مجردة من كل نظرة شاملة ومن كل تلخيص محدد، إنها آراء متوالية مفككة تثير الضجر، يتخللها بين الحين والحين برق خاطف من العاطفة والتقوى».

وفي كلام ألبير ريفو مغالاة في النقد، وفيه ما لا يتفق مع الحجة، ويظهر أن ريفو فاته مقصدفيلون في بعض ارائه، فريفو يزعم أن فيلون يصور الله مساويا للخالق اللامتناهي القدرة مع أن الله هو نفسه الخالق كما يفهمه فيلون، وريفو يجعل فيلون يتصور الله غير الخالق وهو محال من فيلون.

وعلى أي حال يعد فيلون أول فيلسوف يهودي حاول التقريب حسب فهمه بين الدين والعلم، والعقيدة والفلسفة، والرد على الدهرية الذين زعموا قدم العالم، وفي بحوثه آراء جديرة بالاحترام.

وجاء فلاسفة آخرون من اليهود بحثوا في التوراة والشريعة والدين والعقيدة وحاولوا أن يسايروا عصورهم ليثبتوا صلاح دينهم لها فاتخذوا مبدأ الرمز والتأويل في الشرح والتفسير، ولا بد في

الديانات من التأويل تخلصا من مدلول النص الحرفي إذا كان ظاهره يناقض جوهر العقيدة وأركان الدين، وهذا ليس عاماً ولكنه فيما أشرنا إليه.

ومن أكبر فلاسفة اليهود الذين عنوا بهذه الناحية وبغيرها موسى بن ميمون الطبيب المشهور بالاندلس (٥٢٩-٦٠١هـ ١١٣٥ - ١٢٠٤م) فقد تناول الديانة اليهودية والعقيدة وكثيراً من مسائلها وبخاصة ذات الله وصفاته وشرحها، وفي بعض آرائه أثر لثقافته الإسلامية وإيمانه بالخالق على نهج العقيدة الصحيحة مثل إنكار قدم العالم.

وهناك فلاسفة يهود غير فيلون وابن ميمون، ولكنهما يأتيان في الطليعة منهم، وبين هؤلاء من فلاسفة اليهود من يعد في نظر الديانة اليهودية ملحداً، مثل سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) الذي نجد في بعض ما كتب ما لا يتفق معها، وحكمت عليه محكمة من آباء الكنيسة اليهودية سنة ١٦٥٦م بالكفر والحرمان والفصل حتى أصبح وحيداً بين بني جنسه.

وحقد على رجال الدين حقداً ظاهراً في كتابه «الأخلاق» ووصفهم بالجهل والغفلة، وأنهم يعيشون على حساب غشاوة الجهل التي تغم بصائر الناس وأبصارهم.

ولكن يرى اليهودية والمسيحية دينا واحدا، غير أن فطرته اليهودية حملته على أن يقول عن المسيحيين: إنهم يفخرون بما في

المسيحية من شعائر كريمة مثل الحب والرحمة والإحسان والعدل والسلام وشمول الناس جميعاً بالمحبة والسلام، ومع ذلك يقتل بعضهم بعضاً في غل شاعل حتى أصبح البغض والكراهية والحقد المقياس الصحيح لعقيدتهم.

ويظهر أن للعزلة التي مني بها سبينوزا أثراً في تفكيره، فقد مجدهابتمجيدعزلة قومه اليهود، فقد فسر بقاء اليهود وحفظهم من الذوبان في غيرهم اضطهاد المسيحية إياهم اضطهادا حملهم على العزلة، ولولا نبذ المسيحيين لليهود لذابوا في شعوب أوروبا، وأكسبهم الاضطهاد والنبذ الاحتفاظ بعنصرهم والتماسك ووحدة الشعور واستمرار وجودهم وبقائهم شعباً متماسكاً.

ونحن لا نرى تفسير سبينوزا لعزلة اليهود اضطهاد المسيحيين إياهم، وإلا أفكان الاضطهاد سبب انقسام المملكة اليهودية بعد سليمان عليه السلام انقساما خطيرا أدى إلى عديد من الانقسامات بين المنقسمين بحيث صاروا فرقا كل فرقة عزلت نفسها عن الأخرى؟.

وأي اضطهاد دفعهم على التمرد على شريعة موسى وديانته عندما تركهم مع أخيه هارون ومضى إلى ميقات ربه؟.

وأي اضطهاد دفعهم للثورة على الأنبياء والانقسامات التي حدثت في صفوفهم؟..

انهم كانوا ملوك أنفسهم، وحكامهم منهم في كل هذه الانقسامات ولم يكونوا خاضعين لسلطان غيرهم.

ولم يكن الاضطهاد باعثاً على عزلة اليهود عندما كانوا في بلاد الرومان لأنها كانت باختيارهم.

الأسفار المقدسة

التوراة كتاب الله المنزل على سيدنا موسى، فيه هدى ونور، وبه حكم الله، والقرآن الكريم هو الذي عرفنا بالتوراة الحق، وقال فيها:

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾[1]

وهذا الذي ذكره القرآن الكريم من آيات صدقه، وأنه لا يقول إلا الحق، فالتوراة كتاب من كتب الله، وذكر القرآن منذ أربعة عشر قرناً أن التوراة حرفت وغيرت، حرفوا الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ومع هذا أوتوا نصيباً آخر من الكتاب فأضاعوه، ولم يحكموا بما أنزل الله.

---

(١) سورة المائدة ٤٣ ـ ٤٤

ومنع الرسول ﷺ صاحبه عمر بن الخطاب من قراءة صفحة من التوراة أخذها من يهودي، لأن في القرآن غناء عن الكتب السابقة، وعن التوراة التي حرفت.

وآمن عمر والمسلمون بما جاء في القرآن حق الإيمان، كما آمنوا بما قال رسول الله ﷺ، ولم تكن الدراسات والكشوف العلمية قد أفصحت ـ بعد ـ عن تاريخ ما بيد اليهود مما يسمى التوراة وعن مؤلفي أسفارها، وقدمت مصادق للقرآن تؤيده تفصيلاً فيما ذكره إجمالاً وإيجازاً، وتنطق بأن ما جاء به القرآن هو الحق الذي لا مراء فيه، فآن لمثلي ولغيري من المسلمين ومن الذين يريدون الحق أن يقول: إن من معجزات القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه ظهور ما يؤيد ما ذكره بعد هذه القرون الطويلة.

وما كان المسلمون يعرفون عندما نزل القرآن أن الدراسات العلمية ستكشف عن مصادق تاريخية مدعومة بالحجج تؤيد ما ذكره من قصص وحوادث وأخبار.

وما يطلق اليوم على كتب العهد القديم من إسم «التوراة» خطأ، فكتب العهد القديم تسعة وثلاثون سفراً، ومن الخطأ تسميتها التوراة، لأن هذا الاسم بالمعنى الحاضر المعروف لدى اليهود لا يطلق إلا على خمسة أسفار ليس غير، وهن: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر

التثنية، وهذه هي التوراة في عرف اليهود، وهي التي أنزلت على موسى كما يزعمون.

وأما بقية أسفار العهد القديم ـ وعددها أربعة وثلاثون سفراً ـ فهي مقدسة أيضاً عند اليهود، ويصنفونها في ثلاثة أبواب، ويضعون في الباب الأول اثني عشر سفراً وهي: سفر يوشع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول وصموئيل الثاني والملوك الأول والملوك الثاني وأخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني وعزرا ونحميا واستير، وتسمى هذه الأسفار الاثنا عشر الأسفار التاريخية.

والباب الثاني يحتوي خمسة أسفار وهي: سفر أيوب والمزامير والأمثال والجامعة والأناشيد، وتسمى الأسفار الشعرية أو أسفار الأناشيد.

ويضعون في الباب الثالث ما بقي من الأسفار وعدده سبعة عشر سفراً هي: سفر أشعياء وأرميا والمراثي وحزقيال ودانيال وهوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصُفُنْيا وحجي وزكريا وملاحي.

وهناك سبعة أسفار أخرى تضمها الكنيسة الكاثوليكية إلى التسعة والثلاثين سفراً السابقة، وهي: طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويسوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثاني.

وأهمها جميعاً ما يعرف بالتوراة وهو خمسة الأسفار الأولى

(التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ويعتقد اليهود وأكثر المسيحيين أنها هي توراة موسى صلى الله عليه وعلى نبينا محمد وسلم، وأن الله أوحى بها إليه، وإن كان كثير من باحثيهم لا يعترف بذلك.

وعندما نزل القرآن الكريم مشيراً إلى ما أصاب التوراة من عبث تصدى له بالتكذيب من كفروا برسالة محمد عليه صلوات الله وسلامه، وما يزال من اليهود والمسيحيين من يتجنون على القرآن بالتكذيب لأنه ذكر التوراة والانجيل الموجودين بما يتفق مع حقائق العلم والتاريخ التي أثبتها علماء منهم غير متهمين إلا بالتعصب والحقد على القرآن، وتلك من معجزات كتاب الله سبق أولئك الأعلام بتقرير واقع ما يسمى التوراة والانجيل.

وأشار أكبر الباحثين في كتب العهد القديم والعهد الجديد إلي ما يؤيد القرآن كل التأييد، فقد أبان هؤلاء الباحثون في العصور الأخيرة ـ بخاصة ـ أساليب أسفارهما ولغاتها وبلدانياتها وكل ما يتصل بهما من قريب أو بعيد، وما فيهما من نظريات كونية تاريخية ومعاملات وأحكام وعقائد وتشريعات مختلفة، وما فيهما من تناقض أوضحه بعضهم وأوّله آخرون احتراما لقدسيتهما، ووصفوا بيئاتها وحياة الشعوب الاجتماعية والدينية والتجارية والسياسية والتاريخية والجغرفية.

وبحوث الباحثين الأُلى تحروا فيها الدقة والاستيعاب كشفت لهم عن حقائق تلتقي القرآن فيما وصف به التوراة

والانجيل مما ينفي عن محمد ﷺ أنه مؤلف القرآن، لأن ما جاء في القرآن مجملاً أيدته دراسات الدارسين من غير المسلمين وبحوث الباحثين من اليهود والنصارى في أواخر القرن التاسع عشر وهذا القرن قبل هذه التواريخ.

وهذه الدراسات والبحوث التي هي ثمرة تطور العقل والعلم وتقدم وسائلهما تراث تسلمه ورثة عن ورثة حتى انتهى إلى العصور الأخيرة فأضافت إليه ما أرباه، وهو ما لا يتفق لفرد أن يحيط به مهما كانت عبقريته.

فمحمد رسول الله حقاً وخاتم النبيين صدقاً، ومع هذه المكانة لا يعلم الغيب لأن ذلك من علم الله وحده، فكيف تسنى لمحمد أن يعلم علم الأولين والآخرين، علوم الماضي وأحداثه، تضاف إليها أحداث المستقبل وكشوفه التي تؤيد ما جاء في القرآن.

إن كان كل هذا من عبقرية محمد فهو أعظم من هؤلاء مجتمعين، وبذلك يتم له الامتياز على البشر جميعاً، وفيه من صفات الله ما لا يدعيه هو نفسه بل ينفيه كما ينفيه عنه أتباعه المخلصون على مر الأيام، تلك هي صفة علم الغيب، فما أدرى محمداً أن كشوفاً ستتم بعد أيامه بعصور كثيرة ستؤيد ما أجمله القرآن ويشير إليه في إيجاز واضح مبين؟.

إنهم لم يرضوا لمحمد أن يكون رسولاً نبياً، ولكنهم من

الجهة الأخرى وصفوه بما هو خاص بالذات الإلهية من الصفات مما لا يرضاه محمد نفسه.

إن الله وحده علام الغيوب، فما في كتابه من ذكر وإشارات لما تؤيده الكشوف إن هو إلاّ علم علام الغيوب وحده أوحى به إلى محمد فأداه كما تلقاه وبقي محفوظاً حتى اليوم بنصه الحرفي لا مبدل لكلماته.

والباحثون من غير المسلمين انتهوا بعد دراسات إلى أن في التوراة تحريفاً، وإلى ما يسمى «التوراة» ليس إلا من تأليف بشر، والأسفار الخمسة والأسفار الأخرى التي يتم بها العهد القديم تتفاوت أسلوباً وأفكاراً ومعلومات مما يقتضي تعدد الكتاب والمنشئين، وإن المؤرخ اليهودي الأشهر «سيمون دبنوف» أعظم المؤرخين المحدثين يذكر في ثقة: أن في الكتاب المقدس فصولاً كثيرة مأخوذة من الثقافة البابلية كما يظهر ذلك من المقارنة بين الكتابة المسمارية وما ورد في التوراة.

ويثبت التحريف ما في هذه الأسفار من نصوص لا تتفق مع التنزيل، ولا مع التوحيد وعصمة الرسل ونزاهة الأنبياء وصفات الله وأسمائه، وفيه من التناقض ما يعترف به غلاة من يؤمنون بالتوراة من يهود ومسيحيين، وهناك اختلاف بين نسخ التوراة المعتمدة، ففي كتاب «ميزان الحق» للقسيس الدكتور فندر قوله[1]: «كتب بعض المصنفين المسلمين جدولاً طويلاً من

(١) ص١٠٢ وهو من أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل.

المتناقضات الواردة في الكتاب المقدس وزعم أنها متناقضات حقيقية وهي متناقضات ظاهرية فقط» وقال: وقد وفق بين كثير منها العلماء المحققون والتي لم يهتدوا إلى التوفيق بينها فصعوبتها قائمة على عدم معرفة كل ظروفها».

ويقول: «يوجد في التوراة ما يشبه التناقض في أخبار الوقائع والمسائل التي لا مساس لها بالجوهر، وهو بالحقيقة ليس بتناقض، فوجود شيء من هذا القبيل في أسفار التوراة مع سكوت اليهود عنه وعدم تجاسرهم على تسويته لدليل قوي على تمسكهم بالمتون الأصلية».

والتناقض الذي وقع فيه القسيس نفسه واضح من عباراته، فهو يعترف أنها «متناقضات ظاهرية فقط» ومع ذلك يعترف بأن العلماء المحققين لم يهتدوا إلى التوفيق بينها للصعوبة القائمة على عدم معرفة ظروفها، وينفي التناقض (بالحقيقة ليس بتناقض) ثم يثبت أن وجود شيء من التناقض دليل على أمانة اليهود لأنهم لم يجسروا على تسويته.

ويقول القسيس في ص ١١٨: «لا يوجد فرق إلا في أعمار بعض الآباء الأولين المذكورين في إصحاح ٥و١٠ من «سفر التكوين» ويعتذر بأنه خلاف لا يمس جوهر الكتاب في شيء.

ولكن هذه الفرق في الأعمال بين نسخ التوراة ينسب إلى الغلط الذي تنزه عنه، فالنسخة العبرية تذكر أن مقدار الزمان من خلق آدم إلى الطوفان ١٦٥٦ سنة، والنسخة اليونانية المعروفة

بالسبعينية تذكر أنه ٢٢٦٢سنة، والنسخة السامرية تقول: إنه ١٣٠٧ سنوات، فأيها الحق المنزل من الله؟.

وهذا الاختلاف يلد اختلافاً سواه، فالنسخ الثلاث متفقات على عمر آدم وهو ٩٣٠ سنة؛ وعمر نوح عند الطوفان ٦٠٠ سنة، فعلى ما في النسخة السامرية يكون نوح مولوداً في زمن آدم وأن كليهما أدرك من عمر الآخر ٢٢٣ سنة، وهو غير واقع باتفاق جميع مؤرخي العالم، وما في العبرية واليونانية ينقض هذا الزعم، وفي العبرية: أن آدم مات قبل نوح بمائة وست وعشرين سنة، واليونانية: أن موت آدم كان قبل ولادة نوح باثنتين وثلاثين وسبعمائة سنة.

ومن ألوان الاختلاف بين النسخ في مسألة الأعمار ما يعد من الأفاكيه، ففي الاصحاح الثاني والعشرين من سفر أخبار الأيام الثاني أن يهورام تولى الملك وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وملك ثماني سنين ومات غير مأسوف عليه، وفي الاصحاح الذي يليه: أن ابنه الأصغر (أخزيا) ملك بعده وكان عمره اثنتين وأربعين سنة.

فكيف يصح في الأذهان أن الابن أكبر من أبيه بسنتين؟ أيصح أن ينسب هذا إلى الله العليم الخبير في كتاب يدعي اليهود والنصارى أنه منه سبحانه وتعالى؟.

بل جاء في سفر الملوك الثاني بالإصحاح الثامن ما يؤيد ما ذكر بسفر الأخبار الثاني من ناحية يهورام، ملك وعمره اثنتان

وثلاثون سنة وملك ثماني سنين، ويختلف في عمر أخزيا إذ جاء فيه أن عمره حين ملك اثنتان وعشرون.

وذكر آدم كلارك في المجلد الثاني من تفسيره عندما كان يفسر سفر الأخبار الثاني ووصل عند عمر أخزيا: «وقع في الترجمة السريانية والعبرية اثنان وعشرون وفي بعض النسخ اليونانية عشرون».

والخلاف بين النسخ الثلاث (العبرية واليونانية والسامرية) كثير، وهو باق دون إصلاح، لأن لكل نسخة أتباعاً متمسكين بها، وهو يقطع بأن هذا الخطأ لا يمكن أن يصدر من الله الذي يعترفون له بكمال العلم المطلق، ولم يقف الغلط في الأعمال بل في أشياء أخرى كثيرة.

ففي النسخة العبرية بسفر التثنية بالإصحاح السابع والعشرين يوصي موسى وشيوخ إسرائيل الشعب ببناء مذبح في جبل «عيبال» والنسخة السامرية تذكر أن الجبل «جرزيم» ويعلق القسيس فندر على هذا بقوله[1]: «العبارة الأصلية «جبل عيبال» في الأصل العبراني لا جبل جرزيم كما في النسخة السامرية التي حرفها السامريون لرغبتهم الخصوصية في الجبل الذي سموه بهذا الاسم، ومع كونهم قد حرفوا نسختهم في هذه الكلمة انحصر التحريف فيها ولم يتعد إلى النسخ الأخرى المعتمدة عند طوائف اليهود».

(١) ميزان الحق ص ٥١.

ولكن هورن وثق النسخة السامرية في هذا الخلاف بين عيبال وجرزيم وقال: «صدق ما عليه السامريون وأن اليهود هم الذين حرفوا التوراة عمداً[٢]».

ومن ألوان التحريف المشهور في التوراة ما اعترف به كبار الباحثين وأيدته نصوص التوراة نفسها، ففي سفر التكوين بالإصحاح السادس والثلاثين فقرة **٣١ ـ ٣٩** «وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبلما مَلَك مَلك لبني إسرائيل، ملك في أدوم بالع بن عمرو وكان اسم مدينته دنْهابة، ومات بالع فملك مكانه يوباب بن زارح من بصرة، ومات يوباب فملك مكانه حوشام من أرض التيماني، ومات حوشام فملك مكانه هداد بن بداد الذي كسر مديان في بلاد موآب وكان اسم مدينته عويت، ومات هداد فملك مكانه سملة من مسريقة، ومات سملة فملك مكانه شاول من رحوبوت النهر، ومات شاول فملك مكانه بعل حانان بن عكبور، ومات بعل حانان بن عكبور فملك مكانه هدار وكان اسم مدينته فاعو واسم امرأته مهيطبئيل بنت مطرد بنت ماء ذهب».

وكل هؤلاء الذين ذكروا لم يكونوا قبل موسى بل جاءوا بعده، فتاريخ «شاول» معروف، فقد ملك بعد موسى بأكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن، وليس من المعقول نسبة هذه الأقوال إلى موسى عليه السلام.

(٢) كتاب أدلة اليقين ص١٦٢.

وقال آدم كلارك أحد مفسري التوراة الموثوق بهم عندما جاء إلى تفسير الفقرات التي استشهدنا بها: «أظن ظناً قوياً قريباً من اليقين أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة فظن الناقل أنها من المتن فأدخلها فيه».

وفي سفر التثنية بالاصحاح الثالث في الفقرة الثالثة عشرة: «يائير بن منسي أخذ كل كورة أرجوب إلى تخم الجشوريين والمعكيين ودعاها على اسمه باشان حوُّوث يائير إلى هذا اليوم».

وحسبنا تعليقاً على هذه الفقرة من سفر التثنية والفقرات التي بالتكوين ما قاله هورن في المجلد الأول من تفسيره للتوراة ـ وهو من أكبر مفسريها المعتمدين ـ: «لا يمكن ان تكون هذه الفقرات من كلام موسى لأن الفقرات الأولى (فقرات سفر التكوين) تدل على أن مصنف هذا الكتاب (يقصد التوراة) وجد بعد زمان قامت فيه مملكة بني إسرائيل، والفقرة الثانية تدل على أن مصنفه كان بعد إقامة اليهود في فلسطين».

وقد اتفق هؤلاء المفسرون على أن عزرا الكاتب زاد بعض العبارات في التوراة، كما اتفقوا على أن هناك زيادات لا يعرف أصحابها، وجزموا بأن كل ذلك ليست من كتابات موسى، وكثرة الألفاظ البابلية في التوراة تدل على أنها كتبت بعد سبي البابليين لبني إسرائيل.

وأثبت الباحثون المحققون الذين لا يتهمون بعداء التوراة

وليسوا من المسلمين ما أشار إليه القرآن الكريم في إيجاز يغني عن الأسفار الضخمة إذ قال:

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾[1]

و﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

و﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ ﴾[3].

و﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ

(١) النساء: الآية ٤٦.
(٢) البقرة: الآية ٧٥.
(٣) المائدة: الآية ١٣.

ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾.[1]

وأثبتوا أن الأسفار الخمسة التي تعرف بالتوراة مؤلفة بعد عصر موسى بقرون، وموسى كان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أو الثالث عشر أو بينهما، وأكثر ما حواه سفر التكوين وسفر الخروج مؤلف في القرن التاسع قبل الميلاد، أي بعد عديد من القرون على موت موسى عليه وعلى المرسلين جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وسفر التثنية مؤلف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وسفر العدد وسفر اللاويين ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وذلك بعد النفي المشهور في التاريخ بنفي بابل وعودة اليهود من النفي إلى فلسطين ٦٣٥ ق. م.

وكل هذه الأسفار التي تعرف بالتوراة من تأليف يهود، وتتضمن سير أنبيائهم ومعلميهم وملوكهم وتاريخ بدء الخليقة وسير أبي البشر ومن جاءوا بعده من أمم وشعوب، وتتضمن أحكاماً وتشريعات ومعاملات ونظماً وقوانين تعد في تلك العصور أرقى ما وصل إليه التنظيم الاجتماعي للبشر، وتعكس بيئات اليهود وغيرهم من الشعوب والممالك والدول، في أسلوب يختلف بعضه عن بعض مما يثبت تعدد المؤلفين.

ولماذا نذهب بعيداً، وهذا الكتاب المقدس نفسه الذي طبعه الكاثوليك بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت يحوي في مقدمته ما يؤيدنا، والمقدمة بعنوان «أسفار الشريعة الخمسة».

(١) المائدة: الآية ٤١.

وافتتح المقدمة بما يلي:

«تؤلف الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس مجموعة كان اليهود يسمونها الشريعة أو التوراة، وقد اتخذت باليونانية اسم «بانتاتيكوس» (أي الكتاب ذو الأسفار الخمسة)».

وتقول المقدمة:

«لقد كان اليهود في بدء التاريخ المسيحي، يسندون إلى موسى تأليف هذه المجموعة الواسعة، وقد جاراهم المسيح ورسله في هذا الاصطلاح، والواقع أن خلاصة البانتاتيك أي جوهر التقاليد المدونة فيه ونواة التشريع تتصل دون ريب بالزمان الذي فيه بدا إسرائيل كشعب منظم، وذلك الزمان تسوده شخصية موسى الكبيرة، فهو وسيط الوحي الإلهي، ومنظم الشعب المختار، والمشترع الأول، إنما مصنفه الملهم لم يحتفظ به وديعة ميتة في دار المحفوظات».

فالجزء الأول من التوراة المسمى «سفر التكوين» خاص بذكر بدء الخليقة من إبداع السماوات والأرض وخلق آدم وحواء وقصة خروجهما من الجنة، واتصالهما وميلاد البشر منهما. وقصة قايين وهابيل، وتاريخ أولاده إلى نوح فقصته وقصة الطوفان، وقصة إبراهيم وزوجه وأولاده، ويوسف ورحلة يعقوب إلى مصر مع أولاده ونسلهم حتى موت يعقوب.

وسمي التكوين لأن فيه قصة تكوين العالم، ويتكون من خمسين إصحاحاً.

والجزء الثاني وهو المعروف بسفر الخروج يبدأ بذكر أبناء

إسرائيل (يعقوب) وقصة موسى من مولده حتى خروجه من مصر ببني إسرائيل وتاريخ حياتهم فيها وما لقوا بها على يد فرعون والمصريين من ظلم وتسخير واضطهاد، وما تم على يد موسى من إنقاذ حتى انتهوا إلى سيناء وما كان من بني إسرائيل من الشرك وذهاب موسى إلى ربه وعودته.

وفيه بعض التشريعات والأوامر والنـواهي والزواجـر والعظات والمعاملات والعقوبات في الديانة الإسرائيلية.

وعدد إصحاحاته أربعون.

والجزء الثالث «سفر اللاويين» ويتكون من سبعة وعشرين إصحاحاً فأكثره في العبادات والفرائض وأحكامها وواجباتها وبخاصة القرابين وأنواعها وسبلها، كما ورد فيه ما يتصل بالمعاملات.

وسمي سفر اللاويين نسبة إلى أولاد «لاوي» بن يعقوب ومنهم هارون وموسى أنفسهما، وميزوا عن الأسباط الاثني عشر ولم يدخلوا فيهم لأنهم اختُصُّوا بالسدانة والقوامة على الشريعة وحفظها وصونها والإشراف على العبادات والفرائض والذبائح والقرابين والمذابح وتنفيذ الشريعة اليهودية.

والجزء الرابع «سفر العدد» وفيهما ورد عن بني إسرائيل وإحصاء قبائلهم والمحاربين منهم وما يملكون وما يمكن أن يتناوله الإحصاء إلى غير ذلك من أحكام وتشريعات ووصايا تتصل بالعبادات والمعاملات، ولما فيه من الإحصاء سمي سفر العدد، وإصحاحاته ستة وثلاثون.

والجزء الخامس «سفرالتثنية» ويقال له «تثنية الاشتراع» لأنه يضم شريعة اليهود وأحكامها ونظمها ومبادئها في تنظيم المجتمع وبنائه وما يحتاج إليه من تشريعات هامة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتجارة والبيع والشراء والمعاملات والزراعة والحرب والجنايات والحدود والعقوبات، وعرف بالتثنية لأن فيها جاء به «تكراراً» لما تلقى موسى من ربه ليبلغها بني إسرائيل، وفي التكرار معنى التثنية لأن الاثنين «مكرر» الواحد.

وإصحاحات سفرالتثنية أربعة وثلاثون.

هذه أجزاء التوراة حسب اعتقادهم، وهي عند المسلمين ليست التوراة الحقيقية المنزلة من السماء على سيدنا موسى، ويؤيد المسلمين كثير من العلماء الباحثين من يهود ونصارى.

ويطلق من قبيل التسامح على كل أسفار العهد القديم «التوراة» ولكن المعنى الحاصر لها هو ما جاء في خمسة الأسفار التي سلف ذكرها.

ويحسب مؤرخو العرب أن لغة أسفار العهد القديم التسعة والثلاثين كتبت بالعبرية، وهو صحيح على التغليب وإن كانوا لم يقصدوا إليه عندما حسبوا ذلك، لأن ما لم يُدَوَّنْ بالعبرية غير مذكور، وهو لا يعدو بعض فقرات من سفر عزرا وسفر دانيال وفقرة من سفر أرمياء وكلمتين اثنتين من سفر التكوين دونت باللغة الآرامية في مبدأ تأليفها ثم نقلت إلى العبرية، ويرجع تاريخ استعمال اللغة الآرامية في تدوين ما دون بها من سفر عزرا إلى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، وسفر دانيال إلى سنة ١٦٦ قبل الميلاد.

وزمن تأليف أسفار العهد القديم ـ ما عدا ما يطلق عليه التوراة وهو خمسة أسفار ـ بعد موسى بقرون كثيرة، ففي ما بين منتصف القرن التاسع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد ألفت أسفار عديدة منها: سفر يشوع والقضاة وصموئيل والملوك والأيام، وفيما بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل الميلاد ألفت أسفار أخر مثل سفر يونان (يونس) وزكريا، وألف سفر الجامعة حوالى سنة ٢٠٠ ق.م.

فليس بين موسى والتوراة وسائر أسفار العهد القديم «معاصرة» لأن بينه وبين أقربها إليه عهداً بضعة قرون، ولا شك أنها من تأليف بشر وليست منزلة من الله على موسى، وإن كان بعض ما جاء فيها من التوراة مطابقاً لما جاء في القرآن الكريم أو الحديث الشريف في المضمون، لأن الكتب السماوية واحدة الجوهر، واللاحق منها يزيد على السابق في الأحكام أو ينسخ منها ما يتفق مع العصر الذي يكون فيه، في بعض هذه الأسفار مما في القرآن مثله أو حكمه يجوز أن يكون من بقايا التوراة قبل تحريفها الثابت.

ولم تكن التوراة كالقرآن للحفظ والتلاوة، ولم يوجد على الأرض من يحفظ التوراة ويستظهرها غير موسى عليه السلام.

ففي الإصحاح الواحد والثلاثين من سفر التثنية (٩ ـ ١٢): «وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلاً: في نهاية السبع سنين في ميعاد سنة الإبراء في عيد المظالّ حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره تقرأ

هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم، اجمع الشعب الرجال والنساء والأطفال والغريب الذي في أبوابك لكي يسمعوا ويتعلموا أن يتقوا إلهكم ويحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة».

وفي الفقرات **٢٤ ـ ٢٩** من الاصحاح الواحد والثلاثين نفسه: «فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هوذا وأنا بعدُ حيٌّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي، اجمعوا إلي كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض، لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم».

فالتوراة لم تكن بأيدي الشعب بل كانت محفوظة بعيدة عن متناول الأيدي، وحدد موسى الوقت الذي تقرأ فيه على مسامع الشعب والغريب عنه أيضاً «لكي يسمعوا ويتعلموا» وأمر بوضعها بجانب تابوت العهد ليكون شاهداً عليهم.

وهذه النسخة التي كتبها موسى فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام لأنه في عهده لم يجدوا في التابوت غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر، ففي سفر الملوك الأول بالاصحاح الثامن في الفقرة التاسعة: «لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى».

ونهبت أورشليم وخربت غير مرة، ففي سنة ٩٢٠ ق. م قام أحد فراعنة مصر ـ واسمه شيشنق وتذكره التوراة باسم شيشق ـ بنهب أورشليم وسلب ما كان في قصر سليمان والهيكل من كنوز وتحف، وفي سنة ٥٨٦ق. م خرب نبوخذ نصر اورشليم تخريباً، ونهب كل ما في الهيكل، وقتل الإسرائيليين وأجلى الأحياء منهم إلى بابل، وفي الأيام الثاني، الاصحاح ٣٦ والفقرات ١٦ ـ ٢٠ : «ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء، فأصعد عليهم ملك الكلدان فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم، ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده، وجمع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل، وأحرقوا بيت الله وهدموا سور اورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمنية، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت فارس».

وفي عهد انطيوكوس الرابع ملك السلوقيين (١٧٥ ـ ١٦٤ق. م) دخل اورشليم حرباً وعاث فيها فساداً، وأباحها لجيشه، وقتل وأسرف في القتل، وأخذ كل ما كان في الهيكل ونقله إلى أنطاكية، وأجبر اليهود على اعتناق الوثنية وعبادة الإله الاغريقي «زفس» وتقديم القرابين له بدل إلههم يهوه.

ولم يكتف انطيوكوس بما فعل، فبعد عودته إلى أنطاكية بعث جيشاً قوياً بقيادة قائده الأول «أبلو نيوس» الذي اختار يوم السبت لدخول اورشليم وتظاهر بالسلام والمحبة، وفتك باليهود فتكاً ذريعاً، ودك سور اورشليم، ولم يدع منه حجراً على حجر، وزاد

في التنكيل بهم عن انطيوكوس نفسه، فجعل يوم السبت يوم عمل، وأجبر اليهود عليه، ومنع الختان، وشيد معبداً لزفس وملعباً رياضياً حتى ينقل اليهود من ديانتهم إلى ديانة الاغريق الوثنية.

وتاريخ هذه الفترة بالنسبة لليهود لا يخلو من شرف لهم، فقد صبروا على البلاء الماحق وقاوموه وضحوا بأنفسهم في سبيل عقيدتهم، وأبدوا من صنوف البطولة والصبر ما أجبر انطيوكوس على الاعجاب.

لقد قتلوا النساء والرجال والأطفال، قتلوا المختونين من الأطفال كما قتلوا الخاتنين، وامتنع كثير من اليهود بل أكثرهم عن الخضوع لأوامر انطوكيوس فأبوا أن يأكلوا لحم الخنزير ويتركوا الختان ويعبدوا زفس.

وأشار سفر المقابيين إلى ما أبدى شيخ كهل من الصبر وسبعة شبان إخوة من العناد البطولي حتى أحرقوا جميعاً بأمر انطيوكوس.

ويروي سفر المقابيين عن هؤلاء الشبان السبعة ما يثير الاعجاب، فقد كان الملك يريد أن يستخلصهم، فعرض عليهم أن يأكلوا لحم الخنزير فأبوا، وأغراهم ولكنهم تشبثوا بالاباء فأراهم آلات التعذيب فلم يبالوا، وكانت أمهم تشجعهم وتذكرهم بالله وتنصحهم أن يثبتوا، فالشهيد إلى الجنة، فثبتوا على إيمانهم، فعذبوا ثم قتلوا دون أن يبدو من أحدهم غير ما يثير الاعجاب، حتى أن انطيوكوس نفسه أعلن لجيشه إعجابه بهؤلاء الشهداء وطلب إليهم أن يكونوا مثلهم في الشجاعة والصبر.

وإذا كان الخيال زوق هذه القصص فإنه مما لا شك فيه أن اليهود قد اضطهدوا على يد انطيوكوس اضطهاداً بشعاً لا حد له.

وهذا البلاء المتكرر لم يدع في الهيكل توراة ولا أي كنز أو تحفة، ويؤيد فقدان التوراة فقداناً تاماً مصادر لا يرقى إليها الشك، ومنها ما هو يهودي، ففي دائرة المعارف اليهودية الانجليزية[1] أن عزرا (المعروف عند العرب بعزير) هو الذي نشر الشريعة بعد أن نسيت.

وفي كتاب «إظهار الحق»[2].

قال كليمانس إسكندريانوس: «إن الكتب السماوية ضاعت فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى. وقال ترتولين، المشهور أن عزرا كتب مجموع الكتب بعد أن أغار أهل بابل على أورشليم»[3] وقال تهيو فلكت: «إن الكتب الإلّهية انعدمت رأساً فاوجدها عزرا مرة اخرى بإلهام» وقال جان ملنر كاتلك في الصفحة **١١٥** من كتابه الذي طبع في بلدة دربي سنة **١٨٤٣** «واتفق أهل العلم على أن التوراة الأصلية وكذا نسخ كتب العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بخت نصر ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة عزرا ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة انتيوكس» وانتيوكس هو انطيوكوس الرابع الذي أشرنا إليه.

ولم يأت ذكر للكتاب المقدس خلال القرون الماضية قبل

---

(١) طبعة سنة ١٩٠٣م.

(٢) تأليف الشيخ رحمة الله الهندي (راجع الجزء الأول ص١٦٧ من طبعة الآستانة).

(٣) في الأصل: «بابل بروشالم».

سليمان عليه السلام، وداود نفسه نزل عليه الزبور وكان عارفاً بشريعة موسى ومنفذها، وقد ثبت أن التوراة لم تكن على عهد سليمان لخلو التابوت منه حيث لم يكن به غير لوحي موسى، وليس هنالك نص على وجود التوراة الأصلية في عهد داود عليه السلام.

وفي عهد يوشيا الذي ملك سنة ٦٣٨ ق. م. تقريباً عثر على «سفر الشريعة» ففي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الملوك الثاني أن الملك أرسل إلى الكاهن حلقيا أن «يحسب الفضة المدخلة إلى بيت الرب» وفيه (الفقرة ٨): «فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر لشافان» الخ.

وفي تاريخ يوشيا أنه كان على سنة داود ومشى في الطريق المستقيم كما جاء في سفر الملوك الثاني (ح ٢٢ ف ٢) وأعاد التوحيد إلى اليهود الذين دخلوا قبله في الوثنية ولكنه لم يجد التوراة حتى يحكم بما فيها، وأمضى سبعة عشر عاماً في الملك بدون توراة حتى وجد حلقيا الكاهن «سفر الشريعة» في السنة الثامنة عشرة لملك يوشيا.

ويقول الدكتور جورج بوست في «قاموس الكتاب المقدس» في هذه النسخة: ربما كانت سفر التثنية وحده، ويدعون أن الحكم كان عليه مدة السنوات التي بقيت من حكم يوشيا.

ويذهب اليهود إلى أن عزرا هو الذي كتب التوراة من

جديد بعد أن ألهمه الله، وعزرا هو ابن سرايا بن عزريا بن حلقيا وصعدوا بنسبه إلى هارون عليه السلام، ويعتبر اليهود عصره - كما تذكر دائرة المعارف اليهودية الانجليزية (طبعة ١٩٠٣م)- ربيع تاريخ الديانة اليهودية، ويملأ فراغ موسى حيث يشغل مكانة عليا تقابل مكانة موسى، وينسبون إلى عزرا تأسيس المجمع الكبير، وجمع أسفار الكتاب المقدس، وتأليف سفري الأيام وسفر عزرا ونحميا، وعلى يديه تم نقل اليهود من بابل إلى فلسطين نحو سنة ٤٥٧ق. م.

وعلى هذا فإن عزرا كتب التوراة إلهاماً أو أن يكون جامعها، وإذا أريد التوفيق بين الادعاءين جاز لنا أن نذهب إلى أن من الجائز أن يكون بعض ما في التوراة مكتوباً وموجوداً في يد بعض الأفراد، فجمعه منهم عزرا، ولهذا وصفوه بأنه مرمم الأسفار المقدسة، وأُلهم الباقي.

وإذا صح صنيع عزرا فإن ما صنعه لم يبق على مدى الأيام، فانطيوكوس الملك السلوقي أحرق المعبد وخرب أورشليم وتتبع نسخ العهد القديم، وأنذر من لديه منها شيء أن يسلمه أو يقتل، وأحرق ما وجد، وذكر يوسيفوس مؤرخ اليهود وغيره من المؤرخين أن كل النسخ التي كتبها عزرا «انعدمت».

وذكر المؤرخون أن استيلاء الإمبراطور تيطس الروماني على أورشليم وبلاد اليهود سنة ٧٠م صحبه إتلاف نسخ كثيرة.

وعزرا هو الذي ينسب إليه حفظ الشريعة وكتابة الكتاب

المقدس بعدما تعرضا له من محو وفقدان، هو نفسه لم يسلم من إنكار وجوده فقد جاء في دائرة المعارف البريطانية[1] أن أسطورة عزرا اختلقها مختلقون.

ولا شك عندنا أن ما يسمى الآن «التوراة» ليس توراة موسى، فما فيه من وثنية وشرك ووصف مهين للأنبياء والمرسلين ونسبة الفواحش إلى بعضهم كداود لا يتفق مع كمال الله المطلق وعصمة الأنبياء.

ولم تكن التوراة محفوظة في الصدور حتى اليوم مثل القرآن الكريم الذي كان يحفظه بعض الصحابة في عصر الرسول ﷺ وحفظه بعده كثير حتى يومنا هذا يعد حفظته ومستظهروه بالآلاف، ولم تكن التوراة كالقرآن للناس بل كان لموسى ثم حفظ في الهيكل مع التابوت ولم يكن الاطلاع عليه مباحاً لأحد، بل كان مقصوراً على آحاد من الكهنة المختصين مما جعل فقدانه سهلاً يسيراً.

وأنا لا أنكر أن من التوراة ما كان بيد الكهنة يعرفونه ولكنهم يخفونه أسوة بموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ومن هذا الإخفاء التقليدي كان لدى اليهود أسفار غير أسفار العهد القديم يخفونها، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات بسور مختلفة:

---

(١) ص ١٤ ج ٩ الطبعة الرابعة عشر سنة ١٩٢٩ م.

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾

و﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

ولا يقتصر اليهود على أسفار العهد القديم التسعة والثلاثين بل لديهم ما يعرف بأسفار «التلمود» وهي قسمان: تلمود بابل وتلمود فلسطين، والأول هو المعتمد الذي يعول عليه اليهود حتى اليوم، ولا يعولون على التلمود الآخر الذي وضع في فلسطين.

والتلمود المعتمد جهد نحو ألفي عالم من علماء اليهود خلال خمسة قرون. وأقوالهم تتناول كل أسس الديانة الموسوية ومبادئها وشرائعها حسبما يراه هؤلاء العلماء.

وليس التلمود و«المشنا» واحداً، لأن التلمود لا يحوي كل ما في المشنا، ويقال: إنه التلمود على صيغته الأولى، و«شنا» كلمة عبرية يقابلها في العربية «ثنى» وإذا كان «شنا» بمعنى أعاد وكرر فإن «ثنى» العربية لا تخلو من معنى الإعادة والتكرار، فالاثنان تكراراً

لواحد، وأطلقت «المشنا» على المأثورات التي يستظهرها الحفظ بتكرار ذكرها حتى ترسخ في الذاكرة.

وما في «المشنا» من مأثورات يعود إلى عهد جلاء اليهود من فلسطين إلى بابل على يد نبوخذنصر (٦٠٥ ـ ٥٦٢ قبل الميلاد)، وهو شرح ما يطلق عليه التوراة وتفسيره والتعليق عليه مما كتب أحبار اليهود وفقهاؤهم والربانيون منهم والكهنة، كما يضم العظات التي تلقى في المعابد.

ويرجع تدوين المشنا إلى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، فقد كانت قبل التدوين محفوظة يتناقلها الرواة حتى تم لها التدوين.

وتتكون المشنا من ثلاثة وستين رسالة مشتملة على خمسمئة وأربع وعشرين فقرة، موزعة على ستة أقسام:

الأول ـ قسم الزراعة وفيه الأحكام والمعاملات الخاصة بالزرع والسقي والمحصول.

الثاني ـ قسم الموعد وفيه مواقيت المواسم ومواعيد الأعياد.

الثالث ـ قسم النساء ويحوي ما يتصل بالمرأة وأحكامه وأوامر ونواهي خاصة بها، وفيه ما يخص الزواج والطلاق والأحوال الشخصية.

الرابع ـ قسم المعاملات والأحكام.

الخامس ـ قسم العبادات والفرائض.

السادس ـ قسم الطهارة.

وأضيف إلى «المشنا» في العصور الحديثة ما يعبر عنه بالإضافات أو الملاحق والذيول، وأكثرها مما أضافه كهان اليهود الأوروبيون إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وتسمى هذه الاضافات بالعبرية «التصافوت» من «يصاف» بمعنى «يضاف» وهي مزيد من الشرح والتوضيح لما في المشنا.

وليس في «المشنا» كل ما أثر عن رؤ ساء اليهود الدينيين، بل هناك ما هو خارج عنه مما يتناقله اليهود رواية ومشافهة، ويسمى «البراتيا» أي البرانية.

وشرحت «المشنا» وأطلق على شروحها وتكملتها اسم «الجمارا» بمعنى التكملة، ومن المشناة والجمارا يتألف التلمود، والجمارا مؤلف باللغة الآرامية.

ولدى اليهود غير التلمود من الكتب مثل «المدراش» أي الدراسات، ويضم أقوال الفقهاء، وشروحهم لبعض النصوص وتعليقاتهم عليها، وأشهر ما عرف من كتب «المدراش»: مدراس رباه، وهو دراسة للتوراة في أسفارها الخمسة، وهي في قيمتها تلي الجمارا.

ولكن «التلمود» أعظم المأثورات الإسرائيلية، بل هي أعظم من التوراة عندهم، وفيه ما يندى له الجبين، بل فيه كفر لا يتفق مع ديانة التوحيد اليهودية.

في التلمود تجن سافر على المسيح عليه الصلاة والسلام، فهو متهم بولادة غير شرعية، وأمه الصديقة هدف سهام يهودية مسمومة، والمسيح خارج عن الإيمان، ومحروم من رضا الله، وخاطىء ويدفع الشعوب إلى الخطيئة، وسرق اسم «يهوه» المبارك وادعاه لنفسه، فعقابه جهنم وبئس المصير إلخ.

وبلغ من جرأة اليهود أن عالماً من كبار علمائهم في العصر الحديث وهو «لوب» نشر في مجلة «الدروس اليهودية» ما يؤيد شتيمة المسيح واتهامه، وهذا نصه:

«أي عجب أن يتضمن التلمود بعض المذمات في حق يسوع؟ إنما الغريب أن يكون الأمر على نقيض ذلك، وإن كان لا مفر من العجب فلنعجب من أن التلمود لم يذكر من المذمات أكثر مما ذكر».

والتلمود الحقيقي مما أخفاه اليهود فلا يطلعون عليه أحداً، لأن فيه ما لا يمكن قبوله، وإن كان مطبوعاً عديداً من الطبعات أقدمها طبعة البندقية سنة ١٥٢٠م ثم توالت الطبعات، فكانت شراً على اليهود وبلاءً مما حملهم على تكوين «مجمع» قام بتنقيح التلمود وحذف ما يثير عليهم الفتن وإخلائه من كل شاذ وناب ومستهجن.

والتلمود عند اليهود أعظم مكانة وقدسية من التوراة، ويزعمون أنه أقدم من الخليقة لأنه وجد قبلها، مع أنه شروح متأخرة وأقوال بعد التوراة وموسى.

ومن قدسية التلمود عندهم أن في التوراة أحكاماً لا يعاقب تاركها بالموت، أما التلمود فإن من يخالف منه حرفاً فجزاؤه القتل، بل بلغ عقاب من يهزأ بكلمة من التلمود ما لا يخطر بعقل بشر غير من ابتكروه، وهو أن «يغمس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت» ولا يتعجل القارىء فسننقل له نص ذلك ومصدره.

بل ورد في التلمود الأصلي أن كلام الحاخام حق، وما يقوله أو يقره شريعة الله، بل هو إلّه لأنه يصبح «يهوه» بل هو أعظم من الله، إذا كان هناك خلاف بين الله والحاخام فالحق مع الحاخام، بل الله خاضع للحاخام لأن عليه إجراء ما يريده الحاخام.

وإذا كان القارىء غير مصدق هذا فله العذر، ولكن هذا نص ما جاء في التلمود الأصلي، وهو غير التلمود المنقح الذي تتداوله الأيدي.

«التلمود وجد قبل الخليقة، ولولا التلمود لزال الكون» [سفر بشليم ٥٤ و٥٨ من التلمود الأصيل].

«إحذر يا بني ـ يقول الحاخام رابا ـ واتبع التلمود لا التوراة، فالتوراة تتضمن أحكاماً لا تستوجب مخالفتها عقاب الموت، وأما من يخالف حرفاً جاء في التلمود فالقتل عقابه، ومن يهزأ بكلمة من كلمات التلمود يغمس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت« [سفر روبين ٢١ حرف ب من التلمود الأصيل].

«إن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه»[سفر مجيلا ٢١].

«من يعارض حاخاماً أو يناقشه أو يتململ منه يعارض العزة الإلّهية». و«كلام الحاخام إن ناقض كلام حاخام آخر هو من وحي الله أيضاً، فلليهودي أن يختار من الكلامين المتناقضين ما يوافقه [سفر شولبين وسفر جيباموث].

«إن الحاخامين ملوك، ويجب إكرامهم كملوك» [سفر جينين٦٢].

«دخلت يوماً قدس الأقداس فرأيت الله جالساً على كرسي مرتفع، فقال لي: باركني يا بني، وإذ باركته شكرني وسلم وانصرف [سفر بيراشون ٧ حرف أ].

و«ما يقوله الحاخامون على الأرض هو شريعة الله» [سفر روس هشاشا ٨ حرف ب].

«الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة ويدعون يهوه أي الله» [سفر باباتبرا ٧٥ حرف أ].

«للحاخامين السيادة على الله، وعليه إجراء ما يرغبون فيه» [سفر مويدقنان ١ حرف أ].

«إذا احتدم الخلاف بين الحاخامين والله فالحق مع الحاخامين» [سفر بابا مزيا ٨٦ حرف أ][1].

---

(١) النصوص المنقولة هنا هي ما استشهد به الأستاذ نقولا الحداد في مقال له بعنوان «التلمود خداع اليهود» منشور بمجلة الرسالة، العدد ٧٧٠ الصادر في ١٣٦٧/٥/٢٥هـ (١٩٤٨/٤/٥م).

ومن أقوال التلمود:

«لا عمل لله في الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة».

و «في ساعات النهار الثلاث الأخيرة يجلس الله ويلعب مع الحوت ملك الأسماك».

و «إن الله ليس معصوماً من الخطأ، فهو يندم على تركه اليهود شعبه المختار في حالة التعس عندما كتب الذلة والمسكنة عليهم، وصرح بهدم اورشليم، ولهذا فهو يبكي وينوح كل يوم».

و «الله ليس معصوماً من الطيش، لأنه حين يغضب يستولي عليه الطيش، كما حدث يوم غضب من بني إسرائيل في الصحراء، وحلف أن يحرمهم من الحياة الأبدية، ولكنه ندم على ذلك بعد إفاقته، ولم ينفذ القسم، وهو يحنث في يمينه».

و «إن الله يكذب بقصد الاصلاح، إذ كذب ليصلح بين إبراهيم وزوجه سارة، ولذلك فالكذب حسن وسائغ من أجل الاصلاح».

و «خلق الله الشياطين يوم الجمعة عند الغروب، ولم يخلق لهم أجساداً وملابس، لأن يوم السبت كان قريباً فلم يكن لديه من الوقت ما يكفيه لخلق الأجسام والملابس».

و «أرواح اليهود أعز لدى الله من أرواح غيرهم، وأرواح غير اليهود أرواح شيطانية».

و «يسوع الناصري في لجج الجحيم بين العار والنار، وحملته أمه من «بانـدرا» العسكري سفـاحاً، والكنـائس المسيحية قاذورات، وأساقفتها كلاب نابحة، وقتل المسيحي فريضة على اليهودي، والعهد مع المسيحي ليس عهداً ملزماً يجب الوفاء به، وفرض على اليهودي لعن رؤساء المسيحية» إلخ.

وتقوم الديانة اليهودية على هذه الأسس: الشريعة وهي «التوراة» وتكرارها أو تثنيتها التي تتجلى في «المشنا» وفقه الشريعة الذي يحتويه «الجمارا» ووراء هذه الكتب تل من الشروح والمؤلفات تأتي على قمتها أقوال الآباء.

وفي الجزء الفقهي من المشنا طائفة من أقوال الآباء الموجزة وضعت بين القسم الذي يبحث في الوثنية والقسم الذي يتعلق بالخطايا العفوية الناجمة من قلة خدمة بعض المرشدين والكهنة.

وهذه الأقوال الموجزة تتسم بطابع الحكمة والمثل، ولها من المكانة لدى اليهود ما جعلهم يضمونها إلى سفر صلواتهم، وقصد من ذلك الاصلاح والعظة والتطهير، فالعامة الذين لا يدركون أسرار التوراة ولا يفهمون التلمود يجدون في أقوال الآباء غذاء أرواحهم وضمائرهم وقلوبهم.

وعني علماء اليهود ومفكروهم بشرح هذه الأقوال وأسهبوا فيه وأبانوا مكانتها في الآداب الموسوية وأثرها في نفوس اليهود، وضمت شروحها في كتاب مقسم إلى ستة أبواب، ويضم كل باب فصولاً أشبه بالفقر، ويحوي كل باب عديداً من الفصول، وأصغر

الأبواب يحوي أحد عشر فصلاً، وأكبرها سبعة وعشرين فصلاً.

ومن طرائف هذه الأقوال وأجملها :

إذا أردت أن تحكم على أحد فضع نفسك مكانه.

أحبب العمل وابغض الرئاسة وترفع عن خدمة السلطات الحاكمة.

حفظ الدنيا مضمون بثلاثة: الصدق والعدل والسلام.

كن رجلاً في الموضع الذي يُفْتَقَد فيه الرجال.

من يكثر من اللحم يكثر من الديدان، وإكثار المال إكثار الهم، وكثرة الخدم تزيد الفسق.

المزاح يفضي إلى الحماقة، وهي تهدي إلى الفسق.

الحكيم من يتعلم من جميع الناس، والقوي من يملك هواه، والغني هو القانع بما في يده أو بنصيبه، والشريف من يحترم أبناء جنسه.

ليس في مقدورنا تصور ما ينجم من رخاء اللئيم وجوع الكريم.

ثمرة تكفِّي العلم من الشبان هي الحصرم.

ما كان للسيف وجود لولا التهاون في العدل، والانصراف عنه.

وهناك كتب إسرائيلية أخرى لم تصل إلى درجة الأسفار التي أشرنا إليها، لأنها لم ترتفع إلى درجة القداسة.

ومكتبة الديانة اليهودية حافلة بآلاف الرسائل والشروح والذيول والصلات والتكملات في العقيدة والفقه وفي الفلسفة والاجتماع وغير ذلك من العلوم والآداب والفنون، ولكن أعظمها الأسفار المقدسة التسعة والثلاثون على رأي الكنيسة البروتستانتية، والستة والأربعين على رأي كنيسة الكاثوليك، وأعظم من هذه الأسفار الأسفار الخمسة المسماة «التوراة».

ولكن اليهود يجمعون على أن «التلمود» أعظم أسفارهم المقدسة، وأكثر قداسة من التوراة نفسها.

الفِرَق اليهودية

افترق اليهود فيما بينهم إلى فرق كثيرة، واشتد الخلف فيما بينهما، وامتد إلى الأصول، ولحق الفروع، والخلف فيما بينهما مشهود في العقيدة، وفي الفقة والتشريع، وفي الأحكام.

ولكنهم متفقون على أن التوراة أساس الديانة اليهودية، ويختلفون فيما عداها، وإذا استثنينا السامريين، فاليهود على اختلاف فرقهم متفقون على أن التوراة والتلمود أساس ديانتهم عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكا، والتوراة وإن كانت مقصورة على الأسفار الخمسة في الحقيقة إلا أنهم يطلقون على هذه الأسفار الخمسة والأسفار الأربعة والثلاثين التي يحويها الكتاب المقدس التوراة مجازاً.

أما السامريون المقيمون في نابلس فيخالفون اليهود جميعاً، فهم ـ أولاً ـ لا يسمون أنفسهم يهودا، ولا يرضون أن يطلق عليهم هذا الاسم، ولا يقبلون أن يعرفوا بغير السامرة، ولا يعترفون بغير الأسفار الخمسة التي تعرف بالتوراة، وينكرون المشنا

والجمارا اللذين يكونان التلمود، ولا يقرون بكل شروحه وملاحقه وذيوله وأقوال الآباء.

وفرقة القرايين لا تعتبر التلمود توراة ثانية، ولا تعترف بكلام الحاخامين، لأن القرايين يذهبون إلى أن باب الاجتهاد مفتوح لم يغلق كما يزعم الربانيون إقفاله بالتلمود وتعاليم الحاخامين.

وفي فقه اليهود ثروة تشريعية، يتفق بعضها مع الفقه الاسلامي في العموم كالمحارم والميراث، ويختلف عنه في التفصيل والمقادير، وكثير من فقهائهم يعقدون مقارنات علمية ناضجة بين الفقه الإسلامي والفقه الإسرائيلي، ويؤيدون فقههم بفقه الإسلام وآراء فقهاء المسلمين في كثير من أبواب فقههم.

وهذا اللقاء بين الفقهين ليس مقصوراً على فرقة دون أخرى، بل يذهب السامرة إلى أكثر من ذلك، فهم يميلون إلى المسلمين ولا يميلون إلى اليهود[١].

وليس اليهود جميعاً على ملة واحدة، ولئن كانوا يهوداً بالاسم فهم مختلفون نحلة ومذهباً، ومنهم فرق كثيرة في القديم والحديث، وأشهر فرقهم القديمة خمس، وهن: الصدوقية والفريسية والحسدية والسامرية والجليلية.

---

(١) في ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ قبل الحرب الإسرائيلية العربية كنت في نابلس وزرت السامرة فتأكد لي هذا الذي ذكرته.

ففرقة الصدوقيين تنسب إلى «صدوق» أو «صادوق» وكان في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو مؤسس الصدوقية المذكورة في الإنجيل، وكان الصدوقيون يتولون الكهان والمحافظة على الهيكل، ومن هنا كان تشددهم في محاربة البدع وما يخالف نصوص التوراة في أسفارها الخمسة، فقد كانوا لا يعترفون بسواها بل يأبون قبوله ويردونه.

وبلغوا أعلى مرتبة في الشعب اليهودي حيث أوصلتهم إليها السلطة الدينية فكانوا حرفيين «نصوصيين».

وكانوا لا يعترفون بالبعث والقيامة لأنهم يعتقدون في الجزء العاجل، إنْ عمل المرء خيراً أو شرا لقى جزاءه في حياته، ومرد اعتقادهم هذا أن الأسفار الخمسة التي يطلقون عليها التوراة خالية من ذكر البعث والنشور، فهم لا يعتقدونها.

ومع أنهم كانوا متزمتين حرفيين إلا أنهم يوصفون بالتحرر أيضاً، فقد عقدوا صلات مع غير أبناء جنسهم ممن يسمون «أجانب» بخلاف الفرق الأخرى، كما أباحوا لأنفسهم كل أسباب المتع والنعيم، وكان منهم من فتحوا عقولهم للفلسفة اليونانية ولكن قلوبهم كانت عامرة بإيمانهم وعقيدتهم، وحرصوا على أن يبقى المجتمع الإسرائيلي مستقراً لأن ما هم فيه من ترف ورغد وسيادة وصولة يحملهم على المحافظة على السنن القديمة الموروثة وتطبيق «تعاليم» ما يعتقدون من أمور دينهم.

وكان الصدوقيون شديدي الوطأة في معاداة المسيح عليه

وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، بل كانوا أشد فرق اليهود عداء له، ولا يستغرب منهم ذلك، فهم - أولاً - ذوو الجاه والصولة والإشراف على الهيكل، وخروج المسيح يهدد سلطانهم، وهم - ثانياً - ذوو ترف ونعيم، والمسيح يدعو إلى الزهد، وهم - ثالثاً - لا يؤمنون باليوم الآخر والمسيح يدعو إلى الإيمان به، وهم - رابعاً - حريصون على بقاء النظام القائم كما هو والمسيح سيغير منه، وفي التغيير تغييرهم، فهم مقاوموه ما داموا غير مؤمنين.

وفرقة الفريسيين، وبينهم وبين الصدوقيين منافسة وخصام، ويفترقون عنهم في أشياء ويميزون أنفسهم على غيرهم وبخاصة هؤلاء الخصوم، فالفريسييون يعتقدون أن الصالحين من الموتى يبعثون ويشتركون في مملكة المسيح المنتظر الذي ينقذ الناس وينشر العدل ويدخلهم في ديار موسى، بخلاف الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالبعث على أي صورة من صوره.

والفريسيون يترفعون عن مخالطة الأجانب ولا يخالطون سوى بني جنسهم، وهم في هذا يخالفون الصدوقيين الذين يخالطون الأجانب.

ومع أن الفريسيين يعتقدون أن الله ميزهم فلم يكونوا يتعالون على الشعب، وقصروا تعاليهم وكبرياءهم على منافسيهم الصدوقيين، فنالوا مودة الشعب وحسن السمعة بين أفراده، بل كانوا موضع الإكبار من أعلياء بني إسرائيل الذين يأبون مخالطة الأجانب.

ويفترقون عن الصدوقيين أنهم أصحاب رأي وقياس، وإذا وجدوا في ظلها ما ترتاح إليه ضمائرهم لم يكونوا يبالون مخالفة ظاهر النص ما دام التأويل يحتمله والاجتهاد يسيغه.

وإذا كان الصدوقيون مترفعين عن الشعب لأنهم حفظة الهيكل وخدم الشريعة فإن الفريسيين كانوا متواضعين، ولكنهم يتكبرون على الصدوقيين المخالفين - كما يرونهم - ووجه المخالفة أو أوجهها هي التي مرت الإشارة إليها.

وبلغ من تحرر الفريسيين ورغبتهم في صرف الناس عن الهيكل الذي يتولى الصدوقيون أمره وقصرهم عليه إقامة الشعائر دعوتهم الجريئة إلى جواز إقامتها في غير الهيكل فتكون الشعائر ليست خاضعة لهم، فحفظ الشريعة ليس معناه - عندهم - المحافظة على الطقوس، فكانوا يؤكدون حفظ الشريعة أكثر من التأكيد على الطقوس، فكان الصراع - بسبب ذلك - بينهم وبين الصدوقيين.

وكانوا ينتظرون المسيح المنقذ ويؤمنون بمجيئه، وبعد سقوط القدس كان الفريسيون ممثلي اليهودية، وعندما جاء المسيح خاصموه لأنه عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - شدد عليهم النكير.

واتفق الصدوقيون والفريسيون واليهود على المسيح وأسلموه للقتل ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ حكم عليه «قيافا» الصدوقي رئيس الكهنة في أورشليم وأعانه زميله الكاهن

الصدوقي «حنانيا» وفرح الفريسيون واليهود بالحكم، وشيعوا المسيح ـ كما يزعمون ـ إلى ميدان الصلب وهم مبتهجون.

وللفريسيين مواقف تدون لهم في تاريخهم، فقد وقفوا في وجه الوثنية الاغريقية والإرهاب الروماني في سبيل العقيدة اليهودية موقفاً عظيمًا، فعندما أمر انطيوكوس الملك السلوقي أن يضحي الكهنة واليهود بالخنزير في هيكلهم وقف الفريسيون وقفة رجل واحد، ورضوا بالموت ولا تمس شعائرهم الدينية، وقتل منهم كثير، بل كانوا في وجه الوثنية منذ أوائل حكم انطيوكوس، فقد تمسكوا بديانتهم ولم يتسامحوا فيها كالصدوقيين واستسلموا للقتل الجماعي في صبر وعناد أثار اعجاب انطيوكوس نفسه.

والكاهن الفريسي «متاتياس» وأبناؤه الخمسة يعدون من أبطال الفريسيين، لأنهم امتشقوا السلاح في وجه الوثنية الطاغية وقاتلوامع جماعتهم جيوش انطيوكوس وهزموا قائده «ليسيوس» ثم قائده «ديمتريوس» ولبثوا في الحرب من سنة ١٦١ ـ ١٥٠ق.م. وأبناء متاتياس يعرفون بالمكابيين.

والفرقة الثالثة فرقة «الحسديين» والكلمة معربة من العبرية (حسديم) ويسمون أيضاً «الأسينيين» من «آسى» الآرامية بمعنى الطبيب، ويقال في سبب التسمية أنهم كانوا يعنون بطب الروح وذلك بتهذيبها عن طريق الرياضة والعبادة رغبة في شفائها من الأسقام الخلقية والمعنوية.

والحسديون يخالفون من سبقوا، ولولا صلتهم بالهيكل الإسرائيلي لما حسبوا من الإسرائيليين، فقد انفردوا بطقوسهم وشعائرهم وعباداتهم وابتعدوا عن سابقيهم بآرائهم وأفكارهم، وخالفوهم في القرابين إذ كانوا يؤثرون قرابين النبات على قرابين الحيوان التي كانت لدى الصدوقيين والفريسيين من أبرز مظاهر العبادة، فالتقرب إلى الله بالعمل الصالح خير وأبقى من هذه الضحايا والقرابين.

وامتاز الحسديون على غيرهم بفلسفة خاصة ونظام خاص، فلا رئاسة ولا سلطان، بل كلهم سواء في الحقوق والواجبات، ويترفعون عن التجارة لأنها مدعاة إلى صنوف من المناكر يجب تجنبها، مثل الرياء والكسب غير المشروع والاحتكار والاستغلال وانتهاز الفرصة وغلاء الاثمان طمعاً في الربح الفاحش والابتزاز، ولهذا كان العمل الأثير لديهم هو الزرع وأعمال اليد المختلفة.

وكانوا يحرمون التمييز العنصري والرق، لأن الناس جميعاً سواء وإخوة، ويحرمون الحرب والقتل وحمل السلاح، والتكالب على المال، بل كانوا ـ وهم على حق ـ يرون المال أداة كل الجرائم والموبقات، وباعثاً على الفتن والشرور، ومن يبتهج به فإنه يبتهج للإثم.

وكانوا يؤمنون بالبعث والقيامة، ويؤمنون بالمسيح المنتظر الذي يتم على يديه الخلاص، وهم في فكرته يغايرون سواهم، فالخلاص عندهم روحي وليس دنيويا، فإذا انتظر اليهود المسيح

ليخلصهم من الذل ويمنحهم القوة والسيادة والملك فإن الحسديين ينتظرونه لخلاص الروح من الأرهاق التي توثقها ومن المهاوي التي تردت فيها.

ودفعتهم إنسانيتهم إلى أن يتقاسموا كل ما في أيديهم فيما بينهم، فلكل ما يحتاج إليه، وبذلك ألغوا الملكية الفردية واستبدلوا بها الملكية الجماعية، وكل بيت لديهم مفتح الأبواب يدخله الحسدي أنى شاء.

وكانوا زهاداً سموا على المطامع وإغراء المادة والشهوات، ودعا كهانهم إلى التبتل، لأن الزواج قد يثمر شروراً، والبعد عن المرأة فضيلة وغنيمة، والولد مجبنة مبخلة مجهلة، فاعتزال المرأة فضيلة وسرور للروح.

ويقال أن سيدنا يحيى بن زكريا المعروف لدى أهل الكتاب باسم يوحنا المعمدان أو المغتسل من هذه الفرقة، وهذا جائز، وإن كان قد قيل عنه إنه من الصابئة المؤمنة التي أشار إليها القرآن الكريم في غير موضع من مواضعه الشريفة.

والفرقة الرابعة «الجليلية» أتباع يهوذا الجليلي، وهو من الحسديين، ويهوذا هذا منهم، فأبوه الكاهن «متاتياس» كان حسدياً أكثر منه فريسيا، وقاد حربا ضد السلوقيين الوثنيين، وكان له خمسة أولاد هم يوحنا وسمعان ويهوذا والعازار ويوناثان، وكانوا أبطالا مغاوير متدينين، شاركوا أباهم في الذود عن اليهودية، وكان يهوذا أبرزهم حتى مات أبوه.

ويلقب يهوذا بالمكابي أو مكابيوس ومعناها بالعبرية «ما حق أعداء الله» وبلغ من تشدده في الديانة والعقيدة ما جعل بعض المؤرخين والباحثين يذهبون إلى أنه حسدي متطرف، وقد انتصر في حروبه ضد الوثنية السلوقية الإغريقية على القائد السلوقي ليسيوس حيث رد هجماته وأجبره على التراجع، كما دون انتصارات على القائد السلوقي الآخر ديمتريوس.

وأبدى الجليليون صنوف البسالة في وجه أعدائهم الوثنيين، وأعلنوا تمسكهم بطقوسهم وشعائرهم، وكانوا متشددين.

وقد انقرضت هذه الطائفة التي يعود إليها وإلى الحسديين فضل بقاء اليهودية حتى اليوم، إذ لولا المقاومة التي أبدوها لزالت اليهودية.

ويخلط كثير من المؤرخين بين هذه الفرق ويدخل بعضها في بعض، ويصف بعضها بصفات بعض حتى اختلط الأمر، ولكن بين بعض الفرق نقاط التقاء ومشابهة تشجع على خلط المؤرخين.

وأما الفرقة الخامسة المشهورة فهي «السامرية» سكان السامرة، وهم خليط من اليهود والآشوريين كانوا يقيمون في مملكة إسرائيل المؤسسة سنة **٩٢٣** ق. م على يد يربعام من قبيلة أفرايم، والتي جعلت السامرة عاصمتها بأخرة.

وعندما حدث سبي اليهود من مملكة إسرائيل إلى نينوا عمرت السامرة بأقوام من العراق نقلوا إليها بدل اليهود المسبيين،

ويرى الأب أنستاس ماري الكرملي أن هؤلاء الأقوام وفدوا إلى السامرة من منطقة الكويت[1]، وسواء صح أنهم منها أو من غيرها فمما لا شك فيه أن ملك آشور نقلهم من العراق إلى السامرة بفلسطين وأنزلهم بها بدل من سباهم من اليهود.

ويقال: إن السامريين هم من المسبيين، ويمكن الجمع بين القولين ويقال: إنهم من هؤلاء وهؤلاء.

ولم يكونوا على وفاق مع جيرتهم اليهود، بل كان بينهم خصام وعداء متضرمان دائماً، ويتربصون ببعض الدوائر، ولما أراد اليهود إعادة بناء سور أورشليم كتب السامريون إلى ملك فارس ارتحششتا فوقفهم عن البناء، ثم لما جددوا العزم على إعادة بناء الهيكل قاتلهم السامريون وعرقلوا أعمالهم، ومع قلة عددهم كانوا يبثون الرعب في قلوب اليهود، وما كانوا يجرءون على المرور بالسامرية خوفاً من أهلها.

وكان الخلاف بينهم شديداً، فكل منهم يرى الآخرين على كفر وضلال، وبلغ بهم إلى حد بعيد حتى أن السامريين بنوا لأنفسهم هيكلاً خاصاً بهم على جبل جرزيم يحاكي هيكل سليمان جعلوه قبلتهم ومثابة حجهم ومكان عبادتهم وأعيادهم، وكان منافساً خطيراً لهيكل أورشليم حوالي قرنين من الزمان مما حمل «يوحنا حيرقان» رئيس كهنة بيت المقدس على الشخوص بجيش

---

(١) الأرض المقدسة لأنور الرفاعي ص٧٥.

يهودي إلى الهيكل فقوضه ودك أسواره في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد.

ولكن السامريين أعادوا بناء هيكلهم وزاد حقدهم على خصومهم ولم يتركوهم من المناوأة فقد كان الاختلاف بينهم واضحاً يزداد معه الخلف على مر الأيام، وكل فريق يتهم الآخر بالنجاسة والضلال والمروق، فلا يخالط السامري اليهودي ولا يعامله.

ويدعي السامريون أنهم هم شعب الله المختار، وأنهم بنو إسرائيل الحقيقيون بقايا مملكة إسرائيل، وينفون عن اليهود ما يدعون، ويحتفظ السامريون بتوراة مقصورة على الأسفار الخمسة المكتوبة بلغتهم، وتثبت توراتهم القداسة لجبل جرزيم وتختلف عن توراة اليهود في بعض المواضع، ولا تعترف بالتلمود والكتب اليهودية الأخرى، وما يزال الأحياء منهم حتى اليوم على دعوى أسلافهم القديمة، وموطنهم بنابلس، وجرزيم بها، وعددهم حسب آخر إحصاء هو خمسون وثلاثمئة[1].

وهناك فرق أخرى كثيرة، قديمة وحديثة، وأهم الفرق التي تعتبر حديثة فرقة القرايين التي أسسها العالم اليهودي داود عنان ببغداد في القرن الثامن الميلادي، وفي القرايين المعاصرين علماء في الفقه المقارن في مصر وفي روسيا ولهم بحوث رائعة فيه، ويخالفون غيرهم في كثير من أمور العقيدة والفقه.

(١) في إحصاء الحكومة الأردنية الأخير سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٥م).

وهؤلاء لا يعترفون إلا بأسفار العهد القديم، ولا يعترفون بالتلمود توراة أخرى ولا بآراء الحاخامين، ولكنهم إذا وجدوا في التلمود ما يرضون عنه أخذوا به وإلا تركوه، لأن القرايين يرون باب الاجتهاد مفتوحاً لم يغلق، ويقول مراد فرج اليهودي المصري في كتابه «شعار الخضر»[1]:

«إن إخواننا يعتبرون التلمود توراة ثانية لا يقدرون أن يحيدوا عنه قيد نقير أو فتيل فضلاً عن عدم اعتبار القرايين له إلا ما وافق منه فإذا أمكن للقرايين الاجتهاد وهو غير مقفل عليهم إقفاله على إخوانهم بالتلمود، فإمكان اجتهاد هؤلاء مثلنا لا يتأتى كما هو ظاهر إلخ». وقوله «إخواننا» يقصد بهم فرقة «الربانيين» كما ذكر في الهامش.

(١) صفحة ١ من المقدمة، والكتاب مطبوع بمطبعة الرغائب بمصر سنة ١٩١٧ م.

كلمة موجزة

وموجز القول في الديانة اليهودية: أنها لم تعد ديانة توحيد، لأن العهد القديم والتلمود مليئان بما ينقض التوحيد، ففيهما كفر بواح وازدراء بالخالق ووصفه بما يهبط به إلى صفوف البشر، فهو يندم ويلعب ويدرس، واتهام للأنبياء بالعهر والفسق والفجور والزنا، ورفع الحاخامين إلى مقام الله، بل تفضيلهم عليه.

وبعض هذا لا يتفق مع التوحيد الذي جاء به موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، بل يهدمه من أساسه.

فالديانة اليهودية لم تعد ديانة توحيد بعدما حرف من التوراة ما حرف، وهي غير التوراة الموجودة، وبعد أن زخر التلمود بالكفر والشرك، وتعالى الله عز وجل عما وُصِف به في التلمود وفيما يطلق عليه التوراة، فهو مغاير لخلقه في الصفات، وموصوف بأكمل الصفات التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه، لا مَلَكٌ مقرب، ولا نبي مرسل، ولا حاخام ولا مَلِك، بل هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس كمثله في الأرض ولا في السماء.

الفهرس

ديانات التوحيد ٧
ديانة إبراهيم ٢٧
ديانة موسى ٩٩
موسى ٩٩
وجود موسى واشتقاق إسمه وأصله ١٠٤
موسى يقتل ويهرب ١١٠
عودة موسى ورسالته ١١٦
بين يدي فرعون ١٢١
غرق فرعون ونجاة بدنه ١٣٣
فرعون موسى ١٤٣
شرك بني إسرائيل ١٤٩
بنو إسرائيل ١٥٥
مدة بقاء الإسرائيليين في مصر ١٦٥
دولة إسرائيل ١٧٣
عقيدة الديانة الموسوية ١٩٥

الوثنية في اليهودية ٢٢٧
اليوم الآخر ٢٣٧
يَهْوَه إله عام ٢٤٨
أنبياء بني إسرائيل ٢٦٦
الفلسفة في اليهودية ٣١٨
الأسفار المقدسة ٣٣٤
الفرق اليهودية ٣٦٨
كلمة موجزة ٣٨٠



أحمد عبد الغفور عطار



الجزء الثالث

مكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

مكة المكرمة

الديانات والعقائد

في مختلف العصور

المسيحية والمسيح



بسم الله الرحمن الرحيم

المخلّص

انتظار المخلص أمل البائسين والمحرومين والمكروبين في كل زمان ومكان، والرغبة في تغيير الحال إلى الحسن والأحسن، والتطلع إلى مستقبل مجيد زاهر هما الأمل الذي من أجله يحيا الناس، ولولاه لما كان للحياة طعم في أفواه المكروبين، وهو دافعهم إلى السير انتظاراً للخلاص يرتقبونه في شوق لا مزيد عليه.

وكلما زاد بؤس الإنسان واشتد الظلم تضاعف أمله في الخلاص المنتظر، أو يشتد به التشاؤم واليأس، ولكنه على كلتا الحالين ينتظر الخلاص من واقعه الأليم، ولم يكن شعب إسرائيل متشائماً، بل كان بفرقه المعدودات ينتظر المخلص الذي يدفع عنهم الآلام والعذاب والاضطهاد، ويعيد إليهم السلطة والحكم، ويقضي على الظالمين، ويغير حالهم إلى خير حال.

ولم يكن شعب إسرائيل المكروب المضطهد بدعاً بين الشعوب في انتظار المخلص، بل سبقته شعوب في انتظار من

يخلصونها مما هي فيه، فالمصريون القدماء كانوا ينتظرون المخلص، ويزعمون أن «حورس» هو المخلص المولود من العذراء «إيزيس» وكلاهما إله.

ويعتقد سكان سيام في إله مولود من عذراء يسمونه «كودم» ويزعمون أنه مخلصهم.

وفي رأس «كومورين» بجنوب الهند يعبدون إلهاً يسمونه «سِلْفاهانا »ابن «تيشكاكا» وذلك الإله هو المخلص.

وكان سكان المكسيك قبل ذهاب خرستوف كولمب إلى أمريكا بقرون يعبدون إلهاً مخلصاً اسمه «كوتزلكوتل» مولود من العذراء البتول «سوشيكتزال».

وطائفة من هنود أمريكا تعرف بالأجبوابو يعتقدون في إله إسمه «ميشابويح» مولود من أم بشرية، وهو الولد البكر لإله السماء «منيوتوغا» ويقولون: إنه مخلص العالم.

والبابليون والمجوس وغيرهم يعتقدون في «مخلص» وكل هؤلاء يتفقون مع الإسرائيليين في «المخلص» حتى لكأن أولئك المخلصين هم المسيح المخلص نفسه، وبعضهم كأنه هو نفسه.

وكان بنو إسرائيل ينتظرون المسيح المخلص في إيمان وشوق وبخاصة بعد هدم الهيكل لأول مرة، والمخلص المنتظر لم يكن ذا صفة واحدة، بل كان يختلف باختلاف ما هم فيه من الحياة التي يحيونها، فعندما هُدِم الهيكل لأول مرة كانوا يتصورونه ملكاً قوياً

من ذرية داود ينقذهم، ويعيد بناء الهيكل، ويدين له الملوك، وتخضع له الشعوب.

فالمخلص المنتظر رمز القوة والبطش بالأعداء والأجانب جميعاً لأنه ينتقم لشعب إسرائيل، ولكن هذا المخلص تطور لدى الإسرائيليين، فبعد أن كان قوة وبطشاً صار رحمة وبركة وهداية، انقلب من ملك إلى نبي، بل كان لقب «المسيح» مخلوعاً على الملك لأنه يمسح بزيت البركة، فقد جاء في سفر أشعيا الإصحاح الخامس والأربعين:

«هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً وأحقاء ملوك أجل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق».

وكورش ليس من بني إسرائيل، بل فارسي وملك فارس (٥٦٠ ـ ٥٢٩ق. م) وسمح لليهود المسبيين بالعودة إلى فلسطين، فذكروه بخير كثير، حتى وصف بالمسيح، والمسيح: الممسوح بالزيت المبارك، والمسح به شعيرة من الشعائر المقدسة، وما يمس الزيت المبارك شيئاً إلا صار مقدساً، ومن تقديس الأنبياء قيل لهم: مسحاء الله، وجاء النهي عن مس المسحاء وإيذاء الأنبياء.

وانقلب المخلص من صورة الملك القوي إلى صورة الوديع الرحيم، ومضت القوة الباطشة ليحل محلها العطف والرحمة، وشاهت صورة المادة والظلم، وحسنت هيئة المعنى والإحسان والعدل.

ففي سفر أشعيا صورة المسيح المنتظر تغاير الصورة الأولى، ففي الإصحاح الثالث والخمسين منه في وصفه: «محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع» وفي الإصحاح التاسع والخمسين: «إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تثقل أذن عن أن تسمع، بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع، لأن أيديكم قد تنجست بالدم، وأصابعكم بالإثم، شفاهكم تكلمت بالكذب، ولسانكم يلهج بالشر، ليس من يدعو بالعدل، وليس من يحاكم بالحق... أرجلهم إلى الشر تجري.. أفكارهم أفكار إثم.. طريق السلام لم يعرفوه، وليس في مسالكهم عدل، جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة، كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً. من أجل ذلك ابتعد الحق عنا ولم يدركنا العدل، ننتظر نوراً فإذا ظلام، ضياء فنسير في ظلام دامس... ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية».

وفي سفر زكريا الإصحاح التاسع وصف للمخلص وهو: «ابتهجي جداً يا بنت صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم، هو ذا ملكك يأتي إليك، هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان»[1].

---

(١) لم يثبت في التاريخ أن المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان ملكاً ولم يدَّع الملك، ، والذي دخل بهذه الصورة بيت المقدس (أورشليم) هو الخليفة عمر بن الخطاب، فإذا صح أن زكريا تنبأ بما تنبأ فذلك خاص بعمر، فهو حاكم مطلق أعظم من ملك، بل كان في عداد أكبر ملوك عصره، وكان خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، وأقوى حاكم على وجه الأرض في زمنه، وقد=

ومهما كانت الصورة للمسيح المنتظر فإن الشيء الوحيد هو انتظار مخلص، وبعد أن كان ملكاً قوياً، صار ملكاً عادلاً منصوراً وديعاً متواضعاً بعيداً عن الأبهة والعظمة الزائلتين.

وكان عصر المسيح الذي ولد فيه وبعث عصراً شديد الحاجة إلى «مخلص» حقاً يخلص البشرية مما انحدرت إليه من الوثنية والشرك والباطل والظلم وخراب العقيدة والضمائر والذمم والأخلاق الكريمة ويعيد إليها الأمن والطمأنينة أو يبشر بهما رجاء أن تثوب إلى الرشد.

عصر المسيح كان عصراً غريباً، ملوك وحكام ظلمة، ادَّعى بعضهم الألوهية، وكلهم كانوا لعنة على شعوبهم، وبجانبهم من بلغوا في الترف والغنى يتبعهما الفجور مبلغ آلهتهم، ووراءهم الشعوب جائعة مقهورة، والدين الصحيح لا وجود له، فاليهود

= دخل القدس راكباً على حمار: جحش ابن آتان. وبقية تنبؤه هو: «وتقطع قوس الحرب، ويتكلم بالسلام للأمم، وسلطانه من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض».

وسلطان عمر بن الخطاب امتد من البحر إلى البحر، من البحر الأحمر إلى فارس ومن نهر الأردن إلى نهر الفرات، وعلى يديه قطعت قوس الحرب وعم السلام فلسطين، وتكلم بالسلام حقاً.

وجميع هذه الصفات خاصة بعمر بن الخطاب رضي الله عنه لا المسيح عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه، لأن المسيح بعد دخوله القدس لم تقطع قوس الحرب ولم يكن سلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض، ولم يدخل المسيح دخول ملك منصور، بل كان دخوله دخول إنسان كسائر الناس، وعندما دخل الهيكل وناقش الكهنة ساد الهرج والخصام مما أودى بحياته على زعم أهل الكتاب.

غيروه وأدخلوا فيه الشرك والوثنية، ورجال الدين صاروا أرباباً من دون الله، والأديان الأخرى وثنية، وتبع فساد الدين والعقيدة فسادٌ في الخلق والاقتصاد والتجارة، بل انهارت المجتمعات حيث طغى عليها الظلم و «المادية» وأصبح عالم الضمير خالياً خرباً ينعب فيه البوم وينزنه.

فهو عصر يحتاج إلى من يعيد إليه بشاشة الأمل، ورداء الإنسانية، وبسمة الرحمة تبدد عبوس المادية والكفر والباطل.

عصر ينتظر في لهفة من ينقذه من الفساد ويخلصه من المادية، فكان المنقذ المخلص هو المسيح ـ عليه وعلى نبينا وكل إخوتهما صلوات الله وسلامه ـ وكان حقاً الأمل المنشود لعصر أمعن الباطل فيه إمعاناً حتى أن من كانوا يترقبون مجيئه كانوا أول الثائرين عليه وأشد المنكرين الجاحدين رسالته التي آمنوا بها ثم توارى الإيمان ليحل محله الكفر.

في ذلك العصر المادي المكروب ولد المسيح فكان خاتم الأنبياء والمرسلين من بني إسرائيل ليعقبه محمد ختامهم جميعاً.

وأسرة المسيح من خير الأسر في ذلك العهد وفي كل العهود، فأمه ـ عليها السلام ـ نبية صدِّيقة، وأفضل نساء العالمين دون نزاع[1]، فهي طاهرة ابنة أطهار بررة كرام، فأبوها عمران

(١) في القرآن الكريم (سورة آل عمران الآية ٤٢): ﴿يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ وفي الأحاديث الصحيحة: «أفضل=

من الصالحين، وقد اصطفى الله آل عمران من بني إسرائيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وأم مريم نفسها من الصالحات، فقد نذرت ما في بطنها لله عز وجل، لعبادته وخدمة بيته لا عمل له غير العبادة الخالصة، ولشدَّ ما بلغ بها الأسى أنها ولدت أنثى ولم يكن المولود ذكراً، فهو أقدر على تحقيق ما نذرت، ولكن تلك مشيئة الله فهي راضية بها، ولعل له في ذلك حكمة، بل له عز وجل الحكمة كلها، فعاذت بالله وأعاذت به عز وجل ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم.

واستجاب الله دعاءها وتقبلها منها بقبول حسن اقترن به نباتها نباتاً حسناً، وما كان الله ليستجيب الدعاء ويقبل النذر ويوفقها للوفاء به لولا أنها صالحة برة جعلها أهلاً لمرضاته ومحلاً لرضاه.

فجدة المسيح امرأة صالحة تقية، وكان ما في بطنها نذراً محرراً، وكان مريم عليها السلام، ونشأت وربيت على عين الله فكانت المثل الأعلى للمرأة في الإنسانية كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، المثل الأعلى للمرأة في البر والتقوى والصلاح والإيمان، وكملت صفاتها حتى صارت سيدة نساء العالمين.

= النساء مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد».

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣.

امرأة يتقبلها الله بقبول حسن وينبتها نباتاً حسناً بعد أن تتكون في أحشاء امرأة صالحة مؤمنة، ويكفلها زكريا عليه السلام.

وكفالة زكريا مريم دليل على وفاة أبيها عمران، إذ لو كان حياً لقام هو نفسه بكفالة ابنته، ولعل في موته حكمة حتى يكفلها نبي من أنبياء الله الصالحين، وبذلك يتم نبات الله إياها نباتاً حسناً.

فمريم طاهرة صالحة من طاهرة صالحة كفلها نبي صالح، ورضيت الوفاء بنذر أمها فانقطعت لعبادة الله وحده وخدمة بيته ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ وهذا يثبت الانقطاع، والمحراب: مقصورة في مقدم المعبد ذات باب مطل عليه يُصْعَد إليها بسلالم من بضع درجات؛ ولا يرى من في المعبد من في المرحاب.

وكانت مريم معروفة بالطهر والنزاهة والتقوى والصلاح، وفي قمة الاحترام من أبناء جنسها الألي يعرفونها، وكان إيمانها قوياً حتى رضيت بالعزلة والانقطاع للعبادة في سن تنصرف فيها المرأة إلى المتاع الحسي واللذة المادية.

وبينا هي في عبادتها وانقطاعها في محرابها بشرت بأنها ستلد وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فهالها الأمر، وأجابت من بشَّرها في استفهام يجتمع فيه الإنكار والإستغراب والرغبة في فهم الحقيقة.

قال الله تعالى في كتابه العزيز [1]:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى

(١) سورة آل عمران ٤٢ ـ ٤٩

قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

و﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ

ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[1].

هذا ما جاء في القرآن الكريم بصدد بشارة مريم، ولكن كتاب الأناجيل المعتبرة لدى المسيحيين لم يذكروها إلا لوقاً، وغيرها لم يذكرها، وكل ما ورد في الأناجيل حول مريم ومولدها لا يعدو الحمل والولادة وما بعدهما.

ففي إنجيل متى الإصحاح الأول:

«أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمة مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس، فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم، وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل، هو ذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.

فلما استيقظ يوسف من ا لنوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذ امرأته، ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر، ودعا اسمه يسوع».

---

(١) سورة مريم ١٦ ـ ٢١.

أما إنجيل مرقس فقد سكت عن قصة مريم، وإنجيل يوحنا لم يذكر مريم إلا ذكراً جانبياً مثل طلبها من ابنها أن يرى رأيه في أمر نفاد الخمر في عرس حضراه ، ومثل انحدارها معه إلى كفر ناحوم.

أما لوقا فقد ذكر بشارة مريم، فقد جاء في إنجيله بالإصحاح الأول:

«وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في السماء، فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية، فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع ، هذا يكون عظيمًا وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإلّه كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون نهاية.

«فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك القدوس المولود منك يدعى ابن الله، وهو ذا أليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً، لأنه ليس شيء غير ممكن

لدى الله، فقالت مريم هو ذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك، فمضى من عندها الملاك.

«فقامت مريم في تلك الأيام وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا، ودخلت بيت زكريا وسلمت على أليصابات، فلما سمعت أليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها، وامتلأت أليصابات من الروح القدس، وصرخت بصوت عظيم وقالت: مباركة أنت في النساء، ومباركة هي ثمرة بطنك، فمن أين لي هذا أن تأتي أمُّ ربي إلي، فطوبى للتي آمنت أن يتم ما قيل لها قبل من الرب.

فقالت مريم: تعظم نفسي الرب، وتبتهج روحي بالله مخلصي، لأنه نظر إلى اتضاع أمته» إلخ..

وليس ثمة فارق في المحتوى بين القرآن وإنجيل لوقا في قصة بشارة مريم إلا في تنبؤ أليصابات أن مريم تحمل الرب لأنها تقول: «أن تأتي أم ربي»، ولم يشر القرآن إلى خطبة يوسف النجار مريم، ولقد كان من عادة اليهود أن يخطب الرجل امرأة فيعاشرها دون أن يمسها، يختبر كل منهما الآخر، ثم يتزوجان إذا رضيا واتفقا.

وسواء أصحت خطبة يوسف أم لم تصح فذلك لا يطعن في «عذرية» مريم عليها السلام، فطهرها ثابت، وعذريتها ثابتة، وما دام ذكر الخطبة أو حذفها لا ينهض عليه ما يغير في حقيقة الحمل من غير أب فلا تعليق لنا عليها.

إلا أن فيما ورد بإنجيل لوقا من بعض الجمل ما يحملنا على

التعليق عليها، فقد قال: «وابن العلي يدعى» و «المولود منك يدعى ابن الله» و «يعطيه الإله كرسي داود»، ولوقا ليس من حواريي المسيح ولا تلامذته، ولم يره، بل تتلمذ لبولس الذي لم يكن له شرف صحبة المسيح، بل كان شديد الوطأة على المسيحية لأنه من الفريسيين ا لمتعصبين ثم اهتدى إلى المسيحية وصار رسولها المبين.

إن هذه الجمل تفرد بها لوقا ـ وإن كان في الأناجيل الأخرى مثلها ـ ولم يذكرها سواه من كتَّاب الأناجيل، وتفرده بها ليس دليلاً على الامتياز، ولا يتهم الآخرون بأن الإلهام قصر بهم وفيهم صحابة المسيح.

جاء في إنجيل لوقا: «وابن العليِّ يدعى» وهو منتزع من قول زكريا في ابنه يحيى عليهما السلام: «وأنت أيها الصبي نبي العلي» فحرفت ونقلت إلى صفات عيسى على لسان الملك إيهاماً بأن المسيح إله ابن إله، واختراعاً لدليل يثبت لهم الثالوث.

وأما جملة «ويعطيه الإله كرسي داود» فغير صحيح، لأن عيسى من أولاد يواقيم، ولا يصلح أن يجلس على كرسي داود لأن يواقيم ـ لما أحرق الصحيفة التي كتبها باروخ من فم النبي أرميا نزل الوحي على هذا فقال: «قال الرب عن يهوياقيم ملك يهوذا: لا يكون له جالس على كرسي داود» (سفر أرميا ٣: ١٣)

وعيسى من أولاد يهوياقيم الذي تنبأ له أرميا في الوحي المنزل إليه أن أحداً من نسله لن يجلس على كرسي داود، وكرسي

داود هو الملك، وصح تنبؤه فلم يجلس المسيح على كرسي داود، بل تذكر الأناجيل أن اليهود أسلموه إلى بيلاطس الحاكم الروماني بعد أن حكموا على المسيح بالموت، وصلبوه وقتلوه كما يزعمون، ولم يقبل المسيح الملك كما جاء في رواية إنجيل يوحنا ٦ : ١٥ : «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده».

ولو كان ما ذكره لوقا حقاً لما أبى المسيح قبول الملك، لأنه وحي، ولأن الله بعثه ليملك كما ذكر جبريل لمريم حسب دعوى الأناجيل، ولا يصح أن يأبى المسيح الملك الذي بعثه الله له وبشر به جبريل أمه الصدِّيقة، ولم يذكر أن المسيح ملك على بيت يعقوب.

وتنبؤ أليصابات أم يحيى التي قالت عندما استقبلت العذراء: «مباركة هي ثمرة بطنك، فمن أين أن تأتي أم ربي إليّ» ليس مستقيمًا، لأنها كيف عرفت أن ما في بطن مريم ربها، مع أن أنبياء لم يعرفوا ذلك، بل إن يوحنا المعمدان نفسه الذي عمد المسيح بعث إليه يسأله إن كان هو المخلص أم غيره، فإذا عرفت أليصابات وحدها أن مريم أم الرب وتنبأت به فلماذا لم يعرف في طفولة المسيح ثم في شبابه أنه الرب؟ لماذا تفردت هي دون الناس جميعاً بهذه المعرفة؟ ولماذا لم تخبر أحداً وتنشر الخبر؟.

إنهم سيجيبون: أن الروح القدس ألهمها، لأن الرواية تقول: «امتلأت أليصابات من الروح القدس، وصرخت بصوت

عظيم وقالت: مباركة في النساء إلخ».

ولكن الروح القدس لم يأمر بكتمان الأمر، وإن أحداً لم يعلم بهذه البشرى التي تجسدت في قول أليصابات إن مريم أم ربها.

الكلمة
في مختلف الديانات

في الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا بالفقرات الثلاث الأولى: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان».

وفي القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

ومبحث «الكلمة» في الفلسفة متشعب، فقد مر في الفصل السابق رأي فيلون العالم اليهودي الكبير والفيلسوف الذي أراد أن يوفق بين الدين والعقل والشريعة والفلسفة، وقد وافقه رجال الدين المسيحي فيما بعد على كثير من آرائه في الكلمة، فهي الله، وهي ابن الله، وهي القوة الفعالة الخلاقة إلى غير ذلك.

وجاءت «الكلمة» بصدد خلق المسيح مرتين في القرآن، إحداهما التي ذكرناها نقلاً من سورة آل عمران، والأخرى في سورة النساء: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

فما هذه الكلمة في الإسلام؟ وما مدى اتفاقها مع ما جاء في اليهودية والمسيحية؟ وما مذهب الفلسفة فيها؟

لا شك أن البحث في «الكلمة» يكتنفه شيء كثير من الغموض والإبهام مع ما كتب فيه من دراسات علمية ناضجة، وما أضيف إليها من معان وتفسيرات زاد على مر العصور.

ففي الفلسفة اليونانية القديمة كان مفهوم الكلمة (The Logos) . هو القوة العاقلة المنبعثة في جميع أنحاء الكون، وأشهر من استعمل الكلمة في هذا المعنى الفيلسوف هرقليطس الذي برز اسمه في سنة ٥٠٠ق.م .

فالكلمة عنده أزلية، وهي الحكمة، والحكمة معرفة ما تتحرك به جميع الأشياء في جميع الأشياء، ويقصد هرقليطس بالكلمة أيضاً ما يسمى بالروح الإلٓهي الذي تتجلى آثاره في كل ما في الوجود الظاهر من حياة وكون وفساد واستحالة، لأن الكلمة مبدأ الحياة ومبدأ إرادة الله التي يخضع لها كل موجود، وهذا يتفق مع رأيه في وحدة الوجود.

وتختلف معاني الكلمة لدى فلاسفة اليونان، فهي ـ عند إنكساجوراس ـ القوة المدبرة للكون التي هي في نظره ـ أيضاً ـ العقل الإلٓهي، والكلمة عنده ما بين الذات الإلٓهية.

ومعنى الكلمة عند الرواقيين: العقل الفعال المدبر للكون، أو العقل الكلي الذي يمد العقول الجزئية بكل ما لديها من علم

ونطق، وكل شيء جزء من الكلمة التي هي في حقيقتها الله والطبيعة، وهذا الرأي يتفق مع مذهبهم في وحدة الوجود.

وفي اليهودية كلمة الله التي من آثارها الخلق، ولما عرفت اليهودية الفلسفة اختلف معنى الكلمة في اليهودية وزاد على ما كان مفهوماً عندها، فصار يؤدي معنى العقل الإلٓهي، ووصفوا كلمة الله بأنها التي تحفظ الكون وتدبره وتصرف أموره.

وفيلون فيلسوف اليهود يفهم من الكلمة معاني جديدة لم تعرفها اليهودية، منها: البرزخ بين الله والعالم، وابن الله الأول، والصورة الإلٓهية، وحقيقة الحقائق، والابن الأكبر المنتمي لأمه الحكمة، وأول الملائكة، والإنسان الأول الذي خلقه الله على صورته[1].

وفي المسيحية تؤدي الكلمة معنى ابن الله وصورته، والواسطة في خلق العالم مشخصة في صورة المسيح، فبالابن وعن الابن وفي الابن ظهر كل شيء، والروح السارية في الكون، والكون الجامع، ومبدأ الحياة، والظاهر بروحه في كل أتباعه والممد لهم بكل علم ومعرفة.

والفقرة التي استشهدنا بها من إنجيل يوحنا توضح أن معنى الكلمة في المسيحية يتفق مع ما وصفها به فيلون الإسكندري مع

(١) مجلة كلية الآداب، المجلد الثاني، الجزء الأول، مايو ١٩٣٤م بحث للأستاذ أبي العلاء عفيفي عنوانه «نظريات الإسلاميين في الكلمة».

فارق واحد بينهما وهو إطلاق يوحنا الكلمة على المسيح.

وللكلمة معان في الديانات الوثنية شبيهة بمعانيها في المسيحية واليهودية، ففي الديانة المصرية كان قسيسو هيكل ممفيس يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: إن الأول خلق الثاني، والثاني مع الأول خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس.

وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره أكان أحد أعظم منه قبله أو يأتي من بعده؟ فأجابه: نعم، يوجد من هو أعظم منه، وهو ـ أولاً ـ الله، ثم الكلمة ومعهما الروح القدس، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات، وعنهم صدرت القوة الأبدية[1].

ويقول موريس في كتابه «الآثار الهندية القديمة» ص ١٢٧: «لا ريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس «كلمة» هو من أصل وثني مصري دخل في غيره من الديانات كالديانات المسيحية، وأبولو المدفون بدلهي يُدْعَى «الكلمة» وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يعلمه أفلاطون قبل المسيح: الكلمة هي الإله الثاني، وهي ابن الله البكر».

ويقول العلامة هيجين في كتابه (الإنجلوسكسون)[2]:

---

(١) كتاب «خرافات التوراة والإنجيل» لدوان ص ٤٧٣

(٢) المجلد الثاني ص ١٦٢ وانظر مثله في كتاب «ابن الإنسان» ص ٢٠ لدونلاب، وكتاب «المسيح الملاك» ص ٥٧ للعلامة بنصون.

«كان الفرس يسمون «مترا» الكلمة ، والوسيط، ومخلص الفرس».

ويقول العلامة بونويك في كتابه «عقيدة المصريين» ص ٤٠٢ : «أغرب عقيدة عم انتشارها في ديانة المصريين (الوثنيين القدماء) قولهم بلاهوت الكلمة، وأن كل شيء صار بوساطتها، وأن الكلمة منبثقة من الله، وأنها الله، وكان أفلاطون عارفاً بهذه العقيدة الوثنية، وكذلك أرسطو وغيرهما، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي، ولم نكن نعلم أن الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول ويعتقدون هذا الاعتقاد إلا في هذه الأيام».

وقال بونويك ص ٤٠٤ : «وكما أن للكلمة مقاماً كريماً عند المصريين (القدماء الوثنيين) كذلك في كتبهم الدينية المقدسة هذه الجملة: «إني أعلم بسر لاهوت الكلمة» وهي كلمة «رب كل شيء» وهو الصانع لها، فالكلمة هي الأقنوم الأول بعد الإله، وهي غير مخلوقة، وهي الحاكم المطلق على كافة المخلوقات».

وقال دوان في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل» ص ٣٧٣ - ٣٧٤ : «وكان الأشوريون يدعون «مردوخ» الكلمة، ويدعونه أيضاً: ابن الله البكر ، وكانوا يتوسلون إليه بهذا الدعاء: أنت القادر الموفق، ومانح الحياة، أنت الرحيم بين الآلهة، أنت ابن الله البكر خالق السماوات والأرض ومالكها، ليس لك شبيه، أنت الرحيم، ومحيي الموتى ».

ويقول دوان: «وكان الكلدانيون يقولون للكلمة «ممرار»

وأنها «الصانع للعالم» والحاكم عليه، وأنه ليس من شيء أعظم منه إلا الله».

فالكلمة التي استعملها يوحنا بالمعنى المفهوم منها ومن السياق ليست بنت المسيحية البكر، بل عرفت في الديانات القديمة الوثنية التي سبقت المسيح في المدلول الذي عرفته المسيحية دون أن تخرج عنه فيها.

ولكن في قول يوحنا مجالاً للنقد والتفنيد، فهو يقول: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله» فكيف تكون الكلمة الله بعد أن كان «الكلمة» عنده؟

إن لفظة «عند» تثبت المغايرة والخلق وتنفي الأزلية لأن لمن يوصف بذلك ـ وهو المسيح ـ بداية، وليس لله الحق وحده بداية لأنه الأول بدونها، فالمسيح مخلوق ذو بداية معروفة ونهاية غير مجهولة، فإذا كان المسيح الله الابن فكيف يكون حادثاً؟ لن يكون الله حادثاً قطعاً ولكن لفظة «عند» تقرر ذلك.

إن المسيحية تدعي أن المسيحَ اللهُ الابنُ ، مثله مثل الله، وما اعتمدوا عليه في هذا الزعم هو قول يوحنا الذي يثبت بالعندية بداية، وفيما تروي الأناجيل من موت المسيح وصلبه نهاية، وما كان لأحد بداية ونهاية إلا كان حادثاً، وما دام حادثاً فلن يكون الحادث الله جل جلاله.

والكلمة في سياق قصة مريم وخلق عيسى عند المسلمين

تحتمل غير معنى، فهي قابلة أن تكون كلمة التكوين لا كلمة الوحي، وكلمة التكوين هي «كن» وقد أوضح الله عز وجل ذلك في محكم كتابه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

ففي خلق عيسى كانت كلمة التكوين، ولكن سؤالاً يبرز في هذا المكان وهو: أليس كل ما خلق الله يدخل تحت كلمة «كن» فلماذا نختص عيسى بكلمة التكوين ما دام الأمر عاماً في الخلق؟ وهو سؤال حق، وجوابه: أن ذلك صحيح ولكن في الخلق عامة إلا فيما يشبه خلق عيسى نجد الأسباب والمسببات، والعلة والمعلول.

فمحمد ﷺ خلق بأمر الله مثل غيره من البشر، وجاء إلى الوجود كما يجيء كل إنسان، وهو أن يكون ثمرة اتصال بين الذكر والأنثى.

أما وقد عدم السبب المباشر في خلق عيسى فقد كان لزاماً إظهار كلمة التكوين نفياً لزعم المغترِّين، وإثباتاً لحقيقة وجوده المباشر: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

---

(١) سورة يس: ٨٢.

(٢) آل عمران: ٤٧.

وأطلقت الكلمة على المكوَّن، ولهذا قال: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ وأعاد الضمير في «اسمه» على الكلمة باعتبار المذكر ولم يؤنث.

وتطلق الكلمة في قصة مريم على المسيح نفسه، لأنه عرف بكلمة الله، كما يقال للحاكم العادل: «ظل الله» لأنه سبب ظهور ظل العدل الذي هو من أسماء الله الحسنى، وعيسى كان سبباً لظهور كلام الله المعبر عنه بكلمة، ولكن ليس هو نفسه الكلمة، إنما هو أثر الكلمة وليس غير.

فإذا أنت قلت لخادمك: ابن لي داراً، وهذه كلمة، فالدار ليست الكلمة، ولكنه أثرها، ولا يصح أن نطلق عليها لفظة «كلمة» إلا على سبيل المجاز.

وعيسى عليه السلام ليس هذا الـ «كن» ولكنه أثره، وبهذا، فكلمة «كن» أو المشيئة من الله ليست مخلوقة، ولكن أثرها ـ وهو عيسى في هذا المقام ـ مخلوق.
وهناك وجه آخر لتفسيرها وهو البشارة لمريم من الله بوساطة جبريل، وذهب إلى هذا التفسير ابن جرير وأيد قوله بقوله تعالى: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ أي بشرى الله مريم بعيسى.

وتفسير الآية: يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى ابن مريم.

وِلادة المسيح ونشأته وصفاته

عندما أجاء المخاض مريم شعرت بالحياء وما سيستقبلها به الناس من الأقاويل التي تهدم سمعتها، وقد صور القرآن أزمتها النفسية إذ قال : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

إنها تتمنى الموت مخافة الفضيحة المنتظرة، وأي بلاء أوبق على نفس الحرة الشريفة من القذف التي يهدم شرفها وحياتها؟ من يصدق من قومها اليهود ـ إلا البررة ـ أن مريم حملت به بأمر الله وبكلمة منه ألقاها إليها؟ إنهم لن يصدقوا، ودليل التهمة قائم ثابت، مولود تعترف أنه ابنها، فلا يصدقون أنه جاء من غير أب، والعقوبة في اليهودية القتل.

وتجمعت المخاوف على مريم فتمنت الموت وأنه لو كانت نسياً منسياً قبل هذا الحادث، وجمع الله لها من أسباب الأمن والطمأنينة ما يبدد مخاوفها، وطلب إليها ألا تحزن، وجعل بين

يديها سرياً تشرب منه، ونخلة تهزها فتساقط عليها رطباً جنياً، وأمرها بأن تقر عينها وأصحبها بمعجزة ترد عنها تجنّي من يريدها بسوء، وتهمة من يقذفها بغير حق، وتعلن أنها نذرت الصوم لله.

وأتت قومها تحمل الوليد، فما كادوا يرونها حتى بادروها باللوم والتقريع، ما هذا يا مريم؟ لقد جئت بما يبعث على الدهشة. إن أباك كان صالحاً وما كان امرأ سوء، وأمك طاهرة عفيفة ولم تكن قط بغياً، فمن أين انحدر إليك السوء؟

فأشارت إلى الوليد، فزادت دهشتهم وظنوا أنها تهزأ بهم، إذ كيف يكلمون من كان في المهد صبياً، ولكن الطفل لم ينتظر منهم أن يسألوه فيجيبهم، بل بادرهم بقوله: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ومباركاً في كل شيء، وأوصاني بالصلاة والزكاة، وجعلني باراً بوالدتي، ولم يجعلني جباراً في الأرض ولا طريداً من رحمته، بل عليَّ سلام الله يوم مولدي ويوم موتي ويوم بعثي، ثم عاد إلى طفولته ونشأ منشأ كل طفل: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى

وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[١].

ولا شك عندنا أن مولد عيسى معجزة، ولم يثبت في التاريخ القديم مولود سواه جاء من عذراء إلا في الأساطير، فإله المكسيك المسمى «كوتزلكوتل» مولود من عذراء بتول. وإله البراهمة «فشنو»

(١) سورة مريم ٢٣ ـ ٣٣

أو كرشنا» مولود من عذراء اسمها ماريانا أوديفاكي، وبوذا مولود من العذراء «مايا» وغير هؤلاء من مواليد الأساطير.

ومن قبيل هذه الأساطير ما جاء في رسالة بولس للعبرانيين في الإصحاح السابع بالفقرات ١ ـ٣: «إن ملكي صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلي الذي استقبل إبراهيم راجعاً من كسرة الملوك وباركه، الذي قسم له إبراهيم عشراً من كل شيء، المترجم أولاً ملك البر ثم أيضاً ملك ساليم أي ملك السلام، بلا أب، بلا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له و لا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد».

ويذكر بولس رسول المسيحيين قاطبة أمر ملكي صادق ذكر أعجوبة مزية خلق عيسى بدون أب، ويقضي على ما يفتخرون به على الأنبياء والمرسلين جميعاً حتى محمد عليهم صلوات الله وسلامه لأنهم ولدوا من آباء وأمهات.

وأي مفخرة لهم من خلق عيسى مع وجود ملكي صادق الذي يذكره رسولهم بولس؟

إذا كانت معجزة عيسى أنه مولود من أم عذراء بلا أب فملكي صادق مولود «بلا أم، بلا أب» فهو أفضل من عيسى وأرجح في الميزان، ويفضله ـ أيضاً ـ في غير ذلك، فهو «لا بداءة أيام له، ولا نهاية حياة» أما المسيح فله بداءة ترويها الأناجيل، ونهاية حياة ترويها كتبهم المقدسة.

ونحن نعد قصة ملكي صادق التي يقررها بولس ويؤمن بها المسيحيون أسطورة من الأساطير التي تروي نظائرها الديانات الوثنية، وإن كان بولس فاقها في أسطورته بنفي الوالدين والنسب.

والمسلمون يؤمنون أن المسيح ولد بلا أب، وليس من البشر من ولد من غير أب وأم وبلا نسب غير آدم﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[1].

وعقيدة المسلمين في المسيح أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وليس ولداً لله على الحقيقة التي يراها المسيحيون، فالله أحد﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾.

ولم يشر القرآن الكريم والحديث الشريف إلى المكان ا لذي ولد فيه المسيح، ولا إلى الصورة التي ولد بها إلا ما استشهدنا به من الآيات البينات، ولم يفصلا مولده، إلا أن المصادر المسيحية ـ وبخاصة الأناجيل ـ فصلت تفصيلاً، نجد مثله في الديانات الوثنية كالبرهمية والبوذية.

---

(١) آل عمران ٥٩ ـ ٦٠

ومن الأناجيل التي فصلت مولد عيسى وما صاحبه من البشائر والنذر إنجيل متى الذي نقتطف منه ما يلي(١):

«أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء، فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية، فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيًما، وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية.

«فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً، فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظللك، ولذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله، وهو ذا أليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله. فقالت مريم: هو ذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك، فمضى من عندها الملاك» إلخ.

ويقول إنجيل لوقا: إن يوسف النجار وخطيبته العذراء التي

(١) الإصحاح الأول ٢٦ ـ ٣٨.

كانت حاملاً رحلا من الناصرة إلى «بيت لحم» ليكتب اسماهما في سجل إحصاء المدينة التي هما منها إنفاذاً لأمر القيصر.

«وتابع يوسف سعيه، ودلته يد مغيثة، ومن ورائها يد الله إلى مغارة كتلك التي يأوي إليها الفقراء من عابري السبيل، يحولونها عند الحاجة إلى مساكن لهم، وملاجيء لهم، وفي هذه المغارة التي هيأها يوسف أحسن ما استطاع ولدت مريم يسوع»[١].

وفيما هما على هذه الحال، إذا أصوات تقترب، ورعيان يقفون على باب المغارة مترددين ذاهلين، ثم يدخلون إلى حيث الطفل وكان نائمًا، ورأوه مدرجاً في أقمطته، موضوعاً في مزودة، رأوه في الصورة التي وصفها لهم الملاك منذ قليل»[٢]

وتروي المصادر المسيحية وفي طليعتها إنجيل متى[٣] أن مجوساً من المشرق جاءوا إلى أورشليم يسألون: «أين هو المولد ملك اليهود فإننا رأينا نجّمه في المشرق فأتينا لنسجد له فلما سمع هيرودس الملك اضطرب»[٤] و دعا «المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر، ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال: اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي، ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي

(١) كتاب «حياة يسوع المسيح» لجرجس المارديني، صفحة ٤٣.
(٢) المصدر السابق بتصرف يسير.
(٣) الإصحاح الثاني
(٤) ما بين الحواصر نص ما في الإصحاح الثاني من إنجيل متى.

أنا أيضاً وأسجد له، فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي»[1] ففرحوا ورأوا الصبي مع أمه فسجدوا ثم فتحوا له كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومرا»[1] ثم عادوا إلى وطنهم من طريق آخر دون أن يعودوا إلى هيرودس.

ولست بناقد المسيحية ولكن من أمانة التاريخ أن نذكر نظائر ما صحب مولد المسيح عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه من علامات وبشائر وحالات خاصة به.

في كتاب «الملاك المسيح» قال بنصون: «جاء في كتب البوذيين المقدسة عندهم أن السماوات بشرت بولادة بوذا بنجم ظهر مشرقاً في الأفق ويدعونه في هذه الكتب نجم المسيح».

وفي كتاب «تاريخ الصينيين» لثورنتن: «يعتقد الصينيون أن نجماً ظهر عند ولادة «يو» من عذراء ودلهم عليه «يو» هذا مؤسس الدولة الأولى التي حكمت الصين، ويزعمون أن نجماً ظهر عند ولادة الحكيم لاوتسي ودلهم عليه».

وهؤلاء أسبق من المسيح مولداً، أترى المسيحيين ومن أعليائهم متّى صاحب الإنجيل المشهور يضفون على ميلاد المسيح ما أضفاه أولئك على ملوكهم وقديسيهم؟

وفي إنجيل لوقا الإصحاح الثاني: «وظهر بغتة مع الملاك جمهور

---

(١) ما بين الحواصر نص ما في الإصحاح الثاني من إنجيل متى.

من الجند السماوي مسبحين الله وقائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة».

ومثل هذا كثير في الديانات الوثنية، ففي كتاب «فشنو بورانا»[1] ما نصه: «كانت العذراء ديفاكي حبلى بحامي العالم، مجدها الآلهة، ويوم ولادتها عمت المسرات وأضاء الكون بالأنوار وترنمت آلهة السماء ورتلت الأرواح».

ومثل هذا قيل عن بوذا.

وأما مجيء الرعاة ثم المجوس المهتدون بالنجم إلى مولد المسيح وتقديمهم له هدايا لم يكن كل هذا خاصاً بالمسيح فقد سبقت نظائره وأشباهه أيضاً، فالرعاة أول من عرفوا كرشنا عندما ولد وقدموا له هدايا من خشب الصندل.

ولما ولد «مترا» الذي يزعم أهل فارس أنه مخلصهم والوسيط بين الله والناس زاره مجوس وقدموا له هدايا ذهباً وطيباً ومراً.

ويروي أفلاطون أن ثلاثة مجوس من الشرق جاءوا إلى محل ولادة سقراط المولود قبل ا لمسيح بحوالي ٤٦٠ سنة قدموا له هدايا ذهباً وطيباً ومراً.

وهذا هو ما حدث للمسيح، أتراه تكرار لتلك الحوادث أم أن أتباعه أرادوا أن يعظموه فأضافوا إليه ما قيل في غيره؟.

---

(١) انظر كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» ص ٨٢

إن كل ما نخترعه ونضيفه إلى المسيح عليه السلام لا يزيد مجده ولا يضيف إلى عظمته مزيداً، فهو في غير حاجة إلى اختراع لأنه بحقيقته أعظم من كل ما يضاف إليه بغير حق.

وفي كتاب «حياة يسوع المسيح»[1]: «... وبلغت أذن يوسف النجار سليل داود الملك، فهب لساعته يشد الرحيل، فلقد اعتاد أن يرى في أحداث الأيام وأوامر السلطات يد الله العلي، وها هو يقود ذات يوم حماراً يحمل مريم وهي في أواخر أيامها ويحمل معها بعض الأمتعة والمؤونة إلى بيت لحم موطن عائلة داود».

وفيه أيضاً: «وقاده المسير إلى الخان حيث يأوي كل غريب، فرآه كما رأى غيره من المنازل غاصاً بالوافدين» و «إن يوسف ليكتفي لمأواه بزاوية من منزل بجانب من خان» و «تابع يوسف سعيه، ودلته يد مغيثة ومن ورائها يد الله إلى مغارة» و «في هذه المغارة التي هيأها يوسف أحسن ما استطاع ولدت مريم يسوع».

وفي كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» ص ٩١: «يقول الهنود: لما حانت ولادة كرشنه ذهب نازا ليدفع ما عليه من المال للملك مكوسا ومعه والدة كرشنه فجاءها المخاض على الطريق فوضعته تحت شجرة، وفي رواية أخرى: أنها وضعته في خان».

وهناك مواليد آلهة بعضها تجسد بالناسوت، ولدت في مغارة مثل «أدوني» الرب المخلص وضع في غار بعد ولادته بقليل، وأبولو

(١) تأليف جرجس المارديني، راجع الصفحات ٤١ ـ ٤٣

الإله الإغريقي ولد في غار، ومترا الإله الفارسي كذلك.

وقصة كرشنا تشبه قصة ميلاد المسيح، فكما أن يوسف النجار سافر تنفيذاً لأمر القيصر بالإحصاء العام ليكتب في سجل بلدة «بيت لحم» وصحب معه العذراء أم الإله المسيح حيث وضعته في مغارة فإن ناندا صنع ما صنع يوسف النجار.

وكرشنا أسبق في التاريخ من المسيح.

وهناك مشابهات بين ما يعتقده النصارى في المسيح وما يعتقده من سبقوهم من الوثنيين، ففي إنجيل متى بالإصحاح الثاني: «وبعدما انصرفوا (أي المجوس) إذ ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر». و«لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جداً فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس»[1].

وفي كتاب حياة الهنود وديانتهم»[2] ص ١٣٤: «يعتقد

(١) توفي هيرودس هذا قبل المسيح بأربع سنوات كما أجمعت المصادر التاريخية وبخاصة المسيحية، فهل يصح ما أسند إليه في إنجيل متى مما يتصل من حياته بسيدنا المسيح؟.

(٢) تأليف جوكوت شاندرا جنفولي وهو أحد الهنود الوثنيين الذين اعتنقوا النصرانية.

الهنود الوثنيون أنه لما ولد كرشنا سمعوا هاتفاً من السماء يقول لحاضنه: قم، وخذ الصبي، واهرب به واقطع نهر الجومتا، ففعل لأن الملك قانصا كان قاصداً إهلاك الطفل المخلص، وقد أرسل الملك رسلاً ليقتلوا كل مولود ذكر».

وفي كتاب «الكهان الكلتيون»[١]: «يعتقد الهنود الوثنيون أنه لما ولد كرشنا أخذوه ليلاً وهربوا به إلى بلاد بعيدة عن مولده خوفاً من الملك الجبار الذي علم أن كرشنا سيكون سبباً في إهلاكه متى شب، وأمر الملك بقتل جميع الأطفال الذين ولدوا في مملكته».

وهناك مشابهات كثيرة بين المسيح وغيره حتى في الأم وصفاتها واسمها، واسم «مريم العذراء» في صيغه المختلفة اسم مختار لكثير من الآلهة والقديسين مثل «أدونيس» ابن «ميره» وفيروش ابن «مريانا» وكرشنا ابن «مارتا» وحورس بن «ستيلا ماريس »(وحورس هذا هو ابن إيزيس إلهة البحر،واسمها عند الرومان كوكب البحر ، أي ستيلا ماريس Stella Maris) وهرمز بن «مايا» وبوذا بن «مايا»[٢].

وأسماء أمهات هؤلاء «مريم» بصيغه المختلفة تحملنا على أن نحسب أن هذا الاسم رمز شائع على ذات غير معينة[٢]، ورمز على من تلد بدون اتصال جنسي.

ونجد في الديانات الوثنية أصول المسيحية وأركانها

(١) the Celtic Druids تأليف هيجن Higgins .

(٢) ساعات بين الكتب للعقاد، الجزء الثاني.

وأعيادها، ومن هذه الأعياد[1]: أن الرومان يحتفلون بعيد الإِلَه كرونوس (ساتورن) في شهر ديسمبر من يوم ١٧ إلى يوم ٢٤ ينتظرون رجعته إلى الأرض إذ تلده عذراء، ويزعمون أن يأتي لإِزالة الشقاء عن الناس ومنح العبيد الحرية.

ويحتفل اليونان في يوم ٢٥ ديسمبر بعيد باخوس (ديونيزوس) ويعرضون الإِلَه الطفل نائمًا في سلة أو مزود ليراه المؤمنون.

ويحتفل الفرس في ٢٥ ديسمبر بميلاد مترا داخل كهف منار بالشموع تسطع به رائحة البخور، ويوزعون الخبز والخمر بعد أن يبارك الكهنة الناس، ويزعمون أن قيامته كانت في شهر مارس.

وكان المصريون يحتفلون في ٢٥ ديسمبر بميلاد حورس على أنه مخلصهم، ويمثلونه طفلاً صغيراً موضوعاً في مزود؛ بجانبه الإِلَهَة إيزيس العذراء البتول.

وكان البابليون يحتفلون في ٢٥ ديسمبر بميلاد الإِلَه «تموز» ويمثلون موته كل سنة، وبعد يومين من موته يحتفلون بقيامته من بين الموتى. .

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس يحتفل الرومان بموت الإِلَه آتيس بن نانا العذراء المولود دون اتصال جنسي، ويسمى يوم أيام عيدهم هذا «يوم الدماء» وكان الكهنة يطعنون

---

(١) العقائد، لعمر عنايت.

أنفسهم بالمديِّ، ويبتهلون داعين الإله بالعودة، فإذا انتصف الليل يعلنون قيامة آتيس حيث تعم الفرحة والابتهاج.

والمسيحيون يحتفلون بيوم ٢٥ ديسمبر على أنه يوم ولادة المسيح، وبيوم ٢٥ مارس تذكاراً لآلامه قبل الصلب.

والعمادة التي هي المدخل إلى النصرانية وبابها معروفة قبل عهد المسيحية بزمن طويل في الأمم المتحضرة والهمجية،ففي الهند ومنغوليا والتبت والفرس ومصر والرومان والسويد والنرويج والدانمرك والمكسيك والبرازيل كانت العمادة معروفة شائعة.

وكذلك سر الاعتراف والعشاء الرباني، بل تكاد تكون المسيحية بكل عقائدها وطقوسها وتعاليمها وأركانها وفرائضها وشعائرها صورة دقيقة للديانات الوثنية التي سبقتها كما مر وكما سيجيء في الصفحات القادمة.

وعلى أي حال ولد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ونشأ كما ينشأ كل طفل كريم مبرور ولد في بيئة صلاح ودين وتقوى، وليس بين أيدينا من الكتب السماوية ذكر صفات المسيح الخلقية إلا ما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ ليلة أسري به: «.. ولقيت عيسى» فنعته النبي ﷺ فقال: «ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس» يعني الحمام.

وعن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عرض عليّ الأنبياء

فإذا موسى رجل ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، فرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب به شبهاً عروة بن مسعود» وعروة ـ كما قيل ـ أحد من نزلت فيه الآية الكريمة :﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

وكل ما نعرفه عن هذه الصفات أن عيسى كان أحمر ربعة ، وليس فيه ما يعيب، وعروة بن مسعود الثقفي كان جليل المقام، ولم يكن في خلقته كدر أو نقص.

وتروي المصادر المسيحية أن بيلوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل عامل قيصر روما كتب رسالة بعثها إلى مجلس الشيوخ الروماني في أيام المسيح نفسه وذكر فيها صفات المسيح الخلقية والخلقية، ومما جاء في رسالته: «رجل ذو قوى خارقة اسمه يسوع، ويدعوه تلامذته «ابن الله» مهيب يفيض وجهه حناناً، له قوام معتدل ، شعره كلون الخمرة، ووجهه ناضر متورد، وعيناه زرقاوان لامعتان، وجبين صلت ناعم[2]، وليس في أنفه أو فمه ما يعاب، وإنه ذو هيبة، ومن يراه يشعر بالحب والهيبة، جاد حزين، موجز القول رائعه، وجماله فوق المعهود في الرجال، وكل ما فيه رائع وجليل.

وهو وصف نشك أن يصدر ممن نسب إليه، وأكثر من هذا

---

(١) الزخرف ٣١.

(٢) الصلت: الجبين الواضح المستوي البارز.

أن الرواية نفسها محفوفة بالشك وكذلك الأسانيد، وإذا كان كما وصف فلماذا قتلوه؟

وإذا علمنا أن من شروط الكاهن في الشريعة الموسوية أن يكون سليما من العيوب البدنية سوى الخلق فإن من البديهي أن يكون المسيح سليمًا سوياً، وليس فيه أي عيب خلقي وإن قال بعض خصومه الكاذبين أنه قميء أحدب، وليس هذا بصحيح، ولكنه قول يهود حاقدين مفترين.

وكان له من الهيبة التي لا تفرضها سلطة دولة أو مال أو ترف ما جعل الناس يهابونه مع أن فيهم أعداءه.

ومما يدل على سلامة البنية أنه لم يمرض قط حتى انتهى من الأرض، بل نستدل على سلامة بنيته وقوته وجلده وصبره بما لقي من الكرب والعنت من أبناء قومه اليهود - وبخاصة الكتبة والفريسيين - وبرحلاته الدائمة وتجواله غير المنقطع في أرض فلسطين لا يبالي بحمارة القيظ وصبارة الشتاء، بل كان يقضي ليالي كثيرة في العراء، يسبق الفجر إلى صلاته، كما كان يقطع ليله في الجبل ساهراً يناجي ربه.

ولولا أن بنيته سليمة وصحته موفورة ما استطاع احتمال هذه الحياة القاسية التي كان يحياها، ولولا سلامة البنية ووفرة الصحة لوقع فريسة العلة، ولكن سلامته من اعتلال الصحة تدل على قوة البنية وسلامتها، ولم يكن في خلقته ما ينفر أحداً حتى يتهم بما يعيبها.

وكان له لسان صدق مبين، وانتهى في البلاغة إلى أعلى ذراها، فما انهزم له منطق، ولا ضعف له دليل، ولا رك له أسلوب، بل كان له منطق ساحر خلاب غلاب يقهر ولا يُقْهَر.

وكان خصومه من الكتبة والفريسيين شديدي العنف واللدد في خصومته، كانوا يحرصون على إيقاعه في الشرك المنصوب له من قبلهم فيباغتونه وهو غير مستعد لجواب قاطع كما كانوا يحسبون، ويحكمون المكر حتى ليعتقد المرء أن المسيح لن ينجو منه، فإذا شباك المكر تصطاد من وضعها، يصاد الصيادون وينجو الصيد نفسه.

أقبلوا إليه يقودون امرأة وقالوا له: «يا معلم ، إن هذه المرأة قد أخذت في زنى، وقد أوصى موسى في الناموس أن ترجم مثل هذه ، فما تقول أنت؟».

إن الفريسيين لم يقودوا المرأة المتهمة إليه وهم يقصدون الحق والخير، بل أرادوا بعملهم كيداً فكانوا هم الأخسرين.

إن من قصدوه غير معترف به رسمياً، وليست له صفة «الحاكم» أو «القاضي» فما مجيئهم إليه وسؤالهم إياه إلا شركاً، فهو بين أمرين كلاهما موبق، إن لم يفت بالرجم فقد أعلن تنكره لشريعة موسى التي أعلن أنه جاء ليتمها لا لينقضها، وأعلن أنه متبعها، والتنكر للشريعة جزاؤه القتل، وإن أفتى بالرجم فقد تدخل في شؤون السلطة والحكم، لأن القتل كان من خصائص

الحاكم المنصوب من قبل الرومان، ومن يتدخل في شؤون السلطة والحكم فعقوبته الموت، لأن من معاني هذا التدخل انتزاع ما هو خاص بالحاكم وتمهيد للثورة وإعلان للانتقاص.

ولم يخف المسيح الموت، فرسل الله لا يخافونه، بل يستقبلونه إذا كان فيه ما يثبت الرسالة ويؤيد الحق، ولن يخاف المسيح من الموت فيغير ما أنزل الله، ولن يطلب الحياة بغضب الله.

وفي هذا الموقف مكر أدركه، وإن القاضي الذي يريد أن يحكم أو المفتي الذي يريد أن يفتي بحق لا بد أن يستوثق من سلامة نية الشهود وصدقهم ونبلهم، ولا بد لقضية كهذه أن تتوافر فيها ما يجب أن تتوافر في كل قضية يراد فيها الحكم بما أنزل الله. هنا دعوى وليس غير، وكل الذين قادوا المرأة المتهمة خصوم لا شهود، وأين الرجل؟ لماذا لم يحضروه؟ لماذا أطلقوا سراحه؟ لماذا أخفوه؟ إن الزنا لا يكون زنا إلا إذا اشترك فيه اثنان، فلماذا يقاد أحدهما ويترك الآخر؟ إن في الأمر لخسة ومكراً وظلمًا، والمسيح عليه وعلى رسولنا صلاة الله وسلامه أكبر من أن ينقاد لتحقيق مكر الماكرين، ويحكم في قضية فاقدة كل شروط الحكم وأركان القضاء.

ولا بد في موقف كهذا أن يتخلص المسؤول، لأن من أحضروها خصوم جلادون ليسوا ذوي غيرة على الشريعة والأخلاق، وبينا هؤلاء الخبثاء المكرة في نشوة انتصارهم المرتقب قال المسيح: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر».

ومن منهم يستطيع أن يدعي أنه بلا خطيئة والخطيئة توثقهم في مسدها؟.

سمعوا جوابه فأدركوا أن مكرهم قد حاق بهم، فإذا رجموها فقد ارتكبوا خطايا أشد في نظر القانون من خطيئتها، القتل عمداً دون حكم الحاكم الشرعي، وادعاء العصمة التي لا تكون لأمثالهم ولا يعترف لهم بها أحد، وهو مثير عليهم المتسلط الروماني الذي يتقون شره، فتسلل كبيرهم وتبعه الآخرون فلم يبق غير المرأة فسألها عن أولئك الذين اتهموها وهو عارف أمرهم، ثم قال لها: اذهبي ولا تعودي تخطئين.

إنه في موقفه لا يملك إلا النصح والإرشاد، وقد نصح وأدى الأمانة.

وجاءه خصومه وكان فيهم عيون من القصر وذيول للحاكم، واجتمعوا على الإيقاع لعيسى، وتظاهروا بأنهم يريدون الخير والحق، وارتدت الذئاب ثياب الحملان وقالوا له في براءة واضحة: «يا معلم، قد علمنا أنك محق ولا تبالي أحداً، ولا تنظر إلى وجوه الناس، بل تعلم طريق الله بالحق» وكان هذا المديح الفخ الذي دسوه في طريقه ليقع فيه، ولما اطمأنوا إلى نجاح خطتهم وإثمار مكرهم قالوا له متخذين أسلوب السائل التليمذ الراغب في الهدى والصواب: «يا معلم، أيجوز أن نعطي قيصر الجزية؟».

لقد أحكموا المكر إحكاماً ، وجعلوا للمسيح طريقين ليس سواهما، وكلاهما يفضي إلى الفخ القاتل، وأدرك المسيح مكرهم فقال لهم في شجاعة تجعلهم يعلمون أن ما أبطنوه أدركه فقال لهم : «لماذا تجربونني يا مراءون؟ أروني نقد الجزية حتى أنظر» وأروه ديناراً فحص صفحتيه وفي إحداهما صورة القيصر، فأشار إليها سائلاً: «لمن هذه الصورة والكتابة؟» فأجابوه: لقيصر، فرد كيدهم إلى نحورهم قائلاً: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»!

الكيد الذي كادوه ذو طريقين يفضيان بالمسيح إليه، إن حرم الجزية ثارت السلطة الرومانية، وإن أجازها ثار المؤمنون به لأنه أحل ما يرونه حراماً، فتخلص بأن أوقعهم في كيدهم، فهم خاضعون للحكم الوثني الروماني، ويتعاملون بنقود القيصر الوثني، فما بالهم لا يتخلصون من عدوهم القاهر الذي سلبهم حريتهم وأذلهم؟ وما بالهم يتعاملون بعملته ويدخرونها ويحرصون عليها ويكنزونها ثم يتظاهرون بالغيرة لإيقاعه هو وحده؟.

إن دينار الجزية الذي يدفعونه لقيصر هو ملك قيصر لأنه عملته، فليردوها إليه، وما دام قيصر صاحب الدينار فلا غضاضة في أن يعود إليه.

إن المسيح ليس منصرفاً عن الواقع إلى الزهد والحرمان، لأن دين موسى الذي يتبعه ويحيي شريعته دين واقع وحياة وحكم، فقوله: «اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» ليس معناه فصل الدين عن الدولة والمعبد عن السوق، فشريعة عيسى التي تكمل

شريعة موسى تصبح بحقيقتها شريعة صالحة للمجتمع، لأنها تجمع بين الدين والدولة، والمعبد والسوق.

فشريعة موسى الصحيحة دين عبادة ومدنية ومعاملات وحقوق، ولكن اليهود حرفوها وخرجوا بها عن طريقها فأبعدوا منها ما يجعلها ديناً صالحاً، وأضافوا إليها ما يجردها من خصائصها التي تبنى على أساسها المجتمعات السليمة الفاضلة، فجاءالمسيح ليعيد إلى شريعة موسى الحياة وينسخ منها ما يصلح للعصر الذي هو فيه. ويكملها بما يصلح له، فقد قال: «لا تظنوا أني أتيت لأنقض الناموس أو الأنبياء، إني ما جئت لأنقض، بل لأكمل» و«الحق أقول لكم: تزول السماء والأرض ولا يزول حرف من الناموس».

نعم، لا يزول حرف من الناموس مما يتصل بجوهر العقيدة الحق، أما النسخ والتغيير والإكمال ففيها يجوز فيه ذلك حسب ما يقتضيه تغير الزمن والأحوال والتطور، وهو ليس نقضاً للناموس، لأن العقيدة التي يدعو إليها الرسل في مختلف العصور واحدة لأنها عقيدة التوحيد.

وكان عيسى معترفاً بشريعة موسى ويأمر باتباعها، فلما سأله أحد العلماء الذين يقيدون أنفسهم بالناموس عن أفضل الأعمال أجابه: «هو مكتوب في الناموس» وسأل عيسى سائله: ماذا تجد؟ فأجابه عما هو مكتوب: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك»

وسأله عن معنى القريب فإذا هو يفسره بغير ما يفهمه من ذوي القرابة في النسب، فكل صالح قريب، وكل محتاج إلى معونة قريب.

ووهب المسيح مقدرة فائقة في التعبير الصادق الرائع الجميل تضعه في أعلى مراتب العبقرية بين من يحسنون التعبير والابلاغ، وكفاء هذه القدرة القادرة قوة الحجة والمنطق الغلاب، وتشبيهاته ليست من قبيل التشبيهات التي يراد منها تكرار الصورة أو الحادثة أو الشيء المشبه به، بل يأتي بالتشبيه لمزيد المعنى وتأكيد الصورة وإبرازها فهو ليس تكراراً أو نسخة أخرى، انما هو زيادة في المعنى وإرباء بالإحساس، ومن ميزاته البراعة البارعة في ضرب الأمثال.

أخذ الفريسيون وغيرهم عليه أنه يعاشر الخطأة والمذنبين والعشارين فقال لهم: «ليس الأصحاء في حاجة إلى طبيب بل المريض، ولم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة».

وما أجمل نظرته الصادقة يرسلها إلى رجل الدين المغرور والخاطىء النادم، فإذا الخاطىء من المقربين وذلك من المبعدين، يقول: «إثنان صعدا إلى الهيكل، أحدهما فريسي ،والآخر عشار، ووقف الفريسي يصلي ونفسه تقول: شكراً لك يارب، أنا لست مثل الخاطئين الظلمة الزناة ولا مثل هذا العشار، أصوم مرتين في الأسبوع، وأزكي عن كل ما أملك. وأما العشار فوقف من بعيد لا يقدر أن يرفع عينيه نحو السماء، بل ضرب على صدره وقال:

رباه، إرحمني أنا الخاطىء. أقول لكم: إن الخاطىء نزل إلى داره مغفوراً له دون ذاك، لأنه كل من يرفع نفسه يتضع، ومن تواضع لله رفعه.

وتنسب إليه جواهر كلم لا تكون إلا للأنبياء ، وهي آية في البلاغة وكمال المعنى وجمال اللفظ وروعة البساطة الممتازة بالعمق والامتداد، ومنها:

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان (متى ٤ : ٤).

- أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم (متى ٥ : ٤٤).

- من لا يغفر للناس زلاتهم غير جدير بغفران الله (متى ٦ : ١٥).

- من ثمارهم تعرفونهم (متى ٧ : ١٦).

- كيف تستطيعون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار (متى ١٢ : ٣٤).

- إذا الأعمى قاد أعمى سقط كلاهما في المهوى (١٥ : ١٤).

- مرور جمل من سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت الله (متى ١٩ : ١٤).

- من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً (متى ٢١ : ١٦).

- حيثما تكون جثة يكون مجتمع النسور (متى ٢٣ : ١٢).
- إن أحببتم من يحبونكم فأي فضل لكم؟ إن الخطاة يحبون من يحبونهم، وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم؟ إن الخطاة يصنعون ذلك أيضاً (لوقا ٦ : ٣٢ ـ ٣٤).
- خلق السبت للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت (مرقص ٢: ٢٧).

- يظن بعض الناس ـ إلا بعض الفريسيين ـ أن في وسعهم التكفير عن آثامهم بالمال. ماذا ينفع المرء ربح الدنيا بخسارة نفسه.

وشخصية المسيح شخصية لها سماتها الخاصة بها، فهي منه بمثابة «العلامة الفارقة» التي تميزه عن إخوته الأنبياء ممن سبقوه، وإذا كان الرسل جميعاً جاءوا إلى الإنسانية برسالة واحدة هي رسالة التوحيد فإن لكل منهم سماته الخاصة به، فالمسيح عليه الصلاة والسلام وديع لطيف رحيم، والرحمة غالبة عليه في كل صفاته، ودعوته قائمة عليها، لأن القلب الرحيم قلب عامر بالإيمان.

وإذا أخصب القلب الإنساني من الرحمة وامتلأ بها كان خليقاً أن يشرق فيه نور الإيمان، فالقلب الرحيم خير القلوب تفتحاً للإيمان بالخالق والعطف على المخلوق.

وكان قلب عيسى مصوغاً من الحب والرحمة وأرادهما من شعب إسرائيل، ولكنه لم يكن مستعداً لهما فتنكر له.

كان ينتظر المخلص في شوق لا مزيد عليه، فلما جاءهم كفروا به وحاربوه، إنه كان الأمنية التي يدعون ربهم أن يحققها لهم، فلما حققها ورأوها بين أيديهم كانوا منه كالمريض الذي يتمنى الفاكهة فلما أعطيها مجها لسقم مذاقه واعتلال صحته، وهكذا كانوا مع المسيح المخلص المنتظر.

ونشأة المسيح الأولى غير معروفة، والأناجيل بعضها ينقض بعضاً، ففي إنجيل متى (ص ٢ فقرة ١٣ ـ ١٥) أن يوسف النجار أوحي إليه أن يأخذ الصبي ويهرب به إلى مصر لأن هيرودس يريد إهلاكه فسافر ومعه الصبي وأمه «وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت الله».

فمتّى يذكر أن عيسى عاش في مصر، ولم يرجع إلا بعد موت هيرودس، والأناجيل الأخرى لم تذكر هذا الحادث، بل ذكر لوقا ما ينقض أقوال متى، فلوقا يذكر بالإصحاح الثاني: «ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك» وبعد أن طهرت مريم ذهبت به إلى أورشليم «ليقدموه للرب» ولما تم ذلك عاد الصبي وأمه وخطيبها إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة، ثم كانوا يترددون على أورشليم كل سنة في عيد الفصح، فلما بلغ الثانية عشرة جاءا به وعندما عادا تفقداه فلم يجداه فعادا إلى الهيكل بأورشليم فإذا هو فيه الخ.

وما ذكره لوقا نقض لما ذكره متى، فالمسيح لم يرحل إلى مصر، وهناك مآخذ كثيرة على متى في حادثة المجوس الذين جاءوا

مهتدين بالنجم ومقابلتهم هيرودس وزيارتهم للمسيح ثم فرار يوسف بعيسى وأمه إلى مصر ثم عودتهم بعد موت هيرودس.

وأول المآخذ زعمه مجيء المجوس مهتدين بالنجم وسجودهم بين يدي المسيح، ولم يذكر تاريخ المجوس هذه الحادثة، ولم يؤثر في تاريخهم سجودهم لملك من ملوك إسرائيل أو أنبيائهم، فكيف يسجدون للمسيح؟ ولماذا يزورونه ويقدمون له الهدايا وهم يعلمون أنه عدو دينهم؟ نعم، إذا علموا بمولده وهداهم النجم إلى مكان مولده المجهول فهم حريون أن يعلموا دعوته التي تنقض ديانة المجوس، فكيف يمجدون من هو على غير دينهم؟.

وهيرودس توفي سنة أربع قبل مولد المسيح، ومولد المسيح الصحيح ليس كما يذكر التاريخ الميلادي، بل مولده متقدم عليه ببضع سنوات حسب تقدير المؤرخين الثقات، وبضع السنوات أربع أو ست أو سبع في تقديراتهم، والأرجح أنها أربع.

فهيرودس توفي في السنة التي ولد فيها المسيح، وعلى قول من قال: ست، يكون هيرودس أدرك سنتين من عمر المسيح.

وقصة هيرودس كما ذكرها متى تشير إلى أن مجيء المجوس كان بعد مولد المسيح، وعلم أن مولده ببيت لحم، فإذا تأكد من مكان المولد فلماذا يقتل كل أطفال تخوم بيت لحم؟ لماذا لا يكتفي بقتل أطفال بيت لحم؟ ولماذا لم تشر كتب التاريخ اليهودي إلى

حادثة قتل الأطفال اليهود مع أنهم كانوا أشد أعدائه ؛ ولم يتركوا في تاريخه من مذماته شيئاً إلا ذكروه.

ولوقا لا يذكر السفر إلى مصر بل يقرر نقيضه وهو المقام. بأرض الجليل، وتردد المسيح في صحبة أمه ويوسف كل عام إلى أورشليم، ولو كانوا في مصر ما وسعتهم هذه الزيارة السنوية، ولم يذكر غير متى خبر رحلتهم إلى مصر.

ولم يكن مولد المسيح محفوفاً بالمكاره والخطوب، فسمعان التقي - كما يذكر لوقا ص ٢ ف ٢٢ - ٣٥ - والنبية حنة استقبلاه وعرفاه، وحنة بشرت به وأعلنت أمره بين يدي جموع المنتظرين في الهيكل.

ومضت السنة الأولى على مولده وعادت به أمه ويوسف في نهايتها إلى أورشليم، وهكذا كل عام دون أن يكون في مولد المسيح ونشأته الأولى ما يؤكد أقوال متى.

وقول متى في الإصحاح الثاني (فقرة ١٥): «لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني» وما دام سفر عيسى لمصر غير واقع فإن هذه الفقرة تصبح غير صحيحة، ومن جهة أخرى نجد هذه الفقرة واردة في سفر يوشع بالإصحاح الحادي عشر (الفقرة الأولى): «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني» فما ذكره متى لم يكن في عيسى بل في إسرائيل الذي هو يعقوب، وكلمة «ابني» التي ذكرها متى أراد منها إثبات نبوة المسيح لله عز وجل.

وما جاء في سفر يوشع منقول من الترجمة العربية طبعة بيروت سنة ١٩٤٥م وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١م جاءت الجملة هكذا: «إن إسرائيل منذ كان طفلاً أنا أحبه ومن مصر دعوت أولاده» وهو الصحيح، لأنه يطابق الحقيقة، وهو خاص ببيان فضل الله على أولاد إسرائيل الذين أنقذهم الله من ظلم فرعون وقومه بمصر، ولكن الفقرة حرفت غير مرة، فيوشع من أنبياء بني إسرائيل وكان مولده قبل المسيح بثمانية قرون، ويتفق ما جاء عنه مع حوادث موسى وبني إسرائيل في مصر، ولم يكن يوشع إلا موحداً، ولا يصدر منه أن يسمي إسرائيل ابن الله إلا على سبيل المجاز، وتنقضه الترجمة المطبوعة سنة ١٨١١م التي تتفق أكثر من ترجمة بيروت المطبوعة سنة ١٩٤٥م مع حقائق التاريخ.

وقد اعترف كثير من علماء المسيحيين بهذا الخطأ حتى أن نورتن المحامي للإنجيل سلم في جميع إصحاح متى الثاني بالاختلاف الذي فيه وحكم بأن متى غلط[١]، وأن ما حكاه لوقا هو الصحيح.

ومن إنجيل لوقا يفهم أن نشأة المسيح الأولى كانت نشأة صلاح وتقوى، حيث كانت أمه وخطيبها يوسف حريصين على التردد على الهيكل في أورشليم كل عام وهو معهما، ومن البديهي أنه كان يتلقى أمور الديانة من أمه الصدِّيقة التي شهد لها القرآن،

(١) الفارق بين المخلوق والخالق ص ٣١.

وممن عاصروه، من الأنبياء والصالحين. وكان مشغوفاً بالعلم حريصاً عليه، حتى أنه ـ وهو في الثانية عشرة من عمره ـ تخلف عن أمه ويوسف في هيكل أورشليم، وبعد أن قطعا مسيرة يوم تفقداه فلم يجداه فعادا إلى أورشليم يبحثان عنه، وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل بين المعلمين يسألهم ويسمع منهم، وعاد معهما.

وقد كان عيسى يرى فوق سنه الحقيقية، وكان يرى أكبر منها جسماً وعقلاً، وأعجب به كل من سمعه يتحدث وبينهم المعلمون، وما كانوا ليعجبوا به لولا عبقريته التي آتت ثمارها مبكرة، وكان يؤثر في مستمعيه.

وقبل البعثة النبوية كان من أبرز الدعاة الدينيين، فقد أدرك تحريف اليهود لكتابهم واستكبارهم على أقوال أنبيائهم فلم يكن على وفاق معهم، وغلبهم وأثارهم بخلائقه التي ما كان لأحد مثلها، شباب وصحة تضبطهما التقوى والعفة ونزاهة اليد والقلب واللسان، وعلم صحيح وتوحيد حق يرفعانه على غيره من رجال الدين الذين لا هم لأكثرهم إلا الرغبة في الامتياز الدنيوي يتطاولون به على غيرهم، وخلائق مثلى ما كان لمعاصر له أن تكون فيه، لأنه هو المعد من قبل الله ليكون رسوله إلى البشر، فهو أبرزهم.

وكل هذا الامتياز الخلقي والعقلي والديني أشعل في قلوب كثير من اليهود وغير اليهود الحقد عليه، حتى إذا أراد الله وتسلم الرسالة صدع بما أمر، ودعا إلى الله على هدى وبصيرة، وزادت

الهوة بينه وبين اليهود اتساعاً، واشتد نزاع مخاصميه، ووجدوا أن دعوته خطر على سيادتهم ونفوذهم، وقضاء على الامتيازات الطبقية التي يتمتعون بها بدون حق، وهي تهديد لكل فرقة يهودية لأنها غيرت ما أنزل الله.

إن منهم من كان المسيح يقدر علمه ويأمر الناس بأن يتلقوه عنه، ولكنه كان يفرق بين علمهم وعملهم، أمر بأخذ ما لديهم من علم ونكران عملهم، لأنهم لا يطبقون العمل على القول: «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا، لأنهم يقولون ولا يفعلون»[1].

وقد اجتمع للمسيح من الخلائق الطيبة ما لم يكن لأحد من معاصريه، وخير ما عرف عنه الحب العميق الصادق للناس، بل للخصوم «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم» فالقلب الإنساني الذي يتسع بالرحمة لعدوه ويطلب البركة لمن يلعنه هو القلب الذي ندر أن يكون له ضريب، وقلب المسيح اتسع لهذه الرحمة فلم يضمر لأعدائه غير المحبة والدعاء الحسن لهم، ووقف نفسه لخير البشر.

ويظهر أن الدين كالوابل، إذا أصاب صفواناً عليه تراب تركه صلداً مسلوب الخير، بل لا شيء فيه غير الشر المنطلق ما تنطفىء ثائرته، وإذا أصاب جنة بربوة آتت أكلها ضعفين، فرجال

(١) إنجيل متى ٢٣ : ٢ - ٥.

الدين الذين عاصروا المسيح كانوا صفواناً عليه تراب، فكانوا شراً على المجتمع كله، وأصابوا بشرهم كل من يريد الخير، فقاوموا المسيح الذي دعاهم إلى البر والمعروف بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم ينازعهم دنياهم، بل أراد هدايتهم ورشدهم.

ومن المشهور في تاريخ المسيح عليه الصلاة والسلام أن من تبعه لم يكونوا إلا ضعاف الناس كالصيادين، وليس هذا بطعن فيه أو في دعوته، ولكنه يشير إلى أن البارزين في المجتمع لم يتبعوه لأنهم أدركوا أن اتباعه قضاء على الحرام الذي منه مظهرهم وحياتهم، فإذا اتبعوه اضطروا إلى ترك الحرام، والحرام حياتهم فتركه فناؤ هم.

هكذا حسبوا، فأسرفوا إسرافاً في محاربة المسيح، حتى الذين كانوا يؤ منون به من العلية كانوا يخافون بطش أرِبَّاء الحرام، فقد جاء نيقوديموس أحد الفريسيين من علماء بني إسرائيل ورؤ سائهم بل هو معلم إسرائيل إلى المسيح سراً والليل يخفيه فبايعه وقال له: «يا معلم، نحن نعلم أنك أتيت من الله معلمًا، وما أحد بقادر أن يعمل ما تعمل من الآيات إن لم يكن الله معه»[1].

إن نيقوديموس يعلم أن المسيح حق، وما يعمله حق، ونيقوديموس كبير إسرائيل ومعلمها الديني، ومع هذا خاف على نفسه من بني قومه فأقبل عليه سراً وبايعه خفية، ولو كان معلمًا حقاً لما بالى في سبيل العقيدة الصادقة خصومها مهما كثروا وزادت

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الثالث فقرة ١ ـ ٢.

قوتهم، مع أن المسيح وعظه وضرب له الأمثال، وأفهمه بوضوح وبيان: أن الناس أحبوا الظلمة أكثر من النور لأنهم أشرار، وكل من يعمل السيئات يبغض النور لأن النور يفضح أعماله، أما من يعمل الحق فهو يقبل على النور لأن النور يظهر حسناته[1].

ولكن كل نيقوديموس يخشى النور حتى لا تفتضح أعماله، ومن هنا كان تنكر الأعلياء للمسيح فلم يؤمن به غير فقراء.

ووصلت دعوة المسيح إلى المدن اليهودية، ولم تقتصر على الفقراء بل دخلت إلى قصر الحاكم نفسه، فلما قبض اليهود على المسيح وساقوه إلى بيلاطس الحاكم الروماني أرسلت إليه زوجته تحذره من أن يمس المسيح بسوء لأنه بار[2]، وحاول بيلاطس إنقاذه من اليهود ولكنهم ضيقوا عليه الخناق حتى أسلمهم المسيح ليصلبوه.

كانوا يعرفون أنه بار، وقد صدق الله العظيم حينما يقول في قصة موسى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾[3] وفي قوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾[4].

كل نقمتهم على عيسى أنه بار وصادق وداعية إلى الله بحق

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الثالث فقرة ١٩ - ٢١.

(٢) متى، الإصحاح ٢٧ فقرة ١٩.

(٣) سورة الصف الآية ٥.

(٤) سورة المائدة الآية ٥٩.

وأنه رسول الله إليهم، كل نقمتهم أنه أراد أن يطهر الضمير الإنساني مما حل به من الكفر والفساد والمادية، وأن يرفعه من الوحل الذي غرق فيه وينظفه ويصقله.

ولا شك أن عيسى جاء في وقت كان في أشد الحاجة إلى رسول مثله، فالوثنية رانت على النفوس، حتى الذين كانوا يؤمنون بالتوحيد وهم اليهود قد مزجوه بالشرك، وكثر الفساد وطغى الظلم، واستحال الدين إلى مظاهر وطقوس لا صلة لها بعالم الغيب والضمير.

ومن هنا كان الصراع بينه وبينهم رهيباً، ومع أن أنبياء بني إسرائيل قد بشروا به وكانوا ينتظرونه بشوق ولهفة فإنهم لما عرفوه كفروا به، لأنه لم يخضع لهم، بل وقف يؤدي رسالة الله ويبلغها في أمانة وإخلاص غير مبال بما يناله من أذى ، لأن للرسول رسالة هو مؤديها لا يهمه ما يعترض طريقه، كل ما يهمه ويعمل له أداءالرسالة وليكن ما يكون..

وقدعاش المسيح في زمن يحيى (يوحنا المعمدان أو المغتسل) عليهما السلام وبشر به ودعا إلى الإيمان به، قام بتعميده وقتل على مسمع منه فلم يكن مصرعه واستشهاده الرائع إلا قوة جديدة له، فقد كان يحيى يجاهد ويدعو بعنف وقوة،فلما خلا ميدان جهاده كان على المسيح أن يشغله فشغله، واستمر في دعوته في الأرض التي قتل بها وبين قتلته.

وكان المسيح يرى اليهود يؤمنون بوجود الله ولكن ليس الله الذي يدعو إليه المسيح، الله الرحمن الرحيم القادر القوي الفرد الصمد رب العالمين، إنهم يدعون رباً قوياً بطاشاً لا يعرف الرحمة إلا إذا كانت لشعبه، بل ما أكثر ما آذن شعبه المختار بحرب إبادة وهلاك وتدمير.

ورب المسيح رب الجميع، من صفاته المثلى الرحمة سبقت غضبه ووسعت كل شيء، ومن أسمائه الحسنى: الرحمن الرحيم.

وأراد المسيح من إثبات هذه الصفات أن يجعل الله محبوباً لا يرتبط به الإنسان ارتباط خوف وإرهاب، بل ارتباط محبوب بأحباب، ولهذا نادى «الله محبة» والخير كل الخير للإنسان أن يترك ما يغضب محبيه من أجل الحب لا يتركه من أجل الخوف، وإن عبادة الله بالحب الخالص المحض خير من عبادته خوفاً من بطشه وجبروته، وشتان بين العبادتين.

ومن هنا كانت طبيعة المسيح وأعظم خلائقه وأبرزها الرحمة والحب يدعو بهما إليهما حتى يقضي على الجشع والأثرة والطمع والحسد والآفات الخلقية التي دمرت الأخلاق وجعلت العقيدة تجارة ومكان العبادة متجراً.

وليست الرحمة التي عرف بها المسيح والوداعة التي اشتهر بها وكل صفات المحبة والسماحة بصارفته عن الشدة إذا كانت في سبيل الله ومن أجل العقيدة.

وشدته لم تكن نابعة من قلب حقود أو جامد بل من قلب رحيم، هو يغضب ويشتد رغبة في الصلاح الذي يجتذب حب الله وهو كل شيء عنده.

فعندما رأى الهيكل مزحوماً بالباعة حولوه إلى سوق يظللها الفسق، وسمح بها الكهان طمعاً في الربح يصل إلى جيوبهم، وأبصر بيت الله سوقاً دنيوية بغيضة ثار وغضب وطرد الباعة وصاح فيهم: بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص[1].

وثار على الكتبة والفريسيين لأنهم فقدوا ضمائرهم وقال لهم في صراحة وعنف: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلونه أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا دخيلاً واحداً، ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً، ويل لكم أيها القادة العميان القائلون: من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم، أيها الجهال والعميان.. أيها الكتبة والفريسيون.. أيها الحيات أولاد الأفاعي إلخ»[2].

هنا غضب من أجل الرحمان الرحيم، بل من أجل أولئك

---

(١) متى ٢١: ١٢.

(٢) إنجيل متى ٢٣: ١٣ ـ ٣٣.

الذي ناداهم بالويل والثبور حتى يرعووا ويتركوا ما يستوجب غضب الرحمان الرحيم حتى يكون أهلًا لرحمته وحبه.

إنه غضب مقدس لأجل من تقدست أسماؤه وصفاته على من أغلقوا ملكوت الله عن الناس ونسوا الهيكل وذكروا ذهبه، وراءوا بصلاتهم وجعلوها شباك صيد، وهو يقصد أن يجتذت حب الله نحوهم بأن يتوبوا إلى الرشد ويتوبوا إلى الله ويعملوا صادقين ويطهر قلوبهم مما ملأها من الطمع والفساد.

وغضب المسيح مثل غضب الوالد على ولده من أجل صلاحه لأنه يحبه ويحب له الخير كله، فالوالد قد يشتم ولده وقد يضربه ولكنه لا يحقد عليه، والابن أيضاً، وكان المسيح هذا الوالد، ولم يكونوا ذلك الولد مع الأسف، بل كانو شر أعدائه مع أن رسالته موجهة إليهم قبل غيرهم من الناس، بل قبضوا عليه وقتلوه على زعمهم وزعم النصارى أيضاً، وإن كان ثابتاً أنهم مسؤولون عن قتل شخص يشبهه وهم يظنون أنهم قتلوا المسيح، فهم مسؤولون.

ولم تشر المصادر الإسلامية إلى زمن بعثة المسيح متى كان، ولكن المصادر المسيحية تذكر أنه بعث في الثلاثين من عمره، ولبث في الدعوة ثلاث سنين دراكاً، يدعو ويعظ ويعلم، ويتخذ لأداء الرسالة كل سبيل، ويضطلع ويعمل ليل نهار، ويتجول في البلدان والأسواق، ويطوف بالقرى، وكثر أتباعه، وأصبح له تلامذة يتلقون عنه رسالة السماء ليكونوا خلفاءه على الأرض.

أيّام المسيح الأخيرة

زاد أتباع المسيح فبعث بمن اختار منهم إلى المدن الإسرائيلية يبشرون بدعوته ثم يعودون إليه بما يثلج صدره وصدورهم، وعظم شأنه وشأن دعوته مما جعل رؤساء اليهود يقاومونها ويستدرجونه حتى يسقط في الشرك الذي نصبوه له، وما كان المسيح ليبالي في سبيل الحق أحداً أو يخاف إذا اتصل الأمر بالعقيدة فهناك الصدع بالحق مهما كانت عواقبه.

وكان المسيح يشعر بقرب الأجل، وأدرك أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة، فقد بعث لتصحيح الديانة اليهودية التي غيرها أصحابها، ويعيد إليها الصفاء الذي فقدته على أيدي أحبارها، وقد وفق لتحقيق رسالته ، فاعترف بالناموس، اعترف بموسى وتوراته، وبرسالة الرسل قبله وبخاصة إبراهيم، ودعا إلى تحرير العقل والضمير من إسار المادية ووثاق الهوى والظلم، وجعل الرحمة شريعته، وأعلن في قوة وإصرار: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ولكن أحبار اليهود لم يكونوا راضين عن دعوة المسيح التي تأمر بالفضائل والمكرمات والرحمة والتخلص من المادية التي تبعد صاحبها عن الله وتقربه من الشيطان وتغرقه في الهوى والطمع والفسوق والكفر، وتقلب الطباع الخيرة إلى شر الطباع، فكفروا بالمسيح وقاوموه وحاربوه حتى استطاعوا أن يتخلصوا منه.

واليهود - كعادتهم - يتشدقون بكلمة الحق، فإذا ظهر لهم الحق جلياً جحدوه وحاربوا صاحبه لأنهم يريدون أن يخضعوا أنبياء الله ورسله لأطماعهم ويستغلوهم لتحقيق أهوائهم، فلما وجدوا المسيح رسولاً حقاً استكبروا على الحق كله فوقفوا في وجه المسيح يخاصمونه في عنف وضراوة.

وعنفت الخصومة بين المسيح والكتبة والفريسيين، واشتد الجدل، فأرادوا إثارة السلطة الرومانية عليه، وحاصروه وضيقوا الخناق عليه.

أحرجوه بالأسئلة الصعبة والفتاوي الشائكة فتخلص منها فإذا هم الذين يقعون في الحيرة والفشل والخيبة والإخفاق.

سألوه عن الجزية المدفوعة لقيصر أحق أم باطل! فطلب إليهم أن يروه ما يدفعونه فإذا هو الدينار القيصري، دينار قيصر، يخرج من أيديهم ليعود إلى قيصر، فما لقيصر يعود لقيصر، فقال لهم مجيباً: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

الدعاة والعبادة من حق الله فهما لله وحده لا يشركه فيه

قيصر ولا غيره، والدينار لقيصر فليُعْطَهْ!

وجاءوا له بالمجدلية الخاطئة جاعلين منها شركاً يصطاده فإذا هم الصيد ، وصاردهم[1] يستحيل حابضاً[2]، سألوه عن الحكم، فإن خاف السلطة ولم يحكم بما أنزل الله مما يجدونه مكتوباً في التوراة وهو الرجم، التوراة التي يؤمن بها هو نفسه ويتبعها مؤمناً مخلصاً فقد أجبر تابعيه والشعب على الكفر به لأنه لا يحكم بما أنزل الله، وإن أراد الحكم بما أنزل الله وحكم بالرجم فقد تدخل في شؤون سلطة الحاكم، وعقوبة التدخل القتل لأنه يتهم بانتزاع سلطة الحاكم الروماني من قبل قيصر.

ولا جواب غير الجوابين اللذين يوديان به إما على يد الشعب عندما يكفر برسالته وإما على يد الحاكم الروماني، وكلاهما أو أحدهما مسلمه إلى البوار، ولكنه أجابهم بما فيه خلاصه وإسكاتهم.

«من لم يكن منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»!.

ولكن أحبار اليهود ورؤساءهم كانوا مصممي العزم على التخلص من المخلص الذي انتظروه قروناً، وسيحكمون قيده بالباطل بما لا يحتاج إلى دليل للإدانة أو حجة لدفعه إلى الموت، إن المسيح يرسل الكلمة وعليهم أن يضعوا لها المعنى الذي يريدون

(١) الصارد: السهم الذي يصيب الهدف.

(٢) الحابض: السهم يقع بين يدي الرامي.

يحددونه حسب هواهم.

وبدأ صراع رهيب بين المسيح واليهود، فاختفى عنهم، وفي يوم عيدهم ظهر لهم حيث صعد إلى الهيكل وأخذ ينشر تعاليمه، فاستنكر اليهود أن يعلم من لم يتعلم فبدد استنكارهم بقوله: إن تعاليمه ليست له بل هي لله الذي أرسله.

ثم قال لليهود: ألم يعطكم موسى الناموس فاتخذتموه وراءكم ظهرياً؟ لماذا تطلبون قتلي؟!

فأجابه اليهود: من يطلب قتلك؟ إن بك شيطاناً!.

واتهموه هذا الاتهام لأنه اتخذ ذات سبت لشفاء مريض فنقموا منه فقال لهم: إذا كان الإنسان يقبل الختان يوم السبت لئلا ينقض ناموس موسى فلماذا تسخطون علي إذا شفيت الإنسان كله يوم السبت؟ لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا بالعدل.

وأي عدل لدى خصومه اليهود؟ كل آية أكبر من أختها، سواء في ذلك معجزاته ومنطقه وفعله، ولكن الهوى أصم آذانهم وران على قلوبهم فلا يفقهون.

وتهامس الشعب فيما بينه وبينه: أهو المسيح حقاً؟ إنه الذي يطلبون قتله، ها هوذا يصعد إلى الهيكل ويتحدث جهاراً وهو آمن! أأيقن الرؤساء أنه المسيح؟.

وهكذا كانوا يسألون ويتساءلون، ولكن الرؤساء لم يكونوا موقنين أنه المسيح، مع أن هناك مصدقين من الشعب كانوا

يؤكدون أنه النبي، ومؤكدين أنه هو نفسه المسيح، والكتبة والفـريسيون ينكـرون، حتى أن نيقوديمـوس أحـد الكهنـة الرؤساءالذي ذهب إلى المسيح سراً وبايعه لم يملك أن يجبه الفريسيين فيقول لهم: أشريعتنا تحكم على إنسان ما لم تسمع منه وتنظر فعله؟ فردوا في عنف وعسر: ألعلك أنت من الجليل أيضاً؟ عد إلى الكتب وانظر أيقوم نبي من الجليل؟.

وانقضى عيد المظال في جدل عنيف بين المسيح وخصومه وبلغ من الغليان أقصى ما يبلغ في يوم العيد الأخير حتى كاد الفريسيون واليهود الذينتكاثروا عليه أن يرجموه، فصرخ فيهم: ألأني آتيكم بالحسن ترجمونني؟ فردوا عليه: ليس من أجل الحسن نرجمك ولكن من أجل تجديفك: ألست إنساناً وتزعم أنك إله؟.

قال لهم: «أتقولون لمن قدسه الآب وأرسله إلى العالم: إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله؟ إن كنت لا أعمل أعماله فلا تؤمنوا بي، إن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تؤمنوا وتعرفوا أن الآب فيَّ وأنا فيه[1].

وحاولوا أن يمسكوا به ولكنه لم يستطيعوا، فقد اختفى عنهم ومضى إلى الأردن حيث كان يوحنا المعمدان يقوم بالتعميد، وأقبل عليه كثيرون آمنوا به، وأعلن أنه ذاهب إلى «اليهودية» فذكر له تلامذته الأخطار التي تحدق بذهابه إليها، فأهلها أرادوا رجمه وقتله، فكيف يجازف بالذهاب إليها»؟.

---

(١) يوحنا ١٠: ٣٦ - ٣٨.

ومضى إلى «بيت عنيا» على مقربة من أورشليم وتبعد عنها نحو خمس عشرة غلوة، وبها بيت أحد أتباعه المسمى «لعازر» وأختيه مرتا ومريم، وقد توفي لعازر منذ أربعة أيام قبل مجيئه إليها، ومضت إليه مرتا تستقبله، ونعت إليه أخاها، وذكرت له: أنه لو كان لما مات، ثم قالت له: يا سيد، إنني أعلم أن كل ما تطلب من الله يجيبك إليه، فوعدها يسوع لأنها آمنت أنه المسيح ابن الله.

ومضت مرتا إلى أختها مريم، ولم يكن المسيح قد دخل القرية لأن مرتا استقبلته خارجها، فنهضت مريم تسعى إليه، فتبعها اليهود الذين كانوا في بيتها لتعزيتها وظنوا أنها ذاهبة إلى المقبرة تبكي أخاها، ولما رأت المسيح أخذت تبكي، وبكى لبكائها اليهود الذين تبعوها، وسأل عن القبر فدلوه عليه وكان مغارة مسدودة بحجر، وطلب إليهم أن يرفعوه، فقالت له مرتا: إن له أربعة أيام وقد أنتن!.

ودعا المسيح ربه أن يحييه ليؤمن به من حضروا، فأحياه الله، وآمنوا به إلا بعضهم عادوا إلى الفريسيين وأخبروهم بمعجزته التي أقضت مضاجعهم.

وعقد الفريسيون مؤتمراً تذاكروا فيه أعمال المسيح وافتتان الناس به واتباعهم إياه، وذكر بعضهم أن ترك المسيح حراً يزيد في قوته ويسلبهم ما فيه، أخيراً قال قيافا رئيس كهنة اليهود: لخير أن يموت واحد من الشعب على هلاك الأمة كلها، وقرر المؤتمرون قتل المسيح.

واختفى عن أعين اليهود ، وجاء إلى مدينة «أفرايم» وأقام بها مع تلامذته، والفريسيون بحثون عنه، وأقبل فصح اليهود الذي يتطهرون فيه، وأخذوا يتساءلون: أيحضر المسيح عيد الفصح في الهيكل؟ وأصدر رؤساء الكهنة والفريسيون أمراً بالقبض عليه، ورجوا ممن يعرف مكانه أن يدلهم عليه.

وقبيل عيد الفصح أقبل يسوع إلى بيت عنيا ونزل بدار لعازر الذي أحياه بعد موته، وأقام فيه أياماً، وجاءته مريم بطيب كثير غال دهنت به قدميه، حتى أفعم البيت برائحته مما جعل تلميذه يهوذا الإسخريوطي يستنكر ويقول: لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمئة دينار ويوزع على الفقراء؟.

ويقول يوحنا في إنجيله: «قال هذا لا لأنه يبالي الفقراء، فقد كان سارقاً»[1].

ولكن المسيح رد على يهوذا قائلاً: دعوها، إنها حفظته ليوم تكفيني، إن الفقراء معكم في كل حين، أما أنا فلست معكم كل حين!.

وأقبلت جموع اليهود إلى منزل لعازر من أجل المسيح ولترى لعازر الذي عاد إلى الحياة بعد أن أنتن في قبره أربعة أيام، وزادت مخاوف الفريسيين من ازدياد مكانته في الشعب، وبخاصة عندما علموا أن الجموع زحفت إليه تأخذ منه البركة، وكان بينها يونانيون

---

(١) الإصحاح الثاني عشر، الفقرة ٦.

ممن صعدوا للسجود في العيد، وتحدثوا إلى بعض تلامذته، فخرج إليهم وقال:

«الحق الحق أقول لكم: إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فستبقى وحدها، وعندما تموت يخرج منها ثمر كثير، من يحب نفسه يكتب عليها الهلاك، ومن يبغضها يحفظها لحياة أبدية، إن كان أحد يخدمني فليتبعني، وحيث أكون يكون خادمي، ومن يخدمني يظفر بتكريم الآب. الآن، نفسي قد اضطربت! وماذا أقول؟ أيها الآب، نجني من هذه الساعة! ولكن، لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة!».

وسُمِعَ هاتف من السماء خيل إلى الكثيرين أنه هزيم رعد، وفهم آخرون أنه هتفة ملاك، فقال المسيح:

«ليس من أجلي كان هذا الصوت ولكن من أجلكم! الآن، دينونة العالم، الآن، يطرح رئيس هذا العالم يطرح خارجاً. وعندما أرتفع عن الأرض أجتذب الجميع إلي!».

فقال له الجمع: نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد، فكيف تقول بارتفاع ابن الإنسان؟ من ابن الإنسان؟.

فأجابهم يسوع: سيكون النور معكم بعض الوقت فسيروا ما دام النور لكم لئلا يدرككم الظلام، فمن يمش في الظلام يجهل طريقه! آمنوا بالنور ما دام النور لكم حتى تكونوا أبناء النور.

واختفى يسوع...

وفي ليلة العشاء الأخير خلع يسوع ثيابه واتزر بمنشفة، وأخذ يغسل أرجل تلامذته ويجففها بمنشفته، حتى إذا جاء إلى بطرس قال: يا سيد، أأنت تغسل رجلي؟! فأجابه يسوع: أنت لا تعلم الآن ما أصنع، ولكن ستفهم فيما بعد، إلا أن بطرس قال: لن تغسل رجلي! فقال له: إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب. فقال بطرس: ليس رجلي وحدهما، بل يدي ورأسي، فأجابه يسوع: **ليس المغتسل في حاجة إلا إلى غسل رجليه لأنه طاهر كله، وأنتم طاهرون** ولكن ليس كلكم.

ولما انتهى ارتدى ثيابه وأخذ مكانه بينهم وقال: أتفهمون ما صنعت بكم؟ إنكم تدعونني معلمًا وسيداً، حسناً تقولون لأني أنا كذلك. إن كنت أنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فإن عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، ولقد ضربت لكم المثل حتى تصنعوا مع غيركم ما صنعت معكم! الحق الحق أقول لكم: ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله! إن عملتم هذا فطوبى لكم، ولستم جميعاً أريد، أنا أعلم من اخترتهم، لكن ليتم الكتاب. الذي يأكل معي الخبز رفع عليّ عقبه.

ثم قال: الحق الحق أقول لكم: إن واحداً منكم سيسلمني!.

فأخذت التلاميذ الحيرة ولم يعرفوا من ذكره، وكان أحدهم متكئاً على حضن يسوع، فأشار إليه بطرس ليسأله عن هذا الواحد فسأله، فأجابه: من أغمس اللقمة وأعطيه. وغمس اللقمة

وأعطاها يهوذا الإسخريوطي.

وما كاد الإسخريوطي يزدرد اللقمة حتى دخل معها الشيطان قلبه، ولم يدرك التلامذة مقصد يسوع، لأن يهوذا الإسخريوطي كان من المقربين حتى أن الصندوق كان لديه، فظنوا أنه يريد منه أن يشتري شيئاً للعيد أو يتصدق بشيء على الفقراء!.

وسأل الإسخريوطي المسيح: أأنا هو يا سيد؟ فأجاب: أنت قلت.

ومضى يهوذا وكان الوقت ليلاً، وودعه يسوع قائلاً: ما أنت صانعه اصنعه عاجلاً، ولم يخبر المسيح تلامذته بما سيفعله يهوذا الإسخريوطي بعد خروجه، بل قال لهم: «الآن تمجد ابن الإنسان وتمجد الله فيه، إن كان الله قد تمجد فيه فإن الله سيمجده في ذاته ويمجده سريعاً» وتابع حديثه لهم وقال: «يا أولادي، لن يبقى لي معكم من الوقت إلا القليل. أقول لكم ما قلت لليهود من قبل، ستطلبونني، ولكن حيث أذهب لا تقدرون أن تأتوا. وصية جديدة أوصيكم بها، ليحب بعضكم بعضاً، كما أحببتكم أنا أحبوا بعضكم بعضاً، بهذا تعرفون أنكم تلاميذي. إذا أحب بعضكم بعضاً.

وهنا سأله بطرس: يا سيد، إلى أين تذهب؟ فأجابه: لا تستطيع أن تتبعني إلى حيث أذهب! ولكنك ستتبعني أخيراً. قال له بطرس: لماذا لا أستطيع أن أتبعك الآن؟ إني أضع نفسي عنك

ولو أدى بي إلى السجن والموت،فرد عليه يسوع: أتضع نفسك عني؟! الحق الحق أقول لك: إنك الليلة قبل صياح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات، فقال بطرس: لن أنكرك ولو اضطررت إلى الموت.

وكان المسيح يحس بقرب ساعته، فأوجز وصاياه وتعاليمه لتلامذته في آخر ساعاته التي بقيت له، وقال لهم:

«لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي، في بيت أبي منازل كثيرة، أنا أمضي لأعد لكم مكاناً، وعندما أنتهي من إعداده سآتي وأصحبكم لتكونوا معي، أنا الطريق والحق والحياة، لا أحد يأتي إلى الآب إلا بي. لو عرفتموني لعرفتم أبي، ومن الآن تعرفونه فقد رأيتموه».

فقال له تلميذه فيلبس: «يا سيد، أرنا الآب وحسبنا».

فرد عليه يسوع: «أنا معكم منذ زمن ولم تعرفني يا فيلبس! الذي رآني فقد رأى الآب! فكيف تقول أنت: أرنا الآب. ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيَّ. وليس ما أكلمكم به هو من نفسي ولكنّ الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال.

«صدقوني أني في الآب والآب فيَّ.

«إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، لا يستطيع العالم قبول روح الحق لأنه لا يراه ولا يعرفه، أما أنتم فتعرفونه لأنه

ماكث معكم ويكون فيكم.

«لاأترككم يتامى، إني آت إليكم، **بعد قليل لا يراني العالم أيضاً؛ أما أنتم فترونني.**

«إن أنا حي وأنتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم فيَّ وأنا فيكم. إن من عنده وصاياي وحفظها فهو الذي يحبني، ومن يحبني يحب أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي».

فسأله تلميذه يهوذا ـ وهو غير يهوذا الإسخريوطي ـ : يا سيد، ماذا حدث حتى أزمعت أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم؟.

فأجابه يسوع بقوله:

«إن أحبني أحد يحفظ كلامي فيحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً. ومن لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني. بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلت لكم.

«سلاماً أتركه لكم! سلامي أعطيكم، وليس مثل عطاء العالم عطائي! لا تضطرب قلوبكم ولا تخف، سمعتم قولي لكم: إني أذهب ثم أعود إليكم. لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأني قلت: أمضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني.

ليفهم العالم أني أحب الآب، وكما أوصاني الآب أفعل. قوموا ننطلق من هنا».

ثم تابع حديثه لتلاميذه وقال:

«أنا الكرمة الحقيقية وأبي الكرّام، كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه. وكلما يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر أكثر. وأنتم ـ الآن ـ أنقياء من الكلام الذي سمعتموه مني. أثبتوا فيّ وأنا فيكم! إن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يكن في الكرمة ثابتاً، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيّ.

أنا الكرمة وأنتم الأغصان! من يثبت فيّ وأنا فيه فإنه يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون على فعل شيء! إن من لا يثبت فيّ يطرح بعيداً كالغصن الجاف يجمعونه ويلقونه للنار فيحترق! إن ثبتم فيّ وثبت كلامي فيكم كان لكم ما تطلبون! إن مجد أبي أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي! إن حفظتم وصاياي تثبتون في محبتي كما ثبتت أنا في محبة أبي لأنني حفظت وصاياه! كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم.

«وصيتي أن يحب بعضكم بعضاً كما أحببتكم. أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به، لا أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، بل أسميكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي! لستم أنتم الذين اخترتموني بل أنا الذي اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم.

«إن كان العالم يبغضكم فقد أبغضني قبلكم، لو كنتم من العالم لأحب العالم خاصته، ولكنكم لستم منه بل أنا الذي

اخترتكم منه لذلك يبغضكم.

«أذكروا الكلام الذي قلته لكم! ليس عبد أعظم من سيده! إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم. إن كانوا حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم، لكنهم يفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي ولأنهم لا يعرفون الذي أرسلني، ولو لم أجيء وأكلمهم لما كانوا خاطئين، أما وقد جئتهم فلا عذر لهم في الخطيئة! الذي يبغضني يبغض أبي.

«لقد كلمتكم بهذا لكيلا تعثروا. سيخرجونكم من المجامع، بل ستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم بأنه يخدم الله، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولم يعرفوني. كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة ذكرتم قولي، ولم أقله لكم بادىء ذي بدء لأني كنت معكم، أما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني.

«قد امتلأت قلوبكم بالحزن من كلامي. أقول لكم الحق: خير لكم أن أنطلق، فلن يأتيكم المعزي إلا إذا انطلقت، إن أذهب أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكِّت العالم على خطيئةٍ وعلى بر وعلى دينونةٍ، على خطيئةٍ لأنهم لا يؤمنون بي، وعلى بر لأني ذاهب إلى أبي ولا تروني، وعلى دينونة لأن رئيس هذا العالم قد دين.

بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضاً ترونني لأني ذاهب إلى أبي».

وتهامس تلامذته بعضهم لبعض: ماذا يريد؟ بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل ترونني؟ وقال بعضهم لبعض: ما هذا القليل الذي يشير إليه.

وأدرك المسيح ما جال في خواطرهم وما تهامسوا به ورغبتهم في سؤاله فقال لهم:

« أتتساءلون عن قولي: بعد قليل لا تبصرونني ثم بعد قليل أيضاً ترونني؟ الحق الحق أقول لكم: إنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح! ستحزنون ولكن حزنكم سيتحول إلى فرح، إن المرأة تحزن وهي تلد، وعندما تنتهي ولادتها ينسيها الفرح ساعة الشدة فلا تعود تذكرها.

«كذلك أنتم ـ الآن ـ في حزن، ولكني سأراكم ـ أيضاً ـ فتفرح قلوبكم ولا ينتزع أحد فرحكم منكم، وفي ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً.

«الحق الحق أقول لكم: كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم! حتى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي! اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً.

«إن الآب يحبكم لأنكم أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت! خرجت من عند الآب وأتيت إلى العالم، وسأترك العالم وأمضي إلى الآب».

فقال له تلاميذه: . . . الآن نعلم أنك عالم بكل شيء . .

لهذا نؤمن أنك من الله خرجت!.

وقال يسوع: «آلآن تؤمنون؟ ها هي ذي الساعة تأتي، لقد أتت الآن! وعندئذ ستتفرقون، وتتركونني وحدي. وأنا لست وحدي لأن الآب معي».

ثم شخص يسوع ببصره إلى السماء وقال: «أيها الآب، قد أتت الساعة! الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته! أنا مجدتك على الأرض، والعمل الذي وكلته إليّ قد أكملته».

وأخذ يناجي ربه مناجاة سمعها تلاميذه، ولما انتهى منها خرج معهم إلى بستان «الجسمانية» بسفح جبل الزيتون كان يتردد عليه مع تلامذته، وأبقاهم به وأمرهم أن ينتظروه، وأخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا ابني زبدي، وأخذ منه الحزن كل مأخذ، وغامت على وجهه المشرق كآبة سوداء، وقال لهم: «نفسي حزينة حتى الموت» وطلب إليهم أن يبقوا ويسهروا معه، ثم تقدم خطوات وخر على وجهه وناجى ربه:

«أبتاه، أبعد عني هذه الكأس إن أمكن، ولكن لا كما أريد بل كما تريد أنت!».

ثم عاد إلى تلامذته فإذا هم نيام، فقال لبطرس: أهكذا تنامون؟ ألا تستطيعون أن تسهروا معي ساعة واحدة؟! إسهروا

وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة ! أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف! .

حقاً إنها كلمات تطحن! إن آلامه برحت به، ومخاوفه افترسته، وظهر له ما ينتظره من تحقير وإهانة وجلد وأذى وقتل وصلب، فدعا ربه أن يبعد عنه كأس الموت وما يسبقه حسب إرادته الإلهية لا إرادة ابن الإنسان! .

وفي لحظاته هذه لم ينس مستقبل الدعوة فقال: أما الروح فنشيط أما الجسد فضعيف، الروح لا يختلف عليها الضعف، فهو يفهم تلامذته أن ما يبدو عليه من اضطراب وفزع وحزن لا دخل له في عمل الروح الذي تقوم عليه الدعوة والتبشير.

الروح نشيط، وهو باق، وإذا كان الجسم ضعيفاً فهو للفناء، والدعوة روح فهي نشيطة وستبقى! وسيأتي بعده «المعزي» الذي يجدد دعوته كما جدد هو نفسه دعوة من سبقوه من الأنبياء، وكما جاء هو يكمل الناموس فسيأتي المعزي الذي يكمل شرائع الرسل قبله.

واستبد بيسوع الخوف والحزن على مصيره، فانصرف عن تلامذته إلى الصلاة والابتهال من جديد: «إذا لم يكن من هذه الكأس بد فلتكن مشيئتك!».

ثم عاد إلى تلامذته فإذا أعينهم ثقيلة، إنهم غرقى في النوم،

فتركهم وعاد إلى صلاته للمرة الثالثة: «إن لم يكن من الموت بد فلتكن مشيئتك».

ورجع إلى تلامذته فإذا هم كما كانوا، واستبد به الأسى، حتى الساعة الأخيرة لا يجد فيها بجانبه من يشد أزره، فاضطر أن يقول لهم مستنكراً لائماً: ناموا الآن واستريحوا! ها هي ذي الساعة قد دنت! ابن الإنسان سيسلم إلى أيدي الخطاة!.

ولكنهم لم يفارقوا مضاجعهم، فقال لهم: قوموا ننطلق! ها هو ذا الذي يسلمني قد اقترب!.

إنه غادر مكانه الأول حيث تناول العشاء إلى بستان «الجسمانية» ليبتعد عن يهوذا الإسخريوطي، فإذا جاء بالشرطة والحرس للقبض عليه لا يجدونه، ولكنه تذكر في لحظاته الأخيرة أن الإسخريوطي يعرف الجسمانية فقال لتلامذته: «قوموا ننطلق! الذي يسلمني قد اقترب!».

ولكن تلامذته لم ينهضوا فينطلقوا معه ويبتعدوا عن هذا المكان إلى مكان آخر يأمن فيه على نفسه ويفر بها وبهم عن طالبيه طلباً للنجاة منهم.

وكان ما قدره المسيح، فقد كانت خطوات ما قدر له ـ حسب رواية الأناجيل ـ أسرع إليه من استجابة تلامذته المخلصين.

القبض والمحاكمة

اشتدت الأزمة النفسية بالمسيح ، فالساعة تقترب، بل دنت، وتلامذته لم يستجيبوا له، وانصرفوا عنه إلى النوم، ومع أنه طلب إليهم في رجاء أن ينهضوا لينطلقوا معه إلى غير المكان الذي هم فيه فراراً بنفسه ممن يريدون به السوء والأذى أصموا آذانهم، واشتغلوا عنه بالنوم وتركوه وحده فريسة القلق، وأضاعوا عليه فرصة الهرب والنجاة.

ولعله كان يفكر في النجاة بنفسه وحدها ما داموا عصوه لأنه هو وحده المطلوب دونهم.

وبينا الأزمة النفسية تتفجر في نفسه القلقة الحزينة، وقضى تلامذته على آخر أمل له في النجاة إذ عاجله يهوذا الإسخريوطي بمن معه من الحرس والجند يحملون السيوف والعصي جاءوا للقبض عليه تنفيذاً لأمر رؤساء الكهنة وشيوخ شعب إسرائيل لم يجد المسيح مفراً غير الإستسلام للواقع الأليم.

ويظهر أن الحرس والجند لم يكونوا يعرفون المسيح، لأن

يهوذا اتفق معهم على أن يدلهم عليه بإشارة اصطلحوا عليها فيما بينهم وهي تقبيله، فلما دخل عليه ومعه أولئك الغلاظ الجفاة خلفه قال يهوذا: السلام عليك ياسيدي، ومضى إلى يسوع وقبله.

وملك يسوع أعصابه وقابلهم في شجاعة وقال ليهوذا: ياصاحب، لماذا جئت؟ أبقبلة تسلم ابن الإنسان؟.

«يا صاحب!» كلمة الذكرى لعله يتذكر أو يخشى، لعلها توقظ ضميره، إنه يذكره بكلمة «يا صاحب» بحق الصحبة لو كان يهوذا إنساناً يحفظ هذا الحق ويصون العهد.

ونهض تلامذته وأذهلتهم المفاجأة، صاحب المسيح وزميلهم الإسخريوطي مع جند الشيطان - بل قائدهم، وامتشق بطرس سيفه وأهوى بها على عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه، فبادره المسيح قائلاً: رد سيفك إلى مكانه! كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون! أتظن أنني لا أستطيع أن أطلب إلى أبي فيعطيني اثني عشر جيشاً من الملائكة! ولكن، كيف تكمل الكتب؟ هكذا ينبغي أن يكون!. ولمس أذن العبد فعادت كما كانت!.

ثم انبرى المسيح للجمع وقال لهم على رواية بعض الأناجيل: منْ تطلبون؟ فأجابوا: يسوع الناصري! فقال لهم: أنا هو، ولما هموا بالقبض عليه تراجعوا وغشيهم ما يشبه الذهول بدده يسوع نفسه إذ كرر سؤاله: مَنْ تطلبون؟فصحوا إلى أنفسهم

وقالوا: يسوع الناصري، فأجابهم في رباطة جأش: قلت لكم أنا هو. إن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء.

وفحص الجمع بعينيه ورأى بأيديهم السيوف والعصيّ فقال لهم: كأنما خرجتم إلى لص، إني كنت في الهيكل كل يوم أعلم ولم تمسكوني ولم تمدوا إلي أيديكم، ولكن هذه ساعتكم. وهذا سلطان الظلمة .

ويقول متى في إنجيله: «حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا».

تركوه وحده فامتدت إليه أيدي الجند وقبضوا عليه وأوثقوه وقادوه في حيطة وحذر على ضوء المشاعل وهم يصخبون ويرددون هتاف النصر، وذهبوا به ـ بعد مرورهم بدار الكاهن حنانيا ـ إلى دار قيافا رئيس الكهنة ،وأوصلوه إليها بعد عذاب شديد ناله منهم، وكان الفريسيون وشيوخ شعب إسرائيل مجتمعين بدار قيافا ينتظرون نبأ الحملة التي سيروها للقبض على يسوع، وأسهرهم الانتظار حتى سمعوا صخباً أثار فيهم شتى الانفعالات.

ولشد ما أسعدهم أن تنجح حملتهم ويروا المسيح الذي هددهم في دنياهم مقبوضاً عليه ذليلاً مهيناً، وبادره قيافا بسؤاله عن تلامذته وتعاليمه، ولكنه لاذ بالصمت فما كان يود أن يقحم تلامذته في قضية هو وحده المسؤول عنها، إلا أنه أجاب عن تعاليمه بقوله:

«أنا كلمت العالم علانية، وجهرت في المجمع وفي الهيكل حيث مجتمع اليهود، ولم أقل شيئاً خفية، فلم تسألني أنا؟ سل من سمعوا ما كلمتهم به فإنهم يذكرون ما قلته».

ولطمه أحد الخدم وقال له زاجراً: أهكذا تجيب رئيس الكهنة؟.

فأجابه يسوع: إن كنت قلت سوءاً فاشهد علي بالسوء، وإن كنت تكلمت بخير فلم تضربني؟.

ولم يزجر رئيس الكهنة اللاطم لأن لطمته صادفت منه رغبته، فهو حريص على التخلص من المسيح بقتله، وقد أخذ قيافا ورؤساء المجمع والشيوخ يبحثون عن شهود زور يدينونه بشهاداتهم، ومع أن كثرة شهود الزور تملأ المجتمع اليهودي إلا أنهم لم يجدوا من يستطيع أن يؤدي الشهادة كما يريدون، وبعد لأي وجدا شاهدي زور قالا للمحكمة الجائرة: إن هذا قال: إني أستطيع أن أنقض هيكل الله وأعيد بناءه في ثلاثة أيام[1]!.

---

(١) في إنجيل متى هذا القول (٢٦ ـ ٦١) وفي إنجيل يوحنا (الإصحاح الثاني، الفقرة ١٩): «أجاب يسوع وقال لهم: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» فقال اليهود: «في ست وأربعين سنة بني هذا الهيكل أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه؟» واتهام الشاهدين بالزور باطل، لأنهما شهدا حقاً، وشهادتهما مؤيدة بما في إنجيل يوحنا، فإذا صح قول متى يكون يوحنا غير صادق، وإذا كان يوحنا صادقاً فإن متى يكون هو غير الصادق، وكلا الأمرين طعن في أحد الإنجيلين المعتبرين وفي أحد مؤلفيهما، الحواري الحبيب يوحنا أو الحواري الصالح متى!.

فسأل قيافا المسيح عن رأيه في شهادتهما، ولكنه ترفع عن إجابته، فالسائل يعلم كالمسؤول بشاهدي الزور ويعرف الجواب، ولا يستحق أن يجيبه في أمر الشهادة، فأراد قيافا أن يحمل المسيح على الكلام ليدينه به مهما كان جوابه بريئاً ، فقال له: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا أأنت المسيح ابن الله؟.

وعندما استحلفه بالله الحي قال المسيح:أنت تقول هذا؟.

نعم، قيافا هو الذي قال في سؤاله: أأنت المسيح ابن الله؟ أما المسيح فلم يدع ذلك كما يدل الموقف، لأنه أردف كلمته الموجزة بقوله: الآن، تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة!.

فمزق قيافا ثوبه متهمًا المسيح بالتجديف، وزاعمًا أن لا حاجة إلى شهود بعد أن شهد المسيح على نفسه، وسأل الحاضرين: ماذا ترون؟ فأجابوه: إنه يستحق القتل!.

وهنا بصقوا في وجه المسيح وضربوه ولطموه وهزأوا به، وأجلوا الجلسة إلى الصباح؛ تاركيه للحراس الحاقدين والعبيد يتعاورونه بأنواع الأذى، حتى أن بعضهم كان يضربه من خلفه ويقول له: والآن، تنبأ لنا أيها المسيح، من ضربك؟.

وقضى المسيح ما بقي من ليلته في هوان وعذاب وضرب ووكز ولطم حتى الصباح حيث كان قيافا وكل رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب يتبادلون الرأي في المسيح حتى يقتلوه، وقد استقر رأيهم على صلبه، وبعثوا به إلى الحاكم الروماني «بيلاطس النبطي»

بعثوا به إلى دار الولاية حيث خرج إليهم بيلاطس نفسه ورأى المسيح موثقاً وسألهم فأجابوه: إنه يفسد الشعب، ويمنع من أداء الجزية لقيصر، ويدعي أنه المسيح الملك.

إنها تهم جديدة لا تتصل بالدين والعقيدة، ولكنها تهم قائمة على السياسة والحكم، وقد أدرك رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب أن التهمة الدينية لا تجد اهتماماً من بيلاطس الوثني ، أما التهم السياسية فتجبره على الاهتمام بدعاواهم التي تودي بالمسيح إلى الصلب، لأنه مفسد الشعب يثيرهم ضد القيصر، ومنعهم من دفع الجزية إليه تحريض على الثورة، وادعاء الملك إعلان للثورة على الملك الحقيقي وهو القيصر.

ومع ذلك لم يكن بيلاطس حاقداً على المسيح، وبخاصة أن امرأته أنذرته من أيذائه لأنه بار، فاستوضحهم المزيد من الاتهام فقالوا له: لو لم يكن عامل سوء ما أسلمناه إليك! وأراد بيلاطس أن يتخلص فقال لهم: خذوه أنتم واحكموا عليه بما يقرره ناموسكم، ولكنهم ردوا عليه قائلين: لا يجوز لنا قتل أحد.

فاضطر بيلاطس أن يحاكم المتهم الماثل بين يديه فجلس بدار الولاية مجلس التحقيق والحكم والقضاء، وسأل بيلاطس المسيح: أأنت ملك اليهود؟.

فأجاب المسيح: أمن عندك هذا القول أم هو منقول إليك؟.

فقال بيلاطس: ألعلي يهودي؟ إن شعبك ورؤساء الكهنة هم أسلموك إلي فما الذي فعلت؟.

فقال يسوع: مملكتي ليست من هذا العالم! ولو كانت مملكتي من هذا العالم لبرز خدامي يجاهدون حتى لا أُسلَّم إلى اليهود. والآن، إن مملكتي ليست من هنا!.

فسأله بيلاطس: أفأنت ـ إذن ـ ملك؟

فأجابه يسوع: أنت تقول: إني ملك. لهذا قد ولدت، ولهذا قد أتيت إلى هذا العالم لأشهد للحق، كل من هو من الحق يسمع صوتي!.

قال بيلاطس: ما الحق؟.

ولم ينتظر جوابه بل خرج إلى اليهود الثائرين المدعين وقال لهم: لم أجد إليه سبيلاً، ولكم عادة أن أطلق لكم واحداً في عيد الفصح، أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟.

فصرخ اليهود جميعاً قائلين: ليس هذا، بل باراباس!.

باراباس اللص، يريد اليهود أن يطلقه الحاكم بدل المسيح، إنهم مصرون على قتل المسيح فكيف يقبلون أن يعفو عنه الوالي ويطلقه لهم، أهو جميل يصنعه معهم أن يطلق لهم في العيد من يعتقدون أنه أعدى أعدائهم حتى يفسد عليهم عيدهم المقدس، إن عيدهم يزداد بشراً وهناءة إذا تخلصوا منه بالقتل، وكان هتافهم بالتهم يقذفونها على المسيح يشق حناجرهم، وبطلب

قتله، فعاد بيلاطس إلى المسيح يسأله :أما تسمع؟ أما تجيب؟ أنظر، ما أكثر شكاواهم منك!.

ولاذ المسيح بالصمت العميق، فقد نهكت قوته، ورأى ألا فائدة فسكت، فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة وللجموع: لم أجد على هذا الرجل علة!.

فإذا الجموع الحاشدة تهتف بصوت واحد: إنه يهيج الشعب من الجليل إلى هنا!.

وكان بيلاطس مريداً التخلص من تبعة دم المسيح، وأدرك أنه من ولاية هيرودس الذي قدم إلى أورشليم في زيارة دينية لها، فأراد أن يظفر بربحين في وقت واحد، التخلص من دم المسيح، ومجاملة خصمه هيرودس رجاء أن يزول ما بينهما من جفاء، فبعثه إليه ليتصرف في الأمر كما يرى.

وسر هيرودس لمرأى يسوع، فقد كان في شوق إلى ذلك بعد أن ملأت سمعه أخباره وحوادثه ومعجزاته، كان في شوق إلى أن يرى المسيح لا رغبة في الهدى والبر، بل طمعاً في التشفي الذي يجده وثني ظلوم عندما يلقى بين يديه رجل من رجال الله الأبرار.

وقف المسيح بين يدي هيرودس وسط حلقة من حاشيته وأخذ يسأل المسيح وهو مطرق لا يجيب، وصبر صبراً عجيباً أضاع على هيرودس نشوة النصر إذ يرى يسوع ذليلاً بين يديه فاشتعل حقده.

وفيما كان رؤساء الكهنة والكتبة يضجون بالشكاوى يرسلونها ضد المسيح كان هيرودس ورجاله يعبثون بالمسيح ويهزأون ويسخرون، وبلغ من نقمة هيرودس أن ألبس المسيح ثوباً لامعاً ورده إلى بيلاطس مشيعاً بضروب الأذى والسخرية.

واضطر بيلاطس أن ينظر القضية فدعا برؤساء الكهنة والشيوخ وجموع الشعب، وكان يقصد إلى إطلاق سراحه فقال لهم: دفعتم بهذا الرجل إلي بتهمة فتنة الشعب، وهأنذا قد فحصته على مرأى وسمع منكم، فما وجدت عليه علة مما تتهمونه به، وكذلك هيرودس لم يجد عليه علة لأنه لم يفعل به شيئاً من حكم الموت بعد أن أرسلتكم إليه.

وحرصاً منه على إطلاق المسيح وإرضاء اليهود في وقت واحد قال لهم: وأنا أؤدبه وأطلقه.

وزمجرت الحناجر اليهودية تنادي: اصلبه، اصلبه، ولكن بيلاطس حسب أن في طوقه إرضاء اليهود دون دم المسيح، فأمر بجلده لعل الجلد المبرح ينزع من صدورهم الغل والحقد والبغضاء أو يخففها ثم يطلقه.

ونزع الجنود الرومانيون العتاة ثياب المسيح وشدوا وثاقه في عمود، وأخذوا يجلدونه، ولم يقفوا الجلد حتى تفجر الدم من جسمه وكلت سواعدهم، وحلوا وثاقه فسقط على الأرض غريق دمه.

وتسلمه العسكر وضفروا إكليلاً من الشوك وضعوه على رأسه، وألبسوه ثوب أرجوان فبدا منظره غريباً يزيد في ضحكهم وسخريتهم وشرتهم، وتحلقوا عليه، وأخذوا يقولون له: السلام عليك يا ملك اليهود، ثم يلطمونه، ويبصقون عليه.

وخرج بيلاطس إلى اليهود وقال لهم ما ردده عليهم من قبل: لا أجد في الرجل علة، وأخرج يسوع لهم لعل منظره يحملهم على الرثاء والإشفاق، ويكتفون بما ناله، ولكن رؤساء الكهنة وشعب اليهود صرخوا: اصلبه، اصلبه!.

فرد عليهم بيلاطس: أما أنا فلم أجد عليه علة، فخذوه أنتم وأصلبوه.

فصاحوا: لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله.

وما كاد يسمع بيلاطس كلمة «ابن الله» يصفون بها يسوع شعر بالخوف أن يصل إليه أذى منه، فدخل دار الولاية وسأل المسيح: من أين أنت، ولكن المسيح لم يجبه، فقال له بيلاطس: أما تعلم أن لي سلطاناً، أستطيع أن أصلبك أو أن أطلقك.

فاضطر المسيح إلى الجواب لأنه يعرف أن السلطان لله وحده فقال: ليس لك سلطان عليَّ البتة لو لم يوهب لك من فوق، إن خطيئة من أسلمني إليك لعظيمة.

وأراد بيلاطس إطلاق يسوع ولكن اليهود ثاروا وزمجروا،

ولكن بيلاطس تشجع وأخذ ماء وغسل به يديه أمامهم وقال : إني بريء من دم هذا الصِّدِّيق! . وأبصروا أنتم.

ولكن اليهود وفي طليعتهم رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب أعلنوا في إصرار: دمه علينا وعلى ذرياتنا.

يا لله! . دم رسول الله وكلمته عليهم وعلى ذرياتهم. إن ظمأهم المحرق لا يطفئه إلا دمه الزكي، وأبصروا تردد بيلاطس وحيرته وإيثاره سلامة يسوع فصرخوا: إن أطلقت هذا فأنت غير محب لقيصر، كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر! .

وذكْر اسم القيصر بهذا الأسلوب أضعف موقف بيلاطس، ومع ذلك قال لهم: ها هو ذا ملككم! فأجابوه على لسان واحد: اصلبه ، اصلبه! .

وسألهم في ازدراء: أأصلب ملككم؟ فأجابوه: لا ملك لنا غير قيصر .

حقاً، إنه مشهد يثير السخرية والاشمئزاز من موقف اليهود، بيلاطس الوثني يعطف على المسيح وهم يريدون قتله، ويتنكرون لتعاليمهم ومقدساتهم إذ يعلنون أنهم لا يعترفون بملك غير قيصر الوثني الغريب عنهم! .

وهنا أسلم بيلاطس المسيح لليهود ليصلبوه، فتسلموه منه في فرح غامر وقادوه مع اثنين من المجرمين ليصلب معهما، وعلقت بأمر بيلاطس على المسيح لافتة كتب فيها «يسوع الناصري ملك

اليهود» ولم يرضى اليهود بأن يوصف يسوع بأنه ملكهم وأرادوا من بيلاطس أن يحذف هذا الوصف فأبى في غيظ وحنق وقال: ما كتبته قد كتب!.

فسكت اليهود، فقد تحقق أملهم، حكم على المسيح بالاعدام صلباً!.

الصلب والقيامة

سار موكب المسيح هو في الطليعة بين اللصين المجرمين، وخلفهم الكتبة ورؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وشعب إسرائيل، حتى النساء خرجن يشهدن هذا المنظر الرهيب، وبينهم مؤمنون قلة، وأكثرهم لا يؤمنون.

وحمل كل من المحكوم عليه بالقتل صليبه الثقيل، وناء المسيح بحمله، فقد كان منهوك القوى مضعضع البنيان من السهر والتعب والجلد، فكان يسقط وينكب على وجهه من اللغوب فيلكمونه ويرفسونه ويطأونه بأقدامهم، ويبصقون عليه ويهزأون به، ولكن روحه ما تزال نشيطة.

وزاد لغوب المسيح فسقط على الأرض ولم يعد قادراً على السير بصليبه، فسخروا من يحمله عنه.

وبينا هم ينقلون عنه الصليب إلى من يحمله ولول نساء أورشليم لاطمات وجوههن حزناً على يسوع، فنظر إليهم في أسى وقال: «يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن

وعلى أولادكن! إذا كانوا يفعلون هذا بالعود الرطب فما هم فاعلون باليابس؟ وستأتي أيام يقولون فيها: «طوبى للعواقر! طوبى للبطون التي لا تلد، والثديّ التي لا ترضع ! حينئذ يبتدئون بقول: يا جبال، اسقطي علينا! ويا آكام غطينا».

واستمر موكب الشر والظلم والكفر في مسيره بين الهتاف والمرح ، فقد وقع يسوع في أيدي الظلمة الآثمين الذين لا يرحمون بل يسرفون في الظلم إسرافاً.

وانتهى الموكب إلى «تل الجلجلة» حيث أعد للصلب، ونزعوا عن المسيح ثيابه، ورفعوه للصلب، ثم أصعدوا الجسم على خشبة الصلب ودقوا في يديه ورجليه المسامير ليثبتوه، وتقاسموا ملابسه.

ولا تسل عن سعادة اليهود وبخاصة رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، فقد أخذوا يشتمونه ويرددون عبارات الشماتة والسخرية، ومما قالوا للمسيح وهو على خشبة الصلب: «إن كنت المسيح حقاً فخلص نفسك! إن كنت ابن الله حقاً فليخلصك أبوك!».

وبينا المسيح معلق على خشبة الصلب أبصر أمه العذراء الصديقة مريم والدموع تزحم عينيها بين نساء جئن يبكين المخلص ، ورأى تلميذه الحبيب يوحنا بين الجمع فقال لها: يامرأة، ها هوذا ابنك (وأشار بعينيه ووجهه إلى يوحنا) وأنت يا رجل، هذه أمك!.

يوصي بها تلميذه البار، ثم استسلم لما فيه من عذاب وآلام وعندما بلغت به آخر مدى الاحتمال دعا ربه فقال: إلهي، لماذا تركتني؟.

ثم عاد إلى طمأنينته وقال: يا أبت اغفر لهم فإنهم لا يعلمون ما يفعلون!.

ثم أسلم المسيح روحه، ولكيلا تبقى الأجساد على الصليب يوم السبت لأنه يوم مقدس لدى اليهود، أرادوا دفنها، وسألوا بيلاطس أن تكسر سيقانهم ويرفعوا، وكسر العسكر ساقي اللصين، أما يسوع فقد وجدوه ميتاً فلم يكسروا ساقه، وجاء أحد العسكر وطعن جنبه بحربة أسالت منه دماً وماء[1].

وأنزل «يوسف الرامي» من الرامة جسد يسوع بعد استئذان بيلاطس، وكان يوسف من تلامذة يسوع، وأخذ يوسف بمساعدة نيقوديموس الجسد ولفاه وكفناه وطيباه كعادة اليهود، ودفناه بقبر جديد لم يسبق لأحد أن دفن فيه وكان في بستان بالموضع الذي صلب فيه.

وجاء رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس وطلبوا إليه وضع حراس على القبر لئلا يأتي تلامذته ليلاً ويسرقوه، وقالوا له: «يا سيد، إن هذا المضل قال وهو حي: إني بعد ثلاثة أيام أقوم!

---

(١) محاكمة المسيح بالصورة التي رويناها اقتباساً من الأناجيل باطلة في الشريعة الموسوية كما ذكر القاضي الانجليزي المشهور اللورد «شوارف دنفر ملين» صاحب المباحث المعروفة في «محاكمات التاريخ».

فمر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب: إنه قام من الأموات! فتكون الضلالة الأخيرة شراً من الأولى» فأذن لهم ، فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر.

قتل المسيح صلباً يوم الجمعة السادس من شهر إبريل كما جاء في كتاب «محاكمة المسيح» لريشارد هزباند. وجاء بعده يوم السبت المقدس لدى اليهود، وفي يوم الأحد أول الأسبوع الجديد جاء نسوة معهن بعض الناس إلى القبر وهن يحملن حنوطاً وطيباً أعددنها، فوجدن الحجر مدحرجاً عن القبر. فدخلن ولم يجدن جسد يسوع، وبينا هن في حيرتهن وقف بهن رجلان في ثياب براقة وقالا لهن وهن مطأطئات الوجوه إلى الأرض: لماذا تطلبن الحي بين الأموات، إنه ليس هنا فقد قام، اذكرن كلامه لكن في الجليل: ينبغي أن يسلم ابن الإنسان إلى أناس خطاة ويصلب، وفي اليوم الثالث يقوم.

فعاد النسوة إلى التلامذة الأحد عشر وغيرهم من تلامذة يسوع وأخبرنهم بما رأين، و «تراءى كلامهن كالهذيان ولم يصدقوهن » فقام بطرس مسرعاً إلى القبر فوجد ما قلن واقعاً فعجب من ذلك.

وأول مشهد ليسوع بعد القيام من قبره كما يذكر لوقا (الإصحاح الرابع والعشرون) أن اثنين يسمى أحدهما كليوباس كانا منطلقين إلى قرية عمواس التي تبعد عن أورشليم ستين غلوة،

يقطعان وقتهما بالكلام في الحادث الذي يشغل أورشليم وقرى اليهود، حادث يسوع، فاقترب منهما يسوع ومشى معهما وقال لهما: ما هذا الذي تتحدثان فيه؟ فقالا له: أأنت غريب في أورشليم ولم تعلم ما حدث هذه الأيام؟ فسأل: ما هو؟ فأجاباه بما وقع ليسوع وقالا له: إن بعض النساء حيرننا لأنهن مضين إلى القبر فلم يجدنه ورأين ملائكة قالوا إنه حي، وتحقق قوم منا فوجدوا الأمر صحيحاً.

فقال لهم المسيح: «أيها الغبيان، يا بطيئا القلوب في الإيمان بكل ما تكلم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن يتألم المسيح ويدخل إلى مجده» وأخذ يفسر لهما كل ما يختص بالمسيح في الكتب منذ عهد موسى والأنبياء بعده.

واقتربوا من القرية فتظاهر يسوع بأنه ذاهب إلى غيرها فدعواه أن يبقى معهما فالمساء مقترب والنهار قد مال، فقبل دعوتهما، ولما جلسوا أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسره وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه، وعند ذلك اختفى، فأسرعا بالعودة إلى أورشليم وقابلا الأحد عشر مجتمعين ومعهم غيرهم وهم يقولون: إنه الرب قام حقيقة وظهر لسمعان، وأخبراهم بما كان في الطريق إلى عمواس ومعرفتهما إياه عندما كسر الخبز!.

وفيما هم فيه وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم يرون روحاً، وأدرك منهم ذلك

وقال لهم: ماذا يجيش في قلوبكم، انظروا إلى يدي ورجلي، إني أنا هو! انظروا فإن الروح لا لحم له ولا عظام!.

وأراهم يديه ورجليه، وبينا هم في دهشة غير مصدقين من فرحهم قال لهم: أعندكم طعام؟ فناولوه سمكاً مشوياً وعسلاً، فأكل بين يديهم، ثم قال لهم: هذا ما حدثتكم به وأنا معكم، لقد قلت لكم: لا بد أن يتم ما هو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير، وهكذا كان ينبغي أن يتألم المسيح ويقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم ابتداء من أورشليم، وأنتم شهود ذلك، وهأنذا أرسل إليكم موعد أبي، فأقيموا في مدينة أورشليم حتى تلبسوا قوة من الأعالي.

وأخرجهم معه إلى بيت عنيا، ورفع يديه وباركهم، وفيما يباركهم انفرد عنهم وأصعِد إلى السماء فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم فرحين مبتهجين.

وفي مرقس أن المسيح ظهر ـ أولاً ـ لمريم المجدلية التي أخرج منها سبعة شياطين، فمضت وأخبرت بحياته تلامذته فلم يصدقوها، ثم ظهر بهيئة أخرى لاثنين في البرية فلما أخبراهم لم يصدقوا، وأخيراً ظهر للأحد عشر «ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا» وقال لهم: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدن، وهذه الآيات تتبع المؤمنين، يخرجون الشياطين باسمي،

ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون».

ويقول مرقس: «ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله».

وفي رواية يوحنا بالإصحاح العشرين أن مريم المجدلية كانت واقفة عند القبر خارجه تبكي ، وفيما هي في بكائها انحنت إلى القبر فأبصرت فيه ملاكين بثياب بيض جالسين؛ أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه حيث كان جسد يسوع، وقالا لها : لماذا تبكين؟ فأجابتهما: إنهم أخذوا سيدي ولست أعلم أين وضعوه! والتفتت إلى الوراء ورأت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه هو، وقال لها: «يامرأة، لماذا تبكين؟ من تطلبين؟

وظنته مريم البستاني فقالت له: إن كنت أنت حملته فأخبرني أين وضعته وأنا آخذه. فقال يسوع: يا مريم، فالتفتت إليه وقالت له: يا معلم، وقال لها: لا تلمسيني لأني لم أصعد - بعد - إلى أبي، ولكن أذهبي إلى إخوتي وقولي لهم : إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم.

وكان تلامذته مجتمعين في عشية ذلك اليوم مغلقين الأبواب خوفاً من اليهود جاءهم يسوع ووقف في وسطهم وسلم عليهم وأراهم يديه وجنبه، ففرحوا، وقال لهم: «سلام عليكم ، كما أرسلني الأب أرسلكم أنا، من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت! .»

ولم يكن بينهم توما المعروف بالتوأم، وأخبروه أنهم رأوا الرب (يسوع) فقال لهم: لا أومن حتى أضع إصبعي على أثر المسامير، ويدي على جنبه!.

وبعد ثمانية أيام أيضاً ظهر لتلامذته وكان بينهم توما في مكان مغلق الأبواب وسلم عليهم ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي وضع يدك في جنبي ولا تكن غير مؤمن، بل كن مؤمناً، فقال توما له: ربي وإلهي، وقال له يسوع: آمنت يا توما لأنك رأيتني، طوبى للذين آمنوا ولم يروا.

وبعد ذلك ظهر يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية، فقد كان سمعان بطرس وتوما الذي يقال له التوأم ونثنائيل الجليلي وابنازبدي واثنان آخران من تلامذته مجتمعين، وخرجوا للصيد ودخلوا السفينة، ومضت عليهم الليلة دون توفيق للصيد، وفي الصباح كان يسوع على الشاطىء وتلامذته لا يعلمون أنه هو، وقال لهم: يا غلمان، لعل لديكم إداماً؟ فأجابوا بالنفي، فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن، فألقوا فعجزوا عن جذب الشبكة من ثقلها لأنها اصطادت كثيراً.

وقال ذلك التلميذ الذي يحبه يسوع - والمقصود يوحنا - لبطرس: هو الرب! فما كاد بطرس يسمع ذلك حتى هرع إلى ثوبه يرتديه فقد كان عرياناً وألقى بنفسه في الماء يريد الشاطىء سباحة، وزملاؤه وجهوا السفينة إلى الأرض، فلما نزلوا وجدوا حجراً عليه

سمك كما وجدوا خبزاً، وقال يسوع: قدموا من السمك الذي أمسكتم. ثم قال لهم: هلموا تغدوا.

ولم يجسر أحد من التلامذة على سؤاله فقد كانوا يعلمون أنه الرب، وأخذ يسوع الخبز وأعطاهم، وكذلك السمك، وبعد الغداء قال يسوع لبطرس: أتحبني أكثر من هؤلاء؟ فأجاب: نعم، يا رب، أنت تعلم أني أحبك. فقال له: إرع خرافي، وكرر سؤاله: يا سمعان بن يونا، أتحبني، قال: نعم يا رب، أنت تعلم أني أحبك، قال له: إرع غنمي! وقال له - ثالثة -: يا سمعان بن يونا، أتحبني.

فحزن بطرس على إعادة ربه السؤال نفسه للمرة الثالثة، وقال له: يا رب، أنت تعلم كل شيء، أنت تعرف أني أحبك، فقال له يسوع: إرع غنمي!.

هذا ما روته الأناجيل والمصادر عن المسيح وحوادث القبض عليه والصلب والدفن والقيامة من قبره وظهوره لمريم وتلامذته ثلاث مرات، وكنا أمناء في عرضه كما جاء في المصادر المسيحية ليكون القارىء على علم تام به وبوجهة نظرهم واعتقادهم.

وقد سبق أن رأى القارىء في الديانات الوثنية التي سبقت المسيح صلباً كصلبه للأسباب التي يذكرها المسيحيون.

وأسباب قبول المسيح الصلب راضياً أنه أراد أن يفتدي البشرية بما مر به من عذاب وهوانٍ حتى الموت صلباً. فالمسيحيون

يزعمون أن بين الله والبشر قطيعة بسبب خطيئة آدم المعاقب بهذه القطيعة لعصيانه أمر ربه فاستوجبها، وفقد الجنة والنعيم عقوبة له وتبعه بنوه في العقوبة لأنهم مسؤولون معه عن الخطيئة.

إن رب الأسرة مسؤول عن أفرادها جميعاً، وما يناله من خير فهم فيه شركاء، وإذا أصابه شر كانوا هم مستهدفين له، لأن رب الأسرة وأفرادها يؤلفون «شخصاً معنوياً واحداً» وكذلك أمر آدم وذريته.

فخطيئته عليه وعلى أبنائه من بعده، ولكن لم يكن يملك ما يجعله أهلاً للتكفير عنها ولا وسيلة من وسائله، وأنَّى له أن يكفر عن إهانة ارتفعت من درك الإنسان الحقير إلى عرش الله العلي القدير.

إذن، لا بد أن تكون الكفارة متكافئة مع ذات من لحقته إهانة الخاطىء، وليس آدم إلا مخلوقاً من الطين، وما ثمَّ تكافؤ بينه وبين الله الذي أهانه بمعصيته إياه.

والله غفور رحيم، سبقت رحمته غضبه، وشاء أن يتدارك بعفوه الإنسان الخاطىء والإنسانية الخاطئة بأن يكون من يفتديهما هو ابنه الوحيد فبعثه لينجد الإنسان وينقذه من العقوبة، ورضي يسوع أن يقدم نفسه فداء فيكون الوسيط بين الله والبشر، ولهذا تجسد يسوع ابن الله الوحيد الذي لا ابن له سواه، وقام تجسيده على اجتماع اللاهوت والناسوت في شخصه، اجتماع الطبيعة

الإلهية والطبيعة البشرية ، فكان إلهاً وإنساناً في ذاته، فطبيعته الإلهية كان أهلاً للتكفير لأنه كفء لله، وبطبيعته البشرية جرت عليه أحداث الصلب، فتمت الوساطة المقبولة بين الله والبشر وانتهت القطيعة، ووقعت المصالحة «ونفتخر بالله بربنا يسوع الذي نلنا به المصالحة»[1].

ففكرة الفداء حق لا مراء فيه كما يرى المسيحيون، وكذلك فكرة أن المسيح إله وابن الله، ويهزأون ممن لا يستطيعون أن يتصوروا موت الإله فيقول أحدهم[2]: «المسيح الإله مات موت المجرمين على خشبة الصليب، لكن العقل البشري ليثور لمجرد التفكر بهذا الواقع المرير، إله يموت! هذا ما شق على حكماء أثينا التسليم به، وحسبه اليهود المنتشرون في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ضرباً من الجنون مما أنطق به بولس الرسول بقوله: «نحن نبشر بالمسيح مصلوباً عثرة لليهود وجهالة للأمم»[3]. . . . كل هذا ما كان إلا ليزيد في الدهش والاستغراب».

ويقول: «لو لم يكن موت المسيح حدثاً تاريخياً وقع في مكان معين وفي زمن محدد خلافاً لما زعم الظاهريون الذي يقولون بأنه شبه لنا أنه صلب، لكان إيماننا باطلاً، ولكنا نرسف في قيود

---

(١) سفر رومية، الإصحاح الخامس.

(٢) هو الأب بولس إلياس اليسوعي في كتابه «يسوع المسيح» المطبعة الكاثوليكية بيروت.

(٣) راجع من «يسوع المسيح» الصفحات ٩٢ ـ ٩٧.

الخطيئة، ولكن موت المسيح وبالتالي سر الفداء يحتل نقطة الدائرة من الدين المسيحي».

ويقول: «لكننا نحن المسيحيين لا نستغرب هذه الحقيقة عندما نعرف أن المسيح لم يمت بوصفه إلهاً - فالإله لا يموت - لكنه مات بوصفه إنساناً وليس في موت الإنسان ما يدعو إلى الاستغراب، وقد ارتضى الموت طوعاً تمجيداً لأبيه السماوي وافتداء لبني البشر».

ويقول: «لقد قرب المسيح لله أبيه هذه الطبيعة البشرية التي اتخذها من أحشاء أمه العذراء تكفيراً عن إخوانه البشر واسترضاء لله أبيه السماوي لا يحدوه على ذلك إلا حبه لهم»[1].

ويشعر المسيحيون بأن فكرة الصلب والفداء مما يستغرب، لأنه إذا أريد فداء فهناك متسع من رحمة الله له فيتم بدعاء أو سجود، ولهذا يجيبون بقولهم: «مما لا ريب فيه أن المسيح كان باستطاعته أن يفتدي البشر ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة، أو بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوي، ولكنه أبى إلا أن يتألم ليس لأنه مريض يتعشق الألم ولا لأن أباه ظالم يطرب لمرأى الدماء، وأية دماء؟ دماء ابنه الوحيد، وما كان الله بسفاح ظلوم، لكن الله الابن شاء مع الله الآب أن يعطي الناس أمثولة خالدة في المحبة، تبقى على الدهر، وتحركهم على الندامة

(١) راجع من «يسوع المسيح» الصفحات ٩٢ - ٩٧.

على ما اقترفوا من آثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة»[1].

و«لو كان الناس ملائكة، أرواحاً بلا أجساد، لما تكلف المسيح عذاب الصليب، ولكن الناس أرواح وأجساد لا يتأثرون إلا بما يقع تحت الحواس! ولهذا بدا لهم مصلوباً تغسله الدماء الحمراء فينطبع رسمه في خيالهم ويمثل وإن غاب عن النواظر أمام البصائر، فيفهمون إذا ذاك خطورة المعصية وشناعة الإثم»[2].

إن المسيحيين ينفون عن المسيح عشق الألم فيرضى عن طيب خاطر بما اختلف عليه من الآلام التي جلت عن الطاقة والاحتمال، ولكن الواقع أن الآلام مرت به وقبلها راضياً وإن كان في لحظاته الأخيرة وفي يومه الأخير دعا ربه أن يبعد عنه كأسها، وندَّ عنه عتاب وهو على الصليب وجهه لله إذ قال: « إلهي إلهي، لماذا تركتني »!.

ألا يسمى طلاب المسيح للآلام عشقاً لها؟ إنه أراد أن يمسح آلام البشر بأن يحملها هو نفسه تكفيراً للخطيئة التي صدرت من الإنسان الأول.

إن نفي عشق الآلام ينفيه الواقع المشهود.

وكذلك ينفون عن الله الطرب لمرأى الدماء، ونسوا أن التوراة تصور «يهوه» منتشياً برائحة شواء البشر، ومتعطشاً للدماء،

(١) يسوع المسيح، صفحة ٩٧ - ٩٨.
(٢) نفسه، صفحة ٩٨.

والمسيحيون يؤمنون حق الإيمان بكتب العهد القديم إيمانهم بكتب العهد الجديد.

ويسوغ المسيحيون قتلة المسيح الشنيعة البشعة بأنه اتفاقٌ تم بين الله الابن والله الآب «أن يعطي الناس أمثولة خالدة في المحبة» فهل تتفق الآلام التي اختلفت على المسيح مع هذه المحبة. أهي سادية؟ إذا كان في الإمكان أن يتم التكفير والفداء «بكلمة واحدة أو بفعل سجود بسيط» فلماذا هذه الأحداث المروعة التي اعتورت المسيح فكبكبت الإنسانية منذ ذلك اليوم وما بعده في آلام طاحنة تفجره ذكرى صلب يسوع المسيح.

إن نفي عشق المسيح للآلام وتعطش الله للدماء ومرآها لا يتمان بمجرد القول الذي لا يتفق مع واقع الحوادث.

إنهم ينفون هذا العشق الذي نجده في سيرته التي دونوها، وينفون التعطش الذي تنقضه دماء المسيح من الجلد ومن طعن الحربة وهو على خشبة الصليب.

وإذا كان الوثنيون سبقوا المسيحيين إلى فكرة الصلب بجزئياتها وأسبابها فإن معنى هذا أنهم نقلوها عنهم، فكرشنا صُلِب صلب المسيح وللأسباب نفسها.

وهل يتفق مع عدل الله أن يخطىء آدم فيعاقب ابن آدم وهو المسيح؟ إن كتبهم المقدسة تنفي عن الله هذا الظلم، ففي سفر

حزقيال[1]: «الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست!... النفس التي تخطىء هي تموت... وإن ولد ابناً رأى جميع خطايا أبيه التي فعلها فرآها ولم يفعل مثلها... فإنه لا يموت بإثم أبيه... أنتم تقولون: لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ أما الابن فقد فعل حقاً وعدلاً، حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياة يحيا، النفس التي تخطىء هي تموت، الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون».

وفي سفر رومية[2]: «سيجازى كل واحد حسب عمله».

وهذا هو العدل الإلهي «كل نفس بما كسبت رهينة» و«ألا تزر وازرة وزر أخرى» كما جاء في كل الكتب السماوية، وبخاصة في صحف إبراهيم وموسى وفيما أنزل على محمد، وحسبنا ما جاء في الكتب المقدسة لدى المسيحيين سواء أكانت كتب العهد القديم أم كتب العهد الجديد مثل سفر رومية[2].

إن خطيئة آدم لا تعدوه إلى غيره، فقد عوقب عقاباً شديداً، فقد طرد من الجنة كما ذكر سفر التكوين، فما دام آدم استوفى العقاب فلماذا يتكرر فيعاقب يسوع البريء بذنب لم يجنه.

وفي الكتب المقدسة لدى المسيحيين إثبات صريح لا شبهة فيه أن الوزر على وازره لا يتجاوزه إلى سواه فالابن لا يسأل عن

(١) الإصحاح الثامن عشر.
(٢) الإصحاح الثاني.

ذنب أبيه، ولا الأب عن ذنب ابنه، ولا الرسول عن أمته، فعندما أخطأ بنو إسرائيل اتجه موسى إلى ربه يدعوه مخلصاً أن يغفر لهم وإلا فليمحه هو من كتاب ربه الذي كتب «فقال الرب لموسى: من أخطأ أمحوه من كتابي».

وإن المسيحيين يؤمنون أن هناك جنة تنتظر الأبرار والتائبين، وناراً معدةً للأشرار والخاطئين، فما قيمة وجود النار إذا كان المسيح فدى جميع الخاطئين من الخلق؟ في سفر يوحنا الأول بالإصحاح الثاني: «يا أولادي، أكتب إليكم هذا لكيلا تخطئوا، وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً».

لقد تساوى البر والخاطىء - إذن - وإذا كان عمل البار الصالح يفضي به إلى الجنة فإن الخاطىء ماض إليها لأن المسيح افتداه بنفسه وكفر عن خطيئته بصلبه.

وإذا كان المسيحيون مؤمنين بهذا فما بالهم يحاربون الوثنيين والكفار وفيهم المسلمون الموصوفون منهم بالكفر والمروق ما دامت خطيئتهم مكفرة عنها بما صنع المسيح؟.

والمسيحيون يعتقدون أنهم هم وحدهم الناجون وغيرهم كالوثنيين والكفرة إلى النار وبئس القرار، ومعنى هذا أن هناك ثواباً وعقاباً وجنةً وناراً، وهذا يناقض قول يوحنا إن يسوع كفارة لخطايا كل العالم.

١

إما هذا أو هذا؟ ولا سبيل إلى الجمع بينهما، ولم يبق إلا العودة إلى ما جاء في كتب العهد القديم والعهد الجديد في مسؤولية الثواب والعقاب من احتمال الوازر وحده عواقب وزره دون أن يتجاوزه إلى سواه.

ويحسب المسيحيون أن ادعاءهم الناسوت واللاهوت ليسوع خلصوا أنفسهم من وقوع القتل على الإآله، ويحسبون أن بهذا الإدعاء وضعوا الميزان القسط، ويحملون غيرهم على الإيمان بما آمنوا به .

والعذاب الواقع على المسيح إنما وقع على الطبيعة الناسوتية كما يقولون، فلا عذاب واقع على الإآله ولا مهانة ولا ذل، والمعروف أنهم يقولون: «الله ربنا يسوع» ويسوع مصوغ من اللاهوت والناسوت، فكيف يتم الفصل بينهما في شخصه؟.

إن هذا التصور متعذر بل مستحيل، وإذا ذهبنا مع عقيدتهم هذه فلنا أن نسأل: «أناسوت المسيح جزء من الله فيكون ما وقع عليه من العذاب والإهانة والقتل قد وقع على الله، وهذا مستحيل، وإذا كان ما وقع من عذاب وإهانة وقتل على ناسوت المسيح الذي هو جزء من آدم الذي هو أصل بني الإنسان باعترافهم، فأين الفداء والتكفير اللذان يقتضيان أن يكون صاحبهما كفؤاً لله ونداً؟.

إن الجانب الناسوتي من المسيح هو الذي وقع عليه العذاب

والقتل، وعلى هذا الاعتقاد يبطل الفداء الذي يتطلب أن يكون منبثقاً عن الله انبثاقاً حقيقياً لا دخل للمجاز والتأويل فيه.

إنهم يعترفون أن الله فوق الحوادث، والإِلَه لا يموت، والمسيح إِلَه فهو لم يمت إِلهاً، ولكن مات المسيح الإنسان، وليس في موته ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب.

وما دام الأمر كذلك فقد بطل الفداء، وإن كان هناك فداء فبعض آدم فدى بعضه وفي هذا بطلان لاهوت المسيح وزلزلة لفكرة الفداء.

وإذا كان هناك اتفاق بين الله (الآب) والله (الابن) فلماذا يدعو الله الابن الله الآب أن يجيز عنه تلك الكأس، ولماذا أراد قبيل القبض عليه أن يفر، وذلك عندما قال لتلامذته النيام، قوموا بنا ننطلق من هنا، ففاجأه يهوذا الإسخريوطي بالجنود وألقوا عليه القبض؟ ولماذا هتف من أعماقه وهو على خشبة الصلب، إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟!.

ولو كان هناك اتفاق بين الآب والابن لما قال له: لماذا تركتني؟!.

وإذا كان القتل فداء وباتفاق بين الله والابن فلماذا ينقم النصارى على اليهود صالبيه؟ ألم يكن قتلهم إياه تحقيقاً لرغبة الآب والابن؟ لماذا ـ إذن ـ هذه النقمة المشبوبة إذا كان اليهود ينفذون تلك الرغبة المقدسة؟.

ومسألة «قيامة» المسيح من قبره مما يقرره المسيحيون لوروده في أناجيلهم، ولكن التناقض واضح بين الأناجيل في الصلب وفي القيامة وفي ظهور المسيح، وما أكثر الجمل المقحمة التي اعترف بها أئمة المسيحيين في الفكر وبينهم أئمة في الدين، ففي سطر واحد من إنجيل يوحنا ١٦ : ١٦ : «بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضاً ترونني لأني ذاهب إلى الآب» نجد تناقضاً واختلالاً في السياق.

وجملة «ثم بعد قليل أيضاً ترونني» مقحمة، وبحذفها يستقيم المعنى، تصبح الجملة هكذا: «بعد قليل لا تبصرونني لأني ذاهب إلى الآب» أما أن يروه لأنه ذاهب إليه فذلك غير مستقيم، كما أن الخلل يكون بيِّناً إذا كان نفي رؤيته وإثباتها بسبب ذهابه إلى الآب.

ولا نريد أن نطيل القول في تناقض الأناجيل بعضها مع بعض في حادثة الصلب وما تم قبله وبعده وما صاحبه، فكثير من الجزئيات والكليات مختلف فيه فيما بينها.

ساعة الصلب الثالثة صباحاً كما في إنجيل مرقس ١٥ : ٢٥ ومات نحو الساعة التاسعة، وفي متى ٢٧ : ٤٥ ـ ٤٦ ولوقا ٢٣ : ٤٤ السادسة ومات نحو التاسعة، وفي يوحنا تأكيد بأنه صلب بعد الساعة السادسة كما ورد في إنجيله ١٩ : ١٤.

وهنا خلاف مقداره ثلاث ساعات بين مرقس ومتى.

وزعم بعض المسيحيين أن يوحنا ضبط الوقت حسب اصطلاح الرومان، وهذا غريب، لأن يوحنا كتب إنجيله في آسيا الصغرى، فكيف يضبط الوقت حسب الاصطلاح الروماني؟ في الوقت الذي كتب مرقس إنجيله في روما نفسها تلبية لطلب الرومان ولم يتقيد باصطلاحهم مع أنه كان الأحرى بأن يتمسك به!.

ويوحنا نفسه يذكر في إنجيله ١٨ : ٢٨ : «ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية وكان صبح» فإذا كانت الساعة السادسة حسب «التوقيت الروماني» فمعنى ذلك أن السادسة صباحاً.

وهنا تبرز أسئلة لا مفر منها: متى كان الذهاب بالمسيح إلى بيلاطس؟ السادسة!. متى بعثة بيلاطس إلى هيرودس؟ السادسة! متى تم استجواب يسوع من قبل بيلاطس؟ السادسة! متى كانوا عند قيافا؟ السادسة! متى عادوا بيسوع من هيرودس إلى بيلاطس؟ السادسة! متى كان استجواب يسوع للمرة الثانية من قبل بيلاطس؟ السادسة! متى كان خروج بيلاطس لليهود لمخاطبتهم في شأن المسيح عديداً من المرات؟ السادسة؟ حتى جلد بيلاطس المسيح؟ السادسة!.

وهناك أسئلة كثيرة تبدأ بكلمة «متى» وأجوبتها جميعاً يجب أن تكون السادسة احتراماً لإنجيل متى!.

والقيامة نفسها لم يشهدها أحد، بل شهدت المسيح بعد

ظهوره مريم المجدلية ثم اثنان من التلاميذ ثم آخرون منهم ما عدا توما ثم التلامذة ومعهم توما حسب رواية يوحنا.

وإذا كان الظهور ذا خطر عظيم فإن شهود القيامة أعظم، ومع هذا ألم يشهده أحد، وذكروا أنهم شهدوه بعد أن ظهر لهم، وبديهي أن الظهور لا يتم إلا بعد القيامة، ولكن ـ مع هذا ـ كان شهود القيامة أبلغ، والظهور نفسه محفوفاً بما تضعفه الأناجيل نفسها، فالمسيح أخبر تلاميذه أنه يسبقهم إلى الجليل بعد قيامه حيث يرونه فيها[1]، ولكنه ظهر لهم في أورشليم[2]، وهذا في يوم القيامة نفسه، وإذا كان غير محال في حق المسيح أن يظهر في يوم واحد في بلدين مختلفين يبعد أحدهما عن الآخر ثلاثة أيام فكيف يكون هذا الحق لغيره؟.

وفي مسألة القيامة وحادثة الصلب ظهرت معجزات جمة مثل تشقق الصخور وزلزلة الأرض وتفتح القبور وقيام كثير من أجساد الفريسيين الراقدين وخروجهم من القبور بعد قيامته ودخولهم المدينة المقدسة وظهوره لكثيرين[3].

هذه معجزات خطيرة لم ترد في غير إنجيل متى، مع أن لوقا أحرص منه على تتبع الآيات والخوارق في سيرة المسيح وذكرها، وقد اتفق متى ولوقا ومرقس في ذكر معجزة واحدة هي انشقاق

(١) إنجيل مرقس ١٦ : ٧.
(٢) إنجيل لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ٤٣.
(٣) متى ٢٧ : ٥١ ـ ٥٣.

حجاب الهيكل من فوق إلى آسفل عند الصلب، وكان الحجاب من الكتان، ولا يعد انشقاقه معجزة، فكيف يذكرون هذا الأمر اليسير ويتركون الأعاجيب التي لا تقع إلا لأمر خاص عظيم يريده الله؟.

إن هذه الخوارق العظيمة تمر بسلام دون أن تجتذب اهتمام الناس - أولاً - واهتمام المؤرخين والعلماء في ذلك العصر.

مرورها بهذا السلام وبهذه السهولة خارقة الخوارق، فلم يؤثر عن أحد أن آمن بعد أن شهد تشقق الصخور وزلزلة الأرض وتفتح القبور وقيام كثير من أجساد الفريسيين الراقدين وخروجهم من القبور بعد قيامة المسيح ودخولهم المدينة المقدسة وظهورهم لكثيرين أيصح هذا في مدينة مقدسة عامرة مزدحمة بالسكان؟.

إن خارقة أيسر من هذا الخوارق يدونها المؤرخون والكتاب والشعراء، ولكن لم يؤثر عن مؤرخي ذلك الزمان أن دون أحد إلا ما جاء في إنجيل متى الذي كتب سنة ٦٠ بعد الميلاد على أرجح الأقوال.

أهناك تواطؤ بين مؤرخي ذلك العهد جميعهم على إغفال ذكر هذه الخوارق العظيمة؟ ما أظن ذلك ولا يظنه عاقل.

وقد ذكر إنجيل متى[1] أن رؤساء الكهنة اليهود ذهبوا إلى بيلاطس في اليوم الثاني وذكروا له أن يسوع قال في حياته: إنه يقوم

---

(١) متى ٢٧: ٦٢ - ٦٦.

بعد ثلاثة أيام وطلبوا إليه ضبط القبر وحراسته حتى لا يسرق تلامذته جثته ويدعون صحة نبوءته فتكون الضلالة الأخيرة شراً من الأولى، فأجابهم إلى طلبهم، ولو كانت تلك الخوارق الخارقة صحيحة لما جرؤ اليهود على أن يطلبوا ذلك الطلب من بيلاطس الذي حاول كثيراً أن ينقذ يسوع مما بيت له اليهود، ولكذبهم بيلاطس نفسه وردهم رداً غاية في القبح والسوء.

وكيف يقال إن الأرض تزلزلت ويبقى الهيكل قائمًا كما كان، ولا نجد أثر الزلزال في بيوت أورشليم؟ أي زلزال هذا الذي كان «شبه احتجاج» على صلب المسيح دون أن يكون له أثر عند أحد إلا متىّ وحده؟!.

ثم إنه مر بالقارىء أن اليهود تعجلوا صلب المصلوبين ومنهم المسيح وتعجلوا إنزاله مخافة أن يدركهم السبت «لأن يوم ذلك السبت كان عظيمًا» كما جاء في إنجيل يوحنا ١٩ : ٣١ فكيف يذهب اليهود يوم السبت إلى بيلاطس ويطلبون إليه تشديد الحراسة مخافة قيام تلامذته بسرقة الجثة والادعاء بأن المسيح قام من قبره؟.

إن اليهود متشددون متزمتون، وقد سبق لهم يوم الصلب أنهم صحبوا المسيح إلى دار الولاية و لم يدخلوها «لكيلا يتنجسوا

---

(١) يوحنا ١٨ : ٢٨ - ٢٩.

(٢) متى ٢٧ : ٦٦.

(٣) انظر من هذا الكتاب ص ٣٩٣.

فخرج بيلاطس إليهم»[1] فكيف يمضون إليه يوم السبت بعد أن امتنعوا من دخول دار الولاية يوم الجمعة؟ كيف يرضون بالنجاسة فيذهبون إليه للعمل في السبت لضبط القبر وختمه بالحجر[2]، إنهم طلبوا إلى بيلاطس ضبط القبر فأذن لهم « فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر »[2].

ألم يطلب اليهود من بيلاطس ألا يبقى المصلوبون على الصليب في يوم السبت إكراماً لهذا اليوم المقدس؟ نعم، فكيف ينقضون عقيدتهم هذه التي يضحون من أجلها بأرواحهم كما مر في الفصل السابق عندما انتهز «أبلونيوس» قائد جيش «أنطيوكوس» فرصة يوم السبت وهاجم اليهود وفتك بهم فتكاً ذريعاً ودك أسوار أورشليم ولم يدع منه حجراً على حجر».

هذا تناقض غريب نشير إليه وحسب، وللقارىء أن يهتدي بهذا التناقض إلى ما ينتهي به إليه.

ثم فيما روي عن المسيح في الأناجيل ما لا يتفق مع جلال الرسالة والألوهية التي يدعيها له المسيحيون، وما أكثر ذلك في الأناجيل، فقد رووا أنه يبقى في جوف القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال، وهذا نص ما جاء في إنجيل متى ١٢ : ٤٠ : «كما كان يونان

---

(١) يوحنا ١٨ : ٢٨ - ٢٩.
(٢) متى ٢٧ : ٦٦.

في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال».

وقد دفن المسيح بعد الساعة التاسعة من يوم الجمعة ، وظهر القبر فارغاً فجر الأحد كما أجمعت الأناجيل، وهذا لا يتفق مع نبوءته لأنه لم يلبث مثل يونس عليه السلام في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، بل لبث يوماً وليلتين.

ومسألة القيامة من أعظم أركان عقيدة المسيحية لأنها بدونها يصبح إيمانهم باطلاً، ففي سفر كورنثوس الأول ١٥ : ١٤ إن كان المسيح لم يقم فتبشيرنا باطل وإيمانكم باطل[1]، ومع ذلك فهي محفوفة بما يضعفها حتى يقضي عليها بالتهافت والبطلان.

إذا قال المسيح: إنه يلبث في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال وجب أن يكون بقاؤه فيه كما تنبأ وإلا كذبت النبوءة وكذب النبي، ونبوءة المسيح صادقة لأنه رسول حق، ومعاذ الله أن يكذب المسيح عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه.

وقد جاء في الأناجيل الرسمية أن اليهود تعجلوا رفع المصلوبين من الصليب ودفنهم حتى لا يدركهم السبت، وليس في شريعتهم تحريم التجهيز والتكفين والدفن فيه، ولكن هكذا تروي الأناجيل.

---

(١) نص العبارة: «إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم».

يقول الأب بولس إلياس اليسوعي في كتابه «يسوع المسيح» صفحة ١٠٤ : «مات المسيح على الصليب ميتة المجرمين، لكنه قام ولما تنقض على موته ثلاثة أيام، أسلم الروح يوم الجمعة في الساعة الثالثة بعد الظهر، وأنزل يوسف الرامي جسده بعد مضي ساعات قضاها في الاستئذان بدفنه من بيلاطس النبطي مندوب روما في فلسطين، ثم وضعه في قبر جديد على مشهد من بعض الأصدقاء».

كلامه أن موت المسيح كان الساعة الثالثة من يوم الجمعة، ومضت ساعات في المراجعة والاستئذان للحصول على إذن الدفن من الوالي الروماني، ولتكن ثلاث، ثم لنضف ساعتين أو ثلاثاً للتجهيز والتكفين فيكون الدفن قد تم ليلاً، فيكون ـ على كلامهم ـ قد قضى في القبر ليلة السبت ويوم السبت وليلة الأحد، وفي فجر الأحد كان القبر مفتوحاً وخالياً.

فمن الثابت أن المسيح لم يقض ما تنبأ به على رواية الأناجيل ثلاثة أيام وثلاثة ليال، إنه لم يقض ثلاثة أيام، بل قضى يوم السبت وحده، ولم يقض ثلاث ليال بل ليلتين، فيكون المسيح قد أمضى نصف المدة التي تنبأ بها.

وهذا كذب من الأناجيل نسبوه إلى المسيح، ومعاذ الله أن يكذب المسيح الحق، وتعالى الله أن يوحي إلى رسوله بالكذب الصراح.

تنبأ المسيح كما يذكر إنجيل مرقس ٨ : ٣١ : «. . . ويقتل، وبعد ثلاثة أيام يقوم» ولكنه قام قبل الموعد الذي حدده وهو ثلاثة أيام وثلاث ليال أو بعد ثلاثة أيام.

ومعاذ الله أن يكذب المسيح الحق، وتعالى الله أن يوحي إلى رسوله بالكذب الصراح.

وأنا لا أرى القيامة كما يراها المسيحيون، لأن رأي المسيح نفسه ينقضه، ففي إنجيل لوقا ٢٠ : ٣٧ ـ ٣٨ : «وأما أن الموتى يقومون فقد دل عليه موسى أيضاً في أمر العليقة كما يقول : الرب إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب ، وليس هو إلّه أموات بل إلّه أحياء، لأن الجميع عنده أحياء».

وما بعد قول المسيح قول، فهو قد برهن لليهود عندما فهموا من القيام ما فهمه المسيحيون بعد موت المسيح فأفهمهم أن قيامته هي قيامة من سبقوه لأن الله إلّه أحياء لا إلّه أموات، فعلى هذا هم أحياء، ومن صفات الحي : القيام، وعلى هذا الرأي الذي ذهب إليه المسيح يفسر قوله في قيامته إذا صح صدوره منه.

وتعجيل دفن المسيح بعد صلبه يعود إلى الأمر الإلّهي بتعجيل دفن المصلوب، ففي سفر التثنية ٢١ : ٢٢ ـ ٢٣ : «وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله ، فلا تنجس أرضك التي يعطيك الرب إلّهك نصيباً».

والمسيحيون مؤمنون بكتب العهد القديم وفيها سفر التثنية الذي يعد من خمسة الأسفار التي هي التوراة، وهو يذكر في صراحة «أن المعلق ملعون من الله» والمسيح علق فهو ملعون على زعمهم الذي يخالفهم المسلمون فيه، لأن الإسلام ينزه المسيح من اللعن.

ويؤكد لعن المسيح ما جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣ : ١٣ : «المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون من علق على خشبة».

وكيف يكون الله ملعوناً من نفسه؟ أليس المسيح «الله الابن» ؟ وهو والله الآب واحد! إذن ، الله (المسيح) يلعن نفسه إذ افتداهم من لعنة الناموس بأن صار لعنة لأجلهم، و لأنه علق على خشبة، والمعلق عليها ملعون.

وجعلوا المسيح لعنة افتداء للناس من لعنة الناموس، ولكنه غاب عنهم أن اللعنة لا تصيب غير الخاطىء كما جاء في سفر التثنية «إذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة، بل تدفنه في ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله» وأي خطيئة اقترفها المسيح؟ إنه ليس خاطئاً بل قتل مظلوماً كما يعترفون فلا لعنة ولا افتداء بها.

ودخل المسيح النار كما يقولون، فالله الذي يؤمنون به يصلب ويلعن ويتلظى في نار جهنم ثم يبقى إلهاً وتزداد مكانته، لأنهم يزعمون أن كل ذلك كان فداء للبشر.

أما كان للفداء صورة أخرى بدون صلب ولعن؟.

وفكرة قيام المسيح فكرة وثنية، فقد وجدت في البرهمية وفي البوذية كما ذكر العلامة المسيحي دوان في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل» صفحة ٢٨٢.

وجاء في كتاب «نصوص قديمة من الشرق الأدنى» وهي النصوص التي اكتشفت في العراق، وأحدث قراءة لها هي قراءة مؤلفه «صموئيل كرامر» ما يثبت أن فكرة القيامة كما جاءت في المسيحية وثنية.

فقد عثر في العراق منذ ستين سنة في «نفر» على ثلاثة عشر رقيمًا تحوي أسطورة نزول عشتار (إينانا) إلهة الحب إلى العالم السفلي.

وتذكر الأسطورة أن عشتار نزلت إلى العالم السفلي فأماتتها أختها وعدوتها التي كانت إلهة هذا العالم السفلي، وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليال قضتها ميتة قامت وعادت إلى الحياة وجاءت إلى ملكوتها لتصريف الأمور.

وهذه الأسطورة مروية قبل ميلاد المسيح بخمسة عشر قرناً[1].

(١) راجع مجلة «سومر» العراقية، المجلد العاشر سنة ١٩٥٤ البحث العظيم الذي كتبه طه باقر وبشير فرنسيس تحت عنوان «عقائد سكان العراق القدماء في العالم الآخر».

والمخلص «أدوني» ويسمى «تموز» أيضاً، تشبه قصته قصة المسيح، فبعدما قتلوا أدوني قام من بين الأموات، وقصة موته وقيامته حكاها يوليوس قرمسيوس المعاصر لقسطنطين إذ يقول:

« ذات ليلة بينما كان القداس يجري تعظيمًا لأدوني جاءوا بتمثال ووضعوه على مهد وشرعوا يندبونه بأناشيد الحزن والرثاء ثم أقبل عليهم الكاهن وأخذ يمسح أفواه المنشدين بزيت وهو يقول: ثقوا أيها القديسون بعودة إلهكم، واتكلوا على ربكم الذي قام من الموت، فبآلامه استجلب لنا الخلاص ».

وفي عقيدة البوذيين ما في المسيحية، فهم يعتقدون أن بوذا قام من بين الأموات ويدعونه «كميديو» و«كاما» و«كام» ويقولون: لما مات حزنت السماوات والأرض حيث أنهم خسروا إله المحبة، حتى أن «مهاريو» الإله العظيم حزن ونادى: «قم أيها المحب المقدس» فقام «كاما» أي بوذا، وبدلت الأحزان أفراحاً، وابتهجت السماء ونادت فرحةً: «عاد الإله الذي ظن أنه مات وفقد» وعظم خوف جهنم وأبدت السماء تعجباً، وأزيل عنه الكفن وفتح القبر بقوة إلهية، وصعد بجسده إلى السماء وبعد ما أتم عمله» وحتى هذا اليوم يعرضون على أتباعه أثر قدميه بالجبل الذي صعد منه إلى السماء، ويعتقد هؤلاء الأتباع أنهم بصلاتهم له يدخلون ملكوت السماوات ويصيرون معه كواحد كما هو واحد مع منبع النور.

ويقول بونويك في كتابه «عقيدة المصريين»: «من العجائب

المدهشة أن الأمم منذ خمسة آلاف سنة وثقوا بأوزيريس المخلص الذي قام من بين الأموات، ويعتقدون أنه مخلصهم وأنهم سيعودون أحياء مثله، وهو أشهر آلهتهم ويحبونه كل الحب، ويقولون: إنه الواحد الصالح وحبيبهم في الحياة والموت، ومن حبه للخير حمل الأنام ولذلك غلب وقتل ودفن وأصبح قبره خير بقعة بمصر يقصدها الزوار، ودامت هذه الحال آلاف السنين، وكانوا يوقدون السرج على قبره ويرتلون له الصلوات والأناشيد المحزنة، وقد ذكر نغمتها هيرودتس، وقبل العيد يحزنون عليه ثلاثة أيام يقضونها في البكاء والنحيب، ثم يحيون عيد قيامه من بين الأموات بالبهجة والسرور».

وقال الدكتور رتشارد في كتابه «خرافات المصريين»:
«كان السوريون يقيمون عيداً لأدوني في فصل الربيع، وكانوا ـ أولاً ـ يندبون موته بحزن عظيم، ثم يذكرون قيامه من بين الأموات بفرح وابتهاج»[1].

فقيام المسيح بعد موته منظور فيه أو منقول من هذه الديانات الوثنية وغيرها حتى نجد القصة كاملة في قيام كرشنا وبوذا.

وإذا كان المسيح قد تنبأ لتلامذته وأخبرهم بقيامته وكانوا مصدقيه ومؤمنين برسالته وألوهيته وأقواله فكيف يرضون أن يكون

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية.

اليهود هم المصدقين، والتلامذة هم الذين لا يصدقون ، نعم، لم يصدق التلامذة مريم المجدلية عندما أخبرتهم ولم يصدقوا الاثنين اللذين ظهر لهما المسيح في البرية، ولم يصدق توما المعروف بالتوأم عندما أخبروه!.

إن أتباع الرسول الحقيقيين لا يجوز عليهم الشك في أقواله بل التكذيب أو عدم التصديق!.

والرسول لا يزكي أصحابه ويبشرهم بالجنة أو الصعود إلى ملكوت السماوات إلا بوحي من الله، والوحي حق وصدق، فكيف يكون يهوذا الإسخريوطي من الاثني عشر المقربين الذين منحم المسيح معجزات كثيرة كإبراء المرضى ثم ينقلب كافراً؟.

إن المسيح شهد ليهوذا بأنه معه في ملكوت السماء، وله كرسي مع الأحد عشر الآخرين، أكان ما شهد به كذب؟ أكان الوحي كاذباً؟.

وتعددت الأقوال في يهوذا من قبل كتب العهد الجديد، فمتى يذكر أن يهوذا ندم وخنق نفسه (الإصحاح ٢٧ الفقرات ٣ - ٥) وسكتت أناجيل مرقس ولوقا ويوحنا عن مصير يهوذا، فقد انتهت مهمته بعد أن دل اليهود عليه وعلى مكانه ولم يعد له ذكر ينبىء عن مصيره، ولم يبق إلا أنه خنق نفسه كما يروي متى.

ولكن سفر الأعمال المنسوب تأليفه إلى لوقا أحد أصحاب

الأناجيل الأربعة يقول في الإصحاح الأول، الفقرات ١٥ ـ ٢٠ :
«وفي تلك الأيام قام بطرس في وسط التلاميذ، وكان عدة أسماء معاً نحو مئة وعشرين فقال: أيها الرجال الاخوة كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذي سبق الروح القدس فقاله بفم داود عن يهوذا الذي صار دليلاً للذين قبضوا على يسوع، إذ كان معدوداً بيننا وصار له نصيب في هذه الخدمة، فإن هذا اقتنى حقلاً من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلوماً عند جميع سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم حقل دما أي حقل دم، لأنه مكتوب في سفر المزامير لتصر داره خراباً ولا يكن فيها ساكن وليأخذ وظيفته آخر[1]».

فهنا مصير يهوذا مختلف كل الاختلاف عن مصيره في إنجيل متى الذي يذكر ندم يهوذا وانتحاره، أما لوقا فيذكر نقيضه ويذهب إلى أن يهوذا أخذ «أجرة الظلم» واستغلها وشرى بها حقلاً، وأن موته كان ناجماً عن سقوطه فانشقاقه من الوسط وانسكاب أحشائه كلها.

ولوقا يخالف متى، وسفر الأعمال للوقا مؤلف بعد إنجيل

(١) بطرس هذا الذي يذكر عن يهوذا هذا المصير هو نفسه الذي حضر إحدى بشارات المسيح ليهوذا وسمعها، ففي متى ٩: ٢٧ ـ ٢٨ : «فأجاب بطرس حينئذ وقال له : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع : «الحق الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر».

متى، فكيف أباح لوقا لنفسه أن يخالف متى مخالفة شنيعة، فيحيي من قتله متى حتى يميته ميتة شنيعة كافرة.

متىً قتل يهوذا وذلك بأن جعله يندم ويقتل نفسه خنقاً، وفي هذا شهادة من متًى بيقظة ضمير يهوذا وتكفيره عن خطيئته بهلاك نفسه، أما لوقا فقد أحياه، إذ جعله حياً ينعم بأجرة الظلم ويستمريء الكفر حتى انتقم الله منه بتعثره وانشقاق بطنه وانسكاب أحشائه.

وأجرة الظلم نفسها مختلف فيها، فمتىً يقول في إنجيله ٢٧ : ٣ ـ ٨: «حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤ ساء الكهنة والشيوخ قائلاً: قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً، فقالوا: ماذا علينا؟! أنت أبصر! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه، فأخذ رؤ ساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم، فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء، لهذا سُمِّيَ ذلك الحقل حقل الدم إلى هذا اليوم».

وليس الخلاف يسيراً بل هو بشع غاية في البشاعة، وكل منهما نقيض الآخر ومكذبه، فمتى يذكر ندم يهوذا الصادق ورده الفضة، أما لوقا فينفي الندم لأنه لم يذكره بل ذكر أن يهوذا اشترى بأجرة الظلم حقلاً، والذي يقبضها ويشتري بها حقلاً راض كل الرضا حتى انتقم الله منه بأن أعثره فسقط فانشق من وسطه وانسكبت أمعاؤه ولم يهنأ بأجرة الظلم.

ولوقا يدعي أن يهوذا اشترى الحقل بأجرة الظلم التي تسلمها من الكهنة، مع أن متى يناقضه فيذكر أن يهوذا ردها لرؤساء الكهنة ثم طرحها في الهيكل تأكيداً لصدق الندم.

فأيهما الصادق المقبول كلامه؟ أمتَّى أم لوقا؟ إن كلا منهما أوحي إليه بما قال، فهل يكذب الوحي؟ معاذ الله.

وإذا كان ما يدعيه لوقا من شراء يهوذا الحقل وما جرى عليه من انتقام الله أمراً معلوماً لجميع سكان أروشليم فلماذا أغفله المؤرخون جميعاً؟ بل لماذا أغفله كتاب الأناجيل؟. ولماذا كذب لوقا متى؟ أنا لا أشك أن لوقا لم يرد تكذيب متى، ولكن هذا ما حدث.

وأسئلة أخرى كثيرة يتوالى ظهورها مثل: لماذا يقوم يهوذا بالاتفاق مع رؤساء الكهنة ليسلمهم المسيح؟ لماذا يدلهم عليه؟ ألم يكن معروفاً لديهم؟ ألم يقل لهم ساعة القبض عليه: «كنت أجلس معكم كل يوم أعلم في الهكيل ولم تمسكوني»؟ وهو اعتراض وجيه منه، لماذا لم يقبضوا عليه بسهولة بدل هذه الحملة المجردة للقبض عليه والبحث عنه على ضوء المشاعل واتخاذ السيوف والعصي؟.

إنهم لم يكونوا يجهلون معرفته لأنه كان يجلس إليهم كل يوم يعلم في الهيكل، ولكن رواية متى ومرقس تذهب إلى أنه كان غير معروف الشكل منهم فاستخدموا يهوذا الإسخريوطي للدلالة عليه «والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذي أقبله هو هو،

أمسكوه»[1] وذكرا أنه قبله فعرفوه، ولوقا في الإصحاح ٢٢ والفقرة ٤٧ ذكر أن يهوذا دنا ليقبله، أما يوحنا فلم يذكر القبلة لأن المسيح نفسه سألهم: من تطلبون؟ فقالوا: يسوع الناصري، وأعاد السؤال وأعادوا الجواب ثم قبضوا عليه.

ولم يكن يهوذا مع المسيح وتلامذته عندما انتقلوا من المكان الذي تناولوا فيه جميعاً العشاء إلى ضيعة «الجسمانية» ولم يكن يهوذا معهم عندما انتهوا إلى هذه الضيعة وإن كان يعرفها من قبل، ولكن الأناجيل لم تذكر أن يهوذا ورجال الحملة اليهودية ذهبوا إلى المكان الأول الذي تعشوا فيه، ولكن يجوز أن المصادفة عملت عملها.

ولماذا لم يكسروا ساقي المصلوب الثالث وهو المسيح؟ لقد ذكر يوحنا ١٩ : ٣١ : «سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم ويرفعوا فأتى العسكر وكسروا ساقي الأول والآخر المصلوب معه، وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات، ولكن واحداً من العسكر طعنه بحربة وللوقت خرج دم وماء» ولم يذكر الثلاثة الآخرون قصة كسر السوق واستثناء المسيح.

لماذا كسروا ساقي الأول وتجاوزوا الثاني الذي هو المسيح إلى الثالث حيث كسروا ساقيه، ألم يستأذن اليهود في كسر سوقهم جميعاً؟ وأمر بيلاطس فقام العسكر بتنفيذ الأمر واستثنوا المسيح

(١) إنجيل متى ٢٦ : ٤٨ ومرقس ١٤ : ٤٤

مخالفين بذلك طلب اليهود وأمر الوالي، وما كان لهم أن يخالفوا أمره.

ولماذا الطعن بعد أن ما ت؟ وهل يخرج من الميت الطعين دم وماء؟الجواب: النفي، فالدم والماء لا يخرجان إلا من جسد الحي أو الذي لم يمت بعد. وخروجهما يشير إلى أنه لم يمت.

وعلى أي حال يبقى السؤال قائمًا بلا جواب: لماذا لم يكسروا ساقي يسوع؟.

إن كان الجواب أنهم لم يكسروهما لأنه مات فكيف يفسر خروج الدم والماء من جنبه إثر الطعنة؟ لماذا لم يكسروهما مع أنهم حصلوا على الإذن به؟.

وموت المسيح نفسه على خشبة الصليب مصحوب بالاستغراب، حتى أن بيلاطس «تعجب إذ مات سريعاً» وتأكد من موته من قائد الجند فأذن بدفنه كما تذكر الأناجيل.

ودفنه نفسه مكتنف بما يحير، فقد دفنه يوسف الرامي ونيقوديموس بعد أن لفا جسد يسوع وكفناه مع الأطياب كعادة اليهود في التكفين[1].

يقول يوحنا: إن يوسف الرامي من تلامذة المسيح «ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود»[1] ونيقوديموس الذي بايع المسيح سراً ذات ليلة كما أشرنا إليه من قبل، ويوسف ونيقوديموس من

(١) إنجيل يوحنا ١٩: ٣٨ ـ ٤٠.

أعضاء المجلس اليهودي الأعلى، فإذا كانا يخفيان إيمانهما بالمسيح وتلمذتهما له فكيف يجرؤان على تسلم الجثة ودفنها؟ ألا يخافان من اليهود؟.

وإذا تجاوزنا عن هذا فإن هناك أمراً آخر يقابلنا وهو قدوم مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويونّا وغيرهن من النساء فجر يوم الأحد حاملات الحنوط!.

ألم يقم يوسف ونيقوديموس قبل دفن الجثة بما يريد هؤلاء النساء أن يقمن به على مشهد منهم لأنهن كُنّ حاضريهما وهما يلفان الجسد ويضعان الحنوط في كفنه؟.

أيردن تكرار ما صنعها؟ وهل جرت العادة اليهودية أن يكفن الميت ويدفن ثم يعاد نبش القبر وفتحه لوضع الحنوط مرة أخرى؟ أحسب أن التكرار غير صحيح، ولكن أريد التمهيد لبيان قيام المسيح وخلو قبره من جسده فذكروا أن النساء جئن فجر الأحد حاملات الحنوط ففوجئن بالقبر مفتوحاً وخالياً.

وهناك خلاف بين الأناجيل في أول من شهد القبر فارغاً وعدد الشهود وغير ذلك كثير لا يدخل في حصر.

وعجيب في الأناجيل أن تروي روايات تهدم العقيدة والرسالة والنبوة وتمعن فيهم طعناً وتجريحاً وفتكاً، وتنسى قواعد الأحكام وما يبنى على أساس الوحي والنبوة.

فهي تتهم قيافا اليهودي رئيس الكهنة اليهود بقتل المسيح

وتحمله تبعات هذه الجريمة النكراء مع أنها تصفه بالنبوة ،ففي يوحنا ١١ : ٤٩ ـ ٥٢ : «فقال لهم واحد منهم وهو قيافا كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، أنتم لستم تعرفون شيئاً، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها، ولم يقل هذا من نفسه بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة ، وليس عن الأمة فقط بل يجمع أبناء الله المتفرقين في واحد».

ولسنا محامين عن اليهود وليسوا بأحبائنا، ولكن نقول الحق ومن أقوال الأناجيل نأخذ الدليل ونسأل: لماذا ـ إذن ـ يحقد النصارى على قيافا وعلى اليهود عامة ويتهمونهم بقتل المسيح ويلزمونهم بدمه؟.

أليس يسوع نفسه مزمعاً على الموت فداء للبشر ومحواً لخطيئة الإنسان الأول أبي البشرية؟ تجيب الأناجيل: بلى.

إذن، ما تبعة قيافا فيما فعل بالمسيح؟ إن يسوع على اتفاق مع الأب في افتداء البشر فيمحو بدمه الخطيئة ويكفر عنها بتقديم نفسه وإن قيافا نفسه تنبأ بذلك، أي أن الله أوحى إليه إما رؤيا وإما إلهاماً وإما بوساطة جبريل أو غيره، فالتقى استعداد المسيح ونبوة قيافا فكان الصلب.

وإذا صح ما ذكره يوحنا من تنبؤ قيافا وارتقائه إلى مرتبة الأنبياء فمعنى ذلك أن يعلم بداهة رسالة عيسى وسموه عليه في

المقام، فكيف يرضى أن يلطم أحد الخدم المسيح ويهينه ويوبخه؟ بل كيف يجرؤ قيافا وهو النبي أن يتهم المسيح بالكفر وهو من رسل الله الكرام؟.

وعمل قيافا لا يتفق مع جلال النبوة، وثابت أنه قضى بقتل المسيح رسول الله بدون حق، وقتله كفر منه لأنه لو كان مؤمناً برسالته وكان نبياً حقاً لما اقترف هذا الإثم الكبير! أما وقد قتله فقد أثبت أنه غير نبي.

وإذا ثبت بنص أعماله وأقواله أنه خارج على ملة إبراهيم وموسى وعيسى فكيف يدعي إنجيل يوحنا أن قيافا نبي؟.

فإن كان الإنجيل صادقاً في وصف قيافا بأنه تنبأ وليس من نفسه فالمسيح يصبح مذنباً، ومعاذ الله أن يكون مذنباً! وإن كان الإنجيل صادقاً في وصف قيافا فماذا يقال في الخصومة بين النبي قيافا والرسول عيسى؟.

ثم هناك ما يجعل موقف قيافا موقفاً دينياً عظيمًا يحمده عليه المؤمنون ويثبته الله عليه في إصداره الحكم بقتل المسيح الذي تصفه الأناجيل بأنه ابن الله حقيقة لا مجازاً وأنه الله الأزلي القديم.

إن قيافا أكبر رأس ديني في اليهودية، وإليه الحكم والقضاء، وحكمه نافذ وبخاصة إذا أيده أعضاء المجمع الديني، فهو رئيس الكهنة، فإذا ألقى بين يديه من يدعي الألوهية فمرده كتاب الله الذي بين أيديهم، وكتاب الله هذا هو التوراة التي يعترف بها

اليهود وعيسى وأتباعه، التوراة بأسفارها الخمسة التي يعرفها الناس حتى هذا العصر بصرف النظر عن أنه التوراة المحرفة أو الأسفار المؤلفة التي اكتسبت اسم التوراة.

إنها «التوراة» التي يدينون بها ويؤمنون، ونعود إليها لنجد سفر التثنية (الإصحاح الثالث عشر، الفقرات ١ ـ ٥) يقول:

«إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلمًا وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلاً: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم. وراء الرب إلهكم تسيرون، وإياه تتقون، ووصاياه تحفظون، وصوته تسمعون، وإياه تعبدون، وبه تلتصقون، وذاك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل، لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر وفداكم من بيت العبودية، لكي يطرحكم عن الطريق التي أمركم الرب إلهكم أن تسلكوا فيها، فتنزعون الشر من بينكم».

هذا قول الله في توراتهم كما يعتقدون ويؤمنون، وهو واضح صريح لا لبس فيه ولا غموض، فمن يذهب وراء آلهة أخرى ويدع إليها ويقدم الآيات والأعاجيب ليحمل الناس على التصديق بالمعجزة فالإيمان بإله غير الله فجزاؤه القتل.

فإذا جاء نبي أو حالم يدعي أنه هو نفسه ابن الله وأنه هو نفسه الله فما ثم من جزاء له غير القتل تنفيذاً لأمر الله.

وقيافا رئيس الكهنة نفذ أمر الله هذا الذي يؤمن به اليهود والنصارى على السواء، فلا تبعة عليه ولا ملام ولا إثم، لأنه نفذ أمر الله ولم يحد عن شريعته في حادثة المسيح، فالله أمر عباده بقتل من يدعي الألوهية والربوبية.

والإسلام خاتمة الأديان يقتل من يدعي الألوهية تنفيذاً لأمر الله.

نقول هذا في قيافا والمسيح اللذين تصورهما الأناجيل الأربعة الرسمية ونحن مؤمنون أن المسيح ما ادعى لنفسه الألوهية قط لأنه رسول الله وأعرف منا جميعاً أنه عبد الله ورسوله، وأن الله واحد أحد فرد صمد لا شريك له ولا ولد ولا صاحبة، لأنه متصل بالسماء ونحن نتصل بها بوساطته هو وإخوته صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا ما يجعلني أقول: إن مسيح النصارى كما تصوره أناجيلهم الرسمية وأسفارهم المقدسة لديهم ليس المسيح الذي يؤمن به الإسلام.

الثالوث

الإسلام يخالف المسيحية في ألوهية المسيح وصلبه وقتله وفدائه البشر مخالفة لا يتجهم لها العقل ولا ينكرها المنطق الصواب ولا الضمير النزيه.

فالمسيح عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه ليس إلا بشراً رسولاً، وعبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وليس له من أمر الألوهية شيء، بل كان المسيح صلى الله عليه وسلم عظيم الحرص على نفي الشريك عن الله وإثبات الوحدانية له حتى فيما لا يعد مشاركة لله، وحتى فيما يتفق مع أخلاق البشر.

فبينا كان المسيح في الطريق أسرع إليه أحد الناس وجثا بين يديه وسأله: يا معلم، ماذا أعمل من الصلاح لأرث الحياة الأبدية؟ فأجابه: لماذا تسألني عن الصلاح؟ إنما الصالح واحد وهو الله[1].

---

(١) متى ١٩: ١٦.

ويزعم المسيحيون ألا نفي في جوابه لألوهيته، وسياق الجملة ينفي الألوهية عن كل أحد ويثبتها لله وحده، وما دام الصالح واحداً وهو الله فلن يكون هناك ثان يشركه، والاعتقاد بأن المسيح ابن الله والله شرك تنزه الله عنه ونزهه عبده المسيح نفسه.

وقد فات من ألفوا الأناجيل أو نسخوها وأضافوا إليها ما يتفق مع ما اعتقدوا أن يعدلوا الجملة هكذا: إنما الصالح هو الله وابنه.

وصفات الله الخاصة به كعلم الغيب والساعة لم يدعها المسيح ولا نتصور أن يدعيها، فقد تحدث مع تلامذته يوماً فقال لهم: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب»[1].

ولو كان المسيح إلهاً حقاً وابن الله صدقاً كما زعموا لعلم ما يعلمه أبوه ولكن المسيح الصادق يقرر أن علم الساعة لله وحده لا شريك له فيه.

ويرد المسيحيون زاعمين أن هذا القول من المسيح لا ينفي علمه، لأنه «لا يرغب في كشف ذلك للناس إرضاء لفضولهم، فالابن إذن يعرف ذلك معرفة لا يريد لها النشر»[2].

وما دام المسيح لا يريد لمعرفة ذلك اليوم وتلك الساعة النشر

---

(١) مرقس ١٣: ٣٢.

(٢) كتاب «يسوع المسيح» صفحة ٧٩.

فكيف عرف مؤلف كتاب يسوع المسيح؟ إذا كان المسيح نفسه طوى ذلك عن الناس فكيف نشره له ولأمثاله؟ كيف عرفوا السر الذي أخفاه عن أقرب المقربين إليه حوارييه وتلامذته وأحبائه وإخوته؟!.

إذا كان المسيح نفسه يقول لهم: إن أحداً لا يعلم ذلك اليوم ولا تلك الساعة، لا الملائكة الذين في السماء ولا الابن الذي هو نفسه فكيف يقولون له: لا، لا، أنت تعرف! إنه يقول: لا أحد يعلمهما غير (الآب) وهم يقولون: وأنت ـ أيضاً ـ تعلم، لأن الابن لا يكون دون الآب معرفةً.

والقول المنسوب إلى المسيح: أنه ابن الله وأن الله أبوه ليس خصيصةً من خصائصه، فقد نسب نفسه إلى الله بلفظ الابن وأشرك غيره معه فيه فقال في غير موضع من الأناجيل التي يروي بعضها (يوحنا ٢٠: ١١ ـ ١٨) أنه قال بعد قيامته لمريم المجدلية: «إمضي إلى إخوتي وقولي لهم: إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

فالله أبوهم كما هو أبوه، وما أكثر ورود هذه النسبة في الأناجيل، ولكن نسبة المسيح إلى الله على أنه ابنه حمل الكنيسة على أن تتخذ من ورودها في الأناجيل دليلاً على أن المسيح ابن الله حقيقة، وأن النبوة والأبوة حقيقيتان وليستا مجازاً، ولهذا جاء في

أسفارهم المقدسة: «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح، مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح»[1].

فإذا كان الله أبا ربهم يسوع المسيح فبولس يقول عن نفسه وغيره «سلام من الله أبينا» ونجد هذه النسبة مطلقة في الأناجيل على غير ابن مريم وعلى لسانه نفسه أيضاً.

«. . . لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات»[2].

«. . . لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات»[3].

وفي إنجيل يوحنا ٨: ٤٢ ـ ٤٤: «فقال لهم (أي اليهود) يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني. . . أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا».

ونسب في إنجيل لوقا ٣: ٣٨ آدم إلى الله إذ جاء في نسب المسيح أنه ابن يوسف بن هالى. . . إلى أن قال: «ابن أنوش بن شيث بن آدم ابن الله».

فهذه البنوة ليست إلا على سبيل المجاز، فالابن أقرب الناس إلى أبيه لطاعته إياه وبره به واحترامه له، وعباد الله المكرمون أقرب العباد إليه، وصلتهم به أوثق، وعلى هذا الوجه

---

(١) كورنثوس الثاني، الإصحاح الأول، الفقرة ٢ و ٣.
(٢) متى ٥: ١٦.
(٣) متى ٥: ٤٥.

كانت النسبة ، لأن النبوة الحقيقية لا تتم إلا في عالم المخلوقات، لأن الله عز وجل فوق الحوادث ولا يتجزأ لأنه غير مركب، واعتقاد البنوة وثنية.

وعلى هذا الوجه يكون التفسير الذي يؤيده ما جاء في سفر يوحنا الأول٤ : ٧ « وكل من يحب فقد ولد من الله » وفي الإصحاح الخامس منه بالفقرة الأولى : « كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله ، وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً، بهذا تعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله ».

هذه المحبة قربت المخلوق من الخالق ، والعبد من المعبود ، ومنها كان «ابن الله» مجازاً كما ورد «أبناء الله» و «ولد الله» و «أولاد الله» وإلا كان تخصيص يسوع بأنه ابن الله وحده الابن الحقيقي ضرباً من الخيال ينفيه الواقع.

وعلى المجاز ـ كما يعرف بالبداهة ـ ما جاء في سفر يوحنا الأول ٣ : ٩ و ١٠ : «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيئة لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله ، بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس».

وعلى لسان يسوع في قوله لليهود : «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون».

أفهذه البنوة حقيقية؟ إن النسبة إلى الله مجاز قائم على الحب والصلاح ، والنسبة إلى إبليس طاعته وبغض الله.

بل عوَّدتنا كتب العهد القديم والجديد إطلاق لفظ الجلالة (لله) والإله على غير الله الخالق الواحد الأحد، بل أطلقته على الرسل والملائكة والناس، بل أطلقته على الشيطان نفسه.

ففي سفر الخروج ٧: ١: «فقال الرب لموسى: انظر، أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهرون أخوك يكون نبيك».

فإذا كان المسيح إلهاً بقول المسيحيين فإن موسى يكون أعظم منه، لأن الله ـ حسب قول التوراة ـ جعله إلهاً على أعظم ملوك عصره.

وفي سفر من أسفار العهد القديم وهو سفر القضاة ١٣: ٢١ ـ ٢٢: «ولم يعد ملاك الرب يتراءى لمنوح وامرأته، حينئذ عرف منوح أنه ملاك الرب، فقال منوح لامرأته: نموت موتاً لأننا قد رأينا الله إلخ».

فالملاك صار «الله» ومنوح وامرأته نبيان وكذلك ولدهما شمشون الذي بشرهما الملاك به.

وفي سفر آخر من أسفار العهد القديم وهو سفر مزامير داود (المزمور ٨٢ فقرة ٦: «أنا قلت إنكم آلهة، وبنو العلي كلكم».

وهنا تسمية الناس آلهة.

وفي سفر من أسفار العهد الجديد وهو سفر كورنثوس الثاني ٤: ٣ ـ ٤: «إن كان إنجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم في الهالكين الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء

لهم إنارة إنجيل مجد المسيح» وهنا أطلق الإلّه على الشيطان!.

أفكل هؤلاء الآلهة حق؟ إن كان لفظ «الله» أو «الإلّه» الوارد في هذه الفقرات يؤخذ على الحقيقة فهنا تعدد ينفي وحدانية الله، وهو - إذا صح - محمول على المجاز، وفي رأينا أنها من غير وحي الله، لأنه لا يطلق ما اختص به من بعض الأسماء الدالة على معاني لا يستطيع بشر أن يتصف بها على مخلوق، مثل الإلّه والله والخالق والمهيمن والباري والرحمان.

فالمسيح الموصوف في الأناجيل بأنه ابن الله إنما هو وصف أريد منه التكريم، واستعمل اللفظ مجازاً لا حقيقة، لأنه ما مر به منذ ولادته ينفي عنه الألوهية والربوبية، ويثبت البشرية، وأما ما ورد من أنه «الله» و «الرب» فذلك باطل، وإن كان المقصود السيادة والجاه، وإن كان لفظ «الرب» مما يجوز استعماله لغوياً ولا يمتنع في الدين إطلاقه على غير الله عز وجل.

وكل ما استدل به النصارى على ألوهية المسيح هو ما جاء في كتب العهد الجديد التي هي من تأليف بشر، وإن فيها آلاف الأخطاء، ووجود هذه الأخطاء فيها ينفي عنها أنها وحي على أي لون من ألوانه المعروفة.

وإذا كان كل ما جاء فيها حقيقة فما أحسن الاضطراب والخلل وما أجمل الوهم والباطل!.

إنهم يزعمون أن ما ورد في الأناجيل من أمثال هذه

العبارات: «أنا في الآب والآب فيَّ» دليل على ألوهية المسيح بقوله، وعلى هذا الحلول يكون الله المسيح ويكون المسيح الله، وهم يؤمنون بهذا.

وإذا كان مثل هذا «أنا في الآب والآب فيَّ» دليلاً على ألوهية المسيح فإن عبارات كهذه جاءت في نفس السياق تصف الناس مثل هذا الوصف.

في يوحنا بالإصحاح الرابع عشر: «كيف تقول: أرنا الآب؟ ألست تؤمن أني أنا فيَّ الآب والآب فيَّ... صدقوني: إني في الآب والآب فيَّ... إني أنا في أبي، وأنتم في وأنا فيكم» فمن خاطبهم هم في ربهم يسوع المسيح، وربهم يسوع المسيح فيهم، فهم على هذا آلهة لأنهم فيه وهو في الآب وفيهم.

وما داموا يرون المسيح إلهاً فقد صار لهم إلهان، أحدهما الله الآب، والآخر الله الابن، وهما متساويان، ثم أضافوا إليهما روح القدس إلهاً منبثقاً من الله الآب على قول الكنيسة الشرقية، أو منبثقاً من الله الآب ومن الله الابن على رأي الكنيسة الغربية، فاجتمع لهم الثالوث المقدس.

ويقول المسيحيون[1]: «نؤكد أن الله واحد في ثلاثة أقانيم، يملك كل من هؤلاء الأقانيم الطبيعة الإلهية بكاملها» وإن الطبائع لا تتعدد حتى عندما تتعدد الأقانيم، ولو تعددت الطبائع في

---

(١) كتاب «يسوع المسيح» صفحة ٧٥ ـ ٧٦.

الثالوث الأقدس لكان لنا ثلاثة آلهة يستقل أحدها عن الآخر، وهذا منتهى السخافة، أما إذا تساءلنا: لماذا تتعدد الأقانيم في الثالوث الأقدس ولا تتعدد الطبيعة فهذا هو سر الثالوث».

ويقولون[1]: «هذا التعليم ـ حين أراد المسيحيون التعبير عنه تعبيراً فلسفياً ـ أثار مشكلة في غاية الدقة: كيف التوفيق بين الإيمان بإله واحد وبين القول بأنه آب وابن وروح قدس؟ كيف يكون واحداً في ثلاثة؟ لحل هذه المشكلة استوحى المسيحيون ما جاء في الإنجيل، فميزوا في الله بين العقيدة والأقنوم، قالوا: إن في الله طبيعة واحدة، وفيه ثلاثة أقانيم ـ آب، وابن، وروح قدس ـ يملك كل واحد منهم نفس الطبيعة فتتعدد هكذا الأقانيم، ولا يتعدد الله، وقد حددت الكنيسة هذه العقيدة على هذا الشكل: «هذه الماهية أو الطبيعة (طبيعة الله) الواحدة بالعدد، هي الآب والابن والروح القدس، هي الأقانيم الثلاثة معاً، وهي كل واحد منهم على حدة، فالأقانيم هي لذلك متميزة حقيقة فيما بينها، أما الطبيعة أو الماهية فواحدة غير متعددة» (مجمع لاتران الرابع).

وبهذا يحسبون أنهم انتهوا إلى فصل الخطاب، وما داموا قالوا: «سر الثالوث» فهم غير مكلفين بشرح أو دليل، إنه سر وكفى، ولا يمكن إظهاره لأنه سر، ولو ظهر لما كان سراً.

وبما أن الطبائع لا تتعدد حتى عندما تتعدد الأقانيم، لأنه لو تعددت في الثالوث الأقدس لكان هناك ثلاثة آلهة يستقل أحدها

(١) كتاب «أصول الفلسفة العربية» ليوحنا قمير، صفحة ١٦.

عن الآخر، وهذا منتهى السخافة كما يقولون، إن قولهم هذا يسلمنا إلى نفي وجود ثلاثة آلهة مستقل كل منهم عن الآخر، ويجعل بين يدينا ثلاثة آلهة غير مستقلين.

وهو كلام مضطرب: إلّه واحد، وإلهان، وثلاثة، هم ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة، وليس أحدهم بمستقل عن الآخر، ومع كل ذلك هناك ثالوث أقدس (الآب والابن وروح القدس) والطبيعة واحدة في كل فرد من هذا الثالوث.

والمسيحيون لا يعارضون أن الله عز وجل واجب الوجود، أي أن وجوده من ذاته لم يحتج إلى غيره في شيء، وهو واحد ليس كمثله شيء، وليست ذاته مركبة من أجزاء سواء أكانت مادية أم مجردة، ومع هذا يزعمون أن يسوع المسيح إلّه.

وكما أن تركيب ذاته مستحيل فإن وجود إلّه آخر معه مستحيل، لأن الله واجب الوجود، وهذا يقتضي حتمًا أنه تام القدرة والمشيئة والسلطان والقضاء، كامل في كل أعماله، وما دام تاماً تماماً مطلقاً وكاملاً كمالاً مطلقاً فإن هذا الكمال يقتضي حتمًا نفي كل مِثْل وإثبات الوحدانية التامة والكاملة.

ومجرد القول بأن المسيح إلّه ينتفي معه التمام والكمال عن الله إسمًا وذاتاً وصفةً، ووجود إلّه مع الله يفرض علينا أن نفترض الاتفاق التام الكامل فيما بينهما، وهذا الاتفاق ينفي تولد خلاف بينهما حتى لا يفسد الخلق، ولكن الاتفاق التام الكامل بين اثنين

يثبت أن هناك نقصاً في قدرتهما بقدر تأثير قدرة أحدهما في قدرة الآخر أو تمام قدرة أحدهما بقدرة الآخر.

والقول بالكمال التام المطلق يوجب نفي المثل وإلا لما سمي كمالاً تاماً مطلقاً، فإذا كان المسيح إلهاً انبثق عن الله الحق الواحد الأحد فقد جاء المثل الذي تنزه الله عنه كل التنزه، والتفلسف بأن الطبيعة غير متعددة، والأقانيم متعددة، لا ينفي المثل لأنهم أوجدوه إذ زعموا أن يسوع المسيح إله، مع أنه كان ينفي عن نفسه الألوهية ويثبت أنه بشر رسول.

- «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧ : ٣).

- «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية». (يوحنا ٥: ٢٤).

- «الحق الحق أقول لكم: لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً» (يوحنا ٥: ١٩).

- «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً».(يوحنا ٥ : ٣٠).

- «المجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يوحنا ٥: ٤٤).

إني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني». (يوحنا ٨)

- «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله». (يوحنا ١٣ : ١٦).

- «إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». (يوحنا ٢٠ : ١٧)[١].

- « ابن البشر لم يأت ليهلك». (لوقا ٩ : ٥٥).

إن المسيح يثبت إنسانيته وبشريته وعبوديته لله، ويعلن أنه رسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا بإذن ربه.

ولو لم يكن عبداً رسولاً لما ذكرت الأناجيل صلاته وابتهالاته ولجوءه إلى الله واعتصامه ساعة العسرة والضيق والكرب والحزن وفي كل أحواله.

يقول المسيح لتلامذته: «نفسي حزينة جداً حتى الموت»[٢]. ويقول يوحنا : «ثم تقدم (أي المسيح) وخر على الأرض وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن»[٢] و «مضى أيضاً وصلى»[٢] و «مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد»[٣].

فهو يعترف ببشريته التي تتألم وتحزن، ويعترف بعبوديته لله، فيصلي له ويسجد ويعبد، ولو كان إلهاً لما قام بما يقوم به عبيد الله المخلصون، فالإله لا يكلف بالصلاة لنفسه وعبادة شخصه.

وليس في الإنجيل كله كلمة واضحة عن الثالوث، وكلمة

(١) متى ٥ : ٩ وإذا كان المسيحيون يختصون المسيح بأن الله أبوه على الحقيقة وأما الآخرون فلا، فما القول في «إلهي وإلهكم»؟ أإله المسيح خاص به كما خص بأبيه، وليس إله الآخرين على الحقيقة!.

(٢) يوحنا، الإصحاح الرابع عشر.

(٣) لوقا ٤ : ٨.

الثالوث نفسها لم تعرف في عهد المسيح وكتاب الأناجيل الرسمية، ولم ترد فيها، وأول من استعملها ترتليانوس الذي عاش بين سنة ١٦٠ و ٢٤٥م وهو علامة مسيحي من كبار الذين وقفوا أنفسهم للدفاع عن المسيحية ضد ما يسمونه الوثنية، ولكنه انحاز إلى مذهب مونتانوس الذي قام بحركة تعتبرها الكنيسة حركة زندقة.

ولم يذكر العهد القديم الثالوث ولا ما يفهم منه صراحةً أو رمزاً، وكتب العهد الجديد خالية من كلمة الثالوث أو أي إشارة إليه إلا ما تأوله المتأولون.

وفي دائرة معارف البستاني (مادة ثالوث) أن كلمة ثالوث غير موجودة بالكتاب المقدس ، وليس في العهد القديم آية تصرح بتعليم الثالوث، ولكن المؤلفين المسيحيين القدماء اقتبسوا آيات تشير إلى وجود صورة جمعية في اللاهوت، وليس في هذه الآيات برهان قاطع على الثالوث لأنها قابلة لتفسيرات مختلفة، ولكن يؤتى بها كرموز إلى الوحي الواضح الذي يعتقدون أنه مذكور في العهد الجديد.

ويقول الدكتور بوست في «تاريخ الكتاب المقدس» عند كلامه في لفظ الجلالة: «أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم كما هي في العهد الجديد».

هذا موجز ما ذكره البستاني، فهو وغيره يعترفون بانتفاء البرهان القاطع، ولم تعرف عقيدة التثليث في زمن المسيح نفسه ولا

أثر لها في الوحي الإلهي، ولم يقل بها من سبقوه من الرسل، لأن التوحيد ينفي التثليث، والتثليث نقيض التوحيد.

ويعتمد المسيحيون في إثبات التثليث على ما جاء في إنجيل متى ٢٨ : ١٩ : «إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» ومن هذه الفقرة قامت لدى المسيحيين دعوى التثليث التي لم ترد عن المسيح نفسه لأنه كان موحداً، وكان يعرف أنه عبد الله ورسوله، بل كان داعية من أكبر الدعاة في العالم إلى التوحيد الحق.

ويؤيدون تلك الفقرة بفقرة واردة في رسالة يوحنا الأولى ٥ : ٧ وهي : «إن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة : الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد».

وهذه الفقرة لا دليل فيها على الثالوث وتأليه من يتكون منهم جميعاً، وإن كان الكلمة والروح أعقبا الآب، فعطفهما عليه لا يعطيهما حكمه.

وقد ذهب جمهور علماء البروتستانت أن هذه الفقرة مقحمة في رسالة يوحنا الأولى، وأيد ذلك العلامة المسيحي الشهير «هورن» المتعصب للمسيحية و «اكستاين» الذي يعد أعظم علماء المسيحية في القرن الرابع للميلاد، وكريسباخ وشولز متفقان على هذا الإقحام.

وعبارة يوحنا أقوى دليل للمسيحيين في إثبات التثليث، ولكنها زائدة مقحمة دفع بها إلى حيث استقرت من الإصحاح الخامس مجهول ليجعلها حجة للتثليث، ولم يصرح به حتى لا ينكشف الغش ويفتضح التزوير، ومع ذلك فقد فطن عديد من أكبر علماء المسيحيين وفيهم جامعو تفسير «هنري واسكات» إلى أن هذه العبارات مقحمة إقحاماً، وقدموا براهين صحيحة على ذلك لخصها العلامة الكبير الشيخ «رحمة الله المكي الهندي» في كتابه العظيم «إظهار الحق» ومن هذه البراهين:

١ ـ أن هذه العبارة غير موجودة في نسخة من النسخ اليونانية التي كتبت قبل القرن السادس عشر.
٢ ـ إنها غير موجودة في النسخ المعتبرة قديماً والتي طبعت بعناية واهتمام.
٣ ـ غير موجودة في ترجمة من الترجمات اللاتينية.
٤ ـ غير موجودة في معظم النسخ القديمة اللاتينية.
٥ ـ لم يتمسك بها أحد من القدماء ومؤرخي الكنيسة.
٦ ـ أسقطها أئمة البروتستانت وعلماؤهم من كتبهم.

ومن أدلتهم في التثليث ما ورد في أول إنجيل يوحنا ١ : ١ : «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله» وأرادوا بالكلمة المسيح، وقال الدكتور بوست في كتابه «تاريخ الكتاب المقدس» : «يقصد بالكلمة السيد المسيح، ولم ترد هذه اللفظة بهذا المعنى إلا في مؤلفات يوحنا ١ : ١ ـ ١٤ و ١ يوحنا

١:١ ورؤيا ١٩: ١٣ وقد استعمل الفيلسوف «فيلو» لفظة «الكلمة» غير أنه يقصد بها غير ما قصد يوحنا».

وقد خلت الأناجيل الثلاثة الأخرى الرسمية عما ذكره يوحنا، ولولاه لما عرفت الكلمة بالمعنى الذي ذهب إليه، ولو لم يؤلف يوحنا إنجيله بقي هذا الأمر مجهولاً، فيوحنا لم يؤلف إنجيله بدافع من نفسه، بل ألفه «إجابةً لرغبة أكثر الأساقفة ونواب كنائس آسيا وإلحاحهم عليه أن يبقى من بعده ذكراً خالداً» ولولا أنه استجاب لرجائهم وإلحاحهم لبقيت الأناجيل الثلاثة الرسمية ناقصةً، وهناك علماء أنكروا أن يكون كل ما نسب إلى يوحنا صحيحاً، بل ذهبوا إلى أن إنجيله وما نسب إليه مزوران.

ومع هذا ليس في « الكلمة» ثالوث وإن كان فيه الشرك الذي يعترفون به.

وأول الثالوث ـ كما ذكرنا ـ هو الله جل جلاله، ثم الابن ثم روح القدس، وأعمال كل منهم وصفاته عندهم نوجزها فيما يلي:

قال الدكتور بوست في «تاريخ الكتاب المقدس» ما نصه:
«طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر؛ الله الآب، والله الإبن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بوساطة الإبن المفدى، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن ثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء، أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم كما هي في العهد الجديد».

وفي كتاب «سوسنة سليمان»[1] أن أصل الدستور الذي بينه المجمع النيقاوي هو الإيمان بإله واحد، آب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، وبرب واحد هو يسوع الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله، وهو إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، به كان كل شيء، ومن أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، والإيمان بالروح القدس الرب المحيي المنبثق عن الآب».

وفي كتاب «يسوع المسيح»: «أما الروح القدس فمنبثق منذ الأزل بفعل داخلي من الآب والابن معاً كمن مبدأ واحد... والروح القدس لا يستطيع أن يأخذ من الابن إلا الذات الإلهية المشتركة ما بينه وبين الآب، وهذا ما يجعل الأقانيم الثلاثة متساوية بذات واحدة ولاهوت واحد».

فعلى هذه الأقوال التي تصور عقيدة المسيحيين في الثالوث نجد أن كل واحد منه هو «الله» ولكن أعمال كل إله من الثالوث يختلف، وإن زعموا أن التثليث في وحدانية والوحدانية في تثليث، وأن الابن مساوٍ للآب في الجوهر، مع أن المسيح نفسه يقول: «إن

(١) كتاب «سوسنة سليمان في أصول العقائد والأديان» وهو البحث الرابع من المقالة الثانية من كتابه «زبدة الصحائف في أصول المعارف» المطبوع ببيروت سنة ١٨٨٦م في ٢٥٥ صفحة، وهو من تأليف العالم النصراني نوفل بن نعمة الله الطرابلسي اللبناني المولود سنة ١٨١٢م والمتوفى سنة ١٨٨٧م وله مؤلفات كثيرة مطبوعة.

أبي أعظم مني »، وأعظم تنفي المساواة؛ وإن زعم المساواة تكذيب للمسيح (الله) لأن كلمة «أعظم» تنفي تلك المساواة نفياً.

وزعمهم الوحدانية مرده إلى إيمانهم بالعهد القديم الذي لا ذكر فيه للثالوث بأي صورة من صور الذكر؛ وإيمانهم هذا حملهم على القول بالوحدانية، ولكنهم خرجوا بها عن مدلولها الحق بالثالوث الذي هو التعدد الذي لا ينكر.

وقد سبقت الإشارة إلى وجود المطابقة التامة بين المسيح كما يصوره المسيحيون وغيره ممن تصورهم الديانات الوثنية، وكذلك الثالوث، حتى أننا نجد ثالوث المسيحية وثالوث غيرها من بعض الوثنيات واحداً.

فالإله ذو ثلاثة الأقانيم في المسيحية موجود في الديانات الوثنية السابقة للمسيحية، مثل الديانة البرهمية التي يتكون ثالوثها من «براهما وفشنو وسيفا» وأوسطها وهو خشنا ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس، مثله مثل المسيح، وأفراد الثالوث يتناوب بعضهم عمل بعض.

بل عرف المكسيكيون الإله ذا الأقانيم الثلاثة، فقد ذكر اللورد كنجسبرو Kingsborough في كتابه «الآثار المكسيكية»[1] صفحة ١٦٤ من المجلد الخامس أنه لما عين المطران برتولوميو

(١) Antiquities of Mexico

مطراناً سنة ١٤٤٥م أرسل القس فرنسيس هرمنديز إلى المكسيك وكان عالماً بلغة سكانها الهندوس، وكتب إلى المطران بعد عام من وصوله إليها: «أن الهندوس يؤمنون بإله كائن في السماء، وهو مثلث الأقانيم: الإله الآب، والإله الابن، والإله روح القدس، وهؤلاء الثلاثة إله واحد، واسم الآب «بزونا» واسم الابن «باكاب» وهو مولود من عذراء، واسم الروح القدس «إيكيهيا».

وكل ثالوث وثني يشبه الثالوث المسيحي المسبوق به، وإذا كان المسيحيون أرادوا من القول بالوحدانية في ثلاثة بالثلاثة في واحد الجمع بين العهد القديم والعهد الجديد فإن الوثنيين كانوا أبعد عن هذا التوفيق الذي لا يخلو من الغش والتلفيق فقالوا بالثالوث دون أن يقصدوا إلى ما قصد المسيحيون.

ومحاولات المسيحيين الجبارة في تحميل عبارات متى ويوحنا ما لا يحتمل من المعاني إلا بتأويل أشبه بتأويل أصغات الأحلام، والاستدلال بها في تعسف متهافت واستنباط قائم على الاحتمال هي محاولات لا تستند على أساس علمي، ومتى دخل الاحتمال والاستدلال أفقد الدليل قوته، لأن كل دليل يجب أن يصفو صفاءً تاماً من كدر الاحتمال إذا أريد الاحتجاج به، وإلا سقط من مقامه إلى حيث الإغفال.

والعقائد تسمو ـ أو يجب أن تسمو ـ عن الاستدلال بقرينة أو احتمال، لأن عنصر الشك إذا دخل في الدليل قضي عليه.

والأناجيل وكتب العهد القديم مطعونة من قبل أئمة البحث والعلم من النصارى أنفسهم الذين لا يتهمون بمحاربتهم إياها، وما استدلوا به من فقرات اتخذوها دليلاً على إثبات التثليث لا يثبت أمام النقد العلمي النزيه، بل لم يثبت بين يديه.

ولم يعرف التثليث في عهد المسيح ولا في عهد تلامذته، ولهذا خلت الأناجيل وسائر كتب العهد الجديد من كلمة «الثالوث» حتى اخترعها لهم ترتليانوس في فترة بين أواخر القرن الثاني حتى منتصف القرن الثالث، وما اخترعها إلا بعد أن قام المدلول فوضع له اللفظ المناسب، ولكن لم يقم إلا بعد المسيح وعهد تلامذته.

لم يكن اسم «الثالوث» موجوداً في المسيحية في عصورها الأولى، لأن المسمى لم يكن موجوداً، فلما أوجدوه أوجدوا الاسم.

ولم يكن «الثالوث» عقيدة رسمية للمسيحيين، ولم يؤمن بها كل مسيحي، ولم تصبح رسمية إلا بعد إرهاب وغش وتدليس، وإلا بعد أخذ رأي قلة في مجمع نيقيه المنعقد سنة **٣٢٥** بعد الميلاد، قلة انتصرت على الكثرة الكاثرة بسلطة الحاكم وقوته وإرهابه واتخاذه القتل والتشريد.

فالثالوث لم يكن عقيدة عيسوية ألبتة، ولكن الثالوث عودة إلى غير الوحدانية، عودة إلى الإيمان بثلاثة آلهة: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، وهذا تعدد لا شك فيه، لأن كل

واحد منهم غير الآخر، وإن زعموا أن الأصل هو الله الآب كما زعم الوثنيون القائلون بالثالوث.

ولولا السلطة الحاكمة التي فرضت الثالوث بمرسوم ملكي أمبراطوري لما كان له هذا الشأن من السلطان في المسيحية، لأن المجمع الذي قرره وفرضه فعل ذلك بقلة ضئيلة يفقدها حق التقرير والفرض، فقد حضره ٢٠٤٨ عضواً من البطارقة والأساقفة و شذ منهم ٣١٨ عضواً، وكان لهؤلاء الشاذين الغلبة ففرضوا التثليث فرضاً.

لولا هذا الفرض القسري ما كان للتثليث هذا الاعتبار.

وسبب انعقاد هذا المجمع الكبير أن الخلاف اشتد بين الطوائف المسيحية، وزاد الاختلاف فيما بينها حتى أصبحت كل طائفة تخالف الأخرى في العقيدة والشريعة، في المسيح أهو مخلوق أم غير مخلوق؟ أهو إلّه أم غير إلّه؟ أله صفة غير الرسالة؟ إلى غير ذلك من الموضوعات، واستدعى هذا الخلاف أن يجتمع المختلفون ويبحثوا ما اختلفوا فيه ويستقروا على رأي يجمعون عليه.

وما كان هذا الخلاف إلا وليد الأمن الذي شعر به المسيحيون بعد اضطهاد وخوف، وهو خلاف أحدثه أمن الألى دخلوا في المسيحية من الوثنيين ومن اليهود ومن غيرهم فأدخلوا معهم في النصرانية ما في مللهم ونحلهم ودياناتهم من عقائد لا تتفق مع المسيحية الحقيقية.

ولم يكن زعماء الطوائف هم الشاعرون بضرورة الاجتماع والبحث رغبة في الوصول إلى تقرير الحق ، بل دفعهم إليهما دفعاً الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير (٢٧٤ - ٣٣٧م) الذي يعد أول امبراطور روماني دخل في المسيحية ونصرها وجعل لها القوة والغلبة في عصره وبعد عصره.

وكان أعظم سبب لهذا الاجتماع مذهب أريوس أو بدعة أريوس كما يزعمون وكان يعتنق مسيحية أقرب إلى المسيحية الصحيحة، فقد كان موحداً، مؤمناً بالله وحده لا شريك له، الآب وحده هو الله، أما الابن فمخلوق، والله أزلي قديم، والابن ككل مخلوق، وكان الله إذ لم يكن شيء، وأنكر كل ما في الأناجيل مما لا يتفق مع وحدانية الله الصحيحة.

وكان أريوس قوي الحجة جريئاً مقداماً، وكان يعيش في مصر بالإسكندرية وحارب كنيستها التي تعتنق ألوهية المسيح وألوهية روح القدس، وانتشر في مصر وفلسطين وفي كثير من الأسقفيات بآسيا الصغرى وغيرها مذهبه، وقامت كنيسة الإسكندرية بمحاربته حتى أن بطريركها اتخذ كل سبيل للقضاء على مذهب أريوس الذي زادته هذه المحاربة قوة وثباتاً وانتشاراً، وأخيراً لم يجد بطريرك الإسكندرية بداً من أن يتخذ قراراً لا يطلب فيه الإثبات، لأنه يعجز عن مقارعة أريوس بالحجة الدامغة.

لجأ إلى المسيح نفسه واستغله، فقد زعم أنه رأى المسيح في منامه مشقوق الثوب فسأله فأجابه: أريوس، وزعم أنه لعنه وحذر

منه، وقرر البطريرك لعن أريوس وطرده، ولكن ذلك لم يقض عليه بل زاد مذهبه ذيوعاً وأكثر أنصاره.

وتولى كنيسة الإسكندرية البطريرك اسكندر فاتخذ أسلوباً آخر غير أسلوب سلفه رجاء أن تفيد محاولته في صرف أريوس عن مذهبه فكتب إليه وإلى زعماء مذهبه يدعوهم إلى نقيض ما يذهبون إليه، وإلى العودة إلى كنيسة الاسكندرية واعتناق مبادئها، فلم يؤثر كتابه في أريوس ومن كتب لهم، ولكن البطاركة لا يخفقون ما دامت السلطة في أيديهم.

ولتكون نقمة البطريرك إلّهية فإن من السهل أن يجعلها كذلك، فعقد مجمعاً في كنيسة الإسكندرية وحكم على أريوس بالطرد والحرمان، إنه طريد رحمة الله ومحروم من رضا الكنيسة الذي هو رضا الله الآب ورضا الله الابن كما يرون.

ولكن هذا الحكم لم يؤثر في أريوس، فكان ذلك الشجاع الذي يحارب الكنيسة وهو مؤمن أنه على حق، لأنها ـ في رأيه ـ أشركت إذ جعلت المسيح المخلوق المصنوع إلهاً مع أنه في حياته ما يثبت بشريته وعجزه الذي لا يتفق مع قدرة الألوهية، وكل ما فعل أريوس أنه غادر الإسكندرية إلى فلسطين، ولم تكن المغادرة خوفاً من البطريرك الإسكندري بل رأى أن يضاعف نشاطه فقام بهذه الرحلة إلى فلسطين التي تعتنق مذهبه.

وكان أريوس سعيداً، فقد رأى مذهبه يقوى وينتشر، وأخذ الذين يؤمنون بأن المسيح مخلوق وليس رباً ولا إلهاً بل هو بشر

رسول يزداد عددهم مع ما نشر في أوساطهم من حرمان الكنيسة زعيمهم أريوس وطرده.

واعتنقت مذهب أريوس كنيسة أسيوط وأسقفية مقدونية وأسقفية فلسطين وأسقفية نيقوميديا، وفي الإسكندرية نفسها كان أتباعه كثيرين، وكان «ميليتوس» بطريرك أسيوط من أعظم أتباعه.

ولكن خصوم أريوس هالهم ذيوع مذهبه، وأشفق الأمبراطور قسطنطين من هذا التناحر الديني بين بطريرك الإسكندرية وأريوس فكتب إليهما يدعوهما إلى نبذ الخلاف وإلى الوفاق، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم، فهما على طرفي نقيض وأنى لهما أن يتفقا، وأنى للخطين المتوازيين أن يلتقيا.

واستدعاهما الأمبراطور وحاول أن يوفق بينهما ولكن لم يكن هناك سبيل للقاء بينهما، فقد كان أريوس عميق الإيمان بوحدانية الله وبشرية المسيح وتجريده من صفة الألوهية، قوي الحجة والبرهان، وميليتوس شديد التمسك بألوهية المسيح والأقانيم الثلاثة.

ولم ير الملك بداً من عقد مجمع عام يشترك فيه كل رجال الدين المسيحي ليقرروا ما يجب في هذا الخلاف وفي غيره من المسائل الدينية الخطيرة، وكتب إلى البطاركة والأساقفة يدعوهم إلى اجتماع عام في مدينة نيقية.

وحضر المدعوون، وانعقد أول مجمع للديانة المسيحية وأكبره وأعظمه في العالم في ذلك الزمان، وبلغ الحضور ثمانية وأربعين وألفين، وعرضت فيه العقائد المسيحية المختلفة التي تعتنقها الطوائف.

انعقد هذا المجمع التاريخي الخطير في تاريخ البشرية سنة **٣٢٥**م وهو أول مجمع مسكوني يعقد في العالم، بل أخطره، وسمي المسكوني نسبة إلى «المسكونة» وهي العالم، لأنه يحضره ممثلون للعالم المسيحي من كل أقطار المسكونة، وعرض كل صاحب فكر أو كل طائفة ما لديها من آراء ما جعل قسطنطين يبلغ به الدهش مبلغه، فما كان يتصور أن يكون الخلاف وأن تشتجر الآراء إلى هذا الحد من الخلف الذي لا يمكن تلافيه إلا بنبذ ما لا يوافق عليه قسطنطين.

وتحمل كل طائفة عقيدة تخالف عقائد الطوائف الأخرى وسنذكرها في موضعها من هذا الفصل، وكانت آراء أريوس أنضجها وأقربها إلى الحق، لأنه يؤمن بالوحدانية ويعطي المسيح حقه مخلوقاً ورسولاً، ويبعد عنه صفة الألوهية التي ادعاها له بعض الطوائف.

ومما لا شك فيه أن قسطنطين كان صاحب الدعوة إلى عقد مؤتمر نيقيه، وكان هو نفسه رئيس المجمع ومسيره وموجهه وحاميه، وصاحب الكلمة الفاصلة في كل شيء يتصل بالمجمع وما يدور فيه.

ويجب أن نذكر لقسطنطين أنه أصدر في سنة **٣١٣**م مرسوماً ملكياً قرر فيه التسامح الديني، وأباح المسيحية في أمبراطوريته الكبيرة، ومن المفارقات أن يكون هذا التسامح الديني القسطنطيني بداءة اضطهاد ديني خطير وضع العقيدة المسيحية والفكر الحر الطليق والحرية في أغلال حتى اليوم، وكتب على المسيحية الموحدة أن تقبر وتحل محلها المسيحية التي تقوم على الشرك والتعدد.

يقول ج. بيوري في كتابه «حرية الفكر»[1] صفحة **٣٧**: «قرر قسطنطين الأكبر أن يعتنق الديانة المسيحية بعد عشرة أعوام من صدور مرسوم التسامح، وكان هذا القرار الخطير فاتحة لألف عام عاشها الفكر في الأغلال، واستعبد فيها العقل استعباداً، وتوقفت فيها حركة العلم والعرفان». ونقول نحن: إلى أكثر من ألف عام.

ولم يكن صدور المرسوم إيماناً منه بالمسيحية، فهو لم يكن قد دخل فيها، ولكن مجاملة لأمه التي كانت تعتنقها، ولأن المسيحية دخلت جيشه، بل عندما عقد مجمع نيقيه لم يكن مسيحياً ـ بعد ـ كما يذكر يوسيبوس اللاهوتي سلطان مؤرخي المسيحية ـ كما يلقبونه ـ إذ يقول: «إن قسطنطين عُمِّد وهو أسير الفراش» وقام بتعميده يوسيبوس نفسه، والتعميد: غسل الطفل أو غيره بماء «المعمودية» إيذاناً بدخوله المسيحية، والمعمودية: أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية ومعنى كلام يوسيبوس أن قسطنطين لم يدخل

(١) ترجمة محمد عبد العزيز إسحاق.

المسيحية إلا قبيل موته، وعلى هذا يكون قد عقد مجمع نيقيه وهو وثني لم يدخل النصرانية بعد.

وعندما انعقد مجمع نيقيه بثمانية وأربعين وألفي عضو كان سبعمئة منهم مجمعين على وحدانية الله لأنهم تبعوا أريوس، واختلف الباقون، وشذ من جميع هؤلاء ثمانية وأربعون وثلاثمئة[1]، كانوا هم قاعدة مجمع نيقيه، وأبعد من عداهم، وقتل واضطهد، وممن قتل أريوس نفسه، ولم يكن هؤلاء الثمانية والأربعون والثلاثمئة على صوت واحد، بل كان فيهم من لا يحمل عقيدة تأليه المسيح، وبهذه القلة اتخذت أخطر قرارات في الدين المسيحي.

لقد جمعهم قسطنطين في مجلس خاص، ومنحهم السلطة عندما قدم لهم خاتمه وسيفه وقضيبه وقال لهم: جعلتكم اليوم سلاطنة مملكتي لتعملوا ما ترونه من أجل تثبيت قواعد الدين، وكل ما فيه صلاح المؤمنين.

وبادله هؤلاء الشعور الطيب وقدروه حق قدره على هذه المكرمة وعلى هذا التأييد للدين ورجاله، وأعادوا إليه سيفه وخاتمه وقضيبه بالإجلال والشكر، وباركوه وجعلوه حامي المسيحية وإمام المسيحيين.

وأخطر ما في تلك القرارات الخطيرة في تاريخ الديانة النصرانية مما يتعلق بالعقيدة قرارهم بأن المسيح من جوهر الله

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني: ٣١٣ وفي بعض النسخ ٣١٨.

نفسه، وما دام كذلك فهو الله الابن، والمسيح قديم لأن الله قديم، ولم يكن هناك زمن لم يكن فيه المسيح ، وأنه وجد قبل أن يولد ، يغير ولا يتغير.

جعل مجمع نيقيه المسيح إلهاً، فيه كل صفات الله (الآب) وحرم كل قول لا يتفق مع جلال الله لأن المسيح إله حق، وحرم كل قول بإنسانية المسيح وكل قول ينفي ألوهيته.

وذكر الشهرستاني[1] نص قرار المجمع، وهو هذا:

« نؤمن بالله الواحد الآب، مالك كل شيء، وصانع ما يُرى وما لا يُرى وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء من أجلنا ومن أجل معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وحُبِل به، وولد من مريم البتول، وقتل وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد وروح الحق الذي يخرج من أبيه».

وكأن المجمع لم ينعقد إلا للرد على أريوس وإقامة عقيدة

(١) الملل والنحل ١: ٥٣٢ ـ ٥٣٣ تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مطبعة الأزهر سنة ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).

تغاير عقيدة أريوس الذي ذهب فيها إلى أن المسيح بشر، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ولو كان المجمع نزيهاً لكان لقراراته حقها من الاحترام، ولكنه اتخذها بعد نفي الأغلبية الساحقة، حيث شذ ٣٤٨ من ٢٠٤٨ ووضعوا قرارات ملزمة دون أن يكون للأغلبية رأي فقد أقصيت إقصاء.

فإذا علمنا أن ٧٠٠ عضو كانوا مع آريوس فإن ما يبقى من مجموع الأعضاء هو ١٣٤٨ كانوا على مذاهب مختلفة خرج منهم ٣٤٨ يمثلون الجانب الذي أمضى القرار القائل بألوهية المسيح، ويبقى بعد خروج هؤلاء ألف عضو لم يكونوا متفقين في الرأي فيما بينهم، ولكنهم كانوا خارجين على أولئك القائلين بألوهية المسيح، إذ لو قالوا بها لما خرجوا عنهم بل لأدخلوا في زمرتهم، ولم يكن الثمانية والأربعون والثلاثمئة كلهم على كلمة واحدة في ألوهية المسيح بل كان فيهم من لا يقول هذا القول، وفيهم من سكت خوفاً من البطش والأذى، وأمضوا القرار مع الذين أمضوه.

فمجمع نيقيه الذي اتخذ قرار تأليه المسيح لم يكن مجمعاً شرعياً، لأن العادة في المجامع أن يكون الحكم للأغلبية، ولكنَّ ما كان فيه هو النقيض، فغلب ٣٤٨ على ١٧٠٠ وهي غلبة الشذوذ على الأكثرية.

وما كانت الغلبة لتكون من نصيب الشذوذ لولا قوة السلطة

التي أرادت أن تفرض رأيها ففرضته بالقوة فنجح الشذوذ المرجوح على الأغلب الراجح.

ولو كان المجمع قائمًا على العدل لكان أريوس ومن دانوا برأيه هم الغالبون، فقد ذكر ابن البطريق أن أكثر من سبعمئة (٧٠٠) أسقف انضموا إلى أريوس وأخذوا برأيه، ومن بقوا لم يكن فيهم هذا العدد.

ومن هذا يظهر أن قرار المجمع المسكوني فاقد شرعيته لأنه بني على أساس قلة نالت تأييد السلطة، وما كان الأمبراطور قسطنطين ليوافق على مذهب أريوس لأنه مذهب التوحيد الذي ينفي عن المسيح الألوهية، وما كان ليوافق إلا على مذهب يتفق مع وثنيته.

فالتثليث مذهب وثني قديم كما ثبت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، فهو مذهب غير بعيد عن وثنية قسطنطين.

وكيف يرأس وثني مجمعاً دينياً خالصاً يُقَرَّر فيه مصير ديانة عظيمة وهي المسيحية؟ ولماذا يعطي القلة السلطة الواسعة إذا لم يكن ذا هوى؟ ولماذا لم تؤخذ براهين أريوس مأخذ الجد والاهتمام بل ترمى بدون دليل إلا أن في الأناجيل ما يثبت ألوهية المسيح، والأناجيل وحي واجب التصديق؟ ولماذا لم ينظر في طعن أريوس فيما تضمنته الأناجيل بهذا الصدد؟ ولماذا لا يبحث المجمع ادعاء أريوس أن الفقرات التي تدعي ألوهية المسيح محرفة؟ ولماذا يفرض قسطنطين إرادته في تقرير ما يريده على المجمع دون أن يهتم

بشرعية المجمع من جهة التصويت فيبعد من لا يوافقونه عنه ويقصر حضوره على ٣٤٨ من ٢٠٤٨ إذا كان انعقاد المجمع قائمًا على النزاهة والحق والعدل؟.

ومما لا شك فيه أن قرار المجمع المسكوني ليس شرعياً إلا لأن الحاكم الوثني قسطنطين أسبغ عليه صفة الشرعية لأنه يرأسه وراض عنه وعن الذين يمثلون فيه.

إنه اختار من يعرف سلفاً أنه يقول بألوهية المسيح، ثم أغرى الموافقين بالسلطة منحهم إياها وبالعز والجاه والثروة جعلها بين أيديهم، وحمل الناس بالقوة على اعتقاد ألوهية المسيح، واتخذ سلاح الإغراء وسلاح الإرهاب.

ومن آيات هذين السلاحين أن أوسابيوس أسقف نيقوميديا الذي كان موحداً من كبار أنصار أريوس في المجمع المسكوني العام قبل اختصاره على الثمانية والأربعين والثلاثمئة، ولعن من قبل مؤلهي المسيح، فاضطر إلى التوبة الظاهرة وتقرب من قسطنطين وأبدى له أنه معتنق عقيدة تأليه المسيح، فوسعه فضل الامبراطور وعفا عنه وأبعد اللعنة التي حلت به، وجعله بطريرك القسطنطينية.

ولكن أوسابيوس لم يعتنق عقيدة التأليه إلا ظاهراً، أما باطنه فما كان يتسع إلا لعقيدة التوحيد، فأخذ يدعو إليه سراً وينشر مذهب أريوس بكل ما وسعه خفاء.

ولم تقتصر قرارات المجمع المسكوني على تأليه المسيح وجعله مذهب المسيحية الرسمي أو عقيدتها الجوهرية بل اتخذ قرارات أخرى خطيرة، منها: تكفير أريوس وكل من اعتنق مذهبه مع الحرمان والطرد، وتكفير كل من يدعي أن المسيح إنسان وليس بإله - وهو من مذهب أريوس - وإعطاء رجال الكهنوت امتيازاً خاصاً بهم، فهم الذين يحفظون تعاليم الدين، ومنهم تؤخذ، لأن الكتب لا تسلس قيادها لغيرهم، فهم حماتها ومفسروها، ولا بد من تلقي التعاليم منهم، وما يقولونه لا يمكن نقضه ولو خالف نصاً من النصوص المقدسة، ولو ظهر فيه الخطأ.

وخشي المجمع من الكتب التي لا تقول بألوهية المسيح أن تجذب المسيحيين وتقف في وجه قرار التأليه وتضعفه حتى يقضى عليه، ورأى أن من الفرض اللازم اتخاذ قرار يقضي عليها قبل أن تقضي على قرار التأليه، فقرر إحراق كل الكتب التي تخالف ما رأوا وذهبوا إليه أو لا تقول به، وتحريم قراءتها، وحض المسيحيين على قراءة الكتب التي تؤله المسيح، وتحريم بعض أسفار العهد الجديد مثل رسالة بولس إلى العبرانيين، ورسالة بطرس الثانية.

ومن ذلك اليوم صار المسيح إلهاً بقانون مجمع نيقيه، وصار للمسيحيين إلهان، هما: الله الآب، والله المسيح.

ولكن قرار مجمع نيقيه لم يستطع القضاء على المسيحية الموحدة، فقد كانت الغالبة من ناحية الكثرة التي تدل على كثرة من يمثلونها، ففي مجمع نيقيه نفسه ظهر أن الكثرة الموحدون، وفي

مجمع صور كانوا الإجماع، فقد انعقد مجمع صور الإقليمي وحضره أوسابيوس الذي كان أسقف نيقوميديا عند انعقاد مجمع نيقيه ثم حلت به اللعنة لأنه كان موحداً من أتباع أريوس، فاضطر إلى إعلان التوبة وصار بأمر قسطنطين بطريرك القسطنطينية، والعمل في خفاء لمعتقده وهو التوحيد.

كما حضره بطريرك الإسكندرية الذي كان يحمل عقيدة تأليه المسيح ويدعو إليها في قوة ويستمسك بها في شدة، ويلعن كل خارج عليها.

وأثار أوسابيوس مذهب أريوس في المجمع، فإذا من فيه يعلنون أن الله واحد لا شريك له، وأن المسيح ليس إلا بشراً مخلوقاً، وليس بإله، فغضب بطريرك الإسكندرية وأخذ يلعن، ويدعو لمذهبه في حماسة وقوة، واشتد الجدل بينه وبين من حضروا المجمع، فنهضوا إليه وضربوه وأرادوا أن ينزعوا من رأسه بالقوة أفكاره لولا أن حال بينه وبينهم ابن أخت قسطنطين الذي كان حاضراً الاجتماع وأنقذه، ولكن بعد أن دمّي رأسه وضرب ضرباً شديداً.

ومما جرى في هذا الاجتماع وإجماع من فيه على مقالة أريوس يفهم أن قوة الموحدين المسيحيين كانت عظيمة، ولا شك أنهم كانوا يمثلون أغلب المسيحيين، بل كان الموحدون يطردون البطاركة والأساقفة الذين لا يدينون بالتوحيد، وقد أشار ابن البطريق المسيحي إلى أن أهل بيت المقدس من أتباع أريوس وثبوا

على «كيرلس» أسقف بيت المقدس ليقتلوه، ولم ينجه من القتل غير هربه، وأقاموا «أراقليوس» أسقفا بدل الهارب.

ويذكر ابن البطريق أن مذهب أريوس شاع وانتشر في القسطنطينية وبابل وأنطاكية وأسيوط والاسكندرية نفسها، نعم، الإسكندرية التي تحمل علم ألوهية المسيح اعتنقت مذهب أريوس، وإن كان بطريق الإسكندرية هو أكبر الدعاة وأوحدهم القائلين بألوهية المسيح وأعظمهم حماسة في الدعوة، حتى أن أهل الإسكندرية وثبوا على بطريقها «أثناسيوس» ليقتلوه، فهرب منهم واختفى.

بل بلغ من قوة الموحدين أنهم اتصلوا بالامبراطور قسطنطين ابن قسطنطين الأكبر ليقنعوه بالوحدانية، وعرضوها عليه عرضاً صحيحاً، وذكروا له أن التوحيد الخالص هو ما جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام وعلى رسولنا الكريم.

وهذا كله يجعلنا مطمئنين إلى أن الأكثرية المسيحية كانت موحدة اقتناعاً منها بالتوحيد، وإيماناً منها بأن الله واحد لا شريك له، وأن المسيح مخلوق وليس بإله! أما الفريق الآخر فلم ينجح منذ مجمع نيقيه حتى السنوات التي تلته في حمل المسيحيين على الشرك، مع استعانته بقوة السلطان التي كانت يقظة لدعوة التوحيد، وما كانت لتستخدم في الوظائف الكنسية العليا ـ بخاصة ـ إلا من كانوا من غير أهل التوحيد.

وبذلك تم للقوة أن تقضي على التوحيد الحق الذي بشر به

المسيح وبعث من أجله، ولكن لم ينتصر الشرك على التوحيد إلا بعد زمن من مجمع نيقيه.

ولم يتم بعد القول بألوهية المسيح رسمياً كل ما نجده في الديانة المسيحية، فبعد أن تم لهم الزعم بألوهية المسيح كان لديهم أقنومان هما: الله الآب، والله الابن.

أما الأقنوم الثالث فلم يبحثه مجمع نيقيه المسكوني، لأنه لم تتولد لديه فكرته ـ بعد ـ وبعد أكثر من نصف قرن على انتهاء أعمال مجمع نيقيه بدأ البحث في الأقنوم الثالث الذي هو روح القدس، وانعقد من أجله مجمع القسطنطينية الأول، وهو مجمع مسكوني، وأعطوه هذه الصفة العالمية رغبة في إعطائه الصبغة الشرعية التي تلزم المسيحيين جميعاً، مع أن هناك معارضين لم يرضوا بأن يكون مجمعاً مسكونياً لأنه لم يضم إلا خمسين ومائة أسقف، بل جاء الرهبان البندكتيون[1] بعد أولئك المعارضين وذكروا أن مجمع القسطنطينية الأول لا يعد مسكونياً لأنه لم يضم إلا خمسين ومائة أسقف، وإذا أريد إعطاؤه هذه الصفة وجب إجماع الكنائس عليه.

وأيّاً ما كان الأمر فقد انعقد مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م للنظر في المشكلة التي جدت في المسيحية، وهي ألوهية

(١) رهبانية البندكتيوين أسسها الراهب الإيطالي بنديكتوس أحد منظمي الحياة النسكية في الغرب، وكان تأسيسها في جبل كسينو سنة ٥٢٩م وولد بنديكتوس سنة ٤٨٠ وتوفي سنة ٥٤٣م.

روح القدس، وكان بطريرك الإسكندرية ـ واسمه ثيموثاوس ـ الذاهب المتحمس إلى هذا القول كما كان سلفه حامل راية القول بألوهية المسيح.

ولا شك أن الفلسفة اليونانية وجدت لها في الإسكندرية مقاماً كريماً منذ قرون كثيرة، وأثرت في الديانة اليهودية على يد فيلون الإسكندري اليهودي، وأثرت في المسيحية أيضاً، أثرت في القول بألوهية المسيح، وبألوهية روح القدس، ولم تكن الفلسفة اليونانية وحدها المؤثرة بل الديانة المصرية الوثنية أثرت في المسيحية.

فإذا كان بطريرك الإسكندرية أو بطركيتها حملت راية القول بألوهية المسيح ثم القول بألوهية روح القدس فذلك ناجم من تأثرها بما كان في مصر نفسها.

ففي كتابات «خرافات التوراة وما يماثلها في الديانات الأخرى» لدوان[١] صفحة ٤٧٣ ما نصه[٢]: «كان قسيسو هيكل ممفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم إن الأول خلق الثاني، والثاني مع الأول خلقا الثالث، وبذلك تم الثالوث المقدس» وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره: أكان قبله أحد أعظم منه أو يكون بعده من هو أعظم منه؟ فأجابه الكاهن: نعم، يوجد من هو أعظم، وهو

(١) Doane: Bible Myths and Their Parlles in other Religions

(٢) العقائد الوثنية صفحة ٢٦.

ـ أولاً ـ الله، ثم الكلمة، ومعهما روح القدس، وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات، وعنهم صدرت القوة الأبدية».

وهذه العقيدة في الثالوث أقدم من الفلسفة اليونانية، ففي كتاب «العقائد الوثنية في الديانات النصرانية» صفحة ٢١: «التعليم الثالوثي أصله من مصر».

وفي كتاب «تقدم الأفكار الدينية»[١] ١:٣٠٧: «كان اليونانيون (القدماء الوثنيون) يقولون: إن الإله مثلث الأقانيم، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات (إشارة إلى الثالوث) ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء ثلاث مرات، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع، ويعتقدون بأن الحكماء قد صرحوا أن كل الأشياء المقدسة يجب أن تكون مثلثة، ولهم اعتناء تام بهذا العدد (أي التثليث) في كافة أحوالهم الدينية»[٢].

وقال دوان في كتابه «خرافات التوراة» نقلاً عن أورفيوس، وهو أحد كتاب وشعراء اليونانية الذين كانوا قبل المسيح بعدة قرون ما نصه: «كل الأشياء عملها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم»[٢].

و« كثيرون من الآباء في الجيل الثالث والرابع قالوا إن

(١) Progress of Religions Ideas.

(٢) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، صفحة ٢١.

فيثاغورس وهيروكليتوس وبلاتو علموا التثليث، وقد أخذوا فلسفتهم في التثليث عن أورفيوس »[1].

وقال العلامة «فسك» في كتابه «الخرافات ومخترعوها»[2] صفحة ٢٠٥: «وكان الرومانيون الوثنيون القدماء يعتقدون بالتثليث وهو ـ أولاً ـ الله، ثم الكلمة، ثم الروح»[3].

فإذا قالت بطركية الإسكندرية أو بطاركتها: إن المسيح إلّه مع الله فذلك من أثر الديانة الوثنية المصرية والفلسفة اليونانية لأنهم كانوا متأثرين بها، وإذا جاءوا بفكرة ألوهية روح القدس فإنهم لم يبتكروها بل أخذوها من اليونان ومصر حتى يجعلوا المسيحية الموحدة مسيحية تقوم على أساس التعدد والشرك.

وما كان لهم أن يعقدوا مجمعاً مسكونياً لبحث مسألة تأليه الروح القدس لولا أن هناك معتقداً دينياً شديد القوة والانتشار ينكر ألوهية الروح القدس كما ينكر ألوهية المسيح التي قررت بمرسوم امبراطوري.

ولا بد لمن جعلوا المسيحية شركاً أن يثبـوا إلى المسيحية الموحدة ويصارعوها ابتغاء صرعها والقضـاء عليها فـأبلغوا الإمبراطور ثيودوس الأول (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) بما فعلته بدعة أريوس في العامة الألي ما زالوا متأثرين بها، وإذا انتهى الحكم فيها فإن من

---

(١) انظر دائرة المعارف تأليف تشمبرس في كلمة «أورفيوس».

(٢) Fiske: Myth and Myth Makers.

(٣) العقائد الوثنية ٢١ ـ ٢٢.

الفرض مجابهة بدعة مقدونيوس الذي تولى بطركية القسطنطينية قسراً وتعصب لمذهب أريوس[1]، وهذه البدعة ـ في رأيهم إنكاره لاهوت الروح القدس.

ويظهر أن القول بألوهيته كان موجوداً في الإسكندرية لأنها مباءته ومُنطَلَقه، ومنها انطلقت إلى البلدان الأخرى دون أن يكون لها تأثير لدى الأكثرية المسيحية، فاضطر المقربون من الأمبراطور أن يبلغوه ببدعة نيقوديموس المنتشرة التي ضللت الناس ـ كما يزعمون ـ وطلبوا إليه أن يعقد مجمعاً مسكونياً لرد بدعة مقدونيوس الذي كان يقول في صراحة: إن روح القدس ليس إلهاً، ولا يتصف بالقدم، بل هو مصنوع مخلوق، فأمر بعقد المجمع.

وانعقد بخمسين ومائة أسقف سنة ٣٨١م بمدينة القسطنطينية، وولي رئاسة المجمع بطريركها، ولكن ثيموساوس ـ وإن لم يرأسه ـ كان أقوى من في المجمع لأن رأيه هو الذي سيطر عليه، وتحليله للروح القدس تحليل عجيب، وقد لخصه سعيد بن البطريق في تاريخه العام بقوله:

«ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا: إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن

---

(١) عزله قسطنسيوس من منصبه الديني، وتوفي سنة ٣٦٢م ولكن وفاته لم تقض على مذهبه في إنكار ألوهية الروح القدس، بل زاد أتباعه مما حمل بعض البطاركة ورجال الدولة على اتهام نيقوديموس بأنه مبتدع، ورذله مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م.

روح الله مخلوق، وإذا قلنا إن روح الله مخلوقة فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي، وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن».

فالإيمان بروح القدس وإلا اللعن، وقرر المجمع لعن مقدونيوس وأتباعه وكل من قال مقالته، ووقفوا هذا اللعن على البطاركة من بعده.

قرر المجمع ألوهية روح القدس، وكان قراره تكملة لقرار مجمع نيقيه، وبذلك كمل الثالوث: الله الآب، والله الابن، والله روح القدس.

ونرى أن الانحراف بالمسيحية عن طريق التوحيد اتخذ طابع الرسمية بعد مجمع نيقيه ومجمع القسطنطينية، فاتحدت السلطة الزمنية والسلطة الدينية على عقيدة التثليث وألزمتا المسيحيين به إلزاماً، وإلا حقت لعنة الثالوث ولعنة الكنيسة على من لا يعتقد بالثالوث.

وأخذ رجال الدين يؤولون فقرات أناجيلهم، فيضعون المعاني التي يريدونها للكلمات التي لا تسلمهم إلى ما يبتغونه.

وكلام ثيموساوس في الروح القدس هو الذي اعتقدته المسيحية، وهو أول مقالة مسيحية في تأليهه، وما في المؤلفات المسيحية الأخيرة يتفق مع ما جاء عن ثيموساوس، ففي كتاب

«يسوع المسيح»[1]: «أما الروح القدس فمنبثق منذ الأزل بفعل داخلي، من الآب والابن معا كمن مبدأ واحد، وهذا ما أشار إليه السيد المسيح عندما وعد تلاميذه بإحلال الروح القدس عليهم فقال: «هو (الروح القدس) يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم، جميع ما للآب هو لي، من أجل هذا قلت لكم إنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يوحنا ١٦/١٤) والروح القدس لا يستطيع أن يأخذ من الابن إلا الذات الإلٓهية المشتركة ما بينه وبين الآب، وهذا ما يجعل الأقانيم الثلاثة متساوين بذات واحدة ولاهوت واحد».

وما جاء في يوحنا قوله (١٦: ١٢ ـ ١٦):

«إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم، كل ما للآب هو لي، لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم، بعد قليل لا تبصرونني، ثم بعد قليل أيضاً ترونني، لأني ذاهب إلى الآب».

وفي الإصحاح السادس عشر نفسه من إنجيل يوحنا على لسان المسيح قوله: «قد كلمتكم بهذا لكيلا تعثروا، سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله، وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني».

---

(١) تأليف الأب بولس إلياس اليسوعي، صفحة ٧٥.

وأخرج من المجامع الموحدون، وجاءت الساعة التي ظن كل من قتلوا أريوس وغيره من الموحدين بعد إخراجه هو ومئات الموحدين من أتباعه وإخراج غيره من الموحدين وإبعادهم من المجامع إنهم يقدمون خدمة لله، فإذا صح أن هذه النبوءة من سيدنا المسيح فإن الذين فعلوا بالأريوسيين والمقدونيوسيين ما فعلوه يكونون هم المتجنين.

أخرجوهم من مجمع نيقيه وأبعدوهم من مجمع القسطنطينية لأنهم قالوا : إن المسيح بشر وليس بإله، وأنكروا أن يكون روح القدس إلهاً، ونفوا عن الله الشريك وأثبتوا أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، واتخذوا القوة لفرض ثالوثهم بعد أن أكملوه في مجمع القسطنطينية إذ زعموا أن روح القدس إله، وبذلك خرجت المسيحية عن أن تكون دين توحيد وأصبحت ديانة شرك وتعدد، فلله شريكان هما الله الابن والله الروح القدس، وهذا تعدد في الآلهة لأن هنا ثلاثة آلهة لكل منهم اسمه الخاص وعمله الخاص، فظنوا أنهم بقولهم : ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة يخرجون من هذا الشرك إلى التوحيد وما هم بخارجين منه إلا إذا آمنوا بالوحدانية المطلقة.

فالروح القدس عندهم هو الله، وهو الأقنوم الثالث من الثالوث المقدس، ويدعون أن في وسع الروح القدس الحلول في أي شخص والاتحاد به إذا كان من المسيحيين المؤمنين الصالحين، وزعموا أنه حل في الاثني عشر تلميذاً، وفي بولس وأصحابه،

ويحل في الباباوات ورؤساء الكنائس والرهبان والقسس، ولكن فرقة من الفرق المسيحية تؤمن أن الروح القدس خاص بها لأنه لا يحل إلا في أفراد دينها دون غيرهم من أبناء الفرق الأخرى لأنهم ليسوا مسيحيين بررة مؤمنين.

وفي سفر الأعمال ٢: ١ - ١٢:

«ولما حضر يوم الخميس كان الجميع معاً بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح. . . فلما صار هذا الصوت اجتمع الجمهور وتحيروا لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته، فبهت الجميع وتعجبوا قائلين بعضهم لبعض: أترى ليس جميع هؤلاء المتكلمين جليليين؟ فكيف نسمع نحن كل واحد منا لغته التي ولد فيها، فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان، والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء، كريتيون وعرب، نسمعهم يتكلمون بألسنتنا».

وفي هذه الفقرات دعوى أن روح القدس الذي هو الله ظهر لهم صوتاً مسموعاً كما يسمع من هبوب ريح عاصفة، ثم ظهر لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم حتى

امتلأوا منه، فإذا هم يتكلمون لغات الأمم والشعوب مع أنهم لم يكونوا يعرفونها.

فروح القدس حل فيهم جميعاً، بل هو ساكن في بعض بني البشر كما يقول رسول المسيحيين بولس في رسالته الثانية لتيموثاوس ١ : ١٤ : «إحفظ الوديعة الصالحة بالروح القدس الساكن فينا»، وروح القدس الله عندهم، فصاروا كلهم آلهة، ودانوا بالحلولية لأن الله يحل فيهم، وما دام روح القدس ظهر لهم ذلك المظهر فالله الآب والله الابن حلاَّ بهم أيضاً معه لأن الثلاثة في واحد.

ويحل روح القدس في آباء الكنيسة والصالحين من رجال الدين، فلماذا نجد الخطأ في أناجيلهم والتناقض؟ لماذا لم يصلح لهم ما اعوج فيها؟ ولماذا يدع الفرق المسيحية تتناطح ولا يهديهم إلى الرشد والكلمة السواء؟.

ما عمله إذا لم يقم بالصالحات التي تجعل المسيحيين على صراط مستقيم؟.

ثم كيف يرون الله وأناجيلهم وكتبهم المقدسة تنفي رؤية أحد الله في الدنيا؟. في إنجيل يوحنا ١ : ١٨ : «الله لم يره أحد قط» وهم يعترفون أن إبراهيم عليه السلام أبوهم وأبو الأنبياء وموسى عليه السلام وغيرهما من الأنبياء والمرسلين الصادقين الصالحين وهؤلاء لم يروه .

وفي سفر تيموثاوس الأول ٦: ١٦: «الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه أحد».

فكيف يكون التوفيق بين نفي رؤية الله وإثباتها؟ لم ير الله أحد من الناس ولا يقدر أن يراه أحد، فكيف رأوا أقنومين وهما المسيح وروح القدس، أليس كلاهما الله؟ إن زعموا الرؤية فقد كذبوا كتبهم المقدسة، وإن لم يروه فتكذيبها واقع، وما دام التكذيب في كلا الحالين واقع فإن الكذب ينزع القداسة مما يقولون وتقوله كتبهم المقدسة ويبعد عنها وعنهم الثقة المنزوعة بأقوالهم.

والقول بالثالوث أصبح عقيدة المسيحيين رسمياً بعد مجمع نيقيه ومجمع القسطنطينية المسكونيين، واتخذ قرار ألوهية المسيح في مجمع نيقيه الذي تولى رئاسته قسطنطين الأكبر وهو روماني وثني وسيد الرومان جميعاً في عصره لأنه أمبراطورهم، «والرومانيون الوثنيون القدماء كانوا يعتقدون بالتثليث وهو ـ أولاً ـ الله، ثم الكلمة ثم الروح» وهذا ما رآه المسيحيون، فقد قرروا ألوهية المسيح، والمسيح الكلمة.

فما رآه المسيحيون وقرروه في مجمع نيقيه يتفق مع وثنية قسطنطين، ثم ما قرره مجمع القسطنطينية في ألوهية روح القدس يتفق مع وثنية الرومان والمصريين واليونانيين والديانات الوثنية التي قالت بالتثليث.

ولكن المسيحية الموحدة لم تمح من الوجود بعد مجمع

القسطنطينية، ولكنها كانت معرضة للهدم والتخريب والقتل حتى انتهكت قواها ثم قضي عليها، وسيطرت المسيحية التي نجد بها التعدد والشرك.

وأخذت المجامع العامة المسكونية والخاصة الإقليمية تضيف إلى قرارات المجمعين السابقين قرارات جديدة تتعلق بالديانة والعقيدة والشريعة ما أغرق المسيحية في آراء ونظريات أبعدتها عن التوحيد إبعاداً.

وجدَّت بعد التثليث آراء ونظريات في المسيح، أهو ذو طبيعة أو طبيعتين؟ وهل المسيح الذي كان بينهم هو الله أم هو الإنسان؟.

ونهض نسطور بطريرك الإسكندرية برأي جديد فيه نقض العقيدة المسيحية بعد انحرافها عن التوحيد الخالص، لأنه يرى أن المسيح المولود من مريم العذراء، والذي ظهر للناس ليس إلهاً ـ البتة ـ وفي رأيه هذا يتفق مع ما جاء في إنجيل يوحنا وفي سفر تيموثاوس الأول اللذين ينفيان إمكان رؤية الله.

يرى نسطور أن الأقنوم الإلهي من الله الآب، وطبيعة الإنسان ليست منه، لأنه ولد من مريم، وإذا قيل في وصفه أنه الله وابنه فذلك ليس على الحقيقة، ولكن بما ميزه الله به من منحه البركة والنعمة، ولم يكن إلهاً في حد ذاته، والعذراء ليست أم الإله.

وهو اعتقاد ينفي عن المسيح المولود من العذراء والمنظور من الناس الألوهية، وكان اعتقاده مثار جدل بين رؤساء الكنائس في روما وبيت المقدس وأنطاكية، واهتموا به لأنه نفى الألوهية عن المسيح على أي وجه من الوجوه يفسد جوهر العقيدة المسيحية القائلة بالتثليث، فقرروا عقد مجمع مسكوني لتقرير ما يرونه في عقيدة نسطور.

وعقد مجمع أفسوس في سنة ٤٣١م بنحو مئتين من الأساقفة، وتخلف عنه نسطور لأنه علم ما سيكون جزاؤه، وإن جزاءه الذي يصله وهو بعيد أهون منه إذا حضر المجمع فليقرر أعضاؤه طرده ونفيه ولعنه، أما حضوره فسيضيف إلى هذه العقوبات عقوبة الضرب المبرح وقد يكون الموت، فليبق بعيداً، لأن الأعضاء يحضرون وهم مصممون على مخالفته لا على بحث رأيه.

واجتمع الأعضاء وقرروا لعن نسطور وطرده ونفيه، وقرروا أن المسيح إلّه حق وإنسان، وله طبيعتان، ومريم أم الإلّه ووالدة الله.

ولم يصادف القرار هوى في يوحنا بطريرك أنطاكية، فاحتج عليه ساخطاً سخطاً شديداً، وانقسم الحضور واختلفوا فيما بينهم، وأصر المشرقيون على قرار المجمع، وأيدوه بأن كتبوا صحيفة ذكروا فيها: «إن مريم القديسة العذراء ولدت إلهنا وربنا يسوع المسيح

الذي مع أبيه في الطبيعة، ومع الناس في الناسوت والطبيعة» وقالوا بطبيعتين ووجه واحد وأقنوم واحد.

ولبث نسطور على موقفه فنفي إلى مصر، وطرد من رئاسة كنيسة الإسكندرية في سنة ٤٣١م، ولكن مذهبه لم يمت، بل وجد الحياة العزيزة في المشرق، حيث نما واشتد وانتشر في كردستان بين الموصل وأرمينيا، وزادت قوتها في القرن السادس الميلادي حيث قامت الرهبانية النسطورية ببعث «الإرساليات» التبشيرية إلى فارس والهند والصين وآتت أكلها في تلك الأقطار.

غير أن طبيعة المسيح لم تتقرر ـ بعد ـ بوضوح، فكان رجال الدين ورؤساؤهم يبحثونها ويطيلون ويتفلسفون، يبحثون مسألة طبيعة المسيح، أهي طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت والناسوت أم هما طبيعتان.

ويظهر أن كنيسة الإسكندرية هي التي تحمل لواء المعارضة أو التقرير، وفي سنة ٤٥١م. خرج ديوسقورس بطريرك الإسكندرية برأي جديد هو أن المسيح إله، ولكنه ذو طبيعة واحدة يلتقي فيها اللاهوت والناسوت معاً، وقرره في مجمع إقليمي أثار انعقاده وما قُرِّر فيه سخط غيرهم من أساقفة الكنائس الأخرى، وكان ذلك مدعاة لعقد مجمع مسكوني في خلقيدونية في شهر أكتوبر سنة ٤٥١م وهو المجمع الذي يعقد بهذه المدينة لأول مرة.

وهذا المذهب ليس ديوسقورس صاحبه، ولكنه في الأصل مذهب أوطيخا الراهب اليوناني الذي قال بوحدة الطبيعة في

المسيح، ويسمى هذا المذهب «المونوفيسية» وديوسقورس أكبر زعمائه بعد أوطيخا.

وحضر ديوسقورس مجمع خلقيدونية وحضره الأمبراطور مرقيانوس زوج الأمبراطورة پولخيرية شقيقة الأمبراطور الراحل ثيودوسيوس، وكان مرقيانوس رئيس جلسات المجمع، وكان عدد من حضره من الأساقفة عشرون وخمسمئة.

وقدم وفد روما اقتراحاً طلب فيه إقصاء ديوسقورس من الاجتماع محتجاً بأن المجمع الذي عقده في الإسكندرية لم يكن بإذن الكرسي الرسولي (الذي هو بابا روما) ولكن ممثلي الحكومة لم يقبلوا طلبه، وقرر المجمع بقاء ديوسقورس.

واشتد الجدل بين الأعضاء واحتدم، وتراشقوا بالكلام البذيء ، وتبادلوا الشتائم والتهم، ودوّى المجلس بصخبهم وصيحاتهم المنكرة حتى اضطر أحد رجال الحكومة أن ينصحهم بالتزام الأدب والسكينة والوقار، ولامهم على ما يقولون ويفعلون مما لا يتفق مع جلال الدين وكرامة رجاله الألى هم قدوة الناس، فلا يليق بهم أن يتبادلوا السباب المقذع والتهم البشعة واللكم والضرب، ويستعملوا العصي في الرد والإقناع.

ولكن جو الاجتماع كان ملبداً بغيوم لا تنقشع، وترسل الرعود والصواعق، وانتهى إلى قرار بني على أسس أهمها:

١ ـ مريم العذراء ولدت إلهاً هو ربهم يسوع المسيح.

٢ ـ المسيح مع أبيه (الله) في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في طبيعة الناسوت.

٣ ـ إن المسيح طبيعتان، وأقنوم واحد ووجه واحد.

٤ ـ لعن نسطور.

٥ ـ لعن ديوسقورس وكل من دان بمذهبه وقال قوله.

وانفض الاجتماع أو المجمع بنفي ديوسقورس إلى فلسطين، والعزم المصمم على تنفيذ بنود القرار.

أسرار المسيحية المقدسة

وللمسيحية التي مضت صورتها في الصفحات السابقة أسرار هي شعائر وفرائض وأركان مقدسة لا يكون المسيحي مسيحياً إلا بها، وفرض على من ينتسب إلى الكنيسة أن يؤدي ما تحتويه هذه الأسرار، وعددها سبعة، إلا أن المسيحيين يختلفون في عددها باختلاف طوائفهم، إلا أن إجماعها كلها على اثنين منها، هما: المعمودية والتناول الذي هو العشاء الرباني، والطائفة المسيحية الوحيدة التي لا تهتم بالتعميد ـ كما يعتقد ـ هي طائفة الكويكرز.

والمعمودية سر النصرانية الأول والباب المفضي إليها، ومظهرها غسل الطفل وغيره بالماء باسم الآب والابن والروح القدس، ويجوز أن يكون التعميد برش الماء على الجبهة أو بلِّ أكثر أجزاء الجسم، ولكن الأفضل الغسل وفي عهد الطفولة.

وعندما يتم التعميد تكون النفس قد تطهرت من أدران الخطيئة بدم يسوع، وسر المعمودية أنه «ولادة ثانية» تمحي معها الخطيئة الأصلية من النفس وتحل فيها النعمة.

والمسيح نفسه عمده يوحنا الذي لقب بالمعمدان لتعميده الناس مما يدل على أن التعميد كان معروفاً عند اليهود، أو على الأقل معروفاً في البيئة التي ولد بها المسيح حتى عمد وهو كبير بعد أن جاءته رسالة السماء.

ففي إنجيل مرقس ١ : ٩ ـ١١ : «وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن، وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه، وكان صوت من السماوات: أنت ابني الحبيب الذي به سررت».

وتختلف الطوائف المسيحية في التعميد وحكمه وزمنه، ولكن الاختلاف في الحكم يعتبر شاذاً لا ينقض القاعدة، فكل الطوائف المسيحية تهتم به وتعتبره الركن الأساسي الأول في النصرانية إلا طائفة «الكويكرز» فلا تهتم به[1]، وبالغ القديس أوغسطين في مسألة التعميد فقال: «إن كل من يموت بغير تعميد ـ حتى الرضع من الأطفال ـ مصيره جهنم حيث يصلى عذاباً لا ينتهي».

ومن أوجه الاختلاف: أن التعميد لا يقوم به إلا كاهن، ولا يتم إلا به، وهناك بعض الطوائف يتساهل فيجيز القيام به لأي مسيحي، وبعضها يبيح إجراءه على يد أي إنسان دون النظر إلى معتقده.

---

(١) العقائد، لعمر عنايت، صفحة ١٠٤ ـ ١٠٥.

وطائفة المعمدانيين تذهب إلى أن التعميد لا يكون إلا بغمس الجسم كله في الماء ، وهناك من يرى الاكتفاء برش الماء على الجبهة، ومن يرى بلّ أكثر أجزاء الجسم.

ويشترطون في الاعتماد الإيمان فبغيره لا يكون، فالمسيح يقول (مرقس ١٦ : ١٦) : «من آمن واعتمد خلص ، ولم يؤمن لم يدن» .

وخير التعميد ما كان في الطفولة ، وإن كان جائزاً في غيرها ، وبعض الفرق يرى التعميد على فراش الموت ، خوفاً من أن يرتكب الإنسان إثمًا يحرمه من الكنيسة، ولعلهم أرادوا تسويغ اعتماد الأمبراطور قسطنطين وهو على فراش الموت فاستحسنوا تأخير التعميد.

وجاء ذكر التعميد في كثير من الأسفار المقدسة، في إنجيل متى ولوقا ويوحنا، وفي سفر الأعمال للوقا، وسفر الرؤيا ليوحنا، ورسالة بولس الأولى والثانية إلى أهل كورنثوس، ورسالة بولس إلى أهل أفسس، وفي غير هذه الأسفار .

وفي إنجيل متى دعوى تعميد الخلق كافة، فقد جاء في إصحاحه الأخير وفي آخر فقرة منه هذا القول الذي ينسبه متى إلى المسيح : «اذهبوا ، وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».

وليس التعميد شعيرة يتفرد بها المسيحيون أو سراً أوجدته

المسيحية، بل هو شعيرة دينية معروفه قبل المسيحية بمئات السنين، وفَهْم التعميد على النحو المفهوم في المسيحية هو نفسه لدى أهل الديانات الوثنية التي سبقتها بقرون كثيرة، حيث اعتبرت التعميد سر الديانة وبابها، وشعيرة مكتوبة، وفريضة مقدسة، وركناً من أركان الديانة بل عمودها، فإذا هرم هرمت.

وكان أتباع الديانات الوثنية القديمة في جميع القارات يعتقدون في التعميد عقيدة المسيحيين، ويجرون طقوس التعميد كما يجريه المسيحيون أنفسهم، وهذا ثابت، وقد أقر به علماؤهم وأقطابهم.

يقول إمبرلي وبنصون وهيجين وليلي ما ملخصه: «عندما يعمدون الأطفال في الهند ومنغوليا وتبت يوقدون الشموع ويحرقون البخور على المذابح، ويقرأ الكهنة صلوات مخصوصة ثم يغطسون الطفل في الماء ثلاث مرات، ثم يدعون بالاسم الذي يختارونه له. وعند البرهميين عادة دينية قديمة تشبه ما يعمله الفرس والمصريون واليونانيون والرومانيون القدماء، وهي العمادة نفسها، وحين إجرائها يصلون ويتوسلون للشمس، وإذا كان المعتمد كبيراً أقسم الأيمان المغلظة على الطاعة التامة للكهنة وحفظ الأسرار والنظافة يرشونه بالماء ثلاث مرات وبخاطبونه بما يوافق المقام، ويعدون الرش بالماء «ولادة جديدة» ثم يلبسونه ثوباً خاصاً، ويضعون على رأسه إكليلاً، ويرسمون على جبينه صليباً، ويضعون على صدره صليباً من شكل صلبان «تو» ويسلمونه السر وهو كلمة «أوم».

«وإذا كان المعمد طفلاً فالكاهن البرهمي يأخذه ويدعونه «كورو» أي الراعـي ويلطخه بالوحل، ثم يغمسه في الماء ثلاث مرات، وعند تغطيسه يقول: يأيها الرب العظيم، إن هذا الطفل خاطىء تلطخ بالخطيئة مثل تلطخه من وحل هذه القناة، فكما أن الماء ينظفه من الوحل طهره وخلصه من الخطيئة.

ويعتقدون أن التعميد بالماء يزيل الخطايا مهما تكن، ويسمون الكهنة الذين يقومون على شواطىء الأنهار لأجل التعميد: أبناء الشمس».

وأتباع زرادشت يعمدون أولادهم سواء أكانوا أطفالاً أم غلماناً.

وقال الدكتور هيد: «كان التعميد عند القدماء إما غمساً في الماء وإما رشاً، ويسمون هذا التعميد «الولادة الثانية» ويعدون الأنفس زكية سعيدة من بعده، ثم يخلعون على المعمد الاسم المختار».

وكان المصريون القدمـاء يعمدون أولادهم المـراهقين ويسلمونهم الأسرار الدينية الأولية ويرسمون على جبين المعمَّد علامة الصليب المقدس

والرومانيون الوثنيون كانـوا يعمدون أولادهم بـالماء، ويعتقدون أن التعميد سبيل لمحو الخطايا.

وذكر المؤرخ «ديوجنوس» أن هؤلاء الرومانيين كانوا

يعمدون الأطفال الذكور في اليوم التاسع من ميلادهم، والإناث في اليوم الثامن من ولادتهن، ويسمون ماء التعميد «الماء المقدس» ومن بعد التعميد يعطي الكاهن أبوي الطفل شهادة مكتوبة بأن ولدهما عمد وخلق ثانية، وبعد ذلك يكون لهم الحجة لضم الطفل إلى الأسرة ويتخذون هذا اليوم عيداً عظيماً.

وقبائل «الأبوليسيو فدورا» في أفريقيا يعمدون أولادهم، ويتلون صلواتهم المخصوصة عند إجراء التعميد، معتقدين أنه يزيل الخطايا.

والوثنيون في السويد والنروج والدانمرك كانوا يعمدون أولادهم بصب الماء عليهم ثم يسمونهم، وكذلك كان شأن الجرمانيين القدماء وسكان زيلندا.

والمكسيكيون القدماء كانوا يعمدون أولادهم بعد الولادة بزمن قليل، ويحتفلون بالتعميد حيث يجتمع أفراد الأسرة والأهل والأصحاب في بيت أبوي الطفل، وحين إجراء التعميد تكون القابلة حاملة الطفل ووجهه نحو مشرق الشمس، ثم يقدمون الصلوات للمخلص «كوتزلكوتل» ولآلهة الماء، ويبلل الكاهن أصابعه بالماء ويلمس بها فم الطفل وصدره ويبتهل للماء قائلاً: «نتضرع للماء أن يهلك ويبعد الخطيئة الملمة بهذا الطفل قبل تكوين العالم» ثم يغسل جسده بالماء، وهو يذكر كل ما كان مضراً ليذهب عنه فيحيا «بالولادة الثانية» التي بعد التعميد حياة طيبة.

ويقول بريسكويت في كتابه «تاريخ فتح المكسيك»: «كان

المكسيكيون يعمدون أولادهم بدهن أفواههم وصدورهم بماء ويتوسلون بآلهتهم حتى تسمح وتأذن لقطرات الماء أن تزيل الخطيئة التي لحقت بالطفل قبل تكوين العالم ليلد «الولادة الثانية» بالتعميد.

وقال لندي: «إذا تصفحنا التاريخ وجدنا طقس التعميد قديم العهد جداً، فقد كان شائعاً في آسيا وأمريكا، وكان سكان البرازيل يعمدون أولادهم الذكور والإناث في الهيكل المسمى «هيكل الصليب» بصب الماء من إبريق، وكانوا يسمون ماء التعميد: «ماء الولادة الثانية».

هذه شواهد من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لمحمد طاهر التنير لمؤرخين وباحثين مسيحيين لا يتهمون بالتعصب، وما ذكروه حقائق ثابتة، أثبتها العلم والكشوف.

فالتعميد المسيحي بكل حقائقه وطقوسه وفي جوهره مأخوذ من الديانات الوثنية بكل أجزائه، وليس منه شيء إلا وهو في هذه الديانات، ولو كان التعميد وحده لما كان في الأمر ما يضير كل الضير، أما وأن في المسيحية غيره بحيث تكون المسيحية كلها صورة صادقة صحيحة للديانات الوثنية فهنا الضير كله، لأن المسيحية صارت ملتقاها بعد أن كانت ديانة توحيد.

والسر الثاني هو «التناول» أو «العشاء الرباني» وتتفق الطوائف المسيحية في ضرورته ولكنها تختلف في حقيقته وتفسيره، وهو رمز وإحياء ذكر عشاء المسيح الأخير مع تلامذته، إذ اقتسم

معهم الخبز والكأس، ففهموا من أقواله مفاهيم غريبة لم يؤثر أنها كانت في عصره الأول، ولكن هذا الرمز تطور حتى انتهى إلى أعمال مخصوصة بمفاهيم خاصة لا تتفق مع منطق العقل والشعور، فصار الخبز رمزاً على جسد المسيح، وما في الكأس رمزاً على دمه، ولم يصبح مبدأ التحويل جزءاً من العقيدة المسيحية إلا في القرن الحادي عشر لا قبله، وإن كان موضع إيمان عند المسيحيين بصفة عامة قبل هذا التاريخ.

والعشاء الرباني هو عشاء الرب يسوع - على زعمهم - مساء الخميس (ليلة الجمعة) وأشير إليه في إنجيل متى ٢٦ : ٢٦ - ٢٨ ومرقس ١٤ : ٢٢ - ٢٤ ولوقا ٢٢ : ١٩ - ٢٠ «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر و أعطى التلاميذ وقال: خذوا ، كلوا، هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: إشربوا منها كلكم ، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين» وفي لوقا زيادة جملة «اصنعوا هذا لذكري» بعد كسر المسيح الخبز وتعليقه عليه بأنه هو جسده.

وبولس فلسف ذلك في رسالته الأولى لأهل كورنثوس ١١ : ٢٣ - ٢٧ إذ يقول: «إن الرب يسوع في ا لليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال: خذوا ، كلوا، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكري، كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري، فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس

تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء، إذا أيٌّ من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد الرب ودمه».

وقبل العشاء الأخير أشار المسيح إلى أن جسده مأكل حق، ودمه مشرب حق إلى غير ذلك مما يتصل بالخبز، وقد فصّل يوحنا في إنجيله بالإصحاح السادس ذلك تفصيلاً عندما أطعم المسيح بخمسة أرغفة خمسة آلاف غير نفسه وتلاميذه، وطلب إليه اليهود أن يعطيهم هذا الخبز دائمًا، وهذه فقرات من هذا الإصحاح:

«أنا هو خبز الحياة. آباؤ كم أكلوا المن في البرية وماتوا، هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت، أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.

«فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟ فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم! من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق، ودمي مشرب حق، من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه. كما أرسلني

«كما أرسلني الأب الحي وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي.

هذا هو الخبز الذي نزل من السماء، ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا، من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد. قال هذا في المجمع وهو يعلم في كفر ناحوم».

ويقول يوحنا في آخر الإصحاح السادس: «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه، فقال يسوع للاثني عشر: ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا، فأجابه سمعان بطرس: يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي».

فمسألة الخبز والخمر ليست بداءتها من العشاء الرباني، فقد صرح المسيح ـ كما يذكر يوحنا ـ أن جسده مأكل حق ودمه مشرب حق، ومن يأكل جسده ويشرب دمه يثبت فيه وهو يثبت في آكله وشاربه.

وأظن رجوع الكثيرين من تلاميذه وانفضاضهم عنه بعد ما سمعوا منه ما سمعوا لا يخلو من الحق والعذر لأنهم فهموا من كلامه المعنى الحسي المادي ولم تسغ عقولهم أكل جسده وشرب دمه، بل أنكروا ذلك منه إنكاراً يبرزه تخاصم اليهود وسؤالهم: كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟!.

ولكن المسيحيين اتخذوا عادة أحيتها الكنائس وهي عادة إعداد خبز وخمر بطقوس خاصة، ثم يقدمان من قبل الكنائس للمصلين لتناولهما معتقدين أن الخبز والخمر قد استحالا إلى جسد المسيح ودمه.

ويقول الأب بولس إلياس اليسوعي في كتابه « يسوع المسيح» صفحة ٢١٠ تحت عنوان جانبي «٣ ـ سر القربان الأقدس»: «وهو يغذو المؤمن بجسد ابن الله المحجوب تحت أعراض الخبز والخمر فيعينه على مقاومة الرذيلة والاعتصام بالفضيلة، والخبز والخمر رمز الغذاء يشيران في هذا السر إلى غذاء النفوس بالنعمة الإلهية».

وصدر مرسوم كنسي بهذا، فقد قرر مجمع ترانت المعروف بالمجمع التريدنتيني وهو المجمع المسكوني التاسع عشر المنعقد في مدينة «ترانت» الإيطالية سنة ١٥٤٥ إلى سنة ١٥٦٣م في اجتماعه فيما يختص بالخبز والخمر ما نصه:

«قد اعتقدت كنيسة الله دائمًا بأن بعد التقديس يوجد جسد ربنا الحقيقي ودمه الحقيقي مع ناسوته ولاهوته تحت أعراض الخبز والخمر، وأن كلا من الشكلين يحتوي ما يحتويه كلاهما، لأن يسوع المسيح هو بكماله تحت شكل الخبز وتحت أصغر أجزاء هذا الشكل، كما أنه هو أيضاً تحت شكل الخمر وجميع أجزائه، وقد اعتقدت الكنيسة أيضاً اعتقاداً جازماً بأنه بتقديس الخبز والخمر يستحيل كامل جوهر الخبز إلى جوهر جسد ربنا؛ وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه تعالى، وهذا التغيير قد دعي بكل صواب، فيلتزم ـ إذن جميع المؤمنين بأن يعدوا هذا السر المقدس العبادة المستوجبة للإله الحقيقي، لأننا نعتقد بأنه يوجد فيه الله نفسه الذي عبدته الملائكة عن أمره تعالى حينما أتى على العالم، وهو نفسه

الذي سجدت له المجوس خارين على أقدامه، وله نفسه سجدت له الرسل في الجليل».

وهذا كلام له خبيء   معناه ليست لنا عقول

كما يقول أبو العلاء المعري، فالعاقل البصير لا يتصور - مجرد تصور - أن يستحيل الخبز وأصغر جزء منه إذا قسم إلى كامل جسد المسيح، بل تذهب الكنيسة الرومانية إلى أبعد من هذا وتدعي أن جوهر الخبز يستحيل إلى جوهر جسد ربهم، وكامل جوهر الخمر إلى جوهر دمه.

وبهذا يثبت أن جوهر الخبز يزول بحلول جوهر المسيح، وجوهر الخمر يزول بحلول جوهر دمه، ولكن الواقع لا يقر هذا، لأن الخبز باق بجوهره والخمر باقية بجوهرها، ولم يكن تغيير فيهما.

وأتباع الكنيسة الرومانية منتشرون في كل بقاع العالم وكنائسهم كذلك، فإذا ساغ عقلاً وعقيدةً أن يكون المسيح باعتباره الله الابن منبتاً في كل مكان فكيف يسوغ عقلاً وعقيدةً وواقعاً أن يكون ناسوته كذلك؟.

إن تلامذة المسيح الكثيرين انفضوا عنه تركوه ولم يعودوا يمشون معه لأنهم فهموا كلامه على سبيل الحقيقة الحسية ولم يفهموه على حقيقته التي تنبثق من كلامه المبني على الاستعارة والمجاز، فجاءت كنيسة روما لتفهم فهم هؤلاء التلامذة الكثيرين المنفضين عن المسيح.

ولم يسغ فهمهم هذا مسيحيون من أمثالهم، فيقول مؤلف كتاب «مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين» في الفصل الثالث عشر ما نصه الحرفي:

«وأما اصطلاح الكتاب المقدس فإنه ذو استعارات وافرة غامضة وخاصة العهد العتيق».

ويقول: «واصطلاح العهد الجديد أيضاً هو استعاري جداً، وخاصة مسامرات مخلصنا، وقد اشتهرت آراء كثيرة فاسدة لكون بعض معلمي النصرانية شرحوها شرحاً حرفياً، ولأجل ذلك نقدم بعض أمثال لنرى بها أن تأويل الاستعارات حرفياً ليس صواباً».

وذكر مثالاً ثم قال: «... أيضاً قال ربنا لليهود: أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، فكل من أكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطيه هو جسدي، سوف أعطيه لحياة العالم (يوحنا ص ٦ عدد ١٥). فاليهود الشهوانيون فهموا هذه العبارة بالمعنى الحرفي وقالوا: كيف يقدر هذا الرجل أن يعطينا جسده لنأكله (آية ٥٢) ولم يلاحظوا أنه عنى بذلك ذبيحته التي وهبها كفارة لخطايا العالم.

وقد قال مخلصنا أيضاً عن الخبز عند تعيينه العشاء السري: هذا هو جسدي، وعن الخمر: هذا هو دمي (متى ص ٢٦ عدد ٢٦) فمنذ الدهر الثاني عشر جعلت الرومانيون الكاثوليكيون لهذا

القول معنى آخر معكوساً ومغايراً لشواهد أخرى في الكتب المقدسة وللدليل الصحيح، وحتموا أن ينتجوا من ذلك تعليمهم عن الاستحالة أي تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الجوهريين عندما يلفظ الكاهن بكلمات التقديس الموهوم، مع أنه قد يظهر لكل الحواس الخمسة أن الخبز والخمر باقيان على جوهرهما ولم يتغيرا، فأما التأويل الصحيح لقول ربنا فهو أن الخبز يمثل جسده، والخمر يمثل دمه ». أ هـ.

ونحن لا نوافق صاحب كتاب « مرشد الطالبين » في كل ما ذكره، ولكن يهمنا رده على مسألة الخبز والخمر.

وهناك راعي كنيسة وأستاذ كبير حصل على إجازة الدكتور في اللاهوت وهو الدكتور «وكلف» (حوالي سنة ١٣٢٠م ـ ١٣٨٤م) ونال الدكتوراه سنة ١٣٧٢م. وعين عميداً لكلية «باليول» ثم محاضراً بجامعة أكسفورد، وفي عشر السنوات الأخيرة من حياته عين راعياً لكنيسة «لوترورث» ولكنه ظل يحاضر في جامعة أكسفورد، وكان من أبرز أساتيذها.

هذا الراعي العالم يهاجم السلطة الكهنوتية في مسألة الخبز والخمر، وينكر تحولها إلى لحم المسيح ودمه حتى قال عن هذا التحول: «إنه خداع وحماقة كافرة»[١].

(١) تاريخ الفلسفة الغربية ٢ : ٢٨٤ لبرتراند رسل، وترجمة الدكتور زكي نجيب محمود.

وتصدى الراهب « برنجار » رئيس شمامسة تور المتوفى سنة١٠٨٨م . والمنتمي إلى المذهب العقلي في الفلسفة لهذه المسألة فأنكر تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وكان إنكاره سنة ١٠٥٤م وأجبر برنجار من قبل السلطة الكهنوتية مرتين على نقض إنكاره حتى انبرى له الراهب « لانفرانك » لمحاربته فألف كتاباً عنوانه « جسد المسيح ودمه » ولعل تولية وليم الفاتح للانفرانك منصب رئيس أساقفة كنتربري سنة ١٠٧٠م كانت مكافأة له أو كانت المكافأة بعض أسباب هذه التولية .

ويتحدث «جرالد كمبرنسس» (١١٤٦؟ - ١٢٢٠م) عن قس لا يذكر اسمه ، لامه قس آخر على تركه الاحتفاء بالقداس ، فسأله لائمه : أيؤمن حقاً باستحالة مادة القربان إلى لحم المسيح ودمه .

ونحن لا نتخذ عنف «وكلف» وشدته ونتهم تهمته وإن كان ما يقوله حقاً ، ولكن اعتقاد هذا التحول سذاجة ووثنية ، والمسيحيون - على هذا - يأكلون جسد إلههم ويشربون دمه ، يأكلون إلههم الذي يتحول بناسوته ولاهوته وكامل جوهره إلى الخبز والخمر ، مثلهم مثل عباد الطواطم ، بل ليس عباد الطواطم جميعاً يأكلون آلهتهم بل بعضهم يأكل الطوطم المعبود ، مثلهم مثل المسيحيين ، ويشير ول ديورانت إلى ذلك بقوله : «وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوروبية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر

في الأديان البدائية وهي أكل الإله». [1]

وفرقة البروتستانت تخالف الكاثوليك وغيرهم من المسيحيين الذي يرون رأيهم وترى في العشاء الرباني أو في الخبز والخمر باعثاً على الذكرى الصالحة، ذكر ما قام به المسيح الذي وهب نفسه راضياً للفداء وقبل العذاب والصلب تخليصاً للإنسانية من الخطيئة الأزلية وتكفيراً عن خطايا البشر، وتنكر أشد الإنكار تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه.

والعشاء الرباني معروف في بعض الديانات الوثنية، وعلى سبيل المثال «كان معروفاً في عبادة «مثرا» على الطريقة التي عرف بها في المسيحية، بل كان الخبز الذي يتناوله عباد «مثرا» في ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب، وقد أسف جوستن مارتر سنة ١٤٠م لهذه المشابهة وعدها مكيدة شيطانية لتضليل المؤمنين» [2].

والركن الثالث في المسيحية أو السر الثالث هو «سر التثبيت» ونقول الثالث لأنه جاء في ترتيبنا كذلك، فقد قدمنا التناول أو العشاء الرباني ليكون رديف المعمودية حتى يتجاوز الركنان اللذان تتفق فيهما الفرق المسيحية التي بلغت في هذا العصر نحو خمسين ومئتي مذهب [3]، وبسبب ذلك قدم الركن الثالث على الثاني، وأخر الثاني عن الثالث.

---

(١) قصة الحضارة جزء ٥ مجلد ٤ صفحة ٢٠ ترجمة محمد بدران.

(٢) ساعات بين الكتب ٢ : ١٥٣ لعباس محمود العقاد.

(٣) حكمة الأديان الحية، صفحة ٥٧ تأليف جوزيف كاير وترجمة المحامي حسين الكيلاني.

وسر التثبيت يقصد منه تثبيت «العماد» وتقام مراسيمه وطقوسه عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة، وتخالفها الكنيسة الغربية إذ تؤجل التثبيت حتى يبلغ الطفل السابعة ليكون في مقدوره حفظ ما يلقى عليه وفهمه من مبادىء المسيحية وتعاليمها، ولم يكن هذا التأجيل إلا وليد تدرج حتى انتهى إلى هذه السن.

ويتم التثبيت على يد أحد الأساقفة حيث يتلو دعاءه مبتهلاً أن يحل الروح القدس في جسم من يراد تثبيت تعميده، ثم تمسح جبهته بالزيت المقدس: زيت الميرون، ويعتقدون أن هذه الطقوس تثبت الإيمان في القلب وترسخ أقدام المؤمن في الإيمان.

والبدائيون كانوا يعرفون الدهن، ومن ذلك ما لدى القبائل الهمجية في أستراليا حيث يدهنون رمزاً من رموزهم الطوطمية يعرف بالشورنجا، يدهنون بالزيت، ويمسحون بهذا الرمز المدهون بالزيت جسوم قادة الحرب قبل خوض المعركة حتى يثبتوا في الميدان ويكسبوا النصر على الأعداء، وفي حفلة التعميد يوضع رمز آخر يسمى «النورتنجا» بين يدي المعمد أثناء تلاوة الأدعية وترتيل الأوراد، ويقوم بتسلمه إياه والتمسح به وتقبيله حتى يلتصق به الدهن المبارك.

وهذا ما يفصح عنه سر التثبيت في المسيحية كما يقول الأب إلياس بولس في كتابه «يسوع المسيح» ص ٢١٠ : «يشير في هذا

السر إلى ما يشيع في نفس المؤمن من قوة ونشاط للثبات في الدين والدفاع عنه».

ورابع الأسرار: سر التوبة والتكفير، ويرونه من مفاخر المسيحية، لأنه يتيح للمذنب الخاطىء أن يعود إلى «نعمة التبرير» بعد أن أفقدته إياها الخطيئة، فيعترف للقسيس بذنبه الذي يقلق ضميره ويعذبه فإذا هو يزول ليحل محله الاطمئنان.

إن المذنب يقف بين يدي القسيس ويقول : «باركني يا أبت لأني أخطأت» ويعدد آثامه، وقد يكون المعترف مرتكباً جرائم القتل والسرقة والزنا والكذب وغير ذلك، ومجرد اعترافه يمحو عنه القصاص، ويعيش آمناً مطمئناً سعيداً، لأن الاعتراف أزال عنه القلق والمخاوف والعقوبة إلا عقاباً خاصاً هو الذي يبقى «وما هذا العقاب إلا صلوات وتضحيات وأعمال مبرات»[1]

ويقولون: «لا سبيل إلى الأخذ بقول المبتدعين الذي يدعون أن الاعتراف أمام الله بالخطايا دون الكاهن كاف لمغفرة هذه الخطايا»[1].

وهذا عجيب يحملني على ترداد بيت المعري:

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

أيصح ألا يكون الاعتراف لله بالخطايا كافياً؟ الاعتراف بين يدي الكاهن هو الذي يكفي؟ الكاهن أعظم من الله؟.

---

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢١١.

ولكنهم لا يعدمون الذي يتخيلونه البرهان القاطع فيقولون في تسويغ رد ما يقوله المبتدعة على رأيهم وإثبات ما يزعمون:

«١ ـ إن الاعتراف أمام الكاهن ـ والكاهن معرض للخطأِ كالتائب ـ فيه تذليل للكبرياء مصدر الخطيئة، وتذليل الكبرياء علامة صادقة من علامات التوبة الحقة.

«٢ ـ إن الاعتراف أمام الكاهن ضروري، لأن الخطيئة ظلمة على ما أشار إليه السيد المسيح، والتوبة نور، والانتقال من الظلمة إلى النور لا يكون إلا على يد دليل يؤمن معه العثور، وهذا الدليل هو الكاهن.

«٣ ـ إن الاعتراف أمام الكاهن ضروري، لأن الخطيئة معناها وثنية تقوم على عبادة آلهة هي صنع أيدي الإنسان، والكاهن يساعد التائب على تحطيم آلهته الكاذبة.

«٤ ـ والاعتراف أمام الكاهن ضروري لأن ما من إنسان يصلح للنظر في دعواه الشخصية، والكاهن هو القاضي النزيه الذي يصلح للنظر في دعوى التائب.

«٥ ـ والاعتراف أمام الكاهن ضروري أخيراً لأنه يتيح للتائب أن يتيقن صدق توبته، إذ ان الإنسان كما أنه لا يمكنه أن يتيقن محبته بعدُ إلا إذا أحب الغريب، كذلك لا يمكنه أن يتيقن صدق توبته إلا إذا اعترف بخطاياه أمام كاهن المسيح»[1].

---

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢١١ ـ ٢١٢ تأليف إلياس بولس وقد نقل بعضه عن «ليبنتز» الفيلسوف.

هذه حجج يردون بها على من يسمونهم مبتدعة، وهي في حقيقتها لا ترتفع إلى مستوى الاحتجاج، لأن المقصود من الحجة أن ينقل من تخاصمه إلى محجتك، وليس فيها ذكروا شيء من هذا.

فإذا كان القصد من الاعتراف للكاهن تذليل الكبرياء فما شيء منه في ذلك، لأن كاهن المسيح رفيع المنصب والمقام، وأي تذليل للكبرياء من مذنب وضيع في كل شيء يقف خاضعاً خاشعاً ذليلاً بين يدي رفيع عظيم؟.

إن الفارق كبير بينهما لأن أحدهما في الذروة الرفيعة والآخر في الحضيض الأسفل، ولو أريد تذليل كبرياء المعترف لوجب أن يعترف بين يدي من هو أحقر منه حتى يكون الإذلال حقاً؟.

وأما الدليل الثاني فمتهافت أيضاً، لأنهم يزعمون ضرورة الاعتراف للكاهن لأن الخطيئة ظلمة، والتوبة نور، فلا بد من دليل يؤمن معه العثار.

وما داموا معترفين بأن الكاهن معرض للخطأ ففي ذلك انتفاء أمن العثار، فكيف يستدل خاطىء بخاطىء؟.

إن في زعمهم هذا نفياً لقدرة الله أن يهدي إلى النور، وإكراهاً للتائب على أن يجعل بينه وبين الله وسيطاً لا بد من وجوده وإلا ردت التوبة.

ولكن ما حاجتهم إلى الله وهم قد منحوا أنفسهم ما اختص الله به نفسه، منحوا أنفسهم حق غفران الذنوب، لأن المسيح

الذي هو الله الابن يملك هذا الحق لأنه إله «إن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا»[1] وهو ـ لأنه الله الابن ـ أعطى تلاميذه هذا السلطان: «هكذا هو مكتوب، وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداء من أورشليم»[2].

فلكاهن المسيح ما للمسيح نفسه، فهو مستطيع مثل الله الابن أن يغفر الخطايا، بل لخليفة المسيح أكثر مما لله الآب ولله الابن، فالكردينال فرنسيس ذا بادلا يقول[3]: «إن البابا مأذون أن يعمل ما يريد حتى ما لا يحل أيضاً، وهو أكبر من الله»[3] سبحان الله عما يصفون، وجملة «سبحان الله عمّا يصفون» هنا من تعليق من استشهد به.

إن المسيح غفر الخطايا، لأن له هذا السلطان، وقد منحه لرسله، وتدعي الكنيسة أن هذا السلطان قد تحدر بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين، ومن بطرس شيخ الحواريين وكبيرهم الذي أعطي سلطان الحل والربط فما يربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وما يحله يكون محلولاً فيها تحدر إلى البابوات، ثم وهبها المطارنة للقسيسين في القرن الثامن.

---

(١) إنجيل متى ٩: ٦.

(٢) إنجيل لوقا ٢٤: ٤٦ ـ ٤٧.

(٣) صفحة ٨٨ من الرسالة الثانية من مجموعة كتاب «الثلاث عشرة رسالة».

وكان الاعتراف في المسيحية الأولى علانية، ولكنه استبدل به الاعتراف السري الفردي حفظاً لكرامة بعض الكبار، ثم أصبح عاماً، ولكن وقعت حوادث هامة كان فيها الاعتراف علانية وعاماً إذا كانت الجريمة مثل مذبحة سالونيك.

ويبدأ الاعتراف من بين يدي البابا، ولعله خاص بالملوك الذين يخاصمهم من أجل الدنيا فيرغمهم بالحرمان وبإثارة شعوبهم عليهم أن يأتوه داخرين معترفين بالخطأ يطلبون إليه المغفرة كما فعل هنري الرابع أمبراطور ألمانيا سنة ١٠٧٧ م عندما تخاصم مع البابا جريجوري الذي أصدر قراراً بابويا بخلع الامبراطور من تبعية الكنيسة حتى اضطر الامبراطور أن يحضر هو وزوجه وولده وبعض حاشيته إلى قلعة كانوسا التي كان ينزل بها البابا.

ووقف الامبراطور أمام باب القلعة خاضعاً ذليلاً حافي القدمين في الشتاء، وبقي ثلاثة أيام ثم أذن له بالمثول بين يديه مرتدياً ثياب التوبة فغفر له وقبله عضواً في الجماعة المسيحية من جديد بعد طرده منها.

وأما بقية ما يظنونه حججاً ليس إلا كلاماً إنشائياً يقصد منه تسويغ الاعتراف بين يدي الكاهن وإقامته على رغم أنف راغبي التوبة وسيطاً بينهم وبين الله.

ومما يهدم حججهم ويشوه المحاسن التي اخترعوها لكرسي

الاعتراف أنه أدخل في الخصومات السياسية تحقيقاً لأهواء يقصد منها النفع الدنيوي.

فالقساوسة كانوا يرفضون أن يغفروا ذنوب الذين يناصرون الأباطرة على البابوات، مع أن هذا الكرسي جعل لاستقبال المذنبين يقفون بين يدي الكاهن، وليس لأحد سلب هذا الحق من المعترف ولو كان البابا نفسه إلا على قول من يبيحون له أن يعمل ما يشاء دون أن يسأل لأنه لا يسأل عما يفعل.

واستغلوا كرسي الاعتراف لانتزاع الإيقاع بخصومهم من أفواه من يأتون للاعتراف والاستغفار، فقد أمر رئيس أساقفة ميلانو (القديس شارل برميو ١٥٣٨ ـ ١٥٨٤م) قساوسته أن يطلبوا إلى من يقصدونهم للتوبة والاعتراف على أيديهم أن يدلوا بأسماء من يعرفونهم ممن تسميهم الكنيسة ملحدين أو تحوم حولهم شكوك المروق والإلحاد.

ومع أنهم يزعمون أن التائب «لا يمكنه أن يتيقن من صدق توبته إلا إذا اعترف بخطاياه أمام كاهن المسيح» فقد ثبت أن التائبين يعودون إلى اقتراف الخطإ بعد التوبة وحصولهم على المغفرة، بل إن كثيراً ممن يتقدمون للتوبة يكذبون.

وسر الاعتراف معروف لدى قبائل المكسيك وبيرو منذ القدم حتى اليوم، حيث يقوم الكهنة بغفر الذنوب، ومعروف بين قبائل إفريقيا وبولونيزيا[١].

---

(١) كتاب «العقائد» لعمر عنايت.

يقول برتراندرسل: «لما ضعف التحمس الديني كانت الكفارات القاسية المفروضة على من يتقدمون للتوبة مما يغريهم بالكذب»[1].

ولما رأوا أن الكفارات القاسية تصرف الناس عن الشخوص إلى الاعتراف والتوبة وتقلل من «دخل» الكنيسة خففوا منها، وأجيز للقساوسة أن يفرضوا عقوبات خفيفة محتملة قائمة على التصدق بشيء من المال إرضاء للكنيسة.

وتأكيداً لسيادة البابا والقساوسة ورجال الدين واحتكاراً للدين نفسه ورغبة في إرباء الدخل اخترعوا صكوك الغفران، وليس المقصود منها الترخيص بارتكاب الآثام كما يدعي بعض فلاسفة المسيحيين، إلا أن وجودها بيد الأفراد يعطيهم حق استمرار المغفرة إلى أن يموتوا مهما عملوا من الخطايا.

وصكوك الغفران تعفي المذنب من نزول العقاب عليه إما إعفاء جزئياً أو كلياً، والإعفاء من العقاب على الآثام في العالم الآخر من حق الكنيسة وهي التي تمنحه للمذنبين، ولولا الغفران لممنوح للمعترفين بذنوبهم لدفعت بهم إلى الجحيم، وما أقل من يعملون في حياتهم ما ينجيهم من عذابه، أما الأكثر فيمضون إلى «المطهر» حيث يقضون فيه زمناً يتم فيه التكفير.

وتدعي الكنيسة أن من حقها مغفرة هذا العقاب والتجاوز عنه.

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢.

وهذه الصكوك تغفر لمن تكتب لهم بعض ذنوبهم، ولم تكن تغفر الذنوب جميعاً إلا على يد البابا إربان الثاني الذي تولى منصب البابوية سنة ١٠٨٨ حتى سنة ١٠٩٩م حيث توفي، ومنح أول صك بالغفران الكلي سنة ١٠٩٥م في ابتداء الحملة الصليبية على ديار المسلمين في الشام وفلسطين، حيث عرض إربان هذا الصك على كل من يشترك في الحرب الصليبية.

ومن هذا كان منشأ منح صكوك الغفران لمن يقوم بعمل ترضى عنه الكنيسة، وإذا كان الدافع لابتداع صك الغفران الرغبة في الخير الذي يحسبونه فإن ذلك فتح أمام جشع الرهبان ورجال الدين سبل ابتزاز الأموال وإيثار أنفسهم بما جمعوه من الأموال باسم الكنيسة التي كانت قد بعثت رهباناً يحملون معهم صكوك الغفران يعرضونها على الناس نظير هبات يقدمونها.

ويعترف أئمة المسيحيين بأن عرض الصكوك جلل بالعار كثيراً من المسيحيين، ونهضت الكنيسة لتقاوم ما حدث من الباطل بسبب الصكوك وبيع الآثار المقدسة فنددت بالطامعين الجشعين، وغضب مجمع لاتران الرابع المسكوني المنعقد سنة ١٢١٥م وأمر المطارنة بتنبيه المؤمنين إلى الصكوك المزورة وحرم على رؤساء الأديرة حق إصدار صكوك الغفران، كما قيد المطارنة في إصدارها.

ولكن المتاجرة بهذه الصكوك كانت مغنماً عظيماً فلم يستطع قرار مجمع لاتران أن يقضي عليها، فنهض مجلس مينز الديني سنة

١٢٦١م وندد بكثير من موزعي الصكوك ووصفهم بأنهم كذبة أشرار، وفند أباطيلهم وحمل عليهم حملة شديدة.

وفي سنة ١٣١١م ندد مجمع فيانا المسكوني ومجلس رافنا الديني المنعقد سنة ١٣١٧ بأعمال المتاجرين وشهر بهم تشهيراً، ولكن محاولات هذه المجامع ضاعت هباء، فقد بقي الداء واستفحل.

والعجيب حقاً أن النجاة من النار والفوز بالجنة رهينان بما يدفع، وليس منظوراً إلى عمل الإنسان الصالح، بل إنهم يزعمون أن أنفس الأبرار التي تتلظى في عذاب المطهر بعد الموت إلى أجل محدود ينجيها منه غفران البابا أو يخلصها منه قداسات القساوسة.

أليس عجيباً أن الغفران يشترى بدريهمات يدفعها المذنب الآثم الشرير فيظفر بصك يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

إن صك الغفران يحوي هذا الكلام: «ربنا يسوع المسيح يرحمك ويعفو عنك باستحقاق آلامه المقدسة، وبعدُ، فقد وهب لي بقدرة سلطان رسله بطرس وبولس والبابا الجليل في هذه الأمور أن أغفر لك أولاً عيوبك الإكليروسية مهما كانت، ثم خطاياك ونقائصك ولو خرجت عن نطاق الإحصاء، وفوق هذا أغفر لك الخطايا التي احتفظ البابا بحلها، وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومانية أغفر لك كل أنواع العذاب التي سوف تستحقها في المطهر وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة وإلى اتحادها وإلى ما كنت حاصلاً عليه عند عمادك من العفة والطهارة حتى أنك لو متّ تغلق

في وجهك أبواب كل عذاب، وتفتح لك أبواب الفردوس، وإن لم تمت الآن فكل ذلك باق لك بكل آثاره التامة إلى آخر ساعة موتك باسم الآب والابن والروح القدس. آمين». (وكتب بيد الأخ يوحنا تنزل الوكيل الثاني).

ومع هذا ينسى المسيحيون أنفسهم ولا يذكرون كلمة المسيح التي معناها: يرون القشة في أعين الناس ولا يرون الخشبة التي في عيونهم، فتراهم ينتقدون غيرهم فيما هو أهون مما هم واقعون فيه.

وعلى سبيل المثال والإطراف ننقل كلمة لهم في موضوع شهادات الغفران جاءت في كتاب «يسوع المسيح» للأب الياس بولس اليسوعي صفحة ١٣٨ ـ ١٣٩ الذي يقول:

«والشعب الذي يعتنق ديناً يقره على منكراته ويتملق أهواءه فلا يلزمه بطهارة أو عدالة أو محبة ينتهي بأن يتخذ له كهنة يخادعونه ويلهونه بالتعاويذ والأكاذيب، وهذا ما أشار إليه أشعيا النبي عندما خاطب كهنة الأوثان بلسان الشعب فقال: «يقولون للرائين لا تروا، وللأنبياء لا تتنبأوا لنا بما هو الحق بل كلمونا كلاماً ملقاً، وأنبئونا بالغوايات» وهكذا كان الكهنة المصريون في القديم يبيعون المؤمنين شهادات موقعة بإمضاءاتهم يثبتون فيها أن حاملها هو الإلّه «أوزريس» تضليلاً في زعمهم لقضاة الدينونة الذين عندما يرون الشهادة يسمحون لحاملها بدخول جنات النعيم. وهل بعد هذه البلاهة من بلاهة؟!».

ونحن نسأل: ما رأي الأب الياس بولس في الدين الذي يعتنقه؟ إن دين المصريين لا يقر أتباعه على المنكرات التي تعد منكرات لديه ولا يتملق أهواءه بل يقابله بالشدة والتنديد والنذر، ويلزمه بالطهارة حسب قواعده، ولكن الكهنة ابتدعوا شهادات تمكنهم من اجتياز الصراط إلى جنات النعيم، مثلما ابتكر كهنة المسيحيين صكوك الغفران التي تبيح لحاملها دخول الفردوس الذي تتفتح أبوابه أمام وجهه ليدخلها بسلام ما دام اشترى شهادة موقعة من البابا أو أحد خلفائه أو أتباعه.

أليس ما عمله كهنة المصريين القدماء هو ما يعمله كهنة المسيحيين؟!.

إن الحبر الأعظم «أنوسنت الثالث» بابا كنيسة روما العظمى التي وليها سنة ١١٩٨م «انتقد بعنف لاذع وشدة صارمة صكوك الغفران التي لا يتورع بعض رجال الدين المسيحي من منحها، ويسرفون في ذلك كل الإسراف بعيداً عن الحكمة ، والتي أضحت مفاتيح الكنيسة بفضلها محتقرة، وفقدت التوبة ما كان لها من أثر جليل وقوة صحيحة».

ومع هذا ما تزال المتاجرة بصكوك الغفران قائمة، ولكن لدى الكاثوليك، أما البروتستانت فينكرون أشد الإنكار على الكنيسة الكاثوليكية ادعاءها غفران الذنوب، ويدحضون دعاواهم، ولا يأبهون بما جاء في رسالة يعقوب ٥: ١٤ ـ ١٥ «أمريض أحد بينكم فليدع شيوخ الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه

بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطية تغفر له».

إن البروتستانت لا يقرون الكاثوليك في دعواهم أن شيوخ الكنيسة أو رجالها عامة يملكون حق غفران الذنوب عند الاحتضار أو في غيره لأن هذا الحق لله وحده، فهو وحده الذي يقبل توبة التائبين ويغفر للمستغفرين إن شاء، ومن حق الله وحده أن يغفر أو لا يغفر، لأنه وحده مالك الملك وصاحب الحق.

وهذا من الأسباب التي دعت إلى قيام المذهب البروتستانتي.

وخامس الأسرار في الديانة المسيحية «المسح بالزيت» وهو أن يحضر القس من يودع حياته ويستمع إلى اعترافاته فيغفر له خطيئاته ويكفر عنه سيئاته ويتوفاه مع الأبرار، ويدهن أعضاءه بزيت البركة والتقديس فتتطهر الأعضاء والحواس ويصبح أهلاً للانتقال إلى الدار الآخرة وهو نظيف متطهر.

وما دام المسيحي بدأ حياته بالتعميد التثبيت وهو الدهن بالزيت وختمها بالمسح فقد نجا من العذاب وفاز بالجنة.

وكما كان سر التثبيت بعد التعميد باب ترسيخ الإيمان فإن سر المسح بالزيت الباب الآخر الذي يفضي به إلى الجنة مغفورة له الخطايا، لأنه يقبل على ربه بعد أن يكون الكاهن قد نظفه وطهره ونفاه وجعله بذلك أهلاً للظفر برحمة ربه، لأن الكاهن قد صلى عليه ومسحه بالزيت المقدس باسم الرب وغفر له خطاياه.

وقد مر ما ذكره رسولهم يعقوب الحواري في رسالته إذ أمر المحتضر باستدعاء الكاهن ليتخذ له مراسيم وطقوساً تنيله الجنة .

وهذا ـ أيضاً ـ مأخوذ من الديانات الوثنية ، ففي ديانات مصر الوثنية مثل هذه الطقوس المتخذة في حالة الاحتضار.

والسر السادس هو سر الكهنوت الذي يتجلى في رجل الكنيسة المخول له حق منح الغفران والبركات والأسرار وتوزيعها على المؤمنين من المسيحيين، وإرشادهم إلى الطريق السوي يصلهم إلى السماء.

ويدَّعون أن الكاهن أو رجل الكنيسة وكيل المسيح فيعمل أعماله، وإذا وصل الأمر إلى البابا كان له من الحق أكثر مما للمسيح نفسه ، ومخول له من السلطة ما ليس للرب نفسه ، ورجل الكنيسة مسؤول عن المؤمنين ، يتسلم الكاهن المؤمن طفلاً فيقوم بتعميده ليلد الولادة الثانية ثم يثبته على العماد ويرسِّخ فيه الإيمان ويحميه من الزلل، ويغفر له خطاياه ،ويقبل منه التوبة والكفارة ، ويقدم له جسد المسيح نفسه بجوهره الكامل في الخبز، ودمه بجوهره الكامل في الخمر، فإذا أكل جسد المسيح الذي هو في الخبز تغذت نفسه به وامتلأت أقطارها بنور الإيمان ، وإذا شرب دم المسيح الذي هو في الخمر غسلت له خطاياه فصار المؤمن نقياً خالصاً ، ولكن هناك نقصاً في تكوينه الخلقي لا يتم إلا بانضمام نصفه الآخر إليه وهو الزوج التي تكمله ليكون الزوجان جسداً واحداً .

والكاهن لا يترك المؤمن هملاً، بل يتبعه حتى لا يضل أو يتنكب الصراط السوي، ويلازمه حتى الموت إذ يمسحه بالزيت المقدس ويتلو أوراده وصلواته بجانبه ليودع الحياة الدنيا ويستقبل الأخرى وهو مغفور الخطيئة لأن الكاهن شيعه إلى مقره الأخير وحماه من الشيطان منذ الولادة حتى الموت.

ويجب أن تكون ثقة المؤمن في الكاهن عمياء، ويخضع لطقوسه دون أن يشك في أيِّ تصرف منه، لأنه خليفة المسيح وممثل الكنيسة التي تتعهد المؤمن طفلاً وتتنقل معه في أدوار حياته وأسراره المقدسة حتى يلقى الله على يدي الكاهن طاهراً مطهراً مبرأ من الخطايا والذنوب.

وكل هذا الذي يعمله الكاهن إنما هو عمل الكنيسة لأنها هي التي تضع في خدمة المؤمنين بها أبناءها البررة من القديسين، وواجب المؤمنين أن يعتبروا الكنيسة أمهم الرؤوم، فيخضعوا لها بأنفسهم وأرواحهم وأجسادهم وبما تحت أيديهم، لأنها هي التي تهب لهم الإيمان والمجد والبركات والغفران والرضا والجنة.

وما ثم خلاص بغير الإيمان بالبابا وإن كان البابا هو نفسه غير صالح لأن للبابا ولكل أتباعه من الأساقفة والقسيسين والكهنة خزانة ملأى باستحقاق القديسين في غفران الذنوب والآثام، وكل هذا الجيش اللجب وكيل المسيح، وله ما له من السلطة.

ويجب الإيمان بسر الكهنوت دون بحث أو تفكير، ولا تفسير لهذا السر بحيث يجب أن يفهمه العقل ويحدد مفاهيمه، لأن

الكاهن أكبر من العقل ولهذا «يبقى الكاهن كالمسيح الذي يمثله لغزاً في عين الناس، يخوض معركة الحياة وحيداً، سلاحه إيمان بالله وطيد، وثقة تحاول أن تكون عمياء بذلك الذي قال: «لستم أنتم الذين اخترتموني بل أنا اخترتكم»[1].

وتفرض الكنيسة على أتباعها أن يؤمنوا برجال الدين مهما كانت خطيئاتهم، فهي لا تؤثر في قيادتهم للمؤمنين، ولا تطعن في استحقاقهم لهذا المنصب الديني الرفيع، إن على المؤمنين أن يؤمنوا وليس غير الإيمان بالبابا وممثليه وأتباعه ولو كان البابا فاسقاً عاصياً، وكان أتباعه عصاة مجرمين، لأن البابا ومن يتبعونه هم وكلاء المسيح ولديهم خزائن الرحمة، وبيدهم مقاليد السلطة.

ولا عبرة بأعمال الفسق والفجور التي تصدر منهم، فالأنبياء والرسل ـ كما في أسفار العهد القديم التي يؤمنون بها ـ فسقة فجرة والعياذ بالله من هذا الاتهام، وليرحمنا الله ويعصمنا من الإيمان بما يؤمنون به في حق الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً، وما كنت لأذكر ما اتهموهم به وأردده لولا اقتضاء البحث، ونستغفر الله.

وحرمت الكنيسة على البابا والقسس والرهبان والراهبات الزواج نظراً إلى أن المسيح نفسه لم يتزوج ، فقد عاش عمره عزباً بدون زواج، وشجع على «البتولية» ففي إنجيل متى ١٩ : ١٢ : «يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢١٤.

خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يقبل فليقبل » وفي بعض الترجمات: «فمن استطاع أن يحتمل فليحتمل».

وذهب المفسرون المسيحيون أن المقصود بمن خصوا أنفسهم هم الذين امتنعوا عن الزواج طواعية واختياراً انقطاعاً لعبادة الله وخدمته، وقد جاء في كلام بولس ما يؤيد ما ذهب إليه هؤلاء المفسرون، ففي رسالة بولس الأولى لأهل كورنثوس بالإصحاح السابع هذه الفقرات:

«أقول لغير المتزوجين وللأرامل: إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا».

و «حسن للإنسان أن يكون هكذا: أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة».

و «غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب، وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضي امرأته، إن بين الزوجة والعذراء فرقاً، غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً، وأما المتزوجة فتهتم فيما للعالم كيف ترضي رجلها».

و «أما من أقام راسخاً في قلبه وليس له اضطرار بل له سلطان على إرادته وقد عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراء فحسناً يفعل».

فهنا ترغيب في حياة «البتولية» ودفع إليها، وإيثار لها على

الزواج لأنه يشغل المرء عن الله «وأجمل هدية نفح بها الإنجيل العالم إنما هي الحياة الرهبانية»[1] و «لذلك باركت الكنيسة الحياة الرهبانية وشجعتها وأحاطت من يعتنقها بـالمحبة والعـطف والاحترام، لأن الحياة الرهبانية صورة مصغرة للبشرية المثالية المفتداة بدم المسيح وموته على الصليب، وهي صورة لملكوت الله الذي يرمي إلى جمع الناس تحت طاعة الله»[1].

ولكن هذه «البتولية» أدت إلى شرور بشعة، فارتقى الفسق والفجور إلى «محراب» الرهبانية الطاهرة الشريفة المقدسة وانتشرا بين رجالها ونسائها، وانحدر بعض البابوات إلى حضيض الفسق والفجور كما تذكر المصادر والروايات المسيحية نفسها وهي روايات صحيحة ومصادر موثوق بها.

وقصة «ماروزيا» في التاريخ الكنسي والبابوي مشهورة، وهي ابنة عضو مجلس الشيوخ الروماني «ثيوفيلاكت» وكانت هي نفسها عضواً في المجلس، وكانا أقوى الرومان نفوذاً في بداية القرن العاشر، وأمها «ثاودورة» التي استوزرها البابا سرجيوس الثاني (٩٠٤ - ٩١١م) وكان على صلة جنسية محرمة بماروزيا أثمرت أن تلد له ابناً هو «يوحنا الحادي عشر» الذي تولى البابوية وعمره أربع وعشرون سنة، ثم تولاها حفيدها يوحنا الثاني عشر وعمره ثماني عشرة سنة[2] أو ست عشرة سنة[3] وكان «خليعاً ماجناً فحّاشاً

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢٦٧ و ٢٦٩.

(٢) الساق على الساق، ج ١ ص ١٠٤.

(٣) تاريخ الفلسفة الغربية ٢: ١٥١.

مستهتراً منهمكاً في اللذات»[1] و «هو الذي أتم تدهور البابوية بحياته الداعرة ومغازلاته التي جعل قصر لاتران مسرحاً لها»[2] وربما كانت «ماروزيا هي أصل الرواية التي شاعت عن بابا من الإناث كانت تدعى : البابا جان»[3].

ويقول الفيلسوف البريطاني المعروف برتراند رسل في وصف ماروزيا : «وكان لماروزيا عدة أزواج تزوجوها واحداً في إثر واحد، كما كان لها عدد لا يحصى من العشاق، وقد رفعت عاشقاً من هؤلاء إلى كرسي البابوية وأطلقت عليه اسم «سرجيوس الثاني»[3].

وقتل البابا يوحنا الثاني عشر وهو معانق لامرأة، وكان القاتل له على ما قيل زوجها[1].

ويقول برتراند رسل[4]: «أصبح معظم رجال الدين قساة داعرين. . . وظلت هذه الظاهرة تعاود الحدوث مرة بعد مرة حتى بين طوائف الأديرة نفسها». .

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق» **٢ : ٣٨** من الرسالة الثانية ص **١٤٤ ـ ١٤٥** من كتاب «الثلاث عشرة رسالة ما ننقله تأييداً لما ذكره برتراند رسل وغيره :

---

(١) الساق على الساق، ج ١ ص ١٠٤.

(٢) تاريخ كيمبردج للقرون الوسطى ٣ : ٤٥٥ نقلاً عن «تاريخ الفلسفة الغربية» ٢ : ١٥١.

(٣) تاريخ الفلسفة الغربية ٢ : ١٥١.

(٤) نفسه ٢ : ١٥٢.

«القديس برنـردوس يقول (وعظ عدد ٦٦ في نشيد الإنشاد): نزعوا من الكنيسة الزواج المكرم والمضجع الذي هو بلا دنس، فملأوها بالزنا في المضاجع مع الـذكور والأمهـات والأخوات، وبكل أنواع الأدناس، والفاروس بلاجيوس أسقف سلفا في بلاد البورتكال (البرتغال) سنة ١٣٠٠ يقول : يا ليت أن الإكليروسيين لم يكونوا نذروا العفة ولا سيما إكليروس إسبانيا، لأن أبناء الرعية هناك أكثر عدداً بيسير من أبناء الكهنوت. ويوحنا أسقف سالتزبرج في الجيل الخامس عشر كتب أنه وجد قسوساً قلائل غير معتادين على نجاسة متكاثرة مع النساء، وأن أديرة الراهبات متدنسة مثل البيوت المخصوصة للزنا».

ولا سبيل إلى إنكار هذه الحوادث لكثرتها وشيوعها حتى اليوم، فالقسس والرهبان كانوا وما يزالون يتصلون بالراهبات اتصالاً جنسياً محرماً، ويسوغون ذلك بأنه «مساكنة روحية».

ولكن هذا لا يحملنا على إنكار وجود قسس ورهبان وراهبات بلغوا قمة «المثالية» في الصبر ومغالبة الهوى والعفة والنسك والتبتل والزهد والورع، ونعرف منهم الكثـير من فضلائهم، وهبوا أنفسهم للخير يحرصون عليه ولأعمال البر.

والرهبنة قديمة ولدت مع الأديان البدائية ومعروفة في الديانات الوثنية ولم تكن المسيحية أول من أوجدتها، والمسيحيون يعترفون بذلك فيقولون : [1] «قد أعجب الوثنيون ـ على انغماسهم

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢٦٧ .

في حمأة الفجور ـ بحياة التبتل والطهارة فأحاطوا من مارسها بكثير من الاحترام، فكانوا لا يقيمون على حراسة النار المقدسة في هياكل الآلهة إلا العذارى ينتقونهن من بين الآلاف ويعطونهن حق الصدارة في المجالس والحفلات».

وحياة الرهبنة التي تعرفها الكاثوليكية وتعتبرها «منحة الإنجيل» وتقدسها ينكرها البروتستانت، فلا يحرمون على رجال الدين الزواج لأنها رأت ما جره المنع على الرهبان الكاثوليك من شرور ومنكرات ما كانت لتقع لولا هذا التحريم، فأحلت لهم أن يتزوجوا، ففي الزواج والولد عصمة وكمال.

وتمسك الكاثوليكية بتحريم الزواج على رجال الدين مصدره ما ذكرنا من أقوال المسيح وغيره من رسله، بالبعد عن الزواج منزلة الأنبياء والقديسين، فيوحنا المعمدان وبطرس كبير الحواريين والحواريون والرسول بولس اعتصموا بـالتبتل ولم يتزوجوا لأن في الارتفاع عن حظيرة الزواج تخلصاً من ربقة الجسد ووثاق الشهوة وتطلعاً إلى مكانة القديسين.

وحسب البتولية شرفاً أن جسد المسيح صادر من بتول عذراء لم يمسسها رجل، وبذلك كانت أطهر النساء طراً وأكرمهن وأسماهن.

والبتولية التي ترفع المسيحية مقامها إلى أسمى المراتب ليست خصيصة من خصائص المسيحية ، فقد سبقتها الديانات الوثنية إلى ذلك وفرضتها على رجال الدين وخادمات المعبد، وقد

أشرنا إلى بعض ذلك فيما مضى من الفصول، ونزيد هنا أن قبيلة «إنكا» Inca التي يعد أفرادها سكان جمهورية «بيرو»[1] الأصليين كانت تعتقد أن العذراء التي تنذر نفسها للشمس التي هي من أكبر آلهتهم تصبح زوجاً له، ولذلك لا يصح لها أن تعرف غيره، وإذا اتصلت بغيره فقد خانت الزوجية الإلهية، وتلك أكبر جريمة تقترفها.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن القديس سيبريان من آباء الكنيسة الغربية وقتل سنة ٢٥٨م كان يرى ما يراه أفراد قبيلة بيرو في كاهنة المعبد، إنه يرى أن النساء اللاتي نذرن أنفسهن للمسيح قد أصبحن زوجاته وصار هو مولاهن وزوجهن، وقام الزواج الروحي حقيقة، ومن كان المسيح زوجها فقد تميزت على غيرها، وعندما وهبت نفسها جسماً وروحاً فقد حرم عليها أن تشرك غيره في نفسها، وكما أن الزوج يثور إذا وجد على فراشه غيره مع امرأته وقد يقتلها من الغيرة فكيف يكون الأمر إذا وجد المسيح على فراشه غيره؟ إن سيبريان يقول: «ماذا يكون الأمر إذا فاجأ المسيح من وهبته نفسها نائمة مع أحد الرجال؟ أي عذاب أشد من عذابه لمن انتهكت حرمته وخانته؟ إن من تفعل ذلك لا تقترف الخطيئة العادية القائمة على خيانة إنسان بل تقترف أبشع إثم على فراش المسيح الذي انتهكت حرمته».

والاتصال الجنسي نجاسة يجب حتماً سمو رجل الدين عليها

---

(١) من جمهوريات أمريكا الجنوبية.

والتنزه عنها، وكذلك الأمر بالنسبة للراهبات، فلا مفر لمن يكون كذلك من الرجال والنساء أن يكون منزهاً من رباط الزوجية، وإذا حرم عليه الزواج فالاتصال الجنسي المحرم أشد حرمة ولا حد لبشاعته وإثمه!.

والسر الأخير وهو السابع «سر الزواج» ويدعي المسيحيون أنهم رفعوه إلى أرفع الذرى لأنها جعلته عقدة الحياة الدائمة وشركتها التي لا تنفصم، لأنَّ سفر التكوين ٢ : ٢٣ ـ ٢٤ يقول: «قال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امريء أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً».

وكيف يكون انفصام جسد واحد؟ وهذا هو المسيح نفسه يؤيد ما جاء في سفر التكوين ويقول ـ كما يروي إنجيل متى ١٩ : ٣ ـ ٩ ـ :

«وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى، وقال: من هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الإثنان جسداً واحداً، إذاً ليسا بعدُ اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق، قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هكذا، وأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا بسبب

الزنا وتزوج بأخرى يزني، والذي يتزوج بمطلقة يزني».

ويرى المسيحيون أن المسيح نفسه هو الذي رفع الزواج إلى مقام السر المقدس ويقولون:[1] «وقد رفع السيد المسيح هذا العقد إلى مقام سر يوم بارك العرس في قانا الجليل».

وما حدث في هذا العرس هو إتيان المسيح بمعجزته الأولى، فقد جاء في إنجيل يوحنا بالإصحاح الثاني:

«وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك، ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليست لهم خمر! قال لها يسوع: مالي ولك يامرأة، لم تأت ساعتي بعدُ. قالت أمه للخدام: مهما قال لكم فافعلوه، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة. قال لهم يسوع: املأوا الأجران ماء فملأوها إلى فوق. ثم قال لهم: استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكإِ، فقدموا، فلما ذاق رئيس المتكإِ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هي، ولكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا. دعا رئيس المتكأ العريس وقال له: كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون: أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن. هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه».

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢٥٨.

واعتبر المسيحيون هذه المعجزة رفع عقد الزواج إلى مقام سر مقدس لأنه حول الماء خمراً جيدة، ويعتبر الزوجان خادمي هذا السر الذي يقدس ارتباطهما، ويرمز إلى اتحاد المسيح بالكنيسة، ودليل ذلك قول بولس الرسولي في رسالته إلى أهل أفسس ٥ : ٢٢ - ٣٣:

« أيها النساء، اخضعن لرجالكن كما للرب، لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن في كل شيء.

«أيها الرجال، أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب، كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم.

«من يحب امرأته يحب نفسه، فإن لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه كما الرب أيضاً للكنيسة، لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.

«من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.

وأما أنتم الأفراد فليحب كل واحد امرأته هكذا كنفسه، وأما المرأة فلتهب رجلها».

وكل ما مضى من الشواهد والأقوال يثبت أن وحدة الرجل والمرأة حقيقة، ولا يمكن أن تنفصم هذه الوحدة مهما كان ولو «لعلة زنى» وإن كان ما جاء في قول المسيح «إلا لعلة زنى» لأن للمفسرين المسيحيين آراء كثيرة في هذا الاستثناء وفي معنى كلمة «زنى» حتى أن منهم من قال: إن هذه الجملة (إلا لعلة زنى) مدسوسة ومقحمة، وزعموا أن هذا القول ضعيف.

وحرموا الطلاق تحريماً «فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان» لأن الزوجين يصبحان جسداً واحداً ولا يمكن فصم الجسد الواحد «ولهذا يقول اللاهوتيون: إن سر الزواج يطبع فيمن يقتبله شبه رسم يحمله مدى الأبد، ولا يفصل بين الزوجين إلا الموت فقط»[1].

وإيماناً منهم بسر الزواج المقدس حرموا الزواج بأخرى؟ ولكنهم أباحوا الهجر إذا بلغ الخلاف أبعد أشواطه واستعصى التوفيق بين الزوجين وقد يكون الهجر حتى الموت دون أن يباح لأحدهما الزواج، لأن التعدد حرام.

ومن الأوهام الشائعة ظن الناس وبخاصة المسيحيون أن التعدد حرام، ولم تعرفه المسيحية في أسفارها المقدسة في عهديها

---

(١) يسوع المسيح، صفحة ٢٦٤.

الاثنين القديم والجديد، مع أن أسفار العهد القديم تذكر التعدد حتى أنه كان محسوباً من الأعمال المشروعة لدى أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، بل ينص على أن أبا الأنبياء تزوج سارة ودخل بجاريتها هاجر، وداود وسليمان تزوجا غير واحدة، وجمعا في منزلهما بين زوجات معدودات.

وذكر «وسترمارك» العالم الحجة في شؤون الزواج في مختلف الشرائع والنظم الإنسانية أن الكنيسة والدولة كانتا تقران تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر.

ولم يكن الاكتفاء بزوجة واحدة تكريماً للمرأة بل كان المراد منه الاكتفاء بواحدة لهوان المرأة والنظر إليها على أنها شر، والاكتفاء بأيسر ما يكون منه ضرورة، ومن استطاع أن يخصي نفسه فذلك خير وأبقى.

ولم يكن تحريم التعدد تقديساً للمرأة بل كان القصد منه التقليل من الشر، لأن المرأة كانت شراً وشيطاناً.

وعلى أي حال ترى المسيحية الزواج سراً من أسرارها السبعة المقدسة، ولكن المسيحيين لم يحتفظوا بقدسية هذا السر العظيم بل أبيح لمن لا يملك ختمه فكثرت الموبقات والمنكرات حتى قال أحد كبار المصلحين الاجتماعيين الفرنسيين المسيحيين وهو العالم الفرنسي بول بيورو في كتاب[1] له: « إن عامة الشباب

(١) هو كتاب Towards Moral Bankruptcy المطبوع في لندن ١٩٢٥م وانظر منه صفحة ٥٦ و ٧٦.

يريـــدون بعقد الزواج استخدام بغي في بيتهم» و «إن زنا المحصنين والمحصنات لا يعد عيباً ولا ملامة عليهم بسببه في فرنسا».

وكل المصلحين الاجتماعيين من المسيحيين في العالم بل من أقطابهم يعترفون بانهيار بناء الأسرة وانحلال عقد الزواج وكثرة علاقات الإثم والخطيئة في بيئة المتزوجين رجالاً ونساء.

ومن أعظم أسباب شيوع الفساد في حرم الزوجية منع التعدد والطلاق، ولو أبيحا لما كثر الفساد، ولكن الطلاق أبيح في بعض الكنائس والمذاهب وإن كان ذلك محرماً عند بعضها، وتشتد الكنيسة الكاثوليكية في تحريم الطلاق تشديداً عنيفاً.

ويرى بعض مصلحيهم أن الطلاق والتعدد ضرورة، ونادى بعضهم بضرورة التعدد ، بل نادى به بعض النساء، ففي دول الغرب ملايين الأطفال الذين لا آباء لهم، ولو كان التعدد مباحاً لما كثر عدد هؤلاء البؤساء المحرومين.

بل تحدث إلي كثير من مفكري المسيحيين معجبين بتشريع الطلاق في الإسلام وإن كان من المكروهات فيه إلا لضرورة.

ولا يجوز الطلاق في المسيحية إلا في حالتين : الأولى، الخيانة الزوجية الثابتة، والثانية، اختلاف الدين.

في الحالة الأولى ينص كلام المسيح نفسه: «من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني» (متى ١٩ : ٩) ولكن بعض

الشراح[1] قالوا: إن هذا الطلاق لا يتم بفسخ العقد بل بالافتراق مع بقاء الرباط.

وفي الحالة الثانية ينص قول بولس الرسول في رسالته الأولى لأهل كورنثوس ٧: ١٣ - ١٥: «والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه، لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل، وإلا فأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدسون، ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق».

والإسلام أباح لمعتنقه زواج الكتابية وحرم زواج المسلمة من غير دينها، وكان ذلك مثار سؤال وأسئلة واتهامات للإسلام بالأثرة والتعصب، لأنه أباح لأهله الزواج بالكتابيات من اليهود والنصارى ولم يبح المسلمات لهؤلاء المخالفين.

ويبدو لأول وهلة أن الاتهام صحيح، وما هو كذلك، لأنه صادر ممن لم يفهموا الحكمة في الإباحة والتحريم، ونحن نذكرها ليفهم العاقلون.

أباح الإسلام للمسلم المرأة اليهودية أو النصرانية يتخذها زوجة له لأن المسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم رسول الله، ولا يكون المسلم مسلمًا مؤمناً إلا إذا اعتقد برسالة موسى وعيسى.

---

(١) انظر كتاب «حياة يسوع المسيح» للأب لويس برسوم الفرنسسكاني ٢ : ٢٣-٢٦.

فإذا تزوج المسلم يهودية أو نصرانية لا يؤذيها في دينها لأنه مؤمن بأن عيسى رسول الله حقاً وكذلك موسى ، وما دام الزوج المسلم مؤمناً بعيسى حق الإيمان فهو لن يتطاول على مقامه الكريم ، ولن يستطيع لأن دينه يفرض عليه حب المسيح فرضاً ، فالوئام يسود الزوجية القائمة .

أما المسيحي فيجحد رسالة محمد عليه صلوات الله وسلامه ، فإذا تزوج مسلمة آذاها في شعورها الديني بهذا الجحود ، ولا شيء لدى المؤمن أعز من رسوله ، فكيف يكون الوفاق بين زوجين يعادي كل منهما الآخر؟ وما ثم عداء أشد من العداوة الدينية .

لهذا كان تحريم زواج المسلمة بغير المسلم من أهل الكتاب ، وأبيح للمسلم أن يتزوج كتابية ، ومتى آمن اليهودي أو المسيحي حق الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ـ كما يؤمن المسلم بموسى وعيسى عليهما صلوات الله وسلامه ـ فقد أحلت له المسلمة زوجاً .

ولا يظن أحد أن الإيمان قول باللسان وحسب ، بل يقوم الإيمان الحق على أسس ثلاثة : اعتقاد بالجنان ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان ، ومتى آمن غير المسلم هذا الإيمان الحق أحلت له المسلمة .

وما دمنا أشرنا إلى أسرار المسيحية السبعة التي تعد فرائض مقدسة وشعائر مباركة فإن هناك عبادات مفروضة ، ولكنها ليست

فريضة حتم وإلزام، بل فريضة استحباب من أداها أثيب، ومن لم يؤدها يعفى عنه، وإن كان الأداء واجباً مفروضاً.

ومنها: الصلاة، وهي - في رأينا - فرض على كل مسيحي ومسيحية، أو هكذا كانت، وقد وضع المسيح للصلاة شروطاً إذا صح ما ذكره متى في إنجيله ٦: ١ - ٨ إذ ذكر أن المسيح قال: «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس، الحق أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي في الخفاء يجازيك علانية، وحينما تصلون لا تكرزوا الكلام باطلاً كالأمم، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم، فلا تتشبهوا بهم، لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه».

واليهودية شرعت الصلاة، ولكن الرياء الذي عرف به اليهود كان قد استشرى، فحمل المسيح حملته عليه، لأن الرياء يفسد الأعمال إذ يجعل الإيمان ضعيفاً، والرغبة في الخير كاذبة، ويقدم التمويه والتضليل على الحقيقة والهدى، ويطلي ظاهر الإنسان ببريق يخدع، ويملأ باطنه بشر مفزع.

لهذا حمل المسيح حملته على الرياء لأنه أراد الإيمان الحق النابع من القلب المؤمن حق الإيمان، وأفهم اليهود أن الله في غير حاجة إلى الإعلان لأنه يرى ما في الخفاء، ولا إلى كثرة الكلام فرب كلمة صادقة من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، ورب كلمة

صادقة تغني عن كثرة الكلام وكثرة الأعمال التي تبدو في الظاهر صالحة وهي في حقيقتها رياء وتضليل.

وضرب المسيح مثلاً لكلمة الصدق التي تدل على الإيمان عندما وازن بين الفريسي والعشار إذ دخلا المعبد للصلاة فذكر الفريسي وصلى وقال: شكراً لك يا رب، إنني لست كهؤلاء الخاطئين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار! أصوم مرتين في الأسبوع، وأزكي عن كل ما أقتني!.

أما العشار الخاطىء فقال في تسبيحه وصلاته بعد أن استحى من ربه فلم يرفع إلى السماء بصره مهابةً وإجلالاً وخوفاً؛ وضرب صدره من الندم: يا رب؛ ارحمني أنا الخاطىء!.

وحكم المسيح بين فعليهما وقال: إن العشار عاد إلى بيته «مبرراً» دون ذلك الفريسي[1].

والسبب واضح، لقد كان العشار صادقاً والفريسي كاذباً مناناً، يمن على الله صلاته وصيامه وزكاته، وما كان الله ليجعل لمنانه طريقاً إليه.

وأوجب المسيح الصلاة دائمًا ، وحض على تجنب الملل فقال: «ينبغي أن يُصلىَّ كل حين ولا يُمَل »[2] وأبان لأمته كيف يصلون وقال: «صلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات،

---

(١) إنجيل لوقا ١٨ : ١٠ ـ ١٤.

(٢) إنجيل لوقا ١٨ : ١.

ليتقدس اسمك! ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين»[1].

وهذه أقدم الصلوات المسيحية كما يفهم من الأناجيل، ولكن هناك صلوات، إلا أن هذه الصلاة هي التي علمها المسيح نفسه أتباعه، وهي صلاة إنسانية حلوة، لأن فيها إيماناً بالله وحده لا شريك له، وتسبيح بحمده، واعترافاً بأنه هو صاحب الأمر في الخلق جميعاً، في السماء والأرض، وبأنه هو الرزاق، وهو غفار الذنوب، وله الملك والمجد والقوة.

ولو اقتصرت المسيحية على هذه الصلاة لكفى، ولكنها أدخلت الوثنية والشرك إلى العقيدة الصحيحة والشريعة السمحة، وملأتها بالخرافات والأساطير التي اقتبستها من الديانات الوثنية، فصار لديها ثالوث كما لدى الوثنيين.

إن هذه الصلاة تثبت أن الله واحد لا شريك له، وليس كمثله شيء، لا المسيح ولا غيره، وإليه وحده المفزع، ومنه وحده طلبُ الرزق والعون، وما ثم اسم مقدس غير اسمه، واسمه وحده الذي يجب تقديسه، وإن من تحقير اسم الله وتجريده من القداسة إشراك غيره معه في قدسية الاسم.

---

(١) إنجيل متى ٦: ٩ ـ ١٣ ولوقا ١١: ٢ ـ ٤.

وقد ذكر المسيح قبل أن يبين لهم « الصلاة » عندما أمرهم بقوله: «صلوا هكذا» حقيقة الصلاة التي توجه إلى الله عز وجل، إلى الله وحده دون شريك، والله يعلم ما في النفس قبل السؤال والدعاء.

ولكن المسيحية أشركت مع الله في الصلاة العذراء ، ففي أواخر القرن الثاني عشر أوجدت المسيحية صلاة فاتحتها «السلام لك يا مريم».

والصلاة في المسيحية أدعية وأوراد، وقد كثرت حتى صارت تملأ ساعات الليل والنهار، ودخلت صلوات جديدة كالتي أدخلها الفرنسيسكان أتباع القديس فرنسيس الأسيزي (١١٨٢ - ١٢٢٦م) وهي تلاوة صلوات بين يدي كل صورة من الصور الأربع عشرة التي تمثل مرحلة من مراحل آلام المسيح.

وكانت الصلوات الرسمية في الكنائس خاصة لله وحده، وهو المعروف عندهم بالله الآب، وبعد زمن طويل أشركوا بالله الآب روح القدس في الصلاة، وبقيت الصلوات الرسمية موجهة لله، وبعضها اليسير للروح القدس، إلا أن عامة المسيحيين وجهوا صلواتهم للمسيح وأمه ثم للقديسين.

وجعلوا القديسين وسطاء لهم فوجهوا إليهم الصلوات؛ وجعلوهم وسيلتهم إلى الله والمسيح، لأن الله بعيد عنهم، والمسيح - وإن كان إنساناً - إله، فهو بحكم ألوهيته بعيد أيضاً، فليكن القديسون «واسطتهم» إليهما لأنهم من أهل الجنة قطعاً، فهم

الوسطاء والشفعاء، بل انتهى الأمر بكثير منهم إلى عبادة صور القديسين، وثبت في نفوس العامة كل مظاهر الشرك.

واعترف أسقف تورين المسمى «كلوديوس» بأن كثيراً من الناس أعادوا عبادة الأصنام وذلك بعبادة صورة القديسين، وتبرم من هذه الوثنية وأعلن عليها سخطه ونقمته.

وشجعت الكنائس كثيراً من ضروب الوثنية وأحيت أعيادها بعد خلع أسماء قديسين عليها بدل الأرباب الوثنية، و«تلقيب البابا بالحبر الأعظم Pontifex Maximus تراث من رومة الوثنية»[1].

و «عادت الاحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أو التي لا بد منها لكي تبيح للناس الخروج على قواعد الأخلاق وأضحت أعياداً مسيحية، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية، وظل الناس كما كانوا من قبل يوقدون النيران في منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا،[*] وسمي عيد قيام المسيح (عيد القيامة) بالاسم الوثني القديم Eostre وهو اسم إلاهة الربيع التيوتونية القديمة، وحل تقويم القديسين المسيحي محل التقويم الروماني، وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على

(١) قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة محمد بدران، الجزء الخامس من المجلد الرابع، صفحة ٢٧ - ٢٨.

(*) يطلق على هذا العيد بالإنجليزية اسم Easter وكان عيد هذه الإلآهة يحتفل به في يوم الاعتدال الربيعي.

الناس وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين، فأضحت إلاهة النصر Dea Victovria إلاهة إقليم الألب الأدنى هي القديسة فكتوار St. Victoire كما ولد كاستر وبلكس Castor and Polux من جديد وأصبحا هما القديسين كزماس Casmas ودميانDamian » .(١)

وتوجيه الصلوات إلى العذراء إنما هو نقل عبادة الإلاهة الأم الوثنية إلى عبادة مريم العذراء أم المسيح، ولعل هذا بدأ في حوالي الثلث الأول من القرن الخامس الميلادي عندما تحدث كبير أساقفة الإسكندرية سيريل Cyril في موعظة له بأفسس Ephesus سنة **٤٣١**م فوصف فيها مريم العذراء بكثير من الصفات التي كان وثنيو هذه المدينة يخلعونها على إلاهتهم الكبرى أرتميس ـ ديانا — Artemis Diana (٢).

و«وافق مجلس أفسس في تلك السنة على أن تلقب مريم «أم الإله» على الرغم من احتجاج نسطوريوس، وما لبثت أرق صفات عشتروت، وسيبيل، وأرتميس، وديانا، وإيزيس أن جمعت كلها في عبادة مريم، ثم قررت الكنيسة في القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء، وحددته باليوم الثالث عشر من شهر أغسطس، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتميس»(٢).

ودخلت مريم عليها السلام في عداد الآلهة المعبودين وهم

---

(١) قصه الحضارة، المصدر السابق ص٢٧ ـ ٢٨.
(٢) نفسه ٥ م ٤ ص ٢٨ و ٢٩.

الله وعيسى ومريم، وأقيمت الصلوات لها، وبخاصة من العامة الذين رأوا فيها أعلى مثل للحنان والرحمة، فتقربوا إليها وآثروها بقلوبهم وعواطفهم على الله وعيسى، فالله شديد وقوي وعزيز، وعيسى - وإن كان رحيمًا وديعاً - إله، وأنى لهم أن يدنوا منه، فلم يبق غير مريم، فهي أم الإله، وليس في استطاعته إغضابها أو الامتناع عن قبول شفاعتها، ونسجوا آلاف القصص كانت هي بطلتها.

ومن هذه القصص، أن لصاً خطيراً ما كان يقدم على سرقة له إلا بعد الاعتصام بمريم والصلاة لها، وذات مرة قبض عليه وحكم عليه بالموت و سيق إلى المشنقة، وعندما كادوا يضعونه في حبلها أنقذته العذراء إذ كانت يداها ترفعانه دون أن يراها أحد، وظهر للناس أنها تحميه فأطلق سراحه.

وأن راهبة انحدرت إلى حياة الإثم فتركت مكانها في الدير وغرقت في الخطيئة، ومع ذلك لم تغفل يوماً عن الصلاة لمريم، فقابلت صلاتها بأنها احتلت مكانها في الدير، فلما تابت الخاطئة وعادت إلى الدير فإذا العذراء نفسها ظهرت بهيئتها وأدت واجب الراهبة مدة غيابها فلم يشعر به أحد.

و«استحالت الكثلكة بفضل عبادة مريم من دين رهبة - لعلها كانــت ضرورية في العصور الوسطى - إلى دين رحمة وحب»[1].

---

(١) قصة الحضارة (المرجع السابق).

ولم تكن الصلاة تؤدى في العصور الأولى إلا والمصلون وقوف، وكانوا في بعض الأحيان يؤدونها راكعين عندما تدلهم الأمور أو تتحزب المصائب، ثم صاروا يؤدونها جلوساً على الكراسي، ويجوز أداؤ ها وقوفاً وقعوداً وركوعاً.

وكانت الكنيسة الشرقية تفصل بين النساء والرجال عند اجتماع إقامة القداس، وتبعتها الكنيسة الغربية في بعض الأحيان، ولكن تطورت الحال فجاز الاختلاط في الصلاة وفي الأعياد الدينية[1].

والصوم فريضة في المسيحية، والمسيح نفسه قد صام في أول رسالته بعد اعتماده من يحيى بن زكريا، صام أربعين يوماً وأربعين ليلة ثم جاع، وجاءه الشيطان ليجربه، وقال له ـ كما يروي متى ٤ : ٣ ـ ٤ : «إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً» وهنا قال المسيح كلمته العظيمة: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

ولا شك أن كثيراً من الناس يصومون رياء وهم مفطرون، وقد لاحظ المسيح أن من اليهود من يراءون فقال (متى ٦ : ١٦ ـ ١٨): «ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم: إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك، واغسل وجهك، لكيلا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء،

(١) قصة الحضارة (المرجع السابق). ص٢٨ و٢٩.

فأبوك الذي في الخفاء يجازيك علانية.

وأراد المسيح من الصيام تطهير الضمير وإخلاص العبادة لله وحده، والخروج من الطقوس التي يراد منها الرياء، وأباح لتلامذته أن يفطروا، وناقض بذلك طقوس اليهود فجاء «إليه تلاميذ يوحنا قائلين: لماذا نصوم نحن الفريسيين كثيراً وأما تلاميذك فلا يصومون، فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؟ ولكن ستأتي أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون»[1].

ومن صيامهم أن الكاثوليك يصومون اليوم السابق لعيد الفصح كما يصومون عن السمك يوم الجمعة، وأيام الصوم عند القبط والأرمن أكثر من ذلك، ولدى المسيحيين الصوم الكبير وهو صوم الأربعين.

ويدعي المسيحيون أن المسيح أشار أخيراً إلى وجوب الصوم والصلاة وعهد إلى الكنيسة العناية بتطبيق ذلك وفقاً لأحوال المكان والزمان، ولذلك اختلف صوم الكنيسة اللاتينية عن صوم الكنيسة الشرقية، وصوم الأصحاء والبالغين أشد من صوم لشيوخ والصغار، وراعت الكنيسة في تطبيق «قانون» الصوم السن والمهنة والمناخ والبلاد وغير ذلك[2].

---

(١) إنجيل متى ٩: ١٤ ـ ١٥.

(٢) يسوع المسيح، ص ١٩٥.

ويقولون[1]: «لو كان المسيح حدد بذاته طريقة الصوم لكان أصبح هذا الواجب حجرة عثرة في سبيل المؤمنين، وكثير منهم لا يقوون على النهوض به، وإنما أريد به في الأساس أداة تكفير وخلاص».

وفي هذا القول انتقاص للمسيح في رسالته وفي ألوهيته، لأنه جعل من دونه أعرف منه بما يجب في الصوم على الصائمين باختلاف أسنانهم وأعذارهم، وكيف يجهل المسيح ـ وهو إله عندهم ـ ما يفطن له من يتولون أمر الكنيسة؟ ألا تقتضي ألوهيته أن يعرف كل شيء؟.

ولماذا لا يصبح ما يحدده من هو أقل من المسيح حجر عثرة؟.

(١) يسوع المسيح، صفحة ١٩٥.

تلامذة المسيح

تلامذة المسيح الذين يكونون معه في ملكوت السماء من عامة الناس - كما تصورهم الأناجيل - فهم صيـادو سمك، وليس بينهم من يشار إليه، وأشد من هذا أنهم لم يكونوا من قوة الإيمان بحيث يرضون التضحية بأنفسهم وحمل العذاب أو مشاركة متبوعهم في محنته، بل تركوه في أزمته الآزمة وحده وناموا، ومع أنه رجاهم أن يسهروا معه ليلة القبض عليه أصموا عنه آذانهم وناموا، وسهر وحده، فلما ألقي القبض عليه فروا هاربين واختفوا عنه.

بل نجد تلميذه الحبيب «يوحنا» يهرب عارياً تاركاً إزاره بين أيدي من أمسكوا به، ونجد تلميذه الأول ينكر رسوله، بل يقسم أنه لا يعرفه، ويحلف بالله كاذباً، إنه «بطرس» الذي كان اسمه «سمعان» صياد السمك فسماه المسيح «بطرس» بمعنى الصخرة.

إن صخرة المسيحية بطرس ينكر المسيح وينكر صلته به ويقسم ويلعن، واتفقت الأناجيل الأربعة في ذكر حادثة الإنكار،

ولم يصب رسول من الرسل بمثل ما أصيب به المسيح على يد تلميذ من الاثني عشر، وعلى مرأى من تلامذته المقربين المبشرين بالجنة دون أن يعملوا شيئاً، بل اختفوا وتركوه لليهود يؤذونه يحتقرونه ويهزأون به ويضربونه ويبصقون على وجهه.

ففي إنجيل متى ٢٦ : ٦٩ ـ ٧٥ : «أما بطرس فكان جالساً خارجاً في الدار، فجاءت إليه جارية قائلة: وأنت كنت مع يسوع الجليلي، فأنكر قدام الجميع قائلاً: لست أدري ما تقولين! ثم إذ خرج إلى الدهليز رأته أخرى قالت للذين هناك: كان مع يسوع الناصري، فأنكر أيضاً بقسم: إني لست أعرف الرجل، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس: حقاً، أنت أيضاً منهم، فإن لغتك تظهرك، فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف: إني لا أعرف الرجل! وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع الذي قال له: إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات، فخرج إلى خارج وبكى بكاءً مراً».

وفي إنجيل مرقس ١٤ : ٦٦ ـ ٧٢ : «وبينما كان بطرس في الدار أسفل جاءت إحدى جواري رئيس الكهنة، فلما رأت بطرس يستدفىء نظرت إليه وقالت: وأنت كنت مع يسوع الناصري ، فأنكر قائلاً: لست أدري ولا أفهم ما تقولين. وخرج خارجاً إلى الدهليز، فصاح الديك، فرأته الجارية أيضاً وابتدأت تقول للحاضرين: إن هذا منهم ! فأنكر أيضاً، وبعد قليل أيضاً قال الحاضرون لبطرس: حقاً ، أنت منهم لأنك جليلي أيضاً ولغتك

تشبه لغتهم، فابتدأ يلعن ويحلف: إني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه، وصاح الديك ثانية فتذكر بطرس القول الذي قاله له يسوع: إنك قبل أن يصيح الديك مرتين تنكرني ثلاث مرات، فلما تفكر به بكى.

وفي إنجيل لوقا[1]:

«فأخذوه (أي المسيح) وساقوه وأدخلوه إلى بيت رئيس الكهنة، وأما بطرس فتبعه من بعيد، ولما أضرموا ناراً في وسط الدار وجلسوا معاً جلس بطرس بينهم، فرأته جارية جالساً عند النار فتفرست فيه وقالت: وهذا كان معه، فأنكره قائلاً: لست أعرفه يـامرأة! وبعد قليل رآه آخر قائلاً: وأنت منهم! فقال بطرس: يا إنسان، لست أنا، ولما مضى نحو ساعة واحدة أكد آخر قائلاً: بالحق، إن هذا أيضاً كان معه لأنه جليلي أيضاً، فقال بطرس: يا إنسان، لست أعرف ما تقول! وفي الحال بينما هو يتكلم صاح الديك فالتفت الرب ونظر إلى بطرس، فتذكر بطرس كلام الرب كيف قال له: إنك قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات، فخرج بطرس إلى خارج وبكى بكاءً مراً».

وفي إنجيل يوحنا[2]:

«وسمعان بطرس كان واقفاً يصطلي، فقالوا له: ألست أنت أيضاً من تلاميذه؟ فأنكر ذاك وقال: لست أنا، قال واحد من

(١) الإصحاح الثاني والعشرون، الفقرات من ٤٥ إلى ٦٢.
(٢) الإصحاح الثامن عشر، الفقرات من ٢٥ إلى ٢٧.

عبيد رئيس الكهنة ـ وهو نسيب الذي قطع بطرس أذنه ـ : أما رأيتك أنا معه في البستان، فأنكر بطرس أيضاً، وللوقت صاح الديك».

فهذا بطرس أخلص تلامذة المسيح وأقربهم إليه، وأحد الحواريين الاثني عشر، وكان أول من آمن به، وجعله كبيراً للرسل ورئيساً للكنيسة في مهدها، ومع كل ذلك أنكر المسيح ولعن نفسه أو لعن المسيح ليثبت براءته من معرفته والصلة به، وشك فيه، ورأى ما حل بسيده فلم يتحرك، بل هرب ساعة القبض عليه مع الحواريين الآخرين.

لعل أحداً يعترض قائلاً: إن بطرس استل سيفاً وضرب به أذن أحد من جاءوا للقبض على المسيح فصلمها على رواية إنجيل لوقا فمنعه المسيح من اتخاذ السيف، ولكن المسيح لم يمنعه من تأييده، بل تنبأ من قبل بإنكاره، ولم تكن نبوءته إخباراً وحسب، بل كان لوماً وتقريعاً، لأنه ضعيف جبان خوار العزيمة حتى أنه ينكره ثلاث مرات دراكاً.

وقد دار حديث بين المسيح وبطرس، وهذا نصه من إنجيل لوقا ٢٢ : ٣١ ـ ٣٤ : «وقال الرب: سمعان، سمعان، هوذا الشيطان طلبكم ليغربلكم كالحنطة، ولكن طلبت من أجلك لكيلا يفنى إيمانك، وأنت متى رجعت ثبت إخوتك. فقال له : يا رب، إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت،

فقال : أقول لك يا بطرس، لا يصيح الديك قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني».

فالمسيح عرف أن بطرس جبان يتنفج فرد عليه بعنف ادعائه المضي معه إلى السجن والموت.

وفي كلمة المسيح لبطرس: «طلبت من أجلك لكيلا يفنى إيمانك» ينفي عن نفسه الألوهية ويعترف بأنه يطلب لبطرس ألا يفنى إيمانه، ولو كان المسيح إلهاً حقاً أو مدعياً الألوهية لزعم له أنه يهب له الإيمان، ولكنه يطلب ممن يملك وحده ذلك، وهو الله عز وجل.

ويهوذا الإسخريوطي أحد الاثني عشر الحواريين المقربين خان المسيح ودفع به إلى العذاب فالصلب فالموت تلقاء دريهمات، مع أن المسيح تنبأ لهؤلاء الاثني عشر بأن لهم اثني عشر كرسياً في السماء بجانب عرشه.

وهرب حواريو المسيح عندما ألقي القبض عليه وتركوه لمصيره المحزن الأليم، بل فر أحدهم عارياً عندما أمسكوا به من ثوبه فتركه لهم وولى فراراً، وها هوذا مرقس يقول في إنجيله ١٤ : ٥٠ ـ ٥٢ : «فتركه الجميع وهربوا، وتبعه شاب لابساً إزاراً على عريه فأمسكه الشبان، فترك الإزار وهرب منهم عرياناً» وقيل: إن هذا الهارب هو يوحنا.

ولم يستطع المسيحيون كتمان استنكارهم هرب تلامذة

المسيح وهو في أشد ساعات حياته عسراً وشـدةً وبلاءً وعدوه جبناً من هؤلاء الحواريين، حتى أن صاحب كتاب «تحفة الجيل» وهو مسيحي متعصب لم يستطع إخفاء سخطه وقال: «وأجاب غيرهم أن هربهم كان غير جائز لزعمهم أن هذا الهرب صدر في عدم ثقة الرسل بالمسيح».

وفيما استشهدنا به من الأناجيل الأربعة في حادثة بطرس تناقض غريب واضح نمر به لأن الأناجيل الرسمية يضرب بعضها بعضاً.

وإنَّه لمؤسف حقاً أن يكون صحابة المسيح جبناء خوارين يتركون سيدهم وإلههم ويهربون حتى أن أحدهم يفر عارياً، ويبقى وحده بين أيدي اليهود يعبثون به، ونرى مقابل هذا صحابة محمد وما كانوا يصنعون معه، حتى أن خبيب بن عدي الأنصاري الذي قتله المشركون قالوا له قبل قتله: أتود أن يكون محمد مكانك؟ فقال رضي الله عنه: ما أود أن تشاك قدم محمد وهو في مكانه، وعلي بن أبي طالب بات على فراش محمد بداره بمكة حرسها الله، وكفار قريش يحيطون بها يريدون قتله، بات علي بفراش محمد ليمكنه من الهرب ولم يبال أن يقتله الكفار به، وكان في ميادين القتال يقف أبو بكر وكبار الصحابة درعاً لمحمد يقونه بأنفسهم حتى النساء.

ولم يخش المسيح عداوة اليهود إياه، بل استمر في دعوته، وعندما قتل يحيـى بن زكريا(يوحنا المعمدان) زادت أعباء عيسى،

فهو يرى الحاكم الروماني «هيرودس» يقتل يحيى محققاً بذلك أمنية «سالومي» ابنة زوجه «هيروديا» انتقاماً منه لأنه لم يوافق على زواجه بمن لا تبيح التوراة له الزواج بها، فجيء له برأس يحيى في «طبق» وهو غارق في ليلة حمراء.

زادت أعباء المسيح وواجه الموقف كله وحده لأن تلامذته تخلوا عنه، ولكن رسالته لم تكن عامة فلم يتجه إلا إلى اليهود يهديهم إلى الرشد ويدعوهم إلى الله ، فآمنت به طائفة وكفرت به أخرى.

ومن المفارقات الغريبة أن اليهود الذين كانوا ينتظرون المسيح قرونا ليخلصهم كانوا أول الكافرين به، واختلقوا عليه التهم وأولوا كلامه تأويلاً يجعله في نظر الحاكم الروماني ثائراً على الدولة والقيصر يستحق عقوبة القتل.

ولبث المسيح يدعو إلى الله وحده فتبعه من تبع، واستكبر من استكبر، وكان يدعو في كل مكان، ويتردد على الهيكل يدعو وينشر دعوته، وارتفع من بين أتباعه اثنا عشر تابعاً ـ كما يذكر إنجيل متى ومرقس ولوقا ـ وصاروا حوارييه وتلامذته المقربين وهم:

١ ـ سمعان الذي سماه المسيح بطرس.
٢ ـ أندراوس شقيق سمعان بطرس.
٣ ـ يعقوب بن زبدي.

٤ ـ يوحنا بن زبدي

٥ ـ فيلبس

٦ ـ برتولماوس

٧ ـ توما

٨ ـ متى العشار

٩ ـ لباوس الملقب تداوس

١٠ ـ يعقوب بن حلفي

١١ ـ سمعان القانوي

١٢ ـ يهوذا الإسخريوطي

وتنبأ لهم المسيح وبشرهم بشائر عظيمة منها: «يكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين»[١] وعندما قال له بطرس: ها نحن أولاء قد تركنا كل شيء وتبعناك، قال له ولزملائه: «الحق أقول لكم: ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأةً أو أولاداً أو حقوقاً لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وإخوةً وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً مع اضطهادات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية». وقال لهم المسيح: «اشفوا مرضى، طهروا برصاً أقيموا موتى، أخرجوا شياطين».

وهذه بشائر وتنبؤات تنسبها الأناجيل إلى المسيح صلى الله عليه وسلم، ولكن شيئاً من هذه البشائر والنبوءات لم يقع، مع أن

---

(١) مرقس ٣: ١٥.

التأكيد واضح «الآن وفي هذا الزمان».

لم يأخذ أحد منهم ضعف ما أعطى لا مائة ضعف، ونحن نجزم أن هذا ليس قول المسيح، لأنه لو كان لوقع، أما وأن ذلك كله لم يقع فهو البرهان على أنه لم يصدر منه، وطبيعي أن يكذب مؤلفو الأناجيل ولا ينسب إلى المسيح كذب، لأن الرسل صادقون ولا يمكن أن يكذبوا في نبوءاتهم، والرسالة والكذب لا يجتمعان .

وأنا أدهش من إيمان المسيحيين بأناجيل كهذه تجعل المسيح كاذباً، ومن نسبة تلامذته إليه من النبوءات ما لم يتحقق، ومن البشائر ما وقع نقيضها.

بولس

اختفاء الإنجيل الحقيقي الذي ذكر في بعض الأناجيل الرسمية يدعو إلى الدهشة ويجعلنا نسأل: لماذا اختفى أعظم تراث الديانة المسيحية وكتابها الأوحد؟ وكيف تم الاختفاء؟ ولماذا لم يستطع التلامذة الاحتفاظ به؟ أليس فيهم من كان يجيد القراءة والكتابة؟ لماذا لم ينسخوه وفيهم من يحسنونها؟ ألم تكن منه نسخ معدودات؟ إذا لم تكن فأين النسخة الأصلية؟.

مقطع القول أن إنجيل عيسى اختفى، والأناجيل الأربعة الرسمية تظللها الشكوك أو تجلل بعضها، وما سلم منه من الشك لم تسلم إصحاحات وفقرات منه من الإنكار والنقد الذي يسقط عنها الثقة كما يذكر باحثون يعتنقون المسيحية.

وفي هذه الأناجيل الرسمية فقرات لا تتفق مع التوحيد الذي هو جوهر ديانة المسيح، مما يحملنا على أن ندعي أن أيد غير أمينة تولت تحريفها وإدخال ما لا يتفق مع التوحيد ليتفق مع التعدد الذي ينادي به ذووه.

ونحن لا نشك أن ديانة المسيح ديانة توحيد خالص، ويتفق معنا المسيحيون على ذلك لكنهم يقولون: تثليث في وحدية، ووحدية في تثليث، وهو قول لا يثبت التوحيد الخالص بقدر ما ينقضه ويقيم التعدد والشرك.

ولكن متى قضي على المسيحية الموحدة أو متى قامت نظرية الشرك والتعدد اللذين يقومان على تأليه المسيح ثم التثليث.

إن بولس هو الحاجز بين المسيحية الموحدة والمسيحية القائمة على التعدد، وهو الذي احتضن المسيحية وصبغها صبغة جديدة تغاير صبغة الله التي أكسبها إياها، ووجوده خرج بالمسيحية من التوحيد إلى التعدد.

وفي سيرة بولس أن اسمه الأول «شاول» ويصف نفسه بقوله: «أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس كيليكية[١]، وكنت غيوراً لله كما أنتم جميعاً اليوم (يريد أبناء جنسه اليهود) واضطهدت في هذا الطريق مقيداً ومسلماً إلى السجن رجالاً ونساءً[٢]، وأنا روماني[٣]، وفريسي ابن فريسي[٤]، وإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي،

(١) سفر الأعمال ٢٢: ٣.
(٢) سفر الأعمال ٢٢: ٤.
(٣) سفر الأعمال ٢٢: ٢٥.
(٤) سفر الأعمال ٢٣: ٦.

إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي[1]، إنهم كانوا يسمعون أن الذي كان يضطهدنا قبلاً يبشر الآن بالإيمان الذي كان قبلاً يتلفه»[1].

وعندما رجم اليهود استفانوس الذي كان «رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس»[2] لأنه من دعاة المسيحية كان شاول (بولس) راضياً بقتله[3]، وكان يسطو على الكنيسة، ويدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن[4]، وينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب، وتقدم إلى رئيس كهنة اليهود، وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم[5].

هذه حياة بولس كما يصورها قلمه وقلم تلميذه لوقا، فقد كان ملتهب الضغينة شديد الوطأة على المسيحيين يتتبعهم ويلقي بهم في العذاب والسجن، ويشعر باللذة عندما يقع داعية منهم في يد اليهود يذيقونه ألوان العذاب كما فعلوا بإستفانوس عندما رجموه وهو راض سعيد بما ينزل عليه من الحجارة التي أردته قتيلاً.

ولكن تغير شاول فجأة من خصم جبار عنيد للمسيحية إلى

---

(١) غلاطية ١: ١٣ - ١٤ و ٢٣.
(٢) سفر الأعمال ٦: ٥.
(٣) سفر الأعمال ٧: ٦٠.
(٤) سفر الأعمال ٨: ٣.
(٥) سفر الأعمال ٩: ١ - ٢.

رسول داعية كريم لها لا يبالي في سبيلها كل ما يناله، وكان هذا التغير سنة ٣٨م(*) وعمره حوالي الأربعين.

وسبب التغير يذكره شاول نفسه فيقول (١) في خطاب له ألقاه على شعب إسرائيل: «أيها الرجال الإخوة والآباء، اسمعوا احتجاجي الآن لديكم، أنا رجل يهودي ولدت في طرطوس كيليكية، ولكن ربيت في هذه المدينة مؤدباً عند رجلي غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوي، وكنت غيوراً لله كما أنتم جميعاً اليوم، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت مقيِّداً ومسلِّمًا إلى السجون رجالاً ونساء، كما يشهد لي رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذ أخذت أيضاً منهم رسائل للاخوة إلى دمشق، ذهبت لآتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا، فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق أن نحو نصف النهار بغتة أبرق حولي من السماء نور عظيم، فسقطت على الأرض وسمعت صوتاً قائلاً: شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فأجبت: من أنت يا سيد؟ فقال لي: أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده. والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا، ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني، فقلت: ماذا أفعل يا رب؟ فقال لي الرب: قم، واذهب إلى دمشق، وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل. وإذا كنت لا أبصر من أجل ذلك بهاء ذلك النور اقتادني بيدي الذين كانوا معي فجئت إلى دمشق».

---

(١) سفر الأعمال ٢٢:

(*) ويقال في سنة ٣٣م.

ويستمر شاول قائلاً: «ثم إن حنانيا رجل تقي حسب الناموس، ومشهود له من جميع اليهود السكان، وأتى إلي وقال لي: أيها الأخ شاول، أبصر. ففي تلك الساعة نظرت إليه، فقال: إلّه آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته وتبصر البار وتسمع صوتاً من فمه، لأنك ستكون له شاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت، والآن، لماذا تتوانى؟ قم، واعتمد، واغسل خطاياك داعياً باسم الرب».

ويقول شاول: «وحدث لي بعدما رجعت إلى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل أني حصلت في غيبة، فرأيته قائلاً لي: أسرع، واخرج عاجلاً من أورشليم لأنهم لا يقبلون شهادتك عني، فقلت: يارب، هم يعلمون أني كنت أحبس وأضرب في كل مجمع الذين يؤمنون بك، وحين سفك دم استفانوس شهيدك كنت أنا واقفاً وراضياً بقتله، وحافظاً ثياب الذين قتلوه، فقال لي: إذهب، فإني أرسلك إلى الأمم بعيداً»[1].

فبولس يقرر أنه رأى نوراً عظيماً فسقط على الأرض وسمع صوتاً يهتف به ويكلمه، ومن كانوا معه رأوا النور وارتعبوا، ولكنهم لم يسمعوا الصوت.

وفي سفر الأعمال نفسه ٩: ٣ ـ ٧: «وفي ذهابه حدث أنه اقترب من دمشق فبغتة أبرق نوراً من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً: «إلى أن يقول» وأما الرجال المسافرون معه

(١) سفر الأعمال ٢٢: ١ ـ ٢١.

فوقفوا يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً».

وفي سفر الأعمال نفسه ٢٦ : ١٣ ـ ١٤ : رأيت في نصف النهار في الطريق أيها الملك نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي، فلما سقطنا جميعاً على الأرض سمعت صوتاً يكلمني».

وبولس نبي ورسول كما يدعي ويزعم تابعوه، والنبي لا يناقض نفسه في حادثة واحدة، فهو يزعم تارة أنه رأى النور وسقط وحده على الأرض، وتارة أخرى يزعم أنه هو ومن كانوا معه سقطوا جميعهم على الأرض.

وزعم أن الصوت لم يسمعه إلا هو وحده، ومن معه لم يسمعوه، وزعم مرة أخرى أنهم سمعوا الصوت! وتلميذه لوقا وافق أستاذه على بعض روايته، وافقه على سقوطه وحده على الأرض، وسماعه هو ومن معه الصوت.

وفي حادثة تعد أخطر حادثة في حياة بولس لا تخلو من مناقضة بشعة: سمعوا. لم يسمعوا. سقطوا. لم يسقطوا!..

أترى الرسول يناقض نفسه؟.

ومن هؤلاء الذين كانوا معه وشاهدوا هذا الحدث العظيم؟ أين شهوده؟ ولماذا لم يشهد أحد من أولئك الناس به؟ ولماذا لم يقدم دليلاً على صحة ما ادعاه؟.

فسبب اعتناق شاول المسيحية ظهور المسيح له ومعاتبته إياه، ظهر له نوراً عظيماً من السماء فسقط على الأرض وسمعه هاتفاً يعاتبه في ود، فيؤمن به.

بهذه السرعة المدهشة يترك ديانة اليهودية التي ولد عليها وربي فيها ونشأ حتى صار من أعظم المتحمسين لها، يتتبع خصومها رجالاً ونساء ويقذف بهم إلى السجن والضرب لا يبالي أحداً في سبيل إخلاصه لدينه، وفجأة ينقلب أكبر نصير للمسيحية وأعظم من يحمل لواءها.

إن هذا الانقلاب المفاجىء الغريب في عقيدة بولس مثار دهشة من وقف على سيرته وحياته، ولم يكن شاول بمعزل عن المسيحية يجهل المسيح بل كان على علم بها وبالمسيح نفسه، وكان كافراً بهما حتى قال له الصوت كما يزعم: «لماذا تضطهدني؟» ويسأل شاول الصوت بعد سقوطه على الأرض من النور العظيم: «من أنت يا سيد»؟.

كيف عرف شاول وهو في تلك الحال بعد إبصاره النور العظيم أن من يكلمه «سيد» الذي هو في عرفه الرب وفي عرف المسيحيين من تلامذته الذين تذكرهم الأناجيل؟ كيف عرف أنه الرب؟ وإذا عرف أنه المسيح لأنه كان يضطهده فكيف يعترف له بالربوبية؟. وإذا كان عارفاً أنه الرب فلماذا يقول له سائلاً: من أنت؟.

ويعترف شاول بربوبية المسيح الذي أنكره وكفر به واضطهده لكلمة سمعها من هاتف مجهول ويقول له: «ماذا أفعل يا رب؟».

أبهذه السهولة وبهذه السرعة يعترف بربوبية من كان كافراً به.

إنني أشك فيما رواه شاول أن يكون قد وقع لأن المقدمة التي ساقها لإقناع الناس بنتائجها ليست من الإحكام بحيث تجوز إلى العقل وتنجو من النقد.

نور عظيم من السماء يبرق حوله فيسقط على الأرض ويحمله على الإيمان بمن لم يكن جاهلاً به وبمعجزاته التي ملأت أسماع اليهود وهو منهم!.

إنه كفر بمعجزاته الكبيرة التي ترويها الأناجيل وجعل من نفسه نقمة ناقمة على المسيحية والمسيحيين ثم يأتي ليحمل الناس على الإيمان بدعواه التي ادعاها بالسهولة والسرعة اللتين دفعتا به إلى الإيمان.

هذا ما يبعث الحيرة على الأقل إلى نفس من يتناول الحادثة بشيء من العقل والمنطق، وما أظن العقل مجبراً على تصديق رواية يحيط بها الافتعال المكشوف.

---

(١) الإصحاح الأول، الفقرتان ١١ و ١٢.

كل شيء عند شاول الذي تسمى «بولس» بالوحي، يظهر له المسيح فيوحي إليه بعد المعاتبة بما يجب أن يكون عليه وبما يفعله، ويكون هو نفسه «معجزة» إذ يفقد بسبب النور العظيم بصره فقاده من كانوا معه إلى دمشق حيث ارتد إليه بصره المفقود بكرامة الرجل التقي حنانيا الذي تلقى منه التعليمات التي وعده بها المسيح.

وتتكرر المعجزات كما يدعي، فيزعم أنه كان يصلي في الهيكل بأورشليم ذات مرة فأصيب بغيبوبة رأى خلالها ربه المسيح يأمره بأن يغادر أورشليم بسرعة، ويجعله رسولاً إلى الأمم.

ولم يصدق تلامذة المسيح ولا المسيحيون أن «شاول» دخل في دينهم وآمن بربهم، وخافه التلاميذ لأنهم كانوا يعرفون ماضيه في الكفر بالمسيحية وفي محاربة معتنقيها، وما استطاع أن يصل إليهم إلا بتزكية برنابا وشهادته له وذكره لهم حادثة الطريق التي نقلته من الكفر والخصام إلى المسيحية حيث اعتنقها وآمن بها بمجرد ذلك النور الذي سطع من حوله.

وكذلك علمه بالمسيحية لم يكن تلقياً، بل وحياً وإلهاماً، لم يتلق المسيحية من إنسان، فهو يقول في رسالته إلى أهل غلاطية: «الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان، لأني لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح».. وفي رومية ١٦: ٢٠: «وللقادر أن يثبتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلامه السر الذي كان مكتوماً في الأزمنة الأزلية،

ولكن ظهر الآن وأعلم به جميع الأمم بالكتب النبوية حسب أمر الإلّه الأزلي لإطاعة الإيمان».

فكل ما لديه من المسيحية وحي يجب تصديقه، وما أوحي به إليه من ربه يسوع خاص به لم يقله لأحد من تلامذته المقربين المبشرين، فقد كان سراً مكتوماً في الأزمنة الأزلية ظهر الآن ليعلم بولس به جميع الأمم، فبولس الذي لم يكن له شرف رؤية المسيح وصحبته يكون هو الأثير لديه حتى يجعله موضع ثقته ويجعله رسوله إلى جميع الأمم دون غيره من التلامذة المقربين المبشرين، وبذلك يتفرد عليهم بالشرف والامتياز.

إذا كان لهم شرف الرؤية والصحبة والمعاشرة التي لم ينلها بولس في حياة المسيح فقد نال بعد مماته منه ما لم ينله سواه حتى قال في رسالته إلى تيموثاوس: «الإنجيل الذي جعلت أنا له كارزاً ورسولاً ومعلمًا للأمم»[1] و «الرب وقف معي لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم»[2] و «أظهر كلمته في أوقاتها الخاصة بالكرازة التي اؤتمنت أنا عليها بحسب أمر مخلصنا الله»[3] و حسب إنجيل مجد الله المبارك الذي اؤتمنت أنا عليه»[4] و «يظهر يسوع المسيح فيّ أنا أولاً كل أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية»[5]

(١) ٢ تيموثاوس ١: ١٠ ـ ١١.
(٢) ٢تيموثاوس ٤: ٦٧.
(٣) تيطس ١: ١٣.
(٤) ١تيموثاوس ١: ١١.
(٥) ١ تسيموثاوس ١: ١٦.

و«الإنجيل الذي أكـرز به بـين الأمم ولكن بالإنفـراد»[1] و«بولس. . المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله»[2].

فهو قد ذكر في حادثة النور العظيم أن المسيح كلمه وأوحى إليه، وفي هيكل أورشليم كلمه وأرسله إلى «جميع الأمم» ثم جعل نفسه وصياً على المسيحية دون غيره، حكرها على نفسه، فهو المؤتمن على إنجيل مجد الله المبارك وهو الذي جُعِلَ للإنجيل كارزاً ورسولاً ومعلمًا للأمم، ويظهر فيه يسوع المسيح، وبذلك أظهر لنفسه مجداً يتضاءل بجانبه مجد تلامذة المسيح المقربين المبشرين.

بل خاصم تلامذة المسيح وقاوم من جعله المسيح نفسه راعي خرافه وغنمه، ومنحه من السلطان ما لم يمنح أحداً، بل وهب له السلطة المطلقة، ذلك هو سمعان بن يونا الذي سماه المسيح نفسه بطرس، أي الصخرة.

إن بولس يخاصم بطرس ويقاومه ويرجح نفسه عليه، مع أن بطرس يكاد يكون خليفة المسيح باعتراف المسيحيين واعتراف الأناجيل الرسمية.

ففي إنجيل متى ١٦ : ١٣ ـ ٢٠ : «لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبّس سأل تلاميذه قائلاً: من تقول الناس إن ابن البشر هو؟ أجاب سمعان بطرس قائلاً: أنت المسيح ابن الله الحي.

(١) غلاطية ٢ : ٢.
(٢) رومية ١ : ١.

فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا فإنه ليس لحم ولا دم كشف لك هذا، لكن أبي الذي في السماوات، وأنا أقول لك: أنت الصفاة، وعلى هذه الصفاة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات».

وفي إنجيل يوحنا ١٦: ١٥ ـ ١٧: «فبعدما تغدوا قال يسوع لسمعان بطرس: يا سمعان بن يونا: أتحبني أكثر من هؤلاء؟ قال له: نعم، يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له: إرع خرافي. قال له ثانية: يا سمعان بن يونا، أتحبني أكثر من هؤلاء؟ قال له: نعم، يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له: إرع خرافي. قال له ثالثةً: يا سمعان بن يونا، أتحبني أكثر من هؤلاء؟ فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة: أتحبني؟ فقال: يا رب، أنت تعلم كل شيء، وأنت تعلم أني أحبك. فقال له: إرع غنمي».

ويذهب المسيحيون إلى أن قول المسيح: «أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات» إنما هو رمز إلى السيادة المطلقة، بل جعل لبطرس امتياز انفرد به دون كل مسيحي على وجه الأرض ألا وهو ما يربطه يكون مربوطاً في السماوات وما يحله يكون محلولاً فيها، وهذا الامتياز الممنوح له يجعل له مكانة عليا قد تفوق مكانة المسيح نفسه من ناحية التشريع، فالمسيح صرح بأنه لم يجىء لينقض

الناموس بل ليكمله، وأوصى بحفظ الناموس، أما بطرس فله الحق كل الحق في الحل والربط.

وأما ما جاء في إنجيل يوحنا فيقول شراح الكتاب المقدس أن المسيح أراد بكلمة «خراف» جماعة المؤمنين، وبلفظ «غنم» التلاميذ والرسل.

وإنجيل لوقا نفسه وهو صفي بولس وتلميذه ورفيقه في الجهاد يقول (٢٢ : ٣١) : «سمعان، سمعان (بطرس) هوذا الشيطان سأل أن يغربلكم مثل الحنطة لكني صليت من أجلك لئلا يفنى إيمانك، وأنت متى رجعت فثبت إخوتك».

وبطرس هو المسؤول عن إخوته الذين يحملون رسالة المسيح، وهو الصخرة التي تنهض عليها الكنيسة الشماء، وما سيحل بالمسيح من مصائب وآلام يجعل بطرس ورسله يشكون فيه وفي رسالته، ولكنه صلى من أجل بطرس حتى لا يفنى إيمانك، ووكل إليه تثبيت إخوته مما يدل على عظم رسالته بعد المسيح.

وتقول المصادر المسيحية[1] إن متى ذا النزعة الإسرائيلية ليس وحده من أورد هذا النص بل إن لوقا صديق بولس وتلميذه ورفيقه في الجهاد أورده أيضاً، ولوقا معروف بنزعته اليونانية.

فبولس حارب بطرس وناقضه مع أن له شرف صحبة المسيح، وهو خليفته، وإليه وحده سلطة الربط والحل حتى أن ما

(١) راجع كتاب «يسوع المسيح» للأب بولس إلياس اليسوعي ص ١٨٢

يربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وما يحله يكون محلولاً فيها، فهو وحده المسؤول عن المسيحية بعد المسيح، وإليه وحده السلطة المطلقة دون غيره، فكيف ينازعه السلطة ويقاومه وينقض كلام المسيح نفسه؟ بل فوق هذا يشهر ببطرس ويجبهه في وجهه، ويتخذ من ثقافته الواسعة سلاحاً لقتل آراء خصمه أو التشكيك فيها.

يقول بولس: «لما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومته مواجهةً لأنه كان ملوماً، لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم، ولكن لما أتوا كان يؤخر ويغرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان، وراءى معه باقي اليهود أيضاً حتى أن برنابا أيضاً انقاد إلى ريائهم، لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع: إن كنت وأنت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا؟ نحن بالطبيعة يهود ولنا من الأمم خطاة، إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح، آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما فإن كنا ونحن طالبون أن نتبرر في المسيح نوجد نحن أنفسنا أيضاً خطاة، أفالمسيح خادم للخطية؟ حاشا، فإني إن كنت أبني أيضاً هذا الذي قد هدمته فإني أظهر نفسي متعدياً، لأني مت بالناموس للناموس لأحيا لله، مع المسيح صلبت فأحيا، لا أنا بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان،

إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي، لست أبطل نعمة الله، لأنه إن كان بالناموس بر فالمسيح إذن مات بلا سبب»[1].

فبولس لا يبالي بطرس ويحقره ويجبهه ويقاومه مواجهةً، ويستبد به الغرور فيدعي لنفسه كل شيء ولا يدع لبطرس شيئاً، ولم يذكر لنا بولس رد بطرس، وعلى أي حال لم يكن على وفاق معه، وهذا صنيعه مع كبير التلامذة الذي حاول الاتصال به ليعرفه حتى قال بولس نفسه في رسالته إلى أهل غلاطية ١ : ١٨ : صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوماً، ولكنني لم أر غيره من الرسل إلا يعقوب أخا الرب».

ويظهر أن بولس زار بطرس ووجده كما ذكر في سفر الأعمال ٤ : ١٣ عديم العلم عامياً فوثق من نفسه وقدرته على التغلب عليه فغير المسيحية حسب هواه.

ولم يكن على وفاق مع برنابا، بل خاصمه واختلف معه، مع أن بولس ما كان ليظفر بما ظفر به من المكانة لولا شهادة برنابا له وتزكيته إياه حتى رضي التلامذة أن يقابلوه بعد توجسهم منه الخيفة والمكر.

واتهم بولس تلميذي المسيح بطرس وبرنابا شر الاتهام إذ زعم أنهما لا يسلكان باستقامة حق الإنجيل، واتهمهما بالرياء وهزأ بهما، مع أن بولس هو الذي كان يرائي ويخدع ويكذب

---

(١) غلاطية ٢ : ١١ ـ ٢١.

باعترافه إذ يقول: «صرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس، مع أني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح، لأربح الذي بلا ناموس، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه» .[1]

ونحن نرى اتهام بولس لبطرس وبرنابا باطلاً، فما كانا من المرائين، ولكن الذي كان يراءي ويكذب ويخدع هو بولس نفسه، حتى أنه يتظاهر مع «الذين بلا ناموس» أنه هو نفسه بلا ناموس، والرسل منزهون عن مسايرة الباطل والكفر طمعاً في الإيمان، لان الغاية الشريفة مفضي إليها بالوسيلة الشريفة، فالإيمان لا يتوسل إليه بالكفر.

وكيف نثق ببولس بعد أن اعترف نفسه بهذا التلون والخداع؟ ألا تكون دعوته المسيحية والرسالة من ذلك القبيل؟ ألا يجوز أن بولس يتظاهر بأنه مسيحي ليربح المسيحيين كما تظاهر أنه يهودي وبلا ناموس وضعيف؟ يجوز ولا شك، والدليل أعماله نفسها.

فإذا أباح بولس لنفسه طعن بطرس خليفة المسيح وموهوب

(١) ١ كورنثوس ٩: ٢٠ ـ ٢٣.

السلطة المطلقة منه فلا يستغرب منه أن يطعن برنابا ويمسخه ويشوه سمعته.

واشتد الخلاف بين برنابا وبولس حتى أدى إلى الانفصال بينهما، وأشار لوقا تلميذ بولس وصفيه وصديقه إلى هذا الخلاف فقال: «وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا، فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشائخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة»[1].

ثم قال: «ثم بعد أيام قال بولس لبرنابا: لنرجع ونفتقد إخوتنا في كل مدينة نادينا فيها بكلمة الرب، كيف هم، فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضاً يوحنا الذي يدعى مرقس، وأما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما من بمفيليه ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما، فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر، وبرنابا أخذ مرقس وسافر في البحر إلى قبرص، وأما بولس فاختار «سيلا» وخرج مستودعاً من الإخوة إلى نعمة الله»[2].

وفي كلمة لوقا هذه نشهد الهوى، فيقول إن برنابا سافر إلى قبرس، وأما بولس فإلى نعمة الله، مع أن برنابا حواري مشهود له، ومع هذا لا يجامله لوقا.

---

(١) الأعمال ١٥: ٢.

(٢) الأعمال ١٥: ٣٦ ـ ٤٠.

ولم تكن حال بولس مع غير بطرس وبرنابا خيراً من حاله معهما، ويظهر أنهم خاصموه وانفضوا عندما رأوا غروره ونقضه للناموس ودعاواه، فإذا كان لا يضمر الاحترام والمودة لأصفياء المسيح نفسه فهو لا يدخرهما لمن هم ليسوا في مرتبتهما.

ويقول بولس لتيموثاوس (الابن الحبيب كما يصفه) في إحدى رسائله إليه: «جميع الذين في آسيا ارتدوا عني» ويقول له أيضاً: «بادر أن تجيء إليَّ سريعاً ، لأن ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكي ، وكريسكيس إلى غلاطية ، وتيطس إلى دلماطية ، لوقا وحده معي . . إسكندر النحاس أظهر لي شروراً كثيرةً ، ليجازه الرب حسب أعماله ، فاحتفظ منه أنت أيضاً لأنه قاوم أقوالنا جداً، في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي ، بل الجميع تركوني. لا يحسب عليهم»[1].

فهنا كل أحبابه وأقربهم إليه ينفضون عنه، ويظهر له بعضهم الشرور الكثيرة، فيتهمهم جميعاً، وتيطس الذي تركه ونقم منه بولس هو نفسه الذي كان منه بالمكان المفضل لديه، ويضفي عليه من الصفات الكريمة ما رفعه إلى مقام الابن الصريح ،فكتب إليه رسالة قال فيها:

«إلى تيطس الابن الصريح حسب الإيمان المشترك، نقمة ورحمة وسلام من الله الآب والرب يسوع المسيح مخلصنا . من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة ، وتقيم في

(١) ٢ تيموثاوس ٤ : ٩ ـ ١٦ .

كل مدينة شيوخاً كما أوصيتك»[1] و لم تكن لي راحة في روحي لأني لم أجد تيطس أخي»[2].

تيطس هذا يتركه، لماذا؟ لأنه أحب العالم الحاضر مثل رفاقه الذين تركوه.

ويستدل من كل ذلك أنه غير مأمون العاقبة، ويخاصم الأئمة والمخلصين خصاماً يجبرهم على مفارقته، ويدون بقلمه انتقاصهم وما يوجه إليه من تهم في رسائله لا يبالي إلا تمجيد نفسه وتقديس اسمه، ويمحو ما سبق من أسماء التلامذة والرسل ويدعي لنفسه كل شيء في المسيحية.

يقول بولس: «بسبب هذا أنا بولس أسير المسيح يسوع لأجلكم أيها الأمم، إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمة الله المعطاة لي لأجلكم، إنه بإعلان عرفني بالسر كما سبقت فكتبت بالإيجاز، الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح الذي في أجيال أخر لم يُعرَّف به بنو البشر، كما قد أعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل الذي صرت أنا خادماً له حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي حسب فعل قوته، لي أنا أصغر جميع القديسين أعطيت هذه النعمة أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يستقصى، وأنير الجميع فيما هو شركة السر المكتوم منذ

---

(١) تيطس ١: ٤ ـ ٥.

(٢) ٢ كورنثوس ٢: ١٣.

الدهور في الله خالق الجميع يسوع المسيح، لكي يُعَرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماوات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة، حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا»[1].

فبولس يدعي أن السر بقي مكتوماً حتى أُفْضي به إليه دون غيره، أُعْطي وحده نعمة التبشير بغنى المسيح بين الأمم، ولا شاهد له على إيثاره بالسر المكتوم ونعمة التبشير إلا ادعاؤه هو نفسه.

فالمسيحية خاصة ببني إسرائيل، والمسيح رسول إليهم وحدهم، ولم يقم هو ولا تلامذته بنشر المسيحية بين الأمم ودعوتها إليها، بل قصروها على بني إسرائيل وحدهم دون سواهم، لأن المسيح أرسل لبني إسرائيل ولم يرسل لغيرهم.

ونقطة التحول في المسيحية من الخصوص إلى العموم ما قام به بولس، فقد ادعى أنه المبشر بالمسيحيـة بين الأمم وحده لأن ربه يسوع أوحى إليه بذلك، ولهذا أخذ يعمل على نشرها في مختلف البلدان والأمم .

يقـول واني تيكر: «إن الكنيسة كلها غلطت بعد عروج المسيح ونزول روح القدس، لا العوام وحدهم بل الخواص

---

(١) أفسس ٣: ١ ـ ١١.

أيضاً، بل الحواريون أيضاً في دعوة غير الإسرائيليين إلى الملة المسيحية»[1].

ولو اقتصر بولس على ادعاء المسيحية ديناً عالمياً لهان الأمر، ولكنه قلبها رأساً على عقب، وغيرها تغييراً شاملاً، قضى على مسيحية المسيح حتى فقدت سلطتها وعفت رسومها، وقامت مسيحية بولس التي عرفت منذ عمله لها حتى اليوم، فإنجيل المسيح مجهول ومفقود، وديانته نفسها غير موجودة، لأن بولس أراد لها أن تختفي ليأتي بديانة جديدة يزعم أنها هي نفسها مسيحية المسيح.

وكان بولس من المثقفين الكبار في عصره، عليما بالديانات الوثنية والأساطير، واقفاً على حياة الشعوب ومعتقداتها، وقد وضع لنفسه قاعدةً سار عليها وصرح بها هو نفسه، وهي أن يكون صاحب كل نحلة أو حياة بحجة أن يربح أصحابها.

وهذا ما دعاه إلى اختراع ديانة أممية تتفق مع عقائد غير المسيحيين إذ يجدون فيها ديانتهم فلا ينفرون منها ولا يتجهمون لها، فأخرج المسيحية من الوحدانية إلى الشرك، ومن الخصوص إلى العموم، ونقض الناموس الذي حرص عليه عيسى نفسه، وشكك في الحواريين تلامذته، ثم أنكرهم إذ آثر نفسه بالسر المكتوم عنهم المباح له وحده دونهم.

---

(١) إظهار الحق ١: ١٠٦.

والواقع أن بولس اضطر اضطراراً لأن يدعي أن المسيحية ديانة عامة، فهو يدرك أن المسيحية جاءت لبني إسرائيل وحدهم دون غيرهم من الأمم، وقد رأى إعراضهم عن المسيح وقتالهم إياه حتى تخلصوا منه بصلبه ـ كما يزعمون ـ وماذا يعمل؟ إن بني إسرائيل لن يؤمنوا بالمسيح رسولاً فضلاً عن الإيمان بأنه «الله الابن» بعدما فعلوا به ما فعلوا.

ولا يعقل أن يواجه بولس اليونان والرومان بديانة المسيح على أنها موجهة إلى «خراف بني إسرائيل» خاصة دون غيرهم من الأمم، لأنه يعلم أن هذه الديانة لا تخصهم، فهم لن يقبلوا على شيء ليس لهم.

وهنا ادعى أن المسيحية موجهة لهم وللناس جميعاً، وزعم أن المسيح مبعوث لليونان والرومان، ولأجل ذلك أضيف إلى الإنجيل المنسوب لمتى ما يفيد أن المسيح للناس كافةً، فقد جاء في آخر إنجيل متى ما نصه على لسان يسوع:

«اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر».

واستطاع بمواهبه أن يستولي على المسيحية ويحتكرها لنفسه ويخضعها لنفسه ورأيه وثقافته مستغلاً حال المسيحيين ومنتهزاً فرصة انحلالهم وضعفهم فاخترع ديانة خلع عليها اسم المسيحية.

يقول بيري «Berry في كتابه Religions of the World : «بعد صلب المسيح ذاب أتباعه واختفت دعوته ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن هذه الدعوة» و «كان عيسى يهودياً، وقد ظل كذلك أبداً، ولكن شاءول كون المسيحية على حساب عيسى، فشاءول ـ في الحقيقة ـ مؤسس المسيحية، وقد أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له عامتهم، كما أدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعاً له من اليونان، فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشري بوساطته أن ينال النجاة، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق، فانحاز أتباعها إلى ديانة بولس، وعمد ـ إرضاءً لمثقفي اليونان ـ إلى أن يستعير من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف فيلون فكرة اتصال الإلّه بالأرض عن طريق الكلمة «(The Lagos) أو ابن الإلّه»[1].

ويقول ويلز: «أوتي بولس قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية، فكان على علم واسع باليهودية وبديانة مثرا وديانة الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من معتقداتهم ومصطلحاتهم، ولم يهتم بما جاء به عيسى من فكرة «ملكوت السماوات» ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود وحسب، بل إنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قرباناً ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر، فموته كان تضحية مثل ممات

---

(١) مقارنة الأديان: المسيحية، للدكتور أحمد شلبي ص ٦٠ ـ ٦١.

الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشر»[1].

وهذا حق، فبولس نفسه معترف بأنه يصير مع اليهودي يهودياً، ومع صاحب الناموس صاحب ناموس، ومع المنكر منكراً، ومع كل ذي نحلة صاحبها ليربحه، وهذا ما صنعه في ديانته التي جعلها مزيجاً من الديانات والعقائد المختلفة حتى كانت ديانته غير ديانة المسيح وإن خلع عليها اسم المسيحية، وذلك ليربح أهل تلك العقائد والديانات ولكن على حساب ضياع المسيحية الحق والمسيحيين الموحدين.

وأعطى بولس نفسه كل سلطة في المسيحية فنقض ما شاء أن ينقض، وشرع للناس ما رأى مما لم يجيء به المسيح ، وبعض تشريعه ينسبه إلى نفسه وبعضه ينسبه إلى وحي الرب إليه وهو من عنده وليس من عند الرب.

وكثر في أقواله نفي الكذب عن نفسه وادعاء الصدق والوحي، وأنه المؤتمن على الإنجيل والميراث، إنه وحده هذا المؤتمن دون غيره، وكرر ذلك كثيراً فيما كتب من رسائل، وفيما كتب تلميذه لوقا الذي كان يتقارض الثناء مع أستاذه مما يثير الدهشة والسؤال، لماذا يكرر نفي الكذب وادعاء الصدق والوحي؟ أتراه أدرك ما يساور الناس من شكوك في دعاواه فأخذ

(١) مقارنة الأديان المسيحية، للدكتور أحمد شلبي ص ٦٠ ـ ٦١.

يبدىء ويعيد في تلك الدعاوي لينفي تلك الشكوك؟ يجوز إذا لم يكن هو المقصود، بل إنه اعترف في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس ١١ : ١٢ ـ ١٥ إذ يقول بولس نفسه : «ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفتخرون به، لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيمًا إن كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر» .

ألا يجوز أن بولس أراد من هذا التحذير أن يتفرد وحده بالنفوذ ويبعد «الشبهة» عن نفسه؟ ويبعد الثقة عن غيره بهذا الاتهام؟

وكيف عرف بولس أن الذي ظهر له هو «الرب» ولم يكن الذي يتشبه بملاك نور؟ وكيف يثق به ثقة عمياء دون نظر بعد أن كان للرب عدواً مبيناً؟ كيف آمن به ولم يكن لديه وقت للبحث والتأمل والتفكير؟ ظهر له النور بغتة فآمن فجأةً، وهو إيمان يدعو إلى الدهشة والاستغراب من رجل حارب المسيح حرباً ضروساً لا هوادة فيها، بل هو إيمان يدعو إلى الشك في صاحبه! .

وما ثم لقاء بين مسيحية المسيح ومسيحية بولس، فقد منحه المسيح ـ على زعم بولس ـ من السلطة الإلهية ما لم يكن لدى المسيح نفسه، فالمسيح يعترف بأنه لم يجيء لنقض الناموس بل لإتمامه ولكن لبولس الحرية التامة في نقض ما يشاء، فأحل ما لم يجرؤ

المسيح على أن يجعله حلالاً لأنه رسول حق من الله عز وجل، أما بولس فيدعي أن ربه يسوع المسيح منحه هذه السلطة المطلقة فأخذ ينقض الناموس نقضاً، ولم يبق منه مما كان حراماً إلا ذبيحة الأصنام والزنا والدم والمخنوق[1]، وأحل ما عدا ذلك حتى الخمر ولحم الخنزير.

وأقام بولس ديانة جديدة باسم المسيح ومهد لأن يدخل إليها ما ينقض دين عيسى في العقائد وآداب السلوك والشريعة والأحكام، وقد حدث أن من جاءوا بعده قرروا ألوهية المسيح وألوهية روح القدس «بمراسيم ملكية».

والديانة التي اخترعها بولس ـ كما قلنا ـ مزيج من العقائد والديانات الوثنية والفلسفة اليونانية الوثنية التي كان على علم بها، ولم يحتفظ من ديانات السماء بشيء، حتى فكرة الله الواحد نقضها بدعوى ألوهية المسيح، ولعل مرد ذيوع ديانة بولس وثبوتها في الغرب أن الأمم الغربية وثنية فرضيت بديانة الوثنية، ولم تنتشر في الشرق لأنه موطن ديانات التوحيد الخالص وإن يكن أهله من المسيحيين قد حرفوها وعبثوا بها.

وبولس متهم بالعبث بما يسمى الأناجيل الرسمية حتى يجعل ما فيها متفقاً مع ديانته، وتذكر دائرة المعارف الفرنسية ٥ : ١١٧ أن كتب العهد الجديد من تأليف بولس وتلامذته وليست

---

(١) سفر الأعمال ١٥ : ١٩ ـ ٢٠ و ١٥ : ٢٢ ـ ٢٩.

الأسماء التي وضعت على الأناجيل هي أسماء مؤلفيها الحقيقيين ، بل نسبت إليهم لتعطى مكانتهم.

ويبرىء بعض أئمة علماء المسيحية بولس من هذا العبث فيقول «يوسي بيس » في الباب الخامس والعشرين في الكتاب السادس من تاريخه: «قال أوريجن في المجلد الخامس من شرح إنجيل يوحنا: «إن بولس لم يكتب شيئاً إلى جميع الكنائس، وما كتبه لا يعدو سطرين أو أربعة سطور» وعلى قول أوريجن تكون الرسائل المنسوبة إلى بولس ليست من تصنيفه، بل هي منسوبه إليه زوراً، ولعل في سطرين أو ثلاثة بعض كلام بولس»[1].

وإذا صح ما ذكرته دائرة المعارف الفرنسية أو صح ما ذكره أوريجن فالنتيجة وجود عبث وتزوير في الديانة المسيحية سواء أكان العابث بولس نفسه أم الذين افتروا عليه وعلى المسيح، ولكن الفرقة الأبيونية التي كانت في القرن الأول للميلاد وعاصرت بولس كانت تنكر عليه أشد الإنكار وتتهمه بالارتداد[2].

ومهما أحسنا الظن ببولس، ومهما ابتعدنا عن استعمال الكلمات الجارحة التي وصفه بها من لا يتهم بعدائه مثل «غوستاف لوبون» الذي يقول فيه: «أنقذ خيال المتهوس القديس بولس اسم يسوع من النسيان وأحاطه بالمجد الخالد»[3] فإننا لا نستطيع إلا أن

---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق ، صفحة ١٨٣.

(٢) كتاب «إظهار الحق» ١: ١٦٢.

(٣) كتاب «حياة الحقائق» للوبون، صفحة ٦٣.

نقول: إنه قضى على المسيحية الموحدة إذا صح ما روي عنه في أسفار العهد الجديد وتاريخ المسيحيين وكتبهم قديماً وحديثاً ولا نوافق «لوبون» في قوله لأن بولس أساء إلى المسيح والمسيحية أبلغ إساءة.

ويقول غوستاف لوبون: «كان ما اتفق للقديس بولس من التجلي المعروف في طريق دمشق نقطة التحول الحقيقية في النصرانية ، وكان القديس بولس مفطوراً على الخيال، وكانت نفسه مملوءة بذكريات الفلسفة اليونانية والأديان الشرقية فأسس باسم يسوع ديناً لا يفقهه يسوع لو كان حياً»[1].

ونحن لا نردد مع غوستاف لوبون أن يسوع لا يفقه الدين الذي أسسه باسمه بولس إجلالاً للمسيح صلى الله عليه وعلى محمد وسلم بل نقول: إن يسوع لو كان حياً ورأى الدين المسيحي كما تصوره الأناجيل الرسمية وكما أسسه بولس لكان أول من يحاربه، ولحاربه بعنف بالغ الشدة، ولما اتخذ التسامح في هذه الحرب!.

وحركة بولس ليست حركة عادية، بل هي حركة دينية وسياسية واجتماعية، تدخل في كل شيء، في الإنسان وضميره وعلمه واجتماعه بغيره وفيما يملك وفي علاقته الزوجية في حياته الخاصة والعامة ولكن ليس على أسلوب المسيحية الأصيلة بل على ما قرره بولس الذي ادعى الوحي والإلهام اللذين لم يدعهما بطرس

(١) كتاب «حياة الحقائق» للوبون، صفحة ٦٣.

كبير الحواريين وخليفة المسيح في شيعته وأمته ونحسب أن ما ادعاه بولس من الوحي مما ينقضه واقع دعوته.

فالوحي في المسيحية عامة ـ على حد ما يقوله القس إبراهيم سعيد في شرحه لإنجيل لوقا ـ : « يجمع بين العنصر البشري والعنصر الإلهي، أي الملهمات الإلهية تتجسد في لباس لغوي بشري لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ إليهم، فالكلمة المكتوبة في الإنجيل هي رمز لكلمة الله، الحي المعلن لنا حق الله، من أجل هذا يعتقد المسيحيون أن الوحي بالروح القدس لا يحرم على الموحى إليه استخدام الوسائل البشرية الاجتهادية الممكنة لديهم ولا يرفع عن الكاتب مسؤولية الاجتهاد والتحقيق والتدقيق، هذا بخلاف الإعلانات المحتوي عليها كتاب الوحي التي لا تتدخل فيها مواهب الكاتب الطبيعية، بل هي من الله أولاً وآخراً، كالنبوات المتفرقة في كل أجزاء الكتاب المقدس وسفر الرؤيا».

فليس في المسيحية وحي يقوم على اللفظ والمعنى، لأنه جماع عنصرين بشري وإلهي، فالإلهام يتجسد في كلام البشر أو الموحى إليه، إلا في النبوءات التي لا يدخل فيها العنصر البشري، لأنها عنصر إلهي خالص.

فالنبوءات هي وحدها المروية لفظاً ومعنى، وما عداها من قول البشر الألى يتخذون الوسائل البشرية لإبرازه بعد الاجتهاد والتحقيق والتدقيق.

وعلى هذا تخرج الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد من الوحي القائم على اللفظ والمعنى إلا سفر الرؤيا والرؤى المبثوثة في كتبهم المقدسة.

والاجتهاد ليس كل ما ينبثق عنه صواباً، بل يحتمل أن يكون فيه الخطأ والصواب، بل هما فيه لأن طبيعة الاجتهاد أن يخطىء صاحبه ويصيب وإن كان للمجتهد الصالح أجر واحد إذا أخطأ يكسبه لإخلاصه لا للخطإِ نفسه.

وإذا كان الاجتهاد لا يخلو في كل أحواله من خطإٍ فإن انبثاق الخطأ منه ولو بنسبة جد ضيئلة ينفي الوحي لأنه لن يكون خاطئاً بحال.

وأدرك بولس أن ما يقوله قد يتعرض للتفنيد والنقد، فاستمسك بالوحي يوحى إليه من ربه يسوع المسيح ليجبر الناس على التصديق، وفي الأصول التي بنى عليها ديانته خرج على ما يعترف بصحته من الكتب المقدسة في عهديها القديم والجديد، فقد نقض ما فيها نقضاً، ولم يبق منها إلا على تحريم ذبيحة الأصنام والدم والمخنوق والزنى إتباعاً لما ينسب إلى الحواري يعقوب الصغير ابن زبدي في سفر الأعمال (١٥ : ٢٠) الذي ألفه لوقا. وأحل ما حرمه المسيح والتوراة كلحم الخنزير.

ومعنى هذا أن ا لوحي غير صادق لأنه نقضه، وكيف يكون ما اجتمع فيه العنصر البشري والعنصر الإلَهي وحياً وإلَهاً ما إذا

كان غير منزه من الخطأ؟ إنه وجوده ينفي الوحي والإلهام اللذين لا يخطئان.

وما زعموا أنه نبوءات لم يسلم من الخطإِ لأن في بعضها تناقضاً واضحاً لا يتفق مع تنزيه الله من التجسيم وإهباطه من ألوهيته إلى صور إنسية أو حيوانية أو مادية.

وما أنا بناقد المسيحية بل عارضها كما جاءت، وإذا اقتضى السياق كلمة فهي بالتعليق ألصق منها بالنقد والتمحيص.

ونبوءات بولس دعاوى يدعيها هو نفسه، ولا دليل عليها غير الادعاء، فهو لم يكن من حواري المسيح البررة وتلامذته الأخيار، ولم يكن له شرف الصحبة والتلمذة، فادعى ما ادعى ليجد كلامه سبيلاً إلى القلوب والعقول باسم الوحي يتلقاه من ربه يسوع.

وما كان يسوع بناقض نفسه، فيذكر في أيام وجوده على الأرض ودعوته الناس أنه جاء لإتمام الناموس لا نقضه، ثم يمنح بولس من السلطة ما ينقض الناموس، وهو موقف لا يتفق مع ألوهية المسيح التي يدَّعونها له، لأن الله المسيح (على زعمهم) يجب أن يكون كاملاً كمالاً مطلقاً مثل الله عز وجل، فكيف تصح نسبة الخلل في كلامه؟ إذا كان المسيح (الله) كما يدعون، فكيف يناقض نفسه؟.

ومهما أراد بولس أن يكسب دعواه طابع الوحي ليحمل

الناس على التصديق وقطع الطريق على معارضيه ورفع نفسه إلى أعلى مقام في المسيحية فإن نظرة النقد الفاحصة المتساهلة لا تملك إلا الشك، أما النظرة الفاحصة التي لا تتساهل لا تملك إلا أن تنكر عليه دعاواه.

فمن غير اللائق أن تترك النصوص المنسوبة إلى المسيح في الأناجيل ويؤخذ ما يقول بولس، وبخاصة بعد أن علمنا ماضيه في محاربة المسيح والمسيحية واللدد في مخاصمته إياهما ثم مخاصمة كبير الحواريين بطرس وغيره من التلامذة المقربين المبشرين كبرنابا، وأشد من ذلك كله نقضه تعاليم الكتب المقدسة في عهديها القديم والجديد.

ويقول أرنست دي يونس الألماني: «إن روايات الصلب والفداء من مخترعات بولس ومن شابهه من المنافقين»[1].

فإذا كان بولس مخترعاً أركان العقيدة المسيحية فلا يستغرب منه نقض الناموس وهدم الشريعة، وإحداث ما انحرف بالمسيحية الموحِّدة الأصيلة من طريقها القويم إلى الطريق الذي شقه لها ودفع المسيحيين لسلوكه ، ومهما ادعى من دعاوى الوحي فإن كل ما يخالف التوحيد ينقضه، ولا قيمة للفلسفة التي تسوغ التثليث بكلام غامض وأدلة منهوكة.

ولسنا نحن وحدنا الذين نتهم بولس هذا الاتهام، بل سبقنا

(١) كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» ص ١٥.

إليه وعاصرنا فيه باحثون مسيحيون يرون بولس عدواً للمسيحية ادعاها تضليلاً حتى يتسنى له حطمها والقضاء على الحواريين بما ينسبه لهم من الأقوال التي لا تتفق مع توحيد المسيح.

فبولس قضى على المسيحية الموحدة، وجعل المسيح مدعياً الألوهية، وجعل حوارييه المخلصين يذكرون في أناجيلهم ما فيه وثنية العقائد الوثنية، ونقضه شريعة التوراة وحقيقة الإنجيل، وغير تعاليمهما فأحل ما حرما وحرم ما أحلا، ومحا معالم ديانة المسيح متخذاً من ادعاء المسيحية وسيلة تمكنه من إفسادها، وقد روى الكاتب الإيرلندي برنارد شو أن «دين إنج» قال: «لقد شوه بولس تعاليم راعينا حتى لكأنه أعاد صلبه مقلوباً برأسه إلى أسفل»(١).

(١) مذكرات شارلي شابلن ج ٢ ص ١٣٥ طبعة دار الهلال ترجمة صلاح حافظ.

نظائر المسيح في الدّيانات الوثنيّة

في الديانات الوثنية كثير من طقوس المسيحية وعباداتها ـ كما مر وكما سيأتي ـ بل المدهش إلى أبعد حد أن للمسيح نفسه أشباهاً ونظائر كما تصوره النصرانية، بل الشبه ينتهي إلى أن يكون المسيح وبعض من في تلك الديانات الوثنية توائم، بل نجد أكثر من ذلك، نجد مسيح النصرانية كرشنا أو بوذا، وكأن أحدهما أو هما في جميع الصفات والمزايا وجوهر الشخصية وسماتها وكل خصائصها.

إن في هذه الديانات الوثنية أقانيم ثلاثة، وفيها المولود من عذراء الذي هو كلمة الله المتجسدة، وهو ابن الله، وهو الرب والله، فإذا جاز أن يكون المسيح كذلك فيجوز أن يكون من في تلك الديانات مسحاء وأبناء الله وآلهة، بل لا جواز في الأمر، بل هم كذلك على التحقيق في تلك الديانات.

والمسيح متأخر، وأولئك متقدمون عنه، فالشخصية التي ابتدعها المسيحيون وأطلقوا على صاحبها اسم يسوع المسيح بعد

أن أخذوه من اسم الرسول الكريم عيسى عليه وعلى نبينا وإخوته صلوات الله وسلامه ـ ليست إلا شخصية كرشنا أو بوذا.

ولم يقف الأمر على المسيح في خلائقه وصفاته ومزاياه، بل تجاوزه إلى أمه عليها السلام، فهي بشخصيتها المسيحية وباسمها (مريم) وبصورها موجودة في الديانات القديمة.

والديانة المسيحية بعد انحراف بولس بها وإضافة القرون إليها من الأساطير والأوهام حتى صارت دين مئات الملايين من البشر في كل أقطار العالم ليست إلا صورة لديانات وثنية سبقتها، وبعضها سبقتها بآلاف السنين، وصارت المسيحية مزيج تلك الديانات.

ولسنا نحن الذين ندعي هذا الادعاء، بل مفكرو المسيحية الكبار يقررون بالبراهين والشواهد والوقائع أن المسيحية دين جمع ما تفرق في الديانات الوثنية واختفى منها التوحيد الحق.

يقول ج. بيوري في كتابه «حرية الفكر» صفحة ١٣٣ ـ ١٣٤ ما نصه:

«وجاء الباحثون في علم الإنسان وفي الدين المقارن من أمثال «تيلور» و «روبرتسوث» و «فريزر» فأثبتوا أن الأفكار المبهمة الصوفية والمعتقدات والطقوس التي كان يظن أنها من خصوصيات المسيحية التي جاء بها الوحي أثبتوا أن كل أولئك له مثيل من الأفكار البدائية الفجة في الأديان الفطرية الهمجية، وأن فكرة

«القربان المقدس» الصوفية يمكن أن تقارن بطقوس بعض القبائل التي تأكل «إلهاً ميتاً» وإن فكرة «موت إله» ثم بعثه في صورة بشرية ـ وهي عمود المسيحية الفقري ـ وكذلك معجزة ميلاد «منقذ» كل ذلك يوجد ما يماثله في الأديان الوثنية.

«هذه نتائج مزعجة ولا ريب، ولكن من الممكن أن يقال: إنها ليست في الواقع قاضية على المزاعم الدينية المعروفة.

«وقد يقال ـ مثلاً ـ إن تلك المعتقدات قد اتخذت دلالة جديدة لما جاء بها الوحي المسيحي، وإن الله قد انتهز بحكمة هذه المعتقدات الشائعة التي أذن بها رغم بطلانها ورغم ما تنتجه من أعمال القسْوة لكي يتسنى له أن يضع مشروع «الخلاص» أو «الإنقاذ» الذي يناسب خطايا الإنسان.

إن بعض العقول قد ترتاح إلى هذا التأويل، ولكن ينبغي أن نتوقع من أغلب المشتغلين بالأبحاث الحديثة في أصل المعتقدات الدينية أن يشعروا بأن الحدود التي كان يظن أنها تفصل المسيحية عن غيرها من العقائد إنما هي حدود لا وجود أمام عيونهم».

بل نجد في بعض الديانات الوثنية «المسيح» نفسه في ميلاده ونشأته ورسالته وفي كل ما يدعيه النصارى له من المزايا والصفات، وها هي ذي مقارنة سبقنا إليها الأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي في كتابه «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» ننقلها

هنا ليقف القارىء على «مسيح» النصرانية ومسيح بعض الديانات الوثنية لتتم الموازنة التي تمكن القارىء من الحكم الصحيح النزيه.

وها هي ذي مقابلة النص الصريح بين كرشنا ويسوع المسيح، وهي مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن كرشنا بما يقوله النصارى في المسيح مع ذكر المصادر:

الهنود وكرشنا	النصارى والمسيح
كرشنا هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس.	يسوع المسيح هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس.
١ ـ ولد كرشنا من العذراء مارتالا التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها.	١ ـ ولد يسوع من العذراء مريم التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها.
٢ ـ قد مجد الملائكة مارتالا والدة كرشنا ابن الله وقالوا: «يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة».	٢ ـ فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيها المنعم عليها الرب معك.

(١) دوان ص ١٧٨ و «ساعات بين الكتب» للعقاد ج ٢ ص ١٥٢.

(٢) كتاب «تاريخ الهند» لموريس، المجلد الثاني، صفحة ٣٢٩ و «ساعات بين الكتب».

(١) إنجيل مريم، الإصحاح السابع.

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث فقرة ٢٨ و ٢٩ وإنجيل مريم، الإصحاح السابع.

٣ ـ عرف الناس ولادة كرشنا من نجم الذي ظهر في السماء.

٤ ـ لما ولد كرشنا سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرواح وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً ورتل السحاب بأنغام مطربة.

٥ ـ كان كرشنا من سلالة ملوكانية، ولكنه ولد في غار بحال الذل والفقر.

٦ ـ لما ولد كرشنا أضيء الغار بنور عظيم وصار وجه أمه مارتالا يرسل أشعة نور مجده.

٧ ـ ومن بعد ما وضعته صارت تبكي وتندب سوء عاقبة

(٣) تاريخ الهند، مجلد ٢ ص ٣١٧ و ٣٣٦
(٤) كتاب «فشنو بورانا» ترجمة ويلسون ص ٥٠٢
(٥) كتاب دوان ص ٢٧٩
(٦) دوان ٢٧٩
(٧) تاريخ الهند، مجلد ٢ ص ٣١١

٣ ـ لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق وبوساطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته.

٤ ـ لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحاً وسروراً، وظهر من السحاب أنغام مطربة.

٥ ـ كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه ملك اليهود، ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار.

٦ ـ لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة وعيني خطيب أمه يوسف النجار.

٧ ـ وقال يسوع المسيح لأمه وهو طفل: يا مريم، أنا يسوع ابن

(٣) إنجيل متى، الإصحاح الثاني فقرة ٣
(٤) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني فقرة ١٣
(٥) دوان صفحة ٣٧٩
(٦) إنجيل ولادة يسوع المسيح، الإصحاح ١٢ فقرة ١٣
(٧) إنجيل الطفولية، الإصحاح الأول، فقرة ٢ و ٣

رسالته فكلمها وعزاها.

الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذي أرسله أبي إليك وقد أتيت لأخلص العالم.

٨ ـ وعرفت البقرة أن كرشنا إلّه فسجدت له.

٨ ـ وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له.

٩ ـ وآمن الناس بكرشنا واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب.

٩ ـ وآمن الناس بيسوع المسيح وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر.

١٠ ـ وسمع نبي الهنود «نارد» بمولد الطفل وزاره في «كوكرل» وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلّهي يعبد.

١٠ ـ ولما ولد يسوع المسيح في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذ المجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود.

١١ ـ لما ولد كرشنا كان «نانـدا» خطيب أمه مارتالا غائباً عن البيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع ما عليه من الخراج للملك..

١١ ـ ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائباً عن البيت وأتى كي يدفع ما عليه من الخراج للملك.

---

(٨) دوان ص ٢٧٩

(٩) كتاب «الديانات القديمة» المجلد الثاني ص ٣٥٣ وكتاب «الديانات الشرقية» ص ٥٠٠

(١٠) تاريخ الهند، المجلد الثاني ص ٣١٧.

(١١) كتاب «فشنو بورانا» الفصل الثاني من الكتاب الخامس، وكتاب «ساعات بين الكتب» للعقاد ج ٢ ص ١٥٢.

(٨) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، الفقرة ٨ ـ ١٠

(٩) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ٢

(١٠) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ١و٢

(١١) إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، الفقرات من ١ إلى ١٧.

١٢ ـ ولد كرشنا بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية.

١٣ ـ وسمعناندا خطيب مارتالا والدة كرشنا نداء من السماء يقول له : قم وخذ الصبي وأمه فهربهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة لأن الملك طالب إهلاكه.

١٤ ـ وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنا الطفل الإلهي وطلب قتل الولد وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنا.

١٥ ـ واسم المدينة التي ولد فيها كرشنا «مطرا» وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل

(١٢) كتاب «التنقيبات الآسيوية» المجلد الأول ص ٢٥٩ وكتاب «تاريخ الهند» المجلد الثاني ص ٣١٠.

(١٣) كتاب «فشنو بورانا» الفصل الثالث، وكتاب «ساعات بين الكتب» للعقاد ج ٢ ص ١٥٢.

(١٤) دوان، صفحة ٢٨٠

(١٥) كتاب «تاريخ الهند» المجلد الثاني ص ٣١٧ وكتاب «التنقيبات الآسيوية» المجلد الأول ص ٢٥٩.

١٢ ـ ولد يسوع المسيح بحالة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية.

١٣ ـ وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه.

١٤ ـ وسمع حاكم البلاد بولادة يسوع الطفل الإلهي وطلب قتله وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها يسوع المسيح.

١٥ ـ واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر لما ترك اليهودية هي « المطرية »

(١٢) إنجيل متى وإنجيل لوقا: نسب المسيح والحال التي ولد عليها.

(١٣) إنجيل متى ، الإصحاح الثاني، الفقرة ١٣.

(١٤) إنجيل متى، الإصحاح الثاني.

(١٥) المقدمة على إنجيل الطفولية تأليف هيجين، وكتاب «الرحلات المصرية» تأليف سفلري، المجلد الأول ص ١٣٦.

التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كرشنا أنه ابن الله وأنه الله إلى يومنا هذا.

ويقال: إنه عمل فيها آيات عديدة

١٦ ـ كانت ولادة القديس «راما» قبل ظهور كرشنا في الناسوت بزمن قليل وقد سعى قانسا ملك البلاد في إهلاك القديس راما وإهلاك كرشنا أيضاً.

١٦ ـ وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل وقد سعى الملك هيرودس في إهلاك يوحنا كما سعى في إهلاك الطفل يسوع المسيح.

١٧ ـ وربي كرشنا بين الرعاة ولما جيء به إلى «مطرا» كان في احتياج عظيم للتعليم فأتى بمعلم خبير وفي وقت قليل فاق على أستاذه في العلوم وأعياه في المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقة.

١٧ ـ وأرسل يسوع المسيح إلى المعلم ذاخوس كي يعلمه فكتب له أحرف ألف باء وقال ليسوع: قل، ألف، فقال الرب يسوع: أخبرني أولاً عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول: الباء، فتهدد المعلم يسوع بالضرب فقام يسوع وفسر معنى الألف وأخبره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة، والتي لها نقط وحركات، والتي ليس

(١٦) تاريخ الهند، مجلد ٢ ص ٣١٦.

(١٧) دوان ص ٢٨٠ وكتاب «تاريخ الهند» المجلد الثاني ص ٣٢١.

(١٦) إنجيل تاريخ ولادة يسوع المسيح، الإصحاح السادس.

(١٧) إنجيل الطفولية، الإصحاح العشرون، الفقرات ١ ـ ٨.

لها نقط، ولماذا وضعت في هذا الترتيب، أي بعض الحروف قبل غيرها، وطفق يخبره عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها في كتاب.

١٨ ـ وفي أحد الأيام كان كرشنا سائراً مع قطيع من البقر فاختاروه ملكاً عليهم، وذهبت كل بقرة إلى المكان الذي عينه لها هذا الملك.

١٨ ـ وفي شهر آذار جمع يسوع الأولاد ورتبهم وكأنه ملك عليهم.. وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصباً ويأمرونه بالسجود للملك.

١٩ ـ وفي أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنا الذين يلعب معهم فماتوا فشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء.

١٩ ـ وبينا كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم، فلمس يسوع ذلك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته.

٢٠ وسرق بعض أصحاب كرشنا مع عجولهم وأخفاهم السارقون في غار، فخلق كرشنا أصحاباً وعجولاً مثلهم في الشكل والهيئة.

٢٠ ـ وأخفى الأولاد الذين كانوا يلعبون مع يسوع أنفسهم في فرن فبدلوا إلى هيئة جداء فناداهم يسوع: تعالوا لنلعب فأعيدت تلك الجداء إلى هيئتهم الأولى صبياناً.

---

(١٨) تاريخ الهند، المجلد الثاني، صفحة ٣٢٢.

(١٩) تاريخ الهند، المجلد الثاني، صفحة ٣٤٣.

(٢٠) تاريخ الهند، المجلد الثاني، صفحة ١٤، وكتاب «خرافات الآريين» المجلد ٢ ص ١٣٦.

(١٨) إنجيل الطفولية، الإصحاح الثامن عشر، الفقرات ١ ـ ٣.

(١٩) إنجيل الطفولية، الإصحاح الثامن عشر.

(٢٠) إنجيل الطفولية، الإصحاح الثامن عشر.

٢١ ـ وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنا شفاء الأبرص.

٢٢ ـ وأتي إلى عند كرشنا بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وزباد وغير ذلك من أنواع الطيب، فدهنت منه جبين كرشنا بعلامة خصوصية وسكبت الباقي على رأسه.

٢٣ ـ كرشنا صلب ومات على الصليب.

٢٣ ـ لما مات كرشنا حدثت مصائب وعلامات شر عظيم، وأحاط بالقمر هالة سوداء، وأظلمت الشمس في وسط النهار، وأمطرت السماء ناراً ورماداً، وتأججت أشعة نار حامية، وصار الشياطين يفسدون في الأرض، وشاهد الناس ألوفاً

(٢١) تاريخ الهند، المجلد ٢ ص ٣١٩.

(٢٢) تاريخ الهند، المجلد الثاني ص ٣٢٠.

(٢٣) كتاب «الآثار المسيحية» للعلامة لاندي.

(٢٤) كتاب «ترقي التصورات الدينية» المجلد الأول ص ٧١

٢١ ـ وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص.

٢٢ ـ وفيما كان يسوع في بيت عتيا في بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فسكبته على رأسه وهو متكىء.

٢٣ ـ يسوع صلب ومات على الصليب.

٢٤ ـ لما مات يسوع حدثت مصائب جمة، متنوعة، وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت، وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة، وفتحت القبور وقام كثيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم.

(٢١) إنجيل متى، الإصحاح الثامن، الفقرة ٢.

(٢٢) إنجيل متى، الإصحاح السادس والعشرين الفقرة ٦ و ٧.

(٢٣) الأناجيل الأربعة في قصة الصلب والموت.

(٢٤) إنجيل متى، الإصحاح الثاني والعشرون، وإنجيل لوقا.

من الأرواح في جـو السماء
يتحاربون صبـاحاً ومسـاء،
وكان ظهورها في كل مكان.

٢٥ ـ وثقب جنب كرشنا بحربة.

٢٦ ـ وقال كرشنا للصياد الذي رماه بالنبلة وهو مصلوب: اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة.

٢٧ ـ ومات كرشنا ثم قام من بين الأموات.

٢٨ ـ ونزل كرشنا إلى الجحيم.

٢٩ ـ وصعد كرشنا بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً.

٢٥ ـ وثقب جنب يسوع بحربة.

٢٦ ـ وقـال يسوع لأحـد اللصـين اللذين صلباً معه: الحق أقول لك، إنك اليوم تكون معي في الفردوس.

٢٧ ـ ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.

٢٨ ـ ونزل يسوع إلى الجحيم.

٢٩ ـ وصعد يسوع بجسـده إلى السـماء وكثيرون شـاهـدوه صاعداً.

---

(٢٥) دوان، صفحة ٢٨٢.

(٢٦) فشنو بورانا ص ٦١٢

(٢٧) دوان، صفحة ٢٨٢

(٢٨) دوان، صفحة ٢٨٢.

(٢٩) دوان، صفحة ٢٨٢.

(٢٥) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٩ الفقرة ٣٤: «واحد من العسكر طعن جنبه بحربة» ودوان ص ٢٨٢.

(٢٦) إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث والعشرون فقرة ٤٣.

(٢٧) إنجيل متى، الإصحاح الثامن والعشرون.

(٢٨) دوان، صفحة ٢٨٢ قال القديس كريستوم في سنة ٣٤٧م: «لا ينكر نزول المسيح إلى الجحيم إلا الكافر» وانظر سفر أعمال الرسل ص ٢ فقرة ٣١ وفي رسالة بطرس ص ٣ فقرة ١٧ ـ ١٩.

(٢٩) إنجيل متى، الإصحاح الرابع والعشرون.

٣٠ ـ ولسوف يأتي كرشنا إلى الأرض في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح، وراكب على جواد أشهب، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر، وتزلزل الأرض، وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.

٣١ ـ يدين كرشنا الأموات في اليوم الأخير.

٣٢ ـ ويقولون عن كرشنا : إنه الخالق لكل شيء، ولولاه لما كان شيء مما كان، فهو الصانع الأبدي.

٣٣ ـ كرشنا الألف والياء، وهو الأول والوسط وآخر كل شيء.

---

(٣٠) دوان، صفحة ٢٨٢.

(٣١) دوان، صفحة ٢٨٣.

(٣٢) دوان ص ٢٨٢.

(٣٣) دوان، ص ٣٨٢.

٣٠ ـ ولسوف يأتي يسوع إلى الأرض في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح، وراكب جواداً أشهب، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر أيضاً، وتزلزل الأرض، وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.

٣١ ـ يدين يسوع الأموات في اليوم الأخير.

٣٢ ـ ويقولون عن يسوع المسيح : إنه الخالق لكل شيء، ولولاه لما كان شيء مما كان، فهو الصانع الأبدي.

٣٣ ـ يسوع الألف والياء، والوسط وآخر كل شيء.

---

(٣٠) إنجيل متى، الإصحاح الرابع والعشرون.

(٣١) إنجيل متى، الإصحاح ٢٤ الفقرة ٣١ ورسالة الرومانيين الإصحاح ١٤ الفقرة ١٠

(٣٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، فقرة ١ ـ ٣ ورسالة كورنسيوس الأولى الإصحاح الثامن فقرة ٦ ورسالة أفنسس الإصحاح الثالث، الفقرة ٩.

(٣٣) سفر الرؤيا، الإصحاح الأول ، الفقرة ٨ والإصحاح ٢٣ الفقرة ١٣ والإصحاح ٢١ الفقرة ٦.

٣٤ ـ لما كان كرشنا على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال الأخطار التي كانت تكتنفه، ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة المخلوع كما كان أولاً، ونصرة الضعيف على القوي، والمظلوم على ظالمه، وكان إذ ذاك يعبدونه ويزدحمون عليه ويعدونه إلهاً.

٣٥ ـ كان كرشنا يحب تلميذه «أرجونا» أكثر من بقية التلاميذ بكثير.

٣٦ ـ وفي حضور «أرجون» بدلت هيئة كرشنا وأضاء وجهه كالشمس، ومجد العلي اجتمع في كرشنا إله الآلهة فأحنى أرجون رأسه تذللاً ومهابة وتكتف تواضعاً، وقال باحترام: الآن، رأيت حقيقتك كما أنت، وإني أرجو

(٣٤) دوان، ص ٢٨٣.

(٣٥) كتاب «بهاكا فات كيتا».

(٣٦) كتاب «ديانة الهنود الوثنية» لموريس وليمز ص ٢١٥.

٣٤ ـ لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال الأخطار التي كانت تكتنفه، وكان ينشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأخرس والأعمى والمريض، وينصر الضعيف على القوي، والمظلوم على ظالمه، وكان الناس يزدحمون عليه ويعدونه إلهاً.

٣٥ ـ كان يسوع يحب تلميذه «يوحنا» أكثر من بقية التلاميذ.

٣٦ ـ وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج . . . وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت

(٣٤) الأناجيل.

(٣٥) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٣ الفقرة ٢٣.

(٣٦) إنجيل متى، الإصحاح ١٣.

رحمتك يا رب الأرباب، فعد
واظهر علي في ناسوتك ثانية،
أنت المحيط بالملكوت.

من السحابة قائل: هذا هو
ابني الحبيب الذي سررت له،
اسمعوا، ولما سمع التلاميذ
سقطوا على وجوههم وخافوا
جداً.

٣٧ ـ وكان كرشنا خير الناس خلقاً
وخُلُقاً، وعلم بإخلاص
ونصح، وهو الطاهر العفيف
مثال الإنسانية، وقد تنازل
رحمة ووداعة، وغسل أرجل
البرهميين وهو الكاهن العظيم
برهما، وهو العزيز القادر ظهر
لنا بالناسوت.

٣٧ ـ كان يسوع خير الناس خلقاً،
وعلم بإخلاص وغيرة، وهو
الطاهر العفيف، مكمل
الإنسانية ومثالها، وقد تنازل
رحمة ووداعةً، وغسل أرجل
التلاميذ وهو الكاهن العظيم
القادر ظهر لنا بالناسوت.

٣٨ ـ كرشنا هو براهما العظيم
القدوس وظهوره بالناسوت
سر من أسراره العجيبة
الإلهية.

٣٨ ـ يسوع هو يهوه العظيم
القدوس، وظهوره في
الناسوت سر من أسراره
العظيمة الإلهية.

٣٩ ـ كرشنا الأقنوم الثاني من الثالوث
المقدس عند الهنود الوثنيين
القائلين بألوهيته.

٣٩ ـ يسوع المسيح الأقنوم الثاني من
الثالوث المقدس عند النصارى
القائلين بألوهيته.

---

(٣٧) كتاب «ديانة الهنود الوثنية» لموريس وليمز ص ٢٥١.

(٣٨) كتاب «فشنو بورانا» (ترجمة ولسون من السنسكريتية إلى الإنجليزية) ص ٤٩٢.

(٣٩) كتاب «العقائد الهندية الوثنية» لموريس وليمز ص ١٠٠.

(٣٧) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٣.

(٣٨) رسالة تيموثاوس الأولى، الإصحاح الثالث.

(٣٩) كافة الكتب النصرانية.

٤٠ ـ وأمر كرشنا كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهيه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره في الله فقط.

٤١ ـ وقال كرشنا لتلميذه الحبيب «أرجونا» مهما عملت ومهما أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قربت من قربان ومهما فعلت من الأفعال المقدسة الصالحة فليكن جميعه بإخلاص لي أنا الحكيم والعليم، ليس لي ابتداء، وأنا الحاكم المسيطر والحافظ.

٤٢ ـ قال كرشنا: أنا علة وجود الكائنات، فيَّ كانت وفيَّ تحل، وعليَّ جميع ما في الكون يتكل، وفيَّ يتعلق كاللؤلؤ المنظوم في خيط.

---

(٤٠) المصدر السابق، صفحة ٢١١.

(٤١) كتاب «ديانة الهنود الوثنيين» لموريس وليمز صفحة ٢١٢.

(٤٢) المصدر السابق ص ٢١٢.

٤٠ ـ وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتي «وأما أنت فمتى صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية».

٤١ ـ فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله.

٤٢ من يسوع، وفي يسوع، وليسوع كل شيء: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان».

---

(٤٠) إنجيل متى، الإصحاح السادس، الفقرة ٦.

(٤١) رسالة كورنسوس الأولى، الإصحاح العاشر، الفقرة ٣١.

(٤٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الفقرات ١ ـ ٣.

٤٣ ـ وقال كرشنا: أنا النور الكائن في الشمس والقمر، وأنا النور الكائن في اللهب، وأنا نور كل ما يضيء ونور الأنوار ليس في ظلمة.

٤٤ ـ قال كرشنا: أنا الحافظ العالم وربه وملجؤه وطريقه.

٤٥ ـ وقال كرشنا: أنا صلاح العالم وأنا الابتداء والوسط والأخير والأبدي وخالق كل شيء وأنا فناؤه ومهلكه.

٤٦ ـ وقال كرشنا لتلميذه الحبيب: لا تحزن يا أرجونا من كثرة ذنوبك، أنا أخلصك منها، فقط ثق بي، وتوكل علي، واعبدني، واسجد لي، ولا

(٤٣) المصدر السابق ص ٢١٣.

(٤٤) دوان، صفحة ٢٨٣.

(٤٥) كتاب «ديانة الهنود الوثنيين» لموريس وليمز، صفحة ٢١٣.

(٤٦) المصدر السابق ص ٢١٣.

٤٣ ـ ثم كلمهم يسوع قائلاً: أنا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة.

٤٤ ـ قال يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس لأحد أن يأتي الآب إلا بي.

٤٥ ـ وقال يسوع: أنا هو الأول والآخر، ولي مفاتيح الهاوية والموت».

٤٦ ـ وقال يسوع للمفلوج: «ثق بي يا بني، مغفورة لك خطاياك». «يا بني أعطني قلبك». «المدينة لا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا لأن مجد الله قد أنارها

(٤٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن، الفقرة ١٢.

(٤٤) إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع عشر، الفقرة ٦.

(٤٥) رؤيا يوحنا، الإصحاح الأول الفقرة ١٧ و ١٨.

(٤٦) إنجيل متى، الإصحاح التاسع، الفقرة ٢ وسفر الأمثال، الإصحاح الثالث والعشرون الفقرة ٢٦ وسفر الرؤيا، الإصحاح ٢١ الفقرة ٢٣.

تتصور أحداً سواي، لأنك هكذا تأتي إليّ إلى المسكن العظيم الذي لا حاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما مني.	والخروف سراجها».

وهناك مشابهات بين شخصية كرشنا كما تصورها البرهمية وشخصية المسيح كما تصورها المسيحية غير التي ذكرناها مما يؤكد أن أحدهما هو الآخر، وكرشنا أسبق من السيد المسيح، فمن البديهي أن يكون المسيحيون أخترعوا شخصية المسيح الوثنية على غرار شخصية كرشنا فكانت المطابقة بينهما تامة كما رأى القارىء فيما مر من الصفحات.

وهناك شخصية أخرى هي شخصية بوذا كما تصورها الوثنية الهندية تتفق مع شخصية المسيح التي اخترعها المسيحيون، ونقول: اخترعها، لأن شخصية المسيح الحقيقية أبعد ما تكون عن الصورة التي نجدها في المصادر المسيحية جميعها وبخاصة الأناجيل.

وتكملةً لبراهين نقل المسيحيين صورة المسيح الوثنية وصفاته من ديانات وثنية نذكر المطابقات بين بوذا والمسيح نقلاً عن

كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية»(*) وها هي ذي مقابلة «النص الصريح بين بوذا ويسوع المسيح» وهي «مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن بوذا بما يقوله النصارى في يسوع المسيح».

بوذا والهنود	المسيح والنصارى
١ ـ ولد بوذا من العذراء «مايا» بغير مضاجعة رجل.	١ ـ ولد يسوع المسيح من العذراء «مريم» بغير مضاجعة رجل.
٢ ـ كان تجسد بوذا بوساطة حلول روح القدس على العذراء «مايا».	٢ ـ كان تجسد يسوع المسيح بوساطة حلول الروح القدس على العذراء «مريم».
٣ ـ لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء «مايا» صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة.	٣ ـ لما نزل يسوع من مقعده السماوي ودخل في جسد «مريم» العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة.

(*) تأليف محمد طاهر التنير.

بوذا والهنود:

(١) كتاب «ديانة الهنود الوثنيين» لموريس وليمز ص ٨٢ و ١٠٨.

(٢) كتاب دوان ص ٢٨٩ وكتاب «الملاك المسيح» لبنصون ص ١٠ و ٢٥.

(٣) ديانة الهنود الوثنيين ص ٢٠ و «الملاك المسيح» ص ٢٩٠.

المسيح والنصارى:

(١) إنجيل متى، الإصحاح الأول.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح الأول.

(٣) دوان ص ٢٩٠ وبنصون ٢٠ وكتاب «تحليل العقائد الدينية» للكونت امبرلي ص ٤٢٤.

٤ ـ وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر في أفق السماء ويدعونه «نجم المسيح».

٥ ـ ولد بوذا ابن العذراء «مايا» التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (أي في ٢٥ كانون الأول «ديسمبر»).

٦ ـ لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: ولد اليوم بوذا على الأرض كي يعطي الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصراً للعمي.

٧ ـ وعرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إله الآلهة.

---

(٤) دوان ص ٢٩٠.

(٥) دوان ص ٢٩٠.

(٦) دوان ، صفحة ٢٩٠.

(٧) دوان، صفحة ٢٩٠.

٤ ـ وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر في المشرق، (وقال دوان: ومن الواجب أن يدعى نجم المسيح).

٥ ـ ولد يسوع ابن العذراء «مريم» التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (أي في ٢٥ كانون الأول «ديسمبر»).

٦ ـ لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمداً للواحد المبارك قائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة.

٧ ـ وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة.

---

(٤) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ١ و ٢.

(٥) كتاب «الملاك المسيح» ص ١٠.

(٦) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ١٣ ـ ١٤.

(٧) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ١ ـ ١١.

بوذا	يسوع
٨ ـ وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من جواهر وغيرها من الأشياء الثمينة.	٨ ـ وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر.
٩ ـ لما كان بوذا طفلاً قال لأمه «مايا» إنه أعظم الناس جميعاً.	٩ ـ لما كان يسوع طفلاً قال لأمه «مريم» أنا ابن الله.
١٠ ـ كان بوذا ولداً مخيفاً وقد سعى الملك «بمبسارا» وراء قتله لما أخبروه أن الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً.	١٠ ـ كان يسوع ولداً مخيفاً سعى الملك «هيرودس» وراء قتله كيلا ينزع الملك من يده.
١١ ـ لما أرسل بوذا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة.	١١ ـ لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه داخيوس وقال لأبيه يوسف: لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم.
١٢ ـ لما صار عمر بوذا اثنتي عشرة	١٢ ـ لما صار عمر يسوع اثنتي عشرة

(٨) دوان، صفحة ٢٩٠.

(٩) كتاب «خرافات البوذية» صفحة ١٤٥ و ١٤٦. تأليف هاردي.

(١٠) كتاب «الأسطورة البوذية» تأليف بيل، صفحة ١٠٣ و ١٠٤.

(١١) كتاب «خرافات البوذية» لهاردي، وكتاب «الملاك المسيح» لبنصون، وكتاب «الأسطورة البوذية» تأليف بيل.

(١٢) كتاب «الملاك المسيح» لبنصون ص ٣٧، وكتاب «الأسطورة البوذية» لبيل ص ٦٧ ـ ٦٩.

(٨) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ١١.

(٩) إنجيل الطفولية، الإصحاح الأول، الفقرة ٣.

(١٠) إنجيل متى، الإصحاح الثاني، الفقرة ١.

(١١) إنجيل الطفولية، الإصحاح العشرون، الفقرة ١١ وإنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، الفقرة ٤٦ و ٤٧.

(١٢) إنجيل الطفولية، الإصحاح الواحد والعشرون، الفقرة ١ و ٢ وإنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، الفقرات ٤١ ـ ٤٨.

سنة دخل أحد الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كل مناظريه.

سنة جاءوا به إلى (الهيكل) أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع.

١٣ ـ ودخل بوذا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجوداً له.

١٣ ـ وكان يسوع ماراً قرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجوداً له.

١٤ ـ ويصلون نسب «كوتاما بوذا» من أبيه «صدودانا» في أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى «ماها سماطا» وهو على زعمهم أول ملك صار في الدنيا. والحوادث والأنساب المذكورة في كتاب «بيورازا» البرهمي توجد في أنسابه، غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها، وسبب ذلك هو أن مؤرخي البوذية أدخلوا فيها أسماء قبائل واخترعوا أسماء تمكنهم من إعلاء نسب حكيمهم عدا عن اعتبارهم إياه إلهاً.

١٤ ـ ويعدون سلالة «يسوع» من أبيه يوسف في أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم البشر. وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة في سلالته مذكورة في التوراة كتاب اليهود، وليس بالإمكان تحقيق حكاياتهم بعضها مع بعض، ويظهر لنا أن المؤرخين النصارى قد اخترعوا أسماء قصد إعلاء نسب حكيمهم علاوة على قولهم بألوهيته.

(١٣) كتاب بنصون ص ٣٧ وكتاب بيل ص ٦٧ ـ ٦٩.

(١٤) دوان، صفحة ٢٩١.

(١٣) إنجيل نيقوديموس، الإصحاح الأول، الفقرة ٢٠.

(١٤) دوان، صفحة ٢٩١.

١٥ ـ لما عزم بوذا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه «مـارا» (أي الشيطان) كي يجربه.

١٦ ـ وقال «مارا» (أي الشيـطان) لبوذا: لا تسرف حياتك في الأعمال الدينية لأنك بمـدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا.

١٧ ـ فلم يعبأ بوذا بكلام الشيطان بل قال له : اذهب عني.

١٨ ـ ولما ترك «مـارا» تجربـة بوذا أمطرت السماء زهراً وطيباً ملأ الهواء طيب عرفه.

١٩ ـ وصام بوذا وقتاً طويلاً.

٢٠ وقد عمد بوذا المخلص، وحين عمادته بالماء كان روح الله

(١٥) دوان، صفحة ٢٩٢.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) المصدر السابق.

(١٩) كتاب دوان، صفحة ٢٩٢.

(٢٠) كتاب « الملاك المسيح » لبنصون ص ٤٥ وكتاب «الأسطورة البوذية» لبيل ص ١٧٧ ودوان ص ٢٩٣.

١٥ ـ لما شرع يسوع في التبشير ظهر له الشيطان كي يجربه.

١٦ ـ وقال (ابليس) له (أي ليسوع) أعطيك هذه (الدنيا) جميعها إن خررت وسجدت لي.

١٧ ـ فأجابه يسوع وقال : اذهب يا شيطان.

١٨ ـ ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.

١٩ ـ وصام يسوع وقتاً طويلاً.

٢٠ ـ ويـوحنـا عمـد يسـوع بنهـر الأردن، وكـانت روح الله

(١٥) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الفقرة ١ ـ ١٨.

(١٦) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الفقرة ١ ـ ١١.

(١٧) إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع، الفقرة ٨.

(١٨) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الفقرة ١١.

(١٩) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الفقرة ٢.

(٢٠) إنجيل متى، الإصحاح السابع، الفقرة ١ و ٢.

حاضراً، وهو لم يكن الإلَه العظيم وحسب بل وروح القدس الذي فيه تجسد كوتاما لما حل على العذراء «مايا».

٢١ ـ ولما كان بوذا على الأرض في أواخر أيامه بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل «بنداڤا» (أي الأصفر المبيض) في «سيلان» ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل إكليل، ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضيء كالشمس أو كالقمر، وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة، وحينما رأى الحاضرون هذا التبدل في هيئته قالوا: ما هذا بشراً، إن هو إلا إلَه عظيم.

٢٢ ـ وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة

(٢١) دوان، صفحة ٢٩٣ وبنصون ص ٤٥، وبيل ص ١٧٧.
(٢٢) المصدر السابق.

حاضرة، وهو لم يكن الإلَه العظيم وحسب بل والروح القدس الذي فيه ثم تجسده عندما حل على العذراء مريم فهو الآب والابن والروح القدس.

٢١ ـ لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور.

٢٢ ـ وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة

(٢١) إنجيل متى، الإصحاح السابع عشر، الفقرة ١ ـ ٢.
(٢٢) إنجيل متى، الإصحاح الثامن، الفقرات ٢٨ ـ ٣٤.

القصص المختصة فيه حاويةً لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره .

٢٣ ـ وفي صلاتهم لبوذا يأمل المؤمنون به دخول الفردوس .

٢٤ ـ لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية (أي بقوة إلهية) .

٢٥ ـ وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله في الأرض .

٢٦ ـ ولسوف يأتي بوذا مرةً ثانيةً إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها .

٢٧ ـ وسيدين بوذا الأموات .

---

(٢٣) دوان ، صفحة ٢٩٣ .

(٢٤) كتاب «الملاك المسيح» لبنصون ص ٤٩ .

(٢٥) دوان ، صفحة ٢٩٣ .

(٢٦) دوان ، صفحة ٢٩٣ .

(٢٧) دوان ، صفحة ٢٩٣ وغيره.

القصص المختصة فيه حاويةً لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره .

٢٣ ـ وفي صلاتهم ليسوع يأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس .

٢٤ ـ لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة غير اعتيادية أي بقوة إلهية .

٢٥ ـ وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله على الأرض .

٢٦ ـ ولسوف يأتي يسوع مرةً ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها .

٢٧ ـ وسيدين يسوع الأموات .

---

(٢٣) دوان ، صفحة ٢٩٣ .

(٢٤) إنجيل متى ، الإصحاح الثامن والعشرون ، وإنجيل يوحنا ، الإصحاح العشرون .

(٢٥) أعمال الرسل ، الإصحاح الأول ، الفقرات ١ ـ ١٢ .

(٢٦) أعمال الرسل ، الإصحاح الأول .

(٢٧) إنجيل متى ، الإصحاح السادس عشر ، الفقرة ٢٧ وإنجيل يوحنا ، الإصحاح الخامس ، الفقرة ٢٢ .

٢٨ ـ بوذا الألف والياء ، ليس له ابتداء ولا انتهاء، وهو الكائن العظيم، والواحد الأزلي.

٢٩ ـ قال بوذا: لتكن الذنوب التي ارتكبت في هذه الدنيا عليّ ليخلص العالم من الخطيئة.

٣٠ ـ قال بوذا: أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها، واعترفوا بذنوبكم علانيةً.

٣١ ـ يصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية والشرير مارا (ويدعونه الحية أيضاً) ذات مظلمة غير طبيعية.

٣٢ ـ وفي أحد الأيام لقى «أناندا» تلميذ بوذا ـ وهو سائر في البلاد

(٢٨) دوان، صفحة ٢٩٣.

(٢٩) كتاب «تاريخ الآداب السنسكريتية» لماكس مولر، صفحة ٨٠.

(٣٠) كتاب «العلوم الدينية» لماكس مولر، صفحة ٢٨.

(٣١) كتاب «الملاك المسيح» لبنصون، صفحة ٣٩، ودوان، صفحة ٢٩٤.

(٣٢) كتاب «العلوم الدينية» لماكس مولر، صفحة ١٤٠.

٢٨ ـ يسوع الألف والياء، ليس له ابتداء ولا انتهاء، وهو الكائن العظيم، والواحد الأزلي.

٢٩ ـ يسوع هو مخلص العالم، وكافة الذنوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عوضاً عن الذين اقترفوها ويخلص العالم.

٣٠ ـ قال يسوع: أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها، واعترفوا بذنوبكم علانية.

٣١ ـ ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية، وعدوه الشيطان الحية القديمة.

٣٢ ـ وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعدما سار مسافة حتى

(٢٨) إنجيل يوحنا، الإصحاح ١ الفقرة ١ والرؤيا، الإصحاح الأول وغيرهما.

(٢٩) دوان، صفحة ٢٩٣.

(٣٠) إنجيل متى، الإصحاح ٦ الفقرة ١ ورسالة يعقوب، الإصحاح ٥ الفقرة ١٦.

(٣١) إنجيل يوحنا ص ١ ف ٨ وإنجيل متى ص ٤ ف ١ ، ولوقا ص ٤ ف ٢ ومرقس ١ ف ١٣.

(٣٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع، الفقرات ١ ـ ١١.

ـ المرأة «متانجي» وهي من سبط «الكندلاس» المرذولين قرب بئر ماء، فطلب منها قليلاً من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لا يجوز لها أن تقترب منه لأنها من سبط محتقر، فقال لها: يا أختي، إني لم أسألك عن سبطك وأسرتك وإنما سألتك شربة ماء، فصارت من ذلك الحين تلميذة بوذية.

٣٣ ـ قال بوذا: إنه لم يأت لينقض الناموس كلا، بل أتى ليكمله، وقد سره عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء.

٣٤ ـ وبحسب تعليم بوذا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى.

٣٥ ـ وفي أوائل أيام بوذا التي علم

---

(٣٣) كتاب «الملاك المسيح» ص ٤٧ ـ ٤٨ وكتاب «تحليل الإيمان» لأمبرلي ص ٢٨٥ وغيرهما.

(٣٤) كتاب «العلوم الدينية» لماكس مولر صفحة ٢٤٩

(٣٥) كتاب «الرهبانية الشرقية» لهاردي صفحة ٦.

كاد ينهكه التعب، وبينا هو قاعد قرب البئر عند مدينة السامرة أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر فقال لها يسوع: اسقيني شربة ماء، فقالت له المرأة السامرية: أنت يهودي، وكيف تطلب مني شربة ماء، فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين... وآمن به كثيرون بسبب هذه المرأة.

٣٣ ـ وقال يسوع: لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل.

٣٤ ـ قال يسوع: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، وأحسنوا إلى مبغضيكم.

٣٥ ـ وفي أوائل أيام يسوع التي علم

---

(٣٣) إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الفقرة ١٧.

(٣٤) إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الفقرة ٤٤.

(٣٥) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الفقرات من ١٣ إلى ٢٥.

وبشر فيها ذهب إلى مدينة «بنارس» وعلم فيها، فتبعه «كوندنيا» ثم تبعه أربعة رجال آخرون، وصاروا - جميعهم - تلامذة له، ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون، ويصيرون من أتباعه وتلاميذه.

٣٦ - وقال بوذا للذين صاروا تلامذة له كي يتركوا الدنيا وغناهم وينذرون عيشة الفقر والفاقة.

٣٧ - وجاء في كتب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا آية كي يؤمنوا به.

٣٨ - لما اقترب انتهاء أيام بوذا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التي ستقع قال لتلميذه

(٣٦) المصدر السابق، صفحة ٦ و ٦٢.

(٣٧) كتاب «علم الأديان» لمولر، صفحة ٢٧.

(٣٨) كتاب «الرهبانية الشرقية» لهاردي، صفحة ٢٣٠.

وبشر فيها ذهب إلى مدينة «كفر ناحوم» وعلم فيها؛ فتبعه بذلك الحين أربعة رجال صيادين، وصاروا تلاميذ له، ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويؤمنون به.

٣٦ - وقال يسوع للذين صاروا تلامذة له كي يتركوا غناهم وينذرون عيشة الفقر والفاقة.

٣٧ - وجاء في كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة (أي آية) ليؤمنوا به.

٣٨ - لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التي ستقع من بعده، وقال

(٣٦) إنجيل متى، الإصحاح الثامن، الفقرة ١٩ و ٢٠، والإصحاح السادس عشر، الفقرات ٢٥ - ٢٨.

(٣٧) إنجيل متى، الإصحاح ١٢ الفقرة ٣٨.

(٣٨) إنجيل متى، الإصحاح ٢٤، والإصحاح ٢٨ الفقرة ١٩ و ٢٠، ومرقس، الإصحاح ٨ الفقرة ٣١ ولوقا، الإصحاح ١٩ : ١٨.

«أناندا» يا أناندا ، متى أنا ذهبت لا تظن أنه لم يعد لبوذا وجود ! كلا، فالكلام الذي قلتـه، والفـرائض التي افترضتها تكـون خلفاً لي، وهي لك كذاتي أنا.

٣٩ ـ وجاء في التعاليم البوذية: إن إنفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات، ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه لأن النفس تبخل بالمال وتتمسك به، وأما فقد وهب ونذر حياته شفقةً وحنواً لخير الناس فلماذا نتمسك بفناء الدنيا الزهيد، ولما تخلص بـوذا من حب المشتهيات الدنيوية وملذاتها نال المعرفة الإلهّية وصار الرأس، فليعمل الرجل الحكيم الهاجر لملذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير، عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية.

وكان قصد بوذا تشييد مملكة

(٣٩) كتاب «علوم الدين» لمولر، صفحة ٢٤٤.

(٤٠) كتاب «الأسطورة البوذية» لبيل، صفحة ١٠

لتـلاميذه: اذهبـوا وتلمذوا جميع الأمم.. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.

٣٩ ـ وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمـل لتكـون لي الحيـاة الأبدية..؟ قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك، وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني. ولا تكنزوا لكم كنوزاً عـلى الأرض حيث يفسـد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل أكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سـارقـون ولا يسرقون.

٤٠ ـ ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع

(٣٩) إنجيل متى، الإصحاح السادس، الفقرة ١٩ و ٢٠.

(٤٠) إنجيل متى، الإصحاح الرابع، الفقرة ١٧.

دينية أي مملكة سماوية.

٤١ ـ وقال بوذا: الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم، ومن أجل هذا فإني ذاهب إلى مدينة «بنارس» لأهب نوراً للتائهين في الظلام، وأفتح باب الحياة للإنسانية.

٤٢ ـ وقال بوذا لتلميذه الحبيب أناندا: يا أناندا، إن كلامي حق لا ريب فيه فلا يزول أبداً ولو وقعت السماوات على الأرض، وابتلع العالم، وجفت البحار، واندك جبل سومر وصار قطعاً.

٤٣ ـ قال بوذا: لا يوجد شيء أعظم فعلاً في الإنسان من الاشتهاء

(٤٢) كتاب «أسطورة البوذية» لبيل، صفحة ١١.

(٤٣) كتاب «تقدم الأفكار الدينية» المجلد الأول، صفحة ٢٢٨.

يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات.

٤١ ـ من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينية، ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة «كفر ناحوم» ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله. الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور.

٤٢ ـ الناموس أعطي لموسى، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا، الحق أقول لكم... السماء والأرض تزول ولكن كلامي لا يزول.

٤٣ ـ وقال يسوع: قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن، وأما أنا

(٤٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الفقرة ١٧، وإنجيل لوقا، الإصحاح الواحد والعشرون، الفقرة ٣٢ و ٣٣.

(٤٣) إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الفقرة ٢٧ و ٢٨.

والهـوى الشهواني، ولحسن الحظ والسعادة لا يوجد سوى اشتهاء شهواني واحد ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق، فاحترسوا من تحقيق بصركم في النساء ، وإن كنتم مجتمعين معهن فـاجعلوا اجتمـاعكم كأنكم غير حاضرين معهن، وإذا كلمتموهن فاحترسوا على قلوبكم.

فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه.

٤٤ ـ وقال بوذا: الـرجل العـاقل الحكيم لا يتزوج ويرى الحياة الزوجية كأتون ناره متأججة، ومن لم يقـدر على العيشـة الرهبانية يجب عليه أن يبتعد عن الزنى.

٤٤ ـ فحسن للرجل ألا يمس امرأة، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا، لأن التزوج أصلح من التحرق.

٤٥ ـ ومن جملة التعـاليم البـوذيـة قولهم: إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل عـلى أنه ارتكب

٤٥ ـ وفيما هو مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته فسـأله تـلاميذه قائلين: يا معلم من أخطأ؟ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى.

---

(٤٤) كتاب «البوذية» تأليف ريس دافـدس، صفحة ١٠٣.

(٤٥) المصدر السابق.

(٤٤) رسـالة كـورنثـوس الأولى، الإصحـاح السابع، الفقرات من ١ إلى ٩.

(٤٥) إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع، الفقرة ١ و ٢.

آثاماً، وهذه الآلام جزاء عليها، وإذا لم يكن ارتكب شيئاً من الآثام في هذا الدور الحاضر من حياته لا بد وأن يكون قد ارتكبه في أحد الأدوار السابقة من ظهوره (أي في أحد أدوار تقمصه).

٤٦ ـ كان بوذا يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها.

٤٦ ـ كان يسوع يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم، وإنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها.

٤٧ ـ وجاء في كتاب «الصوما ديفا» حكاية منسوبة لأحد القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها شككته.

٤٧ ـ قال يسوع: فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك.

٤٨ ـ لما عزم بوذا على التنسك كان راكباً جواداً يدعى «كناكو» ففرشت الملائكة طريقه بالزهر.

٤٨ ـ لما كان يسوع داخلاً إلى «أورشليم» راكباً على حمار فرشت الجموع الطريق بأغصان النخيل.

---

(٤٦) كتاب «خرافات البوذية» لهاردي، صفحة ١٨١.

(٤٧) كتاب «العلوم الدينية» لمولر، صفحة ٢٤٥.

(٤٨) كتاب «أسطورة البوذية» لهاردي ، صفحة ١٣٤.

(٤٦) إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع، كلامه مع المرأة السامرية، وإنجيل متى، الإصحاح التاسع، الفقرة ٢٠ كلامه مع المرأة التي شفاها من نزف الدم.

(٤٧) إنجيل متى، الإصحاح الواحد والعشرون، الفقرات من ١ إلى ٩.

(٤٨) إنجيل متى، الإصحاح الواحد والعشرون، الفقرات من ١ ـ ٩.

ونعتقد أن شخصية المسيح ورسالته والدين الذي جاء به وعقيدته كما تصورها المسيحية ليست شخصية المسيح ورسالته ودينه وعقيدته الحقيقية، لأن المسيح الحق عبد الله ورسوله، وليس ابن الله والله، وليس كما تصوره المسيحية.

ورأي الإسلام في المسيح هو الحق الذي لا مراء فيه، وقد أيده عباقرة المسيحيين، أما الصورة الوثنية فهي منقولة عن ديانات وثنية، وكأن المسيح نسخة من كرشنا أو بوذا.

بل لا أكاد أسيغ أن يلقب المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالخروف على أي وجه من وجوه الشبه أو أي لون من ألوان المجاز، ففي سفر الرؤيا[1]: «والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله قد أنارها والخروف سراجها» و«هؤلاء سيحاربون الخروف والخروف يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك».

وعقيدة التثليث والصلب والفداء ليست من دين المسيح الحق في شيء، وهي موجودة في الديانات الوثنية، لأن دينه دين وحدانية، وفقرات كثيرة من الأناجيل الرسمية وغير الرسمية تثبت الوحدانية لله وحده والعبودية للمسيح، وما نجده في الأناجيل من هذه المعتقدات تخالف إنجيل عيسى الصحيح الذي لا وجود له،

(١) الإصحاح الواحد والعشرون، الفقرة ٢٣، والإصحاح السابع عشر، الفقرة ١٤.

بل فقد، ويجوز بقاء بعض آياته في ذواكر المسيحيين مما يتفق مع رسالة المسيح وصفاته وديانته السمحة الطيبة.

فكما فقد الإنجيل فقدت شخصية المسيح نفسها من عالم المسيحيين، وبدل بإنجيله أناجيل من تأليف مؤلفين، وبشخصيته شخصية غيرها.

ومنذ اختفاء المسيح من الأرض والإنجيل غير معروف، ورسالته لم تكن غير نصائح وآداب عالية ممتازة لا تخلو من تشريع اقتضاه المجتمع الذي أرسل إليه، غير أن التشريع يسير بمثابة تعديل لبعض أحكام اليهود.

وفقد «الإنجيل» الصحيح أتاح الفرصة لذوي الهوى أن يقضوا على المسيحية الصحيحة الموحدة ويستبدلوا بها مسيحية ومسيحاً غير المسيح الحق ومسيحيته الصادقة، ويخترعوا له «شخصية» وثنية هي شخصية كرشنا أو بوذا.

وما كان المسيح هذين بحال ولن يكونهما.

الأناجيل المختارة

الأناجيل المسيحية المعروفة من تأليف بشر، من تأليف من نسبت إليهم كما يبدو لأول وهلة لأن أسماء مؤلفيها عليها، ولكن الأقوال في مؤلفيها كثيرة، ومن ينكر نسبتها إليهم كثير.

الأناجيل الرسمية أربعة، ولكن الأناجيل كثيرة، وبلغت العشرات في القرن الأول، بلغت أكثر من سبعين، إلا أن آباء الكنيسة اختاروا أربعة فازت بأصوات كثرة المجتمعين، وهي إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وعلى مر السنين اعتمدوا أسفاراً أخر منها رسائل ونبوءات، ويطلق على الأناجيل وهذه الأسفار إسم «العهد الجديد».

واثنان من مؤلفي الأناجيل الأربعة من تلامذة المسيح، وهما: متى ويوحنا، أما الآخران ـ وهما مرقس ولوقا ـ فلم يكن لهما شرف صحبة المسيح والتلمذة عليه.

ومتىّ أحد التلامذة الإثني عشر المقربين المبشرين من المسيح، وكان عشاراً، أي جابي ضرائب ـ وكان العشاريون

محتقرين في أمتهم اليهودية - يجبي الضرائب للرومان الذين يحكمون فلسطين والشام، وبلده، « كفر ناحوم » التابعة لمنطقة الجليل، وقد ذكر متىّ في إنجيله ٩ : أنه كان جالساً في مكان الجباية فرآه المسيح وطلب إليه أن يتبعه فاستجاب له وتبعه.

ولازم المسيح وأخلص له في حياته وبعد موته، وأخذ يدعو اليهود بدعوة المسيح في البلدان التي يطوف بها حتى استقر به المقام في الحبشة حيث ختم بها حياته المجاهدة شهيداً في سبيل الله.

أقام في الحبشة ثلاثاً وعشرين سنة، وقتل بها سنة ٦٢م بطعنة رمح، وفي بعض الروايات أن حبشياً من رجال ملك الحبشة ضربه ضرب التلف حتى مات سنة سبعين من الميلاد.

وينسب إليه إنجيلان، أحدهما المعتمد لدى المسيحيين، والآخر الذي طعنوه فلم يكن معتمداً، وفيه مخالفة للإنجيل المعتمد، وإن كان بعض ما جاء به بصدد مريم العذراء أصح مما ذكر في إنجيله المعتمد.

ويذهبون إلى أن إنجيله أقدم الأناجيل.

أما الآخر فهو يوحنا بن زبدي، وأمه «سالومي» التي صارت قديسة مشهورة، وورد اسمها في الأناجيل مع التجلة والتبجيل، وباركه المسيح نفسه عندما قدمت به وبأخيه يعقوب إليه لأنه كان قريبها، ويقولون: إنه أحب تلامذة المسيح إليه حتى لقب «الحبيب» وكان على بعد من ميدان صلب المسيح ومعه مريم

العذراء، فقال لها: «هو ذا ابنك، ثم قال للتلميذ: هو ذا أمك، ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته»[1].

ويقال إن ما ذكره مرقس في إنجيله ١٤ : ٥١ ـ ٥٢ في مسألة الشاب الذي فر عريان هو يوحنا، وهذا نص ما ذكره: «وتبعه شاب لابساً إزاراً على عريه فأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب منهم عرياناً» ويقول بعض شراح الأناجيل: إنه مرقس نفسه.

وليوحنا إنجيل واحد، وأربعة أسفار من العهد الجديد، وهي : ثلاث رسائل، والسفر الرابع هو سفر الرؤيا، وألفها جميعاً في التسعين من الميلاد وما بعدها.

وتوفي يوحنا بين سنتي ٩٨ و ١٠٠ بعد أن عانى من الكرب والاضطهاد كثيراً على يد خصوم المسيحية ولكنه صبر حتى لقي ربه في شيخوخة صالحة.

والإنجيل يونانية بمعنى ما تقدمه لمن يأتيك ببشرى، ثم أطلقت على البشرى أو الخبر السار، وهذا الوصف الجميل منطبق على إنجيل المسيح نفسه، ولا ينطبق على هذه الأناجيل في كل ما جاء فيها، لأن بها ما لا يتفق مع الحق، ومناقضة الحق في هذا الأمر تنفي البشارة والخبر السعيد، واستعملها السيد المسيح بمعنى «بشرى الخلاص» التي حملها إلى الناس، واستعملها الحواريون كذلك كما استعملوها بمعنى «ملخص تعليم المسيح أو سيرة حياته وموته».

(١) يوحنا ١٩ : ٢٦ ـ ٢٧.

وإنجيل المسيح لا وجود له، وغير معروف، والأناجيل الأربعة الرسمية أعظم أسفار العهد الجديد، والمسيحيون يعترفون بفقدان إنجيل المسيح، ولكنهم يزعمون أن الأناجيل الأربعة وحي غير أن المحققين العلماء منهم يثبتون ما بينها من تناقض، وما فيها من تحريف وحوادث لم تقع، وتنبؤات لم تصح.

ونحن لا نرى أن ما في هذه الأناجيل وحي تنزيهاً لله عز وجل من النقائص كالخلل والخطل والخطأ والكذب والبهتان، وتنزيهاً لعيسى عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه، بل لا نرى في هذه الأناجيل إلهاماً، لأن المفروض في الإلهام أن يكون حقاً منزهاً عن البهتان والضلالة والكذب.

وعلى سبيل المثال في إنجيل يوحنا ١٠ : ٨: يقول المسيح عن الذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين: «جميع الذين أتوا قبلي هم سرّاق ولصوص» وهذا بهتان، إن نَسَبته إلى المسيح وكان ذلك حقاً فيكون كل الرسل بما فيهم إبراهيم وموسى سراق ولصوص، وهذا طعن فيهم يجرح نبوتهم ورسالتهم، وإذا كان هذا الزعم باطلاً ـ وهو باطل لأن الرسل منزهون عن السرقة واللصوصية ـ فإن المسيح يصبح كاذباً.

ونحن نرى المسيح منزهاً عن الكذب معصوماً كما نرى الأنبياء والمرسلين جميعاً، ولهذا لا يمكن أن نعد تلك الفقرة المنسوبة إلى عيسى وحياً أو إلهاماً، لأن في اتهام الرسل بالسرقة واللصوصية طعناً في الله عز وجل، لأنه بعث لهداية خلقه سراقاً ولصوصاً،

وتعالى الله أن يفعل ذلك، وإذا كان عيسى كاذباً فكيف يبعث الله كاذباً لهداية خلقه؟.

وسيأتي بالتفصيل نقدنا للأناجيل وبيان ما فيها من التناقض وما لا يتفق مع الحق والصدق بعد أن نعرف بهذه الأناجيل.

إن هذه الأربعة المختارة من الأناجيل التي زخر بها القرن الأول للميلاد - حسب ادعائهم - هي التي وقع عليها الاختيار، وأولها حسب ترتيب وجودها في المجلد الذي يضمها - إنجيل متى.

ومتّى - كما نعلم - حواري من المقربين المبشرين، ويقال إن إنجيله أقدم الأناجيل لأن تاريخ تأليفه يرجع إلى سنة ٦٠م على أرجح الأقوال التي ذكرها «هورن» في الباب الثاني من القسم الثاني بالمجلد الرابع من تفسيره المطبوع سنة ١٨٢٢م حيث قال: «ألف الإنجيل الأول سنة ٣٧ أو ٣٨ أو سنة ٤١ أو سنة ٤٨ أو سنة ٦١ أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ أو ٦٤ من الميلاد».

وهناك من يقول: إن إنجيل مرقس أقدم الأناجيل، ويعن للأب فرار فنتون مترجم الإنجيل - طبعة أكسفورد - أن إنجيل يوحنا أقدم لأنه كتبه بالعبرية سنة ثلاثين أو أربعين ثم نقله إلى اليونانية، ولكن ما عنَّ للأب فرار منقوض بما في إنجيل يوحنا نفسه لأنه توسع في شرح العقائد التي تنسب لبولس وتفصيل بعض ما أوجزته الأناجيل.

وكان تأليفه كما يرى المحققون باللغة العبرية، وذكر ابن

خلدون في مقدمته أن متى كتب إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي إلى اللاتينية، وذكر سعيد بن البطريق من القدماء وكثير غيرهما ما ذكراه إلا أن الأصح أنه كتب إنجيله باللغة الآرامية السائدة في سوريا وفلسطين وما جاورهما من البلدان، والآرامية ـ هذه ـ تغلبت على اللغة العبرية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد وصارت لغة تخاطب بني إسرائيل، وزوت العبرية حتى قصر استعمالها في الكتابة وشؤون الدين.

لمّا كانت اللغة الآرامية لغة شعب إسرائيل ألف متّى إنجيله بها لهم حتى يستطيعوا أن يفهموا ما فيه.

ولعل ما ذهب إليه ابن خلدون وغيره من تأليف متى إنجيله بالعبرية أنه كان في بيت المقدس، وألفه لليهود، فسبق إلى ذهبهم أنه ـ والأمر كذلك ـ ألفه بالعبرية.

ونسخة متى التي ألفها بالآرامية على أصح الأقوال أو بالعبرية على أكثرها اختفت من الوجود ولا يعرف مصيرها حتى اليوم، والموجود الترجمة اليونانية التي نقل إليها بعد تأليفه، لا الترجمة اللاتينية التي زعمها ابن خلدون وابن البطريق وغيرهما من المؤرخين، لأن الثابت المقطوع أن الترجمة اليونانية هي أولى الترجمات إطلاقاً، ثم نقل إلى لغات أخرى أولها اللغة العبرية.

ويذهب الدكتور بوست في «قاموس الكتاب المقدس» إلى أن تأليف متى إنجيله كان باللغة اليونانية مخالفاً الإجماع، وذكر أن

قوله يخالف الجمهور، وأن ما قاله ابن البطريق في قيام يوحنا بالترجمة اليونانية لا يؤيده فيه أحد.

والترجمة العبرية ترجمة الترجمة اليونانية.

أما أن يوحنا بن زبدي هو ا لذي قام بالترجمة اليونانية على رأي ابن البطريق فذلك قول لا يعتد به علمًا، ولا يعرف اسم المترجم يقيناً، بل هو مجهول، وفيها تحريف كثير لم يستطع أشد المسيحيين إخلاصاً وحماسةً للأناجيل إلا أن يعترفوا به.

فالعلامة نورتن الحامي القوي للإنجيل والمتحمس في الدفاع عنه رد على العلامة الألماني «أكهارن» عندما نقد إنجيل متى وأبان ما فيه من تحريف، وأثبت ذلك بالبراهين، ولكنه لم يستطع إلا الإقرار بالحقائق الثابتة وقال نورتن:

«لا يظن أحد أن هذا الرأي يتفرد به أكهارن وحده بل يشايعه فيه كثير من العلماء المتأخرين من الألمان، وما ثم كتاب لقي من الحفاوة ما لقيه كتاب أكهارن لدى الألمان».

وذكر نورتن حامي الإنجيل ـ كما يلقبونه ـ أن الإصحاحين الأولين من إنجيل متى ليسا من تصنيفه، وأن الفقرات التي تبدأ من الفقرة الثالثة إلى العاشرة بالإصحاح السابع والعشرين في قصة يهوذا الإسخريوطي كاذبة مقحمة، والفقرتان ٥٢ و ٥٣ من هذا الإصحاح نفسه مقحمتان.

واتفاق الآراء على أن متى ألف إنجيله بغير اللغة اليونانية

التي عرف بها، وإجماعها أنه ألفه بلغة أهل فلسطين وهي العبرية، والصحيح أن لغة أهل فلسطين الآرامية.

وفي كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق»[1]: نقل العالم جرجس زوين الفتوحي اللبناني في كتابه المطبوع سنة **١٣٧٨**هـ المترجم من الفرنسية إلى العربية أن متى كتب بشارته (إنجيله) بأورشليم سنة **٣٩**م على ما ذهب إليه القديس إيرونيموس، وسبب ذلك ـ كما يرى القديس أبيغانيوس ـ أنه كتبه إجابةً لليهود الذين آمنوا بالمسيح، أو إجابةً لأمر الرسل، ولم يكتبه باليونانية بل بالعبرية.

وقال جرجس زوين: إن بانتيوس ـ لما ذهب إلى الهند ليكرز بالإنجيل المسيحي في الهند ـ وجد إنجيلاً لمتى مكتوباً بالعبرية فصحبه معه إلى الإسكندرية وحفظ في مكتبة قيصرية لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت، وبعد فقدها ظهرت ترجمتها إلى اليونانية ولم يعرف الذي ترجمها.

وفي كتاب «مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين»[2]: «إن متى بموجب اعتقاد جمهور المسيحيين كتب إنجيله قبل مرقس ولوقا ويوحنا، ومرقس ولوقا كتبا إنجيلهما قبل خراب أورشليم، ولكن لا يمكن الجزم في أي سنة كتب كل منهم بعد صعود المخلص لأنه ليس لدينا نص إلهي بعد ذلك».

---

(١) صفحة ٢٠ ـ ٢١ وراجع تفسير المنار ٦: ٢٩٢ ـ ٢٩٤.

(٢) وراجع تفسير المنار ٦: ٢٩٢.

وقال مؤلف كتاب «ذخيرة الألباب» : «إن القديس متى كتب إنجيله في السنة ٤١ للمسيح باللغة المتعارفة يومئذ في فلسطين وهي العبرانية أو السيروكلدانية».

وقال: «ثم ما عتم هذا الإنجيل أن ترجم إلى اليونانية ثم تغلب استعمال الترجمة على الأصل الذي لعبت به أيدي النساخ الأيونيين ومسـخته بحيث أضحى ذلك الأصل هاملاً بل فقيـداً، وذلك منذ القرن الحادي عشر».

وقال: «يترجح أنه كتبه في نفس أورشليم» وقال: «إنما هو رواية جدلية عن المسيح لا ترجمة حياته».

وقال جيروم أحد علماء النصارى المتقدمين في حق ترجمة إنجيل متى: «لا يوجد إسناد هذه الترجمة، وحتى الآن لم يعلم باليقين اسم المترجم»[1].

وفي «إنسائي كلوبديا بوي» : «كتب هذا الإنجيل في السنة الحادية والأربعين باللسان العبراني، لكن الموجود منه الترجمة اليونانية، والتي توجد الآن ترجمة الترجمة اليونانية». [1]

وعندما عرض نورتن محامي الإنجيل في تفسيره المشهور للإصحاح السابع والعشرين من إنجيل متى وتناول الفقرات ٥١ ـ ٥٣ منه وهي : «والأرض تزلزلت، والصخور تشققت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من

---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق، صفحة ٢١.

القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين» أورد الأدلة على كذب هذه الرواية وقال ما نصه:[1]

«هذه الحكاية كاذبة، والغالب أن أمثال هذه الحكايات كانت رائجة لدى اليهود بعدما صارت أورشليم خراباً، فلعل أحداً كتب في حاشية النسخة العبرانية لإنجيل متى هذه الجملة وأدخلها الكاتبون في المتن، وهذا المتن وقع في يد المترجم فترجمها كما وجد».

وقال نورتن أيضاً: «إن مترجم إنجيل متى كان حاطب ليل، وما كان يميز بين الرطب واليابس، فما في المتن من الصحيح والغلط ترجمه»[1].

والمأثور عن علماء النصارى الأقدمين أن متى لم يكتب هذا الإنجيل، وإنما كتب بعض أقوال المسيح باللغة العبرية، ويحتج النصارى ـ الآن ـ على كون هذه الأناجيل التي لا سند لها لفظياً ولا كتابياً كانت معروفة في العصور الأولى بأقوال لأولئك العلماء المتقدمين»[2].

وأقدم شهادة يتناقلونها في ذلك شهادة «بابياس» أسقف هيرابوليس في منتصف القرن الثاني للميلاد، فقد نقل عنه «أوسابيوس» المتوفى سنة ٣٤٠م ما ترجمته: «إن متى كتب مجموعة

(١) الفارق بين المخلوق والخالق صفحة ٢١.

(٢) المنار ٦: ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

من الجمل بالعبرية وقد ترجمها كل حسب مقدرته»[1] .

وقال جامعو تفسير «هنري» و «إسكات» : «سبب فقدان النسخة العبرية أن الفرقة الأبيونية التي كانت تنكر ألوهية المسيح حرفت هذه النسخة (العبرية) وضاعت فتنة يورشالم (كذا) وأخرجت الفرقة الأبيونية فقرات كثيرة منه»[2] .

وقال لاردنر في الصفحة **١١٩** من المجلد الثاني من «الكليات» وبولس إلياس اليسوعي في كتابه «يسوع المسيح» صفحة **٢٢** : قال بابياس: «لقد كتب متى أعمال الرب باللغة العبرانية، وكان كل أحد يترجمها على قدر استطاعته» .

هذه الشواهد الكثيرة تصور إنجيل متى وتظهر حقيقته وقيمته، فغير معروف الوقت الذي كتب فيه، أهو سنة **٣٩** أو **٤٠** أو**٤١** أو **٤٨** أو **٦١** أو**٦٢** أو**٦٣** أو **٦٤**؟ .

وبأي لغة كتب؟

أباللغة العبرية أو الآرامية أو السيروكلدانية أو اليونانية؟ .

وأي لغة ترجم إليها أول ما ترجم؟ اليونانية أم اللاتينية؟ .

إن الأقوال كثيرة ومتناقضة، والكتب المقدسة تفقد قدسيتها إذا اختلف فيها القول والروايات.

---

(١) المنار ٦ : ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .
(٢) إظهار الحق ١ : ١٥٧ .

والنسبة إلى متّى ليست صحيحة من جميع الوجوه، فالإسناد منقطع، وظهور إنجيل متى وغيره من الأناجيل بغتة بعد وفاة مؤلفيها، وتحريفها وتكذيب بعضها بعضاً واحتوائها على ما لا يتفق مع الدين الحق والعقيدة الصحيحة وجلال الخالق العظيم دليل « انعدام » السند.

وقد مر ما قاله صاحب «ذخيرة الألباب» من ترجمة إنجيل متى إلى اليونانية وتغلبها على الأصل الذي لعبت به أيدي النساخ الأبونيين ومسخته حتى صار الأصل هملاً بل فقيداً.

فمن الذي قام بالمعارضة بين الأصل والترجمة؟ لا وجود له!.

ولماذا لم يبعدوا «لعب» أيدي النساخ ويطهروا الأصل منه؟ لماذا تركوه مع أنهم اهتدوا إلى هذا «العبث» المشين؟ لماذا أهملوه حتى فقد؟ أما كان فرضاً عليهم الاحتفاظ بالأصل المحرف ويزيلوا منه التحريف؟ وهل يصح الاعتماد على شهادة «بابياس» العائش في منتصف القرن الثاني، والتي يرويها «أوسابيوس» المتوفى سنة ٣٤٠م؟ أين التواتر الذي يثبت رواية هذه الأناجيل عن أصحابها؟ أين السند؟.

لا تجد جواباً إلا: هكذا كان، وهذا هو الواقع، وهذا هو الوحي!.

والترجمة اليونانية نفسها مزدحمة بالتحريف ، وبإقحام

فقرات فيها، وبوجود الكذب به مما ننزه عنه حوارياً مشهوداً له بالتقوى والصلاح والهداية والسلامة من الهوى.

إن كل ذلك يسقط كتاباً عادياً وينزع عنه الثقة فكيف إذا كان الكتاب كتاباً مقدساً يقوم على إثبات دين وعقيدة وحياة رسول؟.

لا شك أن يفقد قداسته ويسقط احترامه!.

وكيف يعتد بكتاب مقدس لا إسناد له باعتراف أئمتهم وعلمائهم؟

ومن المترجم ؟ أهو صادق موثوق به؟ أم كاذب ذو هوى حقود؟ أهو في مستوى الترجمة؟ أهو فاهم النصوص المقدسة وروحها ومعاني الكلمات التي تحتل عديداً من المعاني؟ أهو يوحنا الحواري أم هو متى نفسه؟.

إنه مجهول عن مجهول، وتكتنفه ألوان من الغموض والشك والإنكار، فكيف يراد تصديق ما فقد بواعث التصديق.

إن الذي ترجم الأصل أو ترجم إلى اليونانية ليس موثوقاً به مع أنه مجهول لأنه «حاطب ليل لا يميز بين الأخضر واليابس وما وجد في المتن من الصحيح والغلط ترجمه» كما يقول محامي الإنجيل البارع العلامة نورتن في وصف مترجم هذا الإنجيل! ولا يصح أن يكون يوحنا أو متى «حاطب ليل» ! وليس صحيحاً زعم من زعم أن يوحنا هو المترجم ولا زعم من زعم أن متى هو مترجم إنجيله!.

كيف يوثق بإنجيل متى بعد كل هذه الطعون المعمية التي أثخنته جراحاً، ومزقته شر تمزيق؟ وأين الترجمات الأخرى التي أشار إليها لاردنر في «الكليات»؟ لماذا اختفت؟.

وتاريخ التأليف والتدوين مجهول أو مختلف فيه اختلافاً شديداً، ولا وجود للأصل الذي ترجم إلى اليونانية، والمترجم المجهول حاطب ليل فاقد التمييز، وما ترجمه تبع له في الخلط، فهو كتاب فيه ما جمعه «حاطب الليل» من أخضر ويابس.

ولو كان المترجم معروفاً حق المعرفة ولم يكن حاطب ليل لتسامح المرء في قبول ما ترجمه بعد افتقاد الأصل، أما والأصل مفقود، والموجود ترجمته الخاطئة فإن من البديهي أن تفقد هذه الترجمة قيمتها فقداً تاماً.

ولو أننا تتبعنا متن الترجمة لوجدناه مزدحماً بالخلل والخطأ والخطل، ووجدنا فيه ما لا يتفق مع الإلهام المدعى به لمؤلفه الذي كتب إنجيله هذا لليهود رجاء إزالة نفرتهم من الدعوة الجديدة التي جاء بها المسيح، ويظهر لمن آمن منهم به حقيقة دعوته التي لا تتفق مع وحدانية اليهود.

وقد ذكر جامعو تفسير العالمين المسيحيين «هنري» و «إسكات» كلاماً كثيراً يفهم منه أن إنجيل متى لم يكن متواتراً في القرن الأول، وأن التحريف كان شائعاً في هذا القرن أيضاً بين المسيحيين، وإلا لما أمكن لأحد تحريفه، وإن وقع لا يكون سبباً

لترك الأصل، وإذا لم يسلم الأصل نفسه من عبث التحريف فكيف تظن السلامة بالترجمة التي لم يعلم صاحبها بالسند الصحيح الكامل، بل الحق إنها كلها محرفة.

وهناك من يذهب إلى أن إنجيل متى ليس من تأليفه، فقد ذكر «فاستس» من أكبر علماء فرقة «مانيكيز» في القرن الرابع ما نصه: «إن الإنجيل المنسوب إلى متى ليس من تصنيفه» بل ذهب الأستاذ «بروفسر» الألماني إلى الصراحة التامة فقال: «إن هذا الإنجيل كله كاذب» بل ذهب العلامة «نورتن» محامي الإنجيل في كتابه الضخم المطبوع في «بوسطن» سنة ١٨٣٧م إلى أبعد من هذا فقال: «إن الإنجيل المنسوب إلى متى ليس من تصنيفه، بل هذه ترجمته وهي محرفة».

وقال ج. بيوري في كتابه «حرية الفكر» صفحة ١٣٨: «والملاحظة الثانية أنه قد علم أن الإنجيل الأول ليس أقدمها، وأنه لم يؤلفه الرسول متى».

ويظهر لدارس إنجيل متى أن فيه خللاً كثيراً، وأغلاطاً ترهق من يحصيها، ويبدأ الغلط من الإصحاح الأول، وكل إصحاحاته ـ دون استثناء أحدها ـ مزدحمة بالمآخذ، ولو أردنا الإحصاء والنقد النزيه لكان علينا أن نكتب كتاباً ضخمًا، ولكن سنشير إلى نماذج ونقدم أمثلة من تلك الأغلاط فيما أعددنا له من مكان بهذا الفصل.

وميزة إنجيل متى الاهتمام ببني إسرائيل والعهد القديم،

فهو يصور شخصية المسيح من خلال قومه الإسرائيليين، ففلسطين «أرض إسرائيل» وأهلها هم «بنو إسرائيل» ومدنها «مدن إسرائيل» والله عز وجل «إله إسرائيل» وعاصمتها «مدينة إسرائيل» المقدسة (أورشليم) التي هي «كعبة إسرائيل وقبلتها» والله الآب اختار «بني إسرائيل» والرب يسوع المسيح اختار أيضاً «بني إسرائيل» فكان رسول الآب إليهم، وبدأ رسالته بينهم.

وعني متى بإظهار سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام من خلال نبوءات أنبياء بني إسرائيل في العهد القديم، فهو المسيح الذي تحدث عنه أولئك الأنبياء في نبوءاتهم حتى عرف بأنه «ابن داود» حيث كان المرضى ينادونه بهذه الكنية.

وصور استمساك المسيح بناموس موسى. وعني عناية خاصة بأن جعل «الاسرائيلية» هدفه وغايته، فالحواريون الاثنا عشر في عهده الجديد يجلسون على اثني عشر كرسياً بين يديه ليدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر الذين كانوا في العهد القديم، ومنح المسيح تلميذه «بطرس» سلطاناً على الكنيسة التي جعلها تقوم على «الصخرة» التي هي «بطرس» وتقوم مقام هيكل إسرائيل.

وإنجيل مرقس هو الإنجيل الثاني في ترتيب كتب العهد القديم، ومن النقاد من يذهب إلى أنه أسبق من إنجيل متى في التأليف فيقول ج. بيوري في كتابه «حرية الفكر» صفحة ١٣٨: «وهنالك شبه اتفاق على أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل».

ومرقس لم يكن له شرف صحبة المسيح والاجتماع به

والسماع منه، ومن المقطوع به أنه ـ لذلك ـ لم يكن من الحواريين الأثني عشر؛ وفي بعض الأقوال أنه من السبعين الألى نزل عليهم الروح القدس، وأن المسيح كان يتردد على بيته وأكل به الفصح مع تلامذته، وفي إحدى غرف منزله حل عليهم روح القدس، وكان يجتمع به الرسل بعد وفاة المسيح.

وهو يهودي من اللاويين كان اسمه «يوحنا» ولما دخل المسيحية أصبح اسمه «مرقس» وأمه مريم من أوائل المسيحيين في القدس، ويقال: إنه ولد سنة ١٨م.

ويظهر من سفر الأعمال أن قوم مرقس كانوا في أورشليم ومن ذوي اليسار واعتنقوا الدين المسيحي على يد بطرس فكانوا يدينون بالولاء والقدر له، وكان لهم صديقاً كما كانوا له، حتى أنه لما أنقذه الملاك من سجن هيـودوس كان أول ما فعل أنه توجه إلى دار أم مرقس حيث كان كثيرون مجتمعين بها.

وفي سنة ٤٥ صحب خاله «برنابا» والرسول بولس إلى أنطاكية يعينهما في التبشير، ثم عاد إلى القدس، وبعد مدة لحق بخاله وذهب معه إلى قبرص حيث قاما بالدعوة والتبشير بين أهلها، وظهرت على أيديهما كرامات وآيات فتنتهم بهما حتى اعتقدوا أنهما إلهان مما حملهما على تمزيق أثوابهما حزناً وخوفاً من ربهما، وأنكرا عليهم اعتقادهم فيهما ونصحاهم فاستغفروا وتابوا.

وفارق مرقس خاله ومضى إلى شمال إفريقيا مبشراً، وانتقل منها إلى مصر حوالي السنة الخمسين ونزل بالإسكندرية التي طابت له فاتخذها مستقراً له ومقاماً، وتبعه كثير من المصريين، وأسس بها أول كنيسة مسيحية ثم أنشأ بها أول مدرسة لاهوتية، ويتولى رئاسة الكنيسة التي أسسها مرقس أساقفة الأقباط الأرثوذكس الذين يعتبرون أنفسهم خلفاء مرقس، كما يعتبر بابوات كنيسة روما أنفسهم خلفاء بطرس.

وتعرف كنيسة الإسكندرية بالكرازة المرقسية نسبة إلى مرقس.

وتبع مرقس الرسول بطرس كبير الحواريين إلى روما، وأمضى معه شطراً من حياته ولم يفارقه إلا بعد أن قتل بطرس صلباً في أيام نيرون قيصر روما وذلك سنة ٦٧م فعاد إلى الإسكندرية وأقام بها داعياً حتى ثار عليه الوثنيون المصريون وسجنوه، ثم قتلوه سنة ٦٨م ودفن بها، إلا أن جثمانه حمل منها في القرن التاسع إلى البندقية (فينيسيا) ودفن بكاتدرائيتها المشهورة التي تحمل إسمه، وهي كاتدرائية سان ماركو، أي القديس مركس بالإيطالية.

وهو مؤلف أحد الأناجيل الرسمية كما يقولون، لأن من المسيحيين من يقولون إن الأناجيل جميعها ليست من تصنيف من نسبت إليهم، وساقوا براهين على إنكار هذه النسبة تجعل الحق معهم والحكم لهم، لأن الذين يزعمون أنها من تأليفهم لم

يستطيعوا أن يقدموا أي دليل يوثق به ويثبت أمام النقد الصحيح النزيه.

وعلى أي حال فالإنجيل المنسوب إلى مرقس صنفه «بطلب من أهالي رومية وكان ينكر ألوهية المسيح» وهذا نص ماجاء في كتاب «مروج الأخبار في تراجم الأبرار» تأليف بطرس قرماج، المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٠م.

والأقوال مجمعة على أنه ألفه في روما باللغة اليونانية، إلا أن سعيد بن البطريق يقول: «كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس عن مرقس في مدينة رومية ونسبه إلى مرقس».

وفي كتاب «مرشد الطالبين الى الكتاب المقدس الثمين» صفحة ١٧٠ : «قد زُعِمَ أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١م لنفع الأمم الذين كان تنصُّرُهم بخدمته».

وهنا لدينا ثلاثة أقوال:

الأول: أن مرقس هو نفسه مؤلف إنجيله.

الثاني: أن مرقس كتب إنجيله بتدبير مرقس.

الثالث: أن بطرس هو نفسه الذي كتب إنجيل مرقس عن مرقس ونسبة إليه.

وهناك أقوال أخر منها: الشك في نسبة الإنجيل إلى مرقس، ومنها: إنكار هذه النسبة إليه، ومنها أنه كتبه بعد موت بطرس

وبولس حسب قول القديس أريناوس الذي يقول: «إن مريد بطرس ومترجمه مرقس كتب بعد موت بطرس وبولس الأشياء التي وعظ بها بطرس» وأيد «لاردنر» في تفسيره والعالم «باسينج» قول أريناوس.

وما أظن جائزاً أو مقبولاً أن يكتب بطرس عن مرقس حياة المسيح، فبطرس أعلم منه بالمسيح والمسيحية وأوثق لأنه خليفة يسوع المسيح، وراعي خرافه وغنمه، وكبير الحواريين ومثبتهم، فلا يصح عقلاً أن يكتب بطرس عن مرقس.

وإذا افترضنا أنه كتبه عن مرقس فلماذا ينسبه إليه؟ ثم إن بطرس لم يكن يعرف اللغة اليونانية التي كُتِبَ بها إنجيل مرقس، فنسبة كتابتها إليه غير صحيحة.

وهناك اختلاف كبير في سنة التأليف، فكتاب «مرشد الطالبين» يذكر أنها سنة ٦١م ويذهب «هورن» أن مرقس أخذ في تأليف إنجيله من سنة ٥٦ إلى سنة ٦٥م ثم يرجح أنها سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ ويقول لاردنر: «أظن أن مرقس لم يكتب إنجيله قبل سنة ٦٣ أو سنة ٦٤ لأنه لا يرى وجه معقول لقيام بطرس في الروم قبل هذا التاريخ، وهذا التاريخ موافق للكاتب القديم أريناوس الذي قال: إن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس» وقال العالم باسينج ـ موافقاً أريناوس فيما ذهب إليه ـ: «إن مرقس كتب إنجيله في سنة ٦٦ بعد موت بطرس وبولس واستشهدا سنة ٦٥»

ويؤكد كليمان الإسكندري أن مرقس ألف إنجيله في حياة بطرس الذي مات قبل بولس.

وهذه الأقوال الكثيرة في تأليف إنجيل مقدس لا تتفق مع ادعاء وحيه لأن فيه اتهاماً للوحي نفسه بالتناقض والاختلاف، وإذا أضيف إلى ذلك ما في الإنجيل نفسه من متناقضات ومزاعم كان الاعتقاد بأن هذا الإنجيل غير موثوق به ولا تصح نسبته إلى كبير الحواريين أو إلى أحد تلاميذ المسيح الألى حل فيهم روح القدس أرجح من الظن في نسبته إلى بطرس أو مرقس.

فإذا أضيف إلى كل ذلك أن كل الأناجيل المنسوبة لمتى ومرقس ولوقا كانت مجهولة بحيث كانت الإشارة إليها في آخر القرن الثاني أو ابتداء القرن الثالث، إذ كان أول ذكر لها من قبل أريناوس سنة ٢٠٠م وهو الذي أورد أدلة على عددها.

وأريناوس (١٤٠ - ٢٢٢م) قديس وعالم شهير لدى المسيحيين، ولكلامه قيمته لديهم لأنه يتصل بسنده في التلمذة إلى المسيح نفسه، فأريناوس تتلمذ على «بوليكربوس» مطران إزمير الذي كان تلميذاً ليوحنا الحواري تلميذ المسيح وصاحب الإنجيل الرابع، ولأنه أسقف الكنيسة الفرنسية التي كانت بعاصمتها «ليون».

وأما كلمته التي تعتبر لديهم من أعظم الشهادات فهي قوله: «إن الأناجيل الموحى أربعة ليس إلا، وقد جمع هذا العدد الروح القدس، فلا سبيل إلى الزيادة عليه، وقد كتب الانجيليون

الأربعة هذه الأسفار المقدسة ودفعوها إلينا لتكون أساس معتقدنا وعموده في المستقبل إلخ[1]».

ولكن «كليمان» الإسكندري (١٥٠ - ٢١٧م) اجتهد كثيراً في مسألة تقرير الأناجيل الصحيحة من الزائفة فأظهر في سنة ٢١٦م أن هذه الأناجيل (المعروفة) هي التي يجب التسليم بها.

إذا أضيف هذا الذي ذكرناه إلى ما سبق من الأقوال واختلاف الآراء في سنة التأليف فإن إنكار نسبة إنجيل مرقس إليه يصبح حقيقة لا غبار عليها بعد أن قال الباحثون المسيحيون - وفيهم رجال دين - كلمتهم عالية في إنكار هذه النسبة.

وإذا كان القول الراجح أن أول إشارة الى الأناجيل كان من قبل أريناوس سنة ٢٠٠ فإن هناك إشارة سبقته وهي إشارة «بابياس[2]» الذي كتب سنة ١٣٥م يقول: «قال يوحنا الرسول الشيخ: إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس» و«كان يوحنا الرسول الشيخ يقول: إن مرقس دوّن أقوال المسيح وأعماله بكل دقة، ورغم أنه لم يعرف الرب ولم يرافقه لكنه رافق بطرس الذي كان يبشر وفقاً لحاجة السامعين دون ترتيب في نقل الأخبار».

---

(١) الآباء اليونان ٧: ٨٤٤ و ٤٨٤ و ٢٠: ٤٥٠ (كتاب يسوع المسيح).

(٢) بابياس: ولد سنة ٩٥ وتوفي سنة ١٦٥م وهو مؤرخ كبير، وأسقف هيربوليس، وعرف بعض تلاميذ الرسل وكان صديقاً لبوليكربوس تلميذ يوحنا الرسول.

وسواء كانت إشارة بابياس سنة ١٣٥ أم لم تكن فإن انقطاع الإشارة إلى الأناجيل في كتب المؤرخين قبل هذا التاريخ دليل على جواز إنكار النسبة وجواز الشك في نسبة تلك الأناجيل.

ومما لا شك فيه أن إنجيل متى وإنجيل مرقس يكادان يكونان واحداً، ففي إنجيل مرقس ٦٦١ فقرة تتفق ٦٠٠ فقرة منها مع ما جاء في إنجيل متى من فقرات، واشتراكهما في هذا العدد الكبير من الفقرات يجعل الإنجيلين واحداً، والمشابهة بينهما حملت بعض النقاد على أن يعتقدوا أن إنجيل مرقس مختصر من إنجيل متى.

وفي إنجيل مرقس ٣٥٠ فقرة تكاد توجد بنصها في إنجيل لوقا، وهناك فقرات مشتركة بين لوقا ومتى.

فإذا صح أن مرقس أسبق من متى يكون متى ولوقا أخذا منه، وإذا كان متى الأسبق فيكون مرقس ولوقا آخذين منه، ويجوز أن الثلاثة أخذوا من إنجيل مفقود حتى اتفقوا في كثير، ويؤيد هذا الرأي ما ذهب إليه «ليكرك» و«كوب» و«ميكايلس» و«لسنك» و«يتمير» و«مارش» الذين قالوا: «لعل متى ومرقس ولوقا كانت عندهم صحيفة واحدة في اللسان العبري، وكانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيها فنقلوا عنها، فنقل عنها متى كثيرا، ومرقس ولوقا قليلاً[1]».

ومن هذا الاتفاق في الأخبار والوصايا على اختلاف

(١) تفسير هورن المطبوع سنة ١٨٢٢م بالصفحة ٢٩٥ من المجلد الرابع (إظهار الحق).

الترتيب، والاشتراك في الفقرات، والاتحاد في الموضوع والمحتوى عرفت أناجيل متى ومرقس ولوقا بأناجيل المقابلة، لأن في الوسع معارضة فقراتها بعضها ببعض بحيث إذا قسمنا الصفحة إلى ثلاثة أعمدة، وخصصنا كل عمود بإنجيل وأفرغنا الفقرات المشتركة في الأعمدة الثلاثة التي نخص كلاً منها بإنجيل لوجدنا الاتفاق والاشتراك والاتحاد من الوضوح الجلي لكل قارىء.

ويمكن تأليف إنجيل واحد من هذه الأناجيل الثلاثة وطرح ما بقي من المكرر دون أن نفقد فقرة من الفقرات ودون أن يكون هناك فراغ من إبعاد إنجيلين منها، لأن ما بقي يحوي ما في الثلاثة جميعاً.

وإذا علمنا أن تقسيم الإنجيل إلى إصحاحات، والإصحاح إلى جمل وفقرات، كان في القرن الثالث عشر الميلادي ولم يكن ذلك قبل هذا التاريخ، لأن كل إنجيل من هذه الأناجيل الثلاثة كتب محتواه دون أن يوزع إلى أبواب ودون وضع أرقام للفقرات بل سرد سرداً مرسلاً كما ترسل الجملة الواحدة كان الاعتقاد بأن أصل الثلاثة واحد سائغاً مقبولاً.

وإذا كان هناك خلاف في فقرات فمرده إلى اختلاف الكتاب الذين أخذوا من الأصل وحرفوا زيادة ونقصاً، وهذا الاختلاف الذي يضاف إليه التناقض في المحتوى ناجم عن عبث الأيدي.

ويمتاز إنجيل مرقس بتفرده بذكر معجزات للمسيح لم يذكرها سواه مثل معجزة شفاء الأخرس وأعمى بيت صيدا.

وإنجيل مرقس يصلح أن يكون «مفكرة» للوعاظ يساعدهم على استذكار ما يتعلق بالمسيح وألوهيته وديانته كما يقول الأب دي جران نيرون.

والبساطة والسذاجة طابع إنجيل مرقس، وهما اللتان دعتا الناقد الفرنسي المشهور «تين» أن يقول: «مرقس! ياله من عامل طيب القلب ساذج بسيط صادق في كل مايقول».

ويذهب الأب «هوبي» في كتابه «الإنجيل والأناجيل» أن ما سمعه مرقس من معلمه بطرس يورده في دقة وأمانة، وقد عودت بطرس مهنة صيد السمك التي كان يمتهنها دقة النظر وشدة الملاحظة وسرعة المراقبة.

ومع ما يصفه تين وهوبي فإن الأب بولس الياس اليسوعي الذي أورد في كتابه «يسوع المسيح» أقوالهما يقول في مرقس: «لا يتبع فيما يقول نظاماً أو ترتيباً مما يدل على جهل فاضح لفن الكتابة والتزويق».

ولكن، أيكفي نسبة الإنجيل إلى مرقس من أجل هذه الأقوال؟ لماذا لا يوصف من نحله إياه بهذه الصفات؟

ثم إن إنجيل مرقس يمتاز على غيره بأنه خاطب به «الأمم» في حين أن متى خاطب اليهود وحدهم، ولوقا تناول المسيح من الوجهة الروحية كأنه طبيب أرواح أو طبيب روحاني، ويوحنا كان خاضعاً للفلسفة وبخاصة الرواقية في الكلمة (Logos) فمرقس

ليس أبله مغفلاً، والبساطة والسذاجة طابع أكثر إنتاج تلك القرون.

وإنجيل لوقا هو ثالث أناجيل المقابلة، ولوقا لم يكن من تلامذة المسيح ولم يره، ولم يكن من تلامذة تلاميذه، بل كان صاحب بولس وصفيه وتلميذه وأكبر أعوانه.

وقيل: إن ولادته كانت بأنطاكية، ولكن الدكتور بوست يرى في كتابه «قاموس الكتاب المقدس» أنه روماني نشأ في إيطاليا، وزعم أن من ظن ولادته بأنطاكية واهم، ويذكر المؤرخ «أوسابيوس» أن لوقا يعود بأصله إلى أنطاكية، وبثقافته إلى اليونانية التي كان يتقن لغتها.

ولم يكن من أصل يهودي، وظُنَّ أنه إغريقي متهود لأنه كان يعتمد على الترجمة السبعينية اليونانية عندما يذكر الكتاب المقدس، وقيل: إنه وثني هاد إلى الحق وآمن به.

وكان لوقا طبيباً، وقيل: كان مصوراً، ولا يستبعد أن يكونهما، فمن الجائز أن يكون طبيباً ومصوراً، فكثير من الناس لا يقتصرون على مهنة، ويجوز أن تكون مهنته الطب وهوايته التصوير.

وتوفي في بيتينيا بآسيا الصغرى في سنة ٧٤م وقيل: سنة ٧٠.

وهو أحد مؤلفي الأناجيل الرسمية، وعلمه بالطب جعله

موفقاً في تأليفه كما يقول بعض المؤرخين ومنهم القس إبراهيم سعيد الذي يقول: «سرد (متى) ولادة المسيح من غير أب سرداً طبيعياً هادئاً من غير محاولته التدليل على جوازه، ويؤخذ منه أن ذلك ليس ضد العلم، وإن كان فوق متناول العالم، وليس ضد الطبيعة وإن كان فوق مجرى الطبيعة».

ويزعمون أن لوقا لقي العذراء عليها السلام، ولكن لا دليل على ذلك إلا تأويل لا يوصل إلى إثبات اللقاء، وهذا الدليل ماجاء في إنجيل لوقا في قصة ولادة مريم (٢ : ١٩): «وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها».

وطبيعي أن تفكر أم تلد هذا الميلاد الخارق الذي بشرت به من قبل الروح القدس، وليس فيه أي إشارة - ولو خطفاً - إلى لقاء تم بين لوقا والعذراء.

ويقول صاحب «ذخيرة الألباب»: «قد أغفل متى ومرقس بعض حوادث وأمور تتعلق بسيرة المسيح، وقام بعض الكتبة واختلقوا ترجمة مموهة ليسوع المسيح، وكثيراً مافاتهم فيها الرواية والتدقيق، فبعث ذلك بلوقا على وضع إنجيله ضناً بالحق، فكتبه باليونانية، وجاء كلامه أصح وأفصح وأشد انسجاماً من كلام باقي مؤلفي العهد الجديد، وذهب كثير من المحققين إلى أنه كتب إنجيله في السنة **٥٣** للمسيح، وقيل: بل سنة **٥١**».

وقال: «يكشف النقاب عن الأغلاط المدخولة في تراجم

حياة المسيح المموهة وينفي كل ركون إليها» ويقصد بالتراجم المموهة الأناجيل التي لم تعترف بها الكنيسة وردتها.

وذكر صاحب «ذخيرة الألباب» أن لوقا كان يحمل إنجيل متى وإنجيل مرقس، واقتبس منهما ما وافقهما عليه.

وافتتح لوقا إنجيله بقوله من الإصحاح الأول: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علّمت به».

وثاوفيلُس هذا قيل عنه إنه مصري، وقيل: إنه يوناني.

وينسب إلى لوقا تأليف سفر «أعمال الرسل» المقدس.

ويذكر الدكتور بوست في قاموسه أن «هذا الإنجيل كتب في «قيصرية» بفلسطين قبل خراب أورشليم وقبل أن يؤلف سفر الأعمال، وكانت كتابته للإنجيل مدة أسر بولس سنة ٥٨ ـ ٦٠م غير أن آخرين يظنون أنه كتب قبل ذلك التاريخ».

ويؤكد الأب بولس اليسوعي في كتابه «يسوع المسيح» ص ٢٧ ـ ٢٨ أن لوقا ألف إنجيله وكتاب الأعمال قبل سنة ٧٠ أي قبل خراب أورشليم، وهذا نص قوله: «وضع إنجيله وكتاب أعمال الرسل، ومن الثابت أنه كتب إنجيله قبل سنة ٧٠ أي قبل خراب أورشليم وإلا لما كان أخطأ كمتى ومرقس فهم نبوءة المسيح عن هذا

الحدث الهام، وهذا دليل على أن الإنجيليين رددوا أقوال المسيح على علاتها دون أن يفهموها في بعض الأحايين».

ونحن إزاء أقوال كثيرة بعضها يخالف بعضاً، فلا تُعْرَفُ بالدقة سنة التأليف، بل الأقوال فيها متعددة، فكل سنة من هذه السنوات نسب إليها التأليف فيها، وهي سنة ٥١ و٥٣ و٥٨ و٦٠م وقيل سنة ٧٠ أي قبل خراب أورشليم، وسنة ٦٣ أو ٦٤ كما ذكر هورن.

وكل هذا يقصد منه أنه ألف قبل سنة ٦٣ التي كان فيها بولس سجيناً ثم أطلق ولا يعرف له خبر موثوق به عن طريق سليم ليثبوا منه إلى ادعاء اطلاع بولس على إنجيل صفيه الحبيب لوقا.

ونحن نرى أن بولس لم يطلع على إنجيل حبيبه وصفيه لوقا، فالعلماء الثقات البروتستانت ذهبوا إلى أن لوقا ألف إنجيله سنة ٦٣ في مدينة «أخيا» من بلاد المشرق، وفي كتاب «مرشد الطالبين[١]»: أن لوقا كتب إنجيله في أخيا سنة ٦٣م والرسول بولس أطلق من الأسر سنة ٦٣ م ولا يعلم بالدقة تاريخ حياته منذ إطلاقه حتى الموت، والمقول أنه قصد إسبانيا والمغرب ولم يقصد الكنائس الشرقية.

يقول هورن[٢]: «لما لم يكتب لوقا حال بولس بعد الإطلاق

(١) الفصل الثاني من الجزء الثاني، صفحة ١٦١ طبع سنة ١٨٤٠م.
(٢) في تفسيره المشهور المطبوع سنة ١٧٢٨م بالمجلد الرابع، صفحة ٣٣٨.

لم يعلم بالخبر الصحيح حاله من الظعن أو الإقامة منذ هذا الإطلاق الذي كان في سنة ٦٣».

وحري أن نفهم أن بولس لم ير إنجيل لوقا لأن أي إشارة لم ترد فيه، وسفر الأعمال الذي كتبه لوقا في سيرة معلمه بولس ينتهي بهذه الجملة: «وأقام بولس سنتين كاملتين في بيت استأجره لنفسه، وكان يقبل جميع الذين يدخلون إليه كارزاً بملكوت الله ومعلمًا بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع».

وإذا كان بولس قد ألف إنجيله في سنة ٥١ أو ٥٣ فكيف يؤرخ أسره والقبض عليه في أورشليم وإرساله إلى روما وكل هذه الحوادث وقعت بعد سنة ٥٧ قطعاً؟ وإذا كان في سنة ٥٨ أو ٦٠ فيكون تأليفه الإنجيل وبولس أسير.

وكان بولس حريصاً على زيارة روما، وبعد أن زار أورشليم آخر زيارة لها وقبض عليه فاستنجد بالقيصر لأنه روماني الجنسية فأرسل إلى روما للمحاكمة حوالى سنة ٥٧ أو٥٩ ثم قتل سنة ٦٧م.

وفي سفر الأعمال ٢٠: ٢٢و٢٥ أن بولس عقد محفلاً للقسوس في بلدة ميليتس حيث استدعى إليها قسوس الكنيسة من أفسس وقال لهم: «والآن أنا ذاهب إلى أورشليم مقيداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفني هناك» و«والآن ها أنا أعلم أنكم لا ترون وجهي أيضاً أنتم جميعاً الذين مررت بينكم كارزاً بملكوت الله».

وفي رومية ١٥ : ٢٤ : «فعندما أذهب إلى أسبانيا آتي إليكم لأني أرجو أن أراكم في مروري».

ورسالته الى أهل رومية وجهها من كورنتوس باليونان سنة ٥٦ أو ٥٧م قبل شخوصه إلى أورشليم والقبض عليه بها ثم إرساله إلى روما بقليل، فإذا صح أنه وجه الرسالة سنة ٥٧ يكون القبض عليه وسوقه إلى روما في السنة نفسها.

ولم يسبق لبولس أن حقق أمنيته بالذهاب إلى إسبانيا، ويجوز أنه ذهب إليها بعد إطلاقه من الأسر، فقد قال كليمان أسقف الروم: «إن بولس وصل إلى أقصى المغرب معلما لجميع العالم الصدق» وبعدما استشهد بولس ذهب كليمان إلى الموضع المقدس كما يقول.

وهذه الفترة التي تبدأ بعد إطلاقه ثم إعادته إلى السجن وإعدامه سنة ٦٧ ليست معروفة مما يدل على أن بولس لم يطلع على إنجيل لوقا.

وقد ذكروا أن لوقا كان يحمل إنجيل متى ومرقس واقتبس منهما ما وافقهما عليه كما جاء في «ذخيرة الألباب» وفي كتاب «يسوع المسيح» للأب بولس[1] ومرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس كما ذكر القديس أريناوس، فإذا صح ما يقوله أريناوس فإن

(١) في صفحة ٢٨٠ من كتاب «يسوع المسيح».

من البديهي أن يكون لوقا كتب إنجيله بعد موت الرسولين المسيحيين لأنه كان يحمل إنجيل مرقس ويقتبس منه.

وهناك من ينفي كتابة لوقا للإنجيل المنسوب إليه، وهناك ثقات يقولون: إن بولس نفسه هو الذي كتب إنجيل لوقا لمشابهة أسلوبه أسلوب رسائل بولس[1] مما حمل هؤلاء الثقات على هذا الإدعاء.

ويؤكد هذا أن لوقا متأثر إلى حد بعيد في مروياته ببولس «وهذا ما انتبه له آباء الكنيسة القدامى كالقديس أريناوس وإكليمنضوس الإسكندري وأوريجانوس وترتليانوس وأوسابيوس»[2].

و[2]«مما لا ريب فيه أن الفكرة الأساسية التي ملكت على بولس مشاعره فعبر عنها في رسائله بأساليب مختلفة هي فكرة رفق الله بالبشر (فيلنتروبيا) وهذا الرفق بهم هو ماحمله على إقالتهم من عثارهم فأرسل إليهم ابنه الوحيد ليفتديهم على الصليب وينتقل بهم من عهد الناموس الموسوي إلى عهد النعمة، وهذه الفكرة هي التي هيمنت على إنجيل لوقا».

وهذا اعتراف لمسيحي محدث ذي مكانة في الكنيسة هو الأب بولس إلياس اليسوعي يدل على تأثر لوقا ببولس، وهو ـ بعد

---

(١) تفسير المنار ٦: ٢٩٦.
(٢) في صفحة ٢٨٠ من كتاب «يسوع المسيح».

ـ دليل على أن لبولس يداً في إنجيل لوقا، فإذا أضيف إليه قول من قالوا: إن بولس هو المؤلف كان ما سبق قرينته تؤيد هذا القول.

وموجز القول: إن الشك يجلل إنجيل لوقا كما يجلل سواه، وهو مليء بالمتناقضات زاخر بالتحريف مثل غيره من الأناجيل، وخيرها إنجيل متى لأن من نسب إليه حواري من تلامذة المسيح، وإنجيله أقرب إلى التوحيد وأبعد عن الوثنية من سائر الأناجيل الرسمية[1].

وإنجيل يوحنا آخر الأناجيل كتابة، وإن كان الأب فرافنتون مترجم الإنجيل طبعة أكسفورد يرى أنه أقدم الأناجيل، وأن يوحنا كتبه بالعبرية في الفترة الواقعة بين سنة ثلاثين وسنة أربعين من الميلاد، ثم ترجمه إلى اليونانية، غير أن رأيه غير صحيح لأن هذا الإنجيل فصل ما أوجزته الأناجيل السابقة، واستعان بالتعبيرات الفلسفية، وتوسع في شرح العقائد التي أثرت عن بولس، ويظن أنه كتب سنة ست وتسعين[2].

ويوحنا من الحواريين الإثني عشر، وفي طليعتهم، ويقال: إنه حبيب المسيح وأحب الحواريين إليه، وأبوه زبدي من السابقين إلى المسيحية ومن أئمة دعاتها الأولين، وأما أمه «سالومي» فقديسة شهيرة رددت الأناجيل ذكرها، وهي قريبة سيدتنا مريم العذراء عليها السلام.

(١) تفسير المنار ٦: ٢٩٤.

(٢) حياة المسيح للعقاد، صفحة ١٩٣.

وشقيقه يعقوب من الحواريين الإثني عشر أيضاً، ويقال: إن سالومي أحضرت ابنيها يوحنا ويعقوب للمسيح فباركهما وأجلس كل منهما على فخذه، ويعرف بيعقوب الكبير، وقتل شهيداً سنة ٤٤م.

ويوحنا آمن بالمسيح وصحبه حتى آخر حياته، وحضر صلبه فاستودعه أمه وهو مصلوب، وكان من أشد الحواريين إخلاصاً للمسيحية وحماسة في الدعوة إليها، فعذب واضطهد، ومات بين سنة ٩٨ وسنة ١٠٠م وزعم بعض المؤرخين أنه ذهب إلى روما داعياً ومبشراً فاضطهد فيها، وقد ذكر جرجس زوين الفتوحي اللبناني تلميذ الرهبان اليسوعيين في الكتاب الذي ترجمه وطبعه سنة ١٨٧٣م أن الملك روميسياوس حكم على يوحنا عندما كان في روما بإلقائه في زيت مغلي، فألقي فيه ولكنه لم يمت، فنفوه إلى جزيرة «بطمس» وهو زعم غير صحيح، والصحيح أنه نفي إلى جزيرة «بطمس» ثم عاد إلى أفسس حيث أقبل عليه عشاق المسيحية وطلاب العلم مثل بوليكربوس مطران أزمير، وألف إنجيله وهو في أفسس.

وكان يوحنا وأخوه يعقوب صيادي سمك مثل بطرس، وسبب إيمانهم أن المسيح رآهم فدعاهم فتركوا صيدهم وتبعوه.

وفي متى ومرقس: أن يوحنا وأخاه كانا في سفينتهما يصلحان الشباك فدعاهما فتركاها مع أبيهما ومضيا معه، وفي لوقا: أنهما كانا شريكي بطرس، لما دعاهم المسيح تركوا سفينتهم وتبعوه.

وكانت حياة يوحنا كسائر الحواريين حياة زهد وصلاح وبر ودعوة إلى الخير حتى لقي ربه في شيخوخة صالحة.

وهو أحد من نسبت إليهم الأناجيل، فالإنجيل المعروف بإنجيل يوحنا له، وهو آخر انجيل رسمي تأليفاً، وتنسب إليه من أسفار العهد القديم ثلاث رسائل وسفر الرؤيا.

ويغلب على إنجيل يوحنا فكرة الفلسفة «وبرأه بالكلام عن «الكلمة» Logos ووصف في التجسد الإلهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة[1]».

ولا يعرف بالضبط تاريخ تأليفه، فالأقوال كثيرة منها أن سنة التأليف سنة ٣٠ أو ٤٠ على قول الأب فرانتون مترجم الإنجيل طبعة أكسفورد، أو سنة ٨٥ على قول الأب بولس إلياس اليسوعي في كتابه «يسوع المسيح» صفحة ٣١، أو سنة ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٨ على قول الدكتور بوست، أو سنة ٦٨ أو ٦٩ أو ٧٠ أو ٨٩ أو سنة ٩٨ على قول هورن، أو سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم كما جاء في «مرشد الطالبين» الذي روى سنة التأليف بعد جملة «فإن بعضهم يزعم أنه كتب سنة ٦٥ قبل خراب أورشليم» ويقول: «لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التي فيها كتب يوحنا إنجيله».

وهنا اثنا عشر قولاً، وهناك أقوال أخرى، وكلها مختلفة،

---

(١) حياة المسيح، للعقاد. صفحة ١٩٤.

ومن المؤسف أن تكون سنة تأليف هذا الإنجيل وسائر الأناجيل مجهولة، وإذا كان الإنجيل أعظم ما في الوجود كله بعد الله الآب والله الإبن ـ أولا ضرورة لبعد ـ لأنه الوحي المقدس فإن الجهل بمعرفة سنة كتابته لا يتفق مع قدسيته وجلاله.

وروح القدس الذي هو «الله» عند المسيحيين أيضاً يبرز لهم دائماً، وبرز ليوحنا نفسه عندما أراد تأليف إنجيله، فلماذا لا يقرر لهم سنة تأليف كل إنجيل لئلا تبتلعهم المتيهات وينقذهم من هذا الحرج؟.

أيصح أن يكون الكتاب المقدس لمئات الملايين من البشر مجهولَ تاريخِ تأليفه؟.

وتسلمنا المتيهات بعضها إلى بعض إذا أردنا بحث الأناجيل بإنصاف وعدل، فبعد تاريخ التأليف نجد من المتناقضات والضلالات والأوهام والأغلاط ما لا حصر له.

وجميع الفرق والنحل المسيحية في العصر الحاضر مؤمنة أن إنجيل يوحنا من تأليفه، ومجمعة على اعتباره كتاباً مقدساً موحى به، وأنه من تأليف يوحنا بن زيدي الحواري الحبيب.

ولكن ذلك مطعون منذ القدم، فكثير من أئمة الباحثين القدامى في المسيحية ينكرون إنجيل يوحنا إنكاراً شديداً، وينكرون به كل ما أسند إلى يوحنا من أسفار العهد الجديد، ذاهبين إلى أن مانسب إلى يوحنا من إنجيل ورسائل إنما هو من تأليف غيره.

بل كانت بعض الفرق المسيحية القديمة في أواخر القرن الثاني للميلاد تنكر كل ما ينسب إلى يوحنا مثل فرقة أوجين.

وجاء العلماء المحدثون وأيدوا أقوال المنكرين تأييداً، وفيهم أكبر الباحثين الثقات من المسيحيين ممن اشتركوا في كتابة «دائرة المعارف البريطانية» إذ قالوا في مادة أناجيل ما ترجمة نصه:

«لا مراء ولا شك في أن إنجيل يوحنا كتاب مزور أراد مؤلفه أن يوقع بين اثنين من الحواريين هما القديس يوحنا والقديس متى، ولقد ادعى هذا المؤلف في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت أن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، والذين يبذلون غاية جهودهم ليربطوا - ولو بأوهى رابطة - ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في القرن الثاني من الميلاد بالحواري يوحنا الصياد الجليلي لن تثمر محاولاتهم غير الإخفاق لأنهم يمضون على غير هدى».

وفي دائرة المعارف الفرنسية المعروفة باسم «لاروس القرن العشرين» ينسب ليوحنا هذا الإنجيل وثلاثة أسفار أخرى من العهد الجديد ورؤ يا يوحنا، «ولكن البحوث الحديثة في مسائل الأديان لا تسلم بصحة هذه النسبة».

ولم يقتصر الإنكار على الهيئات والمحافل العلمية الكبرى بل نجد أئمة الفكر الإنساني من ذوي النزاهة والقصد من المسيحيين

أنفسهم أنكروا نسبة ما نسب إلى يوحنا من أسفار العهد الجديد إليه، فالعلامة «إستادلن» يقول: «إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية».

وهذا حق، فما في إنجيل يوحنا من لاهوت المسيح والوثنية متفق مع مذهب مدرسة الإسكندرية الفلسفية التي كانت تقول بلاهوت الكلمة وبكثير من عقائد الوثنيين.

ويقول البرت شنيدر: «إن هذا الإنجيل كله ورسائله ليس من تصنيفه، بل كلها من تصنيف أحد الناس في ابتداء القرن الثاني ونسبه إلى يوحنا ليعتبره الناس».

وهناك من أنكروا إنجيل يوحنا مع الأناجيل الثلاثة جملة، وهم كثير من أكبر العلماء المحققين في القديم والحديث، فالعلامة «فاستس» من أكبر علماء فرقة «مانيكيز» في القرن الرابع للميلاد يقول: «إن هذا العهد الجديد لم يصنفه المسيح ولا الحواريون بل صنفه رجل مجهول الإسم، وقد نقل أكستاين أكبر علماء المسيحية في القرن الرابع وعمدة أهل التثليث حتى اليوم ما قاله فاستس.

والتحريف كان من العصر الأول، فالرسول المقدس بولس يعترف بوجود من يحرفون في رسالته التي كتبها لأهل غلاطية إذ يقول: ١ : ٦ ـ ٧: « يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح » ويحولوا أي يحرفوا، وفي طبعة لندن « يحرفوا » بدل « يحولوا » كما أذكر، وكلاهما بمعنى واحد في هذا السياق.

ويقول آدم كلارك في المجلد السادس من تفسيره: «الأناجيل الكاذبة كانت رائجة في أول القرون المسيحية، وكثرة هذهْ الأكاذيب دفعت لوقا إلى تحرير الإنجيل».

ويقول جيروم: «عندما أردت ترجمة العهد الجديد قابلت نسخه التي كانت عندي فوجدت بينها اختلافاً عظيمًا».

وإذا كان التغيير والتحريف بجميع ضروبهما قد دخلا الكتب المقدسة فمن البديهي أن يكون ما قيل في إنجيل يوحنا وسائر ما نسبت إليه كتابته حق.

وإذا كانت الإضافة والإقحام أمراً مرغوباً فيه أحياناً، وغير مكروه أحياناً فإن ذلك يثبت فقد الثقة بالأناجيل عامة، وسيأتي ذلك في نقد الأناجيل، أما إنجيل يوحنا هذا الذي نسب إليه فإن فيه الإصحاح الأخير ذا الرقم الواحد والعشرين لم يكن فيه، بل أضيف إليه بعد موت يوحنا كما يذكر العلامة المحقق المشهور كرونيس الذي يقول: «إن هذا الإنجيل كان عشرين إصحاحاً، فألحقت به كنيسة أفاس الإصحاح الحادي والعشرين بعد موت يوحنا».

وإنجيل يوحنا يعد أعظم أناجيل المسيحيين الرسمية لأنه الوحيد الذي عني كل العناية بلاهوت المسيح والكلمة ونص على ذلك صراحة «وبغية يوحنا في إنجيله إظهار ألوهة يسوع الذي عرفه ورآه ولمسه، والذي يريد أن يرسخ في الأذهان أنه هو الله وابن الله والوريث الشرعي للعهد القديم، لذلك عني بجمع ما

يثبت هذه الحقيقة من خطب المسيح وعجائبه[1]» و«إن يوحنا رأى وسمع ووعى ثم استذكر وأطال التأمل والتبحر فدوَّن مادوَّن في إنجيله شهادة للحق والمحبة»[1].

والتبحر الذي يوصف به يوحنا غير صحيح، فهو صياد جليلي لم يكن على علم بفلسفة اليونان، وما كان لمثله أن يفهم فلسفة «الكلمة».

ومتى الذي كان عشاراً لم يفطن إلى هذه الفلسفة، مع أن العشار موظف ذو ثقافة ومعرفة أكثر من صياد سمك، وإلا لما أسند إليه منصب يقتضي صاحبه أن يكون عليمًا بالحساب والكتاب والنظم والقوانين والتشريعات.

ولوقا الطبيب صاحب الثقافة الواسعة لم يدرك فلسفة الكلمة التي أدركها يوحنا صياد السمك.

وما أظن أن العقل يقبل وصف يوحنا بالتبحر والعلم بالفلسفة وهو «عديم العلم وعامي» كما جاء هذا الوصف في سفر الأعمال (٤ : ١٣) وهذا نصه: «فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميان تعجبوا».

فعدم العلم والعامية صفتان من صفات يوحنا، وأنَّى لمن هذه صفته أن يؤلف إنجيلاً قائمًا على لاهوت الكلمة والمسيح

---

(١) يسوع المسيح ص ٣٢ و ٣٣.

وفكرة الصلب والفداء والتناول وغير ذلك من طقوس المسيحية الموجودة بحذافيرها في الديانات الوثنية.

والمسيح الذي يصوره إنجيل يوحنا غير المسيح الذي تصوره ثلاثة الأناجيل الأخرى، حتى أن «هردر» ذكر في سنة ١٧٩٦م أن ما بين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح إنجيل يوحنا من الفوارق ما لا يمكن التوفيق بينه[1]».

فثلاثة الآناجيل الأولى عرض لسيرة المسيح وبعض أقواله وخطبه وأعماله وآياته، أما إنجيل يوحنا فليس سيرة المسيح وحسب، بل هو وصف التجسد الإلّهي الذي نراه في فلسفة اليونان وبعض الديانات الوثنية في الشرق وفي الغرب عندما كان غارقاً في الهمجية والتأخر، وعرض للاهوتية المسيح والكلمة من وجهة النظر الفلسفية.

فالخلاف بين يوحنا ومن سبقوه كبير، والمخالفة بينه وبين متى ـ خاصة ـ من اتساع هوتها لا تضيق أبداً لأن إنجيل متى أقرب إلى التوحيد وأبعد عن الوثنية التي غرق فيها إنجيل يوحنا، وما في الأناجيل جميعها من الخلل والتناقض والوثنية والشرك جعل كثيراً من المفكرين يتنكرون لها، حتى أن عالماً كالدكتور غوستاف لوبون يقول في الأناجيل بصراحة تامة: «هذه الأناجيل ـ وأقدمها إنجيل مرقس الذي كتب بعد وفاة يسوع بنصف قرن على الأقل ـ هي

(١) مع المسيح لفتحي عثمان؛ صفحة ٦٥.

مجموعة من الأوهام والذكريات غير المحققة التي بسطها خيالُ مؤلفيها التقي»[1].

ولو أن مؤلفي الأناجيل أنفسهم والحواريين رأوا هذه الأناجيل بحالتها التي هي عليه اليوم لامتلأت قلوبهم وعقولهم رعباً وفزعاً ولولوا منها فراراً.

ويقول الأستاذ غِنِيبر: «لو قيل للحواريين الإثني عشر: إن الله تجسد في يسوع ما أَدركوا هذه الفضيحة الفظيعة ولرفعوا أصواتهم محتجين»[1].

والهوى ظاهر من سبب تأليف هذا الإنجيل ودافع يوحنا إليه، فقد أريد منه إثبات الوثنية ولاهوتية المسيح فألف يوحنا إنجيله.

قال جرجس زوين الفتوحي اللبناني: «إن شير بنطوس وأبيسون وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً وأنه لم يكن قبل أمه مريم فلذلك في سنة ٩٦ اجتمعوا عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادي بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابته طلبهم».

وفي « مرشد الطالبين »: « المقصد بكتابته إبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات التروي مما لم يذكره باقي

---

(١) حياة الحقائق تأليف غوستاف لوبون وترجمة عادل زعيتر، صفحة ٦٢ و٦٣.

الإنجيليين، وإفناء بعض هرطقات مفسدة أشهرها معلمون كذبة في شأن ناسوت المسيح وموته، وخاصة ترسيخ النصارى الأوائل في الإعتقاد بحقانية لاهوت وناسوت ربهم وفاديهم ومخلصهم، وقد قيل: إن يوحنا لم يؤلف إنجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع البيعة لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك».

وقال يوسف الدبس الخوري في مقدمة تفسيره من «تحفة الجيل»: «إن يوحنا صنف إنجيله في آخر حياته بطلب من أساقفة كنائس آسيا وغيرها، والسبب أنه كانت طوائف تنكر لاهوت المسيح، فطلبوا منه إثباته وذكر ما أهمله متى ومرقس ولوقا في أناجيلهم».

وقال الأب بولس إلياس اليسوعي في صفحة ٣١ من كتابه «يسوع المسيح»: «وكتب يوحنا إنجيله خلال سنة ٨٥ و٩٥ بناء على طلب المؤمنين الذين التفوا حوله، ووقعه باسم «التلميذ الذي كان يسوع يحبه».

وهذه الشواهد ذات دلالات كثيرة، منها: أن الأناجيل السابقة ناقصة، وأن رسالة المسيح الذي أرسله الآب كانت ناقصة فجاء تلميذه يوحنا يكملها، وهذا كفر شنيع، لأن الرسول لا بد أن يؤدي رسالته كاملة كما اؤتمن عليها من السماء، ولا يمكن أن يكون رسول حق لا يكمل رسالته أو يخفي بعضها أو ينقصها ليأتي غير رسول فيكملها دون وحي صحيح لا مطعن فيه ولا شبهة.

ولأن الرب يسوع ـ على زعمهم ـ متهم بالجهل والنقص لأنه ترك ما علمه تلميذه يوحنا وأكمله.

وسواء أكان المسيح رسولاً أم رباً على زعمهم فهو على الحالين ناقص، وتلميذه وعبده كامل، وهذا لا يصح في مقام الألوهية والرسالة.

ومنها: أن قوة التوحيد كانت عظيمة، وهذا لا شك فيه عندنا، فقد كانت المسيحية الموحدة سائدة في القرن الأول الميلادي، وكان أنصار التوحيد أقوياء يناهضون دعاة الشرك الذين يزعمون التعدد فيعلمون الناس أن الله واحد أحد لا شريك له، وأن المسيح لم يكن قبل مريم إلا في علم الله، لم يكن قبل مريم مخلوقاً، وليس إلا إنساناً، فألف هذا الإنجيل لمناهضة دعوة التوحيد، وألصق بيوحنا تضليلاً للعامة الذين لا يؤمنون بالمسيح إلا إذا وجدوا دليلهم إليه حواريه الحبيب.

ويوحنا الحواري الحق أعلم بحقيقة المسيح، ولا يمكن أن يعطيه أكثر مما أعطاه الله، فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم.

وكيف يتهم متى بإهمال أهم ما في المسيحية وهو مثل يوحنا في الصحبة؟ بل كيف يترك متى الحواري ومرقس الذي ألف إنجيله بتدبير بطرس كبير الحواريين ولوقا تلميذ بطرس وبرنابا وبولس ويعقوب جوهر المسيحية ويأتي يوحنا بعد أن شاخ وكان في غروب عمره فيكتب إنجيله بطلب واستحثاث من سواه؟.

إن يوحنا كان مع الطالبين، وهو ـ بلا جدال ـ أعظم غيرة على المسيح ودينه من هؤلاء الذين طلبوا إليه أن يؤلف لهم إنجيلاً جديداً يستدرك على الثلاثة السابقين ما تُركوه عمداً أو سهواً، فلماذا يتقاعس أو يغفل عن فرض مقدس هو وحده المكلف به دون البشر جميعاً، لأنه هو وحده الذي بقي من حواريي المسيح؟.

وكيف يقبل من رجل يغفل هذه الفريضة او يتقاعس عنها ما يدعو إليه؟.

إن التهمة تطعنه وتثخنه جراحاً، وما ثم طعن أشد نجلاً وعمقاً من تقاعس المسؤول الأول في العالم كله عن سيده ودينه وتراثه، وغفلته عن فريضته حتى يدفعه إلى أدائها غيره ممن لا يدانوا، إيماناً وبراً وصلاحاً.

إن من يجلله عار تهمة كهذا لا يمكن أن يقبل من كلام في الدين والعقيدة لأنه لم يؤد فريضتها الأولى حتى دفع إلى الأداء دفعاً، وتنطلق من هذه التهمة تهمة تقضي على سمعة مؤلفي الأناجيل الثلاثة الذين تركوا أهم ركن في المسيحية مما يتصل بالعقيدة الأصيلة.

وهؤلاء الثلاثة (متى ومرقس ولوقا) إما أن يكون تركهم عمداً أو سهواً، وكلا الأمرين موبق، فإذا كان الترك عمداً فهم مطعونون مرتدون لأنهم تعمدوا ترك أساس العقيدة، وإذا تركوه سهواً فذلك أشد وأوبق لأنه طعن في الله (الروح القدس) الأقنوم

الثالث الذي أوحى إليهم بتلك الأناجيل ناقصة ليأتي بعدهم من يكملها بوحي من الروح القدس.

إن الأناجيل الأربعة الرسمية موحى بها كما يزعمون، فالقديس أربناوس يقول: «إن الأناجيل الموحى بها أربعة ليس إلا، وقد جمع هذا العدد الروح القدس[1]» ويقول العالمان الكبيران باسوبر وليافان اللذان يعدان من أعظم علماء المسيحية: «إن روح القدس الذي كتب الإنجيليون والحواريون بتعليمه ومعونته لم يعين لهم لساناً خاصاً، بل ألقى المضمون في قلوبهم وحفظهم من الوقوع في الغلط، وخير كلا منهم أن يؤدي الملقى على حساب محاورته وعبارته».

ويقول آدم كلارك في تفسيره المشهور ٥ : **٣٦٩** : «استحسن روح القدس أن يعطى لوقا علم جميع الحالات على وجه الصحة ليعلم أهل الديانة الوجه الصحيح».

وإذا كانت الأربعة وحياً فكيف تتهم ثلاثة الأناجيل بالنقص المشين الذي ينتدب له يوحنا لإكماله مدفوعاً إليه من سواه؟.

وإذا أعطى الروح القدس لوقا علم جميع الحالات على وجه الصحة فكيف تجاهلوا ذلك؟ أو كيف يغفل لوقا أهم ركن في الديانة المسيحية وهو «لاهوت» المسيح.

---

(١) كتاب «يسوع المسيح» صفحة ٢١.

إن الطعنة النجلاء العميقة لا تقتصر على يوحنا وحده، بل تنفذ منه إلى مؤلفي الأناجيل الثلاثة الآخرين وتخترقهم إلى الروح القدس الذي تتجمع عليه التبعة كلها لأنه كان سبب نقص الأناجيل الثلاثة الأولى، ولماذا كان هذا النقص وهو الله الكامل المنزه عن النقائص والعيوب؟ ولماذا لم يعطهم ما أعطى يوحنا مع أنهم سابقوه في تأليف أناجيلهم؟.

ألبث المسيحيون منذ إنجيل المسيح ثم أناجيل متى ومرقس ولوقا بدون ألوهية المسيح حتى تصدى يوحنا لكتابة إنجيله؟.

وكيف رضي المسيحيون أن تبقى أناجيلهم هذا الزمن الطويل خالية من ألوهية المسيح؟ وكيف يؤمنون بأناجيل خلت من عنصر المسيحية الأول وجوهرها الأصيل وهما ألوهية المسيح؟.

أترى الذين طلبوا إلى يوحنا تأليف إنجيله كانوا مؤمنين بألوهية المسيح قبل أن ينص عليها إنجيل يجمع عقيدتهم وينص عليها؟.

كيف أدركوا ألوهية المسيح قبل أن يكون لهم إنجيل يصرح بها؟.

حقاً، إنهم سبقوا الإنجيل بإدراكهم وإيمانهم.

وإذا كان لاهوت المسيح مما قرره المسيح نفسه فكيف فات الإنجيليين الثلاثة أن يفطنوا له ويدونوه؟.

إن الأناجيل الثلاثة التي بين أيدينا بحالتها الحاضرة ليست

خالية من ذكر ألوهية المسيح بل فيها ما يصرح بها، فلماذا أهملوها ورغبوا في «إنجيل» جديد يؤلفه يوحنا؟.

إما أنهم لم يكونوا مؤمنين بها، وإما أنهم لم يطلعوا عليها، وإما أنها كانت خالية من ذكر ألوهية المسيح منذ تأليفها إلى الأيام التي طلبوا فيها من يوحنا تأليف إنجيل يحقق به أمنيتهم.

مما لا شك فيه أنهم كانوا مطلعين على الأناجيل الثلاثة وكانوا مؤمنين بها، وما طلبوا من يوحنا ما طلبوا إليه لأنها كانت خالية من ذكر ما ينبىء بألوهية المسيح.

وأنا أفهم من طلبهم هذا الفهم كما فهمه كثير من أقطاب الفكر المسيحي، فالدكتور غوستاف لوبون يقول[1]: «ولا شيء يدل على أن الناس عدُّوا يسوع إلهاً في القرن الأول من النصرانية، ولم ينتشر الإيمان بألوهيته إلا في أوائل القرن الثاني بين الجماعات النصرانية».

وطلبهم ذلك يؤكد أن ثلاثة الأناجيل التي سبقت إنجيل يوحنا كانت خالية خلواً تاماً من ذكر ألوهية المسيح أو الإشارة إليها مما دفع أولئك الناس إلى يوحنا «والالتماس» منه أن يؤلف لهم إنجيلاً ذكروا له صفته فألفه لهم حسب رغبتهم وطلبهم، إذ لو كانت مصرحة بألوهية المسيح لما طلبوا إلى يوحنا ما طلبوه وهو في شيخوخة فانية.

---

(١) حياة الحقائق ص ٦٣ ـ ٦٤.

وما دامت الأناجيل الثلاثة خالية من التصريح بألوهية المسيح، وإنجيل يوحنا لم يؤلف بعدُ فإن القول أو الاعتقاد بها أو هما معاً سبقا الأناجيل.

ويقول المسيحيون: إن الإبلاغ الكلامي كان موجوداً وعليه المعول والاعتماد، وجاء التدوين بأخرة، وإذا وافقناهم على قولهم فإن المسألة لا تختلف ، فإذا كان المسيحيون يحفظون ما دونه الإنجيليون بعد أن قالوه فهم ـ ولا شك ـ قد أحاطوا علماً بكل ما كتبه الإنجيليون الثلاثة، فلما رأوا أناجيلهم خالية من ذكر لاهوت المسيح لجأوا إلى يوحنا واعتصموا به وطلبوا إليه تأليف إنجيله فألفه.

ولكن إذا رجعنا إلى الأناجيل الثلاثة وجدناها غير خالية من لاهوت المسيح، فهي إما أن تكون في حقيقتها خالية كما شهد المؤمنون المسيحيون الذين فزعوا إلى يوحنا حتى يؤلف لهم إنجيلاً يثبت ألوهية المسيح، وإما ألا تكون كذلك، فكيف يكذبون على يوحنا؟ وهل كان يوحنا غير مطلع عليها مع ادعاء المسيحيين أن نسخاً كثيرة منها كانت مكتوبة وشائعة؟.

إن تأليف يوحنا يثبت أن تلك الأناجيل كانت خالية، وخلوها يبطلها، إذ كيف تخلو ـ وهي الكتب المقدسة التي تحوي المسيحية ـ من أعظم ما في الديانة المسيحية ـ ولو لم يؤلف يوحنا إنجيله لبقي الدين المسيحي الذي تصوره الأناجيل ناقصاً معيباً.

وكيف يرضى يوحنا بهذا النقص ولا يكمله إلا بطلب ورجاء ودفع؟.

ويعن لنا رأي آخر وهو أن وجود ما ينبىء بلاهوتية المسيح في الأناجيل الثلاثة التي كانت خالية منها حتى سنة ٩٦م التي ألف فيها يوحنا إنجيله كما يروي جرجس زوين الفتوحي أن هذه الأناجيل عُدِّلت بما يتفق مع ما جاء في إنجيل يوحنا.

ولا تفسير إلا هذا، لأن الأناجيل الثلاثة كانت خالية من ذكر لاهوتية المسيح حتى ٩٦م وبعد تأليف يوحنا بزمن غير معلوم دخلتها لاهوتية المسيح، فمن المقطوع به ـ إذا صح ما ادعاه الذين فزعوا إلى يوحنا ـ أن احتواء الأناجيل على اللاهوتية كان بعد تأليف أصحابها إياها.

ويجوز أنها ألفت بعد إنجيل يوحنا ونسبت إلى متى ومرقس ولوقا ليؤيد بعض الأناجيل بعضاً إذا لم يكن تحريفها بعدهم ليتفق محتواها مع مضمون إنجيل يوحنا.

وعلى أي حال لا ثقة لنا بهذا الإنجيل لأن ما احتواه لا يتفق مع مستوى يوحنا الفكري وبساطته وبعده عن الفلسفة التي بدأ بها أول جملة في الإنجيل المنسوب إليه، وقد سبقنا أكثر النقاد المسيحيين إلى إنكار إنجيل يوحنا بن زبدي، وهم على أنه مكتوب بقلم يوحنا آخر كان في أفسس ولم ير السيد المسيح، وأنه من أتباع بولس.

وانبرى الطبيب العالم الدكتور « بوست » لهؤلاء المنكرين بالرد على علماء أوروبا والنقاد من المسيحيين وقال ما نصه:[1]

«أنكر بعض الكفار قانونية هذا الإنجيل لكراهتهم تعليمه الروحي، ولا سيما تصريحه الواضح بلاهوت المسيح، غير أن الشهادة بصحته كافية، فإن بطرس يشير إلى آية منه (٢ بطرس ١ : ١٤ قابل يوحنا ٢١ : ١٨) وأغناطيوس وبوليكربوس يقطفان من روحه وفحواه، وكذلك الرسالة إلى ديوكنيتس وباسيلدس وجوستنيان الشهيد وتانيانس، وهذا الشواهد يرجع بنا زمانها إلى منتصف القرن الثاني.

«وبناء على هذه الشهادة وعلى نفس كتابته الذي يوافق ما نعلمه من سيرة يوحنا نحكم أنه من قلمه، وإلا فكاتبه من المكر والغش على جانب عظيم.

«وهذا الأمر يعسر تصديقه، لأن الذي يقصد أن يغش العالم لا يكون روحياً ولا يتصل إلى علو وعمق الأفكار والصلوات الموجودة فيه.

وإذا قابلناه بمؤلفات الآباء رأينا بينه وبينها بوناً عظيماً حتى نضطر للحكم أنه لم يكن منهم من كان قادراً على تأليف كهذا، بل لم يكن بين التلاميذ من يقدر عليه إلا يوحنا، ويوحنا نفسه لا يستطيع تأليفه بدون إلهام من ربه».

---

(١) هذا النص منقول من تفسير المنار ٦: ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

وما ذكره الدكتور «بوست» كبراهين تثبت نسبة إنجيل يوحنا إليه لا تعدو مجرد قول مرسل خفيف في ميزان البراهين، بل ما ساقه كبراهين لا يحمل من معنى البرهان إلا ما ادعاه مدعيه.

فالبرهان الأعظم الذي ساقه «بوست» إشارة بطرس إلى آية منه، وهي الآية الرابعة عشرة من الإصحاح الأول من رسالته الثانية، وها هي ذي:

«عالماً أن خلع مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً».

وأما الآية الثانية عشرة من الإصحاح الحادي والعشرين من يوحنا فهي:

«الحق الحق أقول لك لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشي حيث تشاء، ولكن متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لا تشاء».

وما ثم شبه بين الآيتين أو نقطة لقاء تجمعهما، وإذا فرضنا أن الآية نفس الآية فما وراء ذلك من برهان غير إثبات أخذ يوحنا من بطرس وليس العكس.

فبطرس مات قبل تأليف يوحنا بثلاثين سنة تقريباً، فغير معقول أن يتخطى حجب المستقبل ويأخذ أو يشير إلى آية تأتي في إصحاح من إنجيل سيؤلفه يوحنا بطلب المؤمنين المسيحيين، من إنجيل لم يؤلف بعد.

هذا غير معقول، فإذا كانت الآية في رسالة بطرس التي سبق تأليفها تأليف يوحنا إنجيله فإن من البداهة أن يكون المشير يوحنا والمشار إليه بطرس وليس العكس.

فما حسبه «بوست» برهاناً دامغاً ظهر أنه وهم غير موجود، ففي كتاب «مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين» : «أن رسالة بطرس الثانية كتبت من بابل سنة ٦٤ أو ٦٨ وإنجيل يوحنا كتب سنة ٩٥ أو ٩٨.

فالسابق إلى التأليف بطرس، وجاء بعده يوحنا بثلاثين سنة أو أكثر وألف إنجيله، وهذا يقضي على ما حسبه بوست برهاناً يقيمه.

وأما أن أغناطيوس وبوليكربوس اقتطفا من روح إنجيل يوحنا وفحواه فمردود لأنهما ما كانا يعلمان بوجود إنجيل منسوب ليوحنا، فبوليكربوس مطران أزمير كان تلميذاً ليوحنا، ومع هذا لم يذكر إنجيلاً منسوباً ليوحنا، وإن كان بوليكر بوس ذكر فيما أثر عنه إنجيل مرقس ومتى.

وأما أغناطيوس أسقف أنطاكيا الذي قتل في روما في عهد تراجانوس حيث قضمته الوحوش في سنة ١٠٧ فيقال: إنه أورد في كتابه: «الرسائل السبع» بعض شذرات من إنجيل يوحنا، ولكنه لم يذكره مع أنه كان ضيفاً على بوليكربوس تلميذ يوحنا.

وإذا صح قول الدكتور بوست أنهما اقتطفا من إنجيل

يوحنا، ورأينا ما اقتطفاه وثبت لنا أنهما أوردا شذرات منه فما في ذلك ما يثبت أن الإنجيل من تأليف يوحنا، لأن الذين يستطيعون أن يؤلفوا إنجيلاً وينحلوه يوحنا لا يعجزهم أن يفعلوا ذلك مع بوليكربوس وأغناطيوس.

ومع هذا فإنهما لم يذكراه ولم يعزوا إليه شيئاً، وإذا صح أن فيهما كتبا شذرات من الإنجيل المنسوب ليوحنا بن زبدي فإن المواعظ الإنسانية هي الحصة التي يشترك فيها الناس جميعاً، فإذا كان الأنبياء والمرسلون يقولون: لا تسرق، لا تكذب، لا تعق والديك فإن عامة الناس يرددون ذلك في كل عصر وفي كل أمة.

بل نجد في الأناجيل الرسمية تعاليم ومواعظ ونصائح نجدها في مأثورات بوذا وكنفوشيوس، وفي كتب العهد القديم أشياء سبقت بها مأثورات فرعونية .

وأما أن الذي يريد أن يغش العالم لا يكون روحياً فهذا حق، ولكن في كتب العهد القديم إشارة إلى وجود غشاشين، ففي سفر التثنية (١٣ : ١ ـ ٥) ما نصه:

«إذا قام في وسطك نبي أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلاً: لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم لذلك الحلم إلخ».

وفي رسالة الرسول بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (١١ : ١٢ ـ ١٥) ما نصه:

«ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفتخرون به لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى ملاك نور فليس عظيمًا إن كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر».

ولا يخلو عصر من العصور من دجالين ومشعبذين روحيين يغشون ويخدعون ويجدون الأنصار في كل مكان.

وإذا كانت الشهادة أو الشواهد التي ذكرها الدكتور بوست ترجع بنا إلى منتصف القرن الثاني كما يقول فأين الشهادة أو الشواهد التي ترجع بنا إلى القرن الأول؟.

إن السند مقطوع، وحلقات من السلسلة مفقودة، بل السلسلة نفسها لا وجود لها، وإن اخترعوا سلسلة ليست أهلاً لهذا الاسم.

زعموا صحة الأناجيل بشهادات الكنائس بعد أن وجدت بين أيديها أناجيل منسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وأولى هذه الشهادات وأعظمها ومن أقدمها شهادة كليمان الإسكندري (١٥٠ ـ ٢١٧م) وتلميذه أوريجان (١٨٥ ـ ٢٥٤م) وكلاهما من الإسكندرية ويمثلان الكنيسة المصرية في رأي المسيحيين[١].

وهذا ما قاله كليمان عن إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا:

---

(١) يسوع المسيح ١٩ ـ ٢٠.

«هذا ما وصل إلي من الأقدمين عن إنجيل المسيح حسب مرقس: فيما كان بطرس يبشر جهراً بالكلمة في مدينة روما بإلهام الروح وينشر الإنجيل رغب كثير من السامعين إلى مرقس الذي رافق بطرس مدة طويلة وحفظ ما سمعه منه أن يكتب لهم ذلك ففعل وأعطاهم سفره، ولما علم بطرس بالأمر لم ينشطه ولم يمنعه» و «إن يوحنا كتب بعد المبشرين الآخرين لأنه لاحظ أن الأناجيل السابقة لم تدون عن ترجمة المسيح إلا الأمور الحسية، فتلبيةً لدعوة بطانته وبعد استلهام الروح القدس عقد العزم على كتابة «إنجيل روحي»[1].

أما أوريجان فيقول[1]: «لقد عرفنا من الأقدمين أن الأناجيل أربعة، وهي وحدها جديرة بالقبول دون نزاع في جميع أنحاء كنيسة الله المنتشرة تحت السماء فالإنجيل الأول كتبه متى الذي كان أولاً عشاراً ثم صار رسولاً ليسوع المسيح باللغة العبرية لفائدة اليهود الداخلين في الإيمان، وقد نمي إلينا أن الثاني كتبه مرقس كما سمعه من بطرس، وأن الثالث كتبه لوقا لفائدة غير اليهود وقد أوصى به بولس، أما الأخير فهو إنجيل يوحنا».

ومن براهين صحة الأناجيل أقوال علماء وقديسين يمثلون الكنيسة الإفريقية والآسيوية والغالية (الفرنسية) والفلسطينية والأنطاكية والفريجية والرومانية، ويمثل الكنيسة الإفريقية: القديس قبريانوس (١٨٠ ـ ٢٥٨م) أسقف قرطاجة الذي دافع

(١) يسوع المسيح ١٩ ـ ٢٠.

عن الأناجيل الأربعة واستشهد في الدفاع عن عقيدته، والعلامة ترتليانوس (١٦٠ ـ ٢٤٠م) الفقيه الشهير الوثني الذي اعتنق المسيحية واعترف بوجود الأناجيل الأربعة وصحة نسبتها استناداً إلى التقليد الشفهي المتناقل[1].

ويمثل الكنيسة الآسيوية والغالية (الفرنسية) القديس أريناوس (١٤٠ ـ ٢٢٢م) ويقول مؤلف «يسوع المسيح» في أريناوس: «وإن ما يجعل لشهادته قيمة خاصة هو أنها ترقى في تسلسل تاريخي محكم حتى المسيح، فالقديس أريناوس كان تلميذاً لبوليكربوس مطران أزمير، وهذا الأخير كان تلميذاً ليوحنا الرسول صاحب الإنجيل الرابع وتلميذ المسيح الحبيب».

ونحن لا نرى قيمة لهذا التسلسل التاريخي، فأريناوس لم يتلق من بوليكربوس إنجيل المسيح عن صاحبه وتلميذه يوحنا، كما لم يفصح أنه تلقى إنجيل يوحنا من تلميذه بوليكربوس، وكل ما روي عنه قوله: «إن الأناجيل الموحى بها أربعة ليس إلا، وقد جمع هذا العدد الروح القدس فلا سبيل إلى الزيادة عليه إلخ».

وليس في هذا القول ما يثبت للتسلسل التاريخي المدعى به أي قيمة لأنه لم يعرف بالتسلسل القائم على التواتر ما تلقاه أريناوس من بوليكربوس عن يوحنا عن المسيح.

(١) اعتمدنا للكتابة في ادعاء المسيحيين صحة الأناجيل على كتب كثيرة أعظمها كتاب «يسوع المسيح» تأليف الأب بولس إلياس اليسوعي، وما ذكرناه في هذا الباب موجزه وبألفاظه غالباً.

ويمثل الكنيسة الفلسطينية القديس يوستينوس المولود سنة ١١٠ والمستشهد سنة ١٦٥م وزعم مؤلف «يسوع المسيح» قائلاً: «طاف في هذا السبيل الأصقاع الشرقية ونقب في مصر وبلاد اليونان وإيطاليا عن مخطوطات الإنجيل وبحث عن مصادره وحللها تحليلاً منطقياً نفى معه كل ريب في صحتها بحيث دعاه: «مفكرات الرسل».

ودعوى مؤلف «يسوع المسيح» غير صحيحة، فليس لدينا أي علم بنتائج بحثه في مخطوطات الإنجيل وتحليله إياها تحليلاً منطقياً، نفى كل ريب في صحة الأناجيل، وما هذه المخطوطات وأنسابها؟ لا جواب إلا دعوى مجردة عن البينة الصحيحة.

ويمثل الكنيسة الأنطاكية مطرانها أغناطيوس وطاطيانوس، وقد مر القول في أغناطيوس[١]، واعتبر شاهداً لإيراده شذرات من إنجيل يوحنا لم يعزها إليه، وإذا صح فلم يأخذها عنه، بل أخذها عمن أخذ منهم يوحنا نفسه.

وطاطيانوس ولد سنة ١٣٠ في بلاد ما بين النهرين، وتتلمذ للقديس يوستينوس، وقد كتب سيرة المسيح «طبقاً للأناجيل الأربعة بأسلوب قصصي» سماه «القلادة».

والسيرة التي كتبها طاطيانوس ليست شهادة للأناجيل الأربعة لأن سيرة المسيح في القرن الثاني ـ بعد منتصفه ـ لم تكن مجهولة، ولو أن طاطيانوس كتب سيرة المسيح في الأناجيل الأربعة

---

(١) انظر ص ٢٠٠.

لوقع في حيرة حائرة من التناقض الذي يصدمه، ولكانت السيرة متناقضة ، وبعضها يكذب بعضاً.

ويمثل كنائس فريجية بابياس (٩٥ ـ ١٦٥م) في رأي من يستشهدون على صحة الأناجيل بمن ينسبونها إليهم، وبابياس مؤرخ وأسقف هيربوليس وعرف بعض تلاميذ الرسل وصادق منهم بوليكربوس تلميذ يوحنا.

وإذا كان أريناوس موصوفاً بأنه صاحب التسلسل التاريخي المحكم لأنه تتلمذ على بوليكربوس تلميذ يوحنا حواري المسيح فإن بابياس مثله لأنه صديق بوليكربوس نفسه الذي تتلمذ ليوحنا تلميذ المسيح.

ونحن ندل مؤلف «يسوع المسيح» ومن ذهبوا مذهبه في وصف أريناوس بأنه صاحب التسلسل التاريخي المحكم على طاطيانوس ليضموه إليه تقوية للشهود والشهادات والشواهد.

وشهادة بابياس: أن يوحنا ذكر تدوين مرقس ومتى لأعمال الرب.

وأما شهادة الكنيسة الرومانية فتقوم على عثور مورا توري بمكتبة ميلانو في إيطاليا على مخطوطة من رق عرفت باسمه تتضمن لائحة بالأسفار القانونية التي كانت تقرها الكنيسة الرومانية في منتصف القرن الثاني، وهي شهادة ذات قيمة في نظر المسيحيين، وجاء فيها: «سفر الإنجيل الثالث حسب لوقا، ولوقا هذا كان

طبيباً اصطحبه بولس في أسفاره، لقد كتب سفره باسمه بدقة وترتيب على أنه لم يشاهد المسيح بالجسد، أما السفر الرابع من الأناجيل فهو ليوحنا أحد التلاميذ»[1].

ولم يُذْكَرْ كاتب هذه المخطوطة مما يفهم أنه مجهول، وشهادة المجاهيل ساقطة وبخاصة في العقيدة.

ويقول صاحب كتاب «يسوع المسيح»[2]: «وإن كان لنا ما نستنتجه من هذه الشهادات المتوافقة في الأناجيل الأربعة يؤديها قديسون وفلاسفة ومؤرخون في سبع كنائس مختلفة وقد صدق البعض منهم بدمائه هذه الشهادة التي قبلها الشعب المسيحي لمطابقتها الإنجيل الشفهي المتناقل في ذاك العهد، فهو أن هذه الأناجيل هي مختصرة بشارة المسيح، ولا سبيل إلى أن يرقى الشك إليها وإلى صدق مقالها».

وبهذا ظنوا أن الأمر انتهى، مع أن كل هذه الشهادات لا تثبت نسبة كتاب إلى مؤلفه العادي في موضوع دنيوي تافة، ولو أن هذه الشهادات تجمعت لإثبات نسبة كتاب «الجمهورية» لأفلاطون لما كان وسعها الإثبات، فكيف إذا كان ا لأمر متعلقاً بإثبات ديانة يتبعها مئات الملايين في العالم؟.

وكل هذه الشهادات ومخطوطة موراتوري مجتمعتين تشيران إلى الأناجيل الأربعة، والمخطوطة تشير الى الأسفار القانونية التي

---

(١) يسوع المسيح ص ٢٣.
(٢) في صفحة ٢٣.

كانت تقرها الكنيسة الرومانية في منتصف القرن الثاني، وإذا قبلنا هذه الشهادات وأغضضنا النظر عما فيها فإنها لا توصل إلى إثبات أن نسخ الأسفار القانونية ترقى إلى أصحابها لأنه من الفرض وجود بينات صحيحة صحة تامة تشهد بأن هذه الأناجيل هي التي كتبها أصحابها وهي الموجودة بنصوصها.

ولا وجود لهذه البينات، فهي معدومة في القرن الأول، ولا وجود لإشارة عابرة إلى الأناجيل في القرن الأول.

وإذا جاءت الإشارة بعد قرن سيطر عليه الصمت فإنها لا تكفي للإثبات، ولا وجود لمخطوطة واحدة من إنجيل واحد ترقى إلى عصر من نسب إليه.

ويقولون[1]: «إذا سلمنا جدلاً بأنه قد وقع تحريف في الأناجيل فلا بد من أن يكون قد وقع إما في القرنين الثاني والثالث أي حالاً بعد وفاة القديس يوحنا الإنجيلي سنة ١٠٠ وإما فيما بعد هذا التاريخ من القرون التالية. والحال أن هذا الافتراض محال، لأننا لو تصفحنا ما تركه لنا القرنان الثاني والثالث من المؤلفات في هذا الموضوع لوجدنا أنها أثبتت جميعها نص الأناجيل التي نتداولها حالياً.

«وقد ألمعنا فيما سبق إلى أن أريناوس وأوريجانوس وترتليانوس وغيرهم قد أوردوا في كتبهم نصوص هذه الأناجيل كما

(١) كتاب «يسوع المسيح» راجع الصفحات ٣٤ ـ ٣٦.

نعرفها اليوم، وذلك بعد أن شرحوها دحضاً لمزاعم المبتدعين الذين أساءوا فهمها، ولسنا بحاجة إلى القول إن هؤلاء المؤلفين عاشوا في القرنين الثاني والثالث في بلدان مختلفة متباعدة.

«وإذا عرفنا أن الإنجيل انتشر آنذاك برغم انعدام الطباعة ـ انتشاراً غريباً في أقطار متباينة بحيث من أراد التحريف وجب عليه أن يجمع من مناح مختلفة جميع ما انتشر من نسخ ليصحفها ـ بان لنا أن ما كان من سبيل إلى التحريف في ذينك القرنين، وإن ما يولينا الثقة في عدم وقوع الدس أو الحذف في الأناجيل هو ترجمتها منذ القرنين الأول والثاني إلى اليونانية (أقله إنجيل متى) واللاتينية، وترجمتها في القرن الثالث إلى السريانية والقبطية، وفي القرن الرابع إلى الأرمنية والحبشية والغوطية.

«هذا، وكانت كل كنيسة تحرص على حفظ ما تسلمته من نسخ سالماً من التشويه، وتنشره بين المؤمنين، وهي تجهل أحياناً لبعد الشقة وصعوبة المواصلات ـ ما يجري لدى من يجاورها من الكنائس، فأين السبيل إلى التحريف بعد هذا؟.

«لم يقع تحريف في القرنين الثاني والثالث، وكذلك لم يقع تحريف في القرن الرابع وما إليه، لأن لدينا مخطوطات قديمة عن الأناجيل الأربعة ترقى إلى القرن الرابع وما يليه حتى القرن الحادي عشر.

«وقد أثبت البحث العلمي تاريخها وانطباقها على النص

الذي نتداوله اليوم، وهي محفوظة في مختلف مكتبات أوربا، وإليك أهم النسخ عنها.

«١ ـ النسخة الفاتيكانية: يونانية ترقى إلى القرن الرابع، قيل عنها: إنها إحدى النسخ التي أمر قسطنطين الأول بنسخها على نفقته سنة ٣٢٨ تحت إشراف المؤرخ أوسابيوس وإهدائها إلى الكنائس، وهي ما تزال محفوظة بمكتبة الفاتيكان.

«٢ ـ النسخة السيناوية: اكتشفها العالم تشندورف في ٤ فبراير سنة ١٨٥٩ في دير طور سيناء وهي كالفاتيكانية لغة وعصراً، تجدها في مكتبة لينغراد في روسيا.

«٣ ـ النسخة الإسكندرية: يونانية ترقى إلى القرن الخامس، أهداها كيرللس لوكاريس إلى كارلوس الأول ملك بريطانيا، وهي الآن في مكتبة لندن .

«٤ ـ النسخة الملوكية أو الأفرامية: هي من نوع بالمبسيت، وهي كناية عن رق كتب عليه أولاً نص الإنجيل، ثم حف وكتب فوقه قصائد لمار أفرام السرياني الذي عاش في القرن الخامس، ولقد استطاع العلماء بما لديهم من الوسائل الحديثة استجلاء الرق وقراءة نص الإنجيل فيه، وهذه النسخة ترقى إلى القرن الخامس، وهي محفوظة بمكتبة باريس.

«٥ ـ النسخة البيزية: وقد اكتشفها بيزا Beza في أحد ديورة ليون في فرنسا أثناء الحرب الدينية عندهم وأهداها سنة ١٥٨١ إلى

مكتبة كمبريدج في بريطانيا، وهي باللغتين : اليونانية واللاتينية، وترقى إلى القرن السادس.

«وإذا عرفنا أن البدع التي ظهرت في القرن الخامس كالنسطورية وغيرها كانت تستعمل نصوص هذه المخطوطات التي نستعملها اليوم، ولم يقم منها من عاب على الكنيسة الكاثوليكية التحريف تيقنا اليقين كله أن أناجيلنا لا تشوبها شائبة دس أو حذف أو تصحيف.

ولدينا الآن ما يربو على ثمانية آلاف مخطوطة تثبت كلها نصوص الأناجيل الأربعة في حالتها الحاضرة، وهي مكتوبة في مختلف اللغات، ومضمون جميع هذه النسخ هو دونما اختلاف جوهري مما يدل على أن الكنيسة احترمت تعاليم المسيح وصيانتها منزهة عن التحريف، وما تزال بعد ألفي سنة تسلمها كما تسلمتها من الإنجيليين الأربعة» أ هـ.

هذا كل ما لدى العلماء المسيحيين في إثبات صحة الأناجيل الأربعة وبعدها عن التحريف، وهو لا يعدُّ دليلاً، فليس لديهم النسخة الأم أو النسخ الأمهات التي كانت في أيام مؤلفيها، ولم ترد أي إشارة في القرن الأول وأكثر من نصف القرن الثاني إليها.

وإذا صح ما يدعون من أن الإنجيل انتشر في القرنين الثاني والثالث في بلدان مختلفة انتشاراً غريباً في أقطار مختلفة بحيث يجب على من يريد التحريف أن يجمع كل تلك النسخ من تلك البلدان

المختلفة فإن التحريف ليس عسيراً وليس جمع النسخ مستحيلاً، وقد ثبت انعدام كل تلك النسخ التي كانت في القرنين الثاني والثالث لأنه لا وجود لنسخة واحدة ترقى إلى أحد هذين القرنين.

فإذا كان في المستطاع جمعها جميعاً وإعدامها بحيث لا تبقى نسخة واحدة منها فإن في الوسع تحريفها، ولا ضرورة للقول بالتحريف بعد أن امحت تلك النسخ التي لا تحصى امحاءً تاماً.

وأقدم مخطوطة هي نسخة الفاتيكان الراقية إلى القرن الرابع، وهي منبتَّة لا نسب لها، ولو نسبت فإن ذلك لا يعطيها قيمة كبيرة بعد أن خلا الوجود من النسخة الأم.

ووجود ثمانية آلاف مخطوطة أو ثمانية ملايين لا تثبت نصوص الأناجيل بعد ضياع النسخة الأم وبعد «انعدام» كل المخطوطات التي كانت في القرنين الأول والثاني بل وفي القرن الثالث أيضاً.

وكل النسخ التي ذكروها كنسخة الفاتيكان ونسخة سينا ونسخة الإسكندرية لا ثقل لها في ميزان الحق لأنها مقطوعة ولا نسب لها، ومن غير وجود النسخة الأم المصدق عليها من الحواريين تنعدم كل قيمة لهذه الأناجيل وإن كثرت مخطوطاتها وتجاوزت الملايين، فكثرة العدد غثاء إذا فقدت الأم التي تفرعت عنها، وما قيمة نسخ مخطوطة في القرن الرابع إذا لم تكن هناك نسخ من القرن الأول فتكون المعارضة؟ إن هذه المخطوطات حديثة مقطوعة وتعتبر بداءة الأناجيل لأنه لم يسبقها وجود مخطوطات.

والتحريف واقع، التحريف اللفظي المخل، والتحريف القائم على نسبة غير صحيحة كنسبة إنجيل يوحنا إلى يوحنا بن زبدي، والتحريف القائم على دس ما ليس في الأصل فيه، والخروج بما فيه إلى سبيل غير سبيله.

والتحريف واقع مشهود لا سبيل إلى نكرانه، فالإنجيل الواحد يحوي من المتناقضات والأوهام الشيء الكثير، والنسخ المكتوبة بلغة واحدة يختلف بعضها عن بعض، أما النسخ في مختلف اللغات فبعضها يناقض بعضاً.

ولا غرابة أن يدخل الكذب والوهم والهوى والتحريف بكل أنواعه إلى الأناجيل الأربعة الرسمية لأسباب كثيرة، منها: ضعف المسيحيين الذين رأوا ربهم مقبوضاً عليه من قبل اليهود ومهيناً إلى حد بعيد بحيث يضربه الرعاع ويبصقون عليه ثم يصلبونه، واختفاء الحواريين بعد حادثة الصلب حتى إذا اجتمعوا أغلقوا الأبواب خوفاً من اليهود كما يذكر يوحنا في إنجيله ٢٠ : ١٩ : «ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود».

واليهود كانوا ذوي قوة ونفوذ أكثر من الحواريين الفقراء الضعفاء المساكين، وأكثرهم صيادون غير متعلمين، حتى أن كبيرهم بطرس كان «عديم العلم وعامياً» كما جاء وصفه في سفر الأعمال، واليهود حرفوا كتبهم فهم لا يتورعون عن تحريف ما

لدى المسيحيين من إنجيل المسيح الصحيح، بل يعملون على تحريفه حتى يضللوا المسيحيين.

ولم يكن المسيح عليه وعلى الرسل جميعاً صلوات الله وسلامه يكتب عظاته وكلماته، ولم يكتبها تلامذته، حتى الإنجيل الخاص به لم يكتبوه في حياته، وجاءت إشارات إليه بعد مماته بزمن طويل.

وبدأ اضطهاد المسيحيين منذ بدأ المسيح يبشر اليهود ويدعوهم، وأخذ الصراع يشتد حتى طورد وعُذِّب ثم قُتل كما تصرح به الأناجيل.

وتاريخ الحواريين زاخر بما نالهم من أذى ومكروه حتى قتل بعضهم وعذب جميعهم واضطهد، فقتل بطرس ويعقوب الكبير ابن زبدي (شقيق يوحنا الإنجيلي) ويعقوب الصغير ابن حلفى الذي قتل رجماً، ومتى المقتول في الحبشة، ويهوذا بن حلفى المسمى تدّاوس أيضاً المستشهد في ميزوبوتاميا (العراق) وأندراوس (شقيق بطرس) المستشهد مصلوباً على خشبة بشكل علامة الضرب × ويسمى صليب القديس أندراوس، وفيلبس.

وتلامذة الحواريين اضطهدوا وقتل بعضهم تقتيلاً، ولم ينج النساء والأطفال المسيحيون من الإرهاب والتعذيب على يد اليهود والوثنيين.

ففي عهد نيرون قيصر روما اضطهد المسيحيون وعذبوا وشردوا وطوردوا، وممن قتلوا في عهده الحواري الأكبر بطرس

وزوجه ثم الرسول بولس، وبدأ اضطهاد المسيحيين منذ سنة٦٤ م حتى انتحر نيرون، وعلى يد هذا الطاغية الروماني بدأ الاضطهاد الرسمي للمسيحيين وتتبعهم واتهمهم بإحراق روما كذباً.

ثم استمر الاضطهاد الفظيع حتى أن دوميتيانوس الأمبراطور (٥١ - ٩٦م) أصدر أمراً بالقتل العام حتى كاد يستأصل شأفة المسيحيين، وكان شديد العداوة للمسيحية.

والأمبراطور تراجان (٥٢ - ١١٧م) اضطهد المسيحيين وأثخن فيهم قتلا مدة ثماني عشرة سنة، وتوالى الاضطهاد المروع حتى ظن المسيحيون أن زمان اضطهاد الأمبراطور سويروس الذي ابتدأ سنة ٢٠٢م إنما هو زمان الدجال لأنه قتل الآلاف في مصر وفي كل قطر تابع له، كما رأوا اضطهاد الإمبراطور مكسيمون، الذي استأصل العلماء وقتل بعض البابوات.

وفي عهد الأمبراطور ديوقليسيانوس (٢٤٥ - ٣١٣م) اضطهد المسيحيون بأمره حتى سموا عهده «عهد الشهداء» لأنه أمر بهدم الكنائس و إحراق الكتب وقتل المسيحيين، ونفّذ أمره (سنة ٣٠٣م) بوحشية بشعة، وذكر لاردنر في تفسيره ج ٧ ص ٥٢٢ قوله: «صدر أمر ديوقليسيانوس في شهر مارس من السنة التاسعة عشرة من حكمه بهدم الكنائس وإحراق الكتب المقدسة» وقال يوسيبيس في حزن بالغ: إنه رأى بعينيه الكنائس مهدمة والكتب المقدسة تأكلها النيران في الميادين.

وهذه الحرب المشنونة على المسيحيين منذ نشأة المسيحية حتى

عهد قسطنطين الذي أعلن حمايته للمسيحية ورعايته إياها مما كان له فضل انعقاد أول مجمع مسكوني مسيحي في العالم سنة ٣٢٥م أثرت تأثيراً سيئاً في الديانة المسيحية وفي أسفارها المقدسة حتى كان التصحيح يتناولها، ولولا التحريف ما لزم التصحيح.

يقول لاردنر في تفسيره ج ٥ ص ١٢٤: «حكم على الأناجيل المقدسة لأجل جهالة مصنفيها بأنها ليست حسنة بأمر الأمبراطور أنسطاسيوس أيام أن كان حاكمًا في القسطنطينية فصححت مرة أخرى».

وأنسطاسيوس حكم من سنة ٤٩١ إلى سنة ٥١٨م.

وإصداره الأمر بالتصحيح وقبول المصححين إياه برهان على أن الأناجيل ليست إلهاماً، وليست لمن نسبت إليهم من الحواريين والتلامذة، وإسنادها غير ثابت، لأن بها ما يقتضي التصحيح، وما اقتضاه إلا لأن بها أغلاطاً وخللاً وخطلاً وغلطاً.

وجملة «صححت مرة أخرى» تدل على أن تصحيحاً سبق أمر أنسطاسيوس ولو لم يكن بها ما يقتضيه ما كان هذا الأمر النافذ.

وقد مر بالقارىء اعتماد المسيحية على شهادة كليمان الإسكدري وأغناطيوس واعتبار أقوالها أشبه بالسند المتسلسل لأن الأول أشار إلى إنجيل يوحنا وإلى إنجيل مرقس، ولأن في مأثورات أغناطيوس وكليمان شذرات مما جاء في إنجيل يوحنا، وهي شهادة لا قيمة لها كما سلف منا القول فيها.

ونزيد هنا أن شهادة هذين العلمين وشهادات من سبقوا ممن

ذكرناهم لا تصلح أن تكون سنداً متصلاً، ومفهوم السند المتصل أن يشهد الصادقون الثقات البررة الذين صحبوا الرسول بحيث يكونون جماً كثيراً يروي عنهم جم كثير بالتواتر الحق لا بادعائه. أنهم تلقوا منه كتاب الله وسنته تلقياً صحيحاً طبقةً بعد طبقة بحيث يؤمن تواطؤهم على الكذب والاختلاف والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والتحريف.

ويجب أن يكون التواتر صحيحاً متصلاً لا انقطاع فيه، وأن تكون الطبقات من الكثرة بحيث يؤمن النسيان والسهو والغش والتدليس، وألا يؤثر اختلاف الأزمنة والأمكنة فيما يروى، بل يجب أن يكون ما يروى واحداً مع ذلك الاختلاف كما هو محقق في القرآن الكريم وروايته منذ تلقاه محمد صلى الله عليه وسلم حتى اليوم.

ومثل لهذا لم يتحقق لإنجيل عيسى لأنه غير موجود، ولم يتحقق في الأناجيل الأربعة الرسمية ولا في أي كتاب من كتب العهد القديم والجديد.

وأئمة العلماء المسيحيين لا يستطيعون إلا التسليم بانقطاع السند لأنه هو الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله.

فما روي عن كليمان ليس سنداً متصلاً، فله شذرات يقال إنها منقولة من إنجيل يوحنا، وما ورد من هذه الشذرات في بعض ما كتبه وهو أسقف كنيسة الروم إلى كنيسة كورنثوس مختلف في سنة كتابته إياه.

وحدد «أوف كنتربري» هذه السنة بأنها تقع بين أربع وستين وسبعين.

وقال ليكلرك: إنها سنة تسع وستين.

وقال ديوين وتليمنت: إن كليمان لم يصر أسقفاً إلا سنة ٩١ أو ٩٣.

فإذا صح كلام العالمين ديوين وتليمنت ـ وهو أقرب إلى الصحة كما سيأتي ـ فإن تحديد أوف كنتربري وليكلرك للسنة يسقط، ويؤيد سقوطه أن المؤرخ الكبير وليم موير حدد سنة كتابة كليمان بأنها سنة ٩٥، والعلامة الكبير لاردنر صاحب تفسير الإنجيل المشهور ذهب إلى أنها سنة ٩٦م.

وأرجح الأقوال أن كليمانس كتب مكتوبه لكنيسة كورنثوس سنة ٩٦م وهو ما ذهب إليه لاردنر والأئمة الثقات.

وممن ادعوا أن كليمان نقل في مكتوبه فقرات من إنجيل يوحنا العالم المعروف «مستر جونس» وساق أدلة على ادعائه وسنتناولها بالنقد النزيه، ومستر جونس الذي ادعى هذا الادعاء قال: إن يوحنا كتب إنجيله سنة ٩٨م وذكر هورن في صفحة ٣٠٧ من الجزء الرابع من تفسيره الشهير المطبوع سنة ١٨٢٢م ما نصه: «كتب يوحنا إنجيله سنة ٩٧م على ما اختار كريزاستم وأبيفانيس من القدماء والدكتور مل وفبريشيس وليكلرك وبشب تاملاين من المتأخرين، وفي سنة ٩٨ على ما اختار مستر جونس».

ويستدل من هذه الأقوال أن مكتوب كليمان سابق لإنجيل يوحنا، فلا حق لادعاء نقل كليمان من إنجيل يوحنا، لأنه غير معقول أن يأخذ السابق من المتأخر.

وينقض ادعاء نقل كليمان من إنجيل يوحنا الفقرات نفسها التي ادعوا نقلها ، ومما جاء في مكتوب كليمان هذه الجملة : «من أحب عيسى فليعمل على وصيته» وهي منقولة من الإصحاح الرابع عشر (الفقرة ذات الرقم ١٥) من إنجيل يوحنا، وهذا نصها: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي » كما ادعى مستر جونس.

وادعاؤه ساقط لأن من البديهي أن يقول كل إنسان مؤمن بعقيدة: إن كنتم تحبون الراعي فاحفظوا وصيته، وفي تفسير لاردنر ٢ : ٤٠ المطبوع سنة ١٨٢٧م قوله تعليقاً على الجملة التي ظهر أنها منقولة : «أنا أفهم أن في هذا النقل شبهة لأن كليمان كان من أصحاب الحواريين ويسمع وعظهم، وبسبب هذه الصحبة كان يعلم أن إقرار محبة المسيح توجب على الناس حفظ وصاياه» .

وأما الشذرة الثانية في مكتوب كليمان فهي في الباب الثالث عشر منه : «نعمل كما هو مكتوب لأن روح القدس قال هكذا : إن الإنسان العاقل لا يفخر على عقله، وليذكر ألفاظ الرب عيسى التي قالها حين علم الحلم والجهاد: ارحموا ليرحم بكم، واعفوا ليعفى عنكم، كما تفعلون يفعل بكم، كما تعطُون تعطَوْن، كما

تدينون تدانون، كما تَرحمون تُرحمون، وبالكيل الذي تكيلون يكال به لكم».

وزعموا أن هذه « التعاليم» منقولة من إنجيل لوقا من الإصحاح السادس ومن إنجيل متى من الإصحاح السابع، وما في الإصحاح السادس من إنجيل لوقا الفقرات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ والفقرات ١ و ٢ و ١٢ من الإصحاح السابع من إنجيل متى، وها هي ذي الفقرات الإنجيلية بنصوصها:

«كونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم».

و «لاتدينوا فلا تدينوا، لا تقضوا على أحد فلا يقضى عليكم، اغفروا يغفر لكم».

و «أعطوا تعطوا، كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً يعطون في أحضانكم، لأنه بنفس الكيل الذي به تكيلون يكال لكم».

و «لا تدينوا لكيلا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم ».

و «كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم».

وأما الشذرة الثالثة في مكتوب كليمان فهي منه بالباب السادس والأربعين: «اذكروا ألفاظ الرب المسيح لأنه قال: ويل للإنسان ؛ كان خيراً له إن لم يولد من أن يؤذي أحداً من الذين أخذتهم، وكان خيراً له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر من أن يؤذي أحداً من أولادي الصغار».

ويزعمون أن كليمان نقلها من الفقرة ٢٤ من الإصحاح السادس والعشرين والفقرة ٦ من الإصحاح الثامن عشر من إنجيل متى، ومن الفقرة ٤٢ من الإصحاح التاسع من إنجيل مرقس، والفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر من إنجيل لوقا، وها هي ذي الفقرات الإنجيلية:

«ويل لذلك الرجل الذي به يُسلَّم ابن الإنسان، كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد».

«من أعثر أحد أولئك الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر».

«من أعثر أحد الصغار المؤمنين بي فخير له لو طوق عنقه بحجر رحى وطرح في البحر».

«. . . خير له لو طوق عنقه بحجر رحى وطرح في البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار».

وهذان الشاهدان أهم ما في مكتوب كليمان من الشذرات المنقولة ، ولذلك اكتفى بهما العلامة المسيحي «بيلي».

وعلق لاردنر في تفسيره بالجزء الثاني صفحة ٣٧ على هذين الشاهدين بقوله: «نقلت الألفاظ عن الأناجيل المتعددة في المقابلة ليعرف كل شخص معرفةً جيدة، لكن الرأي العام أن الجزء الأخير من هذه الجملة نقل من الآية الثانية من الإصحاح السابع من إنجيل لوقا».

ونحن لا نرى النقل لأن هذه الحكم والعظات كانت شائعة

في ذلك العصر وما قبله من العصور، ففي أقوال كنفوشيوس وبوذا كثير من الحكم والعظات التي في الأناجيل ، حتى أن صاحب « اكسيهوموا » يقول: «إن الأخلاق الفاضلة التي احتواها الإنجيل ويفخر بها المسيحيون منقولة كلمة كلمة من كتاب «الأخلاق» لكنفوشيوس الذي كان موجوداً قبل المسيح بستمائة سنة».

وشيوع الأفكار التي جاءت في كلمات كليمان ليس في حاجة إلى دليل لإثباته، فما في المسيحية من أفكار إنسانية عالية إلا له نظائر في آداب الأمم السابقة ومأثوراتها البيانية في الأدب والدين والأخلاق.

وإذا كان كليمان نقل عن لوقا فأي مزية في نقله عنه وكلاهما تابعي وقف على أحوال المسيح بالسماع، ومجرد وجود مطابقة في العظات والحكم العامة ليس دليلاً على النقل، وإذا كان نقل فلماذا لم يشر كليمان إلى المصدر الذي أخذ منه؟ ولماذا لا ينقل ما زعموا أنه نقله في أمانة ودقة؟ إن النص لا يسمى نصاً إلا إذا نقل بحروفه، فإذا لم ينقل نقلاً دقيقاً أميناً فلا يسمى نصاً.

ومطابقة ما في شذرات كليمان لما في الأناجيل مرده إلى أنه عاشر أصحاب المسيح وحضر دروسهم ومواعظهم وقصصهم ونصائحهم واطلع على أناجيل أخرى فتأثر بهم جميعاً، وعلم من أحوال المسيح سماعاً ما طوع له أن يكتب في مواعظه ونصائحه من المعاني التي أدركها.

ولا بد لمن يزعم أن ما في مكتوب كليمان إنما هو نقل من

الأناجيل أن يفهم أن أمانة النقل تقضي بالنقل الحرفي وإلا فقد النص أثره وبعدت عنه الثقة، ونحن لا نجد فيما زعموا أنه نقلٌ المطابقة التامة بين نص كليمان ونصوص الإنجيل، والأمثلة شاهد ودليل.

وإذا كان النقل من هذه الأناجيل الرسمية حقاً لوجود المشابهة فلماذا لا يكون هذا نفسه متبعاً فيما ثبت نقله من أناجيل أخرى مردودة منكورة ؟وقد ذكر إكهارن أن حال اصطباغ المسيح الذي كان متفرقاً في الأناجيل الثلاثة الأول قد اجتمع في إنجيل الأبيونيين.

وإنجيل الأبيونيين وغيره لم يكونا مجهولين من كليمان لأنه قرر هو نفسه أن الأناجيل الأربعة هي الصحيحة التي أقرتها الكنيسة، وهو موافق على قرارها ومطلع على غيرها من الأناجيل التي ضمت طائفة من أخبار المسيح وأعماله وأقواله مما لا يشك فيه، وقد أقر إكهارن أن كليمان نقل عن الأناجيل الأخرى، وذكر أن كليمان نقل من إنجيل التذكرةالصوتالذي سمع من السماء يقول: «أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك» ونقلها كليمان بقوله: «أنت ابني الحبيب أنا اليوم ولدتك».

وجاءت الجملة في إنجيل مرقس ١ : ١١ : «وكان صوت من السماوات : أنت ابني الحبيب الذي به سررت»:

وفي إنجيل الأبيونيين: «أنت ابني الحبيب الذي به سررت وأنا اليوم ولدتك».

فإذا صح أن في مكتوب كليمان فقرات من الأناجيل الأخرى غير القانونية فهو ناقل من الأناجيل المعتمدة وغير المعتمدة فيها اعتمده هو نفسه، واعتماد غير المعتمد من قبله جرح لعدالته لأنه خالف إجماع الكنيسة.

وإذا كانت الفقرة الواردة في إنجيل التذكرة قد وردت في إنجيل مرقس المعتمد فإن ذلك برهان على أن في الأناجيل المعتمدة ما أخذه أصحابها من أصحاب الأناجيل غير المعتمدة، وهو برهان على أن النبع الذي استقى منه لوقا ومرقس التابعيان قد استقى منه كليمان نفسه لأنه لم يصرح بأنه نقل عنها، وما دام لم يصرح فأمره وأمرهما سواء.

وإذا ادعوا أن كليمان نقل من يوحنا ولوقا ومرقس ومتى ليثبتوا السند المتصل ويشهدوا لأناجيلهم بالثقة فإن هذه الثقة يجب أن تكون للأناجيل الأخرى غير المعترف بها هذه الثقة نفسها لأنه نقل عنها في مقام الإجلال والإقرار والتعبد والقبول والثقة والإيمان ما نقل كنقله من إنجيل التذكرة المردود المرذول.

يقول لاردنر المسيحي المتعصب العلامة في تفسيره المشهور في الجزء الثاني منه في الشذرتين اللتين لكليمان: «إذا رأينا تواليف الذين صحبوا الحواريين أو المريدين الآخرين لربنا (يسوع) وكانوا واقفين على أحوال ربنا كما كان الإنجيليون فإن مشكلات تعترضنا في أكثر الأحيان ما لم يكن النقل صريحاً وظاهراً.

«والمشكل الذي يواجهنا في هذا الموضع أن كليمان في ذينك

الموضعين ينقل أقوال المسيح التي كانت مكتوبة ويذكِّر أهل كورنثوس بألفاظ المسيح التي سمعوها هم وكليمان نفسه من الحواريين والمريدين الآخرين لربنا، فاختار ليكلرك الأول والأسقف بيرس الثاني.

«وأنا أسلم أن الأناجيل الثلاثة الأولى ألفت قبل هذا الوقت، فلو نقل كليمان عنها فذلك ممكن وإن افتقد النقل المطابقة التامة في اللفظ والعبارات، وليس من السهل تحقيق الادعاء بأن هذا النقل واقع، لأن كليمان كان على علم تام بهذه الأمور قبل تأليف الأناجيل، ويمكن أن يكون بيان الأمور التي كان على علم تام بها بعد تأليف تلك الأناجيل دون الرجوع إليها.

«إلا أن اليقين بصدق الأناجيل في الحالين واقع لأن الأمر في حال الرجوع إليها ظاهر، أما في غير حال الرجوع لا نفقد تصديق الأناجيل لأن ألفاظه موافقة لها وكانت مشهورة بحيث لم تخف عليه وعلى أهل كورنثوس إذ كانوا جميعاً ـ هو وهم ـ عليمين بها.

«وهذا يمنحنا الثقة والجزم بأن الإنجيليين كتبوا ألفاظ المسيح حقاً وصدقاً، وهذه الألفاظ جديرة أن تحفظ بكمال الأدب، وإن كان المشكل ههنا، ولكني أتخيل مع ذلك أن يكون رأي أكثر الأفاضل موافقاً لرأي ليكلرك، فبولس ـ على رأي ليكلرك ـ يعظ في الآية الخامسة والثلاثين من الإصحاح العشرين من سفر الأعمال هكذا: «متذكرين كلمات الرب يسوع أنه قال: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» وأنا أجزم أن ليكلرك مسلم تسليمًا تاماً

أن بولس لم ينقل عن أي كتاب، بل نقل الألفاظ المسيحية التي كان هو والإنجيليون واقفين عليها.

لكن لا يلزم منه أن يفهم طريق الرجوع إلى الأناجيل دائمًا على هذا النحو، لأن في الوسع اتخاذ هذا الطريق فيما يكتبون أو اتخاذ سواه، ونحن نجد بوليكربوس يتخذ هذا الطريق، والغالب بل المتيقن أنه ينقل عن الأناجيل المكتوبة».

وعلى هذا نجد أئمة العلماء المسيحيين لا يرون أن كليمان نقل من الأناجيل الرسمية، ولا حجة لموافقة ألفاظه إياها لأنها كانت من الشهرة بحيث يعلمها هو وأهل كورنثوس الذين كتب إليهم كتابه، وضرب مثلاً ببولس الذي ورد في أقواله بعض ما في الأناجيل دون نقل عنها.

وعلى رأي من ذهبوا إلى أن كليمان أخذ من الأناجيل، واعتبروا أخذه حجة على صدق الأناجيل يجب أن تكون الأناجيل الأخرى التي نقل منها صادقة، ولكن الكنيسة حرمت غير الأناجيل الرسمية، وفي عملها رد على كليمان التابعي وجرح لشهادته وطعن فيها، فإذا ردت شهادته في بعض أقواله فإن من الحق أن يرد سائرها.

وإذا كان كليمان نفسه يذكر أن الأناجيل الرسمية أربعة هي وحدها الصادقة فكيف ينقل عن الأناجيل الكاذبة أو غير الرسمية؟.

أما شهادة أغناطيوس فيقال فيها ما قيل في شهادة كليمان، فما ورد في رسائله من جمل واردة في الأناجيل لا يعد شهادة، بل كل ما نسب إليه ساقط لا قيمة له في ميزان الحق والعدل.

فلأغناطيوس سبع رسائل ذكرها العلامة يوسيبيس والفيلسوف جيروم، وهناك رسائل غيرها، وجُمعت سبع الرسائل في كتاب منه نسختان، إحداهما صغيرة، والأخرى كبيرة.

وأئمة المسيحية مجمعون على أن غير سبع الرسائل مختلق منحول، فلا عبرة بغير السبع عندهم وهو متروك.

والنسخة الكبيرة التي تضم سبع الرسائل مختلقة منحولة ومحرفة إلا عند «وسن» وأتباعه فهي متروكة.

أما النسخة الصغيرة فالقول فيها مختلف، فمنهم من يذهب إلى أنها الأصلية، ومنهم من يرى أنها مختلقة، والمتوسطون بين الفريقين يرون أنها محرفة، والذين يرون أنها أصلية يعترفون أن التحريف دخلها، فهي على هذه الأقوال متروكة، لأنها ـ على قول من قالوا إنها مختلقة ـ ساقطة، وكذلك على مذهب الفريقين الآخرين، إذ يفقد كل كتاب قيمته إذا أثبتوا أن التحريف دخله.

وقد اعترفوا أن أحد المنتسبين لفرقة إيرين أو أحد أهل الديانة أو أن كليهما «تصرف في النسخة الصغيرة» وهذا الإعتراف يبطلها.

وثابت بأقوال أئمة المسيحيين واعتراف قديسيهم وأكبر

أساقفتهم أن العبث واقع بكتبهم المقدسة وبمؤلفات الأئمة المصطفين، وأن النحل والتقويل والتحريف بأنواعه الكثيرة والنقص والزيادة واقعة في جميع الكتب المقدسة وفي مؤلفات المسيحيين القدامى، بل وقع كل ذلك في حياة بعض المؤلفين.

يقول الأسقف ديو نيسس ـ أسقف كورنثهية ـ : «إني كتبت رسائل بطلب الإخوة، ولكن خلفاء الشيطان ملؤوها بالنجاسة فبدلوا بعض الأقوال وأدخلوا بعضها في بعض ما ملأ قلبي حزناً لا مزيد عليه، ولا عجب إذا أقحموا في كتب ربنا المقدسة ما ليس منها، وإذا كانوا يحرفون الكتب التي ليست في مرتبتها فهم محرفو المقدسة».

وما ينسب إلى أغناطيوس ساقط متروك لا يؤبه به بعد أن ثبت أن سبع الرسائل لم تنج من التحريف المشين.

يقول لاردنر في الجزء الثاني من تفسيره: «إن يوسيبيس وجيروم ذكرا سبع رسائل لأغناطيوس، وما عداها من الرسائل منسوب إليه، ويعتقد جمهور العلماء أن الرسائل المنسوبة إليه مختلقة، وهو ما أعتقده.

«وللرسائل السبع نسختان : إحداهما كبيرة، والثانية صغيرة، واعتقاد الجميع ـ إلا مستر وستن واثنين أو أربعة من تابعيه ـ أن النسخة الكبيرة زيد فيها، والصغيرة قابلة أن تنسب إليه، وإني قابلتهما ممعناً فيهما فوجدت أن النسخة الصغيرة

أصبحت كبيرة بسبب الإلحاق والزيادة، لا أن الكبيرة صارت صغيرة بسبب الاختصار والإيجاز.

«ومنقولات القدماء توافق ما جاء في النسخة الصغيرة أكثر من الكبيرة.

«وبقي أن نسأل: أما في النسخة الصغيرة من رسائل أغناطيوس له حقاً؟.

«إن هناك نزاعاً عظيمًا، وللمحققين الكبار في ذلك آراء، والجواب على هذا السؤال عسير إذا اعتمدنا ما كتبه أعاظم المحققين واختلف ما كتبوه بعضه عن بعض.

«والثابت عندي أن هذه الرسائل (السبع) هي التي قرأها يوسيبيس وكانت موجودة في زمان أوريجين، وبعض الفقرات لا تناسب زمان أغناطيوس، مما يجعلنا نعتقد أنها مقحمة زائدة أدخلت إدخالاً، غير أن هذا الإقحام لا يحملنا على رد الرسائل كلها بسببه، وبخاصة إذا أخذنا في حسابنا قلة النسخ التي بينا بها.

وكما أن أحداً من فرقة إيرين زاد في النسخة الكبيرة فغير بعيد أن يكون أحد من فرقة إيرين أو من أهل الديانة أو من كليهما تصرف في النسخة الصغيرة أيضاً، وإن كنت أحسب أن هذا التصرف غير موصوف بالفساد العظيم».

وما دام الإجماع قائمًا على أن ما اطمأنوا إلى نسبته لأغناطيوس لم ينج من التحريف والزيادة والنقص والإقحام فإن في

الوسع رده لأن من المتعذر غربلة ما كتبه أغناطيوس ونفي ما ليس له وإثبات ما له، فهو حري أن يرد ، لأن ما تبنى عليه العقيدة يجب أن يكون سليمًا من كل عيب أو مطعن.

وليس ما أثر عن كليمان وأغناطيوس وغيرهما دخله التحريف بل دخل كل أسفار الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد.

ولسنا نحن وحدنا ندعي التحريف، فقد سبقنا وعاصرنا مئات من المسيحيين فيهم القديسون والمؤمنون والرسل والحواريون أثبتوا أن الأناجيل الأربعة لم تسلم من التحريف والغلط.

وتضم الأناجيل آلاف الغلطات، ولولا أننا لا نريد تضخيم الكتاب أضعاف حجمه لكنا ذكرنا هذه الآلاف، ولكن في النماذج الغناء، والمثال يغني عن الإحصاء.

أما التحريف فلا ندعيه، فقد مر فيما مضى من الشواهد الصادقة اعتراف أئمة المسيحية في القديم بوجوده الثابت، كما اعترفوا بوجود الغلط والتناقض في الألفاظ وفي المعاني وفي الحوادث والوقائع والأخبار ـ وغير ذلك تناقضاً مبيناً مفضوحاً.

وأول ما نود ذكره نفي العصمة عن الحواريين ونفي الإلهام عنهم بأقوالهم وبما ذكرهم الأئمة الصالحون والعلماء المحققون حتى إذا ثبت ذلك كان ما يقوله الحواريون عرضة للخطأ الثابت المحسوب عليهم.

في «دائرة معارف باريس» الجزء التاسع عشر التي ألفها ربس بمعونة كثير من العلماء: «ما كان الحواريون يرى بعضهم بعضاً صاحب وحي كما يظهر من مباحثاتهم في محفل أورشليم ومن إلزام بولس لبطرس، وما كان المسيحيون القدماء يعتبرون الحواريين معصومين من الخطأ».

وفي «دائرة المعارف البريطانية» الجزء الحادي عشر، صفحة **٢٧٤** : «وقع النزاع في كل قول بالكتب المقدسة أهو إلهام أم غيره؟ وكذلك كل ما جاء فيها، وقال جيروم وكروتيس وأرازمس وبروكوبيس وكثيرون من العلماء: ليس كل قول من الكتب المقدسة إلهاماً».

وفي الصفحة **٢٠** من الجزء التاسع عشر منها: «إن الذين يدعون أن كل قول في الكتب المقدسة إلهام لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم بسهولة».

ومن الواضح أن لوقا معترف بأنه يؤلف قصة كغيره فافتتح إنجيله بقوله: «إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علِّمت به».

وهذا يدل على أن إنجيله ليس إلهاماً، وقد صرح واطسن في الجزء الرابع من كتابه «رسالة الإلهام» التي أخذها من تفسير

الدكتور بنسن أن عدم كون تحرير لوقا إلهاماً يظهر مما كتبه في افتتاح إنجيله.

وقال العلماء في إنجيل مرقس ما قيل في إنجيل لوقا، ومن هؤلاء مستر كدل وميكايلس، وإنجيل متى ليس إلهامياً، فالعلامة كلي ميشيس يقول: «إن متى ومرقس يتخالفان في التحرير، وإذا اتفقا رجح قولهما على قول لوقا».

وقوله ينفي الإلهام عن الثلاثة، فوجود الاختلاف لا يتفق مع سداد الإلهام ولو كانت إلهامية لما كان هناك معنى للترجيح، وثبوته ينفي الإلهام.

بل وقع الحواريون في أخطاء كثيرة منها فهمهم الخاطىء لبعض ما قاله المسيح لهم، فهم كانوا معتقدين أن القيامة قائمة لا محالة في عهدهم، وأن يوحنا بن زبدي لن يموت، وقد أقر أئمة المسيحيين أن ذلك غلط وقع فيه الحواريون، فلم تقم القيامة كما يعتقدون، ولم يخلد يوحنا كما فهموا.

ومن هؤلاء الأئمة المحقق البروتستانتي بيلي الذي ألف كتاباً في الإسناد طبعه سنة ١٨٥٠م وجاء فيه بالصفحة **٣٢٣** ما نقتطف بعضه مما يتصل بموضوعنا.

قال بيلي: «الغلط الذي نسب إلى القدماء المسيحيين أنهم كانوا يرجون قرب القيامة، وأنا أقدم نظيراً آخر قبل الاعتراض، وهو أن ربنا قال في حق يوحنا لبطرس: إن كنت أشاء أن يبقى حتى

أجيء فما ذلك، ففهم هذا القول على غير المراد بأن يوحنا لا يموت، فذاع بين الإخوة، ولو وصل إلينا هذا القول بعد أن يصير رأياً عاماً وفقد السبب الذي نشأ منه هذا الغلط، وأراد أحد أن يرد الديانة المسيحية اعتماداً على هذا الغلط لكان الأمر في غاية الاعتساف».

وقال المفسر المسيحي بارنس في شرح الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل يوحنا: «نشأ هذا الغلط أن يوحنا لا يموت من ألفاظ عيسى التي كانت تفهم غلطاً، وتأكد بسبب بقاء يوحنا حياً بعد موت الحواريين».

وقال جامعو تفسير العالمين هنري وإسكات: «فهم الحواريون غلطاً أن يوحنا يبقى حياً إلى القيامة أو يرفع حياً في الجنة» ثم قالوا: « ويعلم من هذا أن رواية الإنسان تكون بلا تحقيق، وأن بناء الإيمان عليها حمق، لأن هذه الرواية كانت رواية الحواريين وكانت عامة بين الإخوة، وكانت أولية ومنتشرة ورائجة، ومع ذلك كانت كاذبة».

وقالوا في الحاشية: «إن الحواريين فهموا الألفاظ غلطاً كما صرح الإنجيلي إلخ».

ولكن بعض أئمتهم أرادوا تلافي الحرج فقال المحقق البروتستانتي بيلي: «إذا سلمنا أن رأي الحواريين كان قابلاً للسهو فكيف يعتمد على أمر منهم؟ ويكفي في جوابه من حامي الملة المسيحية في مقابلة المنكرين هذا القدر وهو أن شهادة الحواريين

مطلوبة للإنسان ولا غرض له عن رأيهم، وإن المطلب الأصلي مطلوب، ومن جانب النتيجة مأمون ، ولكن لا بد أن يلاحظ في هذا الجواب أمران ليزول الخوف كله.

«الأول : تمييز المقصود الذي كان من إرسال الحواريين وثبت من إظهارهم عن الشيء الذي هو بعيد أو اختلط به اتفاقاً، ولا حاجة بنا إلى القول فيما هو بعيد عن الدين صراحةً، لكن يقال فيما اختلط بالمقصود اتفاقاً، ومن ذلك تسلط الجن، والذين يفهمونه أن هذا الرأي الغلط كان عاماً في ذلك الوقت ووقع فيه مؤلفو الأناجيل واليهود الألى كانوا في ذلك الزمان يقبلونه، ولا خوف منه في صدق الديانة المسيحية لأن هذه المسألة لم تكن من المسائل التي جاء بها عيسى بل اختلطت بالأقوال المسيحية بسبب كونها رأياً في تلك البلاد وذلك الزمان، وإصلاح رأي الناس في تأثير الأرواح ليس جزءاً من الرسالة ولا علاقة له بالشهادة بوجه من الوجوه.

«الثاني : التمييز بين مسائل الحواريين ودلائلهم، فمسائلهم إلهامية، إلا أنهم يوردون في أقوالهم لتوضيحها وتقويتها أدلة ومناسبات، مثل: «من تنصر من غير اليهود فلا يجب عليه إطاعة الشريعة الموسوية الإلهامية التي ثبت تصديقها بالمعجزات» وبولس ـ إذا ذكر هذا المطلب ـ يذكر أشياء كثيرة في تأييده، فالمسألة واجبة التسليم، لكن لا ضرورة لأن نجعل من أنفسنا حماة

صحة كل من أدلة الحواري وتشبيهاته رجاء حماية الديـانة المسيحية.

وقد تحقق عندي كل التحقق أن الربانيين إذا اتفقوا فالنتيجة التي تنتهي إليها مقدماتهم واجبة التسليم، لكن لا يجب علينا شرح المقدمات كلها وقبولها إلا إذا اعترفوا مثل اعتراف النتيجة».

ونستخلص من أقوال جامعي تفسير هنري وإسكات أن الحواريين وقدامى المسيحيين كانوا على عقيدة تامة بقيام القيامة في عهدهم وبخلود يوحنا، وهي عقيدة خاطئة مردودة من قبل المسيحيين أنفسهم، فلا حاجة بنا إلى تفنيدها وردها.

ونستخلص منها أن ما ليس من الدين إذا اختلط به اتفاقاً لا يضير وقوع الغلط فيه الديانة نفسها، والاعتراف بأن مؤلفي الأناجيل وقعوا في الغلط الشائع، وأنه لا ضير من وقوع الغلط في أدلة الحواريين وتشبيهاتهم، والتفرقة بين مسائلهم وأدلتهم، والادعاء بأن مسائلهم إلهامية.

وإذا افترضنا ـ جدلاً ـ قبول ادعائهم هذا فإن أكثر ما في الإنجيل يفقد وصفه بالإلهام، وفيما بقي منه نظر.

ولا نريد أن نرد على المحقق العلامة بيلي برأي من عندنا بل يرد عليه أستاذه ومتبوعه مارتن لوثر الذي يرى أن الحواري لا يملك حق تعيين حكم شرعي من جانب نفسه لأن هذا الحق لعيسى وحده.

وبهذا ينتفي عن مسائل الحواريين وأحكامهم ما ادعاه بيلي وغيره لها من ا لإلهام الذي ينفيه وجود أغلاط كثيرة للحواريين لا تتفق مع عصمة الإلهام.

ولئلا نتهم بالهوى إذا أبدينا رأينا الخاص نقدم البراهين من أئمة المسيحيين الذين لا يتهمون بالهوى لأنهم مخلصون لمسيحيتهم ومؤمنون بها حق الإيمان.

قال زونكليس وغيره من البروتستانيين: «ليس كل ما في رسائل بولس مقدساً، وقد غلط في عديد من الأمور» وذكر سنكيس في رسالته حال متبعي كالفين أنهم يقولون: لو جاء بولس في جنوا ووعظ في مقابلة كالفين لتركنا بولس وسمعنا كالفين» وقال لواتهروس ناقلاً عن حال بعض كبار العلماء من أتباع لوثر أنهم يقولون: يجوز أن نشك في بولس ولكن لا يجوز ولن نشك في لوثر».

وقال برونشس: «إن بطرس رئيس الحواريين وبرنابا غلطا بعد نزول الروح القدس، كما غلطت كنيسة أورشليم» وبرنشس هو الذي لقبه «جويل» بالفاضل والمرشد.

وقال وانيتيكر: إن الكنيسة كلها غلطت بعد عروج المسيح ونزول الروح القدس، ولم يكن صدور الأغلاط وقفاً على العامة بل على الخاصة أيضاً، بل الحواريون غلطوا، وكلهم غلطوا في دعوة غير الإسرائيليين إلى الدين المسيحي، وغلط بطرس في الرسوم

أيضاً، وهذه الأغلاط الكبيرة صدرت عن الحواريين بعد نزول روح القدس».

ونسب مستر فلك إلى بطرس كبير الحواريين الغلط وجهله بالإنجيل، وزاد عليه الدكتور كود. إذ قال في كتاب « المباحثة » التي وقعت بينه وبين فاوركيم أن بطرس غلط في الإيمان بعد نزول الروح القدس ».

واتهم جان كالوين بطرس وقال: «إن بطرس زاد بدعة في الكنيسة وألقى الحرية المسيحية في المخافة ورمى التوفيق المسيحي بعيداً».

ونسب العالم المسيحي ميكدي برجنس إلى الحواريين وبخاصة بطرس الغلط».

وكل هذا ـ يضاف إليه ما سبق وما سيأتي ـ يقرر حقيقة حال الحواريين وبولس ولوقا ومرقس وغيرهم من المسيحيين وبخاصة مؤلفي الأناجيل، وأنهم ليسوا معصومين ولا ملهمين، لأنهم كانوا يغلطون بعد نزول الروح القدس، ومن كان يغلط ليس أهلاً لأن يؤخذ عنه الدين والعقيدة والشريعة، ويكفي أن يفهم المفكرون الأعلياء مثل لوثر أن الحواري لا يملك حق تعيين حكم شرعي من جانب نفسه لأن هذا الحق لعيسى وحده.

وبعد هذا نكتفي بالإشارة إلى بعض ألوان الغلط والتحريف والتناقض والكذب في الأناجيل، ونبدأ بنسب المسيح

عليه وعلى إخوته المرسلين صلوات الله وسلامه.

افتتح أول إنجيل وهو إنجيل متى الكلام بقوله:

«كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم، إبراهيم ولد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب، ، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته، ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار، وثامار ولد حصرون، وحصرون ولد أرام، وأرام ولد عميناداب، وعميناداب ولد نحشون، ونحشون ولد سلمون، وسلمون ولد بوعز من راحاب، وبوعز ولد عوبيد من راعوث، وعوبيد ولد يَسِّي، ويسِّي ولد داود الملك، وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا، وسليمان ولد رحبعام، ورحبعام ولد أبيا، وأبيا ولد آسا، وآسا ولد يهوشافاط، ويهوشافاط ولد يورام، ويورام ولد عزّيا، وعزّيا ولد يوثام، ويوثام ولد أحاز، وأحاز ولد حزقيا، وحزقيا ولد منسي، ومنسي ولد أمون، وأمون ولد يوشيا، ويوشيا ولد يكنيا وإخوته عند سبي بابل، وبعد سبي بابل يكنيا ولد شالتيئيل، وشالتيئيل ولد زر بابل، وزر بابل ولد أبيهود، وأبيهود ولد إلياقيم، وإلياقيم ولد عازور، وعازور ولد صادوق، وصادوق ولد أخيم، وأخيم ولد أليود، وأليود ولد أليعازر، وأليعازر ولد متان، ومتان ولد يعقوب، ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح، فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً، ومن داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً».

وفي إنجيل لوقا (الإصحاح الثالث، الفقرات ٢٣ ـ ٣٨):

«ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو ـ على ما كان يظن ـ ابن يوسف بن هالي، بن متثات، بن لاوي، بن ملكي، ابن ينا، بن يوسف، بن متاثيا، بن عاموس، بن ناحوم، بن حسلي، بن نجاي، بن ماث، بن متاثيا، بن شمعى، بن يوسف، ابن يهوذا، بن يوحنا، بن ريسا، بن زربابل، بن شالتيئيل، بن نيري، بن ملكى، بن أدي، بن قصم، بن المودام، بن عبر، بن يوسي، بن أليعازر، بن يوريم، بن متثات، بن لادي، بن شمعون، بن يهوذا، بن يوسف، ين يونان، بن إلياقيم، بن مليا، ابن منيان، بن متاثا، بن ناثان، بن داود، بن يسي، بن عوبيد، ابن بوعز، بن سلمون، بن نحشون، بن عميناداب، بن أرام، ابن حصرون، بن فارص، بن يهوذا، بن يعقوب، بن إسحاق، ابن إبراهيم، بن نارح، بن ناحور، بن سروج، بن رعو، بن فالج، بن عابر، بن شالح، بن قينان، بن أرفكشاذ، بن سام، بن نوح، بن لامك، بن متوشالح، بن أخنوح، بن يارد، بن مهلائيل، بن قينان، بن أنوش، بن شيتْ، بن آدم، ابن الله».

والخلاف بين الإنجيلين ومؤلفيهما كبير، وكأن كلا منهما ينسب إنساناً غير الآخر، ويقوم الخلاف على التناقض واللفظ والمعنى والتقديم والتأخير، والكذب وتحريف الأسماء، ونجد المخالفة في سلسلة النسب نفسها.

وليس هذا النسب بنسب عيسى ، بل هو نسب يوسف

النجار، ولا دخل لعيسى فيه، فعيسى ابن مريم، ولا نسبة له من جهة غير أمه، لأنه لا أب له كما يعلمون ونعلم، فكيف ينسب إلى يوسف ويوصف بأنه «رجل مريم» مما يفهم منه أنه زوجها أو ـ على الأقل ـ يوهم بذلك؟.

إن معارضة سلسلة النسب في متى بها في لوقا تكشف للقارىء أنواع الخلاف، مما يطعن في وحي هذين الإنجيلين طعناً شديداً، فإذا اختلفا هذا الاختلاف الشديد في نسب ربهما فما هما فاعلان في غيره؟.

أنسب الرب يغلطان فيه هذا الغلط الشنيع، بل فيه سلسلة من الأغلاط منها: أن الاثنين ينسبان المسيح إلى يوسف وما كان له أباً حتى ينسب إليه، ومن تعظيم المسيح أن ينسب إلى أمه لارتباط المعجزة والكرامة بهما، ولا يصح على أي وجه نسبته إلى يوسف.

ومع هذا ننقد سلسلة النسب في الإنجيلين ليظهر ما فيه من أغلاط، ففي متى: يوسف بن يعقوب، وفي لوقا: يوسف بن هالى، وليس أحدهما الآخر بل هما مختلفان، ولم يرد قط أن الاسمين مترادفان يدلان على شخصية واحدة، وما أبشع الغلط في اسم أب قريب معاصر يختلف فيه إنجيليان يقال: إنهما ملهمان معصومان!.

ويدعي متى أن المسيح من أولاد سليمان بن داود، ولوقا: أنه من نسل ناثان بن داود.

وفي متى: شلتيئيل بن يكنيا، وفي لوقا: شلتئيل بن نيري.

وفي متى: أبيهود بن زربابل، وفي لوقا: ريسا بن زربابل، ومع اختلافهما فقد اخترع كل منهم اسم ابن زربابل، مع أن أبناءه مذكورون تفصيلاً بأسمائهم في سفر الأخبار الأول ٣: ١٩ ـ ٢٠ بهذا النص: «وبنو زربابل: مشلّام وحننيا وشلومية أختهم، وحشوبة وأوهل وبرخيا وحسديا ويوشب حسد، خمسة» وليس بينهم أبيهود ولا ريسا.

وفي متى أن بين داود وعيسى ستة عشر جيلاً، وفي لوقا: واحداً وأربعين.

وأحرج المحققون من أعلام المسيحيين من هذه الأغلاط مثل أكهارن وكيزر وهيس وديوت ووينر وفسش وغيرهم، ولم يجدوا بداً من الاعتراف فقالوا: إن متى ولوقا مختلفان اختلافاً، وإذا صدر عن الإنجيليين أغلاط واختلافات في مواضع أخرى فلا غرابة في وجود اختلاف كهذا.

ونقل آدم كلارك في ذيل شرح الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا عن «هارمرسي» ٥: ٤٠٨ بعد أن أبدى كلارك نفسه حيرته وعدم رضاه بتوجيهات هارمرسي قوله: «كانت أوراق النسب تحفظ لدى اليهود حفظاً شديداً، ويعلم كل ذي علم أن متى ولوقا اختلفا في بيان نسب الرب اختلافاً تحير فيه المحققون من القدماء والمتأخرين».

ويزيد في فَدْح الغلط أن وثائق النسب تحفظ حفظاً شديداً، ومع هذا يغلط الإنجيليان الملهمان المعصومان.

ومن الغريب أن لوقا لم يطلع على إنجيل متى، ومتى لم يطلع على إنجيل لوقا مع أنهما كانا متعاصرين وماتا على بعض الأقوال في سنة ٧٠م، وجهل كل منهما بإنجيل الآخر مع وحدة ديانتهما ورسالتهما برهان على أن إنجيليهما لم يكونا في عصرهما، إذ لو كانا لاطلع كل منهما على إنجيل الآخر وأصلح خطأه، أما وبقاء هذا الخطأ وغيره فيهما فهو البرهان على كتابتهما بعد عصر متأخر عنهما.

وجاء بعض المتحذلقة يريد الاعتذار ومحو الخطأ فزعم أن التوجيه الحق لهذا الخلاف والتناقض في النسب مرده إلى أن متى كان يكتب نسب يوسف، ولوقا يكتب نسب مريم، وهو ادعاء مردود، لأن عبارة كل منهما واضحة لا لبس فيها، وصريحة بأن كليهما ينسب يوسف لا مريم.

وإذا سرنا مع هؤلاء المعتذرين الذين اخترعوا هذا التوجيه فإن مريم تكون ابنة هالي، ونسب إليه يوسف بوصف كونه ختنه ودخل في عمود نسب هالي.

وعلى هذا التوجيه يكون المسيح من أولاد ناثان لا من أولاد سليمان إذا أخذنا في الحساب نسبه من جهة أمه لأنه هو الحق ولا اعتداد بنسب يوسف لأنه لا صلة له به، وإذا كان من أولاد ناثان انتفى كون المسيح مسيحاً، وما كان المسيح مسيحاً إلا بالنسبة إلى

سليمان، ولهذا يقول كالفن زعيم المذهب البروتستانتي المعروف باسمه: «من أخرج سليمان عن نسب المسيح فقد أخرج المسيح عن أن يكون مسيحاً».

ولا يصح ذلك التوجيه إلا إذا صح أن مريم ابنة هالي، ولم يصح هذا النسب الذي رده آدم كلارك وكالفن وغيرهما من المحققين، ويؤيدهم ما جاء في الإنجيل المعروف بإنجيل يعقوب المردود غير المعتد به، ولئن كان إنجيل يعقوب مردوداً إلا أنه يعد وثيقةً تاريخية لأنه من مؤلفات العصر المسيحي الأول أو مؤلفه منه، وصرح بأن مريم منسوبة لأبوين هما يهوياقيم وعانا.

وإذا أضيف إلى ذلك قول إكستاين: «إن مريم من آل لاوي كما وجد في بعض الكتب التي كانت في زمنه كانت الحجة أقوى في نقض ذلك التوجيه، ويقوي هذه الحجة بل يزيد في قوتها ما جاء في سفر العدد بالإصحاح السادس والثلاثين بالفقرات ٥ ـ ٩ وهو:

«فأمر موسى بني إسرائيل حسب قول الرب قائلاً: بحق تكلم سبط بني يوسف، هذا ما أمر به الرب عن بنات صلفحاد قائلاً: من حسن في أعينهن يكنَّ له نساء، ولكن لعشيرة سبط آبائهن يكن نساء، فلا يتحول نصيب لبني إسرائيل من سبط إلى سبط، بل يلازم بنو إسرائيل، كل واحد نصيب سبط آبائه، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها، لكي يرث بنو إسرائيل؛ كل واحد نصيب آبائه

فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر، بل يلازم أسباط بني إسرائيل ؛ كل واحد نصيبه».

وأم مريم من بني إسرائيل فهي مقيدة بأمر الرب سبحانه وتعالى، وكذلك أبوها، فهي لا بد أن تتزوج من سبطها ليبقى الميراث في العشيرة ولا يختلط الأسباط بعضهم ببعض.

ويؤكد ذلك ما جاء في إنجيل لوقا ١ : ٥ : « كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها أليصابات، وكان كلاهما بارين أمام الله» وفي الإصحاح الثاني الفقرة ٣٦ مخاطبة الملاك لمريم وبشارته إياها وقوله لها: «أليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى».

ولا يتولى الكهانة في بني إسرائيل إلا أبناء لاوي بن يعقوب كما أمر الرب موسى (سفر العدد ٨ : ٥ ـ ٢٦) فزكريا من اللاويين لأنه كان من الكهان، وامرأته كذلك لأمر الرب أن يتزوج كل رجل من سبطه وكل امرأة من سبطها، فهما على هذا من اللاويين، ولما كانت مريم نسيبة أليصابات كان المفهوم المتبع أن تكون هي نفسها منهم، وهما لذلك من بنات هارون بن فاهث بن لاوي بن يعقوب.

ونذر أم مريم ما في بطنها محرراً يثبت أنها من اللاويين، فقد انقطعت لعبادة الله وخدمته واتخذت المحراب، وما كان ذلك مباحاً إلا لآل لاوي.

والقرآن الكريم يؤيد ذلك: ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾.

وجملة إنجيل متى: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما يُظَنُّ ابن يوسف» وهذا نص طبعة بيروت سنة **١٩٤٥** وأما نص طبعة لندن سنة ١٨٤٨م فهو: «وكان يبدأ يسوع نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن أنه ابن يوسف» وبين النصين فرق، ففي طبعة بيروت: «ولما ابتدأ يسوع» و «يُظَنُّ ابن يوسف» وفي طبعة لندن: «وكان يبدأ يسوع» و «يظن أنه ابن يوسف» ويظن بدون ضبط.

وفي كتاب «تحفة الجيل» تأليف الخوري يوسف الدبس نقل النص هكذا: «وإذ صار يسوع ابن نحو ثلاثين سنة كان يُظن به أنه ابن يوسف» وفيه خلاف لطبعة بيروت ولندن، وفوق ذلك زاد كلمة «به» بعد يظن.

فهل كان المسيح يظن أنه ابن يوسف؟ كلا.

وهل كان معاصروه يظنون أنه ابن يوسف بعد أن شاع وذاع أنه مولود من عذراء، وبلغت الشهرة إلى الحد الذي جاء مجوس المشرق، وعرفت أليصابات أن مريم أم ربها حين أن كانت حاملاً بالمسيح وهي حامل بابنها يحيى.

ولماذا هذا التحريف في جملة واحدة امتد إلى غير هذا التغيير زيادة ونقصاناً، فقد جاء في لوقا في عمود النسب: «ابن آدم بن

الله» في طبعة بيروت، أما في طبعة لندن فالعبارة فيها هكذا: «ابن آدم الذي من الله».

فإذا كانوا يحرفون ويغيرون ويبدلون بعد انتشار الطبع فإن من البديهي أن يفعلوا ذلك من قبل.

وما دمنا نبحث في نسب المسيح حسبما ذكره متى ولوقا فإن علينا أن نقف قليلاً على ضفافه لنرى الوحل الذي مرغ أهل الكتاب من المسيحيين نسب يسوع فيه.

اتفق لوقا ومتى على أن «عوبيد» جد «داود» وفي لوقا «رحبعام بن سليمان» وكلاهما من أجداد المسيح. وفي متى: أن عوبيد مولود من أمه راعوث، وراعوث - كما في سفر راعوث - مؤابية تزوجها بوعز وأولدها «يسّي» والد داود، وأما رحبعام بن سليمان فأمه عمونية، ففي سفر الملوك الأول ١٤ : ٢١ «رحبعام ابن سليمان. . . اسم أمه نعمة العمونية».

فمن مؤاب ومن عمون؟.

في سفر التكوين ١٩ : ٣٠ : «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسق أبانا خمراً ونضطجع معه لنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها

وقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فادخلي واضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابناً ودعت اسمه «مؤاب» وهو أبو المؤابيين إلى اليوم، والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بنعدمى، وهو أبو بني «عمون» إلى اليوم».

فمؤاب وعمون ولدا زنا غاية في القذارة والبشاعة لأنه زنا المحارم، بل زنا مَحْرَم في أعلى مرتبة، زنا أب بابنتيه، حتى أن من المسيحيين المؤمنين بالتوراة التي من أسفارها سفر التكوين أخذوا يتساءلون: أين يجد الإنسان الأمن؟ ولم يستطيعوا إخفاء الاشمئزاز من هذا الفعل، وعجبوا من الرجل الذي بقي باراً نقياً منزهاً من كل قبائح سدوم وكان مثلاً رفيعاً للفضيلة والعفة والتنزه من جميع «النجاسات» التي غرق فيها أهل سدوم حتى أهلكهم الله شر هلاك أن يغلبه الفسق بعد النجاة من العذاب الأليم، وهو جدير بالبكاء والرثاء لحاله[1].

وأصبح بنو مؤاب وبنو عمون قريبين من الله حتى أنه أمر موسى ـ كما جاء على لسانه في سفر التثنية ٢ : ٩ و ١٩ ـ بقوله: «لا تعاد مؤاب ولا تثر عليهم حرباً لأني لا أعطيك من أرضهم

---

(١) كتاب «طريق الأولياء» صفحة ١٢٨.

ميراثاً» و «متى قربت إلى بني عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأني لا أعطيك من أرض بني عمون ميراثاً، لأني لبني لوط قد أعطيتها ميراثاً».

وهذا عجيب من التوراة التي بين أيدي الناس، لا يصاب هؤلاء بأذى، بل لا يصاب مؤاب وعمون بأي سوء مع أنهما ولدا زنا من محرم في أعلى طبقة وأقرب المحارم طراً، في حين أن التوراة تروي عن زنا داود بامرأة أوريا الحثي أن الله عاقبه بموت الولد.

في سفر صموئيل الثاني ١٢ : ١٣ ـ ١٥ : «قال ناثان لداود: الرب قد نقل عنك خطيتك، لا تموت، غير أنه من أجل أنك جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالإبن المولود لك يموت! وذهب ناثان إلى بيته، وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فثَقِل».

أترى هذه التوراة زنا المحارم لا غبار عليه وزنا الأباعد قاصماً؟.

ونترك هذا كله لنعود إلى مؤاب وعمون ولدي الزنا لنجد في عمود نسب المسيح «عوبيد» جد داود مولوداً من «راعوث» المؤابية و «رحبعام بن سليمان» مولوداً من «نعمة» العمونية، ووالدا سليمان من الخاطئين لأنهما زنيا، وكلهم في عمود نسب المسيح.

فراعوث جدة داود وسليمان وعيسى، وداود ابن الله البكر، وسليمان ابن الله، وعيسى ابن الله الوحيد، بل الله على

زعمهم، و «نعمة» العمونية من أولاد عمون والدة «رحبعام» الذي هو من أجداد عيسى، وأمه من جدات عيسى ابن الله الوحيد، عيسى الذي هو الله عندهم.

وإن هذا الشرف الأسمى الذي كان من نصيب مؤاب وعمون ابني الزنا شرف دونه كل شرف العالم، فبعض بنات الأول صارت جدة أبناء الله وبخاصة الله الذي هو يسوع، وبعض بنات الثاني صارت جدة ابن الله الوحيد بل الله على ما يزعمون.

فعيسى صلى الله عليه وسلم منسوب ـ على رواياتهم ـ بوساطة هاتين الجدتين إلى مؤاب وعمون معاً وعلى هذه النسبة يكون مؤابياً عمونياً، وإذا كان مؤابياً وعمونياً فقد حقت عليه لعنة الله على زعم توراتهم التي بين أيديهم، لأنها تقول في سفر التثنية بالإصحاح الثالث والعشرين في فاتحته:

«لا يدخل مخصي بالرض أو مجبوب في جماعة الرب، لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب، لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب، حتى الجيل العاشر لا يدخل أحد منهم في جماعة الرب إلى الأبد».

وعلى هذا لا يدخل عيسى في جماعة الرب فضلاً عن أنه يكون رئيسهم وأعلاهم، بل يكون ابن الله الوحيد، بل يكون الله كما يزعمون.

وإذا ذهب المسيحيون إلى أن النسب يجب أن يكون بالآباء

لا بالأمهات رغبة في أن ينفوا المؤابية والعمونية عن المسيح فإن هذا النفي لا يزول، إذ ينفي عن المسيح أن يكون داووديا سليمانياً، لأن هذا النسب من جانب الأم لا الأب، وعلى ذلك لا يكون المسيح الموعود به مسيحاً.

وفي أي من النهجين سلك ينتهي إلى مؤاب وعمون، لأن داود وسليمان ينتهيان إلى راعوث جدتهما دون جدال ونزاع.

وما أود أن أترك مسألة مؤاب وعمون وما تفرع عنهما وبسببهما من أقاويل وضلالات دون أن أقول كلمة الإسلام في ذلك، وها هي ذي:

إن داود لوطاً من الصالحين، ومعاذ الله أن يقع منهما ما نسبه إليهما مؤلفو التوراة وأسفار العهد العتيق، وإن كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وصفهما بخير ما يوصف أكابر الفضلاء وأعاظم الأنبياء، وكل ما نسب إليهما من الفسق والفجور والآثام باطل وكذب، وما بعد أن قال الله فيهما من القول الحسن وشهد لهما وزكاهما قول وشهادة وتزكية.

وما أدري كيف يوثق بكتب وتوصف بأنها مقدسة وهي زاخرة باتهام أصلح الخلق وأعظمهم قرباً من الله؟.

وإذا كان الرسل كما وصفوا في أسفارهم المقدسة فكيف تكون الثقة بالشرائع والعقائد والديانات؟.

إن الفسقة الفجرة الكفرة الشاكين المغاضبين لله لن يكونوا

قدوة للناس، وأهلاً للاضطلاع بأعباء الرسالات وإصلاح الأمم والشعوب، والأنبياء والمرسلون موصوفون في أسفار العهد القديم والجديد بما ينفي عنهم الخلق الفاضل والأمانة والصدق والفضيلة والحق والإحسان حتى أن المسيح يقول عنهم جميعاً ـ حسب رواية الأناجيل ـ : «سراق ولصوص»[1].

تعالى الله عما يقولون فيه ويصفونه به، وتنزه رسله وأنبياؤه عن تهمهم ومطاعنهم.

وفي متى ١ : ٢١ ـ ٢٣ : «ستلد إبناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم، وهذا كله لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل، هوذا العذراء تحبل وتلد إبناً ويدعون اسمه عمانؤيل الذي تفسيره الله معنا» وفي لوقا ١ : ٣١ : «ها أنت تحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع» وفي متى ٢ : ٢٣ : «وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصرياً».

ولم يقع إلا تسميته يسوع، أما عمانؤيل فما نودي به قط كما لم يعرف به بتة. وكذلك «الناصري» لم يرد في كتاب من كتب الأنبياء، بل ورد إنكار اليهود أن يكون نبي من الجليل كلها بما فيها الناصرة.

وأما «عمانؤيل» فمنقول بالجملة التي ورد فيها من سفر

---

(١) إنجيل يوحنا ١٠ : ٧

أشعيا حيث جاء فيها (٧ : ١٤ ـ ١٦) : «ها العذراء تحمل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل، زبداً وعسلاً يأكل متى عرف أنه يرفض الشر ويختار الخير، لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير على الأرض التي أنت خاشٍ من ملكيها».

وفي أول هذا الإصحاح الذي نقلنا عنه هذه الفقرات الثلاث: «وحدث في أيام آحازين بوتام بن عزّيا ملك يهوذا أن رصين ملك أرام صعد مع فقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشاليم لمحاربتها فلم يقدر أن يحاربها» وأوحى الله إلى النّبي أشعيا أن يلقى أحاز ويطمئنه بآيته أن تلد العذراء إبناً وتدعو اسمه عمانوئيل.

و«النبي القائل» في جملة متى مقصود به النبي أشعيا الذي قال: «ها العذراء تحمل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل».

ويدعي المسيحيون أن هذه النبوءة مقصود منها يسوع المسيح، وهو ادعاء ينفيه واقع التاريخ والكتب المقدسة لديهم، وأدلة النفي ومنها: أن يسوع المسيح لم يسم «عمانوئيل» ولم يعرف به ولم يناده به أحد منذ مولده حتى صلبه، وكل الأناجيل المعتمدة وغير المعتمدة وكل الأسفار المقدسة والمؤلفات لم تذكر ذلك.

وهذا واقع لا ينفيه شيء، وما دام كذلك فهو تكذيب لنبوءة أشعيا عليه السلام، ومعاذ الله أن يكذب في نبوءته إذا صحت، ولم تكن النبوءة في حق المسيح عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه، بل في حق أشعيا نفسه، ولا يردها أن زوجه لم تكن

عذراء، لأن كلمة «عذراء» عند علماء اليهود تطلق على المرأة الشابة عذراء أم غير عذراء.

وكلمة «عذراء» هذه التي وردت في نبؤة «اشعيا» ترجمت بالمرأة الشابة في الترجمات اليونانية الثلاث، وهي ترجمة إيكويلا سنة ١٢٩م وترجمة تهيودوشن سنة ١٧٥ وترجمة سميكس سنة ٢٠٠ وهي ترجمات وثق بها قدماء المسيحيين، وذكر العالم «فرى» أن العذراء تأتي بمعنى المرأة الشابة بكراً كانت أو غير بكر.

وعلى هذا تصدق نبوءة أشعيا كاملة، أما إذا فسرت على أنها في حق المسيح وأن العذراء الصديقة فتصبح النبوءة ناقصة، ونقصها يبطلها.

وتفسير النبوءة كما تبينه القصة التي كانت بسببها هذه النبوءة ما ورد في سفر أشعيا بالإصحاح السابع أن رصين ملك أرام وفقح ملك إسرائيل قصدا إلى أورشليم لمحاربة أحاز بن يوتام ملك يهوذا، فخاف منهما فأوحى الله إلى أشعيا أن يطمئنه ويبشره بزوال ملكهما وأعطاه آية على خراب مملكتهما وهي أن امرأة شابة تحمل وتلد ابناً يدعى عمانوئيل، وقبل أن يميز بين الخير والشر ويختار الخير على الشر تخرب أرض هذين الملكين.

وقد وقع الخراب، فقد كان أشعيا في القرن الثامن وخربت مملكة إسرائيل وقتل فقح ورصين بعد النبوءة التي ولد بعدها المسيح بأكثر من سبعة قرون.

وهذا يؤكد أن النبوءة لم تكن في حق المسيح لأن بقيتها لا تنطبق عليه، وكل ما ينطبق عليه موضوع العذراء التي تحمل وتلد، وما سواه لم يقع، وقد أيد الدكتور بنسن في تفسيره أن نبوءة أشعيا ليست في حق المسيح.

وفي إنجيل مرقس بالإصحاح الأول قصة هبوط جبريل على مريم وبشارته إياها في الفقرة ٣١ بقوله: «وها أنت تحبلين وتلدين إبناً وتسمينه يسوع، هذا يكون عظيماً، وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية».

وهذا وحي السماء بأن يسوع سيكون ملكاً لأن الرب الإله يعطيه كرسي داود، وما هو إلا الملك والحكم، وأوضحه بأنه يملك على بيت يعقوب الذي هو إسرائيل.

وإذا كان عيسى رسولاً فهو يعلم بهذه البشارة، وإذا كان على زعمهم أنه إله فلا تخفي عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء، فالملك ضرورة له لأنه هبة الله لحكمة أرادها، فمن الحتم أن يسعى إليه سعياً، وإذا لم يكن منه إليه سعي فليس من حقه أن يبعده عن نفسه ويتنكر له، لأن في ذلك عصياناً لله الذي يعطيه كرسي داود.

وقد أريد للمسيح أن يكون ملكاً فأبى وهرب ممن أرادوا أن يملكوه عليهم، ففي إنجيل يوحنا ٦: ١٤ ـ ١٥: «لما رأى الناس

الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم، وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه وليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده».

فإذا كانت إرادة الله أن يكون يسوع ملكاً فكيف ينصرف عمن أرادوا أن يجعلوه ملكاً؟ وكيف تهزم إرادة الله فلا تنفذ، ومشيئته لا تتحقق؟!

إذا أراد الله أمراً فلا راد لقضائه، فكيف يُرَدُّ أمره ولا يصدق قوله الذي بشر به جبريل العذراء بأنها تلد من يعطيه الرب كرسي داود؟.

إن يسوع لم يملك يوماً، وعندما أرادوا أن يملكوه أبى وانصرف عنهم، وأشد من ذلك أنه ضرب وأهين وبصق على وجهه من قبل اليهود حتى أصدر رؤساؤهم حكم إعدامه دون أن يستطيع تحريك ساكن، وكان ـ كما تصوره الأناجيل ـ أعجز عن إنقاذ نفسه.

إن البشرى بأنه سيكون ملك هؤلاء اليهود الذين قتلوه شر قتلة، والبشرى صريحة «يعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد» وما وقع نقيضه.

وكيف يكون يسوع ملكاً وهو من أولاد يهوياقيم بن يوشيا ويهوياقيم مزق السفر الذي فيه كلام الرب وألقاه في النار فتنبأ له النبي أرمياء، لأن الله أمره بذلك، وفي سفر أرمياء ٣٦ : ٣٠

: «قال الرب عن يهوياقيم ملك يهوذا: لا يكون لك جالس على كرسي داود».

فكيف يجلس على كرسي داود بعد هذا؟ إن هذا أمر الله عز وجل، فكيف يغير الله أمره هذا بأمر آخر ثم لا ينفذه؟!.

إن ما ذكره إنجيل متى الحواري تكذيب لله ولجبريل، وتعريض الوحي المنزل للبطلان، ونحن ننزه متى الحواري الحق من مثل هذه الأكاذيب.

وفي إنجيل متى ١٦ : ١٩ ـ ٢٠ : «وأنا أقول لك أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات».

وبعد بضعة سطور من هذا المديح العظيم يصوغه المسيح لبطرس يجيء هذا القول : «فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس». وفي إنجيل يوحنا ٢١ :١٥ ـ ١٧ أن المسيح بعد قيامه قال لبطرس أولاً: إرع خرافي، ثم قال له: إرع غنمي، وفي المرة الثالثة قال له: إرع غنمي!!.

وفي مقام المديح جاء في سفر الأعمال ٤ : ١٣ : «فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميان تعجبوا».

وفي غلاطية ٢ : ١١ ـ ١٤ يقول بولس (الرسول) : «ولكن لما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً، لأنه قبلما أتي قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم، ولكن لما أتوا كان يؤخره ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان، وراءى معه باقي اليهود أيضاً حتى أن برنابا أيضاً انقاد إلى ريائهم، لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع : إن كنت أنت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلما تلزم الأمم أن يتهودوا إلخ».

وفي أقوال قدامى المسيحيين ذم شنيع لبطرس نقله علماء البروتستانت في رسائلهم، ومن ذلك ما نقلوه عن يوحنا فم الذهب (٣٤٧ ـ ٤٠٧م) وهو قديس ومعلم مشهور حينما قال في تفسيره لإنجيل متى أن ببطرس داء التجبر والمخالفة وكان شديداً ضعيف العقل.

ونقلوا قول أكستاين: «كان بطرس غير ثابت لأنه كان يؤمن أحياناً ويشك أحياناً».

فبطرس على أحد قولي المسيح : راعي غنمه وخرافه ومثبت إخوته والصخرة التي تبنى عليها كنيسة المسيح، ومعطي مفاتيح ملكوت السماوات وكل ما يربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما يحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات، وعلى القول الآخر: شيطان ومعثرة للمسيح ربهم نفسه.

ولا يمكن أن يقبل العقل والضمير أن يتناقض المسيح

ويكذب نفسه، والمسيح يوحى إليه حقاً وصدقاً، ولن يكون الوحي متناقضاً كاذباً، فإما أن يكون بطرس ممدوحاً وإما أن يكون مذموماً، ولا جمع بين الصفتين المتناقضتين وبخاصة في أمر من أمور الدين والعقيدة والشريعة، ولا يمكن أن يصدر من المسيح مثل هذا الذي نسبته إليه الأناجيل كما نسبت إليه كثيراً من الأقوال والأفعال التي لا تليق بحق الرسل، بل لا تليق بالأفاضل فضلاً عن الرسل.

والمسيحيون ـ وبخاصة الكاثوليك ـ مؤمنون أن بطرس خليفة المسيح فكيف يوصف بما وصفه به إنجيل متى من أنه شيطان ومعثرة للمسيح؟ وكيف يتهم بما اتهمه به أكابرهم؟ إن في اتهامه طعناً للمسيح الذي قرر أن بطرس خليفته وراعي خرافه وغنمه ومنحه من السلطة ما لم يمنح أحداً من العالمين إذ جعل ما يربطه على الأرض مربوطاً في السماوات وما يحله عليها محلولاً فيها.

ومن متناقضات الأناجيل زعمها أن المسيح نفسه متناقض لأنها صوّرته كذلك،ففي إنجيل لوقا :٩ ـ ٥٢ ـ ٥٦ : «وأرسل أمام وجهه رسلاً فذهبوا ودخلوا قرية السامريين حتى يعدوا له، فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهاً نحو أورشليم، فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا : يارب، أتريد أن تقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيلياء أيضاً، فالتفت وانتهرهما وقال: لستما تعلمان من أي روح أنتما، لأن ابن السماء لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص».

ففي هذه الفقرات رد على تلميذيه عندما ظنا أنه يستنزل ناراً وعذاباً على هؤلاء الذين لم يقبلوه فنهرهما وقال عن نفسه: إنه لم يأت ليهلك بل ليخلص، وهذا حسن، ولكن جاء في لوقا نفسه ما ينقضه، فقد جاء في الإصحاح الثاني عشر منه بالفقرة ٤٩ والفقرة ٥١ : «جئت لألقي ناراً على الأرض، فماذا أريد لو أضطرمت» و«أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا، أقول لكم: بل انقساماً» وفي إنجيل متى ١٠ : ٣٤ : «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً».

فكيف يتفق هذا القول مع سابقه؟

بل كذبت الأناجيل نفسها المسيح إذ نسبت إليه نبوءات ومعجزات وأقوالاً لم تتحقق، فقد ورد في إنجيل مرقس ١١ : ٢٣ - ٢٤ : «الحق أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما يكون له، لذلك أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم».

وفيه بالإصحاح السادس عشر، الفقرة ١٧ و١٨ : «وهذه الآيات تتبع المؤمنين، يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملونه حيات، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون».

وفي إنجيل يوحنا ١٤ : ١٢ : «الحق الحق أقول لكم: من

يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها لأني ماض إلى أبي».

وهذه أقوال المسيح صلوات الله وسلامه عليه وعلى الأنبياء جميعاً، ولم يتحقق شيء منها، فما انتقل جبل وانطرح في البحر، ولم يستطع أحد منهم أن يشرب شيئاً مميتاً وسلم، ولم يعمل أحد ما عمل المسيح بَلْهَ أعظم منه.

ولا يمكن أن يكذب المسيح في قول أو عمل، فهو صادق دائماً، ولكن ما قاله لم يتحقق، وما دام هو الصادق الأمين فإن تفسير عدم تحقق أقواله أن من وعدهم ليسوا مؤمنين حقاً، إذ لو كانوا لصنعوا ما وعدهم به.

وبعد هذا، لا يصح عقلاً أن يأتي مؤمن بالمسيح مهما كان أن يعمل أعظم مما عمل المسيح الذي يعتقدون أنه ربهم؟ وإذا استطاع أحد منهم أن يعمل أعظم من أعمال المسيح فهو أعظم من الرب يسوع، ومحال أن يكون تابع أعظم من سيده كما جاء في أناجيلهم، ففي إنجيل متى ١٠ : ٢٤ : «ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده».

وفي إنجيل متى ١٢ : ٣٨ ـ ٤٠ : «حينئذ أجاب قوم من الكتبة الفريسيين قائلين: يا معلم، نريد أن نرى منك آية، فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي، لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث

ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال» .

ومن يقرأ الأناجيل والأسفار المقدسة لديهم يجد بها عشرات المعجزات، التي زخرت بها الكتب، ولكنه يمتنع عن إعطاء الفريسيين آية مع أنه يعطيها المجانين وكل من قصده، بل أجرى بعض المعجزات على مرأى ومشهد من آلاف البشر، ونحن لا اعتراض لنا على امتناع المسيح عن الإعطاء، ولكن، ألا يجوز إعذار الفريسيين ـ جدلاً وافتراضاً لا واقعاً وحقاً ـ إذا لم يؤمنوا لأنه لم يروا بأعينهم آية؟ .

وتسمية المعجزات في حق المسيح خطأ إلا على اعتبار الناسوت، لأن ما يعمله لا يسمى بالنسبة له معجزة، لأنه قادر على كل شيء، ولا تسمى معجزة إلا في حق البشر، لأنها تعجزهم .

وآية المسيح مثل آية يونس (يونان) عليهما السلام كما ذكر وتنبأ، يمكث في بطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال .

ولكن ما حدث لا يصدق هذه النبوءة التي تنبأ بها، لأن الأناجيل نفسها قد ذكرت أنه قضى يوم السبت وليلة الأحد وفي فجره قام من قبره، وفي هذا تكذيب النبوءة .

وفي متى ٢٧ : ٥٠ ـ ٥٣ : «فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت، والصخور تشققت، والقبور

تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامه ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين».

وهذه حوادث خارقة في البشرية، ولا يمكن أن تحدث وتمر في صمت دون أن تثير اهتمام الناس ولو على الأقل اهتمام سكان أورشليم والمدن المجاورة لها، ولكن لم تذكر كتب التاريخ ولا المؤلفات المسيحية شيئاً من هذه الخوارق مما يدل على أنها لم تقع ولم يرها الناس.

إذا قام كثير من القديسين الموتى وغادروا قبورهم إلى المدينة وظهروا لكثير من الناس فلا بد أن تحدث هذه الخارقة ما لم تحدثه كل معجزات المسيح وآياته، ولكن هذا وهم غير واقع.

ومع أن نورتن محامي الإنجيل ومن أشد المسيحيين إخلاصاً وحماسة للأناجيل المعتمدة وأولها إنجيل متى فإنه لم يستطع أن يترك هذه الخوارق دون تعليق، فقد قال: «هذه الحكاية كاذبة، والغالب أن هذه الحكايات كانت رائجة لدى اليهود بعد خراب أورشليم، فلعل أحداً كتب في حاشية النسخة العبرانية لإنجيل متى ثم أدخلها النساخ في المتن، ودفع هذا المتن في يد المترجم فترجمها».

وساق نورتن البراهين على بطلان هذه الحكاية الباطلة الكاذبة ولم يستطع إخفاء ذلك لأنه فوق قدرة من كان له ذرة من عقل، فوصفها بالكذب، واعتذر بإقحامها، وما دام الإقحام قد

اعترفوا به في كثير من المواضع وفي جميع الأناجيل فإن من الطبيعي أن تتزعزع الثقة في أسفار أهل الكتاب المقدسة.

ومن الأغلاط ما جاء في إنجيل لوقا في فاتحة الإصحاح الثاني: «في تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر روما بأن يكتتب كل المسكونة، وهذا الإكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية، فذهب الجميع ليكتتبوا، كل واحد إلى مدينته، فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى».

ولم يكن أغسطس قيصر روما قيصر المسكونة حتى يأمر باكتتابها كلها، ومثل لوقا لا يجهل ذلك، وهذا الإحصاء في هذا التاريخ لم يرد له ذكر أو إشارة في تواريخ أغسطس، ولم تجر العادة عند الإحصاء أن تنتقل الأسرة من بلدانها إلى بلدان أجدادهم ليجري إحصاؤهم فيها، ونترك هذه الملاحظات إلى زعم لوقا أن الاكتتاب كان وقت ولاية كيرينيوس سوريا وكانت مريم حاملاً بعيسى في أواخر أيام حملها وندل على غلطه.

إن لوقا زعم أن الاكتتاب في عهد كيرينيوس، وكيرينيوس عين حاكمًا على سوريا حوالي سنة ٦م ومن المعروف أن التاريخ الميلادي متأخر عن مولد المسيح الحقيقي ببضع سنوات هي ست على الأرجح، وعلى هذا تكون ولاية كيرينيوس بعد ميلاد المسيح

باثنتي عشرة سنة، ووالي سوريا الذي ولد المسيح في زمنه هو كوينتليوس فاروس المعين سنة ٦ قبل الميلاد.

والتناقض واضح، لأن لوقا يزعم أن الاكتتاب وقع والمسيح في بطن أمه، ولم يكن كيرينيوس والياً إلا بعد ميلاد المسيح بسنوات.

والأناجيل الأربعة مزدحمة بالمآخذ التي لا يستوعبها مجلد كهذا لكثرتها وقد أحصيت منها آلافاً، وموجز ما يقال فيها: إنها غير إلهامية، وما فيها من قواعد دينية لا ينتسب إلى المسيح إلا النذر اليسير، وهي من تأليف أناس غير ملهمين سواء أكان المؤلف حوارياً أم تابعياً، ولا تمثل ديانة المسيح على أي حال، لأن ديانته ديانة وحدانية، وما فيها ديانة شرك، ودعوى التثليث التي يدعيها المسيحيون لم يعرفها مسيحيو القرن الأول، والتثليث دعوة غير الأنبياء، ولهذا لم يؤثر عن جميع الأنبياء والرسل الذين سبقوا عيسى عليهم جميعاً وعلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه.

أما الإنجيل الحق فهو إنجيل عيسى، وقد كان موجوداً في عصره وبعد مماته، وكان كاملاً عنده قبل إيمان الحواريين به، ففي إنجيل مرقس بالإصحاح الأول[1]: «وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل، وفيما هو يمشي عند بحر الجليل أبصر سمعان وأندراوس أخاه يلقيان شبكة

(١) الفقرات ١٤ - ٢٠.

في البحر ـ فإنهما كانا صيادين ـ فقال لهما يسوع: هلم ورائي فأجعلكما تصيران صيادي الناس، فللوقت تركا شباكهما وتبعاه، ثم اجتاز من هناك قليلاً فرأى يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه وهما في السفينة يصلحان الشباك، فدعاهما للوقت، فتركا أباهما زبدي في السفينة مع الأجرى وذهبا وراءه».

فالإنجيل العيسوي كان موجوداً لديه قبل أن يؤمن به الحواريون، وكان موجوداً بعد موته، فهذا بولس (الرسول) يشير إليه في غير موضع، فيقول في رسالته إلى أهل غلاطية ١ : ٦ ـ ٧ : «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر، ليس هو آخر، غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح» وفي غلاطية ٢ : ١٤ : «رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل».

وحتى زمن بولس كان إنجيل المسيح موجوداً، وليس الإنجيل معناه في ذواكر الناس، بل المدون الذي يتلى.

وهذا الإنجيل العيسوي الحق هو الذي عناه القرآن الكريم فيما أشار إليه إذ يقول: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[1] و ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى

(١) آل عمران : ٣.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وهو من كتب الله عز وجل، أنعم به على عيسى صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا ليهدي به إلى ا لحق وصراط مستقيم.

إلا أن هذا الإنجيل قد حدث له ما مهد لفقده حيث اختلف بولس والحواريون وانتصر بولس إذ دعا إلى إنجيل العزلة ودعا بطرس إلى إنجيل الختان كما يقول بولس: «إني اؤتمنت على إنجيل العزلة كما بطرس على إنجيل الختان»[2] وخرجت المسيحية الصحيحة من طريقها الذي عبر عنه بولس بإنجيل الختان إلى العزلة وبذلك قضي على الإنجيل والتوراة معاً.

فعيسى لم يجيء لنقض الناموس ولكن جاء لتمامه، وتزين بالختان حسب شريعة موسى وتمسك بها ولم ينقضها وأمر بالتمسك بها، وأكمل ما بها من نقص دعت إليه ضرورة تطور الحياة الإنسانية.

ولا شك عندنا أن إنجيل المسيح الحقَّ فيه هدى ونور لأنه من الله عز وجل أنزله على عبده عيسى ليبشر به بني إسرائيل دون غيرهم، وحافظ عيسى على خط سيره في دعوة بني إسرائيل ولم يخرج عنه، ولكن خلف من بعده بولس الذي أضاع على المسيحية رواءها وبشاشتها وحاد بها إلى طريق آخر حتى تعددت الأناجيل وكثرت واختفى الإنجيل الصحيح اختفاء تاماً.

---

(١) المائدة: ٤٦.

(٢) غلاطية ٢: ٧.

كتب العلامة المسيحي نورتن محامي الإنجيل بمؤلفه في الإسناد المطبوع ببوسطن سنة ١٨٣٧م وقال في المجلد الأول منه:

«يقول أكهارت: كان في بداية المسيحية رسالة مختصرة في بيان أحوال المسيح، ويجوز أن يقال: إنها الإنجيل الأصلي، والغالب أن هذا الإنجيل ألف للمريدين الذي لم يسمعوا أقوال المسيح بأنفسهم ولم يروا أحواله بأعينهم، وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، ولم تكن الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب».

والذي نراه أن الإنجيل السماوي قد فقد، وبقي بعضه محفوظاً لأن التدوين لم يكن متبعاً في أوائل المسيحية، بل إنجيل المسيح نفسه لم يكن مكتوباً.

يقول الأب بولس إلياس اليسوعي[1]: «لا مشاحة أن الإنجيل انتشر أولاً شفاهاً ثم كتب بعد سنين، ذلك لأن المسيح لم يثبت كتابة هذه البشرى التي طلع بها على العالم» و «راح ينثر تعاليمه أمثالاً وأقوالاً تنبض بالحياة ولم تدون إلا وحوض البحر المتوسط آهل بالمسيحيين، لقد جعل نفسه موضوع تعاليمه فسلم أتباعه شخصاً يتفجر حياة لا كتاباً جافاً بارداً».

ومؤرخو المسيحية ورهبانها بل أساقفتها وبابواتها وقديسوها مجمعون على أن رواية اللسان في مستوى التدوين بل ترجح عليه، ومعتمدة أكثر منه، وكل ما رووه من أقوال الحواريين كان مقصوراً

(١) كتاب «يسوع المسيح» ص ١٤ ـ ١٥.

على اللسان، وإذا دونوا منه شيئاً فذلك لزيادة الثبات والرسوخ.

فكليمان الإسكندري (١٥٠ ـ ٢١٧م) يقول: «اسمعوا في حق يوحنا الحواري حكاية ليست بكاذبة، بل هي صادقة محققة بقيت محفوظة في الصدور».

ويقول العالم القديس الشهير والمؤرخ الكبير أريناوس (١٤٠ ـ ٢٢٢م): «إنه أخذ بالرواية اللسانية من بوليكربوس، وبوليكربوس تلميذ يوحنا الحواري، ويقول: «لم أشهد حال أساقفة أورشليم مدوناً في كتاب، بل ثبت برواية اللسان» و «وصل إلينا بالرواية اللسانية أن أغناطيوس ـ عندما ساقوه إلى روما ليقتلوه بإلقائه بين الوحوش حتى تفترسه ـ كان يعظ في طريقه الكنائس ويحذرها من البدع المنتشرة ويوصيهم بالتزام الروايات اللسانية التزاماً شديداً، ورغبته في المزيد من الحفظ نصح بتدوين تلك الروايات».

ويقول ترتوليانوس (١٦٠ ـ ٢٤٠م): «كل روايات الدين المسيحي لسانية» ولهذا ينصح ترتوليانوس ألا يكون اعتماد المسيحيين الذين يناظرون خصومهم على الكتاب المقدس، ويقول في صراحة: « من عادة المبتدعين التمسك بالكتب المقدسة والاستدلال بها ويقولون: ليس غير الكتب المقدسة المكتوبة شيء يبنى عليه الإيمان، وبهذه الحيلة يعجزون الأقوياء ويلقون بالضعفاء في شباكهم، والمتوسطين في الشك، ويجب ألا نجيز للمبتدعين الاستدلال بالكتب المقدسة لأن في هذا الاستدلال ما

يبقي العقل والقلب خاليين، واتخاذها غلط لأن ما فيها لا يوصل إلى نتيجة، وإن أوصل فلا مفر من النقص، فالاعتماد على الروايات اللسانية».

وعدم تدوينه أتاح الفرصة لكل أحد أن يزيد فيه وينقص منه ويعبث به حتى لم يعد يعرف ما ينسب إليه حقاً وما ينسب إليه ادعاء وزوراً واختلط الصحيح والزائف «ومن البديهي والحالة هذه أن يعود أمر النظر في صحة ما يقال ويكتب عنه إلى كنيسته التي خولها سلطان نشر رسالته والحفاظ عليها سالمة من كل شائبة»[1] و «وقامت الكنيسة بهذه المهمة خير قيام فقابلت ما كتبه بعض الرسل عن مؤسسها بما تلقته شفاهاً عنه فأقرت ما كتبه الإنجيليون الأربعة ورذلت ما سواها من الأناجيل المزيفة».[1]

وما كانت الكنيسة رسولاً يتلقى الوحي من السماء فتثبت الصحيح وتنفي غيرها، بل هي مثل سائر المفكرين والنقاد، بل نجد خارجها من النقاد والمفكرين من يفضلونها في الفهم والنقد والتمييز.

وما دام الأمر قائمًا على الاجتهاد فليس بمقصور عليها، وقد اختارت أناجيل أربعة حوت من الأغلاط آلافاً وعشرات الآلاف، وردت أناجيل كثيرة فيها من الحق ما يفضل الأناجيل المختارة، ولم تقر ما أقرت إلا لأنه يتفق مع الديانة البولسية وما أضيف إلى المسيحية من عقائد الوثنية وعباد الطواطم.

---

(١) كتاب «يسوع المسيح» صفحة ٢٧.

وبعض الأناجيل المختارة ينقض بعضاً، وما فيها غير متفق فيما بينها عليه، بل يمضي الخلاف حتى تتسع الهوة، وتتبادل التكذيب بمحتواها، وما فيها من مآخذ وأخطاء ومطاعن ومتناقضات وأكاذيب يفقدها الثقة المؤمنة التي يبنى على أساسها العقائد والديانات.

الأسفار المقدسة

في المجمع المسكوني المنعقد في «نيقيه» سنة ٣٢٥م لم يتم الاعتراف بأسفار العهد الجديد جميعها، بل غم الشك على بعضها، ورذل بعضها.

وأسفار العهد الجديد التي اعتمدتها الكنيسة على مر القرون حتى استقرت عليها ـ عدا أربعة الأناجيل المختارة ـ ثلاثة وعشرون سفراً هي : سفر الأعمال للوقا، وأربع عشرة رسالة لبولس، وثلاث ليوحنا، ورسالتان لبطرس، ورسالة ليعقوب الصغير، ورسالة ليهوذا، وسفر رؤيا يوحنا.

وطعنت هذه الرسائل جميعها من قبل أقطاب من المسيحيين، ويؤيد الطعن أن مئات السنين مضت حتى تم انتخابها والحكم لها بالقداسة والقبول، وسنذكر البراهين من أقوال أئمة المسيحيين أنفسهم، ومن ثمارهم تعرفونهم.

وأول هذه الأسفار: سفر الأعمال، ويعرف بسفر بركسيس، وينسب تأليفه إلى لوقا صاحب أحد الأناجيل الأربعة،

وأسلوبه فيه يشبه أسلوب بولس في رسائله وكأنه هو مما جعل بعض الثقات ينسبون ما ينسب للوقا إلى بولس، فقد رأوا أن بولس هو مؤلف إنجيل لوقا وسفر الأعمال.

ويستدلون على ذلك من بين الأدلة بقول بولس نفسه في رسالته الثانية إلى تيموثاوس ٢ : ٨ : «أذكر يسوع المسيح المقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلي» ويرون أن إشارته أو تصريحه بكلمة «إنجيلي» مظنون فيها أنه يشير إلى إنجيل لوقا.

وسواء صح أن ما ينسب للوقا من تأليف بولس أم من تأليف لوقا فإن الثابت أن لوقا التلميذ الحبيب لبولس وصفيه المخلص له، وجمعت بينهما الثقافة اليونانية، وأثر بولس شديد الوضوح فيما نسب إلى لوقا.

ولغة سفر الأعمال الأصلية هي اليونانية، واختلف في سنة تأليفه ويُظن أنه كتبه بعد تأليف إنجيله، وكتبه لمن كتب إليه إنجيله وهو «العزيز ثاوفيلس» كما يقول في أول سفره: «الكلام الأول الذي أنشأته يا ثاوفيلس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به الخ. ».

وقد سبق أن أشرنا إلى لوقا وإنجيله فلا حاجة بنا إلى إعادة ذلك، وتعد أربعة الأناجيل وسفر الأعمال الأسفار التاريخية، لأن ما فيها تاريخ المسيح ويختص سفر الأعمال بتاريخ الحواريين لأنهم الرسل في عرف المسيحيين، ويضاف إليهم بولس الذي لم يكن له

شرف صحبة المسيح، ولكنه تقدم كل الحواريين بما ادعاه من تجلي المسيح له وإيثاره إياه على سائر الخلق أجمعين.

ولم يقتصر سفر أعمال الرسل للوقا على أعمال بولس والحواريين، بل يذكر سيرة بعض التابعين ممن تتلمذوا على الحواريين أو كان لهم نشاط في جانب المسيحية.

وعدد إصحاحاته ثمانية وعشرون، ونصفها وقف على سيرة بولس وأعماله ورحلاته ومعجزاته، وقد صوره لوقا صورة أكثر إشراقاً وقوة وآثاراً من المسيح نفسه، ولم يقصر سفر أعمال الرسل على تواريخهم وحسب، بل ذكر كثيراً من أمور الشريعة والعقيدة، مما يتصل بحياة بولس وأعماله أو حياة غيره وأعمالهم.

وأهم ما يفصح عنه سفر الأعمال للوقا الخلاف بين بطرس كبير الحواريين وبولس، والخلاف بين تعاليم المسيح كلها ورسالته، فالذين بشروا بالمسيحية واعتنقوها وأصبحوا تلامذة المسيح هم يهود، والمسيح وتلامذته يهود بشروا اليهود وحدهم، لأن المسيح كان لهم وحدهم ورسول الله إليهم دون غيرهم من البشر، والتبشير قام على أن المسيحية هي العقيدة اليهودية دخل بعض الإصلاح شريعة موسى.

فالمسيح كان متمسكاً بالناموس، وصرح أنه لم يجيء لنقضه بل لإتمامه، وأنه جاء لهداية خراف إسرائيل الضالة.

وتمسك بذلك القديس «جيمس» أشد التمسك، فكان

يقف دعوته وكرازته وتبشيره على اليهود وحدهم، وكان بطرس كبير الحواريين يصنع ذلك في حماسة أقل من جيمس، وكان بطرس راغباً في وقوف المسيحية عند حد دعوة اليهود لولا دعوة بولس وفلسفته وعناده ورأيه أن يجعل المسيحية خارج حدود إسرائيل، وصمم على دعوة غير اليهود وقبولهم في ديانته التي أعطاها اسم المسيحية، فأعفى غير اليهود من الختان والاعتصام بشريعة موسى.

والخلاف الذي شجر بين بطرس وبولس في هذا الصدد مذكور في سفر الأعمال بإسهاب ويمثل وجهة نظر بولس.

وإعفاء غير اليهود من ناموس موسى والختان لم يكن وقفاً عليهم وحدهم، بل دخل فيه اليهود أنفسهم، كما أعفى بولس من تحريم بعض الطعام وشعائره وطقوسه ليمكن لدعوته من الانتشار، وبذلك خرج بمسيحية المسيح عن طريقها المرسوم لها إلى مسيحية جديدة يجب أن تسمى مسيحية بولس.

وكل هذا مذكور في سفر الأعمال للوقا بتوسع مما جعل بعض المحققين يرون أن بولس نفسه هو مؤلف هذا السفر المنسوب إلى تلميذه وحبيبه وصفيه لوقا.

ولم يكن سفر الأعمال للوقا هو الوحيد في موضوعه، بل كانت هناك أسفار تحمل الاسم نفسه، وبقي سفر لوقا وحده لأنه يتفق مع المسيحية التي وضع قواعدها بولس، والتي تخالف مسيحية يسوع كل المخالفة، وأهملت أسفار الأعمال الأخرى لأن

أتباع بولس أرادوا ذلك حتى لا يقف المسيحيون على ما جاء فيها من الأقوال والأعمال مما قد ينقض خطط بولس وأهدافه.

لقد كان هناك «سفر الأعمال» لبطرس، وأعمال الرسل ليوحنا، وأعمال الرسل لأندراوس، وأعمال الرسل لتوما، وأعمال الرسل لبرنابا، ولكنها ذهبت كلها أدراج الرياح، مع أن مؤلفي هذه الأسفار حواريون باتفاق الآراء إلا لوقا فمختلف فيه.

واختيار سفر الأعمال للوقا وحده دون غيره دليل على أن ما فيه يخالف ما في غيرها فانتخب دونها لأن جوهره بولسي محض، ولعل ما في غيره ينقضه فرذلته الكنيسة كما رذلت سائر الأناجيل غير الأربعة.

وتنسب لبولس أربع عشرة رسالة كتبها باليونانية، واحدة وجهها إلى أهل روما، واثنتان إلى كورنثوس، ورسالة إلى أهل غلاطية، ورسالة إلى أهل أفسس، ورسالة إلى أهل فيلبي، ورسالة إلى أهل كولوسي، ورسالتان إلى أهل تسالونيكي، ورسالة إلى العبريين، وأربع الرسائل الباقية وجه كلا منها إلى تلميذ له، وهن: رسالتان إلى تيموثاوس، ورسالة إلى تيطس، ورسالة إلى فليمون، ومجموع إصحاحات هذه الرسائل الأربع عشرة: مائة إصحاح.

ولم يقع اعتراف الكنيسة بهذه الرسائل إلا بعد زمن طويل، ويقال: إن أقدمها تاريخاً كتبت سنة ٤٥م ويبدأ تاريخ كتابة هذه الرسائل من سنة ٥٤ إلى سنة ٦٥م ولم يذكر في تواريخ المسيحيين

القديمة اعتماد رسائل بولس إلا بعد كتابتها بمئات السنين، ولم يكن الاعتراف بها جملة، بل جاء على فترات وفي محافل مختلفة.

ففي مجمع نيقيه المنعقد سنة **٣٢٥**م وهو أول مجمع مسكوني لم ينص على قبول رسائل بولس كلها مما يفهم منه استبعاد بعضها وإبقاؤ ها في ضباب الشك، وبقي هذا الشك قائمًا إلى ما بعد انعقاد محفل لوريسيا سنة **٣٦٤**م حيث وصفت رسائل بولس بالقداسة ودخلت الكنيسة من أوسع أبوابها، بل إن مجمع نيقيه المسكوني رد رسالة بولس للعبرانيين واتهمها بالزيف والبطلان، وردها رداً، وادعى أنها مدسوسة عليه، ثم بعد زمن رضيت المجامع عنها ورفعتها إلى قمة القداسة بدون دليل كما رفضتها من قبل بدون حجة.

وتحوي رسائل بولس عقيدة المسيحيين، وشريعتهم، وحلالهم وحرامهم، ومعاملاتهم، وطقوسهم، وأعمالهم، وأكبر ما فيها النص على ألوهية المسيح وأنه ابن الله، بل إنه الله، ومبدأ التثليث، وبقية التعاليم المسيحية التي كانت مصدراً لما جاء بعدها من التعاليم.

وأصبحت رسائل بولس هي الإنجيل الأول للمسيحيين، وعليها اعتمادهم أكثر من كل سفر من أسفار العهد الجديد، لأنها تفصِّل أمور العقيدة والشريعة، وتنسخ ما جاء في الأناجيل المختارة المعتمدة وفي شريعة موسى التي كان المسيح يلزم نفسه بها إلزاماً،

ويعترف بها، ويتمسك بنصوصها وتعاليمها، ويأمر بالتزامها، وصرح بأنه لم يجيء لنقض الناموس، بل جاء لإتمامه.

ولهذه الرسائل قيمة كبرى من الوجهة التاريخية لدى المسيحيين، لأنه كتب معظمها بين سنة ٥٥ و ٦٣م قبل أن يبدأ الإنجيليون بكتابة أناجيلهم في سنة ٦٣م كما يذكر الأب إلياس بولس اليسوعي في كتابه «يسوع المسيح» صفحة ١٨.

ويستدل هو وغيره من المسيحيين على أن بولس اعتمد الإنجيل الشفوي في كتابة رسائله، وهذا ـ في رأيهم ـ ما صنعه الإنجيليون.

ويعترف مفكروهم أن مسيح بولس غير المسيح الحقيقي، ولكنهم يزعمون أن هذه المغايرة ظاهرية، وهذا ما يقوله الأب إلياس بولس اليسوعي في صفحة ١٧ من كتابه: «لقد ترك لنا بولس الرسول عن المسيح رسمًا واضح القسمات، وإن اختلف ظاهراً عن رسم مسيح الأناجيل، فمسيح بولس هو مسيح الإيمان أكثر منه مسيح التاريخ».

ولكننا نرى غير ما يرونه، وقد أوضحنا رأينا العلمي في بولس ومسيحه فيما كتبناه عنه وعن رسائله ومسيحيته التي لا يمكن أن تعتبر المسيحية الصحيحة الصادقة.

وثبت لدى محققي المسيحية أن ثلاث رسائل من الأربع عشرة هي الصحيحة المقطوع بصحتها ونسبتها إلى بولس، وهي:

رسالتاه إلى أهل كورنثوس، ورسالته إلى أهل روما، وأربع منها مقطوع بزيفها وأنها مدسوسة عليه، وبكذب نسبتها إليه، وهي رسالتاه إلى تيموثاوس، ورسالته إلى تيطس، ورسالته إلى أهل أفسس، والسبع الأخرى مشكوك في صحتها ونسبتها إليه وبخاصة رسالته إلى العبرانيين، فقد ذكر أوريجن: أن المعروف أن بعضهم قالوا: رسالة بولس للعبرانيين كتبها كليمنت، وقال بعضهم: إن لوقا ترجمها.

وأوريجن من أكبر فلاسفة المسيحية في العصر القديم وتلميذ القديس كليمان الإسكندري ومن أعظم من تستشهد به الكنيسة على صحة الأناجيل ينكر كل ما ينسب إلى بولس من هذه الرسائل، وولد أوريجن سنة ١٨٥ وتوفي سنة ٢٥٤م وكلامه ثقة بحسب قرار الكنيسة واعتمادها التام على شهادته للأناجيل كما مر فيما كتبناه في شهادات أئمة المسيحيين على صحة الأناجيل الأربعة.

يقول أوريجن في المجلد الخامس من شرح إنجيل يوحنا: «إن بولس لم يكتب شيئاً إلى جميع الكنائس، وما كتبه إلى بعضها لا يعدو سطرين أو أربعة سطور».

وأوريجن أقدم من أدرك دس رسائل بولس عليه، وهو أكبر فلاسفة المسيحيين القدماء وأعظمهم إخلاصاً، ومعترف به «أباً» من آباء الكنيسة، ومن إخلاصه البالغ ارتكابه خطأ فادحاً لا سبيل إلى إصلاحه، نجم عن فهم خاطىء لنص من نصوص الأناجيل،

وهو النص الذي جاء بإنجيل متى ١٩ : ١٢ : «يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات، من استطاع أن يقبل فليقبل».

وخصى نفسه من أجل هذه الكلمة رغبةً في ملكوت السماوات، ولكنه خطأ نجم عن فهمه لنص من نصوص الإنجيل، ودفعه الإخلاص أن يفعل بنفسه ذلك.

ولا شك أن أوريجن أفهم من الذين اعترفوا برسائل بولس، فإذا أضيف إليه من ذهبوا إلى الاعتراف ببعضها وإنكار بعضها والشك في أكثرها ظهر أن أوريجن كان مصيباً في الإنكار الذي يشاركه فيه يوسيبيس حيث ذكر في الباب الخامس والعشرين من الكتاب الرابع من تاريخه أن أعمال بولس كلها جعلية، أي أنها ليست من تأليفه.

وموجز القول في الرسائل المنسوبة إلى بولس أنها قائمة على اللاهوت، وتدل هذه الرسائل على ثقافة واسعة بالفلسفة اليونانية فترى بها أثاراً مقتبسة من «مناندر» وذكراً لأبيمنيد الإقريطي.

ومع أن طابع اللاهوت بارز من رسائل بولس ووضوح النزعة الفلسفية فيها فإن بولس يقول في رسالته إلى أهل كولوسي ٢ : ٨ : «انظروا ألا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل» ولكنه يقع فيها حذر منه.

وأسلوب رسائل بولس ومحتواها في الغالب شبيهان كل الشبه بسفر الأعمال للوقا، وعلى أي حال فإن النبع في إنجيل لوقا وسفر أعماله هو نبع بولس نفسه.

وهناك سبع رسائل تسمى الرسائل الكاثوليكية، وتاريخ كتابتها مختلف فيه، ولكنها كتبت خلال النصف الثاني من القرن الأول، وتاريخ أقدمها حوالي سنة ٥٠ وأحدثها ما بعد سنة ٩٠م.

وهذه الرسائل السبع هي: رسالة الحواري يعقوب الصغير، واثنتان لبطرس كبير الحواريين، وثلاث ليوحنا الحواري الإنجيلي، والسابعة ليهوذا الحواري أخي يعقوب الصغير.

وهذه الرسائل مع رسائل بولس الأربع عشرة يطلق عليها اسم «الأسفار التعليمية» لأن بها تعاليم المسيحية.

ومجموعة سبع الرسائل ـ هذه ـ تضم طائفة من التعاليم المسيحية وبعض المعتقدات المسيحية ديناً وشريعةً ومنهاجاً، وتحوي بعض الطقوس والعبادات والآداب.

ومن أبرز ما تحويه محاربة البدع والرد عليها، وإظهار ما في المسيحية من دعوة الحب، والدعوة إلى الحسنى، والوعظ والإرشاد.

وكان الشك والإنكار يحومان حول هذه الرسائل، بل كانت مردودة مرذولة، ولم يصدر قرار الرضا عنها إلا سنة ٣٦٤م وبعد أصبحت موضع التسليم.

ولكن لم تتفق الكنائس كلها على الرضا بها والتسليم لها، فجميع الكنائس الشرقية ترد الرسالة الثانية لبطرس، ورسالتين ليوحنا هما الثانية والثالثة ورسالة يهوذا، ورؤيا حنا، وكذلك الكنيسة السريانية تردها من البدء حتى اليوم.

وجمهور المحققين يردون بعض فقرات هذه الرسائل ويغلطونها إلى الآن.

ورسالة يعقوب تنسب إلى يعقوب بن حلفي، ولقب بالصغير تمييزاً له عن الحواري يعقوب بن زبدي أخي يوحنا الإنجيلي الملقب بالكبير.

ويعقوب الصغير من أقرباء المسيح وقد باركه عندما قدمته أمه «سالومي» مع أخيه يوحنا إليه، وصار من الحواريين الاثني عشر، وكان من أشد المخلصين الدعاة في حياة المسيح وبعد موته.

ويعده المسيحيون أول أسقف تولى منصب «أسقفية» أورشليم، وكان لا يبالي في سبيل الدعوة حتى قتل مرجوماً سنة ٦٢م بأورشليم.

وينسب إليه سفر الأعمال تغييراً كبيراً في المسيحية كان بولس سببه، فقد بشر بعض المسيحيين بما تلقوه وهو ضرورة الختان حسب شريعة موسى إذا أرادوا الخلاص، وحدثت منازعة ومباحثة في هذه المسألة حتى اضطر بولس وبرنابا للشخوص إلى أورشليم ومراجعة الرسل والمشائخ.

وعقد اجتماع هام لم يفصله لوقا في مؤلفه (سفر الأعمال) ولكن يفهم من سياق ما حدث وما قامت بسببه المنازعة أن الختان كان عقبة أمام غير اليهود، ومنهج بولس التساهل إلى حد الابتعاد عن شريعة موسى وعيسى معاً.

وعقد أول اجتماع هام في المسيحية حضره الحواريون وتلامذتهم وبحثوا مسألة الختان والذبائح والمأكولات، وأحسب أن برنابا وبولس اختلفا، فبرنابا متمسك بشريعة موسى اتباعاً لعيسى، وكان يحتم الختان وكل ما جاء في الناموس مما لم ينسخه المسيح، بخلاف بولس الذي كان يرى غير رأي برنابا، وافترق مع كل منهم فريق، وكان ذلك في أنطاكية، فرأوا إشخاص المتنازعين إلى أورشليم وعرض نزاعهما على الحواريين وتلامذتهم.

وعقد المجمع المسيحي الأول ـ وكان بعد رفع المسيح باثنتين وعشرين سنة تقريباً،ولا شك أن بولس عرض وجهة نظره وكان أقدر على اجتذاب المجتمعين فحكم يعقوب الصغير ـ كما جاء في سفر الأعمال بالإصحاح الخامس عشر ـ بما نصه: «ألا يثقّل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم».

«ورأى[1] الرسل والمشائخ مع كل الكنيسة أن يختاروا رجلين منهم فيرسلوهما إلى أنطاكية مع بولس وبرنابا: يهوذا الملقب برسابا وسيلا رجلين متقدمين في الإخوة، وكتبوا بأيديهم هكذا:

(١) سفر الأعمال ١٤: ٢٢ ـ ٢٩.

الرسل والمشائخ والإخوة يهدون سلاماً إلى الإخوة الذين من الأمم في أنطاكية وسورية وكيليكية إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم، وقائلين: أن تختنوا وتحفظوا الناموس، الذين نحن لم نأمرهم، رأينا وقد سرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبنا برنابا وبولس رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح، وقد أرسلنا يهوذا وسيلا وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاهاً، لأنه قد رأى الروح القدس ونحن ألا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة، أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون».

وإرسال اثنين مع برنابا وبولس للتبليغ بالقرار الجديد دليل على أن ا لخلاف كان بينهما وإلا لكان في بعث برنابا أو بولس وحده غناء، أما والخلاف بينهما فلا بد من بعث اثنين لا واحد ضماناً لأمانة التبليغ.

وهذه الفكرة يحملها من قبل لأنه ذكر في رسالته إلى أهل غلاطية **٢ : ١ ـ ١٣** أنه شخص إلى أورشليم، ويعترف أنه مؤتمن على إنجيل العزلة كما اؤتمن بطرس على إنجيل الختان، وادعى أنه وفق لإقناع يعقوب وصفا ويوحنا الألى قال عنهم: «المعتبرون أنهم أعمدة» حتى كان الرأي أو الحكم الذي أصدره يعقوب الصغير في صالح رأي بولس.

وأنا أروي ما نسب إلى الحواري يعقوب وإن كنت لا أؤمن

به ، لأنني أنزهه عن نقض الناموس ومخالفة عيسى وهو حواري صميم متبع لا مبتدع، وليس من حقه أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً ، وما نسب إليه من أنه أحل لحم الخنزير وكل ذبيحة إلا ذبيحة الأصنام لا ينزل مني منزلة القبول.

وهذا هو يعقوب الذي تنسب إليه رسالة من رسالات العهد الجديد، وتتكون من خمسة إصحاحات.

وقد أنكرها المسيحيون إنكاراً، ولم تدخل محراب القداسة والقبول إلا سنة ٣٦٤م لأن مجمع نيقيه المسكوني المنعقد سنة ٣٢٥م استبعدها ورذلها، حتى إذا اجتمع مجلس لوديسيا سنة ٣٦٤م رفع الحظر عنها وجعلها واجبة التسليم.

أما رسالتا بطرس كبير الحواريين فكان شأن الثانية منهما شأن رسالة يعقوب، لم ترض عنها الكنيسة إلا سنة ٣٦٤م وقد وصفت من قبل المحققين بأنها كاذبة، فقد ذكر هورن في تفسيره ٢ : ٢٠٦ - ٢٠٧ المطبوع سنة ١٨٢٢م : «ليس في الترجمة السريانية (لأسفار العهد الجديد) الرسالة الثانية لبطرس، ورسالة يهوذا، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورؤيا يوحنا، ومن الفقرة الثانية إلى الفقرة الحادية عشرة من الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا، والفقرة السابعة من الإصحاح الخامس من الرسالة الأولى ليوحنا».

وقال وارد الكاثوليكي في الصفحة ٣٧ من كتابه المطبوع سنة ١٨٤١م : «ذكر روجرس - وهو من أعلم علماء البروتستانت - أسماء كثير من علماء فرقته الذين عزلوا من الكتب المقدسة الكتب

المفصلة التي هي الرسالة العبرانية، ورسالة يعقوب، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يهوذا، ورؤيا يوحنا باعتبارها كاذبة، وقال الدكتور بلسن العالم البروتستانتي: «إن جميع الكتب لم تكن واجبة التسليم إلى عهد يوسيبيوس، وأصر على أن رسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، لم تكن من تواليف الحواريين، وكانت الرسالة العبرانية (لبولس) مردودة إلى مدة ، وإن الكنائس السريانية وكذلك الكنائس الغربية نفت وجوب التسليم بالرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يهوذا، وسفر الرؤيا».

وقد خلا فهرست «أيْبدجو» من ذكر الرسالة الثانية لبطرس، والرسالة الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يهوذا، ورؤيا يوحنا.

وما قيل في رسالة يعقوب ورسالة بطرس الثانية يقال في رسالة يوحنا الثانية والثالثة، ورسالة يهوذا.

أما رسالة يوحنا الأولى فقد سبق الشاهد من تفسير هورن الذي قرر أن الفقرة السابعة من الإصحاح الخامس من هذه الرسالة ساقطة من الترجمة السريانية، وها هي ذي الفقرة الساقطة: «إن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد».

وأقحموا هذه الفقرة ليثبتوا به التثليث الذي لم يقله المسيح،

ولم يثبت عن جميع الأنبياء من إبراهيم إلى موسى في أسفار العهد القديم أي إشارة إلى التثليث، وإن كانت الديانات الوثنية قد سبقت المسيحية المحرفة إلى معرفة التثليث بكل صوره وفلسفته وغاياته.

وآخر الأسفار المقدسة «سفر رؤيا يوحنا» أو «سفر النبوة» أو «الأبوكاليبس» وهي كلمة يونانية بمعنى الرؤيا أو الوحي، وينسب تأليفه إلى يوحنا بن زبدي صاحب الإنجيل الرابع.

ولا يعرف بالدقة تاريخ كتابته، ولكنه كتبه بعد إنجيله الذي تحدثنا عنه فيما سبق من الصفحات، وإذا كان يوحنا ألف إنجيله سنة ٩٥ أو ٩٦م فإن تأليفه هذا السفر يكون في هذا التاريخ، ويتكون من اثنين وعشرين إصحاحاً مجموع فقراته ٤٠١ وألفه باللغة اليونانية.

وما حواه سفر رؤيا يوحنا إنما هو رؤيا رآها عندما كان في جزيرة «بطمس» فدوّنها، وتعتبر لدى المسيحيين وحياً أوحي به إليه، والرؤيا كلها لاهوتية، وتقرر في بساطة وثقة ألـوهية المسيح، ويذكر الصفات التي تتفق مع هذه الألوهية، فهو علام الغيوب، والحاكم بأمره في السماء، ويشرف من عليائها على الكنيسة ويمنح رضاه القائمين عليها، ورآه في السماء.

ويصفه بقوله (١: ١٢ ـ ١٦): «رأيت سبع منابر من ذهب، وفي وسط السبع المنابر شبه ابن إنسان متسربلاً بثوب إلى الرجلين، ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب، وأما رأسه وشعره

فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج، وعيناه كلهيب نار، ورجلاه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون، وصوته كصوت مياه كثيرة، ومعه في يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهي تضيىء في قوتها، فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت فوضع يده اليمنى عليّ قائلاً لي: «لا تخف، أنا هو الأول والآخر، والحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلى أبد الآبدين».

ولا يكتفي بهذه الصورة فيصوره أو هكذا رآه في منامه في صورة «خروف» وأخذ يردد كلمة الخروف غير مرة في إصحاحات سفره المختلفة، وقبل أن نذكر أمر الخروف بكلمات يوحنا ننتقل معه إلى السماء لنرى صورة الله عز وجل كما رآها، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يدعي يوحنا أن الصوت الذي سمعه من قبل وهو صوت يسوع قد سمعه مرة أخرى بعد أن رأى في السماء باباً مفتوحاً، وقال له الصوت: «إصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا، وللوقت صرت في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء، وعلى العرش جالس، وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق، وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد، وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً، ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بثياب بيض، وعلى رؤوسهم

(١) سفر الرؤيا، الإصحاح الرابع، الفقرات ١ ـ ٦.

أكاليل من ذهب، ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات ، وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة أرواح الله ، وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور، وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء».

هذه صورة الله كما رآها يوحنا الحواري الإنجيلي «شبه حجر اليشب والعقيق» واليشب: حجر كريم يشبه الزبرجد ولكنه أصفى منه.

وإذا كان على العرش الله شبه حجر اليشب، وفي وسط العرش وحوله أربعة حيوانات مملوءة عيوناً إلخ، فمعناه أن الله شغل من العرش جانباً يسيراً حتى شغل وسطه وحوله أربعة الحيوانات.

ولكن بأي حساب نحاسب يوحنا وما رآه رؤ يا؟ ويجوز في الرؤ يا كل شيء عنده حتى يرى الله شبه حجر اليشب والعقيق. تعالى الله عما يدعون ويصفون!.

أما الله الآخر الذي هو يسوع المسيح عندهم فقد ظهر له في رؤ ياه خروفاً، وهذا نص ما يقوله يوحنا:

في الإصحاح الخامس: «ورأيت فإذا وسط العرش والحيوانات الأربعة وفي وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين وهي سبعة أرواح الله المرسلة إلى كل الأرض، فأتى وأخذ السفر من يمين الجالس على العرش، ولما أخذ

السفر خرت الأربعة الحيوانات والأربعة والعشرون شيخاً أمام الخروف، ولهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً هي صلوات القديسين، وهم يترنمون ترنيمة جديدة قائلين: مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذبحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة، فسنملك على الأرض، ونظرت وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش والحيوانات والشيوخ وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم: مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة، وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة: للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين».

وفي أول الإصحاح السادس: «ونظرت لما فتح الخروف واحداً من الختوم السبعة الخ». و «بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل وهم يصرخون بصوت واحد قائلين : الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف» و «لن يجوعوا ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم».

وفي الإصحاح الثاني عشر بالفقرة ١١ : «وهم غلبوه بدم الخروف».

وفي مفتتح الإصحاح الرابع عشر: «ثم نظرت وإذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مئة وأربعة وأربعون ألفاً لهم اسم أبيه مكتوباً على جباههم إلخ» و «هؤلاء هم الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار، هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب، هؤلاء اشْتُرُوا من بين الناس باكورة لله وللخروف».

وفي الإصحاح السابع عشر يشير إلى خاطئة اقترف معها الإثم كل ملوك الأرض وسكر سكانها من خمر خطيئتها، ثم يقول في الفقرة ١٤ «هؤلاء سيحاربون الخروف والخروف يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك والذين معه مدعـوون ومختارون ومؤمنون».

وقد وعى القارىء حق الوعي أن ربهم خروف، وفيما ذكره يفصح عما فيه من التناقض والإسفاف والخطل والخلل وسوء القول.

وفي سفر الرؤيا نبوءات وإشارات غامضة إلى أحداث ستقع تستعصي على التعبير والتفسير، وحسبها أنها رؤيا وحلم.

وأنا لا أستطيع أن أثق من نسبة هذا السفر إلى يوحنا الحواري الإنجيلي، لأنه لا يتفق مع مقام حواري عظيم كيوحنا، بل أرى أنه مدسوس عليه.

فالعالم المحقق «البرت شنيدر» يقرر في ثقة وإيمان: أن كل رسائل يوحنا ليست إلهامية، ويقول ما نصه: «إن إنجيل يوحنا

وكذلك كل رسائله ليسا من تصنيفه، بل صنفها مصنف في بداية القرن الثاني » وفرق ألوجين التي كانت في القرن الثاني كانت تنكر إنجيل يوحنا وكل تأليفاته، ويؤيد نفيهم أن أريناوس تلميذ بوليكربوس تلميذ يوحنا نفسه لم يشر إلى رسائل يوحنا، ولا تجد في كل ما كتبه أريناوس أي إشارة إلى سفر الرؤيا ، وأريناوس عاش في النصف الثاني من القرن الأول وتوفي سنة ٢٢٢م، ومعنى هذا أن السفر كان غير معروف إلى الربع الأول من القرن الثالث.

وفي تاريخ يوسيبيس في الفصل الخامس والعشرين من الجزء السابع ما نصه:

«قال ديونيشيس: أخرج بعض القدماء سفر الرؤيا عن الكتب المقدسة واجتهدوا في رده، وقال أيضاً: كل ما فيه لا معنى له، لأن ضباب الجهل وعدم العقل يغشيانه ، وإن نسبته إلى يوحنا غلط، ومصنفه ليس حوارياً ولا رجلاً صالحاً ولا مسيحياً، بل نسبه «سرن تهسن» الملحد إلى يوحنا، لكني لا أستطيع إخراجه من الكتب المقدسة لأن كثيراً من الإخوة يعظمونه، وأما أنا فأسلم أنه من تصنيف رجل إلهامي، لكن لا أسلم بالسهولة أن هذا الشخص كان حوارياً ابن زبدي أخا يعقوب مصنف الإنجيل، بل يعلم من المحاورة وغيرها أنه ليس بحواري، وكذلك ليس مصنفه يوحنا الذي جاء ذكره في «سفر الأعمال» لأن مجيئه في إيشيا» لم يثبت، فهو يوحنا آخر من أهل إيشيا ، وفي أفسس قبران كتب على كل منهما اسم يوحنا.

«ويعلم من الأسلوب والمضمون أن يوحنا الإنجيلي ليس مصنف هذا الكتاب، لأن عبارة الإنجيل ورسالته حسنة على طريقة اليونان، وليس فيها ألفاظ صعبة بخلاف عبارة الرؤيا لأنها على خلاف محاورة اليونان، والمؤلف يستعمل السياق الوحشي، والحواري لا يظهر اسمه لا في الإنجيل ولا في الرسالة العامة، بل يعبر عن نفسه بصيغة المتكلم والغائب، ويشرع في المقصود بلا تمهيد أمر، وذلك نقيض هذا الشخص فقد كتب في الإصحاح الأول: إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليرى عبيده ما لا بد أن يكون من قريب، وبينه مرسلاً بيد ملاكه لعبده يوحنا ٤ يوحنا إلى السبع الكنائس إلخ ٩ أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره الخ.

وكتب في الفقرة الثامنة من الإصحاح الثاني والعشرين: «وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع» فأظهر اسمه على خلاف عادته ليعرف نفسه، لأنه لو كان هذا هو المقصود لذكر صفته الخاصة به، مثل أن يقول: يوحنا بن زبدي أخو يعقوب، أو يوحنا المريد المحبوب للرب ونحوهما، ولكنه لم يذكر صفاته الخاصة به، بل ذكر الوصف العام (أخوكم وشريككم في الضيقة وشريككم في الصبر) ولا أقول هذا مستهزئاً، بل قصدت إلى إظهار الفرق بين العبارتين».

وديونيشيس صاحب الشاهد الذي ذكرناه مخلص في مسيحيته كل الإخلاص، وكلامه آية هذا الإخلاص، فهو يعترف

أن ما في سفر الرؤ يا لا تليق نسبته إلى حواري أو رجل مخلص أو مسيحي لأن ما فيه يغشاه ضباب الجهل وقلة العقل، واتهم أحد الملاحدة بأنه نسبه إلى يوحنا، وهو إذ ينفي هذه النسبة إنما يدفعه الإخلاص لمسيحيته وليوحنا الإنجيلي. .

إلا أن يوسيبيس الذي استشهد بقول ديونيشيس يناقضه لأنه يسلم بأن ما في سفر الرؤ ية من تصنيف رجل إلهامي، ومع هذا يعلن أنه لا يستطيع أن ينسبه إلى يوحنا، ويسوق البراهين القوية على نفي هذه النسبة، ويقرر أن يوحنا الإنجيلي ليس مؤ لف سفر الرؤ يا.

ومجمع نيقيه المسكوني المنعقد سنة **٣٢٥**م لم يعترف بسفر الرؤ يا، بل شك فيه ورده، وكذلك مجلس لوديسيا سنة **٣٦٤**م لم يقبله بل رده بعد أن قبل ست رسائل كانت مرذولة، وهي رسالة يوحنا الثانية ورسالته الثالثة، ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يعقوب، ورسالة يهوذا ، والرسالة العبرانية.

ولم يقبل سفر الرؤ يا إلا سنة **٣٩٧**م مما يدل على أنه كان مشكوكاً فيه ومرذولاً ومردوداً ثلاثة قرون إذا صح أن تاريخ تأليفه بين سنة **٩٥** و **٩٦**م.

ونخلص مما كتبناه في أربعة الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد إلى أنها جميعاً غير موثوق بها، فأكثرها مختلق، وما دامت تحوي عقائد وثنية فهي مردودة ومرذولة، ولا يمكن أن نقبلها، لأنها

نقيض التوحيد الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، وكذلك رأينا في أسفار العهد القديم.

وما نراه يشاركنا فيه أئمة الفكر الإنساني في العالم، وبخاصة الألى يعتنقون المسيحية ديناً ويؤمنون بالمسيحية حق الإيمان.

الأناجيل والأسفار المرذولة

هناك أناجيل كثيرة وأسفار لا تحصى تنسب للمسيح والعذراء والحواريين وغيرهم رذلتها الكنيسة على مر السنين، وما رذلته أكثر مما رضيت عنه واختارته، ولم يكن للاختيار سبيل واضح قويم، ولا للرذل حجة قائمة.

اقترعت بين الأناجيل الكثيرة ففازت أربعة أصبحت «كتاب» المسيحيين المقدس، ثم ألحقت به في القداسة أسفار اختيرت بعد الطعن والتجريح والرذل من قبل المجامع المسيحية الأولى.

وقد أشرنا في اقتضاب إلى براهين تثبت أن الأناجيل المختارة مطعونة مثل سائر الأسفار المقدسة المصطفاة ومثل ما رذلته الكنيسة.

بل إننا نجد في بعض ما رذلته الكنيسة ـ مثل إنجيل برنابا وإنجيل متى الآخر الذي ينقض إنجيله المختار ـ الوحدانية وأن المسيح ليس إلا بشراً رسولاً وليس إلهاً.

ولا وجود للتواتر الذي يثبت أن ما اختاروه هو من تصنيف

من نسب إليهم، وكل ما قدموا أقوال هي في حقيقتها دعاوى تفتقر إلى البينة التي يقضي افتقادها على تلك الدعاوى المتهافتة الخالية من أي قرينة ـ بله الدليل ـ تجعل مسافة الشك والإنكار يسيرة، بل لا وجود لنسخة الأناجيل المختارة ترقى إلى القرن الأول، ولا وجود لسند متصل.

ويدعي بعض علماء المسيحية تعصباً أن الأناجيل المرذولة لا ترقى إلا إلى القرن الثاني، وهو غير صحيح إلا إذا كانت الأناجيل المختارة تأتي بعد المرذولة، لأن من الثابت بأقوال أئمة المسيحيين من العلماء أن هناك أناجيل سبقت أناجيل لوقا، بل روى مفسر من أكابر مفسري الأناجيل ـ وهو آدم كلارك في تفسيره ٥: ٣٦٩ ـ ما نصه: «المؤرخون من قديم الزمان يضخمون أعمال العظماء، وما أكثر المؤرخين الذين يزدحمون على العظماء يكتبون سيرهم وتواريخهم، وكذلك كان الأمر بالنسبة لحال الرب، إلا أن أكثر ما كتبوه لم يكن صحيحاً، وادعوا أن ما لم يقع قد وقع حقاً، وغلطوا في الحالات الأخرى عمداً أو سهواً، وبخاصة المؤرخين الذين كتبوا في البلاد التي كان فيها لوقا وكتب بها إنجيله، فرأى الروح القدس أن يعطي لوقا علم جميع الحالات على وجه الصحة يعلم أهل الديانة الحال الصحيح»[1].

وفي هذا دلالة على وجود الأناجيل المرذولة قبل لوقا مما دعا روح القدس إلى إعطاء لوقا العلم الصحيح.

---

(١) كتاب «إظهار الحق» ١: ١٦٤.

وقد مر بالقارئ أن بولس (الرسول) كتب إلى أهل غلاطية ١ : ٦ : «إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر» وهذا يدل على وجود أناجيل مرذولة في العصر المسيحي الأول.

ويقول آدم كلارك في الجزء السادس من تفسيره: «من المحقق أن الأناجيل الكثيرة الكاذبة كانت رائجة في أول القرون المسيحية، وإن كثرة هذه الأحوال الكاذبة غير الصحيحة أجبرت لوقا على تحرير الإنجيل».

وكل ما ذكرناه يثبت أن الأناجيل غير الصحيحة كانت موجودة في العصر الأول حتى تجاوزت السبعين ومنها ما هو باق حتى اليوم، وقد جمع الأستاذ فابريسيوس هذه الأناجيل الكاذبة وطبعها في ثلاثة مجلدات.

ونحن نسمي هذه الأناجيل: «الأناجيل الكاذبة» أو المزيفة أو غير الصحيحة تمشياً مع رأي المسيحيين، لأن رأينا في كل ما يسمى «الإنجيل» هو أن الأناجيل الصحيحة والزائفة سواء، لأن الأناجيل الأربعة مُتكلَّم فيها من قبل أئمة المسيحيين بما يلحقها بالزائفة، لأن التحريف في الأربعة ثابت، وأئمتهم يعترفون بأن فيها ما أقحموه وألحقوه بها وغيروها وبدلوا فيها، فهي غير موثوق بها.

والأناجيل غير المعتمدة كثيرة، عرف بعضها في القرن المسيحي الأول، وبعضها سبق الأناجيل المعتمدة، ومما لا شك فيه

ويثبته رسلهم مثل بولس اعترافه بوجود إنجيل المسيح الأصلي ووجود إنجيل زائف.

وقد سبقت الإشارة إلى الأناجيل المعتمدة وإنجيل المسيح، وها نحن أولاء نشير إلى بعض الأناجيل غير المعتبرة، ثم نذكر بقية الأسفار المعتمدة.

ومن الأناجيل غير المعتبرة:

١ - إنجيل يعقوب الحواري، ويحوي تاريخ العذراء في حداثتها، وحياتها في الهيكل قبل أن ينزل عليها جبريل مبشراً، ويقص طفولة المسيح.

٢ - إنجيل الطفولة، ويسمى «الإنجيل العربي» وينسب لمتى ويقص معجزات العذراء ويسوع إبان هربهما إلى مصر من وجه هيرودس، ويذكر من هذه المعجزات: حراسة الوحوش والسباع إياهما حتى وصلا أرض مصر بسلام، وتهاوي الأصنام وتكسُّرها في طريقهما إلى مصر.

٣ - إنجيل نيقوديموس أحد رؤساء اليهود، وآمن بالمسيح، وتسلم مع يوسف الرامي جثة يسوع بعد الصلب وقاما بدفنها، وذكر في إنجيله خبر محاكمة المسيح ومثوله بين يدي بيلاطس النبطي، وقصة صلبه وموته، وهبوطه إلى «المطهر» حيث مقر الأرواح الخيرة.

٤ - إنجيل توما الحواري، ويقص ما أغفلته الأناجيل المعتمدة

من سيرة مريم وطفولة ابنها، وتعبدها في الهيكل، وهو مكتوب في القرن الثاني باللغة اليونانية بقلم بعض مسيحيي سورية.

٥ - إنجيل برنابا الحواري، والنسخة الموجودة منه تدل على وحدانية الله وعلى بشرية المسيح، وسنكتب عنه خاصة بعد سرد مجموعة الأناجيل غير المعتمدة.

٦ - إنجيل سيرنتوس الذي كان يهودياً ومال إلى ملة عيسى، زاعمًا أن عيسى هو ابن يوسف من مريم، وكتبه سنة ١٨٠م.

٧ - إنجيل باسيليدس ذكره «أوريجون» وهو مكتوب سنة ١٢٥م.

٨ - إنجيل أبولوس.

٩ - إنجيل فلنتينوس، وهؤلاء الأربعة من الفلاسفة الذين يدينون بمذهب الغنوسية التي تؤول عقائد المسيحية، والغنوسية في أساسها مذهب فلسفي يقوم على الصوفية، وتفهم على أنها المثل الأعلى للمعرفة، ومبدؤها أن العرفان الحق ليس هو العلم بوساطة المعاني المجردة، بل على صوفية يتحد فيها العارف بالمعروف.

وفي القرن الثاني ظهرت الغنوسية المسيحية فقاومتها الكنيسة، لأن للغنوسية آراء وفلسفات في الله والمسيح وفي موسى

والتوراة، وينبذون التوراة ولا يعتبرونها، ولا يعتبـرون من الأناجيل إلا ما وافق آراءهم، وما ناقضها ردوه.

١٠ - إنجيل أندراوس الحواري، وأشار إليه البابا جيلاسيوس الأول في منشور له صدر سنة ٤٩٤م.

١١ - إنجيل برتلماوس الحواري، وقد حرمه البابا جلاسيوس، وبه قطع مهمة باليونانية والقبطية مترجمة عن العبرية.

١٢ - إنجيل تداوس الحواري، وقد أشار إليه البابا جلاسيوس الأول.

١٣ - إنجيل يهوذا الإسخريوطي الحواري الذي انقلب على يسوع وخانه، وقد ذكره «ايريناوس» (١٧٧ - ٢٠٢) وكان معترفاً به عند القايينيين، ونحلتهم التمسك بكل ما تحرمـه الكنيسة، وتعظيم قايين.

١٤ - إنجيل متى الحواري، وهو غير إنجيله المعتمد، وبينهما خلاف كبير في المعتقد، بل بينه وبين أربعة الأناجيل المعتمدة كلها، ففي الأناجيل المعتمدة أن العذراء كانت مخطوبة أو زوجاً ليوسف النجار، وولدت يسوع دون أن يمسها يوسف، و إنجيل متى غير المعتمد يذكر نقيض كل ذلك، فيذكر أن العذراء لم تكن مخطوبة ولا زوجاً بل كانت عذراء منذورة لله منذ كانت في بطن أمها.

وهذا يتفق مع صفات من يُنْذَرْنَ لله، المنذورات محرم

عليهن الزواج والاتصال بالرجال، ولا يخطبن ولا يتزوجن، مثلهن مثل الراهبات في أيامنا هذه، وينقطعن في الهيكل للعبادة وخدمة ا لله.

وما في إنجيل متى هذا يتفق مع نص القرآن في مريم:

﴿ إِذ قَالَتِ امرَأَتُ عِمرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّل مِنّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِماَ وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ وَإِنّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

١٥ ـ إنجيل بطرس كبير الحواريين، ويسمى «إنجيل الصبوة» وقد ذكر فيه ما صدر عن المسيح في طفولته، وهو منسوب إلى بطرس عن مريم، ولم يذكر فيه كثيراً من آيات المسيح ومعجزاته، وذكر فيه رحلة المسيح وأمه إلى مصر ثم عودتهما منه إلى الناصرة ويقول يوستينوس بصحة وتاريخ إنجيل بطرس ما بين سنة ١٦٠ و ١٧٠ والفرق بينه وبين إنجيل متى يسير، وكان معتمداً معمولاً به إلى سنة ١٩٠م ووجدت

قطعة منه سنة ١٨٨٧م في قبر راهب ببلدة إخميم في مصر.

١٦ ـ إنجيل فيلبس الحواري، ويرجع إلى القرن الثاني الميلادي، ويذهب إلى أن النسل ناجم عن الشر، ولهذا يحرم الزواج، وذكر «أبيفانوس» أن ما بقي منه قطعة واحدة.

١٧ ـ إنجيل التلاميذ الاثني عشر باللغة القبطية ومن النسخة التي عثر عليها ريفيليو Revillout مخطوطة بمكتبة ستراسبورج، ويزعم كاتبه أنه غملئيل القديم الذي دافع عن أنصار المسيح أمام مجمع اليهود، ويعود تاريخه إلى القرن الثاني.

١٨ ـ إنجيل السبعين.

١٩ ـ إنجيل التذكرة.

٢٠ ـ إنجيل العبريين أو الناصريين، وكتب باللغة الآرامية في أواخر القرن الأول، وما أكثر الشبه بينه وبين إنجيل متى المعتمد، وهو أعلى درجة من إنجيل متى كما يقول «ايرونيموس» و «ريشارد سيمون» والخطأ الذي وقع فيه متى مصحح في هذا الإنجيل، فقد ذكر متى أن زكريا هو ابن بريكيا وإنجيل العبريين يجعله إبناً لـ « يُوودا » وأشار إليه أغناطيوس في رسائله إلى أهل أزمير، وتيتوس، وفلافيوس، وكليمان وأوريجين واورينموس، وليس في هذا الإنجيل ذكر لبكارة مريم، وكان مستعملاً في فلسطين وسورية، وبقيت منه اثنتا عشرة قطعة كما يذكر الأمير شكيب إرسلان في تعليقاته الرائعة على ابن خلدون.

٢١ ـ إنجيل المصريين المنسوب لمرقس، وينسب ليسوع كلمات

غريبة، وأشار إليه كليمان وتيتوس وفلافيوس وغيرهم، وهو مكتوب باللغة الآرامية سنة ١٥٠.

٢٢ ـ إنجيل مرقيون ابن مطران سينوب، ألفه سنة ١٣٠، ويصفه المسيحيون بأنه «هرطوقي» وهو فيلسوف انتهى به الأمر ـ كما يقولون ـ إلى مذهب ماني الفارسي، وتوفي حوالي سنة ١٥٠م ومأخوذ من إنجيل لوقا، ولم يذكر فيه ميلاد المسيح ولا قصة الكرمة.

٢٣ ـ إنجيل ديصان

٢٤ ـ إنجيل إبيون أو إنجيل الإبيونيين، نسبة إلى إبيون زعيمهم، ومذهبهم أن عيسى بشر رسول، وهو المسيح المنتظر الذي تنبأت به كتب العهد القديم، وليس المسيح إلهاً، وشريعة موسى حق.

٢٥ ـ الإنجيل الأغنطسي، يبتدىء بمقدمة تندد ببولس، وتنتهي بخاتمة كالمقدمة، وقد عفت رسوم هذا الإنجيل، ولعل السبب تنديده ببولس رسول المسيحيين.

٢٦ ـ إنجيل بولس

٢٧ ـ إنجيل تهيودوش

٢٨ ـ إنجيل الحواري متّياس الذي اختير مكان يهوذا الإسخريوطي، ودخل في الحواريين بعد صلب المسيح على زعمهم.

٢٩ ـ إنجيل الطفولة لمتى الحواري

٣٠ ـ إنجيل طفولة المسيح لتوما الحواري

٣١ ـ إنجيل يوحنا الحواري وحرمه البابا جيلاسيوس.
٣٢ ـ إنجيل برنياه
٣٣ ـ إنجيل يضم تاريخ يوسف النجار وما تخلل حداثة يسوع من خوارق من سن الخامسة إلى الثانية عشرة.
٣٤ ـ إنجيل العذراء، وبه وصف انتقالها إلى السماء.
٣٥ ـ إنجيل حواء الذي كان معروفاً عند الأوفيتيين عبدة الثعبان.
٣٦ ـ إنجيل الكمال وأشار إليه ابيفانوس، ويشبهه إنجيل حواء.
٣٧ ـ إنجيل الحقيقة المكتوب سنة ١٥٠ وذكر هيبولينوس بعض قطع منه.
٣٨ ـ إنجيل المتهود، وينسب إلى فوسطس كليمانس
٣٩ ـ إنجيل ولادة مريم وطفولة يسوع لمؤلف مجهول اسمه متى، ويظهر أنه من القرن السادس، ومكتوب باللاتينية.
٤٠ ـ إنجيل الحداثة، ويقال، إن أحد النساطرة كتبه، وهم الذين ينكرون وجود المطهر، ولا يقولون بعزوبة القسس، وعرفه الناس بترجمته العربية التي يظن أنها منقولة عن السريانية.
٤١ ـ الإنجيل الحي، وكان منتشراً لدى المانويين.
٤٢ ـ إنجيل هزشيوس الذي أشار إليه ايروينموس.
٤٣ ـ إنجيل يعقوب الصغير، وقد ذكره البابا جيلاسيوس.
٤٤ ـ إنجيل ساتو رينوس، وتاريخه سنة ٢٢٠م
٤٥ ـ الأناجيل الأربعة، وهي غير الأربعة الرسمية، وألفها «تاتيانوس» الأشوري تلميذ يوستينوس سنة ١٧٢ م باللغة

الآرامية، ووجد «تيودوريتوس» أسقف مدينة سيروس الواقعة قرب الفرات مئتي نسخة من مجموعة الأناجيل الأربعة، بين يدي أتباعه فمنعهم عنها، وذلك في سنة ٤٥٣م واطلع فكتور أسقف «كابري» في سنة ٥٤٥م على نسخة من هذه الأناجيل مترجمة إلى اللاتينية.

وتاتيانوس مؤلف مجموعة الأناجيل هذه يدين بالنحلة التي تحرم أكل اللحم وشرب الخمر والمرأة

٤٦ ـ أناجيل الناسينين، وذكرها هيبوليتوس.
٤٧ ـ أناجيل البيراتيين، وقد ذكرها هيبوليتوس أيضاً.
٤٨ ـ أناجيل السيتيين، وفي الإنجيل الأول منها خطب ليعقوب ابن يوسف أخي المسيح، ومنها إنجيل السمعانيين المذكور في المقدمة العربية لمجمع نيقيه المنعقد سنة ٣٢٥م، ومنها الإنجيل الأبدي المؤلف في القرن الثاني عشر من قبل الراهب «جيوفا شينو» وحرمه البابا «سيتيبالدو» الذي تولى البابوية من سنة ١٢٤٣ إلى سنة ١٢٥٤ وأيده البابا بطرس الذي كان حياً في سنة ١٢٧٦م ومنها إنجيل الكمال والإنجيل الحي اللذين مر ذكرهما.

٤٩ ـ إنجيل مجهول المؤلف، وجد «بيكل» قطعة منه في فينا.
٥٠ ـ إنجيل أقرافا Agrapha وبه كلمات منسوبة إلى يسوع لم تذكرها الأناجيل الرسمية.

٥١ ـ إنجيل توما، وقد وجد في نجع حمادي بمصر، وترجم إلى الانجليزية، وهو خال من الألوهية: ألوهية المسيح.

وهذه الأناجيل وغيرها مما رذلته الكنيسة وحاربته حتى قضي عليه من التداول من قبل المسيحيين، ولكنَّ من هذه الأناجيل ما بقي بنصوصه الصحيحة تامة كاملة مثل إنجيل يعقوب وإنجيل الطفولة وإنجيل نيقوديموس وإنجيل برنابا.

وإنجيل برنابا أقرب الأناجيل طراً إلى اتفاق ما فيه مع ما يذكره الإسلام عن المسيح عليه وعلى نبينا والرسل جميعاً صلوات الله وسلامه مما حمل كثيراً من أئمة المسيحيين إلى إنكار وحمل بعضهم إلى الشك وحمل أئمة من المسلمين على التشبث به والادعاء بأنه إنجيل حق صحيح ومجدوه تمجيداً، واتخذوه برهانهم على صدق القرآن الذي ذكر على لسان المسيح أن نبياً يأتي من بعده اسمه أحمد أو محمد.

فهذا الإنجيل تتجاذبه قوتان كبيرتان: إحداهما مسلمة تريد إقامته واتخاذه مناراً، والأخرى مسيحية تريد هدمه وإنكاره، وأنا أرى أن القرآن في غنى عنه وعن كل كتب الأرض والسماء ليكون لما جاء فيه مصداقاً وبرهاناً، وقد نزل القرآن على محمد صلوات الله وسلامه عليه ومرت به قرون دون أن يُعرف إنجيل برنابا ودون أن يكون القرآن في حاجة إلى ما يؤيد ما جاء فيه، ولم يشر إليه أحد في العصور الإسلامية إلا بأَخَرة.

ولكن صراع بعض المسلمين من العلماء من أجل إثباته والتأكيد بأنه إنجيل برنابا الحق الصحيح لأن فيه البشرى بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا ضرورة له ولا حاجة للإسلام به،

لأن وجوده حقيقة وفقدانه سواء، فالقرآن أصدق من جميع الأسفار والكتب لأنه الوثيقة الفذة في الدنيا كلها.

وما أقول هذا تعصباً لديني، بل الحق هو وحده الذي أتوخاه، فالقرآن بقي لنا بنصه الأصلي دون أن يلحقه تحريف في حرف من حروفه، وتلقاه أمة مؤمنة صادقة من أمة صادقة مؤمنة حتى انتهى إلينا كما هو، حتى كانت النسخة المكتوبة اليوم مثل النسخة المكتوبة في أيام محمد صلى الله عليه وسلم.

وليس بين الكتب السماوية كتاب مثله، بل لا وجود اليوم لكتاب سماوي البتة غير القرآن، وليس هذا ادعاءنا بل هو ما يقوله مسيحيون ويهود.

ولكن مع هذا نجد إنجيل برنابا أقرب إلى تصوير المسيحية الحق صورة تتفق مع صورتها التي يرسمها لها الإسلام.

وبرنابا أحد الحواريين، وجاء النص باسمه في إنجيله بالفصل الرابع عشر، وسقط اسمه في إنجيل متى إذ لم يعده من الحواريين، ولكن المقطوع به أنه من التلاميذ السبعين، وكان اسمه يوسف، ويقال: سماه الحواريون «برنابا» ومعناه «ابن الوعظ» وأصله يهودي من قبرس، وهو لاوي، وقد آمن بالمسيح إيماناً صادقاً، وباع كل ما يملك ونزل عنه للدعوة وقدم ثمنه للحواريين.

وكان مشهوراً بالصدق والأمانة والإخلاص، حتى أن

شهادته لبولس قضت على مخاوف الحواريين منه، فقد ضمن بولس لديهم وزكاه وشهد له بصحة إيمانه وذكر لهم قصته وتجلي المسيح له فوثقوا به، ولولا تزكيته ما استطاع بولس أن يجد في ا لمسيحية مكاناً عالياً، بل مهدت شهادته له أن يرتقي أعلى ذروة في المسيحية وينحرف بها من طريقها السوي إلى سبيل غير سبيلها القويم.

وجازى بولس برنابا أسوأ جزاء، فقد تنكر له واتهمه بالرياء مع أنه أنبل منه وأخلص، وحسبه برهاناً على إيمانه الحق خروجه عن كل ماله للدعوة، وكان بذلك أول مسيحي على وجه الأرض يصنع هذا الصنيع العظيم في حين أن بولس كان يطلب إلى الناس أن يعطوه ويهيئوا له المنازل ويقدموا له الخدمات.

وليس اتهام بولس برنابا حقاً، فما كان مرائياً، وما عرف منه إلا الاستقامة والإخلاص ما جعل الحواريين يعتمدون عليه في التبشير بالدعوة والرحلة في سبيلها، وتأسيس منابرها في الأقاليم والمدن التي يرحل إليها، وتنظيم المؤسسات المسيحية في إبانها، وإنشاء أمكنة للدعوة، وأنيط به وحده كل هذه المهام الضخمة الكبيرة التي أداها على خير وجه.

وصحبه بولس في بعض رحلاته التبشيرية وقاما معاً بالدعوة في أنطاكية وقبرص حتى أن أهل قبرص ظنوهما إلهين مما رأوا من كراماتهما، فاندفعا إليهم صائحين منكرين وجلين من تلك الفتنة الكافرة .

وذكر برنابا في سفر الأعمال غير مرة، ففي الإصحاح

الخامس في الفقرتين الأخيرتين منه: «ويوسف الذي دعي من الرسل برنابا الذي يُترجم ابن الوعظ وهو لاوي قبرصي الجنسية إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل».

وفي الإصحاح التاسع، الفقرة ٢٦ و ٢٧: «ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل وحدثهم كيف أبصر الرب في الطريق وأنه كلمه وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع، فكان معهم يدخل ويخرج في أورشليم ويجاهر باسم الرب يسوع».

وفي الإصحاح الحادي عشر، الفقرات ٢٢ إلى ٢٥:

«فسمع الخبر عنهم في آذان الكنيسة التي في أورشليم فأرسلوا برنابا لكي يجتاز إلى أنطاكية الذي لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب، لأنه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان، فانضم إلى الرب جمع غفير».

و «ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول، ولما وجده جاء به إلى أنطاكية فحدث أنهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة وعلّما جمعاً غفيراً، ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً».

وظن أهل «لسترة» برنابا الإله زفس وبولس الإله هرمس، فردا عليهم أباطيلهم (أعمال ١٤: ١٢).

وصلاح برنابا وتدينه وإيمانه وبـره وتمسكه بـالمسيحية وإخلاصه لها فوق الشبهات وإن كان بولس اتهمه بالمراءاة، وهو اتهام غير صحيح.

وينسب إلى برنابا إنجيل وسفر يسمى «سفر الأعمال» وهو غير سفر الأعمال المعروف في أسفار العهدالجديد، وتنكرهما الكنائس المسيحية ولا تعترف بما جاء بهما، وتدعي أنهما مزيفان، وأن من لفقهما نسبهما إلى برنابا ليضلل به المسيحيين ويروجه بينهم.

ومهما كان القول فإن إنجيل برنابا عرف كما يقول المؤرخون والكتاب في القرن الخامس الميلادي، فقد ذكر البابا جلاسيوس الذي تربع على أريكة الكنيسة الكاثوليكية بروما من سنة **٤٩٢** إلى سنة **٤٩٦**م إنجيل برنابا ضمن الكتب الممنوعة، ولكننا نرى أنه عرف قبل هذا التاريخ كما سنذكر.

ولكن فريقاً من المسيحيين يدعـون أن ما نسب إلى جلاسيوس نفسه مختلق لإثبات الإشارة إلى إنجيل برنابا.

وقد عثر على نسخة من إنجيل برنابا باللغة الإيطالية منذ بضعة قرون، فكان لذلك دوي عظيم في العالم المسيحي، وها نحن أولاء نصف هذه النسخة من مقدمة الترجمة العربية للأستاذ الدكتور خليل سعادة، والترجمة بقلمه.

وأول من عثر عليها هو «كريمر» أحد مستشاري ملك

بروسيا، وكان حينذاك مقيمًا في مدينة أمستردام بهولندا ، حيث وجدها لدى أحد وجهاء أمستردام وأخذها منه سنة ١٧٠٩م ثم أهداها إلى الأمير يوجين سافوي الذي كان يعني بالآداب والعلوم مع ما عرف منه من الاشتغال بالحروب، ثم انتقلت سنة ١٧٣٨م مع مكتبته إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا، وما تزال بمكتبة فينا، وتعد هذه النسخة من الذخائر النفيسة وتقع في خمس وعشرين ومئتي صفحة، ويظهر أن النسخة «خزائنية» لأنها بها نقوشاً ذهبية.

وفي أوائل القرن الثامن عشر للميلاد وجدت نسخة أسبانية تقع في عشرين وأربعمئة صفحة، وانتهت إلى الدكتور هلم من بلدة «هدلى» من «همبشير» بانجلترا، وقد أعارها للمستشرق الدكتور سايل، ثم استردها منه وأعارها الدكتور منكهوس أحد أعضاء كلية الملكة في أكسفورد فترجمها إلى الإنجليزية، ثم دفع الترجمة مع الأصل للدكتور هويت أحد مشاهير الأساتذة.

وأشار الدكتور هويت في إحدى محاضراته على الطلبة إلى النسخة الأسبانية وقدم مقتطفات منها، وقام الدكتور خليل سعادة ـ مترجم إنجيل برنابا إلى العربية ـ بمقابلة هذه المقتطفات بالترجمة الانجليزية للنسخة الايطالية الموجودة ببلاط فينا فوجد الأسبانية ترجمة حرفية للأيطالية، ولم ير بينهما فرقاً إلا في موضعين هما:

أولاً ـ أن في الإيطالية: أن يهوذا الخائن لما جاء مع الجند الروماني ليسلم يسوع كان يسوع يصلي في البستان بجانب الغرفة التي ينام بها تلامذته، فلما أحس بالجنود خاف ودخل الغرفة فبعث

الله ملائكته الأربعة جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل وحملوه وخرجوا به من النافذة إلى السماء الثالثة، ولما دخل يهوذا الغرفة بدل الله صورته فكانت كصورة يسوع حتى أن التلامذة ظنوه معلمهم.

وتختلف الأسبانية في نقطتين وهما: ذكر «عزريل» بدل «أوريل» وتستثني بطرس وتدعي أنه لم يشك أن يهوذا هو يسوع.

وعلق المستشرق سايل على النسخة الأسبانية بما مؤداه أن في صدرها ما يشير إلى أنها مترجمة عن النسخة الإيطالية بقلم مسلم أرّوغاني يسمى «مصطفى العرندي» وفي مقدمتها يقص الراهب اللاتيني المسمى «فرامرينو» قصة اكتشافه النسخة الإيطالية ويقول: إنه عثر على رسائل لأريناوس[1] بينها رسالة يندّد فيها ببولس الرسول، وأسند تنديده إلى إنجيل القديس برنابا.

ومنذ ذلك الحين والراهب «فرامرينو» مشغوف بإنجيل برنابا، وذات مرة كان مع صديقه البابا سكتس الخامس ودخلا مكتبة البابا فأخذت قداسته سنة من النوم، فأحب «مرينو» أن يشغل نفسه بالقراءة ريثما يصحو البابا فامتدت يده إلى أحد الكتب فإذا الإنجيل الذي شغف به حباً، فسعد بهذا الإكتشاف الذي تحققت به أمنيته، وخبأ الكتاب في أردانه، وبعد أن صحا البابا استأذنه وخرج.

---

(١) قديس مسيحي مشهور وعالم من أكبر علمائهم وفقيه ولد سنة ١٤٠ وتوفي سنة ٢٢٢م ومات شهيداً كما يقولون.

وقرأ «مرينو» إنجيل برنابا في شوق، وآمن به، واعتنق الإسلام ديناً.

وهذه قصة الراهب المدونة في مقدمة النسخة الأسبانية حسب روايته التي رواها المستشرق سايل في مقدمته لترجمة القرآن، وما رواه سايل والدكتور هويت هو المصدر الوحيد عن النسخة الأسبانية التي اختفت بعد أن دفعت للدكتور منكهوس لترجمتها.

ويرى الدكتور خليل سعادة أن من الممكن أن تكون النسخة الإيطالية التي أخذها فرامرينو من مكتبة البابا هي أصل النسخة الإسبانية.

وأحدث شيوع إنجيل برنابا في فجر القرن الثامن دوياً عظيمًا في المحافل الدينية والعلمية وبخاصة في إنجلترا، وعنف الجدل واحتدم بين العلماء دون أن يفطنوا إلى الهوامش والتعليقات التي بالمخطوطة الإيطالية وهي باللغة العربية والخط العربي، وبعضها يمشي على سنن العربية فكان سليم العبارة محكمها، وبعضها ركيك يدل على ضعف الكاتب وجهله بقواعد اللغة العربية مثل تقديم المضاف إليه قبل المضاف.

ويرى سعادة الدكتور أن المعلق الأول كاتب بارع في العربية، أما من جاء بعده فقد كان جاهلاً أفسد ما كتبه الأول، ويستدل من ذلك أن الهوامش من إنشاء غير واحد من الكاتبين.

ولكن ما أصل هذه النسخة الإيطالية؟ إن المقطوع به أنها ليست هي الأصلية، لأن اللغة الإيطالية التي كتب بها إنجيل برنابا لغة حديثة لم يتم تكوينها وانفصالها عن أمها اللاتينية إلا حوالي القرن السادس عشر الميلادي[1]، فما أصلها الذي نقلت عنه؟ .

اعتقد العلماء في أول الأمر أن النسخة الإيطالية من أصل عربي، وأول من أشار إلى ذلك المستشار «كريمر» الذي أهدى النسخة إلى أمير سافوي وعلق عليها ببضعة أسطر ذكر فيها أن هذا الإنجيل المحمدي مترجم عن العربية أو سواها.

وتبعه «لاموني» إذ يقول : «أراني البارون هوهندروف الجامع بين شرف المحتد وسمو الآداب وسعة الاطلاع كتابا يزعم الأتراك أنه للقديس برنابا، والظاهر أنه منقول إلى الإيطالية من العربية» ويريد بالأتراك جمهور المسلمين والعرب[2].

ويقول الدكتور هويت سنة ١٧٨٤م : «إن الأصل العربي لا يزال موجوداً في الشرق» وهذا القول مبني على ما كتبه المستشرق سايل قبل نصف قرن من كلام هويت وسماه «المباحث التمهيدية» حيث يقول سايل في معرض كلامه عن القرآن الكريم : «إن عند المسلمين إنجيلاً عربياً ينسبونه إلى القديس برنابا، وفيه يروى تاريخ يسوع المسيح على أسلوب يغاير كل المغايرة الأناجيل الصحيحة وينطبق على التقاليد التي جرى عليها محمد في قرآنه» .

---

(١) الأسفار المقدسة للدكتور وافي، صفحة ٨٤.

(٢) مقدمة الدكتور خليل سعادة في ترجمته العربية لإنجيل برنابا.

ولكنه يعترف في عرض المقدمة التي كتبها على القرآن قائلاً: «إني لم أر إنجيل برنابا عندما أشرت إليه في المباحث التمهيدية» مما يثبت أن ما ادعاه قائم على السماع لأنه لم يعثر على نسخة عربية لإنجيل برنابا.

وكل ما مر من أقوال كريمر ولاموني وهويت وسايل ليس صحيحاً، فكل المأثورات البيانية في اللغة العربية خالية من الإشارة إلى إنجيل برنابا، فلا نجد به ذكراً في العصور القديمة والحديثة، حتى المؤلفات الخاصة بالجدل الديني مثل ابن حزم الذي هاجم الأناجيل بعنف في كتابه «الفصل في الملل والنحل» وزيف ما فيها، وابن تيمية والشهرستاني وغيرهم خالية من أي إشارة إليه، وكل فهارس الكتب العربية عند العرب والعجم والمستشرقين في كل أقطار الأرض لا تشير إليه، بل الفهارس التي وضعها مستشرقون وغيرهم لا ترسل أي إشارة إلى هذا الإنجيل.

ولو أن عربياً زيف هذا الإنجيل ولفقه ونسبه لبرنابا تأييداً لكتاب الله عز وجل وسنة محمد عليه صلوات الله وسلامه وإعداداً لبراهين تكذب الأناجيل الرسمية وأسفار العهد الجديد لما أغفل المسلمون شأنه بعد هذا الجهد يتركونه يذهب هباء.

ولو كان لهم به علم لاعتمدوه في محاجة المسيحيين، فابن حزم الذي اتخذ في حملته على المسيحيين والأناجيل الرسمية الأربعة أسلوب القدح والسباب، ورحمة الله الهندي في كتابه العظيم «إظهار الحق» الذي يعد كتابه خير ما ألف في العربية لبيان

التحريف والأغاليط والأكاذيب والضلالات في أسفار العهد القديم والعهد الجديد في أسلوب آية في الصفة والنزاهة والعدل والكمال، وغيرهما من علماء المسلمين لم يشيروا إلى إنجيل برنابا فضلاً عن الإستدلال والاستشهاد به لأن هذا الإنجيل حجة قوية لهم وسلاح ماض بتّار في أيديهم، فيكف يغفلونه وهم متهمون بوضعه.

وهذا برهان قاطع على أن المسلمين أبرياء من وضع إنجيل برنابا وإن كان فيه ما يتفق مع القرآن والسنة في بعض الآيات والأحاديث مما يصلح أن يكون ترجمة دقيقة لها، وأكثر من هذا أن محتوى إنجيل برنابا متفقٌ مع العقيدة الإسلامية في شخصية المسيح كل الاتفاق، ومخالف الأناجيل الأربعة كل المخالفة.

فالأناجيل الأربعة وسائر الأسفار المقدسة المسيحية تقيم عقيدتها على ألوهية المسيح، وتقرر في ثقة وإيمان صلبه وقيامته، وأن مسيا أو المسيح المنتظر الذي بشرت به أسفار العهد القديم هو يسوع المسيح إلى غير ذلك مما ازدحمت به تلك الأناجيل.

والقرآن الكريم يخالف الأناجيل أشد المخالفة في كل ما ذكرته وذهبت إليه، وقام الصراع بين المسلمين والمسيحيين واليهود في العقيدة من أجل تلك المخالفات وما زال قائمًا، وسالت أنهار الدماء بسبب هذا الخلاف المستطير.

ويسبق إنجيل برنابا القرآن في مخالفة الأناجيل الأربعة، وإذا صح ما جاء حول اكتشافه من قبل مسيحيين وبخاصة ما ذكره

الراهب اللاتيني فرامرينو فإن إنجيل برنابا يكون معاصراً لتلك الأناجيل، لأن القديس أريناوس الذي كان في القرن الثاني حتى الربع الأول من القرن الثالث أشار إليه حسب زعم مرينو، وأريناوس من أعظم شهود المسيحية على صحة أناجيلها الأربعة لأنه كان تلميذ بوليكربوس مطران أزمير، وبوليكربوس تلميذ يوحنا الرسول صاحب الإنجيل الرابع وحواري المسيح الحبيب.

إن الأناجيل الأربعة مجمعة على ألوهية المسيح، وبولس الرسول كان يهودياً صميمًا مخلصاً ليهوديته ثم تنصر في ظروف غامضة وغريبة، وحامت حول تنصره شكوك الحواريين جميعاً لولا تزكية برنابا له وشهادته لبولس الذي تنكر له وانحرف بالمسيحية وأسرف في ادعاء ألوهية المسيح وانتزاع لواء المسيحية من أربابه الأصلاء وسخر بهم، ورأى برنابا من بولس هذا الإنحراف الذي زلزل به قواعد المسيحية الموحدة، فتصدى ليعلن الحق الذي يؤمن به، فأعلنه على رؤوس الأشهاد في فاتحة إنجيله التي ننقلها بنصها:

«برنابا رسول يسوع الناصري المسمى المسيح، يتمنى لجميع سكان الأرض سلاماً وعزاء».

أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعته لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، واعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا، مجوزين كل لحم بخس، الذين ضل

في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً.

ولكن الله العظيم معكم، وليحرسكم من الشيطان ومن كل شر. آمين».

ففي هذه الفاتحة هدم لكل قواعد المسيحية التي بناها بولس على أنقاض المسيحية الصحيحة الموحدة، فلا ألوهية للمسيح لأنه ليس إلا نبياً، وإن الكفر الشديد الادعاء بأن المسيح ابن الله، ورفض الختان الذي أمر به الله في التوراة المنزلة على موسى، وتجويز كل لحم بخس.

وهذا يتفق مع الإسلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا ﴾.

فالمسيح عبد الله ونبيه، وإنجيل برنابا يذكر في الفصل الثاني والسبعين بالفقرة ٢٤ على لسان المسيح قوله: «أعترف بأني بشر كسائر البشر» وفي الفصل الثالث والتسعين بالفقرتين ٩و١٠: «أشهد أمام السماء وأشهد كل شيء على شيء على الأرض أني بريء من كل ما قد قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية،

وعرضة لحكم الله، مكابد شقاء الأكل والمنام، وشقاء البرد والحر كسائر البشر». وفي الفصل ٩٧ بالفقرة ٢ : «أنا يسوع بن مريم من نسل داود، بشر مائت، ويخاف الله وأطلب ألا يعطي الإكرام والمجد إلا لله».

ويتفق إنجيل برنابا في مسألة الصلب مع الإسلام ويقرّ أن شبيهه هو المصلوب وهو يهوذا الخائن، والقرآن الكريم يقول: ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾.

وفيه التنبؤ بمحمد ﷺ في غير موضع منه مما يتفق مع ماجاء في القرآن الكريم: ﴿ وإذا قال عيسى بن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ وفي إنجيل برنابا بالفصل التاسع والثلاثين في الفقرة ١٤ : «فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها» لا إله إلا الله ومحمد رسول الله» وفي الفصل الرابع والأربعين بالفقرة ٣٠ : «ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً : يا محمد، ليكن الله معك» وفي الفصل الرابع والخمسين بالفقرتين ٩و١٠ : «ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الأصغياء الذين يصرخون : أذكرنا يا محمد، فتتحرك الرحمة في رسول الله».

وهناك إشارة إلى محمد ﷺ تلميحاً أجلى من الصراحة والبيان في كثير من فصول إنجيل برنابا.

وهذا ما دعا أناساً إلى أن يدعوا أن هذا الإنجيل من تأليف مسلم، ولو صح هذا الزعم لما اختفت الإشارة اليه من جيمع

الكتب الإسلامية وبخاصة مؤلفات الجدل مع المسيحيين، إذ لو ألفه مسلم لعممه ونشره ليكون للمسلمين حجة قوية في الرد على المسيحيين المنكرين بنبوة محمد، وعدم معرفة المسلمين جميعاً به دليل على أنه ليس من تأليف أحدهم.

يقول الدكتور خليل سعادة[1]: «لا بد لي من التصريح بعد كل ما تقدم بيانه أني أشد ميلاً للاعتقاد بالأصل العربي مني بسواه، إذ لا يجوز اتخاذ عدم العثور على ذلك الأصل حجة دامغة على عدم وجوده وإلا لوجب الاعتقاد بأن النسخة الإيطالية هي النسخة الأصلية لهذا الإنجيل فإنه لم يعثر أحد قط على نسخة أخرى سوى النسخة الأسبانية التي مر بيانها، والتي ورد في مقدمتها أنها مترجمة عن نسخة إيطالية، والمطالع الشرقي يرى لأول وهلة أن لكاتب إنجيل برنابا إلماماً بالقرآن حتى أن كثيراً من فقراته يكاد يكون ترجمته حرفية أو معنوية لآيات قرآنية.

«أقول هذا وأنا عالم أني في ذلك مخالف لجلة كتاب الغرب الذين خاضوا عباب هذا الموضوع وفي جملتهم «لونسدال» و «لورارغ» اللذان يزعمان أن إلمام كاتب هذا الإنجيل قليل، فكان هذا من جملة الأسباب التي حملتهما على نفي القول بأصل عربي، ومن ذلك حديث إبراهيم مع أبيه، منه ما ينطبق على سورة **٢١** و**٣٧** وكقوله عن سبب سقوط إبليس إنه أبى أن يسجد لآدم على حد ما جاء في سورة البقرة، وكذلك ما ورد في سورة الحجر.

---

(١) مقدمة إنجيل برنابا صفحة ط.

ولولا ضيق المقام لأوردت كثيراً من تلك الفقرات مع ما يقابلها من آيات القرآن، وليس ذلك فقط بل إن في إنجيل برنابا كثيراً من الأقوال التي تنطبق على الأحاديث النبوية والأساطير العلمية التي لم يكن يعرفها حينئذ غير العرب، حتى أنك لا تكاد تجد في هذه الأيام على كثرة المستشرقين والمشتغلين باللغة العربية وتاريخ الإسلام من الغربيين من يعد عالماً بالحديث».

ويستمر في القول فيذكر «أن القول بأن هذا الإنجيل عربي الأصل لا يترتب عليه أن يكون كاتبه عربي الأصل، بل الذي أذهب إليه أن الكاتب يهودي أندلسي اعتنق الدين الإسلامي بعد تنصره واطلاعه على أناجيل النصارى، وعندي أن هذا الحل أقرب الى الصواب من غيره، لأنك إذا أعملت النظر في هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إلماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلا في أفراد قليلين من الأخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفاً على الدين كالمفسرين، حتى أنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا.

والمعروف أن كثيرين من يهود الأندلس كانوا يتضلعون من العربية، ولقد نبغ بينهم من كان له في الأدب والشعر القدح المعلى، فيكون مثلهم في الاطلاع على القرآن والأحاديث مثل العرب أنفسهم».

ويقول: «أما يهود الأندلس فإنهم كانوا يدخلون في

الإسلام أفواجاً وليس ذلك فقط، بل كانت لهم يد كبيرة في إدخال المسلمين أسبانيا ورسوخ قدمهم فيها ذلك العهد الطويل.

«ومما يعزز هذا الرأي أيضاً أن هذا الإنجيل يتضمن كثيراً من التقاليد التلمودية التي يتعذر على غير يهودي معرفتها.

. . . فالرأي الذي أذهب إليه من أن الكاتب الأصلي هو يهودي أندلسي اعتنق الإسلام يعلل جميع ما تقدم تعليلاً واضحاً».

واتخذ الدكتور سعادة من نص إنجيل برنابا على وجوب الختان وعلى الكلام الجارح إلى حد تفضيل الكلاب على الغلف دليلاً على نفي كتابته من قبل كاتب نصراني الأصل، وسواء أكان الكاتب يهودي الأصل أم نصرانيه فمما لا شبه فيه ـ لدى الدكتور سعادة ـ أنه كان مسلمًا.

« وهنالك إنجيل يسمى « الإنجيل الإغنسطي » عفت آثاره يبتدىء بمقدمة تندد بالقديس بولس وينتهي بخاتمة فيها مثل ذلك التنديد مما يجعل من المحتمل أن يكون أصلاً لإنجيل برنابا، وأن أحد معتنقي الإسلام من اليهود أو النصارى عثر على نسخة منه في اليونانية أو اللاتينية في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر فصاغه في القالب الذي يرى فيه آلامه فخفي بذلك[1] ».

وكل ما ذكره الدكتور سعادة جائز، إلا ان بعضه يغلب عليه الظن والتخمين، فنحن لا نستطيع أن نطمئن إلى أن يكون

(١) مقدمة الدكتور سعادة لإنجيل برنابا.

الإنجيل الاغنسطي أصلاً لإنجيل برنابا، لأن إنجيل برنابا ورد في بعض رسائل إريناوس بصرف النظر أن يكون هذا أو غيره، إلا أنه لا يستبعد أن يكون في هذا الإنجيل أساسه لأن فرامرينو يذكر أن في إنجيل برنابا الذي اطلع عليه تنديداً ببولس وهو موجود، ويجوز أن يكون برنابا أصلاً للأغنسطي.

ونحن ـ أيضاً ـ لا نستطيع أن نقطع بأنه إنجيل برنابا لأن فيه ما يجعلنا نحن أنفسنا نشك فيه، لأن ما جاء به بصدد النص على اسم محمد عليه الصلاة والسلام عندما رأى آدم ذلك ليس من معلومات القرن الذي عاش فيه برنابا.

ومما لا شك فيه أن للأفكار الإسلامية سبيلاً لا حباً إلى إنجيل برنابا، ولا نستبعد أن يهودياً ألفه أو وجد الأصل فحرفه وزاد فيه.

ولا يهم الإسلام أن يكون إنجيل برنابا حقاً وصدقاً أو لا يكون، لأنه لا يعتمد عليه في رد الأناجيل الأربعة الرسمية، فقد ردها قبل ظهوره بأدلة قوية أضاف إليها أدلة غاية في القوة علماء كبار من أبناء المسيحية أنفسهم.

وما دمنا بصدد الأناجيل المرذولة المردودة الزائفة غير الصحيحة فإنه من المستحسن أن نشير إلى رسائل أخرى تلحق بها ليكون القارىء على علم بها وهي:

١ ـ رسالة المسيح نفسه إلى أبكرس ملك أوديسا.

٢ ـ رسالته إلى بطرس وبولس.

٣ ـ كتاب التمثيلات والوعظ.

٤ زبور عيسى الذي كان يعلم من الحواريين والمريدين منه خفية.

٥ ـ كتاب الشعوذات والسحر.

٦ ـ كتاب مسقط رأس المسيح ومريم وظئرها.

٧ ـ رسالته التي سقطت من السماء في المئة السادسة.

وهذه الرسائل السبع تنسب إلى المسيح نفسه، وهي غير إنجيله.

٨ ـ رسالة مريم إلى أكناش.

٩ ـ رسالتها إلى سيسيليان.

١٠ ـ كتاب مسقط رأس مريم.

١١ ـ كتاب مريم وظئرها.

١٢ ـ تاريخ مريم وحديثها.

١٣ ـ كتاب معجزات المسيح.

١٤ ـ كتاب الأسئلة.

١٥ ـ كتاب نسل مريم والخاتم السليماني.

وهذه الثمانية تنسب إلى العذراء.

١٦ ـ أعمال الحواري بطرس.

١٧ ـ مشاهدات بطرس.

١٨ ـ مشاهدات بطرس الثانية.

١٩ ـ رسالته إلى كليمان الإسكندري.
٢٠ ـ مباحثات بطرس وإيبين.
٢١ ـ تعليم بطرس.
٢٢ ـ وعظ بطرس.
٢٣ ـ آداب صلاة بطرس.
٢٤ ـ كتاب مسافرة بطرس.
٢٥ ـ كتاب قياس بطرس.
وهذه الرسائل العشر تنسب لبطرس الحواري.
٢٦ ـ أعمال الرسل ليوحنا.
٢٧ ـ كتاب مسافرة يوحنا.
٢٨ ـ حديث يوحنا.
٢٩ ـ رسالة يوحنا إلى هيدروبيك.
٣٠ ـ كتاب وفاة مريم.
٣١ ـ تذكرة المسيح ونزوله من الصلب.
٣٢ ـ المشاهدات الثانية.
٣٣ ـ آداب صلاة يوحنا.
وهذه الثمان ليوحنا الحواري.
٣٤ ـ أعمال الرسل لأندراوس الحواري.
٣٥ ـ آداب الصلاة لمتى الحواري.
٣٦ ـ أعمال الرسل لتوما الحواري.
٣٧ ـ المشاهدات لتوما الحواري.
٣٨ ـ كتاب مسافرة توما الحواري.

٣٩ ـ آداب الصلاة ليعقوب الحواري.

٤٠ ـ كتاب وفاة مريم ليعقوب الحواري.

٤١ ـ حديث متياس الحواري الذي دخل في الحواريين بعد صلب المسيح وحل مكان يهوذا الإسخريوطي.

٤٢ ـ رسالة برنباه.

٤٣ ـ أعمال بولس وتنسب إلى بولس الرسول.

٤٤ ـ أعمال تهكله لبولس.

٤٥ ـ رسالة بولس إلى اللادوقيين.

٤٦ ـ رسالة بولس الثالثة لأهل تسالونيكي.

٤٧ ـ رسالته الثالثة إلى أهل كورنثوس.

٤٨ ـ رسالة أهل كورنثوس إلى بولس وجوابه عليها.

٤٩ ـ رسالته إلى سنيكا وجواب سنيكا له.

٥٠ ـ مشاهدات بولس.

٥١ ـ مشاهدات بولس الثانية.

٥٢ ـ وزن بولس.

٥٣ ـ وعظ بولس.

٥٤ ـ كتاب رقية الحية لبولس.

وهذه الرسائل رذلتها الكنيسة وردتها مدعية أنها مزيفة ولا صحة لها كما ردت الأناجيل الكثيرة.

وإن رد كل هذه الأسفار واختيار أربعة أناجيل وبضعة وعشرين سفراً موضع نظر، لأن الأناجيل المختارة لم يكن اختيارها

قائمًا على أسس البحث والدراسة والنقد، ولم يكن بوحي من السماء أو أمر من المسيح، بل اختيرت بالإقتراع أي بكثرة الأصوات من قبل آباء الكنيسة.

ويجوز أن لو نجح غيرها وسقطت الأربعة المختارة أن ترد كما رُدت التي لم تنجح، وهذه العملية نفسها تدل على إبعاد العقل والدين في الاختيار.

ولو أننا قمنا بعملية انتخاب أربعة رؤساء من بين سبعين جعلنا بينهم عشرين قرداً من الجائز أن يفوز أحدها أو أكثر بالرئاسة دون الآدميين أومعهم، ولو اتبع هذا الأمر في إنجاح الطلبة لكان بينهم من المخفقين كثير.

وعلى أي حال فعملية الإقتراع برهان على أن الاختيار لم يكن مبنياً على أساس صحيح، لأنه فرض في جميعها عندما دخلت حلبة الإقتراع الصلاحُ حتى فازت الأربعة بالإقتراع.

الفِرَق وَالكنائِس

الفرق المسيحية كثيرة بلغت في عصرنا الحاضر أكثر من الخمسين والمئتين، وليس من اليسير تعداد أسمائها، والإشارة إلى كل منها، ولئن تعددت وبلغت هذا العدد إلا انها تدين بالمسيحية التي تغيرت على يد بولس الرسول.

ومنذ القرن المسيحي الأول بدأ الإنقسام، وأول ما نشهد من آثاره البعد عن الشريعة التي تمسك بها المسيح، وهذا ما بدأ على يد الحواري يعقوب بن حلفي المعروف بيعقوب الصغير تمييزاً له عن الحواري يعقوب بن زبدي شقيق يوحنا الإنجيلي الذي عرف بالكبير، إذا صح ما نسب إليه.

ثم زاد تشويه المسيحية الموحدة بما أحدثه بولس إذ حرم ما كان حلالاً وأحل ما كان حراماً، وهذا كان باعثاً على التفرقة وقيام بعض الفرق، وخلاف بولس مع بطرس وبرنابا ـ والأول كبير الحواريين دون نزاع، والآخر حواري على قول وتلميذ مخلص على قول ـ نجم عنه ما يمكن أن يكون من بواعث الإفتراق.

ولا شك عندنا أن المسيحية لم تكن في العصر الأول بعد موت المسيح ديانة يتفق في فهمها جميع معتنقيها على حد سواء، لأن ما ينسب إلى المسيح من الكلمات كان في كثير منه رمز وإبهام لم يفهمها حواريوه فسألوه عن بعضها وتركوا بعضها مما كان سبب خلاف بين التلامذة والأتباع والمتأخرين.

وأول بوادر الفرقة والانحراف بالمسيحية من التوحيد إلى نقيضه، وتفسير «الكلمة» التي جاءت في فاتحة الإنجيل المنسوب إلى يوحنا تفسيراً يتفق مع التثليث خروج بالمسيحية الموحدة إلى مسيحية تقول بالتعدد، كما أن الإدعاء بأن لفظ «الإبن» إنما هو على الحقيقة لأن المسيح ابن الله حقيقة لا مجازاً كما يدعون، فهو الله الإبن، والله هو الله الآب، وبعد قرون أضافوا إليهما الروح القدس فصار اللَّهَ روح القدس.

وعندما اجتمع مجمع نيقيه سنة **٣٢٥**م برزت الفرق بروزاً ظاهراً، فكان أبينها وأقواها فرقة آريوس الذي وصف المسيح على حقيقته فذهب إلى أنه بشر رسول، وليس إلهاً، وذكروا أن سبعمئة من أعضاء المؤتمر البالغ عددهم ثمانية وأربعين وألفين تبعوه، وانعقد المجمع بثمانية عشر وثلاثمائة أسقف.

ويدل هذا على وجود فرق مختلفة في المجمع، والذين حضروه لم يكونوا جميعاً على رأي واحد، بل كان بينهم من كانوا يدينون برأي من أقصوا عنه، ولكنهم سكتوا خوفاً من الأذى.

كانت هناك فرقة آريوس وآريوس نفسه، وفرقة مقدونيوس

الذي كان بطريركاً في القسطنطينية وكان يرى أن المسيح ليس إلهاً بل هو بشر رسول وعبد من عباد الله مثله مثل سائر الأنبياء، وفرقة بولس الشمشاطي الذي يصفه ابن حزم بقوله: «كان بطريركاً بأنطاكيا قبل ظهور النصرانية، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام، خلقه الله تعالى في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلٰهية فيه، وكان يقول: لاأدري ما الكلمة ولا روح القدس».

وفرقة البربرانية تدعي أن المسيح وأمه إلٰهان من دون الله عز وجل وقد بادت كما يذكر ابن حزم.

وعلى مر الأيام أخذت الفرق تزداد حتى بلغت في عصرنا الحاضر - كما ذكرنا - خمسين ومائتي فرقة، وأخذت تضيف إلى العقيدة ما يعن لها مما لم يكن موجوداً، وقيل: إنها تجاوزت الأربعمئة.

وتبعاً لهذا الافتراق انقسمت الكنيسة على نفسها فانشطرت شطرين أول الأمر، هما: الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وانتهى الأمر بهما إلى أن تتهم كل منهما الأخرى في العقيدة إلى حد الاتهام بالهرطقة والمروق.

والكنيسة الشرقية تعرف - أيضاً - باليونانية، وكنيسة الروم الأرثوذكسية، والغربية باللاتينية، والكنيسة الكاثوليكية، ومركز الأولى القسطنطينية، والثانية روما، ولذلك عرفت الأولى بكنيسة القسطنطينية والأخرى بكنيسة روما.

واختلفت الكنيستان في أمرين هامين يتصلان بالعقيدة وهما: الروح القدس، ورئاسة الكنيسة، فالكنيسة الغربية ترى أن الروح القدس منبثق من الله الآب ومن الله الإبن في وقت واحد، ولم يكن انبثاقه من أحدهما، والكنيسة الشرقية ترى أنه منبثق من الله الآب وحده، واشتدت الخصومة بين الكنيستين حتى انعقد في سنة ٨٦٩م مجمع خاضع لكنيسة روما بالقسطنطينية لم يحضره من يمثلون الكنيسة الشرقية، واتخذ اتباع كنيسة روما قراراً ينوه على أن الروح القدس منبثق من الله والإبن، ثم وضعوا في صلب القرار أن مرجع الفصل في كل ما يتعلق بالديانة المسيحية وعقائدها كنيسة روما، وأن المسيحيين جميعاً خاضعون لرئيس كنيسة روما، ولعن القرار رئيس كنيسة القسطنطينية ـ واسمه فوسيوس ـ وكان عند انعقاد المجمع معزولاً من منصبه، كما ذهب القرار إلى حرمانه هو وكل مشايعيه.

ولكن فوسيوس وفق للعودة بعد عديد من السنوات، وكان أول عمل له بعد العودة عقد مجمع آخر يرد به على المجمع السابق، فانعقد مجمع القسطنطينية الآخر سنة ٨٧٩م ويعرف بالمجمع الشرقي اليوناني، وقرر رد كل ما قرره مجمع القسطنطينية المنعقد في سنة ٨٦٩م وتكفيره، واتهمه شر التهم، وقرر في جلاء وصراحة: أن روح القدس منبثق من الله الآب وحده.

وصارت كنيسة روما في طريق وكنيسة القسطنطينية في

طريق آخر، والكنيستان متفقتان في كثير من العقائد والتعاليم، وتختلفان في الروح القدس وفي غيره.

والرئاسة أمر دنيوي، ولكن الكنيسة الغربية جعلتها منصباً يتصل بالعقيدة لأن الحبر الأعظم يمثل المسيح وبطرس، ومن حقه إبداع العقائد والشرائع، إذ الرئاسة دينية قائمة على العقيدة أو الاعتقاد بأن رئيس كنيسة روما هو الوحيد الذي يستطيع إبداع العقيدة وتفسيرها وتفسير الشريعة والأناجيل دون غيره، لأن هذا الحق له وحده دون الناس أجمعين.

وعملت كنيسة روما للدنيا أكثر من الدين، بل أخضعت الدين للدنيا حتى يتيسر للبابا قبض زمام السلطة الدينية والزمنية معاً، وأدخل الدين في كل أمر دخول هوى لا إصلاح، وزج به في السياسة والمنافسات من أجل الحكم والسيطرة حتى استطاعت الكنيسة أن تسيطر على السياسة والحكام، وأهانت الأمراء والملوك وأرغمتهم على طلب المغفرة من رئيسها.

وصارت كنيسة روما أشهر الكنائس وأكبر مرجع للمسيحية، ورئيسها البابا معصوم كما قرر المجمع المتم العشرين المنعقد بروما سنة ١٨٧٠م ومن حقها منح صكوك الغفران لمن تشاء.

وكان للكردينال «ماننج» اليد الطولى في صدور قرار عصمة البابا الذي أثار الدهشة في العالم وبخاصة في أوروبا.

وإذا كان الأنبياء غير معصومين في المسيحية فكيف يزعمون العصمة للبابا، ويتناقض كلام المسيحيين في العصمة، فتارة يقولون: البابا معصوم، وتارة أخرى: البابا غير معصوم لأنه يخطىء.

يقول الأب إلياس لويس اليسوعي: «ويبقى البابا على ما يتمتع به من سلطان، وعلى عصمته من الخطأ في مجال تحديد العقائد الإيمانية بطريقة رسمية[1]».

ويقول: «إن الكنيسة منظمة تهدف الى توحيد البشر حول شخص يسوع المسيح تحقيقاً لعمل خلاص نفوسهم، فهي تحتاج بعد صعود المسيح إلى رئيس أعلى منظور يربط بين أعضائها ويسيرهم بسلطانه نحو الهدف المنشود، والبابا هو هذا الرئيس المنظور الذي يقوم مقام المسيح ويوحد ما بين جميع المؤمنين المنتشرين في العالم قاطبة، فالبابا إذن في نظر المؤمن ليس شخصية بارزة وحده كأحد آباء التوراة يتمتع بسلطان روحي وزمني شامل، لكنه صورة حية متجسدة لوحدة الكنيسة أو هو القطب الذي تدور حوله القلوب تستجديه دفء الإيمان، وتتجه إليه العقول تستنير بنور تعاليمه، فلا نقائصه ولا سوء استعماله لسلطانه ولا عدم أهليته تمنع المؤمن من أن يرى فيه مبدأ هذه الوحدة التي تضم جميع إخوانه وأبنائه الكاثوليك على اختلاف أجناسهم وميولهم،

---

(١) كتاب «يسوع المسيح» صفحة ١٨٦.

وعندما يعلن البابا إجراء أو يعلن عقيدة جديدة فإنما يتكلم باسم الكنيسة جمعاء[1]».

وكيف تتفق العصمة مع النقائض وسوء استعمال السلطان وعدم الأهلية؟!.

إن العصمة نقيض كل هؤلاء، وعدوها النقيصة والسوء، ولا يمكن أن يوصف إنسان بالعصمة وهو يأتي بنقيضها.

وقد جاء في مؤلفات كتاب كاثوليك وصف كثير من البابوات بما لا يليق برجل الشارع لا بمن انتهى إلى مرتبة العصمة ويحل فيه الله الروح القدس!..

ولم تكن عصمة البابا معروفة في القرون التي سبقت القرن التاسع عشر، فقد أصدر مجلس الفاتيكان سنة ١٨٧٠ قراراً أعلن فيه عصمة البابا مما أثار دهشة العالم وبخاصة أوروبا، ووصف ج. بيوري في كتابه «حرية الفكر» صفحة ١٤٧ شعور الناس وموقفهم من ذلك القرار فقال: «وقد اعتبر الناس ذلك المنشور وثيقة إعلان حرب على التنوير، كما اعتبروا «مجلس الفاتيكان» أول حشد عسكري يتحرك من جيوش الظلام، وكان يبدو للناس أن قوى الجهالة قد بدأت تطل برؤوسها وتنذر بويل جديد، وانتشر شعور سليقي بأن قوى العقل كلها ينبغي أن تحشد في الميدان».

ولم يكن من يرتقون كرسي البابوية من ذوي الدين والخلق

---

(١) «يسوع المسيح» صفحة ١٨٥ ـ ١٨٦.

والعلم والفضل والكمال، بل كان فيمن تولى هذا المنصب الأرفع في المسيحية أناس فيهم الجهلة وفيهم الفسقة والفجرة واللصوص والسفلة.

يقول جون هرمان راندال[1]: «قد تكون قصة انتخاب البابا سلستين الخامس من أقوى الحوادث دلالة على عقلية القرون الوسطى، فقد شغر الكرسي البابوي واجتمع مجلس الكرادلة لينتخب من يملؤه، وظل المجلس سنتين متواصلتين يدرس أمر انتخاب الشخص الملائم لأصعب وأعقد مركز في العالم المسيحي، وكانت البابوية تجابه حينذاك أعصى المشاكل التي يعجز عن حلها أحكم رجال الدولة، فاتخذ الكرادلة في نهاية الأمر وبعد الدرس والتفكير فلاحاً جاهلاً متطيراً مسناً في الثمانين من عمره».

وقد أشار العلامة أحمد فارس الشدياق إلى بعض ما جاء في مؤلفات كتاب كاثوليك في كتابه «الساق على الساق» ١ : ١٠٤ وقال:

«ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره، والناس من أهل مملكته الكاثوليكيين ما زالوا يطبعون كتباً ينددون فيها بعيوب رؤساء كنيستهم وقبائحهم وسفاهتهم وفحشهم وشراهتهم وإلحادهم، بل أن كثيراً منهم قد ألفوا تواريخ خاصة بما كان عليه البابوات من الفسق والفجور وسوء التصرف، وبكفرهم بخلود النفس والوحي وبإلهية المسيح».

(١) في كتابه «تكوين العقل الحديث ١ : ١١١ ترجمة الدكتور جورج طعمة.

وذكر الشدياق بعض البابوات وأعمالهم الشريرة الفاضحة نقلاً عن مؤلفين كاثوليك وقال: «منهم من قال: إن البابا أرُمديوس الثامن ويعرف بدوق صَفْوِى رقي إلى درجة بابا وهو عامي.

«ومنهم من قال: إن مجمع باسيل إنما كان انعقاده لخلع البابا يوجين، وأنهم حكموا عليه بالعصيان والارتشاء والشقاق والبدع ونكث اليمين.

«ومنهم من قال: إن البابا نيقولاوس[1] الأول كان قد حرم كنتيار مطران كولون لمخالفته في المجمع الذي انعقد في مَتْزْ سنة ٨٦٤ فكتب المطران إلى جميع كنائسه يقول فيها: إن المولى نيقولاوس الذي اتخذ له لقب بابا ويحسب أنه بابا وسلطان معاً وإن يكن قد حرمنا فقد علونا على سفاهته.

«ومنهم من قال: إن أمبروسيوس حاكم ميلان حصل على درجة مطران مع أنه كان غير صحيح الاعتقاد بدين النصارى.

«ومنهم من قال: إن البابا يوحنا الثامن[2] أرسل نواباً من طرفه إلى القسطنطينية فعقدوا ثم مجمعاً اجتمع فيه أربعمائة

---

(١) هو نيقولاوس الأول الكبير (٨٥٨ ـ ٨٦٨م) احتج على خلع القديس إغناطوس بطريك القسطنطينية، وعلى انتخاب فوتيوش.

(٢) صار بابا سنة ٨٧٢ إلى سنة ٨٨٢م وفي أيامه سيطر العرب المسلمون على إيطاليا بعد أن هددوا روما، فأدى يوحنا هذا الجزية للمسلمين سنتين.

أسقف وكلهم حكموا ببراءة فوتيوس[1] وأنه جدير برتبة مطران.

«ومنهم من قال: إن البابا أسطفانوس السادس أمر بأن تنبش جثة فرموسيوس أسقف بورطو من القبر لأنه قد أثار شغباً على سلفه البابا يوحنا الثامن، ثم حكم عليه ـ حالة كونه ميتاً ـ بقطع رأسه وثلاث من أصابعه وألقيت جثته في طيبر[2].

«وإن البابا سرجيوس كان قد استوزر ثاودورة أم ماروزيا التي تزوجت بمركيز طوسكاني، وأنه أي البابا أولد ماروزيا هذه ولداً رباه عنده داخل قصره من دون محاشاة أحد من أهل رومية، ثم تزوجت ماروزيا بعد ذلك بهوك ملك أرلس، وعملت على قتل البابا يوحنا العاشر لأنه كان يهوى أختها، فخنقته بين فراشين واستبدت بالأمر، ثم احتالت أن ولت ليو هذه الرتبة ثم قتلته في السجن بعد أشهر، ثم ولت من بعده رجلاً خامل الذكر فولي بعض سنين ثم عزلته ونصبت يوحنا الحادي عشر وهو ابنها من سرجيوس الثالث، وكان قد أتى عليه أربع وعشرون سنة لا غير، وشرطت عليه ألا يباشر من الأحكام إلا ما كان مختصاً برتبة البابوية، وأنها سمت زوجها ثم تزوجت بسلفها ملك لومباردي وفوضت إليه الحكم، فقام أحد ولدها من زوجها الأول وشغب عليها أهل رومية وحبسها وابنها البابا في سانت أنجلو، وأنه ولى

---

(١) فوتيوس (٨٦٠ ـ ٨٩١م) بطريرك القسطنطينية، انفصل مدة عن الكنيسة الكاثوليكية وذلك سنة ٨٦٣م.

(٢) النهر الذي يخترق روما.

بعده اسطفانوس الثامن، غير أنه لما كان بغيضاً عند الرومانيين لكونه من جرمانية شوهوا وجهه فلم يقدر بعدها على الظهور بين الناس.

«ثم انتخب ابن ولد مازوريا المسمى أكطافيوس وله من العمر ثماني عشرة سنة، وسمي بعد ذلك يوحنا الثاني عشر، وكان خليعاً ماجناً فحاشا مستهتراً منهمكاً في اللذات وهوى النفس مولعاً بركوب الخيل والفروسية، وإنما لم يخل ذلك بأمور الكنيسة لأن أكثر الدول والكنائس كان على هذه الحال، وإن أوتو الأمبراطور لما علم أن هذا البابا قد أضمر العصيان، وكان أهل إيطاليا قد استدعوا حضوره لإصلاح ما اختل من أحوالهم توجه من بافيا إلى رومية، وبعد أن استتب له الأمر في المدينة عقد مجمعاً حضر فيه البابا بنفسه وكثير من أمراء جرمانية ورومية وأربعون أسقفاً وسبعة عشر كردينالاً وذلك في كنيسة مار بطرس، وشكا البابا بحضرتهم أجمعين أنه فسق بعدة نساء، وخصوصاً إيتَنَّتْ التي ماتت وهي نفساء، وأنه قلد مطرانية طودي لغلام كان سنه عشر سنين لا غير، وأنه كان يبيع الرتب والدرجات الكنائسية بيعاً وسمل عيني «أشبينه» في المعمودية سملاً، وجبّ أي خصى أحد الكرادلة أو الكردينالات جباً ثم قتله، وأنه لم يكن يؤمن بالمسيح، وغير ذلك، مما أوجب على الأمبراطور خلعه ونصب ليو الثامن في مكانه، إلا أنه لم يكد الأمبراطور يخرج من رومية حتى أهاج البابا عليه أهل المدينة، وعقد مجمعاً خلع فيه ليو الثامن، وأمر بقطع يد

الكردينال الذي كتب الشكوى عليه، وقطع أيضاً لسان الكاتب الذي كان يقيد الحوادث وأنفه واثنتين من أصابعه.

«ثم قتل البابا يوحنا الثاني عشر وهو معانق لامرأة، وكان القاتل له على ما قيل زوجها.

«ثم إن القنصل كريسنتيوس ابن البابا يوحنا العاشر من ماروزيا جيَّش أهل رومية على أوتو الثاني وسجن بندكتوس وكان من حزب الامبراطور فمات في السجن، فلما بلغ ذلك مسامع أوتو ولى يوحنا الرابع فقام عليه بونيفاس السابع الذي كان ولي الرئاسة من قبل القنصل وقتله.

«وبقي القنصل مستقلاً بتدبير الأمور ومباشرة الأحكام إلى أن قام غريغوريوس ابن أخت الامبراطور وخلع أوتو الثالث، ثم احتال عليه الأمبراطور وضرب عنقه وأمر بأن تعلق جثته من القدمين.

«وسملت عينا البابا يوحنا الخامس عشر الذي كان انتخبه الرومانيون وقطع أنفه ثم رمي به من ذروة قلعة سانت أنجلو، ثم عرضت الرئاسة البابوية على البيع فاشتراها كل من بندكتوس الثامن ويوحنا التاسع عشر واحداً بعد واحد، وكانا أخوي مركيز طوسكاني.

«ثم اشتريت لولد سنُّه عشر سنين وهو بندكتوس التاسع.

«ثم انتخب باباوان آخران، وكان أحدهما يكفر الآخر

ويحرمه، ثم اصطلحا على أن يتقاسما دخل الكنيسة فيما بينهما، وأن يعيش كل منهما مع سريته.

«ومنهم من قال: إن البابا غريغوريوس السابع عقد مجمعاً في رومية على آنرى الرابع سلطان جرمانيه... واضطر إلى الذهاب إلى رومية فلما قدم على البابا وجده خالياً بالكُنْتِس ماتيلدة في كانوزا.

«ومنهم من قال: إن بعض الباباوات وأظنه إينو صنت الثالث حرم الملك لويس وأباه، غير أن مطارين فرنسا نسخوا حكمه وأمروا بإلغائه.

«وأن البابا إينو صنت الرابع عقد المجمع الثالث عشر على الأمبراطور فريدريك الثاني وذلك سنة ١٣٣٥ وحكم عليه فيه بكفره وبأنه كان يتسرى بجواري مسلمات، فناضل عن الأمبراطور خطباؤه وحزبه وردوا على البابا أنه افتض بنتاً وارتشى غير مرة.

«ومنهم من قال: إن البابا المذكور أغرى طبيب الأمبراطور المشار إليه بأن يدس له السم في طعامه.

«وأن إكليمنضوس الخامس عشر كان يجول في فيينا وليون لجمع المال ومعه عشيقته.

«وأن راهبا من الدومينيقيين سم الأمبراطور آنرى عن أمر

البابا وذلك في القربان[1].

«وأنه في سنة ١٢٠٠ تزاحم باباوان على الرئاسة وجمع كل منهما حزبه للقتال وعلى راية كل صورة المفاتيح، وأن أحدهما تصرف في آنية كنيسة ماربطرس وأنفقها في أهبة الحرب.

«وإن البابا أوربانوس كان يعذب كل من خالفه من الكرادلة أو الكردينالات، ومنهم من قال: إن البابا يوحنا الثالث والعشرين شكا بأنه سم سلفه وباع الوظائف الكنائسية، وقتل عدة أبرياء، وأنه كان كافراً ولوطياً معاً».

وفي كتاب «قصة الحضارة»[2] ما ننقل نصه:

«اختير بنيفاس الثامن بابا في عام ١٢٩٤».

و «وكان قد مهد السبيل لتسلمه عرش البابوية بأن أقنع سلتين الخامس Celestine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر ـ وكان هذا عملاً لم يسبق له مثيل

---

(١) والبابا اسكندر السادس المعروف بإسكندر بورجيا الذي صار بابا من سنة ١٤٩٢ ـ ١٥٠٣م يصفه المسيحيون المتعصبون ومنهم فردينان توتل مؤلف «المنجد في الآدب والعلوم» بأن هذا البابا «من بابوات النهضة الأوربية وانصرف إلى السياسة والتهى بأباطيل العالم لكنه بقي دوماً مستقيم الإيمان» وما أظن أن من يكون كذلك يكون مستقيم الإيمان، وقد هيأ السم لأحد الناس ونسي فشربه ومات.

(٢) تأليف ول ديورنت، الجزء الخامس من المجلد الرابع، ترجمة محمد بدران، راجع صفحة ١٥٩ ـ ١٦٠ و ١٦٥ ـ ١٦٨.

من قبل ـ وأحاط بنيفاس من بادىء الأمر بالبغض منذ البداية، وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلستين، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً في رومة، ولما فر سلستين قبض عليه، ثم فر مرة ثانية، وقضى عدة أسابيع يجول في أنحاء بوليا، حتى وصل البحر الأدرياوي، وحاول أن يعبره إلى دمياط، ولكن القارب الذي كان يركبه تحطم به، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجيء به أمام بنفياس، وحكم عليه البابا بالسجن في حجرة ضيقة في فرنتينو Ferintino ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦)».

و «سار وليم نوجارت وسياراكولنا Siarra Colonna على رأس ألفين من الجنود المرتزقة واقتحما القصر، وقدما إلى البابا رسالة فليب، وطلب إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣) [١] فرفض بنيفاس هذا الطلب، وتقول رواية «موثوق بصحتها أعظم الثقة» إن سيارا لطم الحبر الأعظم على وجهه وإنه كاد يقتله لولا تدخل نوجارت، وكان بنيفاس وقتئذ في الخامسة والسبعين من عمره، ضعيف الجسم، ولكنه ظل يتحدى خصومه، وبقي ثلاثة أيام سجيناً في قصره والجنود المرتزقون ينهبون، ولكن أهل أناني يؤيدهم أربعمئة فارس من عشيرة أرسيني Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته، ويلوح أن سجانيه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره، لأنه وهو واقف في

---

(١) الصحيح ١٣٠٣ لا ١٩٠٣ وهو غلط مطبعي.

السوق سأل: «إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لي صدقة من النبيذ والخبز فإني أمنحها بركة الله وبركتي» وقاده فرقة الأرسيني إلى رومة وإلى الفاتيكان، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (في الحادي عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣).

«وحرم خليفته بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) نوجارت وسياراكولنا وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر في أناني، ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت في بروجيا، وربما كان أحد الجبليين الايطاليين قد دس له السم.

«ووافق فليب[1] على أن يؤيد برتراند ده جو Bertrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسي البابوية إذا نهج سياسة المصالحة، وعفا عمن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس، وسمح بأن تجبى من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة في المئة مدة خمس سنين، وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم، وأن يشهر بذكرى بنيفاس.

«ولسنا نعرف إلى أي حد وافق برتراند على هذه المطالب، وكل ما نعلمه أنه اختير بابا، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) وأنذره الكرادلة بأنه لن يكون آمناً على حياته في رومة، فنقل كلمنت كرسي البابوية إلى أفنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون، في خارج الحد الشرقي لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن

(١) فليب: ملك فرنسا.

وصله اقتراح مريب من فليب، وهكذا بدأ «الأسر البابلي» للبابوات الذي دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا بعد أن حررت نفسها من ألمانيا.

«وأصبح كلمنت رغم إرادته الضعيفة أداة ذليلة في يد فليب الذي لا حد لمطامعه، فغفر للملك ذنوبه، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم، وسحب مرسوم Clercis Laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد، ووافق أخيراً (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدي مجمع كنسي عقد في جروسو Groseau القريبة من أفنيون، وشهد ستة من رجال الدين في التحقيق المبدئي الذي أجري أمام البابا ومأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل سنة من توليه منصبه الديني إلى أن كل القوانين التي يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكي يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلكاً حسناً لخوفهم من الجحيم، وإلى أن من «البلاهة» أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة في آن واحد، أو أن عذراء قد ولدت طفلاً، أو أن الله قد صار إنساناً، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلة «هذا ما أومن به وما أعتقده كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم، أما السوقة فيعتقدون غير هذا، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوقة، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القلة وتفكر».

«ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هذه الأقوال، وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيما بعد.

«ونقل رئيس دير القديس جيلز St. Giles القائم في سان جمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتاني Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح، وأيد هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين.

«ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس: «إنه ليس إلا فطيرة».

«واتهم بنيفاس رجال كانوا قبل ذلك من أهل بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة، الطبيعية منها وغير الطبيعية.

واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحري بقوى الظلام».

* * *

لعل في هذه الشواهد من الحقائق ما فيه الغناء، وآلاف الكتب في جميع اللغات ـ وبخاصة الانجليزية والفرنسية والألمانية ـ مليئة بمثل ما استشهدنا به، وتملأ مجلدات ضخمة، ولم يكتبها مسلمون يقال: إن اعتناقهم ديناً يخالف المسيحية يدفعهم إلى الحقد عليها والتشهير ببابواتها، بل المؤلفون والكتاب مسيحيون.

وإذا كان البابا الحبر الأعظم وممثل الله والأقانيم الثلاثة بهذه البشاعة في الأخلاق، فما بال الآخرين من رجال الدين؟.

إنهم مثلهم.

بل الأفظع الأنكى في الأمر: المجاهرة بالمعصية، والتباهي

بالفسق، والتنقل بصحبة الفجور في الأسواق كما فعل البابا اكليمنضوس الخامس عشر عندما كان يتجول في فيتي وليون بصحبة عشيقته لجمع المال.

ويعتذر المؤمنون بقدسية البابا وعصمته أنه ارتكب ما ارتكب من الأباطيل وهو مستقيم الإيمان.

* * *

أكثرت وأطلت في نقل هذه الشواهد لئلا يقال: إن الشـذوذ لا يُعْتدُّ به، ولتكون الكثرة دليلاً على أن الباباوات غير معصومين.

ومن العجيب أن يرقى إلى أعظم رتبة دينية أناس انتهوا في السفالة والانحطاط والخسة إلى أبعد غاياتها، وكل هذا لا يهدم العصمة وحدها بل ينفي عن صاحبها الإنسانية والخلق، ويصمه بالفسوق والكفر، ويقذف به إلى أحط الدركات.

ولولا أن هذه الحوادث ثابتة في الأغلب لما صدقت، إذ كيف ينحدر إلى هذا الحضيض من يؤيده روح القدس ويحل فيه ويتحكم في المسيحيين ويرأس الكنيسة التي هي لدى المسيحيين «إسرائيل الروحي الجديد ومملكة الله الروحية وجسد المسيح السري وسر المسيح» وحددها الآباء بقولهم: إنها جماعة المؤمنين المتحدين بمعمودية واحدة وإيمان واحد بيسوع المسيح فادي البشر، وهم يؤلفون تحت رئاسته السلطة الحاكمة الشرعية جسد المسيح

السري الذي يتم به الخلاص لكافة شعوب الأرض»[1].

كيف ينحدر البابا الذي «يقوم مقام المسيح وخليفة بطرس الذي أولاه المسيح سلطة خاصة على الكنيسة، وألقيت إليه مفاتيح ملكوت السماء، وراعي الرعاة ورأس لأجساد المسيحية جمعاء وأبو المسيحيين أجمعين»[2] هذا الإنحدار الذي يجرد الإنسان العادي من المزايا والخلائق الإنسانية فكيف بالبابا؟.

وأين روح القدس الذي يحمي منصب «البابوية» من أن يرتقيه من لا يستحق أن يكون له كرسي بين العامة، أن يرتقيه شرذمة من الناس تتجمع فيهم أبشع الصفات وأحط الرذائل؟ لماذا يدعه لعبث العابثين؟ لماذا لا يحميه؟ لماذا يطيع رؤساء الكنيسة ورعاتها وأحبارها من يجلس على كرسي البابوية بدون حق مثل البابا «بندكتوس التاسع الذي جعله بابا أبوه أوتون الثاني أمبراطور ألمانيا بالقوة المسلحة في القرن العاشر[3]» والبابا «الكسندروس بورجيا السادس الذي فرضته أسبانيا»[3].

ولماذا يطيعون البابا الفاسق، والبابا الناهب، والبابا الذي يزني، والبابا الذي يغري المحصنات ويفترس عفتهن، والبابا الذي يمارس أبشع جريمة أخلاقية عند البشر وهو اللواط؟.

إن التوراة التي يؤمن بها المسيحيون تحكم على أمثال هؤلاء

(١) يسوع المسيح، ص ١٦٦.
(٢) يسوع المسيح. ص ١٦٦ و ١٨٠ و ١٨٣.
(٣) كتاب «يسوع المسيح» هامش صفحة ١٨٧.

بالموت والرجم حتى الموت، ومع هذا يبقون في أرفع منصب في المسيحية، إنه منصب الألوهية، فعلى قولهم: المسيح هو ابن الله بل هو الله «الابن» والبابا يقوم مقام المسيح ، فالبابا ـ إذن ـ يقوم مقام الله، ومن يخلفه يجب أن يكون أرقى في نماذج البشر في البر والصلاح والزهد والتقوى، يجب أن يكون كالمسيح في طهره وتقواه.

أما وقد ارتقى هذا المنصب الإلهي الخطير الرفيع باباوات كمن ذكرهم التاريخ الصحيح فذلك هو الدليل على فقدان المنصب نفسه صفة الألوهية التي لم تستطع حمايته وصونه من الدنس، وعلى فقدان هؤلاء البابوات العصمة والكمال.

وهناك اختلافات كثيرة بين الكنيستين: الشرقية والغربية، ومنها أن الكنيسة الشرقية قيدت نفسها بقول يعقوب الصغير في محفل أورشليم إذ أحل ما كان حراماً في التوراة ووقف التحريم على الدم والمخنوق، أما الغربية فقد أباحتهما.

والكنيسة الغربية تحرم الطلاق ولو كان بسبب الزنا، وتقضي بالفرقة بين الزوجين مع بقاء رباط الزوجية، أما الشرقية فتقضي بالطلاق لأن المسيح أباحه بسبب الزنا كما ذكر متى في إنجيله.

وترى الكنيسة الشرقية ألا خلود في النار، وفي هذا مخالفة للكنيسة الغربية التي تقرر الخلود.

ويقول فون كريمر: «نشأ تيار قوي في الكنيسة الشرقية في وقت متقدم ضد رأي رجال الدين الغربيين الخاص بخلود عذاب النار، وقد كان أوريجن Origen يؤيد تأييداً قوياً الرأي القائل بأن عذاب النار له نهاية، وجميع الإسكندريين على اتفاق معه في هذه النقطة، وحتى معلمي كنيسة أنطاكية: ديودور الطرطوسي وتيودور المصيصي، ولو أنهم ـ عادة ـ لا يتفقون مع أوريجن في المسائل الأخرى، إلا أنهم يشاركونه عقيدتهم في هذه المسألة.

وقد ناقشوا ـ أيضاً ـ القول بدوام عذاب النار».

وترى الكنيسة الغربية أن الأرواح تتعذب في «المطهر» ولا ترى الكنيسة الشرقية ذلك.

ومن أشد أنواع الخلاف بين الكنيستين ادعاء الكنيسة الغربية أنه لا خلاص للمسيحي إلا إذا كان من أتباعها، ولا خلاص لمن كان خارجها، وزعمت أن النار مثوى غير أتباعها، ثم عن لها بأخرة أن تمن على الخارجين عليها من العامة أو ممن لا يعلمون أن اتباع كنيسة روما فرض مقدس، كأن نشأوا على غير مذهب كنيسة روما أو أن يعتقدوا أنهم على الحق.

ويقول صاحب كتاب «يسوع المسيح» في هامش صفحة ٢٠٨: «لقد أقام المسيح الكنيسة الجامعة قيمة على استحقاقاته توزعها على أبنائها المنتظمين فيها، بحيث يجب القول: أن لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية، ولكن هل يعني أن لا خلاص ولا نعيم إلا للكاثوليك؟ جوابنا:

«إن المسيحيين من غير الكاثوليك الذي يعتقدون راسخ الاعتقاد أن كنيستهم هي الكنيسة الحقة وقد انضموا إليها بفضل الوراثة دون معرفة أو ذنب منهم، لا سبيل إلى القول بأنهم هالكون، لأنهم يعتبرون من روح الكنيسة وليسوا من جسدها، أما إذا ساورتهم الشكوك حول صحة معتقد كنيستهم ولم يبحثوا عن الكنيسة الحقة لينضموا إليها فلا بد من القول إذ ذاك أنهم يعرضون نفوسهم للهلاك.

أما الذين ينفصلون عن الكنيسة الكاثوليكية عن معرفة وإرادة وحرية احتقاراً لها فهؤلاء إنما هم يجدفون على النور، ومن جدف على النور أنى له الخلاص».

وما ثم خلاف أشد من هذا الخلاف الذي يقصي بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية وأساقفتها ومن وقفوا على حقيقتها وحقيقة الكنيسة الغربية من جنة الخلاص ويقذف بهم إلى جحيم الهلاك.

وكما أن لكنيسة روما بابا هو رأس المسيحية وحاميها فإن لكنيسة الروم الأرثوذكس في القسطنطينية بابا أيضاً، وكل منهما مستقل عن الآخر، ويشرف على الكنائس التابعة له.

إلا أن هناك كنائس انفصلت عن الكنيسة الشرقية لخلاف يتصل بالعقيدة، فكنيسة مصر وكنيسة الحبشة وكنيسة الأرمن وكنيسة السريان ـ وكلها أرثوذكسية ـ منفصلة عن الكنيسة الشرقية وسائر الكنائس، لأن هذه الكنائس الأربع تؤمن بأن للمسيح

طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلّهية، ولا تؤمن بأن للمسيح طبيعتين: واحدة إلّهية، وأخرى بشرية.

والكنيسة المارونية تقول: إن للمسيح طبيعتين، ولكنها تدعي أن له مشيئة واحدة، هي المشيئة الإلّهية، وتنتسب هذه الكنيسة ليوحنا مارون (سنة ٦٦٧م) وقد طورد أفرادها حتى استقروا بلبنان، ولكن مجمع القسطنطينية السادس المنعقد سنة ٦٨٠م قرر لعن يوحنا مارون وطرده وكفره وكفر كل من يرى رأيه، وقرر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين.

إلا أن كنيسة روما أعلنت في سنة ١١٨٢م عن عدم سخطها على المارونيين فأعلن هؤلاء طاعتهم لبابا روما والاعتراف برئاسته.

وإذا كانت الطوائف المسيحية قد كثرت فإن هذه الكثرة ترجع إلى أصلين هما: الكاثوليك والأرثوذكس، وكلمة كاثوليك Catholic من أصل يوناني بمعنى العموم والعالمية، ويراد بها في الديانة المسيحية أنها ديانة عالمية عامة.

وأما أرثوذكس Orthodox فمن أصل يوناني من كلمتين بمعنى الرأي الحق أو المذهب المستقيم، ويراد بها في المسيحية أنها الديانة الحق التي تمتاز بصحة الاعتقاد.

وأدى ما تعمله كنيسة روما الكاثوليكية وتعتقده وتقوله إلى

قيام فرقة قوية هي فرقة البروتستانت التي ظهرت في أوائل القرن السادس عشر، ومعنى الكلمة: الاحتجاج والاعتراض.

وتعرف حركة البروتستانت بأنها حركة إصلاح ديني نهضت لإصلاح الكنيسة بل لإصلاح المسيحية عامـة، لأنها رأت الكاثوليكية قد فسدت ولا بد لها من الإصلاح.

ولا شك أن الفساد الذي غرقت فيه الكاثوليكية حتى شاع، والبدع والمنكرات ودعاوي كنيسة روما اضطرت المفكرين إلى تصحيح وضع الكنيسة فقام منهم كثير على رأسهم مارتن لوثر الألماني (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) وزونجلي السويسري (١٤٨٤ ـ ١٥٣١م) وكلفن الفرنسي (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م).

وكان لوثر شديداً على الكاثوليكية واتهمها وحمل عليها وأبان بدعها ومفاسدها، وكان أشد الثائرين حماسةً وقوةً، ومبدأ ثورته كانت على صكوك الغفران التي تمنحها كنيسة روما ونادى ببطلانها، ولم يكفه ذلك، بل كتب نقده في ورقة وعلقها على باب كنيسته،وكان ما فعله إعلاناً صارخاً لحرب كنيسة روما واحتجاجاً شديداً على بدعها وأباطيلها، فعرفت الفرقة الجديدة بالبروتستانتية من هذا العمل .

وكان لوثر مقداماً جريئاً، فهذه الحرب التي أعلنها على كنيسة روما التي كانت سيدة الأمبراطوريات والممالك تظهر إقدامه وشجاعته وجرأته ، ولا شك أنه كان مخلصاً في ثورته ومريداً إصلاح الكنيسة وتجديد المسيحية.

ولكن عمله أثار كنيسة روما، ودفع البابا إلى إصدار قرار حكم فيه بحرمان لوثر وكفره واتهامه بأنه فاسد العقيدة زائفها، ووجه إلى لوثر إنذاراً، فما كان من لوثر إلا أنه خرج بالإنذار إلى أكبر ميادين البلدة وأحرقه علانية.

وأثار تحدي لوثر غضب البابا فعقد في سنة **١٥٢٠** م مجمعاً قرر محاكمته، ولكنه تحدى قرار المحاكمة وتحدى البابا نفسه.

وكان أمبراطور ألمانيا كاثوليكياً ويخشى البابا فأراد في سنة **١٥٢٩**م أن ينفذ ما قرره البابا، غير أن أنصار لوثر كانوا قوة لا يستهان بها، فوقفوا في وجه الأمبراطور محتجين على إقدام الأمبراطور على تنفيذ قرار البابا وبقي «معطلاً».

ومن هنا عرف هؤلاء الأنصار بالبروتستانت بمعنى المحتجين، لأنهم احتجوا على قرار البابا وعلى تنفيذه.

وزاد نفوذ لوثر وإقبال الناس عليه، ودفعه انتصاره إلى الإصرار على مبادئه ونشر معارضته لكنيسة روما.

وكذلك زونجلي السويسري، كان على مباديء لوثر نفسه، ولكنه كان متفرداً بآرائه، ولم يكن تابعاً له، بل كان منفصلاً عنه وعن دعوته، وقتل زونجلي سنة **١٥٣١**م في معركة نشبت بين أنصاره وأنصار الكنيسة الكاثوليكية.

أما كلفن الفرنسي فقد نزح إلى سويسرا وخلف لوثر في دعوته، وهو الذي ثبّت قواعد البروتستانتية.

ولم تكن دعوات هؤلاء المصلحين إلا نتيجة مقدمات سبقتها من تحرر العقل الأوربي المسيحي، وأعان على قيامها يقظته.

ومنذ القرن الرابع عشر بدأ إشراق في العقلية الأوربية واستمر هذا الإشراق يضؤل تارةً ويتوهج أخرى حتى القرن السادس عشر الذي رفدت الحضارة خلالها بروافد عظيمة من أعظمها الطباعة وقوة الملوك والأمراء في أقطارهم الأوربيـة واكتشاف أراض جديدة على ظهر هذا الكوكب مجهولة، وظهور نظريات علمية جديدة وتأكيد نظريات أخرى حاربتها كنيسة روما وقضت بالموت على بعض العلماء.

وشعرت الكنيسة أن نور العقل والعلم يهددها، ففي دروبها ومسالكها وكهوفها بل في كثير من أبهائها الفسيحة ظلام دامس هو مستقر طقوس المسيحية وعقائدها التي لا يراها العامة ولا يعونها، ولا بد أن تبقى في الظلام ليتسنى للكنيسة أن تسيطر بوساطة المجهول على عقول العامة، وإذا وفق أحد العامة إلى كشف علمي مهما كان أثره جليلاً على الإنسانية فإن الكنيسة تحاربه لأن النور مهما كان مصدره ليس في مصلحتها.

ونقول «أحد العامة» لأن كل الناس سواء لدى الكنيسة إلا رجالها، فإذا جاء كوبرنيكوس بنظرية علمية ثارت الكنيسة وقضت عليه.

وسبب الإشراق الذي أطل على أوروبا اهتمام أدبائها

ومفكريها بـآداب السلف من الإغريق والمسلمـين وعلومهم وفنونهم، فاستيقظت العقلية الأوربية يقظةً حاربتها الكنيسة ومنعت العقل أن ينطلق من سجنه ليبدع وينتج، ولكن هذه الحرب لم تستطع أن تقضي على الحركة الجديدة قضاء تاماً، وإن كانت الكنيسة استطاعت أن تؤخر النهضة الإنسانية قروناً بما أتت من أعمال.

ولو سلمت الإنسانية الكنيسة لتقدمت كثيراً، فإلى الكنيسة يعزى تأخر الفتح العربي، وإليها يعزى ما أشعلت من الحروب الصليبية ضد المسلمين، وما اقترفت من آثام فيما يسمى «محاكم التفتيش» التي تتبعت الأبرياء والمفكرين وقتلتهم شر قتلة، وإليها تعزى محاربة رجال الأدب والفكر وقتلهم.

ولا شك أن هذه الأعمال الوحشية أخرت الضمير الإنساني والعقل الإنساني قروناً، ولولاها لكان وجه العالم اليوم غير هذا الوجه الشاحب الكئيب.

فإذا خرج مثل لوثر ودفعه إخلاصه لدينه أن يدرس اللاهوت ويشد رحاله إلى روما يأخذ من بابا كنيستها الكبرى النور والبركة فإذا هو أمام حقائق رهيبة تلتهم آماله، إذ يجد الكنيسة غارقة في الضلال والباطل والظلم، بل يراها فاسدة فساداً عاماً، وتعتدي على الناس اعتداء منكراً يصوره ج. بيوري[1] بقوله:

---

(١) حرية الفكر، صفحة ٥٥ ـ ٥٦.

«قد كان أكبر الدوافع إلى «الإصلاح» هو فساد الكنيسة فساداً عاماً واعتداؤها على الناس اعتداء منكراً، فقد ظلت البابوية دهراً طويلاً وليس لها من مطمح إلا أن تصبح سلطة عالمية، وأن تستغل نفوذها الروحي لقضاء مآربها الدنيوية ، تلك المآرب التي ملكت شغاف قلبها ولبها، وقد اضطرت الدول الأوروبية كلها أن تشيد علاقاتها على هذا الأساس وكان الناس يشعرون بالحاجة إلى إصلاح الكنيسة منذ القرن الرابع عشر، وكثيراً ما وعدت الكنيسة بتحقيق الإصلاح، ولكن الأمور سارت من سيء إلى أسوأ، ولم يكن بد من الثورة والانتقاض.

«ولم يكن تمرد «لوثر» نتيجة لثورة العقل على المبادىء التحكمية، وإنما كان نتيجة الشعور العام بالسخط على رجال الدين، ذلك السخط الذي نتج من سلوك الكنيسة في ابتزاز الأموال وخاصة في لجوئها إلى بيع «صكوك الغفران» التي هي أكبر وصمة في ذلك العصر.

إن «البدع» الدينية التي جاء بها لوثر قد كانت عاقبة دراسته لفكرة البابوية عن صكوك الغفران».

وهذه الحركات التي عرفت بحركة الإصلاح الديني في أوربا لم تكن حركة تحرير للعقل وتطهير للضمير وتهذيب للخلق وإعلاء لشأن الحرية، بل أراد أصحابها منها أن ينتزعوا من البابا والكنيسة الكاثوليكية سلطانها ويؤثروا به أنفسهم، ولهذا وجدنا من حركة لوثر وخليفته كلفن كل محاربة للعقل والضمير والحرية.

وقد أشار كثير من الباحثين والمؤرخين إلى فظائع حركة الإصلاح الديني ، ومنهم بيوري نفسه، فهي لم تكن داعية إلى التحرر من أجل التحرر نفسه، ولم تكن محاربتها للكنيسة والتشهير بها ومقاومة اضطهاده وتحريم إحراق من كانت الكنيسة الكاثوليكية تسميهم «ملاحدة» وكفاراً غيرة من لوثر على الحق خالصاً لوجه الحق، بل كان يخشى أن يصيبه من الكنيسة ما أصاب غيره من الاضطهاد والتعذيب والإحراق، فحاربها ليبعد عن نفسه ظلمها وجبروتها، حتى إذا تمكن من الأمر وأمن على نفسه فعل ما فعلته الكنيسة.

إن الكنيسة الكاثوليكية تزعم أنها تتقيد بالنقل فإذا صادم بعض نصوصه العقل وجب اضطهاده وإتلافه، وحركة لوثر نفسها تتقيد بالنقل نفسه كما تدعي وتحارب العقل إذا ناقضه ولا «وجه للتفاضل بين الكنائس القديمة والكنائس الجديدة ما دامت روح التعصب قد ظلت باقية كما هي . إن الحروب الدينية لم تنشب لنصرة قضية الحرية، ولكن لنصرة طائفة معينة من المذاهب، ولو أن البروتستانت انتصروا في فرنسا لكان من المحقق ألا يذهبوا في التساهل مع الكاثوليك أكثر مما ذهب هؤلاء معهم»[1].

وإن تقيد لوثر بالإنجيل حسب فهمه إياه دفعه إلى محاربة حرية الفكر والضمير والعبادة، وأما محاربته للكنيسة واضطهادها من سمتهم ملاحدة وكفاراً كانت دفاعاً عن نفسه وإبعاداً لخطر

(١) حرية الفكر لبيوري، صفحة ٥٦.

اضطهادها إياه، وآية ذلك أنه فعل ما فعلته الكنيسة حينما ثبتت دعوته وقويت شوكته وكثر أنصاره وصارت للكنيسة البروتستانتية سلطة.

وآراء لوثر لا تقل خطراً عن آراء الكنيسة الكاثوليكية، فهي على سواء معها في البواعث والعواقب والوسائل، فذهب لوثر إلى أن «الحق» مع الدولة لأنها حارسة الإيمان، ومن الفروض الواجبة طاعتها في كل شيء لأن بيدها زمام الدين والدنيا، وعلى الدولة أن تخمد أنفاس الإلحاد والكفر لأنهما من رجس الشيطان، ولا بد من القضاء عليه رغبةً في الإيمان والتطهير، بل ذهبت به القسوة إلى حد الحكم بقتل من ينكر وجوب تعميد الأطفال.

وكانت زوايا ومناطق في عقل لوثر تحتلها الخرافة والأوهام، فكان يرى الأمراض من فعل الشياطين، وعلاجها طردها، ولا يطردها إلا رجال الدين، أما الطب العلمي فما كان يعترف به.

فحركة لوثر لم تقم من أجل تحرير الناس من الاضطهاد والخسف، بل قررتهما، حتى إذا قاد الحركة كلفن زاد التعصب وأصبحت القسوة العنيفة طابعها، وخالف سلفه في منح السلطة للحاكم المدني، بل ادعاها للكنيسة ليشيد صرح الحكومة الإلهية، لأن الكنيسة هي صاحبتها الشرعية، وليس لأحد مخالفتها.

واستطاع كلفن أن يؤسس في جنيف الحكومة الإلهية التي دعا إليها، وقضى على الحرية قضاء، وحارب كل مذهب يخالف مذهبه، وكل إنسان يعلن رأياً لا يتفق مع رأيه، كما فعل مع

«سرفيتوس» الكاتب الأسباني الذي كتب مقالاً نقد فيه فكرة التثليث، وهرب من إسبانيا خوفاً على نفسه وذهب إلى جنيف حيث وقع في قبضة كلفن فاتهمه بالإلحاد وأحرقه حياً سنة ١٥٥٣م.

ونشر أصحاب كلفن أن إحراق الملحد الكفور «سرفيتوس» سيكون المصباح الذي يهدي الأجيال القادمة، ولكن الأجيال القادمة لم تهتد بذلك المصباح، بل رأته خزياً وعاراً وظلمةً قاتمةً، وإذا هي تتوارى حجاباً من الخجل والحياء.

وفي أوائل القرن العشرين (سنة ١٩٠٣م) أقام البروتستانت أنفسهم من أتباع كلفن نفسه نصباً تذكارياً في جنيف تخليداً لذكرى سرفيتوس الأليمة رجاء الصفح عن «مصلحهم العظيم» الذي اقترف «جريمة» شنعاء كان عصره هو المسؤول عنها والدافع إليها.

وهذا اعتراف «الأجيال القادمة» بجريمة متبوعهم، ومهما اعتذروا فهو مسؤول عنها أمام الله ثم التاريخ الإنساني.

وقضية الحرية وضمانها للناس لم يكونا إلا أمراً شخصياً موقوفاً على «المصلحين» وحدهم، إن الحرية حينما تكون لهم مقدسة ومن الفروض الدينية حمايتها وضمانها لهم، أما الحرية لغيرهم فيجب أن تستصفى.

وثبت أن المصلحين البروتستانت كانوا مثل الكنيسة

الكاثوليكية التي حاربوها وانفصلوا عنها وأعلنوا سخطهم الشديد عليها، كانوا مثلها في خنق الحرية، وكل هجيراهم تأليه أنفسهم وذلك بتثبيت قواعد دعوتهم التي اعتبروها المذهب الديني الحق دون غيره من المذاهب الدينية.

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية في عصورها المظلمة رأت أعظم القربات إلى الله وأرقى أنواع الجهاد في إبادة الملحدين فإن البروتستانت كانوا مثلها، إذ كانوا يرون إقصاء مخالفيهم من أراضيهم، فما كان لهم إلا أحد أمرين: الفرار أو البقاء؛ فإذا فروا فقد تركوا أراضيهم وممتلكاتهم لأعدائهم، وإذا بقوا فهم مجبرون على الإيمان بما يأمر به الحاكم[1].

والبروتستانتية ـ على اختلاف مذاهبها ـ لم تكن مناصرة للحرية والعلم ولا ممثلة لحركة التنوير «فإن الإصلاح الديني في أوربا كان يعادي الثقافة بوجه عام كما يعادي الحرية وتقدم العلوم، فإذا خيل للمصلحين أن الحرية والعلم يناقضان الإنجيل فإن موقف لوثر منهما لا يختلف في شيء عن موقف البابا، وكان تأويل البروتستانت للإنجيل لا يقل شؤماً على الساحرات من تأويل الكنيسة الرومانية، ولذا فقد أصيب تقدم العلوم بنكسة طويلة الأمد في ألمانيا البروتستانتية»[1].

وهناك تناقض في موقف البروتستانت وتهافت في مبادئها،

---

(١) كل ما كتبناه في نقد لوثر وكلفن والبروتستانتية عامةً كان جل اعتمادنا فيه على حرية الفكر لبيوري.

فمن ذلك أنهم حاربوا الكنيسة الكاثوليكية باسم الحرية وادعاء الرغبة في ضمانها تحقيقاً لمبدأ الحرية الدينية، وكما ذكرنا استأثر بها المصلحون أنفسهم، أما بالنسبة للناس عامة فهم مسوقون إلى الإيمان بما يرى هؤلاء المصلحون وإلا التنكيل والعذاب.

وإذا كان حركة لوثر وكلفن قائمة على مصادمة العقل والضمير والحرية فلماذا يتبعها الناس؟ إذا كان الأمر وقفاً على «الرواية والنقل» لا الدراية والعقل فماذا تفضل به كنيسة البروتستانت على كنيسة روما الكاثوليكية؟.

أليست كنيسة روما أكثر قداسة وأقدم وأزكى؟ أليست تتلقى الوحي دون كنيسة البروتستانت؟ أليست قائمة على بطرس كبير الحواريين الذي تتبعه السماوات، فما يحله في ا لأرض يكون محلولاً في السماوات، وما يربطه يكون مربوطاً في السماوات؟.

إذن ، ما الذي يغري بإيثار البروتستانت على الكاثوليك إذا كان كل الطرق تؤدي إلى روما؟.

العقل والضمير والحرية مثخونة جراحاً على أيدي كنيسة البروتسانت مثلها مثل كنيسة الكاثوليك؟.

إن الشر في الكنيستين، وقد انكشف الضلال وبرز الشر وبدأ الناس (المثقفون) يدركون خطر الكنيستين على الفكر والضمير والحرية والدين نفسه، وبدأ العامة أنفسهم يتلقون ما أدرك المثقفون من خطرهما، والفضل في ذلك للمطبعة التي أرادت

الكنائس السيطرة عليها واتخاذها أداتها لتعزيز قواتها ونشر مبادئها فطبعت الأناجيل والأسفار المقدسة.

وبذلك أتاحت الفرصة للمتعلمين أن يتناولوا الإنجيل بالدراسة والنقد، بل كانت الجامعات تقوم بدراسته حتى منع في الجامعات الألمانية منعاً قائماً على عدم تشجيع الدراسة لئلا يقف الطلبة وغيرهم على ما في الإنجيل مما لا يتفق مع العقل.

وخدمت المطبعة خصوم الكنيسة وأصحاب العقول والدراسة والبحث أكثر مما خدمتها، فقد قامت حركة نقد واسعة للأسفار المقدسة بعهديها القديم والجديد، وأنكر بعضهم أنها وحي، واعترف أقطاب المفكرين أن فيها كثيراً من العبارات المقحمة والتزييف والباطل والكذب.

وتجرأ الكتاب والباحثون على الإنجيل وكل الأسفار وتناولوها كما يتناولون أي أثر أدبي، ولكن العامة لم يكونوا مقبلين على قراءتها حتى أواخر القرن التاسع عشر، ثم بدأوا في القرن العشرين يدركون نقد النقاد.

وحركة النقد العنيفة بدأت من القرن السادس عشر «وكانت نتيجة دراسة الإنجيل أن بدأ الناس ينقدونه ويكادون يقتنعون بصعوبة تصديق «فكرة الوحي» وصار الإنجيل يعاني تشريحاً لا يرحم، وقد أدى ذلك التشريح ـ على الأقل ـ إلى تغير نظرة المؤمنين الأذكياء إلى طراز ذلك المصدر «المنقول» وكانت هذه العملية : عملية نقد الإنجيل قائمة على قدم وساق في جو

بروتستانتي، وهكذا نرى حركة الإصلاح الديني مسؤولة إلى حد ما عن هذا الوضع الجديد الذي عاناه الإنجيل»[1].

ولم تقف الكنيسة ا لكاثوليكية مكتوفة الأيدي أمام الحركات المناوئة فلملمت أطرافها واستعدت لخوض المعركة التي ذهب ضحيتها كثير من الصالحين والمصلحين والمفكرين، وقاومت كل حركات التجديد ودعوات الحرية، ويبدو كل ذلك في «نظام الجزويت» و «نظام التفتيش» في روما ، و «مجلس تورنت» و «فهرس الكتب المحرمة».

وتناولت المعركة كل لون من ألوان الفكر والثقافة والعلم، بل بلغ من عنف المعركة ورعونتها وجهلها وفقدها الاتزان والتعقل أن يحاكم «سافونارولا» ويعدم سنة ١٤٩٨م وجريمته التي استحق عليها هذا العقاب البشع إلقاؤه خطبة عن الحياة الفاضلة في فلورنسا.

ومن المفارقات العجيبة أن يحاكم سافونارولا الصالح في عهد البابا إسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣م) الذي اشتهر بالتهتك والفجور.

ولكن قيام الفرق المختلفة بالهجوم على كنيسة روما خفف من غلوائها حتى انتهى الأمر بالمسيحية إلى عزلها في الكنائس

---

(١) حرية الفكر لبيوري، وجل ما ذكرناه في هذه الصفحات مقتبس من كتاب بيوري.

والأديرة وفصلها عن الدولة فوقف اضطهادها الأحرار والمفكرين ولكن بعد أن استنزفت الكنيسة دماء الملايين في مختلف حروبها التي شنتها على العالم في صور متغايرة تنتهي كلها إلى الإنجيل.

ومن المؤسف أن دعوة الرحمة التي جاء بها المسيح انقلبت على يد أتباعه قسوة لا حد لها فقتلوا وشردوا ويتموا وهم مبتهجون من أفعالهم.

ولم يكن قيام الكنيسة بحروبها المشنونة على المسلمين وعلى العلم والحرية والدين غيرة على المسيحية ولكن ضماناً لسلطة رجال الدين الألى تدخلوا في كل شيء، وفرضوا على العلماء أن تخضع آراؤهم ومبتكراتهم وقوانينهم العلمية للمنقول المليء بالخرافات والأوهام والأباطيل التي تتبدد بين يدي العلم الصحيح.

فكوبرنيكوس وجاليليو وبرونو في رأي الكنيسة مارقون، لأن ما أثبته العلم من نظرياتهم كان كفراً لدى الكنيسة، بل بلغ الأمر بالكنيسة أن تغضب على إسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م) لأنه اكتشف أسرار الجاذبية وانتهى إلى أن يقرر «أن الأجسام يجذب بعضها بعضاً بنسبة أحجامها طرداً، وبنسبة مربع المسافة عكساً».

وقذفت الكنيسة بإنجيلها وبالإله الذي تؤمن به في خضم المعركة، وجرد رجال الدين ألسنتهم التي امتازت بقدرتها على أن تلفظ ما لا يمكن لغيرها أن تقذفه من الحمم والشتم والسب

والتحقير والاتهام والموت، فزعموا أن نظرية نيوتن إلغاء لعناية الله وإحلال قوة الجاذبية محلها، وإنزال الله عز وجل من عرشه، وسلب رب الخلق عمله المباشر في خلق الكون على نحو ما تقرره الأسفار المقدسة.

وما على الأرض اتهام بالكفر أشد من هذا، ولكن سباق رجال اللاهوت والدين أظهر صنوفاً من التهم لا تخرج عن تلك الاتهامات فادعى «أوين البيوريتاني» أن نيوتن مارق، وزعم أن نظريته نقض لصريح المنقول، وأن ما في الكتب المقدسة من نصوص منقوض بهذه النظرية.

وزعم جون هاتشنسون في كتابه «مبادىء موسى» المطبوع سنة ١٧٢٤م أن نظرية نيوتن إنكار لوجود الله .

وهكذا فعل رجال اللاهوت بكل نظرية من نظريات العلم وجعلوا الإنجيل خصمًا عنيداً للعلماء والمفكرين.

وعلى مرور الأيام هدأت ثائرة الكنائس لأنها انهزمت أمام العلم والسلطة الزمنية، ولم تصبح لها تلك الدولة التي يزعمون أنها دولة الله.

وعلى أي حال كانت البروتستانتية أهون شراً من الكاثوليكية، بل انتهى بالبروتستانتية الأمر إلى الاعتدال فلم تعد تعلن الحروب الدامية على العلم والحرية.

وأخيراً هزمت الكنيسة وألقى رجال اللاهوت المسيحي سلاحهم عندما جردهم العلم من سلطاتهم الزمنية وبددت أضواؤه ما في الكتب المقدسة من أوهام وأباطيل.

حقيقة الصلب كما يراها الإسلام

لقد ذكر في بعض صفحات ترجمة ا لمسيح نظرة الإسلام إليه، وفي بعضها اتفاق مع الأناجيل وفي بعضها مخالفة، فالإسلام يقرر أن المسيح لم يصلب ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾.

ومسألة الصلب أهم مسائل الخلاف بين المسيحية والإسلام، فالمسيحية تدعي أن المصلوب هو المسيح نفسه، وتقيم على الصلب فلسفة طويلة عريضة لأنها تجعله فداء للبشر وتكفيراً عن سيئاتهم، وتجعله أساساً لفكرة التثليث،وقد أفصحنا عن رأينا في ذلك كله فيما مر من هذا البحث.

والإسلام يتفق مع المسيحية أن صلباً وقع، ولكن ليس هو المسيح نفسه، بل المصلوب غيره وشبه للصالبين أنه هو.

ويعترف الإنجيل بقدرة عيسى على الاختفاء والافلات من

خصومه، وعلى الظهور في شكل غير شكله في شؤون أقل من شأن القبض عليه وسوقه للموت صلباً:

ففي يوحنا ٧: ٢٨ ـ ٣٠: «فنادى يسوع وهو يعلم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه. أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني، فطلبوا أن يمسكوه ولم يلق أحد يداً عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد».

وفي يوحنا ٧: ٤٤: «وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه ولكن لم يلق أحد عليه الأيادي».

وفي يوحنا ٨: ٢٠: «هذا الكلام قاله يسوع في الخزانة وهو يعلم في الهيكل ولم يمسكه أحد لأن ساعته لم تكن جاءت بعد».

وفي يوحنا ٨: ٤٨: «قص يوحنا قصة يسوع في الهيكل وغضب اليهود عليه حتى أنهم اتهموه بأن به شيطاناً، وأكد اليهود هذا الاتهام عندما قال لهم يسوع: إن من يحفظ لا يرى الموت أبداً، ويقول يوحنا (٨: ٥٨ ـ ٥٩): «وقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن، فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا».

وفي يوحنا ١٠: ٣٩: «فطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من أيديهم».

وفي يوحنا ١٨ : ٣ ـ ٦ : «أخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح، فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري، قال لهم يسوع: أنا هو وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم، فلما قال لهم: إني أنا هو، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض إلخ».

وكل هذه الشواهد تدل على أن المسيح عليه وعلى الأنبياء صلوات الله وسلامه كان قادراً كل القدرة على النجاة من أعدائه، حتى أنهم أرادوا القبض عليه فأفلت من أيديهم غير مرة، وكلما أرادوا الإمساك به وهو في وسط محافلهم وجموعهم ارتدت أيديهم عنه.

بل بلغ بالمسيح القدرة على الإفلات منهم والاختفاء عنهم وهم يحيطون به أنهم أرادوا أن يرجموه وتناولوا الحجارة بأيديهم ورفعوها ليرجموه فلم يستطيعوا، لأنه اختفى وخرج من الهيكل واجتازهم.

وقد ثبت أن الذين جاءوا للقبض عليه مع يهوذا من الجند والخدم سقطوا على الأرض عندما قال لهم: إنه يسوع.

وإذا أضيفت قدرة يسوع على تغيير هيئته والتنكر في هيئة أخرى بحيث لا يعرفه أقرب الناس إليه كل القرب إلى قدرته على الاختفاء من وسط جموع أعدائه والإفلات منهم وهم محيطون به فإن بين يدينا يقيناً ثابتاً أنه لا قبل لأحد عليه، والمسيح يؤكد ذلك

بقوله (يوحنا ١٦ : ٣٣): «ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم».

واتفقت الأناجيل على إثبات قدرة المسيح على تغيير هيئته، ففي إنجيل متى ١٧ : ١ ـ ٢ : «أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين، وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور».

وفي إنجيل لوقا ٩: ٢٨ ـ ٢٩: «أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب إلى جبل عال يصلي، وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضاً لامعاً».

وفي إنجيل مرقس ٩: ٢ ـ ٣: «أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وحدهم، وتغيرت هيئته قدامهم، وصارت ثيابه بيضاء جداً كالثلج لا يقدر قصار على الأرض أن يبيض مثل ذلك».

وفي لوقا ٢٤ : ١٣ ـ ٣٥: «وإذا اثنان منهم كانا منطلقين في ذلك اليوم إلى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس، وكانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث، وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما، **ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته**.

«فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين، فأجاب أحدهما الذي اسمه كليوباس وقال له: هل أنت متغرب وحدك في أورشليم ولم تعلم الأمور التي حدثت فيها في

هده الأيام؟ فقال لهما: وما هي؟ فقالا: المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه! ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك، بل بعض النساء منا حيرتنا إذ كن باكراً عند القبر، ولما يجدن جسده أتين قائلات: إنهن رأين منظر ملائكة قالوا: إنه حي، ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضاً النساء، وأما هو فلم يروه.

«فقال لهما: أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء، أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده، ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة في جميع الكتب.

«ثم اقتربوا إلى القرية التي كانا منطلقين إليها، وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد فألزماه قائلين: امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار، فدخل ليمكث معهما، فلما اتكأ معهما أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما، **فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما**.

فقال بعضهما لبعض: ألم يكن قلبنا ملتهباً فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب؟ فقاما في تلك الساعة ورجعا إلى أروشليم ووجدا الأحد عشر مجتمعين هم والذين معهم وهم يقولون: إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان، وأما هما فكانا

يخبران بما حدث في الطريق وكيف عرفاه عند كسر الخبز».

وأيد إنجيل مرقس (١٦ : ١٢ ـ ١٣) ما ذكره لوقا فقال: «وبعد ذلك ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما يمشيان منطلقين إلى البرية، وذهب هذان وأخبرا الباقين فلم يصدقوا ولا هذين».

وفي إنجيل يوحنا ٢٠ : ١١ ـ ١٨ : «أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكي، وفيما هي تبكي انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين بثياب بيض جالسين واحداً عند الرأس والآخر عن الرجلين حيث كان جسد يسوع موضوعاً، فقال لها: يامرأة، لماذا تبكين؟ قالت لهما: إنهم أخذوا سيدي، ولست أعلم أين وضعوه! ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع. قال لها يسوع: يامرأة، لماذا تبكين؟ من تطلبين؟ فظنت تلك أنه البستاني فقالت له: يا سيد، إن كنت أنت قد حملته فقل لي: أين وضعته وأنا آخذه. قال لها يسوع: يا مريم. فالتفتت تلك وقالت: ربوني الذي تفسيره يا معلم. قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب، وأنه قال لها هذا».

وفي يوحنا ٢١ : ١ ـ ٩ : «بعد هذا ظهر أيضاً يسوع نفسه للتلاميذ على بحر طبرية، ظهر هكذا، كان سمعان بطرس وتوما الذي يقال له التوأم ونثنائيل الذي من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه مع بعضهم، قال لهم سمعان بطرس: أنا ذاهب لأتصيد، قالوا له: نذهب نحن أيضاً معك، فخرجوا

ودخلوا السفينة للوقت، وفي تلك الليلة لم يمسكوا شيئاً، ولما كان الصبح وقف يسوع على الشاطئ، **ولكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون أنه يسوع**، فقال لهم يسوع: يا غلمان، ألعل عندكم إداماً؟ أجابوه: لا . فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب السفينة الأيمن فتجدوا، فألقوا ولم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك، فقال لهم ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: هو الرب! فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب اتزر بثوبه لأنه كان عرياناً» .

فقدرة المسيح على تغيير هيئته ثابت بنص الأناجيل، حتى أن مريم التي كانت من أحب الناس إلى المسيح لم تستطع أن تعرفه، وظنته البستاني لأنه كان في هيئة مظهره وثيابه يشبهه حتى ظنت أنه هو، ولو كان المسيح قام من القبر بعد صلبه وموته حقاً لما كان في هيئة زرية هي هيئة البستاني.

ولم يعرفه تلامذته الأدنون وبخاصة الحواري الأكبر بطرس حتى خفيت عليه حقيقة يسوع وسماته، وجهل أنه هو لتغير هيئته.

وكل هذا ثابت من الأناجيل، فإذا أضيف إليه أن من جاءوا للقبض عليه سقطوا على الأرض حينما فاجأهم بقوله: أنا يسوع الناصري كان لنا أن نرى مطمئنين أن المسيح استطاع أن يختفي ويفلت من أيدي قاصديه بسوء كما سبق له أن اختفى، وكما سبق لأعدائه عجزهم عن القبض عليه، وتكرر حوادث الإفلات من قبضتهم.

بل سبق للفريسيين ورؤساء الكهنة بعث خدمهم للقبض عليه وإحضاره بين أيديهم فلم يستطيعوا، ويقول يوحنا ٧ : ٤٥ : «فجاء الخدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين فقال هؤلاء لهم : لماذا لم تأتوا به؟».

وفي ليلة القبض عليه الليلاء ذكرت الأناجيل أن المسيح كان يدعو الله ويبتهل إليه مخلصاً حتى كان عرقه يتصبب منه وينزل كقطرات دم، وخر راكعاً إلى ربه يستعينه وحده ويدعوه ويطلب إليه أن يخلصه ويجيز عنه هذه الكأس، وفر من المكان الذي تناول فيه العشاء الأخير مع تلامذته عندما غادرهم يهوذا الإسخريوطي، وخاف أن يعرف هذا الموضع الجديد الذي انتقل إليه فقال لهم (متى ٢٦ : ٤٦) : «قوموا ننطلق ، هوذا الذي يسلمني قد اقترب» وفي مرقس ١٤ : ٤٢ : «قوموا لنذهب، هوذا الذي يسلمني قد اقترب».

ولكن تلامذته تباطأوا واشتغلوا عنه ففاجأه الجند قبل أن ينطلق ويغادر المكان ليذهب بعيداً عنه، ولكن الله الذي ابتهل إليه المسيح وصلى له لم يتخل عنه كالتلامذة فجعل للمسيح معجزة ظاهرة هي رجوع من جاءوا للقبض عليه وسقوطهم على الأرض كما يروي يوحنا في إنجيله.

وهي فرصة أتاحها الله للمسيح ليهرب من وجوه أولئك ، فهم قد سقطوا على الأرض، وتلاميذه جميعاً قد تركوه وهربوا، فقد قال متى ٢٦ : ٥٦ : «حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا».

وإذا استطاع التلاميذ الضعاف الخوارون الخاملون المثقلة أعينهم نوماً أن يهربوا ويختفوا فإن من البديهي أن يستطيع المسيح أن يختفي عن أعينهم ويفلت من أيديهم، وبخاصة بعد أن استنجد بالله القوي القادر الحافظ.

والذين جاءوا للقبض عليه لم يكونوا يعرفون المسيح ومكانه الذي يختفي فيه، ويدل على هذا أن تلميذه الحواري يهوذا الإسخريوطي دلهم على المكان وجعل بينهم وبينه إشارة تدلهم على المسيح نفسه وهي تقبيله إياه ليقبضوا عليه.

وهذا يؤكد أن الفرصة لهرب المسيح كانت مواتية، وأن الظروف كلها معه، فالليل والظلام ووحدته - بعد فرار التلاميذ - وجهلِ من جاءوا للقبض عليه بهيئته وقدرته على الاختفاء وتغيير هيئته أتاحت له الهرب والاختفاء.

ويؤكد لنا هذا ظهوره فيما بعد لتلامذته وأتباعه، ولو صح أنه صلب وقتل حقاً وقام بعد الموت والدفن في اليوم الثالث لظهر لأعدائه المنكرين من اليهود، ولكنه لم يظهر لهؤلاء، لأنه لم يأمنهم على نفسه فاختفى عنهم، وظهر لتلامذته المخلصين وأتباعه وحدهم لأنه آمن.

وظهوره لمريم المجدلية حتى ظنته البستاني يثبت أن المسيح أفلت من يد أعدائه ثم اختفى عنهم وعن الناس جميعاً مما جعل ثيابه زرية أوهمت مريم التي تعرف المسيح حق المعرفة أنه البستاني.

ومن يختفي خوفاً من القتل كالمسيح لا يجد ثياباً نظيفةً، ولا بد أن تتسخ ملابسه حتى تظهر كثياب بستاني، ومن يستبد به الخوف ويضر به القلق والاضطراب حتى يعترف بأن الجسم ضعيف، ويتصبب منه العرق هلعاً يلوذ بالكهوف واللصاب اتقاء العين وحذر الأعداء، والذي تكون حاله كذلك تكون هيئته زرية، وثيابه متسخة، فإذا وهمت مريم أنه البستاني فذلك طبيعي.

ولو كانت قيامة المسيح من القبر بعد الصلب والموت معجزة إلهية له لما كانت هيئته هيئة بستاني، بل لكانت ثيابه نقية نظيفة كما ظهر لبطرس ويعقوب ويوحنا عندما صعد بهم الجبل العالي، ولصارت ثيابه ـ كما ذكر مرقس في حادثة الجبل ـ «بيضاء جداً كالثلج لا يقدر قصار على الأرض أن يبيض مثل ذلك» تمشياً مع المعجزة.

ومن البديهي أن بستانياً في عصر المسيح لن يكون مترفاً أو نظيف الثياب حتى يُظنَّ أنه المسيح.

وإذا كان المسيحيون يرون ظهور المسيح بعد الاختفاء والإفلات إنما هو قيامته من القبر فإن هذا الحادث لن يكون فيه للأتباع الحواريين والمؤمنين المخلصين ما يثبتهم على الإيمان لأنهم ثابتون بدون ظهوره، ولكن غير هؤلاء في حاجة إلى مشاهدة القيامة حتى يهتدي الظالون ويؤمن الكافرون.

والقيامة أعظم حدث في تاريخ البشرية، فإذا كانت حقاً

لظهر المسيح لليهود الجاحدين المعادين له والمنكرين دعوته تحدياً لهم ودفعاً لهم إلى الإيمان.

ولكنه لم يظهر لأعدائه، وعدم ظهوره لهم يثبت أن المسيح لم يصلب ولم يقتل ولم يدفن ولم يقم من القبر، بل استمر في الاختفاء عنهم حتى يأمن شرهم، وغيَّر هيئته وهو بين تلامذته حتى أنهم لم يعرفوه، كما أن مريم ظنته البستاني، وظهوره لمحبيه يثبت أنه لم يصلب وأنه كان حياً مختفياً عن طالبيه من أعدائه حتى إذا أمكنته الفرصة ظهر لهم متنكراً لئلا يكون معهم من لا يؤمن جانبه ويشي به إلى الذين يطلبونه، ولو كان قد صُلب وقام من القبر حقاً لظهر لتلامذته بشكله الحقيقي، لأن الموت المكتوب على ابن الإنسان قد حدث، ولا موت بعده، فهو مستطيع تحدي الموت نفسه.

ووجود حادث «مصلوب» على أنه «يسوع المسيح» ليس دليلاً على أنه هو نفسه، لأن أحداً لا يستطيع أن يقرر ذلك في حالة يسوع التي غيرت الحوادث كل هيئته الخِلْقية والمظهرية، فثيابه ليست ثيابه، لأن من قبضوا عليه عروه ثم ألبسوه ثوباً أحمر لامعاً إمعاناً في الهزء والسخرية، ووضعوا على رأسه إكليلاً من الشوك، والبصق كان كثيراً، واللطم شديداً، والجلد مبرحاً، حتى نزف دمه، ثم ألبسوه ثيابه التي لا شك في اتساخها في مثل ذلك الموقف الذي صورته الأناجيل.

وكل هذا يخفي معالم «المصلوب» وسماته الخاصة إخفاء

تاماً، وما نصت عليه الأناجيل يثبت خفاء سمات المصلوب بحيث تتعذر معرفة حقيقته وشخصيته.

ففي لوقا ٢٢ : ٦٣ ـ ٦٤ : «والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه وغطوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه قائلين: تنبأ من الذي ضربك» وفي ٢٣ : ١ : «فاحتقره هيرودس واستهزأ به وألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس».

وفي متى ٢٧ : ١ ـ ٢ ومرقس ١٥ : ١ : «تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والكتبة والمجمع كله على يسوع ليقتلوه فأوثقوا يسوع ومضوا به وأسلموه إلى بيلاطس».

وفي مرقس ١٥ : ١٥ ـ ٢٠ : «فبيلاطس إذ كان يريد أن يعمل للجمع ما يرضيهم أطلق لهم باراباس وأسلم يسوع بعدما جلده ليصلب، فمضى به العسكر إلى داخل الدار التي هي دار الولاية وجمعوا كل الكتيبة، والبسوه أرجواناً وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه عليه وابتدأوا يسلمون عليه قائلين: السلام يا ملك اليهود، وبعدما استهزءوا به نزعوا عنه الأرجوانة وألبسوه ثيابه ثم خرجوا ليصلبوه».

وفي متى ٢٧ : ٢٧ ـ ٢٩ : «فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة فعروه وألبسوه رداء قرمزياً وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود، وبصقوا عليه

وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه، وبعد ما استهزأوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب».

وفي يوحنا **١٩ : ١ ـ ٣** : «أخذ بيلاطس يسوع وجلده وضفر العسكر إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وألبسوه ثوب أرجوان وكانوا يقولون: السلام يا ملك اليهود، وكانوا يلطمونه».

فما دامت حالة «الرجل» كما صورها وصور ظروفها الإنجيليون فمن المقرر ألا تعرف حقيقته، ومن الثابت خفاء معالمه بحيث لا يستطاع تمييز شخصيته.

وإذا أضيف إلى هذا كله قدرة المسيح على الاختفاء وعلى تغيير هيئته، وعجز من أرادوا القبض عليه غير مرة كان لنا أن نطمئن إلى أن من اختلفت عليه ضروب العذاب والتنكيل ثم سيق إلى الصلب ليس المسيح.

ويزيد في قوة هذا الرأي أن «الرجل» سئل من قبل الجميع: أأنت ابن الله؟ فنفى نفياً شديداً قاطعاً، ويذكر متى **٢٦ : ٦٣ ـ ٦٤** «فأجاب رئيس الكهنة وقال له: أستحلفك بالله الحي أن تقول لنا: هل أنت المسيح ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت!»

يقول لوقا **٢٢ : ٧٠** : «فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟ فقال لهم: أنتم تقولون: إني أنا هو» ومثل المسيح إذا استحلف لا بد أن يجيب بالحق، فلو كان هو المسيح حقاً لما نفى أنه المسيح، وهذا يدل على أن المقبوض عليه لم يكن المسيح نفسه بل كان شبهه،

والدليل أنه نفى أن يكون المسيح، وإذا كان المسيح هو نفسه المقبوض عليه لاعترف وبخاصة بعد استحلافه.

وسأله بيلاطس فلاذ بالصمت المطبق الذي صوره مرقس ١٥ : ٢ ـ ٥ : «فسأله بيلاطس: أنت ملك اليهود؟ فأجاب وقال له: أنت تقول. وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيراً، فسأله بيلاطس أيضاً قائلاً: أما تجيب بشيء؟ انظر، كم يشهدون عليك! فلم يجب يسوع أيضاً بشيء حتى تعجب بيلاطس» وفي رواية متى ٢٧ : ١٣ ـ ١٤ : «فقال له بيلاطس: أما تسمع؟ كم يشهدون عليك! فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جداً».

لماذا لا يجيب يسوع؟ ولماذا لاذ بالصمت العميق؟.

وإذا قلنا: لا يستبعد أن يكون المصلوب «يهوذا» وجدنا ما يشجعنا على هذا القول، فمتى يذكر في إنجيله ٢٧ : ٣ ـ ٥ : «لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً: قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً، فقالوا: ماذا علينا؟ أنت أبصر! فطرح الفضة في الهيكل وانصرف ثم مضى وخنق نفسه، وأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا: لا يحل أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء، لهذا سمي ذلك الحقل حقل الدم إلى هذا اليوم».

فندم يهوذا ثابت ثبوتاً قاطعاً، ولم يثبت أنه خنق نفسه لأن

لوقا يذكر لموت يهوذا أسلوباً آخر غير الانتحار، حيث زعم في سفر الأعمال ١ : ١٥ ـ ٢٠ أن يهوذا «اقتنى حقلاً من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها، وصار ذلك معلوماً عند جميع سكان أورشليم حتى دعي ذلك الحقل في لغتهم حقل دما أي حقل دم».

وما دام التعارض بين الإنجيلين قائماً ولا ترجيح لأحد الزعمين فإن كليهما يجب أن يسقط لأنهما متساويان، وعندئذ نفقد كل أثر ليهوذا وينتفي وجوده من الحياة، فأين ذهب واختفى؟ إن أحداً لن يطلب بدم المسيح ولن يأخذ ثأره تلامذته الخائفون الذين اختفوا، فيوحنا يقول في إنجيله ٢٠ : ١٩ : «وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود».

وما دام الأمر كذلك فلماذا اختفى؟ لا جواب إلا أنه اختفى من المجتمع لأنه كان المصلوب، فهو قد ندم، وهو حواري تنبأ له المسيح بأنه أحد الاثني عشر الذي يكونون معه، وشهد له خير شهادة، والرسل لا يكذبون في تنبؤهم، فيهوذا حواري وأخطأ ثم تاب إلى رشده واستفظع جريمته المفظعة فندم ندماً صادقاً وتاب توبة صادقة ليصح تنبؤ المسيح له مع زملائه الحواريين، فألقى عليه الشبه وقبض عليه وصلب، بل كان يهوذا يشبه المسيح في الخلقة كما نقل ذلك «جورج سايل» الإنجليزي في ترجمته للقرآن الكريم عندما كتب تعليقه على سورة آل عمران، وعزا هذا القول للسيرنثيين والكوبوكراتيين من أقدم فرق النصارى التي أنكرت

الصلب : صلب المسيح، وصرحوا بأن المصلوب هو يهوذا الذي كان يشبه المسيح شبهاً تاماً، وإنجيل برنابا ينص على هذا أيضاً.

هذا رأي مجرد رأي، ويجوز أن يكون المصلوب غيره، يجوز أن يكون «باراباس» الذي أطلقه بيلاطس لليهود وأسلمهم إياه، فلما لم يظفروا بطلبتهم قدموا «باراباس» للصلب على أنه «يسوع» لأن اسم براباس كان يسوع، وأراد اليهود التخلص من اسم يسوع المسيح، وإيهام الناس أن المصلوب هو يسوع المسيح نفسه.

وعلماء المسيحية يعترفون ان اسم باراباس «يسوع» أيضاً في أقدم تراجم المسيح، فحذف النصارى هذا الاسم[1].

ونحن لا نجزم أن يهوذا أو باراباس هو المصلوب، ولكنه مجرد رأي يجوز أن يكون صواباً كما يجوز أن يكون غيره، ولكن الذي نجزم به أن المصلوب غير المسيح، لأن المقبوض الذي كان بين يدي اليهود وبيلاطس نفى أنه المسيح بل استحلفه رئيس الكهنة بالله الحي فأجاب بأنه غير المسيح.

ولا يصح في حق يسوع أن يكذب عندما يستحلفه أحد، ولا يصح أن يتخلى الله عز وجل عن رسوله عندما يدعوه ويصلي له ويبتهل إليه.

---

(١) راجع دائرة المعارف الانجليزية المجلد ١٣ صفحة ٦٥٦ وكتاب «عقيدة الصلب والفداء» الطبعة الثانية سنة ١٣٥٣هـ المطبوع بمطبعة المنار، صفحة ١٤٠.

وتحيط برواية الصلب التي ساقتها الأناجيل شكوك وأوهام وتناقض فيما بينها مما يجعل هذه الرواية ساقطة ومردودة.

وليس في الأرض كتاب يعد «الوثيقة» الصحيحة مثل القرآن الكريم الذي لا مطعن فيه، وقد روى قصة المسيح بما يتفق في بعضها في الرواية المسيحية ويختلف معها في أصول العقيدة والصلب، فالقرآن ينفي وقوع الصلب ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾.

فالصلب وقع، ولكن لم يقع على المسيح نفسه، بل وقع على «مجهول» عُرِّف بأنه يسوع المسيح، وظروف الحادث تساعد على ستر الحقيقة وتجسيد الوهم حتى يخيل إلى الناس أن المصلوب هو المسيح حسب دعوى اليهود.

والإسلام يقرر الواقع عن الرسل، ويصفهم بما هم له أهل، ويذكر عنهم الحق، فإذا رد على الذين يزعمون أن المسيح صلب وقتل زعمهم فإنما هو يقرر ما وقع حقاً، لأن الله وحده هو الذي يقرر ذلك في كتابه العزيز:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ

عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2].

وقد وقفت ملياً عند هذه الآية وبخاصة عند كلمة «يضاهئون» ومعناها يشابهون ويحاكون، وما كان أعلم علماء ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن الكريم يعرف ما كشف عنه العصر الحديث من أسرار العقائد الوثنية وطقوسها ما يثبت أن المسيحية دين اجتمع فيه ما تفرق في ديانات الوثنيين، ولولا هذه الكشوف

(١) النساء ١٥٥ ـ ١٥٨.

(٢) التوبة ٣٠.

التي قام بها مسيحيون ما كنا لنعرف ذلك وإن كنا نؤمن بقول الله عز وجل سواء ظهر ما يؤيده أو تأخر.

فالمسيحيون حاكوا بديانتهم ديانات الوثنيين بنقلها إلى دينهم حتى تراكم المنقول منها وتضخم على مر العصور، وما زالت الإضافات مستمرة حتى اليوم.

وهذه الآية الكريمة من أسرار القرآن الكريم وأدلة النبوة والرسالة، فمحمد النبي الأمي لم يكن عالماً بسير الأولين والآخرين ومؤرخاً وعليماً بديانات الوثنيين والموحدين، بل كان علمه قبل النبوة كعلم غيره، وإن كانت أخلاقه وصفاته خير الخلائق والصفات الكريمة، فإذا لم يكن رسولاً حقاً يوحى إليه من السماء فكيف عرف أن المسيحية مضاهاة ومحاكاة لقول الذين كفروا من الوثنية والشرك والكفر؟.

لو أن عالماً في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر أن المسيحية جامعة الشتات المتفرق في الديانات الوثنية لكان قوله مردوداً في عمومه لأن أحداً لا يصدق ما يدعيه، وما عرف من حقائق العلم وحوادث التاريخ لم يكن ليقبل دعواه.

ولم يؤثر عن كل علماء الدنيا في عصر محمد صلوات الله وسلامه عليه أن ما تفرق في كل ما كتبوا وقالوا يشير إلى المضاهاة، ولكن القرآن وحده هو الذي قال: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾وهذا ينفي أن القرآن كلام محمد ومن اختراعه، لأن

أحداً من البشر مهما بلغ من العلم والعبقرية والذكاء لا يستطيع أن يقف على سمات الديانات الوثنية وهي مجهولة لغير أهليها، وفيها ما هو مجهول إلا عند أصحابها المعدودين القلة، وأسرارها وقف على ندرة من علمائها الأعلام.

فإذا ذكر القرآن ذلك فلأنه فوق قدرة البشر، ولأن منزله علام الغيوب وما كان وما هو كائن.

وبعد نزول القرآن بأكثر من ألف سنة بدأت حقائق تلك الديانات الوثنية تنكشف، وأسرارها تظهر حتى وقف العالم في هذا العصر على عقائد الوثنيين في مختلف العصور فإذا هي تتجمع في المسيحية، ويعترف أئمة الفكر المسيحي وأعظم الفلاسفة المسيحيين بأن المسيحية جمعت عقائد الوثنيين وقدمتها للمسيحيين على أنها الديانة المسيحية.

صدق الله العظيم، وصدق رسوله النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وصلى الله على ابن مريم عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إليها فكان المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين.

المسيح في المسيحية والإسلام

شخصية المسيح من ناحية الرسالة والديانة والدعوة حسب تصوير الأناجيل الرسمية والمصادر المسيحية تختلف عن شخصية المسيح التي يصورها الإسلام اختلافاً كبيراً لا لقاء بينهما، بل هما شخصيتان مختلفتان كل الاختلاف، وكل منهما تنكر الأخرى أشد الإنكار.

فالمسيح الذي يعترف به الإسلام هو عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو إنسان من بني الإنسان اختاره الله ليضطلع بالرسالة، فهو إنسان كسائر الناس إلا أنه يمتاز عليهم أنه جاء من غير أب لحكمة أرادها الله ، وليس بعزيز على الخالق البارئ المصور أن يخلق ما يشاء كيف يشاء، ومن يقدر على الخلق من العدم لا يعجزه أن يخلق من غير أب.

وإذا كنا نؤمن برسالة المسيح وغيره من الرسل فيجب أن يسبقه إيمان بالله وبقدرته على الخلق والإنشاء والإبداع، ويتفق مع هذه المقدرة خلق المسيح من غير أب.

وأرسل المسيح إلى بني إسرائيل:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١).

والديانة التي جاء بها ديانة توحيد، لا شرك ولا تثليث ولا صلب ولا فداء ولا بنوة ولا أبوة، بل إيمان بالله وحده، وإيمان بالبعث والنشور والجنة والنار، وتنزيه لله من الولد:

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾(٢).

و﴿قَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم

(١) آل عمران الآية ٤٩.
(٢) المائدة ٧٢ ـ ٧٣.

بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾[1].

و﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[2].

و﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3].

و﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾

---

(١) التوبة ٣٠ هذه الآية الشريفة إنباء عن الماضي المجهول، وما كان محمد صلى الله عليه وسلم ولا عرب الحجاز يعلمون أن أمماً سبقت أمة المسيح قالوا ما قالوه فيه، وهذا يجعلنا مطمئنين إلى أن القرآن كلام الله علام الغيوب لا كلام عبد الله ورسوله محمد، لأن الكشوف الأثرية والبحوث لم تكشف مضاهاة المسيحية للذين كفروا إلا حديثاً وبعد موت محمد بمئات السنين، فعرف ثالوث الهند وغيرها كالصين والمكسيك ومصر ودياناتها الوثنية التي أخذتها المسيحية، وهذا سر من أسرار القرآن يظهر مع الزمن.

(٢) النساء ١٧١.

(٣) المائدة ٧٥

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾.

فالمسيح وديانته وشريعته حسب تصوير القرآن غير المسيح وديانته وشريعته عند النصارى، وقد ذكرنا نظرة القرآن إلى المسيح وهي النظرة الصحيحة التي يلقيها على الرسل جميعاً، إنهم عباد الله وليسوا ولده، وديانة المسيح ديانة توحيد، وشريعته شريعة السماء.

وأما المسيح في نظر النصارى فابن الله «وليس المسيح ابن الله بالتبني كالأبرار والصديقين إنما هو ابنه بالطبيعة، وهذا ما أولاه هذه الجرأة عليه، فخاطبه خطاب واقف على دخائله واثق بحنانه، فكأنه يفرض إرادته عليه عندما يقول: «يا أبت، إن الذين أعطيتني أريد أن يكونوا معي حيث أنا ليروا مجدي الذي أعطيتني (يوحنا ١٧ : ١ ـ ٣٦) وكان من الطبيعي أن تثير هذه الأقوال حفائظ اليهود عليه «فازدادوا طلباً لقتله ليس لأنه كان ينقض السبب فقط بل لأنه كان يقول إن الله أبوه مساوياً نفسه بالله» (يوحنا ١٠ : ٣)[١].

---

(١) يسوع المسيح تأليف الأب بولس إلياس اليسوعي ص ٧١.

ويستمر الأب بولس إلياس اليسوعي في الكلام فيقول:[1]
«لا حاجة بنا إلى القول أن ولادة الابن من الآب تختلف عما نفهمه عادة بهذه اللفظة، فولادة الابن من الآب معناها أنه صدر عنه كما يصدر النور من الشمس، وهو صدور باطني، ونعني بالصدور الباطني أنه المعلول يبقى داخل علته كالفكرة تبقى داخل العقل المفكر، بخلاف الصدور الخارجي الذي ينفصل فيه المدلول عن علته شأن الولد الذي ينفصل عن والده وعلة كيانه.

لقد صدرت الخلائق عن الله الآب صدوراً خارجياً، لكنه ما يزال يحفظها في الوجود بقوله بحيث إذا ما أهملها عادت إلى العدم الذي أخرجها منه، أما الابن فقد صدر عنه صدوراً داخلياً وهو مستمر فيه ومعه ضمن الذات الإلٓهية»[1]

ويقول: «أما الروح القدس فمنبثق منذ الأزل بفعل داخلي، من الآب والابن معاً كمن مبدإ واحد... ولهذا نؤكد أن الله واحد في ثلاثة أقانيم يملك كل من هؤلاء الأقانيم الطبيعة الإلٓهية بكاملها، ومعلوم أن بين الأقنوم والطبيعة لفرقاً، فالأقنوم أو الشخص مالك والطبيعة مملوك، وهذا الفرق هو ما يتيح لنا القول: إن الطبائع لا تتعدد عندما تتعدد الأقانيم، ولو تعددت الطبائع في الثالوث الأقدس لكان لنا ثلاثة آلهة يستقل أحدها عن الآخر وهذا منتهى السخافة.

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣ - ٧٤.

«أما إذا تساءلنا: لماذا تتعدد الأقانيم في الثالوث الأقدس ولا تتعدد الطبيعة فهذا هو سر الثالوث.

أما إذا سألت كيف السبيل في هذه الحال إلى التمييز بين أقنوم وأقنوم فجوابنا أن النسبة الإضافية بين الأقانيم هي التي تميزهم، إن نسبة الابن أو الأبوية ونسبة الابن إلى الأب أو البنوة ونسبة كليهما إلى الروح القدس ونسبة الروح القدس إلى كليهما هو ما يميز بينهم، وهذه النسبة ـ ولو إضافية ـ هي جوهرية لأن ليس في الله ما هو غير جوهري».

ويقول: «ولد الله الابن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه، ووهبه ذاته، ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته، وبارك الابن الآب هذه المحبة، ووجد فيه هو أيضاً سعادته ومنتهى رغباته، وثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الآب والابن كانت الروح القدس، هو الحب إذن ما يجعل الله ثالوثاً وواحداً معاً.

ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذي حبس الله الآب محبته عليه إلا الابن، ولو كان غير الابن، ولو كان خليقة محدودة، بشراً أو ملاكاً، لكان الله بحاجة إلى من دونه كمالاً، وعد ذلك نقصاً في الله ونزه الله عن النقص، فتحتم إذن على الله، والحالة هذه أن يحبس محبته على ذاته فيجد فيها سعادته»[1].

و «ليس الله إذن كائناً تائهاً في الفضاء، منعزلاً في السماء،

---

(١) راجع المصدر السابق، الصفحات ٧٥ و ٧٦ و ٧٧.

ولكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة تسودها المحبة وتفيض منها على الكون براءته، وهكذا يمكننا أن نقول: إن كنه الله يفرض فيه التثليث».

هذا رأي المسيحيين وعقيدتهم في المسيح، وما أحسب هذه الفلسفة تجعل العقل والوجدان يقبلان ما ذكروه في المسيح والله ، ويجب ألا يذهب الغرور بالإنسان حتى «يحتم» على الله وحتى «يفرض» أحد سلطته عليه جل وعلا.

وهم يقولون: إنهم ينزهون الله عن النقص، ويدعون أن الله في غير حاجة إلى من دونه كمالاً ، ويفهم من هذا أن الحاجة من قبل الله قائمة إلى من يساويه كمالاً ، وبمجرد زعمنا أن الله في غير حاجة إلى من دونه كمالاً نكون قد افترضنا وجوب الحاجة إلى من يساويه كمالاً ، وهذا زعم باطل، لأنه يصف الله بالنقص، فمن كان في حاجة إلى من يساويه فهو ناقص ، لأن الحاجة برهان على نقص صاحبها.

وكيف يكون التساوي بين الآب والابن، بين الله والمسيح؟ الابن بعد الآب، والآب أسبق، وهو واجب الوجود، وينتفي المساواة بين الآب والابن، فلا وجود لمساواة في الكمال، لأن الله (الآب) لم يضرب ولم يصلب ، والذي ضرب وصلب هو المسيح (الابن) والله كامل كمالاً مطلقاً، ولهذا تنزه عن وصول الضرب

والصلب إليه، أما المسيح (الابن) فقد ناله الضرب والصلب فهو غير كامل.

ولكن أي كمال لله إذا كان له ابن؟ وإن التجسد يهبط بألوهية عيسى إلى مراتب البشر حتى ناله من السخط والعذاب واللعن ما لم ينزل بأحد من الخلق، وكيف يكون عيسى إلهاً وابن الله وهو مخلوق وملعون كما يزعمون[1].

غير أن المسيحيين يحسبون أنهم حلوا المشكلة بزعمهم أن المسيح ملتقى اللاهوت والناسوت ، اللاهوت لأنه ابن الله، والناسوت الذي يجري عليه ما يجري على البشر، وهو اعتقاد سُبق المسيحيون إليه من قبل أصحاب الديانات الوثنية التي زعمت التثليث وألوهية بعض البشر أو الخلق، وزعمت التجسيد والتقاء اللاهوت والناسوت، وخضوع الناسوت لما يجري على الخلق من آلام ونقص وانفعال ويختلف عليه ما يختلف على البشر من الأحوال.

يقول بريشارد في كتابه «خرافات المصريين الوثنيين» ص ٢٨٥ : «لا تخلو كافة الأبحاث الدينية المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التوليد الثلاثي : الآب والابن وروح القدس».

ويقول موريس في كتابه «الآثار الهندية القديمة»[2]: «كان

---

(١) سفر الأعمال.

(٢) المجلد السادس صفحة ٣٥.

عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي، وهو أن الإله ذو ثلاثة أقانيم».

وفي كتاب «خرافات التوراة والإنجيل وما يماثلها في الديانات الأخرى» للعلامة دوان ص ٣٦٦: «إذا رجعنا البصر نحو الهند نرى أن أعظم عباداتهم اللاهوتية وأشهرها هو التثليث وهو القول بأن الإله ذو ثلاثة أقانيم»[١].

و «يدعون هذا التعليم بلغتهم «تري مورتي» وهي جملة مركبة من كلمتين سنسكريتيتين، فكلمة «تري» معناها ثلاثة، و «مورتي» معناها: هيئات أو أقانيم، وهي: «برهمه وفشنو وسيفا» ثلاثة أقانيم غير منفكين عن الوحدة، وهي الرب والمخلص وسيفا، ومجموع ثلاثة الأقانيم إله واحد، ويرمزون عن هذه الأقانيم الثلاثة بثلاثة أحرف وهي الألف والواو والميم، ويلفظونها «أوم» ولا ينطقون بها إلا في صلاتهم، ويحترمون رمزها في معابدهم احتراماً عظيماً، ولما أراد برهمه (خالق الوجود الذي لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات) أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار شخصاً ذكراً وهو «برهمه الخالق» ثم زاد في العمل فانقلب إلى الصفة الثانية من الوجود فكان «فشنو» الحافظ، ثم انقلب إلى الصفة الثالثة الظلالية فكان «سيفا» المهلك، ويدعون هذه الصفات الثلاث ـ أيضاً ـ: «تري مورتي» أي الأقانيم الثلاثة»[١].

و «جاء في كتب البرهميين المقدسة المعتبرة لديهم أن هذا

(١) العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ص ١٩ ـ ٢١.

الثالوث المقدس غير منقسم في الجـوهر والفعـل والامتزاج ويوضحونه بقولهم: برهمه الممثل لمبادىء التكوين والخلق ،ولا يزال خلاقاً إلهياً وهو الآب، وفشنو يمثل مبادىء الحماية والحفظ وهو «الابن المنفك» والمنقلب عن الحال اللاهوتية، وسيفا المبديء والمهلك المبيد والمعيد، وهو «روح القدس» ويدعونه «كرشنا» الرب المخلص والروح العظيم حافظ العالم المنبثق (أي المتولد منه) فشنو الإلّه الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس، فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإلّه الواحد... ويقولون عن هذه الأقانيم الثلاثة (الخالق والحافظ والمهلك) أنها تتناوب العمل، الابن يعمل عمل الآب وروح القدس، وروح القدس يعمل عمل الآب والابن، والآب يعمل عمل الابن وروح القدس»[1].

ويقول الفيلسوف البريطاني المشهور برتراند رسل في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية»[2] ٢: ٤٦: «في اللاهوت المسيحي عناصر كثيرة من الديانات التي تتميز بما يكتنفها من أسرار، سواء في ذلك الديانات الأورفية أو الآسيوية، والأسطورة الأساسية في هذه العناصر التي دخلت المسيحية من تلك الديانات هي أسطورة الإلّه الذي يموت لينشر من جديد».

والتثليث عرف في الأمم الوثنية بمعناه المسيحي قبل المسيحية بمئات السنين، ففي كتاب «الديانات القديمة» للعلامة

(١) العقائد الوثنية، صفحة ٢١.
(٢) ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود.

دوان[1]: «كان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مثل الهنود تماماً، وهم أورمزدا ومترا وأهرمان، فأورمزدا الخلاق، ومترا ابن الله المخلص، والوسيط، وأهرمان المهلك، وفي كتاب زرادشت الذي سن الشرائع الفارسية قوله: « الثالوث اللاهوتي مضيء في العالم، ورأس هذا الثالوث: موناد» وكان الأشوريون والفينيقيون يعبدون آلهة مثلثة الأقانيم».

وقال دوان: «وكان الإسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونها «أودين، وتورا، وفري» ويقولون عن هذه الثلاثة الأقانيم: إنها إله واحد، وقد وجد صنم يمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة «أبسالا» في السويد، وكان أهالي السويد والنرويج والدانمرك يفاخر بعضهم بعضاً في بناء الهياكل لهذا الثالوث، وكان جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتماثيل هذا الثالوث، ويصورون «أودين» وبيده حسام، و«تورا» واقفاً عن شماله وعلى رأسه تاج وبيده صولجان، و «فري» واقفاً عن شمال تورا، وتمثاله فيه علامات الذكر والأنثى، ويدعون «أودين » الآب، و «تورا» الابن البكر ابن الآب أودين، و«فري» مانح البركة والنسل والسلام والغنى».

و «كان الدرديون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم وهم : تولاك وفان ومولاك، وسكان سيبريا القدماء كانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم، ويدعون الأقنوم الأول من هذا الثالوث المقدس: خالق

---

(١) العقائد الوثنية، صفحة ٣١.

كل شيء، والأقنوم الثاني : إلّه الجنود، والأقنوم الثالث: روح المحبة السماوية، ثم يقولون : أقانيم ثلاثة إلّه واحد»[1].

وقال العلامة نيت في كتابه «الخرافات كما تفصح عنها الصناعات والآثار القديمة صفحة ١٩٩ : «سكان الجزائر في الأقيانوس عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم، ويقولون: الإلّه الآب، والإلّه الابن، والإلّه روح القدس، ويصورون روح القدس بهيئة طير».

وقال اللورد كنجسبرو في كتابه «آثار المكسيك القديمة » : «إن المكسيكيين يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يسمونه «تزكتليبوكا» ومعه إلّهان آخران أحدهما يقف عن يمينه واسمه إهوتَزْ ليبوشتكي، والآخر عن شماله ويسمى تلالوكا، ولما عين برتولوميو مطراناً سنة ١٤٤٥م أرسل القس فرنسيس هرمنديس إلى المكسيك ليبشر بين الهندوس بالديانة المسيحية، وكان هرمنديس عارفاً بلغتهم، وبعد عام على ذهابه كتب إلى المطران برتولوميو رسالة قال له فيها: «إن الهندوس يؤمنون بإلّه كائن في السماء، وهو مثلث الأقانيم: الإلّه الآب واسمه «بزونا» والإلّه الابن ويدعى «باكاب» مولوداً من عذراء، والإلّه روح القدس ويسمى «إيكيهيا» وهؤلاء الثلاثة إلّه واحد، ويعبدون صنمًا يقال له «تنكا تنكا» يقولون عنه: إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم، وأنه ثلاثة أقانيم إلّه واحد».

وقال العلامة سكوير Squire في كتابه « رمز الأفعى» ص

---

(١) العقائد الوثنية، صفحة ٣١.

١٨١ : «والهندوس الكنديون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم، وصورته صنم ذو ثلاثة رؤوس على جسد واحد، ويقولون: إنه ذو ثلاثة أشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة».

فهذه الديانات الوثنية وبعضها ديانات بدائية كديانة سيبري عرفت التثليث والأقانيم الثلاثة، وذهبت في فلسفتها مذهباً لا يبعد عن مذهب المسيحيين إن لم يكن هذا مثل ذلك في الأساس، عرفت الآب والابن وروح القدس قبل المسيحيين، حتى صورة روح القدس في المسيحية منقولة عن صورته في بعض الديانات الوثنية وهي على هيئة طائر.

وألقاب المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في المسيحية أكثرها معروف في الديانات الوثنية التي مر ذكرها واستشهدنا بأقانيمها وصفاتها، بل أكثرها منقول منها، ومن ألقابه في المسيحية كما روته الأناجيل وغيرها هي: الله، الرب، الأزلي، ابن الله البكر.

في إنجيل يوحنا الإصحاح الأول فقرة ١ : « في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله» وفي الإصحاح الرابع عشر فقرة ٧ ـ ١٢ «لو كنتم عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه، وقال له فيلبس: يا سيد، أرنا الآب وكفانا، قال له يسوع: أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس، الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت: أرنا الآب، ألست تؤمن أني أنا في الآب والآب فيّ، الكلام الذي

أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي، لكن الآب الحالّ فيّ هو يعمل الأعمال، صدقوني أني في الآب والآب فيّ وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها، الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً».

وفي إنجيل لوقا ١٠: ١٧ ـ ١٩: «فرجع السبعون بفرح قائلين: يا رب، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك، فقال لهم: رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء، ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء».

وفي إنجيل متى ١٨: ٢١ ـ ٢٢: «حينئذ تقدم إليه بطرس وقال: يا رب، كم مرة يخطىء إلي أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات».

ولا تتفق صور المسيح التي جاءت في الأناجيل والمصادر المسيحية مع صورته الجميلة في الإسلام، وكيف يمكن تصديق ما يزعمونه من أن المسيح ابن الله حقيقة، وأن الله أبو المسيح حقيقة؟.

إن الخلاف بين المسيحية والإسلام في تصوير المسيح كبير، ولا يمكن أن يزول لأنه خلاف في العقيدة بينهما، والمسلمون مجمعون على أن المسيح عبد الله ورسوله، ولكن المسيحيين لا

يجمعون على ألوهية المسيح، وأعظم مفكريهم ينكرون هذه الألوهية، ويتفق رأيهم مع الإسلام الذي ينظر إلى المسيح النظرة الصادقة المجردة عن الوثنية والشـــرك.



الفهرس

المخلص	٧
الكلمة في مختلف الديانات	٢٣
ولادة المسيح ونشأته وصفاته	٣١
أيام المسيح الأخيرة	٦٧
القبض والمحاكمة	٨٥
الصلب والقيامة	٩٧
الثالوث	١٣٩
أسرار المسيحية المقدسة	١٨٩
تلامذة المسيح	٢٤٥
بولس	٢٥٤
نظائر المسيح في الديانات الوثنية	٢٨٧
الأناجيل المختارة	٣٢٠
الأسفار المقدسة	٤٤٣
الأناجيل والأسفار المرذولة	٤٦٧
الفرق والكنائس	٥٠٠
حقيقة الصلب كما يراها الإسلام	٥٣٩
المسيح في المسيحية والإسلام	٥٥٩

أحمد عبد الغفور عطّار



الجزء الرابع

مكة المكرمة

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

مكة المكرمة


الديانات والعقائد
في مختلف العصور

الإسلام



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞

• • •

اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۞

قرآن كريم



مقدّمة

تناولت في كتابي «الديانات» بحث جميع العقائد في الديانات الحق قبلٍ أن يحرفها معتنقوها وبعد التحريف، وفي الوثنيات المختلفة، وعرضت كل العقائد في الديانات صحيحها وباطلها ومحرفها مثلما تعرض الأزياء، ولكل ذوقه في اختيار ما يشاء، إلا أنني قد أتخذ سبيل النقد إذا رأيته ضرورة لا بد منها.

وأما عقيدة الإسلام فقد عرضتها كما عرضت سواها في أسلوب حاولت فيه أن يكون بعيداً عن أسلوب المتكلمين وبحوثهم المعقدة ليكون مفهوماً في غير عسر، معروضاً في وضوح، ليتفق يسر الأسلوب وسماحة البحث مع يسر الإسلام وسماحته.

وإذ تعرضت لبحث القضاء والقدر فإن منطق المتكلمين والفرق قد اضطرنا إليه، ولكننا تخيرنا السهولة واليسر بقدر ما يحتملها بحث خطير صعب معقد كهذا البحث الذي جدَّ على الإسلام فأحاطه المتكلمون والفلاسفة بالغموض والإبهام والعسر، بعد أن كان واضحاً سهلاً ميسوراً.

وسماحة الإسلام معروفة، فقد كان البدوي الأمي الجاهل يقبل على نبي الإسلام، ويطلب منه أن يعلمه الإسلام، فيعلمه في سويعة، فيمضي مشرق الوجه سعيداً، لأنه أخذه من نبعه الصافي بدون عناء.

أما اليوم فقد صَعُب فهم الإسلام وعسر استيعابه، لأن مرور القرون أخفى لبابه وراء جبال من القشور، فلا يصل إليه الراغب فيه إلا بعد الكد والعسر والإرهاق.

وهذا ما صد الناس عنه أو صَعَّب عليهم فهمه تصعيباً، ولو عرضنا الإسلام كما عرضه نبيه الكريم سمحاً سهلاً صافياً ليسر فهمه، وزاد إقبال الناس عليه.

وليس التصعيب وقفاً على عقيدة الإسلام وحدها، بل شمل شريعته أيضاً، فإذا رغبت دولة من دول الأرض في شريعة الإسلام فماذا نحن فاعلون؟ أنقدم لها المجلدات الضخمة من كتب المذاهب والفرق لترى فيها الشريعة السمحة؟

إذا قدمنا لها هذه المجلدات الضخمة التي تعد بالمئات فلن تفيد منها، لأنها لا تملك الزمن والجهد تنفقهما للوصول إلى ماتريد، فتبقى على ما هي عليه.

وواجبنا تنظيم الأحكام والأقضية وترتيبها وعرضها عرضاً سهلاً، ولو صنعنا ذلك لأقبلت عليه دول كثيرة من غير دول الإسلام التي انصرفت عنه إلى غيره من الشرائع والقوانين.

وعلى سبيل المثال، لو طلبنا إلى بريطانيا أن تزودنا بشريعتها التي تتبع لقدمت لنا كتباً سهلة مبوبة أحسن تبويب، مرتبة أجمل ترتيب، وكذلك القول في الأمم الأخرى المتقدمة، حتى روسيا الشيوعية التي لا يزيد عمرها على نصف قرن وضعت لها شريعة معروضة عرضاً خلاباً فتن الملايين، مع أنها شريعة قائمة على الباطل الصرف والكفر والإلحاد.

وإن أفراداً من المسلمين يصادفون في رحلاتهم عباقرة في القانون، أو يحضرون بعض مؤتمرات الفقه الإنساني التي تضم أكبر علماء الأرض، فيعرض هؤلاء الأفراد المسلمون بعض نظريات الإسلام بقدر ما يتسع له وقت المقابلة الضيق فيعجبون من سبق الإسلام إلى «قوانين» آية في ضمان العدل والحق والخير، إنهم لا يجدونه ميسور العرض سهل التناول، ويطلبون إليهم تزويدهم بفقه الإسلام فلا يجيبونهم، لأنه ليس بين أيديهم فقه إسلامي سهل التناول، ويخشون أن يقدموا لهم ـ مثلاً ـ كتاب «المبسوط» أو «فتح القدير» أو «الأم» أو «كشاف القناع» حتى لا يتبدل إعجابهم إذا رأوا هذه الكتب العظيمة غير مبوبة تبويب شرائعهم وقوانينهم.

ومع هذا القصور يواجهنا قصور آخر، وهو فقدان الكفاءة بين مفكري الإسلام وأعدائه، فخصومه قوى منظمة، والكتاب منهم يوزعون كتبهم بعشرات الآلاف، وهي ملأى بالحملة على الدين القيم.

وليست عقيدة الإسلام وحدها هي التي تتعرض لحملة الخصوم، بل دين الإسلام كله ـ عقيدة وشريعة ولغة وآداباً وعلوماً ـ يتعرض لهجمات شديدة مستمرة غير مقصورة على المستشرقين والغربيين، بل يتعرض لهذه الهجمات نفسها من مسلمين ـ عرب وغير عرب ـ تقليداً للغرب ومحاكاة للمستشرقين أو ذهاباً مع الشيوعيين.

وإذا كان الإسلام ـ من قبل ـ هدفاً لحملات عنيفة من الاستعمار الغربي والصهيونية فإن عدواً آخر قد انضم اليهما، وهو مثلهما بغضاً للإسلام وحقداً عليه، ذلك هو المذهب الشيوعي الهدّام.

وإذا كان الاستعمار والصهيونية الممثلان للغرب المسيحي واليهودي فإن من أبناء الغرب من تصدوا للدفاع عن الدين الإسلامي وإظهار محاسنه ومزاياه، وترجيحه على مسيحيتهم وعلى الكتاب المقدس لديهم بعهديه القديم والجديد، وفيهم أكبر أدبائهم وفلاسفتهم في هذا العصر من أمثال برنارد شو وبرتراند رسل.

أما الشيوعية فليس في معتنقيها إلا كلُّ حقود على الإسلام والمسلمين، وهذا طبيعي، فهي تجحد وجود الله، وتكفر بالرسل، وتنكر الغيب كله، وتحارب الديانات، فلا ينتظر من الشيوعي أن يذكر الإسلام بخير.

وكل هؤلاء أعداء بطبيعتهم للإسلام، ولكن البشع في الأمر أن من أعداء الإسلام حكاماً وكتاباً ينتمون إلى العرق العربي ويتسمون بأسماء إسلامية، وما هم في حقيقتهم بمسلمين.

وهؤلاء أخطر من أولئك على الإسلام، وبخاصة الحكام الذين وصلوا إلى كرسي الحكم بوساطة أعدائه من الغرب والشرق الذين تخيروا صنائعهم ممن لا ضمير لهم ولا دين ولا خلق ولا وطنية، فحاصروا الإسلام أشد الحصار، وخنقوا صوته، وقتلوا دعاته وأقطابه وعلماءه وأئمته ومفكريه وشبابه، وملأوا السجون بعشرات الآلاف نساءً ورجالاً وأطفالاً، وانتهكوا الحرمات، واستصفوا مع أرواحهم كراماتهم وأعراضهم وأموالهم وكل ما يملكون، ولفقوا عليهم التهم الباطلة، فقضوا على كل صوت مسلم حر، فلم يبق في هذه الأقطار إلا الذين يخافون فيسكتون، وإلا الذين ينافقون فيؤيدون الباطل والكفر وشريعة الشر والرذيلة والبغي والفساد والفجور، ومع الأسف نجد بينهم أناساً كنا نعرفهم من أهل العلم والفضل.

ووجد الكتاب الملحدون الحرية والتأييد من أنظمة الحكم الكافر فنفثوا سمومهم، وانتقصوا الإسلام علانية، وكذبوا القرآن جهاراً، وهزأوا برسول الله صلى الله عليه وسلم على رؤوس الأشهاد، حتى بلغ الأمر بجريدة وقحة كافرة شيوعية أن تصور رسول الله في صورة ديك، وكتبت تحته هذه الجملة: أهو دا محمد أفندي اللي اتجوز ٩ (تسعة)!.

وهذه الجريدة تصدر في القاهرة، واسمها «المساء» وتتداولها أيدي الآلاف من مسلمي مصر والأقطار الإسلامية فلم يحركوا ساكناً إلا كلاماً في الصحف لا محصول منه، وهو كلام أفراد، ولم تنهض حكومة إسلامية للاحتجاج بله الغضب والجهاد، كأنما الهزء برسول الله لا يعني غير أولئك الأفراد، أما الحكومات فلا.

وباسم البحث العلمي، والنقد العلمي النزيه، وحرية الفكر تناولوا عقيدة الإسلام وشرعته، فاتهموه شرَّ التهم، وقذفوه بأقذر القذائف، حتى أن امرأة مصرية تعمل في الصحافة هاجمت الإسلام في مجلة «المصور» المصرية لأنه دين يضع القوامة في يد الرجل، كما أن جريدة «الجمهورية» المصرية هاجمت الإسلام لأنه دين يبيح التعدد والطلاق.

وسكت الأفراد والحكومات.

وهؤلاء الذين ينالون من الإسلام ليسوا باحثين ولا يعرفون النقد، فما قيمة صحفية مبتذلة في مجال البحث والعلم؟ إنها امرأة، ونسكت ترفعاً عن وصفها بما نعرف من سلوكها، ومع هذا تجد هذه المرأة في بلدان الإسلام تكريماً وترحيباً كما يجد غيرها من الكتاب الماجنين أعداء الإسلام.

وعلماء الإسلام عاجزون عن دفع الأذى عنه، والأقوياء منهم لا يجدون في الدفاع غير القلم الفرد والجهد الفرد والمال الفرد، وهذا لا يجدي، بل هؤلاء الأقوياء يحاربون ببلدانهم في

كراماتهم وأولادهم وأرزاقهم، وتتقول عليهم الصحافة، وتشوه سمعتهم زوراً وبهتاناً، وتغلق في وجوههم أبواب النشر الذي أصبح في يد المنحرفين.

ليس للإسلام دار نشر واحدة في كل العالم في هذه الأيام تضاهي أصغر دار نشر لأعدائه، بل إن اعداءه في كل مكان حتى في بلاد الإسلام يملكون في حربهم إياه أضخم قوى الفكر والنشر، ويتخذون أبشع تنظيم ابتكره الحقد والغدر والشر والمكر، وجندوا الأموال التي يحصلون عليها من دول وجماعات، كما جندوا الأقلام الشريرة، والحشود الحاشدة، وأخذوا يطعنون في الإسلام ويبعدون الناشئة عنه، ويصورونه لهم في صورة بشعة منفرة، وانتهوا إلى مناهج التعليم فصاغوها صياغة تحقق مأملهم في القضاء على الإسلام في ضمير المسلم.

والصحافة في جميع بلدان العرب والمسلمين صحافة لا دينية، إلا النادر القليل الذي لا أثر له، ويملكها ويديرها ويرأس تحريرها كفرة فجرة، أو منحرفون فسقة.

والصحافة المسلمة المؤمنة فردية لا تجد ما تنفق، بل تجد من يهدمها ويقضي على آثارها الطيبة فتنزوي.

وأقترح على الحكومة المسلمة السعودية أن تنشىء داراً تسمى «دار الدعوة إلى الحق» تجمع فيها أكبر أقطاب الفكر الإسلامي، المطلعين على حركة الفكر والأدب والعلم والفن

والثقافة في العالم، وتفرغهم للكتابة والتأليف، تكتب وتؤلف في مزايا الإسلام وحقيقته وشريعته وآدابه ونظرياته، وفي مراقبة كل حملة عليه لردها.

وهؤلاء الأقطاب يتقنون إلى جانب العربية لغات أخرى، فما يكتبونه يترجمونه إلى اللغات، ويوزع ما يكتبون ويؤلفون في أقطار الأرض بثمن زهيد.

وميزانية هذه الدار لا تكلف غير بضعة ملايين لا يصعب على الدولة تأمينها، ولا ترهق كاهلها وهي السخية في الإنفاق على مرافق وحقول ليست بأعظم من هذا المشروع.

وهناك اقتراح آخر، لا، بل تذكرة، فما أريد اقتراحه قد رآه الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية منذ سنوات، فأنا أذكر وأستحث.

رأى الملك فيصل تأكيداً لدعوته المثمرة الناجحة إلى التضامن الإسلامي تأليف موسوعة ضخمة للفقه الإسلامي، ووكل تحقيق هذا المشروع العظيم الجليل إلى وزير المعارف الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ.

وإن الدعوة إلى التضامن الإسلامي «فكرة» وأداة تطبيقها تأليف هذه الموسوعة التي تعد أجل عمل إسلامي وإنساني في هذا العصر.

وأنا أذكر وأستحث، فقد انتهى الوزير من درس المشروع من جميع نواحيه، ومنهج العمل فيه، ولم يبق إلا التنفيذ.

وإعطاء العالم شريعة الإسلام بأسلوب هذا العصر يعين على صلاحه، فالعالم اليوم في حيرة من أمره، وغرق في الشرور والآثام، واستخف بالقيم الرفيعة، وضل طريقه، ولكن الضمير الإنساني ما يزال حياً، وراغباً في الخير والحق والجمال وإن تراكمت عليه الأحداث الحاطمة وأخفت صوته الكوارث وضجيج الباطل.

وفرصة الإسلام سانحة، وفي وسعه أن يزيل عن الضمير الإنساني ما تراكم عليه، وأن يصقله ويعيده إلى فطرته، وبذلك ينقذ العالم من الحيرة والشكوك والموبقات والشرور إذا أحسنا عرضه، ووفقنا لنشره.

إن تلك الدار التي أقترح تأسيسها ضرورة إسلامية وإنسانية لا بد منها، والإسراع إلى تأسيسها فرض مقدس، فدعوة الإسلام دعوة تبليغ عامة غير مقصورة على أرض ولغة وجنس، بل هي للناس جميعاً، وتأليف موسوعة الفقه الإسلامي ضرورة إسلامية وإنسانية لا بد منها، والإسراع إلى البدء فيها فرض مقدس، لأن شريعة الإسلام عطاء الرحمن لبني الإنسان، وما مثل عطاء الرحمن عطاء.

فلنعرض الإسلام عقيدة وشريعة وآداباً وعلوماً وسلوكاً واجتماعاً واقتصاداً وتجارة وأخلاقاً.

لنعرضه عرضاً صحيحاً سليماً، ولننظر ما يكون، ولن يكون غير الحق والخير والجمال، يقبل عليه الناس من كل لون وقطر ليجدوا في عطاء الرحمن ما يملأ كل فراغ يحس به بنو الإنسان، ويجيب على كل سؤال وأي سؤال يطيف بالأذهان.

وصدق الله العظيم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

فلنتلقَّ عطاء الله بما يجب من الشكر والإجلال، ولنشارك غيرنا فيه، فهو العطاء الوحيد الذي يزداد مع الإنفاق.

وهذا الكتاب هو الجزء الأخير من كتابي «الديانات والعقائد في مختلف العصور» يبحث في عقيدة الإسلام.

وليكون بحث «الإسلام» وافياً وتظهر حقيقته ساطعة كما هي قدمت عليه فصلين هما: «ديانات العرب قبل الإسلام» و «العالم في عصر البعثة المحمدية».

وأرجو الله أن يقبل مني هذا العمل الذي أردت منه وجه الحق، إنه سميع مجيب.

١٣٨٤هـ.
١٩٦٣م.

أحمد عبد الغفور عطّار
مكة المكرمة

ديانات العرب قبل الإسلام

عرف العرب أنواع الديانات البدائية والمتطورة، بعد أن كانوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ابتعدوا عنها تدريجاً إلى ديانات ونحل مختلفة قائمة على الوثنية والشرك، والصلات التجارية بين العرب وغيرهم، ورحلاتهم إلى البلدان، ورحلات غير العرب إلى بلاد العرب أتاحت للديانات المختلفة وما كان لدى العرب من ديانات وعقائد أن تتمازج ويتأثر بعضها ببعض، ويغلب على ديانات العرب الديانة السامية.

ومن الثابت أن العرب عرفوا الطوطمية وعبادة الأسلاف ومظاهر الطبيعة والجن والشياطين والملائكة والأشجار والأرواح والأحجار والأخشاب والثمار.

ولعل تَسَمِّي بعض القبائل بأسماء الحيوان والنبات والجماد، يشير إلى الطوطمية، مثل اسم كلب وأسد وصخر وثعلب وثور وبقر وثمامة، ونسيت الطوطمية وبقيت الأسماء تحملها قبائل تنتسب إليها.

وديانات العرب في الجزيرة العربية شمالها وجنوبها واحدة في الأصول وفي عبادة بعض الأرباب، وإن كان لكل قرية أو قبيلة أو مدينة أربابها.

ولم تقتصر ديانات العرب على الوثنيات العربية وحدها، بل اعتنق العرب ديانات أخرى كالمجوسية واليهودية والمسيحية، كما كان منهم من اعتنق الدهرية.

ونبدأ من جنوب الجزيرة (اليمن) ويترادف الجنوب واليمن في بعض اللهجات العربية حتى اليوم إذا حددوا الجزيرة، ونصعد منه إلى الشمال والحجاز الذي يعد من الجنوب ممتداً إلى الشمال.

ويشتهر في الجنوب ثالوث يتكون من القمر والشمس والزهرة، ورب الأرباب: القمر، وهو أعظم الآلهة طراً عند الجنوبيين، وكان القمر والشمس الإلهين البارزين أكثر من الزهرة لأنهما الولدان والقمر هو الأب، والشمس هي الأم، والزهرة ابنهما، ولا بد أن يبرز الوالدان، ويزداد فيهما بروزاً الأب وهو القمر، ولعل تغليب القمر في التثنية على الشمس يدل على تقديم القمر على الشمس، ولذا يقولون: القمران، ولا يقولون: الشمسان، وما كان هذا التغليب إلا منظوراً فيه إلى سيادة القمر.

وتأليه الكواكب معروف عند غير الجنوبيين، وإن كان في بعض الشعوب تأليه القمر والشمس هو المعروف دون الزهرة لعدم ظهور الزهرة لديهم مثل ظهوره في الجزيرة العربية ولدى أمم الشرق.

ولم يقم الجنوبيون بنحت تماثيل لآلهتهم كما صنع غيرهم من الهند وبابل وإيران، بل وجهوا عبادتهم إلى الكواكب البارزة كما صنع غيرهم ممن عبدوها من الأمم الأخرى، إذ كانْ هذا الثالوث معروفاً عند البابليين والأشوريين منذ زمن بعيد.

ولكن الجنوبيين رمزوا إلى ثالوثهم هذا في بعض نصبهم ونقوشهم فأشاروا إلى القمر بشكل هلال أفقي، وإلى الشمس بدائرة، وإلى الزهرة بنجمة، كما رمزوا إلى القمر بثور ذي قرنين، لأن القرنين يشبهان الهلال، وصار لديهم الثور حيواناً مقدساً.

ولعل من أسباب تأليه هذا الثالوث: أن القمر والشمس أظهر ما يكون من الكواكب، وللقمر مزاياه في الصحراء وبلاد العرب، وللزهرة حسابها أيضاً، فالعوامل الجغرافية والجوية ذات أثر في تأليه الثالوث.

ولما كان القمر رب الأرباب لدى الجنوبيين فإن ديانتهم هي الديانة القمرية التي سادت زمناً طويلاً، ولم يقض على عبادتها إلا الإسلام حين دخل الجنوب، وإن كانت رواسب العقيدة القديمة في تأليه القمرين تظهر بعد الإسلام بزمن طويل، فقد أشار الهمداني في الجزء الثامن المطبوع من كتابه العظيم «الإكليل» إلى أن في قلعة الملك قرب «ريام» حائطاً تظهر عليه صورة الشمس والقمر، وعند خروج الملك تقع عينه على صورة الشمس فينحني بين يديها.

ويقل في الآثار المكشوفة وجود اسم القمر، ولكن يذكر باسم الشهر وغيره من النعوت، وهذا من قبيل الإجلال الذي حمل عباد القمر على ذكره بصفاته أو باسم «الشهر» كما صنع اليهود مع «يهوا» إذ أطلقوه على الله دون أن يذكروه بلفظ الجلالة عندهم.

وفي اللغة العربية يطلق الشهر على الهلال، واستعمله القرآن الكريم بهذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ أي من رأى هلال (قمر) رمضان فليصمه.

وفي استعمال القرآن الكريم «الشهر» آية على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤلف القرآن كما زعم بعض الملاحدة وبعض اليهود وغيرهم، لأنه لم يكن معروفاً لديه أن الجنوبيين يطلقون الشهر على القمر، ولم تكن الكشوف الأثرية قد أظهرت ذلك.

وظهر في الكشوف الأثرية أن القمر يعرف في الجنوب باسم «ود».

ووصفوا القمر بأنه إله حكيم صادق ودود وحامي عباده، ونسجوا حوله ما نسج غيرهم من الأساطير حول زواج القمر بالشمس، وأن الزهرة طفلهما، ووجد من الشعوب الأخرى من ذكروا هذه الأسرة فذهب اللتوانيون هذا المذهب نفسه.

وفي إضفاء الجنوبيين على ثالوثهم الصفات الآدمية اتفاق

عباد الكواكب في كثير من الصفات التي تدرجت بهم جميعاً إلى اتخاذ الأبوة الإلهية حتى يكون التعاطف بين الآلهة والمؤلهين، بل وجد في بعض النقوش ما يثبت أن أحد ملوك «أوسان» إحدى الممالك التي قامت في الجنوب العربي زعم أنه ابن ود أي القمر الذي هو الله في عقيدتهم، وكان هذا الملك في القرن الخامس قبل الميلاد.

وعلاقة الإنسان بالله أو بالآلهة أو بالإله لا تقوم على شعور واحد، بل على مشاعر معدودات، منها شعور الخوف والهيبة، وشعور المودة والتعاطف، وشعور الإجلال والتعظيم إلى غير ذلك، وقد تجتمع هذه المشاعر كلها.

وكانت علاقة الجنوبيين بآلهتهم مزيجاً من هذه المشاعر حتى انتهت إلى أن الإنسان ابن القمر كما انتهت المسيحية إلى بنوة عيسى لله عز وجل.

وعرف الجنوبيون إلهاً كان يسمى لديهم « الرحمن » وهو إله سبئي نسبة إلى « سبأ » وينطق في لهجتهم « رحمن أن » و« أن » هذه هي أداة التعريف، وكذلك « الرحيم » اسم إله في الجنوب، وفي النقوش الصفوية اسم إله أيضاً.

ولا يعرف تاريخ ظهور هذا الإله (الرحمن) في الجنوب، ولكن لا يستبعد أن يكون أثراً من آثار اليهودية والمسيحية، لأن في

النقوش التي عثر عليها في الجنوب نقشاً دوّن عليه ما ترجمته: «الرحمن رب السماوات والأرض»[1].

وإذا كان الاعتقاد برب السماوات والأرض أثراً للديانتين السماويتين فإن الاهتداء إلى كلمة «الرحمن» غير معروف التاريخ، وليس في هاتين الديانتين كلمة «الرحمن» ومما نعتقده أن كلمة «الرحمن» انتقلت إلى الجنوبيين من الديانات السماوية الصحيحة.

والاعتقاد بأن «الرحمن رب السموات والأرض»[1] لم يقض على الوثنية، وإن كان المفهوم من هذه الصيغة أن تحولاً خطيراً أو انبثاقة مشرقة حدثت في تاريخ ديانة الجنوب، لأن الصبغة المحلية لم تعد الطابع العام، بل تدل تلك الصيغة على أن الرحمن ليس إلهاً ذا صبغة محلية ضيقة، بدليل أنه «رب السماوات والأرض».

وعثر في نقش من النقوش على جملة كتبت بأمر أبرهة (سنة ٥٤٢ أو ٥٤٣ م) تخليداً منه لبعض أعماله في اليمن عندما أخمد ثورة يزيد بن كبشة وأصلح السد وعمل أعمالاً أخرى، وترجمتها: «بقوة وعظمة ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس، أنا أبرهة وضعت هذا النقش... إلخ»[1].

واستعمل «الرحمن» في قول أبرهة استعمالاً مسيحياً مكان «الآب» أو «الله الآب» بوصفه الأقنوم الأول.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، والتاريخ العربي القديم ترجمة فؤاد حسنين علي.

ولم يكن الجنوبيون متفردين عن عرب الشمال والحجاز بديانتهم، بل شارك بعضهم بعضاً في العقيدة القمرية وإن اختلفت الطقوس بعض الاختلاف حسب اقتضاء البيئة والمجتمع والثقافة والوعي والتحضر.

فالإله «ود» بهذا الاسم كان معروفاً في الحجاز حتى أزال تماثله وعبادته الإسلام، وكذلك عبادة القمر والشمس.

وأصدق أثر نعتمده هو القرآن للكناية في ديانة العرب بالجزيرة، فقد صور لنا القرآن الديانات والعقائد التي قامت في جزيرة العرب.

فعبادة الشمس والقمر والزهرة كانت معروفة في غير الجنوب، وقد قال تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُـدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُـنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُـدُونَ ﴾ فصلت: ٣٧.

﴿ ٱلشَّـمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ الرحمن: ٥ ـ ٦.

فآية فصلت تشير إلى عبادة الشمس والقمر، لأن السجود خضوع يصدر من الإيمان بالألوهية، وهو كناية عن التعبد عامة لأن أمر الله بالسجود له يشمل الإيمان بالوحدانية والتأليه وإخلاص العبادة كلها له.

ولعل «النجم» في ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ مقصود به «الزهرة» التي كان يتعبد لها فريق من العرب، ويصح أن يكون غيرها.

ويؤيد استمرار عبادة الشمس والقمر إلى عهد الإسلام صيغة الأمر في الآية الكريمة، وهو أمر للقريب الموجود لا للبعيد المفقود، ويؤيد وجودها أسماء بعض القرشيين، فكان فيهم من يسمى «عبد شمس» مثل عبد شمس بن عبد مناف، وهو اسم معروف في الجنوب أيضاً وهو «عبد شمس بن وائل بن قطن بن عريب بن زهير بن الغوث بن أبيه الهميسع بن حمير»، كما كان في أيام البعثة أفراد يحملون هذا الاسم ومنهم: عبد شمس بن الحارث بن عبد المطلب وعبد شمس بن الحارث بن كثير الغامدي وعبد شمس بن عفيف بن زهير الأزدي.

والشمس صنم لبني تميم، وكان له بيت وسدنة.

وفي بعض الروايات أن قبيلة كنانة النازلة بمكة حرسها الله كانت تعبد القمر.

وأشار القرآن إلى أن الشمس كانت معبودة في سبأ إذ يقول:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾. سورة النمل: ٢٠ ـ ٢٤.

وفي ديانة العراق كانت عبادة الشمس والقمر، ويشير إلى ذلك القرآن الكريم أيضاً:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾. سورة الأنعام: ٧٦ - ٧٨.

ولعل الكوكب الذي رآه إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو «الزهرة» لأنها كانت تعبد في «أور».

وعرفت عبادة الكواكب في الجزيرة العربية، وأشار القرآن إلى كوكب الشعرى في قوله تعالى: ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ النجم ٤٩. وكانت خزاعة التي تنزل مكة تعبد الشعرى العبور، لأن هناك شعرى أخرى هي الشعرى الغميصاء، وسن عبادتها أحد رؤسائها وكنيته أبو كبشة.

وعبدت ربيعة كوكب «الجوزاء» وتميم كوكب «الدبران» وطيىء كوكب «الثريا» حسب روايات بعض المؤرخين.

وعرفت عبادة الملائكة والجن، وأشار القرآن إليها في قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

سورة سبأ : ٤٠ ـ ٤١ .

وكانوا يعتقدون أن الملائكة أناث وهم بنات الله من زواج الله بالجن :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

سورة الصافات : ١٤٩ ـ ١٥٩ .

وهذه الآيات تدل على عقيدة العرب فيما يتصل بالملائكة والجن، فهم قد عبدوها لأنها «ذوات مقدسة» فالملائكة أولاد الله من زواجه بالجن كما اعتقدوا، وجاء في «الأصنام» لابن الكلبي: أن بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ونزلت فيهم الآية الكريمة: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾.

بل كان غير بني مليح يتعبدون الجن بصرف بعض العبادات إليهم، يقول الله تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ سورة الجن : ٦.

فالعياذ بغير الله تعالى شرك أكبر، وهو حرام في عقيدة التوحيد الصحيحة، لأن العياذ عبادة لا تجوز إلا لله وحده، وتوجيهها إلى الجن إشراك وكفر.

* * *

وعرفت في الجزيرة العربية وثنيات مختلفة، ويقول المؤرخون: إن عمرو بن لِحَيٍّ هو الذي غير الاتجاه الديني في الحجاز وغيره من التوحيد إلى الشرك، وزعموا أنه كان على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فلما مرض ابن لحي رحل إلى البلقاء مستشفياً، ونقل معه بعض الآلهة المعبودة هناك إلى ديار

العرب ونشر بين القبائل عبادتها، حيث وزع عليها ما اصطحب من آلهة.

وأحسب أن هذا الادعاء ليس صحيحاً كله، إذ لا يستطيع عمرو بن لحي تغيير مجرى العقيدة والحياة الدينية من التوحيد إلى الشرك والوثنية بهذه السهولة.

وعصر سيدنا إبراهيم لم يكن عصر توحيد، لأن الشرك كان أعم وأغلب من التوحيد، والمؤمنون بوحدانية الله من أتباع إبراهيم قلة نادرة كما يفصح التاريخ الصحيح، فإذا كان عصر إبراهيم نفسه زاخراً بالكثرة الوثنية فإن عصر إسماعيل وغيره من الرسل لم يكن خيراً من عصر إبراهيم في كثرة الموحدين إذا استثنينا عصر موسى عليه السلام، أما عصر المسيح فكان أتباعه من الصيادين والضعفاء نْدرة بين الوثنيين واليهود الذين خرجوا عن التوحيد باعترافهم بآلهة الأمم الأخرى، بل إن في توراتهم وأسفارهم المقدسة ما يناقض التوحيد الحق ويهدمه هدماً.

ولا يجوز أن يكون العرب موحدين على ملة إبراهيم فيأتيهم عمرو بي لحي بما ينقلهم فجأة من التوحيد إلى الشرك، ومن الإيمان الديني الصحيح إلى الوثنية الهوجاء.

ولا يستقيم مع الواقع إلا أن يقال: إن الوثنية كانت عامة في الجزيرة العربية ـ ولكن مكة والحجاز كانت متمسكة بدين إبراهيم والوحدانية ـ ولما نقل عمرو بن لحي ما نقل من الأصنام والأوثان

ووزع على القبائل ما وزع كان الجو صالحاً لقبول آلهة جدد، أما بالنسبة إلى مكة فقد فرضت عليها الوثنية بالقوة.

ولا شك عندي أن الوثنية كانت شائعة في الجزيرة العربية قبل عهد عمرو بن لحي، فهم ينسبون إليه أنه أحضر معه أصناماً كثيرة وزعها على القبائل، ومن هذه الأصنام سواع ويغوث ويعوق، مع أن هذه وغيرها من الأصنام التي ينسب إليه اصطحابها من البلقاء بالشام أو من جدة أو منهما معاً كانت عبادتها معروفة قبل عهده الذي لا يزيد بعده عن البعثة بأكثر من ثلاثة قرون.

ففي الأصنام لابن الكلبي ص٥٧ أن عمرو بن لحي دفع إلى رجل من هذيل هو الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر سواعاً، فبين الحارث ومدركة ثلاثة آباء، وفي عمود النسب الشريف: مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، وبين محمد عليه صلوات الله وسلامه إلى مالك عشرة آباء هم: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وفهر هو ابن مالك، وإذا أعطينا كل جيل ثلاثين سنة كان مجموع أعمار عشرة الآباء ثلاثمئة سنة.

فبين البعثة النبوية وعمرو بن لحي لا يزيد على ثلاثة قرون حسب تقديرنا.

ومعنى هذا أن عصر عمرو بن لحي كان عصراً وثنياً، ولم يكن عصر توحيد، لأنه أفسده هو بإحضار آلهة من البلقاء وجدة، أحضر أصناماً ونشرها بين القبائل التي كانت تعتنق الوثنية.

وكانت القبائل كلها غير موحدة، وكانت الأصنام منتشرة في أرجاء الجزيرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، حتى مكة التي قام فيها البيت الحرام لم تسلم من الوثنية التي أدخلها إليها ابن لحي، حتى انتهى الأمر إلى أن يكون بجوف الكعبة أصنام وأوثان، وكانت القبائل التي تسكن مكة وثنية.

وأهم الأصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وهبل والعزى ومناة واللات ومناف ورضا وذو الخلصة وذو الشرى وسعد وأساف ونائلة وغيرها.

وأما ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهي أصنام قديمة كانت في عصر نوح عليه الصلاة والسلام، وقد أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وقد عبدها قوم نوح فنهاهم ولم ينتهوا.

وعرفت هذه الأصنام في الجزيرة العربية وعبدت، فالصنم

«ود» كان معبوداً رئيساً في الجنوب، وعرفت عبادته في الشمال، فكان في دومة الجندل، وله بيت وسدنة، ومن سدنته: عبدُ وُدٍّ بن عوف بن عذرة، ويقال إن عمرو بن لحي أعطاه عوف بن عذرة فأقامه بدومة الجندل ودعا إلى عبادته، ولم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الإسلام وهدمه خالد بن الوليد.

ويقول ابن الكلبي في كتابه[1]: «كان تمثال رجل كان كأعظم ما يكون من الرجال قد ذبر عليه حلتان، متزر بحلة، مرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء، ووفضة فيها نبل».

وروى ياقوت في «معجم البلدان» ٨: ٤٠٧: «وكان لقريش صنم يدعونه وداً».

و«سواع» صنم لهذيل، وضع في رهاط من أرض ينبع، كما جاء في الأصنام لابن الكلبي، وفي رواية «المحبر»[2] ص ٣١٦: «وكان سواع بنعمان، تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة، وعمرو بن قيس بن عيلان، وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل».

وقيل في وصفه: إنه حجر، وقيل: إنه على شكل امرأة.

ويغوث ـ على رواية ابن الكلبي من الأصنام التي فرقها

---

(١) الأصنام تحقيق أحمد زكي باشا ص ٥٦.
(٢) تأليف محمد بن حبيب، طبع حيدر أباد.

عمرو بن لحي، وهو الذي أعطى سواعاً أيضاً، ودفع ابن لحي يغوث لأنعم بن عمرو المرادي فوضعه بأكمة مذحج باليمن، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جَرش.

ويعوق دفعه ابن لحي إلى مالك بن مرثد بن جشم بن حاشد ابن جشم بن خيوان بن نوف بن همدان، وعبدته همدان وخولان.

ونسر، صنم حمير، وقيل: صنم ذي الكلاع، ووجد اسمه على نقش لحياني في شمال الحجاز، ولكن ذكر في النقش «نشر» على شكل طائر، وكان ذلك قبل بضعة قرون من البعثة النبوية الشريفة، وفي المصادر العبرية والسريانية جاء اسم «نشرا» على أنه إلّه عربي، وأشار نولدكه إلى وجود صنم على هيئة نسر منقوش على صخور وبخاصة في شمال الحجاز.

ويظهر من هذا كله أن «نسراً» كان معبوداً مشهوراً في الجزيرة العربية ويقول ابن الكلبي[1]: «وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها عندهم هُبَل، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى، فأدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر، وكان يقال له: هُبَلُ خزيمة».

وجاء في «تاريخ مكة» للأزرقي ١ : ٦٨ : أن عمرو بن لحي

---

(١) الأصنام ٢٧ ـ ٢٨.

قدم «بصنم يقال له: هبل من هيت من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش».

وذكر الأزرقي: «كان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده».

وكان «هبل» إله قريش الأعظم، يدعونه ويستشيرونه ويقدحون في سبعة القداح التي كانت بين يديه، فلا يختنون ولا يتزوجون ولا يقدمون على عمل عظيم إلا بعد أن يقدحوا عنده، وأن عبد المطلب لجأ إلى القداح عندما نذر ذبح ابنه عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية ابن هشام أن عمرو بن لحي جاء بهبل من مآب بالبلقاء.

وفي المحبر ص ٣١٨: «وكان هبل لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة».

وفي غزوة أحد عندما انهزم المسلمون لتركهم وصاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقف رئيس قريش أبو سفيان بن حرب وصاح: أعلُ هُبَل. أعل هبل، فرد عليه رسول الله: الله أعلى وأجل.

ويظهر من هتاف أبي سفيان باسم هبل وتمجيده دون أصنام مكة وآلهة العرب جميعاً أن هبل كان أعظم الأصنام طراً.

وورد اسم «هبل» في الكتابات النبطية بالحجر، كما ورد عند

بني كلب، حتى تسمى باسمه «هبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي» مما يدل على أنه كان معروفاً ومعبوداً.

وسواء صح إحضار ابن لحي هُبَل من هيت أو مآب أم لم يصح، فإن من الموثوق به أن هبل ليس إلهاً اخترعه من عبدوه في الحجاز، بل هو صنم وافد من شمال الجزيرة العربية كما نرجح، لأن نبط «بطرا» عرفوا هبل، واسمه عندهم «هبلو».

وعرب الحجاز لا يحسنون صنع التماثيل، ووصف تمثال هبل يشير إلى أنه من الفنون التي لا يجيدها الحجازيون.

وهو صنم منقول إلى الحجاز وعرف فيه قبل البعثة بزمن طويل، لأنه لا يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه من المكانة حتى يكون موضعه بجوف الكعبة ويصبح الإله الأعظم بالنسبة إلى الآلهة التي كانت تملأ الكعبة داخلها وخارجها.

وهذه المكانة تقتضي زمناً طويلاً، وعلى أي حال كان هبل أكبر الآلهة طراً في مكة وعند قريش.

وهناك ثلاثة أصنام ورد ذكرها في القرآن الكريم إذ يقول:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُـزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾

سـورة النجم: ١٩ ـ ٢٠.

وفي الأصنام «لابن الكلبي» أن مناة أقدم الأصنام، وكان

منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلَّل بقديد بين مكة والمدينة، وكانت العرب تعظمه وتذبح له (أو حوله) وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع، وهذيل وخزاعة يعظمونه ويذبحون له ويهدون له، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج، وكانوا هم ومن يأخذ أخذهم من عرب المدينة وغيرها يحجون ويقفون المواقف كلها، ولا يرون تمام حجهم إلا إذا أتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا لديه.

وهدم مناة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واللات بالطائف، وهي ـ على رأي ابن الكلبي ـ أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وسدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك، وقد بنوا عليها بناء، وكانت قريش وجميع العرب تعظمه، وهدمها بأمر رسول الله المغيرة بن شعبة.

وأما العزى فهي أحدث من اللات ومناة، وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له: «حراض» بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح، وحموا لها شعباً من وادي حراض يقال له: سقام يضاهون به حرم الكعبة، وكان بها منحر ينحرون فيه هداياهم يسمى الغبغب، ويقسمون لحومها على من حضر، وكانت قريش تخصها بالإعظام.

وسدنة العزى بنو شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم، وكان آخر من سدنها منهم دُبَيَّة بن حَرَمِيٍّ السلمي، وانتدب رسول الله خالد بن الوليد فقضى على العزى وقتل سادنها دُبَيَّة.

وسمى العرب بها، ومنهم: زيد مناة بن تميم بن مر بن أُدّ ابن طابخة، وعبد مناة بن أد، وتيم اللات بن ثعلبة بن عكابة، وتيم اللات بن رفيدة بن ثور، وزيد اللات بن وفية بن ثور، وتيم اللات بن النمر بن قاسط، وعبد العزى بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وعبد العزى بن عبد شمس، وعبد العزى بن قصي، وعبد العزى بن عبد المطلب المكنى بأبي لهب.

وعرفت هذه الأصنام الثلاثة (اللات ومناة والعزى) عند غير الحجازيين قبلهم، فكان من آلهة نبط بطرا وتدمر: اللات، وكان هؤلاء النبط يعبدون «منوتو» وهي مناة، وأهل تدمر يعبدون الإله «عزيزو» وهو «العزى» كما وجدت نقوش بابلية وثمودية وصفوية جاء فيها اسم «اللاتو» و«اللت» و«هاللت» أسماء لآلهة عبدت هناك، وبعض النقوش يرجع إلى ما قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام.

وكانت «العزى» معبود أهل الحيرة وأهل مدينة «بيت حور» كما تذكر كتب سريانية مؤلفة في القرن الخامس للميلاد، وتذكر هذه المصادر أن المنذر أحد ملوك الحيرة قرب قرابين آدمية للعزى التي كانت بالحيرة، فقد ذبح المنذر راهبات كن في أسره قرباناً للعزى.

ومَنافُ، يقول فيه ابن الكلبي (الأصنام ٣٢): «وكان لهم أيضاً مناف، فبه تسمى قريش «عبد مناف» ولا أدري أين كان ولا من نصبه».

وفي سيرة ابن هشام: «مناف» اسم صنم أضيف «عبد» إليه، كما يقولون عبد يغوث وعبد العزى وعبد اللات.

ومناف اسم إله كان عرب الشام يعبدونه، وجاء ذكره في بعض المدونات على الحجارة، ونقش شكله على حجر، وهو على هيئة إنسان بدون لحية، وشعر رأسه يتحدر على عارضيه، وعلى عنقه القلادة التي ترى في صور آلهة سوريا غالباً، وعلى صدره طيات ردائه، وورد اسم مناف في كتابة بحوران.

والصنم «رُضَى» لم يذكره ابن الكلبي إلا أن العرب سمت به معبِّدين، فقيل: عبد رضى ـ وهو بضم الراء ـ وأن بعض الرواة ذكروا أن رضى كان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة فهدمه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم المستوغر وهو عمرو ابن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وقال المستوغر في كسره رضى:

ولقد شددتُ على رُضاء شدة فتـركتها تـلا تنازع أسحـما
ودعوت عبد الله في مكروهها ولِمْثلُ عبد الله يغشى المحرما

وجاء اسم رضى ممدوداً كما في هذا الشعر، ولم يذكره ابن الكلبي بين الأصنام، ولكن تعبده بنو تميم وطيىء، وسبقهم إلى عبادته ثمود، وكان اسمه «رضو» وورد اسمه في مدونات ثمودية

وصفوية وتدمرية، مما يشير إلى أنه كان من معبودات عرب الشمال.

و«ذو الخلصة» يصفه ابن الكلبي بأنه كان مروة بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج، وكان بتَبَالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وسدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعْصُر، ويعظمها ويهدي لها بجيلة وخثعم وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن، وانتدب رسول الله لهدمه جرير بن عبد الله البجلي، فسار ببني أحمس من بجيلة إليه فقاتلهم خثعم وباهلة دونه، وقتل جرير مئة رجل من سدنته من باهلة، ومئتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم، وهدم بنيان ذي الخلصة وأضرم فيه النار.

ويروي ابن الكلبي أن العرب جميعاً كانت تعظم ذا الخلصة.

وقيل في بعض الروايات: إن ذا الخلصة بيت في ديار دوس، وفي الحديث الشريف: «لا تذهب الدنيا حتى تصطك أَلَيات نساء دوس على ذي الخلصة يعبدونه كما كانوا يعبدونه».

وهذه الأصنام التي عرفها عرب الحجاز بقسميه الشمالي والجنوبي وغيرهم من أقطار الجزيرة لم تجد من يبحثها بحثاً علمياً صحيحاً، وكل ما كتب فيها لا يعدو الإشارة إلى الاسم واشتقاقه وإلى من سنّ عبادة كل إلّه أو أحضره وإلى موقعه والقبيلة التي تعبده، وإلى بعض ما قيل فيه من الشعر وإلى من هدمه.

وهذه الإشارة لا تكفي في مجال البحث العلمي المتعطش إلى معرفة العقيدة التي يعتقدها عباد مناة ـ مثلاً ـ وجوهرها وطقوسها وأصل مناة إلخ.

ولم يبحث العلماء المسلمون في تاريخ الوثنية العربية وآلهتها وأصولها لأن الإسلام شغلهم، ولأنهم لم يعنوا ببحث الآثار التي تزخر بها الجزيرة، ولأن بحث الديانات لم يكن قد استوفى جوانبه حتى يكون لديهم الاستعداد للبحث العلمي الصحيح.

وليس من مهمة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بحث الديانات بحثاً تاريخياً وعلمياً، ولا تفصيل أخبارها واستقصاء ما يتعلق بها من عقائد وشرائع، وكل ما جاء فيهما ـ وهما أصح المراجع إطلاقاً ـ إشارة إلى الوثنية مع تعداد بعض الآلهة، وترك ما عدا ذلك للباحثين.

وكثرة الآلهة في الشعوب الوثنية موضع للنظر والتأمل، وبخاصة في الجزيرة العربية، وأحسب أن هذه الكثرة صفات آلهة تحولت مع مضي الزمن إلى آلهة، فبعد أن كان الإله موصوفاً بعشرين صفة، صارت كل صفة إلهاً أو إلاهة، ومن هنا كثر تعداد الآلهة التي يمكن رَجْعها إلى أسر معدودات.

وفي بحث الدكتور «ديتلف نلسن» في «الديانة العربية القديمة» المترجم في كتاب بالعربية تحت عنوان «التاريخ العربي القديم» ترجمة الدكتور فؤاد حسنين، ما يعين على معرفة حقائق رائعة عن الآلهة التي عبدت في الجزيرة ورد بعضها إلى إله واحد

تعددت صفاته فتعددت الشخصيات، وذهب ديتلف نلسن إلى أن إلهة الشمس تسمى في الجنوب بأسماء عديدة، وفي شمال بلاد العرب تسمى عادة «هـ الات» أو «الـ الات» أي الآلهة، وأن عرب الصفا بالقرب من دمشق من الجهة الشرقية، ويحترفون الزراعة في المنطقة الواقعة شرق جبل الدروز أو جبل حوران متأثرون بطقوس عبادة الشمس السامية الشمالية نتيجة اتصالهم بالثقافة الآرامية النبطية الحورانية التي امتازت بميزات الحضارة السامية الشمالية، ففي الطقوس الصفوية نجد إلهة الشمس مذكورة تحت اسم «الات» وترسم أحياناً كقطعة من الشمس.

وتصور أيضاً ـ حسب الطريقة السامية الشمالية صورة إنسانية تمثل حسناء عارية، وهي صورة تشبه ـ في الواقع ـ تمثال «عشترت» غير أن وجود الشمس بجوار الرأس يحمل على الجزم بأنها صورة إلاهة الشمس.

والظاهرة الهامة في الديانة العربية هي اعتبار إلاهة الشمس أماً، وهذه فكرة مصدرها أسطورة الأسرة، فإلاهة الشمس العربية القديمة تقابل عند الساميين الشماليين الإلاهة «أم الزهراء» المسماة «عشتر» أو «عشترت» ومن التسمية «أم عشتر» يفهم أنها أم طفل، وهو الطفل الإلهي المسمى «عشتر» وهي إلاهة أم وإلاهة وحيدة هي مثل «عشتر» حامية النساء وإلاهة الولادة والحمل.

وكل هذه الصفات نراها مجتمعة في الاسم «الات» أي

«الإلاهة» فهذا الاسم يصور إلاهة الشمس كشمس وكزوجة للإله الأكبر إله القمر، وكإلاهة أم، ولفظ «الات» أو «إلاهة» يقابل المذكر «الـ» أو «إله» وهو اسم عربي قديم نجده في مختلف بقاع الجزيرة من حضرموت واليمن إلى تدمر ومنطقة دمشق، كذلك في العصور القديمة، فقد ذكره هيرودوت أيضاً.

ويقول ديتلف نيلسن في بحثه ما ننقله من الترجمة العربية بشيء من الإيجاز:

لفظ «عشتر» في جنوب الجزيرة هو الاسم العادي للزهراء والإله الزهراء، ولكننا نلاحظ ندرة هذا اللفظ «عشتر» في الشمال، وصار «الإله الزهراء» يعرف باسم آخر كان شائعاً عند العرب الثموديين والصفويين ألا وهو «رضى» وهو يكتب عادة «رض و» أو «رض ى» أي الراضي.

وورد هذا الاسم في قائمة الأصنام التي ذكرها المسلمون، إلا أنهم لم يعرفوا الإله المسمى به، وإن كان «ليتمان» أثبت ورود هذا الإله في النقوش الصفوية والثمودية، وقال عنه «ديو» بحق: إنه الزهراء، إلا أن ديو رأى أن هذا الإله أنثى وليس مذكراً كما هو معروف، ومصدر هذا الخطأ هو أنه خلط بين «الات» الواردة في النقوش الصفوية والتي هي إلهة الشمس وبين الزهراء، واعتقد أن «الات» هي الزهراء.

أما المواضع التي تثبت أن «رضى» لقب من ألقاب الزهراء،

فقد عثر عليها جميعها في الشمال في الرها التي حكمتها أسرة عربية في أوائل القرن الأول للميلاد، وكانت محل عبادة إلّه الشمس الذي كان يصاحبه إلهان هما «أزيزوس AZIZOS» و«مونيموس MONIMOS» وكان الأول يتقدم الشمس والآخر خلفها، وقد عرف من قديم أنهما نجم الصباح ونجم المساء، فأزيزوس الذي هو الزهراء نجم الصباح، لأنه يسبق شروق الشمس، ومونيموس نجم المساء الذي يغيب بعد غروب الشمس، وأزيزوس يرد كثيراً في النقوش على أنه إلّه.

وهما اسمان عربيان، وعلى هذا فهذان الإلهان عربيان دون شك، فأزيزوس هو «عزيز» ومونيموس هو «منعم» الذي يمثل نجم المساء، وهو «رضى» الذي يحمل المعنى نفسه، وفي أحد النقوش التدمرية نجد هذين الإلهين، إلا أنهما لا يسميهما «عزيز» و«منعم» بل «عزيز» و«رضى».

وهذا النقش ـ مثل كثير من النقوش التدمرية ـ مكتوب بالآرامية، إلا أن أسماء الآلهة ليست بالآرامية، أما الثقافة التدمرية فمتأثرة بالبابلية واليهودية والمسيحية والعربية، ولهذا وجدت آلهة هذه الثقافات المختلفة ترحيباً في تدمر وترحيباً أكثر من الآلهة التدمرية الآرامية.

وهذان الإلهان عربيان باسميهما، لـذلك بقي الاسم «رضى» غريباً في النقوش التدمرية إذ نظر إلى اللفظ كدخيل وأبقوه كما هو، ورسم «عزيز» على حجر تدمري في هيئة طفل.

وشخصية الزهراء التي كانت ذات أثر بالغ في الديانات السامية في العصور المتأخرة ما زالت غامضة في كثير من نواحيها، ونستطيع عن طريق المصادر غير العربية التعرف إلى أنه كان يقدس كطفل، إذ يذكر في الكتابات اللاتينية دائمًا كطفل، وتصور العرب الكوكبين العظيمين (الشمس والقمر) كشخصين والزهراء طفلاً، وهذه ظاهرة نلمسها في كثير من ديانات الشعوب الفطرية.

والاسمان «منعم» و«رضى» اسمان لإِله طفل، ونجم الزهراء عند العرب وغيرهم منظور إليه لطبيعته المزدوجة كنجم للمساء وكنجم للصباح على أنه إلهان، والقربان الذي يقدم إليه يكون من شبهه، ولهذا كانت القرابين التي تقدم إليه أطفالاً يمتازون بالجمال، وقد جاء في نص حراني: إننا نقدم لك قرباناً يشبهك.

ويوصف الزهراء بأنه «ذو الخلصة» ومعناه الطاهر أو النقي، ولم يسهل فهم هذه الصفة إلا إذا علمنا أن الزهراء طفل.

ومن أسماء الأصنام الجاهلية «ذو أخلص» أو «الأخلص» وهذا الاسم نجده كثيراً في المصادر العربية، ويعتقد «توخ» TUCH (سنة ١٨٤٩)، أن اسم هذا الإِله ليس إلا صفة للزهرة، وأثبتت الاكتشافات الأخيرة صحة اعتقاده.

وهذه ظاهرة عجيبة للأسماء العربية المطلقة على الزهرة، سواء أكانت هذه الأسماء منتشرة عند العرب الشماليين أم النازلين

على الحدود حيث تغلب الحضارة السامية الشمالية إذ كان يظهر هذا الإلّه على شكل امرأة، فمثلاً «ملك» هذا الاسم المنتشر كثيراً على أنه من أسماء الزهرة ينقلب عند الساميين الشماليين «ملكة» و«عشتر» يصير عند الكنعانيين «عشترت» و«كوكب» يصير عند الأراميين «كوكبة» و«خلص» عند النبطيين وغيرهم من العرب الشماليين «خلصة».

وهذا الاسم المؤنث من أسماء الآلهة التي ترد كثيراً مع أسماء الأعلام في النقوش السينائية ترد في النقوش الثمودية، وقد يكون في اليونانية أيضاً ذو الخلص (الخلاص) فإذا وجدنا إلهاً عربياً مثل «ذو الخلص» أو «خلص» يصير عند الشماليين «خلصة» فالنتيجة التي لا مفر منها أن هذا الإلّه صار الآلهة، وهذا التغيير لم يحدث إلا مع الزهراء.

والثالوث الإلّهي ينظر إليه كأسرة، القمر والد، والشمس أم، والزهراء ابن، وأسطورة الملوك العربية تحملنا على الاعتقاد بأن «ملك» هو لقب من ألقاب الزهراء، ورمز الملك التاج، والتاج محفور على «ذو الخلصة» كما يروي ابن الكلبي، والشبه قوي بينه وبين الزهراء، وما دام التاج شعار «ذو الخلصة» والتاج رمز الملك، والزهراء موصوف بأنه ملك، وصار إلاهة بعد أن كان إلهاً فمن البديهي أن يكون ذو الخلصة هو الزهراء.

ونخلص من الاستشهاد بما انتهى إليه بحث ديتلف نلسن إلى أن العزى ورضى وذا الخلصة الآلهة العربية هنّ الزهراء ابن

الإ آله القمر والإلاهة الشمس، وعرفت في الشمال والجنوب عند أمم سامية متعددة.

وإساف ونائلة كانا صنمين، ويذكر الأخباريون أن إسافاً فسق بنائلة في جوف الكعبة فمسخا حجرين، ورواية ابن الكلبي[1]: «إساف بن يعلى ونائلة بنت جرهم، وكان يتعشقها في أرض اليمن فأقبلوا حجاجاً فدخلوا الكعبة، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ففجر بها في البيت، فمسخا، فأصبحوا فوجدوهما مسخين، فوضعوهما عند الكعبة ليتعظ الناس بهما، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما، وعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب».

وأسطورة إساف ونائلة تذكر بالأساطير اليونانية وبآلهة اليونان الفسقة، ولم يذكر إساف ونائلة في غير كتب التاريخ والأخبار بعد الإسلام.

وسعد ـ كما يقول ابن الكلبي ـ صنم كان لمالك وملكان ابني كنانة بساحل جدة ونواحيها، وكان صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه، يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه نفرت منه ـ وكان يهراق عليها الدماء ـ فذهبت في كل وجه،

---

(١) الأصنام ٩ و٢٩.

وتفرقت عليه، فتناول حجراً قذفه به وقال: لا بارك الله فيك إلهاً أنفرت علي إبلي، وخرج في طلبها وجمعها وقال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد

ووجد من يسمى «عبد سعد» في قبيلة يشكر مما يدل على أنه عبد فيها، وسعد من أسماء المعاني المتخذة آلهة كما في اليونان وغيرها، فالمقصود بسعد أنه مسعد، مثل «ود» لا يقصد به الود (الحب) بل الواد (المحب).

ويقول ديتلف نلسن: إن في النقش العربي الشمالي لامرىء القيس أن الإلّه «سعد» هو الذي ولد «امرأ القيس» ملك جميع العرب والمتوج على رأسه بتاج.

وعرفت عبادة «سعد» لدى الصفويين لورود اسمه في مدوناتهم.

وما أكثر الأصنام العربية وما قيل فيها من شعر وأساطير، وما ذكرناه منها إن هو إلا إشارة عابرة ونموذج لآلهة عبدت.

ولم يكن الأمر وقفاً على هذه الآلهة، بل كان بعض العرب يصنع إلهه من التمر فإذا جاع أكله، وهذا من الطوطمية عند أصحابها عندما يأكلون لحم إلهم، والذين صنعوا ذلك من العرب هم بنو تميم، ويقول ابن قتيبة في «المعارف» ص٢٦٦:

كان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهاً من حيس فعبدوه دهراً طويلاً، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من تميم:

أكلت ربهّا حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز

وأكل الآلهة من الطوطمية، فقد كان أتباعها يأكلون إلهَهم إما تبركاً، وإما لتحل بهم قوته، وإما لتحلَّ فيهم صفاته، وما فعله بنو حنيفة هو من هذه الطوطمية.

ولم تقتصر ديانات العرب وعقائدها على هذه الأوثان والأصنام، بل هنالك أسماء كثيرة لم نشر إليها اكتفاء بإعطاء صورة تغني عن سرد أسماء الأصنام الأخرى، كما لم تقتصر على ما ذكرنا، لأن العرب عرفوا المجوسية واعتنقوها كما اعتنقوا المسيحية واليهودية.

فقبائل من بني تميم عرفت المجوسية ومنهم: زرارة بن عدس وقد تزوج ابنته ثم ندم، على رواية ابن قتيبة في «المعارف» ومنهم لقيط بن زرارة الذي تزوج ابنته «دختنوس» وسماها هذا الاسم تقليداً، فهو اسم أعجمي، فدختنوس هي ابنة برسي بن بهرام بن بهرام، وهي عمة سابور ذي الأكتاف[1].

وعندما حضرت الوفاة لقيطاً قال:

يا ليت شعري عنك دختنوس

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري.

إذا أتـاهـا الخبـر المـرمـوس
أتحـلق الـقــرون أم تمـيس
لا بــل تميس إنها عـروس

وقبول هؤلاء للمجوسية مرده إلى سهولتها وخلوها من التكاليف، فما وصل إليهم منها لا يكلفهم طقوساً وعبادات لا يطيقونها، وليس فيها نحت تماثيل وبناء المعابد، بل كل ما فيها إشعال النيران، وهو أمر يتفق مع عاداتهم، فهم يشعلون النار لأنفسهم ولضيوفهم، ويتباهون ـ حسب عادة العرب ـ بأن نيرانهم لا تنطفىء، إشارة إلى كرمهم، ووجود الطارقين لديهم الطعام.

والشيء الوحيد الذي كان يضايقهم هو زواج البنات، أما عدا ذلك فما كانوا يحسون فيه نقضاً لما هم فيه، بل ما كان العرب يشعرون بأن المجوسية غير طبيعية، لأنها هي والأديان الأخرى انقلبت وثنية كوثنية العرب، فلا فرق بينها وبين غيرها من الأديان، والوثنية في عمومها ملة واحدة.

والتعاليم الفلسفية في المجوسية لم تكن مما يبعدهم عنها، فمن فهمها فقد أضاف إلى معتقده ما يزيده ثباتاً، ومن لم يفهمها لم يكن في حاجة إليها ما دامت الرسوم ظاهرة، والطقوس مؤداة، ولم يكن في المجوسية شروط قاسية تصد مثل دين الصابئة الذي لم يجد قبولاً من العرب مع أن الصابئة قريبون منهم.

ودين الصابئة دين أسرار، ودين يشترط اشتراطات شديدة الصعوبة في الاستعداد للصلوات من طهارة مبالغ فيها تقتضيهم جهداً، ولدين الصابئة قيود لا يطيقها إلا الندرة القادرة من الناس، ولهذا كان أتباعه ندرة بحيث يعد المتدينون به.

وكل هذا وقف حاجزاً بينه وبين العرب فلم يجد بينهم أنصاراً، ولم يلق منهم قبولاً، فلم يدخلوا فيه كما دخلوا في المجوسية وفي غيرها، ولم يذكر أن قبيلة دانت به كما دانت تميم بالمجوسية، ودانت قبائل بديانات أخرى، وإن كان هذا لا ينفي تديّن أفراد من العرب بالصابئة.

أما اليهودية فقد عرفتها الجزيرة العربية قبل المسيحية بسبب سبقها إياها في الوجود، فما فلسطين التي قامت عليها مملكة اليهود إلا امتداد طبيعي لأرض الحجاز، وإذا كانت أرض سيناء من مملكة اليهود، وأسطول سليمان يتخذ أيلة (التي هي العقبة) مرسى فإن ذلك يسمح بأن ينتقل بعض اليهود إلى شمال الحجاز.

وفي سفر الأخبار الأول ٤ : ٤١ : «وجاء هؤلاء المكتوبة أسماؤهم في أيام حزقيا ملك يهوذا وضربوا خيمهم والمعونيين الذين وجدوا هناك وحرموهم إلى هذا اليوم وسكنوا مكانهم لأن هناك مرعى لماشيتهم».

وفي سفر الأخبار الثاني بالإصحاح السادس والعشرين أن عزّيا حارب الفلسطينيين، وفي الفقرة السابقة ما نصه: «وساعده

الله على الفلسطينيين وعلى العرب الساكنين في جور بعل والمعونيين».

وأرض المعونيين هي «معان» ووقع الحادث الأول نحو سنة ٧١٥ قبل الميلاد، وأما الثاني ففي نحو سنة ٨١٠ قبل الميلاد.

فشمال الحجاز كان معروفاً لليهود، وكانوا يجدون فيه الأمن والحرية اللذين سلبا منهم على أيدي الملوك الذين غزوهم وشتتوا شملهم، فلاذوا بشمال الحجاز وأرض العرب طلباً للنجاة من أعدائهم الباطشين.

أما بعد الميلاد فقد أضيف إلى اضطهاد اليهود عامل جديد هو الدين المسيحي الذي دخلت فيه روما بعد زمن المسيح بمدة طويلة كما دخلت فيه بلدان أخرى، فزاد في ترك اليهود ديارهم إلى جزيرة العرب حيث يجدون الحرية والأمن.

بل في عهد المسيح عليه الصلاة والسلام أقبل بولس على جزيرة العرب ولبث بها زمناً ثم عاد إلى موطنه، وبولس كان يهودياً متعصباً ليهوديته، ودفعه تعصبه إلى عداء من تبعوا المسيح وإعلان حرب عنيفة عليهم، ثم دخل المسيحية وصار رسولها الأكبر إلى العالم، وغير نهج المسيحية ووجهها وجهة لم يقصد إليها المسيح.

وأثبت ما يكون تاريخياً وجود اليهود في منطقة يثرب (المدينة المنورة) ابتداء من تيماء وخيبر وفدك ووادي القرى حتى يثرب، وكانت هذه المناطق التي نزلها اليهود أصبحت بحكم السكن

مناطق يهودية، ولكنها في الأصل وبحكم السيادة لم تكن كذلك، بل بقيت مناطق عربية خاضعة للسيادة العربية، وكانوا يعيشون في حماية العرب، كل جماعة يهودية تحالف قبيلة عربية وتدفع لها مالاً تلقاء حمايتها إياها وضمان الأمن لها.

ولم يكن لهؤلاء اليهود أي أثر ثقافي أو أدبي أو علمي أو حضاري في الحياة العقلية العربية، لأنهم انطووا على أنفسهم واعتزلوا غيرهم فيما اتخذوا من آطام وحصون وقرى، واحتفظوا بطابعهم وأسرار دينهم وتشريعهم وعاداتهم.

وخيراً صنعوا، ولهذا بقي العنصر العربي نظيفاً وسليمًا من آفاتهم الذاتية وعاهاتهم الخلقية، وإن لم يسلموا من أذى اليهود ومكرهم وإيغار صدور العرب بعضهم على بعض، وأخذ أموالهم بالباطل عن طريق الربا.

وأشهر القبائل اليهودية التي نزحت من فلسطين إلى الحجاز بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو بهدل وبنو النضير وبنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو زيد وغيرهم[١].

وعندما نزحت هذه القبائل الإسرائيلية من فلسطين نزلوا في يثرب، وكان معهم من قبائل العرب بطون من بني الحرمان حي من اليمن، وبني مرثد وبني نيف حيين من قبيلة بلي وبني معاوية حي من سليم، وبني الشظية حي من غسان[١].

---

(١) الأغاني.

ولا يعرف تاريخ نزوح اليهود إلى يثرب والمناطق التي نزلوا بها، ولكن «الأغاني» يذكر أن نزوحهم كان بسبب ظهور الروم على بني إسرائيل.

ونزح الأوس والخزرج من اليمن إلى يثرب ونزلوا بها، وهم إخوة يقال لهم: بنو قيلة، إلا أن العداء استحكم بينهم، ولا نشك أن لليهود يداً في المكر بالأوس والخزرج حتى يفرقوا بعضهم عن بعض فلا يكونوا يداً واحدة على اليهود فيكسبوا من هذا التفريق الأمن والراحة.

وحرب بعاث شاهد، فقد نشبت بين الأوس والخزرج حرب عرفت بيوم بعاث، وكان بنوالنضير وبنو قريظة مع الأوس على الخزرج، وانتصر الأوس وحلفاؤهم اليهود نصراً مبيناً وغنموا كثيراً.

ولم تكن العلاقات بين اليهود والعرب من الحسن إلا ما تمليه الضرورات على اليهود، وفي أحسن الصلات لم يكن صفاء القلوب موجوداً، بل اليهود لا يخلصون لأي أحد من غير بني جنسهم ودينهم، ويحقدون على من عداهم حقداً لا يزول، لأنه صار غريزة أصيلة.

وكان يثور جدل بين اليهود والعرب، وكان لليهود علماؤهم وأحبارهم، وهؤلاء ذوو ثقافة عالية، فكانوا ـ إذا احتدم الجدل أو الخصام بينهم وبين العرب ـ يتوعدون العرب بأن

نبياً عربياً أظل زمانه وقرب أوانه، وسيسرعون إلى تأييده واتباعه فيكونون معه يداً واحدة عليهم، ولا قبل لهم بحربهم.

وكان الأوس والخزرج يسمعون ذلك، فلما حضر أفراد منهم إلى مكة وسمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم قال بعضهم لبعض: هذا هو الذي تتوعدنا يهود به، فلا يسبقنكم إليه، وأسلموا وتبعوا الرسول الكريم، ثم عادوا ونشروا الإسلام في المدينة وأخبروا اليهود.

وإذا كان في يثرب قبائل يهودية كونت مجتمعات إسرائيلية مغلقة فإن من البديهي أن يكون بمكة أفراد من بني إسرائيل كما نفهم من القرآن الكريم.

قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ سورة الأعراف ١٥٧.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سورة الإسراء١٠١.

والسورتان مكيتان، وفي أسباب النزول للواحدي: قوله تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ الآية، قال ابن مسعود: نزلت في بلعم بن باعورا رجل من بني إسرائيل، وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: «هو بلعم بن باعورا».

وهذه الآية الكريمة (واتل عليهم) الآية، جاءت بعد قصة موسى وبني إسرائيل وفرعون بالتفصيل.

وفي أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية قول لابن عباس وهو: أن قريشاً قالت لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت هذه الآية، وقال المفسرون: إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله: سلوا محمداً عن الروح وعن فتية فقدوا في أول الزمان وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها، فإن أجاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك فليس نبياً، وإن أجاب في بعض ذلك وأمسك عن بعضه فهو نبي، فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية: ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف ﴾ إلى آخر القصة، ونزل في الروح قوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ الآية.

وكل هذا يدل على وجود أفراد من اليهود بمكة، وإن لم يكن لهم شأن مثل شأن اليهود بالمدينة، وكان فيهم علماء، فلقنوا قريشاً أسئلة غاية في الصعوبة لا تعرفها قريش.

وسواء صحت روايات أسباب النزول أم لم تصح فإن الواقع التاريخي لا يأبى وجود يهود بمكة، لأن تجارة قريش كانت تخرج منها إلى الشام مارة بالأماكن التي يستوطنها اليهود من المدينة وشمالها، وكانت صلة المدينة بمكة قائمة ثابتة، فلا غرابة أن ينزح إلى مكة أفراد من اليهود ليسر الحياة بمكة، ولوجود بعض الجاليات الأجنبية أو أفراد من فارس وبيزنطة وسوريا ومصر والحبشة.

ووجود أفراد من هذه البلدان المختلفة بمكة ثابت تاريخياً ثبوتاً صحيحاً، وكان من هؤلاء أغنياء مثل سلمان الفارسي ومثقفون مثل صهيب الرومي.

وإذا افترضنا خلو مكة من اليهود فلا يتغير من الأمر شيء، فقد كان منهم في الحجاز قبائل معدودة، لهم مساكنهم وآطامهم وحصونهم، وكانت لهم وقائع مشهورة مع الرسول والمسلمين، منها وقائع جدلية ووقائع حربية.

وقال بعض الباحثين: إن بني النضير وبني قينقاع عرب تهودوا، واستدلوا على ذلك بأن الأسماء عربية، وهو دليل غير صحيح، كما أن بعض الباحثين مثل جريتز ـ حسب رواية الدكتور إسرائيل ولفنسون مؤلف كتاب «تاريخ اليهود في جزيرة العرب» ـ يذكر إنكار يهود دمشق وحلب أن يكون يهود الجزيرة في يثرب واليمن يهوداً، ويقول: «إنهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية، ويقولون: إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقاً، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية

التوحيدية، ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً، وإن العالم «شيركان» يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة، فقد كانت يهودية في أساسها، ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي»[1].

وعدم المحافظة على ديانة التوحيد الإلهية، وعدم خضوعهم لشريعة التلمود خضوعاً تاماً لا ينفي أصالتهم اليهودية، فالذين ينكرون عليهم لم يكونوا خيراً منهم في المحافظة والخضوع، فقد كانوا يعترفون بوجود آلهة الوثنيين، وفي تلمودهم نفسه كفر بشع، وفي توراتهم أيضاً.

وفي كتابنا «الإسلام خاتم الأديان»[1] ص ٣١ وما بعدها:

«أما اليهودية فكانت ديناً مغلقاً وقفاً على اليهود وحدهم، ومع أن اليهود انتشروا في الأرض، وفي تاريخهم نفي آلاف منهم إلى بابل، وتشتت عشرات الألوف ومئاتها في أقطار الأرض فإن اليهودية بقيت مغلقة في وجوه غير اليهود، ولم يقوموا قط ـ بدعوة الأمم الأخرى، ولم يرضوا بأفراد منها يشاركونهم دينهم وربهم.

وفكرة «الله» في اليهودية كما تصورها كتبهم فكرة وثنية لا تتفق مع كمال الله المطلق وصفاته المثلى وأسمائه الحسنى، فيهوه

---

(١) العبقريات الإسلامية للعقاد، كتاب «مطلع النور» ص ٥٤.

(١) طبع بيروت سنة ١٣٨٦ (١٩٦٦).

رب اليهود وحدهم، وإلههم الخاص بهم، ولا يقبلون أن يدعو «يهوه» ربهم أحد من غيرهم.

«واليهود يؤمنون بوجود الآلهة والأرباب التي يعبدها سواهم، ولا يقتضيهم هذا الإيمان أن يعبدوها، وصارت الديانة اليهودية وغيرها من الديانات لدى اليهود مثل «الجنسية» فكما أن اليهود ينتمون إلى «يهوه» ينتمي غيرهم إلى عشتروت وتموز ومردوخ وآنو ورع وأوزوريس وآلاف الآلهة الأخرى.

«إن اليهودية «جنسية» مثل جنسيات الدول، فكما لا يجوز أن ينتمي متجنس بجنسية إلى غيرها كذلك اليهودية.

«وفي صفات «يهوه» رب اليهود ما ينقض التنزيه الحق والكمال المطلق، فقد تصور اليهود «يهوه» شديد الظمأ إلى الدماء، عظيم النشوة والبهجة من رائحة الشواء، وتخيلوه رباً وثنياً على صورة إنسان يأكل ويشرب، وتختلف عليه نقائص البشر وصفاتهم من تعب وراحة واستذكار للدروس ولهو ولعب.

«وفكرة البعث والنشور غير مذكورة في توراتهم، والإشارة إليها غامضة في سفر أشعيا، وإن كان سفر دانيال أبين في الإشارة لأنه ذكر أن الراقدين (الموتى) يستيقظون».

و«وفي التلمود وصفوا الله بما لا يليق بجلاله وقدرته، ووحدانيته وعظمته وبكل صفاته، بل ذهبوا إلى خضوع الله لأحبارهم».

و«وتأثرت اليهودية بما جاورها من الديانات الوثنية، فأخذت من بابل وتأثرت بمصر في عبادة العجل، ونقلت عن الكنعانيين مراسيم وطقوساً، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن «يهوه» إلّه اليهود إلّه كنعاني أخذه العبرانيون وزادوا في صفاته ما يتفق مع حياتهم، ومن بين الآثار الدالة على ذلك، الآثار التي وجدت في كنعان سنة **١٩٣١** م وهي قطع من الخزف يرجع عهدها إلى عصر البرنز الذي يسبق الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وفيها كلمة «ياه» أو «ياهو» وهو اسم إلّه كنعاني .

«ونقل اليهود قصة الخليقة عن وثنيات بابل، وأخذوا فكرة «المخلص» المنتظر من الديانة الفارسية ومن غيرها.

«وفسدت الألوهية لدى اليهودية كما فسدت فكرتهم عن الله عندما وصفوه بصفات الآدميين، فذكروا في «سفر التكوين» من توراتهم : أن الله خلق الكون في ستة أيام، واستراح من التعب في اليوم السابع، ونسبوا إلى الله تبارك وتعالى الكذب والتضليل، إذ يزعم «سفر التكوين» أن الله منع آدم عن الأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» بحجة الخلود في حين أن الله أخفى السبب الحقيقي وهو أن يكون آدم مثل الله إذا أكل من هذه الشجرة، فتقول توراتهم : «وقال الرب الإلّه هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر»[١].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح الثالث.

«ولكن آدم أكل من الشجرة ولم يصر مثل الله، وفي هذا تكذيب لله، كما أن فيه اعترافاً من «الرب الإله» بأن له شركاء يدل عليه قوله في زعمهم: «كواحد منا».

«ويذكر ما يسمى التوراة لديهم أن الرب الإله كان ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته، بل تجسد هذه التوراة «الله» تجسيداً، وتذكر في قصة لوط، أن الله وملكين جاءوا إلى إبراهيم، وهذه عبارة سفر التكوين (الإصحاح ١١): «وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه... إلخ» وأنهم أكلوا مما قدمه لهم إبراهيم.

«ويكفي أن ننقل بعض ما جاء في «التلمود» للدلالة على بشاعة الوثنية التي دخلت اليهودية فأفسدتها إفساداً:

« في سفر روبين **٢١** حرف ب من التلمود الأصيل: «احذر يا بني، يقول الحاخام رابا: واتبع التلمود لا التوراة، فالتوراة تتضمن أحكاماً لا تستوجب مخالفتها الموت، وأما من يخالف حرفاً جاء في التلمود فالقتل عقابه، ومن يهزأ بكلمة من كلمات التلمود يغمس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت».

«وفي سفر مجيلا **٢١** من التلمود: «أن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه».

«وفي سفر بيراشون ٧ حرف أ: «دخلت قدس الأقداس فرأيت الله جالساً على كرسي مرتفع، فقال لي: باركني يا بني، وإذ باركته شكرني وسلم وانصرف».

«وفي سفر باباتيرا ٧٥ حرف أ: «الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة، ويدعون يهوه أي الله».

«وفي سفر مويدقنان ١ حرف أ: «للحاخامين السيادة على الله، وعليه إجراء ما يرغبون فيه».

«وفي سفر بابامزيا ٨٦ حرف أ: «إذا احتدم الخلاف بين الحاخامين والله، فالحق مع الحاخامين»[١].

«وهذه الأسفار كلها من التلمود تبرهن على عقيدة اليهود القائمة على التعدد والكفر وتحقير الله وإنزاله دون منزلة الحاخامين، كما أن ثوراتهم نفسها مليئة بما ينقض التوحيد وكمال الله المطلق، وتنسب إليه الظلم، وكل ذلك غاية في البشاعة الوثنية وفساد العقيدة وزوال عقيدة التوحيد من اليهودية ما يثبت أن الديانة اليهودية لم تعد ديانة توحيد كما كانت، وكتابهم المقدس الذي فيه الهدى والنور قد حرّف بحيث اختلط الأصل نفسه حتى كان التمييز بين الصحيح والزائف متعذراً».

هذه هي يهودية يهود دمشق وحلب الذين أنكروا على إخوانهم يهود الجزيرة العربية يهوديتهم، بحجة عدم المحافظة على ديانة التوحيد الإلّهية وعدم خضوعهم التام لشريعة التلمود».

---

(١) النصوص المنقولة هنا من التلمود هي ما استشهد به الكاتب المسيحي نقولا حداد، في مقال له بعنوان «التلمود خدع اليهود» منشور بمجلة «الرسالة» العدد ٧٧٠ الصادر في ٢٥/٥/١٣٦٧هـ (٥/٤/١٩٤٨).

وما أنكروه هو ما أخذوا أنفسهم به، فهو حجة مردودة عليهم لأنهم هم ويهود الجزيرة سواء، بل ليهود الجزيرة دعاواهم أيضاً.

يقول العقاد في كتابه «العبقريات الإسلامية» ص ٥٤:

«ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأي في أنفسهم غير رأي إخوانهم الدمشقيين والحلبيين، فقد روى أوليري O'LEARY في كتابه عن بلاد العرب قبل محمد «أن بني النضير وبني قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنين، ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون، وأما ياقوت فإنه يقول: إن يهود يثرب عرب تهودوا، وقد يخطر لنا أن بني قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على يد هادريان سنة مئة واثنتين وثلاثين».

ويعلق العقاد ـ رحمه الله ـ على هذا بقوله:

«على أن الصبغة اليهودية التي بقيت مع يهود يثرب في معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين، وما أشبه قينقاع أن ترجع في أصلها إلى «كوهنكا»!! وما أبعد اسم «النضير» من أسماء العرب الأقدمين!! لقد قيل: إنهم بطن من بطون جذام أبناء عم اللخميين، فهل كان

في جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب؟ وهل كان في وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التي ظلت إلى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب «بيت المدارس» ويسميها اليهود «بيت هام مدراس».

«وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر في مقدمات الدعوة الدينية أو مقدمات النهضة القومية الإنسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروساً في التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية، وتهيىء ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب إلى التقدم والهداية، هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها في معاملاتهم، وعلاقة بعضهم ببعض في السلم والحرب والمحالفة والمخالفة.

«ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك، وصنعوا في أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك، لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب إلا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم في الطريق، فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق في العادات والأخلاق إلا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة من جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام، والتعلق في حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق.

«وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة في كل علاقة بينهم وبين العرب، أو بينهم وبين أنفسهم في جوار المدينة، فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الإيقاع بينها، وإثارة الأحقاد

في المتخاصمين منهم كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان، ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا في مكان واحد، فدبت الخصومة بين بني قينقاع من جانب، وبني النضير وبني قريظة من الجانب الآخر، ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شيء غير حسدهم لبني قينقاع، وعملهم على الوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج وهي كثيرة في جوار المدينة، وقد كانوا ينفسون على بني قينقاع أنهم كانوا يقيمون في قصورهم داخل المدينة، ولا مأوى لبني قريظة غير ضاحية المشرق، ولا لبني النضير غير ضاحية المغرب».

وكان وجود اليهود بالجزيرة العربية مثار فتن، ولم يسلم في جوارهم جار، بل كانوا دائمًا مصدر الظلم والفساد، يكذبون في القول، ويخلفون الوعد، وينكثون العهد، لا يرعون إلًّا ولا ذمة، وبقدر ما أحسن إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم أساءوا إليه أضعاف إحسانه، وفي رواية: وكادوا يقتلونه.

وما كان رسول الله يحقد على اليهود، بل كان يريد لهم الخير، وأمعن في النية الحسنة مقرونة بالعمل الطيب يبرُّ بهما اليهود رجاء أن يهتدوا فيسلموا، أو يهتدوا فيكفوا الأذى، ولكنهم لم يستطيعوا مغالبة ما ركّب في طبعهم من الرذائل كالغدر والكذب والنفاق والتآمر والحقد والإثارة والإساءة إلى المحسن.

ويكفي أن ينفذ منهم صبر من تفرد بالصبر بين بني البشر أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم، وأجبروه على أن يخلص يثرب

منهم ويخلص الحجاز من شرهم ثم الجزيرة العربية على يد بعض صحابته الأجلاء.

ودخلت اليهودية جنوب الجزيرة من يثرب كما يقول المؤرخون، ويذكرون أن ملكاً اسمه «أبو كرب أسعد» المعروف باسم آخر هو «أسعد الكامل آل تبع» رحل إلى يثرب واستقبله اليهود واعتنق اليهودية ونقلها إلى اليمن، وجعلها ديناً رسمياً فيها.

وعلى أي حال فإن اليهودية وجدت بجنوب الجزيرة كما وجدت في شمالها، واليمن أدعى من الحجاز وأكثر إغراء للكسب والاتجار، فهي أخصب، وليس باليمن ما بالحجاز من التجار الكبار مثل تجار قريش، أو لا يجدون في اليمن ما يجدونه في مكة من المزاحمة التي لا يستطيعون الدخول فيها لوحدة الصف القرشي واجتماع كلمتهم ولأن لليهود خلائق لا يستطيعون بسببها أن يعيشوا مع قريش في أعداد كبيرة على وفاق.

وجدت اليهودية في اليمن وأصبحت دين الدولة الرسمي، وآخر ملك يهودي الديانة حكم اليمن هو ذو نواس الذي حكم من ٥١٠ إلى سنة ٥٢٥ م كما يرجّح بعض الباحثين المحدثين، وهو آخر ملك في الأسرة المالكة السبئية التي كانت تعتنق اليهودية، وبقي حكمها قرناً ونصف قرن.

وذو نواس هو الذي تمت على يديه وفي حكمه مذبحة

الأخدود الشهيرة في نجران التي أشار إليها القرآن الكريم فقال: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

وهذه المذبحة التي تمت على يد ذو نواس سنة **٥٢٢** م كان وقودَها مسيحيو نجران الألى خيرهم العاهل اليمني اليهودي بين الردة أو القتل فثبتوا على إيمانهم، فنقم العاهل اليهودي واليهود على المؤمنين إيمانهم وقتلوهم حرقاً، واليهود يتلذذون بمنظر ضحاياهم البشرية.

وانتشر خبر المذبحة الفظيعة حتى انتهى إلى قيصر الامبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية فغضب لهؤلاء المؤمنين وانتقم لهم من اليهود وعاهلهم فأبادهم وقضى عليهم في سنة **٥٢٥** م.

بعد أن زال حكم اليهود وقُضِيَ على اليهودية في اليمن حل محلها العنصر المسيحي، لأن القيصر انتدب نجاشي الحبشة للانتقام، فبعث جيشاً بقيادة «أرياط» الحبشي لضرب الدولة اليمنية اليهودية، وقد وفق أرياط للقضاء على دولة اليهود اليمنية وأقام أحد أبناء البلاد حاكماً عليها واسمه «سام يفع أشوع» ويظهر أنه مسيحي، وذكره مدون في بعض النقوش، إذ ورد فيها أنه ولي حكم البلاد سنة **٥٢٥** م وقد استهل أحد هذه النقوش بهذه الجملة

«باسم الرحمن وابنه يسوع المنتصر» ولم تكن الجملة منقوشة هكذا ولكنها هي الترجمة العربية[1].

وسيطرت المسيحية على اليمن وانزوى اليهود عندما انتهت دولتهم، وظهر في اليمن قائد حبشي هو «أبرهة» وكان متعصباً للمسيحية، محارباً لكل عقيدة تخالفها، وعلم أن الوثنية العربية لائذة بمكة في كعبتها المشهورة، فآلى على نفسه اقتحامها، وألا يدع بالجزيرة ديناً غير دين المسيح، ونشره في بقاع كثيرة، وجعل نجران مركزاً رئيسياً للمسيحية، ومنها انطلق إلى مكة[2] ليهدم كعبتها ويصرف العرب إلى «الكاتدرائية» التي بناها بصنعاء، ولكنه هلك هو وجيشه والفيل الذي صحبه على بعد أميال من مكة، وسلمت الكعبة وما فيها وحولها من الوثنية التي قضى عليها الإسلام.

أما المسيحية في شمال الجزيرة والحجاز فقد عرفت بسهولة ويسر، لأنها لم تتخذ وسائل اليهود، ولم تكن ظروف المسيحية كظروف اليهودية.

وعرفت الجزيرة العربية مختلف النحل المسيحية التي تجاوزت الخمسين في القرن الرابع والخامس الميلادي حتى لم يعد بينها لقاء إلا في نقاط معدودات، لا تتجاوز تأليه المسيح، ومن بعدُ تفترق كل نحلة عن الأخرى لتتصارع، وينتقل الصراع من

---

(١) التاريخ العربي القديم، بحث بقلم فؤاد حسنين علي ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.
(٢) كان ذلك في سنة ٥٧٠م أو ٥٧١م.

المجامع المسكونية والكنسية إلى الجزيرة العربية مع من يحملون النزعات ويمثلون النحل.

والهلال العربي الخصيب تنصر، ودخل في النصرانية قبائل عربية، منها: غسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة وأهل الحيرة، وجاور في مكة والمدينة مسيحيون، وكانت مكة أكثر من المدينة التي استأثر بها اليهود.

ولم يكن للمسيحيين أو المسيحية أثر يذكر في الحياة العقلية وإن كانت مكة معترفة بها، إذ كان في جوف الكعبة صورة للمسيح في حضن أمه العذراء عليهما السلام، لأن الوثنية المكية كانت من القوة والسيادة بحيث عجزت المسيحية من التأثير فيها.

وخرجت المسيحية من سمتها الصحيح إلى عقيدة شديدة التعقيد، ندر أن يفهمها إلا الراسخون في العلم، وأما غيرهم من المسيحيين الأصلاء فلم يكونوا يفهمون النحل المذهبية وأصولها الفلسفية.

وعندما انتقلت المسيحية إلى الجزيرة العربية ودخل فيها من العرب من دخلوا لم يكونوا يفهمون إلا «المعلومات» السطحية، أما العقيدة المعقدة فما كانت تخطر لهم على بال، فإذا كان في رؤساء الديانة المسيحية من أصحاب الفكر والفلسفة من لم يفهم بعض النظريات الفلسفية المعقدة فمن البديهي ألا يفهمها أولئك العرب.

عرف العرب من هذه النحل: الآريوسية، والنسطورية، واللوسيانية، والأريجينية، واليعاقبة وغيرهم، ولكن لم يدركوا الفوارق بين هذه النحل، فكل قبيلة أو جماعة اتبعت نحلة من عرفوهم أو انتهوا إليهم.

ولم تكن المسيحية ـ وكذلك اليهودية ـ التي اعتنقها العرب بمنزلة العقيدة المتغلغلة في الأعماق، بل كانت أشبه بالصبغة تبهت على مرور الأيام، أو تسهل إزالتها إذا أريد لها أن تزول، ولهذا عندما اعتنق العرب المسيحيون أو من كان منهم على اليهودية دين الإسلام انتهت الصبغة الظاهرة، ولم يعودوا يذكرون دينهم السابق، بل كان الوثنيون يذكرون حياتهم القديمة وعقائدهم السابقة وإن كانوا قد تحرروا منها.

وإذا كنت نفيت تأثير اليهودية أو المسيحية في العقل العربي والخلق العربي فإنني لا أنسى أن أهل الكتاب كانوا بمعزل عن العرب، وأقصد بأهل الكتاب الكهنة الذين اختصوا بالوصاية على الكتاب المقدس وتفسير نصوصه، أما العامة من أهل الكتاب فلم يكونوا على علم بحقيقة الدين الذي يعتنقون، وهؤلاء الكهنة كانوا بعيدين عن الحياة العربية، قانعين بكهنوتهم في أضيق الحدود.

وإذا كان الحنفاء من العرب على بعض روايات الإخباريين قد تحرروا من الوثنية وأعجبوا بالنصرانية واستمالتهم محتوياتها من ناحية العقيدة فإن الواقع ليس كذلك، فالحنفاء قد خرجوا على

الوثنية، وكانوا على معرفة ثاقبة بالكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى، ولكنهم لم يؤمنوا بما جاء فيه مما لا يتفق مع ما اعتقد الحنفاء وذهبوا إليه، فهم لم يكونوا مؤمنين بتأليه المسيح، ولم يكونوا مؤمنين بما جاء في التوراة من تجسيد الله ومن نسبة النقائص إليه، فكانوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

إن الحنفاء اتجهوا إلى الله وحده، وآمنوا بالوحدانية، فهم أصلحوا عقيدتهم باعتقاد التوحيد، وكفروا بما سواه سواء أكان المعبود من قبل غيرهم بشراً أم ملائكة أم جماداً أم نباتاً أم غير ذلك.

ووجود اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب والحقد على الإسلام حملا بعض الباحثين من غير المسلمين على اتهام الإسلام والرسول الكريم، فقد زعم اجناس جولدزيهر في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» وإبراهيم جيجر في كتابه «ما أخذ محمد من اليهودية؟» وغيرهما أن الإسلام خليط من مختلف الديانات الوثنية وغير الوثنية والديانات السماوية.

والذين يزعمون هذه المزاعم من المستشرقين مثل جولد زيهر الألماني وغير المستشرقين إنما هم يحقدون على الإسلام، فوحدة الأسماء لا تقضي بوحدة المسميات، والتقاء الديانات الوثنية والسماوية، كاليهودية والمسيحية قبل التحريف والإسلام في نقاط تتصل بالعقيدة والشعائر والفرائض والشريعة لا يوجب أن يكون الإسلام آخذاً منها.

وسنعرض للرد على هذه المزاعم في فصل الإسلام لأن ذلك موضعه.

وعرف العرب «الدهرية» أو «التعطيل» أو «الإنكار لوجود الآله، أو القول بوجوده مع جحود البعث، والقرآن الكريم يصور لنا هذه العقيدة الملحدة في غير آية من آياته البينات فيقول:

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

سورة الجاثية: ٢٤.

و﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ﴾

سورة النحل : ٣٨.

و﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ .

سورة الإسراء : ٤٩ ـ ٥١ .

و﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ . سورة المؤمنون : ٨٢ ـ ٨٣ .

و﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سورة يس: ٧٨ ـ ٨٣.

هذه العقائد قد عرفها العرب، ولكن منهم من آمن بوجود الله مع إنكار البعث، لأن العقلية المادية القاصرة لم تتصور القدرة الإلهية التصور الحق، فأنكروا قدرة الله على إعادة الخلق، ولم يفهموا البرهان المقدم لهم، فالله الذي قدر على الإنشاء من العدم لا تعجزه إعادة الخلق.

ونسبة الهلاك إلى الدهر تستحق التأمل، فهناك الحديث الشريف: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله». وفي رواية: «فإن الله هو الدهر».

وقد ذهب ابن حزم الظاهري إلى أن «الدهر» من أسماء الله الحسنى، وهو خطأ منه ومردود عليه.

فإذا كان الدهر هو الله فنسبة الإهلاك إليه إنما هي نسبة إليه تعالى، لأن كليهما يدل عليه سبحانه وتعالى، فلماذا يندد القرآن بالمشركين حينما ادعوا «وما يهلكنا إلا الدهر»؟ أليس الدهر هو الله، والله هو الدهر كما في الحديث النبوي الشريف؟.

وليس في الأمر تعارض، فمفهوم الدهر من الآية غير مفهوم الدهر من الحديث الشريف، فالمشركون أو الكفار نفوا وجود الله، فالدهر الذي نسبوا إليه الإهلاك ليس الله، بل هو تعاقب الليل

والنهار، أو الزمان، فشعراء الجاهلية وشعراء الإسلام أيضاً نسبوا إلى الدهر بعض أفعال الله، أولئك على إنكار وجود الله، والشعراء المسلمون على المجاز مع الإيمان بوجود الله.

ونختصر ما جاء في مختلف كتب التفسير والمعجمات وكتب التوحيد بما جاء في كتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[1] ففيه الغناء في هذا الأمر.

قال الشارح الشيخ ابن حسن في مؤلفه هذا (ص٤٢٣ - ٤٢٤):

«قال العماد ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الالهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة.

«وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول؟ ولهذا قالوا: «وما يهلكنا إلا الدهر» قال الله

(١) توفي المؤلف رحمه الله سنة ١٢٥٨ هـ والكتاب مطبوع، ومرجعنا الطبعة السابعة منه المطبوعة بمطبعة السنة المحمدية ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) واكتفينا بكتابه بعد أن راجعنا أكثر من مئة كتاب في هذا الموضوع.

تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون.

«فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار،» وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإني أنا الدهر» وفي رواية: «لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما».

«قال في شرح السنة: حديث متفق على صحته، أخرجاه عن طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر ـ أي سبه ـ عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، وكان مرجع سبها إلى الله عز وجل، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها، فنهوا عن سب الدهر. أهـ. باختصار.

«وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهلكنا إِلَّا الدَّهر ﴾.

ويسبون الدهر فقال الله عز وجل:

« يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار ».

«وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور وعن سريح ابن النعمان عن ابن عينية مثله، ثم روى عن يونس محمد بن دهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يقول الله تعالى: ﴿يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار﴾ وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد.

«وقال محمد بن اسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله عز وجل: استقرضت عبدي فلم يعطني، ويسبني عبدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر».

«قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنما إنما سبوا الله سبحانه، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره ـ وهو المراد ـ والله أعلم.

«وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم «الدهر» من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث» أهـ.

«وقد بين معناه في الحديث بقوله: «أقلب الليل والنهار» وتقليبه: تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

«وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى وهي قوله: «بيدي الأمر».

«قوله: وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» معنى هذه الرواية هو ما صرح به الحديث من قوله: «وأنا الدهر أقلب الليل والنهار» يعني أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره، بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين، وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة».

وعبادة الأسلاف والأرواح معروفة عند العرب، وهذه المعرفة البدائية هي التي جعلتهم يفهمون النفس أو الروح فهمًا يتفق مع جهلهم ووثنيتهم، وما جاء في أساطيرهم عن الهامة والصدى إشارة إلى تقديس الموتى.

وجاء في لسان العرب ١٦: ١٠٨ ـ ١٠٩[١]: «الهامة: رأس

(١) وماجاء في المعجمات العربية كالصحاح وغيره لا يخرج عما في اللسان.

كل شيء من الروحانيين، عن الليث. قال الأزهري: أراد الليث بالروحانيين ذوي الأجسام القائمة بما جعل الله فيها من الأرواح، وقال ابن شميل: الروحانيون هم الملائكة والجن التي ليس لها أجسام ترى. وهذا القول هو الصحيح عندنا.

«الجوهري: الهامة: الرأس، والجمع هام، وقيل: الهامة: ما بين حرفي الرأس. وقيل: هي وسط الرأس ومعظمه من كل شيء، وقيل: من ذوي الأرواح خاصة.

«أبو زيد: الهامة: أعلى الرأس وفيه الناصية والقصة، وهما ما أقبل على الجبهة من شعر الرأس، وفيه المفرق، وهوفرق الرأس بين الجبينين إلى الدائرة.

«وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول: اسقوني، اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت، وهذا المعنى أراد جرير بقوله:

ومنا الذي أبكى صُدَيَّ بن مالك

ونفَّر طيراً عن جُعادة وُقَّعا

يقول: قتل قاتله، فنفرت الطير عن قبره.

«وأزقيت هامة فلان، إذا قتلته. قال:

فإن تك هامة بهراة تزقو فقد أزقيتُ بالمرْوَين هاما

«وكانوا يقولون: إن القتيل تخرج هامة من هامته فلا تزال تقول: اسقوني، اسقوني حتى يقتل قاتله، ومنه قول ذي الإصبع:

يـا عمرُو إن تـدعْ شتمي ومنقصتي
أضربْك حتى تقـول الهامـة اسقوني

يريد أقتلك».

والهامة: طائر، وكان من العرب من يزعم - كما يقول المسعودي[1] - أن النفس طائر ينبسط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبـداً مستوحش، ويسكن في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده فتخبره به.

والصدى - كما جاء في اللسان ١٦ : ١٨٦-١٨٧ - ما يبقى من الميت في قبره وهو جثته، قال النمر بن تَوْلب:

أعاذل أن يصبح صداي بِقَفْرَةٍ بعيداً نآني ناصري وقـريبي

فصداه: بدنه وجثته، وقوله: «نآني» أي نأى عني.

والصدى - أيضاً - حُشْوَة الرأس، يقال لها: الهامة والصدى، وكانت العرب تقول: إن عظام الموتى تصير هامة فتطير، وكان أبو عبيد يقول، انهم كانوا يسمون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت إذا بَلِيَ: الصدى، وجمعه أصداء، قال أبو داود:

(١) مروج الذهب ١: ٢٥١ طبعة بولاق. و«بلوغ الأرب» للألوسي ٢: ٣١١.

سلّط المـوت والمنون عليهم فلهم في صدى المقابـر هامُ

وقال لبيد:

فليس الناس بعدك في نقير وليسوا غـير أصداء وهـام

والصدى: الذكر من البوم، وكانت العرب تقول: إذا قتل قتيل فلم يدرك به الثأر خرج من رأسه طائر كالبومة، والذكر: الصدى، فيصيح على قبره: اسقوني، اسقوني، فإن قتل قاتله كف عن صياحه.

وأسطورة الصدى والهام تشير إلى تقديس الموتى، أو الاهتمام بهم، وإن كان ذلك مقصوراً على القتلى، إلا أن الأسطورة تعود ـ كما نحسب ـ إلى عبادة الأسلاف، وإذا أضفنا اليها أسطورة عقر الإبل على قبور الموتى من غير القتلى كان ما نحسبه آكد.

ولئن ذهب المؤرخون والمعجميون إلى أن العقر على القبور هو مكافأة الميت على مـا كان ينحـر في حياتـه من الإبل للأضياف[1]، وقيل: كانوا يعقرون إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام.

ولعل أسطورة الهام والصدى هي الظلال المتخلفة من عبادة الأسلاف، وقد ألهم الله رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام أن

---

(١) النهاية لأبن الأثير مادة عقر.

يقضي على هذا اللون من عبادة الأسلاف وتقديسهم فجاء في أحاديثه الكريمة قوله صلى الله عليه وسلم:

«لا عقر في الإسلام».

و«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر».

ولمسلم عن أبي الهيّاج قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألاَّ تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»؟

وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وقال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً».

وفي الصحيح عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً. وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبـور والمتخذين عليهـا المساجـد والسرج».

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في شرح «كتاب التوحيد[1]».

«قال العلامة ابن القيم[2] رحمه الله: ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى عن أن تتخذ عيداً وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد وأكثر.

«وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي وحديث ثمامة بن شُفَيٍّ وهو عند مسلم أيضاً، قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوّي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها» وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب.

«ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم في

---

(١) فتح المجيد ٤٨٢ - ٤٨٤.

(٢) إغاثة اللهفان ١: ١٠٢ - ١٠٤.

صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تجصيص القبر وأن يعقد عليه وأن يبنى عليه» ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود في سننه عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «نهى عن تجصيص القبور وأن يكتب عليها» قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره.

«ونهى أن يزاد عليها غير ترابها كما روى أبو داود عن جابر أيضاً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه» وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار.

«ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر، وأوصى ألا يفعل ذلك بقبره.

«وأوصى الأسود بن يزيد: ألا تجعلوا على قبري آجراً.

وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة ألا يضربوا على قبره فسطاطاً.

وكره الإمام أحمد أن يبنى على القبر فسطاطاً.

«والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور، المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، محادّون لما جاء به، وأعظم ذلك: إتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من

الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره بتحريمه.

«قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام، قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد عليها لهذا الخبر، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد «يحذر ما صنعوا، متفق عليه، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة. انتهى.

«وقد آل الأمر بهؤلاء الضُلَّال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام.

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره».

كل هذا يبرهن على أنه ما منع عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وحرّمه كان موجوداً في الوثنية الجاهلية، ولئن لم يفطن فقهاء

المسلمين ومؤرخوهم القدامى لعبادة الأسلاف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ملهمًا حين حرم هذه الوثنيات: عقر الإبل على القبور، والهامة، وبناء المساجد على القبور، وإيقاد السرج عليها، واتخاذ قبره عيداً أو وثناً وغير ذلك مما يتصل بتعظيم الموتى حتى يقضي على عبادة الأسلاف التي عرفها الناس قبل عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وبعده.

وعودة كثير من المسلمين إلى هذا الضرب من الحفاوة بالقبور إنما هي إحياء منهم لعبادة الأسلاف المعروفة.

وما تشديد الرسول صلى الله عليه وسلم في تسوية القبور إلا الرغبة في القضاء على عبادة الأسلاف قضاء تاماً.

ومع وجود مختلف الديانات والعقائد والوثنيات مع كثرة نحلها ومللها، ومع وجود الدهريين المنكرين لوجود الله والمعاد والقيامة فإن العرب الجاهليين لم يكونوا جميعاً على هذا النحو من الشرك والضلال، فقد كان فيهم الحنفاء الذين يتعبدون الله على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان فيهم من يؤمنون بالبعث والنشور والثواب والعقاب، وكان منهم موحدون.

فالشاعر أمية بن أبي الصلت فقد آمن شعره وقلبه وإن لم يدخل الإسلام، وأعلن التوحيد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد بيت أمية:

الحمد لله مُمْسانا ومُصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا

وقد أدرك أمية الإسلام ولكنه لم يسلم، فقد توفي في السنة التاسعة من الهجرة، وهذا يطمئننا إلى أنه سمع بعض سور القرآن، لأن في شعره ما يدل على ذلك إذا صحّ ما نسب إليه من الشعر ولم يكن منحولاً عليه.

ومن شعره هذا قوله:

فـار تنوره وجـاش بمـاء طمّ فـوق الجبـال حتى عـلاهـا
قيـل للعبد سـر فسار وبـالله على الهول سيـرها وسـراها
قيل فاهبط فقد تناهت بك الفلك على رأس شاهق مرساها

وقوله:

فكـل معمـر لا بـدّ يـومـاً وذي دنيـا يصـير إلى زوال
ويفنى بعـد جـدتـه ويبـلى سوى الباقي المقدس ذي الجلال

وهذا منظور فيه إلى القرآن الكريم الذي جاء فيه:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ
فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ
وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ
عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ

﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.[2]

ويقول لبيد:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

ويقول زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى وما يكتم الله يعلم

ويقول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وغير هذا كثير في شعر هؤلاء وغيرهم، وكأنه شعر إسلامي، يضاف إليه الإيمان بالبعث. فهذا وثني جاهلي هو عمرو ابن زيد يوصي ابنه قائلاً:

أبنيّ زودني إذا فارقتني في القبر راحلة برحل فائر

للبعث أركبها إذا قيل اظعنوا متوثقين معاً لحشر الحاشر

ويوصي جريبة بن الأشيم الفقعسي ابنه قائلاً:

---

(١) سورة هود: ٤٠ - ٤٨.

(٢) سورة الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

يـا سعد أمـا أُهْلَكَنَّ فإنني أوصيك أن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يحشر راجلاً في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح وتَق الخطيئة إنه هو أقـرب
ولعـل لي مما تـركت مطيـة في القبر أركبها إذا قيل اركبوا

ويسمى البعير أو الناقة التي تعد للميت حتى يركبها يوم الحشر: بلية، وجمعها بلايا.

وفي اللسان ١٨ : ٩٢ : «وناقة بلية، يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة وتشد، رأسها إلى خلفها وتبلى، أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً. كانوا يزعمون أن الناس يحشرون يوم القيامة ركباناً على البلايا، أو مشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم، قلت: في هذا دليل على أنهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأجساد».

والقرآن الكريم شاهد على أن من العرب من كان يؤمن بالله ويؤمن بربوبيته وبأنه الخالق المدبر للأمر في غير آية منه.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم

مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ العنكبوت: ٦١ - ٦٥.

و﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣.

ووجود هذا الإيمان بالخالق والبعث في عصر بعدت فيه ديانات السماء كالمسيحية واليهودية عن صراطهما المستقيم إلى الوثنية يشير إلى تفتح في النفس العربية بالجزيرة وبخاصة بمكة، وإذا أضيف إلى هؤلاء الذين يؤمنون بالخالق والبعث الحنفاء، واعتراف الوثنيين من المكيين وغيرهم بأنهم يعبدون ما يعبدون من دون الله لا يقصدون إلا اتخاذهم زلفى إلى الله وضح لنا أن مكة وما جاورها من القرى والبلدان والناس كانوا أصح المؤمنين بالله مع ما دخل في معتقداتهم إلا الندرة النادرة من الوثنية.

وكان العصر الذي بعث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عصر قلق، فقد كان ذوو النفوس الصافية يرقبون ظهور نبي جديد، والمفجوعون في آمالهم ينتظرون من يخلصهم مما انتهوا إليه من الظلم والفساد.

ووجود صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي على صعيد واحد مع اختلاف الجنس والدار واللغة ودون اتفاق يشير إلى حالة القلق الذي ساد العالم المتمدن وساد جزيرة العرب.

ولا شك أن حالة القلق تسبق الراحة والطمأنينة والأمن، وهذا ما حدث في الجزيرة العربية، ومكة على الخصوص.

وإذا كانوا ينتظرون من يمحي على يديه القلق، ويتم على يديه الخلاص مما هم فيه، فلماذا قاوموا محمداً عندما أعلن لهم أنه رسول الله وجاء إليهم بخير الدنيا والآخرة.

كان اليهود ينتظرون المخلص، فبعث الله لهم المسيح عيسى ابن مريم، فكذبوه وحاربوه حتى صلبوه وقتلوه على زعمهم، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

إنه عناد اليهود وعنتهم.

أما في مكة فما كانوا يحسبون أن محمداً عليه الصلاة والسلام سيفرق كلمتهم ويتعرض لآلهتهم بالجحود، ولكثير من عاداتهم بالتقبيح والتشنيع، ويدعوهم إلى إلّه واحد يلغي كل من عداه من الآلهة والأرباب فقاوموه.

ولم يكن العرب جميعاً هم المقاومين، بل مشركو مكة الألى تعرضت عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومصالحهم للخطر بسبب الدين الجديد فحاربوه، ولكنه انتصر بالحق وبالسلم، وكسب أتباعاً من أجناس مختلفة كانوا طلائع حملة الإسلام إلى العالم، وكانوا بحق خير نموذج للدعاة إلى الحق.

العالم في عصر البعثة المحمّديّة

في العصر الذي ظهر فيه الإسلام كانت الوثنية تسيطر على الأرض، ولم يكن بها دين صحيح كامل يطبق، بل فسدت الديانات كلها وانقلبت أديان شرك ووثنية، واضطربت الموازين الإنسانية، وساد الباطل والظلم، وغرقت المجتمعات الإنسانية في ظلام العقيدة وظلمات الباطل والكفر.

والديانتان اللتان بقيتا هما المسيحية واليهودية، ولكنهما لم تكونا الديانتين الصحيحتين المنزلتين من السماء، بل خفيت معالمهما، وحرفت كتبهما، وانقلبتا دينين وثنيين، وبعدتا عن التوحيد الحق بعداً كبيراً.

ولم يكن أحد هذين الدينين مفتوحاً لغير شعوبهما في الأصل، بل كانا خاصين ببني إسرائيل، إلا أن المسيحية انحرف بها بولس حيث جعلها لغير اليهود، وبشّر بها بين الأمم، وبذلك ناقض المسيح نفسه.

---

(١) نقلنا هذا الفصل برمته من كتابنا «الإسلام خاتم الأديان».

أما اليهودية فكانت ديناً مغلقاً وقفاً على اليهود وحدهم، ومع أن اليهود انتشروا في الأرض، وفي تاريخهم القديم نفي آلاف منهم إلى بابل، وتشتت عشرات الألوف ومئاتها في أقطار الأرض فإن اليهودية بقيت مغلقة في وجوه غير اليهود، ولم يقوموا ـ قط ـ بدعوة الأمم الأخرى، ولم يرضوا بأفراد منها يشاركونهم دينهم وربهم.

وفكرة «الله» في اليهودية كما تصورها كتبهم فكرة وثنية لا تتفق مع كمال الله المطلق وصفاته المثلى وأسمائه الحسنى، فيهوه رب اليهود وحدهم، وإلههم الخاص بهم، ولا يقبلون أن يدعو (يهوه) ربهم أحد من غيرهم.

واليهود يؤمنون بوجود الآلهة والأرباب التي يعبـدها سواهم، ولا يقتضيهم هذا الإيمان أن يعبدوها، وصارت الديانة اليهودية وغيرها من الديانات لدى اليهودية مثل «الجنسية» فكما أن اليهود ينتمون إلى «يهوه» ينتمي غيرهم إلى عشتروت وتموز ومردوخ وآنو ورع وأوزوريس وآلاف الآلهة الأخرى.

إن اليهودية «جنسية» مثل جنسيات الدول، فكما لا يجوز أن ينتمي متجنس بجنسية إلى غيرها كذلك اليهودية.

وفي صفات «يهوه» رب اليهود ما ينقض التنزيه الحق والكمال المطلق، فقد تصور اليهود «يهوه» شديد الظمأ إلى الدماء، عظيم النشوة والبهجة من رائحة الشواء، وتخيلوه رباً وثنياً على صورة إنسان يأكل ويشرب، وتختلف عليه نقائص البشر

وصفاتهم من تعب وراحة واستذكار للدروس ولهو ولعب.

وفكرة البعث والنشور غير مذكورة في توراتهم، والإشارة إليها غامضة في سفر أشعيا، وإن كان سفر دانيال أبين في الإشارة لأنه ذكر أن الراقدين (الموتى) يستيقظون.

والشريعة التي تذكرها كتبهم صالحة لليهود في عصرهم القديم ففيها ما يحتاج إليه قيام مجتمع متكامل من نظم تتناول كل أعماله وأهدافه وآدابه وأخلاقه ومعاملاته في السلم والحرب، ومعاملات الأفراد فيما بينهم، ولكننا نفتقد في شريعتهم الإنسانية.

ولكن أبين ما فيها من خلل محاباة الشريعة أصحابها، ومجافاة من لم تنزل لهم، مثل إباحة الربا والسرقة والأذى لليهود في معاملة غيرهم من أبناء الأمم الأخرى.

وفي كتبهم أو توراتهم الموجودة أو ما يطلقون عليه التوراة ما يهدم بعضه بعضاً، ففي الأنبياء والمرسلين من يزني ويعرض زوج من يزني بامرأته للقتل، بل يدفعه إليه دفعاً ليتخلص منه ويضم امرأته إلى نسائه مثل داود، ومن يزني بابنتيه وهو لوط، ومن يثبت لله أنداداً من الأوثان والأصنام، وهو سليمان، وقد ذكرنا في الفصل السابق[١] نقولاً عن توراتهم تحوي هذه التهم القذرة موجهة إلى الأنبياء، وتلك جرائم وكفر ونقائص شائنة يتنزه عنها المرسلون.

---

(١) المقصود الفصل السابق من كتابنا «الإسلام خاتم الأديان» لأن هذا الفصل منقول منه.

وفي التلمود وصفوا الله بما لا يليق بجلاله وقدرته ووحدانيته وعظمته وبكل صفاته، بل ذهبوا إلى خضوع الله لأحبارهم.

وتأثرت اليهودية بما جاورها من الديانات الوثنية، فأخذت من بابل، وتأثرت بمصر في عبادة العجل، ونقلت عن الكنعانيين مراسيم وطقوساً، حتى ذهب بعض العلماء الباحثين إلى أن «يهوه» إلّه اليهود إلّه كنعاني أخذه العبرانيون وزادوا في صفاته ما يتفق مع حياتهم، ومن بين الآثار الدالة على ذلك: الآثار التي وجدت في كنعان سنة **١٩٣١** م وهي قطع من الخزف يرجع عهدها إلى عصر البرنز الذي يسبق الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وفيها كلمة «ياه» أو «ياهو» وهو اسم إلّه كنعاني.

ونقل اليهود قصة الخليقة من وثنيات بابل، وأخذوا فكرة «المخلص» المنتظر من الديانة الفارسية ومن غيرها.

وفسدت الألوهية لدى اليهود كما فسدت فكرتهم عن الله عندما وصفوه بصفات الآدميين، فذكروا في «سفر التكوين» من توراتهم: أن الله خلق الكون في ستة أيام، واستراح من التعب في اليوم السابع، ونسبوا إلى الله تبارك وتعالى الكذب والتضليل، إذ يزعم سفر التكوين أن الله منع آدم عن الأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» بحجة الخلود في حين أن الله أخفى السبب الحقيقي، وهو أن يكون آدم مثل الله إذا أكل من هذه الشجرة، فتقول توراتهم: «وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً

الخير والشر[1].

ولكن آدم أكل من الشجرة ولم يصر مثل الله، وفي هذا تكذيب لله، كما أن فيه اعترافاً من «الرب الإلّه» بأن له شركاء يدل عليه قوله في زعمهم: «كواحد منا».

ويذكر ما يسمى التوراة لديهم أن الرب الإله كان ماشياً في الجنة فاختبأ آدم وامرأته، بل تجسد هذه التوراة «الله» تجسيداً، وتذكر في قصة لوط أن الله وملكين جاؤ وا إلى ابراهيم، وهذه عبارة سفر التكوين (الاصحاح ١): «وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه الخ» وأنهم أكلوا مما قدمه لهم إبراهيم.

ويكفي أن ننقل بعض ما جاء في «التلمود» للدلالة على بشاعة الوثنية التي دخلت اليهودية فأفسدتها إفساداً.

في سفر روبين ٢١ حرف ب من التلمود الأصيل: «إحذر يا بني، يقول الحاخام رابا: واتبع التلمود لا التوراة، فالتوراة تتضمن أحكاماً لا تستوجب مخالفتها الموت، وأما من يخالف حرفاً جاء في التلمود فالقتل عقابه، ومن يهزأ بكلمة من كلمات التلمود يغمس في الغائط ويساق فيه حياً إلى أن يموت».

وفي سفر مجيلا ٢١ من التلمود: «إن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه».

وفي سفر بيراشون ٧ حرف أ: «دخلت قدس الأقداس

---

(١) سفر التكوين، الأصحاح الثالث.

فرأيت الله جالساً على كرسي مرتفع، فقال لي: باركني يا بني، وإذ باركته شكرني وسلم وانصرف».

وفي سفر باباتيرا ٧٥ حرف أ: «الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة، ويدعون يهوه أي الله».

وفي سفر مويد قنان ١ حرف أ: «للحاخامين السيادة على الله، وعليه إجراء ما يرغبون فيه».

وفي سفر بابا مزيا ٨٦ حرف أ: «إذا احتدم الخلاف بين الحاخامين والله فالحق مع الحاخامين[1]».

وهذه الأسفار كلها من التلمود تبرهن على عقيدة اليهود القائمة على التعدد والكفر وتحقير الله وإنـزاله دون منـزلة الحاخامين[2]، كما أن توراتهم نفسها مليئة بما ينقض التوحيد وكمال الله المطلق، وتنسب إليه الظلم.

وكان ذلك غاية في البشاعة الوثنية وفساد العقيدة وزوال عقيدة التوحيد من اليهودية مما يثبت أن الديانة اليهودية لم تعد ديانة توحيد كما كانت، وكتابهم المقدس الذي فيه الهدى والنور قد

---

(١) النصوص المنقولة هنا من التلمود هي ما استشهد به الكاتب المسيحي نقولا حداد في مقال له بعنوان «التلمود خدع اليهود» منشور بمجلة الرسالة، العدد ٧٧٠ الصادر في ٢٥/٥/١٣٦٧هـ (٥/٤/١٩٤٨م).

(٢) عندما كنت ساكناً بالقاهرة زارني بمنزلي الحاخام ناحوم كبير يهود مصر وقت ترشيحي لعضوية المجمع اللغوي وأيد ما جاء في التلمود، ولكنه لم يقبل المناقشة.

حرف بحيث اختلط الأصل مع ما أدخلوه فيه مما ليس منه كما حرفوا هذا الأصل نفسه حتى كان التمييز بين الصحيح والزائف متعذراً.

ومع كل هذا لم تعد اليهودية ديناً صالحاً لليهود أنفسهم في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وقبيل بعثته لما دخلها من التغيير والفساد والوثنية والباطل، ولتطور البشرية وتقدمها العقلي والأدبي، ودليل فقدانها الصلاح أن اليهود في هذا العصر تركوها إلى نظم تنقض ما في أسفار التوراة من الأحكام.

والمسيحية التي هي ديانة سماوية قد اختلف عليها ما اختلف على اليهودية التي سبقتها، وهي ديانة خاصة جاءت لخراف بني إسرائيل.

والقرون التي مرت بها حتى زمن محمد صلى الله عليه وسلم بعدت بها عن حقيقتها وجوهرها، وأصبحت قائمة على «التثليث» والتجسيد. اللذين يقضيان على التوحيد مهما فلسفوا، فأقطابهم من رجال الدين والفكر والأدب والفلسفة ينقدون التثليث وينكرونه.

فالعقيدة المسيحية لا تصلح لأن تكون عقيدة الإنسانية كلها لأنها خرجت على التوحيد وقضت عليه.

والمسيحية تؤمن بأسفار العهد القديم التي يؤمن بها اليهود، وهذا الإيمان يزيد في نفي التوحيد وإثبات الشرك مضافاً

إليه الاعتقاد بالتثليث، وهذه الزيادة تزيد في عدم صلاحها لتكون دين الإنسانية جمعاء.

ويجب على دين الإنسانية أن يحتوي على الشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان جميعاً، وليس في المسيحية شريعة خاصة بها، لأن المسيح نفسه عليه الصلاة والسلام يهودي على ملة اليهود كما تذكر المصادر المسيحية، ولم يجيء لنقض اليهودية، ولم يأت بشريعة جديدة تلغيها، بل كان على شريعة اليهود ويدعو إلى التمسك بها.

ولم تنجح المسيحية وانتهت سريعاً، واختفى بعد المسيح إنجيله الحق، ونقض بولس رسالة المسيح نقضاً، ومن جاؤوا بعده هدموها هدماً، ويعترف أكابر الباحثين المسيحيين وأعاظم من رجال الدين المسيحي بما حَلَّ بالمسيحية من تغير شامل، كما يعترفون بدخول الوثنيات في المسيحية.

يقول الكاتب الأرلندي المشهور برنارد شو: إن القس الشهير «دين إنج» قال «لقد شوّه بولس تعاليم راعينا حتى لكأنه أعاد صلبه مقلوباً برأسه إلى أسفل».

ويقول العالم البريطاني المعروف ويلز: «أوتي بولس قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمام بحركات عصره الدينية، فكان على علم واسع باليهودية وبديانة مترا وديانة الاسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من معتقداتهم ومصطلحاتهم، ولم يهتم بما جاء به عيسى من فكرة ملكوت السماوات».

ويقول بيري (Berry) في كتابه (Religions of the World) : «بعد صلب المسيح ذاب أتباعه واختفت دعوته ولم يعد أحد يسمع شيئاً عن هذه الدعوة» و«كان عيسى يهودياً، وقد ظل كذلك أبداً، ولكن بولس كون المسيحية على حساب عيسى، فبولس في الحقيقة مؤسس المسيحية، وقد أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب إليها عامتهم، كما أدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعاً له من اليونان، فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشري بوساطته أن ينال النجاة، وهذه الإصطلاحات التي قال بها بولس كانت مشهورة عند كثير من الفرق، فانحاز أتباعها إلى ديانة بولس، وعمد - إرضاء لمثقفي اليونان - إلى أن يستعير من فلاسفة اليونان وبخاصة الفيلسوف فيلون اتصال الآله بالأرض عن طريق الكلمة (The Lagos) أو ابن الإآله».

وهذه الشواهد تبرهن على أن ما يسمّى «المسيحية» ليست مسيحية المسيح عليه الصلاة والسلام بل هي المسيحية التي لفقها بولس.

وكل ما في الديانة المسيحية من عقائد وشعائر وأسرار وكل صفات المسيح وبخاصة صفات الألوهية من الديانة الوثنية.

ففكرة «الإآله المتجسد» فكرة قديمة وشائعة في كثير من الديانات الوثنية، ونظائر المسيح وأشباهه موجودون فيها.

وعلى سبيل المثال نشير إلى ذلك في إيجاز مما كتبه أقطاب

الفكر المسيحي حتى لا نُتَّهَم، وهؤلاء الأقطاب ليسوا بخصوم دينهم، ولكن البحث العلمي دفعهم إلى ذكر حقائق الديانات الوثنية التي سبقت المسيحية بما فيها من العقائد الوثنية.

في المصادر المسيحية من أناجيل وغيرها ما نصه:

«ان يسوع المسيح هو المخلص، والفادي، والمعزي، والراعي الصالح، والوسيط، وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس».

وفي المصادر الهندية في وصف «كرشنا» كما ذكر العلامة المسيحي «دوان» في كتابه «خرافات التوراة ونظائرها في الديانات الأخرى[1]» والمؤرخ موريس في كتابه «تاريخ الهند[2]» المجلد الثاني، والعلامة «إنمن» في كتابه «العلامات الوثنية القديمة في النصرانية الحديثة[3]» وفي كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لمحمد طاهر التنير ما نصه:

«إن كرشنا هو المخلص، والفادي، والمعزي، والراعي الصالح، والوسيط، وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس».

وتروي المصادر المسيحية وفي طليعتها انجيل متى (الاصحاح الثالث): أن مجوساً من الشرق جاؤوا إلى أورشليم

---

(١) Doane, Bible Myths and Their Parllels in other Religions

(٢) Mourice, History of Hindostan

(٣) Inman, Ancient Pagan and Modern Christian Symbolism

يسألون: «أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا نسجد له» و«ذهبوا إذ النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي . . . ثم فتحوا له كنوزهم وقدموا له ذهباً ولباناً ومراً».

وفي كتاب «الملاك المسيحي» يقول «بنسون» أحد أعلام الفكر المسيحي: «جاء في كتب البوذيين المقدسة أن السماوات بشرت بولادة بوذا بنجم ظهر مشرقاً في الأفق، ويدعونه نجم المسيح».

وفي كتاب «تاريخ الصينيين» لثورنتن المسيحي: «يعتقد الصينيون أن نجمًا ظهر عند ولادة «يو» من عذراء ودلهم عليه، و«يو» هذا مؤسس الدولة الأولى التي حكمت الصين، ويزعمون أن نجمًا ظهر عند ولادة الحكيم «لاوتسي» ودلهم عليه.

وفي ديانة فارس لما ولد «مترا» المخلص والوسيط بين الله والناس زاره مجوس وقدموا له هدايا: ذهباً وطيباً ومراً.

وعندما ولد «كرشنا» جاء الرعاة وقدموا له هدايا من خشب الصندل.

ويروي أفلاطون أن ثلاثة مجوس من الشرق جاؤوا إلى محل ولادة سقراط المولود قبل المسيح بحوالي ٤٦٠ سنة وقدموا له هدايا: ذهباً وطيباً ومراً.

وكل هؤلاء أسبق من المسيح مولداً بقرون.

وفي المصادر المسيحية: ولدت مريم يسوع في مغارة.

وفي كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية[1]»: أن أم كرشنا وضعته في مغارة، و«أبولون» الإلّه الأغريقي المولود من سفاح ولدته أمه في مغارة و«مترا» الآله الفارسي مولود في مغارة.

وتاريخ مولد المسيح وأشباهه أو نظائره في الوثنيات واحد، فالمسيح ـ كما تذكر المصادر المسيحية ـ ولد في **٢٥** ديسمبر، وكل من «باخوس» إلّه الخمر عند الإغريق، و«مترا» الإلّه الفارسي، و«حورس» إلّه المصريين، و«تموز» إلّه البابليين مولود في التاريخ الذي ولد فيه المسيح وهو **٢٥** ديسمبر، إلا أن هؤلاء كانوا أسبق من المسيح مولداً.

وكل جزئية أو كلية في الديانة المسيحية مأخوذة من الديانات الوثنية القديمة، وانقلبت المسيحية من دين توحيد إلى دين وثني محض، وغرق العالم المسيحي في المنكرات كغيره في ذلك الزمن حتى تربعت على كرسي الحكم في القسطنطينية «عاهرة» صارت زوجاً للامبراطور جوستنيان واضع مدونة الفقه الروماني، والحاكم المسيحي الأعظم في عصره، وتوفي جوستنيان قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو سبع وخمسين سنة.

وإذا كانت الديانتان الصحيحتان (اليهودية والمسيحية) قد انتهتا إلى الوثنية والشرك فإن أجزاء العالم الأخرى التي سادتها

---

(١) تأليف العلامة محمد طاهر التنير.

الوثنيات لم تكن خيراً من البلدان التي تسيطر عليها اليهودية والمسيحية.

هكذا كان العالم في العصر الذي ولد فيه محمد صلى الله عليه وسلم وبعث برسالته، لقد كان هذا العالم غريقاً في الكفر والوثنيات والظلم والباطل والفساد، وشغلت فراغ النفوس وثنيات باطلة، وساد المجتمعات شرائع ظالمة فاسدة، وتبع ذلك تدهور الحياة السياسية والأخلاقية والاجتماعية عامة، وفسدت المجتمعات فساداًشديداً.

فالصين واليابان والتبت وكوريا وكل بلدان الشرق الأقصى وثنية، وشاع فيها الفساد والجور والكفر والإباحية.

والهند غرقت في الوثنية والفجور، حتى أن شيوعية المرأة كانت ديانة مقدسة كما تفصح عنها «شكتكماك» ومن حق كاهنه التمتع بنساء غيره، وكانت العروس تقضي أسبوعها الأول في أحضان هؤلاء الكهان ومضاجعهم يستمتعون بها قبل زوجها، معتقدة هي وزوجها وأهلها ومجتمعها أن رضا ربهم يسع العروسين، والبركة تحل عليهما وعلى حياتهما الزوجية.

وهذا العهر مقدس عندهم ومرغوب فيه، بل يبلغ العهر حده الأفحش ليلة الاحتفال بعيد الهندوس المقدس المسمى «شفرارتي» حيث تستحيل الإنسانية بل البشرية بهيمية عارمة غاية في القذر والبشاعة، ويرتكب أفحش ما في البهيمية حيث يكون الزنا بالمحارم ضرباً من الدين والقداسة.

وفي فارس شاعت عبادة الفروج، عبادة عضو المرأة التناسلي، وداعيها الأول يسمى «ارتكزرسيس» واستفحل شرها الحيواني في عهد «مزدك» الذي كان يدين بمبدأ شيوعية النساء فيما يدين به من مبادىء التخريب، ووصل العَهَر المقدس إلى تقديس مناظر الفحش وأعمال الفجور المقرونة بالسكر والعربدة، وكلما زاد الفحش بشاعة زادت القداسة.

والأشوريون والبابليون والسومريون متفقون في عبادة «اشتار» ربة الحب والحرب والعَهَر، ويصفها البابليون في صلواتهم وأدعيتهم بأنها الربة الرحيمة القوية التي أشرق بنورها العالم، ورفعتها قدرتها فوق مقام الآلهة طراً.

وإن «اشتار» هذه هي الربة الفاجرة التي أمتعت بفجورها وعهرها وفسقها ودنسها عبّادها في الشرق الأوسط، واحتفظت بصفات الربوبية لأنها لم تتدنس بنجاسة الطهر، وكان من أقدس القرابين لديها تمزيق العفة والدعارة المقدسة.

ويصف «هيرودوت» المؤرخ اليوناني المشهور هذه الدعارة المقدسة فيما كتب بعد أن شاهدها بعينيه قائلاً: إن على كل امرأة بابلية أن تذهب إلى هيكل ميلتا التي هي صورة «اشتار» وتزني، ولا يعفى من ذلك أي امرأة لأنه شعيرة دينية مقدسة ترضي ربة العهر والحب، ويجب على المرأة التي تمضي إلى الهيكل ألا تردَّ يد أي راغب فيها مهما كان شأنه من الضعة والحقارة والهوان، وما

يعطيها من ثمن الفحش بها ولو كان « قرشاً » يكون مقدساً تحتفظ به المرأة.

وكانت سيدات المجتمع الراقيات يمضين إلى المعبد في موكب حافل لأداء تلك الشعيرة الدينية المقدسة.

ومن الطقوس الدينية السومرية أن المعابد كانت مزدحمة بالجميلات خادمات الآلهة وممثليها من الكهنة الذين كانوا يفسقون بهن، ويمزقون عفافهن ويستمتعون بأجسادهن باسم الآلهة.

وما كان السومري يشعر بالخزي من تقديم ابنته أو أخته للمعبد هدية للآلهة، بل يزهى ويحتفل بهذا التقديم، لأنه يدخل البهجة والسرور إلى قلوب الآلهة بإدخالهما في نفوس ممثليها، إذ يتيح لهم أن « يشرفوه » بالاضطجاع مع ابنته أو أخته، وبقبولها بين خادمات المعبد الجميلات الموقوفات للعهر المقدس.

والسوريون كانوا يحتفلون بعشتروت (اشتار) كل سنة، وعيدها أكبر الأعياد، وتقترن به الدعارة المقدسة التي تباح فيها الأعراض وتنتهك الحرمات، حيث تضحي فيها العذراء ببكارتها، والمرأة بعفتها قرباناً مقبولاً لدى عشتروت، ومشاركة لها في تهتكها، وليس ذلك مقصوراً على سوريا الفينيقية بل هي شائعة لدى عباد «البعول» الفينيقية، فتقام المهرجانات الخليعة الماجنة في كل مكان، ولا تكمل عظمتها إلا عندما يبلغ الهياج الجنسي أشده.

وإذا كانت «أشتار» تتقبل بابتهاج تضحية العذارى والنساء عامة بالعفة في معبدها ببابل فإن «عشتروت» كانت تتقبل في مدينة «بيبلوس» الفينيقية هذا القربان المقدس.

ولم تكن الآلهة الأخرى في غنى عن الدماء سواء أكانت دماء العذارى أم دماء الضحايا البشرية، بل كانت تصبو على صورة مختلفة، منها أن عبادها كانوا يذبحون أطفالهم أو يحرقونهم قرباناً لها، كانوا يلقونهم في النار الهادئة وهم أحياء، فإذا اشتد صراخهم من حرارة النار رقصوا وزادت بهجتهم واعتقدوا أن الآلهة تقبل قربانهم.

والإغريق والرومان غرقوا في الفسق والفجور والكفر والوثنية مثل آلهتهم، فزيوس (جوبتير) أكبر آلهتهم كان يعشق الزنا عشقاً، وجاء بابنه «أبولون» من الزنا.

ومصر وبلدان إفريقية وأوربا كانت حالها مثل سائر البلدان الأخرى في الوثنية والفسق والفجور، وفسدت «القيم» الإنسانية في العالم كله.

والفضائل أو الرذائل انعكاس صفات الإلّه أو الآلهة. فما دامت الآلهة فاجرة فاسقة تتعطش إلى الدماء وتبتهج بالمنكرات والموبقات فإن من البديهي أن يعتقد الناس أن الفسق والفجور والعهر والعربدة والسكر والنهب والسلب والفساد فضائل مطلوبة، وشرائع محبوبة، وديانات مقدسة.

هكذا كان العالم كله دون استثناء، ولم تكن حال الجزيرة العربية بخير منها كثيراً، وإن كانت الصفات العربية ما تزال فيها خلائق كريمة، فقد كانت الجزيرة كما وصف أهلها جعفر الصادق رضي الله عنه في قوله للنجاشي ملك الحبشة: «كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف».

وضاعت صحف إبراهيم، وحُرِّفت التوراة، وفقد الإنجيل، وما نقله مؤلفو الأناجيل من كلام عيسى محرف، وهذه الأناجيل زاخرة بما ينقض رسالة المسيح ويهدم دينه، وكل كتب العهد القديم والجديد مشحونة بالكفر والشرك والباطل والبهتان، وباتهام الرسل والأنبياء بما يقوض عصمتهم ونزاهتهم، حتى أن الله عز وجل نفسه بعظمته وجلالة قدره وكماله المطلق لم يسلم من الأباطيل.

وتواريخ الرسل وسيرهم صارت مجهولة، وأشبه بالخرافات والأساطير، مما حمل علماء باحثين من اليهود والنصارى وممن يدعون الإسلام وهم غير مسلمين حقيقة على إنكار وجودهم وشخصياتهم، وإنكار الكتب التي أنزلت عليهم مما يعرف بأسفار العهدين.

وإذا كانت هذه حال العالم، وكان غريقاً في الباطل والكفر والظلم والبغي والفساد والوثنية، وضاعت منه الكتب المنزلة بنصوصها الصحيحة، وخفيت معالم سير الرسل وتواريخهم في

الأباطيل والأوهام والأساطير، وزاد الفساد، وأربى في الفترة التي كانت بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ولم يظهر خلالها رسول حتى صارت المسيحية وثنية، وزالت الشرائع السماوية وحل محلها سلطان الهوى فإن ضرورة الوجود الإنساني تقضي بظهور رسالة جديدة تنقذ العالم مما فيه.

ومما لا شك فيه أن كلام الله عز وجل، وسير الرسل وتواريخهم وأقوالهم وأفعالهم تعين الإنسان على الحياة الفاضلة، ولم يكن شيء من ذلك في العصر الذي ولد فيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان الأمر كذلك وكان الفساد عاماً وليس وقفاً على قطر أو شعب كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى رسالة عامة لا تكون وقفاً على قطر أو شعب، وخاصة بزمن بعد أن تهيأ العقل الإنساني لفهم رسالته الإنسانية مع ما ساد العالم من الفساد.

هذه الحال تقتضي رسالة إنسانية عالمية لأن الفساد وسع العالم كله، كل أمم الأرض في حاجة إلى دين جديد حق ينقذها مما هي فيه، وينقذ مجتمعاتها من المحق والانهيار، وليس معقولاً أن يرسل الله عشرات الرسل أو مئاتهم في وقت واحد إلى مئات الأمم والشعوب والقبائل حتى لا تتناقض شرائعهم باختلاف الأجناس والبيئات، ولأن القصد إنقاذ الإنسانية بدين واحد تستظل به يجمع مزايا الأديان الصحيحة السابقة ويزيد عليها، وتهتدي برسول واحد يلتقي في شخصيته أكرم ما في شخصيات الرسل بحيث

يفضلهم جميعاً، ويكون خاتمهم طراً، ويرجح عليهم بمزايا لم تكن لأحد منهم، ويكون من العظمة بحيث يسع الإنسانية منذ كانت حتى تنتهي، يسعها بضخامتها واتساعها وعظمها وتجددها وامتدادها طولاً وعرضاً.

لا بد للإنسانية كلها من رسول واحد يقودها إلى الخير، ولا بد أن يجتمع في الرسول الجديد من الصفات والمزايا ما لا يوجد في إنسان يعيش على وجه الأرض في ذلك الزمان وفي كل زمان ليكمل بالرسالة فيكون أفضل الخلق جميعاً وأكرمهم على الله.

الإسلام دين الرسل جميعًا

الإسلام دين محمد النبي العربي المولود بمكة والمبعوث منها دون غيره من الرسل الذين سبقوه برسالة الله إلى خلقه؟.

نأخذ الجواب من محمد نفسه صلوات الله وسلامه عليه، فقوله فصل الخطاب، فماذا يقول محمد؟ إن القرآن الكريم الذي أوحي به إليه من ربه منجمًا هو الجواب ـ خير الجواب ـ الذي قدمه محمد نفسه.

قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ ﴾

آل عمران: ١٩.

ولكن أيفهم من هذه الآية أن «الدين» كل دين سماوي هو الإسلام؟ ونحن نجيب أن مفهوم الآية كذلك، ودليلنا القرآن نفسه إذ يقول:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ الشورى: ١٣ - ١٤.

ونوح عليه وعلى جميع الرسل الصلاة والسلام، وهو أولهم يقول كما يحكي القرآن: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٧٢.

وسائر الأنبياء والمرسلين مسلمون لأن ما جاءوا به من الدين ليس إلا الإسلام.

ويقول القرآن في إبراهيم وإسماعيل:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ البقرة ١٢٧ - ١٢٨.

ويقول القرآن الكريم في إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عن مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيَا وَإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أسْلِمْ قَالَ أسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بها إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ * أمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلَٰهَكَ وَإلَٰهَ آبائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ إلَٰهاً وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٠ - ١٣٣.

ويقول القرآن على لسان يوسف: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يوسف: ١٠١.

ويقول على لسان موسى:

﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٨٤.

ويقول في عيسى:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٥٢.

ويوجز القرآن الكريم معتقد جميع الرسل والأنبياء فيقول: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦.

فرسالة الله إلى خلقه «الإسلام» ومن تقبلها واتبع سنتها فهو مسلم.

والمقصود من الإسلام: الإيمان بوحدانية الله ونفي الشريك، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكان هذا هو مفهوم «الإسلام» لدى الأنبياء طراً، وهو المفهوم نفسه الذي فهمه من اتبعوهم أو خالفوهم وكفروا بهم وبربهم.

يقول القرآن في قصة موسى وفرعون:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ

بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠.

فالإسلام ـ على هذا ـ دين كل الرسل، لأنه قائم على عقيدة التوحيد ونفي الشريك، وهؤلاء الرسل جميعاً دعوا إلى التوحيد حتى إذا دخل الشرك في الدين بعث الله رسولاً بدين الحق الذي هو الإسلام، ليعيد الناس إلى حظيرة الدين من جديد، حتى كان عصر محمد عليه وعلى إخوته رسل الله الصلاة والسلام، حيث فقد الدين روحه وأصله، واستحال وثنية، واختفت صحف إبراهيم، وتحرفت التوراة والإنجيل، وشاهت سير الأنبياء، وأصبح الشرك عقيدة الناس إلا من رحم ربك.

وما دام العالم كله قد فسد، وما دامت الإنسانية كلها ضلت طريق الحق، ولم ينج قطر أو شعب، بل تساوت الأقطار والشعوب في اعتناق الوثنية والابتعاد عن التوحيد فإن عدل الله ورحمته اقتضيا رسالته للبشر رجاء إنقاذهم مما انتهوا إليه.

ومع الفساد في العقيدة كانت فلسفة اليونان وحكمة الصين والهند وفارس وآدابها وآداب غيرها من الأمم، ولكن ذلك كان معواناً على فساد العقيدة، لأنه قائم على الوثنية والشرك بجميع أنواعهما.

ففلسفة اليونان وثنية، وحكمة الشرق وآدابه وثنية، أما

كلمات التوحيد التي جاءت في ديانات العالم المختلفة فلم يكن الإسلام الذي جاء به النبيون، بل هو توحيد ينقض توحيد الديانات، والخلاف بين التوحيديين في غير حاجة إلى برهان لوضوحه.

وكان من حق العباد على الله ألا يتركهم في ذلك الضلال، وكان لا بد من رسالة أو رسالات بعدد شعوب الأرض وحسب استعدادها الفكري والحضاري والثقافي لتلقي وحي السماء.

وبَعْث رسل يبلغون المئات في وقت واحد يقتضي أن تكون كل رسالة خاصة بمن تبعث إليهم، وكان لا بد لكل رسالة أن تكون على قدر مستوى من ترسل إليهم، ولا بد أن تختلف الشرائع باختلاف الشعوب وحظها من الثقافة والعقل والعرفان.

وستعود حال الشعوب كما كانت مثلما حدث مع أمة نوح وأمة إبراهيم وأمم الأنبياء الآخرين كموسى وعيسى، وعندئذ تقتضي الحال بعث رسل جدد، وهكذا، وفي ذلك تكرار وإقرار للاختلاف في الشرائع وتطبيق الأحكام.

ولما كان العقل البشري قد ارتفع من الحضيض الهمجي بفضل رسالات الرسل السابقين وفلسفة الفلاسفة وحكمة الحكماء وآداب الأمم التي تطورت، فإن دواعي الرسالة تغيرت عن الدواعي السابقة، وكانت الضرورة تقتضي بختم رسالات السماء برسالة عامة متجددة من تلقاء نفسها بحسب الظروف لأنها تصلح لكل زمان ومكان ولكل مجتمع بحسب مواهبه وقدراته وملكاته.

وما دام العقل البشري قد استيقظ فكان لا بد من رسالة يفهمها العقل ويقرها الوجدان إذا أرادا الخير وتجردا من التعصب المقيت وتحررا من القيود.

ولهذا ختمت الرسالات برسالة الإسلام، وختم الرسل بمحمد عليه الصلاة والسلام.

ولم تكن رسالة الإسلام التي بعث بها محمد إلا بعثاً لرسالة الرسل السابقين، إنها رسالة التوحيد التي اتفق الرسل عليها اتفاقاً تاماً فدعوا إليها أممهم، فآمن منهم من آمن، وكفر من كفر، ثم انتهت رسالة كل رسول بانتهائه أو بانتهاء أتباعه المخلصين لينحدروا من جديد إلى الشرك.

والإسلام نقيض الشرك، لأنه دين توحيد يقوم على الوحدانية الثابتة ونفي الشريك أياً كان جنسه ونوعه، والشرك تكرار الواحد على صور مختلفة، وأن مجرد تكرار الواحد مع الإيمان بصفات الواحد الأول قول بالشرك ونفي للتوحيد، وهو أمر يناقض الدين الذي هو الإسلام.

يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٤.

و﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ آل عمران: ٨٣.

فالإسلام دين كل الرسل، بل دين من في السماوات والأرض، لأن كل الخلق مسلم مرجعه لله وحده، أو هكذا يجب أن يكون، وهو نقيض الشرك، وما من رسول إلا جاء به ودعا إليه، ومحمد مثل سابقيه من الرسل، لم يجيء ببِدْع، ولكنه جاء بدين الله الذي جاء به من سبقه من الأنبياء والمرسلين.

وإذا كان الدين الذي جاء به الرسل جميعاً واحداً لا خلاف فيه بين أحد منهم وغيره، ولا فرق في مفهومه لديهم فإنه هو نفسه الذي جاء به محمد، فالدين السماوي في كل زمان وكل مكان هو الإيمان بوحدانية الله، وإفراده بالعبادة دون غيره، والاستسلام له بالطاعة في الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه.

هذا هو مفهوم الدين الذي هو الإسلام نفسه من ناحية العقيدة، ويختلف الإسلام الذي جاء به محمد عن الإسلام الذي جاء به من سبقوه من الرسل في الشريعة وليس غير الشريعة التي تؤدي معنى نظام الحكم والتعامل فيما بين البشر.

إن دين كل الرسل واحد وسواء من جهة العقيدة التي لا

يتناولها التغيير بحسب الأزمنة والأمكنة، الله واحد لا شريك له، هذا هو المعتقد الذي لا يتبدل بتبدل الظروف والأحوال، أما الشريعة فتتغير، فما كان يصلح من الشريعة لقوم نوح لا يصلح بمجموعه لقوم إبراهيم أو موسى أو عيسى، وهذا يفرض تغير الشريعة ليناسب الأمة التي تتبعها.

ومن هنا جاء الاختلاف ويجيء بين الشرائع، لأن ظروف البشر وأحوالهم الدنيوية يجوز عليها الاختلاف والتغاير، فكان لزاماً على كلٍ شريعة صلاحها للأمة التي تتبعها، ومنظور في الشريعة إلى تهيؤ العقل لقبولها، وتهيؤ المجتمع لتنفيذها، والمستوى العقلي والاجتماعي والحضاري، وإلى الأحوال عامة.

ووحدة العقيدة لم تفرض وحدة الشريعة على الأمم في العصور التي سبقت محمداً صلى الله عليه وسلم، لتكون الشريعة كفاء مستوى الأمم وطاقاتها، حتى إذا جاء الإسلام الأخير خاتماً للأديان وجب أن تكون هناك شريعة تختم الشرائع السابقة، ومن هنا كانت وحدة العقيدة مقرونة بوحدة الشريعة، لأنه لا مجال بعد الإسلام خاتم الأديان ومحمد خاتم الرسل لشريعة جديدة يأتي بها رسول جديد.

ولتكون شريعة الإسلام صالحة كل الصلاح بنيت من قبل الله على قواعد متينة راسخة، وأصول ثابتة، ومبادىء محكمة، وجعل الله باب الاجتهاد مفتوحاً للبشر حتى يستطيعوا أن يضعوا من الأنظمة والقوانين ما يساير التطور والتجديد قياساً على الأنظمة

والقوانين المنصوص عليها في شرع الله، ولهذا كان «القياس» الركن الرابع في مصادر التشريع الإسلامي اللاتي هن: القرآن الكريم، والسنة المحمدية، والإجماع، وهناك فروع لأصول التشريع ذكرها أئمة الفقهاء ضماناً لمسايرة التقدم الإنساني والحضارة والتجديد.

وإذا كان الإسلام الذي جاء به محمد هو نفسه الذي جاء به الرسل قبله فإن في دين محمد فضلاً على ما سبق، وهذا الفضل الذي هو أصيل في عقيدة التوحيد قائم على مزيد من صفات الله المثلى وأسمائه الحسنى لم يكن معروفاً لدى الأمم السابقة لأن عقولها لم تنضج ـ بعد ـ لفهم معاني الصفات والأسماء التي وردت في الكتاب والسنة، ووردت في دين محمد حتى تكون العقيدة وافية كاملة في غير حاجة إلى المزيد لأنه الختام، ولأن العقول والمدركات الحسية تهيأت لفهم الكمال المطلق والتنزيه الحق.

ومن هنا كان دين محمد كاملاً فيما يتصل بالعقيدة وفيما يتصل بالشريعة، والكامل والختام ـ بالضرورة ـ يقضيان على الاستدراك والتعقيب، لأن الكامل لا يتعدد، والختام لا يتكرر، ووجب على هذا الدين ـ لأنه كامل وختام ـ أن يكون دين الإنسانية كلها، وأن يكون محمد رسول الإنسانية أجمع، لا فرق بين أمة وأمة ولا فرد وفرد.

ولهذا كان الإسلام ديناً مفتوحاً للجميع على مدار الزمان،

ودعا محمد البشر عامة، وكل ذوي الديانات والملل والنحل دعوة واحدة.

وإذا نظرنا إلى كل دين صحيح في نبعه الأول ظهر لنا الفارق بينه وبين دين الإسلام ظهوراً واضحاً، فدين نوح كان خاصاً بقومه، ودين إبراهيم كان وقفاً على قومه، وكذلك الأمر بالنسبة للأديان الأخرى. فديانة موسى خاصة بقومه بني إسرائيل، ولم يدخل فيها أحد من المصريين، وغادر موسى ومعه بنو إسرائيل وحدهم مصر ومروا في طريقهم بأناس لهم دياناتهم الوثنية فما دعاهم موسى إلى دينه. وما تزال ديانته حتى اليوم مغلقة على اليهود وحدهم.

وديانة عيسى عليه السلام لم تتجه في حياته إلى غير بني إسرائيل حتى أنه قال: جئت لخراف بني إسرائيل الضالة، ولم يدع إلى دينه رومانياً أو عربياً أو فارسياً أو أي أحد من ذوي الديانات القائمة في عصره.

ومما يؤكد «خصوصية» ديانة عيسى أنه أعلن لملأ بني إسرائيل أنه لم يأت لينقض الناموس، وما حاجته إلى نقض الناموس وقد جاء لرد بني إسرائيل إلى حظيرته.

أما ديانة محمد عليه الصلاة والسلام فمنذ نزل عليه الوحي من السماء كانت ديانة عامة مفتوحة للبشر جميعاً، لأنها موجهة إلى رشد الإنسان وحجاه وقلبه وروحه بصرف النظر عن اختلاف بني البشر، وآية ذلك أن أول الداخلين فيه لم يكونوا عرباً وحسب، ولم

يكونوا ذوي ديانة واحدة، فقد دخل في الإسلام العربي وغير العربي، ودخل فيه الوثني والمجوسي والمسيحي واليهودي ثم البوذي والبرهمي والكنفوشي، والسيد والعبد والعتيق.

وكل هذا برهان على أن الإسلام موجه إلى كل البشر دون تمييز من أول أيام الدعوة بل من أول يوم فيها، فقد دخل فيه من مختلف الأجناس والديانات بخلاف جميع الأديان السابقة صحيحها وزائفها، تلك الأديان التي كانت مقصورة على شعوبها أو أقوامها أو قبائلها، وجميعها ديانات محلية محددة بزمان ومكان يحصرانها حصراً، حتى المسيحية في عهد المسيح عليه وعلى الأنبياء جميعاً الصلاة والسلام كانت محصورة بقومه بني إسرائيل في حياته، ولم يفتح أبوابها غير بولس الذي جاء بعد المسيح.

دعا الإسلام اليهود والنصارى، ودعا المجوس، ودعا المشركين والوثنيين، وسائر البشر، فلبى دعوته من كل دين ولغة ووطن، ودخل في دينه ذوو عقليات كبيرة وثقافات واسعة وجاه عريض وسلطان مسموع من جميع الديانات والأجناس والأوطان واللغات، لأنهم وجدوا «الإسلام» قد وَسِعَ أصول الرسالات السابقة من جهة العقيدة الصحيحة، وزاد عليها إيضاح الوحدانية المنزهة وصفات الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء، ولا شريك له.

وليس الإسلام الذي جاء به محمد ديناً صعباً عسيراً لا تطيقه النفس البشرية أو لا تطيق بعضه، بل هو دين سمح سهل

في العقيدة والشريعة، خلا من التعقيد والصعوبة على الإدراك وعلى العمل، وسلم مما لا يسلم به العقل، بل هو دين العقل الرشيد والذوق السليم، وكلما كبر العقل وتطور زاد إيمانه به وقدره إياه.

ومنذ ظهوره حتى اليوم لم يستكبر عليه مفكر إسلامي مهما بلغ من العقل والعلم، لأنه دينهما الحق، العقل يكبره، والعلم يؤيده، ولا خصومة بينه وبينهما، بل هو يشيد بالعقل ويحتكم إليه، ويدعو إلى العلم كله ويشجع على الاستزادة منه والتبحر فيه.

والعقل والعلم لن يقضيا على الإسلام أو يخاصماه إذا عرفا حقيقته، أما المسيحية ـ على سبيل المثال ـ فقد خاصمت العقل والعلم وحكمت على كثير من أصحابهما بالموت حرقاً أو ذبحاً، ولما وجد القوة والحرية خاصما المسيحية حتى زوياها زياً، لأنهما قررا أنها لا تصلح لبناء المجتمعات العصرية الحديثة المتطورة المتقدمة، ولا تصلح أن تكون حَكَمًا فيها، ولا قاعدة للتعامل بها في الحياة العامة والخاصة وفي التجارة والاقتصاد.

ومن الغريب أن العقل والعلم اللذين أصدرا حكم عزل المسيحية في المهد هو عقل مسيحي وعلمُ مسيحيين لا يتهمون بعدائها لأنهم يعتنقونها عقيدة.

وكذلك القول في سائر الديانات والملل والنحل التي ما تزال تعيش منذ أقدم العصور إلى عصرنا هذا، إنها ديانات عقيدة، ولم

تعد ديانات شريعة، وهي في رأي أتباعها من المفكرين المتحررين من ربقة التعصب ديانات وثنية تقوم على الشرك وفساد المعتقد.

ودين الإسلام سمح سهل لا تعقيد فيه، عقيدته سهلة على كل إنسان، وشريعته سمحة لكل فرد أو جماعة أو مجتمع، وليس في حاجة لفهمه إلى الكهنة وشروح الأساقفة والحاخامين والرهبان ورجال الدين، وكل مسلم رجل دين.

إنه دين سهل واضح، قاعدته: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله واحد، لا يتعدد بالشركاء والأمثال، وفهم هذه القاعدة لا يحتاج إلى معاناة من العقل أو الوجدان، لأنه سهل عليهما، ومنطق العقل والوجدان يرضى بهذه العقيدة.

يكفي لأن يكون المرء مسلمًا أن يقول: لا إله إلا الله، وهو معتقد الوحدانية التي لا تتم إلا بنفي الشريك، فإذا شهد وآمن فإن كمال الشهادة والإيمان يفرض عليه الإيمان بأن محمداً رسول الله، لأنه ـ أي ذلك المرء ـ تلقى الوحي الإلهي عن طريق محمد، فإذا لم يؤمن بأنه رسول الله انتفى إيمانه بالوحدانية التي أمره من تفرد بها بالإيمان بمن أرسله، وعن طريقه تلقى وحيه.

ولما كانت فلسفة اليونان قد عرفت فيها وفي غيرها من البلدان، ووقف الناس على ديانات الصين ومصر وفارس والهند وغيرها من الأمم، وفقهت آدابها وما كان فيها من علوم وفنون، وانتشر في العالم المتحضر العلم بخصائص الثالوث المسيحي

والبابلي والهندي وغيره، وصفات الآلهة اليونانية وسواها من الآلهة التي تعبد من دون الله، وخصائص «يهوه» رب اليهود وصفاته كان واجباً على الإسلام أن يعرض نظرية التوحيد كاملة بحيث يعرف المسلمون وغير المسلمين أسماء الله وصفاته وأفعاله وأقواله حتى لا يختلط بها ما لدى غيرها مما يناقض نظرية التوحيد في الإسلام.

وأقطع برهان على «عمومية» الإسلام أن كل دين سبقه نسب إلى الرسول الذي جاء به، أو إلى الشعب الموجه إليه، ولهذا سميت الديانة أو نسبت إلى رسولها مثل ديانة نوح، وديانة إبراهيم، وديانة موسى أو اليهودية نسبة إلى الشعب اليهودي، أو ديانة عيسى أو المسيحية لأن عيسى هو المسيح أو النصرانية نسبة إلى الناصرة التي ولد فيها المسيح.

أما الإسلام فلم ينسب إلى رسوله، ولم يعرف بأنه الدين أو الديانة المحمدية، وإنما عرف بالإسلام فإذا أطلق لم يتجه إلا إلى الدين الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام مع أنه في حقيقته دين الرسل جميعاً، ولكنه أطلق على دين محمد لأنه لم يكن ديناً شخصياً أو قومياً، بل كان إطلاقه عليه لأنه دين عموم البشر فعرف به دون كل الأديان الصحيحة السابقة.

ولهذا كان الإسلام خاتم الأديان وكان من جاء به خاتم المرسلين.

الله في الإسلام

الألوهية

ذات الله في الإسلام ذات منفردة بالوحدانية، وأسماؤه الحسنى التي بلغت تسعة وتسعين وصفاته المثلى هي أسماء وصفات تليق بوحدانية الواحد الخالق.

وهذه الأسماء والصفات موجزة في بضعة أسماء يجمعها لفظ الجلالة (الله) وهي: الخالق الرحمان الرحيم الملك القوي العظيم العفو الغفار.

ولفظ الجلالة حينما يطلقه الإسلام يفهم منه أنه المتفرد بجميع أسمائه وصفاته، فهو خالق، والخالق ليس في حاجة إلى من يخلقه وإلا وجب أن تنتفي صِفة الخلق عنه، ومعاذ الخالق أن يكون مخلوقاً، ولا يجوز في حق الله أن يكون خالقاً ومخلوقاً في آن، لأن المخلوق لا يمكن أن يرقى إلى أن يكون خالقاً، ولا يجتمع الضدان في حق الله، فهو خالق أزلي قديم، هو الأول بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية.

ولما كان الله خالقاً اقتضت صفة الخلق العدل والرحمة والجود والكرم والعطاء والرزق، واقتضت السمع والبصر، واقتضت سائر الصفات الأخرى، فكان العظيم المهيمن القوي القادر العزيز الحكيم إلى آخر أسمائه الحسنى.

ولم تكن الألوهية في الإسلام إلا توحيداً كاملاً منزهاً عن التشبيه والتجسيم والتعطيل، بعيداً عن الإشراك والتعدد، هو واحد أحد فرد لا شريك له ولا صاحب ولا ولد ولا أي شيء يشركه في ذاته وصفاته وأسمائه.

ففكرة الألوهية في الإسلام أسمى ما جاء به دين وأكمل ما عرفه، لأن ما سبق من الأديان متفق على التوحيد وفكرة الألوهية، ولكن الإسلام جاء بها تامة كاملة لأنها جاءت في عصر العقل والفلسفة، في عصر عرف الفلسفة أيما معرفة، سواء أكان أصحابها من اليونان والرومان أم كانوا من الهند وفارس ومصر وغيرها من البلدان، في عصر تفتح فيه العقل، وأصبح الوعي الإنساني قابلاً لإدراك فكرة الألوهية تامة كاملة في أسمى ما يمكن أن يكون عليه السمو.

ولما كان الأمر كذلك فقد واجه الإسلام بفكرة الألوهية عصر الفلسفة وتفتح العقل وقدرته على الإدراك والتمييز والنقد وكشف الحقائق وفهم الغيب، واقتضى ذلك أن تكون فكرة الألوهية تامة كاملة مستوعبة كل ما يجب أن يكون فيها، ولهذا زاد على ما سبق من الأديان الصحيحة فيها أوضح من الصفات الخاصة

بالذات الإلهية، ولأنه الدين الختام الذي لا يستدرك عليه ما يجيء بعد أن أعطى الصورة الكاملة لفكرة الألوهية بحيث يجد فيها العقل مهما رجح والعلم مهما ارتقى ما يملأ فراغهما ويجيبهما على كل سؤال.

وتتجلى فكرة الألوهية تامة كاملة في قوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ١-٢.

و﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

الإسراء: ١١١.

و﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ الجن: ٣

و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ الإخلاص: ١ - ٤.

فالله في الإسلام واحد أحد، لا أحد من خلقه يتسامى إليه، ولا كفء له، والتفرد التام نزهه عن أن تكون له صاحبة أي زوج تلد له، وهو نفسه غير مولود، لأنه خالق، والمولود مخلوق، وهو نفسه لم يلد أحداً.

واقتضى هذا التفرد التام أن ينتفي كل شريك له أو كفء، لأنه لو كان هناك كفء لتكرر الموصوف بالكمال المطلق، وتكراره إما أن يكون عبثاً والكامل منزه عن العبث، وإما أن يكون عوناً، ومحتاج العون ناقص، والكامل منزه عن النقص.

وما دام الله لا شريك له في ملكه، فكذلك لا ناصر له من الذل، لأنه النصير كفء أو معين، وليس الكامل في حاجة إلى نصير لأنه ليس هناك من يذله.

ويقتضي تفرده في الألوهية التامة الكاملة التفرد في جميع صفاته وأسمائه، فكما أنه لا شريك له في ذاته فكذلك لا شريك له في أسمائه وصفاته، أما أنه يوصف إنسان بأنه قادر، ومن أسماء الله القادر فليس ذلك من المشاركة، لأن المشاركة تحتم الكفاءة، ولا كفاءة بين القادر الخالق والقادر المخلوق.

ونفى محمد صلى الله عليه وسلم أن يشرك الله أحدٌ من خلقه، سواء أكان ملكاً مقرباً أم رسولاً، وهو نفسه أفضل الخلق طراً بما فيهم الرسل الكرام أولو العزم لم يدع أنه «إله» أو شريك لله، أو أن فيه طبيعة إلهية كما ادعى المسيحيون للمسيح وهو مما ادعوا براء.

ولست أنا المسلم أقول هذا، بل يقوله أناس ممن يتبعون غير دينه، وحسبنا أن ننقل كلمة برتراند رسل فيلسوف بريطانيا المعاصر وأحد المشاهير في العالم وردت في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» ٢ : ١٨٦[١] وهي :

«كانت ديانة النبي (محمد) توحيداً بسيطاً ليس فيه التعقيد الذي نراه في عقيدة الثالوث والتجسيد، ولم يزعم النبي لنفسه أنه إلهي، ولا زعم له أتباعه هذه الطبيعة الإلهية نيابة عنه، وجعل واجباً على المسلمين أن يفتحوا من العالم ما وسعهم فتحه في سبيل الإسلام على ألا يسمح لهم خلال ذلك باضطهاد المسيحيين أو اليهود».

ويقول[١] : «كان المسلمون خلال العصور الوسطى أكثر مدنية وأرق قلباً من المسيحيين، فقد اضطهد المسيحيون اليهود، وبخاصة في عهود الاضطراب الديني، وصاحبت الحروبَ الصليبية مذابحُ مروعة، وذلك على نقيض ما كان في البلاد الإسلامية، حيث لم يسىء أحد معاملة اليهود بأي معنى من معاني الإساءة».

ولم يسىء الإسلام إلى أي أحد من أبناء الديانات الأخرى، فاليهود المعروفون بعدائهم الحاقد للإسلام وللإنسانية وجدوا في جوار الإسلام أكرم معاملة إنسانية، حريتهم مكفولة، ولم

---

(١) الطبعة العربية، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود.

يضطهدهم مسلم أو يتجاوز حده عليهم، بل كانوا يشاركون المسلمين أعمال الدولة الإسلامية.

وهذا برهان على إنسانية الإسلام لأنه دين الإنسانية كلها، رسوله بشر، وعقيدته سهلة، وشريعته سمحة، وكل ما فيه طيب وجميل، ولكل عمل فيه مثوبة جزيلة، حتى العمل الدنيوي، بل حتى اللذة من الاتصال الجنسي الحلال تعقب ثواباً، فكما أنه لو وضعها في حرام كان عليه وزر كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر كما جاء في حديث للرسول الكريم.

وأركان الإسلام خمسة:

- شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
- وإقامة الصلاة.
- وإيتاء الزكاة.
- وصوم رمضان.
- وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وكل هذا سهل بسيط، لا عسر فيه، وكله يبني «إنساناً» صالحاً، ليتكون منه ومن أمثاله مجتمع صالح فاضل تسوده المحبة والرحمة والأخوة، وليس في شرع الإسلام سيد ومسود، بل الجميع سواء، ولا فضل إلا بالتقوى، بالقلب الطيب والعمل الصالح.

الإسلام كله عقيدة وشريعة موجز في هذه الكلمات، كل الإسلام في كلمات ثلاث هن: الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس غير.

الرسل عند أتباعهم وفي الإسلام

مَنْ محمد الذي جاء بالإسلام من عند الله؟ ما سيرته؟ ما رأيه في الرسل الذين سبقوه؟.

إنه النبي العربي، ولد من أبوين شريفين ينتميان لبيتٍ هو أعلى بيت في العرب في الحسب والنسب، في مجد الدين والدنيا، أسرة اجتمعت لها كل مزايا السيادة والسؤدد والسمو، وفقد والده قبل أن يولد، وأمه بعد الولادة فنشأ يتيمًا، حتى إذا بلغ مبلغ الشباب ووصل الأربعين لم ير الناس إلا خير ما يرونه من رجل نموذجٍ في الخلائق الإنسانية الكريمة، لم يشارك الشباب فيما كان مباحاً لهم في شريعة قريش من اللهو، ولم يكذب على أحد قط، ولم يغشَّ أو يسرق أو يحتل أو يراوغ، بل كان أعلى مثل للرجل الفاضل الشريف في كل مزاياه، حتى أجمع الناس على أنه الأمين.

ولما أوحي إليه بالنبوة ثم بالرسالة كان في حياته المثل الأعلى، فهو في الجاهلية النموذج المُتَخَيَّرُ للرجل الفاضل الشريف، وهو في الإسلام المثل الأعلى للإنسان العظيم في كل الخلائق والمزايا.

وتبعه أناس ليسوا من الساقطين المحتقرين في المجتمع، بل تبعه أعلى الناس مكانة وأعظمهم فروسية وبطولة وشجاعة وثراء، وكان فيمن تبعوه فقراء وعبيد، ومثقفون أعلياء، وفيهم الرومي والحبشي والفارسي والسوري، ولأول مرة في تاريخ البشرية يتساوى أفراد الطبقات المختلفة في الحقوق والواجبات مع الاعتراف بالتفاضل فيما بينهم.

ودعا الناس جميعاً من كل لون وجنس ولغة ووطن ودين إلى الإسلام الحق، لأن الإسلام دين الجميع، دين الإنسانية كلها، لا فرق بين أسود وأبيض وأحمر، وقال: إنه خاتم الأنبياء ودينه خاتم الأديان، فما حقيقة ما قال؟ أهو حق؟.

نجيب قائلين: نعم، والحق مع الإيجاب، والبرهان قائم، والواقع نفسه من هذا البرهان. محمد خاتم الرسل حقاً بلا نزاع، فما عرف التاريخ بعده أنبياء ورسلاً إلا بعض المدعين كذبتهم أقوالهم وأفعالهم، وشهدت ألسنتهم على كذبهم، ومضوا بين سخريات التاريخ تبتلعهم مهاويه الفاغرة، وكانوا جميعاً ـ على نَدْرتهم ـ بين طامع في مجد وسلطان، أو أحمق يتظرف، أو عابث يلهو، أو ممخرق يدجل.

ولم يثبت على محمد كذب قط لا قبل النبوة ولا بعدها، وكان أصدق الصادقين، ولو كان باب النبوة والرسالة مفتوحاً بعده لأخبر به، لأنه لن يستطيع أن يكذب على المستقبل المغيب المجهول، ولو كذب عليه لأظهرت أحداثه هذا الكذب، وآية

صدقه عدم ظهور رسول حتى اليوم، مع أن مصلحين كباراً قاموا في هذا الوجود وعملوا من الخير بحيث كانت ثمرات ما عملوا ترجح على ثمرات كثير من الأنبياء، وتركوا آثاراً جليلة أعظم من بعض الرسل، ولو ادعوا النبوة والرسالة لـوجدوا المـلايين يصدقونهم ويؤيدونهم، ولكن هؤلاء المصلحين كانوا صادقين فلم يدَّعوا النبوة أو الرسالة.

وطبيعي أن هؤلاء المصلحين ليسوا مسلمين، لأن المسلمين لن يكذبوا رسولهم بادعاء النبوة، أما أولئك فما يمنعهم عن الادعاء إلا التزام الصدق والحق.

وهذا تصديق الواقع لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم، وتأييد لنبوءته الصادقة المقطوع بصدقها وصحتها.

وصدق محمد أو أمانته التي هي أمثل الأمانات تظهر في كل أقواله وأفعاله، ولا يصح من أمين هو أصدق الأمناء طراً وأمثلهم أن يقول غير الحق، فينفي وجود أنبياء ورسل بعده إذا لم يكن ما يقوله حقاً، لأنهم سيخرجون ـ إذا لم يكن قوله حقاً ـ ويكذبونه، ولكن عدم ظهورهم آية صدقه وبرهان أمانته.

وان من يذكر من سبقوه من الأنبياء والمرسلين ذكراً جميلاً، وينفي عنهم التهم التي ألصقها بهم أتباعهم، ويصفهم بما هم له أهل من صفات الفضل والتنزيه والعصمة، ويعطيهم حقهم من التجلة والتبجيل لا يتصور العقل والمنطق أن يكذب فيزعم ألا نبيَّ

بعده إذا لم يكن واثقاً من نفسه صادقاً في قوله، وحقاً، لم يكن نبي بعده ولن يكون.

ولو كان محمد غير صادق وغير رسول حق لأيد أتباع الرسل السابقين فيما قذفوهم به من التهم الباطلة الكاذبة طمعاً في تأييدهم إياه، ولكنه خالف الأتباع وندد بهم وكذبهم فيما زعموا من التهم الملصقة من قبلهم بأنبيائهم المعصومين.

إن كتب اليهود والنصارى تتهم أنبياءهم ورسلهم الذين يؤمنون بأنهم رسل الله حقاً بشرِّ التهم وأبشع القذائف.

تتهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام بأنه كان يصحب زوجه الجميلة «سارة» ويعرضها على ملوك عصره، ويأخذ منهم تلقاء ذلك هباتهم السخيّة، ويرضى بأن يتخذوها حليلة لا خليلة مع أنها في عصمته.

هذا ما تقوله توراتهم في سفر التكوين أول أسفارها الخمسة التي تسمى «التوراة» وها هو ذا الإصحاح الثاني عشر يقول:

«وحدث جوع في الأرض، فانحدر أبـرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك».

«فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين لما رأوا المرأة أنها حسناء جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتنٌ وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام، فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت: هي أختي، حتى أخذتها لي لتكون زوجتي، والآن هوذا امرأتك، خذها واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له».

وتصور التوراة ابراهيم عليه صلوات الله وسلامه صورة كريهة، تصوره مستمرئاً تجربته مع فرعون فيمضي إلى «أبيمالك» ملك جرار ومعه سارة ليصنع معها ما صنع فرعون، وها هوذا «سفر التكوين» يقول في الإصحاح العشرين:

«وانتقل ابراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار وقال ابراهيم عن سارة امرأته: هي أختي، فأرسل «أبيمالك» ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها، فقال: يا سيد، أأمة بـارة تقتل؟ ألم يقل هو لي: إنها أختي، وهي أيضاً نفسها قالت: هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا، فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة

قلبك فعلت هذا، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطىء إليّ، لذلك لم أدعك تمسُّها، فالآن، رُدَّ امرأة الرجل فإنه نبي، فيصلي لأجلك، فتحيا، وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك.

«فبكر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام في سامعهم، فخاف الرجال جداً، ثم دعا أبيمالك ابراهيم وقال له: ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة؟ أعمالاً لا تُعْمَل عملتَ بي! وقال أبيمالك لابراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟ فقال ابراهيم: إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلوني لأجل امرأتي، وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة، وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليَّ في كل مكان تأتي إليه قولي عني: هو أخي.

«فأخذ أبيمالك غنمًا وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لابراهيم، ورد إليه امرأته، وقال أبيمالك: هوذا أرضي قدامك، اسكن فيما حسُن في عينيك. وقال لسارة: إني قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة، ها هو لك غطاء عين من جهة كل من عندك وعند كل واحد فأُنْصِفَتْ.

وهذه الصورة التي يؤمن بها اليهود والنصارى على أنها صورة إبراهيم وخلائقه وصفاته لا ترضي شريعة الأخلاق في كل

زمان ومكان، وإبراهيم ـ مع كل هذا ـ عندهم أبو الأنبياء.

وما ذنب فرعون إذا أخذ من ابراهيم أخته السليمة من موانع الزواج ليتخذها زوجاً له على السنة المتبعة في ذلك العصر؟.

ولماذا يصحبها معه وهي «امرأة حسنة المنظر» كما يقول إبراهيم نفسه في وصفها إلى أناس غير أمناء؟ إلى أناس فتك بهم الجوع الجنسي؟.

لماذا لا يتغرب وحده طلباً للرزق كما يصنع الرجال الشرفاء إذا قصدوا بلداً غير مأمون فيه على أعراض النساء المتزوجات أو غير المتزوجات؟.

ولماذا يعيد إبراهيم التجربة مع «أبيمالك» عاهل جرار ويخدعه حتى يكاد أن يوقعه في دمار وعذاب أليمين لا يقفان عليه وحده، بل يتجاوزانه إلى مملكته؟ أليس في عتاب أبيمالك ولومه إياه دليلاً على أنه «بسلامة قلب ونقاء يد» تسلم المرأة ليتخذها زوجاً له؟.

أبلغ الطمع بإبراهيم أبي الأنبياء صلى الله عليه وسلم إلى أن يعرض امرأته ليكسب غنماً وبقراً وجمالاً وعبيداً وإماء وأموالاً. ويدع امرأته لعبة في يد فرعون ثم أبيمالك؟ ألا يجوز أن يسطو على عرضها وهي عاجزة ما دام هو نفسه قد عجز عن حمايتها وحماية نفسه؟.

لقد كاد فرعون وأبيمالك يفترسان زوج ابراهيم لولا أن

الرب برز في الوقت المناسب وضرب فرعون وكفَّ يد أبيمالك عن سارة!.

وسيدنا «لوط» عليه السلام لم يسلم من قذيفة ماحقة تمحقه هو وأسرته كما تذكر التوراة التي لا تكتفي بنكبة الرجل في شعبه وامرأته حتى تنكبه في ابنتيه وفي نفسه اذ تذكر عنه أنه زنا بابنتيه عندما سقتاه خمراً حتى فقد عقله ووطئهما[1].

وسيدنا «داود» عليه السلام يزني بامرأة مؤمن حق ومجاهد عظيم هو أوريا الحثي، يترك زوجه بمنزله على مقربة من منزل الملك داود، فيراها من سطح داره وهي تغتسل، فتعجبه، فيحضرها بقوة سلطانه إلى منزله ويزني بها، ثم لا يكتفي بهذا الإثم البشع المبين فيضيف إليه آثاماً غاية في القذارة والعفونة.

وها هوذا سفر صموئيل الثاني أحد الأسفار المقدسة يقول في الاصحاح الحادي عشر ما نصه:

«وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها، وجلست المرأة فأرسلت وأخبرت داود

---

(١) انظر قصة زنا لوط بسفر التكوين بالإصحاح التاسع عشر.

وقالت: إني حبلى، فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إليَّ أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه، فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: إنزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر، فقال داود لأوريا: أقم هنا اليوم أيضاً، وغداً أطلقك، فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل، وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أرويا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، وسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك: لماذا دنوتم من

المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون من علا السور، من قتل أبيمالك بن يَرُبُّوشَتْ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من علا السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل: قد مات عبدك أوريا الحثي أيضاً.

«فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب وقال الرسول لداود: قد تجبر علينا القوم، وخرجوا إلينا إلى الحقل، فكنا عليهم إلى مدخل الباب، فرمى الرماة عبيدك من علا السور فمات البعض من عبيد الملك، ومات عبدك أوريا الحثّي أيضاً، فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب، لا يسوء في عينيك هذا الأمر، لأن السيف يأكل هذا وذاك، شدد قتالك على المدينة واخربها وشدده.

«فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عين الرب».

ثم تأتي بقية قصة داود مع امرأة أوريا وسخط الله عليه بأن يعاقبه عقاباً قذراً بشعاً مقيتاً، ويرسل الله إليه ناثان ليبلغه رسالة ربه.

وها نحن أولاء ننقل من الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني تكملة القصة ما نصه:

«فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل، هكذا قال الرب إله إسرائيل: أنا مسحتك ملكاً على إسرائيل، وأنقذتك من يد شاول، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا وإن كان ذلك قليلاً كنت أريد لك كذا وكذا، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه، قد قتلت أوريا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة، وإياه قتلت بسيف بني عمون، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد، لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحثي لتكون لك امرأة، هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس، لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس، فقال داود لناثان: قد أخطأتُ إلى الرب، فقال ناثان لداود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك، لا تموت، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت وذهب ناثان إلى بيته.

«وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود فثقل، فسأل داود الله من أجل الصبي، وصام داود صوماً، ودخل وبات مضطجعاً على الأرض، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ، ولم يأكل معهم خبزاً، وكان في اليوم السابع أن الولد مات، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات لأنهم قالوا: هوذا لما كان الولد حياً كلمناه فلم يسمع لصوتنا، فكيف نقول له: قد مات الولد، يعمل أشر» الخ.

أي عقاب هذا الذي يعاقب الله به داود، إن الله أنكر على داود فعلته وزناه وما تبعهما من موبقات فيجازيه بفعلته نفسها بل بأشد وأقبح، حيث يجعل قريبه يزني بنساء داود علانية أمام الشعب، وكان هذا القريب هو أبشالوم بن داود نفسه.

وفي الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثاني، بالفقرة الثانية والعشرين هذه الكلمة:

«فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل».

وسليمان عليه السلام موصوم.

وهذا سفر الملوك الأول يتحدث عن سليمان في الإصحاح الحادي عشر قائلاً:

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في

عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون،وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتي كنَّ يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً، وأعطيها لعبدك، إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها».

أيستحق الرسول أن يكون رسولاً أو نبياً إذا استطاعت نسوة أن يملن قلبه وراء آلهة أخرى؟ أيكون رسولاً من لم يتبع ربه تماماً؟ أيكون رسولاً حقاً من يبني معبداً لصنم من الأصنام؟ أيعترف الرسول بآلهة وثنية يعترف السفر المقدس بأنها رجس؟.

هذا ما تقوله الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى عن أولئك الأنبياء والمرسلين، وقد طعنت جميع الأنبياء والمرسلين بما فيهم عيسى عليه السلام، ولم يسلم منها أحد، حتى الله جل جلاله لم تنزهه تلك الكتب، بل جعلته كأحد الخلق فيما يختلف عليه من صفات وأعمال، فهو يأكل ويشرب، ويضل ويخدع ويكذب، تعالى الله عما يفترون.

أما الإسلام فلا يساير تلك الكتب المقدسة لدى أصحابها

فيما اتهمت به الله ورسلـه، فالله في الإسلام يختلف عن «الله» في تلك الكتب، الله في الإسلام رب العالمين، رحمان رحيم، قوي، قادر، لا شريك له، منزه عن التجسيد والتعطيل والتجسيم والتشبيه، لا يحابي أحداً من خلقه، لأنه ليس رب أحد أو شعب وحسب، بل هو رب كل ما هو كان أو يكون، رب الكون أجمع، رب العالمين، يعلم الغيب، وما من ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو محيط بها علمًا وسمعاً وبصراً، وهو كامل مطلق الكمال.

أما رسل الله فهم منزهون معصومون من الكبائر، ولا يمكن لرسول منهم أن يزني أو يعبد الأصنام أو يعترف بها.

وإذا كان إبراهيم أبو الأنبياء ولوط وداود وسليمان وعيسى وهم من هم في مكانتهم لدى اليهود والنصارى مقترفـو آثام فما قيمة الرسالة والنبوة؟.

إن أحقر الناس في جميع العصور لو أخذ امرأته الجميلة يعرضها على الملوك ابتزازاً لأموالهم، وارتزاقاً بجمالها لعُدَّ من الساقطين فكيف والأمر يتعلق بأبي الأنبياء؟ أيصح أن ينسب إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما نسبته إليه التوراة؟ بل أيجوز عقلاً ومنطقاً أن يفعل إبراهيم أبو الأنبياء ما زعمته التوراة؟.

إن الإسلام ينفي عن إبراهيم كل هذه النقائص ويثبت له العصمة والنزاهة، ويصفه بما هو أهله من الصفات الكريمة الفاضلة الكاملة.

وما قيمة داود إذا كان رجلاً هتاك أعراض، زانياً بزوج مجاهد مؤمن، ثم لا يكتفي بالزنا حتى يريد أن يدخل في نسب هذا المجاهد المؤمن ولداً حملت به زوجه من زنا داود وأن يدفعه دفعاً إلى النوم مع امرأته حتى يظن أن الحمل منه، فلما أخفق داود في محاولته مع المجاهد (أوريا الحثي) حكم عليه بالموت تخلصاً منه، ودبر له مكيدة، فقتل مجاهداً شهيداً.

ولم يكتف بهذا فأدخل المرأة ضمن نسائه.

وماذا كانت عقوبة داود من ربه؟ كانت العقوبة أن يموت المولود من سفاح، وأن يسلط الله عليـه ابنه أبشالوم بن داود يزني بمحارمه أمام بني اسرائيل.

إن الله يمقت الزنا، ومع هذا ـ حسب دعـوى سفر صموئيل ـ يعاقبه بأن يزني الابن بنساء أبيه؟.

عقوبة عفنة قذرة يتنزه عنها البشر ذوو النفوس الشريفة، ولكن الكتب المقدسة تتهم الله بأنه عاقب الزاني على زناه بأن يزني الإبن بنساء أبيه.

ولكن الإسلام ينفي عن داود هذه التهمة القذرة لأنها لم تقع من داود، ويثبت له النزاهة والعصمة، ويصفه بما هو أهله من صفات الفضل والطهر والنزاهة والعصمة، ولا يرضى بأي فرية كهذه أن تلتصق برسول أو نبي، لأن الله لا يختار للنبوة والرسالة إلا أكمل خلقه نفساً وطبيعة وفطرة وسيرة وحياة وأخلاقاً، ولهذا

أثبت للرسل جميعاً التنزه عن الكبائر، والترفع على الصغائر.

وجعل الإسلام في صلب العقيدة الإيمان بعصمة الرسل، فإذا زعـم مسلم أن داود عليه السلام زنا استتيب وإلا قتل كفراً، لأنه يكفر بما أنزل الله في كتابه، ومن يكفر فالقتل جزاؤه الوفاق.

ومن هنا تظهر عظمة الإسلام وعظمة محمد عليه الصلاة والسلام، فالله عندهما كامل كمالاً مطلقاً، والرسل جميعاً وعلى رأسهم ابراهيم صلى الله عليه وسلم منزهون معصومون، وكل من يزعم أن في الله صفات من خلقه كالتعب والأكل والشرب فهو كافر ملعون، وكل كتاب يزعم ذلك فهو كتاب مردود كذوب، وكل من يزعم أن الرسل غير معصومين، وأنهم يقترفون الآثام والكبائر فهو كافر ملعون.

والإسلام على حق في هذا، لأن الله كامل حقاً، وأن رسله كرام معصومون حقاً، ومعاذ الله أن يختار الله رسله من المنحرفين الفاسقين، ومن يزعم ما زعمت الكتب المقدسة والمؤمنون بها ففي ذلك اتهام الله بسوء الاختيار والجهل بما سيكون ممن اختار لرسالته، ومعاذ الله أن يتهم بهذه النقائص والأباطيل.

وإذا كانت شريعة الإسلام المبنية على عقيدته تملي على المسلم ألا يتهم بريئاً من عامة الناس أو يقذفه، وينذره بعقوبة قاسية شديدة فإن الإسلام سيغضب على من يتهم الرسل الكرام ويقذفهم بما هم منه براء من تلك الزعمات الباطلة.

والإسلام الذي جاء به محمد لم يوافق اليهود والنصارى على ما جاء في كتبهم المقدسة، ولم يشاطرهم اعتقادهم في رسلهم لأنه اعتقاد باطل، وهو عدو الباطل في جميع صوره وبخاصة فيما يتصل بالله وبرسله، بل أعلن في قوة وصرامة نقيض ما ذهبوا إليه، ودافع عن رسلهم هم أنفسهم دفاعاً بليغاً، لأن السكوت عليه إقرار أو موافقة أو نفاق أو عجز، وليس الإسلام كذلك.

وإن عقيدة الإسلام تفرض مواقفه من الأباطيل والكفر والشرك، ولهذا كان كتاب الإسلام وهو القرآن شديد السطوة على الذين يتهمون رسلهم أو يقتلون أنبياءهم، قوياً في محاربة المبطلين، فنفى ما اتهم بـه الرسل والأنبياء زوراً، وأثبت لهم العصمة بحق، ولم يحاب أحداً منهم إذا أَلَّم بخطأ، بل أشار إليه واستتابه، وذلك الخطأ ليس من الكبائر بل من الخطأ اليسير الذي يقع فيه البشر.

بل لم يحاب الإسلام رسوله الكريم الذي هو أفضل الرسل عندما انصرف عن عبد الله بن مكتوم الأعمى الفقير العامي الذي لا حول له ولا قوة ولا نفوذ إلى بعض رؤ ساء مشركي قريش رجاء أن يهتدوا فيهتدي ألوف الناس تبعاً لهم فيكون منهم للإسلام قوة، وفي الوقت فسحة لابن أم مكتوم يقابله فيه، ولن تسنح الفرص للقاء مع رؤ ساء المشركين مثل الفرصة التي تهيأت.

هذا الإنصراف عن ابن أم مكتوم إلى الرؤساء لم يرض الله فنزل القرآن الكريم على رسوله الصادق الأمين يقول:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾ سورة عبس: ١ ـ ١٠.

وبعد نزول هذه الآيات على رسول الله كان يقول لابن أم مكتوم رضي الله عنه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

فالإسلام دين التوحيد، والتوحيد يفرض على المسلم أن يلتزم الحق الذي هو أحد أسماء الله الحسنى، وليس بين يدي الحق كبير وصغير إلا بما قدم من الصالحات تصدر عن العقيدة الصحيحة، فابن أم مكتوم الفقير الأعمى صاحب عقيدة سليمة، ورؤساء المشركين ليسوا بأصحاب عقيدة صحيحة، فوجب في شرعة عقيدة الإسلام أن يتقدم بين يدي رسوله صاحب العقيدة مهما سفل مركزه الاجتماعي، فالامتياز في الإسلام لصاحب العقيدة.

وعقيدة الإسلام ـ التي لا تحابي ـ لا تعترف بالوسطاء بين الناس وخالقهم، ولا تقر سلطانهم، لأنه لا وسيط بين الله وخلقه، هو لهم جميعاً، ومتى دعوه اتجه دعاؤهم إليه، وليس الله في

الإسلام في حاجة إلى الوسطاء كما هو الحال في اليهودية والنصرانية وسائر الديانات، لأن كتاب الله (القرآن) ليس وقفاً على أحد، بل هو للناس جميعاً، ولا وصاية لأحد عليه يملكه وحده دون غيره، أما التفقه والإمتياز في فهم الدين فليس ذلك سبباً لأن يكون كاهناً يأمر وينهى، بل هو مكلف إذا منحه الله علمًا أن يفيد به من حرمه وألا يكتمه عن محتاج إليه.

وليس لكاهن أن يأمر وينهي، ولا أن يحل ويحرم، بل الأمر والنهي لله، والحلال والحرام بأمر الله، وليس ذلك من حقوق المخلوق، والعلماء مبلِّغون ينقلون ما علموا إلى الذين لا يعملون.

ومن حق كل أحد في الإسلام أن يطلب العلم، وكل مسلم رجل دين، وأن البرهان على ذلك قائم، فأركانه الخمسة كلها لكل مسلم، لا يخص كلها أو بعضها أحداً دون أحد، بل هي للجميع، فشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لكل مسلم، والصلاة فرض على كل مسلم ومسلمة، ومتى حضرت الصلاة كان مباحاً لأي مسلم أن يؤم من حضروا، وليس في الإسلام معبد أو مكان خاص أو هيكل خاص للصلاة، بل كل الأرض طاهرة صالحة لأن يصلى فيها، لأن رسول الإسلام قال «جعلت الأرض لي مسجداً وطهورا».

ولا سلطان لمسجد على جميع المساجد في الأرض، بحيث يكون متبوع المساجد كلها، ويكون لإمامه السلطان على سائر الأئمة في العالم، مثلما نجد في اليهودية والمسيحية، فالهيكل الأول

هو صاحب الكلمة على جميع الهياكل، وإمامه إمام سائر الأئمة، وهما المرجع والمآب في الحكم الديني.

إن المسجد الحرام الذي هو بيت الله، وفيه كعبته قبلة المسلمين أنى كانوا ليس متبوع مساجد العالم مع أنه أفضلها، وليس لإمامه السيطرة على أئمة جميع المساجد، وفي وسع أي إمام أو أي مسلم صالح أن يكون إماماً بالمسجد الحرام.

وثالث الأركان في الإسلام: الصوم، والمسلم مفروض عليه أن يصوم بمجرد رؤية الهلال، ولا كهنة يتولون فرض يوم على الناس، بل مجرد الرؤية، ولم يكن الذين يشهدون بالرؤية أفضل المسلمين بل هم من العامة وأكثرهم أميون، يشهدون برؤية هلال رمضان فيصوم الناس لرؤيتهم.

ورابع الأركان: الزكاة، والزكاة فرض على الغني، وأداؤها موكول إلى ضميره، يعطيها مستحقها برأيه، فإن فقد غني مسلم ضميره تولى الحاكم إخراج الزكاة من مال ذلك الغني.

وخامس الأركان: الحج، وكل مسلم قادر مفروض عليه الحج، وإذا دخل أمكنته لم يكن في انتظاره كهنة يتسلمون منه القربان والنذور، وإملاء النسك عليه، بل يؤدي نسكه حسب السنة، فإن لم يعرف النسك استرشد بمن يعرفون.

وهذه الأركان الخمسة تؤدى بدون وسيط بين الخالق والمخلوق، ولا سيطرة لمسجد على المساجد، ولا سيادة لإمام على

الأئمة الآخرين، بل الأمر واحد للجميع، لأن الإنسان في الإسلام يملك كل الحقوق التي لغيره، فهو قد سوّى بين الملك والسوقة.

ومواقف العبادة في الإسلام تثبت ألا وساطة بين الخالق والمخلوق، فهو يقف بين يدي ربه كغيره دون أن يحتاج إلى وسيط، لأنه هو والوسيط سواء، وما ثَمَّ ما يفصل بين الله وعبده فيأتي كاهن ليكون أداة وصل بينهما. لأنه هو والكاهن سواء، ومتى جاء الكاهن ليقف بين الإنسان وربه أبعد وعوقب وطلب إليه أن يهتدي إلى الحق، وليس الله في حاجة إلى وسيط ينقل إليه دعاء عبده، لأنه يعلم به ويسمع دعاءه قبل الوسيط، فلا ضرورة تلجىء إليه.

ميزة التوحيد في الإسلام

ليست ميزة عقيدة الإسلام ـ بعد ذلك ـ أنها عقيدة توحيد فحسب، بل هناك ميزة أخرى ترتبط بها، أو أن الميزتين واحدة.

فعقيدة التوحيد في الإسلام لا تقوم على وحدانية الله وحده وحسب، لأن دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل دين توحيد أيضاً، ولكنه لم يكن ديناً واحداً لكل الأمم على الزمان كله، بل هي ديانات مخصوصة وذوات أجل تنتهي بانتهائه ليقوم من يجدد أو يبعث برسالة تجدد ما اندثر، وتصلح ما فسد، وتقوِّم ما اعوجَّ.

أما عقيدة التوحيد الإسلامية فهي غير مقصورة على القرشيين الألى منهم رسول الإسلام، ولا على الحجازيين وحدهم، أو على العرب لا غير، بل عقيدة التوحيد في الإسلام للبشرية جمعاء، لأنها العقيدة الكاملة الثابتة الصالحة لكل زمان ومكان، ولم تكن كالتوحيد فيما سبق من العصور أو في العصر الذي ظهر فيه الإسلام بعد فساد عقيدة التوحيد السماوية الصحيحة.

كان التوحيد في السابق خاصاً بشعب، فلما تسلم الأمر بعد موت الرسل الحكام والكهان الموحدون كانوا يقصرون توحيدهم على أنفسهم وشعوبهم، فإذا غلبوا أمة فرضوا عليها نظامهم الديني والسياسي والاجتماعي فرض تسلط واستكبار وسيادة مطلقة، لا فرض تقويم وهداية ومساواة.

فالخضوع من الأمة المغلوبة ليس خضوعاً للتوحيد، ولكنه خضوع للغالب الذي يعتقد التوحيد، ولا وحدة في الحقوق والواجبات، ولا مساواة في الأخذ والعطاء سواء أكانا من الدين أم من الدنيا، فالغالب يسلب حقوق المغلوب وحريته ليقيده بأمره، وينتزع منه حقوقه، ويجرده من آلهته ويفرض عليه إلّهه.

وحوادث التاريخ الكثيرة تثبت ذلك، فالأمة الغالبة تفرض عقيدتها وعاداتها وتقاليدها على الأمة المغلوبة، فالعقيدة الدينية تفرض على أساس أنه طابع الغالب يسم به المغلوب.

فالمسيحيون فرضوا على من بقي من المسلمين في الأندلس عقيدتهم فرضاً، وأخرجوهم من الإسلام قسراً، ولم يفرضوها رحمة بهم وإنقاذاً لهم، بل فرضوها لأنها عقيدة الغالب المنصور، ولم يعترفوا للمسلمين الذين تنصروا بالحقوق التي للمسيحيين.

إنهم فرضوا عقيدتهم الدينية ليلغوا إلّه المغلوبين ويجبروهم على التعبد لمن يعتقدون فيه الألوهية، لا تكريماً للمسلمين المتنصرين وهداية لهم ورغبة في مساواتهم بأنفسهم، بل فرضوا عليهم دينهم إذلالاً للمسلمين المغلوبين.

أما عقيدة التوحيد الإسلامية فغير ذلك، إن أي مغلوب يسلم يكون حقه هو حق الغالب، لأن المقصود الإرشاد والهداية، فكانت المساواة بين الغالب والمغلوب، وإذا آثر المغلوب البقاء على دينه فهو حر، على أن يعطي جزية تلقاء حمايته، وهي جزية لا ترهق كاهلاً، فإذا عجز عن الدفع كان على بيت مال الإسلام أن يكفله هو ومن معه.

فعقيدة الإسلام تحرير عقل الإنسان وتحرير جسده، وكفالته ورعايته ومساواته ببقية الناس في الحقوق والواجبات، ولا تفرق بين أحد من المسلمين، وإذا كان هناك امتياز فهو امتياز التقوى الذي هو امتياز تكليف وحمل أعباء لا امتياز سيادة وقهر وتسلط واستعلاء، لأن التقوى تناقض هذه الأدواء.

وعقيدة الإسلام تعطي الإنسان الحرية والمساواة ليتمتع بهما بالقدر الذي يتمتع به الغالب المنصور، لأن مجرد التساوي في الإيمان بالعقيدة يعطيه المساواة بالغالب ولو كان أعظم الملوك في كل شيء.

ولم يكن تحرير عقيدة الإسلام الإنسانية لتنتفع هي من هذا التحرير أو يستغله الرسول لمصلحته الشخصية، بل يقوم تحرير الإسلام الإنسان ليفيد هو نفسه من هذه الحرية، وينتفع بها قبل غيره مثل تنفسه ينفع نفسه لا سواه.

حرر العبد الرقيق تحريراً صحيحاً، ولم يتخذه عبداً لنفسه،

بل هو سيد نفسه، يستمتع بحريته التي يصعد بها إلى درجة الأحرار الغالبين المنتصرين.

ولهذا كانت رسالة الإسلام للكافة، لجميع الناس على السواء، ومحمد رسول الله إلى الناس كافة، فكما أن الله في الإسلام رب العالمين، فكذلك رسالته إلى الناس جميعاً، ورسوله رحمة للعالمين.

إن الإسلام نزل من السماء ديناً مفتوحاً للجميع بدون تأويل ولا تحريف في النص، أو إضافة شيء من البشر إليه، أو سياسة تقضي بالخروج به من المحلية إلى العالمية، أو تصيداً لجاه وسلطان، بل النص القرآني واضح صريح في عموم الرسالة المحمدية.

يقول القرآن الكريم:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

الأعراف: ١٥٨.

ويقول القرآن: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبأ: ٢٨.

ويقول: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يس: ٦٩ ـ ٧٠.

ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ

ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ الصف: ٩.

ويقول: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١.

ويقول: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ص: ٨٦ ـ ٨٧.

ويقول: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٦.

هذا ما قاله القرآن الكريم، وهو يدل على عموم الرسالة المحمدية وعلى أن الإسلام دين مفتوح لكل إنسان بنص القرآن.

وفي حديث محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو وحي من الله قوله: «أرسلت إلى الناس كافة». وقوله: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».

وأيد محمد قوله بفعله، فوجه رسالات إلى الملوك والرؤساء في عصره يدعوهم إلى الإسلام، ومن هذه الرسالات ما وجهه إلى المقوقس حاكم مصر، وإلى هرقل ملك الروم، وإلى كسرى ملك

فارس، ودعا يهود المدينة ونصارى نجران ومجوس البحرين والوثنيين على اختلاف نحلهم للدخول في دين الله.

وأقوال نبي الإسلام وأفعاله تبرهن على أنه دعوة عامة، ولم يكن هذا العموم الشامل سياسة أو رغبة في التسلط وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، لأن الفتوح الدينية المحمدية كانت فتوح هداية وإرشاد لا حروب قهر واستعباد، ويكفي أن نعلم أن الإسلام رفع العبد الحبشي بلالاً ومهيباً الرومي وسلمان الفارسي وزيد بن حارثة السوري إلى أعلى مقام في الإسلام، فرجحت مكانتهم على مكانة أبي سفيان عظيم قريش وغنيها وصَهر نبي الإسلام - أبي زوج محمد - وعلى أكثر المسلمين.

ولم يكن قدرهم وقفاً على نبي الإسلام، بل توارثه خلفاؤه الراشدون، ففي عهد عمر بن الخطاب جاء لمقابلته أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو الحارث مع رجال من أمثالهما ممّن يعدون سادة مبرزين، وكان ممن حضروا بلال وصهيب الموليان اللذان كانا عبدين ثم تحررا، فأذن عمر لهما قبل أولئك السادة الأكابر فقال أبو سفيان: تالله، لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟ فيرد عليه صاحبه سهيل بن عمرو قائلاً: أيها القوم، إني أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دُعِيَ القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم إلخ».

فمكانة هؤلاء العبيد ارتفعت في الإسلام بالإسلام حتى

علت على السادة الأكابر، ونالوا الحظوة العظيمة التي حرمها غيرهم من سادة العرب الأماجد.

فالدعوة لم تكن خاصة بالعرب، بل كانت لغيرهم أيضاً، للناس جميعاً، ويكفي أن يقول محمد نفسه في صهيب الرومي الذي كان عبداً فتحرر، وكان ألكن: «السباق أربعة: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق الفرس».

فنبي الإسلام يرفع العبدّى من غير العرب إلى مقامه السامق الرفيع فيجعلهم السبّاق معه، ووردت أحاديث كثيرة في مدحهم، وأصبح الرومي والحبشي والفارسي من أبرز صحابة الرسول ومن أعظم الناس في عالم الإسلام، وشهد لهم الرسول شهادات جعلتهم في القمة الشامخة التي لم يرق إليها إلا عشرات من صحابته المقربين.

فالإسلام منذ ظهوره من أول ما ظهر كان ديناً للعامة مفتوحاً للجميع، فدخل فيه أناس من غير العرب ومن أبناء الديانات المختلفة، والأجناس المتغايرة.

اليَومُ الآخِر

عقيدة الإسلام تقوم على المشهود والمغيّب. ويجب الإيمان بـذلك كله، وقـواعد الإسـلام ثلاث: الإسـلام والإيمـان والإحسان.

وقد مرت الإشارة إلى الإسلام، وأركانه تقوم على الشهود والحس، والإيمان يقوم على الغيب، وأركانه الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إن ما وراء الحس يدخل في عقيدة الإسلام، ويجب الإيمان به، والإيمان نفسه قائم على العيان الذي يحس، وعلى الغيب الذي يدرك بالبصيرة الملهمة وبالعقل، والإيمان عقيدة، لأنهما شيء واحد، فلا يكون المؤمن مؤمناً إلا بالعقيدة، وذو العقيدة مؤمن حق الإيمان بالبداهة ولو لم يقم لديه دليل حسي يثبت له ما يؤمن به.

فمعتنق العقيدة الإسلامية مفروض عليه ليكون مسلمًا أن يعتقد بوجود الله اعتقاداً صحيحاً جازماً، والاعتقاد بوجوده يحتم

الاعتقاد بنفي ما سواه من الآلهة التي اعتقد بوجودها الوثنيون، وأن يعتقد بوجود الملائكة وبصحة رسالات الرسل والكتب التي أنزلها الله عليهم، لأن الله أخبر بذلك فيما تلقيناه من كتبه على أيدي رسله.

والإيمان بكل ذلك إيمان بالغيب، وكذلك الإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وقد أوجزت الآيات الأولى من السورة الأولى بعد فاتحة الكتاب ما وجب الإيمان به، وبدأه بالإيمان بالغيب لأنه البرهان على الإيمان الحق.

قال الله تعالى:

﴿ الٓم * ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ١ ـ ٥.

فالإيمان بالغيب سمة المؤمن ومن ضرورات إيمانه حتى لا يكون عنصره وقفاً على المادة الكثيفة، بل قوام الحياة: المادة والروح، فإذا اهتدى الروح تبعته الجوارح والحواس في الهداية ولم يحتج إلى البراهين الحسية لإيجاد الإيمان في نفسه وبقائه فيها.

إن الحجاب القائم بين المادة والروح، والظاهر والباطن،

وبين ما يحس وما وراء الحس يزول عندما يحل الإيمان في قلب المؤمن عن طريق التصديق ولو كان الحس لا يقره أو يرى استحالة وقوعه أو وجوده.

ويستوي لدى المؤمن عالم الغيب وعالم الشهادة، لأن الإيمان أزال الفاصل الذهني فأصبح الغيب والشهادة سواء، وقد يرجح الإيمان بالغيب على الإيمان بالشهادة، لأن ما يشهده قد تخدعه الحواس فيه فيراه بعيداً وهو قريب، وأبيض وهو أصفر، أما ما لا يشهده فإيمانه به لا يختلف، وهو قائم على الدوام لأنه مقتنع به، ولا تخدعه حواسه فيه.

فإيمانه باليوم الآخر حقيقة ثابتة أثبت من المشهود الذي يحسه بما لديه من قدرة الحواس الظاهرة، وليس ذلك بغريب على المؤمن، لأن ضميره هو الذي أحس بأن ذلك اليوم حق لا مرية فيه، ودليله أنه ما دام مؤمناً بوجود الله ووحدانيته وكتبه ورسله فهو مؤمن بما قال الله، والله قال: ﴿ اليوم الآخر ﴾ وما دام الله قال ذلك فقوله الحق، واليوم الآخر آت لا محالة.

وما دام المؤمن قد آمن بوجود الله وهو أعظم من اليوم الآخر فما الذي يمنعه عنه؟.

والإيمان بوجود الله يحتم الإيمان بكل ما جاء عنه في كتبه وعلى لسان رسله ولو لم تفهمه العقول أو تدركه الأبصار والحواس، لأن ما وراء الحس موكول في إدراكه إلى الروح، حتى إذا أدركته الروح تبعتها الحواس في الإدراك والتصديق.

والإيمان بالله مقرون بالإيمان باليوم الآخر، وما أكثر الآيات التي ورد فيها الإيمان بالله مقروناً باليوم الآخر في مجال الوعد الكريم والثناء الطيب وفي مجال الوعيد والتنديد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ٦٢.

و﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾البقرة: ١٧٧.

و﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ آل عمران: ١١٣-١١٤.

و﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا

عَظِيمًا ﴾ النساء: ١٦٢.

و﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾التوبة: ١٩.

وفي مجال الوعيد للمؤمنين وغير المؤمنين قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ البقرة: ٢٢٨.

و﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٨.

و﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ النساء: ٣٨ - ٣٩.

و﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ التوبة: ٢٩.

والإيمان بالله يقتضي الإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر يقضي بالإيمان بكل ما سيكون فيه من أمر الله، من بعث ونشور وحشر واجتماع، ووقوف للحساب، ثم الثواب أو العقاب، حيث يمضي من يستحقون المثوبة إلى الجنة، ومن يستحقون العقوبة إلى النار.

وبعد القيامة والدخول إلى الجنة أو إلى النار لا يكون فناء، بل بقاء سرمدي بلا نهاية، ولن يكون هناك سأم، لأن الإنسان عندما يدخل الجنة لا يدخلها بغرائزه البشرية كلها، بل تزول عنه غرائز الشر والرذيلة، وتزول عنه العادات والنقص، يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ

مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ الحجر: ٤٥ - ٤٨.

و﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فاطر: ٣٤ - ٣٥.

وفكرة البعث في الإسلام فكرة إنسانية يراد منها الخير للإنسان أي إنسان وكل إنسان، وليست مثل فكرة البعث في ديانات السماء بعد تحريفها ومسخها أو في ديانات الوثنيين، لأن صورة البعث الإسلامي صورة كاملة إنسانية، تقوم على الحق والعدل والرحمة، ولا مجال في اليوم الآخر الإسلامي ما يضطرب فيها وراء الموت لدى تلك الديانات ما كان يضطرب قبل الممات، بل اليوم الآخر الإسلامي يوم الحق: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

وإذا عرفنا أن للإسلام بداية فإن آخره غير معروف، لأن امتداده لا ينتهي، ذلك هو امتداد الخلود السرمدي الذي لا نهاية له يدركها البشر بعقولهم هذه.

إن الإسلام يصل الدنيا بالآخرة التي لا آخر لها، فهو يتناول

الإنسان قبل أن يتكون ويخلق في رحم أمه حتى يولد ويحيا ثم يموت ليحيا حياته الأخرى، فإما جنة وإما نار.

نعم، يتناول الإسلام الإنسان قبل الخلق والتكوين، فيأمر بألا توضع النطفة في حرام، ثم إذا كان جنيناً يأمر بالعناية بحامله وبه، وألا يتعجل أحد مولده بإسقاطه تخلصاً منه، وينذر من يفعل ذلك بعقوبة شديدة، فإذا أهلَّ منع من الأذى والقتل، وأمر برعايته وصونه وتنشئته نشأة طيبة، وهكذا حتى إذا أدرك الحياة كان مسؤولاً يزر وزره، ويحمل هو نفسه وقره، فإذا مات استقبله ما قدم من عمل، فإن كان صالحاً ذهب به إلى حيث الأبرار، وإلا مضى إلى حيث يستقر الأشرار.

والإسلام يمشي مع الإنسان حتى ينتهي إلى الجنة أو النار، فهو لا يتركه في الدنيا تتقاذفه أيدي الباطل، بل يريه سبيل الرشد ويدفعه إليه، فإن استجاب فاز وإلا وقع في الشر الذي يفعله هو نفسه بحريته واختياره وإرادته، وفي الآخرة ينعم المؤمن بإيمانه، ويتعذب غيره على عصيانه أو كفرانه، ويصبح الناس جميعاً في اليوم الآخر مسلمين حيث لا ينفع نفساً إيمانها إلا إذا آمنت من قبل، ويتبعون في ذلك اليوم محمداً عليه صلوات الله وسلامه، إذ يمضي إليه كل الناس مسلمين وغير مسلمين، أتباع كل الديانات صحيحها وباطلها ومن لا دين له يتشفعون به إلى ربه وربهم فيشفع لهم بإذن الله.

وفي هذا الموقف العظيم لا تتخلى عن محمد إنسانيته

وإنسانية رسالته، بل يؤكد هذا الموقف أنه رسول إلى الكافة، لأنه يشفع للكافة، ويتخلى عن كل قوم رسولهم، لأن وجود محمد جعلهم يتخلون عن أقوامهم، وصار الرسل والأنبياء كلهم وأتباعهم يتبعون محمداً عليه الصلاة والسلام، فكما كان في الدنيا رسول الكافة صار في الآخرة شفيع الكافة.

والبعث الإسلامي حق، والإيمان به حق الإيمان ضمان للأمن والخير في الحياة، ونكرانه أو ضعف الإيمان به يدفع إلى الشر، ويجلب القلق والخراب، فأحدنا لا يرتكب المخالفة الهينة مثل مخالفة نظام المرور مخافة حساب شرطي المرور، والموظف يعمل الشهر كله انتظاراً ليوم الحساب طمعاً في المثوبة يقبضها وهو الراتب.

ولو فكرنا ـ على الأقل ـ تفكير من لا يرتكب مخالفة نظام المرور، وتفكير الموظف لواظبنا على العمل الصالح، ولكننا غرقنا في المادية حتى نسينا الروح وأغفلنا الإيمان، وأدت بنا المادية إلى نكران غد هذه الدنيا أو تجاهله ونسيانه.

لكل شيء غد، فلهذا اليوم غد نؤمن به وأنه آت لا محالة وإن كان في ضمير الغيب، وللإنسان غد غير هذا الغد المعروف في الزمن، ذلك هو ذريته التي تعقبه فتكون له بمثابة الغد الزمني، وهذه الدنيا لها غد وهو اليوم الآخر.

فلماذا نؤمن بكل غد إلا غد الدنيا فنستعد له بحواسنا وعقولنا وضمائرنا ونحسب حسابه فنعمل له، لأن البعث ليس إلا

نعمة من نعم الخالق لئلا يضيع إحسان المحسن والمثوبة عليه، ولئلا تطغى إساءة المسيء وينجو من العقوبة عليها، وإلا لو لم يكن غد للدنيا لتساوى الخير والشر، والحق والباطل، وسادت الرذيلة، وقد سادت، وتساوت الأضرار مما يدل على أن الإيمان بالبعث مفقود أو ضعيف لا أثر له في تهذيب النفوس وتربية الضمائر.

إن الإيمان بالبعث حق الإيمان يدفع بصاحبه إلى التماس رضا الله واتقاء سخطه، وإن من يفقدون هذا الإيمان لا ينتظرون جنة يعملون الصالحات لتكون طريقهم إليها، ولا يخشون ناراً فيبتعدون عن المحرمات التي تقودهم إليها، وتبع ذلك التهالك على موبقات الدنيا والاشتغال بالشر والأذى والمنكر، لو آمن المسلمون وغير المسلمين بفكرة البعث كما جاء بها الإسلام لما كان للشر والموبقات والرذائل أن تستأسد فتستعبد الناس إلا من رحم الله.

فالإيمان بالبعث جزء من الإيمان بالله، والكفر بأحدهما كفر بالآخر، فإذا آمن بالله وكفر بالبعث أوشك فيه فلا قيمة لهذا الإيمان، وكما أن الإيمان بالله حتم فالإيمان بالبعث حتم، وإن البعث واقع حتمي لا بد منه.

يقول تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ ﴾ الحجر: ٨٥.

و﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ غافر: ٥٩.

و﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ الكهف: ٢١.

و﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيَها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعَىٰ ﴾ طه: ١٥

و﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ الحج: ٧.

و﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

الجاثية: ٣٢.

فاليوم الآخر والبعث والحشر والقيامة مما زخر به القرآن وكثرت آياته وتعددت مشاهده، وكل ذلك حتم لا بد منه كما يقول القرآن الكريم الذي يؤمن به المسلم.

وصور القرآن الكريم أبلغ تصوير اليوم الآخر، وسماه أسماء معدودة كثيرة، فهو يوم الفصل، ويوم الدين، ويوم القيامة،

وحسبنا أن نلجأ إلى القرآن لننقل منه بعض مشاهد هذا اليوم، ففيه الغناء بإيجازه المعجز عن الإسهاب والتطويل.

يقول الله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ﴾ آل عمران: ١٨٥.

و﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ الزلزلة: ٦ - ٨.

و﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۛ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾ آل عمران: ٣٠.

و﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ الصافات: ١٩ - ٢١.

و﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ النمل: ٨٧.

و﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يس: ٤٨ ـ ٥٤.

و﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ

كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ
وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ
ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ
غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا
مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا
إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ
إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ قُلِ ٱللَّهُ
يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا
رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ
مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ

يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ
إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا
يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ
فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ
فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجاثية: ٢١ ـ ٣٧.

هذا تصوير القرآن البليغ المحكم المعجز للحياة والموت وما بينهما، والقيامة وأسبابها ونتائجها، وما يقع فيها من أحداث، وكل ذلك مقصود منه الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان بكل ما أمر به في كتابه العزيز، فمن أطاع فله مثوبة الطاعة، ومن عصى فعليه عقوبة المعصية، وإذا كانت الدنيا ليست دار الوفاء بالأجور في أكثر الأعمال فإن غدها الذي هو اليوم الآخر هو اليوم الموعود فيه بالوفاء.

ويأبى عدل الله إلا أن يستوفي كل امرىء حقه، ولو عمل مثقال ذرة من خير أو شر ولا يظلم ربك أحداً.

فالقيامة والبعث والنشور والحساب ضرورة حتمية لينال كلٌّ جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكل بما كسب رهين.

القضاء والقدر

نظرية القضاء والقدر في الإسلام وفي غيره من المذاهب والأديان كانت ـ وما تزال ـ مثار آراء متباينة وجدل عنيف بين المفكرين حتى اليوم.

وموضوع اليوم الآخر وضرورة إتيانه أديا في الإسلام إلى البحث في القضاء والقدر بحثاً خرج بكثير من الناس والفرق عن جادة الإسلام، وزاغت طوائف وفرق، وما يزال أمر القضاء والقدر يشغل الذهن البشري، واتسع مجال الآراء المتناقضة بين المسلمين وبين المفكرين والفلاسفة والشعراء، وكثرت الأسئلة واختلفت الأجوبة.

كيف قدر الله على المؤمن أن يؤمن ويحسن ويعمل الخير ويجزيه الخير، وقدر على العاصي المعصية، وعلى الكافر الكفر ودفعهما إلى المعصية والكفر دفعاً، ثم يعاقب على ما قدره هو نفسه؟.

إنه أجبر على الفعل حسناً وسيئاً؛ ففي عمله مع المحسن

محاباة، ومع العاصي أو الكافر مجافاة للعدل وإقرار للظلم؛ لأنه هو الذي قدر ما قدر، فأثاب وعاقب، مع أن المحسن لا فضل له في إحسانه، والعاصي أو الكافر لا يد لهما في المعصية والكفر، فكل منهم مجبر على فعل ما فعل، فالمثوبة ليست عدلاً، والعقوبة ظلم.

وافترق المسلمون أنفسهم في القضاء والقدر، كما افترق الذين لم يسلموا، فأهل السنة اتخذوا الطريق القويم ووقفوا موقف الحق في الإيمان بالقضاء والقدر، وغيرهم رأوا آراء بعدوا فيها عن الحق والرشد والصواب، وأما غير المسلمين فكانوا مثلهم في اختلاف الآراء.

والخطأ الذي صحب من تنكبوا طريق أهل السنة مرده إلى عدم الدقة في فهم معنى القضاء والقدر، فقد فهموا منهما معنى الجبر، وآخرون فهموا منهما الاختيار، وغمض على بعضهم فجدَّف، وكل فرقة بنت فلسفتها على حسب ما فهمت.

وقبل أن نسير في البحث نذكر أن عصر الصحابة قد خلا من الاشتغال ببحث القدر وما أشبهه، لأنهم آمنوا بالقرآن، فصدق بعضه بعضاً عندهم، ولم يضربوا بعضه ببعض، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك لأنه مضيعة للوقت، ومدعاة لاضطراب العقيدة أو الخروج عن السنة القويمة.

في كتاب «ذم الكلام وأهله» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ ما ننقله من كتاب «صون النطق والكلام عن فن المنطق والكلام» للإمام السيوطي:

«. . . وأخرج من طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال: «يا قوم، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به».

وأخرج عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احْمَرَّ وجهه، ثم قال: «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا».

فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بحثوا في القدر، وهو بحث لا يجدي، ومشغلة في غير إثمار، فنهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم فانتهوا.

وفهموا من القضاء والقدر ما تطمئن إليه النفوس فرضوا بما فهموا وسكتوا عن الخوض والتفلسف قانعين بالإيمان والعمل.

سئل ابن تيمية عن «جماعة اختلفوا في قضاء الله وقدره خيره وشره، منهم من يرى أن الخير من الله تعالى والشر من النفس خاصة» فأجاب:

«مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق كل شيء

وربه ومليكه لا رب غيره، ولا خالق سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله، نهى عن معصية الله ومعصية رسوله، فإن أطاع كان ذلك نعمة، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب، وكان لله عليه الحجة البالغة، ولا حجية لأحد على الله تعالى، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته، لكن يحب الطاعة ويأمر بها ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم، ويبغض المعصية وينهي عنها ويعاقب أهلها ويهينهم.

وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه، وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه، كما قال تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[1]».

وقال في تعليقه على الحديث الشريف الوارد في صحيح البخاري: «إن الله لما خلق آدم أراه ذريته من اليمين والشمال، ثم قال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي وهؤلاء إلى الجنة ولا أبالي».

«في موطأ مالك وسنن أبي داود والنسائي وغيره عن مسلم بن

(١) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه ٨: ٦٣ ـ ٦٤.

يسار، وفي لفظ عن نعيم بن ربيعة: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ﴾ الآية، فقال عمر: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وفي لفظ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق الرجل للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار».

«وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

«وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض».

«وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنه».

فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» ثم قرأ قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وفي الصحيح أيضاً: أنه قيل له: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «نعم» فقيل له: ففيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وعلق ابن تيمية على هذه الأحاديث بقوله:

«إن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها، فلو قال هذا: إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق، لأن الله علم أنه سيكون بما يقدره من الوطء، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له من الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب، فلو قال: إذا علم أنه سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلاً ضالاً، لأن الله

علم أنه سيكون بذلك، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل، وهذا يروى بالشرب، وهذا يموت بالقتل، فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها»[1].

وقنع الصحابة بالقرآن والسنة وما جاء فيهما، مما يتصل بالقضاء والقدر، ولم يخوضوا فيه طاعة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الخوض بدأ في القدر في عهد بني أمية الذي كان فيه بعض الصحابة وكثير من التابعين، وكان بدء الاختلاف في أمور العقيدة، وجدَّ في صعيدها جديد كان طليعة الخوض الواحل في أمورها بغير ما أنزل الله وبغير ما جاء في السنة.

ودخول أمم كانت تدين بديانات مختلفة أدى إلى انتقال بعض ما فيها من آراء إلى المسلمين، ولكن عصر الراشدين كان قوياً فلم تستطع أن تبرز الآراء الفلسفية، ففي عهد عمر جيء إليه بسارق أمر بقطع يده، وسأله: لم سرقت؟ فأجاب السارق: قضى الله عليَّ، فأمر عمر بقطع يده وجلده أسواطاً، فسئل في ذلك فقال عمر: القطع للسرقة، والجلد لما كذب على الله.

فالسارق فهم القضاء والقدر على المذهب الجبري، فهم أن السرقة مكتوبة عليه، وأنه مجبر على ارتكابها، ولا يد له فيه، وأراد بادعائه أن يبعد عن نفسه العقوبة التي لا يستحقها ـ كما فهم ـ فحدَّه عمر بقطع يده، وجلده لأنه زعم ما ليس حقاً.

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٨: ٦٥ ـ ٦٨.

وسطوة عمر وهيبته وشدته وفهمه النصوص القرآنية والأحاديث على سوائها حسب فطرة المسلم لم تدع لمقولات أمثال السارق مجالاً للظهور، ولكنها كانت موجودة.

وقتْل ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه أدى النِّحَل بعض الحرية.

ويروى[1] أن شيخاً سأل الإمام علياً كرم الله وجهه منصرفه من صفين قائلاً: أخبرنا عن سيرنا إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر، فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي، ما لي من الأجر شيء! فقال: بل أيها الشيخ، عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منقلبكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا؟ فقال علي رضي الله عنه: لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتماً، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا مْحَمَدة لمحسن، تلك مقالة إخوان الشياطين وعَبَدة الأوثان وخصماء الرحمن وشهود الزور وأهل العماء عن الصواب في الأمور، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها، ان الله تعالى أمر تخييراً ونهى تحذيراً، ولم يكلف مجبراً، ولا بعث الأنبياء عبثاً ﴿ ذلك ظن الذين كفروا

(١) لسان الميزان للذهبي: ٣٣٥ طبعة حيدر أباد.

فويل للذين كفروا من النار﴾ فقال الشيخ: وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟ فقال: أمر الله وإرادته بذلك، ثم تلا: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ فنهض الشيخ مسروراً بما سمع.

وهاتين الحادثتين إشارة إلى أن فهم القضاء والقدر خرج عن الإدراك الإسلامي السليم الذي كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلما بعد بالناس عهد النبوة قربوا من التكلم في مثل هذه الأمور حتى خرج كثير منهم عن السبيل السوي، وحتى ضلوا عنه، وكفروا، ونسبوا إلى الله من الصفات ما لا يتفق مع الحق، فنسبوا إليه الظلم ونسبوا إليه المحاباة، ونسبوا إليه ما لا يليق بجلال الله وكمال صفاته وأعماله إلا من عصمهم الله من أهل السنة والجماعة.

وفي خلافة الإمام علي وتفرق كلمة المسلمين ظهرت فرقة الخوارج والشيعة ثم ظهرت فرقة المرجئة، ثم توالى ظهور الفرق المبتدعة والضالة والكافرة والملحدة.

وفي «لسان الميزان»[1] في ترجمة يونس الأسواري أنه «أول من تكلم بالقدر، وكان بالبصرة، فأخذ عنه معبد الجهني، ذكره الكعبي في طبقات المعتزلة، وذكر أنه كان يلقب بسيبويه» ويقال: إن اسمه سويس، وقيل: «سنسويه».

(١) للذهبي ٦: ٣٣٥ طبعة حيدر أباد.

وكان الأسواري في آخر عهد الصحابة، وهو نصراني من أهل العراق أظهر الإسلام، ثم عاد إلى نصرانيته، وتتلمذ عليه معبد بن عبد الله الجهني[1] وغيلان الدمشقي[2] واعتنقا قالته في القدر، ولكن معبداً هو الذي صحب الأسواري وأخذ عنه، وعن معبد أخذ غيلان.

ومعبد هذا أول من ابتدع القول في القدر في الإسلام، وتحدث به في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأفسد عقيدة من خدعهم زخرف قوله وخلابة منطقه وحججه، وانتهى به أمره إلى أن قتله عبد الملك بن مروان سنة ثمانين وصلبه بدمشق.

وكان غيلان الدمشقي ـ تلميذ معبد ـ يزعم أن القدر خيره وشره من الإنسان، وقتله ـ على رواية ـ هشام بن عبد الملك سنة ثمانين بأن قطع يديه ورجليه ثم جزَّ رأسه.

وكان من بقي من الصحابة الأجلاء مثل عبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وعبد الله بن أبي أوفى، وعقبة بن عامر الجهني وغيرهم يتبرأون من معبد وغيلان والجَعْد بن درهم، وكانوا يوصون الناس

---

(١) اختلفت الأقوال في اسم أبيه وجده وقيل: إنه معبد بن خالد بن حكيم (أو عكيم أو عليم) أو معبد بن عبيد الله بن عويمر أو معبد بن عبد الله بن عويم.

(٢) غيلان بن أبي غيلان بن مسلم (أو غيلان بن مروان) الدمشقي، في القدر ضال، ومن بلغاء الكتاب، كان من أصحاب الحارث الكذاب المؤمنين بنبوته، يزعم أن زوجة الحارث بن سريج المتنبي الكذاب أَمّ المؤمنين، وكان قدرياً زنديقاً (لسان الميزان ٤: ٤٢٤).

بألا يسلموا عليهم وعلى القدرية عامة، وألا يُصَلُّوا على جنائزهم، ولا يعودوا مرضاهم[1] ويروى أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية بالمسجد النبوي الشريف ويقول محذراً الناس: إن معبداً يقول بقول النصارى.

ومذهب هؤلاء قائم على الحرية المطلقة والاختيار المطلق من قبل العبد، وهو نقيض الجبر الذي يجعل العبد مجبراً لا إرادة له ولا اختيار.

وليس يسيراً علينا أن نلم بالفرق التي افترقت، وذهبت مذاهب مختلفة في مسألة القضاء والقدر، ولكي نلم بأعظمها نكتفي ببضع فرق نوجز القول في مذاهبها التي لا تتفق مع مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب الشيعة الإمامية المتفق مع أهل السنة.

---

(١) كتاب الفرق بين الفرق تأليف أبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي مطبعة المعارف، تحقيق محمد بدر.

القدرية والمعتزلة

نبدأ بالقدرية لأنهم أسبق من الجبرية كمذهب ذي أتباع، وقد مرت الإشارة إلى مولد المذهب وأساسه، وإلى أئمتهم معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم.

والقدرية ليسوا كما يفهم منها أنهم يقولون بالجبر، بل هم الذين يقولون بالاختيار المطلق مع القدر، وكيف يسوغ أن يسموا هذه التسمية وهم ينفون القدر، وقيل في تعليل ذلك: إن الاسم نسبة لنقيض ما يذهبون إليه من القول، وقيل: إنهم نفوا القدر عن الله وأثبتوه للعبد، وقيل غير ذلك، ويسمى المعتزلة قدرية، لأن قولهم في القدر هو قول القدرية، ولكن لهم آراء أخرى جديدة زادوا بها على القدرية في غير مسألة القضاء والقدر.

وإذا كان السابقون إلى القول بالقدر هم معبد وغيلان والجعد فإن أئمة المعتزلة مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حذوا حذوهم[١] وكلهم متفقون في مسألة القضاء والقدر،

---

(١) سمي المعتزلة قدرية لأنهم أخذوا القول بنفي القدر فعلق بهم، ويعد =

ويدعون أنهم إنما ينفون عن الله الظلم بما يذهبون إليه من القول، فالعبد ـ عندهم ـ حر في فعله سواء أكان خيراً أم شراً، وله الاختيار المطلق، وتعالى الله أن يجبر العبد على الشر ثم يعاقبه عليه، وهذا ظلم لأنه يجزيه على فعل ليس فعله، وتعالى الله عز وجل عن الظلم، لأن للعبد الحرية المطلقة في الفعل الذي يريد، وله الاختيار التام فيما يشاء.

وتقول القدرية والمعتزلة في ادعاء نفي الظلم عن الله: أيخلق الله أفعال العباد ويقدرها لهم ثم يعاقبهم عليها؟ أليس من أجبر غيره على معصية ثم عذبه عليها كان ظالماً؟ ومن أعان فاعلاً على فعل الظلم ثم جازاه عليه كان جائراً[1].

وهم بذلك يردون على أهل السنة وعلى الجبرية، ولا يقولون: إن الله خالق أفعال العباد لينفوا عنه الظلم كما يعتقدون، ويثبتون القدر للإنسان حتى يحاسب، ويزعمون: أن العبد إذا لم يكن قادراً على فعل ما يفعل وترك ما لا يريد أن يفعله لما كان موضع التكليف فالمكلف يجب أن يكون حرّاً مطلق الحرية مختاراً تام الاختيار حتى يكون أهلاً للتكليف، وإلا بطل التكليف، ويتبعه بطلان العقوبة والمثوبة، لأن مسلوب الإرادة والحرية والاختيار لا يحاسب، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فما كان في

= المعتزلة غيلان الدمشقي واحداً منهم، وابن قتيبة الدَّينَوري وأبو منصور عبد القاهر البغدادي وغيرهم لا يفرقون بينهما.

(١) ابن حزم.

قدرته من الأفعال هو الذي يكلف به، وما كان خارجها فهو غير مكلف به، مثل الحركة الإرادية وغير الإرادية، فالحركة الإرادية كالسير والأكل وفعل ما يقدر عليه هي التي تجعله موضع التكليف، وغير الإرادية مثل الارتفاع بجسمه من غير رافع أمر لا يدخل في مدار التكليف.

والقدرية والمعتزلة مجمعون على نفي الظلم عن الله عز وجل، ولهذا قالوا بنفي القدر عن الله وإثباته للعبد، ولكنهم اختلفوا في قدرته على فعل الظلم، فإبراهيم النظام ذهب دون أصحاب المذهب جميعاً إلى نفي استطاعة الله فعل الشر، وعدم قدرته على ظلم أحد أصلاً، لأن فاعل العدل لا يستطيع أن يوصف بقدرته على فعل الظلم، ولم يوافقه المعتزلة وبخاصة معتزلة البصرة على زعمه إذ أخذوا بقول أبي الهذيل: إن الله قادر على فعل الظلم ولكنه لا يفعله لحكمته ورحمته، ولأن الظلم ناجم عن النقص، ولا يجوز النقص على الله تعالى، ولأن القدرة تقوم على النقيضين، على الفعل وعلى ضده، فلا يقدر أن يفعل العدل من لا يقدر على الجور.

وكان معتزلة البصرة قبل أن يتبعوا أبا الهذيل يأخذون برأي واصل بن عطاء في جواز وقوع الشر من الله تعالى كالمرض والقحط والنوازل، لأن هذه شر على المجاز، إلا أن عباد بن سليمان أنكر عليهم هذا القول فأنكر أن يخلق الله شيئاً من الشر أصلاً ولو كان من نوع المرض والقحط والعقوبات، وإن كان متفقاً معهم على أن

الله قادر على الشر ولكنه لا يفعله[1].

ولكن هذا الخلاف لا ينقض إجماع القدرية والمعتزلة منهم في هذا الأمر على نفي الظلم عن الله وإثبات العدل له، فالله عادل لا يفعل الظلم ولا يظلم عباده، وإنما يريد لهم الخير، وهذا ما دفعهم إلى نفي القدر، وقالوا: إن العبد حر في اختيار أفعاله فهو مسؤول عنها.

ومن هنا وصف المعتزلة أنفسهم بأنهم أهل العدل والتوحيد، بسبب نفي الظلم عن الله وإثباتهم العدل له، وللوحدانية التي ذهبوا إليها بعد أن زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أعمالهم وأن الله تعالى ليس له فيها صنع ولا تقدير[1].

ويستدلون في تأييد دعاواهم بآيات من القرآن الكريم منها:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت: ٤٦.

و﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ غافر: ٣١.

و﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. التوبة: ٧٠.

---

(١) راجع «الانتصار» لابن الخياط المعتزلي طبع القاهرة ١٣٤٤ و«الملل والنحل» للشهرستاني و«الإبانة في أصول الديانة» و«مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن الأشعري، الأول طبع حيدر آباد، والثاني طبع الآستانة.

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي.

و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ يونس: ٤٥.

و﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ الزمر: ٧.

و﴿ كُلُّ ٱمْرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ الطور: ٢١.

و﴿ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الجاثية: ٢٨.

و﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الأنفال: ٥٣.

و﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الطور: ١٩.

و﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ النجم: ٣٩ ـ ٤١.

وعندما يجدون آيات بينات تنقض مذهبهم يلجأون إلى التأويل، ويتقولون على كتاب الله تقويلاً، وإذ رأوا أحاديث صريحة تثبت رأي أهل السنة والجماعة كذبوها وطعنوا سندها،

فهم يكذبون الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود في الحديث الشريف: «الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه». واتهم النظَّام ـ قبحه الله ـ ابن مسعود رضي الله عنه أنه كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزعموا مثل هذه الزعمات كثيراً.

وعلى سبيل المثال في الإنكار والتأويل اللذين فسروا بهما القرآن وسوء الفهم والتخريج ننقل رأي هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي.

يقول البغدادي في كتـابه «الفَرْق بين الفِرَق» ص ١٤٥ ـ ١٤٧:

«.. هشام بن عمرو الفوطي وفضائحه بعد ضلالته بالقدر تترى، منها: أنه حرم على الناس أن يقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل من جهة تسميته بالوكيل، وقد نطق القرآن بهذا الإسم لله تعالى، وذكر ذلك في السنة الواردة في تسعة وتسعين إسمًا من الله تعالى:

«فإذا لم يجز إطلاق هذا الإسم على الله تعالى مع نزول القرآن به ومع ورود السنة الصحيحة به فأي اسم بعده يطلق عليه.

«وقد كان أصحابنا يتعجبون من المعتزلة البصرية في إطلاقها على الله عز وجل من الأسماء ما لم يذكر في القرآن والسنة

إذا دل عليه القياس، وزاد هذا التعجب بمنع الفوطي عن إطلاق الله تعالى بما نطق به القرآن والسنة.

«واعتذر الخياط عن الفوطي بأن قال: إن هشاماً كان يقول: حسبنا الله ونعم المتوكّل عليه بدلاً من الوكيل، وزعم أن وكيلاً يقتضي موكلاً فوقه.

«وهذا من علامات جهل هشام والمعتذر عنه بمعاني الأسماء في اللغة، وذلك أن الوكيل في اللغة بمعنى الكافي، لأنه يكفي موكله أمر ما وكله فيه، وهذا معنى قولهم: حسبنا الله ونعم الوكيل، ومعنى حسبنا كافينا، وواجب أن يكون ما بعد نِعْمَ موافقاً لما قبله، كقول القائل: الله رازقنا ونعم الرزاق، ولا يقال: الله رازقنا ونعم الغافر، ولأن الله تعالى قال: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه[1]﴾ أي كافيه.

«وقد يكون الوكيل أيضاً بمعنى الحفيظ، ومنه قوله تعالى: ﴿قل لست عليكم بوكيل[2]﴾ أي حفيظ.

«ويقال في نقيض الحفيظ: رجل وَكْل ووَكِل، أي بليد، والوكال البلادة».

«وإذا كان الوكيل بمعنى الحفيظ ـ وكان الله عز وجل كافياً وحفيظاً لم يكن للمنع من إطلاق الوكيل في أسمائه معنى.

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) الأنعام: ٦٦.

«والعجب من هشام في أنه أجاز أن يكتب لله عز وجل هذا الاسم وأن يقرأ به القرآن ولم يجز أن يدعى به في غير قراءة القرآن».

الفضيحة الثانية من فضائح الفوطي: امتناعه عن إطلاق كثير مما نطق به القرآن فمنع الناس من أن يقولوا: إن الله تعالى عز وجل ألف بين قلوب المؤمنين وأضل الفاسقين.

وهذا عناد منه لقول الله عز وجل: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم[1]﴾. ولقوله تعالى: ﴿ ويضل الله الظالمين[2] ﴾ وقوله: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين[3] ﴾.

ومنع أن يقول في القرآن: إنه عَمىً على الكافرين عُبادُ بن سليمان العمري في هذه الضلالة فمنع الناس أن يقولوا: إن الله تعالى خلق الكافر، لأن الكافر اسم لشيئين: إنسان وكفره، وهو غير خالق لكفره عنده.

ويلزمه على هذا القياس ألا يقول: إن الله تعالى خلق المؤمن، لأن المؤمن اسم لشيئين: إنسان وإيمان، والله عنده غير خالق لإيمانه.

ويلزمه على قياس هذا الأصل ألا يقول: إن أحداً قتل كافراً

(١) الأنفال: ٦٣.
(٢) إبراهيم: ٢٧.
(٣) البقرة: ٢٧.

أو ضربه، لأن الكافر إسم للإنسان وكفره، والكفر لا يكون مقتولاً ولا مضروباً.

ومنع عباد من أن يقال: إن الله تعالى ثالث كل اثنين، ورابع كل ثلاثة:

وهذا عناد منه لقول الله عز وجل: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ المجادلة: ٧.

وكان يمنع أن يقال: إن الله عز وجل أملى للكافرين.

وفي هذا عناد منه لقوله عز وجل: ﴿ إنما نُملي لهم ليزدادوا إثمًا ﴾ آل عمران ١٧٩.

فإن كان عُباد قد أخذ هذه الضلالة عن أستاذه هشام فالعصا من العصية، ولن تلد الحيّة إلا الحيّة.

وإن انفرد بها دونه فقد قاس التلميذ ما منع من إطلاقة على ما منع أستاذه من اطلاق إسم الوكيل والكفيل على الله تعالى.

ولم يقف الأمر بالمعتزلة عند هذا الحد، بل تجاوزه متأخرتهم إلى الديانات الأخرى والفلسفة اليونانية، فكان في نظريتهم من اللاهوت المسيحي، ولكننا لسنا بصدد هذا الموضوع، ولهذا نتركه إلى الفلسفة اليونانية التي تأثروا بها في مسألة القدر مغفلين ما سواها، لأن بحثنا ـ هنا ـ خاص بالقدر.

فالمعتزلة تأثروا بفلسفة أرسطو في القدر وأخذوا نظريته

وطبقوها على ما يرود من أمور العقيدة فيما يتعلق بفعل الخالق وفعل المخلوق، فأرسطو يرى أن الله خير محض أو أنه «علة الخير في العالم» فإننا نرى كل شيء منظمًا في ذاته، ونرى الأشياء منتظمة فيما بينها، وكما أن خير الجيش نظامه، وأن القائد خيره أيضاً وبدرجة أعظم لأنه علة النظام، فكذلك للعالم غاية ذاتية هي نظامه، وغاية خارجية هي المحرك الأول علة النظام[1]. فالله ليس مطلق التصرف يفعل ما يريد، بل الأمر أمر نظام لا يمكن الله أن يخالفه، فترك العالم يدور على تفسه، والأشياء كلها تكون وتفسد دون إرادة الله لها.

فإذا كان أرسطو قد عزل الله وجعله بعيداً عن خلقه فإن المعتزلة قد فرقوا فعل الله، إذ ذهبوا إلى أن الله لا يفعل إلا الخير ومحال عليه فعل الشر، ولا يقدر أن يفعل الشر أصلاً ـ على حسب قول النظام ـ وعزلوا الله عن خلقه أيضاً، إذ جعلوا إرادة الإنسان وعمله وحريته واختياره بمعزل عن القضاء والقدر، ويجردونه من بعض صفاته، ويحصرون سلطانه بحجة تنزيههم الله عز وجل.

وإذا كان متأخرة المعتزلة قد أخذوا برأي أرسطو في الله وفي الكون فقد فاتهم أنهم بذهابهم إلى التكليف والجزاء ثواباً وعقاباً نقضوا رأي رأسطو.

* * *

(١) كتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو، ترجم هذه الجملة المستشهد بها الأستاذ يوسف كرم في كتابه «تاريخ الفلسفة اليونانية».

والخلاف كبير بين أهل السنة والقدرية التي يدخل فيها المعتزلة، وكل فرقة ترد على الأخرى، وفي الحوار الذي ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه «شفاء العليل» بين قدري وسني يمثل وجهتي النظر المختلفتين المتناقضتين، فمن أراد أن يحيط به فليعد إلى الكتاب[1].

قال القدري: قد أضاف الله الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة، فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة كقوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ وبالمشيئة تارة كقوله: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ وبالإرادة تارة كقول الخضر: (فأردت أن أعيبها) وبالفعل والكسب والصنع كقوله: ﴿يفعلون، يعملون، بما كنتم تكسبون، لبئس ما كانوا يصنعون﴾.

وأما بالإضافة الخاصة فكإضافة الصلاة والصيام والحج والطهارة والزنا والسرقة والقتل والكذب والكفر والفسوق وسائر أفعالهم إليهم، وهذه الإضافة تمتنع إضافتها إليه، كما أن إضافة أفعاله تعالى تمتنع إضافتها إليهم فلا تجوز إضافة أفعالهم إليه سبحانه دونهم ولا إليه معهم، فهي إذاً مضافة إليهم دونه.

قال السني: هذا الكلام مشتمل على حق وباطل، أما قولك: إنه أضاف الأفعال إليهم فحق لا ريب فيه، وهذا حجة

---

(١) يشغل الحوار الصفحات المبتدئة برقم ٢١٣ الى ٢٤٧ بحرف دقيق من «شفاء العليل».

لك على خصومك من الجبرية، وهم يجيبونك بأن هذا الإسناد لا حقيقة له، وإنما هو نسبة مجازية صححها قيام الأفعال بهم، كما يقال: جرى الماء وبرد وسخن، ومات زيد.

ونحن نساعدك على بطلان هذا الجواب ومنافاته للعقول والشرائع والفِطَر، ولكن قولك هذه الإضافة تمنع إضافتها إليه سبحانه كلام فيه إجمال وتلبيس، فإن أردت بمنع الإضافة إليه منع قيامها به ووصفه بها وجريان أحكامها عليه واشتقاق الأسماء منه له فنعم، هي غير مضافة إليه بشيء من هذه الاعتبارات والوجوه، وإن أردت بعدم إضافتها إليه عدم إضافتها إلى علمه بها وقدرته عليها أو مشيئته العامة وخلقه فهذا باطل، فإنها معلومة له سبحانه مقدورة له مخلوقة، وإضافتها إليهم لا تمنع هذه الإضافة كالأموال فإنها مخلوقة له سبحانه وهي ملكة حقيقية قد أضافها إليهم.

فالأعمال والأموال خلقه وملكه، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها، فصحت النسبتان، وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال، وهو الذي خلق الأموال وكاسبيها والأعمال وعامليها، فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده، كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده، فهو الذي جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون فأعطاهم حاسة السمع والبصر وقوة السمع والبصر وفعل الأسماع والأبصار، وأعطاهم آلة العمل وقوة العمل ونفس العمل فنسبة قوة العمل إلى اليد والكلام إلى اللسان كنسبة قوة السمع إلى الأذن والبصر إلى

العين ونسبة الرؤية والسمع اختياراً إلى محلهما كنسبة الكلام والبطش إلى محلهما، وإن كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع فهل خلقوا محلهما وقوي المحل والأسباب الكثيرة التي تصلح معها الرؤية والسمع لهم أم الكل خلْق من هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

قال القدري: لو كان الله سبحانه هو الفاعل لأفعالهم لاشتقت له منها الأسماء، وكان أولى بأسمائها منهم، إذ لا يعقل الناس على اختلاف لغاتهم وعاداتهم ودياناتهم قائمًا إلا من فعل القيام، وآكلاً إلا من فعل الأكل، وسارقاً إلا من فعل السرقة، وهكذا جميع الأفعال لازمها ومتعديها فقلبتم أنتم الأمر وقلبتم الحقائق، فقلتم: من فعل هذه الأفعال حقيقة لا يشتق له منها إسم، وإنما يشتق منها الأسماء لمن يفعلها ولم يحدثها، وهذا خلاف العقول واللغات وما تتعارفه الأمم.

قال السني: هذا إنما يلزم إخوانك وخصومك الجبرية القائلين بأن العبد لم يفعل شيئاً البتة، وأما من قال: العبد فاعل للفعله حقيقة والله خالقه وخالق آلات فعله الظاهرة والباطنة فإنه إنما يشتق الأسماء لمن فعل تلك الأفعال، فهو القائم والقاعد والمصلي والسارق والزاني حقيقة، فإن الفعل إذا قام بالفاعل عاد حكمه إليه ولم يعد إلى غيره، واشتق له منه اسم، ولم يشتق لمن لم يقم به، فههنا أربعة أمور: أمران معنويان في الفهم والإثبات، وأمران لفظيان فيهما، فلما قام الأكل والشرب والزنا والسرقة بالعبد

عادت أحكام هذه الأفعال إليه واشتقت له منها الأسماء، وامتنع عوْد أحكامها إلى الرب واشتقاق أسمائها له، ولكن من أين يمنع هذا أن تكون معلومة للرب سبحانه مقدورة له مكونة له واقعة من العباد بقدرة ربهم وتكوينه.

قال القدري: لو كان خالقاً لها للزمته هذه الأمور.

قال السني: هذا باطل ودعوى كاذبة، فإنه سبحانه لا يشتق له اسم مما خلقه في غيره ولا يعود حكمه عليه، وإنما يشتق الإسم لمن قام به ذلك، فإنه سبحانه خلق الألوان والطعوم والروائح والحركات في محالها ولم يشتق له منها إسم ولا عادت أحكامها إليه ومعنى عوْد الحكم إلى المحل الإخبار عنه بأنه يقوم ويقعد ويأكل ويشرب.

قال القدري: فالآن حمي الوطيس، فأنت والمسلمون وسائر الخلق تسمونه تعالى خالقاً ورازقاً ومميتاً والخلق والرزق والموت قائم بالمخلوق والمرزوق والميت، إذ لو قام ذلك بالرب سبحانه فالخلق إما قديم وإما حادث، فإن كان قديماً لزم قدم المخلوق لأنه نسبة بين الخالق والمخلوق، ويلزم من كونها قديمة قدم المصحح لها، وإن كان حادثاً لزم قيام الحوادث به، وافتقر ذلك الخلق إلى خلق آخر فلازم التسلسل، فثبت أن الخلق غير قائم به سبحانه وقد اشتق له منه اسم.

قال السني: أي لازم من هذه اللوازم التزمه المرء كان خيراً

من أن ينفي صفة الخالقية عن الرب سبحانه، فإن حقيقة هذا القول: إنه غير خالق، فإن إثبات خالق بلا خلق إثبات إسم لا معنى له، وهو كإثبات سميع لا سمع له وبصير لا بصر له ومتكلم وقادر لا كلام له ولا قدرة، فتعطيل الرب سبحانه عن فعله القائم به كتعطيله عن صفاته القائمة به.

وقد أجاب عن هذا عبد العزيز بن يحيى الكناني في حيدته فقال في سؤاله للمريسي: بأي شيء حدثت الأشياء؟ فقال له: أحدثها الله بقدرته التي لم تزل، فقلت له: أحدثها بقدرته كما ذكرت أو ليس تقول أنه لم يزل قادراً؟ قال: بلى، قلت: فتقول إنه لم يزل يفعل، قال: لا أقول هذا. قلت: فلا بد أن نلزمك أن تقول إنه خلق بالفعل الذي كان بالقدرة، لأن القدرة صفة.

ثم قال عبد العزيز: لم أقل لم يزل الخالق يخلق، ولم يزل الفاعل يفعل، وإنما الفعل صفة، والله يقدر عليه ولا يمنعه منه مانع، فأثبت عبد العزيز فعلاً مقدوراً لله هو صفة ليس من المخلوقات، وأنه به خلق المخلوقات.

وهذا صريح في أن مذهبه كمذهب السلف وأهل الحديث، لأن الخلق غير المخلوق، والفِعل غير المفعول، كما حكاه البغوي إجماعاً لأهل السنة.

وقد صرح عبد العزيز أن فعله سبحانه القائم به، وأنه خلق به المخلوقات كما صرح به البخاري في آخر صحيحه، وفي كتاب خلق الأفعال قال في صحيحه: باب ما جاء في خلق السموات

والأرض وغيرها من الخلائق وفعل الرب وأمره، فالرب سبحانه بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وخلقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون، فصرح أمام السنة أن صفة الخلق هي فعل الرب وأمره وأنه خالق بفعله وكلامه.

وجميع جند الرسول وحزبه مع محمد بن اسماعيل في هذا، والقرآن مملوء من الدلالة عليه كما دل عليه العقل والفطرة.

قال تعالى: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ثم أجاب نفسه بقوله: ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ فأخبر أنه قادر على نفس فعله، وهو أن يخلق، فنفس أن يخلق فعل له، وهو قادر عليه، ومن يقول لا فعل له وأن الفعل هو عين المفعول يقول لا يقدر على فعل يقوم به البتة، بل لا يقدر إلا على المفعول المباين له الحادث بغير فعل منه سبحانه.

وهذا أبلغ في الإحالة من حدوثه بغير قدرة، بل هو في الإحالة كحدوثه بغير فاعل، فإن المفعول يدل على قدرة الفاعل باللزوم العقلي، ويدل على فعله الذي وجد به بالتضمن، فإذا سلبت دلالته التضمنية كان سلب دلالته اللزومية أسهل، ودلالة المفعول على فاعله وفعله دلالة واحدة، وهي أظهر بكثير من دلالته على قدرته وإرادته.

وذكر قدرة الرب سبحانه على أفعاله وتكوينه في القرآن كثير كقوله: ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾

وأن يبعث هو نفس فعله، والعذاب هو مفعوله المباين له، وكذلك قوله: ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فإحياء الموتى نفس فعله، وحياتهم مفعوله المباين له، وكلاهما مقدور له، وقال تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ فتسوية البنان فعله، واستواؤها مفعوله ومنكرو الأفعال يقولون: إن الرب سبحانه يقدر على المفعولات المباينة له، ولا يقدر على فعل يقوم بنفسه لا لازم متعد، وأهل السنة يقولون: الرب سبحانه يقدر على هذا وعلى هذا هو سبحانه له الخلق والأمر.

قال القدري: كون العبد موجداً لأفعاله وهو الفاعل لها من أجلى الضروريات والبديهيات، فإن كل عاقل يعلم من نفسه أنه فاعل لما يصدر منه من الأفعال الواقعة على وفق قصده وداعيته، بخلاف حركة المرتعش والمجرور على وجهه، وهذا لا يتمارى فيه العاقل ولا يقبل التشكيك، والقدح في ذلك والاستدلال على خلافه استدلال على بطلان ما علمت صحته بالضرورة فلا يكون مقبولاً.

قال السني: قد أجابك خصومك من الجبرية عن هذا بأن العاقل يعلم من نفسه وقوع الفعل مقارناً لقدرته، ولا يعلم من نفسه أنه واقع بقدرته، والفرق بين الأمرين ظاهر، ولو كان وقوعه بقدرته هو المعلوم بالضرورة لما خالف فيه جمع عظيم من العقلاء يستحيل عليهم الاطباق على جحد الضروريات، وهذا الجواب مما لا يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً، وهو عبارات لا حاصل تحتها،

فإن كل عاقل يجد من نفسه وقوع الفعل بقدرته وإرادته وداعيته فإن ذلك هو الموثر في الفعل، ويجد تفرقة ضرورية بين مقارنة القدرة والداعية للفعل ومقارنة طوله ولونه وشمه وغير ذلك من صفاته للفعل، ونسبة ذلك كله عند الجبري إلى الفعل نسبة واحدة، والله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند القدرة والداعي لأيهما وإنما اقترن الداعي والقدرة بالفعل اقتراناً مجرداً.

ومعلوم أن هذا قدح في الضروريات، ولا ريب أن من نظر إلى تصرفات العقلاء ومعاملاتهم مع بعضهم بعضاً وجدهم يطلبون الفعل من غيرهم طلب عالم بالاضطرار أن المطلوب منه الفعل هو المحصل له الواقع بقدرته وإرادته، ولذلك يتلطفون لوقوع الفعل منه بكل لطيفة، ويحتالون عليه بكل حيلة فيعطونه تارة ويزجرونه تارة، ويخوفونه تارة، ويتوصلون إلى إخراج الفعل منه بأنواع الرغبة والرهبة ويقولون قد فعل فلان كذا فما لك لا تفعل كما فعل، وهذا أمر مشاهد بالحس والضرورة، فالعقلاء ساكنو الأنفس إلى أن الفعل من العبد يقع وبه يحصل، ولو حرك أحدهم أصبعه فشتمت المحرك لها لغضب وشتمك، وقال: كيف تشتمني ولم يقل لم تشتم ربي وهذا أوضح من أن يضرب له الأمثال أو يبسط فيه المقال، وما يعرض في ذلك من الشبه جار مجرى السفسطة وقد فطر الله العقلاء على ذم فاعل الإساءة ومدح فاعل الإحسان، وهذا يدل على أنهم مفطورون على العلم بأنه فاعل، لأن الذم فرع عليه، ويستحيل أن يكون الفرع معلوماً باضطرار والأصل ليس كذلك.

قال القدري: قال الله سبحانه ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وعند الجبري أن الكل فعل الله وليس من العبد بشيء، قال الجبري: في الكلام استفهام مقدر تقديره أفمن نفسك فهو إنكار لا إثبات، وقرأها بعضهم فمن نفسك بفتح الميم ورفع نفسك أي من أنت حتى تفعلها، قال: ولا بد من تأويل الآية، وإلا ناقض قوله في الآية التي قبلها: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، فأخبر أن الحسنات والسيئات جميعاً من عنده لا من عند العبد.

قال السني: فليس لك أيها القدري أن تحتج بالآية التي نحن فيها لمذهبك لوجوه: أحدها أنك تقول فعل العبد حسنة كان أو سيئة هو منه لا من الله، بل الله سبحانه قد أعطى كل واحد من الاستطاعة ما يفعل به الحسنات والسيئات، ولكن هذا حدث من عند نفسه إرادة فعل بها الحسنات، وهذا أحدث إرادة فعل بها السيئات، وليست واحدة من الإرادتين من إحداث الرب سبحانه ألبتة ولا أوجبتها مشيئته، والآية قد فرقت بين الحسنة والسيئة وأنتم لا تفرقون بينهما فإن الله عندكم لم يشأ هذا ولا هذا.

قال القدري: إضافة السيئة إلى نفس العبد لكونه هو الذي

أحدثها وأوجدها، وأضاف الحسنة إليه سبحانه لكونه هو الذي أمر بها وشرعها.

قال السني: الله سبحانه أضاف إلى العبد ما أصابه من سيئة وأضاف إلى نفسه ما أصاب العبد من حسنة، ومعلوم أن الذي أصاب العبد هو الذي قام به، والأمر لم يقم بالعبد وإنما قام به المأمور وهو الذي أصابه، فالذي أصابه لا تصح إضافته إلى الرب عندكم والمضاف إلى الرب لم يقم بالعبد فعلم أن الذي أصابه من هذا وهـذا أمر قائم به، فلو كان المراد به الأفعال الاختيارية من الطاعات والمعاصي لاستوت الإضافة ولم يصبح الفرق وإن افترقا في كون أحدهما مأموراً به والآخر منهياً عنه على أن النهي أيضاً من الله كما أن الأمر منه، فلو كانت الإضافة لأجل الأمر لاستوى المأمور والمنهي في الإضافة، لأن هذا مطلوب إيجاده وهذا مطلوب إعدامه.

قال القدري: أنا أجوز تعلق الطاعة والمعصية بمشيئـة الرب سبحانه وإحداثه على وجه الجزاء لا على سبيل الابتداء، وذلك أن الله سبحانه يعاقب عبده بما شاء ويثيبه، فكما يعاقبه يخلق الجزاء الذي يسوءه، وخلق الثواب الذي يسره، ولذلك يحسن أن يعاقبه بخلق المعصية وخلق الطاعة فإن هذا يكون عدلاً منه، وأما أن يخلق فيه الكفر والمعصية إبتداء بلا سبب فمعاذ الله من ذلك.

قال السني: هذا توسط حسن جداً لا يأباه العقل ولا الشرع، ولكن من ابتدأ الأول وليس هو عندك مقدوراً لله ولا

واقعاً بمشيئته فقد أثبت في ملكه ما لا يقدر عليه وأدخلت فيه ما لا يشاء ونقضت أصلك كله فإنك أصلت أن فعل العبد الاختياري قدرة العبد عليه واختياره له ومشيئته تمنع قدرة الرب عليه ومشيئته له، وهذا الأصل لا فرق فيه بين الابتدائي والجزائي.

قال القدري: فالقرآن قد فرق بين النوعين، وجعل الكفر والفسوق الثاني جزاء على الأول، فعلم أن الأول من العبد قطعاً وإلا لم يستقم جعْل أحدهما عقوبة على الآخر، وقد صرح بذلك في قوله: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ فأضاف نقض الميثاق إليهم وتقسية القلوب إليه، فالأول سبب منهم والثاني جزاء منه سبحانه، قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ فأضاف عدم الإيمان أولاً إليهم إذ هو السبب، وتقليب القلوب وتركهم في طغيانهم هو الجزاء، ومثله قوله: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ والآيات التي سمعتموها آنفاً إنما تدل على هذا.

قال السني: نعم، هذا حق، لكن ليس فيه إخراج السبب عن كونه مقدوراً للرب سبحانه واقعاً بمشيئته، ولو شاء لحال بين العبد وبينه ووفقه لضده، فهي البقية التي بقيت عليك من القدر، كما أن إنكار إثبات الأسباب واقتضائها لمسبباتها وتربيتها عليها هي البقية التي بقيت على الجبري في المسألة أيضاً، وكلاكما مصيب من وجه مخطىء من وجه، ولو تخلص كل منكما من البقية التي بقيت عليه لوجدتما روح الوفاق واصطلحتما على الحق وبالله التوفيق.

قال القدري : فما تقول أنت أيها السني في العقل الأول إذا لم يكن جزءاً فما وجهه وأنت ممن يقول بالحكمة والتعليل وتنزه الرب سبحانه عن الظلم الذي هو ظلم لا ما يقوله الجبري أنه الجمع بين النقيضين .

قال السني : لا يلزمني في هذا المقام بيان ذلك فإني لم أنتصب له إنما انتصبت لإبطال احتجاجك بالآية لمذهبك الباطل وقد وفيت به ولله في ذلك حِكَم وغايات محمودة لا تبلغها عقول العقلاء ومباحث الأذكياء ، فالله سبحانه إنما يضع فضله وتوفيقه وإمداده في المحل الذي يصلح له وما لا يصلح له من المحال يدعه غفلاً فارغاً من الهدى والتوفيق فيجري مع طبعه الذي خلق عليه :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

قال القدري : فإذا كان الله سبحانه قد أحدث فيهم تلك الإرادة والمشيئة المستلزمة لوجود الفعل كان ذلك إيجاداً منه سبحانه لذلك فيهم كما أوجد الهدى والإيمان في أهله .

قال السني : هذا معترك النزال وتفرق طرق العالم والله سبحانه أعطى العبد مشيئة وقدرة وإرادة تصلح لهذا ولهذا ثم أمدّ أهل الفضل بأمور وجودية زائدة على ذلك المشترك أوجب له الهداية والإيمان وأمسك ذلك الإمداد عمن علم أنه لا يصلح له

ولا يليق به فانصرفت قوى إرادته ومشيئته إلى ضده اختياراً منه ومحبة لا كرهاً واضطراراً.

قال القدري: فهل كان يمكنه إرادة ما لم يُعَنْ عليه ولم يوفق له بإمداد زائد على خلق الإرادة.

قال السني: إن أردت بالإمكان أنه يمكنه فعله لو أراد فنعم هو ممكن بهذا الاعتبار مقدور له، وإن أردت به أنه ممكن وقوعه بدون مشيئة الرب وإذنه فليس يمكن فإنه ما شاء الله كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده.

قال القدري: فقد سلمت حينئذ أنه غير ممكن للعبد إذا لم يشأ الله منه أن يفعله فصار غير مقدور للعبد فقد عوقب على ترك ما لا يقدر على فعله.

قال السني: عدم إرادة الله سبحانه للعبد ومشيئته أن يفعل لا يوجب كون الفعل غير مقدور له فإنه سبحانه لا يريد من نفسه أن يعينه عليه مع كونه أقدره عليه، ولا يلزم من إقداره عليه وقوعه حتى توجد منه إعانة أخرى فانتفاء تلك الإعانة لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً للعبد فإنه قد يكون قادراً على الفعل لكن يتركه كسلاً وتهاوناً وإيثاراً لفعل ضده فلا يصرف الله عنه ترك الواقع ولا يوجب عدم صرفه كونه عاجزاً عن الفعل فإن الله سبحانه يعلم أنه قادر عليه بالقدرة التي أقدره بها، ويعلم أنه لا يريده مع كونه قادراً عليه فهو سبحانه مريد له ومنه الفعل لا يريد من نفسه إعانته

وتوفيقه، وقطع هذه الإعانة والتوفيق لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً له وإن جعله غير مراد، وسر المسألة الفرق بين تعلق الإرادة بفعل العبد وتعلقها بفعله هو سبحانه بعده، فمن لم يحط معرفة بهذا الفرق لم يكشف له حجاب المسألة.

قال الجبري: أما أن تقول أن الله علم أن العبد لا يفعل أو لم يعلم ذلك، والثاني محال، وإذا كان قد علم أنه لا يفعله صار الفعل ممتنعاً قطعاً إذ لو فعله لانقلب العلم القديم جهلاً.

قال السني: هذه حجة باطلة من وجوه: أحدها، أن هذا بعينه يقال فيما علم الله أنه لا يفعله وهو مقدور له فإنه لا ينفع البتة مع كونه مقدوراً له فما كان جوابك عن ذلك فهو جوابنا لك، وثانيهما أن الله سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه فهو يعلم أنه لا يفعله لعدم إرادته له لا لعدم قدرته عليه، وثالثها أن العلم كاشف لا موجب، وإنما الموجب مشيئة الرب والعلم يكشف حقائق المعلومات، عدنا إلى الكلام على الآية التي احتج بها القدري وبيان أنه لا حجة فيها من ثلاثة أوجه: أحدها أنه قال ما أصابك ولم يقل ما أصبت، الثاني أن المراد بالحسنة والسيئة النعمة والمصيبة، الثالث أنه قال ﴿قل كل من عند الله﴾ فالإنسان هو فاعل السيئات ويستحق عليهما العقاب، والله هو المنعم عليه بالحسنات عملاً وجزاء، والعادل فيه بالسيئات قضاء وجزاء ولو كان العمل الصالح من نفس العبد كما كان السيء من نفسه لكان الأمر أن كليهما من نفسه، والله سبحانه قد فرق بين النوعين، وفي الحديث

الصحيح الإلّهي : «يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

الجبرية

نقيض مذهب القدرية والمعتزلة المذهب الجبري الذي يذهب إلى أن الإرادة غير حرة، وأن الاختيار وهم باطل، والعبد خاضع خضوعاً تاماً للحتمية في كل أفعاله وأقواله.

القدرية - كما مر - تذهب إلى الحرية المطلقة والاختيار المطلق، والجبرية تنفيهما كل النفي، وتبني على هذا النفي فلسفة خاصة بها، وتدعي أن الإنسان مسير، مسلوب الإرادة والحرية والاختيار، وقانون القدر الحتمي يجبره إجباراً على أن يقول ويفعل دون أن يعتور قانونه أي تبدل، ولا هوادة فيه.

والعبد لا يوصف بالاستطاعة والقدرة، لأنه مجبر في أفعاله، ولن يستطيع أن يكون ذا إرادة وحرية واختيار، لأن الله عز وجل خلق العبد وخلق له كل أفعاله، وإذا نسب إليه فعل فالنسبة مجازية وغير متحققة في الواقع، مثلها مثل النسبة إلى الجماد كأن نقول: تدحرج الحجر، وهو لا يتدحرج لأنه لا إرادة له، والعبد كذلك في كل أفعاله وتصرفاته.

وأول ظهور المذهب في عهد الخلفاء الراشدين، فقد مضت الإشارة إلى قصة السارق الذي جيء به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأله: لِمَ سرقت؟ فأجاب: قضى الله عليّ، فأمر عمر بقطع يده وجلده، القطع حد السرقة، والجلد لقالته السيئة، إذ فهم من القضاء والقدر أن فعله مجبر عليه إجباراً، فهو لا يسأل عنه ولا يحاسب عليه، فجلده عمر لأن الاحتجاج بما ظنه احتجاجاً مردود بحرية الإرادة والاختيار التي يملكها الإنسان، فهو محاسب على ما يصدر منه من الفعل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولم تكن هذه الحادثة بدء تاريخ المذهب الجبري، فهي حالة فردية لا تعدم نظائرها في العصر الذي وقعت فيه، ولكنه يدل على أن القول بالجبر عرف في عهد مبكر للإسلام، في عصر كانت فيه العقيدة الإسلامية سليمة صافية بعيدة عن الفلسفة الكلامية التي دخلت الإسلام في أول عصر بني أمية من جراء دخول أناس ذوي ثقافة وعلم بفلسفة اليونان وديانة فارس وغيرهما حيث وفدت آراء الوثنيين إلى بلدان الإسلام حتى انتهت إلى المدينة مركز علوم الإسلام وأقطاب الصحابة الذين رأوا بعض آثار هذه الحركة الجديدة التي لا تتفق مع الإسلام.

وحسب المصادر العربية التي بحثت في الملل والنحل يعزى أساس الجبر إلى طالوت بن أعصم اليهودي الذي أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم، وسحره، وعاصر الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين، وهو ابن أخت لبيد بن الأعصم من يهود

بني زريق من أعدى أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، وكان لبيد هذا يقول بخلق التوراة، وأخذ عنه ابن أخته مقالته ونقلها الى الإسلام زاعمًا أن القرآن مخلوق، وعن طالوت أخذ الجعد بن درهم، ومن الجعد تعلم جهم بن صفوان.

وعلى يد جهم بن صفوان تحددت معالم نظرية الجبر التي تعود في أساسها إلى طالوت وإلى الثقافة غير الإسلامية التي أريد منها هدم صرح العقيدة وإزاغة قلوب المسلمين.

وان القدرية والجبرية ليستا من الإسلام بل وفدتا إليه من خصومه، فقد أخذتا منهم ما أريد به شَغْل المسلمين بنظريات فلسفية وهدم عقيدة الإسلام السهلة السمحة، ولم تكن قط مصدرهما، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن البحث في القدر، وعمر جلد في الجبر، وتبرأ من كانوا من الصحابة أحياء من دعاتهما والقائلين بهما.

وهذا برهان على أن القدرية والجبرية لم تصدرا عن عقيدة الإسلام بل هما دخيلتان عليها من ثقافات الأمم الأخرى على أيدي أناس يحقدون على الإسلام حقداً.

وعرفت الجبرية باسمها الآخر وهو الجهمية نسبة إلى جهم ابن صفوان.

يقول الشهرستاني[1]: «الجهمية أصحاب جهم بن

---

(١) الملل والنحل ١: ١١٣.

صفوان، وهو من الجبرية الخالطة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء».

ويقول[١]: «ومنها قوله في القدرة الحادثة: إن الإنسان ليس يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وينسب إليه الأفعال مجازاً كما ينسب إلى الجمادات».

ويقول[٢]: «والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال جبر، قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف جبر» وعرف الشهرستاني الجبر بقوله: «الجبر: هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى».

ويقول البغدادي[٣]: «الجهمية أتباع جهم بن صفوان الذي قال بالاجبار والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها... وقال: لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز كما يقال: زالت الشمس ودارت الرحى من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به».

---

(١) الملل والنحل ١: ١١٤.
(٢) الملل والنحل ١: ١١٤ ـ ١١٥ و١: ١١٢.
(٣) الفرق بين الفرق ص ١٩٩.

وقال جهم وأستاذه جعد بالتعطيل الذي يلتقي الجبر وينتهي إليه، لأن التعطيل ـ في علم الكلام ـ هو عدم وصف الله تعالى بوصف يصح أن يشاركه فيه عباده، ولا يوصف إلا بصفة الخلق وصفة الفعل، لأنه اختص نفسه عز وجل بهما دون خلقه، فهنا تعطيل أي تجريد لله من صفاته التي وصف نفسه بها في كتابه العزيز ووصفه رسوله الكريم في حديثه الشريف بحجة ألا يشاركه عباده، وبحجة التفرد في الخلق والفعل.

وكل فعل العبد إنما هو فعل الله ـ على زعمهم ـ فكفره وإيمانه ومعصيته من فعل الله كما فعل لونه وسمعه وبصره، ولكن لله أن يعذب ويثيب حسب إرادته هو جل وعلا.

واستدل الجبريون بالقرآن والسنة، ومما استدلوا به منهما قول الله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات: ٩٦.

و﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام: ١٠١.

و﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ الانسان: ٣٠.

و﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩.

و﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ آل عمران: ٧٣ - ٧٤.

ومن الأحاديث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري: «إن الله لما خلق آدم أراه ذريته من اليمين والشمال ثم قال هؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهؤلاء إلى الجنة لا أبالي».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة».

هذا موجز رأي الجبريين، وقد تولى الرد عليهم أهل السنة وغيرهم وفندوا زَعَماتهم هذه، وفسروا القرآن والحديث التفسير الذي يتفق مع الحقيقة في شأن القضاء والقدر، تلك الحقيقة التي أدركها الصحابة والتابعون ومن تبعوهم بإحسان من أهل السنة.

ولعل من تمام بحث القدر لدى الجبرية ورد أهل السنة

عليهما أن ننقل حواراً بين جبري وسني، جاء في كتاب «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل[1] لابن القيم.
وما جاء على لسان «السني» في حواره مع القدري والجبري يمثل وجهة نظر أهل السنة.

وها هوذا الحوار بين السني والجبري ننقل بعض فقرات منه:

قال الجبري: «القول بالجبر لازم لصحة التوحيد، ولا يستقيم التوحيد إلا به، لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلاً للحوادث مع الله غير الله، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر».

قال السني: «بل القول بالجبر مناف للتوحيد، ومع منافاته للتوحيد فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب، فلو صح الجبر لبطلت الشرائع، وبطل الأمر والنهي، ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب».

قال الجبري: «ليس من العجب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهي والثواب والعقاب، فإن هذا لم يزل يقال، وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد، وهو من أقوى أدلة التوحيد، فكيف يكون المصور للشيء المقوي له منافياً له.»

---

(١) طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة، ونشر مكتبة المعارف بالطائف، والحوار طويل من صفحة ١٩٦ ـ ٢١٠ بحرف دقيق، فمن أراد الوقوف عليه كاملاً مراجعته فيه.

قال السني: «منافاته للتوحيد من أظهر الأمور، ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهي، وبيان ذلك أن أصل عقيدة التوحيد وإثباته هو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والجبر ينافي الكلمتين، فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال، وهو الذي تؤلهه القلوب، وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له، مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته، وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده، فهذا أصل دعوة الرسل، وإليه دعوا الأمم، وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو الذي أمر به رسله، وأنزل به كتبه، ودعا إليه عباده، ووضع لهم دار الثواب والعقاب لأجله، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله.

وكان من قولك ـ أيها الجبري ـ: إن العبد لا قدرة له على هذا البتة، ولا أثر له فيه، ولا هو فعله، وأمره بهذا أمر له بما لا يطيق، بل أمر بإيجاد فعل الرب، أو أن الله سبحانه أمره بذلك، وأجبره على ضده، وحال بينه وبين ما أمره به، ومنعه منه، وصده عنه، ولم يجعل له إليه سبيلاً بوجه من الوجوه، مع قولك: إنه لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، فلا تتألهه القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه، والتوحيد معنى ينتظم من إثبات معنى الالهية وإثبات العبودية، فرفعت معنى الالهية بإنكار كونه محبوباً مودوداً تتنافس

القلوب في محبته وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه، ورفعت معنى العبودية بإنكار كون العبد فاعلاً وعابداً ومحباً، فإن هذا كله مجاز لا حقيقة له عندئذ، فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه، لا سيما والوصف الذي وصفته به منفِّر للقلوب عنه، حائل بينها وبين محبته، فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله، وينهاه عما لا يقدر على تركه، بل يأمره بفعله هو سبحانه، وينهاه عن فعله هو سبحانه، ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله البتة، بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه، وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره، وفعل ما نهاه بمنزلة عقوبته على ترك طيرانه إلى السماء، وترك تحويله للجبال عن أماكنها، ونقله مياه البحار عن مواضعها، وبمنزلة عقوبته له على ما لا صنع له فيه من لونه وطوله وقصره.

وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب من لم يعصه طرفة عين، وإن حكمته ورحمته لا تمنع ذلك، بل هذا جائز عليه، ولو أنه أخبر عن نفسه أنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه، وقلت: إن تكليفه عباده بما كلفهم إياه بمنزلة تكليف الأعمى الكتابة، وتكليف الزَّمِنِ الطيران، فبغضت الرب إلى من دعوته إلى هذا الاعتقاد ونفرته منه، وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده، وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها.

وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظاهر لا خفاء به، فإن مبنى الشرائع على الأمر والنهي، وأمر الآمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل

المأمور ونهيه عن فعله لا فعل المنهي عبث ظاهر، فإن متعلق الأمر والنهي فعل العبد وطاعته ومعصيته، فمن لا فعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعته أو معصيته، وإذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب، وكان ما يفعله الله تعالى بعباده يوم القيامة من النعيم والعذاب أحكاماً جارية عليهم بمحض المشيئة والقدرة، لا أنها بأسباب طاعاتهم ومعاصيهم، بل هذا أمر آخر وهو أن الجبر مناف للخلق كما هو مناف للأمر، فإن الله سبحانه له الخلق والأمر، وما قامت السماوات إلا بعدله، فالخلق قام بعدله، وبعدله ظهر، كما أن الأمر بعدله، وبعدله وجد، والعدل سبب وجود الخلق والأمر وغايته، فهو عليه الفاعلية الغائية، والجبر لا يجامع العدل ولا يجامع الشرع والتوحيد.

قال الجبري: «لقد نطقت أيها السني بعظيم، وفهت بكبير، وناقضت بين متوافقين، وخالفت بين متلازمين، فإن أدلة العقول والشرع المنقول قائمة على الجبر، وما دل عليه العقل والنقل كيف ينافي موجب العقل والشرع، فاسمع الآن الدليل الباهر والبرهان القاهر على الجبر ثم نتبعه بأمثال فنقول: صدور الفعل عند حصول القدرة والداعي إما أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً كان فعل العبد اضطرارياً، وذلك عين الجبر، لأن حصول القدرة والداعي ليس بالعبد، وإلا لزم التسلسل، وهو ظاهر، وإذا كان كذلك فعند حصولها يكون واجباً وعند عدم حصولها يكون الفعل ممتنعاً فكان الجبر لازماً لا محالة،

وأما إن لم يكن حصول الفعل عند حصول القدرة والداعي واجباً، فإما أن يتوقف رجحان الفعل على رجحان الترك على مرجح أو لا يتوقف، فإن توقف كان حصول ذلك الفعل عند حصول المرجح واجباً وإلا عاد الكلام ولزم التسلسل، وإذا كان واجباً كان اضطرارياً وهو عين الجبر، وإن لم يتوقف على مرجح كان جائز الوقوع وجائز العدم، فوقوعه بغير مرجح يستلزم حصول الأثر بلا مؤثر وذلك محال.

فإن قلت المرجح هو إرادة العبد، قلت لك: إرادة العبد حادثة والكلام في حدوثها كالكلام في حدوث المراد بها ويلزم التسلسل».

قال السني: «هذا أحدُّ سهم في كنانتك وهو بحمد الله سهم لا ريش له ولا نصل مع عوجه وعدم استقامته، وأنا أستفسرك عما في هذه الحجة من الألفاظ المجملة المستعملة على حق وباطل، وأبين فسادها، فما تعني بقولك: إن كان الفعل عند القدرة والداعي واجباً كان فعل العبد اضطرارياً وهو عين الجبر، أتعني به أن يكون مع القدرة والداعي بمنزلة حركة المرتعش وحركة من نفضته الحمى وحركة من رمى به من مكان عال فهو يتحرك في نزوله اضطراراً منه أم تعني به أن الفعل عند اجتماع القدرة والداعي يكون لازم الوقوع بالقدرة؟ فإن أردت بكونه اضطرارياً المعنى الأول كذبتك العقول والفِطَر والحِسّ والعيان فإن الله فطر عباده على التفريق بين حركة من رمى به من شاهق فهو يتحرك إلى

أسفل وبين حركة من يرقى في الجبل إلى علوه وبين حركة المرتعش وبين حركة المصفق وبين حركة الزاني والسارق والمجاهد والمصلي وحركة المكتوف الذي قد أوثق رباطاً وجر على الأرض، فمن سوى بين الحركتين فقط خلع ربقة العقل والفطرة والشرعة من عنقده، وإن أردت المعنى الثاني وهو كون العقل لازم الوجود عند القدرة والداعي كان لازم الوجود، وهذا لا فائدة فيه، وكونه لازماً وواجباً بهذا المعنى لا ينافي كونه مختاراً مراداً له مقدوراً له غير مكره عليه ولا مجبور، فهذا الوجوب واللزوم لا ينافي الاختيار، ثم نقول: لو صحت هذه الحجة لزم أن يكون الرب سبحانه مضطراً على أفعاله مجبوراً عليها بمعنى ما ذكرت من مقدماتها وأنه سبحانه يفعل قدرته ومشيئته، وما ذكرت من وجوب الفعل عند القدرة والداعي وامتناعه عند عدمهما ثابت في حقه سبحانه» الخ.

ويطول الحوار بين السني والجبري إلى أن يقول الجبري:

إذا صدر من العبد حركة معينة فأما أن تكون مقدورة للرب وحده أو العبد وحده أو للرب والعبد أو لا للرب ولا للعبد، وهذا القسم الأخير باطل قطعاً، والأقسام الثلاثة قد قال بكل واحد منها طائفة، فإن كانت مقدورة للرب وحده فهو الذي يقوله وذلك عين الجبر، وإن كانت مقدورة للعبد وحده فذلك إخراج لبعض الأشياء عن قدرة الرب تعالى فلا يكون على كل شيء قديراً، ويكون العبد المخلوق الضعيف قادراً على ما لم يقدر عليه خالقه وفاطره، وهذا هو الذي فارقت به القدرية التوحيد، وضاهت به

المجوس وإن كانت مقدورة للرب والعبد لزمت الشركة ووقوع مفعول بين فاعلين ومقدور بين قادرين وأثر بين مؤثرين وذلك محال لأن المؤثرين إذا اجتمعا استقلالاً على أثر واحد فهو غني عن كل منهما بكل منهما فيكون محتاجاً إليهما، مستغنياً عنهما.

قال السني: قد افترق الناس في هذا المقام فرقاً شتى، ففرقة قالت إنما تقع الحركة بقدرة الله وحده لا بقدرة العبد، وتأثير قدرة العبد في كونها طاعة أو معصية فقدرة الرب وحده اقتضت وجودها وقدرة العبد اقتضت صفتها، وهذا قول القاضي أبو بكر ومن اتبعه لعمر الله أنه لا غير شاف ولا كاف فإن صفة الحركة إن كانت أثراً وجودياً فقد أثرت قدرته في أمر موجود فلا يمتنع تأثيرها في نفس الحركة، وإن كانت صفتها أمراً عدمياً كان متعلق قدرته عدماً لا وجوداً، وذلك ممتنع، إذ أثر القدرة لا يكون عدماً صرفاً.

وفرقة أخرى قالت: بل الفعل وصفته واقع بمحض قدرة الله وحده ولا تأثير لقدرة العبد في هذا ولا هذا، وهذا قول الأشعري ومن اتبعه.

وفرقة قالت: بل المؤثر قدرة العبد وحده دون قدرة الرب، ثم انقسمت هذه الفرقة إلى فرقتين: فرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثرة مع كون الرب قادراً على الحركة، وقالت: إن مقدورات العبادة مقدورة لله تعالى، وهذا قول أبي الحسين البصري وأتباعه الحسينية، وفرقة قالت: إن قدرة العبد هي المؤثرة، والله سبحانه غير قادر على مقدور، وهذا قول المشايخية أتباع أبي علي وأبي

هاشم، وليس عند ابن الخطيب وجمهور المتكلمين غير هذه الأقوال التي لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، وليس عند أربابها إلا مناقضة بعضهم بعضاً.

وقد أجاب بعض أصحاب أبي الحسين عن هذا السؤال أنه وإن كان يقول بمقدور بين قادرين فله أن يقول في هذا المقام: إن كان الدليل الذي ذكرته دليلاً صحيحاً على استحالة اجتماعهما على فعل واحد فإنما يدل على استحالته على فعلهما على سبيل الجمع ولا يستحيل على سبيل البدل كما يستحيل حصول جوهرين في مكان واحد ولا يستحيل حصولهما فيه على البدل، وهذا جواب باطل قطعاً فإن مضمونه أن أحدهما لا يقدر عليه إلا إذا تركه الآخر، فحال تلبس العبد بالفعل بقدرته وإرادته إن كان مقدوراً له فهو القول بمقدور بين قادرين وإن لم يكن مقدوراً له لزم إخراج بعض الممكنات عن قدره.

فإن قلت هو قادر عليه بشرط أن لا يقدر عليه العبد، قيل لك فهذا تصريح منك بأنه في حال قدرة العبد عليه لا يقدر عليه الرب فلا ينفعك القول بأنه قادر عليه على البدل.

وأيضاً فإن قدر عليه بشرط أن لا يقدر عليه العبد، فإذا قدر العبد عليه انتفت قدرة الرب لانتفاء شرطها، وهذا مما صاح به عليكم أهل التوحيد من أقطار الأرض ورموكم به عن قوس واحدة، وإنما صانعتم به أهل السنة مصانعة، وإلا فحقيقة هذا القول أن العبد يقدر على ما لا يقدر عليه الرب.

وحكاية هذا الرأي الباطل كافية في فساده، فإن قلت: كما لا يمتنع معلوم واحد بين عالمين ومراد واحد بين مريدين قيل: هذا من أفسد القياس، لأن المعلوم لا يتأثر بالعالم، والمراد لا يتأثر بالمريد. فيصح الاشتراك في المعلوم والمراد كما يصح الاشتراك في المرئي والمسموع، وأما المقدور فيجوز اشتراك القادرين فيه بالقدرة المصححة وهي صحة وقوعه من كل واحد منهما، وصحة التأثير من أحدهما لا تنافي صحته من الآخر، أما اشتراكهما فيه بالقدرة الموجبة المقارنة لمقدورها فهو عين المحال إلا أن يراد الاشتراك على البدل فيكون تأثير أحدهما فيه شرطاً في تأثير الآخر.

ولما تفطن أبو الحسين لهذا قال: لست أقول: إن إضافته إلى أحدهما هي إضافته إلى الآخر، كما أن الشيء الواحد يكون معلوماً لعالمين ويمتنع أن يكون علم أحدهما به هو علم الآخر فهكذا أقول في المقدور بين قادرين ليست قدرة أحدهما عليه هي قدرة الآخر، والمفعول بين فاعلين ليس فعل أحدهما فيه هو فعل الآخر، وإنما معنى قولي هذا أنه فعل لهذا وتأثير له أنه لقدرته وداعيته وجد، وليس معنى كونه وجد لقدرة هذا وداعيته هو معنى كونه وجد لقدرة الآخر وداعيته، قال: وليس يمتنع في العقل إضافة شيء واحد إلى شيئين، لكنه يمتنع أن يكون إضافته إلى أحدهما هي عين إضافته إلى الآخر، وهذا لا يجدي عنه شيئاً فإن التقسيم المذكور دائر فيه ونحن نقول: قد دل الدليل على شمول قدرة الرب سبحانه لكل ممكن من الذوات والصفات والأفعال، وأنه لا يخرج عن شيء عن مقدوره البتة، ودل الدليل أيضاً على أن العبد فاعل لفعله بقدرته

وإرادته، وأنه فعل له حقيقة يمدح ويذم به عقلاً وعرفاً وشرعاً وفطرة الله عليها العباد حتى الحيوان البهيم.

ودل الدليل على استحالة مفعول واحد بالعين بين فاعلين مستقلين، وأثر واحد بين مؤثرين فيه على سبيل الاستقلال.

ودل الدليل أيضاً على استحالة وقوع حادث لا محدث له ورجحان راجح لا مرجح له.

وهذه أمور كتبها الله سبحانه في العقول، وحجج العقل لا تتناقض ولا تتعارض، ولا يجوز أن يضرب بعضها ببعض، بل يقال بها كلها و يذهب إلى موجبها فإنها يصدق بعضها بعضاً، وإنما يعارض بينهما من ضعفت بصيرته وإن كثر كلامه وكثرت شكوكه، والعلم أمر آخر وراء الشكوك والإشكالات، ولهذا تناقض الخصوم.

وهذا رأس مال المتكلمين، والقول الحق له ينحصر في هذه الأقوال التي حكوها في المسألة، والصواب أن يقال تقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه، فالله سبحانه إذا أراد فعل العبد خلق له القدرة والداعي إلى فعله فيضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة السبب إلى مسببه، ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق، فلا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين قدرة أحدهما أثر لقدرة الآخر وهي جزء سبب، وقدرة القادر الآخر مستقلة بالتأثير، والتعبير عن هذا المعنى بمقدور بين قادرين تعبير فاسد وتلبيس فإنه يوهم أنهما متكافئان في القدرة، كما تقول هذا

الثوب بين هذين الرجلين وهذه الدار بين هذين الشريكين، وإنما المقدور واقع بالقدرة الحادثة وقوع المسبب بسببه، والسبب أو المسبب والفاعل والآلة كله أثر القدرة القديمة ولا نعطل قدرة الرب سبحانه عن شمولها وكمالها وتناولها لكل ممكن، ولا نعطل قدرة الرب التي هي سبب عما جعلها الله سبباً له ومؤثرة فيه.

وليس في الوجود شيء مستقل بالتأثير سوى مشيئة الرب سبحانه وقدرته، وكل ما سواه مخلوق له، وهو أثر قدرته ومشيئته، ومن أنكر ذلك لزمه إثبات خالق سوى الله أو القول بوجود مخلوق لا خالق له، فإن فعل العبد إن لم يكن مخلوقاً أنه كان مخلوقاً للعبد إما استقلالاً وإما على سبيل الشركة، وأما أن يقع بغير خالص ولا مخلص عن هذه الأقسام لمنكر دخول الأفعال تحت قدرة الرب ومشيئته وخلقه.

وإذا عرف هذا فنقول الفعل وقع بقدرة الرب خلقاً وتكويناً كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه، وبقدرة العبد سبباً ومباشرة، والله خلق الفعل والعبد فعله وباشره، والقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته.

قال الجبري: ضلال الكافر وجهله عند القدري مخلوق له موجود بإيجاده اختياراً، وهذا ممتنع، فإنه لو كان كذلك لكان قاصداً له، إذ القصد من لوازم الفعل اختياراً، واللازم ممتنع فإن عاقلاً لا يريد لنفسه الضلال والجهل فلا يكون فاعلاً له اختياراً.

قال السني: عجباً لك أيها الجبري، تنزه العبد أن يكون

فاعلاً للكفر والجهل والظلم ثم تجعل ذلك كله فعل الله سبحانه، ومن العجب قولك: إن العاقل لا يقصد لنفسه الكفر والجهل وأنت ترى كثيراً من الناس يقصد لنفسه ذلك عناداً وبغياً وحسداً مع علمه بأن الرشد والحق في خلافه فيطيع دواعي هواه وغيه وجهله ويخالف داعيَ رشده وهداه، ويسلك طريق الضلال ويتنكب عن طريق الهدى وهو يراهما جميعاً، قال أصدق القائلين:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وأما ثَمُود فَهديناهم فاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدى ﴾ وقال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَلَمَّا جاءَتهم آياتنا مُبْصرة قالُوا هذا سِحْرٌ مُبين وَجَحَدُوا بها واستيْقَنَتْها أنفُسهم ظلماً وعلواً ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُم الشيطان أعْمَالهم فصَدَّهُم عن السَّبيل وَكانُوا مُسْتَبْصِرين ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لِمَنْ اشتراهُ ماله في الآخِرَةِ مِنْ خلاق ﴾ وقال تعالى: ﴿ بِئْسَ ما اشْتَرُوا بِهِ أنْفُسهم أنْ يكْفروا

بِمَا أنزل الله بغياً أن يُنْزِلَ الله مِنْ فضلِه عَلَى مَنْ يشاء من عباده ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَا أهلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرون بآيات الله وَأَنْتُم تَشْهَدون. يَا أهلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الحقَّ بالباطل وَتَكْتُمونَ الحَقَّ وأنتم تعلمُون ﴾ وقال: ﴿ يا أهْلَ الكِتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله من آمَنَ تَبْغُونها عوجاً وأنْتُم شهَداء ﴾ وهذا في القرآن كثير يبين سبحانه فيه اختيارهم الضلال والكفر عمداً على علم، هذا وكم من قاصدٍ أمراً يظن أنه رشد وهو ضلال وغي.

قال الجبري: لو جاز تأثير قدرة العبد في القول بالايجاد لجاز تأثيرها في إيجاد كل موجود، لأن الوجود قضية واحدة مشتركة بين الموجودات الممكنة وإن اختلفت محاله وجهاته، ويلزم من صحة تأثير القدرة في بعضه صحة تأثيرها في جميعه لاتحاد المتعلق، وإن ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر، وأيضاً فالمصحح للتأثير هو الامكان، ويلزم من الاشتراك في المصحح للتأثير الاشتراك في الصحة، ومعلوم قطعاً أن قدرة العبد لا تتعلق بإيجاد الأجسام وأكثر الأعراض إنما تتعلق ببعض الأعراض القائمة لمحل قدرته.

قال السني: لقد كشف الله حوار مذهب يكون إثباته مستنداً إلى مثل هذه الخرافات التي حاصلها أنه يلزم من صحة قدرة العبد على قلع حصاة من الأرض صحة قدرته على قلع الجبل، ومن إمكان حمله لرطل إمكان حمله لمائة ألف رطل، ومن

إيجاده الفعل القائم به من الأكل والشرب والصلاة وغيرها صحة إيجاده لخلق السموات والأرض وما بينهما، وهل سمع في الهذيان بأسمج من هذا وأغث منه، واشتراك الموجودات في مسمى الوجود الكلي العام لا يلزم منه أن ما جاز على موجود ما جاز على كل موجود، وهذا أسمج من الأول وأبين فساداً، ولا يلزم من ذلك تماثل البعوضة والفيل، وتماثل الأجسام والأعراض، ومن يجعل من الجبرية للقدرة الحادثة تعلقاً ما بفعل العبد يعترف بالفرق ويقول: قدرته تتعلق ببعض الأعراض ولا تتعلق بالأجسام ولا بكل الأعراض، فإن احتج على إبطال التأثير بهذه الشبهة الغثة ألزم بها بعينها في عموم تعلق قدرته بكل موجود.

قال الجبري: دليل التوحيد ينفي كون العبد فاعلاً وأن يكون لقدرته تأثير في فعله وتقريره بدليل التمانع.

قال السني: دليل التوحيد إنما ينفي وجود رب ثان، ويدل على أنه لا رب إلا هو سبحانه، ولا يدل على امتناع مخلوق لله فهو بعد طول مقدماته واعتراف فضلائكم بالعجز عن تقريره وذكر ما في مقدماته من منع معارضة إنما ينفي وجود قادرين متكافئين قدرة كل واحد منهما من لوازم ذاته ليست مستفادة من الآخر، وهو دليل صحيح في نفسه وإن عجزتم عن تقريره، ولكن ليس فيه ما ينفي أن تكون قدرة العبد وإرادته سبباً لوجود مقدوره وتأثيرها فيه تأثير الأسباب في مسبباتها، فلا للتوحيد قررتم بدليل التمانع ولا للجبر، وقد كفانا متأخريكم بيان تنافي هذا الدليل من الممنوع والمعارضات.

الشيعة الإمامية

عقيدة الشيعة الإمامية في القضاء والقدر هي عقيدة أهل السنة ـ كما نرى ـ ويبنونها على كلام الإمام علي كرم الله وجهه الذي مر ذكره عندما سأله شيخ عن المسيرة إلى الشام، أكان بقضاء الله وقدره؟ فرد عليه بالإيجاب، ففهم الشيخ من الجواب غير المفهوم الإسلامي فشرح له الإمام فكرة القضاء والقدر في إيجاز بليغ لم يكن مثله في هذا الموضوع الخطير إذ قال بعد أن أقسم بالله: «لم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقانا؟ فقال الإمام: ويحك، لعلك ظننت قدراً لازماً وقضاء حتماً، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عباد الأوثان، وشهود الزور، وأهل العمى عن الصواب، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله سبحانه وتعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ مكروهاً، ولم

يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً».

وهذا هو ما عليه أهل السنة، وهو معتقدهم الذي أوجزه الإمام علي كرم الله وجهه في كلمات تكفي لإعطاء حقيقة المفهوم الإسلامي للقضاء والقدر.

ويرى الشيعة الإمامية رأي الإمام علي، ويبنون عليه عقيدتهم، أو ما قاله الإمام هو معتقدهم، كما تثبت كتبهم، ويبنون فلسفتهم أو بحثهم في القضاء والقدر على عدل الله ونفي الظلم عنه، فالله عادل كما أثبت لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، ونفى الظلم عن نفسه في كتابه العزيز: ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ و﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ونفى الرسول عن الله الظلم نفياً قاطعاً.

وإثبات العدل لله سبحانه وتعالى ونفي الظلم عنه ينفي الجبر وينفي الاختيار المطلق، وفي كتاب «عقيدة الشيعة الإمامية»[1]:

«إن العاقل ـ لا شك ـ لا يغفل عن الفرق بين الحركات الاختيارية وغيرها، ويرى الإنسان نفسه مختاراً في جميع أفعاله وتصرفاته، ويحسن عند الفعل أن نمدح فاعل الخير المحسن، إلى الناس، وأن نذم الظالم الجائر «المسيء» لغيره، فلولا أن الأفعال

(١) تأليف السيد هاشم معروف الحسني، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م).

من صنع الإنسان لما استحق مدحاً أو ذماً، وإنما يحسنان إذا جازت نسبة الفعل إلى العبد الفاعل، ولذا فإن البياض والسواد لا يستحق المتصف بهما ذماً أو مدحاً لأنهما ليسا من فعله.

«ومنها أن الله سبحانه أمر عباده بأشياء كثيرة وجعل لها حدوداً ليقف الإنسان عندها ونهاهم عن أشياء، وأراد منهم فعل ما أمرهم وترك ما نهاهم عنه.

«قال سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ والتكليف لا يجوز بحكم العقل إذا كان الفاعل هو الله، لأنه إذا خلق فينا الفعل كان واجب الحصول، وإن لم يخلقه كان ممتنع الحصول، وما كان وجوده واجباً وعدم وجوده ممتنعاً لا يصح التكليف به عقلاً لاستناد الشيء إلى أسبق علله وأقواها، فإن كان الإنسان شريكاً مع الله سبحانه فالتأثير إنما يكون لأقوى الأسباب وهو الله سبحانه، وإذا لم يكن للعبد شأن في ذلك كان التكليف لغواً من الآمر، والمؤاخذة من أفحش أنواع المظالم.

ولقد سئل الإمام موسى الكاظم عن المعصية، هل هي من الله أو العبد؟ فقال: لا تخلو من ثلاث، إما أن تكون من الله وليس من العبد شيء، فليس للحاكم أن يؤاخذ عبده بما لم يفعل، وإما أن تكون من العبد ومن الله، فليس للشريك الأقوى أن يؤاخذ الأصغر بذنب هما فيه سواء، وإما أن تكون من العبد وليس من الله شيء، إن شاء عفا وإن شاء عاقب، وهو المتعين».

ويقول: «ومما لا شبهة فيه أن الأفعال تصدر بعد القصد ووجود الداعي وانتفاء الموانع شرعية كانت أم عقلية، كما أن الترك إنما يكون لوجود الداعي إليه، والصارف عن الفعل، فالإنسان إذا جاع وأمكنه تناول الطعام من غير أن يكون ما يمنعه من ذلك وقع منه الأكل لا محالة، ومع فرض أن الأفعال من صنع الله سبحانه، لا يكون للقصد ووجود الداعي وانتفاء الموانع أثر في وجود الأفعال وتركها، والضرورة تقضي ببطلان ذلك، فمع القصد إليه ووجود الداعي لفعله لا بد من وجوده، ولا يقع منع غيره، وإذا لم توجد دواعيه ووجود الصارف عنه لا يمكن وجوده.

«ولو قطعنا النظر عن هذه الأدلة فالوجدان خير شاهد على أن أفعال العباد إنما تصدر عنهم مختارين في صدورها، ويرى الإنسان نفسه حين العمل قادراً على الفعل والترك.

«ويستدل الإمامية على بطلان الجبر بآيات كثيرة من كتاب الله، والآيات الواردة في المقام منها ما هو صريح في أن الفعل مضاف إلى الإنسان لقوله سبحانه: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ وقوله سبحانه في قصة يعقوب مع أولاده: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ وقوله سبحانه حكاية عن قابيل وهابيل ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾ وقوله: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على نسبة الفعل إلى العبد، وكونه صادراً منه من غير أن يكون

مجبوراً على ذلك، ولو كان الفاعل غيره أو كان له شريك في ذلك لما صحت هذه النسبة.

«ومن الآيات الكريمة ما هو صريح في مدح المؤمن على إيمانه، ووعده بالثواب والدرجات الرفيعة في دار الجزاء، وذم الكافر على كفره، وتوعد المنافقين بالعقاب على كفرهم ونفاقهم، كقوله سبحانه: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وفي آية أخرى: ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وقوله: ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ وقوله: ﴿ ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ إلى كثير من أمثال هذه الآيات الصريحة في وعد المطيع بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب، وفي كثير من آيات الكتاب تتضمن توبيخ العبد على كفره وعصيانه كقوله: ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ وهي إنكار في معرض الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿ ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ﴾، ﴿ لم تصدون عن سبيل الله ﴾ ولو كان سبحانه غير مريد للإيمان كيف يأمرهم به ويوبخهم على تركه؟ وكيف ينهي عن الكفر وقد أراده وخلقه فيهم؟ وكيف ينكر عليهم لبس الحق بالباطل ويقول لهم: ﴿ لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ وإذا كان هذا هو الذي صدهم عن السبيل كيف يقول: ﴿لِم تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله ﴾ ومن النصوص القرآنية ما هو صريح في تخيير العبد في أفعالَه، وكونها معلقة على مشيئته، قال

سبحانه: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وقوله: ﴿اعملوا ما شئتم فسيرى الله عملكم﴾، ﴿فمن شاء أن يتقدم أو يتأخر﴾، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾.

«وقسم من الآيات الكريمة جاء في مقام الحث على الطاعة والمسارعة إلى عمل الخير والإحسان كقوله: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾، ﴿واستبقوا الخيرات﴾، ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾، ﴿وأجيبوا داعيَ الله﴾ ولو كان الإنسان مجبوراً على الفعل لا يجوز أمره بالمسارعة والاستباق، والعاجز عن القيام بأوامر المولى لا يصح تكليفه بالمسارعة إلى امتثالها، إن هؤلاء أرادوا أن يثبتوا لله القدرة والعظمة فأثبتوا له الظلم والجور والعبث واللغو من حيث لا يشعرون.

«وقد حكى الله سبحانه عن العصاة والمنافقين اعترافهم بالتقصير وعدم قيامهم بما فرض الله عليهم كقوله:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ المدثر: ٤٢ ـ ٤٤.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُواْ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيء﴾ الملك ٨ ـ ٩.

«ولو كان العبد مجبوراً في أفعاله لكان له على الله الحجة البالغة إذا أراد أن يعاقبه على معصية، وكان له أن ينسب الجور والظلم إلى الله في تعذيب عباده، ولا محل لاعترافهم بـالتقصير والتكذيب للرسل كما هو مفاد الآيات الكريمة، وأي فائدة للرجعة التي يتمناها الكافر والمنافق كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم إذا لم يكن الفعل تحت سلطان العبد؟.

«قال سبحانه: ﴿لو أن لي كَرَّةً فأكون من المحسنين﴾ وقوله: ﴿رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ وغيرهما من الآيات الكريمة الحاكية لطلب الرجعة بلسان العصاة، وإذا لم تكن الأفعال من صنع العبد يكون هذا الطلب لغواً إذ لا اختيار له ليختار الأعمال ويتجنب المعاصي.

وأخيراً، فالعقل والكتاب والوجدان، هذه الثلاثة تشهد ببطلان هذه الشبهة، وتثبت اختيار العبد في جميع تصرفاته وأفعاله لنحو من أنحاء الاختيار، يخرجه عن الجبر ولا يلحقه بالتفويض، ولازم ذلك ثبوت الواسطة التي عناها الإمام (ع) بقوله: «أمر بين بين» وليسا هما كالنقيضين اللذين يجتمعان ولا يرتفعان، ولا كالضدين اللذين لا ثالث لهما، وإنما هما ضدان يمكن ارتفاعهما وثبوت أمر ثالث محلهما، كما كشفت عن ذلك الأدلة العقلية والنقلية».

ويقول المؤلف: «وكما لا يقول الشيعة بالجبر لا يقولون

بالتفويض».

وقال: روى «الصدوق بسنده عن يزيد بن عمر قال: دخلت على علي بن موسى الرضا (ع) فقلت له: يا بن رسول الله، روي لنا عن الصادق أنه قال: «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين بين» فما معناه؟ فقال (ع): من زعم أن الله يفعل أعمالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن قال: إن الله سبحانه فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض، فالقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك، فقلت: يابن رسول الله، فما «أمرٌ بين بين» فقال: وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه، فقلت: فهل لله مشيئة وإرادة في ذلك؟ فقال: أما الطاعات فإرادة الله، ومشيئته فيها الأمر بها والرضا والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها، فقلت: فلله عز وجل فيها القضاء والقدر؟ قال: نعم، ما من فعل يفعله العبد من خير وشر إلا ولله فيه قضاء، قلت: فما معنى القضاء، قال: الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة»[1].

وأهل السنة لا يخرجون عما جاء في مقالة ابن تيمية وابن القيم وعقيدة الشيعة الإمامية، فهم يوجزون معتقدهم الذي لا يخرج عن هؤلاء في كلمة وهي أن لله إرادة وأن للعبد اختياراً فيما يقع عليه الجزاء، ولكنهم لا يجعلون الإرادة قسراً وحتمًا، بل

(١) راجع من كتاب «عقيدة الشيعة الإمامية» الصفحات من ٥٢ ـ ٧٠.

يميزون بين الإرادة على القسر والحتم والإرادة على الأمر والتكليف.

فالإرادة على المعنى الأول نافذة حسب قضائه، والإرادة على المعنى الثاني مجاب عليها بالطاعة أو العصيان، ودليل الأول قوله تعالى ﴿كن فيكون﴾ فهي إرادة على الحتم والقضاء والنفاذ، ودليل المعنى الثاني قول الله تعالى: ﴿وكن من الشاكرين﴾ وهي إرادة على الأمر القابل للطاعة أو العصيان.

وخلاصة القول في القضاء والقدر أن الإسلام جاء فيهما بما لم يجىء به أي دين سبقه مما بقي لنا من نصوصه أو أسفاره المحرفة أو في جميع النظريات والآراء الوثنية أو الفلسفية، لأن الإسلام الدين الوسط المبني على التكليف المطاق والإرادة والاختيار حتى يكون للتكليف معناه في الجزاء ثواباً وعقاباً، ونظرية الإسلام في القضاء والقدر هي النظرية المثلى التي لا جبر فيها بحيث يبطل التكليف وما يقوم عليه من جزاء، وليس فيها الاختيار المطلق بحيث يشارك المخلوق خالقه في أفعاله أو ينزع العبد من ربه القدرة فيكون معها شريكاً لله.

وكلا القولين على إطلاقهما غير المحدود ووقوعهما على طرفي نقيض لا يقره الإسلام، لأنه يتوسط بينهما بحيث لا تتناقض حرية الإنسان في إثبات أفعاله من الحسن والقبح مع قدرة الله ومشيئته، أو مع قضائه وقدره.

كلمة في القضاء والقدر

ليس في مباحث علم الكلام أو في المباحث التي بحثها السلف وأهل السنة مقطع القول، لأن هذه البحوث تفسيرات اجتهادية، إلا أن ما ذهب إليه الذين يتمسكون بالكتاب والسنة حق التمسك هو المذهب الأسلم والطريق الأقوم، والخوض في ذلك لا يؤمن جانبه، فقد يغدر باحث القضاء والقدر بنفسه ويتلفها إذا لم يكن له من الله عاصم.

* * *

ومن معاني القضاء والقدر في كتاب الله: أن القضاء يأتي بمعنى الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ وبمعنى أوجب كما في قوله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ والإعلام والاخبار كما في قوله تعالى: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدن في الأرض مرتين ﴾ وللكلمة في القرآن واللغة معان أخرى.

والقدر يأتي بمعنى الخلق كما في قوله تعالى: (وقدرنا فيها

أقواتها) وبمعنى الكتابة كما في قوله تعالى: ﴿ وامرأته قدرناها من الغابرين ﴾ . . . إلخ.

وفي «المفردات في غريب القرآن»[1]:

«والقضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المُعَدِّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام: أتفر من القضاء؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله، تنبيهاً أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله، فإذا قُضِيَ فلا مدفع له، ويشهد لذلك قوله: ﴿ فكان أمراً مقضياً ﴾ وقوله: ﴿ كان على ربك حتمًا مقضياً ﴾ و ﴿ قُضِيَ الأمر ﴾ أي فصل، تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه».

والقدر في الفلسفة لا يخرج عن معناه الشرعي، وكذلك القضاء، فالقدر: تفصيل حكم القضاء، وتخصيص إيجاد الأشياء في أزمنة وأمكنة وعلى أشكال معينة، فهو وجود الكائنات على حسب أحكام القضاء، والقضاء والقدر متلازمان.

والقضاء: الحكم الكلي الإجمالي على أشخاص الموجودات بأصولها حكمًا لا يتبدل من الأزل إلى الأبد، كالحكم بأن

---

(١) تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، طبعة الحلبي، ص ٤١٦-٤١٧.

السماوات سبع، فلا تكون ستاً، وكل نفس ذائقة الموت، فلا يمكن أن ينجو من الموت نفس، وهو بهذا يختلف عن القدر الذي ينصب على حال جزئية في زمن معين، ويعارض البداء الذي يجيز طروء التغير على أحكام الله الأزلية، فالقضاء ثابت في علم الله أزلاً، وصادر عن إرادة قديمة متعلقة بالأشياء على ما هي عليه.

ولا شك أن مسألة القضاء والقدر حيرت المفكرين، وأدت إلى الإلحاد بغير المؤمنين كما شككت من ضعف إيمانه، ومنهم من نسبوا إلى الله الظلم، ومنهم من زعموا ـ كما مر ـ أن الإرادة ليست حرة، وأن الإختيار وهم باطل، والإنسان خاضع للحتمية في قوله وفعله وفي طرائق سلوكه وتفكيره كفرقة الجبرية في الإسلام.

ولا بد من كلمة في هذا الأمر الجلل تقرب إلى الذهن تصور القضاء والقدر كما نرى، ورأينا وسط بين الجبر والإختيار المطلقين، فنحن لا ندعي الحتمية الجبرية، ولا الحرية المطلقة في التصرف والفعل، بل نرى الإنسان مخيراً في تصرفه على نحو ما، ومخيراً في الإمساك عن هذا التصرف على هذا النحو، أي أنه مخير في الفعل وترك الفعل، وهو مسؤول في الحالين.

وكل ما يحدث من الإنسان سواء أكان بإتيان الفعل أم تركه ناتج عن مجموعة من الأسباب والظروف، ولكنه ليس حتمًا مقضياً بحيث ينفي المسؤولية، فقوانين الطبيعة تصف ولا تلزم، فهي لا تجبر أحداً على شيء، فقوانين الحركة تصف لنا كيف تتحرك الأشياء في المواقع دون أن تجبرها على الحركة، وعلى هذا فالإنسان

يتصرف في المواقع تصرفاً حراً غير مجبر، ومن الممكن أن يتدرج فعله تحت القوانين الطبيعية الوصفية من الوجهة النظرية.

ومن الوجهة الواقعية فالموجودات كلها مرتبط بعضها ببعض بأسبابها ونتائجها، وترابطها مشهود، مثل طلوع الشمس نهاراً واختفائها ليلاً، ومثل ارتباط الإنسان بطعامه وشرابه، ولا يمكن أن تكون نتيجة إلا بمقدمتها وسببها، وإلا فلا نتيجة لارتباط السبب والمسبب والعلة والمعلول.

ولا يمكن أن نتصور المسببات بدون أسبابها، ولا الأسباب بغير المسببات، لأن الأسباب والمسببات مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وإن كان يخفى على الإدراك أحياناً إدراك ذلك، وعدم الإدراك لا ينفيه.

وللإرادة والحرية اختيار هذا السبب أو غيره، لأن الإرادة الحرة في الإختيار عامل من العوامل الخفية والظاهرة التي يتكون منها النظام الأعم والأشمل لترابط الحوادث بعضها ببعض، والإنسان لا يستطيع أن يخرج عن ملكوت الله القائم على النظام الدقيق الذي ابتدعه الله خير ابتداع: ﴿بديع السماوات والأرض أنىّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾[1].

هذا النظام العام الشامل الذي أوجده الله يشمل الإنسان

(١) الأنعام: ١٠١.

لأنه من الكون وفيه، فهو يتحرك بحركة النظام كله كجزء من كل، والله عليم بكل شيء من ذلك وأحاط علمه به.

ولكن حركة الإنسان الخاصة قولاً وفعلاً هي حركة إرادية، فيها حرية وفيها اختيار، فالإنسان كجزء من الكون والنظام لا مفر له من القضاء، وحركته الخاصة ذات تأثير في قدره فيما يجري من الحوادث والأحوال، ولا يمكن إنكار وجود حريته الشخصية، لأنه أمر وجداني لا سبيل لإنكاره أو نفيه، فهو ثابت في الإنسان ثبوت الإحساس والتصور والفكر.

ولإيضاح ذلك نقول: إن الطائرة التي تطير بسرعة تفوق سرعة الصوت وتحمل أناساً إنما هي متحركة بمن فيها وما فيها، وكل شيء في مكانه المقرر له، والإنسان كجزء فيها تعمه حركة الطائرة، ولكنه يملك القدرة على الإختيار، ويملك الإختيار نفسه، فهو يجلس على كرسيه، ويقرأ أو يكتب، أو يأكل أو يشرب، يأتي هذه الأفعال حراً مختاراً، أو يتركها حراً مختاراً، فكيف يصح أن يقال: ليس له من الأمر شيء؛ فلا حرية ولا اختيار في أفعاله هذه التي أتاها وفيما ترك منها، وكيف يصح أن يعد اختياره في الفعل والترك وهماً باطلاً كما تدعي الجبرية ومن يذهب مذهبها في الحتمية.

إن تكن تلك الأفعال التي يقوم بها ولا تحصى وهماً فما يكون هذا الكرسي الذي جلس عليه، والكتاب الذي قرأ فيه، والقلم الذي كتب به على الورقة التي كتب فيها، والطعام الذي أكله،

والماء الذي شربه، وقيامه وقعوده، وحركاته الكثيرة؟ أهذا كله وهم؟ طبعاً ليست هذه الأشياء وهما لأنها وقائع مشهودة يحس بها الإنسان بحواسه كلها مجتمعة أو غير مجتمعة.

وما دامت هذه الأشياء «واقعة» فإن أفعاله واقعة، ودليل حريته واختياره أنه يستطيع أن يحمل الكأس بيده ويشرب، ويستطيع أن يترك الشرب بعد حمل الكأس والتهيؤ للشرب، واختياره الشرب أو تركه فعل ناتج عن إرادته.

وليست هذه الإرادة مطلقة، وليست كلية بحيث تكون لها الحرية والتصرف فلا يحد من انطلاقها شيء، بل هي ليست مطلقة إلى الحد الذي تخرج فيه عن جميع المؤثرات، فهي خاضعة للظروف والأحوال ولعوامل كثيرة مثل عوامل البيئة وآداب السلوك والمجتمع والشرائع والقانون والجو والأخلاق وغير ذلك.

إن الإنسان كجزء من هذا الكون خاضع لحركته وللدوافع والأسباب التي تُسيِّر الكون كله، ولكنه كجزء مستقل ذي كيان خاص لا يفقد حريته واستقلاله، فله إرادته الخاصة، يأتي الفعل ويتركه من نفسه وبطوعه واختياره، فهو يكتب عندما يريد الكتابة ويأكل عندما يريد الأكل.

ولكن الجبرية الحتمية عامة ترد على هذا الإختيار بأنه لو كان للإنسان أن يختار لكان متوقعاً تغير أحداث مستقبل الإنسان حسب اختيار أفعاله ولتغير القضاء المسطور في اللوح المحفوظ بتأثير إرادة الإنسان من حاله إلى حال أخرى.

وأقرب رد على هذا الإعتراض: ما الذي يمنع أن هذا التغير من حال إلى حال أخرى هو نفسه الذي جرى به القضاء؟

إن طبيعة المخلوق جعلته قابلاً لما يصدر عنه من الأفعال، فهو ليس مسلوب الإرادة حتى يكون مسيراً تسييراً تنعدم فيه الإرادة الشخصية، وليس حراً بحيث يكون مطلقاً لا ضابط له في انطلاقه، فهو كما جاء في كلمة الإمام جعفر رضي الله عنه: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين بين» وعلى هذا الأساس تنهض التبعة ويقوم الجزاء، ومن ذلك تتبين حقوق الخالق وواجبات المخلوق.

وإذا ذهبنا مع القدرية كان من الحتم إنكار القضاء والقدر والنظام المحكم الذي يربط كل أجزاء الكون بعضها ببعض وإنكار قدرة الله، وإذا اعتنقنا مذهب الجبرية كان حتماً الحكم على الإنسان بأنه أحد الجمادات، ولتبع ذلك إبطال الثواب والعقاب، ولأصبح الخير والشر شيئاً واحداً، ولما كان للتمييز بينهما معنى.

وكلا الفريقين يصدم واقعه نظريته، فالذاهبون إلى الجبر لا يتكلون عليه في واقعهم، فالمثل الذي ضربه ابن تيمية ينقض نظريتهم، بل هم ينقضون بواقعهم نظريتهم.

يقول ابن تيمية: «إن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه، وهو قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها، فلو قال هذا: إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان

أحمق لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له من الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب، فلو قال: إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلاً ضالاً، لأن الله علم أن سيكون بذلك، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل؛ وهذا يروى بالشرب؛ وهذا يموت بالقتل فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها[1].

ونحن نسأل الجبري: ما دمت معتقداً بالجبر الحتمي فلماذا تتخذ الأسباب للوصول إلى المسببات؟ لماذا لا تترك الإتصال بزوجك ما دام القضاء قد فرض وجود ولد لك؟ ولماذا تطلب الطعام والشراب لتحفظ حياتك ما دامت حياتك مسيرة؟

وإن المؤمنين بالجبرية الحتمية ينقضون نظريتهم بواقع تصرفاتهم، فما من أحد منهم يترك بيته يحترق بحجة القضاء والقدر ولا يسرع إلى المطافئ مستنجداً، وما نرى أحداً منهم قعد عن الصراع من أجل الحياة بالكسب الحلال أو الحرام لأن الأمر قد قُضِيَ فلا حرية ولا اختيار ولا إرادة.

إن هؤلاء يتصورون القضاء والقدر قوة عمياء فرضت سلطانها على المخلوقين فلا سبيل إلى الإفلات منها، ولا بد من الخضوع لإرادتها، والقدرية تصوروا القضاء والقدر شيئاً

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٨: ٦٨.

منفصلاً عن الكون والحياة وفي معزل تام عنها، فكأن القضاء والقدر قوة جامدة لا حراك بها، والذي يتحرك هو الإنسان وحده بمحض إرادته دون أن يكون لتلك القوة الجامدة أي دخل في فعله.

وكلاهما على خطأ مبين في معتقده الباطل، فلا القضاء والقدر قوة عمياء تخبط خبط عشواء، ولا قوة جامدة بمعزل عن الأحياء، فقضاء الله خاضع للنظام الكوني العام الشامل الذي أبدعه الله، فكل شيء يسير ويتحرك حسب هذا النظام وفي داخله، وكل شيء كجزء مستقل يتحرك حركته الخاصة ويسير سيرته الخاصة حسب الإرادة الشخصية.

وما من أحد من الفريقين لم يوجب التكليف، بل الملاحدة الذين ينكرون وجود الله أوجبوا التكليف، والجميع سواء في وجوبه خضوعاً منهم لوجدانهم، وإيماناً منهم بضرورته، وعرفاناً منهم لجدواه.

وهذا يكفي للعلم بضرورة الإيمان بالقضاء والقدر من قبل المؤمنين بوجود الله، ويكفي للعلم لدى الملحدين أن قوة عليا أوجدت نظام الكون وفرضت عليه التكليف مع تفاوت درجاته بنسبة المكلَّف.

وإن علم الله بما كان وبما سيكون حق، ونقول: بما كان وسيكون على اصطلاحنا الإنساني الذي قسم الزمن إلى ماض

وحاضر ومستقبل مع أن الزمن في وجوده ليس خاضعاً للتقسيم الإنساني، ولكنه أوجده العقل الإنساني لينظم عليه حياته.

فعلم الله قديم لأنه سبق العالم والزمان اللذين هما حادثان، وعلم الله بما يكون من خلقه من بدء الخليقة حتى نهايتها ليس معطلاً لإرادة الإنسان ولا سالباً حريته.

ولأقرب إلى الذهن هذا المفهوم أمثل له بعمل إنساني.

سمعت رجلين يتآمران، وعلمت بمؤامرتهما التي أرادا منها نسف محطة بنزين، ورأيت في يد أحدهما قنبلة يتجه بها إلى المحطة، وأخبرت زميلاً لي بالتلفون أن محطة بنزين كذا ستنسف بعد ساعة، ونسفت المحطة حقاً في الموعد المحدد.

هنا سلسلة من الأفعال، فأنا علمت بالمؤامرة، وعلمت بالحادث الذي سيقع، ولم أكن أتحدث بالغيب بالنسبة لي، وإن كان من أخبرته بالحادثة قبل وقوعها يحسبني متحدثاً بالغيب، ويتأكد، له بعد وقوع الحادث أنني تكهنت أو علمت الغيب قبل أن يظهر ويُعلَم.

أعلمي السابق منع المتآمرين من تنفيذ خطتهما؟ أعلمي السابق سبب ما وقع منهما من الفعل؟ أعلمي السابق سلب إرادتهما فمضيا في فعلهما مجبرين.

إن علمي ليس سبباً للفعل، ولم يغير من إرادتهما شيئاً، ولم يؤثر على حريتهما، ولم يمنعهما من فعل ما أرادا.

ولنزيد الأمر توضيحاً نقول: إن الله عز وجل خلق الإنسان وزوده بأعضائه وبجوارحه، وجعل لكل وظيفة عضواً، ولكل عضو وظيفة، وفي وسع العضو فعل الخير وفعل الشر باختيار صاحبه غير مجبر عليه بحيث يكون الحتم الذي لا فكاك منه.

وأنت إذا أعطيت إنساناً مالاً ليتصرف به فيما ينفع، وهو حر بطبيعته، فإذا سخره للخير فهو حر، وإذا سخره للشر فهو حر، وليس المعطي في الحالين مسؤولاً، فهو لم يأمره بفعل الشر بل نهاه عنه، ولم يجبره.

فالإنسان مزود بالقدرة على فعل الخير وفعل الشر، وعلى أساس هذه الحرية يكون الجزاء: ثواباً وعقاباً.

وقد مر في مبحث «القضاء والقدر» حديث عمر عن رسول الله ﷺ إذ سئل عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾[1] الآية؛ فقال ﷺ: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، فلِمَ العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق الرجل للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار».

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

والذين لم يفهموا القضاء والقدر فهمًا صحيحاً وسليمًا اتهموا الله تبارك وتعالى بمحاباة من كتب عليهم أن يعملوا بعمل أهل الجنة ويدخلهم الجنة، واتهموه سبحانه بظلم من كتب عليهم أن يعملوا بعمل أهل النار حتى يدخلوها، وأصدروا حكمهم هذا وكأن الله عز وجل مثلهم يسأل عما يفعل، وغاب عنهم أنه غير مسؤول عن فعله.

ولتقريب مسألة القضاء والقدر وحكم الله نضرب بعض الأمثال رجاء أن يفهموا ما يجب أن يفهموه من الحق.

إذا كان لديك أيها القارىء بستان خصصته بزراعة الزهور، وجعلت قسمًا منها للزينة يأخذ مكانه من نحور الحسان ومجالس السرور، وقسمًا للنار تعمل منه العطور، أفأنت مسؤول وتحاكم على ما فعلت؟.

ما أظن أحداً يحاسبك ويتهمك بالمحاباة في بعض عملك وبالظلم في بعضه الآخر.

وإذا كان لديك بستان يحوي شجراً مثمراً، فأخذت بعضه للوقود، وبعضه للزينة، أفأنت محاسب على ما تملك وعلى ما تفعل به؟ ما أظن أحداً يحاسبك ويحكم عليك بالظلم في إحراق بعض الشجر، وما ثم من يتهمك بمحاباة الشجر الذي اتخذته للزينة.

فكيف يصح اتهام الله ومحاسبته فيما يملك ولا نحاسب نحن على أفعالنا؟

إذا كنا نحن لا نحاسب فيما نملكه فإن من الظلم بل من الكفر أن يجعل بعضنا من أنفسهم قضاة يحكمون على الخالق جل جلاله.

وهؤلاء يعطون أنفسهم ما ليس بحق لهم، ويأخذون ببعض ما جاء في الكتاب عن الله ويغفلون بعضه، فهم يأخذون أن الله خالق وفعال، ويغفلون عن العدل الذي اتصف به الله، ولا يمكن تجريد الله من بعض صفاتـه، بل لا بد أن تثبت كل الصفات التي وصف بها نفسه، ويجب أن نؤمن بها جميعاً إيماناً حقاً، نؤمن بأنه خالق وبأنه عادل، وأنه رحيم وأنه شديد العقاب.

وعندما نؤمن بكل صفاته مجتمعات يزول من أذهاننا فكرة الاتهام، وعن قلوبنا وساوس الضلال والكفر.

فالله - جل جلاله - لا يحكم عليه من خلقه بأدلة وقرائن تتفق مع ما فينا من غرائز وميول ونزعات، لأنه الله هو وحده الحاكم الفرد، ولا يمكن أن يكون محكوماً، والله هو وحده الخالق الفرد، ولا يمكن أن يكون مخلوقاً، وإلا انتفى عنه الحكم والخلق، وهذا لا يمكن أن يخضع للتصور فضلاً عن الحكم.

والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ووهب له القدر على الفعل واختياره، فالإنسان مخير في فعل ما يريد من الخير ومن الشر، وهناك أمور لا اختيار له فيها، فهو يحاسب فيما فيه الاختيار، ولا يحاسب فيما هو مجبر عليه وفيما لا يملك فيه الاختيار.

هو محاسب على أفعاله، لأنه يفعلها بإرادته، وغير محاسب على إحساسه بالمسرة والكآبة، ولا على نمو جسمه، ولا على الأعمال التي تؤديها أعضاؤه فيما لا يملك التحكم فيها مثل اشمئزازه من منظر القبح أو الرائحة الكريهة، ومثل التبول، ومثل أعمال الغريزة.

فالإنسان مخير في أفعاله التي يملك السيطرة عليها، وغير مخير فيما لا يملك التحكم فيه، فنمو جسمه غير خاضع لإرادته، فهو غير محاسب فيه، ولكن توجيه الأعضاء إلى فعل ما هو منهي عنه خاضع للحساب.

وإذا كان المخلوق منا لا يحاسب غيره على فعل ما أكره عليه فإن الله تبارك وتعالى أكبر من أن يحاسب من خلقه على ما يكره عليه، وإنما الحساب في العمل يملك صاحبه الاختيار في فعله أو تركه.

ويجب على الإنسان أن يؤمن بقدرة الله وبكل صفاته إيماناً حقاً، وعندما ينبثق نور الإيمان في قلبه فإنه يؤمن بأن الله غير مسؤول عما يفعل، والعدل الذي يتصف به ينفي عنه الظلم نفياً، وعندما نؤمن بكل ذلك حق الإيمان لن يخطر بالبال أي سؤال يتصل بالشك أو الضلال أو الكفر، لأن الإيمان يحملنا على قبول كل ما جاء عنه سبحانه وتعالى بالتسليم، فلا يكون لدينا في أمر القضاء والقدر إلا التسليم الذي يقترن به الأمن والطمأنينة.

ونخلص من هذا المثال وما سبقه إلى أن للإنسان إرادة

حرة، ولكنها ليست بمعزل عن إرادة الله في تقيُّد إرادة الإنسان بنظام الكون العام الشامل الذي أوجده الله ليأخذ كل شيء فيه مكانه الخاص به، ومن هذا النظام المحكم الدقيق أُعطِيَ الانسان إرادة حرة فكان بها مخيراً، وبحكم هذا النظام خضع الإنسان وإرادته وفعله لأسباب ومؤثرات فكان مسيراً، ولكنه غير مشدود للنقيضين بحيث يكون على طرفي نقيض، بل يلتقي في إرادته الضدان فيكون مسيراً في اختياره، ومخيراً في تسياره﴿ سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾.

ونزوله بين الضدين وأخذه بهما يجعلانه مدار التكليف، ويدفعانه إلى أن يستزيد من ثمار إرادته الحرة، فيأخذ منها ما تعطي من الخير، ويترك ما تهب من الشر، ويعمل ما فيه صلاح نفسه صلاحاً يرضي خالقه الرحيم، فيضاعف له حسناته ويجعلها تُذْهِب سيئاته فيناله من الله الرضا والغفران.

دعاوى وأباطيل

هذا موجز عقيدة الإسلام، وليس بين أيدينا عقيدة أكمل منها على الإطلاق في عصمتها هي نفسها من النقائص التي نشهدها في العقائد الأخرى، وفي تنزيهها للخالق تنزيهاً يليق بجلاله وعظمته، وتجعله منفرداً في ذاته وأسمائه وصفاته فلا شريك له ولا مثيل.

ومع كمال عقيدة الإسلام الذي اعترف به أكبر فلاسفة الأرض في هذا العصر وأعظم علمائه من أبناء الديانات الأخرى في مؤلفاتهم تعرضت هذه العقيدة العظيمة السليمة للطعن من أناس لا يمكن أن يوصفوا بغير الحقد على الإسلام أو الجهل به أو بهما معاً.

وأبشع فرية افتروها على الإسلام أنه صورة مشوهة من اليهودية والمسيحية أو صورة ملطفة لليهودية، وأنه مكون منهما ومن غيرهما من الديانات.

ومن أشد أعداء الإسلام: أجناس جولدزيهر المستشرق

اليهودي المجري (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) فقد تجنى على الإسلام عقيدة وشريعة تجنياً حقوداً قذراً في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام[1]» ودافعه إلى هذا التجني حقد على الإسلام وعلى رسول الله وجهل بهما يظللهما لؤم لئيم.

يقول جولد زيهر: «تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية غرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة في الإتجاه الذي تريده الحياة الإلهية».

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً أوصل إلى أعماق نفسه وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً، فأصبح ـ بإخلاص ـ على يقين بأنه أداة لهذا الوحي. ص ٥ ـ ٦.

ويقول (ص ٧): «في خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الإتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ

---

(١) ترجمه الى اللغة العربية الأساتذة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق والدكتور علي حسن عبد القادر وطبعته دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٦م والنصوص المنقولة منه من ترجمتهم وقد قاموا برد مفتريات المؤلف في الحواشي الثمينة التي كتبوها.

يجترها في قرارة نفسه وهو منطو في تأملاته أثناء عزلته».

ويقول (ص٨ ـ ٩): «وفي بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى eschatogigues كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوماً بعد يوم، وهذه التأملات هي التي كونت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب الذي سيقع يوماً ما على العالم كالصاعقة أخذ يطبقه على الأمور التي يراها حوله والتي كانت تملأ نفسه اشمئزازاً، فتراه يواجه عدم اكتراث سادة مكة وكبرياءهم وجبروتهم بإنذار بيوم الحساب القريب منهم، ويرسم لهم بحروف من نار صورة البعث وصورة الحساب.

و«ما كان يبشر به خاصاً بالدار الأخرى ليس إلا مجموعة مواد استقاها صراحة من الخارج يقيناً، وأقام عليها هذا التبشير، لقد أفاد من تاريخ العهد القديم، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء، ليذكر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم، ووقفوا في طريقهم، وبهذا انضم محمد إلى سلسلة أولئك الأنبياء القدماء بوصفه آخرهم عهداً وخاتمهم».

ويقول (ص ١٧ وما بعدها): «أما المذاهب والقواعد الوضعية الواقعية فكانت ذات طابع انتخابي كما سبق أن أوضحناه، وقد ساهم في تكوين عناصر هذه العناصر والقواعد

الدين اليهودي والدين المسيحي على سواء، وتفاصيل هذه المساهمة أو الإشتراك لا محل للحديث عنه هنا.

«ومن المسلم به من الجميع أن العقيدة الإسلامية في صورتها النهائية قامت على خمس قواعد وأركان أساسية هي:

أولاً: الاعتقاد بالله الواحد والاعتراف بمحمد رسول الله.

ثانياً شعيرة الصلاة التي كانت بصورتها الأولى من قيام وقراءة وبما فيها من ركوع وسجود وبما يسبقها من وضوء تتصل بالمسيحية الشرقية.

ثالثاً: الزكاة التي كانت في أول الأمر صدقات إختيارية ثم صارت بعد جزءاً معيناً أو ضريبة محددة تنفق في سبيل تدبير حاجات المجموع.

رابعاً: الصوم الذي جعل أولاً في اليوم العاشر من الشهر الأول، أي عاشوراء، محاكاة للصوم اليهودي الأكبر، ثم نقل بعدئذ إلى شهر رمضان.

وخامساً: الحج إلى المعبد الوطني العربي القديم في مكة أي إلى الكعبة بيت الله، وهذا الركن الأخير احتفظ به محمد عن الوثنية، لكنه جعله متفقاً والتوحيد، وعدل معناه مسترشداً في ذلك ببعض الأساطير الإبراهيمية.

«وكذلك بعض عناصر القرآن المسيحية نعرف أنها وصلت إلى محمد عن طريق التقاليد أو الروايات المتواترة المحرفة، وعن

ابتداعات المسيحية الشرقية القديمة، كما ينضم إلى هذا وذاك شيء من الغنوصية الشرقية، ذلك لأن محمداً قد أخذ بجميع ما وجده في اتصاله السطحي الناشىء عن رحلاته التجارية، مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من هذا دون أي تنظيم».

«وفي سبيل التمثيل لذلك نذكر أنه ما أعظم الفرق بين فهمه وتصوره السابق لله، والكلمة ذات النزعة التصوفية (سورة النور: ٣٥) التي يسميها المسلمون آية النور».

«فالنزعة التي كانت تسود في الأوساط الغنوصية (المرقيونيون وغيرهم) والتي كانت ترمي إلى الحط من قيمة شريعة العهد القديم، واعتبار هذه الشريعة صادرة من إلّه شديد بعيد عن الرحمة قد نفذت إلى الأفكار التي نشرها النبي بخصوص شريعة اليهود وبخاصة فيما يتعلق بما حرمه الله عليهم من المآكل عقاباً لهم على عصيانهم، وقد نسخ الله هذه التحريمات إلا أشياء قليلة جداً مستثناة، إن الله لا يحرم على المؤمنين أي شيء طيب».

«أما ما فرضه على اليهود من قوانين فهو قيود والتزامات (سورة البقرة: ٢٨٦ سورة النساء: ١٦٠ سورة الاعراف: ١٥٧) وهذا يشبه كثيراً النظريات المرقونية إن لم نقل أنه مطابق لها تماماً».

«وكذلك التقليد القائل بوجود دين قديم نقي كان يجب على النبي تقويمه، وأيضاً الإفتراض القائل بتحريف الكتب المقدسة، هذان وإن كانا قد طبعا بطابع أقوى في الإسلام إلا أنه وُجدَ لهما

أصل في بعض الأفكار التي تتصل اتصالاً وثيقاً بتعاليم القَديس كليماندس المسيحية».

«وبعد أولئك جميعاً نجد النحلة البارسية الزرادشتية التي لاحظ الرسول وجود أنصار لها باسم المجوس إلى جانب اليهود والمسيحية لم تمر دون أن تترك أثراً في شعور النبي العربي، فقد قابلها بالوثنية وبالدين الموسوي والدين المسيحي أيضاً، وقد اتخذ عن «البارسية» تعليمًا هاماً وهو إنكار يوم السبت على أنه يوم ارتاح الله فيه من العمل فصار راحة عامة، وجعل يوم الجمعة هو يوم الاجتماع الأسبوعي، ومع تسليمه بأن الله خلق العالم في ستة أيام فإنه رفض عامداً فكرة أن الله استراح اليوم السابع، ولذلك لم يجعل يوم الجمعة يوم راحة، بل يوم اجتماع يستأنف العمل به بعد الانتهاء من صلاة الجمعة».

هذا ما يقوله جولـدزيهر في إصرار، ويسوقه وكأنما يقدم حقائق علمية مقررة، والحق أن يهوديته كانت تسيطر عليه، وتناول الإسلام وقد حكم عليه قبل أن يبدأ بحثه بالمسخ والتشويه والزراية، بل تناول قضية الإسلام وهو مُصْدِرٌ الحكم ضده، فأخذ يصطنع ما يحسبه أدلة، ويزيف ويجمع ما يدين الإسلام، وزاد من حقده أنه لم يستطع فهم حقيقة الإسلام وتاريخه ولا استجلاء روحه فكان عمله قائمًا على محاربة الإسلام وتشويهه ومسخه.

وقد سبقه أمثاله من ذوي الهوى الباطل والحقد على الإسلام في ذكر الزعمات التي تشبث بها جولـدزيهر والقائمة على أن

الإسلام صورة مشوهة لليهودية والمسيحية كما عاصره أو خلفه من ذهبوا هذا المذهب، ومنهم «ديتلف نلسن» ولكنه كان أكثر اعتدالاً من زيهر، وإنْ لم يستطع أن يفهم الإسلام فهمًا صحيحاً فتخبط في آرائه وتجنب الحق، وفي بعض ما ذكره يعد رداً على زيهر وأمثاله وإن لم يذكر أسماء.

يقول نلسن[1]:

«أما (الله) في الإسلام فهو ولا شك آخر مظهر من مظاهر تطور معنى الله التاريخي في ديانة بلاد العرب الجنوبية، وهذا «الله» المسلم لا شريك له، وهو يجب أن يعد ضمن آلهة بلاد العرب الجنوبية، أما في بلاد الحبشة فنجد المسيحية تحل محل الوثنية القديمة كدين رسمي، لكن من الخطأ المبين أن نعتبر كما هو شائع الآن أن إله القرآن هو خليط من آراء يهودية وأخرى مسيحية، وهو إله سامي شمالي، نعم كان الجو الديني في بلاد العرب بعد ظهور المسيحية ملبداً بالغيوم في كثير من الأماكن، وهو خليط من عناصر يهودية وأخرى مسيحية، ويلاحظ ذلك في النقوش وكذلك في الكتب وخاصة في القرآن الكريم، لكن فيما يتعلق بالله، فإن تلك المظاهر الدينية عند العرب وخاصة فيما بعد عند الكثرة المطلقة من الساميين الشماليين كانت مظهراً من مظاهر الإنتقال من الوثنية إلى

---

(١) الشواهد التي ذكرناها هنا من كلام نلسن منقولة من كتاب «التاريخ العربي القديم» تأليف نيلسن وغيره وترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨ راجع الصفحات ١٨٠ ـ ١٨١.

الإسلام، وذلك لأن محمداً تهكم كثيراً على المظاهر الدينية الشمالية وتقديسها للصور والأشخاص، كذلك تهكم على تعدد الآلهة عند العرب الجاهليين، فـ «الله» في الإسلام هو إلّه واحد وهو رب العالمين، وهو من هذه الناحية يختلف عن إلّه اليهود الخاص بهم، وهو بعيد أيضاً عن تعدد الآلهة عند المسيحيين والساميين الشماليين ولم يتصور يوماً ما كإنسان.

«أما ما يتعلق بشخصية هذا الإلّه حسب تعاليم القرآن فهو من كل ناحية يتصف بصفات تجعل منه «رب العالمين» وهو إلّه غير سياسي، وهو و«إلّه النقوش» العربية القديمة صنوان، والفرق بينهما فقط في أن الإسلام خصه بصفات وخواص على حساب الآلهة الأخرى، حتى أن بقية الآلهة تلاشت أمامه، ومن ناحية أخرى فإن الإلّه الجديد متصل في الذات بالله القديم، وذلك لأن الوثنية السامية الجنوبية القديمة كانت تتصف بذلك الإلّه الذي كان يعرف منذ العصور القديمة كرب للآلهة بينما إلّه الساميين الشماليين قد اختفى في آلهة أخرى منذ قرون عديدة قبل الميلاد عند الساميين الشماليين.

«إلّه القرآن يكون الخاتمة الطبيعية لتطور فكرة الله عند الساميين الجنوبيين، وذلك لأنه لم تقم في العصور الإسلامية المتأخرة أية محاولة جديدة في العقيدة بالله، ففكرة الله في الإسلام ذكرها الإسلام وأثبتها، وكل ما في الأمر هو شرح القرآن وتفسيره، لذلك فإن كل المراجع الدينية والمصادر التي بأيدينا تتجه دائمًا إلى

فكرة الله كما عرض لها القرآن وأخذ باب الاجتهاد يوصد تدريجياً حتى أصبحنا أمام مذاهب دينية محافظة غير قابلة للتجديد.

«ولعل من حسنات هذه المحافظة أنه وصلت إلينا اليوم معلومات قيمة عن رب إله العرب الآخرين كما نعلم الآن كثيراً من عناصر الوثنية التي ما زالت مدسوسة في طيات الديانات الشعبية الحية.

«وكما أن الديانة الإسلامية حافظت على إله من آلهة المتقدمين كذلك اتخذت بعض أعياد ومقدسات الوثنية أعياداً ومقدسات لها، فإلى الآن يقوم القادرون من المسلمين بالحج ويحتفلون به في مكة، وعيد الحج هذا هو العيد الخريفي في العصر الوثني، والهيكل الوثني ما زال قائمًا في مكة حتى اليوم.

«أما عيد الحج فقد غُيِّر طبعاً بعض التغيير، ومعبد الله القديم قد ظهر من الآلهة الآخرين، لكن حتى في الحج وفي الكعبة وفي كثير من العادات والطقوس والتقاليد الإسلامية ما زلنا نجد حتى اليوم كثيراً من بقايا العصور الوثنية الأولى، لذلك من الهام جداً أن نقوم بدراسة جديدة في بلاد العرب والحبشة لجمع بقايا تلك العصور الوثنية، والتي ما زالت حتى اليوم حية بين السكان».

يقول نلسن[1]:

«ومنذ أن أصدر «ابراهام جيجر» كتابه «ماذا أخذ محمد من

---

(١) التاريخ العربي العام، الصفحات ٢٤٠ ـ ٢٤٤.

اليهودية» . Abraham Jeiger, Was hat Mohammed aus dem judenthume

واتجه نظر العلماء إلى البحث عن أصول الإسلام في اليهودية، وما كاد «فلهوزن» يصدر كتابه عن بقايا الوثنية العربية إلا واعتبرت المسيحية مصدراً آخر من مصادر الإسلام الرئيسية.

«حقيقي أن الثقافة السامية الشمالية تركت أثرها في شمال بلاد العرب، وحقيقي أيضاً أن اليهودية والمسيحية انتشرتا في بلاد العرب قبل عصر محمد بزمن بعيد، وحقيقي كذلك أن محمداً عرف هذه الديانات، كما أنه استعان بها هي في الواقع بالنسبة للنبي العظيم أمور ثانوية سطحية جداً بالنسبة للإسلام وجوهره وبالنسبة لنظرته إلى الله.

«ومن هذه الناحية نجد أثر اليهودية والمسيحية ضئيلاً جداً، ولولا ذلك ما استطاع الإسلام أن يظهر كدين مستقل له أصوله وتعاليمه التي وقفت وتقف إلى اليوم تواجه اليهودية والمسيحية.

«نعم، إن محمداً جادل اليهود والمسيحية ولم يتوان عن ترديد القول أن ربه هو الرب الذي كان للعرب من قبل، والذي صلى له العرب قديماً وعبدوه، وهذا الرب لم يكن للعرب الرب الأعلى (سورة ٢٣ ي ٨٦-٩٢) و(سورة ٢٩ ي ٦١وي ٦٣) و(سورة ٣٠ ي ٣٩) و(سورة ٣١ ي ١٠و٢٤) و(سورة ٣٣ ي ٣) و (سورة ٣٥ ي ٣٨) و(سورة ٣٩ ي ٣٩) بل الأحد أيضاً في وقت الشدة والضيق (سورة ١٦ ي ٥٥) و(سورة ٣٩ ي ٦٥) و(سورة ٣٠ ي ٣٢) و(سورة ٣١ ي ٣١) و(سورة ٣٩ ي ١١، ٥٠) وكلما

عثرنا على مادة من مواد تاريخ بلاد العرب القديمة والديانات السامية كلما تزداد عقيدتنا في صحة هذه الصورة التي يرسمها لنا القرآن.

«ولفظ «الله» الوارد في القرآن هو «أل» أو «إلّه» الوارد في النقوش العربية القديمة، وأكثر من ذلك فكثير من أسماء الله وصفاته الورادة في القرآن نجده في هذه النقوش القديمة، كذلك بعض الاصطلاحات الدينية الخاصة بالإسلام، وهذا موضوع جدير بأن يعالج على حدة، ونحن نكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة:

« (الرحمن) استعمله القرآن في العصر المكي كثيراً عوضاً عن «الله» ولفظ «الرحمن» هو في الواقع إسم لإلّه في السبيئة (رحمن ان).

« (الرحيم) استعمله القرآن كثيراً كلقب الله، وهو يوجد في النقوش الصفوية كاسم لإلّه (هـ رحيم) (هرحم) وفي النقوش السبيئة (رحيم) (رحم).

«ومن بين مجموعة الأسماء الواردة في القرآن وفي النقوش العربية القديمة التي تصف الله بأنه حبيب البشر، وأنه هو الذي يريد لهم الخير، وأنه قريب وصديق نجد لفظ «ود» فلفظ «ود» يدلنا حقيقة على هذه المعاني، وكذلك الحال مع الأسماء الأخرى الواردة في القرآن مثل «سميع» و«حليم» كما نجد الإسم العربي القديم (حكيم) وهو يصف الله كحكيم، ونفس اللفظ نجده في القرآن (حكيم) وغير هذه الأسماء نجد الشيء الكثير.

«وعلى العكس من ذلك فالإسلام يرفض كل الأسماء التي تصور الله كوالد، وكذلك الألفاظ الدالة على أي نوع من قرابة بين الله والناس، «الله» ليس «والداً» بل هو «رب قوي» وأحياناً يجلس على عرش بعيد المنال، والإنسان ليس طفلاً أو ابناً لله، بل عبد، فالفرق بين الله والإنسان بعيد جداً، فالنظر إلى الله بهذا المنظار له أسبابه القديمة جداً في الوثنية السامية الشمالية التي انتشر أثرها في الجزيرة وبلغ المدينة ومكة في العصور القديمة، وكذلك نجد «الله» عند النبي يشبه «أل» أو «إلّه» عند العرب الأقدمين، فهو مثلهما إلّه عالمي، ولم ينظر إليه بتاتاً كإنسان.

«أين وطن التوحيد ومن أين جاء؟ فالقول بانفراد هذا الله بالسلطان من أثر المسيحية مرفوض، فالمسيحية التي كانت حتى عصر محمد لم تكن توحيدية بل متعددة الآلهة، فيسوع وأمه كانا يقدسان ككائنين إلهيين، وقد تكون اليهودية قد أثرت، لكننا نعلم أن إلّه اليهود كان إلهاً قومياً ولم يكن عالمياً.

«لكن نبي الإسلام لم يرد بخصوصه في القرآن أنه أول موحد في العالم، بل نرى الحديث عنه وعن التوحيد يشمل عدداً من الأشخاص خاصة أولئك الأنبياء الذين قد سبقوه ودعوا لنفس الله وعبدوه، ومن بين هؤلاء نجد أشخاصاً من الكتاب المقدس، كما نجد أنبياء عرباً أرسلهم الله لمختلف الشعوب العربية القديمة.

«ومحمد يشعر بالقرابة الشديدة بينه وبين هؤلاء الأنبياء الذين لم يتركوا لنا كتابات أكثر من قرابة للأنبياء الآخرين، لذلك

يسمي نفسه النبي الأمي (سورة ٧ي ١٥٦) ولفظ «حنيف» «آرامي حنيف» يدلنا في نفس الوقت على الفرق بين هؤلاء وبين أصحاب الديانات التي تركت كتباً.

«وإذا بحثنا عن الذين مهدوا للتوحيد الذي يدعو إليه القرآن فإننا يجب أن نلجأ إلى القرآن نفسه، فالكتاب الكريم يشير إلى أن توحيده مستمد من بلاد العرب القديمة، وهنا نفس التطور والتدرج الذي انتهى إلى أن توحيده مستمد من بلاد العرب القديمة، وهنا نفس التطور والتدرج الذي انتهى إلى محمد وختم به، فهو خاتم الأنبياء والرسل حقاً، ويرى «هوبرت جريمة» أن التوحيد الإسلامي انعكاس للتوحيد العربي الجنوبي، ونظر التوحيد الإسلامي إلى الله نظرة عربية جنوبية فهو «رحمن» وعند الجنوبيين «رحمن ان» وهو سيد السماوات والأرض.

«ويحاول هذا العالم أن يثبت من عبارات القرآن وألفاظه أثر العرب الجنوبيين في الإسلام، إلا أن «جريمة» لم يوفق فيما ذهب إليه، ومثله مثل «مرجوليوث» الذي ذهب بعيداً في آرائه.

«يجب ألا نعتقد أن قيام الإسرائيلية أو الإسلامية تأثر مباشرة ببلاد العرب الجنوبية، فما الإسلام إلا خاتم حركة التطور التي بدأت في بلاد العرب القديمة، وقد كانت الثقافة العربية القديمة وقت ظهور الإسلام قويةً جداً في بلاد العرب الجنوبية.

«كما أن كثيراً من الاصطلاحات الإسلامية الدينية التوحيدية نجده في النقوش العربية الجنوبية، فلفظ «شرك» مثلاً

هو التعبير الفني للقرآن عن تعدد الآلهة، وقد جاء هذا اللفظ في نقش سبئي دالاً على نفس المعنى.

ولدينا من النقوش ما يبشرنا أننا بدراستها نستطيع أن نؤرخ ونفهم العصر الذي سبق الإسلام فهمًا صحيحاً».

وكثير من المستشرقين وغيرهم زعموا ما زعمه جولد زيهر، فمنهم المستشرق الهولندي راينهارث دوزي (١٨٢٠ - ١٨٨٤م) وقد أبعد في الذهاب إلى أثر اليهود في الحرم نفسه وفي غيره، فزعم أن بطون بني شمعون هي التي عمرت الحرم، وإن شعائر الحج هي من أصل إسرائيلي، وأن لليهود أثراً في أسماء الأيام العربية، فالسبت تسمية يهودية، و«عروبة» هي التسمية القديمة ليوم الجمعة - تسمية يهودية.

وللبارون فون كريمر[1] كتاب اسمه المترجم به إلى العربية «الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الإجتماعية» يقول فيه (ص ٥٢):

(١) ولد كريمر في فيينا سنة ١٨٢٨ وتوفي سنة ١٨٨٩م وهو مستشرق نمساوي، وكان قنصل النمسا في بيروت ومصر، ونشر بتحقيقه كتاب «الاستبصار في عجائب الأبصار» وألف كتاب «الحضارة الإسلامية» الذي ترجمه إلى العربية الدكتور مصطفى طه بدر المدرس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وطبعت الترجمة العربية بالقاهرة، ومقدمة تشير في نهايتها إلى هذا التاريخ ١٩٤٧ ونقله من الألمانية التي ألف فيها المؤلف كتابه إلى الأنجليزية المؤرخ الهندي خدابخش الذي ألف هو نفسه كتاباً اسمه «الحضارة الإسلامية» ترجمه إلى العربية الدكتور علي حسني الخربوطلي مدرس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس، وطبع بمصر سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠).

«قام بناء الإسلام على أنقاض الحضارات السابقة وتضمن عناصر قديمة غير فيها تغييراً جزئياً، وأضاف أشياء جديدة من صنعه هو، وإن الفصل بين تلك العناصر الجوهرية المختلفة وترتيبها وتتبع وتقرير علاقاتها وارتباطاتها بعضها ببعض هو عمل العلم الحر النزيه الذي لا شعار له سوى كلمة الصدق».

ويقول (صفحة ٥٥):

«وقد أخذ الإسلام الشيء الكثير عن اليهودية والمسيحية ودين زردشت، ومن المحتمل أن يكون قد أخذ عن المانوية، وقد أخذ عن البرسية بطريق مباشر وغير مباشر، إذ أن عدداً من الأفكار البرسية الواضحة تسربت إلى الإسلام عن طريق الكتب اليهودية وبخاصة التلمود، فنظرية البعث ومعظم الأساطير المتعلقة بالجنة والنار ونظام الجن بأكمله دخل القرآن عن طريق اليهودية، وهكذا الحال فيما يختص بوصف الحساب وتعذيب الميت في قبره بوساطة الملكين منكر ونكير، ومن المؤكد أن فكرة الصراط الرقيق كالشعرة الذي يوصل إلى الجنة عبر وهدة النار مستمدة من البرسيين، وكان وصولها إلى القرآن عن طريق المدراش على أن الإسلام لم يتردد في الأخذ عن البرسية مباشرة.

«وهناك حقيقة هامة وهي أن كلمة «دين» التي ترد مراراً وتكراراً في القرآن أخذت من الكتب البرسية وهي تظهر في الهزوارش Huzvaresh بالصيغة ذاتها تماماً، وهي في اللغة البكترية القديمة دين Daena .

«ومن الواضح جداً فيما يتعلق بالطقوس أن كل المناسك الخاصة بالحج وتأدية الفريضة في البيت الحرام بمكة بقيت في الإسلام كما كانت في أيام الوثنية العربية بتغيير قليل أو بغير تغيير، والطقوس الدينية الآن في جامع مكة على ما كانت عليه منذ ألف وخمسمئة سنة مضت، وأهل مكة يعتبرون أنفسهم خداماً للبيت الحرام طبقاً للاعتقاد الوثني.

«وقد قال لي منذ وقت قصير أحد أهالي مكة ـ وكان مسافراً معي من بيروت إلى مصر على باخرة واحدة: «نحن أولاد الشمس وخدامين الحرم».

«ويرجع أصل الحج إلى بيت مكة كما هو معروف جيداً إلى أقدم العهود، إذ كان يحتم على الناس الذين يزورون مكة طبقاً للعادة الوثنية أن يبدو عراة ولم يكن يستثنى من هذا حتى النساء، وكان على الحجاج حقاً أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة عراة، وكانت لقريش وحدها ميزة ارتداء الملابس وإعارتها للحجاج الأجانب، وقد نشأت من هذا تجارة رابحة جداً.

«والتغيير الوحيد الذي أدخله محمد (صلى الله عليه وسلم) هو أنه سمح للحجاج أن يرتدوا نوعاً من لباس الحج يتألف من قطعتين من القماش تغطي إحداهما إلى أعلى الفخذ وتغطي الأخرى الصدر والأكتاف على أن تبقى الرأس عارية[1] على ما

(١) هذا نص الترجمة، والصواب: تذكير الرأس، ولا يجوز تأنيث الرأس.

كان عليه الحال في الأيام السابقة حين كانوا يجعلون من شعرهم نوعاً من الضفير بمادة غروية، ولا تزال عادة الحج هذه، وقد كان من عادتهم في الجاهلية بعد زيارة الكعبة أن يزوروا تلّي الصفا والمروة الصخريين، وكان عليهما صنمان من البرونز، وقد سار (صلعم) شوطاً بعيداً في تساهله إزاء طقوس الحج الوثنية حتى أنه رضي ببقاء زيارة الصفا والمروة على ما كانت عليه قبلاً، ولكنه امر بإزالة الأصنام.

«ومعلوماتنا عن تاريخ أصل أوضاع الصلاة والسجود والوضوء والصيام غامضة وغير يقينية ومبهمة.

«وقد كان يوم عاشوراء يوم صيام حتى قبل محمد، ولكن صوم رمضان يبدو أنه تقليد للصوم الكبير (صوم الأربعين) عند المسيحيين، وهذا في حين أنه يظهر أن الوضوء والسجود قد أخذا عن طائفة يهودية مسيحية أو عن المانوية.

وكما أن مؤسس الدين العربي استقى من مصادر مختلفة كذلك سار الإسلام على طريقة الأخذ عن الغير بشكل أوسع في مرحلة تبلوره التي أعقبت موت محمد».

ويقول الدكتور مصطفى طه بدر مترجم كتاب فون كريمر في مقدمته التي صدره بها «هذا كتاب قيم كتبه المستشرق الكبير فون كريمر وتناول فيه الكلام على الحضارة الإسلامية الأولى وعُنِيَ فيه بصفة خاصة بإبراز ما كان للحضارات المختلفة من أثر في الحضارة الإسلامية.

و«قد أعجبني هذا الكتاب إلى حد بعيد عندما قرأته في ترجمة خدا بخش الإنجليزية، وعولت على نقله إلى اللغة العربية حتى يستفيد بما فيه من آراء الباحثون في تاريخ الحضارة الإسلامية ولكي يرى فيه طلاب تاريخ المسلمين نموذجاً للأبحاث العلمية الدقيقة التي يجدر بهم أن يحذوا حذوها إذا أرادوا خدمة العلم خدمة صادقة منتجة».

ثم يقول مصطفى بدر في مقدمته: «وثاني هذه الأمور ما يتعلق بما جاء في الحديث الشريف وأخذه عن الديانات السابقة، ونحن هنا لا يصعب علينا أن نوافق المؤلف فيما تثبت صحته الأبحاث العلمية الدقيقة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم على الرغم من أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب قد كان ذكياً إلى أبعد حدود الذكاء، وهبه الله القدرة على الاستفادة من كل ما له قيمة، وقد كانت في بلاد العرب طقوس خاصة بالحج لا نستبعد أن يكون قد استفاد منها في طقوس الحج الإسلامي.

«كما أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الشام عدة مرات للتجارة ولا يستبعد أن يكون قد اتصل ببعض النصارى وأخذ عنهم بعض العبارات أو بعض التقاليد الدينية، وعندما نزل عليه الإسلام وتركت له الحرية في تفسيره وتنفيذ المواضع العملية فيه تذكر ما رأى من قبل وسمع، أضف إلى ذلك أن مركز المانوية كان في بابل على ما يذكر ابن النديم صاحب الفهرست، وكان أتباعهم كثيرين منتشرين في العالم الشرقي، ولا يبعد أن يكون

النبي قد رأى بعضهم.

«هذا فضلاً عن أن المسيحية واليهودية كانت قد دخلت في بلاد العرب، وأهل هذه الديانات كانوا على علم بالديانات الأخرى التي سبقتهم مثل المجوسيين والمانوية، وربما كانوا الواسطة في نقل بعض ما في هذه الديانات إلى النبي».

ويقول المترجم مصطفى بدر: «وقيمة كتاب فون كريمر العلمية عظيمة جداً، وإذا كان هذا العالم الجليل قد حاول أن يرد كل شيء في الإسلام إلى نظائره في الديانات الأخرى أو النظم السائدة فيجب ألا يغرب عن بالنا أنه غير مسلم وأنه ينظر إلى القرآن كما ينظر إلى أي كتاب آخر، ولا يرى حرجاً في إخضاعه لأصول النقد، ولا يجد ما يمنعه من الشك فيما جاء به أو رده إلى كتب أخرى سبقته» الخ.

ويقول خدابخش المؤرخ الهندي الذي ترجم كتاب فون كريمر من الألمانية إلى الهندية في مقدمته التي كتبها له وترجمها مصطفى طه بدر مع كتاب كريمر:

«أقدم الآن للجمهور ترجمة إنجليزية لكتاب فون كريمر المسمى «تاريخ الغزوات الثقافية في بلاد الإسلام» ويعد البحث الذي أمامنا من أحسن دراسات فون كريمر التاريخية وأعظمها قيمة، ففضلاً عن أنه بحث سليم عميق لا تمله النفس مليء بالأفكار قبل كل شيء، يعتبر فريداً من ناحية ما يتسم به من دقة العلم وسعة الأفق.

وموضوع فون كريمر الأساسي هو أثر اليهودية والمسيحية والبرسية والمانوية في الإسلام، وهو يقوم على العلم الصحيح، ولا أثر فيه للجدل الذي منشؤه الضغينة والحقد، كما أنه كما نتوقع خال من التحزب خلواً تاماً ومن التحامل والميل مع الهوى، ويبسط فيه فون كريمر حقائق التاريخ ولا يقف موقف المحامي عن أحد الأحزاب».

ويقول خدابخش: «قد مضى على ظهور هذا البحث حوالي خمسين سنة، ولكنه ليس له نظير رغم التطور المستمر في جميع العلوم الشرقية».

فخدابخش ومصطفى بدر المسلمان يوافقان كريمر فيما ذهب إليه، ويتحمسان له، ويريان أن ما ذكره في الإسلام حق، ويؤيدانه ويزيدانه توكيداً مما يدل على جهلهما بحقيقة الإسلام وبنبي الإسلام.

ومن الغريب أن يصفا بحث كريمر بالعلم والنزاهة والدقة والرغبة في الحقيقة مع أن كل ما ذهب إليه كريمر باطل منشؤه الحقد على الإسلام والقرآن وعلى محمد صلى الله عليه وسلم.

وتناول كريمر الإسلام متهمًا إياه، فهو يفتعل أدلة الاتهام ويبحث هنا وهناك عن كل ما يؤيده فيه فيقتنصه ويرتبه ليدين الإسلام.

وخدابخش ومصطفى بدر أشادا به، فالأول أراد أن يتقرب

إلى المستعمر الحقود على الإسلام بتأييد عدو للإسلام ليكون من المفلحين لدى قراء الانجليز، والثاني خدم أعداء الإسلام بترويج ما كتبه كريمر لدى قراء العربية وتضليلهم وتضليل طلبته في الجامعة التي يدرس بإحدى كلياتها، وكلاهما عبد للاستعمار الفكري.

ويا سوء ما يلقنه طلابه إذا كان من هذا النوع الذي يظهر الإسلام كما يزعم أعداؤه الحاقدون وخصومه الهدامون.

إن فون كريمر لم يقصد إلى البحث العلمي، بل قصد إلى تقويض الإسلام بزعماته وأباطيله، فما ترك للإسلام شيئاً، وإنما جعله مزيجاً من الديانات التي سرد أسماءها وقارن بينها وبين الإسلام مقارنة حاقدة تنتهي إلى تأييد بحثه ورأيه القائمين على أن الإسلام ليس إلا خليطاً من تلك الديانات.

وهؤلاء وأولئك زعموا باطلاً وادعوا على الإسلام غير الحق، فما الإسلام كما زعموا، فهو دين يغاير اليهودية والمسيحية اللتين نعرفهما في أسفارهما ويخالفهما عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً، كما يغاير البرسية والمانوية وغيرهما، وإذا كان هناك اتفاق في الأسماء فليس معناه الاتفاق في المسميات.

واتفاق الإسلام مع المسيحية واليهودية والوثنيات في الاعتقاد بالألوهية وفي اليوم الآخر وفي الصلاة والزكاة والحج لا يؤدي إلى وحدة العقيدة والفرائض والمقاصد الشرعية، فإذا اتفق معها في الأسماء فما أشد الخلاف في المسميات.

تفنيد الأباطيل (١)

الله
في اليهودية والمسيحية والإسلام

عقيدة الألوهية في الإسلام تغاير كل عقائد المسيحية واليهودية والديانات الأخرى والوثنيات والفلسفات مغايرة تامة في جوهرها وأصولها، والاتفاق في الإسم لا يقتضي الاتفاق في المسمى.

إن عقيدة الألوهية في الإسلام توحيد الله عز وجل ذاتاً وأسماء وصفات، فهو واحد أحد، لا شريك له، ولم يلد، ولم يولد، ويعلم غيب السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، وهو كامل كمالاً مطلقاً.

أما المسيحية فلديها الشرك والتعدد، وليس الله واحداً، فهناك الله الآب، والله الابن، والله روح القدس، وهناك فرقة تؤله العذراء.

واليهودية تعتقد بالتعدد وإن كانت تؤمن بوحدانية «يهوه»

أو «ألوهيم» ولكنها إلى جانب ذلك تعترف بوجود آلهة الآخرين، فالله عندها إلهٌ قومي محلي مقصور على الشعب المختار، فهو إله أشبه برئيس قبيلة أو شيخ عشيرة، ووصفوه بنقائص البشر.

وإذا رجعنا إلى التلمود الذي ترتفع مكانته على توراتهم نجد بالتلمود في سفر باباتبرا ٧٥ حرف أ ما نصه: «الحاخامون يصبحون جميعاً آلهة، ويدعون يهوه أي الله».

وتصف توراتهم الله بصفات معيبة، وتتهم الأنبياء والمرسلين بالفسق والفجور والوثنية والكذب[1].

فالإسلام يختلف كل الإختلاف عن المسيحية واليهودية في العقيدة الالهية اختلاف مبيناً، هو اختلاف النقيض عن النقيض.

ويقوم الإسلام على العقل والضمير، ولم يقم على الخوارق والمعجزات التي تدع العقل في حيرة، فإذا آمن المؤمن يكون إيمانه بالمعجزة خوفاً ورهباً لا إيمان قناعة ورضا، ولم يقم على قراءة الأسرار والإنباء بالطوالع والمستقبل، بل خاطب العقل ليقنعه، وارتفع بالضمير الإنساني إلى حيث يجب أن يرتفع.

ألم تقم المسيحية على الخوارق والمعجزات التي كانت وسيلة الاقناع المكره؟ واليهودية على التنجيم والتنبؤ بالغيب؟.

أما الإسلام فقد نزه نفسه عن اتخاذ هذه السبل فجاء للعقل يقنعه، ورضي به حكمًا.

(١) راجع من كتابنا هذا الفصل «العالم قبل البعثة المحمدية».

ونبي الإسلام جاء بالمساواة بين البشر في الحقوق والواجبات، ولم تكن المساواة التي جاء بها وطبقها ونفذها ليرتفع هو بها من حضيض، بل ليمحو الفوارق التي فرضها السادة ليحموا أنفسهم بهذا التمييز، لم يجيء بالمساواة ليرتفع، لأنه كان بنسبه وحسبه في أعلى مكانة في العرب دون استثناء، فهو في السنام، ولم ينزل بنفسه إلى السفح رغبة في المساواة الدنيا، بل رفع العبيد والعامة إلى مكانة السادة فتمت له المساواة العليا، وساوى بين ملوك الجاه والثروة والمكانة وعبيدهم، فلم يطغ العبد ولم يُهَنْ السيد، بل عاشوا أخوة متحابين في الله.

فإذا استطاعت عقيدة الإسلام أن تضمن هذا وقد ضمنته فذلك من براهين كمال عقيدته.

ونحن لا ندعي أن الإسلام هو وحده دين التوحيد في جميع العصور، بل كل الديانات السماوية كانت ديانات توحيد قبل أن يحرفها المحرفون من أتباعها، ولكن التوحيد الإسلامي يمتاز عن تلك الديانات بإنسانيته وعموم رسالته.

وسبقت الإسلام ديانات غير سماوية إلى التوحيد، ولكن ليس كتوحيد ديانات السماء، بل هي توحيد السيادة وفرض دين الغالب على المغلوب، وليس فيه من عدالة التوحيد شيء، فالأمة القوية الغالبة تفرض دينها على الأمم المغلوبة، فرب الغالبين مفروض على المغلوبين، والملك المنتصر ملكهم جميعاً، فتوحيد الإله شبيه بتوحيد الملك، ملك واحد في الأرض هو ملك العالم،

ورب واحد هو ملك السماء، وكلاهما يأخذ الصبغة العالمية باعتبار الأرض التي هي العالم في نظرهم مِلْك الملِك المنتصر، وربه هو ربّ الجميع، وكما قضى الملك المنتصر على الملوك المغلوبين قضى إله الغالب على إله المغلوبين، وبذلك تم التوحيد في العقيدة وفي الحكم والسيادة.

وليس هذا التوحيد ضماناً للحقوق، وليست به المساواة بين المربوبين والمحكومين مضمونة، فالأمة الغالبة هي التي تملك الحقوق وصاحبتها، والأمم المغلوبة ليس لها حق معلوم ولا حرية مضمونة، فلا مساواة في ظل هذا التوحيد، ولكنه «استعمار» مقصود منه إذلال المغلوبين وتجريدهم من عقيدتهم ومن ملوكهم، فلا عقيدة إلا عقيدة الغالب، ولا حكم إلا له.

ولهذا تجرد هذا التوحيد من القيم الإنسانية وضمان الحرية والحقوق كما تجرد من منح الهداية للمغلوبين، فإذا انتصرت فارس على المدن والبلدان التابعة للروم فرضت ديانتها عليها، وكذلك الأمر بالنسبة للروم.

أما الإسلام فغير ذلك، فحق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أقطاب صحابة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم هو حق العبيد سواء بسواء إذا دخلوا الإسلام، وقد ارتفع العبيد كبلال الحبشي وعمار وأبيه ياسر إلى أعلى مكانة في الإسلام.

وإذا تركنا الأفراد واتجهنا إلى الأمم نجد الأمر نفسه، فالأمة

المغلوبة التي دخلت الإسلام مثل مصر والشام وفارس تتمتع بحقوق الغالبين أنفسهم، ولا تمييز في حق أو واجب، لأن الهداية والإيمان والرشد والحق للإنسان أياً كان هذا الإنسان، لا فرق في اللون والجنس واللغة، بل العقيدة ساوت بين الجميع في الحقوق والواجبات.

توحيد الإسلام قائم على ألا إله إلا الله محمد رسول الله، فمن آمن بهذه الشهادة كان حقه مضموناً وإن كان مغلوباً، والغالب والمغلوب سواء، ولا سيادة لغالب على مغلوب، بل حقهما واحد ما داما مسلمين، والفضل ـ بعد ـ للأكرم في الإنسانية التي عبر عنها الإسلام بالتقوى، فقال القرآن الكريم: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقال نبي الإسلام: «لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى» وأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى القلب قائلاً: «التقوى ها هنا».

فميزة توحيد الإسلام على كل أنواع التوحيد سواء أكان توحيداً صحيحاً جاء به الرسل عن الله أم توحيد السيادة والغلبة والانتصار.

إن توحيد الإسلام توحيد الإنسانية كلها، كل إنسان في ظل توحيد الإسلام يتمتع بالحق الذي يتمتع به الرسول وصحبه والملوك ومن يسمون السادة، لأنه لا سيد ولا مسود في رحابه، كلهم عبيد الحق الذي هو الله، وعبيد الحق وحده هم الأحرار

حقاً، لأنهم لا يتعبدون غير الواحد صاحب الحق في العبادة ولا أحد سواه يستحقها، لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل، بل الملائكة والرسل كالناس جميعاً في العبودية، ولا تفاضل بينهم ولا تفاوت إلا بالتقوى.

وكذب جولد زيهر اليهودي المجري وأمثاله الذين زعموا أن محمداً أخذ عقيدته الدينية من اليهودية والمسيحية، أو من غيرهما، وها نحن أولاء قد عرضنا عقيدة التوحيد عند محمد صلى الله عليه وسلم وعند غيره من يهود ومسيحيين ووثنيين، وهي عقيدة تخالف كل ما سواها.

وأما زعم جولد زيهر أن «تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً[1]» فهو زعم باطل يهدمه الحق وواقع التاريخ ومحتوى كل الديانات التي أشار إليها جولد زيهر وأمثاله من المعادين للإسلام.

فمحمد سافر مرتين إلى الشام، الأولى مع عمه أبي طالب، وسافر وحده إلى الشام في تجارة لخديجة وهو في الخامسة والعشرين، ولم يكن لديه من الوقت ما ينفقه في دراسة الديانات، ففي السفرة الأولى كان طفلاً صغيراً، وفي الثانية مشغولاً بالتجارة ولم يقم بالشام إلا ريثما يبيع ما معه من سلع، ولم يطل غير أيام أو بضعة

(١) كتاب «العقيدة والشريعة في الإسلام» لجولد زيهر ص ٥.

أسابيع على أكبر تقدير، لا تتيح لأي امرىء أن يدرك خلالها من أمور المسيحية وغيرها من الديانات ما يمكنه من اختراع دين كامل.

وإذا فرضنا أنه استقى عقيدته ودينه من الديانات الأخرى، أو بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والنصرانية فلماذا لا يعلن دعوته إلا بعد خمس عشرة سنة.

إن زيهر لم يدع أن نبي الإسلام استقى معارفه في رحلته، ولكن الرحلة إلى العالم المسيحي وفيه شراذم يهودية لا حول لها ولا طول يجب أن تكون أول مصدر لاستقاء هذه المعارف، فإذا انتفى الاستقاء عقلاً ومنطقاً وواقعاً من الرحلة فقد بقي لدينا مجال آخر سنقف عنده ونتبين حقيقته.

إن العقل والمنطق والواقع تنفي الاستقاء من الرحلة، لأنه عاد منها ولم يعلن دعوته، بل عاد من رحلته كما مضى عربياً بعيداً عن الوثنيات وطقوس المسيحية واليهودية، فلم يثبت أنه ظهر بشيء مما يتصل بالأديان الموجودة وبخاصة المسيحية واليهودية.

وان أعداءه لم يذكروا أنه ظهر بعد عودته من الشام إلى مكة بأي عقيدة أو عبادة تتصل بالمسيحية أو اليهودية من قريب أو بعيد.

ولم يتهمه أعداؤه من كفار قريش إلا بعد النبوة والصدع بالرسالة وتلاوة القرآن، فزعم مشركو مكة من قريش أن محمداً

يأخذ من غيره من العجم ـ وهم غير العرب ـ ما في كتبهم ويدعيها لنفسه ويزعم أنه وحي.

وهذا الاتهام باطل، فقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ النحل: ١٠٢ ـ ١٠٣.

وسبب النزول «عن عبيد الله بن مسلمة قال: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر اسم أحدهما يسار[١] والآخر جبر وكانا يقرآن كتباً لهم بلسانهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهما فيسمع قراءتهما وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما، فأنزل الله تعالى فأكذبهم[٢]».

وذكر الخازن في تفسير الآية أن يساراً وجبراً عبدان لعبيد الله ابن مسلمة كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل.

ولم يكن لسانهما أو لسان غيرهما ممن ذكرت أسماؤهم في بعض الروايات عربياً، ولم يكن التوراة والإنجيل مترجمين إلى

(١) في تفسير الخازن ٤: ٩٤ يكنى أبا فكيهة.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢١٢.

العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يكن الرسول يتكلم غبر العربية، بل كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

وهذه الأمية تحتم عليه أن يكون الاستقاء عن طريق التلقي الشفوي المباشر، فيلقنه معلموه أو معلمه من المسيحيين أو اليهود بلسان عربي، ولكن لم يثبت أن أحداً تفرغ لمحمد يعلمه التوراة والإنجيل أو يعلمه ديانات العرب الجنوبيين أو ديانات غيرهم.

ولم تعرف العربية ترجمة «الكتاب المقدس» في عهديه القديم والجديد إلا بأخرة من الزمن، ولم يكن بمكة «مركز ثقافي» لأي دين من الأديان، بل لم يكن مركز كهذا بمكة وضواحيها، بل أن الشعر العربي في عهد ما قبل الإسلام خال من ثقافة دينية مسيحية أو يهودية، وما ذكر من بعض الألفاظ الخاصة لا يبرهن على تأثير هاتين الديانتين في الوثنية العربية الجاهلية.

وإذا تصفحنا ما جمعه الآباء اليسوعيون مما سموه «شعراء النصرانية» يثبت أن الشعراء الجاهليين لم يعرفوا النصرانية، وإذا كان استعمال بعض الكلمات الخاصة دليلاً على أن أولئك الشعراء كانوا نصارى فإن في الشعر العباسي شعراً كثيراً مليئاً بالألفاظ النصرانية.

وعلى أي حال، لم يثبت قط أن لليهودية والنصرانية أثراً في الحجاز وبخاصة مكة، ووجود نصارى فيها لا يقضي بوجود مركز ثقافي لأسفار الكتاب المقدس.

وما دام من الثابت الذي لا خلاف فيه أن مكة خلت من الثقافة الدينية اليهودية والمسيحية خلواً تاماً فإن من الطبيعي ألا يكون لهما أثر في المكيين، ومحمد منهم، وليس وجود «الحنفاء» دليلاً على وجود مركز ثقافي ديني، لأن الحنفاء يعدون على الأصابع، وكانوا بعقيدتهم في شبه عزلة عن الذين يعايشونهم من الوثنيين، وكون محمد من الحنفاء لا يقتضي أخذه من اليهودية والنصرانية هذه «الحنيفية» التي دان قبل البعثة بها، لأن «الحنيفية» في جوهرها دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، واهتدى محمد بفطرته السليمة إليها فلم يسجد قط لصنم، ولم يَدْعُ وثناً، ولم يعبد غير إلّه إبراهيم.

بل كان محمد منفصلاً عن بيئته في مسائل العقيدة والأخلاق وآداب السلوك والاجتماع، وكان «نادرة» بين الناس جميعاً بمكة، يؤمن بالوحدانية، ويكفر بغير الله، ولا يأتي بعمل يأباه الضمير والخلق، بل كان اللهو مباحاً لأهل مكة، يحضرون حفلات الغناء، بل لم يكن على الفاسق حرج، فدور البغاء مقصودة من العلية دون أن يطعنهم طاعن.

ومع هذا ترفع محمد عن كل ما لا يليق بالكامل من الرجال، صدوق، كريم، نظيف اليد والقلب واللسان، لا يغش، ولا يكذب، ولا يخدع، ولا يمكر، بل كان أعلى نموذج للإنسان الكامل في الجاهلية، وأنظف فتى في قريش.

والبيئة الجاهلية وثنية، وبيئة مكة جاهلية محض، ومكة ملاذ

الوثنية وقاعدتها فكان المسجد الحرام مقصد العرب ومحجتهم، فكانت الكعبة تحوي من الأصنام والأوثان والنصب ما يمثل معتقدات العرب الوثنية.

ولا أثر لليهودية والنصرانية عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً في الوثنية المكية التي عاش فيها محمد دون أن يدين بها.

ولم يكن للكنيسة سلطان على مكة وأهلها وأربابها، ولا لأفراد النصارى بمكة ولا لليهود بالمدينة أي أثر ديني في مجتمع هاتين المدينتين.

وإذا افترضنا وجود أثر ديني عميق في مكة والمدينة وفي الحجاز وفي العالم العربي كله فإن من الحتم الذي لا بد منه أن يكون بين أيدي العرب ترجمة عربية للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ولكن عدم وجود هذه الترجمة يقضي على كل زَعْمة من تلك الزعمات.

وعدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس ينفي نفياً قاطعاً زعم من يزعمون أن الإسلام صورة أنشأتها اليهودية أو المسيحية أو كلتاهما معاً.

وجميع المكتبات في العالم دون استثناء خالية من ترجمة عربية للكتاب المقدس في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يدَّع أحد قط ـ حتى أعدى أعداء محمد والإسلام وحتى جولد زيهر وأضرابه ـ وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس في عصر محمد، بل

أثبت باحثون مسيحيون كبار أن العربية لم تعرف ترجمة العهد الجديد (وهو الانجيل) إلا بعد أربعة قرون من بعثة نبي الإسلام.

إن بعثته كانت سنة ٦٠٩ ميلادية، وأول نص عربي للإنجيل كان سنة ١٠٦٠م.

وقد اعترف الأب هنري لامنس (١٨٦٢ - ١٩٣٧م) وهو مستشرق بلجيكي بقوله: «لو أن الفكرة اليهودية المسيحية قد تغلغلت حقاً في الثقافة والبيئة الجاهلية فإن من غير المفهوم ألا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس، وهنالك حدث مؤكد فيما يتصل بالعهد الجديد (الإنجيل) وهو أنه حتى القرن الرابع الهجري لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية، نعرف هذا من مصادر الغزالي[١] الذي اضطر إلى أن يلجأ إلى مخطوط قبطي كيما يحرر[٢] رده.

ويقول الأستاذ مالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية» ص ٢٥٤:

«ذكر الأب شدياق R.P. Chediac الذي اضطر إلى البحث في كل ناحية عن المصادر الإنجيلية التي استخدمها الفيلسوف العربي في تأليف «الرد[١]» حين كان يريد ترجمة مؤلف الفيلسوف أنَّ أول

---

(١) المقصود بالغزالي الفيلسوف العربي حجة الإسلام، وكتابه هو «الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل».

(٢) كتاب «الظاهرة القرآنية» تأليف مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين ص ٢٥٤.

(٣) هو «الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل».

نص مسيحي ترجم إلى العربية كان مخطوطا بمكتبة القديس بطرسبرج، كتب حوالي عام ١٠٦٠م بيد رجل يسمى ابن العسال».

ولم يكن الرسول العربي الكريم صلى الله عليه وسلم يعرف العبرية ولا السريانية ولا أي لسان غير اللسان العربي، ولم يكن في المسلمين من يعرف العبرية فأمر رسول الله زيد بن حارثة «تعلم كتاب يهود فإني ما آمنهم على كتابي» فتعلم زيد العبرية وأجادها قراءة وكتابة، وكان يترجم للرسول ما يصله من رسائل يهود.

وهذا لا يترك مجالاً للخلاف في عدم معرفة الرسول والعرب سواء أكانوا مسلمين أم مشركين لغة يهود حتى يطلعوا على الكتاب المقدس.

وما دام ذلك ثابتاً، وعدم وجود ترجمة عربية للكتاب المقدس في عصر النبي الكريم إلى القرن الرابع الهجري ثابتاً فمن أين يتأتى له العلم بالديانة اليهودية والنصرانية وغيرهما من الديانات؟.

ولم يكن لمحمد صحبة بالنصارى واليهود، ولم يثبت أن له صلة ود وصداقة أو صلة تعلم بنصراني أو يهودي.

وكل هذا يدل دليلاً لا ينقض على أنه لم يستق دينه من أحد، وكان غير عارف بما حوى الكتاب المقدس، وكل ما قص من

قصص الأنبياء والمرسلين وأخبارهم وأخبار أممهم إنْ هو إلا وحي أوحي إليه به فأظهره للناس.

والفرق كبير بين قصص القرآن وقصص الكتاب المقدس، ولا لقاء بينهما إلا في المادة القصصية والحادثة مع الاختلاف ـ أيضاً ـ في جوهرهما، وما أشد المخالفة بين القرآن والكتاب المقدس في وصف الله وفي سيرة الأنبياء ومعتقدهم بحيث يتحول اللقاء إلى قطيعة وفراق.

فبدء الخليقة في القرآن ـ ونقصد بها خلق آدم وحواء ـ يتفق مع سفر التكوين في البدء، ولكنه يختلف قصة وأداء اختلافاً كبيراً، وكذلك القول في قصة ابراهيم ولوط ويوسف وموسى وعيسى وغيرهم اختلافاً مبيناً.

فلو كان محمد عليه صلوات الله وسلامه مستقياً دينه من اليهودية والمسيحية لما خالفهما عقيدة وشريعة مخالفة لا لقاء بينه وبينهما بتة.

وليس هناك دليل على تأثر محمد تأثراً عميقاً أو غير عميق بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها إلا الدعاوى التي يرسلها جهلة حاقدون أو علماء مبغضون يعادون الإسلام ونبيه أبشع عداء.

وأين هذا التأثر ومحمد أنكر على اليهودية والنصرانية

والوثنيات أشد الإنكار وحاربها حرباً، ولا لقاء بين عقيدته وعقائد كل الديانات التي وجدها قائمة في عصره.

والاتفاق في الأسماء لا يحتم الاتفاق في المسميات والمحتوى، فالله في دين محمد غير الله في النصرانية والمسيحية والوثنيات جميعها، فكيف يتهم بالتأثر والاستقاء وهو يخالفها كل المخالفة؟.

إن محمداً طلب إلى أهل الكتاب أن يلقوه على كلمة سواء، فلم يجد منهم غير الصد، ولو كان متأثراً بما لديهم لعانقهم وعانقوه، ولكنهم أبوا وصدوا عن الكلمة السواء، وما طلبهم إليها إلا لأنه مدرك أنهم أهل كتاب يدينون به، فرجا أن يكون الإيمان موضع لقاء، والحق حكمًا والخير مطلباً، فلم يسمعوا ولم يرغبوا في الكلمة السواء، فهادنهم وعاهدهم، ولكنهم نقضوا وآذوا وتآمروا.

وهؤلاء الذين يتهمون نبي الإسلام يجهلون كل الجهل أيسر ما تترك الآثار في النفس الانسانية، فجولد زيهر يقول في نبي الإسلام: «لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوته التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً.

وكلنا يعلم أن من يتأثر هذا التأثر العميق لا يستطيع الخلاص منه، ولا يستطيع أن يقف موقف النقيض المخالف،

ولكننا نرى نبي الإسلام ينكر على تلك الأفكار ويحاربها، فكيف يزعم جولد زيهر وأمثاله أنه اعتنقها؟.

وموجز القول: أن الله سبحانه وتعالى في الإسلام هو غير الله في اليهودية والمسيحية وفي جميع الديانات التي كانت قائمة في عهد رسول الإسلام، ولا وجه للقاء بين الإسلام والديانات الأخرى، فالعقيدة الإسلامية في الله جل جلاله تخالف كل المخالفة جميع الديانات.

فالله في الإسلام رب العالمين، واحد، أحد، لا شريك له ولا ندّ ولا شبيه ولا مثل ولا صاحبة ولا ولد، وكامل كمالاً مطلقاً، منزهاً عن كل النقائص.

أما في الديانات الأخرى بما فيها اليهودية والمسيحية فالله عز وجل ليس واحداً أحداً، بل هو ثالث ثلاثة في المسيحية وفي البرهمية والبابلية وغيرها، وفي اليهودية «واحد» يتكرر ويتعدد، وله أشباه ونظائر يعترف إلّهم «الواحد» المسمى «يهوه» بآلهة الآخرين كما يعترف اليهود عباد يهوه بأولئك الآلهة وإن كانوا لا يعبدونهم، والله جل جلاله في الوثنيات جميعها أصنام وأوثان.

فالله في دين الإسلام هو في الواقع وعلى التحقيق غيره في جميع الديانات بلا استثناء، فالزعم من قبل جولد زيهر وأمثاله بأن محمداً رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم قد أخذ دينه من اليهودية والمسيحية وغيرهما هراء، وأي هراء، بل هو باطل كل الباطل دون مراء.

تفنيد الأباطيل (٢)

اليوم الآخر
في الإسلام والمسيحية واليهودية

موضوع اليوم الآخر في الإسلام يخالف كل ما جاء في غيره، ومع هذا يزعم جولد زيهر (ص ٩ من كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام») : «في بدء رسالته كانت تأملاته تأخذ طريقها إلى الخارج في شكل أمثال مضروبة للحياة الأخرى « eschotlogiques » كانت تفرض نفسها على مخيلته بقوة تزداد يوماً بعد يوم، وهذه التأملات هي التي كونت الفكرة الأساسية التي بنى عليها تبشيره، وما سمعه أو عرفه عن يوم الحساب الذي سيقع يوماً ما على العالم كالصاعقة أخذ يطبقه على الأمور التي يراها حوله، والتي كانت تملأ نفسه اشمئزازاً، فتراه يواجه عدم اكتراث سادة مكة وكبرياءهم وجبروتهم بإنذارهم بيوم الحساب القريب منهم، ويرسم لهم بحروف من نار صورة البعث وصورة الحساب».

ويظهر من هذا الزعم أن جولد زيهر يجهل «اليوم الآخر» في ديانته اليهودية وفي العهد الجديد من الكتاب المقدس وفي الوثنيات

والفلسفات ومختلف الديانات، ولولا جهله أو مغالطته القراء لما زعم ما زعم.

فأي يوم آخر في اليهودية التي يمثلها العهد القديم؟ لا شيء منه إطلاقاً، والمسلمون يؤمنون بأن ديانة موسى في العقيدة هي ديانة محمد عليهما الصلاة والسلام، فيها اليوم الآخر بحسابه عقوبة ومثوبة وجنة وناراً، ولكن التوراة الحق لا وجود له، وما بين أيدينا من أسفار العهد القديم التي تسمى توراة خال من ذكر اليوم الآخر، لأن «يهوه» رب اليهود إلّه سريع الحساب والانتقام، فجزاؤه عاجل المثوبة للمحسن، والعقوبة للمسيء، وكل يوفى حسابه في دنياه.

وكل ما ورد في العالم الآخر لا اليوم الآخر هو وجود هاوية تسمى «شيول» تقع تحت الأرض، يتردى فيها الموتى الأخيار والأشرار على السواء، إلا الذين ارتقوا إلى مرتبة القرب من الله مثل موسى.

ليس فيما يسمى التوراة يوم آخر، وليس في كتبهم إشارة إليه إلا في نبوءة أشعياء، وهي إشارة إلى يوم دنيوي كما تفصح الإصحاحات والفقر التي ورد فيها ذكره.

فقد جاء في الإصحاح الرابع والعشرين: «هوذا الرب يخلي الأرض ويفرغها، ويقلب وجهها، ويبدد سكانها».

و«الأرض تدنست تحت سكانها، لأنهم تعدوا الشرائع،

غيروا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي، لذلك لعنة أكلت الأرض، وعوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض، وبقي أناس قلائل».

و«أسس الأرض تزلزلت، انسحقت الأرض انسحاقاً، تشققت الأرض تشقَقاً، تزعزعت الأرض تزعزعاً، ترنحت الأرض ترنحاً كالسكران، وتدلدلت كالعزرال، وثقل ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم، ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء، وملوك الأرض على الأرض، ويجمعون جمعاً كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس، ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون، ويخجل القمر، وتخزى الشمس، لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم».

وأشعياء كان في القرن الثامن قبل الميلاد، وجاء بعد موسى بخمسة قرون تقريباً، ومع أن نبوءة أشعيا ليست واضحة ولا صريحة فإنها لا تحدد اليوم الآخر، وفكرته - إذا كان يقصد اليوم الآخر - غامضة، ومع هذا فليس المقصود اليوم الآخر، بل يوم من أيام الحياة الدنيا، ففي الإصحاح الخامس والعشرين وما بعده يدل على أن هذا اليوم في الدنيا لا الآخرة.

يقول الإصحاح الخامس والعشرون:

«ويقال في ذلك اليوم: هوذا إلَهنا انتظرناه فخلصنا، هذا هو الرب انتظرناه، نبتهج، نفرح بخلاصه، لأن يد الرب تستقر على هذا الجبل، ويداس مؤاب في مكانه كما يداس التبن في ماء

المزبلة، فيبسط يديه كما يبسط السابح يديه ليسبح، فيضع كبرياءه مع مكايد يديه، وصرح ارتفاع أسوارك يخفضه، يضعه، يلصقه بالأرض كالتراب».

والإصحاح السادس والعشرون يقول:

«في ذلك اليوم يغنى بهذه الأغنية في أرض يهوذا: لنا مدينة قوية، يجعل الخلاص أسواراً ومترسة، افتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة، الحافظة الأمانة، ذو الرأي الممكن تحفظه سالماً سالماً، لأنه عليك متوكل «الخ».

وفي الإصحاح السابع والعشرين:

«في ذلك اليوم يغنى بهذه الأغنية في أرض يهوذا: لنا مدينة قوية، في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان الحية» إلى أن يختتم هذا الاصحاح بقوله: «ويكون في ذلك اليوم أن الرب يجني من مجرى النهر إلى وادي مصر وأنتم تُلْقَطون واحداً واحداً يا بني إسرائيل، ويكون في ذلك اليوم أنه يضرب ببوق عظيم فيأتي التائهون في أرض أشورا، والمنفيون في أرض مصر، ويسجدون للرب في الجبل المقدس في أورشليم».

فاليوم الذي يشير إليه أشعياء ليس اليوم الآخر، ولكنه يوم من أيام الدنيا، تحتفل فيه إسرائيل بنصرها على مؤاب، ويجتمع شمل التائهين والمنفيين في الجبل المقدس بأورشليم، وهذا ليس في اليوم الآخر كما تدل النبوءة.

ولعل ما جاء في سفر دانيال بالاصحاح الثاني عشر أصرح مما ورد عن أشعياء، إذ يقول: «كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للإزدراء الأبدي، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد[1]، والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور».

ولئن كانت كلمة دانيال أو نبوءته تذكر اليقظة التي هي العودة إلى الحياة فليس البعث في اليوم الآخر، بدليل أن الذين يستيقظون ليسوا الراقدين جميعاً، بل كثيرون منهم، وإذا كان البعث لا يشمل الجميع، فأي بعث هذا؟

وفي نبوءات أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم إشارة إلى قيام الموتى في الدنيا، وآخر من أشير إليه قيام عيسى كما يقولون في أناجيلهم، وفي أول الإصحاح الثاني عشر نفسه من سفر دانيال بالفقرة الأولى منه قوله: «وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمته إلى ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت يُنَجَّى شعبك، كل من يوجد مكتوباً في السفر، وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون» إلخ.

فاليقظة ليست بعثاً في اليوم الآخر، ولكنها عودة إلى الحياة الدنيا كما يقوم ميخائيل وغيره ممن يرد ذكرهم أنهم يقومون بعد موتهم يستأنفون الحياة الدنيا.

---

(١) الجلد: السماء.

ودانيال من أبناء القرن الثاني قبل الميلاد، وإذا صح أن دانيال وأشعياء من الأنبياء فإيمانهما باليوم الآخر حق، لأن كل نبي حق مؤمن بالبعث والقيامة، غير أن ما نسب إليهما مما استشهدنا به لا يدل على اليوم الآخر الذي يعقب يوم الحياة الدنيا.

ولم تظهر فكرة البعث في الديانة الإسرائيلية بعد ابتعادها عن ديانة موسى الصحيحة وفقدان التوراة الحق إلا بعد أن فقد اليهود الأمل في قيام مملكة لهم، ونجد هذا التحول أو العودة إلى فكرة البعث الغامضة بعد عهد نفي بابل، حيث وقفوا على شيء من عقائد فارس، ويجوز أخذهم إياها من ديانة المصريين.

وأصرح من كل ما سلف ذكره وأبين هو ما جاء في «التلمود» من ذكر الجنة والنار، وأن الجنة مأوى الأرواح الطيبة الخيرة، والنار للأشرار، ولكن الأنانية اليهودية تبرز ببشاعة عندما يجعلون الجنة وقفاً على اليهود وحدهم دون غيرهم، ونزلاً لهم، لا يشاركهم فيه سواهم، مهما بلغ من الطيبة والخير، وأما النار فلا يدخلها يهودي بل هي لغيرهم.

وهذا يتفق مع فكرتهم عن «يهوه» فهو إله خاص بهم، وجعلوا جنته لهم، أما ناره فلغيرهم، ويتفق مع ما في شرائعهم من محاباة «يهوه» لهم، حتى أنه حرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وفرض عليهم أن يقتلوا غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى.

وفي تلمودهم أن الذين يدخلون الجنة يطعمون من لحم أنثى الحوت الكبير التي أماتها الله وملَّحها وادخر لحمها للذين

يدخلون الجنة فيأكلون منه، وسبب إماتة الله أنثى الحوت الكبير حرمانه من النسل حتى لا يهلك من في الدنيا من الناس وغيرهم من الحيوان والنبات بما ينسلان من الوحوش الضخمة الكبيرة، لأنّ هذا الحوت الكبير بلغ من العظم والضخامة أن حلقه يتسع لسمكة طولها ثلاثمئة فرسخ في يسر وسهولة.

وذكر التلمود أن ثلاث الساعات الأخيرة من الأربع والعشرين يقضيها الله في اللعب مع هذا الحوت الكبير.

وما ذكره التلمود عن الجنة والنار يقوم على الأسطورة لا على العقيدة، وفكرة البعث الذي يفضي إلى الجنة والنار لا تحسب من خصائص العقيدة الدينية لأنها خرجت عن العقيدة إلى الأساطير والأوهام الوثنية والخرافات، بل إلى الخزعبلات والعبث.

وذكرت الأناجيل إنكار فريق من اليهود البعث وذهاب بعضهم إلى الإيمان به، ففي إنجيل متى (ص ٢٢ فقرة ٢٤ ـ ٣٠):

«في ذلك اليوم: جاء إليه صدّوقيون الذين يقولون: ليس قيامة، فسألوه قائلين: يا معلم، قال موسى: إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلاً لأخيه، فكان عندنا سبعة أخوة، وتزوج الأوّل ومات، وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه، وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة، وآخر الكل ماتت المرأة، ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة، فإنها كانت للجميع، فأجاب يسوع وقال لهم: تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله، لأنهم في القيامة لا يُزَوَّجون ولا يتزوجون، بل

يكونون كملائكة الله في السماء، وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله ابراهيم وإله اسحاق وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء.

فإنكار القيامة التي هي اليوم الآخر طابع اليهودية بعد فقدان توراة موسى أو تحريفها، وإذا جاء في التلمود ذكر الجنة والنار فمن الجائز أنهم أخذوا من أساطير فارس أو مصر ما يتصل بفكرة البعث أو أن رواسب من فكرة البعث في توراة موسى انتهت إليهم فانتقلت من جو العقيدة إلى عالم الأساطير التي ازدحمت بها أسفارهم بما فيها خمسة الأسفار الأولى من العهد القديم.

وجولد زيهر يهودي، ولا يخفى على مثله ما في ديانته من فكرة اليوم الآخر الممسوخة الشوهاء، فكيف يدعي في قحة واجتراء أخْذ نبي الإسلام فكرة اليوم الآخر من العقائد المعاصرة، وها هي ذي عقيدة اليهود في توراتهم خالية من اليوم الآخر، وما في تلمودهم عنه قائم على الأسطورة لا العقيدة.

وتكملة للرد عليه وعلى أمثاله الذين زعموا زعمه نعرض «اليوم الآخر» في النصرانية وفي بعض الوثنيات ليروا أن محمداً لم يستق معلوماته فيه منها، وما في الإسلام يغاير ما فيها.

ففي النصرانية حسب رواية الأناجيل المعتمدة وأسفار العهد الجديد نجد أمثال هذه الكلمات: «الحياة الأبدية» و«الحساب يوم الدين» و«الجحيم» و«العذاب» و«النار» و«ملكوت السماوات» و«ملكوت الله» و«انقضاء العالم».

وهذه الكلمات في مواضعها مما نسب إلى المسيح عليه الصلاة والسلام تشير إلى «يوم آخر» ولكن ما حقيقته؟ وما البعث المفهوم من السياق؟ أهو بعث لبني الإنسان جميعاً للحساب ثم إلى الجنة أو النار، أم هو عودة إلى الحياة أم نشور يمضي البارون الأخيار إلى ملكوت السماوات ويلقى بالأشرار خارجه؟ وهل الملكوت هو الجنة والنعيم وخارجه هو النار والعذاب.

الجواب في الأناجيل، فلنأخذه منها، ولنكتف بإنجيل متى.

في الإصحاح التاسع عشر: «حينئذ قدم إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويصلي، فانتهرهم التلاميذ، أما يسوع فقال: دعوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات، فوضع يده عليهم ومضى من هناك.

«وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟.

«فقال له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل فاحفظ الوصايا، فقال له: أية الوصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك، وأحبَّ قريبك كنفسك، فقال له الشاب: هذه كلها حفظتها منذ حداثتي، فماذا يعوزني بعد؟ قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني، فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً، لأنه كان في أموال كثيرة.

«قال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم، إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات، وأقول لكم أيضاً: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله.

«فلما سمع تلاميذه بهتوا جداً قائلين: إذن، من يستطيع أن يخلص؟ فنظر إليهم يسوع وقال لهم: هذا عند الناس غير مستطاع، ولكن عند الله كل شيء مستطاع.

«فأجاب بطرس حينئذ وقال له: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم، إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الأثني عشر، وكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية».

وفي الإصحاح الثامن عشر: «خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان».

وفي الإصحاح السادس عشر: «وأنا أقول لك أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليك» و«أن ابن الانسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله، الحق أقول لكم: إن من القُيّام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته».

وفي الإصحاح الثامن: «ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان».

وفي الإصحاح العاشر: «لا تخافـوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها، بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم».

وفي الإصحاح الثاني عشر: من قال على الروح القدس فلن يغفر له في هذا العالم ولا في الآتي».

وفي هذا الإصحاح نفسه يخاطب المسيح جموع اليهود: «يا أولاد الأفاعي، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار، فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم، الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات، والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور، ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين».

وفي الإصحاح الثالث عشر:

«يشبه ملكوت السماوات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله، وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى، فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً، فجاء عبيد رب البيت وقالوا له: يا سيد، أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك

فمن أين جاء له زوان؟ فقال لهم: إنسان عـدو فعل هذا، فقال له العبيد، أتريد أن نذهب ونجمعه؟ فقال: لا. لئلا تقطعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه، دعوهما ينميان كلاهما معاً إلى الحصاد، وفي وقت الحصاد أقول للحصادين: اجمعوا أولاً الزوان واحزموه حزماً ليحرق، وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني».

وفي الإصحاح الثالث عشر نفسه:

«حينئذ صرف يسوع الجموع وجاء إلى البيت، فتقدم إليه تلاميذه قائلين: فسر لنا مَثَل زوان الحقل، فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم، والزرع الجيد هو بنو الملكوت، والزوان هو بنو الشرير، والعدو الذي زرعه هو إبليس، والحصاد هو انقضاء العالم، والحصادون هم الملائكة، فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم، يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثـر وفاعلي الإثم، ويطرحونهم في أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم».

وفي الإصحاح الخامس والعشرين يقول متى:

«ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجتمع أمامه جميـع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار، ثم يقول

الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي، رِثُوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إلي، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب، متى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم، بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم.

ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته، لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تأووني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني، حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو محبوساً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك، فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم، بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا، فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية».

في هذه الشواهد الإنجيلية صورة حية لليوم الآخر، ولا تتم هذه الصورة وتخلو من الخطوط المعيبة إلا إذا أبعدنا عنها ما لا يتفق مع كمال الله وكمال صفاته وذاته وأسمائه، فاختلط ملكوت الله الآب بملكوت الابن، إلا إذا احتفظنا بنظرية المسيحية في التثليث، كما أن إخوة الله لا تتفق مع الكمال الإلهي، فالملك الذي هو الله

ليس أخاً لغيره من خلقه حتى يقال على لسانه «أنكم فعلتموه بأحد إخوتي».

وعلى أي حال فاليوم الآخر في المسيحية قائم على الحساب ثواباً وعقاباً، وبعده إما إلى الجنة وإما إلى النار، وكل خالد في دار الآخرة، وإن كان الإبهام والغموض يكتنفان الصورة، ومع هذا فإن عيسى عليه صلوات الله وسلامه مؤمن باليوم الآخر، وعقيدته هي عقيدة نبي الإسلام، غير أن إنجيله الحق ليس موجوداً، فإذا ورد في أناجيل حوارييه إشارة إلى اليوم الآخر إيجازاً أو تفصيلاً فمرد ذلك إلى ما أخذوه عنه.

والقرآن الكريم يشير إشارة صريحة واضحة لا إبهام فيها ولا غموض إلى عقيدة عيسى في اليوم الآخر فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ المائدة: ٧٢.

ويقول: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى

نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

المائدة: ١١٦ - ١١٨.

وما جاء بالأناجيل في اليوم الآخر يتفق في أصل الفكرة مع ما جاء في الإسلام، ولكنه يختلف في الجزئيات والتفصيلات، وفي تنزيه الله عن مشاركته، سواء أكان هذا المشارك مَلَكاً مقرَّباً أم رسولاً أم أفضل الرسل طراً، فكرسي الله فاذٌّ فرد ولا يقام بجانبه كرسي نبي أو غير نبي، فضلاً عن الكراسي الإثني عشر.

وكان أحد الكراسي الإثني عشر ليهوذا الأسخريوطي المقذوف به من بين الحواريين الإثني عشر، لأنه باع معلمه المسيح بثلاثين فضة وخانه، ولكنهم وضعوا له بديلاً بعد موت المسيح صلباً على رأيهم.

والاختلاف بين النصرانية والإسلام في اليوم الآخر دقيق وكثير يبرهن على أن اليوم الآخر في الإسلام ليس منقولاً عن

الأناجيل للاختلاف البين في صورته، ولأن نبي الإسلام لم يطلع على الأناجيل، فهي لم تكن مترجمة إلى العربية كما هو ثابت، ونبي الإسلام لم يكن يعرف العبرية أو السريانية أو اليونانية حتى يزعم زاعم أنه اطلع عليها في إحدى هذه اللغات.

فاليوم الآخر في الإسلام يوم فريد فيه بحقيقته وجزئياته وتفصيلاته عن اليوم الآخر في اليهودية والمسيحية، وهو مختلف كل الاختلاف عنه في غيرهما.

اليوم الآخر في الزرادشتية

في ديانة فارس المعروفة بالزرادشتية يوم آخر، وأساس هذه الديانة يختلف عن أساس الإسلام، ففيها قوتان هما: أهرمان، وأهورا مزدا الذي هو الله الواحد لا شريك له، وله رمزان أحدهما في السماء وهو «الشمس» والآخر في الأرض وهو «النار».

وأما أهرمان فهو عنصر الشر والظلمة.

وليست هذه العقيدة ثنوية، لأن الزرادشتية الأصيلة توحيد، ولكنه ليس كتوحيد الإسلام، وما «أهرمان» إلا الشيطان، وإن كان في بعض عبارات الزرادشتية انعدام الدقة والتحري بحيث لا يتفق معه محتوى تلك العبارات مع التوحيد.

ولكن في الإمكان اعتبارها ثنوية، لأن عنصر النور إله، وعنصر الظلمة إله، وإن كانوا يزعمون أن أهورا مزدا هو الله الواحد، وعنصر الظلمة هو الشيطان.

ومع هذا فالصراع بينهما هو صراع الآلهة لا صراع خالق مع مخلوق، وهول الصراع يدل على ذلك.

ولسنا بسبيل البحث في الزرادشتية عقيدة، لأننا بحثنا ذلك في الفصل الخاص الذي عقدناه لها في هذا الكتاب[1]، ولا ضرورة لإعادة القول مرة أخرى هنا، فليرجع إليه القارىء إذا أراد.

والصراع محتدم بين النور والظلمة أو بين أهورا مزدا وأهرمان، وسيبقى الصراع حتى ينتهي بانتصار أهورا مزدا انتصاراً مبيناً، وتفنى الأرض وتقوم القيامة، ويمضي من عاشوا إلى يوم الفناء إلى حيث تسوقهم أعمالهم، إن خيراً فإلى الجنة وإن شراً فإلى النار.

وأما بالنسبة لمن يموتون قبل القيامة فهم ينتهون بعد ثلاثة أيام إلى اليوم الآخر.

إن الإنسان بمجرد أن يموت تبقى روحه ثلاثة أيام تحوم حول الجسد، تشقى إن عملت سوءاً، وتسعد إذا كانت خيرة، وفي اليوم الأخير تهب ريح تنقل الروح إلى الصراط، وهذه الروح تختلف، فإن كانت الروح خيِّرة هبت عليها ريح طيبة عطرة، وإلا كانت الريح عفنة، وعندما تنقل الريح الروح إلى أول الصراط تجد الخيِّرة حورية آية في الجمال تستقبلها بالترحاب والحفاوة والبشرى، وتجد الصراط متسعاً فتجتازه آمنة، مطمئنة، لأن من ثقلت موازينه يحكم له من قِبَل قضاة ثلاثة عادلين أن تمضي إلى

(١) المقصود كتاب «الديانات والعقائد في مختلف العصور» وهذا الجزء الخاص منه بالإسلام إنما هو فصل من ذلك الكتاب.

الجنة جزاء وفاقاً على ما قدمت من فكر طيب وعمل طيب وقول طيب.

أما الروح التي ساء فكرها وعملها وقولها فإنها تجد الصراط أدق من الشعرة وأحدَّ من الشفرة، يستقبلها عند أوله مخلوق بشع نتن استقبالاً قارعاً كريهاً فتهوي إلى النار.

والقضاة الثلاثة يزنون أعمال الميت، فمن غلبت حسناته سيئاته مضى إلى الجنة، ومن رجحت كفة سيئاته على حسناته قيد إلى النار، أما من تساوت كفتا عمله فموضعه بين السماء والأرض، يعاني آلام الحر والبر ومختلف تغيرات الجو، ويبقى في هذا العذاب منتظراً الفصل الأخير في مصيره.

ويختلف اليوم الآخر الزرادشتي عن اليوم الآخر الإسلامي في كثير، فالله ـ في الإسلام ـ هو الذي يحكم ويقضي، ويملك المغفرة عن العصاة، بخلاف قضاة زرادشت الثلاثة، ثم إن الإسلام يحسب حساب الخاتمة، فرب امرىء عمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، ورب امرىء عمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

وليس في قضاء قضاة زرادشت حساب للتوبة وتقدير الأعمال، فهم يزنون الكم ولا يحسبون حساب الكيف، أما الإسلام فدقيق في هذا الأمر وفي غيره، لأن من يتولى الحساب

والقضاء في اليوم الآخر هو الله جل جلاله، سبقت رحمته غضبه، وفضله عدله، والحسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن يشاء.

واليوم الآخر في الإسلام يعقب فناء الدنيا والكون، وللقيامة فيه مشاهد ومواقف تسبق المثوبة والعقوبة الأخيرتين.

أما اليوم الآخر في الزرادشتية فهو موجود في يوم الدنيا، لأن الميت ينتقل إليه بعد ثلاثة أيام إلى الحساب السريع ليمضي إلى حيث تسوقه أعماله، أما في الإسلام فالميت يحاسب الحساب الأوّل في قبره، أو يعذب في البرزخ الذي هو ليس من الدنيا وليس من الآخرة، فهو ليس من الدنيا لأن الميت فارقها، وليس من الآخرة لأنها لا تأتي إلا بعد أن يفنى كل شيء ولا يبقى إلا الله وحده، وما دام الكون باقياً فذلك نقيض الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ المؤمنون: ١٠٠.

تفنيد الأباطيل (٤)

اليوم الآخر في ديانات مصر

أما فكرة البعث واليوم الآخر في الديانـات المصريـة فتختلف، فلا وجود لليوم الآخر في الديانة الشمسية المصرية، فالميت يدفن ومعه بعض الأثاث والطعام والشراب، لأنهم يعتقدون أنه سيحيا في قبره بالعالم السفلي المظلم نهاراً، والمضيء ليلاً، لأن الشمس تظهر في العالم السفلي لتضيئه عندما تحتجب ليلاً.

وأرواح البررة الأطهار تستحيل نجوماً تأخذ مكانها في السماء، لأنها تضيق بالعالم السفلي وتسأم أن تتخذه مقراً دائمًا فتمضي إلى السماء متحولة إلى نجوم زاهرة.

وليست فكرة البعث أو اليوم الآخر جديدة في الديانة المصرية، بل هي قديمة طافت بأذهان بناة الأهرام، ولكنها كانت فكرة ساذجة لا عمق فيها ولا امتداد، أوحاها الشعور بالتبعة الأخلاقية، ولم تكن تعدو أن يمثل الميت بين يدي «رع» إله الشمس ليحاسب على ما اقترف من إثم كأن يكون قد آذى أحداً، وما كان إلا حساباً ساذجاً.

ثم أخذ الشعور بالتبعة يعمق نتيجة للتطور الذي قطع آلاف السنين حتى أصبح الحساب في العالم الآخر عاماً وعسيراً.

وفي القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد في عهد الأسرة التاسعة والعاشرة بلغت فكرة الثواب والعقاب في العالم الآخر مرحلة انتهى إليها الفكر الإنساني الذي ربط بين الحياة في العالمين: عالم الدنيا وعالم الآخرة، رغبة منه في دفع الإنسان إلى طريق الخير وتشجيعه على العمل الصالح نجاة من العذاب وفوزاً بالثواب، فما يعمله في دنياه يجده أمامه في الآخرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يفوت محكمة الحساب والقضاء في العالم الآخر أيُّ عمل من أعمال الميت التي تجمع بين يديه، والعدل يأخذ سبيله، فلا ظلم ولا محاباة، ولا تسامح ولا غفران، بل الجزاء العادل، والسعيد من استعد لهذا اليوم بالعمل الصالح، ويا ويل الشقي من العذاب الأليم.

إن السعيد من يدخل محكمة الآخـرة وميزانـه ثقيل بالحسنات، ولا إثم في كفة السيئات، وعندئذ يستحيل إلهاً فيحيا كأمثاله البررة الأخيار.

وخلف «رع» في محكمة الآخرة الإله «أوزيريس» الذي حوكم بين يدي «رَعْ» وبرئت ساحته، فصار يعرف بأوزير المبرَّأ، ثم صار هذا اللقب من نصيب كل فرعون ولا يشركه فيه أحد من الشعب إلا بعد زمن حيث صارت الروح الخيرة توصف به.

وكتاب الموتى يعتبر عند بعض الباحثين أول كتاب ذكر العالم

الآخر، ومن الجائز أن يكون كذلك بالنسبة للتأليف الإنساني؛ أما أنه أول على الإطلاق فغير صحيح، لأن الرسل سبقوا هذا الكتاب في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

وكتاب الموتى - هذا - مجموعة من الرقى والتعويذات وصور فرعونية خيالية، تفصح عن آمالهم في العالم الآخر، وأطلق العلماء على هذه المجموعة اسم «كتاب الموتى» تجوزاً، وبه عرفت، وبدأت كتابتها منذ حكم الأسرة الثامنة عشرة.

وهو كتاب فرعوني يقدسه المصريون على عهد الفراعنة، معتقدين أنه من الكتب المنزلة ويتدارسونه ويوصي السلف الخلف بقراءته والعمل بما فيه، وقد يضعون مع الميت نسخة منه طمعاً في أن يكون له شفيعاً، ورغبة في الأنس به في ظلام القبر ووحشته.

ومحكمة أوزيريس التي يصورها كتاب الموتى حيث يمثل فيها الميت لمحاكمته بعد انتقال روحه إلى العالم الآخر هي محكمة الآخرة، يقضي فيها أوزيريس، وبها ميزان منصوب لوزن الأعمال، حيث توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة أخرى، والميت واقف على باب المحكمة يترقب الحكم في خوف ووجل.

وفي صدر المحكمة يجلس أوزيريس وبين يديه اثنان وأربعون إلهاً قاضياً، وهم شياطين مخيفة ذات أسماء بشعة راعبة، وعلى جانب من القاعة وبين يدي أوزيريس بجانب الميزان يجثم وحش يسمى «أم أم» ومعناه: المفترس، وهو حيوان رهيب، له

رأس تمساح وصدر أسد وموخر فرس البحر، متحفز للوثوب لالتهام روح الميت الآثمة إذا خفت موازينه.

ولا يقف الميت جامداً مكتوف اليدين موثق اللسان، بل يدافع عن نفسه، ويزكي أعماله، ويشهد لنفسه بالصلاح والتقوى، ويقول:

«سلام عليك أيها الإلّه العظيم
«لقد جئت إليك يا رب الحق خاشعاً رجاء أن أشهد نور وجهك
«إنني أعرف اسمك، وأعرف أسماء الاثنين والأربعين إلهاً الجالسين معك يقضون على الخاطئين
«إن غذاءهم لحوم العصاة وشرابهم دماؤهم
«جئتك يا رب وحليتي الحق
«لم أظلم، ولم أمض في طريق الشر
«لم أرتكب خطيئة، ولم أرم بها بريئاً
«وما حنثت في يمين
«ولم أشته زوج قريب أو صديق
«ولم أعص للآلهة أمراً
«ولم أُلْحِقْ أذى أو ضرراً بأحد
«ولم أُجِعْ مخلوقاً
«ولم أطمع في مال غيري
«ولم أكن سبباً في بكاء إنسان

«ولم أكذبْ ، ولم أقتل، ولم أسرق
«ولم أتخذ الغدر سبيلاً للحصول على المال
«ولم أنتهك حرمات الموتى
«ولم آت بفاحشة
«ولم يصدر مني ما يدنس شيئاً مقدساً
«ولم أبعِ قمحي بثمن فاحش
«ولم أُطَفِّفْ الكيل، ولم أخسر الميزان
«ولم أنتزع اللبن من فم رضيع
«ولم أمنع الماشية مرعاها
«ولم أتلف زرع أحد
«ولم أخالف نظام الري
«ولم أبطل شعائر الدين
«ولم أفعل شراً، ولم أخدع
«ولم أكلف عاملاً فوق طاقته
«ولم أكن نماماً، ولم أرفع صوتي على أحد
«جئت طاهراً مبرأ من العيوب والخطايا
وأرجو أن أكون لديك من الفائزين».

وبعد أن يدافع الميت عن نفسه، وينفي عنها السلوك المعيب، ويدعي أجمل الأخلاق الفاضلة وأرفع المثل العالية يأخذه «أنوبيس» الإِلَه الجنازي الممثل برأس ابن آوى الذي يقف خلفه «تحوت» كاتب الآلهة، وبين يديه القرطاس وفي يمينه القلم يدوِّن

الحكم، ووراء تحوت يربض «أم أم» مستعداً، ويخاطب الميت كل قاض من الاثنين والأربعين بعد تلك الخطبة الإنسانية البليغة الرائعة التي ينفي فيها عن نفسه الشر ويثبت لها الخير، متوسلاً إليهم في ذلة وخضوع، ويقول لهم في رجاء وخنوع:

«سلام عليكم أيها الطغاة العادلون.
«لا تأخذكم في الحق لومة لائم.
«جئت إليكم مبرأ من العيوب والدنس والخطايا.
«فما لأحد عليَّ مظلمة
«بل عشت للعدل وللعدل عشت
«وعملت للخير والاصلاح
«والناس يحمدون سيرتي
«فقد كنت أطعم الجائعين
«وكنت أسقي الظامئين
«وأكسو العراة
«وأساعد الأعمى والأعرج والشيخ
«وأعطيت طَوْفاً لمن لا قارب له
«وقدمت للإلّه المقدس القرابين
«وتقربت بالأطعمة من أجل الموتى
«فكونوا معي، واحموني
«فقلبي نقي، ويداي طاهرتان
فلا تقدموا للإلّه العظيم شكوى تسيء إليَّ».

بهذه الكلمات القوية البليغة المؤثرة يؤكد الميت أنه بار صالح، وأنه كان في حياته مثلاً رائعاً للإنسان الفاضل التقي الصالح الكريم.

فإذا كان الميت من الفائزين قال له أوزيريس:

«أخرج أيها الميت فائزاً، واذهب حيث شئت، ولتفتح لك أبواب الجنة، ولا يمنعك حرس السماء، وليرد قلبك إليك، ولتوهب لك الحياة الهانئة الجديدة، ولتكنْ عن يميني في الفردوس الأبدي».

وأما إن كان من الخاسرين فيقول له أوزيريس:

«أيها الشرير، إلى جهنم وبئس المصير، مزقوه أيها القضاة بسيوفكم، وكلوا لحمه واشربوا دمه، أيتها الأرواح الشريرة، اضربنه بالحديد، أحرقنه بالنار، وأنت يا «أم أم» قطِّعْه إرْباً إرْباً، تغذَّ بأحشائه، كن أيها الشرير غنيمة للأفاعي، وفريسة للوحوش، وأنتم يا زبانية جهنم، جُرُّوه على وجهه إلى الجحيم، ومزقوا جسده، ثم القوه في عذاب السعير».

في بعض هذه الإجراءات مشابه مما جاء به دين الله منذ نوح حتى محمد عليه وعلى أخوته الرسل صلاة الله وسلامه، ومع ذلك فالاختلاف كبير بين الإيمان الحق والأسطورة والشعوذة، والحق والباطل، والوحدانية والشرك.

ومع كل ذلك فالحياة في العالم الآخر لم تكن خاضعة للإلّه

العظيم والآلهة الأخرى وحسب، بل كان أمر هذه الحياة الأخرى بيد الكهنة الذين يستطيعون أن يرضوا عن المذنب الغريق في الآثام فيجد الجنة أمامه يمضي إليها هانئاً سعيداً.

ولو اقتصر الأمر على الحساب لدل على تطور إنساني كبير في الشعور بالتبعة، فلا يعمل الإنسان في حياته إلا الطيبات التي يجدها أمامه في العالم الآخر، فتعينه على اجتياز أهواله إلى الجنة حيث ينعم في الفردوس الأبدي على يمين الإله أوزيريس.

وإذا دلت فكرة الحساب والثواب والعقاب في العالم الآخر على تقدم إنساني رائع في العقيدة إلا أن عمل الكهنة أحال ذلك التقدم انحطاطاً، لأنّه جعل الآثم الكفور يمضي إلى الجنة بسلام متى دفع إلى الكهنة ثمن ما يضمن له الفردوس المنشود.

ويقول الأستاذ سليم حسن في كتابه «مصر القديمة» ٥: ٢٤٠ - ٢٤١.

على أن الكهنة لو تركوا الأمر على تلك الحال لكان حسناً مقبولاً ولكن - لسوء الحظ - كان انتشار الاعتقاد في نفع قوة السحر وتأثيرها في الحياة الأخروية لا يزال مستمراً، إذ كان المعتقد أن كل النعم المادية يمكن الحصول عليها - من غير نزاع - باستعمال الرقية الملائمة للحصول على ذلك الأمر المرغوب فيه، كما كان في الإمكان أن يعاد إلى الإنسان بتأثير تلك العوامل السحرية كل شيء، حتى العتاد العقلي ألا وهو «القلب» الذي معناه - في اللغة المصرية القديمة - «الفهم» أو «العقل».

و«قـد سوغت للكهنة أبواب الكسب والارتزاق ـ التي كانت لا تقف حيلتهم فيها عند حد ـ أن يتخذوا لهم في ذلك الزمن خطة خطيرة للاحتيال على الكسب، ألا وهي السماح لمثل تلك العوامل المنحطة أن تتدخل بتلك الكيفية في القيم الخلقية، إذ كان في مقدور السحر أن يصير عاملاً للوصول إلى الغايات الخلقية».

ويقول في ص ٢٤٢:

«وكانت كلمات الحكم التي تعلن أن المتوفى قد فاز في المحاكمة وبرىء من كل شر نسب إليه تُدوَّن في صحيفة من تلك الصحف، وعلى ذلك كان في إمكان كل إنسان ـ مهما كانت أخلاقه ذميمة في الحياة الدنيا ـ أن يستولي من «كتاب الموتى» على شهادة يعلن أن صاحب هذا الإسم ـ الذي ترك مكانه أبيض ـ كان رجلاً عادلاً (يعني أن هذا كان يفعل من قبل أن يعرف من سيكون صاحب هذا البياض).

ويقول: «وقد كان في مقدور ذلك الميت أن يحصل على صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير لدرجة تجعل «إله الشمس» الذي يعتبر القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة يسقط من سماواته في «النيل» إذا لم يخرج ذلك الميت بريء الساحة ـ تماماً ـ من محاكمته.

«وبتلك الكيفية نجد أن أقدم انتشار للأخلاق الفاضلة كان يمكننا تتبعه في حياة الإنسان القديم قد توقف فجأة أو على الأقل قد

صدم صدمة عنيفة بتلك الحيل الممقوتة التي كان يستعملها أولئك الكهنة الفاسقون جرياً وراء الكسب، ولسنا في حاجة إلى بيان ما أدى إليه تدخل السحر في ذلك الشأن الخطير من الاعتقادات الدينية وما آلت إليه الحال من الارتباك في الفوارق التي انطوت على ذلك التطبيق الأخير للسحر، وذلك الارتباك كان ناتجاً من خيبة الإنسان قديماً في فهم الفرق بين «ما يدخل في نفس الإنسان» وبين «ما يخرج منها».

«فتلك البراءة التي تطبق على الإنسان تطبيقاً آلياً بالعوامل الخارجية لتنجيه من العقوبات التي مصدرها من الخارج ـ لا يمكن ـ بطبيعة الحال ـ أن تزيل الأضرار التي حدثت في باطن الإنسان، فالايحاء الباطني الذي كان يحسه المصريون الأقدمون أكثر من أية أمة أخرى في الشرق القديم، وهو الإيحاء الذي كانت ترتكز عليه أيضاً كل فكرة عن الحساب الخلقي العسير في عالم الآخرة ـ لا يمكن أبداً أن يكتفي بمثل تلك الطرق الخارجية التي ابتدعها لهم السحر، ولا بد أن الاعتقاد العام الذي جرت به العادة في الاعتماد على مثل تلك الحيل الدنيئة للفرار من المسؤولية الخلقية عن حياة مرذولة ـ كان قد سم حياة الشعب الفطرية».

ويقول في صفحة ٢٤٧ : «ولا غرابة إذن إذا كان كهنة ذلك العصر وكتبته قد انتهزوا تلك الفرصة السانحة لابتـزاز أموال الناس بالباطل حباً في الكسب الذي كان يأتي اليهم بتلك الطريقة السهلة، ولذلك تضاعفت أخطار الآخرة وأهوالها إذ ذاك تضاعفاً

عظيًما، إلا أن الكهنة في مقدورهم إنقاذ المتوفى لدى كل موقف حرج بالتعاويذ الفعالة التي تنجيه من الخطر حتمًا، هذا بخلاف تعاويذ عديدة تساعد المتوفى على الوصول إلى عالم الآخرة، كما كانت توجد أيضاً تعاويذ تمنع فقدان الميت فمه ورأسه وقلبه, وأخرى لتساعده على استذكار اسمه، وكما كان منها ما يساعد على التنفس والأكل والشرب، ومنها ما يمنعه أكله لبرازه، ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه أن يتحول إلى لهيب، ومنها ما يحول الظلام نوراً، كما كان من التعاويذ ما يحجب عن الميت كل الثعابين والوحوش المؤذية الخ».

لقد كانت فكرة الحساب من أجل أن يقلع المرء في حياته عن الشر، ويمعن في عمل الخير ما وسعه حتى يسعد مجتمعه ويسعد هو نفسه، لأنه يخشى العالم الآخر، فلا يستعد له بسوء يجزى عنه عذاباً شديداً، فينصرف إلى الخير رغبة في النعيم المقيم.

وكان المصري عميق التدين شديد الإيمان بالعالم الآخر، ويحمله الخوف من عذابه والطمع فيما فيه من نعيم على الإقلاع عن الشر، والحرص على لقاء العالم الآخر بالصالحات وقهر الشهوات، والاستكبار على غرائزه الشريرة.

ولكن هذا الخوف قد بدده الكهنة كما يسروا له سبيل الشر ودفعوه إليه دفعاً، فقد ضمنوا له الفوز بالجنة ونعيمها مهما كان شريراً وعمله سيئاً، ومهما بلغت آثامه وخطاياه، وضمنوا له النجاة

من النار مهما أطلق لشهواته وغرائزه العنان، ومهما خلت كافة الحسنات من الحسنات.

كل هذا تلقاء دريهمات يقدمها الإنسان للكهنة يحصل بها على صك أعظم من صك الغفران الذي ابتدعته المسيحية، وما عليه بعد أن يرضي الكهنة بالمال أن يعمل ما تشاء له نفسه الشريرة، فالجنة مضمونة له، والنار بعيدة عنه بفعل الكهنة، وكأنهم ملكوا الجنة، يدخلون فيها من أرضاهم بالمال وغيره، ومن لا يرضيهم فإلى جهنم وبئس المصير.

وفعل الكهنة قضى على الشعور بالتبعة الأخلاقية عند المصريين، وبعث إلى أنفسهم الأمن والطمأنينة، لأنه مبشر بالجنة مهما فعل من الشرور والموبقات ما دام قادراً على إرضاء الكهنة، وبذلك انتفى القصد من الحساب في العالم الآخر الذي لا خوف منه على الزنيم المذنب الأثيم ما دام في وسعه إرضاء الكهنة الذين أعطوا أنفسهم سلطة تجبر الإلّه الأعظم المصري (إلّه الشمس) على الرضوان بَلْه الغفران، فإذا لم يرض الإلّه الأعظم عن الميت ويخرجه من المحاكمة بريئاً فقد كتب على نفسه أن يسقط من سماواته العلى.

فالكهنة هم الذين يسيطرون في الحياة الدنيا على الأحياء، وهم أنفسهم يسيطرون على إلّه الشمس والآلهة في العالم الآخر، ويجبرونهم على الرضوان عن العاصي إذا رضي عنه الكهنة، وليس غير الكهنة.

ومناط الأمر كله بيد الكهنة، والجنة والنار بين أيديهم، ولا سلطان إلا لهم، والآلهة لا تستطيع أن تحاسب مذنباً فاز برضا الكهنة، بل الآلهة مجبرون على أن يرضوا عمن رضي عنه الكهنة، بل بلغ بهم الاستئثار بالسلطة على الآلهة أن إلّه الشمس الأعظم القوي مهدد بالسقوط من سمائه إذا لم يرض عمن رضي عنه الكهنة.

فالعالم الآخر بجنته وجحيمه، وبآلهته وقضاته وبكل ما فيه من قوى غلابة تحت تصرف الكهنة يتحكمون فيه من عالم الدنيا، فالأمر أمرهم، ولا شيء إلا هو من عندهم.

ولم يصبح للعالم الآخر أي جدوى، فالظلم منتقل من الدنيا إليه، والقدرة على الشراء هي التي تحكم.

وإذا كان الكهنة يتحكمون على العالم الآخر فهم محكومون لمن يدفع، فالحاكم الفعلي على الإلّه الأعظم المصري والجنة والنار هو المذنب الظالم القادر على دفع المال.

ويجب أن ندرك الفرق الكبير بين العالم الآخر واليوم الآخر، فالعالم الآخر في الديانات المصرية ليس يوماً آخر، ولكنه عالم واقع في الدنيا دون أن يشهده الأحياء، لأنه خاص بمن يفارقون الحياة.

أما اليوم الآخر فهو نقيض الدنيا، ولا يأتي إلا بعد فنائها، ثم تكون القيامة العامة حيث يتم الحساب الحق بعدها، لا ظلم فيه، ولا أمر إلا للواحد القهار.

والعالم الآخر في الديانات المصرية لا يتفق مع العالم الآخر واليوم الآخر في الإسلام، وإذا كان فيه من الكلمات وبعض الإجراءات مما يشبه ما في الإسلام فمرد ذلك إلى أن فكرة البعث واليوم الآخر فكرة قديمة سبقت الديانات المصرية الوثنية، فالرسل بشروا بها، وعرضوها عرضاً صحيحاً كما تلقوها من الله، فبقيت ظلال من الفكرة الصحيحة انتهت إلى الديانات الوثنية.

وعلى أي حال، ففكرة العالم الآخر في الديانات المصرية أساطير وليست حقيقة من حقائق العقيدة، وإن كانت في هيكلها الأسطوري أروع من العالم الآخر في الوثنية اليونانية التي أخذت من ديانات مصر وغيرها فكرة العالم الآخر، ونسجت منه أسطورة كالأساطير المنسوجة عن الآلهة نفسها.

اليوم الآخر في ديانات الهند

لا وجود لليوم الآخر في البوذية والبرهمية وفي ديانات الهند الأخرى، التناسخ في بعضها تنفيه، وفكرة «النرفانا» التي ينتهي إليها الإنسان النقي الطاهر أو الذي طهره العذاب والألم من جراء التناسخ ليندمج في النرفانا حيث ينعدم الحس الإنساني.

وأقدم الديانات المعروفة ديانة الفيدا، وليس فيها يوم آخر، لأنها تعتقد بالتناسخ، إلا أن لكتب الفيدا وذيولها أثراً في ميلاد دين جديد أعقبها، ويختلف عنها في المنحى الفكري والعقائدي، هذا الدين الجديد هو «البراهميـة» نسبة إلى «براهما» أحد الثالوث الإلّهي المكون منه ومن فشنو وسيفا، وعندما دخل البحث الفلسفي الديانة البراهمية فهم «البراهمان» على أنه الوجود المطلق، وجوهر العالم الواحد الشامل.

ويعود تاريخ ظهور البراهمية إلى ما بين القرن الثامن والسادس قبل الميلاد، وهي صفحة أخرى من الديانة الفيدية، فيها المنطق والعقل والفلسفة، وحل معضلات وقفت أمامها الديانة الفيدية خاشعة دون بحث أو تفكير، فأخذت البراهمية

تبحث وتفكر وتعلل، وتذهب إلى التوحيد الذي يراد منه أن الإلّه واحد أحد، ولكنه توحيد لا ينفي الشرك، لأن كل شيء يصبح إلهاً، كل إنسان جزء من الإلّه وإن كان منفصلاً عنه، إن الإنفصال مجرد وهم، ومع ذلك سينتهي به الأمر إلى الإندماج فيه من جديد.

وهذه الوحدة التي تجمع الأجزاء في كلٍّ واحد هي وحدة الوجود، إنه «براهمان» الكلمة، إنه البدء الذي يستمد منه كل كائن وجوده، وبراهمان وحده هو الذي يستمد وجوده من ذاته، بل هذا الإنسان في جوهره المتجرد من الذاتية إنما هو الإلّه نفسه، لأن الإلّه جوهر الكائنات كلها.

وتكرار الوفاة والولادة بوساطة التناسخ والحلول يلغي اليوم الآخر، فالتكرار مستمر دائم إذا لم تتطهر روح الميت المنتقل منه إلى حيوان أو شجر أو إنسان، فإذا تطهرت وتم لها التجرد المطلق من الشهوات صعدت إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل والاندماج فيه، وتلك نعمة تضع حداً للعذاب الذي يتجلى في تكرار الولادة الذي هو قصاص عادل يستوفيه حتى يتجرد تجرداً تاماً مطلقاً.

فالبرهمية خالية من الإيمان باليوم الآخر، والجينية ديانة معطلة لا إلّه فيها فهي لاهوت بلا إلّه، ومع هذا تذهب إلى أن الراهب الذي يتنعم بقتل نفسه بعد ترويضها اثنتي عشرة سنة وقتْل كل شهواته ونزعاته ووصوله إلى الدرجة الرفيعة فقد استطاع إنقاذ نفسه من التناسخ والحلول، والصعود إلى حيث النعيم الأبدي في جنة أشبه بالجزيرة حيث الخلود.

والقتل المباح المحبب أن يكون عن طريق الجوع تأسياً بوالدي «ماهافيرا» مؤسس الجينية اللذين قتلا نفسيهما جوعاً زهداً في الحياة والغنى والمجد مع أنَّهما كانا من الأغنياء المترفين.

والصعود إلى النعيم الأبدي في الجينية أسطورة وليس من حقائق العقيدة، ولا يعد إيماناً باليوم الآخر لأنه فاقد أسباب وجوده.

والبوذية في أساسها إلحاد كالجينية وليست ديناً بالمعنى الصحيح، لأنها مجرد آداب سلوك، وليس فيها يوم آخر، لأن البوذي السعيد الذي ينجو من الدوران في محيط الولادة والموت إذْ يصل إلى «النرفانا» حيث لا ولادة ولا موت، وهذه المرحلة هي انعدام التناسخ الذي هو من ضرورات النفس الشقية.

والنرفانا عدم تجدد الولادة وتكرار الوفاة، وعدم الشهوة والألم، وعدم الرغبة والإرادة، وعدم الحياة في العالم الأرضي، ولكنه ـ في البوذية ـ موجود أيضاً، لأن النفس ـ عندما تصل إلى النرفانا ـ تنتهي صلتها بالوجود الأرضي، فهو وجود يفنى في وجود.

والنرفانا في البوذية ليس عالماً مادياً، ولكنه ميتافيزيقي، إنه وراء الحس، فالبوذية انتهت إلى إثبات ما أنكره بوذا نفسه، وهو المجهول، وبوذا نفسه ذهب إلى فناء النفس وفسادها وانحلالها.

وعلى أي حال، لا وجود في ديانات الهند لليوم الآخر، لأن

منها ما أنكر بقاء النفس، ولأن منها ما قال بالتناسخ، وهو قصاص دنيوي لا ينتهي إلا بعد التفكير والتطهير لتمحى النفس في النرفانا.

وماذا يأخذ نبيُّ الإسلام من هذه الديانات التي لا يعلم عنها شيئاً، ولا علم له بلغات الهند، وليس فيها ما يتفق مع عقيدة الإسلام في اليوم الآخر ولا في ذات الله عز وجل نفسه.

اليوم الآخر في أساطير اليونان وفلسفتهم

أما الأساطير اليونانية فلا وجود فيها لليوم الآخر، إلا «هاديس» العالم السفلي الذي تجتمع فيه أرواح الموتى جميعهم، وفيه عذاب، ولكنه ليس جزاء لما قدم الإنسان في دنياه، بل لمخالفات تقع بين الأرواح المجتمعة.

وهوميروس أشار إلى «هاديس» في «الأوذيسا» وما يقع فيه، وفي الأساطير اليونانية: أن «هاديس» يسمى «أوركوس» و«ايريبوس» وهو غير «ترتاروس» الذي يخلط بينهما بعض المؤرخين وكثير من الكتاب، وهو العالم السفلي ويحكمه الإله «هاديس» الذي يسمي إيديس أو أيدونيوس ـ ومعناه الخفي، وبلوتو أو بلوتون ـ ويسميه الرومان «ديس» أو «أوركوس» أو ترتاروس، وهو ابن كرونوس وريا، وشقيق زوس وبوسايدون وهيرا، ويوصف بأنه ملك الجحيم وإله الموتى.

واجتناباً للوهم تطلق على هاديس أحد أسمائه الأخر وهو «بلوتو» للتفريق بين هاديس الإله الخفي الذي يحكم عالم الأموات، وهاديس العالم السفلي مقر أرواح الموتى.

وتصور الأساطير اليونانية «بلوتو» مجرداً من الشفقة نحو سائر المخلوقات، وعنوان الخوف من البغضاء عند البشر[1]»، وخطف بير سيفوني ابنة كيريس عندما خرج بلوتو ذات مرة من عالمه السفلي إلى العالم الأرضي فأعجبه جمالها فخطفها وعاد إلى مملكته تحت الأرض، وكان لبلوتو معشوقات أخريات، منهن: «مينثي» التي حولها بلوتو إلى شجرة نعناع لينقذها من قسوة بيرسيفوني.

وكان يجلس مع زوجته المخطوفة على عرشه بقصره العظيم الرهيب للقضاء والعقاب، ولا يقتصر حكمه على الموتى بل على مخلوقات مخيفة تأتمر بأمره، ومنها ما هو في العالم الأرضي، وأما ما كان منها في العالم السفلي فله القدرة على مغادرته إلى الأرض لمعاقبة من يأمر بمعاقبته من سكانها، وكان فيه ربات الانتقام والعذاب يسمين «الأرينويس» أو «الفورياي» الإسم الروماني لهن، وهنَّ ثلاث عذارى ذوات أجنحة، شعورهن ثعابين، وأجسادهن محاطة بالأفعوانات، ويحملن المشاعل والمناجل، وبأيديهن السياط.

والعذاب المصبوب منهن على المذنب غير منظور فيه إلى ذنبه، ارتكبه عمداً أم خطأً أم عفواً، وليس عقابهن مقصوراً على أرواح الموتى بل على الأحياء أيضاً.

---

(١) رجعنا فيما كتبنا في أسطورة «هاديس» إلى «معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية» ترجمة أمين سلامة، وكتاب «مشاهد القيامة في القرآن» لأخي الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله وأسكنه الجنة.

ويفصل بين العالم الأرضي والعالم السفلي نهر الآلام المسمى «أخيرون» وهو ابن الإلاهة جيا، والموكل بنقل الموتى نوتي اسمه خارون، أسمر اللون، بشع الخلقة، ذو ملابس قذرة، ويطلب أجره قبل نقله، فمن دفع نقله، وإلا لبث مئة سنة، ويساعده «هيرميس» ـ واسمه ميركوريوس لدى الرومان ـ أحد كبار آلهة الأولمب، ووظائفه كثيرة، منها: إرشاد أرواح الموتى إلى العالم السفلي.

وعند مجرى أخيرون يقبع كلب يسمى «كيربيروس» يحرسه، فيسمح للموتى بالدخول، ويمنعهم من الخروج، وله ثلاثة رؤوس، وهو مفترس.

وكان هاديس في الأسطورة اليونانية أو العالم السفلي عالَماً شديد الظلمة، خصص ليكون مأوى الموتى، ولم تكن داراً آخرة للحساب ثواباً وعقاباً، فأرواح الموتى تنتقل من العالم الأرضي إليه في صورة أشباح، لا حساب ولا عقاب ولا لذة ولا سرور، بل لا إدراك أيضاً، ولا طاقة لها على الكلام إلا لمن شرب من دم الحيوان المذبوح.

وعندما تطورت الفكرة من انتقال الروح إلى هاديس عرفت الأسطورة اليونانية فكرة الحساب، فالظالم يعاقب على ظلمه، ويثاب العادل على عدله فأقيمت الحقول الإلوسية كمكان مبارك للأخيار في هاديس نفسها.

وكان حتماً وجود مكان للعذاب فاخترعت الأسطورة

«ترتاروس» وتمثل هوة سحيقة تبعد عن هاديس بمقدار بعد الأرض عن السماء، وإذا أُلْقِيَ من الأرض شيء فإنه لن يصل إلى ترتاروس إلا بعد تسعة أيام.

وما دام ترتاروس للعذاب فقد امتلأ بالظلمة القاتمة، وأشبه السجن، فقد أحيط بحيطان من البرنز، وكان من قبل سجن الآلهة التي تحلف كذباً بستوكس، وهو نهر رئيسي بهاديس، ويعتبر ربة، وابنة أقيانوس وتيثوس، و«ستوكس» اسم مقدس عند الآلهة نفسها، حتى صار يحلف به، فإن كان الإله الذي يحلف اليمين حانثاً يسكب من ماء النهر فيظل سنة دون حركة كأنه ميت، وإن كان صادقاً لم يصبه أذى، ويرسل الإله الذي يكذب في يمينه إلى ترتاروس ليقضي فيه تسع سنوات تكفيراً وعقاباً.

ثم صار ترتاروس مكاناً لعقاب المذنبين، وأخيراً صار جزءاً من هاديس.

وتولى مينوس ـ ابن زوس ويوروبا ـ وملك كريت، بعد موته قاضياً في العالم السفلي، وكان مجلس قضائه على عرش وبيمناه صولجان، يقضي بين الطيب والخبيث، والصالح والشرير، ولكل من يحكم عليه مكان في العالم السفلي[1].

ولم يكن هاديس مكاناً لأرواح الموتى وحدهم، بل كان مقراً

---

(١) معجم الأعلام في الأساطير اليونانية، وفهرس الأعلام في الترجمة العربية للأوذيسة بقلم عنبرة سلام الخالدي.

لأرواح من لم يولدوا بعدُ.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد جاء في قصيدة بندار الأولمبية الثانية: «سيجد العظماء في الأرض قاضياً في الجحيم، فالذين ارتكبوا أعمالاً محرمة تحاكمهم الإلآهة أنانكي» ويقول الأستاذ سيد قطب: «ومع أنه لا يبين كيف تجري هذه المحاسبة إلا أنها خطوة كبيرة في القرب من العقيدة المصرية في عدالة هذا الحساب».

ويقول الأستاذ سيد قطب: «ثم تمر السنوات حتى يأتي أفلاطون (مولده بين ٤٢٩ ـ ٤٢٧ ق. م) فيقول: «فإذا جاءت الأموات أمام قاضيهم ردامانت (وهو أخو مينوس) إلى القرب منه؛ ثم فحص روح كل واحد منهم من غير أن يعرف لمن هي . . . فإذا وجدها مملوء فساداً وخبثاً وكانت قد عاشت بعيداً عن الحقيقة بعث بها إلى السجن لتتلقى فيه العقاب الذي تستحقه».

ويتابع الأستاذ سيد قطب عرضه لرأي أفلاطون فيذكر قوله: « ردامانت يرسل المحكوم عليهم إلى قاع الجحيم بعد أن يسمهم بميسم تبعاً لقابليتهم أو عدم قابليتهم للتطهير، أما الروح الذي يرى أنه عاش في الطهر وفي الحقيقة فإنه يبتهج به ويرسله إلى الجزائر السعيدة».

---

(٢) مشاهد القيامة لسيد قطب.

ولكن سبق أفلاطون ومدارس الفلسفة اليونانية الديانة السرية المعروفة بالأورفية نسبة إلى أرفيوس ـ كما يقال وهو شاعر خرافي من ترافيا، غير معروف تاريخ حياته ونحلته، وله ذكر حي في الأساطير اليونانية.

وديانتها قائمة على عبادة ديونيسوس، وصار لدى الأورفية إله التضحية، ولئن كانت ديانة أسطورية قديمة إلا أنها عرفت في القرن السادس قبل الميلاد، واليوم الآخر الذي عرفته لا يخرج عن الأساطير، وما فيه مزيج من الديانة المصرية والهندية، فالإنسان مطبوع على الشر، ولا بد أن يتخلص منه، وليس ذلك سهلاً، ولا تكفي حياته الأرضية الأولى، بل يحتاج تطهيره من الشر إلى آلاف السنين يتنقل خلالها في دورات متتابعة للولادات المتكررة، وأظهرت الكشوف الأثرية في جنوب إيطاليا حيث كانت الديانة الأورفية صفائح في بعض المقابر دُوِّن فيها ما يجب أن تتبعه نفس الميت؛ والصلوات التي تتلوها.

ودل هذا الكشف على معرفة الأورفيين كتاب الموتى المعروف في الديانة المصرية حيث اقتبسوا منه كما أخذوا عن ديانة الهند فكرة الولادات المتعاقبة.

ولفلاسفة اليونان منذ فجرها الأول الذي بدأ في القرن السابع قبل الميلاد آراء في النفس وفي الغيب، فالمدرسة الأيونية من طاليس إلى هرقليطس نشأت في أواخر القرن السابع حتى أواخر القرن الخامس، وهي متأثرة بفلسفة الشرق، وآخر أبنائها

هرقليطس (٥٤٠ ـ ٤٧٥ ق. م.) الذي يعتنق مذهب وحدة الوجود، فهو يرى أن المبدأ الأول ـ أي الله ـ هو النار، ولكنها ليست هذه النار، الإلّهية، ونهاية النفس الفناء في هذه النار حيث تعود إلى مصدرها الأول. بل هي نار لطيفة، والنفس الإنسانية بخار حار، والحرارة ضرورة لازمة للحي، وهي قبس من النار الإلّهية، ونهاية النفس الفناء في هذه النار حيث تعود إلى مصدرها الأول.

وانكسمندريس ـ أحد أقطاب المدرسة الأيونية ـ يرى اللانهائي هو الأصل، وما انفصل عنه هو النهائي، ومعاد النهائي إلى اللانهائي هو الوحدة، لأن الانفصال نفسه كان خطيئة فالعالم يكفر عنها حتى يعود إلى اللانهائي.

وأما مدرسة فيثاغوراس (٥٧٢ـ٤٩٧ ق. م) فمذهبها أن النفس أو الروح ـ وهما لديها بمعنى واحد ـ تتعذب بالتنقل من جسد إنسان أو حيوان أو نبات إلى جسد آخر حتى يتم لها التطهير التام بعد هذا التناسخ المستمر، فتتلاقى في هذا المذهب نظرية التناسخ ونظرية الدور دون أن يتم بينها التوفيق.

وأمبادقليس يعتقد بالتناسخ، وأنه كان طائراً وسمكة وشجرة، ولذلك يحرم ذبح الحيوان خشية أن يذبح الإنسان أباه أو أمه.

وفلسفة الذريين التعطيل، فديمقراطيس الذي تناول المذهب وشرحه ينفي وجود الآلهة لأنه وهم، والنفس الإنسانية

مكونه من ذرات، وأنفس الآلهة من ذرات ألطف تضمن لها بقاء أطول، ولا شيء من اليوم الآخر لديها ولدى من سبقها.

وسقراط يرى الروح خالدة، ولا تفنى بفناء الجسد، والموت خلاصها من سجنها، فتعود إلى طبيعتها الصافية، ولا شيء بعد ذلك.

وأما أفلاطون فرأيه أو معتقده هو التناسخ، فالنفس كانت في عالم المثل، وكانت سعيدة فيه، ثم حلت بالجسم فإذا مات الإنسان الطيب السعيد عادت روحه إلى عالم المثل لتحيا به سعيدة مطمئنة، ثم تأتي لتحل بعد زمن طويل بالجسم، أما الإنسان الشقي فلا تعود روحه إلى عالم المثل، بل إلى العذاب، ثم يحل في جسم أحط، فالرجل يحل في جسم أنثى وكلما زاد الإنسان سوءاً في حياته تحل روحه في جسم أكثر انحطاطاً، فالشهواني يحل في جسم حيوان.

وأفلاطون يناقض نفسه عندما زعم حلول روح الإنسان في جسد حيوان، فقد قال: إن نفس الحيوان لم تدرك قط حقيقته، ولهذا لا تحل في جسد إنسان، فيكيف تحل روح الإنسان الذي أدرك الحقيقة في جسد حيوان؟.

ويجوز أنه لم يناقض نفسه، فالتناسخ عقوبة، وحلول روح الإنسان الذكر في جسم أحط كجسم المرأة أو أكثر انحطاطاً منه كجسد حيوان عقوبة.

ويأتي أرسطو فيرد على أفلاطون وفيثاغوراس ومن يرى رأيهما رداً فيه فن وبلاغة، فعنده «النفس» مجموعة قُوى، ولا توجد نفس من غير جسم، فهي وظيفة هذا الجسم، فكيف تحل نفس خاصة ببدن في بدن آخر، بل كيف تحل نفس إنسانية لها خصائصها وطبائعها وأعمالها في جسم حيوان؟ فوظيفة شيء لا تؤدي وظيفة شيء آخر، فعلاقة النفس بالجسم كعلاقة النغم بالوتر، فإذا قلنا بالتناسخ كنا كمن يريد ذلك النغم من مطرقة الحداد.

والوظيفة تفنى بفناء العضو، فهل تفنى النفس عند أرسطو؟ إنه يفرق بين النفس والعقل، فالنفس تفنى، والعقل الفاعل لا يفنى، لأن طبيعة الجسم تقتضي وجود النفس، فهي تتبعه في الفناء، ولكن العقل الفاعل جاء من خارجها فهو يعود من حيث جاء، وهو أزلي أبدي بلا بداية ولا نهاية، فلا بد أن يعود إلى العقل المطلق الأزلي الذي لا أول له ولا آخر، وهو الله، والعقل الفاعل صادر من العقل المطلق، ومنه جاء إلى الإنسان المكون من نفس وجسم، وبفنائها يعود العقل الفاعل إلى مصدره.

ويفهم من أقوال أرسطو أنه يذهب إلى الحلول، لأنه يقول: إن كل شيء في الوجود يسعى لتحقيق العقل، والعقل المطلق هو الله.

ومعنى هذا أن الله حالٌّ في كل شيء في الوجود يسعى لتحقيق العقل.

والرواقيون يذهبون إلى وحدة الوجود، فالله والطبيعة شيء واحد، فلا آخرة لديهم.

وفي كل ما سبق الإسلام من مذاهب وديانات ونحل يكاد يخلو من اليوم الآخر، ويجب التنبه إلى الفرق بين اليوم الآخر والعالم الآخر، وما أشار إليه ليس يوماً آخر، ولكنه عالم يشبه عالم الأحلام، وهو ـ بعد ـ من الأساطير، وليس حقيقة من حقائق العقيدة الدينية، بل يكاد يكون خرافة لم يصل إلى مرتبة الأسطورة.

أما ما أشارت اليه المسيحية التي تصورها أسفار العهد الجديد فهو لا يتفق مع الإسلام في جزئياته وتفصيلاته، ولا في مقاصده، لأن فكرة الخطيئة والخلاص والفداء الإنسانية تبعد مسؤولية الإنسان، فوزره قد دفع ثمنه المخلص وحمله عن بني الإنسان، فما جدوى الحساب؟.

تفنيد الأباطيل (٧)

الفرائض والشعائر المتشابهة

أعداء الإسلام لا يتركونه في سلام يؤدي ما تكفل به من إسعاد البشر وصلاحهم وهدايتهم وتهذيبهم وإنقاذهم من القلق والمخاوف ومن الشقاء الذي يغشاهم فتتدجى كل سبلهم، ويتنكرون له في الوقت الذي يريد لهم الخير كله، ويحاربونه في كل ما أتى به للخير الخاص والعام.

حتى الاسم الجميل أرادوا مسخه فزعموا أن لفظ المسلم و «الحنيفية» مأخوذ من الوثنية الباطلة، فزعم مستشرق جهول ممتلىء القلب بالحقد والهوى أن «المسلم» منسوب إلى مسيلمة الكذاب، وأن «الحنيفية» منسوبة إلى بني حنيفة قبيلة مسيلمة الكذاب.

ولو كان هذا المستشرق على أيسر حظ من العلم لما تورط في هذا السخف الذي لا يدانيه سخف، والقصد من الحنيفية معروف ومعناها واضح، وهو الطهر والميل الصادق إلى الإسلام دين الحق، وأن «المسلم» مشتق من «الإسلام» وعرف من يعتنق الإسلام بالمسلم قبل أن يعرف اسم مسيلمة وكذبه وادعاؤه النبوة.

وليس مثل أكاذيب هذا المستشرق المجهول الحاقد فيما يتصل بالعلم والجد والبحث، بل هو من الهذر والسخف الرخيصين، وما قصد من باطله غير التجني على الإسلام والمسلمين بكل وسيلة وبكل ما يسعه القول والفعل، معتقداً مثل زملائه أن العدواة والحرب تبيحان لهم اتخاذ كل سلاح ولو كان أقذر سلاح لا يرتضيه من كان على شيء جد يسير من العقل والعلم والخلق.

ومن ذلك التجني الحقير أن يتهموا الإسلام بأنه نسخة مشوهة من اليهودية والمسيحية والصابئة ومن الديانات الوثنية الأُخَر، وغفلوا عن أن الإسلام غير هذه الديانات في كل ما جاء به ابتداء من العقيدة وانتهاء إلى أمور الحياة دقيقها وجليلها.

والاختلاف بين الإسلام وغيره من الديانات لا حد له، وإن اتفقت الأسماء.

وإذا صح الاتفاق بين الإسلام وغيره في شعائر وفرائض فإن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يدَّع أنه جاء بدين يناقض الأديان الصحيحة، بل دينه دين من سبق من الرسل، و ﴿ إنَّ الدين عند الله الإسلام ﴾ ونبي الإسلام يقول: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ

وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾
وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾
رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ
حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥.

وإذا جاء في القرآن والحديث شيء مما جاء في الديانات الأخرى فإن سبب ذلك أن الإسلام دين الرسل جميعاً، وإذا وجد في الوثنيات شيء من الحق فذلك ما ورثته من الديانات الصحيحة، لأن الضمير الانساني ـ مهما أغرقه الكفر والشرك ـ لا ينعدم فيه الخير، وإذا انعدم عند أناس فإن بعض الضمائر يبقى سليمًا أو أقرب إلى السلامة، وأصحابها يرثون الأنبياء، وينقل إرثهم السلف إلى الخلف.

والآداب الإنسانية ـ أوامر ونواهي ـ حصة مشتركة تنبع من الضمير الإنساني، ومن الغريزة والفطرة ، فإذا اتفقت ديانات السماء والإسلام والوثنيات في بعض الأوامر والنواهي مثل: بر والديك، وارحم الضعفاء، ولا تسرق، ولا تقتل، فليس معنى هذا أن نبي الإسلام أخذ منها..

وأما الصلاة وغيرها من الشعائر الدينية فلم يأخذها محمد ﷺ من الديانات والعناصر الأجنبية، وإذا اتفقت الأسماء فالمسميات مختلفة، فكلمة «الرحمن» الموجودة في ديانة الجنوب من الجزيرة العربية التي أطلقت على إلـه فيها لا تجيز للعقل أن يتهم نبي الإسلام بأنه أخذها منها.

فالرحمن في الإسلام ليس كالرحمن في غيره في المعنى والمفهوم، فهذا الاسم ـ من أسماء الله الحسنى ـ يطلق في الجنوب على أحد الآلهة، وله أشباه ونظائر في الجنوب وفي غيره، ولكنه في الإسلام أحد أسماء الله الحسنى، وهو ليس مرادفاً لأي اسم من هذه الأسماء، حتى «الرحيم» يختلف عن الرحمن في المعنى، فالرحيم هو ذو الرحمة الخاصة بالحياة الدنيا، والرحمن أعم من ناحية، وأخص من ناحية أخرى، فهو ذو الرحمة في الآخرة.

ووجود «الرحمن» في ديانة الجنوب قبل الإسلام ليس معناه أنه أخذه عنها، فمما لا شك فيها أن المعنى يختلف كل الاختلاف في ديانة الجنوب الوثنية الشركية وفي الديانة الإسلامية، فهو يطلق في الجنوب على صنم من الأصنام، وفي الإسلام على الله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

وما ثم ما يمنع أن يكون الجنوبيون أخذوه من إحدى ديانات السماء الصحيحة، بل هو مأخوذ منها قطعاً ، لأن تلك الديانات كانت موجودة قبل ديانة الجنوب الوثنية، فديانة نوح والنبيين من

بعده وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق قد سبقت ديانة الجنوب، وكان الجنوب من مناطق ديانات التوحيد، فلا يستبعد أن تكون كلمة «الرحمن» من الكلمات التي ورثها الجنوب من تلك الديانات.

فاشتراك الإسلام مع غيره من الديانات التي انتقلت من التوحيد إلى الشرك في بعض أسماء الله الحسنى أو في الفرائض والعبادات والمعاملات والأحكام لا يفهم منه أنه أخذها منها، بل هو مستقل ومختلف عنها في المسميات.

فأركان الإسلام الخمسة تغاير أشباهها في الديانات الأخرى، فالشهادة في الإسلام - وهو أول أركانه - غيرها في الشهادة المسيحية واليهودية وفي جميع الوثنيات بما فيها وثنية اخناتون التي ذهبت إلى التوحيد وصفات التنزيه كما يقولون.

فالله جل جلاله عند المسلمين واحد أحد، لا شريك له ولا ند ولا صاحبة ولا ولد ولا شبيه، وهو رب الكون كله وصاحب الأمر فيه وما فيه، وهو رب المؤمن به والشاك فيه والمنكر وجوده، وهو رب العالمين، وليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء.

والله سبحانه وتعالى في المسيحية المحرفة هو الآب، والمسيح هو: الله الابن، ومعهما الله روح القدس، وهذا هو الثالوث المقدس عند المسيحيين.

والله عز وجل في اليهودية «يهوه» أو «ألوهيم» وهو إله اليهود

الخاص بهم، ولا يشاركهم فيه أحد سواهم، فهو ليس رب المسلمين ولا رب المسيحيين ولا رب أي أحد غير اليهود، لأن لهؤلاء آلهتهم وأربابهم.

وتوحيد اخناتون توحيد وثني خاص أيضاً، فهو تخيل الآله الأحد الفرد الصمد قرص الشمس المرسل أشعته إلى الأرض، والأشعة تنتهي بأيد بشرية تمنح الخيرات كما يقول من كتبوا عن اخناتون من علماء المصريات المصريين.

إن تصور اخناتون لإلّه تجسيد لا يتفق مع جلال الله وكماله المطلق.

وآلهة مصر الأخرى أصنام موصوفة بصفات النقص التي يتصف بها بنو البشر، والآلهة الوثنية في جميع الديانات بلا استثناء أوثان وأصنام وذوات صفات بشرية أو حيوانية، وبعضها من المخازي الشنيعة.

والبوذية والجينية ـ من ديانات الهند ـ لاهوت بغير إلّه، فهما ديانتا إلحاد لا تعترف بوجود إلّه.

وديانة الصابئة تلتقي بكثير من الديانات التي بقي فيها عبادة الأجرام السماوية «فصابئة» النبط والفرس والروم فزعت للسيارات السبع، وصابئة الهند فزعت إلى الثوابت، فأولئك عبدة الكواكب، وهؤلاء عبدة الأصنام» كما يقول الشهرستاني.

وفي ديانة الصابئة توحيد، فهم يقولون في الله: إنه الخالق

الواحد الأزلي الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، وهو خالق كل شيء، ويؤمنون بالغيب والحساب والبعث والقيامة.

وهذا التوحيد هو توحيد الصابئة المؤمنة التي ذكرها القرآن، وأما الصابئة التي تعبد الكواكب فهي الخارجة على التوحيد.

وعلى أي حال فكل الديانات غير السماوية لم تعرف التوحيد الحق، وبخاصة الديانات التي كانت عند ظهور الإسلام، فكلها كانت ديانات شرك ووثنية بلا استثناء، فديانات السماء قد انقلبت وثنية.

ولهذا لا يمكن أن يقال: إن الإسلام نسخة مشوهة من المسيحية واليهودية ومن الصابئة وبعض الديانات الوثنية، فالخلاف بينه وبينها خلاف لا يتم معه لقاء، وهو غيرها في الأصول والفروع وإن اتحدت الأسماء.

فذات الله وأسماؤه وصفاته في الإسلام غيرها في جميع الديانات، فكيف يزعمون ما زعموا والإسلام يغاير تلك الديانات.؟

وكتاب الله عند المسلمين يخالف الكتب التي يزعم أصحابها أنها كتب الله أو أنها منزلة أو مقدسة، فكتاب الله الخاص بالإسلام يتفق مع عقيدة التوحيد وكمال الله المطلق وعصمة رسله الكرام، وكتب الآخرين المقدسة تعكس عقائدهم في الإله والكون والرسل.

فالقرآن الكريم يخالف كتب اليهود والنصارى والزرادشتيين والبرهميين والفيديين والكنفوشيين وغيرهم، فكتاب اليهود المعروف بالعهد القديم لا ينزه الله نفسه، بل يجسده ويتهمه بصفات العيب والنقص، ويتهم الرسل بأبشع الجرائم والموبقات، فداود يزني، وابنه أبشالوم يزني بنساء أبيه (سراريه) ولوط يزني بابنتيه، وسليمان يعود إلى الوثنية، وإبراهيم يعرض زوجه الجميلة «سارة» على الملوك طمعاً في الحصول على المال والهدايا، وكاد فرعون ملك مصر وأبيمالك ملك جيرار يضطجعان مع سارة، وإسحاق يحذو حذو أبيه.

ومعاذ الله أن يكون هؤلاء الرسل الكرام صلوات الله وسلامه على محمد وعليهم كما وصفهم كتاب اليهود زوراً وبهتاناً.

وكتاب العهد الجديد للنصارى يقول بالتعدد، ويتهم الرسل جميعاً فيقول على لسان سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في الرسل الكرام كما جاء في الانجيل: إنهم سُرّاق.

وكل كتاب غير كتاب المسلمين محرف أو باطل، وليس من الكتب المنسوبة إلى الله ما يروى بالتواتر غير القرآن الكريم، فهو مستظهر كله من قبل ملايين، ومئات الملايين يستظهرون بعضه، ولم يقع فيه تحريف في حرف منه، ولا يمكن أن يقع تغيير حرف فيه إلا ويكشفه عامة المسلمين وخاصتهم.

والصلاة في جميع الديانات، ولكن الصلاة في الإسلام

تختلف عما لدى تلك الديانات اختلافاً كبيراً، فأقوالها وأفعالها غير الأقوال والأفعال في صلوات غير المسلمين.

وأول خلاف أن المسلم ينوي الصلاة لله وحده، ثم أول ما يفتتح الصلاة بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وهو إيمان قوي لا يتزعزع بالوحدانية الصحيحة التي تغاير ما عرف في بعض الديانات من الوحدانية الوثنية.

ولا تقام الصلاة في غير الإسلام إلا في معبد خاص، أما في الإسلام فالصلاة تقام في كل مكان طاهر، والأرض كلها مسجد، أي معبد تقام فيه الصلاة .

ولا يمكن إقامُ الصلاة إلا بعد أن يكون المسلم طاهراً في بدنه وثيابه، ولا بد من الوضوء.

وفي الصابئة وضوء يسبق الصلاة، وأركانه: النية، وغسل اليدين إلى المرفقين، فالوجه، فالعورة، فالركبتين، فمسح الجبين والأذن والأنف ثم تغطيس الرجل اليمنى ثم اليسرى في الماء.

ويشترط في وضوئهم أن يكون الماء حياً، ويقصدون به الماء المتصل بالنهر: الماء الجاري، أما الماء المنقول منه فلا يجوز الوضوء به ، لأنه ماء غير حي.

وإذا كان هناك تشابه في الوضوء بين المسلمين والصابئة فمرد ذلك أن ديانة الصابئة الاساسية ديانة صحيحة، والإسلام كذلك، فإذا كان الوضوء فيه يشبه إلى حد ما الوضوء في الصابئة

فلأن الفريضة واحدة في أصولها، والإسلام يختلف في كثير، فالوضوء فيه من أي ماء بشرط طهارته ، والوضوء يقع على الأعضاء الظاهرة فتُغْسَل اليدان إلى المرفقين، والوجه، ويُمسح الرأس ثم تُغسل الرجلان إلى الكعبين.

والصيام في الديانات السابقة، فهو في بعضها إمساك عن القول، وفي بعضها إمساك عن الطعام والشراب والاتصال بالمرأة، وفي بعضها إمساك عن بعض الطعام.

وزعم بعض الباحثين الغربيين ـ ومنهم الدكتور جاكوب الالماني وأدوارد وسترمارك الفنلندي ـ أن الصوم الإسلامي مأخوذ من الصابئة والمانوية، لأن فيهما صيام الثلاثين.

وفي كتاب «غرائب النظم والعادات والتقاليد» للدكتور علي عبد الواحد وافي ١: ٧٦ ـ ٧٩:

«حاول كثير ممن في قلوبهم مرض وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية أن يرجعوا أنواع الصيام الدورية عند المسلمين إلى نظائرها عند الصابئة والمانويين، ووجهوا أكبر قسط من جهودهم الآثمة إلى إرجاع صيام رمضان على الأخص إلى صيام الثلاثين عند هؤلاء كما حاولوا أن يرجعوا صلواتنا إلى صلواتهم فزعموا أن محمداً عليه السلام قد نقل عن هاتين الديانتين ديانة الصابئين وديانة المانوية معظم ما جاء به من صلاة

وصوم، وإن الأوقات التي شرعت فيها صلوات المسلمين وصيامهم، واتصال هذه الأوقات بحركات الشمس والقمر والكواكب، كل هذا يتم على الأصول الصابئية والمانوية التي استمدت منها هذه العبادات.

«ومن هؤلاء الدكتور جاكوب الالماني، فقد قرر في رسالة كتبها في صيام رمضان بعد تحقيقات حسابية طويلة، وموازنات بين التقويم العربي من جهة وبين التقويمين البابلي والميلادي من جهة أخرى أن أول سنة شرع فيها الصيام وهي سنة ٦٢٣ ميلادية كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آذار، أي أن أول شهر صامه المسلمون كان موافقاً في مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الصابئين، ويرى الدكتور جاكوب في هذا دليلاً قاطعاً على أن محمداً قد نقل صومه عن شريعة الصابئين[١].

وذهب وسترمارك إلى ما يقرب من هذا الرأي مع شيء من الاعتدال والحيطة في التعبير إذ يقول: «إن وجود الشبه بين صيام رمضان وصيام الصابئين والمانويين لبالغ الوضوح مبلغاً يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذه الأنواع الثلاثة من الصيام نظرته إلى ثلاث شعب متفرعة من أصل واحد، فمن الراجح أن يكون محمد

---

(١) ذكر الدكتور وافي بهامش الصفحة المصدر وهو:

Jacob (K.G.): Der muslim Fastenmonat Romadân; dans VI Gesellschaft Zu Grefswald, 1ère Partie 1893—96, d. 2 et suiv.

قد نقل صيامه عن الصابئين أو عن المانوية أو عنهما معاً»[1].

ويرد الدكتور وافي مزاعمهم بقوله:

«لم يحدث في الجاهلية اتصال فكري أو ديني بين قريش التي نشأ فيها الرسول عليه السلام وبين المانوية والصابئين، وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة منها: اختلاف اللغة والرسم والثقافة والحضارة، ومنها: بعد المسافة بين منازل هؤلاء ومنازل أولئك، فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية على حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز» الخ.

ويقول: «ومما يرد به كذلك على أصحاب هذا الإفك أن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً في شروطه وقواعده ووقته وطريقة أدائه ومقاصده وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند المانوية والصابئين، فليس بينهما من وجوه الشبه إلا الاتفاق في عدد الأيام وتتابعها، وهذه ناحية شكلية من التعسف اتخاذها دليلاً على أن أحدهما منقول عن الآخر، على أنهما في هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافاً غير يسير، فالصيام الإسلامي مدته شهر قمري،

---

(١) ذكر الدكتور وافي بهامش الصفحة المصدر وهو:

Westermarck: Origine et Développement des Idées, T. 11. pp. 301, 302.

ولم يعرِّف الدكتور وافي وسترمارك، وهو إدوارد وستر مارك (١٨٦٢ - ١٩٣٩) فنلندي؛ انثروبولوجي، وكان أستاذ علم الاجتماع بجامعة لندن من ١٩٠٧ - ١٩٣٠ ثم أستاذ الفلسفة بجامعة توركو حتى سنة ١٩٣٥ وهو حجة في تاريخ العادات والأخلاق والزواج، وأهم كتبه «الزواج» ومن أشهر مؤلفاته: «العادات المغربية» وكتاب «المسيحية والأخلاق».

على أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوماً، تبدأ بالثامن من شهر شمسي، والصيام الإسلامي يبتدىء بابتداء الشهر وينتهي بانتهائه، أما صيامهم فيبدأ من الثامن ولا ينتهي إلا في الشهر التالي له».

ونضيف إلى رد الدكتور وافي أن حساب الدكتور جاكوب الألماني الذي قدره بأن أول يوم من أول رمضان صامه المسلمون وافق اليوم الثامن من شهر آذار سنة ٦٢٣ ميلادية، وبذلك وافق صيام المسلمين إياه صيام الصابئين الذين يبدأونه من الثامن من آذار، وينتهي عندهم باليوم الحادي عشر من نيسان ليس الحساب الدقيق الذي لا خلاف فيه

فقد ذكر المدققون في الحساب من المؤرخين والباحثين والفلكيين أن شهر رمضان الذي صامه المسلمون لأول مرة كان في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ٦٢٣ ميلادية وهو تحقيق الدكتور محمد علي الحاج سالمين في كتابه «حياة محمد».

وفي كتاب «التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرانكية والقبطية» تأليف اللواء محمد مختار باشا: إن أول رمضان فرض فيه الصوم هو الذي وافق أول يوم فيه يوم الأحد ٢٦ شباط (فبراير)سنة ٦٢٣ ميلادية.

ورمضان الثاني وافق أوله يوم الجمعة ١٥ شباط (فبراير) سنة ٦٢٤م.

وثالث رمضان في الإسلام وافق أوله يوم الثلاثاء ٤ شباط (فبراير) سنة ٦٢٥ ميلادية.

ولكن أول رمضان الذي كان في السنة الأولى من الهجرة كان يوم الأربعاء ٩ آذار (مارس) سنة ٦٢٢م ولم يكن قد فرض فيه صوم رمضان على المسلمين، وهو لا يتفق مع دعوى الدكتور جاكوب الألماني.

وعلى هذا يكون كل ما بناه الدكتور جاكوب الألماني على اتفاق يوم أول رمضان صامه المسلمون مع أول يوم صيام الثلاثين عند الصابئة قد تهدم، فالصوم قد فرض في السنة الثانية من الهجرة، وأول رمضان لا يوافق حساب الدكتور جاكوب.

والإسلام لا يدعي أن الصوم فيه أول صوم مفروض على بني الإنسان، بل كان مفروضاً على الأمم السابقة لأمة الإسلام بدليل قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات ﴾ البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤.

ودعوى فون كريمر أن نبي الإسلام قلد المسيحيين في الصوم الكبير (صوم الأربعين) مردودة، فالمسيح ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ لم يحدد الصوم ولم يفرضه، ففي كتاب «يسوع المسيح» تأليف الأب بولس الياس اليسوعي، صفحة ١٩٥:

«أشار المسيح أخيراً إلى واجب الصوم والصلاة، وعهد إلى

الكنيسة العناية بتطبيق هذا الواجب وفقاً لأحوال المكان والزمان، وهكذا نرى صوم اللاتين يختلف عن صوم الشرقيين، وصوم الأصحاء والبالغين أصرم من صوم الشيوخ والصغار، وقد راعت الكنيسة في تطبيق قانون الصوم السن والمهنة والمناخ والبلاد وما سوى ذلك من الاعتبارات، ولو كان المسيح حدد بذاته طريقة الصوم لكان أصبح هذا الواجب حجر عثرة في سبيل المؤمنين، وكثير منهم لا يقوَوْن على النهوض به».

والواقع أن الأناجيل ليس فيها نص في فريضة الصوم ولكن بهامدحه وإطراءه، والصوم الكبير عند المسيحيين الأرثوذكس خمسة وخمسون يوماً قبل عيد القيامة، وصوم الميلاد أو الصوم الصغير عند المسيحيين أربعون يوماً قبل عيد الميلاد، ويبدأ عند المسيحيين الغربيين في ١٦ نوفمبر، وعند الشرقيين في ٢٦ نوفمبر.

والكاثوليك يصومون اليوم السابق لعيد الفصح كما يصومون عن السمك يوم الجمعة.

وأيام الصوم عند القبط والأرمن أكثر من ذلك.

وكان المسيح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يصوم الأربعين، كما صام موسى من قبله، ولكن رؤساء الكنيسة وضعوا أنواعاً من الصوم.

وكان الصوم المشروع عند المسيحيين مثل صوم اليهود، يأكلون في اليوم والليلة مرة واحدة، فغيروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار.

وصوم المسيحيين مختلف فيما بينهم في عدد الأيام وفي طريقة الصيام، فمنهم من يصوم عن اللحم، ومنهم من يصوم عن السمك أو عن اللبن والبيض، وهو مختلف كل الاختلاف عن الصوم في الإسلام، وأشار القرآن إلى أن الصوم كان مكتوباً على الأمم السابقة، فهو معروف قبل الإسلام في الديانات السماوية الصحيحة، وباق فيما بقي منها بعد التحريف، ومعروف لدى الوثنيين ذوي الثقافة العالية والوثنيين الجهلة منذ أقدم الأزمنة حتى الآن.

ولكن الإسلام لم يأخذ الصوم من أي دين، لا من الصابئة ولا من المانوية، وإذا صح أن أول صوم كان في الإسلام موافقاً أول يوم في شهره ـ وهو شهر رمضان ـ أول يوم يبدأ في صيام الصابئة فليس هذا الإتفاق بدائم، بل وقع مصادفة، لأن الثامن من آذار (مارس) وهو أول يوم يبدأ في صيام الصابئة لا يتفق مع أول رمضان من كل عام دائماً، بل يكاد يكون هذا الإتفاق غير واقع.

فاتفاق الزمن منفي، واتفاق ما في صوم المسلمين مع الصابئة والمانوية غير موجود، لأن للصوم الإسلامي شعائره وفروضه وسننه ومستحباته ومبطلاته مما يختلف فيه عن الصوم لدى غير المسلمين، وليس الخلاف مقصوراً على ما ذكرنا، بل يتجاوزه إلى المقاصد والأعمال التي تتم فيه وما يجب بعده.

وكذلك لم يأخذ الإسلام من المسيحية ولا من غير المسيحية

الصيام الذي فرضه للخلاف بين الصيامين، بحيث لا يكون هناك اتفاق في غير الإسم.

وكل ما زعمه الدكتور جاكوب الألماني ووسترمارك الفنلندي وفون كريمر النمساوي وغيرهم في موضوع صوم المسلمين ودعواهم أنه مأخوذ من الصابئة والمانوية والمسيحية إنما هو زعم باطل لا يؤيده أي دليل مما زوّروا.

ولم تصح دعوى وسترمارك وفون كريمر، لأن صيام المسلمين مختلف كل الاختلاف عن الصيام في جميع الأديان والملل.

ولكن هؤلاء وغيرهم يدعون على الإسلام ما يدعون من الأباطيل وهم لا يريدون الحق والعدل والإنصاف، بل يريدون تشويه سمعة الإسلام الحق ورسوله الكريم، لأنهم لا يستطيعون أن يروا محاسنهما وكمالهما فيتصدون لهما بالأكاذيب، ويختلقون التهم عليهما، ويقذفونهما بها ليشفوا ما في صدورهم من غل وحقد على خير دين وأكرم رسول.

وموجز القول: إن الصيام في الإسلام متفرد عن كل أنواع الصيام في جميع الديانات تفرد الإسلام ورسوله في كل ما سبقهما من الأديان ـ حقها وباطلها ـ وتفرد رسوله عن اخوته الكرام في خصائص معروفة.

والزكاة في الإسلام لم تؤخذ من غيره، فهو عطاء الإسلام المالي والمادي يقدمه المسلم الموسر لمن هم في حاجة إليه، وهي

فريضة، ولا يكون المسلم مسلمًا إلا إذا آمن بأنها فرض عين على القادر، ومن جحدها كفر، ومن لم يخرجها بحقها على وجهها الصحيح فهو عاص مرتكب للكبيرة، وهي الإثم الشديد الخطير، ويعاقبه الإسلام إذا علم به من ينفذ شرعه، ويأخذها منه قسراً، وهي حق الفقير ومن في حكمه في مال الغني، ولا فضل له في هذا العطاء إلّا فضل الطاعة لأمر الله.

والحج الإسلامي ليس كالحج في غير الإسلام وكان معروفاً في عهد الوثنية والجاهلية، ولكن الإسلام طهره منها، وأعاد إليه قداسته، وزاد فيه من الأقوال والأفعال ما يتفق مع الإسلام نفسه، ولسنا في مقام الإفصاح عن حكمته ومقاصد الشريعة منه، وما يتم فيه من التعارف والتعاون وتجديد عهد الإخاء الوثيق، وتبادل المنافع والموارد والآراء في حاضر المسلمين ومستقبلهم وعلاقات بعضهم ببعض.

ورسول الإسلام لم يجحد الديانات الصحيحة التي سبقت الدين الذي جاء به، ولم يستنكر ما فيها من فرائض وشعائر ولم يمحها، فهو ﷺ يقول: «جئت لأتمم مكارم الأخلاق» فهو قد جاء لإتمام ما جاء به الرسل السابقون.

ووجود الفرائض والشعائر السابقة والمعروفة في الإسلام ليس معناه أنه أخذها منها، فهي في الإسلام ذات صبغة إسلامية، وفي غيرها تتفق مع تلك الديانات.

ولم يأت الإسلام لينتزع من نفوس الناس طبيعة الخير وملكة التدين، بل جاء للخير يزرعه فيها لتعطي أطيب الثمر، لأنه مدرك أن هذه الملكة وتلك الطبيعة يجب أن تبقيا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإلا إذا انتزعها فلا خير يبقى في النفوس إذا أجدبت، لأن ذلك يحيلها إلى شر مستطير يضاف إلى شرور الوثنية والكفر والشرك.

والإبقاء على طبيعة الخير وملكة التدين إبقاء على إنسانية النفس البشرية، لتكون متهيئة لقبول الدين الصحيح، والتحول من الوثنية إلى التوحيد الحق.

والإسلام لا يحارب النفس والفطرة، وإنما يحارب ما جدّ عليهما من خارجهما من العقائد الباطلة وما انعكس منها إلى النفس، لأنه إذا قضى على طبيعة الخير فقد كتب على النفس ألّا تصلحَ أبداً، أما إذا أبقى ملكة الخير والتدين وأبقى النفس على فطرتها فإنه يستطيع أن يهيئها لما يريد من الصلاح والخير بعد أن يبعد عنها ما طرأ عليها من الفساد والشر.

والنفس البشرية مفطورة على الخير وإن تكن أمارة بالسوء، وهذا ما يثبت الفطرة لها، لأن النزوع إلى السوء حادث يطرأ عليها وليس طبيعة فيها، ولهذا حرص الإسلام على إبعاد ما وفد على النفس من خارجها، وحماية الفطرة التي تتقبل الهداية والرشاد، ولهذا لم يقض الإسلام على الشعائر والفرائض الدينية والخلائق الفاضلة والطبائع الطيبة، بل أبقاها على الفطرة ثم تناول ما جدّ

عليها من المعتقدات الباطلة ليضع في النفس الإنسانية ما يريد من العقيدة الصحيحة مكان تلك المعتقدات.

وعلى هذا الأساس لم يقض على الحج وما يتصل به من المناسك كالسعي والطواف والذبح والوقوف بعرفة والمبيت بمنى والتلبية.

والحج معروف قبل الإسلام، ولكنه انقلب إلى عبادة وثنية بعد أن كان شعيرة دينية في ملة إبراهيم، وتحولت المناسك الإبراهيمية إلى طقوس وأقوال وأعمال وثنية.

ولما كان وجود الحج والصوم والصلاة ضرورة دينية وأخلاقية واجتماعية وإنسانية وجب بقاؤها في الإسلام حسب شرعته ومنهاجه، وليس معنى هذا الوجود أنه مأخوذ من الديانات السابقة، فاشتراك نبي الإنسان في الأعضاء ووظائفها لا يقضي بأن اللاحق أخذ من السابق، وكذلك الإسلام.

ولكن خصوم الإسلام يمسخون جماله ويفترون عليه، فإذا كان جولد زيهر اليهودي المتعصب وجاكوب الألماني ووسترمارك وفون كريمر وغيرهم من أضرابهم يتقولون على الإسلام فإننا لا نتقول على دياناتهم التي يعرفون من أنواع الخلل والخطل والزلل والباطل والفساد فيها ما نعرف وأكثر، ولكن الحقد يملي عليهم ما يكتبون، ويجدون من بين المسلمين من يذهبون مذهبهم، ويصدقون أباطيلهم، ويعتنقون أفكارهم، ويروجون مفترياتهم.

وهناك مسلمون عرب وغير عرب يقلدون المستشرقين وخصوم الإسلام فيتناولون الإسلام على طريقة خصومه المعادين، ويزعمون أن ما يقدمونه هو البحث العلمي، وهو يقضي بأن يتناولوه غير متعصبين له، مع أنهم هم المتعصبون ضده، وهم أبعد ما يكونون عن البحث العلمي الحق.

ولم يقف التجني والحقد والبغضاء على الإسلام في حدود العقيدة وأركانه، بل تجاوزت أحقاد خصومه العقيدة والأركان إلى شريعة الإسلام فزووها، فلا يحكم بها بتة، ومناهج الدراسة في كل بلدان الإسلام لم تبن على أساسه، بل بنيت على تقويضه لتمحي الشخصية الإسلامية والعربية المسلمة، وقد محيت.

وكل عقيدة الإسلام وكل ما يتصل به ويقوم عليه معرضان للفرية، فكل مزية فيه يشوهونها أبشع تشويه، وإذا كانت المزية غير قابلة للتشويه زعموا أنها مأخوذة من الديانات الأخرى.

وقداسة مكة والكعبة والحجر الأسود تعرضت لأكاذيب أعداء الإسلام، ومقصدهم تناول الإسلام بكلياته وجزئياته بالمسخ والتشويه والهدم والتخريب، فالحجر الأسود قالوا فيه أقوالاً مبنية على الأوهام والأساطير، ففي كتاب «حجة إلى المدينة ومكة» المطبوع في لندن سنة ١٨٥٥ م لمؤلفه سير رتشارد برتون المستشرق البريطاني بالجزء الثاني ص ٣٠١ و٣٩٢:[1].

---

(١) تعليقات خدابخش على كتاب فون كريمر المترجم بقلم مصطفى بدر ص ١٥٥.

«يذكر ولفورد Wilford (A Soc Wols III, IV) أن الهندوس يقولون: إن الحجر الأسود في مكة كان صنمًا لشيفا Shiva الذي زار الحجاز مع زوجته، ولما بنيت الكعبة وضع هذا الأثر في الحائط الخارجي احتقاراً له، ولكن الناس بقوا يقدسونه.

«وفي كتاب دبستان يقال: إن الحجر الأسود صنم كيوانKaywon أو زحل.

«ويؤكد المجوس أن الحجر الأسود كان بين الأوثان والآثار التي خلفها مهبد Mahbad وخلفاؤه في الكعبة بصفة شعار لزحل، وهم يسمون المدينة مهجد Mahgad ومعناها مكان القمر من تمثال جميل جداً للقمر، ويقولون: إن العرب أخذوا عنه إسم مكة.

«والصابئة يحترمون الكعبة أيضاً والأهرام، ويؤكدون أنها قبور شيث Seth ونوح Enoch أو (Hermes) وصابىء Sabi ابن نوح.

وعلى ذلك فمكة تعتبر مكاناً مقدساً، والحجر الأسود، والكعبة أيضاً تحترم وتعتبر مشاعر مقدسة عند أربعة أديان هي أديان الهندوس والصابئة والمجوس والإسلام».

وهم يقصدون من هذه الزعمات أن يتهموا الإسلام بأنه أخذ تقديس الحجر الأسود من هذه الديانات التي سبقته، ودعواهم في الحجر الأسود باطلة ومردودة، وما يدعونه ليس إلا كذباً ووهما، فزيارة شيفا وزوجته لمكة خرافة أو أكذوبة، فشيفا

أحد الثالوث البرهمي (براهما وفشنو وشيفا) وهم آلهة هندية، وثلاثتهم يكونون الأقانيم الثلاثة الهندية التي تشبهها أقانيم المسيحية، وكل هؤلاء أوهام مجسدة.

ونخلص من كل ما سبق إلى القول: إن الإسلام بعقيدته وشريعته دين فاذٌ متفرد، لم يخترعه نبي الإسلام ويلفقه من الديانات المختلفة كما يزعم المبطلون، بل هو وحي السماء أنزل على محمد ﷺ، فبلغه الناس كما أنزل أصدق تبليغ وأوفاه.

وإذا أرادوا هدم الإسلام أو مسخه وتشويهه بدعوى اختراع محمد ﷺ للإسلام أو تلفيقه إياه فتلك الدعوى تنقلب عليهم، لأن ما جاء به وما نزل عليه من الوحي المتمثل في القرآن والحديث لا يتيسر لمخلوق ولو كان خير الخلق وأعظم الرسل على الإطلاق، فإذا أنكروا الوحي وادعوا أن ذلك من عمل رسول الإسلام فقد وصفوه بالألوهية، لأن ذلك فوق طاقة المخلوق، وما دام منسوباً إليه من قبلهم فقد رفعوه من البشرية إلى الألوهية.

أفتراهم يرضون لنبي الإسلام أن يكون إلهاً كاملاً وهم لم يرضوا له أن يكون بشراً سوياً؟.

إنهم أرادوا أن يحقروه فإذا هم قد ألهوه، ومحمد لا يرضى بذلك لأنه يصف نفسه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، وأنه بشر، وصحابته والمسلمون يصفونه بما وصفه الله ووصف هو نفسه به.

يقل برتراند رسل أعظم فلاسفة العصر الحاضر وأحد مشاهير العالم في كتابه «تاريخ الحضارة الغربية» ٢ : ١٨٦ الطبعة العربية :

«كانت ديانة النبي (محمد) توحيداً بسيطاً ليس فيه التعقيد الذي نراه في عقيدة الثالوث والتجسيد، ولم يزعم النبي لنفسه أنه إلهي، ولا زعم أتباعه هذه الطبيعة الإلهية نيابة عنه».

وطعن الرسالة المحمدية من قبل الطاعنين لا يقبله عقل إنسان يحترم نفسه وغيره، وكذلك اتهامهم محمداً عليه الصلاة والسلام بما اتهموه تهدمه الحقائق والبراهين، ولو كان رسول الإسلام من أبناء هذا العصر الذي سهل فيه العلم ويسرت المعرفة لما أمكن أن ينسب إليه أنه مخترع الإسلام.

ولو أن علامة، أكبر علامة، تفرد بالعلم كله والمعرفة كلها ووعب تاريخ العالم ودياناته المختلفة بعقائدها وشعائرها وفرائضها وشرائعها وطقوسها وفلسفاتها وأحكامها وعباداتها، وفهم العلوم والآداب والفنون جميعها، وحفظ كل الكتب المقدسة وعرف أسرارها وأدرك كل ما حوت وكل ما بان واستتر من المعاني والمقاصد، ورتب ما أخذ منها جميعها وبوَّب وصنَّف ثم أضاف إلى ذلك ما أراد أن يضيف من عبقريته التي لا تدانيها عبقرية أيكون في قدرته أن يأتي بما حوى القرآن الكريم والحديث الشريف؟.

من البديهي ألا يكون ذلك في مستطاعه في عصر العلم

والذرة والفضاء، فهل يكون في مستطاع إنسان أمي بمكة أن يأتي من عند نفسه بالقرآن والحديث؟.

الجواب الذي لا جواب سواه أنهُ لن يستطيع، وما دام الأمر كذلك فمن المقطوع به أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو من عند الله سبحانه وتعالى، وما محمد إلا رسول.

ويسخر العالم الفرنسي «مونتيه» من سذاجة «النقد العلمي الحديث» من أمثال ما وجه إلى نبي الإسلام محمد ﷺ وذلك عندما تحدث عن عالم الطب المشهور أسترك Astroc (١٦٨١ - ١٧٦٦) قائلاً: [١]

«إن من البيِّن أن أسترك يتمثل مع شيء من السذاجة موسى (عليه الصلاة والسلام) وهو يرجع إلى الوثائق يستشيرها ويعمل كأنما هو أحد علماء القرن الثامن عشر».

ونحن نضع مكان «أسترك» أسماء أولئك الحاقدين على رسول الإسلام ومكان «موسى» محمداً عليهما الصلاة والسلام لتظهر سذاجة النقد العلمي والبحث العلمي وغفلة أولئك الخصوم أو حقدهم المذموم، وتثبت رسالة النبي الكريم وصدقه العظيم.

وبعد، فالإسلام دين حق له سماته الواضحة الخاصة به،

---

(١) الظاهرة القرآنية تأليف مالك بن نبي ص ٢٦٣.

وله شخصيته وعلاماته الفارقة التي تميزه عن جميع الأديان ولا يخطئها أحد من المنصفين ممن لا يدينون به ولا يتبعون رسوله مثل مئات الباحثين والفلاسفة والمفكرين الذين كتبوا في الإسلام ورسوله وعلى رأسهم برتراند راسل.

وما دام الإسلام دين الحق على التحقيق فإن نبيه الصادق ورسوله الأمين محمداً ﷺ سيد الخلق على العموم والإطلاق، ودينه هو دين الله المنزل عليه، ورسالته لبني الإنسانية أجمعين، وكل ما جاء به في دينه عقيدة وشريعة وآداباً وسلوكاً وأخلاقاً واجتماعاً يغاير ما لدى غيره وإن اتفقت الأسماء.

الإسلام والفلسفة والكلام

الإسلام في حقيقته وجوهره، وفي عقيدته وشرعته ومنهاجه دين سهل سمح، يقبله الوجدان والذوق والضمير والعقل والجوارح، وكلما ارتقى العقل وجد في سماحة الإسلام ويسره ما يتفق مع رقيه ويساير تقدمه وتطوره، وطبيعي أن يكون الإسلام سهلاً سمحاً سليمًا من التعقيد اللفظي والمعنوي، والتركيب المنطقي والفلسفي، لأنه لم يأت للأعليـاء المثقفين والعلماء المتبحرين وحدهم، بل جاء لهم وللناس كافة، فلا بد أن يكون مما يسيغه عقل العامة والخاصة، ويطيقه العجزة والضعفاء كما يطيقه الأقوياء والأكابر، إنه مثل الماء مستساغ لمن كانت له إليه حاجة، وكل كائن حي لا يحيا إلا به.

وآية يسره وسهولته أن البدوي غير المثقف العالم كان يأخذ الإسلام من رسوله الرؤوف الرحيم في جلسة قصيرة ثم يمضي مسلمًا مفلحاً، لأنه دين يمتاز باليسر والبساطة، والخلو من التعقيد والتركيب والغموض والإبهام.

قدم ضمام بن ثعلبة من بني سعد بن بكر على رسول الله، فأناخ بعيره على باب المسجد بالمدينة، ثم دخله ورسول الله بين أصحابه، فأقبل حتى وقف على الحلقة وسأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ قال رسول الله: «أنا ابن عبد المطلب» قال: محمد؟ قال: «نعم».

وهنا اتجه ضمام إلى رسول الله قائلاً: إني سائلك ومغلظ عليك في المساءلة فلا تجدن في نفسك!.

قال رسول الله ذو الخلق العظيم: «لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك» قال: أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللهم نعم».

قال ضمام: فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده، ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا تعبد من دونه؟ قال: «اللهم نعم».

قال: فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «اللهم نعم».

ثم أخذ ضمام يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها، يناشده عن كل فريضة كما ناشده فيما سبق، حتى إذا فرغ قال: إني أشهد ألا إله إلا

الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أنقص ولا أزيد.

ثم انصرف إلى بعيره راجعاً فقال رسول الله حين ولى: «إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة»[1]. وأرسل ضمام بعيره من عقاله وعاد إلى قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن أعلن الكفر والهزء باللات والعزى. فقالوا له: مـه يا ضمام، اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون! قال: ويحكم، إنهما والله لا ينفعان ولا يضران، إن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد ألا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا.

وفي بعض الروايات: أن رسول الله قال عندما غادره ضمام: «فقه الرجل»[1].

ومثل ضمام غيره من الوفود والوافدين على رسول الله وسائليه، يجلسون إليه يسيراً، ويتلقون منه الإسلام ويمضون مبشرين ومنذرين، ويكفي أن يشهد رسول الله فيقول: «فقه الرجل».

هذه السهولة التي امتاز بها دين الإسلام على جميع الأديان

---

(١) البخاري، والإصابة، وتاريخ الطبري.

يسرت فهمه على الناس مهما كان تحصيلهم من العلم أو نصيبهم من العقل والذكاء، وما أكثر البدو الجهلاء الذين لا يعلمون إلا اليسير من أمور الحياة قصدوا الرسول ﷺ يسألونه الدين فيعطيهم إياه كما أعطاه ضمام بن ثعلبة، فيغادرونه وهم قد فقهوا الإسلام يغنيهم موجزه المفهوم السمح السهل عن التطويل.

ولم يؤثر عن مسلم في عهد رسول الله اللجاجة في السؤال، والإلحاح في الاستفهام، والتفلسف في الغيبيات، لأنه فهم العقيدة الإسلامية على سواء فطرتها، والقرآن على سننه الواضح المبين، ولم يكلف نفسه الجدل الفلسفي والحوار المنطقي، لأن الفطرة هي التي كانت تطلب العلم وتلقي السؤال على دين الفطرة، فتتلقاه منه سهلاً ميسوراً، ولم يكن العقل الإسلامي خاضعاً للفلسفة أو معجباً بها أو عالماً بما فيها، فكان فهمه للإسلام سليمًا صافياً متفقاً مع الفطرة.

فهم المسلم الشهادة على بساطتها العميقة، لا إلّه إلا الله، محمد رسول الله، الله وحده أحد، خالق السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن، ونزه الله من الشريك والمثل والشبيه، وفهم آيات الصفات فهمًا سليمًا فلم يتعبد لغير الله، ولم يتعبد بغير القرآن، فالله فاطره، والقرآن هاديه.

ولهذا كان في غنى عن الفلسفة ومصطلحاتها وبحوثها في الصانع وواجب الوجود، والمادة والهيولي، إلى آخر ما تفتقت عنه الفلسفة.

ومحمد رسول الله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، فهو نبي حق، ورسول صدق، ولم يبحث المسلم في «النبوة» و «الوحي» بحث الفلاسفة، لأنه فهم منهما ومن المعجزة ومن كل ما يتعلق بالغيبيات أو ما فوق المادة الفهم الذي يتفق مع إيمانه، مستغنياً عن السؤال في «ماهية» النبوة والوحي بما فهم من معانيهما الواضحة له.

إن المسلمين في عهد رسول الله أسلموا وجوههم لله، وقلوبهم لكتابه العزيز، وبهداه اقتادوا، ووكلوا إليه أمرهم، وصدروا عنه في العقيدة كما صدروا عنه في الشريعة، فهو الحكم في كل شؤونهم سواء في ذلك ما أضمروا وما أظهروا، فلما اتسعت الحياة لم يتركهم القرآن للهوى يُحكِّمونه، ولم يتركوا هم أنفسهم القرآن إلى ما تسول لهم أنفسهم وعقولهم، لأنهم لم يحتاجوا إلى غير القرآن، فقد وجدوا فيه جواب كل سؤال، وحل كل مشكلة، واستقبال كل جديد.

ولم يتخذوا القرآن لغير ما أنزله الله، ففيه الهدى والنور والرحمة، وفيه العقيدة والشريعة، فلم يتخذوا منه دواء المرض، ومجلبة الثروة، ووسيلة إلى هزم جيوش الأعداء بالقبوع في المسجد وتلاوته، لم يتخذوه شيئاً من ذلك إلا باتخاذ ما أمر به القرآن من اتخاذ الأسباب.

ولم يقفوا القرآن للتلاوة والتبرك وعمل الأحجبة، لأنهم فهموا أن القرآن هدى ورحمة ونور، وكل هذه الأشياء لا تتم إلا

بأسبابها، لأن الإيمان وحده ـ حسب مفهوم المتواكلين الكسالى ـ لا ينفع صاحبه، بل قرن الله الإيمان بالعمل الصالح ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

ولم يصعب على المسلمين أن يفهموا الإيمان كما فهموا الإسلام، فآمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ولم يتفلسفوا أو يسألوا الأسئلة التي تخرج بصاحبها عن السهل إلى العسر، ومن البساطة إلى التعقيد، ومن الهدى إلى الضلال.

بل شدد الرسول ﷺ على الذين أرادوا أن يتفلسفوا ويبحثوا في الغيبيات التي آثر الله بها نفسه، أو لم يبين لهم في محكم كتابه أكثر من الإشارة إليها، مكتفياً بطلب الإيمان دون البحث في «الكيفية» و «الماهية».

وبحسبنا أن نذكر جدل بعض المسلمين في عهد الرسول ﷺ في مسألة القضاء والقدر وموقف الرسول منهم.

سمع رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم فقال: «يا قوم، بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن

نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به».

وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرّ وجهه، ثم قال: «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا».

وهذا الإنكار الشديد من رسول الله لم يقصد منه إلا صرف المسلمين عن الخوض في بحوث لا نفع منها، بل يتفجر منه الضرر على العقيدة والشريعة والمجتمع، ويفرق الكلمة ويمزق الوحدة، ويفضي بهم إلى معصية الله ورسوله، وقد يفضي ببعضهم إلى الكفر والإلحاد.

ولم يصعب على المسلمين في عهد رسول الله ﷺ أن يدركوا أن القرآن هو الحادي وهو الحكم، فتلقوه كما تلقاه رسولهم ورسولنا عليه صلوات الله وسلامه، وفهموا منه أنه كتاب الحياة والإنسانية يهديهم إلى الرشد، ويسلمهم إلى الحق والخير والفضيلة والجمال، ويحميهم ـ إذا تمسكوا به ـ من المذلة والكفر والزيغ والضلال.

يقول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

و ﴿ إِنَّ هٰذا القُرآن يُهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾.

وهذه الآيات هي الإسلام والإيمان والإحسـان، إنها الإسلام كله، وفهم المسلمون في عهد رسول الله هذه الآيات وما تحوي من العقيدة والشريعة ومنهاج العمل الفهم السليم الذي يتفق مع أسلوب القرآن وسنن العربية، ففهموا العقيدة كما يجب أن تفهم، مبرأة من ضلال الفلسفة وزيغ الفلاسفة، فوقفوا في العقيدة عند الحدود الواضحة التي أقامها القرآن، ولم يضيفوا إليها جديداً، أو يبتكروا فيها بدعاً ومنكرات، لأنهم أدركوا أن العقيدة كاملة كل الكمال، والكمال لا يقبل الإضافة والزيادة، لأنه ـ بمجرد قبوله إياهما ـ لا يكون كمالاً، وكذلك لا يقبل التكرار، لأن التكرار ـ هنا ـ عبث يتنزه عنه الكامل والكمال.

أما أصول الشريعة فكاملة، وفروعه تقبل الزيادة والإضافة كما هو ملحوظ في كل ما يسمى فرعاً، فساق الشجرة واحدة، ولكن فروعها تتعدد، وتقبل الزيادة والحذف بحسب مقتضيات الظروف والمطالب والأحوال والحاجات.

وقصة معاذ بن جبل حينما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن معلمًا وهادياً ومرشداً تبرهن على سماحة شريعة الإسلام، وقبولها الإجتهاد ما لم يكن هناك نص من الكتاب والسنة.

عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ «قال:

أقضي بما في كتاب الله»، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد رأيي لا آلو، قال معاذ: فضرب بيده في صدري وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله».

وليس اللجوء إلى الرأي في الشريعة خروجاً على القرآن، بل طاعة وسمع لما فيه، فالله عز وجل يقول: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩.

ويقول الله تعالى: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ و ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾.

وليس الرأي هنا الاختراع، ولكنه القائم على أساس الدين، وأن تكون دوافعه دينية، والمقصد منه التوسعة فيما أباح الله فيه ورخص، وأن يكون صاحب الرأي معروفاً بالعدالة وسلامة العقيدة والعلم النافع والخلق الفاضل.

والرأي في غير العقيدة وفي غير ما فيه نص جائز، بل مرغوب فيه كما جاء في حديث معاذ بن جبل، لأنه ضرورة لا بد منها، ويجب أن نفرق بين الاجتهاد والابتداع، فرأي المجتهد له ثقله في الميزان، أما البدعة فضلالة وعصيان.

وللإسلام قاعدتان: العقيدة والشريعة، فالعقيدة لا يجوز فيها إلا ما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والشريعة الإسلامية قائمة في أصولها على قاعدة العقيدة، لأنه لا فصل في الإسلام بين القاعدتين، وإن كان هناك فارق بينهما في قبول الشريعة للتوسعة والاختلاف بخلاف العقيدة التي لا يجوز فيها الاختلاف والتوسعة، وهذه الشريعة التي تقبل التوسعة إنما في الجانب الذي أباح فيه رسول الله نفسه وهو ما عرف بالفقه، لأن الشريعة في حقيقتها تحوي العقيدة والعبادة والمعاملة.

وليس الاختلاف بين الفقهاء في الشريعة مأخذاً تؤخذ به، لأنه ليس اختلاف خصومة وتضاد، بل القصد منه التنويع وملاحظة اختلاف طاقات المكلفين وقواهم بحسب ظروفهم وأحوالهم وبيئاتهم وقدراتهم.

وما جاء عن الله ورسوله وجب الاعتصام به وجوباً لا مفر منه، فإن تركه تارك أو أنكره منكر خرج على الإسلام وعنه.

وما جاء عن الله ورسوله في أمر العقيدة لا يباح فيه الرأي والتعطيل والتوسعة التي تخرج عن الشرح والتفسير المتفقين مع الأصول الدينية الصحيحة، لأن القرآن ألزم الناس بالعقيدة إلزاماً، ولم يجز لهم فيها الرأي، وكل الرسل سواء في العقيدة لا خلاف بينهم فيها، بل جميعهم متفقون فيها، وما أرسلوا به منها واحد لا يتغير بتغير الأزمان والأمكنة.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف: ٤٥.

و﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء: ١٦٣-١٦٥.

و﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

أَلِيمٍ ﴾ هود: ٣٥ ـ ٣٦.

فالعقيدة واحدة لا زيادة فيها ولا نقصان، لأنها كاملة، وصفة الكامل الامتناع عن قبول الزيادة والنقصان.

أما الشريعة فيراعى فيها ظروف المجتمع، ويقصد منها حراسته وحمايته وتهذيبه، فهي في أصولها ثابتة، وفي فروعها سماحة تقبل التغيير والتبديل والتعطيل والزيادة والنقصان بحسب الأزمنة والأمكنة والطاقات والقوى.

فعطاء المؤلفة قلوبهم فرضه الإسلام حينما كان في حاجة إلى التأليف لقلة المسلمين ونقص قوتهم، فلما دانت لهم القوة وزاد عددهم لم تكن حاجته إلى عطاء المؤلفة.

أما العقيدة القائمة على وحدانية الله وعبادته وحده لا شريك له فلا تقبل ما تقبله الشريعة، لأن الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي وُهِبَ القرآن ومثله معه وهو الحديث أباح الرأي، ولا ضير من الخلاف فيه بين الأئمة، لأنه خلاف سعة وتنويع لا خلاف خصومة وتضاد.

وهذا الخلاف المباح أحل مثله في تلاوة القرآن، وكان اختلاف القراءات بعضها عن بعض خلاف سعة وتنويع لا خلاف مخاصمة وتضاد.

ولم يتخذ الرسول ﷺ أسلوب الجدل في العقيدة إلا ما جاء به القرآن، حينما جادل المشركين وأهل الكتاب، ولم يدخل القرآن

نفسه معهم في الجدل العقائدي حسب ما ألف المثقفون من معارضي الإسلام، وترفع عن أسلوب الفلسفة متخذاً في الحجاج والمجادلة أسلوباً فريداً يتفق فيه العقل والإحساس والموجودات المادية وما يحس وجودها بالنظر في إقامة البرهان أو الرد على البهتان.

وكان خلق رسول الله ـ كما ذكرت أم المؤمنين عائشة ـ القرآن، فكان أسلوبه ﷺ هو أسلوب القرآن، بل القرآن نفسه.

وجدل القرآن فريد في أسلوبه، ولم يقصد إليه إلا إقراراً للوحدانية والحق، ورداً على الشبهات التي كان أهل الكتاب والمشركون يثيرونها، وتأييداً لموقف الرسول ﷺ، ولم يكن القرآن ليدخل في جدل تفصيلي في الرد على من يدعون التثليث أو الادعاء ببنوة أحد من خلقه له أو المشاركة له سبحانه وتعالى في الألوهية والذات والصفات، بل كان القرآن ينهي مجادلته الكريمة السمحة التي لا يراد منها التعجيز بل الهداية والتبصير بالحق بمثل هذه المعاني: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ الحج: ٦٨ ـ ٦٩.

ولم يكن جدل القرآن جدل ترف عقلي، بل كان للحاجة إليه، فلم يخرج عن مقدارها ولا على سواء الفطرة والرغبة في الهداية، بل كان يحصره في ميدان ضيق حتى لا يتسع كما يرغب المجادلون لئلا يتخذ القرآن كتاب جدل وفلسفة وبحوث علمية في

العقائد ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾.

وعرض القرآن للجدل الذي لا بد منه في مقام الرد والتجبيه وتأييد الرسول، فعندما قدم راهبان من نصارى نجران ولقيا رسول الله وعرض عليهما الإسلام فأجاباه في قحة وغلظة: قد أسلمنا قبلك، فرد عليهما: كذبتما، يمنعكما من الإسلام سجودكما للصليب، وقولكما: اتخذ الله ولداً، وشربكما الخمر، فقالا: ما تقول في عيسى؟ فسكت النبي ﷺ ثم أجابهما وأراد مباهلتهما فامتنعا.

وها هو ذا جدل القرآن الكريم فيما كان بين رسول الله والنصارى منزها عن السفسطة والفلسفة:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ
أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾
هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

آل عمران: ٥٩ ـ ٦٦.

هذا الحجاج القرآني هو النموذج الأعلى الذي اعتصم به الإسلام ورسوله الكريم، فلما أعياه التفاهم مع أهل الكتاب والعودة معهم إلى كلمة سواء بينه وبينهم تحداهم بأن يباهلهم، وهو تحدي الواثق من صدق إيمانه وقوله وموقفه، فنكصوا على أعقابهم ولم يقبلوا، لأنهم أدركوا من أنفسهم ضعف الإيمان وقوة خصمهم من ناحية الإيمان والعقيدة.

ولم يذكر في عهد الرسول أي جدل عقائدي فلسفي كجدل

أهل الكلام والفرق بين الرسول وبين أهل الكتاب أو بين هؤلاء وبين المسلمين في طبيعة المسيح ولاهوته وناسوته، بل كان الجدل حول صرف العبادة له مع الله وبنوته لله، ولم ينصرف إلى الجزئيات والتفصيلات، ولم يقم الجدل مع اليهود في موضوع محتوى ما يسمى التوراة التي بأيديهم تفصيلاً، بل وقف عند اتهامها بالتحريف، واتخاذهم الأحبار أرباباً من دون الله.

ومع هذا أمر القرآن بمجادلتهم بالتي هي أحسن ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ النحل: ١٢٥.

والقرآن نزل نوراً وهدى؛ ولم يكن كتاب فلسفة وجدل، ولم يَـدْع إلى الإيمان عن طريق الجدل، ولم يتخذه وسيلة الإقناع.

وقد أوجز تقي الدين المقريزي في كتابه العظيم «الخطط» ما نحن بصدده في قوله:[1]

«إن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمداً ﷺ رسولاً إلى الناس جميعاً وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه ﷺ الروح الأمين،

(١) ج ٤ ص ١٨٠ ـ ١٨١.

وبما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله ﷺ أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك، كما كانوا يسألونه ﷺ عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله فيه سبحانه أمر ونهي.

«وكما سألوه ﷺ عن أحوال القيامة والجنة والنار،ولو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلٰهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ في أحكام الحلال والحرام، وفي الترغيب والترهيب، وأحوال القيامة والملاحم والفتن ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ومعاجمها ومسانيدها وجوامعها.

«ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط عن طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه وتعالى به نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات،نعم ولا فرَّق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكـرام والجود والإنعام والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقاً واحداً»

«وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين

فأثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت.

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله، ولا عرف أحد منهم شيئاً عن الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة».

ولم يكن الرسول ﷺ ليرضى بالجدل الديني، بل كان يغضبه ذلك أشد الغضب، وينكره أشد الإنكار.

عن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك ووائلة بن الأسقع قالوا: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب علينا غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثم انتهرنا، قال: «يا أمة محمد، لا تهيجوا على أنفسكم» ثم قال: «أبهذا أمرتكم؟ أوليس عن هذا نهيتكم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا»، ثم قال: «ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الإخوان، ذروا المراء فإن المراء لا تؤمن فتنته، ذروا المراء فإن المراء يورث الشك ويحبط العمل، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فكفى بك إثمًا ألا تزال ممارياً، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في وسطها ورياضها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإنه أول ما نهاني الله عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد، ولكن رضي بالتحريض

وهو المراء في الدين، ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وإن أمّتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم» قالوا: يا رسول الله، ومن السواد الأعظم؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي» ثم قال: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء» قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس، ولا يمارون في دين الله».

هذه الخطبة البليغة تفصح عن غضب الله ورسوله وسخطهما على الذين يتخذون الجدل الديني، فالمؤمن لا يماري، أي لا يجادل في الدين أو يتخذ الدين موضوع جدل، لأن الجدل الديني محبطة العمل، مغضبة لله ورسوله، ومرضاة للشيطان.

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى والإسلام كلمة واحدة، والمسلمون قلب واحد، وعقيدة واحدة، وتركهم على كتاب الله وسنة نبيه، وتمسكوا أشد التمسك بكلمته العظيمة التي أمر بها كل مسلم منذ ألقى خطبته البليغة في حجة الوداع إذ قال فيها: «أعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإني قد بلغت وتركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنة نبيه».

وكانوا متمسكين حقاً بالكتاب والسنة ولم يخرجوا عنهما في العقيدة والشريعة رغم الخلاف الذي وقع في موضوع الخلافة بين المهاجرين والأنصار، والانتهاء منه إلى ما فيه خير المسلمين، كما

وقعت خلافات أخرى لم تصل إلى العقيدة أو الخروج بالقرآن والسنة عن حدهما القوام.

ولم يذكر في عهد الصديق أبي بكر ما يشير إلى تبدل في سير خط الإسلام من ناحية العقيدة إلا ما كان من اعتراض عمر بن الخطاب في قتال أهل الردة ممن آمنوا بالشهادة وتركوا الزكاة، ويقول له: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم» وينبري له أبو بكر فيرد عليه بالدليل القاطع ويقول: «أليس قد قال النبي ﷺ بعد هذا «إلا بحقها» ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والله، لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

ويقتنع عمر ومن معه من الذاهبين إلى ترك قتال مانعي الزكاة بحجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولا يجادلونه، لأنهم جميعاً مدركون ما يجب، ومطيعون سامعون لأمر الرسول ﷺ في ترك المراء، وساروا جميعاً تحت لواء العقيدة الإسلامية لا يخرجون عن القرآن والسنة، ويلتزمون نهج الرسول الأكرم، ولا يخرجون القرآن والسنة عن سوائهما، واستمروا على فهم العقيدة كما كانوا في حياة النبي، لم يبتدعوا ما يخالف ما طلب إليهم التمسك به والاتفاق فيه.

ومضى عهد أبي بكر على خير، فقد كان امتداداً سليمًا طيباً

لعهد رسول الله، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب، عهد الفتوح وانتشار الإسلام، ومع ذلك لم يجدَّ في العقيدة جديد إلا بعض حوادث فردية، وما عداها كان الأمر فيه كما كان من قبل.

وطبيعي أن الفتح الإسلامي في عهد عمر كان مقصوداً منه ما كان مقصوداً منه في زمن الرسول وأبي بكر، كان القصد منه إنقاذ الإنسانية مما انتهت إليه من الفساد الخلقي والعقائدي ومن كل أنواع البغي والفساد، ولم يرد الإسلام أو الفاتحون المسلمون علواً في الأرض ولا استكباراً.

ولم يكن الفتح الإسلامي مثل فتوح فارس والروم وغيرهم من الأمم التي اتخذت الفتح للتسلط والقهر، أما الفتح الإسلامي فكان للإرشاد والهداية، فمن أسلم من الكفار والمشركين والملحدين فحقه مثل حق الخليفة نفسه، والأكرم هو التقي، والامتياز لمن يحسنون ولو كانوا من قبل عبيداً منبوذين.

ودخل في الإسلام أناس من مختلف الديانات والملل والنحل، وفيهم من العلماء فيها، ومنهم من أسلم كرها، فهو ناقل إلى الإسلام معه ما كان يعتقد.

ولئن كان حكم الإسلام قوياً بحيث لم يجد المثقفون من أصحاب الديانات المختلفة مجالاً لنشر ما يعتقدون على نطاق الجماعة فإن من الطبيعي أن يتكلموا بما لديهم من العلم، ولا يعدمون من يختدع بقولهم أو يسمع لهم، ولكن كان الإجماع

الإسلامي حصناً لا يقتحمه أحد، ولا يستطيع أن يجد فيه ثغرة ينفذ منها، وإذا نفذ فعمر بن الخطاب بالمرصاد.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن.

وعن عمر بن إسحاق قال: لَمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم، فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم.

وكانوا يتحاشون الخوض في «الإلٰهيات» وينفرون ممن يتكلم فيها، ولا يخرجون فيها عن القرآن وآياته المحكمة، وكان إيمانهم مقصوراً على تصديق القرآن وكل ما جاء فيه دون الخوض في الكيفيات وما وراء العقل وما فوق الطبيعة فسلموا من الوقوع في الخلل والخطل والخطأ في أمور العقيدة، وسلم من اهتدى بهم واقتدى.

ونجم من الفتوح الإسلامية واتساع رقعة الإسلام دخول أناس من ذوي الديانات والثقافات والفلسفات، فنقلوا معهم إلى المسلمين ذوي اليسر والسماحة ما لديهم من هذه الفنون ما أدخل على العقيدة الإسلامية الصافية ما لا يتفق مع صفائها ويسرها وسماحتها، ولم تُجْد مقاومة الفقهاء والمعتصمين بالكتاب والسنة، فقد كان الزحف قوياً جارفاً.

وأُخِذ كثير من علماء المسلمين بسحر الثقافة غير الإسلامية،

ولم يأخذوا العبرة والعظة من الحوادث التي حدثت في عهد الرسول ﷺ:

- أنه منع الخوض في حديث القضاء والقدر فامتنعوا، ولكن الخلف لم يتبعوا السلف.

- وإن كعب الأحبار وأمثاله روّجوا في الإسلام ما شغل المسلمين ووجهوهم الوجهة التي منع عن الاتجاه إليها.

- الإسلام لم يشرح ما أشير إليه من الغيبيات، فجاء كعب الأحبار وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب يضيفون من خرافاتهم وأساطير كتبهم ما وجهوا الحياة العقلية الإسلامية والتفسير وجهة لا يرتضيها الإسلام.

فالمسلمون قرأوا في سورة الصف قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

ولم يسألوا عن الموضع الذي ذكرت فيه البشرى من التوراة أو الإنجيل، بل سمعوا وصدقوا، وتلوا الآيات الكثيرة التي ذكر فيها أهل الكتاب والتوراة والإنجيل والزبور ولم يبحثوا عن هذه الكتب للاطلاع والعلم، بل أنكر الرسول ﷺ على من أراد

الاطلاع أو اطلع .

ففي «النهاية» مادة «هوك» أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بصحيفة أخذها من بعض أهل الكتاب فغضب وقال: «أَمُتَهوِّكون يابن الخطاب» .

وروى النسائي وغيره عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة فقال: «أمتهوكون يا بن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتموني ضللتم» وفي رواية: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» فقال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ .

قال عبد الله بن ثابت: قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين» .

وقال يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق، حدثنا عماد عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدونكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» وقد روى هذه القصة البيهقي في شعب الإيمان، والدارمي في سننه، وغيرهما.

وهذا الإنكار العنيف من رسول الله، والغضب الغاضب يبرهنان على أن رسول الله أراد أن يحفظ الإسلام بعيداً عن الإسرائيليات والنصرانيات حتى لا يدخل عليه ما يفسده كما فسدت ملة اليهود والنصارى.

وكان هؤلاء الكتابيون يتعالَوْن على العرب بما لديهم من العلم والثقافة، ويدّعون الدعاوي العريضة، فلما ظهر رسول الله كان بعض العرب يسألون أهل الكتاب عنه، ويتلقون منهم الأجوبة بحسب أهوائهم ومقاصدهم وظروفهم، فوقر في نفوس العرب أن اليهود والنصارى على علم وأن في كتبهم علمًا ونبوءات.

وضللهم كعب الأحبار برواياته ونقوله عن التوراة حتى زعم «ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة».

والتوراة التي يشير إليها كعب موجودة بين أيدينا، وليس فيها هذا الزعم، ثم إن قوله هذا ليس صحيحاً، ولو كان ما زعمه

حقاً لما بقي في الدنيا غيب.

وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب بالدرة كعباً، وحسبنا أن رسول الله منع صاحبه القوي الذي أعز الله به الإسلام من قراءة بعض التوراة، وجبهه جَبْهاً، وأدرك عمر خطأه فتجنبه، حتى أنه لما ولي إمارة المؤمنين علم أن رجلاً أصاب كتاباً في فتح المدائن، وفيه كلام معجب، فأحضره وسأله: أمن كتاب الله؟ قال: لا، فأحضر الدرة وأخذ يضربه بها وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. ثم قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم.

وكعب ووهب بن منبه وأمثالهما أدخلوا في التفسير ما ليس بحق، وبخاصة كعب الأحبار الذي تقوَّل على التوراة المحرفة ونسب إليها ما ليس فيها، وقد أصاب الإمام ابن تيمية إذ يقول:

«وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن

النبي ﷺ ـ كاسم صاحب موسى أنه الخضر ـ فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ من أهل الكتاب ـ كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب ـ فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه»[1].

فابن تيمية اعتمد على الحديث الشريف في عدم جواز تصديق ما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب وغيره وعدم جواز التكذيب إلا بحجة.

وإذا قام الدليل على بطلان ما يرويه كعب أو اختلاقه فإن أسباب الرد تكون أقوى، والأدلة قائمة على كذب كعب مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل عدّلوه، لأنهم لم يطلعوا على ما يجرحه، ولم يتبينوا ما في روايات كعب من الكذب والتلفيق والعزو إلى التوراة وكتب الرسل مما ليس فيها مما يرويه، ولو تبين لهم ما ظهر لنا بالدليل القاطع لأنكروا عليه وجرحوه، بل جرحه السابقون فقد روى البخاري في كعب عن معاوية: «أن كنا لنبلو عليه الكذب».

ووقف الصحابة لحراسة القرآن والسنة من الخوض فيهما بما

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه ١٣: ٢٤٥ الطبعة الأولى ١٣٨١هـ. طبع الرياض.

لم يرد عن الرسول ﷺ، فسكتوا عما سكت عنه، ولم يخوضوا في المتشابه والقدر والغيبيات التي لم يرد فيها نقل صحيح، بل كان عمر رضي الله عنه يقسو على من يبتدع فيتكلم فيما لم يتكلم فيه الرسول الكريم، وحادثة السارق الذي جيء به إليه مشهورة، فقد سأله عمر: لِمَ سرقت؟ فأجاب: قضى الله عليَّ، فأمر بجلده وقطع يده، الجلد على كذبه على الله والقطع للسرقة.

وتكلم صبيغ بن عسل في المتشابه، فأحضره عمر وعلا رأسه بعراجين النخل حتى أدماه، ولم يتركه حتى قال: حسبك يا أمير المؤمنين، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي.

وموقف الصحابة من المتكلمين في الغيبيات بآرائهم موقف شديد حازم، فقد تكلم معبد بن عبد الله الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم في القدر فأعلن من بقي من الصحابة مثل عبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى وعقبة بن عامر الجهني وغيرهم إنكارهم على هؤلاء المتكلمين، وأمروا أن يتبرأ الناس منهم، وألا يسلموا عليهم، وألا يحضروا جنازتهم، وألا يعودوا مرضاهم.

وإن مما يروى: أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية بمسجد رسول الله ﷺ ويحذر المسلمين من هؤلاء المتكلمين ويقول: إن معبداً يقول بقول النصارى.

وإذا كان كعب يزعم أنه ما من شبر من الأرض إلا وهو مكتوب في التوراة ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة فإن المسلمين يؤمنون أن القرآن حق، ومنهم من يرى أن القرآن أحق من التوراة بما جاء فيها من الأسرار والعلم، أليس الله عز وجل يقول: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾؟.

وفهموا من قول الله تعالى أن القرآن يحوي كل شيء ما كان وما سيكون، وعلوم الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، بل نجد في عصرنا هذا وأيامنا هذه من يتلقفون النظريات الفلسفية والعلمية ويسرعون إلى القرآن مدعين أنه سبق أصحابها إليها وحواها وأشار إليها.

وليس معنى قول الله كما فهموا، فالقرآن الكريم لم يحو كل فروع أحكام العبادات ولا كل أنواع المعاملات الشرعية، والمفهوم من قول الله تعالى: ان القرآن لم يترك شيئاً من أمر الدين الذي أرسل به الرسل كافة وفي ختامهم سيدنا رسول الله محمد ﷺ، وأنزل عليهم الكتب التي تهدي إلى الحق وصراط مستقيم.

إن في كتاب الله كل شيء من أمر الدين، فلم ينقص منه ما يجب العلم به وما يجب اعتقاده والإيمان به، أما أن يكون فيه ما زعموا فلا.

وفهم قول الله ذلك الفهم الخاطىء حمل بعض المفسرين والكاتبين والباحثين في القديم والحديث على أن يتأولوا آيات الله

البينات ويفسروها حسب اجتهادهم فيتقولوا على كتاب الله ما لم يقله، ويحملوه من المعاني ما لا يحتمل، واستعانوا أهل الكتاب من يهود ونصارى ممن أسلموا أو لم يسلموا في تفسير كلام الله حتى لا تكون التوراة أكثر شمولاً فيها كان وفيها سيكون من القرآن الكريم.

وخرج هؤلاء وغيرهم بالقرآن عن حقه، وأخضعوه لآرائهم، كما أخضعه أصحاب الفرق لمذاهبهم، يؤيدونها بآياته، ويحتجون على خصومهم بما يستنبطونه من الأدلة التي تقوي حجتهم وتدحض حجج خصومهم، وفتحوا أبواب التفسير للإسرائيليات والفلسفة اليونانية والمعتقدات الباطلة.

وفيهم من صنعوا ما صنعوا بحسن نية، ومنهم من قاده سوء النية والدخلة والحقد على دين الله كالباطنية وغيرها من الفرق الكافرة.

وتحدث بعض المفسرين في الغيبيات وكأنها في عالم الشهادة، فاللوح المحفوظ الذي جاء ذكره في سورة البروج: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وصفوه كأنهم شهدوه أو تلقوه من المعصوم محمد عليه الصلاة والسلام، مع أن ما ذكروه منقوض بأقوالهم.

ففي تفسير ابن كثير ٩: ١٧٠ - ١٧١[1]:

(١) طبع مطبعة المنار، سنة ١٣٤٧ هـ.

«قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي؛ حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح أن أبا الأعبس ـ هو عبد الرحمن بن سلمان ـ قال: ما من شيء قضى الله القرآن فما قبله وما بعده إلا وهو في اللوح المحفوظ، واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه».

وفي البغوي (على هامش ابن كثير): «أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال: إن في صدر اللوح لا إلّه إلا الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عز وجل، وصدق بوعده، واتبع رسله أدخله الجنة، واللوح لوح من درة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين الشرق إلى الغرب، وحافتاه الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور، وكلامه قديم، وكل شيء فيه مستور، وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأصله في حجر ملك.

قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش».

والشيء المقطوع به أن اللوح المحفوظ حق، والإيمان به فرض، وذكره الله في محكم كتابه، فوجوده حق، وأما هذه الصفات التي جاءت في البغوي وابن كثير فمما لم يثبت عن المعصوم رسول الله بالتواتر، ودخوله في العقيدة مرغوب عنه.

وتناولت الفرق على مختلف اتجاهاتها وعقائدها القرآن فأخضعته لتفسيراتها التي تتفق مع مذاهبها، وبدأ بالخلاف بين

الإمام علي كرم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان، وتطور إلى اختلاق الأحاديث ونسبتها إلى الرسول ﷺ، والاستعانة بها في تفسير القرآن وتأييد كل فريق مذهبه بالقرآن، وتفسير الحديث الصحيح الثابت تفسيراً يخدم هوى المتنازعين.

فمعاوية فسر حديث رسول الله ﷺ في عمار بن ياسر رضي الله عنهما: «عمار في أهل الحق يقتله الفئة الباغية» وكان عمار مع الإمام علي، وقتلته فئة معاوية، وانتشر بين جيش الشام خبر الحديث فتضعضعوا، فأوّل معاوية الحديث وفسره بقوله: إنما قتله من أخرجه، يريد معاوية أن الإمام علياً هو الذي قتل عماراً رضي الله عنه لأنه أخرجه معه إلى القتال، ففرقة علي كرم الله وجهه هي التي قتلت عماراً فهي ـ إذن ـ الفئة الباغية.

وهذا التأويل باطل، لأن معنى الحديث الشريف غير ما وجهه معاوية، وأن عمرو بن العاص نفسه روى الحديث في صفين، حتى أغضب معاوية وقال له: أفسدت علي أهل الشام، أكلَّ ما سمعت من رسول الله تقوله؟ فرد عليه عمرو: قلتها ولست ـ والله ـ أعلم الغيب، ولا أدري أن صفين تكون، قلتها وعمار يومئذ لك ولي، وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فيه، فاسأل أهل الشام، فغضب معاوية وتنمر لعمرو[1].

ولما قتل الإمام علي كرم الله وجهه لعنه معاوية، وفرض لعنه

(١) وقعة صفين، لنصر بن مزاحم العنقري الطبعة الأولى ١٣٦٥ طبع الحلبي ص ٣٩١.

على المنابر، والإمام مبشر بالجنة، ولا يدخلها إلا من تنزلت عليه رحمة الله، وعلي كرم الله وجهه تنزلت عليه هذه الرحمة الإلٓهية فكان من المبشرين بالجنة، واللعن: الطرد من رحمة الله، وفي لعنه وإشهاره على المنابر التي يذكر منها اسم الله مناقضة لبشارة رسول الله ﷺ.

ولم يقف شيعة الإمام مكتوفي الأيدي والألسنة، ففسروا القرآن تفسيراً يؤيد ما يذهبون إليه من إظهار كفر الأمويين، بل أسرفت فرق من الشيعة فتجنوا على الصدِّيق والفاروق وابنتيهما زوجي المصطفى ﷺ.

بل إن الإمام ابن جرير الطبري الذي يعتبر تفسيره من خير التفاسير، ولا يتهم بالتحيز، وعرف بالعدل والنزاهة، واشتهر بالصلاح والإعتدال ذكر في تفسير قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾(١)

ما ننقله بنصه(٢):

«حدثنا ابن بشار وأحمد بن إسحاق قالا: حدثنا أبو أحمد

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٨.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ١٣: ١٤٦ طبع المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٨هـ.

قال: حدثناسفيان عن علي بن زيد عن يوسف بن سعد عن عمر ابن الخطاب في قوله:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ ﴾

قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين».

وتفاقم خطب الشيعة وخصومهم حتى نال الخصوم من الإمام علي كرم الله وجهه شر النيل، وألف الجاحظ كتابه «العثمانية» في ثلب الإمام مزاياه وتجريده من مفاخره زوراً وبهتاناً وكذباً وباطلاً، كما ألف غيره من الملاحدة والضالين كتباً كفّروا فيها الإمام وأخرجوه عن الإسلام، وفسروا قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾

بأنها نزلت في الإمام علي بن أبي طالب، وكذلك قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾

نزلت في قاتل الإمام علي رضي الله عنه، وكل هذا باطل محض.

والمعتزلة فسروا القرآن وأخضعوه لفلسفتهم، وأنكروا أحاديث مؤيدة لآيات من القرآن إذا ناهضت مذهبهم، كما أولوا الآيات والأحاديث حسب هواهم العقلي، فرؤية الله عز وجل ثابتة نصاً من القرآن والسنة، فالله عز وجل يقول في كتابه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة: ٢٢-٢٣.

ويقول رسول الله ﷺ: «إنكم سترون ربكم عياناً»[1].

وعن جرير: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال: إنكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»[1].

وينكر المعتزلة رؤية الله عز وجل، ويستدلون من القرآن بقول الله تعالى:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

(١) البخاري، كتاب التوحيد ٩: ١٢٧ طبعة بولاق الأميرية.

وليس في دليل المعتزلة دليل على امتناع رؤية الله حقيقة لا مجازاً، وليس فيه نفي الشهود العياني يوم القيامة لمن رضي الله عنهم وأنعم عليهم بالنظر إليه سبحانه وتعالى.

وتصدى للمعتزلة في تفنيد ما ذهبت إليه من إنكار الرؤية علماء كثيرون، وممن تصدى لهم الإمام محمد بن عمر الرازي (المتوفى سنة ٦٠٦هـ) في كتابه «كتاب الأربعين في أصول الدين»[1] وتناول دعوى المعتزلة في إنكار الرؤية بالحجج النقلية والعقلية في فصول معدودات وصفحات كثيرة، منها «الفصل السادس» بعنوان «في حكاية شبه المعتزلة في إنكار الرؤية والجواب عنها» ص: ٢١٠ ـ ٢١٥ وقال:

«إنهم يتمسكون بوجوه عقلية وبوجوه نقلية، أما الشبه النقلية فأربع»:

«الشبهة الأولى ـ التمسك بقوله تعالى:

﴿لا تدركه الأبصار﴾.

اعلم أنهم تارة يتمسكون بهذه الآية في بيان أنه تعالى لا يراه أحد، وأخرى في بيان أنه يمتنع أن يراه أحد».

«أما الوجه الأول فتقريره أن نقول: الإدراج المضاف إلى البصر هو الرؤية والإبصار، بدليل أنه لا يصح إثبات أحدهما مع نفي الآخر، فلا يصح أن يقال: رأيته وما أدركته بعيني، وأن

---

(١) طبع حيدر أباد سنة ١٣٥٣ هـ.

يقال: أدركته بعيني وما رأيته، وهذا يدل على أن إدراك البصر والرؤية شيء واحد».

«إذا ثبت هذا فنقول بأنه تعالى نفى أن يدركه أحد من الابصار، وهذا يتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات، وذلك يقتضي ألا يراه أحد في شيء من الأوقات».

«وأما الوجه الثاني فهو أنه تعالى يمدح نفسه بأنه لا يدركه شيء من الابصار وكل ما كان عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً، والنقص على الله تعالى محال، فوجب أن تكون الرؤية ممتنعة على الله تعالى».

«الشبهة الثانية ـ تمسكوا بقول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ وهذه الكلمة للتأييد بدليل قوله تعالى: ﴿قل لن تتبعونا﴾ فثبت أن موسى عليه السلام لا يراه قط، وإذا ثبت هذا في حق موسى ثبت في حق غيره لانعقاد الإجماع على أنه لا قائل بالفرق».

«الشبهة الثالثة ـ تمسكوا بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾

دلت هذه الآية على أن كل من يكلم الله تعالى فإنه لا يراه، وإذا ثبت عدم الرؤ ية في وقت الكلام ثبت عدم الرؤ ية في غير وقت الكلام ضرورة أنه لا قائل بالفرق».

«الشبهة الرابعة ـ أنه تعالى ما ذكر الرؤية في القرآن إلا وقد استعظمها وذلك في ثلاث آيات»:

«أولها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾. وثانيها قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِم كتاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾. وثالثها قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية، وهذا الاستعظام يدل على أن رؤ ية الله تعالى ممتنعة».

«وأما الشبه العقلية فهي أيضاً أربع:

«الشبهة الأولى، وهي شبهة الموانع، وقبل تقريرها لا بد من مقدمة وهي أن الأشياء التي يجب حصول الإبصار في الشاهد عند حصولها ثمانية:

«أحدها: سلامة الحاسة، وثانيها: كون الشيء بحيث أن يكون جائز الرؤية، وثالثها: ألا يكون في غاية البعد، والرابع: ألا يكون في غاية القرب، والخامس: أن يكون مقابلاً للرائي أو في حكم المقابل، والسادس: ألا يكون في غاية اللطافة، والسابع: ألا يكون بين الرائي والمرئي حجاب، والثامن: ألا يكون في غاية الصغر.

«قالوا: عند حصول هذه الأمور الثمانية يجب حصول

الإبصار، إذ لو لم يجب لجاز أن يحصل بحضرتنا جبال عالية وشموس مضيئة وأصوات هائلة ونحن لا نراها ولا نسمعها، وذلك يقتضي دخول الإنسان في الجهالات.

«إذا عرفت هذه المقدمة فلنرجع إلى تقرير الشبهة فنقول: أما الشرائط الست الأخيرة فلا يمكن اعتبارها إلا في رؤية الأجسام، والله تعالى ليس بجسم فلا يمكن اعتبار هذه الشرائط في رؤيته.

«فعلى هذا، لو صحت رؤيته لوجب ألا يصير في حصول رؤ يته إلا أمران: سلامة الحاسة وكونه بحيث يصح أن يرى، وهذان الأمران حاصلان الآن، فثبت أنه لو صحت رؤيته لوجب أن نراه الآن، ولما لم يكن الأمر كذلك وجب أن يقال: إنما لا نراه الآن لأنه لا تصح رؤيته.

«الشبهة الثانية ـ شبهة المقابلة ـ إن كل ما كان مرئياً وجب أن يكون مقابلاً للرائي وفي حكم المقابل له، وذلك لا يصح إلا في الشيء الذي يكون حاصلاً في الحيز والمكان، والله تعالى ليس في المكان والحيز، فامتنع كونه مقابلاً للرائي أو في حكم المقابل له، فامتنع كونه مرئياً، وإنما قلنا: إن المرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل احترازاً عن صور ثلاث:

«أحدها: أنا نرى الأعراض مقابلة للجسم، إلا أنها حالة في الأجسام المقابلة للرائي، فكانت في حكم المقابلة.

«وثانيها: أنا نرى وجوهنا في المرآة ويستحيل أن يكون

الوجه مقابلاً لنفسه إلا أن الشعاع يخرج من العين إلى المرآة ثم ينعكس إلى الوجه، فبهذا الطريق يكون الوجه جارياً مجرى المقابل لنفسه.

«وثالثها: الشيء الذي يوضع في الرطوبة فإنه وإن لم يكن في مقابلة العين إلا أن شعاع العين ينعطف عليه ويصير مرئياً، فهو أيضاً في حكم المقابل.

«إذا عرفت هذا فنقول: إن أبا الحسين البصري ادعى العلم الضروري بأن ما لا يكون مقابلاً ولا في حكم المقابل يمتنع أن يرى.

«الشبهة الثالثة ـ شبهة الانطباع ـ وهي أن كل ما يصير مرئياً لا بد وأن تنطبع صورته ومثاله في العين، والله تعالى لا صورة له ولا مثال، فوجب أن تمتنع رؤيته.

«الشبهة الرابعة، أن كل ما كان مرئياً فلا بد له من لون وشكل، ودليله الاستقراء، والله تعالى منزه عن ذلك، فوجب ألا يرى، فهذا مجموع شبههم في نفي الرؤية.

«والجواب عن الشبهة الأولى ـ وهي تمسكهم بقوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ من وجوه:

«الأول: لا نسلم أن الإدراك عبارة عن الرؤية، بل هو عبارة عن الوصول، يقال: أدرك الغلام إذا صار بالغاً، وأدركت الثمرة إذا وصلت إلى حد النضج، وقال تعالى: ﴿ قال أصحاب

موسى إنا لمدركون ﴾ أي لَمُلْحَقُون .

«إذا عرفت هذا فنقول: إن من رأى شيئاً ورأى أطرافه ونهاياته قيل: إنه أدركه، على تقدير أن يكون قد أحاط به من جملة جوانبه، وهذا المعنى إنما يتحقق في الشيء الذي له أطراف ونهايات، والباري تعالى منزه عن ذلك، فلم تكن رؤيته إدراكاً البتة، فلم يلزم من نفي الإدراك نفي الرؤية، فالحاصل أن الإدراك رؤية مكتفية ، ولا يلزم من نفي الرؤية المكتفية نفي أصل الرؤ ية.

«كما أنا نعرف الله ولا نحيط به، فكذلك نراه ولا ندركه.

«الوجه الثاني في الجواب: هب أن إدراك العين عبارة عن الرؤية، إلا أن قوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ نقيض لقولنا: تدركه الأبصار، وقولنا: تدركه الأبصار يقتضي أن يدركه كل أحد، لأن الألف واللام ـ إذا دخلا على اسم الجميع ـ يفيد الاستغراق، ونقيض الموجبة الكلية السالبة الجزئية، فكان قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ معناه: أنه لا يدركه جميع الأبصار، ونحن نقول بموجبه فإنه لا يراه جميع المبصرين، فإن الكافرين لا يرونه، بل يراه بعض الأبصار.

«الوجه الثالث في الجواب: أنا نقول بموجب الآية أنه لا تدركه الأبصار فلِمَ قلتم بأنه لا يدركه المبصرون، فإن قالوا: المراد من الأبصار في الآية المبصرون وإلا خرجت الآية عن أن تكون مفيدة، فنقول: إذا حملنا الأبصار على المبصرين وجب أن يكون

معنى قوله تعالى: ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أنه يدرك جميع المبصرين، ولا نزاع في أنه تعالى مبصر، فيلزم بحكم هذه الآية أن يبصر نفسه، وأنتم لا تقولون به.

«الوجه الرابع في الجواب: هب أن ظاهره يدل على نفي الرؤية عن جميع المبصرين إلا أنه عام، وقوله تعالى: ﴿وجوه ناضرة ● إلى ربها ناظرة﴾ خاص، والخاص مقدم على العام.

«وأما الوجه الثاني في تمسكهم بالآية فنقول: ذلك إنما يلزم لو حملنا الإدراك على الإحاطة قلنا: هب أن الإدراك محال على الله تعالى فلِمَ قلتم بأن الرؤية ممتنعة، وأيضاً نقول: هذا الاستدلال معارض بأن رؤية الله تعالى لو كانت ممتنعة لما حصل المدح بأنه لا يرى، ألا نرى أن المعدومات تمتنع رؤيتها وليس لها مدح، بل المدح إنما يحصل لو كانت رؤيته جائزة.

«ثم إنه سبحانه وتعالى يقدر على منع الأبصار عن ذلك.

«إذا ثبت هذا فنقول: هذه الآية تدل على أن رؤية الله تعالى جائزة من هذا الوجه، وإذا ثبت الجواز وجب القول بالوقوع في القيامة ضرورة أنه لا قائل بالفرق، وأيضاً فقولهم: إن كل ما كان عدمه مدحاً كان وجوده ممتنعاً منقوض بأنه تعالى يمدح بنفي الظلم والعبث عن نفسه حيث قال: ﴿وما ربك بظلّام للعبيد﴾، ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً﴾ مع أن مذهب المعتزلة أنه تعالى قادر على فعل الظلم والعبث.

«أما الجواب عن الشبهة الثانية ـ وهي التمسك بقوله تعالى: ﴿ لن تراني ﴾ فنقول: كلمة «لن» لا تدل على التأبيد بدليل قوله تعالى: ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ مع أنهم يتمنونه في الآخرة.

«والجواب عن الشبهة الثالثة ـ وهي التمسك بقوله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ فنقول: الوحي هو أن يسمع ذلك الكلام بسرعة، وليس فيه أن يكون محجوباً على رؤية الله تعالى أم لا.

«وأما الجواب عن الشبهة الرابعة أن نقول: لـِمَ لا يجوز أن يكون ذلك الاستعظام لأجل أنهم طلبوا الرؤية على سبيل التعنت والعناد، والدليل عليه أنه تعالى استعظم أيضاً طلبهم لإنزال الملائكة، ولا نزاع في جواز ذلك إلا أنهم لما طلبوه على سبيل العناد استعظم الله ذلك، فكذا في سؤال الرؤية.

«وأما الشبهة العقلية فنقول: أما الشبهة الأولى وهي شبهة الموانع فالجواب عنها على مقامين:

«المقام الأول، لا نسلم أن عند حصول الشرائط الثمانية يجب حصول الأبصار، ويدل على أنه غير واجب عقلاً وجهان:

الحجة الأولى، أنا نرى الجسم الكبير من البعد صغيراً، فإن رأينا جميع أجزائه وجب ألا نراه صغيراً، بل كبيراً، وإن لم نر شيئاً من أجزائه وجب ألا نراه البتة، وإن رأينا بعض أجزائه دون البعض مع أن جميع الأجزاء بالنسبة إلى القرب والبعد واللطافة

والكثافة وعدم الحجاب وسلامة الحاسة وصحة الرؤية متساوية لزم ألا يكون الإدراك مع حصول هذه الشرائط واجباً . . . إلخ» .

وهذه الفلسفة التي اتخذها المعتزلة في نفي رؤية الله يوم القيامة خرجت بالعقيدة عن السنة المحمدية ، واضطر أهل السنة أن يتخذوا الأسلوب نفسه في الرد عليهم وعلى أمثالهم من الفرق الضالة أو الملحدة .

وانبرى الإمام أبو الحسن الأشعري للمعتزلة يرد عليهم ويفنِّد أقوالهم بمنطقهم ، كما انبرى غيره ، ولكن الأشعري وأتباعه حملوا لواء أهل السنة في تفنيد دعاوى المعتزلة .

وموقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في موضوع الرؤية كان صلباً مثل موقفه من دعوى خلق القرآن ، فقد أُحضِر الإمام إلى مجلس المعتصم وقال أحمد بن أبي دؤاد ، يا أمير المؤمنين ، هذا (ويقصد الإمام أحمد) يزعم أن الله تعالى يرى في الآخرة ، والعين لا تقع إلا على محدود .

واحتج الإمام أحمد بالقرآن والسنة بحديث رسول الله ﷺ بعد احتجاجه بالقرآن ، ذلك الحديث الذي رواه قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله ، والحديث : «إنكم سترون ربكم عياناً[1]» والحديث الآخر المروي عن قيس بن أبي حازم عن جرير

---

(١) البخاري ٩ : ١٢٧ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٣١٥ هـ وهناك رواية ثالثة للحديث عن قيس بن أبي حازم عن جرير قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة =

قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»(١).

وسأل المعتصم ابن أبي دؤاد عن حجة الإمام أحمد بن حنبل فرد ابن أبي دؤاد: إنه يحتج بحديث جريد؛ وإنما رواه قيس بن أبي حازم وهو أعرابي بوّال على عقبيه، وهي حجة ساقطة، فهناك حديث ثالث رواه قيس، ولكن هناك حديثاً رواه عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه (البخاري ٩: ١٢٨ بولاق): إن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة» الحديث.

وهناك حديث عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحْوا؟» قلنا: لا، قال: «فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ»(١) الحديث.

= البدر فقال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته» صحيح البخاري ٩: ١٢٨.

(١) البخاري ٩: ١٢٩.

وكلما احتج أهل السنة على المعتزلة بحديث رسول الله ﷺ طعنوا في الاسناد وكذبوا الرواة، فإذا احتجوا بالقرآن تصدى المعتزلة لآياته التي يستدل بها أهل السنة في حقيقة رؤية الله تعالى يوم القيامة بالتأويل، وبدعوى المجاز.

فالله عز وجل يقول: ﴿وجوه يومئذ ناضرة ● إلى ربها ناظرة﴾ ولا مجال للمعتزلة تجاه القرآن حتى يطعنوا كما طعنوا الحديث، فذهبوا إلى التأويل وتعسف الحجة فزعموا في تفسير الآيتين الكريمتين مذهباً غريباً، ففسر أحد أقطابهم ـ وهو أبو علي الجبائي ـ أن كلمة «إلى» ليس حرف جر، ولكنه اسم من «الآلاء» بمعنى النعم، فيكون المعنى: إن الوجوه منتظرة نعم ربها.

والمحاكمة الظالمة للمحدث الفقيه العادل السلفي الصالح أحمد بن نصر الخزاعي تظهر تسلط المعتزلة واستعانتهم بالسلطة الغاشمة لقهر العلماء، فقد قبضوا على ابن نصر وأحضروه بين يدي الخليفة الواثق فامتحنه في خلق القرآن ورؤية الله يوم القيامة وسأله: أفترى ربك في القيامة؟ فأجاب: هكذا جاءت الرواية، فرد عليه الواثق: ويحك، تراه كما ترى المحدود المجسم؟.

واتهمه الواثق ومن بحضرته من المعتزلة بالمروق، وطلب السيف ليتولى بيده قتل ابن نصر المارق رغبة في مثوبة الله كما زعم الواثق، وانبرى أحد أتباع الواثق فقتل ابن نصر وهو شيخ، وكان أحد الأربعة الذين ثبتوا في وجه الظلم والباطل حتى الموت، ولم تغره الدنيا أو يُخِفْه جبروت الظالمين، فلقي الله شهيداً.

وأفتى المعتزلة بكفر ابن نصر الذي وصفه الإمام أحمد بن حنبل بقوله: «رحمه الله، ما كان أسخاه، لقد جاد بنفسه» وهو يريد أنه جاد بنفسه في سبيل الله.

ويقول أبو موسى المردار عيسى بن صبيغ الملقب بالمردار[1] أحد أقطاب المعتزلة: من ذهب إلى أن الله تعالى يُرى بالأبصار بلا كيف فهو كافر، وكذلك الشاك في كفره، والشاك في الشاك إلى ما لا نهاية، لأنه شبه الله بخلقه، والتشبيه كفر.

وتبارت الفرق في الخروج على نهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وصحابته المبجلين رضوان الله عليهم أجمعين في فهم عقيدة التوحيد وصفات الله عز وجل، وأدخلوا الفلسفة ومصطلحاتها وبحوثها في العقيدة ونشأ علم الكلام متخذاً الفلسفة وأسلوبها وآراءها وطبقوها على التوحيد فتغير النهج المحمدي في فهمه السليم، واضطر علماء أهل السنة أن يتخذوا أسلوب المتكلمين للرد عليهم ونقض أدلتهم وإظهار ضلالاتهم.

وعرف العلامة أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده المتوفى سنة ٩٦٢هـ علم الكلام وبحثه بحثاً واسعاً في كتابه «مفتاح السعادة»[2] ٢ : ١٩ ـ ٢٦ وقال:

---

(١) من كبار المعتزلة أخذ عن بشر بن المعتمر توفي المردار سنة ٢٢٦ هـ.

(٢) طبع حيدر أباد.

«من العلوم الشرعية علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام.

«وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها، ورفع الشبهة عنها.

«وموضوعه: ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدمين.

«وقيل موضوعه: الموجود من حيث هو موجود، وإنما يمتاز عن العلم الإلٓهي الباحث عن أحوال الموجود المطلق باعتبار الغاية، لأن البحث في الكلام على قواعد الشرع وفي الإلٓهي على مقتضى العقول.

وعند المتأخرين «موضوع الكلام»: المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً، وأرادوا بالدينية المنسوبة إلى دين نبينا محمد صلوات الله عليه وسلامه».

ويقول: «وبالجملة يشترط في الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل، وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلاماً أصلاً.

ولما لم يلزم من قصد موافقة الشرع الموافقة في نفس الأمر عدَّ بعضهم كلام أهل الإعتزال من الكلام وإن لم يوافق الكتاب والسنة، فظهر من هذا التفصيل أن الكلام من العلوم الشرعية، لكن إذا كان على طريقة الكتاب والسنة.

وإن هناك كلاماً مموهاً يشبه الكلام وليس بذاك ككلام أهل الاعتزال وأمثاله فذلك علم شرعي باعتبار مسائله، وغير شرعي باعتبار دلائله».

ويقول: «إن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان: أحدهما حنفي والآخر شافعي.

«أما الحنفي فهو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي إمام الهدى، له «كتاب التوحيد» و«كتاب المقالات» و«كتاب تأويلات القرآن» وله كتب في الرد على المعتزلة والقرامطة والروافض، وله كتاب «مأخذ الشرائع» في أصول الفقه، و«كتاب الجدل» و «أصول الفقه» مات بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة وتخرج بأبي نصر العياضي.

«وأما الآخر الشافعي فهو شيخ السنة ورئيس الجماعة، إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين أبو الحسن الأشعري البصري، إمام حبر تقي بر ينقي الصدور من الشبه كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، والمرتقي بأنوار اليقين من الوقوع في ورطات ما التبس، حامي جناب الشرع الشريف من الحديث المفترى، الذي قام في نصر ملة الإسلام، فنصرها نصراً مؤزرا، ولد سنة ستين ومئتين.

«وتبع ـ أولاً ـ مذهب الجبائي واستمر على الإعتزال أربعين

سنة صار للمعتزلة إماماً فلما أراد الله نصر دينه رأى النبي ﷺ في المنام ثلاث مرات، وكل ذلك يقول: انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق، واعتذر في الثالثة بأني كيف أدع مذهباً تصورت مسائله وعرفت دلائله منذ ثلاثين سنة، فقال ﷺ: لولا أني أعلم أن الله يمدك بمدد من عنده لما أمرتك به، ثم استيقظ وقال: فماذا بعد الحق إلا الضلال.

«وأخذ في نصرة الأحاديث في الرؤية والشفاعة وغير ذلك، فأمده الله تعالى بمدد من عنده، وكان يفتح عليه من المباحث والبراهين ما لم يسمعه من شيخ قط، ولا اعترف به خصم، ولا رآه في كتاب، فغاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر وقال: معاشر الناس، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء، فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا (وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به) ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب أهل السنة إلى الناس.

«وكانت المعتزلة قبل ذلك كانوا قد رفعوا رؤوسهم فحجرهم الأشعري حتى دخلوا في أقماع السمسم.

«والصحيح أن وفاة الشيخ الأشعري بين العشرين والثلاثين، والأقرب أنها سنة أربع وعشرين، ويقال: سنة نيف وثلاثين وثلاثمئة.

«واعلم أن السلف من الفقهاء والمجتهدين قد ينقل عنهم التكبر في حق علم الكلام، حتى أن كثيراً من فقهاء عصرنا أنكروا على المشتغلين بعلم الكلام أشد الإنكار تمسكاً بما ورد في ذلك عن العلماء الأخيار».

وذكر أقوال الأئمة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد فقال:

«عن حماد بن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان يتكلم في الكلام فنهاه أبوه عن ذلك فقال له حماد: رأيتك وأنت تتكلم، فما بالك تنهاني؟ فقال: يا بني، كنا نتكلم وكل واحد منا كأن الطير على رأسه مخافة أن يزل صاحبه، وأنتم اليوم تتكلمون، كل واحد يريد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه».

و «ورد في «التترخانية» في كراهية جماعة الاشتغال بعلم الكلام، قال: وتأويله عندنا أن كره المناظرة والمجادلة لأنها تؤدي إلى إثارة الفتن والبدع وتشويش العقائد».

و «عن أبي يوسف رحمه الله أنه لا تجوز الصلاة خلف المتكلم، وإن تكلم بحق فهو مبتدع ولا تجوز الصلاة خلف مبتدع، فعرضت هذه الرواية على أستاذي، قال: تأويله ألا يكون غرضه إظهار الحق».

و «أما الإمام مالك فقد قال: لا تجوز شهادة أهل البدع

والأهواء، قال بعض أصحابه: أراد بأهل الأهواء جهل الكلام على أي مذهب كانوا». و «أما الإمام الشافعي رحمه الله فقد روي عنه أنه قال: لو يعلم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد. . . وقال أيضاً: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد وأن يطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك السنة وأخذ في الكلام، وقال أيضاً: إذا سمعت الرجل يقول: الإسم هو المسمى أو غيره فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له، وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط، ولأن يلقى العبد بكل ما نهى الله عنه خلا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام».

و «أما الإمام أحمد رحمه الله فقد قال: لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا نرى أحداً ينظر في الكلام إلا وفي قلبه مرض، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه لتصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة وقال له: ويحك، ألست تحكي بدعتهم أولاً وترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالب كلام أهل البدعة والتفكر فيه فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث، وقال أحمد أيضاً: علماء الكلام زنادقة».

وهذه الأقوال التي ذكرها مؤلف مفتاح السعادة عن هؤلاء الأئمة والتي نسبها إليهم تؤكد أن مقصدهم هو التمسك الحق بالكتاب والسنة، وانتهاج نهج الرسول ﷺ وصحابته، والتنزه عن الجدل والبحث والتفلسف في ذات الله وصفاته.

وإذا اشتد هؤلاء الأئمة على المتكلمين فهم على حق، لأنهم رأوا أن الكلام قد خرج عن نهج القرآن والسنة إلى الفلسفة التي لا خير فيها إذا أخضعنا الدين لها، لأن الفلسفة آراء إجتهادية لفلاسفة وثنيين، ومن كان منهم معترفاً بالوحدانية فليست هي بوحدانية القرآن، ومن الفرض تنزيه الدين عن تعقيدات الفلاسفة والتركيب المنطقي، لأن الإسلام دين سمح سهل لكافة الناس، فإذا زاغ أصحاب العلم والمعرفة والثقافة الواسعة كالمعتزلة وضلوا السبيل فغير من في طبقتهم أشد زيفاً.

أما انتهاج الإمامين الأشعري والماتريدي سبيل الكلام فلم يكن الدافع إليه هو دافع المتكلمين، بل كان القصد منه حراسة الدين وحماية المسلمين، وتفنيد المنطق الكلامي بمنطق مثله، فالحديد لا يفله إلا الحديد، والشوكة لا تخرجها إلا الشوكة.

وليس عمل الأشعري والماتريدي مما يتصل بعلم الكلام المحرم، بل هو عمل صالح أريد به حَطْم ضلال المتكلمين ممن أخضعوا الدين للفلسفة التي أخذوها عن اليونان وغيرهم.

ويقول صاحب مفتاح العلوم ٢ : ٢٩ : أما الكلام الذي ظهر في العصر الأخير بالمساعي الجميلة من جهة أبي الحسن الأشعري فكل الغرض فيه موافقة الكتاب والسنة، واقتداء أهل السنة والجماعة، فكيف يسوغ القول بحرمته أو كراهته».

ويقول في الجزء الثاني، صفحة: ٣١ ـ ٣٢: إن إنكار

السلف لا ينبغي أن يكون على كلام الأشاعرة والماتريدية، بل على كلام الفلسفة وأهل الاعتزال وعلى كلام أهل الجدال بالباطل، إذ الكلام الشائع في زمان الأئمة المجتهدين هو كلام أهل الإعتزال والإرجاء وأمثالهما، وأما كلام أهل السنة والجماعة فقد حدث بعد انقراضهم بزمان كثير.

«وتفصيل ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي ﷺ على عقيدة واحدة، لأنهم أدركوا زمالة الوحي وشرف صحبة صاحبه، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام، وهكذا إلى انقراض زمن الصحابة رضي الله عنهم.

«ولما مضى العلماء الذين يرجع إليهم في المضائق ترأس الناس كلهم لائقاً وغير لائق، وأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلوا، ولما صار حدود المئة من الهجرة وانقضى الصدر الأول من الصحابة ظهر بين الناس الجدال والمراء والعصبية والهوى، وظهر تشويش عقائد المسلمين، وخرم نظام الدين، وتشعب مسالك الإسلام».

فعلم الكلام المكروه أو المحرم هو الذي غير منهج الإسلام والرسول وصحابته والتابعين والسلف الصالح إلى الجدل الفلسفي الذي أضل الناس عن سبيل الرشاد، أما التوحيد الحق أو البحث الحق فليس من الكلام المحرم، لأن هذا سبيل الغي والضلال، وذلك سبيل الحق والهوى والهدى.

وزعم زاعمون لم يفهموا الإسلام على حقه أن هذه العصور التي غشيها من علم الكلام ما غشيها هي عصور النهضة إنما هو زعم باطل، لأن الباحثين من الفلاسفة المسلمين والمتكلمين غيروا النهج المحمدي كل التغيير، ونقلوا العقيدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة إلى مباحث الفلسفة والمنطق فأفسدوا العقيدة الصحيحة.

وسحرت الفلسفة اليونانية ألباب بعض علماء المسلمين، وقد وفدت إليهم هذه الفلسفة بشروح مدرسة الإسكندرية وغيرها، لأن العالم الإسلامي كان قد شمل البقاع التي زخرت بالفلسفات، ألا وهي فارس والعراق والشام ومصر، وكانت إلى جانب ذلك زاخرة بالمذاهب الدينية المسيحية واليهودية أو الفرق التي افترقت إليها المسيحية واليهودية، بجانب الملل والنحل الأخرى كالزرادشتية والصابئية.

ولم تكن فارس مقصورة على فلسفتها وديانتها، بل عرفت الأفلاطونية الحديثة، بل يرجع ترحاب فارس بفلسفة اليونان إلى عهد أسبق من الإسلام، فعندما أغلق جوستنيان مدرسة أثينا الفلسفية سنة **٥٢٩**م هرب سبعة من مدرسة الأفلاطونية الحديثة استقبلهم أنو شروان استقبالاً حسناً، ولبثوا ببلاده عشرين عاماً مكرمين أحراراً حتى غادروه إلى وطنهم في سنة **٥٤٩**م.

وكان بفارس في عهد أنوشروان بعض علماء المسيحيين من النسطوريين واليعاقبة، وكانوا مكرمين معززين.

وأثر وجود هؤلاء وأولئك في الحياة الثقافية الفارسية، وكذلك الأمر في الشام والعراق فقد عرف هذان الإقليمان فلسفة اليونان وبخاصة الأفلاطونية الحديثة المترجمة على أيدي السريان الألى استخدموا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة في قضايا العقيدة وبحوثهم الدينية.

وقد تأثرت اليهودية والمسيحية بفلسفة اليونان، ودخلت في عقائد المسيحيين واليهود، وامتزجت بعقائدهم.

وعندما انتقلت الفلسفة إلى الأقطار الإسلامية وبخاصة منذ عهد المأمون ـ وجدت حفاوة وترحاباً، وترجمت كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما، ولم تقتصر الترجمة على كتب الطب والهندسة والرياضيات، بل ترجمت كتب فيما وراء الطبيعة وفي الإلّهيات والمنطق، وبذلت الحكومة والأفراد بسخاء من أجل نقل الكتب اليونانية إلى العربية.

وهذا الموقف الإسلامي من الفلسفة اليونانية يناقض موقف المسلمين وثقافة الأمم الداخلة في حوزته، ففي عهد عمر بن الخطاب كان العداء شديداً للثقافة الأجنبية، وهو عداء طبيعي، لأنها ثقافة وثنية، وثقافة الإسلام قائمة على التوحيد الحق.

فعندما فتح المسلمون فارس كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر ـ رضي الله عنهما ـ يسترئيه في كتب فارس التي غنموها، فكتب إليه عمر أن يلقيها في الماء والنار، فإن كان ما فيها باطلاً

كفى الله، وإن كان فيها هدى فقد وفق الله لأهدى منه، فلا ضرورة إليه[1].

إنهما موقفان متناقضان، فعمر يتجهم لكتب فارس لأن ما في القرآن والسنة يغني كل الغناء عن غيرهما في أمور الدين والعقيدة، أما إذا كان بها ما يفيد من أمور الدنيا كالصناعات والدواوين فلا يعاديها ابن الخطاب لأنه نقل ما أفاد منه في سياسة الأمة كما رضي الرسول ﷺ بنقل ما فيه الخير عندما أذن لتميم الداري بإنارة مسجد المدينة وعمل منبر له بها عندما رأى ذلك في كنائس الشام.

والفتنة بالفلسفة اليونانية لم تكن مقصورة على من تثقفوا ثقافة دنيوية، أو كانوا ذوي رقة في الدين، بل كان المثقفون من مفكري الإسلام والأئمة في علومه مفتونين بتلك الفلسفة، فهذا الإمام ابن حزم الأندلسي الفقيه المعروف يقول في كتابه العظيم «الفصل في الملل والنحل»: ٧٩ ما نصه:

«الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن سياستها في المنزل والرعية، وهذا نفسه لا غيره هو الغرض من الشريعة، هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٤ طبعة بيروت.

ولا بين أحد من العلماء بالشريعة».

وليس ابن حزم على حق في هذه الدعوى، فما غرض الشريعة والفلسفة واحد، وليس سبيلهما واحد، بل لكل منهما تعريفها الخاص، ونتائجها الخاصة، ولم يقل علماء الشريعة ما قاله علماء الفلسفة، ودعواه أنه لا خلاف بين أحد من هؤلاء ليست صحيحة، بل ما أشد الخلاف بين الفلسفة والشريعة وأصحابهما، وإذا بدا أن هناك نقاط لقاء فليس معناه أنه لا خلاف بينهما.

وكيف فات ابن حزم وهو الإمام البحاثة أن الفلسفة اليونانية أفسدت العقيدة الإسلامية حينما اتخذها بعض العلماء المسلمين منهجهم في بحث العقيدة.

وعلى أي حال فليس مقصدنا بحث الخلاف بين الشريعة والفلسفة، بل الإشارة إلى حفاوة رجال من مفكري المسلمين الكبار بالفلسفة اليونانية، وفيهم فقهاء مثل ابن حزم الظاهري الأندلسي.

وزعم أبو حيان التوحيدي في كتابه «المقابسات»[1]: «إذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال».

ويقول في صفحة ٢٠٠: «هل الحكمة إلا مولدة الديانة؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة؟ وهل الفلسفة إلا صورة النفس؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس؟».

(١) صفحة ٤٥ طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة.

ولعل مرد حفاوة هؤلاء العلماء من مفكري الإسلام بالفلسفة اليونانية وافتتانهم بها هو المنقول إليهم منها نقلاً غير أمين وغير دقيق في الأساس، لأن ما نقل إليهم كان عن طريق مدرسة الإسكندرية المتدينة، وما نقلوه كان مصبوغاً بالصبغة الدينية الصوفية، وغلبت على الترجمة النزعة الدينية الصوفية فحسبوا أن غرض الفلسفة والشريعة واحد.

وما ترجم من كتب أرسطو في عهد المنصور أحدث في الجو العلمي العربي إشراقاً جديداً بهر الأنظار، إذ لم يكن للعرب عهد بمثل هذا المنطق المحدد، فلما عرفوه في بعض كتب المنطق التي ألفها أرسطو تهافتوا عليه وفتنوا به.

ترجم عبد الله بن المقفع لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي بعض كتب منطق أرسطو، ومنها: كتاب «فاطيغورياس» وعرب الإسم دون أن يترجمه، ومعناه: المقولات، وكتاب «باري أرمنياس» ومعناه: العبارة، وكتاب «أنالوطيقا» ومعناه: «التحليلات الأولى أو القياس».

وما كاد العرب يطلعون على كتب أرسطو في المنطق حتى بهرهم ما فيها وأكبروا علم اليونان واعتقدوا برجاحته، وأيقنوا بعصمة الحكمة اليونانية وصواب المنطق اليوناني، فقلدوا أرسطو في منطقه ونقلوا مصطلحات الفلسفة وتعبيراتها إلى الدين بعد أن ذهبوا إلى وحدة الدين والفلسفة بوحدة غرضيهما كما زعم ابن حزم.

ونظرية أرسطـو في الصورة والهيولى (المادة) ومغايرة الله للعالم ونظرية الوحدانية وغيرها من آرائه ونظرياته فيما وراء الطبيعة والالٓهيات حملت المتكلمين وغيرهم من فلاسفة الإسلام على أن يتخذوا أدلة أرسطـو أدلتهم، وينقلوا منطقه إلى موضوع التوحيد فيثبتون به ما يريدون إثباته لله من صفات، وينفون به ما يريدون نفيه من الصفات.

ولم يقتصر أخذ فلسفة أرسطو على فرقة معينة خاصة، بل أثرت فلسفته في كثير من الفرق، وعلى سبيل المثال نذكر المعتزلة الذين انكبوا على الفلسفة اليونانية فنقلوا عنها نظريات فلاسفة اليونان في الوجود المطلق، والعالم، والصورة والهيولى، والجزء الذي لا يتجزأ، والحركة والسكون، والجوهر والعرَض، والموجود والمعدوم، والمحرك الأول، والمبدأ الأول، ووحدانية الوجود المطلق، وأرادوا أن يوفقوا بين الإسلام وفلسفة اليونان واستخدام أدلتها في الأثبات والنفي ضد من يخالفون المعتزلة.

ونجد فيما نقل عن أقطاب المعتزلة مصطلحات الفلسفة اليونانية واستعمالها في كتاباتهم وأقوالهم كما نجدها عند غيرهم من المفكرين الإسلاميين وعلى سبيل المثال ننقل عن ابن حزم الفقيه، وابن سينا الفيلسوف مثلاً من أقوالهما برهاناً على تأثر المفكرين الإسلاميين من فقهاء وفلاسفة، وبرهاناً على شيوع التأثر.

يقول ابن حزم رحمه الله[1]:

---

(١) ص ١٩٤ من كتاب «الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى» لابن

«إن الأزلي هو الذي لم يجب بشيء هو مطلق، أي بل هو مطلق، فالأزلي لا قبل لهويته، فالأزلي هو لا قوامة من غيره، هو لا علة له ولا موضوع ولا فاعل له ولا سبب، أعني ما من أجله كان، فلا جنس له، لأنه إن كان له جنس فهو نوع، والنوع مركب من جنسه العام له ولغيره، ومن فصل ليس في غيره، فله موضوع هو الجنس القابل لصورته وصورة غيره، ومحمول هو الصورة الخاصية له دون غيره، فالنوع كله موضوع ومحمول، فالأزلي لا يفسد، لأن الفساد إنما هو تبدل المحمول لا الحامل الأول، فأما الحامل الأول الذي هو الأيس فليس يتبدل، فإنما يتبدل بضده الأقرب معه في جنس واحد كالحرارة إلى البرودة، لا بالأبعد من المقابلة كالحرارة باليبس، أو بالحلاوة أو بالطول، والأضواء المتقاربة هي في جنس واحد، فالفاسد جنس، والأزلي لا جنس له، فهو لا يتبدل ولا ينتقل من نقص إلى تمام، لأن الانتقال استحالة، وهو لا يستحيل، والتام هو الذي ليست له حالة ثابتة يكون بها فاضلاً، والناقص هو الذي له حال أخرى يكون بها فاضلاً، والأزلي لا يمكن أن يكون ناقصاً، لأنه لا يمكن أن ينتقل إلى حال يكون بها فاضلاً، لأنه لا يمكن أن يستحيل بتَّةً، فالأزلي تام اضطراراً، وإذا كان الأزلي لا جنس له، فما له جنس وأنواع غير أزلي، فالجرم لا أزلي إلخ..

ويقول ابن سينا: (١)

= حزم الأندلسي، تحقيق الدكتور إحسان عباس بجامعة الخرطوم.

(١) صفحة ٨٩ من كتاب «ابن سينا بين الدين والفلسفة» للأستاذ حموده غوابه.

«لا شك أن هنا موجوداً، فهذا الموجود إذا نظرنا اليه في العقل من حيث هو موجود بقطع النظر عن تحققه في فرد من أفراده، فلا يخلو إما أن يكون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجود، أو منَ غيره وحينئذ فلا يكون واجباً بالضرورة، وهو مع ذلك غير ممتنع، لأن الممتنع لا يوجد، فبقي أنه ممكن، أي لا يستحيل وجوده وعدمه، بل الطرفان مستويان بالنسبة إليه، وما استوى طرفاه لا يخرج إلى الوجود إلا بمرجح، فهذا المرجح إما أن يكون وجود من ذاته فيكون واجد الوجود، أو من غيره فيكون ممكن الوجود، وحينئذ يعود الكلام فيه، فإما أن تنتهي إلى مرجح واجب الوجود، أو يتسلل الأمر في العلل والمعلولات الممكنة إلى غير نهاية أو يدور، ولكن التسلسل والدور باطلان، فلم يبق إلا الانتهاء إلى مرجح واجب الوجود.

وإذن، فمن معنى الوجود الذي لا شك في تحققه لا بد أن نصل إلى الاعتقاد بوجود واجب الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى».

والمسلم لم يكن في حاجة إلى هذا الأسلوب المعقد الذي اتخذه ابن حزم وابن سينا في التكلم في «الله» لأنه فُهِم من القرآن أن الله هو الأول، وفُهِم منه أنه لا شريك له في ذاته وصفاته، وأنه الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء ولا كفء له.

وليس اتخاذ هذا الأسلوب الفلسفي إظهاراً لمزايا العقيدة الإسلامية وشرحاً لغوامضها، لأن العرب فهموا من التوحيد ما

أراد لهم القرآن والحديث أن يفهموه، ووجدوا بين أيديهم كلاماً سهلاً مفهوماً لا تعقيد فيه، فهو لم يكن في حاجة إلى بحث فلسفي عندما تلوا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ ليفهموا معنى هذه الآيات المحكمات، بل فهم بفطرته ومن دعوة الرسول ﷺ أن الله أحد مقصود من الخلق طرا لانه رب العالمين، وليس له ولد لأنه منزه عن اتخاذ الصاحبة، ولم يولد لأنه الأول بلا بداية، إذ لو ولد من أبوين أو من أم لكان من ولد منه هو الأول، وتعالى الله أن يكون قد سبقه شيء، ومادام الأمر كذلك ـ وهو الحق ـ فلا كفء له.

لم يكن المسلم في العصر الأول في حاجة إلى «واجب الوجود» وأمثاله من المصطلحات وبحوث الفلاسفة والمتكلمين التي لا تشرح ما غمض وتبين ما خفي، بل هي التعقيد والإبهام والغموض، وكأنها كتبت بلغة غريبة على العرب وعن العربية، ولو أن صحابياً جليلاً كأبي هريرة أو أبي سعيد الخدْري قرأ ما كتبه المتكلمون ممن تضيَّفوا الفلسفة اليونانية لما أدرك من معانيه شيئاً، ولعله حسب لغة غير لغة القرآن: العربية، بل ما يقرأ ليس من لغة القرآن ولا من أسلوبه.

ولم تكن العقيدة الإسلامية لفئة خاصة أو لطبقة معينة كالفلاسفة وقرائهم حتى تتخذ لغة كلغاتهم ومصطلحات كمصطلحاتهم، بل هي للناس جميعاً، وليس الناس جميعاً ذوي ثقافة عالية وعقلية فلسفية، فوجب أن تكون اللغة التي تعبر عن

العقيدة وتنقل معانيها لغة سهلة واضحة، لا اللغة التي يتخذها هؤلاء الفلاسفة والمتكلمون مما لا يفهمه غير الشواذ.

وغموض بحوث هؤلاء المتكلمين والفلاسفة لم يَحُل دون إحداث الأثر السيء في العامة، فقد تفلسف متكلمة المعتزلة في العقيدة وقالوا بخلق القرآن، وحملوا السلطة الحاكمة على تأييد نظريتهم بعد اعتناقها إياها فجعلوا تعلمها في منهج التعليم المدرسي، وفرضوا تعلمها على الصبية والأطفال، ومن هم أكبر منهم في صفوف العلم.

وفهموا بحسب مواهبهم أن القرآن مخلوق، ولم يكن في وسع الطلاب أن يدركوا أن كلام الله موصوف ببعض صفاته، وليس مخلوقاً، ولم يدركوا الفارق بين ما هو مخلوق وغير مخلوق بالنسبة لكلام الله، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عقيدتهم التي ورثوها وتلقوها بالنسبة للقرآن.

واضطر أهل السنة إلى اصطناع أسلوب الفلاسفة والمتكلمين لسببين:

الأول: الرد على ماكان في أقوالهم من كفر أو بدعة أو شبهة أو زندقة أو ضلالة رغبة في دحضها أو رغبة في هداية أصحابها أو الرجاء في الرغبتين معاً.

والثاني: أن كثيراً من القراء سحرتهم الدعاية التي بثها المتكلمون والفلاسفة للفلسفة والكلام فاتخذوا أسلوبها ليزاحموهم في

كتاباتهم رجاء صرف القراء عما لا يتفق مع الإسلام إلى ما يتفق معه.

ولهذا اضطر الأشعري والماتريدي والغزالي إلى اتخاذ أسلوب المتكلمين والفلاسفة للرد والتفنيد والدحض.

والأشعري كان من متكلمة المعتزلة، والغزالي كان من الفلاسفة، ولكن الله هداهما إلى الرشد، فاتخذ الأشعري أسلوب المعتزلة ومنطقهم في تزييف حججهم ودحض أباطيل الفرق الأخرى الضالة، كما اتخذ الغزالي أسلوب الفلسفة في نقض الفلسفة.

وحجة الإسلام الإمام الغزالي أقوى مفكر إسلامي أظهر تهافت الفلاسفة وأبان فساد مذاهبهم وبطلان أقوالهم، لأنه هو نفسه فيلسوف وعالم بالفلسفة ودارس نظرياتها بحيث لم يعرف تاريخ الإسلام مثله، ولهذا كان نقده الفلسفة وأصحابها قائمًا على الفهم والدراسة والاستيعاب، ولم ينظر إلى الفلسفة في نقضها من وجهة نظر الإسلام، بل نظر إليها من وجهة نظر الفلسفة كما يفهمها هو، وكانت وجهة نظره متفقة مع الحق، والحق دائمًا مع الإسلام، والإسلام دائمًا مع الحق.

يقول الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة[1]»:

---

(١) صفحة ٧١ ـ ٧٣ وهو تحقيق الدكتور سليمان دنيا طبع دار المعارف بالقاهرة.

«إني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، واستحقروا شعائر الدين: من وظائف الصلوات، والتوقي من المحظورات، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي إلفي، كتقليد اليهود والنصارى، إذ جرى على دين الإسلام نشؤهم وأولادهم، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم، وغير بحث نظري صادر عن التعثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب، كما اتفق لطوائف من النظار في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء.

«وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم وضلّالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية، واستبدادهم - لفرط الذكاء والفطنة - باستخراج تلك الأمور الخفية، وحكايتهم عنهم أنهم - مع رزانة عقولهم وغزارة فضلهم - منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة.

«فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطاً في سلكهم، وترفعاً عن مسايرة الجماهير والدهماء، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ظناً منهم بأن إظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال، وغفلة منهم عن أن الإنتقال إلى تقليد عن تقليد خرق وخبال.

«فأية رتبة في عالم الله أخسُّ من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً، دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً، والبله من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة، فليس في سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوي الضلالات، فالبلاهة أوفى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب الى السلامة من بصيرة حولاء.

»فلما رأيت هذاالعرق من الحماقة نابضاً على هؤلاء الأغبياء، انتدبت لتحرير هذا الكتاب، رداً على الفلاسفة القدماء، مبيناً تهافت عقيدتهم، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالآلهيات وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء، وعبرة عند الأذكياء أعني ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء.

«هذا من حكاية مذهبهم على وجهه، ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليد اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل

خارجة عن هـذين القطبين اللذين لأجلهما بعث الأنبياء المؤيدون بالمعجزات وأنه لم يذهب إلى إنكارهما إلا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة، والآراء المعكوسة، الذين لا يؤبه لهم، ولا يعبأ بهم فيما بين النظار، ولا يعدون إلا من زمرة الشياطين الأشرار، وغمار الأغبياء والأغمار، ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليداً يدل على حسن رأيه، ويشعر بفطنته وذكائه، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براء عما قذفوا به من جحد الشرائع، وأنهم مؤمنون بالله، ومصدقون برسله، وأنهم اختبطوا في تفاصيل بعد هذه الأصول قد زلوا فيها فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

ونحن نكشف عن فنون ما انخدعوا به من التخابيل والأباطيل، ونبين أن كل ذلك تهويل، ماوراءه تحصيل، والله تعالى ولي التوفيق، لإظهار ما قصدناه من التحقيق».

وفي كتاب «تهافت الفلاسفة» رد على ابن سينا والفارابي وغيرهما، وإذا كان هؤلاء اتخذوا الفلسفة في البحث في الله والوحدانية والوجود والعدم، وفي القدم والحدوث، وفي أبحاث الفلسفة الأخرى فإن الإمام الغزالي اتخذ الفلسفة في هدم الفلسفة، وإذا كان أولئك اتخذوا العقل اعتمادهم فإن الغزالي اتخذه اعتماده في نقض آرائهم نقضاً علمياً، وأقام نقده كله على العقل والحجة والبرهان.

والحق، أن تاريخ الفلسفة - وليس تاريخ الفلسفة الإسلامية - لم يعرف فيلسوفاً أحاط بنظريات الفلاسفة والفلسفة ونقدهم ونقض آراءهم ونظرياتهم بالعقل والحق والحجة والبرهان والفلسفة مثل الإمام الغزالي.

ونحن نسمي ما رآه الفلاسفة فلسفة ونقد الغزالي فلسفة باعتبار أن ما ذهبوا إليه متفق فيه أنه فلسفة وباعتبار أن ما ذهب الغزالي إليه فلسفة هو فهمنا أن الفلسفة - بالنسبة للغزالي - كانت «العمليات الفكرية والمحاولات العقلية التي يراد بها التوصل إلى الحق والاهتداء إلى الصواب [1]».

ويجب ألا ننسى مفكراً إسلامياً كبيراً ألا وهو الإمام ابن تيمية الذي وقف في وجه كل البدع سواء أكانت بدع المتكلمين أم بدع الفلاسفة أم بدع المتصوفة وغيرهم ممن رأوا آراء تغاير مذهب السلف وأهل السنة والجماعة.

وهناك فارق بين الغزالي وابن تيمية، فالغزالي في مجال الفلسفة أقوى وأقدر وأفهم، وابن تيمية في مجال الكتاب والسنة أعلم، وإن كان الغزالي من فقهاء الإسلام الأعلام ومن العلماء الأئمة في الكتاب والسنة، وإن كان ابن تيمية ممن نقدوا المنطق اليوناني ونقضوا الفلسفة التي اصطنعها بعض مفكري الإسلام.

وتصدى ابن تيمية للمتكلمين والفلاسفة بمذهب أهل

(١) مقدمة «تهافت الفلاسفة» التي كتبها محققه الدكتور سليمان دنيا صفحة ١٧.

السنة القائم على الكتاب والحديث، وقدّم صحيح المنقول على صريح المعقول، وإن لم يكن مغفلا إياه في الاستدلال، ولكن الغالب هو الحكم، وكان يؤثر النقل كل الايثار.

وفي كثير من ردود ابن تيمية كثير من الفلسفة ومصطلحاتها، وفي رده في «الرسالة التدمرية» اصطنع المنطق اليوناني الذي حمل عليه وعاداه، ولكنه ليس اصطناع تقليد بل اصطناع منهج.

وطريقة ابن تيمية تخالف طريق الغزالي. فابن تيمية شديد التقيد بالكتاب والسنة، لا يصدر إلا منهما، وهو الحق، والغزالي يتخذ الفلسفة والعقل لأنه يرد على أناس يتخذونهما ولا يرون لغيرهما حجة وفضلاً، فهو يضرب خصومه بأسلحتهم ومنطقهم.

وطريقة ابن تيمية هي التي دفعته إلى إعلان الحرب على من زعموا «أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم» فهو يرى - وهو الحق - أن مذهب السلف أسلم وأعلم وأعلى وأحكم، ويرد على دعوى الخلف رداً قوياً عنيفاً في الرسالة الحموية[1] إذ يقول:

«ولا يجوز - أيضاً - أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنون به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وإن كانت هذه

(١) صفحة ٤ - ٥ طبعة المطبعة السلفية بمكة المكرمة حرسها الله.

العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعني بها معنى صحيحاً فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب﴾ وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المعروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات.

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلوا في تصويب طريقة الخلف.

«وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلّت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها اخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ـ وهي التي يسمونها طريقة السلف ـ وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكليف، وهي التي يسمونها طريقة الخلف ـ فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات، وهي شبهات.

«والسمع، حرفوا فيه الكلم عن مواضعه، فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة

الصالحين من العامة لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله.

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة».

ويقول في صفحة ٦ ـ ٧: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن».

«وهؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضلون المسبوقون الحيارى المتهوكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين تبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة».

ويقول: «إن الضلال والتهوك إنما استولى على كثير من

المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً ﷺ من البينات والهدى، وتركهم البحث عن طريق السابقين والتابعين، والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه، وبشهادة الأمة على ذلك وبدلالات كثيرة.

وإذا كان للمعتزله والمرجئة والجبرية والشيعة وغيرهم من الفرق فلسفاتهم وآرائهم في التوحيد وأقسامه أو فيما عرف بعلم الكلام وفي تفسير القرآن الكريم فإن للصوفية طريقتهم في ذلك كله.

وكل فرقة تخضع كتاب الله لمذهبها، وتفسره على طريقتها، وتتفلسف في ذات الله وفي أسمائه الحسنى وصفاته المثلى بحسب رأيها، مخالفة بذلك أهل السنة والجماعة.

ولم يسلم عصر من العصور من فرق وأناس يتناولون القرآن ببدع من التفسير والتأويل والاستنباط، وتحميل آياته من المعاني والدلالات ما لا يتفق مع الحق، وأدخلوا الخرافات والاختراعات في تفسير القرآن، ووصفوا الملائكة وصفاً دقيقاً وكأنهم أصحابهم وعشراؤهم، وتحدثوا في الغيب ووصفوا الغيبيات كالميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة وكأنهم شهدوه أو أخذوه من الوحي، فصوروه كالميزان القديم بكفتين، مع أن الموازين تطورت ونسي الناس ذلك الميزان القديم.

وطريقة السلف في العقائد كانت أسلم وأحكم، فحصروها في دائرة ضيقة حتى لا تشغل العقل ببحوث لا تجديه،

لأنه مهما بلغ من التقدم والسمو فلن يستطيع تصوُّر تلك الغيبيات على حقيقتها، واشتغال العقل ببحث العقائد يفسده ويضله كما رأينا في الفرق الكثيرة التي ضلت طريق الحق.

إن السلف تقيدوا بالقرآن والحديث في العقائد، وفهموا القضاء والقدر ـ مثلاً ـ كما أراد رسول الإسلام، فلما تراجعوا في بحث القدر غضب عليهم الرسول ﷺ ومنعهم من بحثه والخوض فيه، وجلد عمر الرجل الذي سوغ جريمة السرقة التي ارتكبها بأن قضى الله، فبقي الفهم الإسلامي لدى المسلمين للعقائد سليماً، حتى إذا ترك المسلمون سنة رسول الله ﷺ وبحثوا في العقائد كان الضلال والفرقة والزيغ والكفر والإلحاد والحرب بين المسلمين أنفسهم حرباً ما تزال مشتعلة حتى اليوم.

ورأينا فيما سلف من فصول هذا الكتاب نموذجاً من الخلاف العقائدي بين المسلمين في مسألة القضاء والقدر، ولم نذكر آراء بقية الفرق اكتفاء بما ذكرنا.

ونقول: طريقة السلف أسلم وأحكم لأنهم سلموا من الجدل والوقوع في الخطل والزلل، فعاشوا في أمن وسلام، لأنهم لم يزيدوا في العقيدة شيئاً، واعتنقوها كما تلقوها، أما الشريعة فقد توسعوا فيها كل التوسع، واجتهدوا فيها أعظم الاجتهاد، فنما الفقه الإسلامي وساير التقدم الفكري الحضاري، ولم تضق الشريعة بالثقافة العالية والحضارة الراقية، والتقدم الطافر، والفرق بين المتكلمين والفلاسفة وبين الفقهاء أئمة المذاهب

الفقهية من أهل السنة والجماعة أن هؤلاء اتبعوا ما أنزل الله، وأولئك لم يتبعوه إلا ندرة من المؤمنين.

وطريقة الخلف عكست الآية فاضطربت الموازين واختلت المقاييس، فوسعوا ما أمروا بتركه على حاله، وفصلوا ما كان مجملاً وضيقوا ما كان واسعاً، فتجنوا على العقيدة بإخفاء لبابها وراء تلال من قشور البحوث الفلسفية والكلامية، وتجنوا على الشريعة بتجميدها وحجر واسعها ومنع الاجتهاد فيها، وإغلاق أبوابه مما نجم عنه الخلل الذي أضاع ملامح المجتمع الإسلامي وقوض أسسه وأعاد إليه حياة الجاهلية، وأعان خصوم الإسلام على التحكم في العالم الإسلامي واستعماره وسلبه، والمسلمون مشغولون بالترهات والأباطيل.

وانتهى الأمر بالإسلام في جميع الأقطار الإسلامية إلى عزلة في المعبد فصار لا يحكم به، وألغيت شريعته، واستبدل بها غيرها من قوانين الأعداء.

وإذا كنا نلقي التبعة على الاستعمار فما حجتنا بعد أن استقلت البلدان الإسلامية وتحررت؟ إن الإسلام ما يزال معزولاً عن الحكم والتشريع، بل زاد حكام البلاد الإسلامية من الذين يحملون أسماء إسلامية في حصار الإسلام وخنقه وحبسه بعد العزل، بل كان للشريعة الإسلامية بعض الحكم في عهود الإستعمار، ولكن الحكام المسلمين أزالوا ما كان الاستعمار تركه.

بل نجد في مصر ـ على سبيل المثال ـ حرباً معلنة على الإسلام، مع أن مصر بلد مسلم وشعبها شعب مسلم، وكانت قلعة من قلاع الإسلام الكبرى القوية في عهود الإستعمار، فإذا مصر الإسلامية تتبدل، ونسمع حواراً في الجامعة في الله، وليس الحوار خلافًا في فهم ذاته وصفاته وأسمائه، بل الحوار في إنكار وجود الله.

هذا في مصر، في الجامعة المصرية التي تجمع نفقاتها من شعب مصر المسلم. وفي صحف مصر ضلال وكفر وإلحاد، وتباهٍ وافتخار بالإلحاد، ودعوة إلى المروق من الإسلام والخروج عليه، وتشبيه لإيمان المسلم الحق بفزع الكلب حين يجد بين عينيه ورقة طائرة.

وإذا كان هذا في مصر قلعة الإسلام فما القول في غيرها؟.

وإلى جانب هذا نجد اتجاهاً آخر يشبه اتجاه الخلف الذين سلفوا من الفرق الضالة والمبتدعة والكافرة، وهذا الاتجاه الآخر لم يكن عن سوء نية بل عن حسن نية، وعن رغبة في الخير، وتأكيد لمبدأ إصلاح الإسلام لكل زمان ومكان، ولمبدأحَوَاية القرآن لعلوم الأولينَ والآخرين، أليس الله أصدق القائلين يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ فكل نظريات العلم الحديث يجب أن تكون في القرآن، ويجب أن يكون القرآن قد سبق أصحابها إليها، وإن كنا لم نفطن ـ بعد ـ إلى مايحوي القرآن من هذه النظريات العلمية.

وليس من يتجهون هذا الاتجاه بكافرين، بل هم مخلصون في عقيدتهم، ومجتهدون في مذهبهم، وما قصدوا إلا الطيب من القول والحسن من الفعل.

وأصحاب هذا الاتجاه اطلعوا على شيء من ثقافة الغرب ونظرياته في العلوم المختلفة وفي الصحة وفي الفنون، وأرادوا أن يرفعوا من شأن القرآن وشأن الإسلام فيأتوا في تفسير آياته بالفتح المبتكر فيبدأوا عهداً جديداً بأن يعلنوا بما حسبوه دليلاً أن القرآن سبق أصحاب النظريات العلمية إليها، وظنوا أو اعتقدوا أنهم افتتحوا في القرآن فتحاً جديداً.

فاذا رأوا آية كونية هتفوا: ما أعظم القرآن الكريم، ها هو ذا يسبق علماء الكونيات في نظريتهم الجديدة، وكذلك في الفلسفة وغيرها، وفي الذرة وعلومها.

هذا الاتجاه في تفسير القرآن في عصرنا مصدره تمجيد القرآن وإعلان سبقه عصر العلم والذرة والصواريخ برد بعض النظريات العلمية والفلسفية إلى كتاب الله ليؤكدوا بالأدلة هذا السبق.

ومن الأمثلة على هذا الاتجاه تفسير بعض المحدثين قول الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] ، بالغازات السامة التي

(١) الدخان: ١٠ ـ ١١.

اخترعوها، وزعموا أن القرآن سبق هذا الكشف العلمي وهذا الاختراع الرهيب، فما هذا الغاز السام أو الخانق إلا دخان، وهو عذاب أليم، فالدخان الذي يغشى الناس يوم القيامة إنما هو من قبيل هذه الغازات.

ولو تأملوا ما بعد الآيتين لوضح لهم أن ما يحسبونه واقعاً يوم القيامة ليس كما حسبوا لأنه وقع في الحياة الدنيا، فالله تعالى يقول:

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

فالدخان الذي يغشى الناس ليس حدثاً من أحداث يوم القيامة. بل هو من حوادث الدنيا لأن الله وعد بكشفه في قوله: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾.

وقد حدث في عهد الصحابة في القرن الأول أن مفسراً فسر

الدخان المبين بأنه يقع يوم القيامة ويأخذ بأنفاس الناس، وعلم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بذلك فاستنكر تفسيره وقال: إنما كان هذا لأن قريشا استعصوا على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهدوا منه أشد الجهد حتى أكلوا العظام، فكان الرجل منهم إذا نظر إلى السماء رأى ما يشبه الدخان من الجوع والجهد.

ومن هؤلاء الكاتبين الذين فسروا بعض آي الذكر الحكيم على ضوء النظريات العلمية مؤلف كتاب «الله والعلم الحديث» أراد أن يوفق بين القرآن وبعض نظريات العلم الحديث فحسب أنه فتح في تفسير كتاب الله فتحاً جديداً بما صنع، وحمل القرآن ما لا يحتمل، وساق كلامه مساق التأكيد، غافلاً أن هذه النظريات لم يزل بعضها تحت التجربة، وبعضها فروض علمية لم تتحقق في عالم الواقع بعد، وبعضها أوهام وليس علمًا.

وأحدث ظهور الكتاب في طبعته الأولى ضجيجاً في الصحافة العربية - أي في صحافة العالم العربي - وفرح المسلمون من العامة والخاصة بهذا الفتح الجديد، وقالوا: ما أعظم القرآن، ها هو ذا كتاب الله الذي لم يفرط فيه من شيء سبق العلم الحديث إلى نظرياته.

ولكن، في خضم هذا الضجيج ارتفعت أصوات مفكرين كبار تنكر هذا الإتجاه الجديد في تفسير القرآن الكريم، ومنهم

العقاد ومحمود شلتوت ومحمد البهي وغيرهم.

يقول مؤلف كتاب «الله والعلم الحديث» في صفحته ٢٤٨ ـ ٢٤٩ تحت عنوان «بقاء الروح» ما نصه:ـ

«يقول المولى سبحانه وتعالى في سورة الفجر:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

«أي أن النفس أو الروح بعد الموت سترجع إلى ربها، فإن كانت مطمئنة ستكون راضية مرضية، والرضى الذي ستشعر به يفيد إحساسها أي بقاءها بعد الموت، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وذلك في سورة آل عمران.

«وهذه الآيات توضح بلا شك أن أرواح من ماتوا في سبيل الله حية عند ربهم فرحة برزق الله وفضله.

«ويقول عز القائل في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

«أي أن الموتى يباشرون حياة أخرى فور موتهم، فالظالمون عند موتهم تقول لهم الملائكة: اليوم ستنالون جزاء أعمالكم، أي أن أرواحهم ستعذب من يوم خروجها، فماذا ياترى يقول العلم؟.

يقرر العلم الحديث أنه ثبت ثبوتاً تاماً في معامل الجامعات أن الروح بعد أن تغادر جسدها لها كيانها الأثيري، والمؤلفات التي كتبت في هذا الشأن كثيرة ومتعددة، وكلها تجمع على أن الروح باقية، وأن الحياة متواصلة بعد الموت، وأن مانسميه موتاً إنما هو تطور اقتضته حكمة الخبير العليم».

وما ذكره المؤلف غير صحيح، فما في وسع معامل الجامعات أن تأتي بالروح إليها لتجري عليها تجاربها فتخرج منها بهذه النتيجة العلمية: أن للروح كياناً أثيرياً.

وجاء كاتب آخر وكتب مقالاً نشرته مجلة «الأزهر»[1] وذكر في الروح قوله «إن الروح وإن كانت أمراً إلهياً لا يدرك له كنه، إلا

(١) المجلد الحادي عشر، الجزء العاشر، صفحة ٦٢٥.

أن لها جسداً أثيرياً على صورة صاحبها غاية في اللطافة، لا يعتريه البلى والتحلل في قدرتها أن تستبدل مادة من الخارج، وأن تظهر بصورة صاحبها في أحوال خاصة، ويكون صاحبها إذ ذاك واقعاً في غيبوبة».

والأثير الذي قصده الكاتبان كما تذكره المعجمات العلمية الفلكية والفيزيقية :وسط فرضي ينقل الضوء والحرارة، ويملأ جميع الفراغات، خفي، عديم الرائحة، لا يتدخل في حركة الأجسام خلال الفضاء وينكر الكثيرون وجوده المادي.[1]

إن الأثير كان فرضاً من الفروض العلمية، فتفسير الروح بأنه «جسم أثيري» غير صحيح، فالأثير قد أنكر وجوده المادي كثيرون، كما أنكر علماء وجود الأثير نفسه، وان حقيقة الروح مجهولة منا نحن البشر، فاذا عجز العلم عن معرفة حقيقة الكهرباء التي نحسها ونلمس آثارها ونستخدمها في مصالحنا، وإذا عجز العلم عن معرفة كثير من أمور الذرة التي استطاع العلم فلْقها وحطْمها فإنه عاجز عن الوصول إلى معرفة حقيقتها وجوهرها وكنهها.

والتسرع في إلقاء القول في مثل هذه الأمور بصورة الجزم والتأكيد أو في صورة الثقة أو الطمأنينة من حيث صحة تلك الأقوال ليس من العلم في شيء، ثم إنه ليس من خدمة القرآن

(١) الموسوعة العربية الميسرة طبعة القاهرة ١٩٦٥م.

إخضاعه لمثل هذه الاتجاهات أو تفسير آياته على هذا النحو، لأن النظريات العلمية تتغير، بل ان بعضها يبطل، وما أكثر النظريات التي كانت في عداد الحقائق وثبت بطلانها مثل من قالوا منذ قرون أن الأرض ثابتة، وأنها مسطحة، وليست على هيئة الكرة.

ونعود إلى كتاب «الله والعلم الحديث» لنأخذ منه مثلاً آخر، فقد جاء فيه (ص ١٧٣ ـ ١٧٥) تحت عنوان «خلق الأرض» الآية الكريمة:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ ﴾.

وعقب المؤلف على هذه الآية بقوله: «لعل هذه إحدى الآيات البينات التي تثبت أن القرآن هو كتاب منزل لا يمكن أن يرقى إليه شك، وأنه إثبات على وجود الله بما لا يقبل معه ظن، فقد اختلفت الآراء العلمية منذ قديم الأزل على كيفية نشوء الأرض حتى وصل العلماء أخيراً بعد البحوث المضنية التي قامت بها كافة الدول مجندة جهابذة العلم والعلماء، وبعد الاختراعات العجيبة للمراصد والمجاهر وتقدم أبحاث الجيولوجيا والتحاليل الأرضية إلى النظرية الصحيحة لخلق الأرض، وسميت بنظرية «لابلاس» هذه النظرية قررت أن الأرض والشمس ومختلف الكواكب والأجرام إنما كانت سديما في الفضاء.

«وأن الأرض انفصلت عن هذا السديم، وتؤيد هذه النظرية أدلة كثيرة، منها: شدة حرارة باطن الأرض إذ ترتفع درجة حرارتها درجة واحدة كلما نزلنا إلى باطنها ثلاثة وثلاثين متراً بعد ثلاثين كيلو متراً تزيد درجة حرارة باطن الأرض عن قشرتها ألف درجة مئوية.

«ومن هذه الأدلة أيضاً: البراكين التي تظهر وتشاهد في أنحاء شتى من الكرة الأرضية، والتي هي عبارة عن ضعف في القشرة الأرضية، تغلبت عليه الأبخرة والغازات الملتهبة في جوف الأرض فشقت لها طريقاً منشئة فوهة بركان تقذف منه الحمم الذائبة على ارتفاع شاهق، ولمدد طويلة، ومما يؤكد حرارة باطن الأرض كذلك العيون الأرضية ذات الماء الساخن والعيون الغائرة ذات الماء الشديد الحراراة.

«وبتقدم العلم أمكن معرفة العناصر المكونة للشمس بتحليل الطيف، فلكل عنصر عند احتراقه لون خاص به، فوجد أنها تتكون من نفس العناصر التي تتكون منها الأرض، بل اكتشفت عناصر في الشمس قبل اكتشاف وجودها في الأرض.

وبذلك قرر العلم أن الأرض والشمس والنجوم أي السماء والأرض وما فيهما إنما كانت سديما انفصل إلى أجزاء، وقد سبق القرآن هذا العلم بعشرات المئات[١] من السنين».

---

(١) لم يمض على نزول القرآن غير عشر مئة وبضع مئة من السنين، ولا يقال «عشرات المئات» إلا إذا بلغ العدد آلافاً.

ومؤلف كتاب «الله والعلم الحديث» لم يفهم النظرية السديمية على وجهها الصحيح، والنظرية ماتزال فرضاً لم ينته القول فيها، وليس كل علماء الطبيعة والفلك يرون ذلك، بل منهم من يراه ومنهم من يعارض، والنظرية قائمة على الفرض الذي يذهب إلى نشأة المنظومات الفلكية كلها من السديم ذي الحرارة الشديدة الذي تختلف درجة حرارته فيصيبه التشقق أو الانفصال بعضه عن بعض بفعل التمدد فيه، فتدور الأجرام الصغيرة منه حول الأجرام الكبيرة، ومن ذلك التشقق أو الانفصال والدوران تنشأ المنظومات الشمسية وغيرها.

ولعل من الأوفق أن ننقل ما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة» ص ١٨٣٩ في النظرية السديمية ليكون القارىء على علم بها من مصدر علمي موثوق به:

«النظرية السديمية: فرض يفسر ترتيب وحركة أفراد المجموعة الشمسية، اقترحه في القرن ١٨ سويدنبرج، وكانت، ووضعه لابلاس في قالب علمي، والنظرية تفترض أن المجموعة الشمسية كانت سديما شديد الحرارة يدور حول نفسه ببطء ثم برد تدريجياً نتيجة لفقدان الحرارة بالإشعاع، فانكمش وازدادت سرعته، وفرض لابلاس أنه بمرور الوقت أصبحت القوة الطاردة المركزية عند خط الاستواء إلى الخارج مساوية لقوة الجاذبية إلى الداخل، ثم انفصلت حلقة غازية، وأصبح السديم الرئيسي متزناً، ثم انكمش لتنفصل منه حلقة أخرى، وهكذا.

«وأخيراً تحولت كل حلقة ـ بطريقة ما ـ إلى كتلة كبيرة، أخذت تنكمش لتكون الكواكب.

«أما مابقي من السديم الرئيسي فقد تحول إلى شمس.

«ولكن الميكانيكية الحديثة أثارت الاعتراضات بأن الحلقات المذكورة لا تكتمل، بل تكون عدداً كبيراً من الأجرام الصغيرة، وكذلك يزيد الزخم الزاوي للكواكب عن الزخم الزاوي للشمس».

ونظرية «لابلاس» التي يهتف بها مؤلف كتاب «الله والعلم الحديث» ويسرع بها إلى القرآن يؤيده بها ويجعله مصداقها قد أكل عليها الدهر وشرب، ولا يقول أحد اليوم: إن هذه النظرية تنطبق على المنظومة الشمسية، ولعل في الشاهد الذي ذكرناه الغناء كل الغناء. ومع هذا نقدم له ما يقوله أحد المختصين، وهو الدكتور ج. و. جينز في بحث علمي كتبه بعنوان «مولد العلم، بيان ما يقدمه علم الفلك وعلم الطبيعيات من التفسير العقلي لنشأة الأرض».

والدكتور جينز مؤلف كتاب «مسائل خلق الكون وحركة الأجرام الخ.» وعضو الجمعية الملكية وأمينها بلندن.

يقول: «المنهج الوحيد الذي يبقى لنا ـ إذن ـ هو المبحث العلمي المجرد، فالأجرام الفلكية كلها خاضعة للقوانين الفيزيقية والآلية العامة، فلو استطعنا أن نعين تعييناً صحيحاً الكيان الحالي

لإحدى المنظومات الفلكية فإن هذه القوانين تتيح لنا استقصاء تاريخها إلى غير حد من جهتي المستقبل والماضي، وهذا هو المنهج الواجب التعويل عليه حتى في وقتنا الحاضر، ولكننا قبل أن نعرض لمناحي التطبيق الحديث لهذا المنهج نجد إن نبحث فيما أفاده منه «لابلاس» Laplace حين وضع نظريته الفرضية المشهورة عن السديم في عام ١٧٩٦.

«وكان لابلاس لا يعرف عن الشمس أكثر من أنها تشع الحرارة، وأن ما يطرأ على سطحها على الكلف والتضاريس وما إلى ذلك من الظواهر يدل على أن طبقاتها الخارجية على الأقل غازية، وتذهب القوانين العامة في الفيزيقا إلى أن النجم أكان غازياً بعضه أو كله لا يمكن أن يستمر في إشعاع الحرارة دون أن يطرأ عليه تغير في تكوينه، واعتقد لابلاس أن إشعاع الحرارة لا بد أن يصحبه تقلص فأدى به ذلك إلى القول بأن الشمس كانت في الأزمنة الأولى أكبر جرماً منها الآن ومن ثم تمثل الشمس الأولى سديماً هائلاً أو سحابة غازية بلغ أضعاف جرمها الحالي ألوف المرات».

ويقول: «ولهذا تصور لابلاس أن سديمه الأول كان شديد البطء في دورانه، ولكن هناك مبدأ آلياً معروفاً هو مبدأ «بقاء كمية التحرك الزاويَّة» Conservation of Angular Momentum القائل بأن الجسم كلما انكمش زادت سرعة دورانه زيادة مستمرة، ومن ثم فإن لابلاس وهو يتصور سديمه هائل الجرم شديد البطء في الدوران كان يذهب إلى أن سرعة دورانه ازدادت تدريجياً، حتى إذا

صار قطر السديم بقدر قطر فلك نبتيون تقريباً كان السديم يدور بتلك السرعة الحرجة التي يتم بها دورة في كل ١٦٥ سنة، وإذ ذاك تطايرت حلقة من مادته وتكون منها في آخر الأمر كوكب نبتيون وهو دائر منذ ذلك الحين، وفي نفس المكان، وبنفس السرعة تقريباً».

ويقول: «ولئن كان فرض لابلاس لم يوفق إلى تفسير وجود الأرض فقد ثبت أن العملية التي تصوّرها أهم ما عرفه علم الفلك النظري، وأن لها نظائر تعد بالألوف في كافة أرجاء السماء، وكل مثال منها أعظم مدى من كل ما تصوره لابلاس، فثمة سدم لا عداد لها تدور بأسرع ما يمكن معه تماسكها، ولذلك يتناثر عنها من خطوط استوائها رشاش من المادة، إلا أن النطاق الذي تجري فيه العملية من العظم والاتساع بحيث لا ينجم عنها أسر من السيارات، بل جحافل من النجوم، وعلى هذا النحو كان مولد شمسنا، فنحن نرى أن لابلاس كان يحاول الاهتداء إلى سر مولد الوليد (الأرض) فاهتدى ـ وهو لا يعلم ـ إلى حل مشكلة مولد الوالد (الشمس).

ويقول تحت رسمين كتب تحت أحدهما: «الفرض السديمي الذي افترضه لابلاس»، وتحت الثاني: «نظرية فلكي فرنسي جاء تفسيرها لظواهر الطبيعة أوسع مدى مما تصور».

«ومن النظريات الفرضية فيما بعد بطلانها ما يكون أجدى على العلم أحياناً من البحث الذي لم يتطرق الخيال إليه، فقد

أخرج لنا لابلاس فرضاً افترضه لتعليل تطور المنظومة الشمسية، فذهب إلى أن الأصل فيها سحابة هائلة من الغاز المتوهج، وكلما فقدت حرارتها انكمشت، وكلما انكمشت زادت سرعة دورانها، وقد تناثر عنها في اللحظات الفاصلة بفعل القوة المركزية الطاردة حلقات من المادة تكثفت فأصبحت هي الكواكب السيارة وما بقي منها فهو شمسنا. ولا يقول أحد اليوم بأن هذه النظرية تنطبق على المنظومة الشمسية ولكننا لو زدنا حجم السديم ألف مليون مرة لأمكن أن توضح لنا هذه الصفحة مولد مجموعة من النجوم»(١).

ومؤلف كتاب «الله والعلم الحديث» جهل العلم الحديث والقرآن معاً، وهو إنشائي في كتابته، مسرف في المبالغة، يلقي القول على عواهنه، فهو يقول في الفقرات التي استشهدنا بها من كتابه: «قد اختلفت الآراء العلمية منذ قديم الأزل على كيفية نشوء الأرض حتى وصل العلماء أخيراً بعد البحوث المضنية التي قامت بها كافة الدول مجندة جهابذة العلم والعلماء إلخ..».

أصحيح ما زعمه؟ أصحيح اختلاف الآراء العلمية منذ قديم الأزل، أكانت في قديم الأزل للناس آراء علمية؟ أصحيح أن كافة الدول جندت جهابذة العلم والعلماء؟.

الجواب على كل ذلك النفي القاطع.

(١) تاريخ العالم، الترجمة العربية، المجلد الأول راجع المبحث كله الذي استشهدنا ببضع الفقرات منه في الصفحات من ٥٠ ـ ٨٤.

وهذا المؤلف وأمثاله كلما رأوا آية فيها لفظ صرخوا: هذا هو القرآن يسبق العلم الحديث كأن القرآن مدونة أو كتاب يحوي نظريات العلم الحديث وتطوره.

وهؤلاء المحدثون مخطئون كزملائهم في القديم، ويجب تنزيه كتاب الله الكريم عن اجتهاداتهم التي تسيء إليه؛ لأن النظريات العلمية تختلف باختلاف الأزمنة، ومنها ما لايزال موضع الجدل، ومنها ما ظهر بطلانه، فاذا فسرنا القرآن على طريقتهم، وزعمنا أن القرآن سبق النظرية السديمية لأنه جاء بها قبل أصحابها، ثم ظهر بطلانها فاننا نكون قد عرضنا كتاب الله للبطلان والتكذيب.

والفريضة المقدسة التي أمرنا بها من قبل القرآن أن نجعله إمامنا، لأنه الهدى والنور، أن نتلقى منه الهداية، ونهتدي بنوره، ولا نتخذ القرآن بحيث يضرب بعضه بعضاً، وأن نقدسه بتنزيهه عن إنزاله من مكانه الرفيع إلى ميدان النظريات العلمية التي لم ينقطع فيها القول فنعرضه للتقلب مع هذه النظريات، أو للتكذيب او الإتهام بما لا يليق من التكذيب.

والشيء الذي نقوله في القرآن ونحن مطمئنون: إنه كتاب العقيدةالإنسانية، لم يفرط في شيء من أمرها، ولم يذكر ما يصدم الحقيقة العلمية، أو يأمر بوقف كل ألوان النشاط الجسدي والعقلي، وكل الطاقات والقوى التي تسعد الإنسان وتزيد في نعمته بما خلق الله، بل يحث العقل على التأمل، ويحث الإنسان على

العلم النافع والعمل الصالح الذي يوجه النشاط والطاقات والقوى إلى الخير.

ووراء التأمل الذي يحث عليه القرآن أن يزداد المتأمل إيماناً بالله وقدرته وقوته ورحمته، وأن يعمل الخير لنفسه وللدنيا كلها ويكف عن الشر.

وخير للمسلم الحق ألا يتلاعب بالقرآن وأن ينزهه من كل ما يضرب بعضه بعضاً، ومن كل ما قد ينجم عنه تعريضه لما لا يجوز أو يحسن.

ويجب ألا نخرج الإسلام عن طريقه القويم، وألا ندخل إليه ما يعد غريباً عليه، كما فعلت الفرق في مسألة القضاء والقدر وفي الذات الالهية وفي الأسماء، وفي الصفات وفي السمعيات، وفي العقيدة عامة، حتى خرج منها من خرج على طريقة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، وحتى ضل منها من ضل، وكفر منها من كفر، وأدخلوا في الإسلام من عقائد الوثنية الباطلة ونظريات الفلاسفة وزعموا أنها من الإسلام عقيدة وإيماناً، مثل نظرية وحدة الوجود والحلول، والتناسخ، والشرك، وتأليه بعض من خلق وجعله شريكاً لله في الألوهية، ونفي إحاطة علم الله بالجزئيات، وأن لا عمل له بعد أن خلق، ونظرية قدم العالم مع وجود الصانع (أي الله عز وجل) ونظرية قدم العالم مع نفي الصانع، والنظريات اللاهوتية الأخرى التي نراها في المسيحية واليهودية والزرادشتية والبرهمية وغيرها.

وكل هذا باطل ليس من الإسلام في شيء ولا يرضى به، بل ينفيه ويحاربه، ويمنع من الزيادة في العقيدة التي نص عليها الكتاب والسنة، كما يمنع من الخوض فيها إيثاراً للسلامة والأمن وحماية للنفس من الضلال أو الكفر.

وإذا كنا قد عكسنا الآية فزدنا في العقيدة السهلة البسيطة وعقدناها، وفصلنا مجملها تفصيلاً ينكره القرآن الكريم والحديث الشريف بعد أن أمرنا ألا نزيد في العقيدة وألا نخوض فيها، وحجرنا الواسع فيما أباح الله لنا في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، وذلك في أمر الشريعة، وأغلقنا فيها باب الاجتهاد لنفتح في العقيدة كل أبواب الاجتهاد الذي خرج عن الاجتهاد الشرعي الحق إلى البدعة الضالة المنكرة حتى انتهى بنا الأمر إلى إلغاء الشريعة الإسلامية كلها إلغاء بحيث لا يحكم بها في جميع أقطار الإسلام، وإلى إباحة البدع في بحث العقيدة فإن علينا أن نعود إلى الإسلام دين الله السمح فنعتنقه بحقه اعتناقاً صحيحاً سليماً.

وفهم الإسلام على سوائه، واعتناقه بحقه يفرضان علينا أن نبقي العقيدة كما أنزلت، لأنه ليس من حقنا أن نزيد فيها ونضيف إليها، وأن نتبع شرع الله حق الاتباع، ونفيد من إباحته لنا أن نزيد فيه ونضيف إليه ما نحن في حاجة إليه إذا كان ما نزيد فيه ونضيف إليه عدلاً قائماً على الأصول، لأن كل ما هو عدل، وكل ما هو خير هو الإسلام ومن الإسلام في الصميم.

إن الله عز وجل يقول في محكم كتابه: ﴿إن الله يأمر

بالعدل والإحسان﴾ فكل ما كان عدلاً فهو من أمر الله، والعدل في حقيقته الخير، لأن فيه بواعث الخير والانتهاء إليه.

وأما ما كان خيراً فهو من الإسلام في الصميم، ولدينا الأدلة التي يكفي منها أن نأخذ واحداً منها على سبيل المثال، فيه شاهد الاجتهاد المباح، وفيه من إباحة الاجتهاد والرأي وما داما يقصدان إلى الخير ما لا حدّ له لسعته.

المسلمون جميعاً يقفون من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد ابن حارثة موقف التكريم والتبجيل، لأن الله كرمهم، ورسول الله رفعهم مكاناً عالياً، ومات رسول الله وهو راض عنهم، فعملهم في الإسلام حجة، ورأيهم في الاجتهاد مقبول، وهو شرع من شرع الله، فإذا أجمع القرن الأول للإسلام على كلمة واحدة فقد أصبح حجة مضافة إلى الحجج الأخرى.

في صحيح البخاري ٦: ٧١[١]: «أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني ابن السباق[٢]: أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ـ وكان ممن يكتب الوحي ـ قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن

(١) طبعة بولاق.

(٢) في فتح الباري شرح صحيح البخاري: عبيد بن السباق ـ بفتح السين وتشديد الباء ـ مدني يكني أبا سعد ذكره مسلم في الطبقة الأولى من التابعين.

تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال عمر: هو ـ والله ـ خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت ـ وعمر عنده جالس لا يتكلم ـ فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن، فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو ـ والله ـ خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر».

هذا الحديث الشريف يؤكد لنا قيمة الرأي الذي يقوم على الخير ويحققه، كما يؤكد ضرورة الاجتهاد الحق.

وقد سبق لي بحث هذا الحديث في كتابنا «الإسلام طريقنا إلى الحياة»[1] وقلت في التعليق عليه:

---

(١) ص ٢٧٨.

«إن هذا الحديث الشريف وضع لنا ميزاناً صحيحاً لوزن الأمور كلها وهو «الخير» فهو مردها وحاكمها.

«هو والله خير» ميزان الإسلام.

«وما دام أكرم الصحابة وأفضلهم أقدموا على فعل ما لم يفعله النبي لأنه خير، فما الذي يمنعنا من عمل كله خير لم يمنعه الرسول الأكرم.

وما دام هناك سعة فلماذا نحجر واسعاً؟» إلخ..

والواجب على مسلمي اليوم أن يتركوا الخوض في العقيدة ويقنعوا فيها بما قنع به أصحاب محمد عليه صلوات الله وسلامه، ويسكتوا عما سكتوا عنه، وأن يسعهم ما وسعهم، ويتجهوا إلى الشريعة التي أباح الله ورسوله فيها «الرأي» والزيادة والإضافة بما يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية السمحة.

إن الإسلام كله شريعة وعقيدة في كلمات ثلاث: الإيمان بالله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي حدود هذه المبادىء يمكن عمل كل شيء مما لم يفعله رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين والسلف الصالح رحمهم الله.

ولنتبع طريق الإسلام الحق، فهو الذي يفضي بنا إلى مرضاة الله، ومرضاة الله عز وجل تقضي بنا إلى الخير كله، ولنكن كما وصف القرآن أمة محمد الصالحة المؤمنة في آياته البينات إذ

قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

صدق الله العظيم، وصدق نبيه الكريم، وصدق الله إذ يقول في محكم كتابه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

ولكن جدّ للإسلام عدو هو أخطر أعدائه طراً، ذلك هو المذهب الشيوعي الهدام الذي تمطى على بعض البلدان العربية المسلمة ثم طواه في كفره وباطله.

وكلنا يعرف أن الشيوعية، تنكر وجود الله، وتجحد رسالات السماء، وتنكر الرسل والأنبياء، وتكذبهم وتسخر بهم أشد السخرية والتكذيب.

ومعروف أن الشيوعية والاشتراكية تترادفان في مؤلفات أئمة الشيوعية، ومع هذا زعموا أن الاشتراكية هي الإسلام، وهذا الزعم باطل وكفر وتضليل، مع أن الاشتراكية كفر لئيم، والإسلام إيمان بالله حق، فكيف يكونان شيئاً واحداً؟

عقائد ليست إسلامية

في الإسلام كما في غيره من الديانات فرق كثيرة ومنها فرق لا تعد خارجة من الإسلام، وأخرى خارجة عنه، وهي كثيرة لا يمكن في هذا المبحث استقصاؤ ها، بل لا ضرورة له ويكفي أن نشير إلى بعضها، وما نتركه لا يخرج عما نذكر عن الوثنية.

وهذه الفرق تظهر في ثوب الإسلام، وأهلها يدَّعونه، والحق أن نحلَهم ليست إسلامية، وهم ليسوا مسلمين، بل هم وثنيون، وبعض النحل ملتقى لأبشع العقائد وأحطّ الأعمال مثل الباطنية التي عرفت بأسماء مختلفة بحسب البيئات التي ظهرت فيها.

ونبدأ بالديانة أو النحلة التي سماها صاحبها «التوحيد الإلَهي» وهي ديانة وثنية خليط من بعض نظريات الإسلام وغيره من الديانات، ونقصد بها ديانة السلطان المغولي «أكبر».

وأكبر لقبه، واسمه جلال الدين، وكنيته أبو الفتح (١٥٤٣

١٦١٥م[١]) وهو من أعظم أباطرة المغول الذين حكموا الهند، وحكم سنة **١٥٥٥** م[٢] إلى أن توفي سنة **١٦٠٥**م وكان شديد العناية بالعلوم والآداب والفنون والفلسفات، وشغل نفسه باللاهوت من حيث هو لاهوت، دون أن يقيد نفسه بدين، والإسلام الذي كان متديناً به تحرر منه بدين ابتكره وسماه «التوحيد الإلهي» وأكبر أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولقي تمجيد الغربيين والمستشرقين وهتافهم باسمه مالم يلقهما غيره إلا قليلاً، فقد مجدوا أكبر أعظم تمجيد لأنه ملك قوي مسلم خرج على الإسلام وحطَمه حطْمًا، فهم يمجدونه لأنهم أعداء الإسلام وهذا عدو الإسلام مثلهم، وأنه ليسعدهم كل ما يضعف الإسلام والمسلمين، ويهتفون باسم كل من يزلزل قواعد الإسلام، ومن هنا ظفر «أكبر» بتمجيد الغربيين والمستشرقين. وندرك من خلال تمجيدهم ديانة أكبر.

يقول جولد زيهر في كتابه «العقيدة والشريعة[٣]) **٢٥٦** - **٢٥٨**:

«إن الفرصة التي أتاحتها البلاد الهندية للنظر في الأديان نظراً مقارناً قد اتخذت ذريعة لابتداع مذاهب دينية جديدة، وبما أننا نؤرخ للديانة الإسلامية علينا أن نخص بالذكر أحد هذه المذاهب الذي كان وحي الخاطر والتأمل، والذي كان ثمرة التفكير في جملة

(١) سنة ٩٤٩ - ١٠١٤هـ.

(٢) سنة ٩٦٣ هـ.

(٣) ترجمة محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الخالق وعلي حسن عبد القادر.

الديانات الكثيرة المزدهرة التي اكتظت بها بلاد الهند.

ومؤسس هذا المذهب هو الملك أبو الفتح جلال الدين الذي اشتهر في التاريخ بلقبه الجليل «أكبر» الذي وجد في الآداب الأوروبية من يترجم ويؤرخ لعهده، وذلك بالكتاب الذي وضعه في سنة ١٨٨١ «فردريك أغسطس الشلز فيجي الهولشتيني» كونت «نوير» كما عني بدرسه الأستاذ «جاربه Garbe» في خطاب العمادة الذي ألقاه بجامعة «توبنجن» بل إن «ماكس مولر» أطرى كثيراً الأمبراطور أكبر لأنه أول من عني بدراسة علم الأديان المقارنة، وعلى كل حال فقد مهد له طريق الدراسة «أبو الفضل العلاّمي» الذي أصبح وزيره فيما بعد، والذي ألف في تمجيد مليكه كتاب «أكبر نامه».

وقد سبق أبو الفضل الأمبراطور «أكبر» في بحث الملل والنحل المختلفة، وأكب على دراستها، وكان يتوق إلى إيجاد عقيدة تتخطى حدود الإسلام ومعالمه، ولكن «أكبر» كان لديه وحده القدرة بصفته حاكمًا لدولة كبيرة وطيدة الأركان أن يخرج إلى حيز العمل مشروعاً دينياً هو وليد الدراسة المقارنة للأديان.

«ومهما بدا من قلة استعداد «أكبر» لإدراك مسائل الثقافة العالمية بسبب نقص تعليمه الابتدائي فإن هذا الامبراطور المغولي العظيم سليل أسرة تيمورلنك التي حكمت من سنة ١٥٢٧م إلى سنة ١٧٠٧، والذي يعد حكمه أزهى عصور الحضارة الإسلامية في الهند، ترتبط باسمه إحدى الحوادث الهامة في تاريخ الإسلام

الهندي التي حدثت في أواخر القرن السادس عشر، فقد سبق لهذا الأمير الموهوب أن أبدى اهتمامه بتفهم البواعث النفسية العميقة التي تحمل الإنسان على التدين، وتجلى إحساسه بهذه البواعث التي كان ينشدها «هاريداسا Haridâsa» المطرب الهندي بصوته العذب الرخيم.

«ونجم عن هذه الحالة النفسية التي ملكت مشاعر «أكبر» أنه انتهز هذه الفرصة العجيبة التي أتاحتها له الديانات المتعددة في أمبراطوريته، فجد في الاستزادة من دراستها مستعيناً بفقهاء كل ملة في استجلاء تعاليمها المختلفة».

«وقد تسنى له في المناقشات التي عقدها أن يكون في ذهنه رأياً فيما يفصل بينها من الفروق الدقيقة، وفي قيمة ملة ونحلة بالنسبة لغيرها، وسرعان ماتزعزع إيمانه بفضل ديانته الخاصة وهي الإسلام على غيرها من الديانات مع أنه ظل مؤمناً بالعقائد الصوفية الإسلامية التي كان يدفعه وجدانه إلى التعلق بها.

«وبينا قد حقق «أكبر» لذوي الملل والنحل المختلفة في أمبراطوريته الشاسعة حرية تعبدية لا حد لها ـ وذلك حوالي سنة ١٥٧٨ ـ نراه قد صور مذهباً دينياً جديداً يتصل في ظاهره بالإسلام، ولكنه في جوهره وحقيقته يقضي عليه قضاء مبرماً، واستعان الامبراطور بحقه في استصدار فتاوى من العلماء المجتهدين، وحمل طائفة من علماء البلاط الخاضعين له على إقرار مذهبه الديني الجديد الذي جرد فيه شعائر الإسلام وعقائده من معانيها

ومقاصدها، وأوجد مكانها كأساس للديانة الامبراطورية فلسفة عقلية خلقية سماها «توحيد إلّهي» ووصلت في ذروتها الى النظرية الصوفية وهي اتحاد النفس البشرية بالذات الإلّهية.

«ويلاحظ في عبادات المذهب ما كان لمستشاري الامبرطور من الزرادشتيين من أثر قوي عليه، وهم بقايا أصحاب الديانة الزرادشتية التي لما اشتد اضطهادها في وطنها الفارسي نزحت إلى بلاد الهند ورقشت فسيفساء الديانة الهندية، وزادت من تنوع ألوانها.

«وكذلك من العسير أن نغفل السمة البارزة في ديانة «أكبر» الذي جعل نفسه كاهنها الأعظم، وهي عبادة النور والشمس والنار.

«ديانة أكبر» لا يمكن أن تسمى إصلاحاً ولكنها تعد نفياً وإنكاراً للإسلام وخروجاً على تقاليده خروجاً قاطعاً لم يقو على مثله مذهب الإسماعيلية، غير أنّا لا نلاحظ أنه كان لها أثر عميق في تطور الإسلام.

«ويبدو أنها لم تتخط بيئة الامبراطور والطبقة العالية المستنيرة، فضلاً عن أنها لم تعش بعد وفاة مؤسسها.

«وكما هو الحال في العصور القديمة عندما قام الفرعون المستنير أمنحتب الرابع بإصلاح الديانة المصرية وبقي هذا الإصلاح قائماً ما بقي هو في الحكم، ثم تلاشى بعد موته وعادت

الديانة القديمة المتوارثة إلى مكانتها الأولى، كذلك كان حال الديانة الجديدة التي أوجدها أكبر، فإنها لم تعش بعد انقضاء حكمه، واستعاد الإسلام السني وحدته السالفة ونفوذه السابق بعد وفاة أكبر سنة ١٦٠٥م على الرغم مما صادفه من العقبات اليسيرة بسبب الموقف العدائي للإسلام الذي وقفه ابنه وخليفته «جاهانجير Djahângir» ولم يطلق على «أكبر» أنه الرائد الأول في تحقيق الآمال التي ترمي إلى التقريب بين البرهمية والزرداشتية والإسلام إلا خلال الحركات العقلية الأخيرة والنزعات الفكرية الحرة التي دعا إليها متنورو البراهمية والمسلمين في عهد الحكم الإنجليزي للهند.

ويقول سير ولسل هايديج الأستاذ المحاضر بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن[1]:

«للسلطان أكبر العظيم الذي يعد بحق أعظم متسامح متشبع بروح الإنسانية بين حكام الهند كان يأخذ الثلث في أواخر أيامه حين جعل بعض الحكام الآخرين نصيبهم النصف بالتمام.

ويقول ديمتريوس ك. بولجر[2]: «لم تكن المسيحية وحدها الدين الذي كان أكبر يجنح إليه، بل قد راعته أيضاً عبادة النار، وفي إحدى اللحظات داعبته فكرة تناسخ الأرواح، وقد أخذت غيرته على الإسلام تضعف يوماً بعد يوم حتى غضب عليه

(١) تاريخ العالم ٥: ٦٢٢.
(٢) تاريخ العالم ٦: ٥٧٤ و٥٧٥ و٦١١.

المتمسكون بدينهم من رعاياه، وبلغ من أمر هؤلاء أن نعتوه بالزندقة والإلحاد».

ويقول: «إن تسامح أكبر الديني لم يمنعه من الإقدام في أثناء أعوامه الأخيرة على إخراج المشروع الديني الخطير: مشروع «العقيدة الأكبرية» وهو العقيدة الصوفية التي سمح لنفسه بانتحال بعض الصفات الربانية».

ويقول: «لما أن وضع مذهبه الديني الصوفي واتخذ لنفسه بعض الصفات الإلهية كانت تنقش على عملته عبارة «الله أكبر» وهي إذا فسرت التفسير الصحيح الدقيق كانت تشيد بعظمة الله، ولكنها قد تعني كذلك أن أكبر هو الله، وهذا المعنى سواء كان مقصوداً أو غير مقصود هو الذي اختاره الساخرون منه أن يفهموه من هذه العبارة، ثم حذف هذا النص آخر الأمر».

وأسهب ول ديورانت في تمجيد أكبر حتى أنه ختم ما كتبه بقوله: «إنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا في كل عصورها».

وديورانت من أشد أعداء الإسلام لَدَداً في الخصومة والحقد، فهو مولع بحطْم كل مناصر للإسلام وإعلاء شأن كل من ينقص عراه، وكتابه «قصة الحضارة» مليء بالتجني على الإسلام دون سائر الأديان.

وديورانت مجد السلطان أكبر أعظـم تمجيد، فلنأخذ منه ما وصف به ديانة أكبر وفلسفته، فهو لا يتهم في الحقائق التي

يسردها، هذه الحقائق التي تتصل بأكبر الذي لادين له وإن كان ديورانت يجعله صاحب رسالة عظمى.

يقول ديورانت[1]: «لما كان فيلسوفاً فلا عجب أن يأخذه شغف شديد بالدين فقد أغرته قراءته الدقيقة للمحمة «مهابهارتا» ودراسته الوثيقة لشعراء الهنود وحكمائهم بدراسة العقائد الهندية، ولبث حيناً - على الأقل - يؤمن بمذهب التناسخ، وخيب فيه ظن أتباعه من المسلمين حين ظهر على الملأ بعلامات دينية هندية على جبهته، فقد كان له شغف بملاطفة أصحاب العقائد كلها، لذلك تودد إلى الزرادشتيين بأن لبس ما يلبسونه من قميص ومنطقة مقدسين تحت ثيابه، وانصاع للجانتيين حين طلبوا إليه أن يمتنع عن الصيد، وأن يحرم قتل الحيوان في أيام معلومة.

«ولما سمع بالديانة الجديدة المسماة بالمسيحية التي جاءت إلي الهند مع بعثة «جوا» البرتغالية أرسل خطاباً إلى هؤلاء المبشرين التابعين لمذهب بولس، يدعوهم أن يبعثوا له باثنين من علمائهم، وحدث بعد ذلك أن قدم جماعة من الجزويت مدينة دلهي وحببوه في المسيح حتى أمر كتابه أن يترجموا له العهد الجديد، وأباح لهؤلاء الجزويت كل حرية في أن ينصروا من شاءوا بل عهد إليهم بتربية أحد أبنائه.

---

(١) راجع «قصة الحضارة» جـ ٣ ص ١٣٧.

«وفي الوقت الذي كان الكاثوليك يفتكون بالبروتستنت في فرنسا، والبروتستنت - في عهد الملكة اليصابات - يفتكون بالكاثوليك في إنجلترا، ومحاكم التفتيش تقتل اليهود في أسبانيا وتسلبهم أملاكهم، و«برونو» يقذف به في النار في إيطاليا كان «أكبر» يوجه الدعوة إلى ممثلي الديانات كلها في إمبراطوريته ليعقدوا مؤتمراً، وتعهد لهم بحفظ السلام بينهم، وأصدر مرسوماً بوجوب التسامح مع المذاهب كلها والعقائد كلها، ولكي يقيم الدليل على حياده تزوج من نساء البراهمة، ومن نساء البوذية، ومن نساء المسلمين جميعاً.

«وكان ألذ ما يمتعه بعد أن بردت في نفسه جذوة الشباب المضطرمة المناقشاتُ الحرة في العقائد الدينية، ولقد ترك تعاليم الإسلام الجامدة تركاً تاماً حتى أغضب بحياده هذا في الحكم رعيته من المسلمين.

«يقول عنه «سان فرانسس زافير» في شيء من المغالاة: «لقد حطم هذا الملك مذهب محمّد الفاسد، وهاجمه هجوماً بحيث لم يبق له فضيلة واحدة، ولم يعد في هذه المدينة مسجد أو قرآن - هو كتاب شريعتهم - وأما ما كان هناك من مساجد فقد اتخذوا منها حظائر للخيل أو مخازن».

«ولم يؤمن الملك أقل إيمان بالوحي، ولم يكن ليصدق شيئاً لا يقوم على صحته برهان من العلم والفلسفة، وكثيراً ما كان يجمع طائفة من أصدقائه ومن رجال العقائد الدينية المختلفة ثم يأخذ في

مناقشة الدين معهم من مساء الخميس إلى ظهر الجمعة، فإذا ما اعترك فقهاء المسلمين مع قساوسة المسيحيين زجرهم قائلاً: إن الله ينبغي أن يعبد بالعقل لا بالتمسك الأعمى بوحي مزعوم.

«وكان مما قاله فجاء شبيهاً بروح كتاب «اليوبانشاد» بل ربما كان في قوله متأثراً «باليوبانشاد» و«كابر»: «كل إنسان يسمى الكائن الأسمى باسم يلائم وجهة نظره، والواقع أن تسميتنا لما يستحيل علينا إدراكه ضرب من العبث».

«واقترح بعض المسلمين أن تُخْبَر المسيحية إزاء الإسلام بمحنة النار، وذلك أن يمسك شيخ من شيوخ المسلمين بالقرآن وأن يمسك قسيس بالإنجيل ثم يخوضان معاً في النار، فمن خرج منهما سالماً من الأذى اعترف له منادياً في الأرض بصوت الحق، وتصادف أن «أكبر» لم يكن يحب الشيخ المسلم الذي اقترحوه لهذه التجربة، فتحمس للاقتراح، ولكن الجزويت رفضوه، لأنه إفك وخروج على الدين، لأنه خطر على حياة من تقع عليه التجربة.

«وجعل اللاهوتيون يجتنبون أمثال هذه الاجتماعات شيئاً فشيئاً حتى لم يعد يحضرها إلا «أكبر» نفسه مع أصدقائه من أصحاب النظرة العقلية.

«وضاق «أكبر» ذرعاً بالانقسامات الدينية في مملكته وأفزعه الاحتمال بأن تؤدي هذه الديانات المتناقضة إلى تمزيق المملكة بعد موته، فاستقر رأيه آخر الأمر على أن يكوّن منها ديانة جديدة تضم

أهم تعاليم العقائد المختلفة في صورة بسيطة، ويحكي لنا المبشر الجزويتي هذا النبأ كما يأتي:

«عقد اجتماعاً دعا إليه كل رجال العلم البارزين والقواد العسكريين في المدن المجاورة لم يستثن أحداً إلا «الأب رِدُلفو» الذي كان من العبث أن ترجو منه شيئاً غير مناصبة هذه الدعوة الدينية العداء، فلما أن اجتمعوا جميعاً أمامه خطبهم بأسلوب سياسي ماهر ماكر قائلاً:

«إنه لمن الشر في أمبراطورية يحكمها رأس واحد أن ينقسم الأعضاء بعض على بعض، وأن يتباينوا في الرأي . . . ومن ثم نشأ في البلاد أحزاب بمقدار ما فيها من عقائد دينية، وإذن فلزام علينا أن ندمج هذه العقائد كلها في دين واحد على نحو يجعلها ممثلة في هذا الواحد، وتكون الفائدة الكبرى التي يجنيها كل من هذه الديانات، أنه لن يخسر شيئاً من جوانبه الحسنة، ثم يكسب كل ما هو حسن في سائر الديانات، وبهذا وحده نمجد الله ونهيء للناس سلاماً وللإمبراطورية أمناً».

«ووافق المجلس مرغمًا فأصدر «أكبر» مرسوماً يعلن نفسه رئيساً دينياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه الرئاسة الدينية هي أهم ما أثرت به المسيحية على الديانة الجديدة، وكانت هذه العقيدة الجديدة توحيداً يمثل التقاليد الهندية في التوحيد خير تمثيل، مضافاً إليه قبس من عبادة الشمس والنار مأخوذاً من العقيدة الزردشتية، وفيه عنصر شبيه بالمذهب الجانتي

في إيثاره للامتناع عن أكل اللحوم، وعد ذبح الأبقار كبيرة من الكبائر، فما أشد ما اغتبط لذلك الهندوس، وما أقل ما اغتبط له المسلمون.

«وصدر بعد ذلك مرسوم يجعل الاقتصار على أكل النبات إلزاماً على الناس جميعاً مدى مئة يوم على الأقل كل عام، ثم سار مع ميول الوطنيين خطوة أخرى فحرم الثوم والبصل، وحرم تشييد المساجد، وصوم رمضان، والحج إلى مكة وغير ذلك من شعائر المسلمين.

«ولما أراد المسلمون مناهضة هذه المراسيم نفى كثيراً منهم، وأقيم وسط «محكمة السلام» في «فتحبور ـ سكرى» معبد للديانة المتحدة الجديدة (ولا يزال هذا المعبد قائمًا) رمزاً للأمل الذي كان يضطرم في صدر الامبراطور. وهو أن يكون أهل البلاد جميعاً ـ بفضل العقيدة الجديدة ـ إخواناً يعبدون إلهاً لا يختلف من طائفة إلى طائفة.

«لم يكن النجاح حليف «الدين الإلهي» باعتباره ديناً، ووجد «أكبر» أن التقاليد أقوى من أن يهدمها بقوله إنه يجل عن الخطأ، نعم، إن بضعة آلاف من الناس التفوا حول الدين الجديد، وكان معظمهم ممن يريدون من وراء ذلك اكتساب حظوة عند الدولة، لكن الأغلبية العظمى ما زالت متمسكة بآلهتها الموروثة، أما من الوجهة السياسية فقد كان لخطته الدينية بعض النتائج المعينة، فلئن كان «أكبر» بوحيه الديني الجديد قد أبدى شيئاً من الأنانية

ومن الإسراف فقد عوض عن ذلك خير العوض بإلغائه لضريبة الرؤوس وضريبة الحج المفروضتين على الهندوس، وبإطلاقه الحرية للعقائد الدينية كلها، وبإضعافه لروح التعصب الديني والجنسي وما يتبع ذلك من جمود الرأي وانقسام الطوائف.

«ولقد كسب إلى جانبه بفضل دينه الجديد ولاء الهندوس، حتى أولئك الذين لم يعتنقوا منهم تلك العقيدة الجديدة، فاستطاع بذلك أن يحقق غايته الرئيسية إلى حد بعيد، وأعني الوحدة السياسية للبلاد.

«ولكن هذا «الدين الإلّهي» كان مصدر كراهية شديدة له في نفوس إخوانه في الإسلام، حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علناً، وإثارة الأمير «جهان كير» على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائد خفية.

«وكان مما أثار القلق في نفس الأمير أن «أكبر» قد ظل يحكم البلاد أربعين عاماً، وأن بنيته لم تزل من القوة بحيث لا أمل في موت قريب يصيبه، لهذا حشد «جهان كير» جيشاً من ثلاثين ألف فارس، وقتل «أبا الفضل» مؤرخ القصر وأحب الأصدقاء إلى نفس الملك، ثم أعلن نفسه امبراطوراً، لكن «أكبر» حمل الأمير الشاب على التسليم وعفا عنه بعد يوم واحد، غير أن خيانة الإبن لأبيه عملت على قتل أمه وقتل صديقه، وحطمت قوته النفسية، وتركته فريسة هينة «للعدو الأعظم» حتى لقد تنكر له أبناؤه في أواخر أيامه وبذلوا جهدهم كله في النزاع على العرش.

«ومات «أكبر» فلم يكن إلى جانبه إلا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين، مات بمرض الديسنتاريا، أو مات مسموماً بتدبير «جهان كير» على اختلاف الآراء في ذلك.

«وجاء الشيوخ الدينيون إلى فراش الموت يحاولون ان يردوه الى الإسلام، لكنهم منوا بالفشل.

وهكذا قضى الملك دون أن يجد من يصلي على روحه من أنصار أية عقيدة أو مذهب».

هذه شواهد تمثل وجهة النظر الغربية والاستشراقية في «أكبر» وهي وجهة نظر معادية للإسلام شر عداء، تصور أكبر صورة آية في الكمال والجمال والجلال، لأنه حطم الإسلام حَطْمًا بما ابتدع.

وتذكر هذه المصادر الغربية «أنه كان مصاباً بالصرع، وروى عنه كثيرون أن داء السوداء كثيراً ما كان يستولي عليه إلى درجة تسودُّ معها نظرته إلى الحياة اسوداداً مخيفاً، وكان يشرب الخمر ويأكل الأفيون في اعتدال، ولعله فعل ذلك ليكسب واقع حياته المظلم شيئاً من البريق، ولقد كان أبوه كما كان أبناؤه يشربون الخمر كما شربها، ويأكلون الأفيون كما فعل، لكنهم لم يكونوا يشبهونه في ضبطه لنفسه، وكان له حريم يتناسب مع سعة ملكه[1]».

---

(١) قصة الحضارة ٣ : ١٣٧ .

فالرجل لم يكن طبيعياً ذا فطرة سليمة، وكان في حقيقته أمياً، ولكن كان له من يقرأون الكتب حتى انتهى به إلى الإصغاء إلى الكتب الفلسفية المعقدة، وصار يعي ما تحوي.

ولم يفهم أكبر الإسلام، ولم يدخل الإيمان في قلبه، ولما قاومه أئمة المسلمين في مملكته اضطهدهم، وامتد اضطهاده من سنة ١٥٨٢م إلى سنة ١٥٨٥.

فأكبر «أفيونجي» سكير، ودفعه جهله بالإسلام إلى ابتداع دين خليط من الوثنيات رغبة منه في توحيد سياسي ينقض التوحيد الإسلامي.

وكثير من مؤرخي العرب المسلمين شاركوا الغربيين نظرتهم إلى أكبر فزعموا مثلما زعم هؤلاء الغربيون، ومن هؤلاء المؤرخين المسلمين: الدكتور عبد المجيد البطريق ومحمد مصطفى عطا اللذان ألفا كتاباً بعنوان «باكستان في ماضيها وحاضرها»[1] وقالا:

«وفي عهد حفيده أبي الفتح جلال الدين محمد الذي اشتهر في التاريخ بلقبه الجليل «أكبر» والذي ولي الملك عام ١٥٥٦ وكان من الهمة وحسن السياسة حتى استطاع من فتوحه في الهند جنوباً حتى غلب على معظمها، ويقترن اسم «أكبر» في التاريخ بأباطرته

---

(١) الحلقة ١٣ من سلسلة «اخترنا لك» والكتاب بمقدمة جمال عبد الناصر، راجع الصفحات ١٣ ـ ١٦.

الكبار من أمثال شارلمان وقسطنطين الأكبر، لأنه كما يقول H.G. Wells : «أقام صرح هند جديدة».

«وكان هذا العاهل يتسم بالتسامح الديني والعنصري، فقد أصدر أمراً سنة **١٥٩٣**م «بأن كل من أجبر من الهنود على اعتناق الإسلام في عهد أسلافه أمكنه العودة إلى دينه الأول» وكان مجلسه يجمع بين العلماء والفلاسفة ورجال الدين، ويقيم المساجلات والمناظرات في أدق المسائل وأخطر المشكلات، وبخاصة فيما يتصل بما وراء الطبيعة على أميته وعدم اصطناعه الكتابة».

ويقول المؤلفان: «وبلغ من تسامحه أنه ألغى نظام الجزية المفروض على غير المسلمين... وقد عمل «أكبر» أثناء حكمه الطويل **١٥٥٦ - ١٦٠٥** على تقريب مسافة الخلف بين المسلمين والهندوس، محاولاً إقناع رعاياه أنه إنما يحكم الهند باسم الجميع، لا فضل لمسلم على هندوسي، وعندما كان ينجح في غزواته للإمارات الهندية كان يظهر التسامح لحكامها المهزومين فيعينهم في مناصبهم من جديد على أن يظلوا تحت لواء الامبراطورية الإسلامية، ومما يذكره له الهنود بالإعجاب أنه ساوى بين المسلم والهندوسي في الضرائب المفروضة، ولم يجد مانعاً من تعيين بعض الهندوس قواداً في جيشه، ولكن بوفاته انتهت سياسة التسامح التي اتبعها، وعاد خلفاؤه إلى السياسة القديمة في تغليب مصلحة المسلمين.

واستطاع حفيده أورنجزيب الذي تولى الحكم سنة **١٦٥٨**

حتى ١٧٠٧م أن يصبح سيد شبه الجزيرة الهندية وأن يكون آخر ملوك المغول العظام، فقد كان من أهدافه أن يجعل من بلاد الهند وحدة إسلامية، فتخلى عن سياسة جده، وفرض الجزية على غير المسلمين من الهندوس».

ورجل مثل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي يتظاهر بالغيرة على الإسلام يقلد المستشرقين فيقول في أكبر بمجلة الرسالة التي كتب فيها عديداً من المقالات تحت عنوان «رحلة إلى الهند» ما ننقله بحروفه:[1].

«وجلال الدين أكبر الذي أتوجه لزيارته الآن هو ابن همايون وحفيد بابر، وضع هذان له القواعد ليشيد ملكاً عظيمًا، ويوطد دولة ينبسط سلطانها على الهند قليلاً، ويترك على الزمان سيرة في الفتح والعدل والحضارة والعمارة لا تزال منار إعجاب وتعجب، ولا تزال مفخرة من مفاخر التاريخ الإسلامي». ويقول عزام: «وحاول أن يشيع المحبة والمودة بين الناس بجمعهم على دين واحد، فألف من الإسلام والمجوسية والنصرانية وأديان أخرى ديناً سماه «التوحيد الإلهي» وبنى معبداً لهذا الدين ودعا الناس إليه فاتبعه قليل بالرغبة والرهبة، فلما مات لم يبق على دينه أحد».

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ٧٥٢ الصادر في يوم الإثنين ١٨ محرم ١٣٦٧ (١ديسمبر ١٩٤٧م) السنة الخامسة عشرة.

ويقول عزام في عدد اخر من مجلة «الرسالة»[1] ما نصه: «سن هؤلاء السلاطين سنناً في الدولة حسنة، وسلكوا طرقاً في الإصلاح مأثورة، وجمعوا حولهم ـ ولا سيما جلال الدين أكبر الذي ملك خمسين عاماً ـ العلماء والفلاسفة والأطباء والأدباء من الهند وأقطار أخرى» إلخ.

فعبد الوهاب عزام لا ينكر على «أكبر» جهله للإسلام كل الجهل واختراعه نحلة كافرة، واضطهاده المسلمين الذين قاوموا دعوته ونحلته، بل ساق ما ساق على سبيل الإكبار والتمجيد، وكان مقلداً أعداء الإسلام، وكأنه أحدهم.

والدين الذي لفقه أكبر ودعاه «التوحيد الإلَهي» إنما هو دين وثني لم يرضِ أحداً من أصحاب الأديان التي لفق منها ما سماه التوحيد الإلَهي، لأنه خلْط لا يعدو سمادير «الأفيونجية».

ويكفي أنه لم يكن ديناً متبوعاً إلا من قلة من المنافقين، مات بموته، وما كان قط توحيده الإلَهي الإسلام، ولا يحسب من الإسلام، والإسلام بريء منه ومن صاحبه.

وهناك نِحَل لا مجال لحصرها في هذه الصفحات تنتسب إلى الإسلام أو تدعيه، وليست منه، بل هي أشد على الإسلام وأعدى أعدائه، وأبعد عنه من بعض الوثنيات التي لا تريد بالإسلام شراً.

---

(١) مجلة «الرسالة» العدد الممتاز ٧٠٥ الصادر في يوم الإثنين ١٣ صفر ١٣٦٦ هـ (٦ يناير ١٩٤٧م) السنة الخامسة عشرة. المجلد١.

ومن هذه النحل الكافرة التي تصطبغ بصبغة الإسلام لتضليل العامة: الباطنية، واليزيدية، والقزلباشية، والشُبك، وغيرها.

والباطنية أبشع فرقة من الفرق التي تتظاهر بالإسلام وهي أعدى أعدائه.

يقول الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادي (توفي سنة **٤٢٩هـ**) في كتابه «الفَرْق بين الفِرَق» ص **٢٦٥ - ٢٦٦**:

«وإن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان».

و«إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة، منهم؛ ميمون بن ديصان المعروف بالقداح، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز، ومنهم: محمد بن الحسين الملقب بذيذان وميمون بن ديصان، في سجن والي العراق، وأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بذيذان، وابتدأ بالدعوة من ناحية فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نسله، فلما

دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم من ادعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، فقبل الأغبياء ذلك منه، على أن أصحاب الانتساب بأن محمد بن اسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب»

وقال البغدادي في ص ٢٨٧ ـ ٢٧٩ :

«الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع.

«والدليل على أنهم كما ذكرناه ما قرأناه في كتابهم المترجم بالسياسة والبلاغ الأكيد والناموس الأعظم، وهي رسالة عبيد الله ابن الحسن القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي أوصاه فيها بأن قال له: «أدع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن أنست منه رشداً فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة مُعوَّلنا، وإنا واياهم مجمعون على أن نواميس الأنبياء وعلى القول بقدم العالم، ولولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا يعرفه».

«وذكر في الكتاب إبطال القول بالمعاد والعقاب، وذكر فيها أن الجنة نعيم الدنيا، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد.

«وقال أيضاً في هذه الرسالة: إن أهل الشرائع يعبدون إلّهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم.

وقال فيها أيضاً: أكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم، وفي هذا تحقيق نسبة الباطنية إلى الدهرية».

ويقول البغدادي ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠:

«والباطنية يرفضون المعجزات، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحي والأمر والنهي، بل ينكرون أن يكون في السماء مَلَك، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم، ويتأولون الشياطين على مخالفيهم، والأبالسة على مخالفيهم، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة».

ويقول في ص ٢٨٠ ـ ٢٨١:

«وقد قال القيرواني في رسالته إلى سليمان بن الحسن: «إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة في السماء، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأن قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم». وفي هذا تحقيق دعوانا على الباطنية أنهم دهرية يقولون بقدم العالم ويجحدون الصانع.

ويدل على دعوانا عليهم القول بإبطال الشرائع أن القيرواني

قال أيضاً في رسالته إلى سليمان بن الحسن: «وينبغي أن نحيط علمًا بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم كعيسى ابن مريم قال لليهود: لاأرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبْت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها، ولهذا قتلته البلاد لما اختلفت كلمته».

«ثم قال له: «ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة(١) حين سألوه عن الروح فقال: الروح من أمر ربي، لما لم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة، ولما لم يجد المُحِقُّ في زمانه عنده برهاناً قال له: لئن اتخذت إلهاً غيري، وقال لقومه: أنا ربكم الأعلى، لأنه كان صاحب الزمان في وقته».

«ثم قال في آخر رسالته: «وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدّعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء، وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه، وينكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته من الأجنبي، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات، وخوّفهم بغائب لا يعقل، وهو الإلَه الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار حتى استعبدهم بذلك عاجلاً، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خَوَلا، واستباح بذلك

(١) يقصد بصاحب الأمة المنكوسة سيدنا محمد ﷺ وأمته الإسلامية.

أموالهم بقوله: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (الشورى ٢٣) فكان أمره معهم نقداً، وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون».

ويقول حجة الإسلام الإمام الغزالي في سبب تسميتهم الباطنية[1]:

«أما الباطنية فإنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معينة، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار، والبواطن والأغوار، وقع بظواهر مسارعاً إلى الاغترار، كان تحت الأواصر والأغلال مُعَنًّى بالأوزار والأثقال، وأرادوا بالأغلال التكاليف الشرعية، فإن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عن التكليف واستراح من أعبائه وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿ ونضع عنهم إصرَهُم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ الآية، وربما موهوا بالاستشهاد عليه بقولهم: إن الجهال المنكرين للباطن هم الذين أريدوا بقوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾

(١) من كتابه «فضائح الباطنية» حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي، نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٤م) صفحة ١١ - ١٢.

وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين، إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى عصام يُرجع إليه ويُعَوَّل عليه».

وليس مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي قدرة وفهمًا لمعتقد الباطنية الذي يشير إليه في كتابه «فضائح الباطنية» إذ يقول في صفحة ٣٨:

«اتفقت أقوال نقلة المقالات من غير تردد أنهم قائلون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان، إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني، واسم العلة: السابق، واسم المعلول: التالي، وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه، وقد يسمى الأول: عقلاً، والثاني نفساً، ويزعمون أن الأول هو التام بالفعل، والثاني بالإضافة إليه ناقص لأنه معلوله إلخ.

«ثم قالوا: السابق لا يوصف بوجود ولا عدم، فإن العدم نفي، والوجود تشبيه[1]، فلا هو موجود ولا هو معدوم، ولا هو معلوم ولا هو مجهول، ولا هو موصوف ولا هو غير موصوف، وزعموا أن جميع الأسامي منتفية عنه، وكأنهم يتطلعون في الجملة

(١) في نسخة المتحف البريطاني «سببه» واختاره الدكتور عبد الرحمن بدوي محقق الكتاب، واخترنا نحن ما في النسخة الأخرى التي يعتمدها مع الأولى وهي «تشبيه» لأنه أوفق، ويؤكده أن الغزالي نفسه في الجملة نفسها يقول: «وسموا مناقضه تشبيهاً» حسب ما جاء في تحقيق الدكتور نفسه.

لنفي الصانع، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم، بل منعوا الناس من تسميته موجوداً، وهو عين النفي مع تغير العبارة، لكنهم تحذَّقوا فسموا هذا النفي تنزيهاً، وسموا مناقضه تشبيهاً، حتى تميل القلوب إلى قبوله، ثم قالوا: العالم قديم، أي وجوده ليس مسبوقاً بعدم زماني، بل حدث من السابق إلخ».

وقد تصدى الإمام الغزالي للرد على الباطنية وتفنيد زَعَماتها، وكشف ضلالاتها، وفضح مراميها، وإثبات كفرها.

ومما لا شك فيه أن الباطنية كفر لئيم، وتعطيلها بشع غاية في الإلحاد، وفلسفتها أباطيل وأوهام وقذارات، وقد اتخذوا الانتساب إلى الإسلام ستاراً يخفي ما يبطنون من الكيد له، وسبيلاً لخداع العامة واجتذاب المنحرفين الضالين، والرغبة في هدم الإسلام باسم الإسلام، وقد هدموه في نفوس كثير من المخدوعين فصاروا ـ كما ذكر البغدادي ـ أشد على الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية والمجوسية.

وقد سبق لي بحث موجز نشرته لي مجلة «الحج» التي تصدر بمكة المكرمة منذ بضع عشرة سنة وأعدت نشره في كتابي «قطرة من يراع»[1] حيث جاء فيه:

«الباطنية فسرت الدين كما تريد تعميمًا للشرك، كما أنها

---

(١) طبع بالقاهرة سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) وراجع فيه الشواهد بصفحة ١٠٦ ـ ١٠٨.

احتالت لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس.

«ويرى أصحاب هذا المذهب ـ الذي يعد أخطر مذهب ظهر على وجه الأرض منذ وجودها ـ إباحة نكاح المحرمات من النساء، والخمر، وتحليل كل حرام، واعتبار كل منكر معروفاً، بل اعتداد ما لا تقبله الطبيعة المستقيمة شريعة يجب أن تتبع، حتى تستطيع أن تهدم دولة الإيمان في نفس الإنسان، وتقوض صرح الفضيلة والإنسانية والحق.

«إن الباطنية جماع شر ما في الفرق الضالة والكافرة قديمها وحديثها، وشرها وحده يكاد يرجح بشرور كل هؤلاء.

«وإتيان الذكور عند الباطنية سنة متبعة، بل شريعة يُقْتَل جاحدها أو الخارج عنها أو عليها، ونستدل على هذا من فعلة ابن أبي زكريا الطامي الذي ظهر بالأحساء والبحرين سنة **٣١٩هـ** وفعلته ـ هذه ـ الشنعاء جعله إتيان الذكور لأتباعه سنة متبعة، ووجوب قتل كل من يأبى هذا العمل الشاذ.

«وستر الباطنية دعوتهم إلا عن أتباعها المخلصين حتى يستطيعوا الرجوع بمن يقدرون عليه من المسلمين إلى المجوسية والدّهرية.

وكان زعماء الباطنية ـ لعنهم الله ـ يتبعون وسائل مختلفة في حمل العامة على مذهبهم الباطل، يزخرفون القول ليتمكنوا من

التضليل والإيهام والتشكيك، كما كانوا يستبيحون كل وسيلة قذرة تنتهي بهم إلى غايتهم الممعنة في السفالة والنجاسة والفسق».

«وجملة القول في الباطنية أنها مذهب هدام لكل ما يبني المجتمع ويهذبه، مذهب ينحط إلى أسفل من درك الحيوان، ومذهب يعين الطبيعة المعوجة والنفس السافلة والغريزة البهيمية المتوحشة أن تضرى وتفتك بالإيمان والأخلاق.

«إن الباطنية مذهب لا يعترف بدين ولا خلق ولا إنسانية، ولأنه مذهب قوم لا يفضلهم الشيطان في شيء، بل هم والشيطان سواء، بل الشيطان خير منهم، لأنه كفر عن عناد وحسد، وعرف مع كفره ربه فطلب إليه سبحانه وتعالى أن يُنْظِرهَ إلى يوم يبعثون».

وأشار المؤرخون والفقهاء ومنهم حجة الإسلام الإمام الغزالي إلى ألقاب الباطنية، وعدوا منها القرامطة، والقرمطية، والخرمية والإسماعيلية.

ويقول العلامة الشيخ محمود زاهد الكوثري في مقدمته الرائعة التي كتبها لكتاب «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة»[1] ص٨:

«ولمذهب هؤلاء الزنادقة ألقاب على اختلاف البلدان، وأشهرها «الباطنية» لزعمهم أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل

(١) من تأليف العالم الفقيه محمد بن مالك الحمادي اليماني، نشر عزت العطار بالقاهرة سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٩م).

تأويلاً، انسلاخاً من الدين، ويعرفون في العراق باسم «القرامطة» جمع قرمطي نسبة إلى قرمط السابق ذكره، وباسم المزدقية أيضاً بالنظر إلى أنهم يدينون بدين الاشتراك في الأبضاع والأموال الذي ابتدعه مزدق في عهد قباذ الساساني، ويسمون في خراسان «بالتعليمية» والملاحدة، والميمونية، نسبة إلى ميمون أخي قرمط السابق ذكره دون ميمون بن ديصان، لأنه ليس بفرع، بل هو أصل البلاء كله، ويدعون في مصر بالعبيدية، وفي الهند «بالبهرة والإسماعيلية» وفي اليمن «باليامية» نسبة إلى القبيلة المعروفة، وفي بلاد الأكراد «بالعلوية» حيث يقولون: علي هو الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ وفي بلاد الأتراك «بالبكداشية والقزلباشية» على اختلاف منازعهم، وفي بلاد العجم «بالبابية» ولهم فروع إلى يومنا هذا، وتلبس لكل قرن لبوسه، وتظهر لكل قوم بمظهر تقضي به البيئة، وقدماؤهم كانوا يسمون أنفسهم بالإسماعيلية إلخ».

فهذه الفرق كلها هي الباطنية، وإن كانت كل فرقة أستقلت بنظريات ومعالم خاصة بها، ولكن جميعها تصدر من أصل واحد، ومبادئها ومقاصدها واحدة وهي هدم الإسلام قبل غيره.

وقد وجدت الباطنية مدافعين عنها بغير حق ولا برهان، بل انتهى ببعضهم إلى تبرئة القرامطة والاعتذار فيما وصفت به إلى أن الواصفين أعداء، مع أن كتبهم التي ألفها أقطاب الباطنية والقرامطة تثبت ما وصفوا به، بل لم أجد من غيرهم من يدافع

عنهم غير واحد[1].

واليزيدية فرقة لها عقيدتها، واليزيدية التي نقصر عليها بحثنا غير اليزيدية الأخرى التي تنسب إلى يزيد بن أبي أنيسة الخارجي، وهو من البصرة، ولكنه فارقها إلى تون بفارس، وكان يدعي أن الله عز وجل سيبعث نبياً من العجم ينسخ بشرعه شريعة محمد ﷺ، وكل من أقر بنبوة محمد من النصارى واليهود فهو مؤمن، وابن أبي أنيسة ـ هذا ـ كافر.

وهذه اليزيدية خارجة على الإسلام، وإن كان يزيد الخارجي يدعي الإسلام زوراً وتضليلاً.

أما اليزيدية التي نقصر بحثنا عليها فهي فرقة أموية أوجدتها السياسة لمحاربة آل البيت، وتأييد بني أمية.

والصراع بين بني هاشم وبني أمية بدأ قبل الإسلام، ولما بعث محمد الهاشمي ﷺ كان رئيس بني أمية أبو سفيان بن حرب

(١) الأستاذ أحمد السباعي في كتابه «تاريخ مكة» (راجع الطبعة الثانية ١ : ١٤٨ ـ ١٥٣) يقول السباعي (١ : ١٥٢): «يعوزنا لصحة التدليل على ما تنقله أخبار المؤرخين أن نطلع على نصوص توضح لنا مبادىء هذا المذهب، ولكن من لنا بهذه النصوص صادرة عن أصحاب هذا المذهب بخط أيديهم» والواقع أن في المكتبات هذه النصوص، وليس ما يذهب إليه السباعي بحق، فعلى منطقه المتهافت يمكن نفي أكبر حوادث التاريخ، وتبرئة السباعي للقرامطة خطأ شنيع، ولو أراد الحق لوجد أن ما اتهم به القرامطة حق تؤيده رسائلهم وأقوالهم وأفعالهم الثابتة من كتبهم الموجودة في المكتبات بخطوطهم، ثم ما كتبه حجة الإسلام الغزالي والإمام البغدادي وأمثالهما، وهم من أعدل الناس وأصدقهم، ويقبل العالم ما يقولون، فلماذا يطعنهم مؤلف «تاريخ مكة»؟ إن القرامطة كفرة ملاحدة برغم دفاعه المتهافت عنهم.

حرباً على الإسلام ورسوله، وفي عهده ﷺ لم تستطع الجاهلية أن ترفع رأسها، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حتى إذا جاء الخلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وجد الأمويون فرصة للتدخل في السياسة والحكم، ولولا تولي مروان ابن الحكم في خلافة عثمان منصب «الكاتب الخاص» له لما استطاع الأمويون أن يوجهوا الخلافة الإسلامية وجهة مناقضة لوجهة الإسلام الصحيحة.

وعندما قتل عثمان رضي الله عنه وبويع الإمام علي كرم الله وجهه بالخلافة حاربه بنو أمية حتى اغتيل الإمام، وانتزعها معاوية ابن أبي سفيان ،فاتجهت الخلافة الإسلامية اتجاهاً غير سليم، وجند الأمويون كل سلاح لمحاربة آل البيت، وبلغ بهم الحقد واللدد في العداء أنهم كانوا يلعنون الإمام علياً المبشر بالجنة التي لا ينالها إلا من وسعته رحمة الله ورضوانه، وكان عمال الأمويين في كل بلدان الإسلام يلعنون الإمام، واللعن: الطرد من رحمة الله، والإسلام يمنع لعن «المعين» باسمه وشخصه ولو كان غير مسلم، فلعن الإمام علي كرم الله وجهه طعن في بشارة رسول الله ﷺ، ومناهضة لأوامر الإسلام.

وأخضعت السياسة الدين لأهوائها، واتخذ الأمويون كل سلاح لقتل آل البيت، فما يحزن آل رسول الله يسر الأمويين، فيوم العاشر من محرم يوم حزن على آل رسول الله والمسلمين لأن سيدنا

الحسين ابن فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ قتل فيه، فاتخذه الأمويون يوم سرور وابتهاج وعيد، ووضعوا الأحاديث في طعن علي كرم الله وجهه.

وعندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة اشتعل غضب أتقياء المسلمين وعلى رأسهم آل رسول الله، فيزيد فاسق، بويع بالخلافة كرهاً، وأخذت البيعة بالإغراء والتهديد، وبأمره قوتل الحسين، وأبيحت المدينة بلد الرسول الكريم لجند يزيد، وفجر جند يزيد ببنات الصحابة ونسائهم، وضربت الكعبة في عهد يزيد.

ولما مات يزيد قبل الأربعين من عمره سارت الخلافة الأموية سيراً يعارض نهج الإسلام الحق في الحكم والخلافة، وانقلبت الخلافة تسلطاً ودنيا، وصار الخليفة الأموي متحكمًا في مال الأمة ورقابها، واستخدم الأمويون الدين باختلاق الأحاديث ضد آل رسول الله، وظهر من يدافع عن يزيد حتى ولدت اليزيدية التي بدأت بالدفاع عن يزيد، ووصفوه بأنه الإمام العادل الهادي المهدي، وأنه من أكابر الصحابة، ومن أولياء الله الصالحين.

ولم يكف أنصار يزيد الأكاذيب حتى إذا بَعُدَ بهم الزمن ظهر منهم من زعم أن يزيد نبي من أنبياء الله، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الكفر الشنيع بالله وبرسوله إذْ زعموا أن يزيد نبي مع أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، بل كفروا بالقرآن حين زعموا نبوة يزيد، لأن الله عز وجل يقول في محكم كتابه:

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[1].

بل تجاوز الأمر ادعاء اليزيدية النبوة ليزيد إلى ادعاء الألوهية له، فاعتقد اليزيدية أن يزيد إلههم، ولهم كتابان مقدسان لديهم هما: مصحف رش، والجلوة، مملوءان بالكذب والأساطير والدعاوى والبهتان.

وجاء في «مصحف رش»[2]:

«نظر الله إلى محمد فرآه لا يسلك باستقامة فأوجع رأسه، فقال محمد لمعاوية: تعالى احلق رأسي، لتعاطي معاوية التزيين فأتى معاوية وحلق رأس محمد بخفة فجرحه وجرى منه دم كثير، فلما رأى معاوية الدم لحسه بلسانه خوفاً لئلا يقع على الأرض، فقال له محمد: ماذا صنعت يا معاوية؟ أجاب: إني لحسته خوفاً لئلا يقع على الأرض، فقال محمد: لقد أخطأت بذلك، فإنك تجذب وراءك أمة عظيمة وتتخاصم مع أمتي، فقال معاوية: لا أتزوج ولا أقع في العالم قطّ، ثم بعد زمان سلط الله على معاوية عقارب فلدغته ورشت سمها عليه، فلما رآه الأطباء جزموا عليه وأتوه

---

(١) النصوص المنقولة في بحثنا من «مصحف رش» و«الجلوة» مصدرها البحث العظيم الذي كتبه الأستاذ سعيد الديوهجي من أبناء الموصل بالعراق. ونشر بحثه هذا بمجلة الرسالة في خمسة أعداد منها ابتداءً من العدد ٥٥٧ الصادر في يوم الإثنين ١١/٣/١٣٦٣ هـ (٦/٣/١٩٤٤م) السنة الثانية عشرة وختاماً بالعدد ٥٦١ الصادر في ٩/٤/١٣٦٣ هـ (٣/٤/١٩٤٤م) وقد اعتمدنا على بحثه فيما كتبناه عن «اليزيدية».

(٢) الأحزاب: ٤٠.

بامرأة يربى على الثمانين كيلا تحبل، فلما عرفها معاوية أصبحت في الغد ابنة خمسة عشرة سنة[1]، وذلك بقدرة الإلّه، فحبلت وولدت إلهنا الذي يسمى يزيداً».

وموطن اليزيدية الجبال القريبة من بلدة الموصل التي كانت أموية، وكان يتولى الحكم فيها في أكثر الأحيان أفراد من البيت الأموي، كما كانت الجزيرة من مواطنهم.

ومرت اليزيدية في أدوار معدودات، ففي دورها الثاني تولى الشيخ «عدي بن مسافر» الأموي من قبل مروان بن الحكم، ولد في «بيت فار» من أعمال بعلبك، ثم رحل إلى الموصل، ثم غادرها إلى الجبال واتخذها موطنه، وآثر الخلوة والانقطاع والتنقل في البراري.

ويقول الأستاذ سعيد الديوهجي الذي اعتمدنا على بحثه في كل ما كتبنا في اليزيدية أن الشيخ عديا بنى لنفسه «زاوية» في جبل «لالش» والتفّ به أهل تلك الديار لورعه وتقواه وصلاحه، وسلك بأتباعه طريق الهدى والرشاد.

ووصفه الشيخ عبد القادر الكيلاني بقوله: «لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر».

وكان الشيخ عدي بن مسافر من أهل السنة والجماعة، ولم يكن أموياً في الآراء المناهضة لآل البيت، بل كان مع آل البيت،

---

(١) نقلنا النص كما ورد، ولم نصحح الأغلاط، وأسلوب كتابي اليزيدية المقدسين غاية في الركاكة.

فهو يقول في إحدى رسائله في النزاع الحادث بين الإمام علي ومعاوية ما نصه: «كانا إمامين مجتهدين، ولكن المصيب منهما علي رضي الله عنه» وله رسائل معدودات ألفها في العقائد والتوحيد، وذهب فيها مذهب السلف الصالح، وأيد ما ذهب إليه بالكتاب والسنة.

وذكر الأستاذ الديوهجي رسالة من رسائله موجودة بمكتبة «مدرسة الحجيات» في الموصل، وهي من خير رسائله، نهج فيها نهج السلف الصالح، وندد بالفرق المبتدعة والضالة، وجاء في رسالته هذه قوله: «ونؤمن بما ورد في الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم أن الله لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبهه شيء منها إلخ».

وتوفي الشيخ عدي سنة ٥٥٧ هـ ودفن بزاويته التي بناها في «لالش» وخلفه ابن أخيه «صخر» وكان صالحاً زاهداً مثل عمه حتى توفي، فتسلم ابنه «أبو المخاخر عدي» الدعوة وسلك بها مسلك أبيه بأتباعه، وارتفعت منزلة الأسرة «العدوية» لدى أتباعها فوق منزلة الملوك والحكام، وهؤلاء الأتباع من الأكراد الأشداء.

وفي الدور الثالث ـ حسب تقسيم الأستاذ الديوهجي ـ آل الأمر إلى الشيخ «حسن» ولم يكن مثل أسلافه الثلاثة، بل غرته الدنيا وطمع في الحكم عندما رأى أن أتباع العدوية من الأشداء المغاوير الألى يمكن الإفادة من طاعتهم العمياء وشجاعتهم

النادرة، فانقطع عن أصحابه ست سنين، ثم خرج عليهم بكتاب ألفه وسماه «كتاب الجلوة لأرباب الخلوة» حوى أباطيل، وغلا في حب «يزيد وعدي» ومكنه دهاؤه وعلمه من أتباعه، وانتقل إلى الموصل وسكنها طمعاً في الحكم، وتبعه كثير من أهلها.

وانقلبت العدوية مذهباً باطلاً كافراً، واتبعه كثير، كما اتبعه غير قليل من أهل سورية، ونهض آل البيت يقاومونه، وخاف الحكام من الدعوة التي يقوم بها الشيخ حسن، فانبرى له بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وقبض عليه في سنة **٦٤٤** هـ وخنقه بوتر حتى مات، وتتبع أنصاره وفتك بهم فتكاً ذريعاً، وفي سنة **٦٥٢**هـ جهز جيشاً وحارب به اليزيدية في موطنها، ونبش قبر الشيخ «عدي الكبير» وأخرج عظامه وأحرقها، وقضى على سلطان فرقة اليزيدية.

وبدر الدين لؤلؤ من أشياع آل علي، وإذا كان خوفه على حكمه حمله على محاربة اليزيدية فإن بواعثه النفسية كانت من أعظم الأسباب، فاليزيدية التي أوجدها «الشيخ حسن» تنقم على آل البيت الألى يتشيع لهم بدر الدين لؤلؤ، فكانت حربه التي أعلنها على اليزيدية ودعاتها وأتباعها حتى أضعف أمرهم جميعاً.

ويصف الأستاذ الديوهجي الدور الرابع قائلاً:

«في القرن الثامن الهجري بدأ انحراف هذه الفرقة يزداد عن الإسلام، ودخل التجسيم في اعتقادهم، ولا سيما أن رؤساءهم الدينيين حرموا القراءة والكتابة عليهم فأوقعوهم في

ظلمات الجهل وسخروهم لمصالحهم، وقادوهم حيث أرادوا، ودخل عقائدَهم عقائدُ يهودية ومسيحية ووثنية وصابئية وخارجية، وكانوا يسترون عقائدهم الزائغة عن الإسلام بكتمانها وعدم إباحتها، وصاروا بذلك فرقة باطنية خارجة عن الإسلام، ولا ندري متى تم هذا الانفصال، ولكن بعض النصوص تصرح بأن يزيدية «جبل مقلوب» بقوا محافظين على إسلاميتهم حتى القرن الحادي عشر الهجري، وهم على المذهب الشافعي كبقية الأكراد، ولا يشوب عقيدتهم إلا بغض«آل البيت» والتطاول عليهم، ولهذا فإننا نرجح أن انفصال اليزيدية عن الإسلام تم في العصور المتأخرة أي بعد القرن الحادي عشر الهجري».

ويذكر الأستاذ الديوهجي عقائد اليزيدية فيقول:

«يعتقدون أن الأمم الباقية من مسيحيين ويهود ومسلمين على ضلال، ويجب على اليزيدية أن يجتنبوهم، لأن إلههم «طاووس ملك» لا يحبهم كما يحبّ اليزيدية».

و«وجاء في كتابهم «الجلوة»: «لا تقبلوا كتب الأجانب من اليهود والنصارى والإسلام لأنهم غيروها، ولكن اقبلوا ما يوافق سنتي»».

و«وقال أيضاً: «جميع الكتب الموجودة بين الخارجين بدلوا فيها وزاغوا عنها ولو كتبها الأنبياء والرسل المرسلون، لأن كل واحد يبطل الآخر وينفي قوله ويضادده الحق، والباطل معلوم، عندي»».

و «جاء في «مصحف رش» بأن طاووس ملك خلق لهم عدة ملوك قبل الأمويين، وأن ديانتهم قبل المسيح كانت تسمى وثنية وكـل اليهود والنصارى والإسلام وغير ذلك من الطوائف حتى العجم أيضاً قاموا ضد ديانتنا، ولكن لم يقدروا عليها ولا علينا قط، لأن إلهنا يقوينا عليهم ويعلمنا العلم الأول والآخر».

ويعتقد اليزيدية بتعدد الآلهة، ورفعوا ستة من مشائخهم إلى مقام الألوهية، كما اعتقدوا في ألوهية الشيطان، فالآلهة عندهم سبعة غير الله، وهو الذي خلقهم من نوره، وخلقه يشبه من يشعل سراجاً من سراج آخر، وآلهتهم هي:

١ ـ الملاك عزازيل، وهو الشيطان، وسموه «طاووس ملك» رئيس الآلهة جميعاً، وخلقه يوم الأحد.

٢ ـ الملاك دردائل، وهو الشيخ حسن، خلقه يوم الإثنين.

٣ ـ الملاك إسرافيل، وهو الشيخ شمس الدين، وخلقه يوم الثلاثاء.

٤ ـ الملاك ميخائيـل، وهو الشيـخ عطا، خلقـه يوم الأربعاء.

٥ ـ الملاك عزرائيل، وهو السجادين، خلقه يوم الخميس.

٦ ـ شمنائل، وهو ناصر الدين، خلقه يوم الجمعة.

٧ ـ نورائل، وهو بدين، خلقه يوم السبت.

ويزعمون أن الله قال لهم: خلقت السماء فاصعدوا إليها

وليخلق كل منكم شيئاً، فصعدوا إلى السماء، وخلق الأول الأرض، وخلق الثاني الشمس، والثالث خلق القمر، والرابع الفلك، والخامس «المصرفع» أي نجمة الصبح، والسادس خلق الفردوس ثم جهنم، ثم صعد الله إلى مكانه، وترك تصريف العالم للآلهة السبعة بالتناوب، كل منهم يصرفه ألف عام منذ طوفان نوح حتى اليوم دون أن يشاركه أحد في حكمه.

وحكم العالم الآن وتصريف شؤونه بيد «طاووس ملك» وهو رئيسهم وأشدهم قدرة وأقربهم إلى الله، وسلطانه في بعض الأحيان لا يقل عن سلطان الله، والشيطان الذي هو «طاووس ملك» مختص بالملة اليزيدية، ويزعمون أنه جاءهم ورأوه، وينكرون أمر طرده من الجنة.

وجاء في كتابهم المقدس المعروف بمصحف رش: ان الأمم لا تعرف ذلك فتقول إن إلهنا نزل من السماء مطروداً محتقراً، ! ولهذا يجدِّفون عليه، فقد غلطوا بذلك وضلوا، أما عندنا نحن اليزيدية فلا نقبل ذلك لأننا نعرفه وحدنا، وهو واحد من السبعة الآلهة المذكورة آنفاً، ونعرف صورته وشخصه، وهي صورة الديك[1]، فلا يجوز لأحد أن يلفظ اسمه أو ما يشابه اسمه كالشيطان والقبطان والشروشط وما شاكل ذلك، ولا لفظة ملعون أو لعنة أو نعلبذ أو ما أشبه، فكلها حرام علينا لفظها احتراماً له،

---

(١) يرمز اليزيدية إلى الشيطان بديك أعور مصنوع من النحاس، وزيارته عندهم فرض، وهم يطوفون به في القرى اليزيدية.

وإذا جدف عليه أحد أو نطق بما شابه ذلك أمام اليزيدي فيجب على اليزيدي أن يقتله أو يقتل نفسه، أما بقية الطوائف فلا تعرف هذه الأشياء كلها، لأنها لا تعرف طاووس ملك ولا يعرفها ولا ينزل عن حدها، أما نحن معشر اليزيدية فأتى عندنا وسلم لنا الآيات والحقائق والقوانين، فصارت كلها بالتناسل وراثة من الوالد إلى ابنه، ثم صعد إلى السماء».

ويتحدث الشيطان (طاووس ملك) يصف نفسه في «مصحف رش» قائلاً: «أنا موجود، وليس لي نهاية، أنا رتبت منذ القدم تدابير العالم وانقلاب الأجيال وتعرُّف مديريهم، لي تسلط على كل الخلائق، وإلى تدبير مصالح كل الذين تحت حوزتي وقبضة يدي، أنا حاضر سريعاً عند الذين يثقون بي ويدعونني وقت الحاجة، ولا يخلو مني مكان في الدنيا كلها، أنا مشترك في كل الوقائع التي يسميها الخارجون شروراً لأنها ليست بحسب مرامهم».

ويتحدث الشيطان في «الجلوة» قائلاً: «لكل زمان مدبر مشورتي، ويندم ويحزن الذي يقاومني، جميع الآلهة ليست لها مداخلة في شغلي، بيدي قوة وسلطة على جميع ما في الأرض فوقاً وأسفل».

وليس هؤلاء وحدهم آلهة اليزيدية، فهناك آلهة أخرى، فقد مرت الإشارة الى انهم يؤلهون يزيد بن معاوية، ولكنهم

قصروا عمل يزيد على تسلم السناجق (الأعلام) السبعة من سليمان الحكيم، وسلمها الأمة اليزيدية، ويزعمون أنهم محتفظون بهذه الأعلام.

والشيخ «عدي الكبير» جعلوه إلهاً، وزعموا أنه مشير لله ووزيره، أو هو شريكه في حكم العالم وتصريفه، فالسماء تحت حكم الله، والأرض تحت حكم الشيخ عدي، وربما كان ما يملكه الشيخ عدي أكثر مما يملكه الله عز وجل ودليلهم: أن الله زار الشيخ عدي في «لالش» فقام الشيخ عدي بضيافة الله على أكمل ما تكون الضيافة، ولما رد الشيخ عدي الزيارة وصعد إلى السماء مصحوباً بأتباعه ومريديه لم يكن لدى الله علف خيولهم، فأمرهم بالنزول إلى الأرض وأن يأتوه من حقوله بالعلف، فأتوه به، وسقط التبن في السماء فكان منه «المجرة» المسمى «درب التبانة».

ومع أن اليزيدية تدعي أن الشيخ عديا شريك الله في الملك لم تشر كتبها إلى أي عمل يدل على هذه الشركة، إلا أنهم يعتقدون ان الشيخ عديا يستقبل أتباعه في اليوم الآخر ويضعهم في طبق ويحمله على رأسه ويدخل بهم الجنة، ويبقى من عداهم من بقية الناس في معاناة أهوال الموقف وكربه.

وزيارة قبر عدي في لالش فرض على كل يزيدي وقبره أفضل من مكة والقدس، ويحجون إلى جبل لالش في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر (أيلول) إلى العشرين منه، وكل

يزيدي يستطيع الحج ولا يحج كافر، وأن الشيخ عديا أفضل من محمد ﷺ، كما يدعون، لعنهم الله.

ويعتقدون أن نبياً من العجم سيبعث في آخر الزمان ينسخ ما سبقه من الأديان، ويؤيد دين اليزيدية، وهم في هذا الاعتقاد يتفقون مع اليزيدية المنسوبة إلى يزيد بن أبي أنيسة الخارجي البصري الذي مرَّ ذكره، بل أخذوه منه.

وهم يقرأون القرآن ويعلمونه أولادهم، ولا يصلون، وإن كانوا يسجدون للشمس والقمر، ولا يصومون رمضان، وإنما يصومون ثلاثة أيام من الصباح إلى المساء من شهر كانون الأول الشرقي.

ويعتقدون بالحلول، وجاء في كتابهم المقدس «الجلوة» «لا أسمح لأحد أن يسكن هذه الدنيا أكثر من الزمن الذي حددته له، وإن شئت أرسلته مرة أخرى وثانياً وثالثاً إلى هذا العالم أو غيره بتناسخ الأرواح».

وموجز القول أن اليزيدية نحلة وثنية لفقتها مما في الديانات والوثنيات، فظاهرها الإسلام، وفيها منه كالقرآن الذي يتلونه، وفيه من المسيحية والمجوسية وغيرها من الوثنيات، وهي ليست من الإسلام في شيء إلا في قراءة القرآن وبعض أموره، ولكن هذا لا يجعل اليزيدية إسلاماً، لأن ما فيها من الوثنية والكفروالإلحاد يخرجها من الإسلام.

ومرت إشارة إلى «القزلباشية»[1] وسبب تسمية هذه الفرقة بهذا الإسم أنهم يتخذون العمائم الحمر، فسماهم العثمانيون «قزل باش» ومعناه: الرؤوس الحمر، وعمامتهم حمراء ذات اثنتي عشرة عَذَبة تمثل كل واحدة منها إماماً من الأئمة الإثني عشر من ذرية الإمام علي، ويعتقدون أنها عمامته رضي الله عنه.

والقزلباشية فرقة دينية في تركيا تضم أكراداً وتركاً، ويقيمون في الأناضول، وأكثرهم من الترك، ومظهرهم من الشيعة، أو هم من الشيعة الخارجة على الإسلام، ويسمون أنفسهم «العلوية» نسبة إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

ويتركون شعورهم فلا يحلقون الرؤوس ولا يقصون شواربهم، ويتركون لحاهم دون أن يتناولوها كأصحاب السنة وهم ليسوا في حقيقتهم مسلمين وإن ادعوا الإسلام، فهم لا يتوضأون ولا يصلون ولا يصومون رمضان، وإنما يصومون من المحرم اثني عشر يوماً ابتداء من غرته، ويشربون الخمر.

ويعتقدون ان الله عز وجل تجسد في الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويعتقدون أن الله قد تجسد في أناس قبل الإمام علي، منهم سيدنا عيسى عليه السلام، ويتعبدون السيدة مريم ويكرِّمونها بالصلاة لها، كما يصلون لعلي وعيسى وموسى

---

(١) راجع كتاب «الشبك» تأليف الأستاذ أحمد حامد الصراف العراقي، طبع مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤م) وفيه تفصيل في بحث أمثال هذه المذاهب الباطلة والنحل الفاسدة.

وداود إكراماً لهم، وتتردد أسماؤ هم في أدعيتهم وأناشيدهم ولهم صلاة بالليل يؤمهم فيها إمام يترنم بدعاء تساوقه أنغام الموسيقى.

ويعتقدون أن الله واحد في ثلاثة أقانيم، ويأتي بعد الإمام علي في المقام خمسة ملائكة هم وسطاء اللاهوت والناسوت، ولهم كهنة هم وسطاء بين الله والناس.

ويحرصون على بعض الأعياد المسيحية مثل عيد الفصح.

ونحلة القزلباشية وثنية فيها كثير من المسيحية كالعشاء الرباني وغيره، ونحلتهم خليط من الديانات السماوية المحرفة والوثنيات والإسلام الذي يدعونه وهو منهم براء.

وهناك غير القزلباشية فرق ونحل ترتدي رداء الإسلام وهي ليست مسلمة، بل كلها خارجة على الإسلام، وما تزال في العراق وتركيا والشام وإيران والهند وفلسطين حتى اليوم فرق من هذه الفرق استخدمها أعداء الإسلام من شيوعية وصهيونية واستعمار لضرب الإسلام.

وتفصيل القول في هذه الفرق والنحل يستغرق مئات الصفحات، ولا ضرورة لها في مبحثنا هذا، فنحن لا نتقصى الفرق والنحل، بل نذكر الديانات والعقائد، وأما الفرق فيكفي فيها أن نشير إلى أهمها وبعضها، وما تركناه منها ـ وهو كثير ـ لا يخرج عما ذكرناه، وإن اختلف بعضه، وكلها وثنيات فاسدة، ونحل باطلة، وعقائد كفر وشرك وتعطيل وإلحاد.



المَصَادِرُ وَالمراجع

ليس من السهل أن أذكر جميع المصادر والمراجع التي رجعت إليها واعتمدتها في كتابة هذا الفصل، لأنها تعد بالمئات، ولو عددتها كلها لبلغت الألف، وقد جاء في الموضوعات التي بحثتها أسماء كتب كثيرة، وما لم أذكر هو الأكثر، واكتفيت بما ورد ذكره ونقلت عنه.



الخـاتمة

لما كان الله تبارك وتعالى قد أمر ببرِّ الوالدين ، وكذلك رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وجاء في الحديث الشريف عنه ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنْتَفَعُ به ، أو ولد صالح يدعو له » فإنَّ من حق والِدَيَّ عليَّ أن أدعوَ لهما ، لأنهما سبب وجودي وتربيتي وتعليمي .

ومع دعائي لهما أهدي ثواب الانتفاع بهذا الكتاب إلى والدي « عبد الغفور » ووالدتي وزوجتي « أم هشام » .

رحمهم الله رحمة واسعة ، وغفر لهم ، وأنزلهم الفردوس الأعلى بفضله وكرمه . . آمين .

الأثنين ٢٩ صفر ١٤٠١ هـ
٥ يناير ١٩٨١م .

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة



الفهرس

المقدمة	٩
ديانات العرب قبل الإسلام	١٩
العالم في عصر البعثة المحمدية	٩٥
الإسلام دين الرسل جميعاً	١١٤
الله في الإسلام : الألوهية	١٢٩
الرسل عند أتباعهم وفي الإسلام	١٣٦
ميزة التوحيد في الإسلام	١٥٧
اليوم الآخر	١٦٤
القضاء والقدر	١٨٠
القدرية والمعتزلة	١٩١
الجبرية	٢١٦
عقيدة الشيعة الإمامية	٢٣٦
كلمة في القضاء والقدر	٢٤٥
دعاوى وأباطيل	٢٦٠
تفنيد الأباطيل (١) الله في اليهودية والمسيحية والإسلام .	٢٨١
تفنيد الأباطيل (٢) اليوم الآخر في الإسلام والمسيحية واليهودية	٢٩٧

تفنيد الأباطيل (٣) اليوم الآخر في الزرادشتية ٣١٣
تفنيد الأباطيل (٤) اليوم الآخر في ديانات مصر ٣١٧
تفنيد الأباطيل (٥) اليوم الآخر في ديانات الهند ٣٣١
تفنيد الأباطيل (٦) اليوم الآخر في أساطير اليونان وفلسفتهم ٣٣٥
تفنيد الأباطيل (٧) الفرائض والشعائر المتشابهة ٣٤٥
الإسلام والفلسفة والكلام ٣٧١
عقائد ليست إسلامية ٤٦٧
المصادر والمراجع ٥١٠

كتب للمؤلف

أ ـ كتب نفدت

١ ـ كتابي (مجموعات مقالات)

طبع بمطبعة أم القرى بمكة المكرمة ـ حرسها الله ـ سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٤ م).

٢ ـ محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الأولى ، القاهرة ، سنة ١٣٦٢ هـ (١٩٤٣ م).

الطبعة الثانية ، القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .

الطبعة الثالثة ، بيروت ، سنة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب (كتاب جديد غير السابق) .

الطبعة الأولى ، بيروت ، ٣ ذي الحجة ١٣٩١ هـ (٨ يناير ١٩٧٢م.)

الطبعة الثانية ، بيروت ، ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١ (٤ فبراير ١٩٧٢ م .)

الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٠ محرم ١٣٩٢ هـ (٢٤ فبراير ١٩٧٢ م.)

الطبعة الرابعة ، بيروت ، ٥ رجب ١٣٩٢ هـ (٤ أغسطس ١٩٧٢ م .)

الطبعة الخامسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٤ ـ محمد بن عبد الوهاب

(باللغة الأردية ، ترجمة العلامة الشيخ محمد صادق خليل)

الطبعة الأولى ـ لاهور (باكستان) ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

٥ ـ الهوى والشباب (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٧ م) .

٦ ـ الخراج والشرائع

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م).

٧ ـ أريد أن أرى الله (مجموعة قصص).

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م).

الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

٨ ـ المقالات.

الطبعة الأولى ـ القاهرة، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

٩ ـ الهجرة (مسرحية)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

الطبعة الثانية (ضمن مجموعة بحوث تحت عنوان الهجرة) بيروت ، ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

١٠ ـ صقر الجزيرة ، ٣ أجزاء.

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٦ م) .

الطبعة الثانية ـ جدة ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٥٦ م).

الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء في مجلد واحد) جدة ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .

١١ ـ البيان (نقد أدبي)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٤٩ م) .

١٢ ـ الزنابق الحمر (مسرحية لطاغور، مترجمة عن البنغالية)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧١ هـ (١٩٥١ م) .

١٣ ـ المقدمة (دراسة لمعجم صحاح الامام الجوهري)

الطبعة الأولى (كتبت مقدمة لمعجم « تهذيب الصحاح » للزنجاني) القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) .

الطبعة الثانية ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م).

١٤ ـ قطرة من يراع

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) .

١٥ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) .

الطبعة الثانية (صدرت مع معجم الصحاح للجوهري تحت عنوان: « مقدمة الصحاح » (في جزء مستقل) القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

الطبعة الثالثة ـ بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

الطبعة الرابعة ـ مع معجم الصحاح للجوهري ، الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

١٦ ـ مقصورة ابن دريد (بحث تاريخي أدبي)

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

١٧ ـ الاسلام والشيوعية

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٦ م).

الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة) بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م) .

١٨ ـ حرب الأكاذيب

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

الطبعة الثانية ، نشرت بجريدة « عكاظ » الطائف ، سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م.

الطبعة الثالثة ، نشرت في الطبعة الثانية من كتاب « الاسلام والشيوعية » ، بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).

١٩ ـ الفصحى والعامية

الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).

٢٠ ـ عشرون يوماً في الصين الوطنية

الطبعة الأولى ـ تايبيه (الصين الوطنية) سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م).

٢١ ـ الشريعة لا القانون

الطبعة الأولى ـ جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).

٢٢ ـ الاسلام طريقنا الى الحياة

الطبعة الأولى ـ جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).

٢٣ ـ آراء في اللغة

الطبعة الأولى ـ جدة، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤م).

٢٤ ـ كلام في الأدب

الطبعة الأولى ـ جدة ، سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م).

٢٥ ـ المفتش (مسرحية لنقولا جوجول)

الطبعة الأولى ـ دمشق ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م).

الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٢٦ ـ الزحف على لغة القرآن

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٨٥ هـ (١٩٦٦ م).

٢٧ ـ الاسلام خاتم الأديان

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

٢٨ ـ إنسانية الاسلام

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

٢٩ ـ اليهودية والصهيونية

الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).

٣٠ ـ صقر الجزيرة ٧ أجزاء (وهو غير الكتاب السابق).

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م).

٣١ ـ ابن سعود وقضية فلسطين

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٢ ـ الشيوعية وليدة الصهيونية

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٣ ـ الماسونية

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٤ ـ عروبة فلسطين والقدس أصيلة منذ عشرات الآلاف من السنين . والهيكل لم يكن مقدساً عند سليمان واليهود .

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م).

٣٥ ـ حجة النبي ﴿ﷺ﴾

الطبعة الأولى ـ دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

٣٦ ـ مؤامرة الصهيونية على العالم

الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

الطبعة الثانية (خاصة بوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية / بيروت . ١٣٩١ هـ (١٩٧٢ م).

الطبعة الثالثة ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٣٧ ـ بر وتوكولات صهيون (مترجم)
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).
الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

ب ـ كتب محققة نفدت

٣٨ ـ تهذيب الصحاح (معجم لغوي، تأليف الامام الزنجاني) ٣ أجزاء.
بالاشتراك مع الأستاذ عبد السلام هارون
الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م).

٣٩ ـ مقدمة تهذيب اللغة ، للإمام الأزهري
الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

٤٠ ـ ليس في كلام العرب ، للإمام ابن خالويه
الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).

٤١ ـ آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الاسلامية ، لابن خلدون وغيره .
الطبعة الأولى ـ القاهرة ، سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م).
الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م).

٤٢ ـ الصحاح ، للامام الجوهري ٧ أجزاء (منها المقدمة)
الطبعة الأولى ـ القاهرة سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).
الطبعة الثانية ـ بيروت سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

ج ـ كتب مترجمة للمؤلف ، طبعت حديثاً

٤٣ ـ محمد بن عبد الوهاب ، باللغة الانكليزية.
ترجمة الدكتور راشد البراوي
الطبعة الأولى ـ مكة المكرمة ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٤٤ ـ محمد بن عبد الوهاب ، باللغة الأردية
ترجمة الشيخ محمد خليل صادق ، الطبعة الثانية ـ مكة المكرمة ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٤٥ ـ إنسانية الاسلام ، باللغة الانكليزية
الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

د ـ كتب صدرت حديثاً
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

٤٦ ـ الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).
الطبعة الثانية ، بيروت ، سنة ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨ م).

٤٧ ـ أحكام الحج والعمرة من حجة النبي وعمراته
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

٤٨ ـ الحجاب والسفور
الطبعة الأولى ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٤٩ ـ وفاء الفقه الاسلامي بحاجات هذا العصر وكل عصر.
الطبعة الأولى ، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٠ ـ وفاء اللغة العربية بحاجات هذا العصر وكل عصر.
الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥١ ـ دفاع عن الفصحى
الطبعة الأولى ـ بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ ـ (١٩٧٩م)

٥٢ ـ الهجرة
الطبعة الأولى ـ بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٣ ـ الهجرة (مسرحية)
الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٤ ـ جحا يستقبل نفسه
الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٥ ـ ويلك آمن (نقد لبعض آراء الشيخ ناصر الدين الألباني)
الطبعة الأولى ـ بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م).

٥٦ ـ شرح مقصورة ابن دريد، لابن هشام اللخمي. (تحقيق)
الطبعة الأولى بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. (١٩٨٠ م).

٥٧ ـ الشيوعية والإسلام
الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٥٨ ـ اليهودية والصهيونية

الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٥٩ ـ الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. (١٩٨٠ م).

٦٠ ـ الاسلام دين خاص أم عام

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦١ ـ انحسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والاسلام

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦٢ ـ الجوهري

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦٣ ـ أصلح الأديان للبشرية عقيدة وشريعة

الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ .

٦٤ ـ عروبة فلسطين والقدس

الطبعة الثانية ـ مزيدة ومحققة ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م).

٦٥ ـ انسانية الاسلام

طبعة ثانية ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م.)

٦٦ ـ ليس في كلام العرب

الطبعة الثانية مزيدة ومحققة ومفهرسة ، بيروت سنة ١٤٠٠ هـ. (١٩٨٠ م.)

٦٧ ـ الديانات والعقائد في مختلف العصور

أربعة أجزاء في أربعة مجلدات

الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٠ هـ . (١٩٨٠ م.)

٦٨ ـ **الفصحى والعامية** الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠١هـ (١٩٨١م.).

هـ ـ كتب أعيد طبعها

١ ـ حجة النبي ﷺ

الطبعة الثانية ـ دمشق ، سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

٢ ـ صقر الجزيرة ٧ أجزاء.

الطبعة الثانية ـ بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

٣ ـ محمد بن عبد الوهاب

الطبعة الخامسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

الطبعة السادسة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

الطبعة السابعة ، بيروت ، سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م).

و ـ كتب معدَّة للطبع

١ ـ المكتبات
٢ ـ فيصل
٣ ـ مئة كلمة
٤ ـ لا أؤمن بالاشتراكية لأني أؤمن بالاسلام
٥ ـ مع الكتب والمؤلفين
٦ ـ الأسرة
٧ ـ نقد كتاب « كشف الظنون »
٨ ـ مذكرات لارا
٩ ـ قال بيدبا
١٠ ـ خمس دقائق قبل الفطور
١١ ـ وراء القضبان
١٢ ـ ورود من كلام
١٣ ـ العقاد
١٤ ـ مسلمة في سيبيريا
١٥ ـ مع الملوك والرؤساء
١٦ ـ الأدب الضاحك
١٧ ـ الرحلات
١٨ ـ عائشة أم المؤمنين
١٩ ـ في اللغة

ز ـ كتب محققة للطبع

٢٠ ـ الأزمنة ، لقطرب .
٢١ ـ ما اتفق لفظه واختلف معناه ، لأبي العميثل .
٢٢ ـ كشف الظنون ، لحاجي خليفة .
٢٣ ـ مجموعة المعاني (مختارات شعرية) طبعة الجوائب .



طبع بإشراف

دار الأندلس

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان